ملحمة

الإمام علي عليه السلام

أو

القصيدة العلوية المباركة

ملحمة

الإمام علي عليه السلام

أو

القصيدة العلوية المباركة

عبد المسيح الأنطاكي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب : ٧١٢٠

الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

تعريف بالملحمة وصاحبها

الناظم :

هو عبد المسيح بك المسيحي الأنطاكي الحلبي ولد في أنطاكية من أبوين مسيحيين ، ونشأ في حلب الشهباء في شارع «قسطل المشط» الذي يكون أكثر سكانه عرب مسلمون ، وتوفق إلى أصدقاء علماء وشعراء وسياسيين من المسلمين فترعرع بينهم ، ورأى منهم حسن المعاملة له ولعائلته بخلاف ما كان يسمع من أفواه عشيرته المسيحيين ضد العرب والمسلمين ، فتربى على أيديهم وعلى رأسهم أستاذه العلامة الكبير المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي «أم القرى» و «طبائع الاستبداد» .

هو أول من نادى بالقومية العربية وإنشاء دولة عربية واحدة مستقلة ذات سيادة منفصلة عن الأتراك وعن الشرق والغرب ، واتصل لهذا الغرض بزعماء العالم العربي وكثيرين من شيوخ وأُمراء وسلاطين العرب ، ونال الحظوى منهم بالمراسلة ، وأنشأ لذلك مجلته المعروفة باسم «الشذور» في حلب سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ فحاربته الحكومة التركية تحت قيادة السلطان عبد الحميد واضطهد من قبل مأجوري السلطان

أشد الاضطهاد بحجة أنه يفرق بين العرب والأتراك وحمل عليه في جرائد المؤيد والعلم والشعب الصادرة سنة ١٩٠١ ـ ١٩١١ م ، وهجر وطنه الأم وانتقل إلى مصر فبقي فيه ، وأنشأ جريدته باسم «الشهباء» ثم حولته باسم جريدة «العمران» .

جال على البلاد العربية لهذا الغرض أي استقلال الدول العربية من السلطنة العثمانية وتأليف «ولايات متحدة» على غرار الولايات المتحدة الأمريكية فزار كل من الجزائر وتونس وليبيا والمغرب وبعض البلاد العربية في الخليج وفي أثناء هذه الجولة نشبت الحرب العالمية الثانية واستعار لهبها في ١٤ أغسطس سنة ١٩١٤ م بقيادة الألمان الهتلرية وخمدت نارها يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بسقوط النازية الألمانية ونجاح الحلفاء ، فمن نصيب العرب من هذه الحرب العظمى استقلالهم وانفصالهم عن الدولة العثمانية وإلى الأبد .

ومن بعد الحرب العالمية الثانية التي لم تعهد التاريخ مثل ويلاتها وضحاياها التي تسببت إلى فقر شديد وغلاء في الأسعار بالنسبة إلى عامة الناس اضطر الشاعر إلى السفر إلى جهة يؤمن فيها المعيشة له ولعائلته فنزل في الخليج على أمير المحمرة آنذاك الشيخ خزعل خان الذي امتاز بحب آل بيت الرسول الطاهرين فأكرمه وأحسن إليه فصار من محبيه ومن ندمائه وشاعره الخاص ، فصار يمدحه في شتى المناسبات بقصائده الرنانة ، وسهر على تعليم وتأديب أولاد الأمير الستة الشيخ جاسب وعبد الحميد وعبد الله وعبد العزيز وعبد الكريم وعبد المجيد .

ثم بدأ بنظم قصيدته العلوية المباركة هذه التي هي أول ملحمة عربية هائية على الإطلاق وتاريخ شعري لصدر الإسلام فبلغ عدد أبياتها

٥٥٩٥ بيتاً تضمنت الحوادث التاريخية التي حدثت في عهد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) منذ ولادته إلى يوم استشهاده وقد مدح الشيخ خزعل في هذه الملحمة في مناسبات عديدة حذفناها لتكون الملحمة خاصة بالإمام علي (عليه السلام) من غير مدح لسواه . وكان أول بدء نظم هذه القصيدة في أول شهر فبراير سنة ١٩١٧ م وآخره في يوم ٣٠ سبتمبر من سنة ١٩١٨ ، وقضى في نظم هذه القصيدة المباركة وشرحها وتهذيبها والتعليق عليها حوالي سنتين ثم باشر بطبع هذه العلوية في مطبعة رعمسيس بالفجالة بمصر وكان الفراغ من طبعها يوم الاثنين ١٦ رجب من سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٣/ نيسان/ ١٩٢٠ م .

وقد أخذت هذه المؤسسة على عاتقها بنشر هذه الملحمة للمرة الثانية بصورة ممتازة تليق بساحة صاحب هذه الملحمة إنه من وراء القصد .

بيروت في ١٩٩١/٤/١ الموافق ١٦/ رمضان/ ١٤١١ هـ

حسين الأعلمي

بِسْمِ اللهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

المقــدمة

أَزِيْـنُ مَلْحَـمَتِـيْ ٱلْغَـرَّا وَأُحْـلِيْهَـا ... بِحَمْـدِ رَبِّيَ فَلْيَحْمَـدْهُ قَـارِيْهَـا[1]

وَبِـآلـصَّـلاٰةِ عَلَىٰ طَـهَ وَحَـيْـدَرَةٍ ... قَـدْ كُنْتُ بَـادِءَهَـا بِـرّاً وَمُنْهِيْهَـا

وَبَعْـدُ قَـدْ وَفَّقَ ٱللَّهُ ٱلْعُبَيْـدَ إِلَـىٰ ... هٰذِيْ ٱلْقَصِيْـدَةِ مَعَ ضَافِي حَوَاشِيْهَا

---

(١) عنيت على نـوع خاص أن أجعـل القصيدة المبـاركة العلويـة تاريخـاً شعريـاً لصدر الإسلام لا يتخلله نثر أبداً ويعرف الشعراء مـا في ذلك من الـوصب ولكنه وصب محبـوب لقلبٍ شغف بثاني الكـاملين وأخي الرسـول الأمين أحد سيـدي الثقلين سيدنـا علي بن أبي طالب أبي الحسنين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام .

ولقد دعوت هذه القصيدة المباركة باسم « ملحمة » اتباعاً للمغـاربة الـذين أطلقوا هـذه الكلمة على مـا وضعوه نثـراً أو نظمـاً من وقائعهم الحـربيـة وقصصهم التـاريخيـة ونوادرهم الأدبية ويجمل بنا في هذا المقام أن نشيـر إلى هذه المـلاحم العربيـة كتوطئـة لبيان مزية هذه القصيدة المباركة في عالم الشعر فأقول :

لقد خلق الله العرب ذوي سليقة شعرية بطبيعتهم وهي التي جعلت لغتهم على ما هـو معروف من سعـة ألفاظهـا وكثرة كنـاياتهـا تلك الصفة الشـريفـة التي جعلت الشعـر العربي تاريخاً حيّاً للعرب حتى عرفنا من قليل مـا اتصل إلينـا منه شيئـاً كثيراً عن تـاريخ جاهليتهم بينما يرجع النـاس في قدائم تـواريخ الأمم إلى مـا تركـوه من حجارة منقـوشة وأنصاب مدفونة .

=

نَـظَمْتُ سِيْـرَةَ مَـوْلاَنـا أَبِي حَسَنٍ   فِيْهـا عَلَى قَـدْرِ إِدْراكِي خَـوَافِيْهـا
فَمَـا عَـرَفْتُ لَـهُ فِي آلـدِّيْنِ مَـأْثَـرَةً   إِلاَّ وَكُنْتُ مَـعَ آلْإِخْـلاَصِ رَاوِيْهَـا
وَبَـعْضُ آثَـارِهِ مَـا جِئْـتُ أَذْكُـرُهُ   وَلَمْ أَزَلْ عَـاجِـزاً عَنْ ذِكْـرِ بَـاقِيْهَـا

= ولقد جال الشعراء العرب بشعرهم في جميع ما عرض لهم من المعاني كالنزل والنسيب والخمريات والزهريات والحكم والحماس والفخر والمدح والهجاء والرثاء فأبدعوا ما شاء الإبداع وأبقوا لنا عقوداً يتحلى بها جيد الأدب العربي وكان ذلك منهم في الجاهلية والإسلام إلى يوم الناس هذا .

ولم يفت العرب الشعر القصصي فاشتغل به شعراؤهم وأُدباؤهم إلاّ أنني لم أرَ واحداً منهم تفرّغ إلى قصة معينة أو فصل من تاريخ أو واقعة من الوقائع فنظمها قصيدةً واحدةً أو مجموعة قصائد على نحو ما فعل هوميروس اليوناني في إلياذته التي نقلها إلى العربية شعراً سليمان أفندي البستاني الشهير ودانتي التلياني في جحيمه والفردوسي الفارسي في شاهنامته وكنت سمعت أن كتاب كليلة ودمنة الشهير قد نظمه شعراً أحد شعراء العرب ولكني لم أتوفق إلى الاطلاع على نسخته الشعرية وكل ما أمامي من الشعر الذي يصحّ أن يطلق عليه اسم « الشعر القصصي » هو قصة عنترة وسيرة بني هلال وما كان من هذا النوع من موضوعات العرب لما فيه من الرواية إلاّ أن واضعي هذه القصص جعلوها خليطاً بين النثر والنظم فنظموا فيها قطعاً من الشعر القصصي ومزجوها بما نثروا من قصصهم وهكذا بقي الشعر العربي خلواً من قصيدة جامعة يصحّ أن يطلق عليها بكل المعنى اسم « الشعر القصصي » .

والذين حدثونا عن كتاب كليلة ودمنة الشعريّ قالوا : انه كان مجموعة قصائد على بحور وقوافٍ مختلفة فإذا صحت روايتهم فيكون كترجمة الإلياذة إلى الشعر العربي بقلم سليمان أفندي البستاني وقد نظمها أيضاً على أوزان مختلفة وقوافٍ متنوعة .

ولقد تعرّض بعض الشعراء إلى نظم بعض العلوم أراجيز شعرية كقصيدة ابن سيناء في الطب وأشباهها كثير مما نظم في الدين والفقه والنحو ولكن ليس للأراجيز المرتبة العليا التي لغيرها من بحور الشعر لما تعلم من كثرة الإباحة والتوسع في الوزن وعدم تقيد الشاعر بالقوافي وهي أقرب إلى النثر المسجع من الشعر المنظوم .

ويجوز لنا أن نطلق على سبيل التوسع اسم « الشعر القصصي » على القصائد=

تُحْصَىٰ ٱلنُّجُومُ وَلَا تُحْصَىٰ مَنَاقِبُهُ ... فَكَيْفَ لَا يُدْرِكُ ٱلْإِعْيَاءُ مُحْصِيْهَا

مَنْ يَرْجُ أَنْ يَتَوَلَّىٰ مَدْحَ حَيْدَرَةٍ ... بِغُرِّ آثَارِهِ وَصْفاً وَتَشْبِيْهَا

رَجَا ٱلْمُحَالَ وَأَعْيَا عَنْ بُلُوغِ أَمَا ... نِيْهِ مِنَ ٱلْمُرْتَضَىٰ أَوْ مَا يُدَانِيْهَا

= التي نظمت في مدائح المصطفى والمرتضى صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم لما تضمنته من بعض مواقعهما أو من طُرَف تاريخيهما إلّا أننا لم نجد في إحدى هذه القصائد الكثيرة التي تترنم بتلاوتها قصيدةً واحدةً توخى صاحبها نظم السيرة المباركة من أولها إلى آخرها فجمع شواردها وقيد أوابدها وترك قارءَها أن يقف منها على تلك السيرة المباركة بحذافيرها .

وإني وإن كنت أعرف عجزي وأعترف به فقد أقدمت على وضع هذه القصيدة العلوية المباركة على طرازٍ يصحّ لي أن أقول أنّ شعراء العرب لم ينسجوا على منواله ولا أتوا بمثاله فهي نسيجٌ وحده جمعت فأوعت سيرة أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله منذ تشرّف هذا الوجود بوجوده إلى يوم امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم ـ لعنه الله ـ وما اكتفيت بهذا بل شفعته بمناقبه العالية وحكمه السامية ونوادره الباهرة وآثاره الزاهرة وجاءَت القصيدة على طولها بوزن واحد وقافية واحدة فكانت ملحمةً عربيةً فذّةً في بابها مطربة قلوب قرائها وطلابها .

أمّا لفظة « ملحمة » التي أطلقتها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً للمغاربة فمعناها اللغوي « الوقعة العظيمة » ولعلّها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال أي اشتبك بعضهم ببعضٍ . أو ربما قصد المغاربة باسم « الملحمة » الذي أطلقوه على القصائد التي لا ذكر فيها للقتال أيضاً « الأحكام » من قولهم لحم الأمر أي أحكمه . ومن هذين المعنيين أطلق القوم على المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم لقب « نبيّ الملحمة » وقالوا في تفسيره « نبيّ القتال » أو « نبيّ الصلاح وتأليف الناس » . ويصح أن نقول أنّ لفظة « الملحمة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه أي نظمه وذلك لتشبيههم بيت الشعر ببيت الشعر أو بالثوب المحوك ومن هذا اشتقت لفظة « الملحمات » التي أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجرير والأخطل وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الإشارة إلى أنّ هذه القصائد كانت محكمة النظم متألفة الأجزاء حسنة السبك .

وبعد هذه التوطئة الوجيزة أتقدم من العالم العربي عموماً ومحبي سيدنا أمير =

فَهٰـذِهِ يَـا ذَوِي ٱلْأَلْبَـابِ مَلْحَمَتِيْ   أُمْلِيْ عَلَيْكُمُ بِـاَلتَّقْـوَىٰ أَمَـالِيْهَـا
وَإِنَّهَـا خَيْـرُ تَـارِيْـخٍ لِنَشْـأَةِ دِيْــنِ ٱللَّهِ مَعَ مَا جَرَىٰ بَيْنَ ٱلْوَرَىٰ فِيْهَا
وَقَدْ جَهَدْتُ عَلَىٰ عَجْزِيْ وَنِيَّةُ إِخْــلَاصٍ لِبَيْتِ رَسُوْلِ ٱللَّهِ أَنْوِيْهَـا
أَنْ أُدْرِكَـنَّ بِهَـا رِضْـوَانَ حَيْـدَرَةٍ   وَمَنْ بِـهِ شَغَفُـوا حُبّـاً وَتَـدلِيْهَـا
وَتِلْكَ بُغْيَـةُ مَمْلُوكِ ٱلْمُعِـزِّ حَبِيْــبِ ٱلْمُرْتَضَىٰ مَا سِوَاهَا رُحْتُ أَبْغِيْهَا

= المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات الله خصوصاً بقصيدتي العلوية المباركة ذاكراً لها ما لا بدَّ من ذكره فأقول :

إنّ القصيدة العلوية المباركة هي أولى القصائد التي ظهرت في الشعر العربي فكانت نسيجاً وحده لأنّي ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد كما أنها أطول قصيدة في لغة العرب على الإطلاق . وقد قسمتها إلى فصول جعلت لكل فصل عنواناً يعين المطالع على إدراك مراميها واستقراء معانيها وهي تقسم إلى قسمين أولهما تاريخ أمير المؤمنين عليه صلوات الله منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم لعنه الله فكان سيد الشهداء والقسم الثاني خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين وفيه تظهر صورة هذا الإمام النفسية مكرةً بأنوارها الساطعة وأشعتها اللامعة على قدر ما يدركه عاجز مثلي . وقد عنيت عنايةً خاصةً بنظم كثير من خطب وأقوال ورسائل ومواعظ أمير المؤمنين عليه صلوات الله . وفي ذلك جرأةٌ أدبيةٌ على الكلام العلوي الذي قيل فيه بحق أنّه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق وأرجو أن يغتفر الأمير جرأتي « عليه صلوات الله » بما وضح لحضرته الحيدرية القدسية من حسن نيتي وفرط محبتي . هذا ولم أكرر قافية في فصل مهما كان طويلاً . وتحاشيت حوشيّ القوافي على قدر جهدي . وبعدت عن الجوازات الشعرية فما استجذت منها غير القليل النادر . واتباعاً لأهل الغرب دعوتها « ملحمةً » وهو أقرب الأسماء إليها وذيلت هذه القصيدة المباركة بحواشٍ كانت تاريخاً صحيحاً لصدر الإسلام ونشرت في هذه الحواشي ما نظمته من كلام أمير المؤمنين تشريفاً له . وبذلت كل ما في طوقي لتكون هذه القصيدة المباركة حرية بمن نظمت فيه عليه صلوات الله . وانّي لمعترف بأن المدد العلوي الروحاني هو الذي وفّقني إلى هذا العمل العظيم . وإني لأسأل الله سبحانه أن يقيني العثار والذلل .

عطف أمير المؤمنين
على ناظم هذا العقد الثمين

رؤيا روحية وتجليات سنية

بُشْـرَى فَنَفْسِي قَـدْ نَـالَتْ أَمَـانِيْهَـا   فَمَـا أَنَـا فَـوْقَ مَـا نَـالَتْ أُمَنِّيْهَـا(١)

بُشْـرَى لَهَـا بَلَغَتْ أَسْمَى مَـطَالِبِهَـا   وَآلـدَّهْـرُ أَضْحَى بِمَـا تَبْغِي يُؤَاتِيْهَـا

وَأَيُّ مَفْخَـرَةٍ تَـرْجُـوْ وَقَـدْ كَسَبَتْ   مِنَ آلْمَفَـاخِـرِ وَآلْأَلْـطَافِ عَـالِيْهَـا

---

(١) انصـرفت إلى نظم هـذه القصيدة المبـاركة كلفـاً بسيدنـا أمير المؤمنين عليـه صلوات الله خـاليـاً من كـلّ تكلّف ولكي ألمَّ بـالسيـرة وأنف على مـا فيهـا من الشؤون الخطيرة عكفت على التواريخ المختلفة التي وضعت لصدر الإسلام أدرسها درساً لأوفق بين رواياتها المتضاربة وأنقد صحيحها من فاسدها وراجحها من مرجوحهـا فكنت أحيي في هـذا العمل الشـاقّ الليـالي الـطوال وكنت كلمـا تعمّقت في الـدرس وتـوسعت في المطالعة أزداد ولهاً بذلك الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام وأفضى بي هذا الوله إلى تمثل شخصه المقدس عليـه صلوات الله في يقظتي ومنـامي على حدّ قول ابن الفارض :

جـمـالـكـم نـصـب عـيـنـي   إلـيـه وجـهـت كـلـي

وسـرّكـم فـي ضـمـيـري   والـقـلـب طـور الـتـجـلّي

وقـد أبى المـرتضى عليـه صلوات الله إلاّ أن يشفق على هـذا العـاشق المفتـون وينعطف نحوه فتفضل على جلال قـدره ونظر إلى أحقـر عبيده بلطفـه المتناهي وأمـدني بـروحـانيتـه القـدسيـة في ليلة الأحـد ١١ جمـادى الثـانيـة سنـة ١٣٣٦ « ١٤ مـارس =

وَأَصْبَحَتْ تَزْدَرِي أَسْنَى ٱلرَّغَائِبِ إِذْ ... بِٱلنُّجحِ قَدْ كَلَّلَ ٱلْبَارِيْ مَسَاعِيْهَا
وَإِنَّهَا حُرَّةٌ فَٱسْتُعْبِدَتْ بِسَجَا ... يَا ٱلْمُرْتَضَى فَرَأَى فَضْلاً تَأَمِّيْهَا
وَقَدْ أَوَتْ ظِلَّهُ رَغْداً وَهَا هِيَ فِيْ ٱلـ ... ـنَّعْمَاءِ تُثْنِيْ عَلَى إِحْسَانِ مُؤْوِيْهَا

= سنة ١٩١٨ » فكانت لي تلك الليلة المباركة ليلة القدر وهي خير من ألف شهر توازي كل ما قضيته وأقضيه من ليالي العمر في الصفو والبشر ، نعم في تلك الليلة المباركة عند منتصف الليل بينما كنت كعادتي معتكفاً على مكتبي أشتغل في نظم هذه القصيدة الفريدة غفت عيناي فانكببت على وجهي وإذا بي قد انتقلت من عالم الحسّ إلى عالم المسجدية بين محو وإثبات وتغيير وتبديل وأرى أنّ كل ما تجود به القريحة هو. وفي الحال دخل عليّ رجل لا أعرفه طويل القامة مفتول الساعدين معكوف الشاربين ذو لحية كثة سوداء غير مستطيلة وعلى رأسه عمامة سوداء وعلى كتفيه عباءة سوداء مثلها وهو شاك سيفه فسلّم وقال : هل أنتِ مملوك عبد المسيح ؟ قلت نعم ؟ قال هيَّ بنا . قلت إلى أين يا سيدي ومن يطلبني ؟ قال سوف تعرف . قلت كيف يا سيدي تأخذني لمكان مجهول ؟ قال أو ما أنت محبّ آل البيت الطاهر ؟ قلت عليهم صلوات الله أجمعين والله المسؤول أن يوفقني إلى حبّهم . قال إذن ممَّ تخاف ؟؟؟ فخجلت من نفسي على ما ظهر من ترددي وجزعي وسرت بين يدي ذلك الرجل الغريب العجيب حتى إذا ما خرجنا من باب الدار وجدت جواداً مسرجاً من أكرم الجياد فتناول صاحبي زمامه وركب وأردفني وراءه وأخذ الجواد ينهب بنا الأرض نهباً في أسرع من خطرات البرق الخاطف وما زال يعدو بنا فيجتاز البراري والقفار والنجاد والوهاد حتى وصلنا إلى روضة غناء فيها من كلِ فاكهة زوجان تجري من تحتها الأنهار وأشجاني تغريد البلابل على أفنانها فوددت لو أُتيح لي الإقامة في تلك الروضة الأريضة برهة من الزمن أُسبّح فيها الخلاق العظيم . على أنّ الجواد ما زال في عدوه حتى وصل بنا إلى بناء رحب كثير الزخرف أُقيمت فيه القبب الموشاة بالذهب الوهّاج ومن حولها المآذن كالعرائس فقلت إنّه مسجد عظيم وجامع فخيم وهناك وقف الجواد فنزل صاحبي وأنزلني وقال : هل أنت تعب ؟ قلت كلا . ولكن هلاّ أخبرتني على من نحن قادمون ؟؟ قال سوف تعرف فتأدّب فلزمت الصمت واتّبعت خطوات صاحبي الذي دخل بي فناءً واسعاً مفروشاً بالمرمر الناصع البياض في وسطه حوض واسع تتدفق منه المياه تدفقاً وحوله الزهور والرياحين تنعش القلوب والأطيار تتغنى على الأشجار وتنتقل بين الأزهار والأثمار =

أبو محمد الله زاد الله أعماره

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ ٱلْقَدْرِ زَاهِرَةٍ ... بِنَظْمِ مَدْحِ عَلِيٍّ كُنْتُ أُحْيِيْهَا
كَرَيْتُ فِيهَا وَعَيْنِي قَبْلُ مَا عَرَفَتْ ... مَا دُمْتُ أُشْغِلُهَا فِيْهِ تَكَرِّيْهَا
وَبَيْنَمَا كُنْتُ فِيْ سَهْوٍ وَفِيْ سَكَنٍ ... أَخْلُوْ بِنَفْسِي سَاجِيْ ٱلْعَيْنِ غَافِيْهَا
إِذَا بِقَرْمٍ مَهِيْبٍ جَاءَ يَطْلُبُنِيْ ... لِصُحْبَةٍ لَمْ أَكُنْ تَاَللَّهِ رَاجِيْهَا
فَقَالَ: هَيَّ بِنَا أَسْرِعْ فَقُلْتُ: إِلَى ... أَيِّ ٱلْمَسَالِكِ تَدْعُونِيْ لِأَطْوِيْهَا
وَمَنْ مِنَ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْنِيْ وَكَيْفَ أَنَا ... أَسِيْرُ فِيْ وِجْهَةٍ تَخْفَى مَمَاشِيْهَا
نَادَى: أَلَسْتَ بِآلِ ٱلْبَيْتِ أَجْمَعِهَا ... لَقَدْ تَوَلَّهْتَ يَاٱبْنَ ٱلْوِدِّ تَوْلِيْهَا
أَجَبْتُهُ: بِنَعَمْ وَٱللَّهُ أَسْأَلُهُ ٱلْـ ... ـتَّوْفِيْقَ وَٱلْعَوْنَ لِيْ حَتَّى أُرَاضِيْهَا
فَقَالَ مِمَّ إِذَنْ أُلْفِيْكَ مُضْطَرِبَاً ... وَأَيُّ نَازِلَةٍ تَخْشَى دَوَاهِيْهَا
خَجِلْتُ وَٱللَّهِ مِمَّا قَدْ سَمِعْتُ وَمِنْ ... مَخَاوِفٍ سَاوَرَتْ نَفْسِيْ فَوَاجِيْهَا
وَسِرْتُ أَتْبَعُهُ لِلْبَابِ حَيْثُ عَلَا ... مَتْنَ ٱلْمُطَهَّمِ هَانِيْ ٱلنَّفْسِ رَاضِيْهَا
وَقَالَ: إِنَّكَ رِدْفِيْ ثُمَّ أَرْدَفَنِيْ ... وَجَدَّ فِيْ سُبْلِهِ يَطْوِيْ مَوَامِيْهَا
فَمِنْ قِفَارٍ إِلَى رَحْبِ ٱلْعُهُوْدِ إِلَى ... جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقَدْ فَاحَتْ شَوَاذِيْهَا
إِلَى قُصُورٍ لَقَدْ دَلَّتْ فَخَامَتُهَا ... عَلَى فَخَامَةِ بَانِيْهَا وَثَاوِيْهَا
أَسْوَارُهَا تَنْطَحُ ٱلْأَفْلَاكَ شَاهِقَةٌ ... فِيْهَا ٱلْمَآذِنُ تَسْتَجْلِيْ دَرَارِيْهَا

= فخلتني في جنّات النعيم وبينما أنا مغتبط بما أرى سمعت صوتاً رخيماً له رنّات كرنّات المثالث والمثاني يقول: « بشراك بشراك فإنّ مدحتك السنية لقد قبلت وقد نلت عالي الرضاء فافخر.

فلما سمعت هذه الكلمات الطيبة اغتبطت نفسي وبينما أنا متهلل بهذا الدعاء المستجاب إن شاء الله تعالى فتحت عينيَّ فوجدت نفسي على متكئي وبين يدي تلك القصيدة المباركة فتفاءلت واستبشرت وصلّيت على النبي وآله.

وَفَوْقَهَا قِبَبٌ تَزْهُوْ زَخَارِفُهَا ٱلْـ ـحَسْنَاءُ وَٱلذَّهَبُ ٱلْإِبْرِيْزُ غَاشِيْهَا
فَقَالَ لِيْ صَاحِبِيْ: فَٱنْزِلْ بِنَا فَهُنَا «رَبُّ ٱلْأَيَادِيْ ٱلَّتِيْ مَا خَابَ رَاجِيْهَا»
وَقَالَ: هَلْ أَنْتَ مُعْيِي قُلْتُ: لَا أَبَداً لَكِنْ عَلَى مَنْ قَدِمْنَا قَالَ لِيْ: إِيْهَا
فَسَوْفَ تَعْرِفُهُ فَٱلْزَمْ بِحَضْرَتِهِ ٱلآ دَابَ يَا صَاحِبِيْ مَا دُمْتَ لَاقِيْهَا
ثُمَّ دَخَلْنَا فِنَاءً أَرْضُهُ فُرِشَتْ بِمَرْمَرٍ وَهْيَ فِيْ أَسْنَى مَجَالِيْهَا
وَٱلْحَوْضُ فِيْ وَسْطِهَا مِنْهُ ٱلْمِيَاهُ جَرَتْ إِلَى جَنَائِنِهَا ٱلْغَنَّاءِ تَسْقِيْهَا
وَٱلطَّيْرُ تَصْدَحُ مَا فَوْقَ ٱلْغُصُونِ فَيُشْـ ـجِيْ ٱلسَّمْعَ شُحْرُوْرُهَا ٱلشَّادِيْ وَقُمْرِيْهَا
فَخِلْتُنِيْ فِيْ جِنَانِ ٱلْخُلْدِ مُغْتَبِطاً فِيْهَا فَطُوْبَى لِتَاقٍ فَائِزٍ فِيْهَا
هُنَاكَ قَدْ صَاحَ بِيْ صَوْتٌ وَرَنَّتُهُ كَرَنَّةِ ٱلآيِ إِذْ تُتْلَى مَثَانِيْهَا
وَقَالَ: بُشْرَاكَ فَٱفْخَرْ إِنَّ مِدْحَتَكَ ٱلْـ ـغَرَّاءَ مَقْبُوْلَةٌ بِتْنَا مُثِيْبِيْهَا
وَقُلْتُ فِيْ مَوْقِفِيْ وَٱلْبُشْرُ يَمْلأُ نَفْـ ـسِيْ وَهْيَ شَاكِرَةٌ شُكْراً مُنَاجِيْهَا
مَوْلَايَ مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ ٱلثَّنَاءَ عَلَى جَدْوَاكَ أُذْكُرُهَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَاسِيْهَا
بِحُلْيَةٍ مِنْ بَدِيْعِ ٱلنَّظْمِ رَائِعَةٍ جِيْدُ ٱلزَّمَانِ تُحَلِّيْهِ لَآلِيْهَا
وَٱللَّهِ مَلْحَمَةُ ٱلْيُوْنَانِ ضَائِعَةٌ بِهَا وَإِنْ كَانَ هُوْمِيْرُوسُ مُنْشِيْهَا
وَفَضْلُهَا أَنَّهَا فِيْ ٱلْمُرْتَضَى نُظِمَتْ وَمِنْ مَحَامِدِهِ ٱسْتَوْفَتْ مَبَانِيْهَا
وَمِنْ مَدَائِحِهِ نَالَتْ مَحَامِدَهَا وَمِنْ بَلَاغَتِهِ ٱسْتَوْحَتْ مَعَانِيْهَا
ذَاعَتْ فَوَاتِحُهَا مِنْ قَبْلُ أَنْ كَمُلَتْ فِيْ ٱلْخَافِقَيْنِ وَغَنَّاهَا مُغَنِّيْهَا
وَسَوْفَ تُصْبِحُ بِٱلْأَفْوَاهِ مُنْشَدَةً بَيْنَ ٱلْأَعَارِبِ فِيْ أَنْأَى بَوَادِيْهَا
وَيَحْمَدُ ٱلْمُنْشِدُوْنَ ٱلْمُطْرَبُونَ بِهَا مَنْ بِٱسْمِهِ جُلِيَتْ جَلْيَاً قَوَافِيْهَا
وَبَيْنَمَا كُنْتُ فِيْ هَذَا ٱنْتَبَهْتُ إِلَى نَفْسِيْ وَبِٱلْمُرْتَضَى ٱلرَّاضِيْ أُهَنِّيْهَا

ثُمَّ آنبَرَيْتُ إِلَى آلْقِرْطَاسِ أَنْظِمُ رُؤْ يَـايَ آلَّتِي كُنْتُ بِـآلتَّـوْفِيْقِ رَائِيْهَـا
رُؤْيَا حَسَدْتُ عَلَيْهَا آلنَّفْسَ وَهْيَ بِهَا فِيْ حُبِّ حَيْـدَرَةٍ تُبْدِيْ تَفَـانِيْهَـا

إلى العتبات الحيدرية

هَيُّـوْا بِنَا لِنَـزُوْرَ آلْمُـرْتَضَى بِتُقَى زِيَـارَةً يَحْمَـدُ آلْمَسْعَى مُـؤَدِّيْهَـا
وَنَنْبَـرِيْ فِيْ مَقَـامَـاتٍ مُشَـرَّفَـةٍ بِـهِ نُحَيِّيْ مَعَ آلْإِجْـلَالِ ثَـاوِيْهَـا
هـذِيْ مَـوَاطِنُـهُ آلْعَلْيَا لَقَـدْ رَحِبَتْ بِقَـاصِـدِيْهَـا آلْأُلَى وَافُـوْا مَغَـانِيْهَا
تَسَـابَقُـوْا فَـطَوَوْا نَـائِي آلـدِّيَـارِ إِلَيْـــهَا وَآسْتَحَثُّوْا آلْمَذَاكِيْ فِيْ تَخَطِّيْهَا
لِـيَلْثِمُـوْا عَتَبَـاتٍ نَـالَ لَاثِمُـهَـا آمَـالَـهُ وَعَـلِيٌّ آلْبَـرُّ مُـوْلِيْـهَـا
وَهْـوَ آلْمُدِلُّ عَلَى آلـرَّحْمٰنِ خَـالِقِـهِ بِـآلصَّـالِحَـاتِ آلَّتِي قَـدْ كَـانَ آتِيْهَا
هَيُّـوْا إِلَيْـهِ لِنَجْلُوْ عِنْـدَ سَـاحَتِـهِ عَنِ آلصُّـدُوْرِ إِذَا ضَـاقَتْ دَوَاعِيْهَـا
وَنَـطْلُبَ آلْمَـدَدَ آلْعَـالِيْ لِأُمَّتِـنَـا بِــهِ تَنَـالُ مِنَ آلـدُّنْيَـا أَمَـانِيْهَـا

على أبواب العلوية المباركة

هنـا عَيِيتُ فَـلَا عِـلْمِيْ وَلَا أَدَبِـيْ وَلَا آلْقَوَافِيْ آلَّتِي أَخْضَعْتُ عَاصِيْهَا
وَلَا سَمَـاعِيْ كَلَامَ آلْعُـرْبِ أَجْمَعِهَا مَـأْنُـوْسَهَـا بَيْنَ أَقْـوَامِيْ وَحَـوْشِيْهَـا
وَلَا مَغَـارِيْ عَلَىٰ مَـا حبَّـرَ آلْأُدَبَا مِنَ آلنَّفَـائِسِ فِيْ زَاهِيْ مَعَـانِيْهَـا
بِمُبْلِغِيْ رَغْبَـةً مَـا نَـالَهَـا بَشَـرٌ قَـبْلِيْ وَبِـتُّ بِهَـا نَـفْسِـيْ أُمَنِّيْهَـا
مِنْ أَيْنَ لِيْ لَـوْ بَذَلْتُ آلْعُمْـرَ أَجْمَعَهُ فَضَـائِلُ آلْمُـرْتَضَى آلـزُّهْـرَا أُجَلِّيْهَـا
وَهَـلْ تُصَوِّرُهَـا هذِيْ آلْحُـرُوْفُ وَمَا يُنْبِيْ عَلَيْـهِ مِنَ آلْمَعْنَى تَجَمِّيْهَـا
يَـا لَيْتَ لِيْ شُهُبُ آلْأَفْلَاكِ أَنْـظِمُهَـا شِعْـرَاً وَإِنْ عَجِزَتْ عَنْ أَنْ تُحَـاكِيْهَا

لَكُنْتُ آتِيْ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِهَا مَنْظُوْمَةً تُطْرِبُ ٱلدُّنْيَا رَهَاوِيْهَا

تَطَاوَلَتْ هِمَّتِيْ لِلشَّمْسِ أَحْسِبُنِيْ أَدْنُو إِلَيْهَا وَأَبْعِدْ أَنْ أُدَانِيْهَا

أَوْ إِنَّ نَفْسِيْ بِنَيْلِ ٱلْمُسْتَحِيْلِ تَعَلَّـ ـقَتْ فَمَا ٱلْمُمْكِنُ ٱلْمَعْقُوْلُ يُرْضِيْهَا

فَبِتُّ أَخْشَى بِأَنْ تَمْنَى بِخَيْبَتِهَا مِنْ بَعْدِ مَا بَذَلَتْ أَقْصَى مَسَاعِيْهَا

وَلِلْمَطَامِعِ حَدٌّ مَنْ تَجَاوَزَهُ يَعُضُّ أَنْمُلَهُ يَأْسَاً فَيُدْمِيْهَا

وَإِنَّ حَيْدَرَةً وَٱللَّهِ أَطْعَمَنِيْ بِحِلْمِهِ وَهْوَ سَمْحُ ٱلنَّفْسِ سَاخِيْهَا

وَإِنَّنِيْ مِنْ جَدا سَامِيْ مَكَارِمِهِ وَمِنْ مَعُوْنَتِهِ إِذْ أُضْتُ لَاقِيْهَا

قَدْ جِئْتُ قَوْمِيَ أَرْوِيْ عَنْ فَضَائِلِهِ مَا لَوْ تَقَسَّمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُسْمِيْهَا

فَامْدُدْ أَمِيْرِيْ عُبَيْداً يَرْتَجِيْ مَدَدَاً لِقَوْلَةٍ فِيْكَ بَاتَ ٱلدَّهْرُ مُصْغِيْهَا

عَذْرَاءُ مَا جُلِيَتْ قَبْلاً عَلَى أَحَدٍ مِنْ عَاشِقِيْهَا وَظَلَّتْ فِيْ مَخَابِيْهَا

وَإِنَّ حُلْيَتَهَا ٱلْحَسْنَاءَ مِدْحَتُكَ ٱلْـ ـغَرَّاءُ تُبْدِيْ بِهَا ٱلْإِعْجَابَ وَٱلتِّيْهَا

وَهَا هِيَ ٱلْيَوْمَ تَسْعَى سَعْيَهَا بِدِيَا وَ ٱلْعُرْبِ مُبْدِيَةً أَجْلَى تَهَادِيْهَا

فَرَاحَ حَاسِدُهَا وَٱلنَّارُ تَأْكُلُهُ وَعَادَ عَاشِقُهَا بِٱلْمَدْحِ يُطْرِيْهَا

الاستعانة بأمير المؤمنين

أَوْحِ ٱلْبَلَاغَةَ فِيْ أَزْهَى مَجَالِيْهَا فَأَنْتَ سَيِّدُهَا ٱلْأَسْمَى وَمُوْحِيْهَا(١)

أَوْحِ ٱلْبَلَاغَةَ لِيْ حَتَّى أَجُوْلَ بِهَا فِيْ وَصْفِ ذَاتِكَ مَعْ سَامِيْ مَعَانِيْهَا

---

(١) ما اعتاد العرب في جاهليتهم أن يفتتحوا قصائدهم باستمداد معونة جنياتهم اللائي « على زعمهم » كنَّ يوحين إليهم الشعر كما أننا لم نرَ واحداً منهم افتتح قصيدته بالاستعانة بمعبود ممن يعبد سواءُ الإلّه الواحد الواجب الوجود أو الأصنام التي عبدوها إشراكاً أو لله زلفى بل كان شاعرهم يبدأ بموضوعه على هواه مستعيناً بنفسه على نظامه أو بمن تخيل من صاحب له أو صاحبين كما فعل امرؤُ القيس في معلقته المشهورة=

نَعَمْ وَأَطْلِقْ لِسَانِيْ فِيْ مَحَامِدِكَ آلْـــ ـغَـرَّا لأَنْشُـرَ بَـادِيْهَـا وَخَـافِيْهَـا

وَآصْفَـحْ أَبَـا حَسَنٍ عَمَّنْ تَجَـرَّأَ عَنْ حُبٍّ عَلَى مِـدْحَـةٍ تَسْمُـو مَبَـانِيْهَـا

لَوْ لَمْ أَكُنْ طَامِعاً فِيْ رَحْبِ صَدْرِكَ مَا حَـاوَلْتُ وَآللَّهِ أَنْ أَرْوِيْ قَـوَافِيْهَـا

وَدِدْتُ فِيْ نَظْمِهَا لَـوْ أَسْتَعِيْرُ مِنَ آلأَ فْـلاَكِ كَـيْمَـا أُوَشِّيْهَـا دَرَارِيْـهَـا

أَوْ أَنْ تَهَبْنِيْ شُعَـاعَاً مِنْ ذَكَـائِكَ فِيْ تَـرْصِيْفِ أَبْيَـاتِهَـا فِيْـهِ أُحَلِّيْـهَـا

وَقَـدْ طَلَبْتُ بِهَا حُسْنَ آلـرِّضَاءِ فَـإِن تَـرْضَى فَقُـلْ بَلَغَتْ نَفْسِيْ أَمَـانِيْهَـا

= فافتتحها بقوله :

قِفـا نبـك من ذكـرى حبيبٍ ومنـزل بسقط اللوى بين الـدخول فحومـل

فمن هما صاحباه اللذان دعاهما إلى تلك الوقفة المحزنة ؟ لا ندري إلاّ أن يكـونا لسانه وقلبـه غير أنّ العـرب بعد أن جـاءَ الإسلام ودانـوا به طفقـوا يفتتحون مـا يصنفون ويؤلفون بالبسملة اتّباعاً للحديث الشريف القائل : « كـل أمرٍ ذي بـال لا يبدأ فيـه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر . وفي رواية أقطع وفي رواية أخرى أجزم » ولم يقف مؤلفو المسلمين العرب عند حدّ البسملة بل شفعـوها بـالحمد لله والصـلاة والسلام على النبي وتقف بهذا متفننوهم فجعلوا في حمد الله والصلاة على نبيّه إشارة إلى موضوع الكتـاب أو الرسالة . إلاّ أنّ العرب لم يتبعوا هذا في قصائدهم إلاّ ما كان منها من نوع الأراجيـز فقط لسهولة النظم فيها .

على أنّ الشعراء الأجانب في جاهليتهم افتتحوا مـلاحمهم باستمـداد المعونـة في نظمها من آلهة الشعر التي تخيلوها وجعلوها هي المنشدة تورعاً وتديناً كذلك رأينا إليـادة هوميروس التي نقلها إلى العربية شعراً سليمان أفندي البستاني وكان افتتاحها هكذا :

ربّـة الشعـر عن أخيـل بن فيـلا أنشـدينا واروي احتـداماً وبيـلا

وقد حسن لنا هذا الأسلوب في نظم ملحمتنا فبعد أن افتتحنا مقدمة هذه القصيدة بالبسملة والحمدلة والصلاة والسـلام على المصطفى والمـرتضى وآلهما الخيـرين عدنـا إلى الاستعانة تورعاً بـالحضرة السنيـة العلوية مستمـدين إمدادهـا وبالفعـل لم نخب من المدد والعطف على ما سبق الوصف .

وَهَـلْ يَخِيْبُ فَتىً وَافَـاكَ مُلْتَمِسَـاً عَـوْنَاً وَأَنْتَ مُغِيْثُ ٱلنَّـاسِ مُلْجِيْهَـا

حَـاشَـا يَخِيْبُ فَتىً وَافى أَبَـا حَسَنٍ يَـرْجُـوْ مَعُـوْنَتَـهُ مِثْلِيْ وَيَبْغِـيْهَـا

فِيْ نَـظْمِ مَلْحَمَـةٍ كُبْـرَى أَرُوْمُ بِهَـا أَنْ تَطْرَبَ ٱلنَّاسُ مِنْ مُشْجِيْ أَغَانِيْهَا

وَٱلْفَخْـرُ لِيْ أَنَّنِيْ قَدْ رُحْتُ أَنْـظُمُهَا فِيْ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْجُوْ ٱلرِّضَا فِيْهَا

وَحَسْبُهَـا أَنَّهَـا تَحْكِيْ فَضَـائِلَهُ ٱلْـــغَـرَّا وَآثَـارَهُ ٱلـزُّهْـرَا وَتَـرْوِيْهَـا

أَبَـا ٱلْحُسَيْنِ ٱنْعِطَافَـاً لِلْمُحِبِّ وَقَـدْ وَافَى لِسَـاحَتِـكَ ٱلـزَّهْـرَاءِ يُـزْجِيْهَـا

الأمة التي نبغ منها أمير المؤمنين

سِرْ فِيْ ٱلْأَعَارِبِ وَٱنْزِلْ فِيْ مَغَانِيْهَـا وَٱشْهَـدْ مَكَـارِمَ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا

وَٱشْهَد بِمَا قَـدْ رَأَتْ عَيْنَاكَ إِنَّ شَهَـا دَةَ ٱلْعَيَـانِ تُـلاَقِيْ مَنُ يُـذَكِّـيْهَـا

وَصِفْ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْـوَصْفِ ذَا سِعَةٍ خِـلاَلَهَا ٱلـزُّهْرَ مَـعْ سَامِيْ مَبَـادِيْهَـا

نَعَمْ لَقَدْ جُلْتُ فِيْ أَرْضِ ٱلْجَزِيْرَةِ جَوْ لاَتٍ بِهَا جُسْتُ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَـا

مِنَ ٱلشَّـآمِ إِلَى أَرْضِ ٱلْعِـرَاقِ إِلَى نَجْـدٍ إِلَى يَمَنٍ مَـعْ مَـا يُحَـاذِيْهَـا

وَزُرْتُ تُوْنِسَ مَعْ أَرْضِ ٱلْجَزَائِرِ مَعْ مَـرَاكِشٍ جَـائِسَـاً أَنَّى بَـوَادِيْهَـا

جُـزْتُ ٱلْجِبَالَ مَـعَ ٱلْوِدْيَـانِ مُنْتَقِـلاً فِيْهَـا إِلَى كُـلِّ مَثْـوَى مِنْ مَثَـاوِيْهَـا

فَمَا وَجَدْتُ سِوَى جُوْدٍ وَحُسْنِ ضَيَـا فَـةٍ وَدَارِ أَمَــانٍ عَـزَّ ثَـاوِيْـهَـا

وَأُمَّـةٍ خَيْـرُ مَـا تُسْمَى بِـهِ عَـرَبٌ إِنْ رَامَ تَمْجِيْـدَهَا يَـوْمَـاً مُسَمِّيْهَـا[1]

---

(١) إنّ العـرب اليوم هم سكـان الجزيـرة وما جـاورها من العـراق والشام ومصـر والسودان وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش « الخ » فوجدت حيث العرب على فطرتهم الأخلاق العربية الفاضلة متمثلة فيهم بأتمّ معانيها على نحـو ما نقـرأ عن السلف الصالح في الجاهلية وصدر الإسلام وإذا كـان قد فقـد بعض العرب الـذين دانوا للتـرك =

وَأَنْفُسٍ حُرَّةٍ مَا آسْتُعْبِدَتْ وَأَبَتْ	أَنْ تَسْتَذِلَّ لِغَيْرِ آللَّهِ بَارِيْهَا
وَهِمَّةٍ تُنْشِدُ آلْعَلْيَا وَتَطْلُبُهَا	مَا آلدَّهْرُ يُقْعِدُهَا عَنْهَا وَيُثْنِيْهَا
وَعِيْشَةٍ قَدْ تَوَخَّتْهَا آشْتِرَاكِيَةٍ	أَجْلَى مَظَاهِرِ أَهْلِيْهَا تَآخِيْهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِآلْيُمْنِ بَاخِرَتِيْ	مَرْسَى مُحَمَّرَةٍ أَلْقَتْ مَرَاسِيْهَا[1]
وَصَاحَ بِيْ آلسَّعْدُ فَآنْزِلْ هٰهُنَا لِتَرَى	مَوَاطِنَاً سُؤْدَدُ آلْأَعْرَابِ يَأْوِيْهَا

= شيئاً من تلك السجايا العالية فبفضل صحبة هؤلاء الذين تغلبوا عليهم فأذلوهم بعد عزّهم وأضاعوا مفاخرهم ودكوا معالم حضارتهم وعلومهم . ومما استلفت نظري أنّ المستعربين منهم لا يعرفون لأنفسهم من فخار إلّا أن يسموا عرباً كذلك ترى أهل الشام وأصل الكثيرين منهم ينتهي إلى الروم والسريان وهم يأبون إلّا أن يكونوا عرباً وكذلك قل عن أهل العراق ومصر وبربر افريقيا وكلهم يفتخرون بعربيتهم ويرفضون أن يرجعهم باحث إلى الفرس أو الكلدان أو الفراعنة أو البرابرة أو القرطجنيين الخ وهذه بركة من بركات الإسلام والقرآن يجب أن نحتفظ بها قبل كل شيء إذا أردنا الاحتفاظ بقوميتنا والعمل على إنمائها وتكثيرها وإعادة مجدها إليها والاطمئنان على سلامة ذاتيتها .

(١) لا يزال النهران العظيمان دجلة والفرات يسعيان متقاربين متباعدين بينهما أرض تسمى الجزيرة وعلى ضفافهما المدن والقرى أشهرها بغداد على دجلة وكربلاء والنجف الأشرف « الكوفة » على الفرات إلى أن يجتمعا في مكان يسمى القرنة على مسافة مئة ميل من خليج العجم فيتألف منها بحر خضم يسمّى « شطّ العرب » فيمرّ بالبصرة وهي أعظم مواني هذا الشط تليها المحمرة وهي عند مصب نهري قارون وبهمنشير في الشط ثم يأخذ الشط بمسيله نحو خليج فارس إلى أن يبلغ الفاو وبعدها يصبّ في مياه الخليج فيختلط الماء العذب بالماء المالح .

والمحمرة هذه هي حاضرة ولاية عربستان الإيرانية وتسكنها عشائر عربية تدين كلها لبيت ساكن الجنان نصرة الملك الحاج جابر خان الذي استقل بحكمها تحت السيادة الإيرانية بفرمان شاهاني من ساكن الجنان ناصر الدين خان شهنشاه دولة علية إيران وهو الوالد الكثير المحامد لعظمة مولانا فخر العرب والعجم معزّ السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نوبان وسردار عربستان .

أَجَلْ هُنَاكَ تَجَلَّتْ لِيْ وَجَاهَةُ هَا رُوْنِ ٱلرَّشِيْدِ كَمَا ٱلتَّارِيْخُ يَرْوِيْهَا[١]

فَمِنْ ذَكَاءٍ إِلَى حَزْمٍ إِلَى رَشَدٍ مَوَاهِبٌ فَازَ بِٱلْإِجْلَالِ قَانِيْهَا

= وهذه المدينة هي الثانية في مواني شط العرب كما تقدم وهي مركز تجاري عظيم ترسو في مياهها البواخر الكبرى التي تأتيها من أوروبا بطريق السويس فالبحر الأحمر فخليج فارس ومن الهند بطريق هذا الخليج وكذلك ترسو في مياهها وهي عائدة .

(١) إنّ عصر هارون الرشيد هو عصر العرب الذهبي فإنّهم لم يعهدوا زماناً اتسع فيه سلطانهم وعظمت فيه شوكتهم وكثر فيه يسارهم وزهت فيه حضارتهم كزمان الرشيد وقد كان شخص هذا الخليفة ممتازاً بصفات راقية عالية أزادت المجد العربي ظهوراً ولذلك أصبح العربي عندما يذكر مجد أُمته يتجه نظره بادىءَ بدءٍ إلى هارون الرشيد قبل سواه من الخلفاءِ والملوك وهو خامس الخلفاءِ العباسيين أبوه محمد المهدي ثالث الخلفاءِ العباسيين ابن المنصور ثاني خلفائهم وأخي أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله عليه الصلاة والسلام أول الخلفاءِ العباسيين بويع بالخلافة في الكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ « ٣٠ أكتوبر ٧٤٩ م » وكان مروان الملقب بالحمار آخر الخلفاءِ الأمويين حيّاً على أنّ هذا قتل لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة « ٥ أغسطس سنة ٧٥٠ م » وتمَّ بقتله فناءُ الخلافة الأموية وابتداء تاريخ الخلافة العباسية . أمّا أم الرشيد فهي أم أخيه الهادي رابع الخلفاءِ العباسيين وهما أخوان شقيقان واسمها الخيزران كانت ملكاً للمهدي تسراها أولاً فولدت له الهادي والرشيد فأعتقها وتزوجها بعد مولدهما . وكان مولد الرشيد سنة ١٤٥ هـ وبويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أخوه الهادي ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ « ١٤ ستمبر سنة٧٨٦ » وعمره ٢٥ سنة وتوفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ « ٢٤ مارس سنة ٨٠٨ » وكانت مدة خلافته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوماً وعمره ٤٨ سنة فقط . وقد بلغ من سعة سلطانه بالرغم عن الثورات الداخلية التي ظهرت في بلاده مبلغاً أصبح يقول معه مخاطباً السحاب « امطري حيث شئت يأتيني خراجك » كما كان يقول مفاخراً بالعراق وهي جنّة الدنيا على ما تعلم « لو عرف فرعون العراق لما فاخر ربّه قائلاً أليس لي ملك مصر » ومما يدلّك على أنّ عهد هذا الخليفة هو أزهر أيّام الخلائف الإسلامية أنّ الرواة اتّخذوه دون سواه مقرّاً لمواضيعهم الروائية والفضل الأكبر بتخليد ذكراه الطيبة لقصة ألف ليلة وليلة وهي أعظم الروايات التي=

وَمِنْ سَمَـاحٍ إِلَى حِلْمٍ إِلَى كَـرَمٍ مَنَـاقِبٌ بَلَغَ ٱلْجَـوْزَاءَ حَـاوِيْـهَـا
وَمِنْ فَخَـارٍ إِلَى نُبْـلٍ إِلَـى غُـرَرٍ مِنَ ٱلْفِعَـالِ ٱلتُّقَى وَٱلْبِـرُّ يُحْلِيْهَـا
وَٱلْعُرْبُ مِنْ قِدَمٍ أَسْمَى ٱلْوَرَى حَسَباً إِذَا رَجَعْنَـا إِلَى تَارِيْـخٍ مَـاضِيْهَـا[1]

=وضعها العرب لم يكتب في لغتنا الشريفة أفضل منها حتى الآن وقد نقلهـا الأفرنـج إلى لغاتهم وأعجبوا بها أيّما إعجاب واتّخذوها عنواناً للحضارة الإسلامية العربية . أقـول وما زال العرب يتحسرون على عهد هارون الرشيد ويتألمون لضياعه ويذكرون مـدينة بغـداد بقسميهـا الـرصـافـة والكـرخ ونهـري العـراق العـظيمين دجلة والفـرات ومـا لازم هـذه المسميـات من أنباء العـزّ والترف والمجـد والفخار والثـروة والعلم والكرم والبذل .

(١) ولع الناس بمعرفة أصولهم وتمادى مؤرخـوهم بالـوهم فأوصلوا أنسـابهم إلى نـوح صاحب الـطوفان ومنـه إلى آدم أبي البشر عليه السلام إلاّ أنّ هـذه الدعـوى التي يدعيهـا جميع الناس لم يقم عليها دليل قاطع يمتنع معه الجـدل ولذلـك لا نكلّف أنفسنا تجشم ما تجشموا ونقل ما وهموا فنملأ القـرطاس بمـا لا يخرج عن حـدّ الحدس في تلخيص تاريخ العرب مقتدين بهذا بالمصطفى عليه الصلاة والسلام القائل : « كذب النسابـون » وهو يعني بهم الذين يرجعون بأصولهم إلى نوح فآدم عليه السلام .

يقـول مؤرخو العـرب : إنّ ألأمّة العـربية الكـريمة تقسم إلى أقسـام ثلاثـة هي : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة وقالوا عن البائـدة هي التي ضاع نبـأها وسمـوا قبائلها فقالوا عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى . وقـالوا عن العـرب العاربـة هم ولـد قحـطان الـذين سكنـوا اليمن وانتقـل بعضهم إلى الحجـاز . وقـالـوا عن العـرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام من زوجته هاجر ونحن لا نقرّهم على هذا التقسيم لأنّ العرب البائدة إمّا اضمحلوا تماماً فلا موجب لحسبانهم من أقسام العـرب او تحولوا إلى سواهم ممن يسمونهم بالعرب العاربة فهم موجودون غيـر بائـدين وقالـوا في العرب العاربة قحطان اليمن أنّهم من نسـل قحطان ولكن لم يقـولوا لنـا ابن من قحطان هذا ؟ أفلا يجوز أن يكون عرب قحطان من سلالة العـرب القدمـاء ؟ وقالـوا في العرب المستعربة أنّهم من نسل اسماعيل الذي هبط الحجاز وهو آرامي ابن إبراهيم الخليل وما جاؤونا ببرهان مقنع على أنّ سلالـة اسماعيـل أصبحت وحدهـا في الحجاز وأنّ القبـائل الحجازية التي حلّ بينها وتزوج إحدى بنـاتها قـد انقرضت تمـاماً . وعلى هـذا فإنّـا لا=

= نخوض في هذا البحث الذي تحوم حوله الشكوك بل نكتفي بما يعيننا على موضوع علويتنا المباركة في ذكر خلاصة تاريخ العرب الذين ظهر فيهم النبي العربي الأمّي وصنوه المرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

عندما ظهر المصطفى عليه الصلاة والسلام بدعوته المقدسة في مكة المكرمة كان العرب متفرقين في الأقطار الحجازية منقسمين إلى قبائل تعرف لها أنساباً معينة تقف عندها والمشهور أنّ أغلب القبائل الحجازية تنتمي إلى عدنان فهو أبوها وأنّ أغلب القبائل العربية التي كانت في اليمن والشام والعراق تنتمي إلى قحطان وكل هؤلاء يطلق عليهم اسم « عرب » أخذوه من يعرب بن قحطان وبموجب هذه التسمية يحق لنا أن نجعل يعرب هذا جد العرب الأكبر فيجتمعون حوله وينتمون إليه .

أمّا وقد اكتفينا بهذا الإجمال من تاريخ العرب القدماء فعلينا أن نتتبع العدنانيين سكان الحجاز الذين شرفهم الله بل شرّف هذا الوجود بظهور النبي العربي صلى الله عليه وآله وسلم منهم ونبوغ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فيهم فنقول إنّ « عدنان » وهو الجدّ الأكبر كان له ولد واحد هو « معد » وهذا ولد « نزار » وهذا كان له أربعة أولاد هم « مضر » وأياد وربيعة وأنمار وولد مضر « الياس » وقيس غيلان وولد لالياس « خزيمة » وهزيل وولد لخزيمة « النضر » وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك وولد للنضر « مالك » وهذا ولد « فهر » الذي سمي قريشاً وجميع ذراريه يدعون قريشيون وهذا ولد « غالب » ومحارب والحارث ومن الحارث بنو الحلج ومن مشهور بهم أبو عبيدة بن الجراح وغالب ولد « لؤي » وتميم الأدرم وولد لؤي « كعب » وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة وولد لكعب « مرّة » وهصيص وعدي وولد لمرّة « كلاب » وتميم ويقظة ومن تميم بنو تميم ومنهم أبو بكر وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومنهم خالد بن الوليد . وولد لكلاب « قصي » وزهرة ومن زهرة سعد بن أبي وقاص وآمنة أُم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الرحمن بن عوف وكان قصي أعظم رجالات قريش وهو الذي ارتجع عنوة مفاتيح الكعبة من بني خزاعة مغتصبيها . وولد لقصي « عبد مناف » وعبد الدار وعبد العزى . ومن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة إلى يوم الناس هذا . ومن عبد العزى سيدتنا خديجة بنت خويلد زوج المصطفى وأمّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام . وولد لعبد مناف « هاشم » وعبد شمس والمطّلب ونوفل . فمن عبد شمس أميّة ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان وأبو سفيان ومعاوية . وولد لهاشم « عبد المطلب » وولد لعبد المطلب الزبير و« أبو =

وَفِيْ الْجَزِيْرَةِ قَدْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا ٱلْكُـــثْرَى وَطَابَ لَهَا قَاسِيْ تَثَوِّيْهَا[1]

=طالب » و« عبد الله » وهؤلاء الثلاثة من أم واحدة هي فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية . وحمزة وعباس وأبو لهب وغيرهم فكانوا ثلاثة عشر ولداً وولد عبد الله « سيدنا وسيد الثقلين محمد المصطفى ﷺ » . وولد أبو طالب « صنو المصطفى سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام » وكانت بزوغ الأنوار المحمدية في العالم الإنساني في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان . وقال المرحوم محمود باشا الفلكي بعد تحقيق طويل إنّ ذلك اليوم السعيد يوافق العشرين من أفريل سنة ٥٧١ مسيحية .

(١) يطلق العرب على الأرض التي سكنوها اسم « جزيرة » على سبيل التسامح لأنّ الجزيرة في عرف الجغرافيين هي الأرض التي يحيط بها البحر من جميع جهاتها كجزيرة البحرين في خليج فارس وكجزيرتي كريت وقبرص في البحر المتوسط وكذلك يطلق على البلاد العربية اسم « شبه جزيرة » لأنّ الجغرافيين عرفوا « شبه الجزيرة » بالأرض التي يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها وليست بلاد العرب كذلك ولكن على ما يظهر أنّ العرب توسعوا في حدود بلادهم واعتبروا ما يحيط بها من بحار وأنهر كافياً لتسميتها جزيرة على ما حددها ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي في كتابه معجم البلدان المتوفى سنة ٦٢٦ هـ بظاهر مدينة حلب نقلاً عن هشام بن محمد السائب النسابة العربي صاحب كتاب الجمهرة في النسب المتوفى سنة ٣٠٤ هـ قال : « إنّما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في شبه الجزيرة من جزائر البحر وذلك أنّ الفرات أقبل من الروم (والصحيح أنّ منبعه في أرمينيا) فظهر بناحية قنسرين (ولعله يريد مسكنه بجوار مدينة حلب) ثم انحط على أطراف الجزيرة (ويريد بها الأرض الواقعة بين دجلة والفرات وتسمى ما بين النهرين) وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة والابلّة (بلدة على شاطىء النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة) وامتدّ إلى عبادان (مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب شطّ العرب بالقرب من خليج فارس وهي تنسب إلى عباد بن الحصين وقد نسبوها بالألف والنون على اصطلاح الفرس المجاورين لها نقول والصحيح أنّ الفرات عندما يصل إلى موضع يسمى القرنة قبل البصرة بقليل يجتمع بدجلة ويؤلف النهران نهراً واحداً يدعى شط العرب ويجري إلى البصرة فالمحمرة وهناك تضاف إليه مياه نهري بهمشير وقارون فيتسع بهما الشط كثيراً ويسير إلى عبادان فالفاو وثم يصب في =

=مياه خليج فارس) وأخذ البحر (خليج فارس) في ذلك الموضع مغرّباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سنوان (ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين) وكاظمة (جَوّ على سيف البحر وهي المنزلة الثانية من جادة البصرة إلى البحرين) إلى القطيف وهجر (وكلتاهما من سواحل نجد على خليج فارس) وأسياف البحرين (جزيرة معروفة باسم البحرين على خليج فارس متجهة إلى الساحل العربي منه وبعيدة عن الساحل الفارسي الذي يقابله) وقطر « من مدن البحرين » وعمان « ومنها دبي وهي أمارة مستقلة ويليها مسقط وهي مدينة على رأس خليج فارس عند اتصاله ببحر الهند وتخضع لها اليوم أكثر قبائل عمان) والشحر (وهي مدينة على بحر الهند في ساحل حضرموت) ومال منه عنق إلى حضرموت « ناحية واسعة في شرقي عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام وهي جبال قاحلة » وناحية أبين « مخلاف اليمن بجوار عدن» وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك « جزيرة في البحر الأحمر المعروف بالقلزم » واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان « إحدى جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي » وحكم « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد بن قضاعة » والأشعريين « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن أدد بن كهلان بن سبأ ينسب إليها أبو موسى الأشعري » وعكّ « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى عكّ بن عدنان من الأزد » ومضى إلى جدة ساحل مكة « فرضة على ساحل بحر القلزم » والجار ساحل المدينة « فرضة على ساحل بحر القلزم جنوبي ينبع » ثم ساحل الطور « شبه جزيرة في شمال خليج القلزم المعروف بخليج السويس » وخليج أيلة « مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز » وساحل راية « كورة من كور سيناء » حتى بلغ قلزم مصر « خليج السويس » وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً البحر حتى دفع في بحر مصر والشام (لعلّه أراد البحيرات التي تمر فيها قناة السويس اليوم) ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمرّ بعسقلان وسواحلها وأتى صور وسواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق » اهـ .

ولزيادة فهم القارىء اللبيب مجمل هذا التحديد لجزيرة العرب حسب تعريف =

مَـا أَنْبَتَتْ شَجَـراً مَـا أَثْمَرَتْ ثَمَـراً   لَكِنْ عُقُـوْلاً تَنَاهَتْ فِيَ تَسَـامِيْهَـا
هِيَ آلْجَـزِيْرَةُ لاَ أَرْضٌ تُحَـاكِيْهَـا   إِنْ كَـانَ مَجْدُ آلْأَرَاضِيْ فِيْ أَهَـالِيْهَا

=الأقدمين نقول أنّهم أرادوا بها الأرض التي يمرُّ بهـا الفرات من مسكنـه بجوار حلب إلى مـا بين النهرين فسـواد العراق.فـالقرنـة حيث يجتمع الفـرات بدجلة فيتـألف منهما شط العـرب فالمحمـرة عاصمـة العراق الفـارسي فالفـاو حيث يصب شط العرب في خليـج فـارس ويحيط الخليج بسـاحل نجـد ومنه إلى القـطيف وقـطر والبحـرين فـدبي فعمـان فمسقط وهناك يتصل الخليج الفارسي ببحر الهند الذي يحيط بسواحل حضرموت فعدن حيث يتصل بحر الهند بالبحر الأحمر الـذي يسمونـه بحر القلزم ويحيط بسـواحل اليمن فسـواحل الحجـاز ثم يتصل البحـر الأحمر بخليـج السويس وهنـاك سواحـل سيناء ومن خليج السويس تمتـد قناة السـويس على ضفاف سينـاء إلى البحر المتـوسط عند بـورت سعيد ومنها يحيط البحر المتوسط بساحل برية سيناء فساحل فلسطين فساحل سوريا إلى خليج اسكندرونـة فالجبـل الأقرع حيث السـويديـة مصب نهر العـاصي الذي منبعـه من حمص فيمـرّ هذا النهـر بأنـطاكية فغـور يسمى العمق ومن هنا تنقـطع المياه التي تحيط بالأرض التي يسمونها جزيرة العرب مسافة بضعة أميال في طريقها من حلب إلى مسكنه حيث يبتدىء الفرات بإحاطة البلاد العربية وقـد تممت قناة السـويس جزءاً من الجـزيرة العربية المتصلة بأرض مصر وستتمم القناة الكبرى المزمع افتتاحها في عهـد قريب على ما جاءتنا الأنباء بعد أن انتهت الحرب العـامة الجـزء الباقي من اليـابسة وهـو من العمق إلى مسكنه وحينئذٍ تصبح بلاد العرب جزيرة حقيقية .

نعم فقـد وردت الأنباء بـأنّ في عزم المصلحين الإنكليـز المهتمين بتجديـد مجد العـرب فتح قنـاة كبرى هي أعـظم قناة فكـر البشر بفتحها نبتدىء عنـد السويـدية على ساحل الجبل الأقرع حيث يصب نهر العاصي في البحر المتوسط فيتوسع ذلك النهر إلى ما وراء انطاكية حتى العمق ويفتح لها مجرى عظيم يمرّ بحلب إلى مسكنـه حيث تتصل بنهر الفرات ثم يوسعون الفرات بحيث يصلح لمرور السفن إلى ما بين النهرين فالجزيرة فسواد العراق فالقرنـة حيث يتصل بشط العـرب وسيكون طـول هذه القنـاة ستة وتسعين ميلاً فإذا تمّ هـذا المشروع تصبـح بلاد العـرب جزيـرة حقيقية تستـطيع بـاخرة متـوسطة الحجم أن تدور حولها فتدخل القناة من جـوار الجبل الأقـرع عند السـويديـة وتسير إلى انطاكية فحلب فما بين النهرين فالعراق فالبصرة فالفاو فخليج فارس فبحـر الهند فـالبحر=

هِيَ ٱلْحِجَـازُ وَنَجْـدُ وَٱلتِّهَـامَـةُ وَٱلْـــعَرُوْضُ وَٱلْيَمَنُ ٱلْمَيْمُوْنَ حَامِيْهَا[1]
مَـا أَنْصَفَتْهَا نَـوَامِيْسُ ٱلـطَبِيْعَـةِ ضَنَّـــتْ بِـٱلْمِيَاهِ فَـلاَ تَجْرِيْ لِتَـرْوِيْهَا[2]

=الأحمر فقناة السويس فالبحر المتوسط حيث تمرّ على سواحل فلسطين وسوريا وتبلغ الجبل الأقرع حيث دخلت . على أن هذا التحديد لبلاد العرب لا يرضي الجغرافيين الذين قالوا يحدها من الشمال الجزيرة أي ما بين النهرين وبلاد الشام وفلسطين وهكذا قد أخرجوا منها سوريا وفلسطين وما بين النهرين بالرغم عن كون العرب قد سكنوا جزءاً من بلاد الجزيرة مهبط السريان وسوريا التي كان أهلها فينيقيون ثمَّ اختلط بهم السريان والعرب والروم من عهد بعيد فضلاً عن أنّ هذه البلاد هي اليوم عربية بكل المعنى .

(١) تقسم بلاد العرب بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام وهي تهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض . فتهامة ويقال لها الغور هي البلاد التي على شاطىء بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرّها وركود ريحها من التهم وهو شدّة الحر وركود الريح وسموها غوراً لانخفاض أرضها . والحجاز هو سلسلة جبال السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام وسميت حجازاً لأنّها حجزت بين الغور ونجد . ونجد ما دون جبل السراة إلى شرقيه يبتدىء جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه . واليمن ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنُجُد . والعروض ينتظم من بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

(٢) إنّ أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء يتخللها كثير من الوديان والصحارى الرملية المترامية الأطراف فما كان من أرضها قريباً من الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الإقامة فيه وما بعد عنها أنفر ولم يصلح للسكنى ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها خصوصاً أنّ كثيراً من مياهها يفيض في باطن الأرض ولا سيما المرملة فلا ينتفع به على أنّ بلاد اليمن كانت أخصبها كلها خلافاً للحجاز وعلى الخصوص شماليه فإنّ هذه الوديان قليلة فيه وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروي إلاّ الشارب مع الجهد وربما جاد السماء بالمطر فنبت الكلأ ببعض سهوله وكذلك قلّ عن نجد والعروض وتهامة =

وَرِزْقُ سُكَّانِهَا ٱلْأَجْوَادِ مُنْحَصِرٌ   بِٱلنُّوْقِ مَا هَمُّهَا إِلَّا مَرَاعِيْهَا
فَتَكْتَسِي مِنْ جَنَى أَصْوَافِهَا وَكَذَا   مِنْ لَحْمِهَا تَغْتَذِيْ مَعْ دَرِّ أَثْدِيْهَا
وَقَدْ تَسِيْرُ بِهَا تَطْوِيْ ٱلْقِفَارَ إِلَى ٱلْـ   ـعِرَاقِ وَٱلشَّامِ يَبْغِيْ ٱلتَّجْرَ حَادِيْهَا
وَمَعْ خُشُوْنَتِهَا فِيْ عَيْشِهَا لَطُفَتْ   أَخْلَاقُهَا وَسَمَتْ سَمْوَاً مَبَادِيْهَا
تُنْبِيْكَ آدَابُهَا عَنْهَا وَقَدْ بَقِيَتْ   مَرْوِيَّةً عُبْرَةً كُبْرَى لِقَارِيْهَا
وَتِلْكَ أَشْعَارُهَا فِيْ جَاهِلِيَّتِهَا   تَطْوِيْ حَضَارَتَهَا ٱلْغَرَّا مَطَاوِيْهَا[1]

=وعلى هذا فقلّ ما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وكان دأبهم التنقل من محل لآخر تبعاً لمراعي إبلهم ولما كانت على ما ذكرنا كان جلّ اعتمادهم في معايشهم على أنعامهم يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها ويحملونها أثقالهم في رحلاتهم الدائمة في تلك الصحارى المقفرة وشذّ عنهم أهل اليمن فاعتمدوا على الزراعة وكان للعرب رحلات تجارية يتبادلون بها أشياءهم مع فارس والروم وغيرهما .

(١) كان العرب في جاهليتهم أُميين لا يقرأون ولا يكتبون وكانوا يعتمدون على ذاكرتهم في حفظ أشعارهم وأنسابهم وتواريخهم ولذلك ما بقي لنا من قديم شعرهم ما نستدلّ منه على مبدأ فرض الشعر عندهم كما أنّ ما لدينا من أشعار جاهليتهم ينتهي إلى القرن الرابع المسيحي أي إلى مئتي سنة قبل البعثة إلاّ أنّ هذا ليس بدليل على أنّ الشعر العربي ابتدأ من ذلك التاريخ بل لا بدّ أن يكون أقدم من ذلك بكثير ومن تمعن في هذه اللغة وصلاحيتها للشعر واقتنع كاقتناعنا بأنّ الغناء من طبائع النفوس بفطرتها ينشطها ويشجعها ويسري عنها همومها وأنّ الشعر في حقيقته ألفاظ مربوطة موزونة تطرب الأسماع بل هو ضرب من ضروب الغناء جزم معنا بأنّ العرب قرضوا الشعر بطبيعتهم منذ نشأت لغاتهم أقول لغاتهم وما من يجهل أنّ هذه اللغة الشريفة كانت مختلفة اللهجات حتى نزل القرآن بأفصحها وهي لهجة قريش ولغتهم فقضت على غيرها من لهجات العرب ولغاتهم بواسطته .

ثمّ ان الشعر العربي مرّ بأدوار تبعت بيئات العرب في بداوتهم وحضارتهم وتأثر بالمؤثرات التي اجتازتها هذه الأمة الكريمة فسما بسموها وانحطّ بانحطاطها إلى يوم =

فِيْهَا تَرَى ٱلْبَدَوِيَّ ٱلْجَاهِلِيَّ يُصَوِّ ... رُ ٱلْحَضَارَةَ فِيْ أَسْمَى مَعَانِيْهَا
سَيَّانِ فِيْ حَرْبِهِ أَمْ فِيْ مَفَاخِرِهِ ... أَمْ فِيْ ٱلْحِسَانِ ٱلَّتِي يَبْغِي تَصَبِّيْهَا

=الناس هذا . ولا يصعب على الباحث معرفة حالة كل دور من أدوار هذه الأمة من رقي وانحطاط إذا تمعن في دواوين شعراء هاتيك الأدوار وما انطوت عليه من الأفكار العالية أو المنحطة .

وكان للشعراء منزلة عند العرب تحاكي منزلة الملوك والأمراء سيان في الجاهلية وفي الإسلام لما كان لشعرهم من التأثير على الناس فكانوا إذا مدحوا رفعوا من أقدار الناس وان هجوا حطوا من أقدارها وإن تحمسوا أذكوا نار الحرب وإن تغزّلوا أدخلوا الحب على كل قلب لذلك كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر استبشرت وأقامت الولائم وحسبت ذلك سبباً لعزتها وعدةً لدرء العدى عنها إذ كان بيت مديح واحد يرفع من شأن قبيلة وبيت هجاء واحد يحط من قدرها وما اكتسب شعراء العرب هذه السطوة وذاك النفوذ العظيم إلّا بفضل ذكاء العرب وسرعة حفظهم فكانوا يتلقفون أشعار الشعراء ويتداولونها فيما بينهم ويحدون بها إبلهم ويتناشدونها في سمرهم فتذيع بسرعة البرق .

ونستطيع أنْ نقول إنّ هذا النفوذ العظيم الذي كان لشعراء العرب قد يحاكي نفوذ الصحافيين في زماننا الحاضر من حيث التأثير على نفوس الناس وأميالهم وعقولهم وهذا أقرب تشبيه للشعراء الأقدمين بنفوذ الصحافيين العصريين .

وكان الملوك والأمراء العرب من أقدم أزمنة التاريخ يستدنون الشعراء إليهم بهباتهم ويقدمونهم في مجالسهم لا لاتّقاء شرّهم فقط بل في رغبة نشر نفوذهم بواسطتهم وحباً بتخليد ذكرهم للعصور الآتية . وعندما ظهر الإسلام أقرّ المصطفى ﷺ عادة استدناء الشعراء واجازتهم وارتضى مدائحهم وأشهر الذين اتصلوا بحضرته القدسية حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم فكانوا بشعرهم يمدحونه وينشرون دعوته ويناضلون عنه ويهجون كفّار قريش أعداءَه . واقتدى بسنته النبوية خلفاء المسلمين وملوكهم وأمراؤهم إلى هذا اليوم .

ولعمري إنّ أكبر الملوك حظاً وأوفرهم مجداً من توفق إلى فطاحل الشعراء=

وَإِنَّمَـا ٱلشِّعْرُ تَـارِيْخُ ٱلْأَعَـارِبِ قَـدْ   أَبْقَى لَهَـا أَبَـدَاً ذِكْـرَى مَعَـالِيْهَـا[1]

= فمدحوهم وقد زالوا واندثرت ممالكهم ولكن ذكرهم ظلّ خالداً بما قيل فيهم من شعر خالد وهو فضل للشعراء لا يوازيه ما نالوه من كثير العطاء وهذا سيف الدولة علي الحمداني أمير حلب وقد بقي له في دواوين العرب من الذكر العاطر المخلد بفضل قصائد أبي الطيّب المتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهما فوق ما كان له من ملك وسلطان ؛ وان من يقرأ مدائحه في دواوين هؤلاء الشعراء يتصوره أعظم ملوك الأرض في طولها والعرض مع أنّ مملكته لم تكن أكثر من مدينة حلب وما جاورها من القرى وان دولته لم تدم أكثر من أعوام معدودات كان هو ربّها وقد دالت بعد أن توفاه الله كما دالت دول أمثاله من أصحاب الجاه ولكن ذكره قد بقي إلى الآن وسيبقى إلى آخر الزمان بفضل ما قيل فيه من القوافي الحسان .

ولم يزل للشعراء عند العرب المنزلة الرفيعة ولا يزالون يعيشون من شعرهم كما يعيش كل ذي صناعة من صناعته وهي مزية لهم على كل شعراء الأمم كما أنّ من أشهر مميزات العرب دون غيرهم الجود والكرم .

(١) أقول ولم تقف فائدة الشعر العربي على ما تقدم من تخليد أسماء أفراد من الملوك بل تعدتهم إلى تخليد تاريخ الأمة العربية الكريمة في جاهليتها فإنّ العرب دون سواهم عرف الناس من تاريخ جاهليتهم ما عرفوا بفضل ما بقي من أشعار الجاهلية خلافاً للأمم الأخرى التي ما استطاعت تخليد بعض أخبارها إلاّ بما أقامته من الآثار الحجرية أمّا الأمم التي ما توفقت إلى إقامة هاتيك الأحجار فقد ضاعت أخبارها عن الناس تماماً وهذا الفضل وحده يكفي للدلالة على الذكاء العربي . والباحث المدقق لا يقف فقط من أشعار الجاهلية على مجمل تاريخها بل وعلى أخلاقها وحضارتها وعوائدها بحيث يستطيع أن يستخرج منها صورة قريبة من الكمال يعرف الناس منها أنّ العرب كانوا منذ بداوتهم وجاهليتهم على أفضل الأخلاق وأشهرها الكرم ، والوفاء ، وخفر الذمام ، وصيانة حقوق الجوار والتضامن في المعيشة ، والعطف على المستضعفين ، والإقدام على المصائب ، والحلم ، والشمم ، والعفاف الخ .

ومما يستلفت الأنظار من أخلاق العرب احترامهم للمرأة من أقدم زمانهم وأنت

مِنْـــهُ عَـرَفْنـــا مَغَــازِيْهَـــا وَهِمَّتَهَـــا   وَكُـــلَّ سَـامٍ عَـظِيْمٍ مِنْ مَـــآتِيْهَـــا

=تعلم أنّ الأوروبيين في عصرنا الحاضر يفتخرون بأنّ من آثار تمدنهم تقديم الاحترام للمرأة ومساواتها بالرجل فما قولك إذا قلنا أنّ العرب كانوا على هذا الخلق من جاهليتهم فهم سباقون فيه سبقهم في الشورى والاشتراكية ؟ ألا ترى الشاعر العربي يصدر قصيدته بالغزل فيفرغ قوى قريحته في وصف المرأة ومغازلتها بينما هو يمتدح ملكاً عظيماً أو مثرياً كريماً ولا يجد من ممدوحه إلاّ الاستحسان والتصفيق برهاناً على اشتراك الناس جميعاً باحترام هذا المخلوق العجيب الذي يتوقف عليه بقاء النسل وإليه يوكل في تربيته الأولى والذي وصفه أديب اسحاق فأحسن الوصف بقوله :

هي شيطان إذا أفسدتها   وإذا أصلحتها فهي ملك

وما انتصر الشاعر العربي على وصف محاسن النساء والتذلل بإظهار حبّه لهن وإبداء ما يكنّه صدره من تمني قربهنّ ومن التألم لبعدهن بل تعدى هذا كله إلى ما هو أبعد غاية في الاحترام فكان إذا أراد الافتخار بشجاعته وكرمه وهما أشرف خصال العرب اتجه ببصره إلى المرأة فطفق يخاطبها بهما في مثل قول عنترة العبسي :

ولقد ذكرتك والرماح تواهلٌ   مني وبعض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنّها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو مثل قول الآخر وهو يعتذر لصاحبته وقد لامته على الكرم :

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني   كريم على أنّ الكرام قليل

وازداد العربي تلطفاً بزوجته حتى أنّه إذا أراد استنهاضها إلى عمل ولو فيه الخير بالغ بالتلطف بها والتأدب بمخاطبتها بما لم يبلغ أعظم منه الإفرنجي في هذا العهد في مثل قول الشاعر :

يا ربة البيت قومي غير صاغرةٍ   ضمي إليك رحال القوم والقربا

وأمثال هذا كثير مما طويت عليه أشعارهم ويعرفها كل متأدب لبيب .

كَـانَتْ لَهُ دَوْلَـةٌ فِيْ ٱلْعُرْبِ طَـائِعُهَا ... قَـدْ ٱسْتَعَـزَّ بِهَـا إِذْ ذَلَّ عَـاصِيْهَـا

وَرُبَّ بَيْتٍ بِـــهِ تُهْجَى ٱلْقَبِـيْلَةُ يُـوْ ... لِيْهَـا ٱلْمَـذَلَّـةَ وَٱلْاهْـوَانَ هَـاجِيْهَـا

وَرُبَّ بَـيْتِ مَـدِيْـحٍ لِلْقَبِـيْلَةِ يُـوْ ... لِيْهَـا مَدَى ٱلـدَّهْرِ تَعْـزِيْزاً وَتَـوْجِيْهَا

وَكَـانَ أَعْـظَمُ نُـعْمَـى لِلْقَبِـيْلَةِ أَنْ ... تَلْقَى لَهَـا نَابِغَـاً فِيْ ٱلشِّعْرِ يَحْمِيْهَـا

أَمَّـا شَمَـائِلُهَـا ٱلْغَـرَّا ٱلَّتِيْ بَلَغَتْ ... بِهَـا ٱلْفَخَـارَ فَلَيْسَ ٱلْعَـدُّ يُحْصِيْهَـا

فَمِنْ مَكَـارِمِ أَخْـلَاقٍ إِلَى كَـرَمٍ ... إِلَى نُفُـوْسٍ تَنَـاهَتْ فِيْ تَعَـالِيْهَـا

إِنْ عَاهَدَتْ حَفِظَتْ رَغْمَ ٱلزَّمَانِ عُهُوْ ... دَ ٱلْأَصْـدِقَـاءِ وَبِـٱلْأَرْوَاحِ تَفْـدِيْهَـا

أَوْ إِنْ أَتَتْهَـا ٱلْعَوَافِيْ فِيْ حَـوَائِجِهَـا ... نَـالَتْ كَمَـا تَشْتَهِيْ شَتَّى أَمَـانِيْهَـا

وَضَيْفُهَـا لَمْ يَهَبْ غَدْرَ ٱلـزَّمَـانِ بِـهِ ... حَتَّى وَلَـوْ كَانَ مِنْ أَعْـدَى أَعَـادِيْهَـا

وَجَـارُهَـا بَـاتَ مَغْبُـوْطَـاً بِجِيْـرَتِهَـا ... فَـلَا يَهَـابُ مِنَ ٱلـدُّنْيَـا عَـوَادِيْهَـا

وَعَنْ شَجَـاعَتِهَـاحَـدِّثْ وَلَا حَـرَجُ ... إِنَّ ٱلْأُسُـوْدَ لَتَخْشَـاهَـا وَتَتقِيْـهَـا

وَحَسْبُهَـا إِنَّهَـا لِلْغَيْـرِ مَـا خَضَعَتْ ... وَطَـالَمَا أَخْضَعَتْ قَهْـرَاً مُنَـاوِيْهَـا(١)

وَكَمْ لَهَـا حَنَتِ ٱلنَّاسُ ٱلـرِّقَابَ وَمَـا ... رِقَـابُهَـا قَطُّ لِـلْأَغْيَـارِ تَـحْنِيْهَـا

---

(١) من مفاخر العرب أنّهم في كل تاريخهم لم يخضعوا لحكم أجنبي عنهم خضوعاً صحيحاً فقد دان بعضهم في عهد الجاهلية لأكاسرة الفرس في العراق والبعض لقياصرة الروم في الشام ولكنهم كانوا وهم تحت السيادة الفرسية أو الرومية مستقلين في داخليتهم ملوكاً على قبائلهم . أمّا بعد الإسلام فإنّ دولتهم ظلت عربية وإن اشترك فيها الفرس والأتراك والمغول اشتراكاً فعلياً حتى كانوا في بعض الأزمنة متغلبين على الخلفاء العرب الذين كانوا يحكمونهم فعلاً على أنّ العرب ما ارتضوا بتسلط هؤلاء الغرباء إلّا لاعتقادهم بأنّ حاكمهم الشرعي هو الخليفة العربي . أمّا أهل البادية ورجال القبائل فإنّهم ما كانوا يعرفون الطاعة إلّا لرؤسائهم وأمرائهم وشيوخهم . وعندما تغلب الأتراك =

سَادَتْ وَصَالَتْ وَأَبْقَتْ مِنْ مَفَاخِرِهَا   أَوَابِـدَاً لَيْسَ كَـرُّ آلـدَّهْـرِ مَـاحِيْهَا
كَـانَتْ لَعَمْرُكَ تَـأْبَى أَنْ تَعِيْشَ عَلَى   هَـوْنٍ وَأَنْ تَتَصَـافَى مَـعْ مُهِيْنِيْهَـا
سُـوْءٌ وَكَانَ آلَّذِي يُؤْذِيْـهِ يُؤْذِيْهَـا   يَثُـوْرُ ثَـائِـرُهَـا إِنْ نَـالَ وَاحِـدَهَـا[1]

= العثمانيون على الخلافة العربية وقضـوا نهائيـاً عليها فمـع أنّهم ادّعوا الخـلافة لأنفسهم ظلّ العرب في باديتهم على استقلالهم الداخلي وطالمـا حاربـوا العثمانيين وأتعبـوهم . ويصح لي أن أقول أنّ أهل المدن أنفسهم من العرب ما كانوا خاضعين للسلطنة التـركية خضـوعاً صحيحـاً وطالمـا انتقضوا عليهم وحـاربوهم . وهكـذا بقي العرب على أنفتهم وإبائهم الخضوع للأتراك بالرغم عن كل ما بـذل هؤلاء لإخضاعهم إلى أن دالت دولتهم في هذا العهد .

(١) إنّ التضـامن عند العـرب مألـوف ومعروف ومشهـور بحيث لا ينكب فرد من قبيلة بمظلمة إلّا وتهب القبيلة بجملتها للانتصار له من ظالمه ورد مظلمته . ولم يقتصـر هذا التضامن على أفراد القبيلة الواحدة بل تعداه إلى الإنتصار للجوار أيضاً الذي هو من عاداتهم المحمودة يـدلك على ذلـك حلف الفضول الـذي عقد على أثـر حرب الفجـار حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو الأسـد بن عبد العـزّى وبنو زهـرة وبنو كـلاب وبنو تميم بن مرّة في دار عبد الله بن جدعـان وحضر هـذا الحلف رسول الله ﷺ وهـو في الرابعة عشرة من ربيع عمره وتحالفوا على أن يردّوا الفضول على أهلها ولا يُقرّ ظالمٌ على مظلوم ما بلّ بحرٌ صوفة (أي إلى الأبـد) وكان يقـول رسول الله ﷺ « مـا أحب أنّ لي بحلف حضـرته في دار ابن جـدعان حمـر النعم وإنّي أغدر بـه ولـو دعي بـه في الإسـلام لأجبته » أي أنّ رسـول الله ﷺ لو نـودي بعد البعثة عن مظلوم بيـا آل حلف الفضول للبّاه ونصره لأنّ الإسلام إنّما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلوم .

وأمّا كلمة فضول التي سمّي بها هذا الحلف فقد اختلف في تفسيرها العلماء فقال بعضهم أنّهم أرادوا بها أن قريشاً دخلوا في فضول من الأمر لا يعنيهم . وقال غيرهم بل إنّ الفضـول مال الـظلم يردونـه على أهله . وقال آخـرون بل أنّ قـريشاً على أثـر هـذا الحلف أخـرجـوا فضـول أمـوالهم لـلأضيـاف . وعنـدي أنّ الأول هـو الأرجـح وهـو المقصود . =

فَــإِنْ يَصِـحْ وَانَصِيْــرَاهُ رَأَى أُسُـدَاً سَلَّتْ لِقَهْــرِ أَعَــادِيْــهِ مَــوَاضِيْهَــا
تَـضَــامُنٌ بَـيْنَ أَفْــرَادِ آلْـقَبِـيْـلَةِ لاَ يُبْقِي عَلَى آلضَّيْمِ فَرْدَاً مِنْ مَوَالِيْهَــا
وَمُنْــذُ نَشْـأَتِهَــا آمْتَـازَتْ مَعِيْشَتُهَــا عَنِ آلْبَـرِيَّـةِ وَحْشِيْهَــا وَحْضَـرِيْهَــا
بِـآلْإِشْتِـرَاكِيَّــةِ آلْكُبْـرَى فَــلاَ رِتَبٌ تُنِئِي ذَوِيْ آلْجَاهِ مِنْهَا عَنْ أَدَانِيْهَا[1]

= أمّا السبب الذي دعا قريشاً لهذا الحلف فهو أنّ رجلاً من زبيد قدم مكـة ببضاعـة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من زعماء قريش وحبس عنه ثمنها فاستغاث الزبيدي ببعض زعمـاء قريش فسفهـوه وانتهروه فسـار الـزبيـدي إلى جبـل أبي قبيس عنـد طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة وصاح بأعلى صوته :

يــا آل فهــرٍ لمــظلومٌ بـضــاعتــه ببــطن مكـة نــائي الــدار والقفــر
ومحــرمٌ أشعثٌ لم يقض عمرتــه يـا للرجـال وبين الحجـر والحجر
إنَّ الحــرام لمـن تمّت مكــارمــه ولا حــرامٌ لثوب التــاجـر الغــدر

فاهتزت قريش لهذه الأبيات وأسرع الـزبير عمّ رسـول الله ﷺ يدعـو الناس إلى عقد حلف ينصرون به المظلوم على ظالمه فتمَّ لهم ذلك الحلف الذي هو أشرف حلف عقدته العرب لما ترتب عليه من الانتصار للمظلوم والضرب على يد الظالم .

أقول وأنَّ قوماً يعقدون مثل هذا الحلف لأنّ واحـداً من وجهائهم حبس حقَّ تـاجر « غريب » وهم في جاهلية لا يعرفـون فيها الحـرام من الحلال ولا شـريعة لهم تـأمرهم بـالمعروف وتنهيهم عن المنكـر لخليقٌ أن تحترم ضمـائرهم الـطاهرة ونفـوسهم العاليـة وأخلاقهم الراقية .

(١) إنّ الاشتـراكية أصـل من أصول الـديـانـات الإلٓهيـة المـوسـويـة والعيسـويـة والمحمدية إذا أريد بها مشاركة الغني الفقير بيساره وثـروته على مـا فيها من الأوامــر بالزكاة والصدقـة كما أنّهـا أصل من أصـول العمران والاجتمـاع فإنّ الأغنيـاء إذا قبضوا أكفهم عن الفقراء ثار هؤلاء عليهم وقوضوا معالم الحضارة على رؤوسهم ونادوا بالشقاءِ العام وهذا بديهي وقد وجد مع الإنسـان منذ عهـده بالحضـارة على اختلاف فيـه حسب اختلاف البيئات وتفاوت الناس في الغنى والترف والمدارك .

على أنّ الاشتراكية التي أردتها في المتن غير هذه بل أعظم منها عرفت عن العرب=

= في الجاهلية والإسلام ولم تعرف عن سواهم من الأمم .

ومن المعلوم أنّ الأمم تنشأ على الاشتراكية في بداوتها أو في بدءِ حضارتها يوم يكون الناس فيها متشاكلين بأقدارهم وثرواتهم ثمّ بأخذ التفاوت يظهر ويتسع فيما بينهم بتفاوت أقدار بعضهم عن بعض إمّا بالشجاعة وكانت هي أساس المجد عند الأقدمين الذين ما كانوا يعرفون حقّاً لغير القوة أو بالثروة واليسار أو بالعقل والعلم وكل ما لدينا من تواريخ الأمم القديمة كالهنود والفرس والصينيين والبابليين والمصريين يشير إلى أنّ الناس كانوا طبقات بعضهم فوق البعض فهناك الخاصة وهم الملوك فرؤساء الدين « وكان العلم منحصراً فيهم » فأمراء الجيوش فالحكّام فأصحاب الأملاك والأراضي فالعامة وهم عبارة عن أهل التجارة والصناعة والزراعة ورعاية الماشية فالعبيد ولم يكن للعامة حقّ الاختلاط بالخاصة كما لم تكن لهم حقوق شخصية تعرفها الخاصة فضلاً عن أنّ تقدسها ومع أنّ أخلاق الناس تلطفت بعد النصرانية بفضل اشتراكية الإنجيل مع ذلك ظلّت الناس طبقات بعضها فوق البعض وباطل الخاصة حق وحق العامة باطل ولا يختلط هؤلاء بهؤلاء لا في مجالسهم ولا في اجتماعاتهم إلى عهد قريب .

وأول من كسر قيود هذا التقليد على ما نعلم هم الفرنسويون بثورتهم المشهورة سنة ١٧٨٩ فإنّهم ما اكتفوا أن ثاروا على ملوكهم وأسقطوهم من عالي عروشهم بل ثاروا على خاصتهم فأوقعوا بهم ومثلوا بهم أبشع تمثيل ومن هذا العهد نودي بالاشتراكية المعتدلة أو كما يسمونها بالإفرنجية « الديموقراطية » وقالوا بمساواة الناس بالشرف والحقوق وإبطال المراتب الموهوبة بينهم وهكذا دكدكوا الحواجز التي كانت تفصل العامة عن الخاصة ودهوروها دهورة . وانتقلت هذه الروح الديموقراطية بالتدريج إلى بقية الممالك الأوربية والأمريكية فتوسعت بعض الشعوب فيها توسعاً محموداً ولا سيما في الولايات المتحدة التي قامت جمهوريتها على عدم التمييز بين الناس على الاطلاق ولم يبق في عهد الناس هذا أمّة متمسكة بتقاليد القدماء هذه إلّا الأمّة الروسية التي كان الناس فيها طبقات بعضها خاصة والبعض عامة إلى يوم سقوط آل رومانوف قياصرتهم في أثناءِ هذه الحرب العامة « سنة ١٩١٧ » حيث جنت العامة الروسية جنونها المطبق ونادت بالفوضى بأبعد معانيها وهي التي أطلق عليها إسم « بلشفية » وما هذا الجنون إلّا نتيجة لازمة لجنون القياصرة وأعوانهم من الخاصة باستبدادهم بالعامة إذ =

وَلَيْسَ تَأْنَفُ أَرْبَابُ ٱلْوَجَاهَةِ مِنْــهَا أَنْ يَضُمَّ سَوَادَ ٱلْقَوْمِ نَادِيْهَا
وَإِنَّ أَحْكَامَهَا شُوْرَى يُصِيْخُ لَهَا شُيُوْخُهَا إِذْ تُنَادِيْ مُسْتَشَارِيْهَا
شُوْرَى إِلَيْهَا ٱنْتَهَتْ مِنْ جَاهِلِيَّتِهَا تَٱللَّهِ قَدْ تَخِذَتْهَا عَنْ قُرَيْشِيْهَا[1]

= كانوا يسومونهم من الظلم والذلّ الشيء الكثير والإفراط كالتفريط في كلّ شيء .

أمّا العرب فمن أقدم تاريخهم في جاهليتهم لم يعرفوا هذا التفاوت ولم يكن عندهم حاجز بين الخاصة والعامة على ما نقرأ من أشعارهم وتواريخ قدمائهم في اليمن والحجاز والعراق والشام ولو أردنا الاستشهاد على هذا لضاق بنا المجال وما أفدنا القارىء اللبيب شيئاً جديداً لأنّه معروف عند الجميع ومألوف . وعندما ظهر الإسلام أيّد القرآن الشريف هذه الاشتراكية الصحيحة التي ألفها العرب فآخى بين المؤمنين وجعل المصطفى الأفضلية بين المسلمين لمن فضل إخوانه بالتقوى وهي في استطاعة كل مؤمن يريد أن يكون صالحاً . ومن يطالع تاريخ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يجد هذا النبي الذي قام بنشر الدعوة كان القدوة الصالحة لمن خلفه من الخلفاء والملوك باشتراكيته ودعته وتواضعه إذ كان يجالس عامة الناس ويواكلهم ويباسطهم ويبش لهم كلما دعوه باسمه الشريف « يا محمد » .

وبعد أن انبسط ملك العرب وامتدّ سلطانهم على الشام ومصر والبربر والعراق وفارس والأندلس وأصبحت كلمتهم في العالم هي العليا لم يغرّهم سعة الملك كما غرَّ غيرهم فظلّوا على ديموقراطيتهم لا يأنف خلفاؤهم وملوكهم وأمراؤهم وقضاتهم وعلماؤهم أن يجالسوا العامة ويواكلوهم ويتزوجوا منهم ويزوجوهم ولسان حال الجميع الآية الشريفة ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ وما زال حال العرب في مواطنهم على هذا المنوال إلى يومنا هذا على ما شهدنا عياناً إلّا حيث امتدّ نفوذ الأتراك فقلدوهم وهم كغيرهم من الشعوب ما عرفوا للاشتراكية معنى وإننا لنفتخر بإثبات هذه المزية لأمتنا العربية الشريفة ونحن واثقون أنهم سيجرون عليها في مستقبلهم العظيم كما احتفظوا بها في ماضيهم وهكذا يظلون المثال الحي للاشتراكية أو الديموقراطية المحمودة إلى الأبد .

(١) كان القرشيون سادات العرب الحجازيين وأشرافهم بالإجماع ولعلمهم نالوا هذا الشرف العظيم لسكنى رؤسائهم وهم هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، =

=وأسد ، وتميم ، ومخزوم ، وعدي وجمح ، وسهم ، في مكة المكرمة نفسها التي هي مقرّ الكعبة محاج العرب جميعاً كرّمها الله ، وكان هؤلاء الرؤساء يقتسمون الحكم بينهم على ما يقرب من الحكم الجمهوري المعروف في زمان الناس هذا وهاك أقسام ذلك الحكم الذي سمّيناه جمهورياً .

كان بنو هاشم مختصّون بالسقاية وهي أهم الوظائف لذلك العهد لما تعلمه من قلّة المياه في مكة كرمها الله فرئي أن يناط أمر سقاية الحجاج بأكبر أولئك العرب نفوذاً حتى لا يقتتلوا على المياه في الأشهر الحُرُم المحرَّم فيها القتال .

واختصّ بنو هاشم أيضاً بالعمارة وهي حفظ النظام في الكعبة المكرمة في زمن الحج فكانوا يراقبون الحجاج ويمنعونهم عن بذيء القول أو رفع الصوت أو التزاحم بالمناكب الخ .

وكان العقاب وهو راية قريش الكبرى عندهم من نصيب بني أمية يحفظونها عندهم حتى إذا ما وقعت الحرب أخرجوها وأعطوها لمن ينفقون عليه من أولئك الرؤساء وقدموه عليهم في الحرب وبقوة هذه الراية جمع أبو سفيان والد معاوية العرب على حرب النبوَّة .

وكانت الرفادة في بني نوفل ومعناها رفد المنقطعين من الحجاج لإعادتهم إلى مواطنهم .

وكانت السدانة والحجابة في بني عبد الدار ومعناهما خدمة الكعبة وحفظ مفاتيحها وكذلك كانت فيهم الندوة أي موضع اجتماع أولئك الرؤساء للتشاور بأمورهم المهمة .

وكانت المشورة في بني أسد ولعلّهم أرادوا بها رئاسة ندوتهم عندما يجتمعون للشورى بدليل أنّهم كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة فإن أعجبه وافقهم عليه وإلّا تخير وكانوا له أعواناً فيما يختار .

وكان الأشناق في بني تميم ويريدون بهذه الوظيفة جمع المال والجمال لمساعدة من يحمل غرماً أو دية من قريش توسلاً لحقن الدماء وحفظ كرامة قريش .

وكانت القبة في بني مخزوم وذلك أنّ قريشاً عندما كانوا يهبون إلى حرب كان =

أَمَّــا عَـقَــائِــدُهَــا فَــٱلْأَكْـثَــرِيَّــةُ   أَلَّهَتْ إِلٰـهَ ٱلسَّمَا ٱلْخَـلَّاقَ تَأْلِيْهَـا(١)

= يضرب لهم زعيم بني مخزوم قبة يجمعون إليها عددهم الحربية وتجهيزاتهم العسكرية .

وكانت الأعنة أيضاً في بني مخزوم ويريدون بها رئاسة الخيالة فكان زعيم بني مخزوم هو الذي يعتني بالخيالة في الجيش ويقودهم إلى القتال .

وكانت السفارة في بني عدي ويراد بها مخابرة الأعداء لإشهار حرب أو تلافيها أو عقد صلح الخ .

وكان الأيسار في بني جمح وهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها إذا أرادوا أمراً خطيراً وهي من خرافات العرب وجاهليتهم وقد حرمها الإسلام .

وكانت الأموال المحجرة في بني سهم وهي الأموال المرصد ريعها على آلهتهم أو فقرائهم وهي أشبه بالأوقاف الخيرية المعروفة في الإسلام .

وعلى هذا التقسيم كانت قريش تدير شؤون العرب وتحكمهم حكماً جمهورياً شورياً قد أقرّه الإسلام بقوله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ وقوله سبحانه مخاطباً المصطفى ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ ومن هذا الحكم يكون للعرب أولاً وللإسلام ثانياً فخر إيجاد الحكم الشوري الذي تتمشى عليه الأمم الراقية في عصرنا الحاضر وتحسبه شعار تمدنها .

(١) وجد الدين مع الإنسان منذ وجد وتفرعت أصوله بتفرع إدراكه وكان باعثه إليه ضعفه ووجوده محتاجاً أبداً إلى قوة علوية تدفع عنه الشرّ وتسهل إليه ما يحتاج من خير وقد تخيل ان ما وصل إليه من خير وما توفق إليه من دفع ضرّهما بمدد قوة علوية فعبدها واحترمها وألهها وما كفاه هذا حتى أشرك معها ما تخيله مظهراً من مظاهر هاتيك القوة العلوية كالشمس التي أدرك أنّ الكائنات تعيش بحرارتها وتستجلي الظلمات بضوئها ثم عبد الكواكب والنجوم لاستدلاله بها على الأنواء ثم تدرَّج إلى عبادة الأشخاص الذين امتازوا بأعمال غير مألوفة فحسبوهم من مظاهر الإلّه سبحانه حتى إذا ما توفوا تحولت عبادتهم لقبورهم أو أقاموا لهم الصور والتماثيل ثمَّ لجهل الإنسان نسي أنّ عبادة الأشخاص أو صورهم وتماثيلهم أو الشمس والنجوم والكواكب حتى الحيوانات أيضاً التي كانت تفيده لحياته أو يخشى ضرَّها نعم نسي أنّ عبادته هذه كانت زلفى لله خالق =

= الكائنات على اعتبار أنّها من مظاهره سبحانه وتعالى بل نسي أيضاً نفس الخالق وعبدها لنفسها فكانت العبادة الوثنية مملوءة بالجهالات والخرافات ومفضية إلى الإشراك فالكفر بالله والعياذ بالله .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعيد الناس إلى الهدى بعد الضلال فأرسل إليهم رسله وأنبياءه فكان أولهم بعد الطوفان سيدنا إبراهيم الخليل صلّى الله عليه وسلّم فكان أبا الأنبياء جميعاً وكلّهم من صلبه وأشهرهم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لكثرة من انتمى إليهم من الموحّدين .

وكان العرب قبل عهد سيدنا إبراهيم على الوثنية حتى إذا ما هاجر إليهم هذا النبي الكريم بولده سيدنا اسماعيل وامرأته هاجر عليهم السلام دخل العرب في دينه أفواجاً ووحّدوا الله على يديه وابتنى لهم الكعبة المشرّفة على أنّ كثيرين منهم ظلّوا على وثنيتهم يرون الهدى ولا يهتدون .

ثم انتقلت الديانة الموسوية إلى العرب بهجرة طائفة من بني إسرائيل إلى الحجاز وأول من دان بها هم أهل طيبة « وكان اسمها يثرب » وهي المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام قالوا إنّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عندما خرج بقومه من مصر بعد قصته مع فرعون على ما في القرآن الشريف أقام أربعين سنة في صحراء سيناء وهي التي دعتها التوراة باسم « التيه » وفي هذه المدة تخلّف عنه بعض اليهود وساروا إلى الحجاز فنزلوا في موضع فيه ماء يسمى « بئر أدهم » فأقاموا فيه وبنوا في موضعه مدينة دعوها يثرب فكانت مدينة يهودية ثمّ طفق اليهود ينتقلون إلى الحجاز فاليمن طلباً للرزق أو فراراً من الاضطرابات والحروب التي انتابت بلادهم « فلسطين في عهد تملكهم لوقوعها بين دولتين قويتين متشاكستين هما دولة مصر ودولة آشور » وباختلاط الإسرائيليين بالعرب دان منهم كثيرون باليهودية وكانوا مع مشركي قريش أعداءً للنبوّة على ما هو مذكور في القرآن وتاريخ صدر الإسلام .

ثمّ انتشرت النصرانية في العرب فكان أول ظهورها في نجران شمالي صنعاء اليمن وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر نعمان بن المنذر وفي قبائل من طي وفي عرب الغساسنة في الشام لمجاورتهم الروم وهم على النصرانية . =

وَكَانَ فِيْهَا ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُوْدُ وَأَقْوَامٌ مُعَطِّلَةٌ وَٱلْكُفْرُ مُطْغِيْهَا

= نقول وإنّ آثار التعاليم الموسوية والمسيحية كثيرة في كثير من الشعر الجاهلي وفي هذا دلالة ناصعة على أنّ اليهود والنصارى العرب نشروا كتبهم بين القوم فتداولتها الألسن .

وعلى هذا فقد كان العرب عند ظهور البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام على أربعة أديان أولها الموحدون على دين إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل والثاني النصارى والثالث اليهود والرابع الوثنيون .

على أنَّ الذين كانوا على دين سيدنا إبراهيم وسيدنا اسماعيل ما كانوا يخلون من الإشراك وذلك ان إبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنيا الكعبة في مكة المكرمة على ما علمت وجعلاها مطافاً يحجّها أولادهما فلما كثروا انتشروا في أطراف الجزيرة وكانوا في هجرتهم من مكة يأخذون معهم للتبرك شيئاً من حجارة الكعبة فجعلوا يعظمونها تقرّباً لله عزَّ وجلَّ وما زالوا يتوسعون بتعظيمها حتى جعلوها أصناماً وأوثاناً وعبدوها مع الله سبحانه فباتوا مشركين .

وحدث أن عمرو بن لُحَيّ الخزاعي سافر إلى بلاد الشام وفي طريقه رأى هؤلاء المشركين وما عندهم من التماثيل التي يعبدونها فحسنت له عبادتها فأخذ بعضاً منها وأقامها على الكعبة وكان هو سادنها وهكذا دخلت عبادة التماثيل إلى الكعبة المشرّفة التي بنيت في الأصل لعبادة الله الواحد الأحد .

وعندما رأت قريش ما فعل عمرو بن لُحَيّ اتّبعوه وما اكتفوا بما جاء به من التماثيل بل أضافوا إليها تماثيل أخرى الظاهر أنّهم اقتبسوها عن التماثيل اليونانية التي كانت تمثل القوات المختلفة ويسمونها آلهة كإله الحرب وإله البحر إلخ ووضعوها في فناء الكعبة .

ومما لا ريب فيه أنّ العرب ما كانت تعظم هذه الأوثان التي ملأت بها الكعبة المشرّفة إلاّ تقرّباً لله لما جاء في الكتاب العزيز ﴿ **ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى** ﴾ على أنَّ هذه العبادة حسبها محمد بن عبد الله ﷺ إشراكاً ودعا لأجلها قريشاً مشركين وأبى عليهم إلاّ أن يتجرّدوا لعبادة الواحد الأحد موحدين وأيّده الله فكان له النصر العظيم .

وَأُمَّـةٌ عَبَـدَتْ زُلْفَى لِخَـالِقِهَـا ٱلأَ صْنَـامَ جَهْلاً وَتَـأْبَى هَـدْيَ هَـادِيْهَـا

وَغَـايَـةُ ٱلْقَـوْلِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاصِفُهَـا بِخَيْـرِ مَا فِي ٱلْبَـرَايَا مِنْ أُنَـاسِيْهَا[1]

فَتَـأْمُرُ ٱلنَّـاسَ بِـٱلْمَعْـرُوْفِ تُـوْجِبُـهُ كَمَـا عَنِ ٱلْمُنْكَـرِ ٱلْمَتْلُوْفِ تُنْهِيْهَـا

وَآمَنَتْ بِـإِلٰـهِ ٱلْعَـرْشِ قَـدْ عَـرَفَتْـهُ ٱلْـوَاحِـدَ ٱلْأَحَـدَ ٱلْقَهَّـارَ ذَارِيْهَـا

هٰذِيْ هِيَ ٱلْأُمَّةُ ٱلْعَلْيـا ٱلَّتِيْ بَزَغَتْ أَنْـوَارُ أَحْمَـدَ مِنْ أَقْصَى فَيَـافِيْهَـا

وَٱخْتَصَّهَا ٱللَّهُ بِٱلْإِسْلَامِ تَنْشُرُ فِي ٱلآ فَـاقِ دَعْـوَتَـهُ ٱلْحَسْنا وَتُـزْكِيْهَـا

وَكَـانَ أَشْـرَفَهَـا جَـاهَـاً وَأَعْـظَمَهَـا قَـدْرَاً قُـرَيْشٌ فَـلاَ نِـدٌّ يُـدَانِيْهَـا

وَإِنَّهَـا لَبُـطُوْنٌ وَٱلْـوَجَـاهَـةُ فِيْ ٱلـ ـتَّخْصِيْصِ مَا ٱبْتَعَدَتْ عَنْ هَاشِمِيّيْهَا

وَخَيْـرُ هَاشِمَ بَـلْ خَيْرُ ٱلْخَلِيْقَـةِ أَحْـ ـمَـدُ ٱلَّذِي شَـرَّفَ ٱلـدُّنْيَـا وَأَهْلِيْهَـا

وَبَعْـدَهُ ٱلْمُرْتَضَى صِنْـوُ ٱلنَّبِيِّ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ أَفْضَـلُ خَلْقِ ٱللَّهِ تَفْقِيْهَـا

وَحَسْبُ أُمَّتِنَـا بِـٱلْمُصْـطَفَى وَعَلِـيِّ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ تُكَاسِيْ مَنْ يُكَاسِيْهَا

حسب أمير المؤمنين ونسبه

وَنِسْبَةُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلْمُصْطَفَى وَهُمَـا فِيْ ذِرْوَةِ ٱلْمَجْدِ فِيْ أَعْلَى أَعَالِيْهَا[2]

هُمَـا خِيَارُ بَنِيْ آسْمَـاعِيْلَ نَـازِلِ أَرْ جَـاءِ ٱلْحِجَازِ ٱلْأُوْلَى بَـاتُوْا مَـوَالِيْهَا

---

(١) قال الله عزَّ وجل في كتابه العزيز يصف الأمّة العربية الكريمة ﴿ **كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ ولعمري أنّ شهادة الوحي هذه لهم لتكسبهم غاية الفخر إلى يوم القيامة .

(٢) إنّ التنويه بحسب المرتضى ونسبه عليه صلوات الله كالتنويه بفضل الشمس وكما أنَّ كل إنسان يعلم أنّ الله سبحانه خلق الشمس لتضيء دياجي الكون ولترسل حرارتها فيحيا بها النبات والحيوان والإنسان بإذنه تعالى كذلك كلُّ إنسان يعلم حسب المرتضى وأنّه في شرف نسبه مقترن مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كلاهما فرعي دوحة بلغت من =

وَإِنَّهَــا عِتْرَةٌ مَــا فِيْ آلْخَـلاَئِقِ مَنْ   يَــدْنُـو لِسُؤْدُدِهَــا أَوْ مَنْ يُــدَانِيْهَــا

نَـمَتْ أُصُــوْلاً وَأَفْـخَــاذاً مُنَــوَّعَــةً   وَكَــانَ أَسْمَقُهَــا مَجْــداً قُـرَيْشِيْهَــا

وَفِيْ قُــرَيْش فُـرُوْعُ كَــانَ أَفْضَلَهَــا   جَاهَــاً هَـوَاشِمُهَــا مَــا مَنْ يُسَــامِيْهَــا

وَفِيْ آلْهَــوَاشِمِ سَادَ آلنَّــاسَ مُطَّلَبُ   فَكَــانَ نَــاظُـوْرَهَــا آلأَعْلَى وَرَافِيْهَــا

وَزَادَهُ آلـلَّهُ جَــاهَــاً بِــآلنُّبُــوَّةِ فِيْ   حَفِيْـدِهِ آلْمُصْـطَفَى إِذْ آضَ رَاعِيْهَــا

وَإِنَّهَــا عِــزَّةٌ تُحْنَى آلــرِّقَــابُ لَهَــا   وَلَيْسَ مِنْ عِــزَّةٍ قَعْسَــا تُنَــاحِيْهَــا

قَدِ آبْتَدَتْ بِـآلأَمِيْنِ آلْمُصْطَفَى وَعَلِـــيٌّ مِنْــهُ آخِـذُهَــا إِرْثــاً وَجَــانِيْهَــا

كِــلاَهُمَــا نَهَــلاَ مِنْ مَــوْرِدٍ عَــذِبٍ   جَـرَى بِهِ مِنْ مِيَــاهِ آلْمَجْدِ صَــافِيْهَــا

نَعَمْ أَبُـوْ طَالَبٍ رَبَّى آلـرَّسُـوْلَ وَحَــا   جَاتُ آلرَّسُوْلِ آلْمُفَدَّى كَانَ قَاضِيْهَا

وَآلْمُصْطَفَى كَرَمَاً رَبَّى آلْوَصِيَّ عَلَى   يَـدَيْـهِ تَــرْبِيَـةً مَــا آنْفَـكَّ فَــائِيْهَــا

كَمَــا تَــرَبَّى بِــإِدْلاَلِ آلْخَـدِيْجَــةِ أُ   مِّ آلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى رَاضِيْ تَبَـنِّيْـهَــا

= الشرف غايته ومن السؤدد نهايته هي دوحة آل عبد المطلب رأس بني هاشم وما بنو هاشم إلّا سادات قريش وما قريش إلّا أشرف أشراف العرب بانتمائها إلى سيدنا اسماعيل ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليهما وعلى المصطفى والمرتضى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

وإذا كان المجد العربي الأسمى قد انتهى في الجاهلية إلى بني هاشم فقد ابتدأ من هذا البيت الكبير مجدٌ أسمى لا يدانيه مجد الدنيا والآخرة بالنبوّة إذ اختصَّ بها سبحانه وتعالى سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فكان خاتمة النبيّين وسيد المرسلين . ولقد ورث هذا المجد العظيم وصيّه ووليّه وصنوه وأخوه وربيبه وصهره وابن عمّه سيدنا سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب فكان ثاني اثنين في العالمين لا يدانيه بذلك مدان من بني عدنان ومن عالم الإنسان . وسوف نرى فضائل هذا السيد العظيم التي لا يحيط بها بيان وقد قامت عليها البيّنات وأثبتها القرآن .

وَقَـدْ تَـزَوَّجَ مِنْ أَسْمَى كَـرَائِمِهَـا   وَمَـا بَنُـوْ ٱلْمُـرْتَضَى إِلَّا ذَرَارِيْهَـا
وَبَـيْتُـهُ بَـيْتُ طَـهَ وَهْـوَ مُـتَّحِـدٌ   مَعْـهُ بِـوِحْـدَةٍ حَـالٍ لَا تُجَـزِّيْهَا
وَفِيْ ذَرَى ٱلْكَعْبَـةِ ٱلزَّهْـرَاءِ مَـوْلِـدُهُ   فَكَـانَ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَـرْبَـاءِ كَعْبِيْهَـا
وَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِيْ ٱلْبَشِيْرِ أَخَاً   مُـذْ أَحْكَمَتْ أُمَّـةُ ٱلْهَـادِيْ تَـآخِيْهَا
كَـانَـا كَمُـوْسَى وَهَـارُوْنٍ لِأُمَّتِنَـا   وَإِنَّمَـا بِهِمَـا ٱلْخَـلَّاقُ مُسْمِيْهَـا
وَلِـلرَّسُـوْلِ أَحَـادِيْثٌ مُـثَبَّـتَـةٌ   عَنْ فَضْـلِ حَيْدَرَةٍ مَـا مَـانَ رَاوِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْكِتَـابِ مَثَـانٍ فِيْـهِ قَـدْ نَـزَلَتْ   فَشَـرَّفَتْـهُ فَقُـلْ : سُبْحَـانَ مُـوْحِيْهَـا

والد أمير المؤمنين

لَدَى أَبِيْ طَالِبٍ قِفْ صَاحِ مُحْتَرِمَاً   غُرَّ ٱلْأَيَادِي ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ يُسْدِيْهَا(١)
وَلَا تَخَـلْ أَنَّنِـي أَوْفِيْ مَـدَائِـحَـهُ   فَـإِنَّ مِـدْحَتَـهُ مَـا مَنْ يُـوَفِّيْهَـا

---

(١) كان لعبد المطّلب كبير بني هاشم ثلاثة عشر ولداً وهم الحارث وهـو أكبرهم وكـان به يكنّى وشقيقـه قثم . وعبد منـاف وقيـل عمـران المكنّى بـأبي طـالب والـزبيـر وعبد الكعبة وعبد الله والد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء الأربعة هم أشقاء . وحمزة والمقـدم والمغيـرة الملقب بجحـل وهؤلاء الثـلاثـة أشقـاء . واليـاس وضـرار وهمـا شقيقـان . وعبد العزّى المكنّى بأبي لهب وهو أعدى أعداء النبي الذي نزلت فيه آية ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ ومصعب الملقّب بالغيداق وهما شقيقان . وكـان أبو طـالب أوجه وجهـاء قريش وزعيمهم بعد أبيه عبد المطلب وأنفـذهم كلمةً وأحكمهم رأيـاً واشتهر عنـه أنّه لم يـذق الخمر طوال حياته وكان من الذكاء والدهاء وقوة الإرادة ما يدلك عليه نفـوذه على قريش حتى استطاع أن يحمي ابن أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من أعدائه فلم ينله أذاهم طوال حياته مع أنّه كان يحارب دينهم .

ومن المعلوم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عـاش يتيماً فقـد مات أبـوه عبد الله وأمّـه حـامـل بـه فكفله منذ ولادته جدّه عبد المطلب ومات وللنبي من العمر ثمان سنوات فكفله عمّه أبـو طالب الذي انتقلت إليه زعامة بني هاشم بعد موت أبيـه ولقد قيـل كثيراً عن رعـاية أبي =

قَدْ كَانَ أَفْضَلَ شَيْخٍ فِيْ قُرَيْشَ جَمِيْــــعَاً بِـاَلْمَحَـامِدِ لاَ فِيْ هَـاشِمِيِّيْهَـا

= طالب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مدة كفالته له التي طالت إلى أن شبّ عن الطوق وفي الأحاديث الثابتة عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنّه عليه الصلاة والسلام كان كثير الامتنان من كفالة عمّه الطيبة له . والثابت أنّه كان يضجعه بجانبه ويسهر على راحته ويقدم له أحسن الطعام . وكأني بالشيخ أبي طالب كان يحسن الفراسة بالغلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويقدّر له مستقبلاً عظيماً في الدنيا ووجاهةً كبرى عند الله يدلّك على ذلك استسقاء السماء بوجهه . قال جلهمة بن عرفطة قدمت مكة وقريش في قحط فاختلفوا في كيف يستسقون السماء فقال بعضهم باللّات وآخرون بالعزى وفي الأخير قال عاقل منهم أنّى تؤفكون وفيكم باقية إبراهيم وسلالة اسماعيل عليهما السلام ألا وهو أبو طالب فلننصرف إليه فأطاعوه وقصدوا أبا طالب في بيته فخرج معهم ومعه المصطفى وهو غلام وقصدوا الكعبة كرّمها الله وهناك جاء بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وألصق ظهره بالكعبة وصلّى ودعا فأقبل السحاب واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي . وقد أشار أبو طالب إلى هذا الحادث العظيم الذي كان باكورة معجزاته عليه الصلاة والسلام في قصيدته الكبرى التي أنشدها في مديح المصطفى بعد بعثته بقوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

وكان أبو طالب كثير التعلق بالمصطفى كما كان المصطفى كثير التعلق به ولذلك عندما عزم أبو طالب على المسير إلى الشام للتجارة على عادة قريش وذلك بعد كفالته له بأربع سنوات عزّ عليه فراقه فصحبه معه وكانت هذه أولى رحلات المصطفى وأوفرها بركةً وفيها من الحوادث العظمى المشيرة إلى نبوّته مع راهب بحيراء وغيره ما هو صريح في السيرة النبوية .

ونال أبا طالب جهدٌ عظيم عندما ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببعثته وهمَّ مشركو قريش وكفّارها بمعارضته ونادوا بكراهة ما كان يجهر به من تحقير آلهتهم وتعظيم إلّهه الأحد على أنّه استطاع أن يحميه منهم فما نالوه بأذى في كل حياته وهذا فضل عظيم لهذا العميد الفخيم .

وعندما أدركت أبا طالب الوفاة وهو كما علمت كبير زعماء قريش استدعى زعماء قومه إليه وودعهم بهذه الوصية فقال : « يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه ، =

وَكَانَ بَعْدَ أَبِيْهِ ٱلْقَرْمِ سَيِّدَهَا   بِلَا جِدَالٍ وَحَامِيْهَا وَآسِيْهَا

= وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدَّم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلّا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلّا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، أوصيكم بتعظيم هذه البنيَّة (يريد الكعبة كرّمها الله) فإنّ فيها مرضاةً للربّ ، وقواماً للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإنّ في صلة الرحم منسأة (يريد فسحة) في الأجل ، وزيادة في العدد ، واتركوا البغيَ والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإنّ فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإنّ فيهما محبة في الخاص ، ومكرمة في العام ، وإنّي أوصيكم بمحمد خيراً فإنّه الأمين في قريش ، والصديق في العرب ، وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به ، وأيم الله كأنّي أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البرّ في الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم ، يا معشر قريش لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ، وما اتّبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا » اهـ .

وتوفي أبو طالب في العام الذي توفيت فيه سيدتنا خديجة أم المؤمنين وكانت وفاتهما في زمن متقارب في العام العاشر من بعثة المصطفى ﷺ وقبل هجرته للمدينة المنورة بثلاث سنوات وعلى أثر وفاة ذلك الشيخ الجليل أخذت تمتدُّ يد قريش للمصطفى بالأذى فطفقوا يهينونه ويسبونه عنوةً ويحثون عليه التراب وكان هذا الأذى سبب هجرته مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

وقد اختلف المؤرخون في إسلام أبي طالب أو بقائه على الشرك ولكل فريق أدلة يرتكنون إليها وأحاديث نبوية يستشهدون بها وليس لمثلي أن يبتّ في مثل هذا الأمر الخطير وإنّما الاستدلال من واقع الحال يرجّح قول الّذين يقولون بإيمانه لأنّ الإنسان مهما تغالى في صلة رحمه وفي حبّه لابنه أو ابن أخيه أو نسيبه لا يسعه أن يغضّ الطرف عن ذاك المنتسب إليه أو المحبوب منه إذا رآه يعتدي على دينه ويحاول أن يدكّ أركانه ويقيم في موضعه ديناً آخر إن لم يكن هو أيضاً متفقاً معه في الاعتقاد لما تعلم من =

وَكَــانَ أَحْكَمَهَــا رَأْيــاً وَأَفْضَــلَهَــا حَـزْمَـاً وَأَكْثَـرَهَـا مَجْـدَاً وَتَـوْجِيْهَــا
مِـنْ بَعْــدِ مُــطَّلَبٍ دَانَـتْ لِـسُؤْدُدِهِ طَـوْعَاً فَكَـانَ إِلَى ٱلْإِسْعَادِ مُمْشِيْهَـا
وَٱلْجَـاهِلِيَّـةُ فِيْ عَلْيَـاهُ قَـدْ خَتَمَتْ فَخَـارَهَا مُـذْ غَدَا ٱلْإِسْـلَامُ طَاوِيْهَـا
وَحَسْبُـهُ كَفِـلَ ٱلْهَـادِيْ ٱلْأَمِيْنَ كَفَـا لَــةً جَمِيْــعُ عِبَــادِ ٱللَّهِ تُــطْرِيْـهَــا
فَكَــانَ كَــافِلَهُ وَهْــوَ ٱلْيَتِيْمُ بِعَــطْــــفَــةٍ وَحَقِّكَ مَــا ٱلآبَـاءِ تَــأْتِيْهَــا
وَكَــانَ يَـعْـنَـى بِــهِ بِــرَّاً يُـفَـضِّـلُهُ عَلَى بَنِيْــهِ لِكَـيْ يَــزْدَادَ تَــرْفِيْـهَــا
وَكَــانَ يُضْجِعُــهُ فِيْ قُــرْبِــهِ وَلَيَــا لِيْــهِ ٱلـطِّوَالُ عَلَيْــهِ كَــانَ يُحْيِيْهَــا

= تمسك الناس بأديانهم ومبالغتهم بتقديسها وتفضيلهم لها على كل اعتبارٍ آخر حتى ان المؤمن ليقتل ابنه أو أباه إذا رآه يحقّر دينه ويستهين بمعبوده . وإذا صدق هذا على عامة الناس فبالأولى أن يصدق على خاصتهم مثل أبي طالب الذي كانت له المكانة العليا في قريش فهو ملزم من جهة نفسه ومن جهة مركزه أن يدافع عن الدين الذي يدين به وهو وقومه كي لا تسقط مكانته من عيونهم وكي لا يعرض نفسه لغضب معبوداته فيخسر آخرته . وعلى هذا فأبو طالب لا بدَّ وأن يكون قد آمن برسالة ابن أخيه عليه الصلاة والسلام في قلبه ولكنه لم يجهر بها لاعتبارات تقتضيها الحكمة وتدعو إليها السياسة . فإنّه لو جهر بإيمانه في بدء البعثة وفجر الدعوة لانقلبت عليه قريش بجملتها وأسقطته من حالق مجده وعبثت بحرمته وحينئذٍ يعجز عن ردّ الأذى عن ابن أخيه وهو لا يزال ضعيفاً وهذا الذي جعله يكتم ما في نفسه من الإيمان وظاهر أعماله وقصائده وخطبه تظهره بأحلى بيان . إذ رأيناه يدافع عن المصطفى بنفوذه وجاهه ويمدحه بقصائده وخطبه حتى آخر لحظة من حياته على ما رأيت من وصيته وعلى هذا فيكون أبو طالب من خيار الصحابة والأنصار بغير جدال ، وحبذا لو وفق الله الإسلام في عصر الناس هذا إلى من يحمون ذماره ويعلون كلمته كما فعل أبو طالب في فجر البعثة إذن يظلّ الإسلام في خير .

هذا هو أبو طالب كفيل المصطفى وعمّه وحبيبه ونصيره ووالد سيدنا أمير المؤمنين يعسوب الدين أسد الله الغالب علي بن أبى طالب بل هذا هو الرجل العظيم الذي ربّى هذين النيرين فأضاءا في سماء الدنيا والدين .

وَكَانَ فِيْ بَيْتِهِ ٱلرَّبَّ ٱلْمُحكَّمَ فِيْ شُؤُوْنِهِ مِثْلَمَا يَهْوَى يُجَرِّيْهَا
وَفِيْ ٱلْمَآكِلِ لاَ يُطْهَى هُنَالِكَ مِنْ أَلْوَانِهَا غَيْرُ مَا قَدْ كَانَ شَاهِيْهَا
وَسَارَ مَعْهُ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّآمِ بِرِحْـلَةٍ بَدَا جَاهُ طَـهَ لِلْمَلاَ فِيْهَا
وَرَدَّ عَنْهُ ٱلأَعَادِيْ عِنْدَ بَعْثَتِهِ ٱلـزَّهْرَا وَقَدْ كَثُرَتْ جَهْلاً أَعَادِيْهَا
وَكَانَ يُنْشِدُ فِيْ طَهَ قَصَائِدَهُ وَفِيْ نُبُوَّتِهِ ٱلْعَصْمَا وَيُمْلِيْهَا
وَكَانَ يَدْعُوْ إِلَى مَحْمُوْدِ دَعْوَتِهِ جَهْرَاً قُرَيْش وَبِٱلأُخْرَى يُمَنِّيْهَا
وَعِنْدَ مَا قَدْ دَنَتْ مِنْهُ ٱلْوَفَاةُ دَعَا رُؤُوْس أُمَّتِهِ كَيْمَا يُفَاهِيْهَا
وَقَالَ وَٱلْمَوْتُ يَغْشَاهُ بِصُفْرَتِهِ وَرَهْبَةُ ٱلْمَوْتِ يُشْجِي ٱلنَّفْسَ فَاجِيْهَا
أُوْصِيْكُمُ يَا بَنِي أُمِّيْ بِكَعْبَتِنَا فَإِنَّ فِيْهَا رِضَاءُ ٱللَّهِ ثَاوِيْهَ
وَإِنَّ رِزْقَكُمْ فِيْهَا يَنَالُكُمُ مِنَ ٱلْحَجِيْجِ إِذَا وَافَتْ مَغَانِيْهَا
وَبِٱلْوِدَادِ صِلُوْا أَرْحَامَكُمْ وَبِذَا تَنَالُ أُمَّتُكُمْ أَقْصَى أَمَانِيْهَ
وَحَاذِرُوْا ٱلْبَغْيَ مَعْ شَرِّ ٱلْعُقُوْقِ وَمَا يَلِيْهِمَا مِنْ شُرُوْرٍ ضَلَّ جَانِيْهَا
فَإِنَّهَا أَهْلَكَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمَاً كَانَتْ فَبَادَتْ وَإِنَّ ٱلإِثْمَ مُفْنِيْهَا
وَإِنْ دُعِيْتُمْ فَلَبُّوْا أَوْ سُئِلْتُمْ إِحْسَاناً فَجُوْدُوْا وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيْهَا
وَٱلصِّدْقُ أَوْلَى بِكُمْ وَٱلْكِذْبُ مَنْقَصَةٌ ذُوْ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّيْنِ يَأْبَى أَنْ يُدَانِيْهَا
أَدُّوْا ٱلأَمَانَاتِ أَدُّوْهَا بِلاَ مَهَلٍ إِلَى ذَوِيْهَا تَنَالُوْا شُكْرَ أَهْلِيْهَا
وَإِنَّنِي ٱلْيَوْمَ أُوْصِيْكُمْ بِأَحْمَدَ خَيْرَاً وَٱسْمَعُوْا دَعْوَةً مَا ٱنْفَكَّ دَاعِيْهَا
مَا مِنْ أَمِيْنٍ سِوَاهُ فِيْ قُرَيْش وَلاَ صَدِيْقَ لِلْعُرْبِ إِلاَّهُ يُوَالِيْهَا
إِنِّيْ لأَنْظُرُ فِيْ ٱلأَيَّامِ مُقْبِلَةً عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يُجْلِيْ دَيَاجِيْهَا
فِيْهَا تَهُبُّ صَعَالِيْكُ ٱلأَعَارِبِ مَعْـهُ بَيْنَ حَاضِرِهَا ٱلْمُهْدَى وَبَادِيْهَا

وَقَدْ أَجَابَتْ مَعَ ٱلْإِيْمَانِ دَعْوَتَهُ وَعَظَّمَتْ أَمْرَهُ تَدْعُوْهُ هَادِيْهَا

أَلْفِيْهِ يَخْرُجُ فِيْهَا لِلْحُرُوْبِ جَمَاعَاتٍ تَخُوْضُ ٱلْمَنَايَا لَا تُحَاشِيْهَا

تَبْغِي قُرَيْشَاً وَأَسْرِعْ أَنْ نُذَلُّ لَهَا وَأَنْ تَسُوْدَ عَلَيْهَا أَوْ تُلَاشِيْهَا

إِذْ ذَاكَ أَسْيَادُهَا تُمْسِيْ وَحَاجَتُهَا إِلَى مُحَمَّدَ بِٱلْإِذْلَالِ تُزْجِيْهَا

وَأَبْعَدُ ٱلنَّاسِ مِنْهُ بَاتَ أَقْرَبَهَا إِلَى مَوَدَّتِهِ بِٱلصَّفْوِ يُبْدِيْهَا

وَٱلْعُرْبُ دُوْنَ قُرَيْشٍ تَحْتَ رَايَتِهِ صَالَتْ وَجَالَتْ وَعَزَّتْ فِيْ تَسَطِّيْهَا

وَٱللَّهِ يَا أُمَّتِيْ لَا يُسْعَدَنَّ فَتَىً إِلَّا بِطَاعَتِهِ طُوْبَى لِحَاظِيْهَا

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِيْ مِنْ ذِيْ ٱلْوَصِيَّةِ حَتَّى مَاتَ وَهْوَ عَلَى ٱلسُّمَّاعِ يُلْقِيْهَا

وَعَمْرَكَ ٱللَّهَ هَلْ هٰذِيْ وَصِيَّةُ مُشْرِكٍ لِأُمَّتِهِ قَدْ رَاحَ يُوصِيْهَا

مُمَدَّدٍ فِيْ فِرَاشِ ٱلْمَوْتِ فِيْ دَنَفٍ وَنَفْسُهُ بَلَغَتْ مِنْهُ تَرَاقِيْهَا

وَهَلْ يُوَصِّيْ بِطَهَ ذِيْ ٱلْوَصِيَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ شِرْعَةُ ٱلْإِسْلَامِ رَاضِيْهَا

كَذَا أَبُوْ طَالِبٍ قَدْ كَانَ أَوَّلَ أَنْصَارِ ٱلشَّرِيْعَةِ بَلْ أَوْفَى مُحِبِّيْهَا

فَإِنْ يَمُتْ مُشْرِكَاً مَا ٱلشِّرْكُ مُهْلِكُهُ لِلْمَحْمَدَاتِ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ آتِيْهَا

وَإِنْ يَمُتْ مُؤْمِنَاً فَٱللَّهُ مُؤْجِرُهُ أَجْرَ ٱلصَّحَابَةِ مُثْوِيْهِ مَثَاوِيْهَا

وَإِنَّ نَفْسَاً أَتَتْ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلِ مَا ٱلْإِسْلَامُ تَٱللَّهِ نَاءٍ عَنْ مَطَاوِيْهَا

فَقَدْ تَكُوْنُ أَقَرَّتْهُ بِخَافِيْهَا وَلِلْمَحَاذِيْرِ مَا أَبْدَتْهُ مِنْ فِيْهَا

كَمْ مِنْ نُفُوْسٍ أَقَرَّتْ بِٱلشَّهَادَةِ وَٱلْإِسْلَامِ سِرَّاً وَكَانَ ٱللَّهُ دَارِيْهَا

وَكَمْ نُفُوْسٍ لَقَدْ أَبْدَتْ شَهَادَتَهَا زُوْرَاً وَكِذْبَاً وَكَانَ ٱلْكُفْرُ غَاوِيْهَا

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُخْفِيْ ٱلصُّدُوْرُ وَبِٱلْعَدْلِ ٱلْإِلٰهِيِّ يَوْمَ ٱلدِّيْنِ يُجْزِيْهَا

فَٱلْمُؤْمِنُوْنَ لَهُمْ رَحْبُ ٱلْجِنَانِ إِذَا أَعْمَالُهُمْ صَلَحَتْ يَثْوُوْنَ هَانِيْهَا

وَٱلْمُشْرِكُوْنَ لَهُمْ نَـارُ ٱلْجَحِيْمِ وَفِيْـــهَا ٱلْخَالِدُوْنَ وَمَا ٱلْأَحْقَابُ تُطْفِيْهَـا

والدة أمير المؤمنين

أُمُّ ٱلْعَلِيِّ وَأُمُّ ٱلْـمُـصْـطَفَى أَدرَتْ أَيُّ ٱلْمَفَـاخِـرِ أَبْقَتهَـا لِأَهْلِيْهَـا[1]

فَـإِنَّهَا كَفَلَتْ خَيْـرَ ٱلْخَـلَائِقِ أَسْـــمَـاهَا وَأَعْـظَمَهَـا جَـاهَـاً وَهَـادِيْهَـا

وَإِنَّهَـا أَنْجَبَتْ صِنْـوَ ٱلـرَّسُـوْلِ أَمِيْـــنَـاً لِلشَّـرِيْعَـةِ يُفْشِيْهَـا وَيَحْمِيْهَـا

كَـذَا ٱلْمَلَائِـكُ فِيْ جَنَّـاتِهَا حَفَلَتْ بِنَيِّـرَيْـهَـا وَوَدَّتْ لَـوْ تُـهَـنِّـيْـهَـا

فَتِلْكَ فَـاطِمَـةٌ أُوْلَى كَـرَائِمِ هَـا شِمٍ لَقَـدْ وُلِـدَتْ فِيْ هَـاشِمِيِّيْهَـا

وَخَيْـرُهُنَّ بِمَنْ رَبَّـتْ وَمَنْ وَلَـدَتْ وَحَقُّهَـا بِهِمَـا تُبْـدِي تَبَـاهِـيْهَـا

---

(١) إنّ والدة أمير المؤمنين عليه السلام هي فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولـدت لهاشمي وكـان سيدنـا أميـر المؤمنين أصغـر بنيهـا وكـانت من فضليـات النسـاء وعائلاتهن المدركات بالإجماع يـدلك على فضلها عنايتهـا بسيدنـا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنـدما كفله زوجها أبو طالب حتى كانت تفضله بمـأكله وملبسه على بنيهـا ويدلـك على تعقلها أنّهـا أدركت معنى الإسلام فـأسلمت قبـل غيرهـا فكـانت في عـداد المسلمين جميعـاً الحـادي عشـر أي أنّهـا أسلمت بعــد عشـرة من المسلمين والمسلمـات وبـايعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل كـل النساء المسلمـات وكـان المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم يبـالـغ بـإكـرامهـا وإعزازها وتبجيلهـا واحترامهـا ويثني عليها كثيـراً ويدعـوها أمّـه وحسبها بـذلك شـرفاً لا يعادله شرف وعندمـا حضرتهـا الوفـاة أوصت إلى المصطفى فقبـل وصايتهـا حتى إذا ما استأثرت بروحها الطاهرة رحمة الله كفنها رسول الله بقميصه وصلّى على جثمـانها ونـزل معهـا إلى لحدهـا واضطجـع بجانبهـا ولم يكن قد فعـل مثـل هـذا قبلهـا مـع ميت من المسلمين فسأله أصحابه عن صنيعه فقال : « لم يكن أحد أبرّ بي بعـد أبي طالبٍ منهـا إنّما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر » فإذا أضفنا إلى هذا الفخار فخار كون المرتضى عليه السلام ولدها وقد تغذى من درّ ثدييها قلنا إنّـها بلا جدال خير النساء .

وَٱللَّهُ أَسْعَدَهَا دُنْيَا وَآخِرَةً   جَزَاءَ مَا أَسْلَفَتْهُ مِنْ مَآتِيْهَا

فَأَسْلَمَتْ بَعْدَ عَشْرٍ مِنْ تُقَاةِ عِبَا   دِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ مِنْ أَلْطَافِ بَارِيْهَا

وَهِيَ ٱلَّتِيْ بَايَعَتْ قَبْلَ ٱلنِّسَاءِ رَسُوْ   لَ ٱللَّهِ بَيْعَةَ صِدْقٍ لَمْ تُؤَنِّيْهَا

وَكَانَ يُثْنِيْ عَلَيْهَا ٱلْمُصْطَفَى وَلَهَا   يَدْعُوْ بِأُمِّيْ إِذَا مَا رَاحَ دَاعِيْهَا

وَكَانَ يُكْرِمُ مَثْوَاهَا وَيَحْفَظُ مَا   لَهَا عَلَيْهِ قَدِيْمَاً مِنْ أَيَادِيْهَا

إِيَّامَ قَدْ كَانَ يَثْوِيْ رَحْبَ مَنْزِلَهَا   مَا بَيْنَ أَبْنَائِهَا يَلْقَى تَحَنِّيْهَا

وَمِثْلُ أَحْمَدَ لاَ يَنْسَى جَمَائِلَ مُثْـ   ـلِهَا وَرُبِّيْ يَتِيْمَاً فِيْ مَغَانِيْهَا

وَظَلَّ يَحْمَدُهَا حَتَّى إِذَا رَحَلَتْ   إِلَى ٱلْخُلُوْدِ ٱنْثَنَى يَبْكِيْ وَيَرْثِيْهَا

أَوْصَتْ إِلَيْهِ قُبَيْلَ ٱلْمَوْتِ حَاجَتَهَا   وَحَسْبُ رُغْبَتِهَا قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا

وَكَانَ كَافِنَهَا فِيْ ثَوْبِهِ كَرَمَاً   وَنَامَ فِيْ ٱلْقَبْرِ مَعْهَا وَهْوَ بَاكِيْهَا

كَيْمَا يُهَوِّنُ عَنْهَا ضَغْطَةً عُرِفَتْ   لِلْقَبْرِ مَنْ مَاتَ لاَ شَكٌّ يُعَانِيْهَا

وَكَيْ تَفُوْزَ بِأَثْوَابِ ٱلْجِنَانِ تُبَا   هِيْ ٱلصَّالِحَاتِ جَمِيْعَاً فِيْ تَكَسِّيْهَا

وَقِيْلَ لِلْمُصْطَفَى عَنْ حُسْنِ فِعْلَتِهِ   مَعْهَا وَمَا عَهِدَتْهُ قَبْلُ آتِيْهَا

فَقَالَ : مَا بَرَّ بِيْ مِنْ بَعْدِ عَمِّيَ طَا   لِبٍ سِوَاهَا لِذَا إِنِّيْ أُكَافِيْهَا

وَإِنْ أَضَفْنَا إِلَى هٰذَا ٱلْفَخَارِ فَخَا   رَ ٱلْمُرْتَضَى وَغَذَاهُ دَرُّ أَثْدِيْهَا

وَإِنَّهَا أَوْجَدَتْ لِلنَّاسِ قُطْبَ هُدَى   بَعْدَ ٱلرَّسُوْلِ إِلَى ٱلْإِيْمَانِ يَهْدِيْهَا

وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِيْ ذَاعَتْ مَفَاخِرُهُ   هُوَ ٱبْنُهَا وَمَبَادِيْهِ مَبَادِيْهَا

قُلْنَا لَفَاطِمَةُ خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ كَمَا   قَالَ ٱلرَّسُوْلُ وَمَنْ إِلاَّهُ يُدْرِيْهَا

ولادة أمير المؤمنين

فِيْ رَحْبَةِ ٱلْكَعْبَةِ ٱلزَّهْرَا قَـدِ ٱنْبَثَقَتْ ... أَنْوَارُ طِفْلٍ وَضَـاءَتْ فِيْ مَغَانِيْهَـا[1]

وَٱسْتَبْشَـرَ ٱلنَّـاسُ فِيْ زَاهِيْ وِلَادَتِـهِ ... قَـالُـوْا : ٱلسُّعُـوْدُ لَـهُ لَا بُـدَّ لَاقِيْهَـا

قَـالُوْا : ٱبْنُ مَنْ فَـأُجِيْبُوْا : إِنَّـهُ وَلَدٌ ... مِنْ نَسْلِ هَاشِمَ مِنْ أَسْمَى ذَرَارِيْهَـا

هَنُّـوْا أَبَـا طَـالِبِ ٱلْجَـوَّادَ وَالِـدَهُ ... وَٱلْأُمُّ فَـاطِـمَـةٌ هَيُّـوْا نُـهَـنِّـيْـهَـا

إِنَّ ٱلرَّضِيْعَ ٱلَّـذِي شَامَ ٱلضِّيَـاءَ بِبَيْـ ... ـتِ ٱللَّهِ عِـزَّتُـهُ لَا عِـزَّ يَحْكِيْهَـا

أَمَّـا ٱلْوَلِيْـدُ فَلَاقَى ٱلْأَرْضَ مُبْتَسِمَـاً ... فَمَـا رَغَـا رَهَبَـاً مَـا كَـانَ حَـاشِيْهَـا

إِلَى ٱلنِّسَـاءِ ٱلَّتِيْ حَوْلَيْـهِ قَدْ نَـظَرَتْ ... عَيْنَـاهُ نَـظْرَةَ مُسْتَجْـلٍ خَـوَافِيْهَـا

---

(١) كانت ولادة سيدنا ومولانـا أمير المؤمنين في العـام الثلاثين لـولادة المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام على ما حقق المحققون فتكون ولادته الشريفة سنـة ٦٠١ مسيحية . ومن بشائـر سعده عليه السلام أنـه ولد في الكعبـة كرّمهـا الله ولدتـه أمّه فيهـا فاستبشر بذلك أبوه وعمومته وعند ولادتـه الشريفـة دعته أمّـه حيدرة ومعنى هـذه الكلمة الأسـد فكأنّهـا أرادت أن تسمّيه بـاسم أبيها فلمـا وقع نـظر أبيه أبي طـالب عليه تـوسّم بمـلامحه العـلاء ودعاه عليـاً وقد صـدّقت الأيـام فـراسـته فكـان عليه السلام عليـاً في الـدنيـا والآخرة .

وعـام مـولـد سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام هـو العـام المبـارك الـذي بُـدىءَ فيـه بـرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فـأخذ يسمـع الهتاف من الأحجـار والأشجار ومن السمـاء وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً وفي هـذا العام ابتـدأ بالتبتـل والانقطاع والعـزلة في جبـل حرّاء وكان رسول الله يتيمن بذلك العام وبولادة سيدنـا علي عليهما وعلى آلهمـا الصلاة والسلام وكان يسميه « سنة الخير وسنة البركة » وقال المصطفى لأهله عندما بلغته بشرى ولادة المـرتضى « لقد ولـد لنا الليلة مـولود يفتـح الله علينا بـه أبـوابـاً كثيـرة من النعمـة والـرحمة » وكـان قولـه هذا أول نبـواته فـإنّ المرتضى عليه السلام كـان ناصـره والحامي عنـه وكاشف الغماء عن وجهه بسيفه ثبّت الإسلام ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده .

وَهُنَّ أَعْجَبْنَ بِـآلْمَوْلُـوْدِ شُمنَ بِـهِ شِبْـلاً بِبُنْيَتِـهِ سُبْحَـانَ بَـانِيْـهَـا

وَقُلْنَ : فَـاطِمُ قَـدْ جَـاءَتْ بِحَيْـدَرَةٍ يَـذُبُّ عَنْ قَوْمِـهِ آلْعُدْوَى وَيَحْمِيْهَـا

فَـرَاقَ فَـاطِمَـةً وَآلـطِّفْـلُ بَيْنَ يَـدَيْــــهَا قَـوْلَـةٌ سَمِعَتْهَـا مِنْ جَــوَارِيْهَـا

وَآسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ قَالَتْ : وَالِـدِيْ أَسَدٌ فَبِـآسْمِـهِ صِـرْتُ أُسْمِيْـهِ بِخَـافِيْهَـا

ثُـمَّ أَبُــوْ طَـالِـبٍ وَافَـى حَـلِيْـلَتَـهُ وَطِفْلَهَـا وَآثْنَى صَفْـواً يُحَـالِيْهَـا

وَهَمَّ بِـآلطِّفْلِ يَسْتَجْلِيْ مَلاَمِحَـهُ آلْــــزَّهْـرَا فَأَلْقَى آلْمَعَـالِيْ كُـوِّنَتْ فِيْهَـا

وَقَـالَتِ آلإِمُّ: يَـا بُشْــرَى بِحَيْـدَرَةٍ بُشْـرَى أَبَـا طَـالِبٍ وَافَيْتُ أُسْـدِيْهَـا

أَجَـابَهَــا: بَــلْ عَـلِيٌّ إِنَّـنِـيْ لأَرَا هُ بَــالِـغَــاً ذُرْوَةَ آلْعَـلْيَـا وَرَاقِيْـهَـا

آللَّهُ أَكْبَـرُ مِنْ تِلْكَ آلْفَـرَاسَــةِ بِـآلْــــمَـوْلُوْدِ وَآلْـوَالِـدُ آلْمُفْضَـالُ رَائِيْهَـا

قَـدْ حَقَّقَتْهَا آللَّيَـالِيْ بِـآلْـوَلِيْـدِ فَـأَمْـــــسَى بَيْنَ أَهْلِ آلْعُلَى وَآلْمَجْدِ عَالِيْهَا

وَعَـامُ مَـوْلِـدِهِ آلْعَـامُ آلَّـذِيْ بَـدَأَتْ بَشَـائِـرُ آلْـوَحْيِ تَـأْتِيْ مِنْ أَعَـالِيْهَـا

فِيْـهِ آلْحِجَارَةُ وَآلأَشْجَـارُ قَـدْ هَتَفَتْ لِلْمُصْـطَفَى وَهْـوَ رَائِيْهَـا وَصَـاغِيْهَـا

وَإِذْ دَرَى آلْمُصْـطَفَى فِيْـهِ وِلاَدَةَ مَـوْ لاَنَـا آلْعَلِيِّ غَـدَا بِـآلْبُشْـرِ يُـطْرِيْهَـا

وَبَـاتَ مُسْتَبْشِراً بِـآلـطِّفْـلِ قَـالَ بِـهِ لَنَـا مِنَ آلنِّعَمِ آلـزَّهْـرَاءِ ضَـافِيْهَـا

تربية أمير المؤمنين

عَـطْفُ آلرَّسُـوْلِ عَلَى أَفْرَادِ عِتْـرَتِهِ لَقَــدْ تَنَـاوَلَ دَانِيْهَـا وَنَـائِيْهَـا[١]

وَنَــالَ جَمْعَهُمْ مِنْ فَيْضِ رَحْـمَتِـهِ مَفَــاخِـرَاً لَيْسَ مِنْ فَخْـرٍ يُـدَانِيْهَــا

---

(١) في السنـة السادسـة من ولادة سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام منيت قـريش بأزمـة قحط شكاها الناس وتضرّروا منها فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما امتـاز به من الشفقـة والحنوّ وصلة الرحم والوفاء أن يخفف عن عمّه أبي طـالب وهو كثيـر العيال مؤونتهم فسـار إلى =

عَنْهُ مُواصَلَةُ ٱلْأَرْحَامِ قَدْ تَخِذَتْـ ـهَا ٱلنَّاسُ إِذْ كَانَ آتِيْهَا وَمُوْصِيَهَا
وَذَاتُ عَامٍ بِقَحْطِ ٱلْعَيْشِ قَدْ مُنِيَتْ قُرَيْشُ حَتَّى تَعَالَى صَوْتُ شَاكِيْهَا
وَأَوْشَكَ ٱلْجُوْعُ أَنْ يُفْنِيْ جَمَاعَتَهَا وَٱلْجُوْعُ لِلنَّاسِ مِنْ أَدْهَى دَوَاهِيْهَا
وَإِنَّ أَشْقَى ٱلْوَرَى حَالاً وَأَتْعَبُهُمْ عَيْشاً وَأَقْلَقُهُمْ بَالاً مُعِيْلِيْهَا
وَلَمْ يَفُتْ أَحْمَدَاً أَنَّ ٱلْمَصِيْبَةَ قَدْ نَالَتْ أَبَا طَالِبِ ٱلسَّامِيْ دَوَاعِيْهَا
وَإِنَّهُ ذُوْ عِيَالٍ بَاتَ يَعْجِزُ عَنْ حَاجَاتِهَا وَهْوَ يَغْذُوْهَا وَيُكْسِيْهَا
وَقَالَ فِيْ نَفْسِهِ : إِنِّيْ لِعَمِّيَ مَدْ يُوْنٌ وَدَيْنَتُهُ قَدْ آنَ أُوْفِيْهَا
أَعَالَنِيْ بَعْدَ جِدِّيْ غَيْرَ مُطَّلِبٍ أَجْرَاً إِعَالَةَ بِرٍّ لَسْتُ نَاسِيْهَا
فَهَلْ مِنَ ٱلْعَدْلِ إِذْ ضَاقَتْ مَعِيْشَتُهُ أَنْ لَا أَقُوْمَ بِنُعْمَى كَانَ مُوْلِيْهَا
وَأَعْمَلَ ٱلرَّأْيَ فِيْ تَرْفِيْهِ عِيْشَةِ عَمٍّ كَانَ مِنْ أَوْسَعِ ٱلْأَسْيَادِ تَرْفِيْهَا
فَجَاءَ حَمْزَةَ وَٱلْعَبَّاسَ إِنَّهُمَا عَمَّاهُ بِالرَّغْبَةِ ٱلْعَلْيَاءِ يُسْدِيْهَا
فَقَالَ : هَيَّ بِنَا هَيَّ نُخَفِّفُ عَنْ عَمِّيْ أَبِيْ طَالِبٍ بَلْوَى يُعَانِيْهَا
بِأَخْذِنَا نَفَرَاً مِنْ وُلْدِهِ وَلَنَحْـ ـنُ ٱلْيَوْمَ أَوْلَى بِهَا مِنْهُ نُرَبِّيْهَا
فَمَا أَبَى دَعْوَةَ ٱلْهَادِيْ وَرَغْبَتَهُ عَمَّاهُ بَلْ وَافَقَا قَالاَ : نُلَبِّيْهَا
وَصَاحَبَاهُ فَسَارُوا يَقْصِدُوْنَ دِيَا رَةَ أَبُوْ طَالِبِ ٱلْمِفْضَالُ يَثْوِيْهَا

= عمّيه الحمزة والعباس وقال لهما ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل فنأخذ بعض أولاده ونكفيه حاجتهم فقالا نعم وأصبت وسارا معه إلى دار أبي طالب حيث شافهوه بقصدهم فما أبى وقال لهم دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم إذ كان شديد الحب لعقيل فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم علياً وقال قد اخترت من اختاره لي الله علياً . ومن هذا التاريخ كفل المصطفى المرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

وَأَنْبَئُوهُ فَلَمْ يَرْفُضْ بِرَغْبَتِهِمْ وَسَرَّهُ أَنَّ حُبَّ ٱلْخَيْرِ دَاعِيْهَا
وَقَالَ أَبْقُوا عَقِيْلاً لِيْ وَدُوْنَكُمْ ٱلأَ م وْلَادُ رَاشِدُهَا ٱلذَّاكِيْ وَنَاشِيْهَا
فَٱخْتَارَ طَالِبَ عَبَّاسٌ وَجَعْفَرَ حَمْـ ـزَةُ وَأَحْمَدُ مِنْهَا خَارَ عَالِيْهَا
فَٱخْتَصَّ مِنْ وِلْدِهِ ٱلأَنْجَابِ أَفْضَلَهَا مَخَايِلاً مَا ٱخْتَفَتْ عَنْهُ خَوَافِيْهَا
وَقَالَ قَدْ خِرْتُ مَنْ رَبِّيْ تَخَيَّرَهُ لِيْ خِيْرَةُ ٱللَّهِ خَيْرُ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْهَا
هُوَ ٱلْعَلِيُّ بِهِ وَافَى خَدِيْجَتَهُ هَدِيَّةٌ قَالَ بُشْرَى جِئْتُ أُهْدِيْهَا
عَلَى يَدَيْهَا وَفِيْ سَامِيْ عِنَايَتِهِ لَقَدْ نَشَا سَيِّدُ ٱلتَّقْوَى وَحَامِيْهَا
وَحَسْبُهُ إِذْ تَرَبَّى فِيْ ظِلَالِهِمَا أَنَّ ٱلْبَرِيَّةَ تَدْعُوْهُ مُرَبِّيْهَا

حديث أمير المؤمنين عن نشأه

وَحَدَّثَ ٱلْمُرْتَضَى عَنْ نَشْئِهِ بِحِمَى طَهَ وَعَنْ نِعَمٍ قَدْ كَانَ لَاقِيْهَا[١]
وَفَاخَرَ ٱلْعَرَبَ ٱلْعَرْبَا بِهَا وَبِهِ وَبِٱلْفِعَالِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ آتِيْهَا

---

(١) لم نرَ أقرب لتفهيم مطالع هذه القصيدة المباركة حال المرتضى مع المصطفى وهو في ظلاله من نقل خطبة خطبها أمير المؤمنين بعد انقضاء أمر الخوارج في النهروان فإنّه عليه السلام أجمل حالته في نشأته الأولى بما عرف عنه من البلاغة العجيبة بحيث صوّرها صورة تقرب لتصور قارئها وسامعها حتى ليحسب نفسه يشاهد ذينك النيرين عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام بعينيه وهذا نص تلك الخطبة النفيسة : « أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، (أي عندما كان يحارب لنصرة الإسلام في المغازي النبوية) وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر ، (أمّا كسره ربيعة فكان في تلك المغازي المقدسة . وأمّا كسره لمضر فكان بقتله كثيراً من رؤسائهم في مواقع الجمل وصفين لعصيانهم خلافته وانضمامهم إلى معاوية وعائشة) وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد ، يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبةً في قول ، ولا خطلةً في فعل ، ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله وسلم من لدن إن كان فطيماً =

فقَالَ : مِنْ صِغْرِ سِنِّيْ قَدْ أَخذتُ بِكَلْـــكَـلِ ٱلْأَعَارِبِ لَمْ أَرْهَبْ تَجَمّيْهَا
وَمَا رَبِيْعَةُ تَنْسَانِيْ وَلَا مِضَرُ مُذْ كُنْتُ فِيْ نَصْرَةِ ٱلْإِسْلَامِ غَازِيْهَا
عَلِمْتُمُ مَوْضِعِيْ مِنْ أَحْمَدٍ وَقَرَا بَتِيْ ٱلْقَرِيْبَةُ مِنْهُ ٱلْكُلُّ دَارِيْهَا
وَإِنَّ مَنْزِلَتِيْ مِنْهُ مُخَصَّصَةٌ مَا فِيْ ٱلْخَلَائِقِ طُرّاً مَنْ يُدَانِيْهَا
نَعَمْ فَقَدْ كُنْتُ أَثْوِيْ حِجْرَهُ وَأَنَا طِفْلٌ وَلِيْ عَطْفَةُ ٱلْإِشْفَاقِ يُبْدِيْهَا
وَطَالَمَا ضَمَّنِيْ لُطْفاً وَمَرْحَمَةً لِصَدْرِهِ ضَمَّةً أَلْقَى ٱلْهَنَا فِيْهَا
وَكَانَ يَكْنُفُنِيْ وَهْوَ ٱلْمُمَجَّدُ فِيْ فِرَاشِهِ كِنْفَةً بَادٍ تَحَنِّيْهَا
يُمِسُّنِيْ كَرَماً جُثْمَانَهُ وَيُشِمُّـنِيْ نَوَافِجَ مِسْكٍ فَاحَ نَامِيْهَا
وَكَانَ يَمْضَغُ لِيْ فُوْهُ ٱلطِّعَامَ حُنُـوّاً وَٱلْمَضَاغَةُ لِيْ بِٱلرِّفْقِ يُعْطِيْهَا
وَلَمْ يَجِدْ كِذْبَةً لِيْ فِيْ صَحَابَتِهِ كَلَّا وَلَا خَطْلَةً قَدْ كُنْتُ آتِيْهَا
وَهْوَ ٱلرَّسُوْلُ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يَصْحَبُهُ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْأَطْهَارِ سَامِيْهَا(١)

= أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يومٍ من أخلاقه علماً ، ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحرّاء ، (إسم جبل معروف في مكة كرَّمها الله) فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمّ ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنَّة ؟ قال هذا الشيطان قد أيس من عبادته ، إنّك تسمع ما أسمع ، وترى ما أرى ، إلّا أنّك لست بنبيّ ، ولكنك لوزير وإنّك لعلى خير » اهـ .

(١) يخلق بنا هنا أن نجمل القول عن بداءة الوحي حيث كان المرتضى يشاهد ما يحدث لرسول الله عياناً على ما أشار في خطابه النفيس فنقول : عندما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره السعيد بعثه الله رحمة للعالمين ورسولاً للناس أجمعين وأول ما بدىء به رسول الله من النبوّة الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في نومه إلّا كان =

مُـنْ كَـانَ طِفْـلاً فَـطِيْمَـاً لاَ يُفَـارِقُـهُ فِـيْ نُهْــرِهِ وَإِذَا أَدْجَـتْ لَيَـالِـيْهَـا
وَكَـانَ يُسْلِكُـهُ طُـرْقَ ٱلْمَكَـارِمِ بَـلْ أَسْمَى ٱلْخِلاَلِ بِهِ قَـدْ كَانَ خَـاطِيْهَا
وَكُنْتُ أَتْبَعُــهُ فِيْهَـا ٱتِّبَـاعَ فَصِيْــــلٍ أُمَّــهُ لَسْتُ أَسْهُــوْ عَنْ تَلَقِّيْهَـا
وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ يَـوْمٍ رَافِعَـاً عَلَمَــاً لِيْ مِنْ خَـلاَئِـقِـهِ حَتَّـى أُرَانِيْـهَـا
وَكَــانَ يَــأْمِــرُنِيْ بِــالْإِقْتِـدَاءِ بِـهِ أَوَامِـراً مَـا أَنَـا مِمَّنْ يُجَـافِيْـهَـا
وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ عَـامٍ يَخْتَلِيْ بِـرُبَى حَـرَّاءَ يَرْجُـوْ هُدَى ٱلْبَـارِيْ وَيَبْغِيْهَا
فَـكُـنْـتُ ثَـمَّ أَرَاهُ لاَ يَـرَاهُ سِـوَا يَ فِـيْ عِبَـادَتِـهِ وَٱلـلَّهُ رَائِيْـهَـا
يَـوْمَ ٱلَّذِيْ كَـانَ فِيْهِ ٱلْمُسْلِمُـوْنَ ثَلاَ ثَـةٌ وَلاَ رَابِـعٌ فِيْ ٱلنَّـاسِ تَـالِيْهَـا
خَــدِيْجَـةٌ وَأَنَــا وَٱلْمُصْـطَفَى وَبِنَـا دِيَـارَةُ ٱلـدِّيْنِ قَـدْ شِيْـدَتْ مَبَـانِيْهَـا
أَرَى ضِيَا ٱلْوَحْيِ مَعْ نُوْرِ ٱلرِّسَالَةِ فِيْ أَشِعَّـةٍ جَـلَّ رَبُّ ٱلْعَـرْشِ مُنْشِيْهَـا
أَشُمُّ ثَـمَّ عَـبِيْـرَاً لِلنُّبُــوَّةِ فَــوَّا احـاً وَنَفْحَتُهَـا قَـدْ ضَـاعَ مَقْـدِيْهَـا
وَقَــدْ سَمِعْـتُ بِــأُذْنِيْ رَنَّــةً وَمَـثَـا نِيْ ٱلْوَحْيِ جِبْرِيْـلُ لِلْهَادِيْ يُؤَدِّيْهَـا

= في اليقـظة كمـا رأى . وظـلّ يـرى هــذه الأحـلام الصـالحـة مـدّة سـتـة أشهـر . وحدَّث ﷺ خديجـة عن هذه الأحـلام فقال « إذا خلوت سمعت نـداءً أن يا محمـد يا محمد وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون لهذا أمرٌ وأخشى أن يكون بي جنون » وكـانت خديجة تشجعه بأقوالها العذبة . ثمَّ إنّ المصـطفى طابت لـه الخلوة فلم يكن أحبُّ إليه من أن يخلو وحده في جبل حرَّاء فكان يتعبد فيه إلى الله الليالي ذوات العدد وكان كلما فرغ زاده عاد إلى مكة وتزوَّد إلى خلوة ثانية . وكان يصحبه بخلوته هذه ابن عمّـه وربيبه سيدنا عليّ كما رأيت في ظاهر قوله في خطابـه . وما زال كـذلك إلى الشهـر الذي أراد الله تعـالى بـه مـا أراد من كـرامـة المصـطفى فخــرج ﷺ إلى حـرّاء . وقــد اختلف المؤرخون في ذلك الشهر فقال بعضهم أنّه رمضان وآخـرون أنّه ربيـع أول وآخرون أنّـه رجب .

فَقُلْتُ رَنَّـةُ مَنْ ذِيْ يَـا مُحَمَّــدُ حَتَّـــى قَـدْ دَوَى اَلْيَوْمَ فِيْ أُذْنَيَّ دَاوِيْهَـا

= فبينما هو في ذات يـوم قائم على جبـل حرَّاء إذ ظهـر له شخص وقـال : أبشر يـا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة . ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعـة بـالجواهـر ووضعها في يـده وقال : اقـرأ قال : والله مـا أنا بقـارىء ولا أدري في هـذه الرسالة كتابة قال المصطفى : فضمني إليه وغطني حتى بلغ مني الجهد . فعل ذلك بي ثلاثاً وهو يأمرني بالقراءَة ثمَّ قال اقرأ فقلت : ماذا أقرأ وما كنت أقول لك إلاّ افتـداءً منه أن يعود إليَّ بمثل ما صنع قال : إقرأ باسم ربّك الـذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربّك الأكـرم ، الذي علم بـالقلم ، علّم الإنسان مـا لم يعلم ، فقرأتهـا وانصرف عنّي وهببت راجعاً إلى مكة حتى إذا كنت في شظّ من الجبـل سمعت صوتـاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنـا جبريـل فوقفت أنـظر إليه فـإذا جبريـل على صورة رجل واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء فـوقفت أنظر إليـه فما أتقـدم وما أتـأخر وجعلت أصـرف وجهي عنه في آفـاق السماء فـلا أنظر في نـاحية منهـا إلاّ رأيتـه كذلك فما زلت واقفاً مـا أتقدم أمـامي وما أرجـع ورائي إلى أن انصرف عنّي فـانصرفت راجعـاً إلى أهلي حتى أتيت خـديجـة فجلست إليهـا وحـدثتهـا بـالـذي رأيت وسمعت فقـالت : أبشر يـا ابن عمّي واثبت فوالـذي نفسي بيـده إنّي لأرجـو أن تكـون نبيّ هـذه الأمة » .

نقـول هكذا ابتـدأ جبريـل يظهـر للمصـطفى وينقـل إليـه الـوحي الإلّهيّ على أنّ مقدمات ظهور هذا الوحي بدأت من ولادتـه صلى الله عليه وآله وسلم والعنايـة الإلّهيّة شملتـه منذ كـان في بطن أمه وما زالت تحوطه من ذلك اليوم بملك من خير ملائكته كان يصحبه ليله ونهـاره على ما قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وهو أصدق المخبرين بالإجماع وأقدم المصاحبين بغير نزاع .

ومن الثابت الذي لا ريب فيه أن رسول الله منـذ ضمَّ عليًّا إليـه كان لا ينفـكُّ عن مصاحبته فكان يشاهد منذ نعومة أظفاره عناية الله بمحمد ويسمع ما يسمع وينظر ما ينظر ويستفهم منه عمّا لا يفهم فبيّن له المصطفى مـا أشكل عليـه حتى ساعـة ظهور جبـريل للمصطفى وتبشيره بالنبوة وما تلا ذلك من رنّة الشيطان وهي زفرة الخاسر على مـا قرأنـا في خطبة المرتضى فلا غرو بعد هذا إذا تفرّد أميـر المؤمنين عليه السلام دون المسلمين بإدراك كنه الإسلام وتمسّك بأحكامه وتفانى في نصرته وأعجز في شرح قواعده وتبيان مراميه .

فَقَالَ قَدْ أَيِسَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ عَبَدَتِــــهِ وَهْيَ زَفْرَتُهُ فِيْ ٱلْيَأْسِ مُبْدِيْهَا
وَقَالَ تَسْمَعُ مَا قَدْ بِتُّ أَسْمَعُهُ وَأَنْتَ رَاءٍ أُمُوْراً بِتُّ رَائِيْهَا
أَصِخْ فَلَسْتَ نَبِيَّاً بَلْ وَزِيْرَ نَبِيٍّ وَٱلْوِزَارَةُ مَا إِلاَّكَ كَافِيْهَا
وَٱبْشِرْ فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ بِشَارَةٌ كُنْتُ أَيْمُ ٱللَّهِ رَاضِيْهَا

أمير المؤمنين ومعجزة الشجرة

رَوَى ٱلْأَمِيْرُ وَمَا مِثْلُ ٱلْأَمِيْرِ خَبِيْرٌ بِٱلرِّوَايَاتِ عَنْ طَهَ لِيَرْوِيْهَا[1]
فَقَالَ كُنْتُ مَعَ ٱلْهَادِيْ مُلاَزِمَهُ فِيْ مَكَّةٍ نَتَمَشَّى فِيْ مَمَاشِيْهَا

---

(١) إنّ الحديث الوارد في معجزة الشجرة كثير مستفيضٌ قد ذكره المحدّثون في كتبهم على نحو ما رواه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته وهو شاهد عيان وبعضهم روى أنّ الذين اقترحوا على المصطفى معجزة الشجرة من قريش هم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب وجماعة من أصحابه قالوا وكان هذا الرجل أشدّ قريش على النبوّة . وهذه رواية أمير المؤمنين قال : « ولقد كنت معه صلى الله عليه وآله وسلم لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمد إنّك قد ادعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحدٌ من بيتك ، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنّك نبيّ مرسل ، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحرٌ كذّاب ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : وما تسألون ؟ قالوا : تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله على كل شيء قدير ، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم ، قال فإنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي أعلم أنكم لا تفيئون إلى خير ، وأن فيكم من يطرح في القليب (ومعنى القليب البئر وهذا القول من معجزات نبوّة المصطفى وأخباره عن الغيب فإنّه من ذلك العهد أشار بأنّ في قريش قوماً سيشتدون في الكفر ويحاربونه ويكون نصيبهم الطرح في القليب كعتبة وشيبة ابن ربيعة بن عبد شمس وعمر بن هشام بن المغيرة المكنّى أبا جهل وغيرهم فإنّهم طرحوا في قليب بدر بعد انقضاء الحرب) ومن يحزّب الأحزاب (وأشار المصطفى بهؤلاء إلى أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية والد معاوية وأمثاله ممن كانوا أعدى أعداء النبوّة يحزّبون الأحزاب على المصطفى ويحرضون على قتاله وظلّوا كذلك =

لَمَّـا أَتَتْـهُ قُـرَيْشٌ وَهْـيَ مُنْكِـرَةٌ   عَـلَيْـهِ بَعْـثَتَـهُ إِذْ رَاحَ يُبْـدِيْـهَـا
وَافَتْ إِلَيْـهِ وَقَـالَتْ غَيْـرَ حَـاشِيَـةٍ   مِنَ ٱلـرَّسُوْلِ وَلَمْ تَـرْهَبْ مُفَـاهِيْهَـا
قَـدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيْمَـاً مَـا ٱدَّعَـاهُ سِـوَا   كَ مِنْ قُـرَيْشٍ عَلَى سَامِيْ مَعَـالِيْهَـا
وَنَحْنُ نَسْـأَلُ أَمْـرَاً فِيْ إِجَـابَتِـهِ   تَصُـحُّ دَعْوَى لَقَـدْ أَصْبَحْتَ دَاعِيْهَـا
مِنْهَـا نُحَقِّقُ إِنْ كُنْتَ ٱلنَّبِيَّ رَسُـوْ   لَ ٱللَّهِ لِلنَّـاسِ قَـدْ أَقْبَلَتَ تَهْـدِيْهَـا
أَوْ سَـاحِرَاً كَـاذِبَـاً وَافَيْتَ تَسْحَـرُهَـا   وَلِلضَّـلاَلَـةِ تَبْغِيْ أَنْ تُـخَـطِّيْهَـا
فَقَـالَ صَلَّى عَلَيْـهِ ٱللَّهُ مُبْتَسِمَـاً ·   أَيُّ ٱلْمَسَـائِلِ جِئْتُمْ تَسَـأَلُـوْنِيْهَـا
قَـالُوْا : أَمَـامَكَ أَشْجَـارُ أَلاَ ٱدْعُ لَنَا   تَـٱللَّهِ وَاحِـدَةً تَـأْتِيْـكَ تَجْـرِيْهَـا
نَـادَاهُـمُ : إِنَّ رَبِّي دُوْنَ قِـدْرَتِـهِ   مَـا تَعْجِـزُ ٱلنَّـاسُ عَنْـهُ فِيْ مَـآتِيْهَـا

= إلى أن آتى الله المصطفى النصر فدخل مكة كرَّمها الله) . ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديَّ بإذن الله ، والذي بعثه بالحقّ لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويٌّ شديد وقصفٌ كقصف أجنحة الطير حتّى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرفرفةً وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وببعض أغصانها على منكبيَّ وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً : فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دوياً ، فكادت تلتفُّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا كفراً وعتواً : فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمره صلى الله عليه وآله وسلم فرجع ، فقلت أنا (أي أمير المؤمنين) لا إله إلاّ الله إنّي أول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقرَّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوَّتك ، وإجلالاً لكلمتك ، فقال القوم كلّهم : بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه ، وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا ؟ (وهم يعنوني) وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم ، سيماهم سيما الصدّيقين ، وكلامهم كلام الأبرار ، عمَّار الليل ومنار النهار ، متمسكون بحبل القرآن ، يحيون سنن الله وسنن رسوله ، لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلُّون ولا يفسدون ، قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل » اهـ .

فَـإِنْ أَجَـابَ نِـدَاكُمْ فِيْ سُؤَالِكُمْ هٰـذَا بِمُعْجِـزَةٍ فِيْ ٱلْحَالِ يَـأْتِيْهَـا

أَتُؤْمِنُـوْنَ وَتَـأْتُـوْنَ ٱلشَّهَـادَةَ بِـٱلْـحَقِّ ٱلصُّـرَاحِ كَمَـا تَبْـدُوْ لِـرَائِيْهَـا

قَالُوْا : نَعَمْ قَالَ : إِنِّيْ ٱلآنَ مُنْظِرُكُـمْ هٰـذِيْ ٱلْعَجِيْبَةَ فِيْ سَـامِيْ مَعَـانِيْهَـا

وَإِنْ أَكُنْ عَـالِمَـاً خَـافِيْ نُفُـوسِكُمْ فَـلَا تَفِيءُ إِلَـى خَيْـرٍ مَـطَاوِيْـهَـا

وَفِـيْكُـمُ فِئَـةٌ خُصَّ ٱلْقُـلَيْبُ بِـهَـا نَعَمْ وَأُخْـرَى رَعَـايَـايَ تُجَـزِّيهَـا

ثُمَّ دَعَـا بِٱسْمِ بَـارِيْهِ ٱلشُّجَيْـرَةَ دَعْــوَةَ ٱلْـمُؤَكِّـدِ مِـنْهَـا أَنْ تُـلَبِّـيْـهَـا

وَقَـالَ : إِنْ كُنْتِ حَقَّـاً تُؤْمِنِيْنَ بِيَـوْمِ ٱلْحَشْرِ وَٱللّٰهِ بَارِيْ ٱلْخَلْقِ ذَارِيْهَا

وَإِنَّـنِيْ لَـرَسُـوْلُ ٱلـلّٰهِ فَـٱنْقَـلِعِيْ مَعَ ٱلْعُرُوْقِ ٱلَّتِيْ ٱلْأَرْضُـوْنَ تَغْذِيْهَـا

وَسَـارِعِيْ ٱلسَّيْرَ نَحْـوِيْ غَيْـرَ وَانِيَـةٍ بِـطَاعَـةٍ رُحْتُ مِنْـكِ ٱلآنَ أَبْغِيْهَـا

قَـالَ ٱلْإِمَـامُ : وَمَنْ بِـٱلْحَقِّ بَعْثَتُـهُ أَلِـيَّـةً صَـدَقَ ٱلْـتَبْـيَـانَ آلِـيْـهَـا

مَـا أَمْهَلَتْ فَـرَأَيْنَـاهَـا إِنِ ٱنْقَلَعَتْ مَـعَ ٱلْعُـرُوْقِ وَقَـدْ لَبَّتْ مُنَـادِيْهَـا

وَأَقْبَلَتْ وَلَهَـا قَصْفٌ كَقَصْفِ كَـوَاسِـرِ ٱلـطُّيُـوْرِ إِذَا أَبْـدَتْ تَهَيِّيْهَـا

وَقَـدْ سَمِعْنَـا حَفِيْفَـاً فِيْ أَسَـامِعِنَـا لَـهَـا وَمَعْـهُ دَوِيٌّ كَـادَ يُـؤْذِيْـهَـا

حَتَّى إِذَا مَـا دَنَتْ مِنْ أَحْمَـدٍ وَقَفَتْ لَـدَيْـهِ مُبْـدِيَـةً طَـوْعَـاً تَـذَلِّيْـهَـا

وَرَفْـرَفَتْ ثُمَّ أَلْقَتْ فَـوْقَ هَـامَتِـهِ بِغُصْنِهَـا ٱلسَّـامِقِ ٱلْأَعْلَى يُحَيِّيْهَـا

وَبَعْضُ أَغْصَـانِهَـا قَـدْ ظَلَّلَتْنِيَ حَيْــثُ كُنْتُ فِيْ ٱلْقُرْبِ مِنْهُ فِيْ تَلَقِّيْهَـا

وَعِنْـدَ مَا رَأَتِ ٱلنَّـاسُ ٱلْعَجِيْبَـةَ قَـالَتْ وَهْيَ تُكْبِـرُهَـا وَٱلْكُفْـرُ مُعْمِيْهَـا

مُـرْهَـا فَتَـرْجِـعُ ثُمَّ عُـدْ فَمُـرْ فَيُـوَافِيْ طَـائِعَـاً نِصْفُهَـا مِنْ دُوْنِ بَـاقِيْهَـا

فَكَانَ مَا ٱقْتَـرَحَتْ حَتَّى رَأَيْتُ غُصُوْنَهَـا عَلَى ٱلْمُصْـطَفَى بَـادٍ تَجَمِّيْهَـا

قَـالَتْ عُتُوَّاً وَكُفْـرَاً : مُرْ لِيَـرْجَعَ هٰــذَا ٱلنِّصْفُ وَٱلْهُزْءُ مَرْسُوْمٌ عَلَى فِيْهَا

فَعَـادَ أَدْرَاجَـهُ نِصْفُ ٱلشُّجَيْـرَةِ لِلــــثَّانِيْ وَعَادَتْ كَمَـا كَانَتْ بِمَـاضِيْهَا
قَـالَ ٱلْإِمَامُ: فَـوَحَّدْتُ ٱلْمُهَيْمِنَ تَـوْ حِيْـدَاً بِـأَلْفَـاظِـهِ إِذْ رُحْتُ تَـالِيْهَـا
وَقُـلْتُ : إِنِّـي يَـا طَـهَ لَأَوَّلُ مُـؤْ مِنٍ بِـأَنَّـكَ هَـادِي ٱلْخَلْقِ رَاعِيْهَـا
وَأَوَّلُ ٱلنَّـاسِ إِقْـرَارَاً بِـطَاعَـةِ هٰـــذِهِ ٱلشُّجَيْـرَةِ تُـدْنِيْهَـا وَتُقْصِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُـرَيْشٍ وَهْيَ تَـائِهَـةٌ فِيْ ظِلْمَـةِ ٱلْكُفْرِ تَغْشَـاهَا دَيَـاجِيْهَـا
إِلَّا إِنِ ٱسْتَسْلَمَتْ لِلْعَيْـنِ كَـاذِبَـةٌ عُيُـوْنَهَـا بِـٱلَّـذِيْ شَـامَتْ مَـرَائِيْهَـا
قَالَتْ : وَحَقِّكَ ذَا سِحْرٌ وَأَحْمَدُ سَحَّــــارٌ كَـذُوْبٌ يُضِـلُّ ٱلْخَلْقَ تُثْنِيْهَـا
وَهَــلْ يُـصَـدِّقُـهُ إِلَّا كَـذَا وَأَرَا دُوْنِيْ بِقَـوْلَتِهِمْ مُـذْ أَسْمَعُـوْنِيْهَـا
وَإِنَّنِيْ ٱلْحَقَّ مِنْ قَـوْمٍ بِنَصْـرَتِهَـا لِلْحَقِّ مَـا خَشِيَتْ يَـوْمَـاً مُلِيْمِيْهَـا
سِيْمَـا ٱلتُّقَـاةِ كَسِيْمَـاهَـا وَقَـوْلَـةُ أَهْــــلِ ٱلْبِـرِّ قَـوْلَتُهَـا أَنْعِمْ بِـوَاعِيْهَـا
ضَـاءَتْ بِأَعْمَـالِهَا ٱلْحَسْنَـاءِ أَنْهُرُهَـا وَعَمَّـرَتْ بِـرِضَى ٱلْبَـارِيْ لَيَـالِيْهَـا
وَٱسْتَمْسَكَتْ بِعُرَى ٱلْقُرْآنِ وَهْيَ بِهَا سِنَّـاتُ طَـهَ وَرَبِّ ٱلْعَـرْشِ تُحْيِيْهَـا
مَا ٱسْتَكْبَرَتْ لَا وَلَا غَلَّتْ وَلَا حَقَدَتْ كَـلَّا وَلَا أَفْسَـدَتْ بِـرٌّ حَـوَافِيْهَـا
أَجْسَـادُهَا فِيْ فِعَـالِ ٱلْخَيْـرِ مُنْهَكَـةٌ لَكِنَّ أَلْبَـابَهَـا ٱلْجَنَـاتُ تَـأْوِيْهَـا
تَقُـوْلُ : مِمَّا رَوَاهُ ٱلْمُـرْتَضَى عُرِفَتْ هٰـذِيْ ٱلْعَجِيْبَـةُ فِيْ زَاهِيْ تَجَلِّيْهَـا
كَمَــا وَمِنْهَــا عَــرَفْنَــا أَنَّ حَيْــدَرَةٌ قَـدْ كَـانَ أَسْبَقَ إِيْمَـانَـاً بِمُجْـرِيْهَـا

سبق أمير المؤمنين بالاسلام

ضَـاءَ ٱلْهُدَى لِـرَسُوْلِ ٱللَّهِ وَٱنْبَثَقَتْ أَنْـوَارُهُ وَإِلٰـهُ ٱلْعَـرْشِ مُسْنِيْهَـا[1]

---

(١) إنّ السبق في الإسلام فضيلة مثابة نزل بها الوحي في آية ﴿ ربّنا اغفر لنا =

بِبَعْثَةٍ رَحِمَ ٱللَّهُ ٱلْخَلَائِقَ فِيْ   زَاهِي هِدَايَتِهَا مَعْ فَضْلِ هَادِيْهَا

=**ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ فتعين على المسلمين أن يتلوا هذا الدعاء في صلواتهم إلى يوم القيامة وهم بها يستغفرون الله لأولئك السبّاقين الصالحين . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطري الذين سبقوا إلى الإيمان ويعلن فضلهم لأنّهم بسبقهم ذاك نصروا الدعوة التي جاء بها أيام كان الحول للمشركين والكفّار . والأحاديث النبوية مستفيضة بالشهادة لأمير المؤمنين على أنّه أول من دخل قلبه الإسلام بل إنّه منذ بدء عهده بالتكليف الشرعي كان مسلماً وعلى ذلك نستطيع أن نقول إنّه لم يعرف الشرك ولا عبد غير الواحد الأحد . ومسألة سبق الإمام الأكبر علي بن أبي طالب في الإسلام ما كانت لتقبل الجدل لو لم يظهر فيما بعد قوم ذوو حول وطول كان يهمهم صرف القلوب عنه فحاولوا الحطّ من قدره واختلقوا عليه ما اختلقوا وإذ انتهوا إلى سبقه إلى الإسلام عجزوا عن إيجاد سابق له يفضلونه عليه وإذ أعيتهم الحيلة عمدوا إلى التدجيل فقالوا إنّه أسلم صغيراً لا يدرك ما الإسلام بفضل وجوده في صحبة المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وسهي عليهم أنّهم بهذا أيضاً أزادوا في مجده وفضله لأننا مع كل ذي إيمان نرى أنّ الله الذي اختار المصطفى ليكون رسوله ونبيّه اختار سيدنا أمير المؤمنين ليكون وزيره وعضده الأكبر في نشر دعوته وهيأه إلى ذلك بحصول القحط في قريش فكان سبباً لانتقال المرتضى من بيت أبيه إلى بيت ابن عمّه عليهما الصلاة والسلام . وبالبداهة إنّ العناية التي أعدّت المصطفى للدعوة هي نفس العناية التي أعدت المرتضى لتأييدها وإنّها لعناية الله بالألى اختارهم لنشر دينه .

ومما نذكره في سبق أمير المؤمنين في الإسلام هو أنّ المرتضى عليه السلام كان أزكى الناس بالإجماع يدلّك على ذلك ما نقل إلينا من خطبه وأقواله ورسائله وإجماع الناس على تفوّقه في العلم والبداهة نعرف أنّ الولد الذكيّ يكون موضع عناية والده أو مربّيه يسرّه ملازمته ومحادثته وهذا الذي كان فعلاً فإنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما اختصّ لنفسه الغلام عليّاً وهو في السادسة من عمره سرّه ما رآه من ذكائه فصحبه ولازمه وأكثر محادثته يدلك على ذلك ما قاله المرتضى عليه السلام وقد نقلناه فيما تقدّم أنّ المصطفى كان يأويه في حجره ويضجعه بجانبه ويصحبه إلى حرّاء في خلواته حتى كان يسمع ما يسمع المصطفى وينظر ما ينظر فلا عجب بعد هذا إذا اعتقدنا أنّ أمير المؤمنين فتح عينيه على هدى وهو يسمع جبريل ينقل الوحي إلى المصطفى فآمن قلبه إيماناً يقينياً لا يداخله =

= شكّ ولا يشوبه أثر ريبة أو اعتراض .

ومن المعلوم أنَّ الأطفال يقتفون آثار الذين يربونهم فلا عجب إذا رأينا الغلام علياً يحذو حذو مربّيه العظيم فيصلي صلاته ويتلو ما يتلقفه من فيه من كلمات التوحيد والتشهد والاستغفار وهكذا كان يصلّي محمد وعلي عليهما الصلاة والسلام منذ بداءة الوحي معاً والناس طرّاً لا تعرف عن الإسلام شيئاً ولذلك كان حقّاً وصدقاً ما سمع الناس من فم أمير المؤمنين ونقله الثقاة وهو « أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصدّيق الأكبر لا يقولها غيري إلّا كذّاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين » أمّا الأحاديث المروية عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن سبق أمير المؤمنين في الإسلام فيضيق عن استيعابها المقام وقد قالها في مواطن شتّى منها قوله وعلي إلى جانبه والناس حولهما « هذا أول من آمن بي وصدّقني وصلّى معي » . وروى محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه أبي رافع قال أتيت أبا ذرّ بالربذة أودعه (وهذا من كبار الصحابة) فلما أردت الإنصراف قال لي ولا ناس معي « ستكون فتنة فاتّقوا الله وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب فاتبعوه فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له : « . . . أنت أوّل من آمن بي ، وأول من يصافحني يوم القيامة ، وأنت الصدّيق الأكبر ، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين ، وأنت أخي ، ووزيري ، وخير من أترك بعدي ، تقضي ديني ، وتنجز موعودي . . . اهـ » أقول وبعد هذا الإجمال لا أراني بحاجة إلى الازدياد من إقامة البراهين على قضية كهذه يدركها المطّلع على تاريخ صدر الإسلام بداهةً إذا لم يكن من المتعنتين .

وكان رسول الله إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شعاب مكة ومعه علي فيصلّيان مستخفين من قومهما فيها فإذا أمسيا رجعا كذلك ثمَّ إنَّ أبا طالب عثر مرةً عليهما وهما يصلّيان في المحل المعروف بالنخلة فاستدعى ابنه عليّاً إليه وقال له أيّ بنيَّ ما هذا الذي أنت عليه فقال يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه واتبعته فقال له أبو طالب أمّا أنه لم يدعك إلّا إلى خير فالزمه .

وحدث عفيف الكندي قال كنت امرءاً تاجراً قدمت للحج وأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة فبينما أنا عنده بمكة في المسجد إذا رجل مجتمع (أي بلغ أشده) خرج من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس فلما رآها مالت توضأ

فَقَـدْ رَأَى ٱلْأَسْنَـى يَضِـيءُ عَلَى مُحَمَّـدٍ وَهْـوَ يَخْفِيْـهِ لِيَخْفِيْهَـا
وَكَـانَ يَسْمَـعُ جِبْـرِيْـلاً يُشَـافِهُـهُ بِهَـا وَآيَـاتُهَـا ٱلـزَّهْـرَاءُ يُـوْحِيْهَـا
مِنْ قَبْلِ سَبْعِ سِنِيْنٍ مِنْ ظُهُوْرِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ بِـٱلـدَّعْـوَةِ ٱلنَّـاجِي مُلَبِّيْهَـا
وَكَـانَ حَيْـدَرَةٌ مَـا طَـرَّ شَـارِبُـهُ فِيْ زَهْـرَةِ ٱلْعُمْرِ يَسْتَجْلِي حَـوافِيْهَـا
أَعْـوَامُـهُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا ثَـلاثَـةَ عَشْـــرَةً بِمَلْقَى ٱلْهُـدَى قَدْ كَـانَ طَاوِيْهَـا
إِذْ ذَاكَ قَـدْ رَضِيَ ٱلْإِسْلامَ مُتَّبِعَـاً خُطَى أَبِيْ ٱلْقَاسِمِ ٱلْمَـأْمُوْنِ قَـافِيْهَا
وَقَـدْ تَعَبَّـدَ لِلْخَـلَّاقِ قَبْـلَ جَمِيْـــعِ ٱلنَّاسِ فِيْ إِثْرِ خَيْرِ ٱلْخَلْقِ تَجْرِيْهَا
وَإِنَّ أَهْـلَ ٱلْهُـدَى قَـدْ كَـانَ أَوَّلُهَـا طَـهَ وَكَـانَ عَـلِيٌّ ٱلْبَـرُّ ثَـانِـيْهَـا
ثُمَّ خَـدِيْجَـةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِيـنَ هَـذَا هَـا ٱللَّهُ فَٱتَّبَعَت أَحْكَـامَ بَـارِيْهَـا[1]

=فأسبغ الوضوء (أي أكمله) ثمَّ قام يصلّي إلى الكعبة ثمَّ خرج غلام مراهق فتوضأ ثمَّ قام إلى جنبه يصلّي ثمَّ جاءَت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما ثمَّ ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ثمَّ خرَّ الرجل ساجداً وخرَّ الغلام وخرَّت المرأة فقلت ويحك يا عباس ما هذا الدين فقال هذا دين محمد بن عبد الله أخي يزعم أنَّ الله بعثه رسولاً وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة ليس في الناس مَن على هذا الدين غيرهم قال عفيف بعد أن أسلم يا ليتني كنت رابعهم اهـ وهذه القصة ثابتة ومشهورة .

أمّا مسألة إسلام سيدتنا خديجة وإن كان قد سبق إسلام سيدنا علي عليه السلام أو أسلما في وقت معاً فسنذكر شيئاً عن ذلك في كلامنا عن السيدة المشار إليها في الحاشية التالية :

(١) اشتهر عن محمد بن عبد الله ربيب شيخ قريش أبي طالب وحفيد شيخ قريش عبد المطلب منذ ترعرع الصدق والأمانة وسداد الرأي وما اكتسب صلى الله عليه وآله وسلم هذه الشهرة على حداثته إلّا بعد حوادث ذاعت وشاعت عنه في مكة المكرمة في مواقف وقفتها رؤساء قريش في تدبير الشؤون العامة التي كانت تدبرها بالشورى على الطريقة=

مِنْهُمْ قَدْ ٱبْتَدَأَ ٱلدِّيْنُ ٱلْحَنِيْفُ بَدَا ءَةً كَمَالُ جَمَالِ ٱلْبِرِّ غَاشِيْهَا

=التي تشبه ما نسميه نحن أبناء هذا العصر بالحكم الجمهوري . وفوق ذلك أنّ الفتى محمداً سافر وهو في الثانية عشرة من ربيع عمره بمعية عمّه الشيخ أبي طالب إلى دمشق للتجارة مع قافلة التجار القرشيين فكان له ﷺ في هذه الرحلة من الحوادث الدالة على نبوته ومستقبله الباهر ما تداوله ركب القافلة عند عودتهم إلى « أم القرى » فأصبح حديث القوم وسمرهم . وهكذا بات سيدنا محمد ﷺ موضع اهتمام مواطنيه المكيين من ذلك العهد .

وكان في مكة المكرمة لذلك العهد سيدة معروفة المكانة يسميها المكيون « سيدة قريش » وكانت امرأة ذكية حازمة قوية شريفة وافرة الجمال والمال يتمنى أعظم عظيم في قريش أن يتزوجها أمّا نسبها فهي خديجة إبنة خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي . وكان لهذه السيدة تجارة واسعة تسيرها إلى الشام في كل عام فتتجر وتكسب .

وحدث أنّ آل عبد المطلب كان قد ضعف حالهم وقلّ مالهم في أزمة القحط التي انتابت الحجاز في هاتيك الأيام فلم يَرَ أبو طالب خيراً لربيبه وابن أخيه سيدنا محمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من ربيع عمره إلاّ أن يشير عليه بأن يعرض نفسه على السيدة خديجة وهي من عمومته لتسيره في متجرها إلى الشام مع من تسير من الناس فأبى محمد أن يذلّ نفسه الشريفة الأبيّة بطلب هذه الخدمة وقال لعمّه أمّا إن هي عرضت الأمر عليَّ فأفعل .

وكانت خديجة لا تجهل الشاب محمد وهو من عمومتها وقد سمعت عن أمانته وصدقه الشيء الكثير وطالما ودّت أن تساعده على معاشه باستخدامه في قوافلها ولكنها لم تجرأ على عرض ذلك عليه مخافة أن يرفض خدمتها إباءً وترفعاً فلما سمعت ما دار بينه وبين عمّه الشيخ أبي طالب أسرعت فأرسلت بطلبه حتى إذا ما حضر إليها قالت له لقد بلغني عنك من الصدق والأمانة وكرم الأخلاق ما حبّب إليَّ أن أعرض عليك المسير مع قافلتي إلى الشام على أن أعطيك ضعف ما أعطي لسواك فقبل محمد المسير وشكرها على هذه المنّة وسار إلى الشام مع قافلة السيدة خديجة التي كان زعيمها غلامها ميسرة وكان له ﷺ في هذه الرحلة وقائع مدهشة مع الراهب بحيراء في الشام وظهر من أمر الغلام محمد في الطريق من المعجزات ما دهش له ميسرة الذي يصاحبه .

= وكانت خديجة كما تقدمت الإشارة على أعظم نصيب من الذكاء والدهاء فلما عاد ميسرة بقافلتها نقل إليها ما رأى وسمع من المعجزات التي تمّت لسيدنا محمد ﷺ فتعلقت بحبّه ورأته كفئاً لها لأنّه يحاكيها بشرف النسب وله من جماله وأمانته والكرامات التي سمعتها عنه ما يعيضها عن المال وكان عندها منه الشيء الكثير فأخذت تفكر بالاقتران به . وحدث أنّها حادثت بشأنه بعض أقربائها ممن اشتهر عنهم معرفة الكتب النصرانية والإسرائيلية وذكرت لهم ما رواه ميسرة عن معجزاته ﷺ فأجمعوا على القول أنه قد يكون نبيَّ هذه الأمة فأزادها هذا تعلقاً به وأرادت بفرط ذكائها أن تنال شرف الاقتران بالرجل الذي قد يكون الهادي الأمين .

أمّا زواج سيدنا محمد ﷺ بالسيدة خديجة فقد كان هكذا . إنّ خديجة قالت يوماً لمحمد وذلك بعد رجوعه من الشام بأيام أن قل لعمّك أبي طالب أن يتعجل إلينا بالغداة فصدع المصطفى وأنبأ عمّه بطلب خديجة فأسرع إليها فقالت له ادخل على عمّي عمرو بن أسد واطلب منه أن يزوّجني من محمد فاستغرب أبو طالب قولها واستبعده وقال لا تهزئي بي يا خديجة فقالت وعلى وجهها الجدّ هي الحقيقة يا شيخ قريش فهكذا أراد الله فاستبشر أبو طالب وأسرع فجمع بني هاشم ورؤساء مضر وسار بهم ومحمد بينهم إلى عمرو بن أسد وكانت خديجة قد أسرّت إليه برغبتها بزواج محمد فاستعدَّ لمقابلتهم حتى إذا ما عقد مجلس الخطبة خطب أبو طالب فقال « الحمد لله الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضيء معد ، (أي معدنه) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا أحكام الناس ، ثمَّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلاّ رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلٌّ ، فإنَّ المال ظلٌّ زائل ، وأمرٌ حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطرٌ جليل ، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشر أوقية ونشاً (أي عبارة عن خمسماية درهم شرعي)اهـ » . فلما انتهى الشيخ أبو طالب من خطابه خطب عمرو بن أسد فقال « الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفصلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كلّه ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا =

وَخِـلْفَـهُ وَلَـدُ بَـرٌّ مَـعَ آمْـرَأَةٍ   تَـقِـيَّـةٍ تَـبِـعَـا آثَـارَهُ فِـيْـهَـا

= بالاتصال بحبلكم مثل رغبتكم . فاشهدوا عليَّ معاشر قريش . أنّي قد زوجت خديجة بنت أخي خويلد من محمد بن عبد الله ، على المهر الذي ذكر الشيخ أبو طالب » وقيل إنّ صاحب هذا الخطاب هو ورقة بن خويلد أخو خديجة وأنّ الشيخ أبو طالب قال قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمرو بن أسد « اشهدوا عليَّ معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » وهكذا تمّ العقد وأولم المصطفى ودخل بزوجه خديجة فكان بيتها أول بيت في الإسلام .

وعند عقد هذا الزواج المبارك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخامسة والعشرين من ربيع عمره وشهرين وبضع أيام كما كان هذا الزواج بعد عودته من الشام وهو يتجر لخديجة بشهرين وأيام معدودة . أمّا السيدة خديجة فقد اختلف الرواة في عمرها عندما تشرفت بالاقتران بأشرف الخلائق صلى الله عليه وآله وسلم فقال بعضهم أنها كانت في الأربعين من عمرها وقال بعضهم أقل من ذلك فسموا لها ٣٦ عاماً و٣٢ و٢٨ عاماً ومنهم من جعل عمرها ٤٥ عاماً أمّا أنا فعلى قلّة علمي أرجّح أنّها لم تكن يوم زواجها على أكثر من اثنين وثلاثين عاماً لأنّ المؤرّخين وصفوها بالحسن ولأنّها ولدت أولاداً كثيرين وأنت تعلم أنّ المرأة تنقطع عن الحبل والولادة في الخامسة والأربعين من عمرها ونـدر من النساء من تحبل وتلد بعد هذا العمر . ولم يرو المؤرخون أنّ السيدة خديجة حبلت وهي عجوز بمعجزة سماوية . أمّا ما نقل عن عائشة من قولها للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن رأته يكثر من ذكر خديجة ويبالغ في مديحها « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين » فإنّ قولها هذا لا يحمل إلّا على واحد من أمرين فإمّا أنّها تشير إلى عمر ضرّتها عندما ماتت أو إلى الغيرة الطبيعية الموجودة بين الضرائر وربما دفعها الأمران إلى ذلك القول الذي أغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكانت خديجة ثيباً عندما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت قد تزوجت قبله برجلين أولهما عتيق بن عابد فولدت له بنتاً اسمها هند وهي أم محمد بن صيفي المخزومي وثانيهما أبو هالة واسمه هند أيضاً فولدت له ولداً اسمه هالة وآخر اسمه هند فكان هنداً ابن هند وعمّر هذا وكان من أكابر صحابة رسول الله وكان يفتخر بقوله أنا أكرم الناس أباً وأمّاً وأخاً وأختاً أبي رسول الله لأنّه زوج أمي وأمي خديجة وأخي القاسم وأختي فاطمة وكان هند هذا من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأكابر أنصاره ومات تحت رايته يوم =

= الجمل وقيل مات بالطاعون في البصرة بعد موقعة الجمل التي أثارتها عائشة وطلحة والزبير على سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

وولدت خديجة لرسول الله القاسم وهو بكر أولاده وكانت ولادته قبل البعثة وبه يكنّى ومات وهو رضيع وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم واختلف الرواة في ترتيب ولادة هاته الكرائم بنات المصطفى على أنّ مولدهنّ كان قبل البعثة بالإجماع وولدت له توأمين قبل البعثة أيضاً ولم يعيشا واختلف الرواة باسميهما أمّا بعد البعثة فولدت له عبد الله فكان آخر أولاد خديجة على أنه مات رضيعاً أيضاً وهكذا لم يسلم من أولاد خديجة غير الإناث .

وتوفيت خديجة في العام الذي مات فيه أبو طالب أي في السنة العاشرة للبعثة وقبل الهجرة بثلاثة أعوام ومن المؤرخين من يقول أنّها ماتت قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يوماً ومنهم من يقول أنّها ماتت بعده بثلاثة أيام ودفنت بالحجون ونزل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في حفرتها فتكون قد عاشت مع زوجها النبيّ الأمين اثني وعشرين عاماً لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم بعث رسولاً للعالمين في السابعة والثلاثين من عمره وتزوج في الخامسة والعشرين من عمره وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنوات أي وهو في السابعة والأربعين من عمره .

وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من إطراء خديجة في حياتها وبعد مماتها وطالما سمعته نساؤه يقول عنها « آمنت بي حين كذّبني الناس وواستني بمالها حين حرمني الناس ورزقتُ منها الولد وحرمته من غيرها » . ولم يتزوَّج المصطفى عليها في حياتها إلى أن ماتت .

أمّا إسلام خديجة فالرواة مختلفون فيه اختلافهم في كثير من حوادث التاريخ النبويّ على أنّ الإجماع على أنّ هذه السيدة الذكية الحازمة توقعت نبوَّته من مقدماتها من يوم جاءَتها أخبار المعجزات التي حدثت له في رحلتيه إلى الشام مع راهب بحيراء ومن تظليل الغمام له وغير ذلك مما ليس هنا موضعه ومما كانت تسمعه من علماء النصارى واليهود الذين كانوا يقولون عند سماعهم هذه المقدمات إنّ في كتبهم ما يشير إلى مجيء نبي من هذه الأمة وقد يكون محمد بن عبد الله وعندما أخذ =

فَتَنْثَنِي وَهْيَ تَسْتَنْبِي دِيَانَتَهُمْ وَقَلَّمَا فَقِهَتْ عَالِي مَرَامِيْهَا
مِنْهَا أَبُوْ طَالِبٍ قَدْ كَانَ جَاهِلَهَا وَشَامَ فِيْهَا آبْنُهُ آلصِّدِّيْقَ صَابِيْهَا
فَجَاءَهُ سَائِلاً عَنْهَا فَقَالَ لَهُ هِيَ آلْحَقِيْقَةُ وَضَّاحٌ تَجَلِّيْهَا
تَبِعْتُ فِيْهَا خُطَى طَهَ لِشِرْعَتِهِ آلْـ ـغَرَّا وَقَدْ أَمِنَ آلْإِعْثَارَ حَاطِيْهَا
فَقَالَ مَا دَامَ لِلْخَيْرَاتِ دَعْوَتُهَا فَآنْشَطْ وَأَنْتَ لَهَا وَآنْشُرْ مَبَادِيْهَا
كَذَا آلْغُلَامُ عَلِيٌّ كَانَ أَوَّلَ مَنْ لَهَا آهْتَدَى قَلْبُهُ إِذْ رَاحَ وَاعِيْهَا
وَقَالَ مُفْتَخِراً إِنِّيْ نَشَأْتُ عَلَى مَحْضٍ مِنَ آلْفِطْرَةِ آلْمَحْمُوْدُ نَاشِيْهَا(١)
فَمَا عَبَدْتُ سِوَى بَارِيْ آلْخَلِيْقَةِ عَنْ هُدَى عِبَادَةَ بِرٍّ كُنْتُ أَقْضِيْهَا
وَهَاتِهِ آلنَّفْسُ مَا آلْإِشْرَاكُ دَنَّسَهَا يَوْمَاً وَلَا كَانَ عَنْ بَارِيَّ مُلْهِيْهَا
وَتِلْكَ نُعْمَى إِلٰهُ آلْخَلْقِ خَصَّصَنِيْ بِهَا فَأَذْكُرُهَا شُكْرَاً لِمُسْدِيْهَا
نَعَمْ أَبَا حَسَنٍ أَنْتَ آلسَّبُوْقُ إِلَى آلْـ ـهُدَى بِهِ آلنَّاسُ أَخْلِقْ أَنْ تُجَاهِيْهَا

= يأتيه صلى الله عليه وآله وسلم الوحي تهيبه وكان يقصّ قصته على خديجة فتشجعه وتصدقه وكان لذلك تأثير عظيم في نفسه حتى إذا ما جهر لها ببعثته آمنت به كما آمن ربيبه سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فكانا في الإيمان متقاربين لا يستطيع الباحث أن يحكم بفضيلة السبق إلى الإسلام لأحدهما دون الآخر إلّا كما قالوا أوحي للمصطفى صباح يوم الاثنين وصلّى مع خديجة في مسائه وصلّى معهما علي في صباح الثلاثاء أي أن سبق خديجة لأمير المؤمنين في الإسلام إذا صحّ يكون بين عشيةٍ وضحاها .

(١) وكان المرتضى عليه السلام يشكر الله سبحانه دائماً لتخصيصه بنعمة الإيمان منذ ولد فنشأ فلم تتدنس نفسه بالإشراك ويقول : « إنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والإسلام » ومعنى قوله هذا أنّه ككل إنسان ولد على الفطرة ولكنه سلم دون الناس من تأثير أبويه عليه في اتّباع دينهما بل صانه الله من ذلك بكفالة ابن عمّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فغذّى نفسه منذ بدء نشأته بالإسلام والإيمان وفي قوله هذا إشارة إلى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

وَأَنْـتَ أَوَّلُ مَهْـدِيٍّ وَمُـحْـتَـمِـلٍ   مَـعَ آلـرَّسُـوْلِ أَذِيَّـاتٍ يُـلاَقِيْهَـا
وَأَنْتَ أَنْت أَخُـوْ آلْهَـادِيْ وَصَـاحِبُـهُ   وَشِـرْعَةُ آلْمُـصْـطَفَى صَفْـوُ تَـآخِيْهَـا

أمير المؤمنين وإظهار الدعوة

شَبَّ آلْعَلِيُّ بِـظِلِّ آلْمُصْـطَفَى وَتَبَـا   شِيْـرُ آلنُّبُـوَّةِ لاَ يَنْفَـكُّ لاَقِيْهَـا(١)
وَكَـانَ يَصْحَبُـهُ فِيْ صَفْـوِ خَلْوَتِـهِ   إِلَى مَفَـاوِزِ « حَـرًّا » مَعْـهُ يَـأْوِيْهَـا

---

(١) بعد أن تمَّ للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنوات منذ بدىء به بالنبوة أخذ يـدعو إلى الإسلام سرّاً بعضاً من أهل ثقته فأسلم نفر من قريش على يديه وذلك في ثلاث سنـوات بطولها ثمَّ نزلت عليه آية ﴿ **وأنذر عشيـرتك الأقـربين واخفض جناحـك لمن اتّبعك من المؤمنين** ﴾ وادع إلى الله تعـالى ولا تبال للمشـركين حينئذٍ أقـرَّ على إعلان دعـوته لبني هاشم وهم عشيرته الأقربون إلاّ أنّه تهيبهم لما أنس من شدّتهم في شركهم فتربص مـدة شهر فنزلت عليه آية ﴿ **فاصدع بمـا تؤمر واعـرض عن المشركين** ﴾ حينئـذٍ لم يسعه إلاّ تلبية أمر الله سبحانه وتعالى فقصد علياً عليه السلام وهاك رواية عليّ قال : « دعـاني النبي إليه وقـال يا علي إنّ الله أمـرني أن أنـذر عشيـرتي الأقـربين فضقت ذرعـاً وعلمت أنّي متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمتُّ عليه حتى جاءني جبريل فقال : يـا محمد إن لم تفعل ما تؤمر به يعـذّبك ربّـك فامتثلت أمـر ربّي وجئت إليك يـا علي فاصنـع لنا صاع طعام واجعل عليه رجـل شاة وامـلأ لنا عسـاً من لبن واجمع لي بني عبـد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت فبـادرت لتتميم الأمر ودعـوتهم وهم وقتئذٍ أربعـون رجلاً فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم فلما وضعته تناول رسـول الله حزّة من اللحم فنتفها بأسنانه ثمَّ ألقاها في نـواحي الصحفة ثمَّ قـال خذوا بـاسم الله فأكـل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وما أرى إلاّ مواضع أيديهم وأيم الله الذي نفس علي بيـده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القـوم فجئتهم بذلـك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وأيم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله أن يكلّمهم بدره عمّه أبو لهب قائلاً : لعلمـا سحركم صـاحبكم فتفرقـوا »اهـ وهكذا لم ينجم عن الاجتماع الأول أمرٌ .

تفرَّق بنو عبد المطلب عن رسول الله وظلَّ صلى الله عليه وآله وسلم مكموداً حزينـاً حتى إذا ما جـاء =

وَكَانَ يَشْهَدُ تِلْكَ ٱلْمُعْجِزَاتِ بِعَيْـــنَيْهِ فَيَدْهَشُ مِنْ سَامِي تَبَدِّيْهَا
وَكَانَ يَسْمَعُ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ إِلَى آلــرَّسُوْلِ تُلْقَى فَتُشْجِيْهِ مَثَانِيْهَا
وَكَانَ يَحْضُرُ جِبْرِيْلاً وَزَوْرَتَهُ مُحَمَّداً بِوُجُوْهِ ٱلْوَحْيِ يُبْدِيْهَا
وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ غَيْرَ ٱلْمُرْتَضَى وَخَدِيْـــجَةٍ مُلِمٌّ بِذِيْ ٱلْحَالاَتِ دَارِيْهَا

= الغد عاد إلى علي وأمره أن يصنع ما صنع في أمسه وأن يدعو إليه عشيرته الأقربين ففعل فلما تكامل جمعهم لديه قدم لهم الطعام واللبن فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ثم بدرهم صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنّ الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم ، ولو غرّرت الناس جميعهم ما غرَّرتكم ، والله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّي لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافَّةً والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتبعثنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنَّ بما تعلمون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنّها لجنَّةٌ أبداً ، ولنارٌ أبداً ، يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، يا بني عبد المطلب إنّي لأدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان ـ شهادة أن لا إله إلاّ الله وإنّي رسول الله ـ فمن يجبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به يكن أخي ووزيري وخليفتي من بعدي » فلم يجبه أحد من بني عبد المطلب إلاّ عليّ وكان أحدثهم سناً فقال : أنا يا رسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثمَّ أعاد القول ثانياً فصمت القوم وأجاب علي أنا يا رسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثم أعاد القول ثالثاً فلم يكن في بني عبد المطلب من يجيبه غير علي فقال أنا يا رسول الله . حينئذٍ قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : إجلس فأنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي . فنهض القوم غاضبين مستهزئين وهم يقولون شيخهم أبي طالب عليك يا عمّ أن تطيع ابنك الغلام هذا وهم يريدون سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

نقول : ومن تأمل في هذا الحديث يجد أنّ المرتضى قام بنصرة الدعوة من نعومة أظفاره وكان العضد الأول للمصطفى في أول عمل أتاه في سبيلها وسترى فيما يجيء من هذه القصيدة المباركة وحواشيها أنّه ماشى النبوّة ونصرها وخدمها إلى أن بلغت أوج المجد الذي أعدّه لها الله عزّ وجلّ .

حَتَّى إِذَا مَا بَشِيْرُ ٱلْوَحْيِ هَيَّأَ لِلْـــهُدَى بَشِيْرَ ٱلْوَرَى أَمْضَاهُ يُفْشِيْهَا

وَتِلْكَ بَعْثَتُهُ ٱلزَّهْرَا عَلَيْهِ صَلَا ةُ ٱللَّهِ لِلْخَلْقِ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا

فَصَارَ يَدْعُوْ إِلَيْهَا مَنْ تَوَسَّمَ فِيْــهِ ٱلْخَيْرَ سِرّاً وَخَوْفَ ٱلشَّرِّ يُخْفِيْهَا

بِـذَا ثَلَاثَةُ أَعْوَامٍ قَضَى وَلَـهُ قَدْ دَانَ بَعْضُ قُرَيْشٍ وَٱهْتَدُوْا فِيْهَا

وَبَعْـدَهَا جَاءَهُ جِبْرِيْلُ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُجَاهِرَ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْرِيْهَا

وَقَالَ فَٱصْدَعْ بِأَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّكَ مَبْــعُوْثٌ لِتَدْعُوْ إِلَيْهِ ٱلنَّاسَ تَهْدِيْهَا

أَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ ٱلدُّنْيَا بِشِرْعَتِكَ ٱلْــغَرَّا وَأَظْهِرْ لَهَا أَسْنَى مَعَانِيْهَا

وَمُذْ تَبَلَّغَ أَمْرَ ٱللَّهِ هَمَّ بِهِ بِهِمَّةٍ مَا ٱعْتَدَا ٱلْكُفَّارِ يُثْنِيْهَا

وَلَمْ يَجِدْ عَضَداً كَيْ يَسْتَعِيْنَ بِهِ عَلَى مُجَاهَرَةٍ قَدْ كَانَ خَاشِيْهَا

إِلَّا ٱلْعَلِيَّ فَنَادَاهُ وَأَخْبَرَهُ بِبُغْيَةٍ حَسْبُ أَمْرِ ٱللَّهِ بَاغِيْهَا

وَقَالَ هَيِّئْ لَنَا فِيْ ٱلْحَالِ مَأْدُبَةً وَلْيَتْقِنَنَّ لَهَا ٱلْأَلْوَانَ طَاهِيْهَا

فَرِجْلُ شَاةٍ عَلَى صَاعِ ٱلطَّعَامِ وَأَعْــسَاسُ لَهَا ٱللَّبَنُ ٱلنُّوْقِيُّ يُمْلِيْهَا

وَٱدْعُ ٱلْهَوَاشِمَ بِٱسْمِيْ كَيْ أُشَافِهَهَا بِأَمْرِ رَبِّيَ بَارِيَّ وَبَارِيْهَا

قَامَ ٱلْعَلِيُّ بِأَمْرِ ٱلْمُصْطَفَى وَدَعَا إِلَى وَلِيْمَتِهِ أَكْرِمْ بِدَاعِيْهَا

أَبْنَاءَ هَاشِمَ هُمْ كَانُوْا عَشِيْرَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ فِيْهِمِ إِلَّا ٱلْمُلَبِّيْهَا

وَعَدُّهُمْ كَانَ عِنْدَ ٱلْأَرْبَعِيْنَ وَهُمْ رَجَالَةُ ٱلْعُرْبِ فِيْ إِحْصَاءِ مُحْصِيْهَا

هٰذِيْ عَشِيْرَةُ طَهَ بَلْ قَرَابَتُهُ ٱلْــدُّنْيَا ٱلَّتِيْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ رَاجِيْهَا

وَإِذْ أَتَتْهُ تَلَقَّاهَا عَلَى رَحَبٍ بِبُشْرِهِ وَٱنْثَنَى صَفْواً يُحَيِّيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱسْتَوَى فِيْهَا ٱلْمَقَامُ لَهَا مَدَّ ٱلسِمَاطَ وَفِيْهِ مَا يُشَهِّيْهَا

فَأَقْبَلَتْ وَرَسُوْلُ ٱللَّهِ يَخْدِمُهَا عَلَى ٱلطَّعَامِ وَيَعْنَى كَيْ يُهَنِّيْهَا

حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ ذَاكَ ٱلـطَّعَـامَ وَمِنْ   أَلْبَـانِـهِ سُقِيَتْ وَٱللَّهُ كَـافِيْـهَـا

ظَلَّ ٱلطَّعَـامُ كَمَا قَـدْ كَانَ وَهْـوَ وَأَيْــــمُ ٱللَّهِ مَـا كَـانَ يَكْفِي مُسْتَجِيْعِيْهَـا

وَتِلْكَ مُعْجِـزَةٌ لِلْمُصْـطَفَى وَبِـهَـا   قَـامَ ٱلْعَلِيُّ وَعَنْـهُ نَحْنُ نَـرْوِيْهَـا

ثُمَّ قَـدِ ٱبْتَدَرَ ٱلْقَـوْمَ ٱلرَّسُـوْلُ بِـذِكْـــرَى يُمْنِ بَعْثَتِـهِ يُبْدِي خَـوَافِيْهَـا

وَإِذْ أَبُـوْ لَهَبٍ فِيْ ٱلْحَالِ قَـاطَعَـهُ   وَمَـوَّهَ ٱلْحَقَّ بِـٱلتَّضْلِيْـلِ تَمْـوِيْهَـا

وَقَـالَ يَـا نَـاسُ طَـهَ جَـاءَ يَسْحَـرُكُمْ   بِذَا ٱلطَّعَامِ ٱحْذَرُوْا ٱلْإِضْلَالَ وَٱلتِّيْهَا

هَيَّ ٱنْهَضُـوا وَدَعُـوْهُ أَنْ يَغُشَّ نُفُـوْ   سَ ٱلْغَيْرِ فِيْ هٰذِهِ ٱلدَّعْوَى وَيُصْبِيْهَا

وَهٰكَـذَا ٱرْفَضَّ ذَاكَ ٱلْإِجْتِمَـاعُ وَأَنْـــفُسُ ٱلْجَمَاعَةِ دَاجِيْ ٱلْكُفْرِ غَاشِيْهَا

وَعَـادَ طَـهَ إِلَـى تَكْـرَارِ دَعْـوَتِـهِ   وَكَـانَ حَيْـدَرَةُ ٱلْمُقْـدَامُ رَاعِيْهَـا

حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِـلْأَكْـلِ ثَـانِيَـةً   عَلَى ٱلْخِـوَانِ ٱنْثَنَى طَـهَ يُفَـاهِيْهَـا

فَقَـالَ : مَـا جَـاءَ قَبْلِيْ قَـوْمَـهُ أَحَـدٌ   بِمِثْلِمَـا جِئْتُ مِنْ نَعْمَـاءَ أُسْـدِيْهَـا

لَكُمْ بِهَـا ٱلْخَيْـرُ فِيْ دُنْيَـا وَآخِـرَةٍ   إِذَا ٱنْضَـوَيْتُم إِلَى زَاهِيْ مَغَـانِيْهَـا

فَمَنْ يُـوَازِرُنِيْ مِنْكُمْ فَـذَاكَ أَخِـيْ   وَذَاكَ يَخْلِفُنِيْ فِـيْ رَعْيِ نَـامِيْهَـا

فَلَمْ يَجِـدْ مِنْ لَبِيْب رَاحَ مُـقْتَنِعَـاً   بِـصِـدْقِ بَعْثَتِـهِ أَوْ رَاحَ رَاضِيْهَـا

وَكُلَّمَـا ٱزْدَادَ تَبْيَـانَـاً لِبَعْثَتِـهِ ٱلــــزُّهْـرَا أَزَادَتْـهُ تَكْـذِيْبَـاً وَتَسْفِيْهَـا

ثُـمَّ أَبُـوْ لَـهَـبٍ نَـادَاهُ وَيْـلُكَ لَـمْ   يَجِيءْ فَتَىً قَـوْمَـهُ مَـا جِئْتَنَا إِيْهَـا

تَبَّتْ يَـدَاهُ فَـإِنَّ ٱلْجَهْـلَ تَـوَّهَـهُ   وَٱلْكُفْـرُ فِيْ دَرَكَـاتِ ٱلنَّارِ تَتْـوِيْهَـا

وَكَـرَّرَ ٱلْمُصْـطَفَى أَقْـوَالَـهُ عَلَنَـاً   وَقَـدْ تَـوَسَّـعَ إِنْـذَاراً وَتَـنْبِـيْهَـا

فَمَـا رَأَى غَيْـرَ ٱلْبَـابِ مُحَجَّـرَةٍ   هَيْهَـاتِ لَيْسَ يُلِيْنُ ٱلنُّصْحُ قَـاسِيْهَـا

وَأَنْفُسَـاً عَنْ كِتَـابِ ٱللَّهِ مُعْـرِضَـةً   وَٱلْكُفْـرُ قَدْ كَـانَ وَٱلْإِشْرَاكُ مُعْمِيْهَـا

وَأَحْجَمَتْ كُلُّهَا عَنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ   مَعْ يُمْنِ دَعْوَتِهِ فَٱلْكُلُّ آبِيْهَا

إِلَّا ٱلْعَلِيُّ فَنَادَى دُوْنَهَا: فَأَنَا   نَعْمَاكَ يَا هَادِيَ ٱلْأَكْوَانِ بَاغِيْهَا

نَادَى أَنِ ٱجْلِسْ ثَلَاثاً وَهْوَ يَعْرِضُ دَعْـ   ـوَاهُ عَلَى ٱلْقَوْمِ يَبْغِي مُسْتَجِيْبِيْهَا

حَتَّى إِذَا بَاتَ مَأْيُوْساً وَمُنْزَعِجاً   مِنَ ٱلْهَوَاشِمِ مُعْيَى عَنْ تَرَضِّيْهَا

عَنْهَا تَوَلَّى إِلَى حَيْثُ ٱلْعَلِيُّ مُنَوِّ   هاً بِهِ بَيْنَ ذَاكَ ٱلْجَمْعِ تَنْوِيْهَا

وَكَانَ مَاسِكَهُ مِنْ طَوْقِ رَقْبَتِهِ   يَقُوْلُ: هٰذَا لَهَا وَٱللّٰهِ يَحْمِيْهَا

وَقَالَ: هٰذَا أَخِيْ ذَا وَارِثِي وَخَلِيْـ   ـفَتِيْ عَلَى أُمَّتِيْ يَحْمِي مَرَاعِيْهَا

وَقَالَ فَرْضٌ عَلَيْكُمْ حُسْنُ طَاعَتِهِ   بَعْدِيْ وَإِمْرَتُهُ وَيْلٌ لِعَاصِيْهَا

فَٱرْفَضَّ جَمْعُهُمُ وَٱلْهُزْءُ آخِذُهُمْ   إِلَى ٱلْغَوَايَةِ فِيْ أَدْجَى دَيَاجِيْهَا

وَهُمْ يَقُوْلُوْنَ: أَحْكَامُ ٱلْغُلَامِ عَلِـ   ـيٍّ يَا أَبَا طَالِبٍ كُنْ مِنْ مُطِيْعِيْهَا

كَذَاكَ حَيْدَرَةٌ مَاشَى ٱلنُّبُوَّةَ مُذْ   نَادَى بِهَا ٱلْمُصْطَفَى لَبَّى مُنَادِيْهَا

وَشَارَكَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ يَوْمِ إِنْ وَضَعَ ٱلْآ   سَاسَ حَتَّى ٱنْتَهَتْ عَلْيَا مَبَانِيْهَا

فَكَانَ أَوَّلَ أَرْبَابِ ٱلْجِهَادِ جَمِيْـ   ـعاً بَعْدَ أَحْمَدَ فِيْ مَلْقَى أَعَادِيْهَا

وَكَانَ آخِرَ مَنْ عَانَى ٱلْمَصَائِبَ فِيْ   سَبِيْلِهَا طَالِبَاً رِضْوَانَ مُوْحِيْهَا

فَهَلْ يُبَارِيْهِ فِيْ هٰذَا ٱلْفَخَارِ مُبَا   رٍ فِيْ ٱلْبَرِيَّةِ مَاضِيْهَا وَآتِيْهَا

أمير المؤمنين والهجرة

مِنْ بَعْدِ إِنْ رَفَضَتْ طَهَ عَشِيْرَتُهُ   وَلَمْ تُجِبْ دَعْوَةً قَدْ كَانَ دَاعِيْهَا(١)

---

(١) لا جدال أنّ هجرة المصطفى مع أصحابه من مكة كرّمها الله إلى المدينة كانت بدء الجهاد لنشر الإسلام في العالم فهي إذن أهم الحوادث الإسلامية وهوذا=

=نجمل خبرها هنا مع اقتصارنا في قصيدتنا على نصيب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام منها فنقول :

ان رسول الله بدأ بتبليغ دعوته لعشيرته القربى وهم بنو هاشم حسب أمر الله فلما رفضت عشيرته قبول دعوته والقيام على نصرته عمّم الدعوى في قريش فأطاعه القليلون وهزىء بدعوته الأكثرون ولم يقتصر الناس على الازدراء به بل عمدوا إلى اضطهاده واضطهاد الأفراد الذين تبعوه فصاروا يؤذونهم ويوقعون بهم وهمّوا بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يريدون الوقيعة به فحماه من أذاهم عمّه الشيخ أبو طالب الذي كان أول نصير للإسلام . وعندما رأى المصطفى توالي الأذى على أصحابه من كفّار قريش أشار إليهم بالهجرة إلى الحبشة وكانت هجرتهم هذه في رجب من السنة الثانية لإظهار الدعوة ولما وصلوا إلى أرض الحبشة نزلوا بخير دار عند خير جار وظلّوا هناك إلى شوّال حيث بلغهم أنّ مشركي قريش قد أسلموا واصطلحوا مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فأسرعوا بالعودة إلى مكّة وكان العائدون نحواً من ثلاث وثلاثين رجلاً فيهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون والخبر الذي انتهى إلى مهاجري الحبشة لم يكن مكذوباً ولكن بولغ فيه وحقيقته أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم خفّف بدعوته ورأى المشركون أنّ المسلمين قد برحوا مكة فهدأت ثائرتهم على أن الذين عادوا من الحبشة بلغهم وهم في ظاهر مكة أنّ المشركين ما انفكوا يضطهدون المسلمين فدخلوها مستخفين .

وكان بين وقت وآخر يدخل في الإسلام من فتح الله عن بصيرته من النساء والرجال وكلما سمع المشركون بإسلام واحد منهم ازدادوا بغضاً للمسلمين وأذيةً لهم حتى إذا ما أسلم عمر بن الخطاب وكان وجيهاً في قريش ومعروفاً بشدته ازداد حقد المشركين على المسلمين . وفي الأخير اجتمع كفار قريش وأقرّوا على قتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا لرؤساء بني هاشم إنّ صاحبكم قد أفسد علينا أبناءَنا ونساءَنا فخذوا منّا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم فأبى الهواشم أن يسمحوا بقتل محمد وحينئذٍ أقرّت قريش على منابذة الهواشم ولا سيما بني عبد المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب ومنعهم من حضور الأسواق وأن يمتنع الناس عن مناكحتهم وعن قبول صلح لهم أبداً وعن أن يرأف بهم رائف حتى يعييهم الأمر فيسلمون محمداً لأيديهم فيفتكون به وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في=

فَغَـاظَهَـا أَنَّـهُ أَمْسَى يُـسَفِّـهُهَـا   بِـدِيْنِهَا وَهْـوَ لاَ يَنْفَـكُّ لاَحِيْهَـا

= الكعبة . وكان اجتماع قريش هذا في خيف بني كنانة بالأبطح بأعلى مكـة وحينئذٍ دخـل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مؤمنهم وكافرهم الشعب أدخلهم إليه القرشيـون قهراً إلّا أبو لهب عمّ المصطفى فقد كان ضد قومه مـع قريش وكـان ذلك والمصـطفى في السادسـة والأربعين من عمره السعيد . ومكث بنو هاشم في الشعب سنتين في أشـدّ ما يكـون من البـلاء .

وقد نال الهـواشم من النفي جهد عـظيم ترك مشـركيهم يسيئون معـاملة مسلميهم وحينئـذٍ لم يرَ المسلمـون بداً من الهجـرة ثانيـةً فهاجـر منهم ٨٣ رجلاً و١٨ إمـرأة على رأسهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس وقد أضافهم نجاشي الحبشة خير ضيـافة وأطلق لهم الحـرية في دينهم . وسمـع كفّـار قـريش أنّ النجـاشي أكـرم مثـوى المسلمين فخافوا أن يحالفهم وهو نصراني ويمدّهم بقوةٍ يأتون بها على مكة فأرسلوا لـه وفداً من قبلهم يغريه عليهم بدعوى أنّهم يسبّون سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام فما نجحوا في هذه الحيلة .

أمّا الهواشم فبعد أن بلغ منهم الجهد مبلغه وهم في الشعب قال محمد لعمّه أبي طالب إنّ الله سلّط الأرضة على صحيفة قريش فلحست منهـا اسم الله سبحانـه ولم يبق غير ما كتبوه من ظلم بني هاشم فصدق أبو طالب القول وسـار برهط من قـومه إلى مكـة فقابل المشركين وسار بهم إلى الكعبة حيث وجدوا صحّة ما روى المصـطفى وكان هـذا سبباً لإبطال ذلك الاعتصاب ضـدَّ بني هاشم فعـادوا إلى مكة كـرّمها الله وعـادت قريش إلى الاختلاط بهم .

وكان قد ذاع في جـزيرة العـرب نبأ محمـد ودعوتـه وما هـو جار في الحجـاز من الاضطراب بسببه فأخذت تفد عليه الـوفود فـأزاد ذلك في حقـد قريش على المصـطفى ودينـه وعلى أثر ذلـك توفي أبـو طالب وهـو كما علمت كـان النصيـر الأكبـر للمصـطفى فاشتدت قريش عليه لوفاته .

وعلى أثـر وفاة الشيـخ أبي طالب واشتـداد قريش على محمـد وأصحـابـه بحيث صـاروا يتعـرضـون لهم ويكثـرون من اضـطهـدهم وكثيـراً مـا كـان يتصـدى سفهـاؤهم للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فيسبّونه ويؤذونه ويسفون عليه التراب حينئذٍ ضـاق صدره صلى الله عليه وآله وسلم فخـرج إلى الطائف وكان ذلك في شوال من السنـة التي مات فيهـا أبو طـالب خرج إليهـا ومعه=

= يزيد بن حارثة وهو طامع أن تحالفه ثقيف على الإسلام فخاب ظنّه وردّته أشنع ردّ وبالغ سفهاؤها في أذيته فعاد إلى مكّة مكروباً مغموماً .

وكان المصطفى ﷺ في السنوات العشر الماضية يوافي موسم الحج في كل عام ويتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف ويأتي إليهم في أسواقهم « عكاظ ومجنة وذي مجاز » وكان يعرض نفسه على الناس ويقول : « يا أيّها الناس إنّ الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » أو يقول : « يا أيّها الناس قولوا لا إلَه إلاّ الله تفلحوا » كما كان ﷺ يقف في منازل القبائل ويقول : « يا بني فلان إنّي رسول الله إليكم انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله عزّ وجلّ ما بعثني به » وأجمع الرواة على أنّ أبا لهب عمّ المصطفى كان يتبعه ويكذبه عنوة ويرميه بالحجارة ويغري الناس على الهزء بدعوته . على أنّ المصطفى لم يجد من جميع القبائل التي عرض نفسه عليها قبيلة تنصره وتقوم بدعوته وكان جواب أكثرها بأنّ عشيرتك أعرف منّا بك وهي لم تتبعك ثم يقولون فيما بينهم « إنّ قوم الرجل أعلم به أترون أنّ رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه » .

وما زال المصطفى ﷺ قلقاً لفقد النصير والمساعد حتى أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيّه وإنجاز موعده له فيسّر له الأعوان والأنصار وذلك أنّه خرج كعادته في الموسم قبل ثلاث سنوات من الهجرة يعرض نفسه على القبائل فبينما هو عند العقبة (عند يسار الطريق لقاصد منى والتي تسمى الجمرة باسمها فيقال « جمرة العقبة » وفيها الآن مسجد البيعة إشارة إلى هذا الحادث العظيم الذي ترويه) إذ لقي هناك رهطاً من الخزرج وكانوا ستة رجال فقال من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج فقال أمن موالي اليهود « أي حلفاء اليهود الذين كانوا ينزلون يثرب وما جاورها وهم قريظة والنضير » قالوا نعم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام فأجابوه وصدّقوه لأنّهم كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أنّ الله سيبعث نبيّاً قد قرب زمانه فيجدّد مملكة إسرائيل التي تلاشت فكانوا كأنّهم على استعداد لهذه الدعوة وقالوا للمصطفى لقد تركنا قومنا « وهم الأوس والخزرج » وهم يقتتلون والعداوة بينهم منذ مئة عام فإن يجمعهم الله عليك فلا أعزّ منك وإننا لنشير عليك أن تمكث على رسلك حتى نرجع إلى قومنا =

وَحَـاوَلَتْ أَنْ تُنَـاوِيْـهِ مُكَـابَـرَةً بِبُـطْلِهَا مِثْلَمَـا أَضْحَى يُنَـاوِيْهَـا

= ونقصّ عليهم دعوتك وموعدنـا معك الحجـة القادمـة وهكذا تمَّ الاتفـاق بينه وبينهم من غير تعاقد أو بيعة .

وفي الحجة التالية أي السنة التي سبقت سنـة الهجرة قـدم مكة أحـد عشر رجـلاً منهم خمسـة من الخزرج وهم من الستـة الـذين اجتمـع عليهم المصـطفى في الحجـة الماضية وأربعة من الخزرج أيضاً واثنان من الأوس فـاجتمع بهم المصـطفى عند العقبـة أيضـاً وبايعهم على أن يمنعـوه ما يمنعـون به نسـاءَهم وأبنـاءَهم وعلى أن يـرحـل إليهم فبايعوه على ذلـك وهذه المبـايعة يقـال لها العقبـة الأولى ولما رجـع هؤلاء إلى المدينـة أرسلوا إلى المصـطفى أن ابعث إلينا رجـلاً من قبلك يفقهنا ويـدعـو النـاس بكتـاب الله فبعث إليهم رسول الله مصعب بن عمير وكان يقال لـه المقري وهـو أول من تسمى بهذا الإسم ولمـا وصل هـذا إلى المدينـة نزل على أبي أمـامـة أسعـد بن زرارة فـطفق يعلم الأوس والخزرج القرآن ويؤمّهم ويؤدبهم بآداب الإسلام وكـان هذا بـدء اجتماع كلمتهم بعد طول الشقـاق بينهم وأسلم على يد مصعب هـذا سعد بن معـاذ وابن عمّه أسيـد بن خضيـر وغيرهمـا خلق كثير ثمَّ أنَّ مصعب خـرج إلى مكـة مـع من خـرج من المسلمين الخـزرجيين إلى الموسم مـع حجاج قـومهم المشركين فـاجتمع على رسـول الله وأخبره بمن أسلم فسرَّ بذلـك . ثم جاءَه بمن معـه من مسلمي الأنصار وعلى رأسهم البـراء بن معرور وكعب بن مالك وواعدهم على أن يجتمع معهم في العقبة بعـد انقضاء المـوسم في ليلة اليوم الذي هـو يوم النفـر الأول فلما كـانت الليلة الموعـودة حضروا إلى العقبـة وكان معهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن خزام من سادات يثرب وكان مشركاً وكانوا ٧٣ رجلاً وامرأتين فوجدوا رسول الله بانتظارهم وكان معـه عباس عمّـه وعلي وأبو بكـر على، أنّه ﷺ أناط بسيدنا علي وأبي بكـر حراسـة الطريق من طـرفيه وأمّـا عمّه العبـاس فلم يكن وقتئذٍ قد أسلم ولكنه أصرَّ على حضور المبايعـة للإطمئنـان على مستقبل ابن أخيـه بصفته زعيم الهواشم .

فلمّا جلس القوم بين يدي رسول الله والعباس بجانبـه افتتح الكـلام العباس فقـال « يا معشر الخزرج (لأنَّ العرب كانت تطلق اسم الخـزرج على الأوس والخزرج معـاً) انَّ محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فهو في عزّ من قـومه ومنعـة في بلده وقد أبى إلاّ الإنحيـاز إليكم واللحـوق بكم فـإن كنتم تـرون أنّكم =

= وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه مما خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن تدعوه » وما انتهى العباس حتى قال البراء بن معرور « انَّا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنّا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله » ثم أخذ البراء بيد رسول الله ﷺ وقال : « نعم والذي بعثك بالحق نمنعك مما نمنع به أزرنا (أي نسائنا) وأنفسنا فنحن والله أهل حرب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر » وبينا البراء يكلّم رسول الله وإذا بأبي الهيثم بن التيهان يقول « ونقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف » فقال العباس : أخفوا جرسكم (أي صوتكم) فإنّ علينا عيوناً . ثم قال أبو الهيثم : « يا رسول الله إنّ بيننا وبين اليهود عهوداً وإنّا قاطعوها فهل حسبت إذا نحن فعلنا ذلك ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟؟ » فتبسم رسول الله وقال : « بل الدم الدم والهدم الهدم (أي تطلبون بدمي وأطلب بدمكم) وذمتي ذمتكم ورحلتي مع رحلتكم أنا منكم وأنتم منّي أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وقال العباس على الأثر : « عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ويد الله فوق أيديكم لتجدُنَّ في نصرته ولتشدُّنَّ من أزره » فقال الجميع : نعم . قال العباس : « اللهمَّ إنّك سامعٌ شاهدٌ وإنّ ابن أخي قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه . اللهمَّ كن لابن أخي عليهم شهيداً » وبعد أن انتهى العباس من قوله هذا قال رسول الله : اخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فكانوا سعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وسعد بن خيثمة والمنذر بن عمرو وعبد الله بن رواحة والبرَّاء بن معرور وأبو الهيثم بن التيهان وأسيد بن حضير وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك كل واحد ناب عن قبيلة من قبائل الخزرج والأوس . فقال رسول الله لأولئك النقباء أنتم كفلاء على غيركم وأنا كفيل على قومي وحينئذٍ تقدم أسعد بن زرارة وهو أصغر أولئك النقباء وأخذ من يد النبي ﷺ وقال : « رويداً يا أهل يثرب إنّا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلاّ ونحن نعلم أنّه رسول الله وأنّ إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن قطعكم السيوف فإمّا أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب فخذوه وأجركم على الله تعالى وأمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه فهو عذرٌ لكم عند الله عزَّ وجلَّ » فنادى في الحال النقباء « يا سعد امط عنّا =

= يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها » وهكذا شدّت عقـدة العهد وتمت البيعـة بين الخزرج الذين دعوا أنصار المصطفى وبيته ﷺ وقال الأنصار في ختـام المبايعـة ابسط يدك يا رسول الله فبسطها فبايعه جميع الحاضرين وكـان الواحـد منهم يقول : « أبـايعك على أن أتم عهـدي بوفـائي وأصدق قـولي بفعلي في نصرك » ولمـا انتهت هـذه البيعـة دعيت العقبة الثانية وهكذا ارفضّ الاجتماع وعاد الأنصار إلى يثرب .

وعلمت قـريش بمعـاهـدة الخـزرج لمحمـد ومن معـه من المسلمين فخـافت أن يتغلب عليها بواسطتهم وأخذت تبالغ باضطهاد المسلمين حتى ضيّقوا عليهم ونالوا منهم وجعل البلاء يشتد عليهم حتى أصبحوا بين مفتـون في دينه وبين معـذب مضطهـد وبين هارب متخفي في البلاد وشكوا أمرهم إلى المصطفى ﷺ واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم . ثمّ قال لهم : أُريتُ دار هجرتكم أُريت سبحة ذات نخـل بين لابتين وهما الحرَّتان . ثم خرج إليهم مسروراً فقال: قد أُخبرتُ بدار هجرتكم وهي يثـرب فمن أراد أن يخرج فليخرج إليها . فخرج المسلمون إليها نساءً ورجالاً متتـابعين مستخفين . على أنـه ﷺ قبل هجـرتهم آخى بينهم واتّخذ علياً أخاً لـه وسنـذكـر هـذه المـواخـاة والمـواخاة الثـانية التي آخى بهـا بين المهاجـرين والأنصار في حـاشيـة تجيء ووصـول المهاجرين إلى يثرب أنزلهم في دورهم وآووهم وواسوهم .

وبعد أن هاجر معظم المسلمين إلى يثرب مكث ﷺ في مكة ومعه علي بن أبي طـالب الذي لم يكن يصبـر على صحبته وأبـو بكـر وأخـذ ينتـظر أن يؤذن لـه بـالهجـرة ليصحبهما إليها .

ولما رأت قريش أنّ المسلمين هجـروا مكة وأووا يثـرب عند معـاهديهم الخـزرج حذروا أن يخرج رسول الله ﷺ إليهم وأن يجمع الناس على حربهم فـاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره ﷺ وكانت دار الندوة هذه في منـزل قصي بن كلاب وكانوا لا يقطعـون أمراً إلاّ فيهـا . وبينما كـانوا مجتمعين دخـل عليهم إبليس في صورة شيخ عليه طيلسان من خزّ فقالـوا من الشيخ ؟ قـال : من أهل نجـد سمع بـالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً قالوا : أجل فادخل فدخل معهم. ثمَّ أخذوا يتـداولون بـأمر المصـطفى فقال بعضهم لبعض إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنّا لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتّبعه من =

شَأْنُ ٱلْأُلَى هَجَرُوْا ٱلْحَقَّ ٱلْمُبِيْنَ جَهَا   لَـةً وَمَـا مَلَكُـوْا إِلَّا ٱلتَّـرَارِيْـهَـا

=غيرنا أجمعوا فيه رأياً فقال قائل احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت . فعارضهم ذلك الشيخ النجدي قائلاً : لا والله ما هذا لكم برأي فإنّكم لو حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلا تأمنون أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثمَّ يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم فانتظروا رأياً آخر . فعادوا ثانية إلى المشاورة فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنّا فوالله لا نبالي أين يذهب . فاعترض النجدي قائلاً : والله ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال والله لو أطلقتموه ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثمَّ يسير به إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثمَّ يفعل بكم ما أراد . فدبروا به رأياً آخر . فقال أبو جهل بن هشام : والله إنّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً في قومه نسيباً وسطاً ويأخذ كل منهم سيفه ثمَّ يغدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منّا بديته فنؤدّيها . فقال النجدي : القول ما قال هذا الرجل . فتفرق القوم على ذلك .

وكانت قريش في ندوتها تلك تتآمر على رسول الله ﷺ وهو في بيته لا يدري من أمرها شيئاً فجاءه جبريل وقال له : لا تبت هذه الليلة في فراشك وأخبره بمكر القوم به وأنزل الله عزَّ وجلّ عليه آية ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**﴾ فلما كان الهزيع الأول من الليل أحاط بدار رسول الله ﷺ شبّان قريش الذين نيط بهم قتله على ما تآمرت شيوخهم وجعلوا يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه عنوةً فيذهب دمه هدراً لمشاهدة بني هاشم قتلته من جميع القبائل . فلما رآهم رسول الله ﷺ محدقين بداره قال لعلي بن أبي طالب نم على فراشي واتّشح ببردائي هذا الحضرمي ولن يخلص إليك شيء تكرهه . ثمَّ إنّ المصطفى أنبأ عليّاً بأنّه ذاهب إلى بيت أبي بكر ليختفي فيه ومنه سيهاجر مع أبي بكر =

وَكُـلُّ مَنْ ضَعُفَتْ تَـاَللَّهِ حِجَّـتُـهُ   بِـاَلسَّبِّ وَاَلضَّرْبِ يَـرْجُوْ أَنْ يُقَـوِّيَهَـا

=إلى المدينة وأوصاه أن يردّ الودائع التي عنده إلى أهلها وأن يـدبّر لـه ولصاحبـه أبي بكر دليـلاً وراحلتين وأن يعتني بأمـر أهله إلى آخر مـا أوصاه بـه من المهام ثم قـال لـه فـإذا أبـرمت ما أمـرتك بـه كن على أهبة الهجـرة إلى الله ورسولـه . وهكذا تـرك المصطفى المـرتضى عليهمـا الصـلاة والسـلام ممدداً في فـراشـه وسـار نحـو البـاب فخـرج على المشركين وأخذ حفنـة من تراب وتـلا قولـه تعالى ﴿ يسٓ والقـرآن الحكيم - إلى قولـه - **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ وحثا التراب على رؤوسهم فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه فلما بعد عنهم قصد منزل أبي بكر فدخل عليه وأقـام فيه إلى الليلة التـالية حيث اصطحبه وخرجا من مكة مستخفيين إلى غار خارجها فأقاما فيه ثلاثة أيام مخافة أن يتبعهما مشركو قريش .

وظلّ شبان قريش بأزاء دار المصطفى إلى نحو الفجـر حيث أتاهم آتٍ فقـال : ما تنتظرون ههنا قالوا : محمداً فقال : قـد خيبكم الله ؛ والله خرج عليكم محمد بعد أن حثا على رؤوسكم التراب وانطلق لحاجته أفمـا ترون مـا بكم ؟ فوضـع كل رجـل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب وجعلوا يتـطلعون إلى داخـل منزل المصـطفى فيرون شخصـاً نائماً على فراشه يظنونه هو فيقولون إنّ محمداً لنائم وما زالوا كذلك إلى أن اتّضح النهار فتسـوروا الدار ودخلوهـا شاهـرين سيوفهم فثـار علي في وجوههم بشجـاعتـه المعهـودة فعرفوه وقالوا هـو أنت ؟ فأين صـاحبك ؟ فقـال لا أدري وأنتم طلبتم منه أن يخـرج من مكة فخرج فتولاهـم الغيظ فسبّوه وضربوه واستـاقوه إلى المسجـد فحبسوه فيـه ساعـة ثمّ أخلوا عنه .

وما كاد ينطلق عليّ حتى أسرع إلى تنفيذ أوامر المصـطفى وإذ علم بخروجـه من مكة إلى الغار مع أبي بكر طفق يرسل لهما الزاد في مـدة ثلاثـة أيام مـع عامـر بن فهيرة الذي كان ينقل إليه أوامـر المصطفى وفي اليـوم الثالث استـأجر لهمـا علي ثلاث أبـاعر ودليلاً هو الأريقط بن عبد الله الليثي وأرسله بهما إلى المصطفى وصاحبه فسار بهما إلى يثرب .

وإذ علمت قريش بسفر رسول الله ﷺ إلى يثرب هالها الأمر وأرسلت من يقتفي أثره ويردّه إلى مكة كرّمها الله فما أفلحت على كثرة من تبعه منها . ووصل عليـه الصلاة والسلام إلى يثرب بعد ثمانية أيام من خروجه من مكة فيها الأيام الثلاثة التي قضاهـا في=

تِلْكَ ٱلْجَهَالَةُ وَٱلْجُهَّالُ مَا عَرَفَتْ ... إِلَّا ٱلْبَذَاءَةَ فِي مَلْقَى مُحِبِّيْهَا
لَكِنْ أَبُوْ طَالِبٍ مَا ٱنْفَكَ يَنْصِرُ أَحْـ ... ـمَداً وَيَرْدَعُ أَعْدَاهُ وَيُخْزِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَاتَ هَبَّتْ وَهْيَ طَالِبَةٌ ... أَذِيَّةَ ٱلْمُصْطَفَى خَالَتْهُ مُؤْذِيْهَا
وَطَالَمَا سَفَتِ ٱلنَّاسِ ٱلتُّرَابَ عَلَيْـ ... ـهِ أَوْ تَقَوَّلَ عَنْهُ ٱلْهَجْرَ مُسْفِيْهَا
وَحَقَّرَتْهُ بِمَا قَالَتْ وَمَا فَعَلَتْ ... عَنْهُ وَمَعَهُ وَجَارَتْ فِي تَعَدِّيْهَا
وَفِي ٱلْأَخِيْرِ رَأَتْ أَنْ تَقْضِيَنَّ عَلَيْـ ... ـهِ وَٱلْمَنِيَّةُ مِنْ دَعْوَاهُ تُنْجِيْهَا
لَكِنَّهَا رَهِبَتْ فِيْهِ عَشِيْرَتَهُ ... وَقَدْ يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تُعَادِيْهَا
وَبَعْدَ أَنْ أَعْمَلَتْ فِيْ ذَاكَ فِكْرَتَهَا ... وَكَانَ إِبْلِيْسُ نَارُ ٱلشَّرِّ يُلْظِيْهَا
قَرَّتْ عَلَى أَنَّ فِتْيَانَ ٱلْقَبَائِلِ تُرْ ... دِيْهِ جَمِيْعاً بِضَرْبٍ مِنْ مَوَاضِيْهَا
بِذَا يُوَزَّعُ فِيْمَا بَيْنَهَا دَمُهُ ... وَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَهْلٌ أَنْ تُقَاوِيْهَا
فَتَرْتَضِي دِيَةً عَنْ سَفْكِ خَيْرِ دَمٍ ... إِذَا رَأَتْ أَخْذَهَا بِٱلثَّأْرِ مُعْيِيْهَا
تَآمَرَتْ هٰكَذَا سِرّاً عَلَيْهِ وَسَا ... رَتْ فِتْيَةُ ٱلْقَوْمِ فِي أَسْوَا مَمَاشِيْهَا
فَجَاءَ جِبْرِيْلُ طَهَ مُنْذِراً وَلَهُ ... يَقُوْلُ : دَعْ مَكَّةَ وَٱلْكُفْرُ فَاشِيْهَا
وَٱهْجُرْ فِرَاشَكَ فَٱلْكُفَّارُ طَالِبَةٌ ... فِيْهِ حَيَاتَكَ وَٱنْظُر كَيْفَ تَتْقِيْهَا

= الغار فلقيه المسلمون من المهاجرين والأنصار بالفرح والتهليل والتكبير وحمدوا الله الذي أوصله إليهم سالماً .

أمّا عليٌّ عليه السلام فظلّ في مكة كرّمها الله أياماً معدودات نفذ فيها جميع أوامر رسول الله ثمَّ هرب من مكة خلسةً ماشياً على قدميه فكان يمشي في الليل ويختبىء في النهار إلى أن بلغ يثرب فتلقاه المصطفى بالترحاب وعانقه وبكى لما رأى من تورم قدميه وجراحاتهما لطول المسير ثمّ تفل عليه صلى الله عليه وآله وسلم في يديه الكريمتين وأمرَّهما على قدمي المرتضى فشفيا في الحال وما عاد فشكاهما طوال حياته . وهذه هي الهجرة النبوية التي دخل الإسلام فيها بدوره الجدّي العظيم .

وَمَا دَجَا ٱللَّيْلُ إِلاَّ وَٱلْجُنَاةُ غَشَوْا دَارَ ٱلرَّسُوْلِ وَقَدْ بَاتُوْا مُحِيْطِيْهَا

يَسْتَنْظِرُوْنَ إِذَا مَا نَامَ أَنْ يَثِبُوْا وَيُرْسِلُوْهُ إِلَى ٱلْجَنَّاتِ يَأْوِيْهَا

وَإِذْ رَآهُمْ رَسُوْلُ ٱللَّهِ مَالَ إِلَى عَلِيِّنَا مَيْلَةً حُسْنُ ٱلرَّجَا فِيْهَا

وَقَالَ : نَمْ فِيْ فِرَاشِيْ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ إِلَى ٱلْخُطُوْبِ إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا

وَٱلْبَسْ ثِيَابِيْ وَكُنْ فِيْهَا ٱلأَمِيْنَ عَلَى هٰذِيْ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ يَحْمِيْهَا

وَفِيْ صَبَاحِكَ بَادِرْ يَا أَخِيْ كَرَمَاً إِلَى ٱلأَمَانَاتِ أَرْجِعْهَا لأَهْلِيْهَا

كَذَاكَ أَوْصَى بِحَاجَاتٍ مُنَوَّعَةٍ وَصِيَّهُ كَانَ بِٱلإِسْرَاعِ يُوْصِيْهَا

وَقَدْ مَضَى غَيْرَ هَيَّابٍ وَلاَ وَجِلٍ مِنَ ٱلْخُطُوْبِ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ غَاشِيْهَا

وَقَدْ تَنَاوَلَ فِيْ يُمْنَاهُ أَتْرِبَةً وَكَانَ فَوْقَ رُؤُوسِ ٱلْقَوْمِ ذَارِيْهَا

بِهَا لَقَدْ عَمِيَتْ فَٱجْتَازَ مَجْثَمَهَا وَسَارَ فِيْ هَضَبَاتِ ٱلأَرْضِ يَطْوِيْهَا

إِنَّ ٱلْعَلِيَّ عَلَى سَامِيْ شَجَاعَتِهِ لَبَّى ٱلأَوَامِرَ حَالاً بَاتَ مُجْرِيْهَا

قَدِ ٱرْتَدَى بِثِيَابِ ٱلْمُصْطَفَى وَعَلَى فِرَاشِهِ نَامَ هَانِيْ ٱلنَّفْسِ هَادِيْهَا

وَلَمْ يَهَبْ وَثْبَةَ ٱلْفِتْيَانِ إِنْ وَثَبَتْ لِقَتْلِ طَهَ كَمَا تَرْمِيْ مَرَامِيْهَا

وَحِبُّهُ لِرَسُوْلِ ٱللَّهِ دَافِعُهُ إِلَى ٱلْمَخَاطِرِ خَافِيْهَا وَبَادِيْهَا

وَنَفْسُهُ نَفْسُ حُرٍّ مَا تَعِزُّ فَفِيْ صِيَانِ نَفْسِ أَمِيْنِ ٱللَّهِ يَفْدِيْهَا

أَمَّا ٱلْجُنَاةُ فَمَا ٱنْفَكَّتْ نُفُوْسُهُمُ عَلَى غَوَايَتِهَا وَٱلشَّرُّ مُغْرِيْهَا

فَجَاءَهُمْ سَائِلٌ عَنْ طُوْلِ وَقْفَتِهِمْ وَعَنْ رُؤُوْسِهِمِ وَٱلذَّرُّ عَالِيْهَا

وَقَالَ : وَيْلَكُمْ طَهَ لِحَاجَتِهِ فِيْ غَفْلَةٍ مِنْكُمُ قَدْ سَارَ يَقْضِيْهَا

فَكَذَّبُوْهُ وَقَالُوْا : لاَ يَزَالُ عَلَى ٱلْـ ـفِرَاشِ يَغْفُوْ قَرِيْرَ ٱلْعَيْنِ هَانِيْهَا

فَلاَ يَلُوْحُ ضِيَاءُ ٱلْفَجْرِ إِلاَّ وَرُوْ حُهُ تُفَارِقُ دُنْيَانَا وَتُخْلِيْهَا

حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوْا أَلْفَوْا قَنِيصَتَهُمْ   فَاتَتْ وَآثَارُهَا صَعْبٌ تَقَصِّيْهَا

وَقَدْ رَأَوْا فِيْ فِرَاشِ ٱلْمُصْطَفَى بَطَلَ ٱلْإِ   سْلَامِ رُؤْيَا أَطَارَتْ نَفْسَ رَائِيْهَا

فَأَمْسَكُوهُ وَمَا هَابُوْا عَشِيْرَتَهُ   وَإِنَّ حِرْمَتَهُ كَانُوْا مُهِيْنِيْهَا

وَسَاءَلُوْهُ عَنِ ٱلْهَادِيْ فَقَالَ لَهُمْ   لَا عِلْمَ لِيْ عَنْ خُطَى قَدْ رَاحَ خَاطِيْهَا

طَلَبْتُمُ أَنْ يُخَلِّيْ مَكَّةَ فَأَطَا   عَكُمْ وَأَمْسَى بَعِيْدَ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا

وَبَسْمَةُ ٱلْهُزْءِ كَانَتْ فَوْقَ مَبْسِمِهِ   وَكَانَ وَهْوَ يُجِيْبُ ٱلْقَوْمَ يُبْدِيْهَا

فَجَرَّرُوْهُ وَقَدْ غِيْظُوْا لِمَسْجِدِهِمْ   وَكَانَ أَشْيَاخُهُمْ فِيْهِ تَنَادِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ حَبَسُوْهُ سَاعَةً تَرَكُوْ   هُ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوْا مُسْتَزِيْدِيْهَا

وَٱللَّهُ أَنْقَذَ طَهَ مِنْ مَكِيْدَتِهِمْ   فَسَارَ فِيْ هِجْرَةٍ مَحْمُوْدُ سَارِيْهَا

وَكَانَ مَعَهُ أَبُوْ بَكْرٍ يُرَافِقُهُ   إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ إِذْ حَلَّا مَثَاوِيْهَا

وَظَلَّ فِيْ مَكَّةٍ رَبُّ ٱلْوَفَاءِ عَلِـ   ـيٌّ كَيْ يُتِمَّ رِغَابَاً كَانَ أُوْصِيْهَا

وَأَقْبَلَتْ عَجَلاً أَهْلُ ٱلْوَدَائِعِ تَنْـ   ـشُدُ ٱلْوَصِيَّ عَلَيْهَا كَيْ يُؤَدِّيْهَا

تَقُوْلُ : أَيْنَ وَصِيُّ ٱلْمُصْطَفَى لِيُعِيْـ   ـدَهَا إِلَيْنَا فَنَحْنُ ٱلآنَ نَبْغِيْهَا

فَيَلْتَقِيْهَا عَلِيٌّ وَٱلْوَدَائِعُ فِيْ   يَدَيْهِ وَهْوَ لَهَا فِيْ ٱلْحَالِ يُعْطِيْهَا

لِذَاكَ أَصْبَحَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُشْتَهِرَاً   بِٱسْمِ ٱلْوَصِيِّ يُنَادِيْهِ مُنَادِيْهَا

ثُمَّ لَهُ ٱلْمُصْطَفَى أَوْصَى وِصَايَتَهُ   بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلْأَنْصَارِ تَجْرِيْهَا

وِصَايَةٌ حِكْمُهَا حِكْمُ ٱلْيَقِيْنِ وَمَا   غَيْرُ ٱلْمُكَابِرِ مَنْ يَجْرَا وَيَنْفِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ كَمُلَتْ أَعْمَالُ حَيْدَرَةٍ   كَمَا أَرَادَ صَفِيُّ ٱللَّهِ مُوْحِيْهَا

وَلَّى إِلَى طِيْبَةٍ مِنْ مَكَّةٍ هَرَبَاً   وَخَلَّفَ ٱلدَّارَ تَنْعِي شِرْكَ بَانِيْهَا

مَشَى لِهُجْرَتِهِ مَشْيَاً عَلَى قَدَمَيْـ   ـهِ فِيْ ٱللَّيَالِيْ لِتُخْفِيْهِ دَيَاجِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَـا دَنَا مِنْ طِيْبَـةٍ وَجَـدَ ٱلْأَ ... نْصَـارَ وَٱلصَّحْبَ قَدْ حَفَّتْ بِهَـادِيْهَـا

كَٱلشَّمْسِ مِنْ حَوْلِهَـا لِأَلاءُ هَالَتِهَـا ... إِذَا ٱنْجلَتْ وَهْيَ فِيْ أَزْهَى تَـلَالِيْهَـا

وَعَـانَقَ ٱلْمُصْطَفَى بِـٱلْبُشْرِ حَيْدَرَةً ... وَفَـرْحَـةُ ٱلْمُلْتَقَى عَيْنَـاهُ تُجْلِيْهَـا

ثُمَّ بَكَى إِذْ رَأَى فِيْ أَخْمَصَيْهِ جُرُوْ ... حـاً وَهْيَ دَامِيَـةٌ وَٱلسَّيْـرُ مُـدْمِيْهَـا

وَقَـدْ أَمَـرَّ يَـدَيْـهِ بَـعْـدَ تَفْلَتِـهِ ... عَلَيْهِمَـا فَـوْقَهَـا يَبْغِيْ يُـدَاوِيْهَـا

فَمَا ٱشْتَكَى بَعْدَ ذَا مِنْ أَخْمَصَيْهِ وَهَا ... تِيْـكَ ٱلْجَـرَاحَـةُ كَـانَ ٱللَّهُ مُبْـرِيْهَـا

تَمَّتْ كَـذَا ٱلْهُجْرَةُ ٱلْكُبْـرَى وَقِصَّتُهَا ... تُتْلَى فَتُـطْرِبُ تَـالِيْهَـا وَمُصْغِيْهَـا

أمير المؤمنين وتآخي المسلمين

قَدْ رَحَّبَتْ يَثْرِبُ بِٱلْمُصْطَفَى وَتَلَقَّـ ... ـتْهُ بِبَهْجَتِهَا ٱلْكُبْرَى أَهَالِيْهَا[1]

وَآلُ هُجْـرَتِـهِ مَـعْ آلِ نَصْـرَتِـهِ ... تَـزَاحَمَتْ حَـوْلَـهُ وَٱلْبُشْرُ مَـالِيْهَـا

---

(١) كانت هجرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من مكة كرّمها الله إلى المدينة المنورة في شهر ربيع أول من العام الثالث عشر لنبوته وكان معه أبو بكر والدليل على ما تقدم القول .

وعندما بلغ المصطفى قباء وهي على بضع كيلومترات من المدينة المنورة نزل على كلثوم بن الهرم وأقام هنالك أياماً بنى فيها مسجدها المعروف إلى يوم الناس هذا ودعا فيها المسلمين إلى صلاة يوم الجمعة وهي أول جمعة في الإسلام ووقف صلى الله عليه وآله وسلم في الناس خطيباً وقتئذٍ فقال : « إنّ الله كتب عليكم الجمعة ، في مقامي هذا ، في ساعتي هذه ، في مشهدي هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، أو أقامها مع إمام جائر ، فلا جمع شمله ، ولا بورك في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حجَّ له ، ألا ولا بركة له ، ولا صدقة له » .

وسار بعد ذلك إلى المدينة المنورة فلما وصل إلى مكان مسجده وكان مربداً لبني النجار « وكانت منهم أمه آمنة فبنو النجار أخواله » قال : « تأمنوني به » فأجابه أخواله : لا نبغي به إلّا ما عند الله . فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً وأقام هو في دار أبي =

وَٱلْبَعْضُ كَـانَ يُهَنِّي بَعْضَهَـا فَـرَحـاً   ثُمَّ إِلَى ٱلْمُصْـطَفَى تُسْدِي تَهَـانِيْهَـا
وَسُـرَّ أَحْمَـدُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحَفَـاوَةِ فِيْ   تِلْكَ ٱلْمَغَـانِيْ ٱلَّتِيْ بِـٱلْعِزِّ يَثْوِيْهَـا
وَلَمْ يَـطِبْ لِاسْمِهَا وَقْـعٌ بِأُذْنِ رَسُـوْ   لَ ٱللَّهِ نَادَى : أَسَا صُنْعَاً مُسَمِّيْهَا[1]

= أيوب الأنصاري حتى بنى مسجده الشريف بيـده الشريفـة وعاونـه في بنائـه المهاجـرون والأنصار بأيديهم .

أمّـا أبو أيـوب الأنصاري هـذا الذي أضـاف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عنـدمـا وصـل إلى المدينة المنورة فهو خالد بن زيد النجار الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وكان من أكبر أنصار سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وشهـد معه مـواقع الجمل وصفين والنهروان وبعد ذلك غزا الروم مـع المسلمين مع يـزيد بن معـاوية سنـة خمسين للهجرة وتوفي عند مدينة القسطنـطينية فـدفن هناك وأمـر يزيـد بالخيـل فجعلت تقبل وتدبـر على قبره حتى خفيت آثـاره فعل ذلـك مخافـة أن تنبشه الكفّـار . وقد أقـام العثمانيون عندما فتحـوا القسطنـطينية مسجـداً عظيمـاً على اسمه في نهـاية خليـج قرن الذهب وهو من أشهر مساجـد تلك المدينـة وأهالي القسـطنطينيـة من مسلمين ونصارى ويهود يحترمون إسم هذا الأنصـاري العظيم جـدّ الاحترام إلى اليـوم ويسمّونـه السلطان أيوب .

(1) لا بدَّ هنا وقد وصل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين إلى دار هجـرته وهجـرتهم أن نذكر شيئاً عن المدينة المنورة فنقول : ترتفع هذه المدينة زادهـا الله نوراً عن سـطح البحر بنحو ٦١٩ متراً وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و٥٥ دقيقة شرقاً وعلى عرض ٢٤ درجـة و١٥ دقيقة من شمـال خط الاستواء وحـرارتها في الصيف تصعـد إلى ٢٨ درجـة سنتكراد في الظل وقلما تتعداهـا وتنزل في الشتـاء إلى عشر درجـات فوق الصفـر نهاراً وإلى خمسة تحت الصفر ليلاً وعلى هذا فهي معتدلة الطقس .

واختلف المؤرخون في تاريخها القديم فقـال بعضهم إنّ اسمها « يثـرب » محرّف عن الكلمـة المصريـة « اتربيس » وبنـوا على هذا الـزعم رأيهم من أنّ العمالقـة الـذين حكموا مصر ويقال أنّهم من العرب هم الذين بنوها بعد ذهاب حكم مصر من أيـديهم . وقال آخرون بل إنّ موسى عندما خرج من مصر قاصداً فلسطين أرسل طائفةً من أصحابه لاكتشاف تلك الجهات فساروا إلى تلك البقعة وبلغهم نبأ موته فاستقروا فيها وبنـو البلد =

= ودعوه بالكلمة المصرية « اتريبيس » ودليل هؤلاء كون سكان البلد والقبائل التي كانت محيطة به كان معظمهم من اليهود . وإنّي لا أخالف الرأي الثاني من أنَّ اليهود هم بناة المدينة ولكن على ما أظنُّ أنّهم لم يكونوا رسلًا لسيدنا موسى الكليم الذي كان منذ فكر بالهجرة بقومه من مصر طامعاً بأرض فلسطين حيث مثوى إبراهيم واسحق ويعقوب على أنّه عليه السلام خرج بالإسرائيليين من مصر وكانوا مستعبدين فيها وقد انكسرت نفوسهم فلا يصلحون لقتال أهالي فلسطين الأشداء فتيّههم في سيناء أربعين حولًا كما تقول التوراة وكانوا في أثنائها يتحسرون على ثوم مصر وكراثها فلا غرو إذا كان قد هرب بعضهم إلى البلاد العربية فنزلوا الموضع الذي بنيت فيه المدينة المنورة وأقاموا هناك كما لا يبعد أن يكون قد انضمَّ إليهم فيما بعد غيرهم من اليهود الذين ضجروا من الحروب المتوالية التي انتابت مملكة إسرائيل وكيفما كان الحال في تاريخ بناء هذه المدينة التي أصبحت من أعظم المدن المقدسة في العالم فالثابت أنّ تاريخ بنائها يترامى إلى ١٦٠٠ عاماً قبل التاريخ المسيحي أو ١٢٢٠ عاماً قبل تاريخ الهجرة .

وكان إسم هذا البلد يثرب وهو على ما يقولون محرَّف عن الكلمة المصرية اتريبيس كما تقدم القول وفي معنى يثرب التثريب وهو اللوم والتعيير ولذلك أنف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يظل هذا الإسم عنواناً للبلد الذي آواه وأكرم مثواه فقال : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابة هي طابة هي طابة ثلاثاً » وفي رواية أخرى أنّه قال : « هي طيبة » وفي رواية ثالثة أنه قال : « هي طياب » قالوا : وأنما سميت يثرب على إسم أحد أولاد نوح وكان يدعى يثرب . وقالوا أيضاً أنّها سميت طيبة باسم بلد في مصر . ويدعوها المسلمون باسم « البارّة » لأنّها برَّت بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المهاجرين وهي لا تزال تبرّ بالذين يأتونها حجاجاً لزيارة سيد المرسلين .

والمدينة المنورة مبنية في وسط وادٍ شاسعٍ يمتدّ إلى الجنوب وأزقتها لا تزال ضيقة ونحن على رأي الذين يقولون بوجوب تركها على ضيقها لأنّ معظم بيوتها أثرية معروف بالتقليد الصحيح أسماء أصحابها الأقدمين العظام من أكابر الصحابة والأنصار بحيث الذي يتشرف بزيارتها يتذكر كيفما اتّجه الأشخاص الذين شادوا الدين ووطدوا مجد الإسلام والحوادث التي حدثت في ذلك العهد المجيد فأثرت على مستقبل شعوب =

= الأرض من الوجهتين الدينية والاجتماعية أعظم وأحسن تأثير . فهناك المزارات الأثرية الدينية التي تدخل الرهبة على النفوس كمزار ومسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام بناه رسول الله ﷺ في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله إليها في هجرته وفي وسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته حين قدومه إليها في هجرته من مكة . وهناك مزار ومسجد سيدنا حمزة وهو في شمال المدينة في وادي أحد . وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥ شوال سنة ٣ من الهجرة وسنذكرها في المغازي النبوية وفيها استشهد سيدنا حمزة عمّ المصطفى ﷺ وغير هذا مزارات كثيرة لا متسع لذكرها هنا .

على أنَّ أهمَّ ما في المدينة المنورة الحرم المدني على ساكنه الصلاة والسلام وهو الحرم الذي جعل هذا البلد بمصاف مكة كرّمها الله والقدس الشريف وأكسبه من الاحترام في نفوس القوم ما ليس بعده احترام . والحرم المدني واقع في وسط المدينة بميلٍ إلى الشرق وهيئته مستطيلة ومتوسط طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٦ متراً وربع المتر وعرضه من الشرق إلى الغرب من جهة القبلة ٣٦ متراً و٣٥ سنتيمتراً ومن جهة الباب الشامي ٦٦ متراً . وينقسم في وضعه إلى قسمين هما المسجد والصحن والمسجد يبتدىء من قبلة عثمان وهذا القسم مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب وأمّا الصحن ويسمونه الحصوة فهو ذو شكل مستطيل يميل إلى الباب الشامي ويحيط به من جهاته الثلاث ثلاث أروقة فيها أعمدة تحمل أقواساً رفعت عليها قباب تناطح الجوزاء .

وفي الجهة القبلية الشرقية من الحرم المقصورة الشريفة وفي غرب هذه المقصورة الروضة الشريفة وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر المصطفى سميت كذلك لقوله ﷺ : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وهي تبلغ ٢٢ متراً طولاً في نحو ١٥ عرضاً وهذه الروضة الشريفة غاصة على الدوام بالناس لشرف مكانتها . وفي غرب الروضة الشريفة قبلة المصطفى ﷺ وهي من أبدع ما صنع الصناع وهي مقامة على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة في الموضع الذي أمر المصطفى بإقامة القبلة فيه وذلك يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله سبحانه بالصلاة إلى الكعبة ـ وكان قبلها يصلّي مع أصحابه إلى بيت المقدس ـ =

وَإِنَّهَا طِيْبَةُ طَابَتْ مَسَارِحُهَا عَرْفَاً وَفَاحَتْ بِأَهْلِيْهَا شَوَاذِيْهَا

= وإلى غرب القبلة المنبر الشريف وكان على عهده ﷺ عبارة عن جزع نخلة ثم استصنع منبراً من خشب الاثل يصعد إليه بثلاث درجات أو أربع . والمنبر اليوم من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية الجمال في دقة صناعته .

أمّا الحرم النبوي فله خمسة أبواب وهي : باب السلام ، وباب الرحمة ، وكلاهما في الغرب . والباب المجيدي لأنّه تجدد على عهد السلطان عبد المجيد وهو في الشمال . وباب النساء ، وباب جبريل ويسمونه باب البقيع ، وكلاهما في الشرق .

والحرم الشريف يحتوي الآن على مسجد المصطفى ﷺ وعلى بيت عائشة وعلى حجرات أزواجه مع الزيادة التي أزيدت عليه . وكان يحيط بمسجده الشريف على عهده ﷺ مساكن أزواجه وكانت في الجهة الجنوبية وبعض الشرقية من الحرم وأما مساكن أصحابه فكانت من الجهة الشرقية .

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر بديعة الصنع ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود . وطول هذه المقصورة الشريفة ١٦ متراً من الشمال و١٥ من الشرق . وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . ويتصل بهذه المقصورة من الشمال مقصورة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وطولها ١٤ متراً من الشمال والجنوب و٧ أمتار ونصف المتر من الشرق والغرب وهذه المقصورة بنيت في موضع بيتها الذي عاشت فيه مع سيدنا علي .

وفي داخل المقصورة الشريفة الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في اليوم ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه لقوله ﷺ «ما قُبض نبيٌّ إلّا دفن حيث قُبض» ورأسه الشريف ﷺ إلى الغرب . ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة دفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي رسول الله . ولما طعن عمر استأذن من عائشة أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ولما مات في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن إلى جوارهما ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على الشكل ذي خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار .

وبين بناء المقصورة الشريفة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة سعتها نحو ثلاث =

= أمتار وفي زاويتها من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف يقال أنّه أحد المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان وهذا المصحف هدية من الحجاج بن يوسف الثقفي وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة وفي الجهة الشرقية منها فيما يقابل الوجه الشريف كثير من المشاكي بينها ٣١ مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ومعلقة بسلاسل من الذهب .

وعلى جدار المقصورة الشريفة فيما يقابل الوجه الشريف حجر من الماس البرلنتي في حجم بيضة الحمام الصغيرة يحيط به إطار من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة ويسمونه بالكوكب الدري لشدة تألقه وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع محيطه بـ ٢٢٧ قطعة كبيرة من الحجارة الكريمة ويقدرون قيمة هذه الماسة وحدها بثمانماية ألف جنيه وهي هدية من السلطان أحمد الأول العثماني أهداها للحجرة الشريفة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري وقد علّق تحتها كفٌّ من الذهب المرصع بالجواهر وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدري وهو هدية من السلطان مراد الرابع العثماني أهداه للحجرة الشريفة سنة ١٠٤٧ للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة من الماس البرلنتي « لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله » وهو هدية من السلطانة عادلة كريمة السلطان محمود الثاني أهدته للحجرة الشريفة سنة ١٢٩١ هجرية . وفي هذه الحجرة شيء كثير من الحجارة الكريمة والجواهر الغالية الثمن منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس البرلنتي إسم سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي . وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم وعقود أخرى لا تقوّم بثمن وهناك شمعدانات ومراوح من الذهب مرصعة بالجواهر ومكانس من اللؤلؤ وقماقم ومباخر مرصعة عدا ما في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة والأساور والأقراط والعقود الثمينة مما أهداه تقاة المسلمين والمسلمات لحجرة نبيهم برهاناً على حبّهم له صلى الله عليه وآله وسلم وقد شاع أنّ الاتحاديين في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٧ قد سرقوا هذه الذخائر أو بعضها ولكنا لم نتثبت بعد من هذه الإشاعة .

هذا وصف مختصر جداً للحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة على ما هو اليوم ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر ما كان عليه مسجد المصطفى وبيته صلى الله عليه وآله وسلم على

بِـذَا أَشَـارَ إِلَى سَـامِيْ تَمَـدُّنِـهِ وَأَنَّ مَـبْعَـثَـهُ ٱلْأَسْمَى مَغَـانِـيْهَـا
وَحَسْبُهَـا أَنَّهَـا بَـاتَتْ مَقَـرَّ هِـدَا يَـةِ ٱلْبَـرِيَّـةِ فِيْهَـا قَـرَّ هَـادِيْهَـا
وَأَنَّ سُكَّـانَهَـا أَنْصَـارُ بَعْـثَتِـهِ وَفَضْلُهُمْ أَنَّهُمْ كَـانُـوْا مُـرِيْـدِيْهَـا[1]

= عهده فنقول : إنّ المقصورة الشريفة التي أجملنا وصفها بنيت مكان البيت الذي كان يسكنه مع زوجه عائشة . والمقصورة التي بجانبها بنيت في موضع البيت الذي كانت تسكنه سيدتنا فاطمة الزهراء مع زوجها أمير المؤمنين وولد لهما فيه سيدانا الحسن والحسين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وكان لبيت سيدتنا فاطمة عليها السلام شبّاك يطلّ على بيت أبيها المصطفى لعدم صبره على فراقها ، والذي يدرس ما كتبه المدققون عن بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة بتدقيق يستطيع أن يستخلص على التقريب أنَّ بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ذا حجرتين وكان بابه لجهة الشام على رأي بعضهم ولجهة الغرب على رأي آخرين وقيل كان له بابان من الجهتين وكان من دون هذا البيت منازل أزواجه وكان محيطها مع بيت عائشة مبنياً باللبن وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية هذا كل ما يوصف به البيت الذي عاش فيه سيد الخلائق أجمعين وكان مصدر هداية العالمين صلى الله عليه وآله وسلم وكان بجانب بيته مسجده وهو الحرم النبوي اليوم وكان وقتئذٍ في غاية البساطة فمنازل أصحابه المقربين إليه . .

(١) إنّ سكان المدينة المنورة الذين حلّ بينهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون والمهاجرون هم حلفاؤه ويطلق عليهم إسم « الأنصار » لأنّهم نصروا دعوته وهم من الشرف والمكانة في الإسلام في الطبقة الثانية بعد الصحابة من قريش بدليل قول الأنصار يوم السقيفة « منّا أمير ومنكم أمير » فقال لهم عمر بن الخطاب « بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء » فما اعترضوا .

وهؤلاء الأنصار هم الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد وكانت ديارهم مأرب باليمن فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الهجرة ومروا على يثرب فطابت لهم فنزلوها ضيوفاً على سكانها اليهود وكانوا من بني النضير وقريظة وقينقاع وغيرهم على أن يكونوا تحت حكمهم . وما زالوا خاضعين لمضيفيهم اليهود حتى قام عليهم ملك اسمه « القيطون » فظلمهم فاستغاثوا « الأوس والخزرج » =

وَإِذْ أَقَـامَ بِهَـا مَـعْ آلِ هُجْـرَتِـهِ   رَغْـدَاً وَطَـابَتْ بِسُكْنَـاهُمْ رَوَابِيْهَـا

آخَى ٱلصِّحَابَ مَعَ ٱلْأَنْصَـارِ مُتَّخِذَاً   لِكُـلِّ ذَاتٍ بِهِمْ ذَاتَـاً تُصَـافِيْهَـا(١)

= بملوك غسان وهم مثلهم من عرب قحطان فنصرهم الغسانيون وأوقعوا بيهود يثرب وانتقل حكم البلد بذلك إلى الأوس والخزرج وشاركوا اليهود في أملاكهم وأصبحت لهم عصبية عظيمة ولهم حروب مشهورة في جاهليتهم . وكانت هاتان القبيلتان « الأوس والخزرج » متشاكستين فقامت بينهما حروب سفكت فيها دماء كثيرة وظلتا متعاديتين إلى أن ألف بينهما محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما بايعتاه على ما تقدم القول في حاشية سابقة .

(١) إذا كانت الأخوَّة من المبادىء الأساسية لأهل جميع الأديان فإنّها على الأظهر بين المسلمين لما علمت أولاً من اشتراكية العرب التي هي من أصل طبيعتهم والعرب هم أساس الإسلام ومصدره وبهم اقتدى المسلمون وبآدابهم تأدبوا . والقرآن الشريف وطد دعائم هاتيك الأخوَّة إذ قال الله سبحانه وتعالى غير مرة ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ وفي الأحاديث النبوية الشريفة شيء كثير عن تآخي المسلمين بحيث لم تجعل ميزة لواحدهم على الآخر إلّا بالتقوى .

وعندما أذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة جمعهم وآخى بينهم على الحقّ والمساواة فآخى بين أبي بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن الحارثة وبلال وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ هذا (وكان بجانبه) فهو أخي ووصيّ ثمّ مال إليه عليهما الصلاة والسلام وقال : ألا ترضى أن أكون أخاك ؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام : بلى يا رسول الله رضيت فقال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : فأنت أخي في الدنيا والآخرة .

وبعد أن استقرَّ برسول الله المقام في المدينة المنورة آخى بين المهاجرين والأنصار لتتألف قلوب بعضهم ببعض وقال : « تآخوا في الله أخوين أخوين » فتقدموا وتآخوا فكان لكل مهاجر أخ من الأنصار فجاءَ عليّ إلى المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعيناه دامعتان وقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي أنت أخي في الدنيا والآخرة » وهكذا كما رأيت أبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرن بعليّ أخاً غيره عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

إلَّا عَلِيّاً فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ أَحَداً لِذِيْ ٱلْأُخُوَّةِ فِيْ عَالِيْ مَعَانِيْهَا

فَجَاءَهُ سَائِلاً وَٱلدَّمْعُ مُنْبَجِسٌ مِنْ عَيْنِهِ وَبِهِ سَالَتْ مَآقِيْهَا

وَقَالَ : أَيْنَ أَخِيْ حَتَّى أُخَادِنَهُ فَقَالَ : خِلْتُنَا مَاضٍ تَآخِيْهَا

أَلَمْ أُوَاخِكَ قَبْلاً عِنْدَ هُجْرَتِنَا وَعِنْدَ مَا دَعْوَتِيْ نَادَيْتَ : رَاضِيْهَا

إِنِّيْ أُخُوْكَ بِذِيْ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ أَخِيْ وَفِيْ ٱلْجِنَانِ إِذَا مَا رُحْتَ ثَاوِيْهَا

وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَأَنْتَ لَهُ مَوْلَى وَصِيَّةُ حَقٍّ جِئْتُ أُوْصِيْهَا

وَكَانَ ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا وَوَسْطَ مَجْلِسٍ مَكِّيْهَا وَطِيبِيْهَا

كَذَاكَ كَانَ عَلِيٌّ لِلرَّسُوْلِ أَخاً عَلَى ٱلشَّدَائِدِ مَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا

وَكَانَ يَحْمِلُ فِيْ ٱلْمِيْدَانِ رَايَتَهُ وَفَوْقَ أَنْصَارِهِ ٱلْأَخْيَارِ يُعْلِيْهَا

وَكَانَ صَاحِبَهُ يُفْضِيْ إِلَيْهِ بِمَا فِيْ نَفْسِهِ مِنْ رِغَابٍ كَانَ يَنْوِيْهَا

فَمَا غَزَا غَزْوَةً طَهَ بِسُؤْدُدِهِ إِلَّا وَحَيْدَرَةَ ٱلْمِقْدَامُ غَازِيْهَا

وَلَا نَدَا نَدْوَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ بِهَا إِلَّا وَحَيْدَرَةٌ مِنْ مُسْتَشَارِيْهَا

وَلَا أَرَادَ لِخَيْرِ ٱلدِّيْنِ مَسْأَلَةً إِلَّا وَحَيْدَرَةٌ قَدْ هَبَّ يُجْرِيْهَا

كَذَاكَ كَانَ وَزِيْرَ ٱلْمُصْطَفَى بِبِنَا آسَاسِ دَوْلَتِهِ مُذْ هَمَّ يَبْنِيْهَا

فَقُلْ لِمَنْ رَامَ أَنْ يُخْفِيْ فَضِيْلَتَهُ هَيْهَاتَ فَٱلشَّمْسُ لَا يَخْفَى تَلَالِيْهَا

وَقُلْ لِمَنْ رَامَ يَدْنُوْ لِرُتْبَتِهِ أَهْوِنْ عَلَيْكَ ٱلثُّرَيَّا أَنْ تُدَانِيْهَا

تكنية أمير المؤمنين بأبي تراب

أَعْيَا ٱلْجِهَادُ قِوَى ٱلصِّنْدِيْدِ حَيْدَرَةٍ وَكَانَ فِيْ نَصْرَةِ ٱلْإِسْلَامِ مُعْيِيْهَا[1]

---

(١) إن تكنية سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام « بأبي تراب » اختلفت فيها الأقوال=

وَٱلنَّاسُ تَعْلَمُ كَمْ عَانَى وَجَاهَدَ فِيْ   خَيْـرِ ٱلنُّبُـوَّةِ أَوْ فِيْ قَهْـرِ عَـادِيْهَـا
وَهْوَ ٱلْحَرِيْصُ عَلَى تَـأْيِيْدِ صَـاحِبِهَا   وَنَشْـرِ كُـلِّ جَلِيْـلٍ مِنْ مَبَـادِيْهَـا
وَذَاتُ يَـوْمٍ وَقَدْ كَـانَ ٱلْمُجِدَّ بِـطِيْـــبَةٍ يَـرُوْحُ وَيَغْـدُوْ فِيْ مَمَـاشِيْهَـا
خَارَتْ قِوَاهُ ٱلَّتِيْ مَـا فِيْ ٱلْبَرِيَّـةِ مَنْ   يَحْكِيْـهِ فِيْهَـا وَلاَ شَخْصٌ يُقَـاوِيْهَـا
فَنَـامَ مُعْتَمِـدَاً عَلْيَـا مَـرَاحِمِ بَـا   رِيْـهِ ٱلَّتِيْ لِحُمَـاةِ ٱلـدِّيْنِ يُـوْلِيْهَـا

= باختلاف الرواة وقد اتّخذها بعض أعدائه وسيلة للوقيعة فيه فكانوا يكنونه بها وهم يريدون احتقاره كما أنَّ بعض المملقين الملفقين الذين أرادوا ممالأة من كان يهمهم الحطُّ من قدره عليه السلام لفقوا في هذه الكنية حوادث ما هي من الحقيقة في شيء .

والحقيقة أنَّ سيدنا أمير المؤمنين كان يحبُّ كثيراً هذه الكنية لدلالتها في ظاهرها على الزهد الذي كان من أظهر صفاته عليه السلام ولأنَّ ابن عمّه وأخاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد كنّاه بها في حالة كان يحلو له تذكرها لأنّها كانت تذكّره بأيام شبابه التي أنفقها في نصر الإسلام والجهاد في سبيله إلى أن أعلى الله كلمته وذاعت في العالمين عقيدته . كما يسرُّ كلَّ إنسان ناجح في عمله أن يذكر المتاعب والمصاعب التي مرّت عليه حتى فاز بالنجاح .

أمّا قصة هذه التكنية فهي أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام كان ولا سيما بعد أن وصل المسلمون المهاجرون إلى المدينة المنوّرة يواصل لياليه بأنهره في سبيل خدمة الدين الحنيف الذي تطوّع لخدمته بإخلاص المسلم الصادق الإيمان فكان ينفذ أوامر المصطفى ساعياً مجداً هنا وهناك . وفي ذات يوم في العام الأول من الهجرة بينما كان مجداً في قضاء بعض مهام الرسالة خارت قواه بعد الجهد الكثير الذي كان ناله فتمدّد على الأرض ونام قرير العين ، شأن العامل التعب الذي لا يهمه إلّا نجاح عمله حتى ولو بإفناء قواه . وحدث أنَّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مرّ به وهو على تلك الحالة فهاله الأمر واستعبر ولا سيما بعد أن رأى أنَّ رداءَ المرتضى قد سقط عنه وأصاب التراب جسده الشريف فجلس عند رأسه وجعل يمسح عنه التراب وهو يقول : « إجلس إنّما أنت أبو تراب » فصحا المرتضى على صوت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ونهض معه وسارا سوية . وكان المصطفى كثيراً ما ينادي علياً بكنية « أبي تراب » تحبباً وتلطفاً كما أنَّ هذه الحادثة ذاعت بين الصحابة والأنصار فصاروا يكنونه « بأبي تراب » وقد كانت هذه الكنية من أحب الكنى إليه .

وَقَدْ تَوَسَّدَ مَا فَوْقَ ٱلتراب لِيُعْـــطِيْ نَفْسَهُ رَاحَةً كَانَتْ تُجَافِيْهَا

فَمَا غَفَا غَفْوَةً إلاَّ وَمَرَّ بِهِ   مُحَمَّدٌ فِيْ مَسَاعٍ كَانَ سَاعِيْهَا

وَقَدْ رَآهُ وَعَنْهُ ٱلثَّوْبُ مُنْحَسِرٌ   رُؤْيَا تَأَثَّرَ مِنْهَا قَلْبُ رَائِيْهَا

وَفَوْقَ جُثْمَانِهِ ذَرُّ ٱلتِّرَابِ فَلَمْ   يَحْفَلْ بِهِ وَهْوَ كَارِيْ ٱلْعَيْنِ غَافِيْهَا

فَاسْتَعْبَرَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ حَالِ صَاحِبِهِ ٱلْـــسُّوْءَى ٱلَّتِيْ لَمْ يَكُنْ تَٱللَّهِرَاضِيْهَا

وَهَالَهُ نَوْمَةٌ قَدْ نَامَهَا وَغَدَا   مُلْقَى عَلَى ٱلْأَرْضِ لا يُؤْذِيْهِ جَافِيْهِ

وَهْوَ ٱلْمُرَفَّهُ فِيْ دَارِ ٱلرَّسُوْلِ وَكَمْ   بِهِ ٱعْتَنَى جُهْدَهُ مُذْ كَانَ آوِيْهَا

وَكَانَ أَحْنَى عَلَى تَرْفِيْهِ عِيْشَتِهِ   مِنَ ٱلرَّؤُوْمِ ٱلَّتِيْ تَرْعَى ذَرَارِيْهَا

فَأَيْنَ مَنْ يَصِفُ ٱلْهَادِيْ وَكَرْبَتَهُ   لِحَالِ مَنْ حَبَّ فِيْ أَسْوَا مَرَائِيْهَا

فَقَدْ رَأَيْنَا رَسُوْلَ ٱللَّهِ يَنْظُرُهُ   وَنَظْرَةُ ٱلْحُبِّ لا تَخْفَى مَعَانِيْهَا

ثُمَّ ثَوَى قُرْبَهُ فِيْ خَيْرِ عَاطِفَةٍ   رَاحَ ٱلْمُحِبُّ إِلَى ٱلْمَحْبُوْبِ يُسْدِيْهَا

وَآضَ يَمْسَحُ ظَهْرَ ٱلْبَرِّ حَيْدَرَةٍ   مِنَ ٱلتِّرَابِ وَآيُ ٱلْعَطْفِ يُبْدِيْهَا

وَصَاحَ فِيْهِ ٱنْتَبِهْ يَا صَاحِ أَنْتَ «أَبُوْ   تُرَابٍ» ٱنْهَضْ فَحَسْبُ ٱلنَّفْسِ تُشْقِيْهَا

صَحَا ٱلْعَلِيُّ وَخَيْرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَى   حَالٍ مِنَ ٱلْوِدِّ مَا أَحْلَى تَجَلِّيْهَا

فَٱزْدَادَ فِيْهِ هَوَىً وَٱلْحَمْدُ فِيْ فَمِهِ   حَمْدُ ٱلرِّيَاضِ لِمَاءِ ٱلْمُزْنِ يُرْوِيْهَا

وَسُرَّ مِنْ كِنْيَةٍ طَابَتْ لِمَسْمَعِهِ   وَكَانَ يَصْبُوْ إِلَى زَاهِيْ تَكَنِّيْهَا

وَكَانَ آخِذَهَا ذِكْرَى مُخَلَّدَةً   لِعَطْفَةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِيْ مُكَنِّيْهَا

وَٱللَّهُ كَابَتْ أَغْرَاراً لَقَدْ هَزَأَتْ   بِهَا وَأَرْذَلُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ هَازِيْهَا

وَيْلُ آمِّهَا حَرَّفَتْ فِيْ غَيِّهَا ٱلْكَلِمَ ٱلْـــغَرَّاءَ أَوْ جَهِلَتْ سَامِيْ مَرَامِيْهَا

وَقَدْ أَسَاءَتْ إِلَى ٱلْهَادِيْ بِذَاكَ وَلَمْ   تَفْطَنْ وَلَمْ تَكُ ذِيْ أُوْلَى مَسَاوِيْهَا

زفاف سيدتنا فاطمة إلى سيدنا أمير المؤمنين

شَبَّتْ بِحِجْرِ رَسُوْلِ ٱللّٰهِ فَـاطِمَـةُ   كَمَـا تُحِبُّ ٱلْمَعَالِي أَنْ تُـلاَقِيْهَـا[1]

وَفِيْ حِمَى رَبَّـةِ ٱلْعَلْيَا خَـدِيْجَةِ قَـدْ   نَشَتْ كَمَـا ٱلطُّهْـرُ وَٱلآدَابُ تَشْهِيْهَا

---

(١) رزق الله المصطفى البنين والبنات من سيدتنا خديجة ولكن ما سلمت غير بناته وذلك تقدير العزيز الحكيم الذي هيأ للإسلام أن تكون بركة السلالة النبوية الطاهرة من أخيه وربيبه وصنوه سيدنا علي بن أبي طالب من زواجه بسيدتنا فاطمة الزهراء على المصطفى وعليهما وعلى آل البيت الطاهرين صلاة الله وسلامه إلى يوم الدين .

أمّا بنات المصطفى ﷺ فأربع وهنَّ أمّ كلثوم ورقية وزينب وفاطمة واختلف الرواة كما سبقت الإشارة في ترتيبهنَّ حسب أعمارهنَّ اختلافاً لا موضع له هنا . وقد تزوجت أم كلثوم ورقية من ولدي عمهما أبي لهب قبل البعثة وهما عتبة وعتيبة ثم طلقاهما بعد البعثة لغلوّهما مع أبيهما بالشرك وأبوهما أبو لهب معروف بأنّه كان أعدى أعداء النبوة كما هو مشهور . ثمَّ تزوجتا من عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى . أمّا زينب فتزوجت من أبي العاص بن الربيع .

أمّا سيدتنا فاطمة الزهراء فمع أنَّ بعض الرواة جعلها أكبر من رقية وبعضهم جعلها أكبر من زينب فإنّنا ليس فقط نرجح بل نؤكّد أنّها كانت أصغرهنَّ جميعاً لأنّها لم تتزوج إلّا بعد الهجرة خلافاً لشقيقاتها اللواتي تزوجن في مكة قبل البعثة والعرب من عادتهم تزويج بناتهم وهنَّ صغيرات .

والذي يرجع إلى تاريخ المصطفى ﷺ يجد الرواة مجمعين على أنَّ سيدتنا فاطمة الزهراء كانت ذات منزلةٍ رفيعةٍ عند أبيها المصطفى لم تكن لشقيقاتها ولا لمخلوقٍ آخر مثلها إلّا منزلة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أعزَّ كل عزيز عند النبيّ العربي ولا بدَّ للباحث المدقق من أن يعمل الفكرة في السبب الذي دفع المصطفى ﷺ إلى تخصيص سيدتنا فاطمة الزهراء بذلك الحب الممتاز المشفوع بالاحترام والإكرام .

إنّ الأب وكلنا آباء ينظر إلى أولاده كلهم بادىء بدءٍ بعينٍ واحدةٍ لأنّهم جميعاً أولاده وفلذة كبده ويساوي بينهم بعقليته بلا تفريق ولا تمييز وهذا أمر طبيعي عام تساوى=

وَنفْسُهَـا ٱنْبَثَقَتْ مِنْ نَفْسِ وَالِـدِهَــا وَأُمِّهَــا فَهْيَ تَحْـكِيْــهِ وَتَـحْكِـيْهَــا

=فيه جميع الناس ثمَّ لا بدّ للآباء بعد أن يترعرع بنوهم ويشبـون أن يشعروا من نفـوسهم بتفاوت العطف في قلوبهم نحو أولادهم على تفاوت مـا يظهـر من أخلاقهم فتـراهم مع حبهم لجميع أولادهم يفضلون الواحد على الآخر إمّا لذكائه أو لأدبه أو لكرم أخـلاقه أو لما يُظهر من العطف على أبيه والبرّ به وفوق ذلـك فقد جعـل الله في أنفس الآباء عـطفاً خاصاً على صغير الأولاد وعليلهم وفقيرهم من قبيل الحنوّ الأبـوي الطبيعي لأنّ الصغيـر والعليل والفقير هم دائماً أبداً موضع الحنوّ والعطف .

والـذي نستفيده من مـراجعة أقـوال الرواة أنّ المصـطفى ﷺ ما خصَّ سيـدتنـا فاطمة الزهراء عليها السلام بحبّه الخاص الممتاز إلّا لأنّها كـانت صغيرة أخـواتها وكـانت ممتازة بالذكاء ومكارم الأخـلاق ومحاسن الـطباع لأنّ مثـل المصطفى وهـو من العدل والفضـل على أسمى مرتبة يبعد أن يميل قلبه الأقدس إلى سيدتنا فـاطمة ذلـك الميل العـظيم من غير أن تكون جديرة به وأهلاً له وإذا تقرّر لدينا أنّها خليقة بـذلك الميـل النبويّ العـظيم كان لنا أن نجزم بأنّهـا ما استحقت هـذا الميل العـظيم إلّا لأنّها أفضـل بنات حـواء في مكارم الأخلاق .

وقد أجمع المؤرخون على أنّ المصطفى ﷺ كـان لا يتنفَّث له كـرب ولا يطيب له عيش إلّا إذا رأى سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وكان لا يصبر على فراقها طويلاً فيزورهـا كل يوم وقد يزورها في اليوم الواحد غير مرّة وقد جعل بيتها بجانب بيته الشريف وجعـل بينهما شبّاكاً ليطلّ عليها منه كلما اشتاق لرؤياها . كما أجمعوا أيضاً على أنّها كانت أدلّ الناس عليه وطالما وسطتها أزواجه لديه ﷺ بشؤونهنَّ كما أنّ أصحابه كانوا يوسطونهـا لديه بحوائجهم .

وكان المصطفى ﷺ يبالغ بـإكرام سيـدتنا فـاطمة الزهـراء عليها السلام حتى أنّـه على ما أجمع الرواة كان يقوم لها إذا دخلت عليه إعلاناً للقوم بعظم منزلتها عنده . كما أنّه كان يستشيرها في أموره وطالما سمعه الناس يقول إنّ رضاءَه الشريف من رضائها وغضبه من غضبها أو ما هو في هذا المعنى .

وإذا أردنا الإسهاب فيمـا قيل عن سيـدتنا فـاطمة الـزهراء عليها السلام لضـاق بنا مجـال الكلام فقد أجمع الرواة على أنّها قد كانت على أبدع مثـال من الجمال وأزانت جمـالها بمكارم الأخلاق وطيب الخـلال كما كـانت من الذكـاء وسداد رأي والـطهارة والتقى في =

تَفَـرَّدَتْ بِٱلـذَّكَـا وَٱلْعِلْمِ وَٱتَّخَـذَتْ مِنَ ٱلْخَـلاَئِقِ وَٱلآدَابِ سَـامِيْـهَـا

=مرتبة الكمال .

وبلغت سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام الخامسة عشرة من ربيع عمرها في العام الأول للهجرة وطفق المهاجرون يتحدثون بجمالها وكمالها ويغبطون الذي سيحوز على شـرف القران بها وأول من تقـدَّم لخطبتهـا هو أبـو بكر لتقـرّبه المعـروف من المصطفى فجـاءَه خاطباً فردَّه صلى الله عليه وآله وسلم ردّاً جميلاً بقوله إنّي منتـظرٌ في تزويجهـا أمر ربّي . ومن هـذا الجواب النبـوي ازداد إعجاب النـاس بسيدة العـالمين هذه التي لا يكـون زواجها إلاّ بـوحي من السماء . ثمَّ تقدَّم لخطبتها عمر بن الخطاب على ما هو معروف من جرأتـه وإدلاله على المصطفى فردَّه صلى الله عليه وآله وسلم كما ردَّ أبا بكـر وحينئذٍ طفق النـاس يتساءَلـون عن الرجـل الكفـء الـذي سيفوز بهـذه الدرَّة الغـالية بـأمر الله سبحـانه ولم يفت أذكيـاءَهم أنّ مـا من كفء لفـاطمة بين المهـاجرين والأنصـار إلاّ سيدنـا علي بن أبي طـالب الـذي كـان مـوضـوع إعجـاب المصـطفى والمسلمين وحسبنـا للدلالـة على مـا كـان لهــذين النيـرين « علي وفاطمة » من المكانة العليا عند المصطفى شهادة عائشة وهي معهما على ما تعلم فـإنّها كانت تقول : إنّها لـم ترَ أحبّ إلى رسول الله من علي وفاطمـة وما نـطقت إلاّ الحق في شهادتها هذه .

وفي السنة الثانيـة للهجرة أوحى الله لسيـدنا محمـد أن يزوّج ابنتـه الزهـراء لأخيه وصنوه ووصيه سيدنا علي بن أبي طالب فصـدع بأمـر ربّه وأوعـز إلى أبي بكر وعمـر أن يشيرا إليه بأن يتقدم لخطبتها فأجابهما لقد نبهتماني لأمر كنت غافلاً عنه وسار من ساعته إلى رسول الله صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلم وقال له : أتزوجني فـاطمة ؟؟ فتبسم رسول الله تبسم الراضي وقال : وهل عندك شيء ؟؟ قال علي : ليس عندي غير فرسي ودرعي فأجابه المصطفى : أمّا فرسـك فلا بـدَّ لك منهـا وأمّا درعـك فبعها فخـرج علي وباع درعه بأربعمائة درهماً وجاء بها إلى رسول الله مهراً لفاطمة عليها السلام .

وسار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى فاطمة الزهراء وقـال لها : أيّ بنيـة إنّ ابن عمّك علياً قـد خطبـك فماذا تقـولين ؟ فبكت ثم قـالت : كـأنـك أدخـرتني يـا أبت لفقيـر قـريش فقـال صلى الله عليه وآله وسلم : والذي بعثني بـالحقّ ما تكلمت في هـذا حتى أذن الله لي من السمـاء . فقالت فاطمة حينئذٍ : رضيت بما رضي الله ورسوله . =

= والذي ينظر إلى هذا الزواج الذي تمَّ بوحي إلٓهيّ لا يسعه إلاّ أن يقول كما نقول نحن إنّ العناية الإلٓهية هي التي شادت دعائم هذا البيت النبوي فجعلت أساسه المصطفى وعضادتيه المرتضى وفاطمة الزهراء وهم مصدر البركة التي تدفقت على المسلمين بأبنائهم الطاهرين الطيبين .

ولما عزم المصطفى أن يعقد لعلي على فاطمة الزهراء جمع المهاجرين والأنصار وخطب فيهم فقال : « الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته ، الذي خلق الخلق بقوَّته ، وميزهم بحكمته ، ثمَّ أنّ الله عزَّ وجلَّ جعل المصاهرة نسباً وصهراً ، وكان ربّك قديراً ، ثم ان الله أمرني أن أزوّج فاطمة من علي على أربعمائة درهم فضة » وبعد هذه الخطبة الطيبة التفت المصطفى إلى المرتضى عليهما الصلاة والسلام وقال : « أرضيت يا علي ؟ » فقال علي : « الحمد لله ، وشكراً لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لا إلٓه إلاّ الله ، شهاداً تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله ، زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا » فقال الحاضرون : ما تقول يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أشهدكم أني قد زوَّجته » فتقدَّم حينئذٍ الناس من المصطفى والمرتضى مهنئين مباركين يدعون للعروسين بالرفاه والرفاء والبنين . ولا بدَّ أنّ ملائكة السماء قد تهللت بهذا العقد المبارك الذي قضى به ربّ العالمين .

ولما تمَّ العقد على الشكل الشرعي الآنف الذكر دعا رسول الله بطبق بسر « تمر » فوضع بين يديه فقال : « فانتهبوا » فتناول الحاضرون ما طاب لهم . ثمّ أولم علي عليه السلام على فاطمة بكبش أهدي له من سعد وآصع ذرة أهدي له من جماعة الأنصار فكانت وليمة طيبة لعقد طاهر .

وفي الليلة التي بنى بها علي بفاطمة جاءَت أمّ أيمن حاضنة المصطفى بها حتى قعدت في جانب البيت وقعد علي في الجانب الآخر وجاءَ رسول الله ووجهه يطفح سروراً وبشراً بزواج أحبّ الناس إليه وقال لفاطمة : ائتيني بماء فقامت فتعثرت بأذيالها خجلاً وحياءً وأتته بعقب فيه ماء فأخذه رسول الله ومجَّ فيه وقال لها : تقدمي فتقدمت منه فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال : « اللّهمَّ إنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم » . ثم قال ائتوني بماء فعلم عليّ بأنّه المقصود فخفَّ إلى عقب ماء فأتاه به فصنع مع علي كما صنع مع فاطمة ودعا له بما دعا لها ثمَّ قال : « اللهمَّ بارك فيهما ، =

وَإِنَّهَا فَـرَّةٌ بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ فَـلاَ بِنْتٌ لِحَوَّاءَ تَدْنُو مِنْ مَعَالِيْهَا
وَمَا ٱلْقَرَائِحُ تَقْوَى أَنْ تُصَوِّرَ مَا فَوْقَ ٱلطُّرُوْسِ وَإِنْ تَزْكُوْ مَعَانِيْهَا
وَحَسْبُنَا أَنَّ طَـهَ كَانَ مُعْطِيَهَا عِنَايَـةً لَمْ يَكُنْ لِلْغَيْرِ يُعْطِيْهَا
وَكَانَ مُنْزِلَهَا تَـٱللَّهِ مَنْزِلَـةً عَلْيَاءَ مِنْ نَفْسِهِ بِـٱلْيُمْنِ تَأْوِيْهَا
وَكَانَ يَنْظِرُهَا فِيْ بَيْتِهِ مَلَكاً بَادِيْ ٱلسَّنَامَا ٱنْثَنَتْ تُبْدِي تَثَنِّيْهَا
كَانَتْ تَعِزُّ عَلَيْهِ عِـزَّةً حَرِمَتْ لَهَا شَقِيقَاتُهَا مِثْلاً وَتَشْبِيهَا
وَكَانَ يَذْكُرُ فِيْهَا أُمَّهَا وَبِهَا يَلْقَى خَدِيْجَةَ فِيْ أَسْمَى مَبَادِيْهَا
وَكَانَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللَّهُ يُبْهِجُهُ مِنْ دَهْرِهِ سَاعَةً فِيْهَا يُفَاهِيْهَا
وَقَدْ أَزَاحَ إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ غَمَّتَهُ بِهَا وَسَرَّى تَبَارِيْحاً يُعَانِيْهَا
وَنَفْسُهُ وَجَدَتْ فِيْ بِرِّ فَاطِمَةٍ لَدَى ٱلْخُطُوْبِ ٱلَّتِي تَدْهَى تَعَازِيْهَا
كَانَتْ تُؤَاسِيْهِ فِيْ رَاضِيْ تَبَسُّمِهَا وَكَانَ فِيْ عَطْفِهِ ٱلْأَسْمَى يُؤَاسِيْهَا
مَا قَالَ فَاطِمَةٌ إِلَّا وَأَفْرَحَهُ ذِكْرُ ٱسْمِهَا فَهْوَ لَا يَنْفَكُّ يُسْمِيْهَا
وَقَدْ أَدَلَّتْ عَلَيْهِ وَهْوَ وَالِدُهَا وَقَدْ تَجَنَّتْ وَمَا أَشْهَى تَجَنِّيْهَا
وَكَانَ يَسْعَى إِلَى تَفْرِيْحِهَا أَبَداً حَتَّى تَبِيْتَ عَلَى هَانِيْ تَلَهِّيْهَا
وَيَسْأَلُ ٱللَّهَ فِيْ سِرٍّ وَفِيْ عَلَنٍ أَنْ يَصْطَفِيْهَا مِنَ ٱلْأَيَّامِ صَافِيْهَا
فَمَا دَعَتْهُ لِحَاجٍ وَهْيَ تَطْلُبُهَا إِلَّا وَكَانَ لِمَا تَرْجُوْ مُلَبِّيْهَا

= وبارك عليهما ، وبارك لهما في شملهما » وتلا آية « قل هو الله أحد والمعوذتين » ثمَّ قال لعلي : « ادخل بأهلك باسم الله والبركة » .

وقد كان هذا الزواج المبارك في السنة الثانية للهجرة وأمير المؤمنين في الحادية والعشرين من ربيع عمره وسيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في السادسة عشرة من ربيع عمرها على المصطفى وعليهما صلوات الله .

وَمَا دَعَاهَا لِغَيْرِ ٱلْإِبْتِهَاجِ بِهَا   إِذَا تَجلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَخَابِيْهَا
يَقُوْمُ إِن أَقْبَلَتْ كَيْمَا يُشِيْرُ إِلَى   عَالِيْ مَكَانَتِهَا فِيْ ٱلْقَوْمِ تَنْوِيْهَا
حَسْبُ ٱلنِّسَاءِ فَخَاراً أَنَّ فَاطِمَةً   مِنَ ٱلنِّسَا وَلَهَا أَنْ تُكْثِرَ ٱلتِّيْهَا
نَعَمْ فَقَدْ شَرَّفَ ٱللَّهُ ٱلنِّسَاءَ بِهَا   وَإِنْ تَكُنَّ جَمِيْعاً مِنْ حَوَاشِيْهَا
وَعَمْرَكَ ٱللَّهَ مَنْ كَانَتْ كَفَاطِمَةٍ   وَقَدْ تَنَاهَى كَمَا قُلْنَا تَعَالِيْهَا
وَمَنْ أَبُوْهَا خِيَارُ ٱلْخَلْقِ أَجْمَعِهَا   وَأُمُّهَا خَيْرُ أُمٍّ فِيْ أُنَاسِيْهَا
وَمَنْ قُرَيْشٌ وَهُمْ أَسْمَى ٱلْأَعَارِبِ أَهْـ   ـلُوْهَا وَمَجْدُهُمْ جَازَ ٱلْأَتَاوِيْهَا
وَمَنْ غَدَتْ خَيْرَ أُنْثَى فِيْ شَمَائِلِهَا ٱلْـ   ـحَسْنَا ٱلَّتِيْ تَبْهَرُ ٱلدُّنْيَا زَوَاهِيْهَا
وَمَنْ تُشِعُّ شَعَاعَ ٱلشَّمْسِ جَبْهَتُهَا   وَلَا تُلَالِيْ إِذَا لَاحَتْ تَلَالِيْهَا
وَمَنْ تُقِيْمُ ٱلْمَعَالِيْ وَٱلْمَفَاخِرُ حَوْ   لَيْهَا إِذَا جَلَسَتْ فِيْ صَدْرِ نَادِيْهَا
هِيَ ٱلْجَدِيْرَةُ بِٱلْكِفْءِ ٱلْكَرِيْمِ لَهَا   مَنْ بِٱلْمَفَاخِرِ وَٱلْعَلْيَا يُحَاكِيْهَا
وَٱلْعُرْبُ تَطْلِبُ أَكِفَاءً تُزَوِّجُهُمْ   بَنَاتِهَا سِنَّةٌ تَأْبَى تَعَدِّيْهَا
وَكُلُّ عِقْدٍ بِغَيْرِ ٱلْكِفْءِ تَحْسَبُهُ   عَاراً عَلَيْهَا لَدَى ٱلْأَقْرَانِ يُخْزِيْهَا
فَمَنْ يَلِيْقُ بِبِنْتِ ٱلْمُصْطَفَى حَسَباً   وَمَنْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَرْبَاءِ كَافِيْهَا
وَمَنْ يُنَاسِبُ طَهَ كَيْ يُصَاهِرَهُ   وَهِيَ ٱلْمُصَاهَرَةُ ٱلْمَسْعُوْدُ مُلْقِيْهَا
غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ رَبِيْبِ ٱلْمُصْطَفَى وَلَهُ   سَبْقُ ٱلْهِدَايَةِ مُذْ نَادَى مُنَادِيْهَا
فَإِنَّهُ بَعْدَ طَهَ خَيْرُ مَنْ وَلَدَتْ   قُرَيْشُ مُنْذُ بَرَا ٱلْبَارِيْ ذَرَارِيْهَا
وَإِنَّهُ بَطَلُ ٱلْإِسْلَامِ تَعْرِفُهُ   تِلْكَ ٱلْحُرُوْبُ ٱلَّتِيْ أَمْسَى مُجَلِّيْهَا
وَأَعْلَمُ ٱلنَّاسِ بِٱلشَّرْعِ ٱلْمُشَرَّفِ بَعْـ   ـدَ ٱلْمُصْطَفَى وَأَجَلُّ ٱلنَّاسِ تَفْقِيْهَا
وَأَطْهَرُ ٱلنَّاسِ نِيَّاتٍ وَأَطْيَبُهَا   قَلْباً إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نُجَاهِيْهَا

وَأَبْلَغُ آلنَّـاسِ أَقْـوَالاً وَأَفْصَحُـهَـا خِـطَابَـةً وَهْـوَ يُنْشِيْهَـا وَيُلْقِيْـهَـا

وَأَزْهَدُ آلنَّاسِ فِيْ آلـدُّنْيَا وَزُخْـرِفِهَا وَأَبْعَـدُ آلنَّاسِ عَنْ مُغْـرِيْ مَلاَهِيْهَـا

وَأَرْحَبُ آلنَّـاسِ صَدْراً بِـآلْعُفَـاةِ إِذَا وَافْتَـهُ مَـا فِيْ يَـدَيْـهِ كَـانَ يُـوْلِيْهَـا

هٰـذَا آلْعَمِيْدُ آلْمُفَـدَّى كِفْـءُ فَاطِمَـةٍ وَخَيْـرُ نِـدٍّ لَهَـا مَنْ دُوْنِ أَهْلِيْـهَـا

لِـذٰلِـكَ آخْتَـارَهُ رَبُّ آلسَّمٰـاءِ لَهَـا بَعْـلاً وَأَمْسَتْ بِـهِ آلـدُّنْيَـا تُهَنِّيْهَـا

وَقَـبْـلَهُ عُـمَـرٌ وَافَـى بِـإِثْـرِ أَبِـيْ بَكْـرٍ وَكُلُّهُمَـا قَـدْ كَـانَ يَبْغِيْهَـا

جَـاءَا لِخِـطْبَتِهَـا طَـهَ فَقَـالَ أَنَـا مُسْتَنْـظِرٌ لاِبْنَتِيْ حِكْمَ آلْقَضَـا فِيْهَـا

كَـذَاكَ رَدَّهُمَـا آلـرَّدَّ آلْجَمِيْـلَ لأَ نَّ آللَّـهَ لِلْمُرْتَضَى آلْعَـالِيْ مُهَيِّيْهَـا

حَتَّى إِذَا أَذِنَ آلْبَـارِيْ بِخِـطْبَتِهَـا إِلَى عَلِيٍّ سَعَى طَـهَ يُـرَاضِيْهَـا

فَجَـاءَهَـا قَـائِلاً : إِنَّ آلْعَلِيَّ فَتَى قُـرَيْشَ يَبْغِيْ فَتَـاتِيْ جَـاءَ رَاجِيْهَـا

قَـالَتْ : أَتُـزْوِجُنِيْ مِنْ مُتْـرِبٍ أَبَتَـا هُ وَآلْمَـدَامِـعُ تَهْمِيْ مِنْ مَـآقِيْهَـا

فَقَـالَ : وَآللَّهِ لَمْ أَئْذِنْ بِـزِيْجَتِكِ آلـــزَّهْـرَاءَ إِلاَّ لأَنَّ آلـلَّـهَ رَاضِيْـهَـا

وَمَـا تَكَلَّمْتُ فِيْهَـا قَبْـلَ أَمْـرِ إِلَـــهِيْ فَهْوَ لِيْ مِنْ سَمَاهُ كَانَ مُوْحِيْهَـا

قَـالَتْ : إِذَنْ بُغْيَـةُ آلْخَـلاَّقِ نَـافِـذَةٌ وَقَـدْ رَضِيْتُ بِهَـا إِنِّيْ أُجَـرِّيْـهَـا

وَكَـانَ أَوْعَـزَ طَـهَ لِـلْعَلِيِّ بِـأَنْ يَـأْتِيْهِ لِلْخِـطْبَـةِ آلْمَغْبُـوْطُ حَـاظِيْهَـا

فَـقَـدْ أَتَـاهُ أَبُـوْ بَـكْـرٍ يُـبَـشِّـرُهُ بِنِـعْـمَـةٍ لَـيْسَ إِلاَّهُ مُـلاَقِـيْـهَـا

وَكَـانَ مَعْـهُ أَبُـوْ حَفْصٍ يُـرَافِقُـهُ بِـذِيْ آلْمُهِمَّةِ حَسْبَ آلأَمْـرِ يَقْضِيْهَا

قَالاَ : آلْتَمِسْ مِنْ رَسُوْلِ آللَّهِ فَاطِمَةً فَمَـا لِغَيْـرِكَ يَـاآبْنَ آلْـوِدِّ مُعْـطِيْهَـا

فَقَـالَ : ذَكَّـرْتُمَـانِيْ لاَ عَـدِمْتُكُمَـا بُنَيَّـةٍ طَـالَمَـا قَـدْ كُنْتُ نَـاوِيْهَـا

وَسَارَ يَخْطِبُ بِنْتَ آلْمُصْطَفَى عَجِيلاً فَلَمْ يَخِبْ بِـرِغَـابٍ كَـانَ مُسْدِيْهَـا

كَـذَا أَبُـوْ قَـاسِمٍ بِـآلْيُمْنِ زَوَّجَهَـا   مِـنْــهُ وَأُمَّتُــهُ تُـهْــدِيْ تَهَــانِـيْـهَــا
زُفَّتْ إِلَيْـهِ بِـإِجْـلاَلٍ وَأَحْمَـدُ يَـدْ   عُـوْ أَنْ يَزِيْـدَهُمَا آلـرَّحْمٰنُ تَـرْفِيْهَا
جَـرَى يُرَفِّيْـهِ فِيْ هٰـذَا آلْقِـرَان كَمَـا   مَضَى إِلَى بِنْتِـهِ آلـزَّهْـرَا يُـرَفِّيْهَـا
وَقَالَ : بَارِكْ إِلٰـهَ آلْعَرْشِ عِقْـدَهُمَا   أَكْثِـرْ ذَرَارِيْهِمَـا آلْمَحْمُـوْدُ نَـاشِيْهَـا
زِفَافُ سَعْدٍ بِـهِ آلْأَمْلاَكُ قَـدْ شَرِكَتْ   أَهْـلَ آلدُّنَـا بِـآلتَّهَـانِيْ مِنْ أَعـالِيْهَا
أَيُّ آلْبَشَـائِـرِ أَسْمَى مِنْ بِشَـارَةِ ذَيَّـــ   ـاكَ آلْقِـرَانِ وَهَـلْ بُشْـرَى تُسَـامِيْهَـا
بَـذْرُ آلْحَنِيْفِيَةِ آلسَّمْحَـاءِ قَـارَنَ شَمْـــ   ـسَاً قَدْ أَضَاءَتْ سَنَىً مِنْ صُلْبِ وَالِيْهَا
وَمِنْهُمَـا آنْتُظِرَ آلنَّسْـلُ آلْمُبَـارَكُ تَمْـــ   ـلاَ آلْأَرْضَ خَيْرَاتُهُ آلْكَثْرَى فَتُحْيِيْهَا
فَـآلـلَّهُ كَثَّــرَهُـمْ وَآللَّهُ طَـهَّــرَهُـمْ   وَآلـلَّهُ أَوْلاَهُـمُ عِــزَّاً وَتَــوْجِـيْــهَـا
وَآللَّهُ أَوْجَبَ وَافِيْ آلْإِحْتِـرَامِ لَـهُمْ   وَحُبَّهُـمْ إِنَّ ذَا ذِكْــرَى لِنَـاسِيْهَـا
فَمَنْ يُنَـاوِيْهِمِ نَـاوَى آلـرِّسَـالَـةَ فِيْ   شَخْصِ آلرَّسُوْلِ فَكَفِّرْ مَنْ يُنَاوِيْهَا
وَإِنَّ عَــائِشَـةً مِنْ نَفْسِهَــا شَهِـدَتْ   شَهَــادَةً لَمْ تَـذَرْ شَكَّـاً لِـرَاوِيْهَـا
قَـالَتْ : عَلِيٌّ وَذَاتُ آلطُّهْـرِ زَوْجَتُـهُ   كَـانَـا أَحَبَّ آلْـوَرَى طِـرَّاً لِهَــادِيْهَا

أمير المؤمنين والغزوات النبوية

مَــا جَـاءَ أُمَّتَــهُ يَـوْمَــاً أَخُــوْ مِقَــةٍ   بَـرٌّ كَمَـا جَـاءَهَـا طَـٰـهَ يُنَـادِيْهَـا[1]

---

(١) ليس من فضـول القول أن نتصـدى هنا إلى كلمـة في الغزوات النبـويـة التي جمعت كلمـة العرب على الإسـلام ومهّدت لهـذه الأمة سبـل المجد فملكتهـا وأسست مملكة لم يحلم بمثلها أكاسرة فارس وقياصرة الروم وظهر فيها النبـوغ والذكـاء العربيين بأجمل مظاهرهما .

إنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم نادى ببعثته قومه مسالماً وما خـطر له قطّ أن يستعمـل الإكراه =

فَقَدْ دَعَاهَا إِلَى ٱلدُّنْيَا تَصُوْلُ عَلَى جُهَاتِهَا بَيْنَ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَا

= في دينه بل أنّه ظلّ لآخر عهده بهذا الوجود وهو ينادي ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ و﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ ولو لم يتصدّ كفّار قريش ومشركوها للمصطفى ومن تبعه في دينه بالأذى والاضطهاد لظلّ رسول الله يدعو إلى دينه بالتي هي أحسن والنتيجة بغير جدال واحدة وهي سيادة هذا الدين القيم على البلاد العربية ولكن كان لا بدّ من بطء انتشار الإسلام في ظلال السلام خلافاً للقتال الذي أعجل بنشره فكان الدين السائد على جزيرة العرب في سنوات معدودات وهو القتال الذي اختاره المشركون حكماً بينهم وبين المؤمنين وهكذا يكون المصطفى قد نزل على حكمهم تاركاً للسيف الفصل بين الحقّ والباطل وعنده النبأ اليقين .

قلنا إنّ النتيجة في هذا النزاع الذي شجر في جزيرة العرب بين محمد بن عبد الله ﷺ وأعدائه المشركين واحدة وهي سيادة الدين الحنيف . وذلك لأنّ الإسلام هو أبسط الأديان في حقيقته لا يكلف الإنسان أن يعتقد بما لا يدركه بحسه ولا يقبله عقله فيلجأ إلى تسليم بغير فلسفة ولا اعتراض وذلك لأنّ كل ما يطلبه من تابعيه أن يشهدوا أن « لا إلٰه إلاّ الله » وكلمة التوحيد هذه هي أساس الإسلام وحقيقته الناصعة . وإذا أراد أن يتوسع الإنسان في تفهم الحضرة الإلٰهية التي أوجب الإسلام لها الوحدة المطلقة علمه القرآن أنّ الله هو واحد أحد لا والد له ولا ولد ولا أول ولا آخر وهو مبدع الخلائق وهو المجزي على الخير خيراً والمجزي على الشرّ شراً وهو وحده الواجب الوجود الذي يعبد دون سواه . وتسليم الناس بهذه الصفات التي تدور حول الوحدة الإلهية ليس من الصعوبة في شيء لأنّهم أجمعوا أو كادوا يجمعون على أنّ هذا العالم له صانع أو خالق وأنّ هذه النفس لهي خالدة بعد مفارقتها الجسد بالموت وأنّها لتجزى على أعمالها إن صلحت بالجنان وإن ساءت بسعير جهنم . نعم إنّ الناس كادوا يكونون مسلّمين بهذه الحقيقة ولكنهم اختلفوا في معرفة الله فأشرك بعضهم معه بعض مخلوقاته وبعضهم جزَّأ خصائصه الإلٰهية فجعلوها مجموع آلهة وبعضهم قال غير ذلك وكله هذيان لا يقبله العقل إلاّ بالتسليم المطلق بغير بحث ولا جدال .

ولم يعدم الناس أنبياءً قالوا بالتوحيد ونادوا به منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . على أنَّ ملة سيدنا إبراهيم تجزّأت بين العرب واليهود باسماعيل واسحق ورسالة موسى كانت لقومه دون سواهم ولذلك جمع سيدنا موسى بين الدين =

وَقَـدْ دَعَاهَـا إِلَى ٱلْأُخْرَى تَنَـالُ بِهَـا   سَعَـادَةَ ٱلْخُلْدِ فِيْ فَرْدُوْسِ بَـارِيْهَـا

= والجنسية فلم يكن للغريب نصيب من التوحيد الـذي جاء بـه . أمّا النصـرانية فهي على التوحيد أيضاً وما من نصراني لا يقول « لا إلـه إلاّ الله » ولكن يريـد النصارى أن يقـولوا أنّ الإله الواحد له ثـلاثة أقـانيم هم الأب والإبن والروح القـدس وأنّ هؤلاء الثلاثـة هم الإله الواحد الواجب الوجود وأن الأقنوم الثاني هو الذي تجسـد وصار إنسـاناً فهـو نفس سيدنا عيسى عليه السلام إلى آخر ما قالوا مما لا يقبله العقل البشري إلاّ بمطلق التسليم وهـذا خلا منه الإسلام فلم يجعل في اعتقاد التوحيد تعقيداً بل أطلقه على بساطته فقـال « هو الله الأحـد » . وجاء بـه القرآن مـوحى بـه على محمـد بن عبـد الله وبين يـديـه التـوراة والإنجيل مصدّقاً بهما ومنادياً بهذا التوحيد البسيط المعقول والمنقول فلا عجب أن تكون له السيادة على العقول . وكان في القـرآن من العدل والفضـل والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر والحضّ على مكـارم الأخـلاق مـا يهيىء للنـاس السعـادة في هـذه الحيـاة والارتقـاء في هذا الاجتمـاع ؟ لذلـك قلنا ونقـول لو لم يحـرج كفّار قـريش ومشركـوها المصطفى لساد دين محمد بالحجّة والبرهـان والموعـظة الحسنة بغيـر جدال كمـا فازت النصرانية من قبله ولكن قد يكون فوزه بالسلام بطيئـاً كما انتشـرت النصرانيـة قبلاً ببطء وقد يفوت ببطء انتشار الإسلام النجاح العظيم الذي صادفـه العرب ليس بسيـوفهم فقط بل بالعناية الإلّهيـة التي عضدتهم أولاً وأخيـراً حتى تمَّ لهم من الفتح وسعـة الملك في أعوام معدودات مـا لا ينتظر للقـوم مثلهم على خشونتهم ولـذلك كـان الإجماع على أنّ انتصارهم ذاك كان بمعجزة سمـــاويـة .

ولنعـد بعد هـذه المقدمـة إلى الغزوات النبـوية فـإنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تـدرّج فيها تدرجاً فابتدأ بإعلان دعوته مسالماً ثمَّ أوجد له الله في الأوس والخزرج أنصاراً هاجر من مكة إليهم بأصحابه تخلصاً من أذى قريش فأبى القرشيون إلاّ أن يعملوا على النكايـة به فأرسلوا أولاً من يتتبع خطواته وهو فارٌّ إلى المدينة من ظلمهم ليعيدوه إلى مكة فيسجنـوه أو يقتلوه ولما فشلوا في هذه الرغبة أخذوا يجمعون كلمـة العرب على قتـاله حينئـذٍ أذن الله لـه ولأصحابـه وأنصاره بمقـاتلة المشركين لسببين أولهمـا الـدفـاع عن النفس بـإذاء المعتدين وثانيهما الدفاع عن الدعـوة باذاء الـذين تعرَّضـوا لها فكـانوا يفتنـون المهتدين بالاضطهاد والتعذيب ويصدّون الآخرين عن الهدى عنوةً وبمحـاولة منـع الداعي بتبليـغ دعوته بسبّه والسخر به ثم بمحاولة قتله . =

وَقَدْ دَعَاهَا إِلَى أَرْقَى ٱلْخَلاَئِقِ وَٱلآ م دَابِ دَعْوَةَ مَنْ يَبْغِي تَرَقِّيْهَا

= أمّا أمر الله بالقتال فقد جاء في مواضع شتّى من القرآن إذ قال الله ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربّنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويٌّ عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾اهـ وأنت ترى في هذه الآية المباركة إنّ سبب أذن الله للمسلمين بالقتال هو ظلم المشركين لهم وما ذنبهم إلّا قولهم « ربّنا الله » فأخرجوا من ديارهم لهذا الاعتقاد . ثم أنّ الله سبحانه أبطل قول القائلين بعدم صلاحية القتال لنشر الدين بقوله إنّه لولا أن يدفع الناس بعضهم بعضاً لهدمت الصوامع والمساجد وتعطلت الصلوات وضاع ذكر الله من على وجه الأرض . ثم أن الله سبحانه أبان للمؤمنين المعدّ لهم الانتصار ما يجب أن يكونوا عليه من الأخلاق الفاضلة التي جمعها بأربع كلمات فيها الخير كله وهي الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاءَ في القرآن أيضاً في سبيل القتال قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ـ ولا تعتدوا ـ إنّ الله لا يحبُّ المعتدين ـ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ـ والفتنة أشدُّ من القتل ـ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ـ فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم ـ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ـ فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين ـ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين** ﴾اهـ . وأنت ترى من هذه الآيات الكريمة ما يخلق أن يصدر عن الإلّه الواحد العادل المؤدب القهار الرحيم لجمعها بين الدفاع عن النفس وتأديب المعتدين وإبطال الفتنة والإنتصار لدين الله .

وفي القرآن أشباه لهذه الآيات الكريمة العادلة التي أنزلت على محمد بن عبد الله ﷺ لعزة الدين وردع الظالمين المعتدين . لا جرم أنّ الإسلام كان ولا يزال مسالماً من سالم أهله إذ قال سبحانه وتعالى ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في** =

فَمَا رَأى غَيْرَ جُهَّالٍ لَهُ طَلَبُوا آلْأَ م ذى وَلَمْ يَكُ أَيْمُ آللَّهِ مُؤْذِيهَا

وَلَمْ يَنَلْهُ سِوَى حَظِّ آلنَّصِيحِ إِهَا   نَاتٍ مُنَوَّعَةٍ رَابٍ تَتَالِيهَا

ثُمَّ تَمَادَتْ قُرَيْشٌ بِآلْعَدَاوَةِ رَا   مَتْ أَنْ تُمِيتَ آلَّذِي قَدْ رَامَ يُحْيِيهَا

وَمَا آكْتَفَتْ بَلْ تَعَدَّتْهُ لِمَنْ تَبِعَتْـهُ بِآلْأَذَى أَخْرَجَتْهَا مِنْ مَآوِيهَا

وَبَعْدَ هُجْرَةِ طَهَ مَعْ صَحَابَتِهِ   لَمْ يَنْجُ مِنْهَا وَلَمْ تُقْصِرْ تَعَدِّيهَا

تَتَبَّعَتْهُ وَهَمَّتْ أَنْ تُحَارِبَهُ   فِيْ دَارِ هِجْرَتِهِ أَوْ فِيْ ضَوَاحِيهَا

وَعَمَّمَتْ فِيْ جَمِيعِ آلْعُرْبِ دَعْوَتَهَا   لِقَهْرِهِ بَيْنَ قَارِيهَا وَبَادِيهَا

= **الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إنّ الله يحبّ المقسطين ، إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾اهـ . وفي هذه الآيات الكريمة تتجلّى روح الإسلام السلامية العادلة بأجلى تلاليها لدى المنصفون .

أمّا الحروب النبوية وهي التي جرت على عهد المصطفى ﷺ فتنقسم إلى غزوات وسرايا؛ أمّا الغزوات فهي التي حصرها رسول الله بنفسه وأمّا السرايا فهي جمع سريّة وهي القطعة من الجيش وأطلقها المؤرخون على الغزوات التي أرسلها المصطفى مع أحد قوّاده .

والغزوات النبوية سبع وعشرون غزوة حضرها المصطفى بنفسه ولكنه لم يحارب فيها إلّا في غزوة أُحد وحضر عليٌّ المرتضى عليه السلام كل هاتيك الغزوات فكان مجلي الحلبة وفارس الميدان ولم يتخلف إلّا عن غزوة تبوك وهي الأخيرة بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام .

وأهمّ الغزوات النبوية هي بدر الكبرى ، وأُحد ، وبني النضير ، والخندق ، والحديبية وخيبر ، وفتح مكة كرّمها الله ، وتبوك . وللمرتضى عليه السلام في هذه الغزوات الكبرى من الأعمال العجيبة والآثار الخالدة ما نحن ذاكروه مفصّلاً في هذه القصيدة المباركة ومذيلوه بالذيول الكافية إن شاء الله تعالى .

وَكَانَ رَأْسُ ٱلْعِدَاةِ ٱلْمُشْرِكِيْنَ أَبُوْ   سِفْيَانَ يَقْدَحُ نَارَ ٱلشَّرِّ يُلْظِيْهَا

لِذَاكَ قَدْ نَزَلَتْ آيُ ٱلْجِهَادِ عَلَى   مُحَمَّدٍ وَهْوَ مَنْصُوْرُ ٱللِّوَا فِيْهَا

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكُفْرَ مُحْتَكِمٌ   فِيْ أَنْفُسٍ ٱلْعُرْبِ وَٱلْإِشْرَاكُ مُغْوِيْهَا

وَلَيْسَ مِنْ حَكَمٍ إِلَّا ٱلسُّيُوْفُ بِمَا   يَجْلُوْ ٱلْحَقِيْقَةَ مِنْ بُطْلٍ يُغَطِّيْهَا

وَمَا عَمُوْا بَصَراً لٰكِنْ بَصَائِرُهُمْ   عَنِ ٱلْهِدَايَةِ كَانَ ٱلْغَيُّ يُعْمِيْهَا

صَمُّوْا عَنِ ٱلْحَقِّ إِذْ نُوْدُوْا لَهُ وَأَبَوْا   إِلَّا ٱلْأَبَاطِيْلَ تَغْشَاهُمْ دَيَاجِيْهَا

وَمَا رَضُوْا خَالِقاً حَقٌّ عِبَادَتُهُ   مِنْ بَعْدِ أَنْ أَلَّهُوْا ٱلْأَحْجَارَ تَأْلِيْهَا

وَآذَنُوْا ٱلْمُصْطَفَى حَرْباً لَقَدْ حَسِبُوْا   أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ تَصْلَى فِيْ لَوَاظِيْهَا

لَعَلَّهُمْ جَهِلُوْا أَنَّ ٱلْإِلٰهَ بِيُمْنَاهُ   ٱلْقَوِيَّةِ مُخْزِيْهِمْ وَحَامِيْهَا

فَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى بِٱلْحَرْبِ مَنْ ثَبَتُوْا   عَلَى ٱلضَّلَالَةِ تَدْهَاهُمْ مَسَاوِيْهَا

وَمَنْ غَدَوْا حَسَداً مِنْهُمْ لِبَعْثَتِهِ   أَعْدَاءَهُ مِثْلَمَا بَاتُوْا أَعَادِيْهَا

وَحَوْلَهُ نَفَرٌ مِنْ آلِ هُجْرَتِهِ   أُسْدُ ٱلْحُرُوْبِ إِذَا نَادَى مُنَادِيْهَا

يَحُوْطُهُمْ حَيْطَةً أَنْصَارُ شِرْعَتِهِ   أَهْلُ ٱللِّقَا خَزْرَجِيْهَا جَنْبَ أَوْسِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ فِيْهِمْ خِلْفَ أَحْمَدَ فِيْ   تِلْكَ ٱلْمَغَازِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ يُزْكِيْهَا

مَا كَانَ يَبْعُدُ عَنْهُ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ   إِلَّا لِفَاجِئَةٍ يَبْغِيْ تَلَافِيْهَا

أَوْ كَيْ يُنَفِّذَ لِلْهَادِيْ أَوَامِرَهُ   فِيْ ٱلْمُسْلِمِيْنَ كَمَا قَدْ شَاءَ مُوْحِيْهَا

وَكَانَ أَبْسَلَ صِنْدِيْدٍ بِجَيْشِ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ يَفْتِكُ بِٱلْأَعْدَا وَيُرْدِيْهَا

(وَٱلْخَيْلُ وَٱللَّيْلُ وَٱلْبَيْدَاءُ تَعْرِفُهُ)   لِأَنَّهُ فَارِسُ ٱلْهَيْجَا مُجَلِّيْهَا

وَٱرْجِعْ إِلَى غَزَوَاتِ ٱلْمُصْطَفَى لِتَرَى   فَضْلَ ٱلْعَلِيِّ صَرِيْحاً فِيْ أَمَالِيْهَا

وَإِنَّهُ قَدْ قَضَى كُلَّ ٱلْمَغَازِيْ مَعَ ٱلْـــهَادِيْ وَجَاءَ مِنَ ٱلآلَاءِ عَالِيْهَا

أمير المؤمنين في غزوة بدر الكبرى

لَاقَتْ قُـرَيْشُ بِبَـدْرٍ شَـرَّ تَهْلُكَـةٍ أَخْلِقْ بِمَنْ حَارَبَ ٱلْبَارِيْ يُلَاقِيْهَا[1]
وَنَـالَهَا بِقِتَـالِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ مِنَ ٱلأَ م رْزَاءِ فَـادِحُهَـا ٱلْمُؤْذِيْ وَقَـاسِيْهَـا

---

(١) يحسن بنا هنا أن نجمل أنباء الغزوات النبوية قبل ذكر غزوة بدر ليلم قارىء علويتنا المباركة هذه بمجمل ما كان من أمر الجهاد الذي أفضى إلى انتصار كلمة « لا إله إلّا الله » في العالمين فنقول :

عرف القارىء الكريم مما تقدم في المتن والحواشي عداء قريش للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه من المسلمين واستمرارهم على هذا العداء حتى بعد الهجرة ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقطع الطريق بين مكة والشام ليصادر تجارة قريش وهم أعداؤه وتلك طريقها وأنت تعلم أنّ قطع الطريق التجارية تورث قريشاً ذلًّا وضعفاً وقد رأى هذا بعد أن استوثق من مقامه في المدينة المنورة وقضى فيها مع أصحابه نحو الحول . ففي صفر من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله وأصحابه وأنصاره إلى « ودّان » بين الفرع والأبواء وتبعد عن المدينة ست مراحل وعن مكة أربع مراحل . وأراد بخروجه أن يحارب قريشاً وبني حمزة وهم فخذ من كنانة فوداعة بنو حمزة ولم يعثر على قريش وعاد من غير حرب إلى المدينة فأقام بقية صفر وصدراً من ربيع أول وفي مقامه في المدينة أرسل سريّة بقيادة عبيدة بن الحارث فوصل إلى ثنية المسرة في شمال قديد من بادية مكة ولقي فيها جمعاً من قريش ولكن لم يحدث قتال بينهما . وبعث صلى الله عليه وآله وسلم سريةً أخرى بقيادة عمّه حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص وهو مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها طريقهم إلى الشام فلقي أبا جهل بن هشام بثلاثمائة فارس من قريش وكاد يشتبك الجمعان لولا وساطة مجدي بن عمرو الجهني الذي حال بينهما فلم يحدث قتال .

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله بالمهاجرين والأنصار يريد قريشاً فلما بلغ « بواط » وهو موضع قرب جبل رضوى على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة وهناك طريق تختصرها العرب إلى الشام . على أنّ المصطفى لم يجد هناك أثراً لقريش فعاد إلى المدينة ولم يلق كيداً .

وفي جمادى الأولى من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمهاجرين والأنصار =

فَكُنْتَ تَلْقَى دِمَـاهَـا وَهْيَ جَـارِيَـةٌ عَلَى ٱلْبِطَاحِ فَيُؤْذِي ٱلْعَيْنَ قَـانِيْهَـا

= غازياً فنـزل في موضـع اسمه « العشيـرة » وهو وادٍ قـرب ينبع فـأقام فيـه جمادى الأولى ولياليًا من جمادى الثانية وواعدَ هنالك بني مدلـج ومن حالفهم من بني حمـزة وفي أثناء إقامته في العُشيرة بعث سريةً بقيادة سعد بن أبي وقّاص للاستكشاف فبلغت الخـرار وهو واد من مكة قرب قُـدَيد وعـاد إليه ولـم يلق كيـداً وبعد عـودته عـاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة بغير حرب .

وبعد أن أقام رسـول الله في المدينـة قليلاً انتهى إلى سمعـه الشريف أنّ كـرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة « أي رعاتها الذين يسرحون بالمواشي » فخرج في طلبه بالمهاجرين والأنصار فبلغ « سفوان » وهو وادٍ من ناحيـة بدر فلم يـدركه وعـاد إلى المدينة وأقام فيها إلى رمضان . وفي أثناء إقـامته هـذه أرسل سـريّة بقيـادة عبـد الله بن جحش بكتاب مختوم أمره أن يفتحه بعد أن يبعد مسافة يومين عن المدينة فصدع بـالأمر حتى إذا أبعد يومين فتح الكتاب وإذا فيه « إذا نظرت كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » فمضى إلى نخلة فمرّت بـه عير لقريش وفيها عمرو بن الحضرمي وكان محالفاً لقريش وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفل عبد الله بن جحش باليوم الحرام ولا وقف عند حدّ أمر رسول الله من الترصـد فقط بل هاجم عمرواً ومن معه فقتل عمرواً وأسـر اثنين من الرجـال الثلاثـة الذين كـانوا معه وهرب رابعهم وعاد عبد الله بالأسيرين والعير إلى المدينـة . فاستـاء رسول الله ممّـا كان وازداد استياؤه لما حدث من الشغب بين المسلمين إكبـاراً لحـربٍ أثـارها عبـد الله في يومٍ حرامٍ . فتلافى الله الفتنة بآية ﴿ **يسألونك عن الشهر الحـرام قتال فيـه ؟ قل : قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتـل ، ولا يزالـون يقاتلونكم حتى يـردّوكم عن دينكم إن استـطاعوا** ﴾ فلمـا علم المسلمون بهـذه الآيـة الشـريفـة سكنت ثـائـرتهم ، واستلم رسول الله ﷺ الأسيرين وعدّ العير غنيمةً ثمَّ افتدت قريش أسيرها .

وفي يوم الاثنين لثمان خلون من شهـر رمضان المبـارك أو تسع من السنـة الثانيـة للهجرة « ٥ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية » خرج رسول الله بمن أطاع دعوته من المهاجرين والأنصار وكان عـددهم ٣١٤ رجلاً منهم ٩٣ من المهـاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج للغزو لأنّه ﷺ كان قد علم أنّ أبا سفيان كان خرج من مكة بثلاثين أو أربعين =

وَكَانَتِ ٱلْجِثَثُ ٱلْهَلْكَى هُنَا وَهُنَا مَنْشُوْرَةً وَلَقَدْ غَطَّتْ رَوَابِيْهَا
وَكَانَ أَسْعَدَ أَعْدَاءِ ٱلشَّرِيْعَةِ حَظّاً هَارِبٌ قَدْ تَخَفَّى عَنْ مُحِبِّيْهَا

= فارساً بقافلة من العير فذهبت إلى الشام بتجارتها فأخذ يترقّب رجوعها حتى إذا ما اتصل به نبأها وهي عائدة خرج لغزوها حتى إذا ما قرب من العفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع خبرها . أمّا أبو سفيان فقد كان على حذر من محمد وأصحابه فلما عاد إلى الحجاز علم أنّ محمداً خارج إلى لقائه فأرسل رسولاً من قبله إلى مكة يستنفر قريش لتأمين طريقه وحماية عيرها فنفرت إليه وعلم محمد بنفرتها وهو قريب من بدر فاستشار صحابته وأنصاره معاً في الأمر فأشاروا مجمعين بالقتال حينئذٍ قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : « سيروا وأبشروا إنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم » . ثمَّ ارتحل صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أنّ أبا سفيان نجا بالعير وأنّ قريشاً وراء وادي بدر وهي مصرّة على البقاءِ هنالك لتحضر الموسم الذي كان يقيمه العرب لكي لا يقال أنّهم جبنوا فهربوا من المسلمين وقد نزلت قريش بعدوة وادي بدر الدنيا ونزل المسلمون على أول ماء من بدر ثم انتقلوا منه إلى أدنى ماء من القوم وابتنى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عريشاً له أقام فيه .

وفي صباح الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة « ١٣ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية » ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب عادة العرب فخرج من المشركين ثلاثة وهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال القرشيون لا حاجة لنا بكم نحن نطلب أكفاءَنا من بني عمّنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب فكان بإزاء شيبة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فكان بإزاءِ عتبة وبطل الإسلام الأكبر علي بن أبي طالب عليه السلام فكان بإزاءِ الوليد أمّا حمزة وعلي فما أمهلا أن جندلا صاحبيهما وأمّا عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين متكافئتين وفي الحال هجم حمزة وعلي وأجهزا على شيبة واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين . وعلى أثر هذا البراز ابتدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار وانجلت عن قهر المشركين وقتل عدد من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام وأسر المسلمون منهم نحو السبعين وهرب الباقون . فاستاق علي بن أبي طالب هؤلاءِ الأسرى إلى المصطفى فأمر بسوقهم إلى المدينة المنوّرة حتى إذا ما وصلوها كانت بشائر النصر قد وصلتها مع السعاة فاستقبل الناس الموكب النبوي بالتهليل والتكبير ، وأمر المصطفى بقتل اثنين من =

وَكَانَ فِيْهَا عَلِيٌّ رَبَّ نَجْدَتِهَا يَلْقَى ٱلْأَعَادِيْ فَيُصْمِيْهَا وَيُشْوِيْهَا
وَإِنَّهَا عَرَفَتْهُ فِيْ مَوَاقِعِهِ ٱلْـ ـحَمْرَاءِ أَبْسَلَ مَنْ ضَحَّى أَضَاحِيْهَا
وَإِنَّهُ أَفْرَسُ ٱلْفُرْسَانِ أَعْظَمُهُمْ فَتْكاً كَمَا قَالَ بَاكِيْهَا وَنَاعِيْهَا
كَانَ ٱلْمُبَارِزَ فِيْهَا وَٱلْمُقَاتِلَ وَٱلْـ ـمَنْصُوْرَ وَٱلرَّافِعَ ٱلْأَعْلَامِ مُرْبِيْهَا
وَٱسْتَاقَ لِلْمُصْطَفَى أَسْرَى قُرَيْشَ فَمَنْ قَضَى عَلَيْهَا وَمَنْ قَدْ كَانَ يَفْدِيْهَا
وَقَدْ حَمَى أَحْمَداً فِيْ وَسْطِ قُبَّتِهِ ٱلْـ ـعَلْيَا ٱلَّتِيْ كَانَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ حَامِيْهَا
حِمَايَةٌ مَا لَهَا إِلَّا ٱلْعَلِيُّ وَطَـ ـهَ كَانَ غَايَةَ عَادِيْهَا وَرَامِيْهَا
وَقَدْ تَصَدَّى لِأَعْدَاءِ ٱلنُّبُوَّةِ كَيْ يُزِيْلَ عَنْ رَبِّهَا مُؤْذِيْ تَصَدِّيْهَا
وَكَمْ أَرَادَ عِدَى ٱلْإِسْلَامِ نَكْبَتَهُ بِٱلْمُصْطَفَى فَخَزَى ٱلْبَارِيْ مُرِيْدِيْهَا

=الأسرى هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لما اشتهرا به من الغلوّ في عداوة المسلمين والجهر في سبّ الشريعة والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووزع الباقين على الناس وأوصى بهم خيراً فما زالوا عندهم إلى أن افتدتهم قريش وبعضهم أطلق سبيلهم المصطفى بغير فدية كرماً منه وجعل فدية الذين يكتبون منهم تعليم أولاد المدينة القراءَة والكتابة وكان الفراغ من هذه الغزوة في نهاية رمضان وشهد المسلمون عيد الفطر في المدينة .

والذي يطّلع على تفصيل هذه الغزوة في المطولات يجد لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام القدح المعلى في الفوز فقد كان أول من افتتح القتال مع صاحبيه في البراز . ثمَّ كان في مقدمة صفوف المسلمين عند الهجوم العام وفي أثناءِ القتال لحظ أنّ المشركين قد اتّخذوا قبة المصطفى غرضاً لسهامهم وأنهم يتقصدونه بالذات وهم يعتقدون أنَّ في موته صلى الله عليه وآله وسلم موت دينه وتلاشي أتباعه فاتّخذ على عاتقه حماية ابن عمّه في قبّته عليهما الصلاة والسلام فوقف إلى جانبها متعرضاً إلى النبال التي كانت تتساقط حوليه كالمطر وهو يرمي راميها بنبله فجندل عدداً كبيراً منهم ثمَّ استلَّ سيفه ذا الفقار وهاجم الناس فأبلى بهم أحسن بلاء فكان آخر من ضرب بسيفه كما كان عليه السلام أول الضاربين .

أمير المؤمنين في غزوة أحد

وَلِلْعَلِيِّ فِعَـالُ ٱلْمَجْـدِ فِيْ أُحُـدٍ يَعْيَا وَيَعْجَـزُ رَاوِيْهَـا وَمُحْصِيْهَـا[1]

فَكَمْ بِغَـزْوَتِهَـا ٱلْكُفَّـارُ قَـدْ نُكِبَتْ بِسَيْفِـهِ وَهْـوَ بِـإِذْنِ ٱللَّهِ نَـاكِيْهَـا

---

(١) بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة بدر لم يقم في المدينة سوى سبع ليالٍ وبعدها سار يريد غزوة بني سليم فبلغ ماءً لهم يسمى « الكدر » فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع إلى المدينة من غير حرب وأقام فيها إلى بقية شوال وذي القعدة .

أمّا أبو سفيان فكان حينما رجع مقهوراً إلى مكة المكرمة بفلول بدر نذر أن لا يمسّ رأسه من جنابة حتى يثأر لنفسه من بدر ويغزو محمداً فخرج بمئتي راكب من قريش برّاً بيمينه يريد المدينة فما زال مجداً حتى بلغ بني النضير على نحو بريد من المدينة وهم يهود كانوا قد حالفوا المسلمين فنزل عليهم وطلب محالفتهم على محمد فرفضوا مناصرته برّاً بحلفهم ولكنهم أووه وأكرموا مثواه ثمَّ خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا فيها رجلين من الأنصار فقتلوهما ثمَّ خرجوا راجعين . فلما بلغ المصطفى ما فعل أصحاب أبو سفيان بالنخيل وبصاحبيه خرج في طلبه حتى بلغ قرقرة الكدر فما عثر عليه وكان قد فاته وسميت هذه الغزوة بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون فيها من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة .

ولمّا رجع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة السويق أقام في المدينة بقية ذي الحجة ثمَّ غزا نجداً يريد غطفان فأقام في نجد صفراً ولم يحارب وعاد إلى المدينة فأقام فيها ربيع الأول وفي أواخره خرج يريد قريشاً فبلغ « نجران » وهو معدن في الحجاز بناحية « الفرع » فأقام هناك ربيع آخر وعاد بغير حرب إلى المدينة المنوَّرة وفي عودته غزا بني قينقاع .

وبنو قينقاع هؤلاء قوم من اليهود كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن بعد موقعة بدر أخذت تبدر منهم بوادر تنمُّ عن أنهم غير مخلصي العهد للمسلمين وحدث في شهر ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة أنَّ إمرأة مسلمة كانت في سوق بني قينقاع فاعتدى عليها يهوديّ منهم اعتداءً قبيحاً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى =

فَلَمْ يَــزَلْ مَنْ حَــوْلَيْــهِ تَضْــرِبُهَــا   سُيُــوْفُهُمْ فَتُــلاَقِيْهَــا هَــوَادِيْــهَــا

= اليهودي المعتدي وقتله فقامت عليه اليهود فقتلته فلمّا بلغ هذا رسول الله خرج إلى غـزو بني قينقاع وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة نزلوا على حكمه في آخرها فأجلاهم من ديارهم فخرجوا إلى أذرعات في الشام وسكنوها .

وفي هذه الأثناء بلغ المصطفى ﷺ أنَّ قريشـاً حذرت طريقها المعتـاد وأخذت تسلك إلى الشام طريق العراق فأرسل إلى لقائها سارية بقيادة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء القروة من ميـاه نجد فـأصاب عيـرهم وسار بهـا إلى المدينـة أمّا الـرجال فنجـوا منه هاربين بأنفسهم .

وكان رجل في المدينة يـدعى كعب بن الأشرف وهـو يهوديّ من طيء ثمَّ من بني نبهان وأمّه من بني النضير وكان وجيهاً في مدينة الرسول فلما انتصـر المسلمون في بـدر وجاءَت البشائـر بانتصـارهم إلى المدينـة لم يستطع أن يكتم آلامـه فطفق يقـول علانيـة « والله لئن كان محمد أصاب قريشاً فلبطن الأرض خير من ظهرها » ولما تيقن الخبر سار إلى مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي وجعل يحرّض قريشاً على رسول الله بأشعاره ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ثمَّ رجع إلى المدينة فطفق يشبب بنســاءِ المسلمين حتى آذاهم فلم ير المصـطفى خيراً لهـذا الزنـديق من أن يبلغه أمنيته في قوله « لبطن الأرض خير من ظهرها » وأرسل له بعض الأنصار فقتلوه .

وفي الحقيقة أنّ كسرة قريش في بدر كان لها صدى عظيم في الحجاز وتأثيـر كبير على نفوس الحجازيين وكانت قريش أعظم قبائل الحجاز تألماً منهـا إذ أظهرت لهم مـا لم يكن في حسبـانهم من استفحال أمـر المسلمين فعادت فلولهم إلى مكـة وهي تنادي بـطلب الثأر وكـان بنو أميـة وعلى رأسهم أبو سفيـان هم رؤساء الـدعوة لشنّ غـارةٍ على المصطفى ﷺ يأخذون فيها بثأر قتلاهم وينقـذون فيها أسـراهم . واجتمعت على هذه الدعوة قريش بأحابيشها ومن والاها من كنانة وأهل تهامة وساروا جميعاً لـطلب الثأر ومـا زالوا مجدّين حتى نزلوا في موضع يقال له عنين بجبل ببطن السبخة من قناة على الشفير الوادي الذي يقابل المدينة المنوَّرة .

ولم تكن أنبـاء قريش بخـافية عن رسـول الله ﷺ فقد كـانت عيـونـه تنقـل إليـه أخبـارها فلمـا انتهى إليه نبـأ نزولهـا بقرب المـدينة جمـع أكابـر المهـاجـرين والأنصـار=

حَتَّى آنْجَلَتْ هَرَباً عَنْ شَرِّ مَوْقِفِهَا   أَمَامَهُمْ وَعَلِيُّ الْقَرْمُ مُجْلِيهَا

= واستشارهم في الأمر فكان رأي أكثرهم الخروج إلى قريش ومحاربتها فتغلبوا بذلك على رأي رسول الله الذي كان رأيه البقاء في المدينة حتى إذا هاجمه القرشيون بعقر داره يلقاهم برجاله على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم امتثل أمر الأكثرية ودخل بيته ولبس لامته وخرج إليهم فوجدهم قد ندموا على غلبة رأيهم على رأيه فقالوا له إن شئت فاقعد فقال لهم : « ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » وهكذا خرج في ألف من المهاجرين والأنصار وكان خروجه في يوم الجمعة بعد الصلاة لأربع عشرة خلت من شوّال في السنة الثالثة من الهجرة « ٢٩ مارس سنة ٦٢٥ مسيحية » فلما بلغ الشوط انخذل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من جبل أُحد في عدوة الوادي فجعل ظهر عسكره إلى أُحد وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وأعطى لواءه إلى مصعب بن عمير وقدم الفرسان للقاء الأعداء وترك الرماة يحمون قفوتهم .

والتقى القومان ودارت رحى الحرب وكان في طليعة المسلمين الفرسان وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة وسماك بن خرشة الساعدي فحسوا قريش بسيوفهم حتى كشفوهم عن العسكر وباتت هزيمتهم لا ريب فيها فلما رأى رماة المسلمين أنّ المشركين قد انكشفوا مالوا إلى المعسكر طلباً للغنائم وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفّت خيّالة المشركين التي كان يقودها خالد بن الوليد على المسلمين من ورائهم وأخذوهم على غرة فاختلت صفوفهم وزادها اختلالاً أنّ رجلاً من المشركين قتل مصعب بن عمير حامل اللواء النبوي وصاح أنّ محمداً قد قتل فكان لصيحته تلك جزع في نفوس المسلمين أزاد في اختلالهم ومكن مشركي قريش منهم فقتل بعضهم وفرَّ بعضهم ولم يبق حول رسول الله إلاّ نفر يسير في مقدمتهم بطل الإسلام الأكبر علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أبى في هاتيك الشدّة إلاّ أن يكون في جانب المصطفى عليهما الصلاة والسلام وبات المصطفى والمرتضى يحاربان ذلك العدو المتكاثر لوحدهما والمسلمون هاربون وكان المشركون قد حفروا حفراً قبل الموقعة ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فوقع فيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لشقه وأصيبت رباعيته وشجَّ في وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وكاد يدركه المشركون لولا العليُّ الذي انتشله بيده من هاتيك الحفرة هو وطلحة بن عبيد الله ثم انبرى ذلك الأسد الغضنفر سيدنا علي صلى الله عليه وآله وسلم للمشركين الذين طلبوا رسول الله بذي =

= الفقار وهو سيفه البتار وجعل يضرب به ذات اليمين وذات اليسار فيجندل حوليه الأبطال وما زال كذلك إلى أن أوقع الرعب في قلوبهم بعد أن ملأ الأرض من أشلائهم وقد عجبت الملائكة في السموات من موقفه العجيب ذاك وهو يدفع الخطر عن رسول الله حتى صاح جبريل من السموات العلى « لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي » .

أمّا المسلمون فانهزموا وهم موقنون أنَّ محمداً قد قتل كما صاح صائح المشركين ثمَّ نودي بهم وهم هاربون بأنَّ محمداً لا يزال سليماً فرجع خلق منهم إليه والتفوا حوله وساروا به عائدين حتى إذا ما انتهوا إلى فم الشعب ملأ سيدنا علي درقته ماءً وجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغسل عن وجهه الشريف الدم وصبّ على رأسه وبينما الرسول بالشعب ومعه علي ونفر من المسلمين وإذ قصدتهم خيالة المشركين فتصدّى لها علي بن أبي طالب وأرجعها عن المصطفى عنوةً . ثمَّ أنّ المصطفى أراد أن يعرف ما في أنفس المشركين وإن كانوا يريدون الرجعة إلى مكة بعد الفوز الذي نالوه أم الإغارة على المدينة فلم يجد لهذه المهمة الصعبة إلّا علينّا المرتضى عليه السلام فوجّهه مستطلعاً فخرج بشجاعته المعهودة في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وأقطعوا الإبل عائدين إلى مكة . وانصرف المسلمون إلى دفن قتلاهم وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند زوج أبي سفيان وأمّ معاوية وشقّ قتله على المصطفى وعاد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة .

وفي غد ذلك اليوم الذي كان شديداً على المسلمين وهو يوم الأحد ١٦ شوّال للسنة الثالثة للهجرة أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو وقد فعل ذلك ليرهب قريشاً ويعلمهم بأنّ موقعة أمسه ما أخارت عزيمته وأمر أن لا يخرج معه إلّا الذين شهدوا موقعة الأمس وسار بهم على رغم جراحاته حتى بلغ حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة المنورة فأقام هناك الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان لخروجه هذا تأثير كبير لأنّ المشركين بعد أن انصرفوا راجعين إلى مكة ندموا على تسكعهم عن مهاجمة المدينة المنوّرة وأراد أبو سفيان الرجعة فبلغه خروج محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه في طلبه فخاف ورجع بمن معه مكتفين بالنصر الذي نالوه في أمسهم وقصدوا مكة المكرّمة وأمّا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فعاد إلى المدينة المنوّرة بأصحابه يوم الخميس .

لَوْلَا ٱلرُّمَاةُ ٱلَّتِيْ أَخْلَتْ مَوَاقِفَهَا   مِنْ قَفْوَةِ ٱلْجَيْشِ يَبْغِي ٱلسَّلْبَ مُخْلِيْهَا

إِذْ ذَاكَ عَادَتْ قُرَيْشٌ مِنْ وَرَاءِ صُفُوْ   فِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَنَالَتْهُمْ مَوَاضِيْهَا

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَرْدَتْهُ حَامِلُ رَا   يَةِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ أَلْفَتْهُ مُعْلِيْهَا

وَفَاجَأَتْهُم تُنَادِي مَاتَ أَحْمَدُكُمْ   بِنَبْلَةٍ لَمْ يَخِبْ تَاللَّهِ رَامِيْهَا

وَٱلْمُسْلِمُوْنَ لَقَدْ ضَلُّوْا سَبِيْلَهُمُ   وَضَعْضَعَتْهُمْ عِدَاهُمْ فِيْ مَنَاعِيْهَا

وَبَيْنَمَا تَجْمَعُ ٱلْأَسْلَابَ زِمْرَتُهُمْ   إِذَا بِهَا هَرَبَتْ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيْهَا

فَفَرَّ مَنْ فَرَّ مِنْهَا لِلْمَدِيْنَةِ أَوْ   مَنْ قَدْ أَوَى فَرَقاً دَانِيْ ضَوَاحِيْهَا

إِلَّا ٱلنَّبِيُّ وَمَعْهُ ٱلْمُرْتَضَى فَلَقَدْ   تَوَخَّيَا وَقْفَةً سَامٍ تَوَخِّيْهَا

فِيْهَا لَقَدْ ثَبَتَا لِلْكَارِثَاتِ وَمَا   هَابَا قُرَيْشاً عَلَى فَاجِيْ تَجَمِّيْهَا

وَلَا تَشَتُّتَ أَعْوَانِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ   خَافَتْ فَفَرَّتْ فِرَاراً مِنْ أَعَادِيْهَا

وَلَا جِرَاحَةَ طَهَ عِنْدَ سَقْطَتِهِ   فِيْ حُفْرَةٍ لِقُرَيْشٍ رَاحَ هَاوِيْهَا

فَأَنْقَذَ ٱلْمُرْتَضَى طَهَ وَمَالَ إِلَى ٱلْـ   ـعِدَى ٱلَّتِيْ طَلَبَتْهُ فِيْ تَدَاعِيْهَا

فَفَلَّ مَوْكِبَهَا وَٱلسَّيْفُ فِيْ يَدِهِ   وَكَانَ فَارِسَهَا يُدْمِيْ وَمَاشِيْهَا

وَٱلْأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ فِيْ يَوْمِهَا جُثَثاً   مِنْ بَيْنِهَا تَنْدِبُ ٱلْجَرْحَى دَوَامِيْهَا

وَمَنْ لَهَا كُتِبَتْ قِدْماً سَلَامَتُهَا   مِنَ ٱلنُّفُوْسِ تَوَلَّتْ فِيْ مَنَاحِيْهَا

عَادَتْ لِمَكَّتِهَا تَاللَّهِ رَاضِيَةً   مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ أَنْ تَأْوِيْ مَآوِيْهَا

حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِٱلْخِزْيِ مَوْطِنَهَا   نَاحَتْ وَصَاحَتْ لِتَسْتَبْكِيْ بَوَاكِيْهَا

وَمُذْ دَرَتْ فِئَةٌ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَنَّـ   ـهُ سَلِيْمٌ مِنَ ٱلْأَخْطَارِ نَاجِيْهَا

عَادَتْ إِلَيْهِ وَسَارَتْ تَحْتَ رَايَتِهِ   إِلَى مَدِيْنَتِهِ ٱلْغَنَّا لِيَثْوِيْهَا

وَطِيْبَةُ قَابَلَتْهُ بِٱلْبَشَائِرِ وَٱلْأَ   فْرَاحِ مُنْشِدَةً فِيْهَا أَغَانِيْهَا

وَوَقْفَـةٍ لِعَـلِيٍّ كَـانَ وَاقِـفَـهَـا مَنْصُـوْرَةٍ أَدْهَشَتْ وَٱلـلَّهِ رَائِيْـهَـا
مِنْهَا ٱلْمَلاَئِكَـةُ ٱلأَطْهَارُ قَـدْ عَجِبَتْ وَلِلْعَلِيِّ ٱنْثَنَتْ تُهْـدِيْ تَهَـانِيْـهَـا
وَقَـالَ جِبْـرِيْـلُ قَـوْلاً نَحْنُ نُثْبِتُـهُ وَحَقَّقَتْـهُ ٱللَّيَـالِيْ فِيْ مَجَـارِيْهَـا
لاَ سَيْفَ أَمْضَى شَباً مِنْ ذِيْ ٱلْفَقَارِ فَإِنْ سُلَّتْ سُيُوْفُ كُمَاةِ ٱلْحَرْبِ يَفْرِيْهَا
وَلاَ فَـتَىً كَـعَلِيٍّ إِنْ تَـصَـاوَلَتِ ٱلْــفُتْيَـانُ كَـرَّاً وَفَـرَّاً فِيْ تَـلاَقِيْهَـا

أمير المؤمنين وغزوة بني النضير

وَفِيْ ٱلنَّضِيْـرِ عَلِيٌّ كَـانَ أَبْسَـلَ مَنْ سَـلَّ ٱلـظُّبَـاتِ ٱلأَعْـدَا لِيُفْنِيْهَـا(١)
لِـذَاكَ أَمَّـرَهُ طَـهَ وَسَـوَّدَهُ عَلَى ٱلْجُيُوْشِ ٱلَّتِيْ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا

---

(١) قدم على رسول الله ﷺ بعد غزوة أُحُد رهط من « عُضَل » « والقارة » وهما بطنان من خزيمة بن مدركة وأظهروا له رغبة قومهم في الإسلام وطلبوا منه أن يرسل إليهم بعض أصحابه ليفقهوهم في الدين ويعلموهم القرآن فبعث معهم ستّة من أصحابه بزعامة مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا بلغوا بهم محلّ يدعى « الرجيع » غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فهبّت هذيل وقالت للمسلمين إنّا لا نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا يغدر بكم غادر فرفض القول ثلاثة منهم وقاتلوهم حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم في الطريق وسبق الآخران إلى مكة فبيعا في سوقها وقتلا هناك قتلهما أبو سفيان .

وقدم على رسول الله ﷺ في صفر من السنة الرابعة للهجرة أبو برّاء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامريّ فعرض عليه رسول الله أن يسلم فلم يسلم ولم يبعد وقال لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال ﷺ إنّي أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فبعث سريّةً بقيادة المنذر بن عمرو الساعديّ فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فقتلت السرية كلّها وكانت أربعين رجلاً لم يسلم منهم إلاّ رجل واحد يدعى عمرو بن أمية الضمري فقد نجا من القتل وأسر وآخر بقي جريحاً =

وَقَــدْ أُقِـيْمَـتْ لِـطَهَ قُبَّـةٌ فَـأَوَى   ظِـلاَلَهَـا وَغَـدَا آلإِقْبَـالُ آوِيْـهَـا

=بين القتلى يدعى كعب بن يزيد .

ثم أنّ عمرواً بن أمية الضمري نجا من الأسر وعاد إلى المدينة وفي طريقه التقى برجلين من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يكن عمرو عالماً به . فلما بلغ المدينة أخبر رسول الله بخبر القوم والقتيلين فقال : هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً . ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينّهما . أي « أعطي ديتهما أو أنظر فيها » .

نعم فقد اهتمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلافي شرّ مقتل ذينك الرجلين وحسب حساباً لبني عامر قومهما وأسرع إلى بني النضير وهم محالفوه ومحالفو بني عامر يوسطهم في تسوية ديتهما أو طلب معونتهم إذا أصرّ بنو عامر على طلب الثار فأظهروا له الودَّ والرضى على ما طلب ثمَّ تركوه مستنداً إلى جنب جدار من بيوتهم وخلا بعضهم ببعض وتآمروا عليه ليقتلوه بإلقاء صخرة عليه من أعلى المنزل الذي كان صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً إلى جداره وانتدبوا لذلك أحدهم لتنفيذ الغدر الذي نووه أمّا رسول الله فجاءه الوحي الإلهي منذراً له بما ائتمر القوم فأسرع راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه بما نواه بنو النضير من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم وبالفعل سار إليهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة غازياً واستعمل بطل الإسلام الأكبر سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام على العسكر ولما وصلوا إلى موطن بني النضير ضربوا عليهم الحصار وضربت قبّة المصطفى فأواها وكانت من خشب عليها مسوح . وكان في بني النضير رجل أعسر مشهور برمي النبال يدعى غُزوَل فطفق يتقصد القبة النبوية بنبله فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بتحويلها إلى حيث لا تصلها النبال فحوِّلت في الحال . وفي إحدى ليالي الحصار تغيب سيدنا علي عليه السلام قرب العشاء فخاف المسلمون أن يكون أصابه مكروه وأسرعوا إلى رسول الله ينقلون إليه خبر غيبته فطمأن خاطرهم وقال دعوه فإنّه في بعض شأنكم وعند الفجر عاد ذلك الغضنفر إلى المعسكر النبوي وفي يمينه رأس ذلك الملعون غزول نبّال النضير الذي كان يتعمد قتل المصطفى وقال شعرت بأنّ هذا وتسعة من قومه خرجوا يطلبون غرّةً منا ففجأتهم بسيفي فقتلتهم جميعاً فهلّل المسلمون وكبّروا وهم معجبون بهذه الشجاعة النادرة التي لا يأتيها إلّا مثل أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام .

أمّا بنو النضير فقد تحرّجوا لطول الحصر وهمّوا أن يسلموا إلى المصطفى ولكنهم =

وَحَاصَرَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلظَّافِرُونَ رِبَى آلـــنَّضِيْرِ حَصْراً بِـهِ تَلْقَى تَـلاَشِيْهَـا

إِذَا بِـأَعْسَرَ فِيْهَـا كَـانَ أَنْبَـغَ مَنْ يَـرْمِيْ ٱلنِّبَالَ فَـلاَ تُخْطِيْ مَـرَامِيْهَـا

تَقَصَّـدَ ٱلْمُصْـطَفَى فِيْ وَسْطِ قُبَّتِـهِ وَبَـاتَ عَنْ قَوْسِـهِ بِـآلنَّبْـلِ يَـرْمِيْهَـا

فَـأَسْرَعَ آلـرَّكْبُ فِيْ تَحْـوِيْـلِ قُبَّتِـهِ فَحُـوِّلَتْ حَيْثُ لاَ نَبْـلٌ تُفَـاجِيْهَـا

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَـالِيْ ٱلْحَصْرِ مُـظْلِمَةٍ لاَ نُـوْرَ فِيْهَـا وَقَـدْ أَدْجَتْ دِيَـاجِيْهَـا

غَابَ ٱلْعَلِيُّ بِهَا عَنْ صَحْبِـهِ فَشَكَتْ لِلْمُصْـطَفَى غَيْبَـةً لَمْ تَـدْرِ خَـافِيْهَـا

فَقَـالَ : غَيْبَتُـهُ فِـيْ خَيْـرِ مُـلَّتِـهِ مَعْ قَصْدِ نَصْرَتِهَا ٱلْمَحْمُوْدُ سَارِيْهَـا

حَتَّى إِذَا لاَحَ نُـوْرُ ٱلْفَجْرِ عَادَ كَـمِـــيُّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِـآيِ ٱلنَّصْرِ يَـرْوِيْهَا

وَرَأْسُ غُــزْوَلَ نَبَّالِ ٱلنَّضِيْــرِ بِيُمْـــنَــاهُ وَبَـسْـمَـتُـهُ وَافٍ تَـجَـلِّيْـهَـا

وَقَـالَ : هٰـذَا وَمَعْـهُ تِسْعَـةٌ كَمَنُـوْا لَـنَـا وَنِيَّـتُـهُـمْ سُـوْءٌ لِنَـاوِيْـهَـا

وَإِذْ شَعَـرْتُ بِهِمْ فَـاجَـأْتُ مَكْمَنَهُمْ بِبَـطْشَـةٍ وَهُمُ مِـنْ مُسْتَحَـقِّيْـهَـا

أَخْمَدْتُ أَنْفَاسَهُمْ جَمْعَاً بِضَرْبَةِ سَيْـــفٍ لَمْ يَكُنْ فِيْ سَبِيْـلِ ٱللَّهِ نَابِيْهَـا

فَهَلَّلَ ٱلْمُصْــطَفَى بُشْـرَاً بِصَـاحِبِـهِ وَقَـالَ أَنْتَ كَمِيُّ ٱلْحَـرْبِ غَـازِيْهَـا

وَأَقْبَـلَ ٱلْقَوْمُ نَحْـوَ ٱلْمُرْتَضَى بِـأَهَـا زِيْجِ ٱلْمَدَائِحِ يُشْجِي ٱلْقَلْبَ شَادِيْهَا

وَأَكْبَـرُوا هِمَّــةً مِـنْـهُ مُـمَـجَّـدَةً وَكَـبَّـرُوْا لِلَّذِيْ قَـدْ زَانَـهُ فِـيْـهَـا

=تـوقفوا بعـد أن أتاهم من منـافقي أهل المـدينة المنـورة رسول قـال لهم : اثبتـوا لنـأتي لنصرتكم فتربصوا حيناً فلم يبرّ أولئك المنافقون بوعدهم فاشتدَّ بهم الخـوف فطلبـوا من رسـول الله الصلح على أن يجلوا عن منـازلهم ولهم مـا حملت الإبـل من أمـوالهم إلاّ الحلقة فصالحهم ﷺ على ما طلبوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبـر ومنهم من هاجر إلى الشام . وهكـذا جـلا بنـو النضيـر وهم يهـود من جـوار المدينة المنوّرة .

أمير المؤمنين في غزوة الخندق

تَضَافَرَ ٱلْكُفْرُ وَٱلْإِشْرَاكُ ٱجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمَا ٱلْعُرْبُ نَاشِيْهَا وَفَانِيْهَا[1]

وَقَدْ تَحَزَّبَتِ ٱلْأَحْزَابُ طَالِبَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ ٱلتَّلَاشِيْ فِيْ تَدَاعِيْهَا

---

(١) خرج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة المنوّرة في جمادى الأولى من السنة الرابعة للهجرة يريد غزو بني محارب وثعلبة من غطفان فلما وصل إلى موضع يسمّى « نخل » لقي هناك جمعاً كبيراً من غطفان لم يكن للمسلمين قِبَلٌ على لقائه وأدخل الله هيبة المسلمين وهم الفئة القليلة على قلوب ذلك الجمع الكبير فجبنوا عن لقائهم وفي هذه الغزوة صلّى المصطفى صلاة الخوف وانصرف عائداً إلى المدينة المنورة من غير أن يتعرض له أعداؤه .

وكان أبو سفيان في موقعة أُحد توعّد المسلمين بالعودة إلى قتالهم في سوق بدر القادمة وكانت تقام في شعبان من كل عام وبلغ ذلك الوعيد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فخرج بالمسلمين إلى بدر في شعبان السنة الرابعة للهجرة أمّا أبو سفيان فخرج بمشركي قريش لتنفيذ وعيده فلمّا بلغ « مجنة » وقالوا بلغ « عسفان » بلغه خروج المصطفى إلى بدر فخاف سوء العاقبة وجبن عن المسير وعاد بأصحابه وهو يقول لهم « أيّها الناس إنّه لا يصلحكم إلّا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإنّ عامكم هذا عام جدب فارجعوا وأنا راجع » وهكذا لم يجر قتال في غزوة بدر الثانية .

وقد علمنا من غزوة بني النضير أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أجلى هذه القبيلة جزاء مكرها وحنثها في عهدها عن منازلها فأبى بعض زعمائها إلّا الإنتقام من محمد فساروا ومعهم جماعة من بني وائل وكلّهم يهود إلى مكة وأخذوا يدعون قريشاً لحرب المسلمين فلبتهم ثمّ خرجوا إلى غطفان فلبوهم وهكذا اجتمعت الجموع لحرب المسلمين وكان أبو سفيان بن حرب قائد الحملة الأكبر فلمّا بلغ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تحزّب الأحزاب لحربه شاور أصحابه في أمرها فأجمعوا على الثبات في المدينة المنورة للقائها حتى لا ينال المسلمين ما نالهم في أُحد وكان بينهم رجل حكيم يدعى سلمان الفارسي فأشار على المصطفى أن يحفر خندق حول المدينة ليقيها الأعداء وقال كذلك يفعل الفرس في حروبهم فأمر المصطفى بحفر خندق أمام المدينة المنورة وعانى المسلمون مشقّة عظيمة في حفره وإحكامه وكان المصطفى والمسلمون يحفرونه بأيديهم . ثمّ جاءت قريش ومن =

وَكَانَ أَعْظَمَهَا غَيْظاً يَهُوْدُ نَضِيْـرٍ إِذْ تَسَطَّوْا عَلَيْهَا فِيْ مَغَانِيْهَا

=تحزّب معها على عداء المصطفى فنزلوا في مجتمع السيول من رومة بين الحرف وزغابة في عشرة آلاف ونزلت غطفان إلى جانب جبل أُحد وخرج المسلمون إلى لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف وجعلوا ظهورهم إلى سلع وضربوا معسكرهم هناك تاركين الخندق الذي احتفروه بينهم وبين أعدائهم .

وما اقتصر الحال على هؤلاء الأعداء بل تعدّاه إلى خيانة بني قريظة الذين كانوا عاهدوا المصطفى فنكثوا العهد وانضموا إلى مشركي قريش وغطفان فلما بلغ المسلمين هذا عظم الكرب عليهم إذ رأوا أعداءَهم قد تألبوا عليهم من كل صوب وحدب وهكذا أقام المسلمون على إضطرابهم بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم وبين المشركين إلاّ المراماة بالنبال والحصى وذلك لأنّ أولئك المشركين لم يكن لهم عهد بالخنادق فتهيبوا الخندق الذي وجدوه محفوراً أمامهم وتربصوا عن القتال مكتفين بمراماة الحصى والنبال حتى إذا ما أعيتهم الحال أقبل واحد منهم يدعى نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق مريداً بذلك تشجيع الناس على اختراق الخندق ومهاجمة المسلمين في معسكرهم فوقع فيه واندقَّ عنق الفرس وتلقاه المسلمون بالحجارة فجعلوا يقذفونه بها فناداهم قائلاً : قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب . فلما بلغ صوته سمع المسلمين جعل ينظر بعضهم إلى بعض وبينما هم لكذلك وإذا بأسد الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام هوى إلى قعر الخندق وضرب نوفلاً بسيفه البتار ضربةً قدته نصفين وعاد إلى أصحابه وهم يصفقون طرباً أمّا المشركون فكبر عليهم مقتل نوفل وهو من شجعانهم وصاحوا الثار الثار . وتقدم منهم رجل مغوار قد كان أفرس الفرسان بغير جدال يدعى عمرو بن ودّ وكان وقتئذٍ في التسعين من عمره إلاّ أنّه على شيخوخته ما كان في المشركين أقوى منه ولا أشجع واشتهر عنه أنّه ما كان يخرج إلى حرب إلاّ ويعود منصوراً وحسبك الدلالة على شجاعة وقوة هذا الجبار العنيد أنَّ عنترة بن شدّاد العبسي أشجع شجعان العرب المتوفى سنة ٦٠٠ مسيحية أي قبل الهجرة بنحو ١٢ سنة أكره مرة على لقائه في مبارزة فتهيب موقفه وأنشد :

شربت القنا من قبل أن يشترى القنا ... ونلت المنى من كلّ أشوس عابس
فما كلُّ من يشري القنا يطعن العدى ... ولا كلّ من يلقى الرجال بفارس
خرجتُ إلى القرم الكميّ مبادراً ... وقد هجّست في القلب مني هواجسي

=

فَأَسْرَعَتْ نَزَلَتْ أُمَّ ٱلْقِرَى وَدَعَتْ لِلثَّأْرِ مِنْ أُمَّةِ ٱلْهَادِي قُرَيْشِيَهَا

= وقلت لمهري والقنا يقرع القنا تنبه وكن مستيقظاً غير ناعس
فجاوبني مهري الكريم وقال لي أنا من جياد الخيل كن أنت فارسي
ولما تجاذبنا السيوف وأفرغت ثياب المنايا كنت أول لابس
ورمحي إذا ما اهتزَّ يوم كريهةٍ تخرُّ له كل الأسود القناعس
وما هالني ياعبل فيك مهالكٌ ولا راعني هول الكميّ الممارس
فدونك يا عمرو بن ودّ ولا تحل فرمحي ظمآن لدمّ الأشاوس

وعجز ابن ودّ عن عنترة كما عجز هذا عنه فكانا متكافئين شجاعةً وعزماً والغريب أنّ عمرو بن ودّ احتفظ بقوته الغريبة حتى رأيناه شجع دون المشركين فنزل الوادي يطلب ثأر نوفل .

نزل عمرو بن ودّ الخندق وهو راكب جواده وصاح من يبارز فلما بلغ نداؤه مسامع المسلمين تهيبوه لشهرته فلم يكن فيهم من يلبّي نداءَه غير عليّ فتقدم من المصطفى عليهما الصلاة والسلام وقال أنا له يا نبيّ الله فأشفق المصطفى على عليّ وقال : إجلس فإنّه عمرو بن ودّ فجلس على رغمه بينما كان عمرو يكرّر نداءَه حتى جعل يوبّخ المسلمين ويقول : « أين جنتكم التي تزعمون أنَّ من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلاً أقاتله وأبعثه إلى جنتكم وإذ لم يجد مجيباً جعل ينشد :

ولقد بححت من الندا ءِ لجمعكم هل من مبارز
إنَّ الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

أمّا المسلمون فلم يكن فيهم من يجرأ على مبارزة كفّار قريش فوجموا إلاّ عليّنا المرتضى فجعل يلحُّ على المصطفى عليهما الصلاة والسلام أن يأذن له بالخروج إلى عمرو بن ودّ وكان المصطفى ﷺ يتبسم ويقول : « اجلس يا علي فإنّه عمرو بن ودّ » وفي الأخير حرج صدر أمير المؤمنين وغلا الدم الشريف في عروقه وقال « وإن كان عمرواً فأنا علي بن أبي طالب » فلما سمع المسلمون من المرتضى هذا القول أكبروه وجعلوا ينظرون إليه بأعين ملؤها الاحترام والإكبار وإذ ذاك أذن المصطفى لبطل الإسلام الأكبر أن يبارز بطل المشركين الأشهر وقلده بيمينه الشريفة سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديدي وعمّمه بعمامته وقال « اللّهمَّ أعنه عليه ، اللهم هذا أخي وابن عمّي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » ثم مال إلى عليّ بعطفه الأسنى وقال له : « سرّ على بركات الله » وفي الحال هبط سيدنا علي عليه السلام إلى الوادي هبوط الأسد الغضنفر لملقي =

=فريسته وهو مشهر ذا الفقار بيمينه حتى إذا ما دنا من عمرو بن ودّ أنشد :

لا تـعـجـلنَّ فـقـد أتـا ك مجيب قـولـك غيـر عـاجـز
ذو نـيّـةٍ وبـصـيـرةٍ والـصـدق منـجي كـل فـائـز

فنظر عمرو بن ودّ إلى الشاب العليّ نظرة احتقار ولم يجبه فقال له علي : « إنّك يا عمّ كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى واحدة من ثلاث إلاّ قبلتها » قال : أجل فقال عليّ : « فإنّي أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله وتسلم لربّ العالمين » فقال عمرو « يا ابن أخي أخّر عنّي هذه » فقال علي « والثانية أن ترجع إلى بلادك فإن يك محمد صادقاً كنت أسعد الناس به وإن يك كاذباً كان الذي تريده من قهره » قال عمرو : « هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً كيف وقد قدرت على إيفاء ما نذرت » قال علي : « ويلك وما هو الذي نذرته » قال عمرو « يوم أن أفلتُ من بدر بعد أن جرحت نذرت أن لا يمسّ الدهن رأسي حتى أقتل محمداً فقل الثالثة يا ابن أخي » قال علي : « وأمّا الثالثة فهي مبارزتك » فضحك عمرو بن ودّ بملء شدقيه حتى بانت نواجزه وقال : « إنّ هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أحداً من العرب يروعني بها على أنّي يا ابن أخي لا أحبُّ أن أقتلك فإن أباك الشيخ أبا طالب كان صديقي وعشيري وفي عمومتك من هو أشدّ منك وأنت بعد في مقتبل العمر وزهوة الشباب » فقال علي : « أمّا أنا فلا أكره أن أقتلك وأهرق دمك في سبيل الله » فغضب عمرو بن ودّ وقال : « ويلك ماذا تقول ؟ » قال علي بفؤاد لا يرهب الموت : « أقول إنّي أحبّ أن أبارزك فانزل عن فرسك وبارزني » وفي الحال نزل عمرو بن ودّ عن فرسه وهو شعلة غضب وسلَّ سيفه وعقر فرسه وضرب جبهته وأقبل على عليّنا المرتضى عليه السلام فاستقبله علي بدرقته فضربها عمرو بسيفه فقدّها نصفين وشجّ رأسه فعاجله علي بضربة من ذي الفقار وقعت على عنقه فخرَّ على الأرض مضرَّجاً بدمه فأجهز عليه وعاد إلى المدينة يجرُّ ذيل النصر والدم يتدفق من جبهته الشريفة . أمّا المسلمون فلما شهدوا من معسكرهم هلاك عمرو بن ودّ وانتصار علي بن أبي طالب أخذوا يهللون ويكبّرون ويحمدون الله . أمّا المشركون فلمّا رأوا ما حلّ ببطلهم الأشهر انكسرت نفوسهم وخارت عزائمهم .

وعلى أثر مقتل عمرو بن ودّ جاءَ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم رجل يدعى نعيم بن مسعود=

وَيَـطْلُبَانِ مِنَ ٱلْإِسْـلَامِ ثَـأْرَهُمَـا   وَأَخْـذَةُ ٱلثَّـأْرِ تُعْمِي عَيْنَ بَـاغِيْهَـا

=الأشجعي وقـال لـه إنّي أسلمت ولم يعلم القـوم بـإسـلامي فمـرني بمـا تشاء فقـال له ﷺ إنّما أنت رجل واحد فخذّل عنّا ما استطعت فإنّ الحرب خـدعة فسـار نعيم إلى بني قريظة وكان لهم نديماً فأغـراهم على مشركي قـريش وغطفـان قائـلاً إنّهم غربـاء لا يلبثـون أن يعـودوا أدراجهم إلى مـواطنهم وتبقـون هنـا وحـدكم على عـداء محمـد في مستقبلكم فـالـرأي عنـدي إذا كنتم مصـرّين على عهـودكم معهم أن تـأخـذوا رهنـاً من أشرافهم بأن ينصروكم كلما أراد محمد بكم شرّاً وما زال على هذا حتى استمـالهم إلى قـوله . ثمَّ مضى إلى قـريش فاجتمـع بأبي سفيـان ومن معه من الـزعماء وقـال لهم لقد بلغني أنّ اليهود قد نـدموا لتحـزّبهم معكم وأرسلوا إلى محمد سـرّاً يظهـرون له نـدمهم على مظاهرة أعدائه عليه وقالوا له أيسرك أن نرسل لك من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم ثم نناصرك على من بقي منهم فـارتضى محمد بمـا عرضـوا وسار أيضـاً بمثل هذا القول إلى غطفان فأثر على هؤلاء وأولئك وأحكم الضغينـة في صدورهم على بني قـريظة اليهـود . فلما كـانت ليلة السبت من شوّال السنـة الخامسـة للهجـرة أرسـل مشركو قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفـر من القبيلتين إلى بني قريـظة فقالـوا لهم أن يهبوا في صباح غـد « السبت » لمهاجمـة المسلمين فأجـابهم بنو قـريظة إننـا لا نخـرج إلى قتال في يـوم السبت وفوق هـذا فأنـا لا نقاتـل محمـداً حتى تعطونـا بعض أشرافكم رهينة أن تكونوا معنا في المستقبل على المسلمين فلمـا عاد عكـرمة وأصحـابه بجواب بني قريظة هذا إلى قريش وغطفان تأكد هؤلاء خبر نعيم وأرسلوا إلى بني قـريظة ينبئونهم بأنهم لا يعطون أحداً رهينة فتأكد بنو قريظة من جواب قريش وغطفان صـدق ما قـال نعيم من خذلهم في المستقبـل وهكـذا تقـاعس هؤلاء وهؤلاء عن القتـال وتفـرقت كلمتهم ودبّ الشـقاق في صدورهم وتسرّب الرعب إلى قلوبهم وبينما هم لكذلك وإذا بـريح بـاردة في ليلة شاتيـة هبّت عليهم فكفأت قـدورهم وطرحت آنيتهم فـأزادتهم جبناً وفرقاً فهبّوا مذعورين مدبرين وكان أبو سفيان أوّل الهـاربين وبذلـك أزيحت هذه الغمّـة الثقيلة عن صدور المسلمين وحمدوا الله ربّ العالمين .

ثمَّ إنّ رسول الله أمر بعد انصراف الأحـزاب أن يتوجـه المسلمون إلى بني قـريظة ليعاقبوهم على نكثهم عهودهم فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمس وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم عليهم بقتل مقاتلتهم ونفـذ=

وَعَجَّلَتْ فَٱنْضَوَتْ غَطْفَانُ رَاضِخَةً إِلَيْهِمَـا وَأَجَابَتْ صَـوْتَ دَاعِيْهَـا

وَسَلَّمَتْ أَمْرَهَا فِي حَـرْبِهَا لِأَبِي سَفْيَانَ لِلنَّصْرِ قَدْ خَالَتْهُ مُمْشِيْهَا

وَسَـارَ رَاكِبُهَا نَحْـوَ ٱلْمَدِيْنَـةِ فِيْ غَـزْوِ ٱلشَّرِيْعَـةِ مَـرْدُوْفاً بِمَـاشِيْهَـا

وَقَدْ دَرَى أَحْمَدُ بِـٱلْأَمْرِ فَـٱتَّخَذَ ٱلْأَ م سْبَابَ كَيْ يُكْبِتَ ٱلْأَعْدَاءَ يُنْكِيْهَا

بِخَنْـدَقٍ قَـامَ بِسْمِ ٱللَّهِ يَحْفِـرُهُ حِيَـالَ طِيْبَـةَ مَنَّـاعٌ لِمَنْ فِيْهَـا

وَقَـدْ رَأَى حَفْـرَهُ سَلْمَـانُ قَـالَ وَإِ م نَّ ٱلْفُـرْسَ فِيْهِ عِدَاهَا ٱلْكُثْـرُ تَتَّقِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَـا ٱنْتَهَى مِنْ حَفْرِ خَنْدَقِ طَـهَ وَعَـسْكَـرُهُ أَمْسَى مُـعَبِّيْـهَـا

وَافَتْ قُرَيْشٌ بِأَحْزَابِ ٱلْأَعَارِبِ تَبْـــغِي مِنْ تَغَيُّـظِهَـا مِنْـهُ تَشَفِّيْـهَـا

وَكَـانَ فِيْهَـا عَلَى رَأْسِ ٱلْعِـدَاةِ أَبُـوْ سَفْيَـانَ نَارُ ٱلْـوَغَى وَٱلشَّـرِّ يُـوْرِيْهَا

فَهَالَهَا ٱلْخَنْـدَقُ ٱلْمَحْفُوْرُ إِذْ جَهِلَتْ أَمْثَـالَـهُ حُفَـراً صَعْبٌ تَخَـطِّيْهَـا

وَعِنْـدَهُ وَقَفَتْ تَـرْمِيْ ٱلنِّبَـالَ عَلَى جَمَـاعَـةِ ٱللَّهِ مَـا ظَلَّتْ تُـرَامِيْهَـا

وَبَعْـدَ مَا طَـالَ فِيْ ٱلنِّضَالِ مَوْقِفُهَا مِنْ غَيْرِ جَدْوَى وَكَادَ ٱلْمَكْثُ يُعْيِيْهَا

إِذَا بِفَـارِسِهَـا ٱلْمِغْـوَارُ نَـوْفَـلُ أَهْـــوَى لِلْحَفِيْـرَةِ لَمْ يَـرْهَبْ مَهَـاوِيْهَـا

وَٱلْهُلْكُ قَدْ كَانَ مِنْ حَظِّ ٱلْمَطِيَّةِ وَٱلـــتَّهْشِيْمُ مِنْ حَظِّ ذَا ٱلْمَغْرُوْرِ مَاطِيْهَا

= الحكم فيهم . وبعد الانصراف من الأحزاب انضمّ إلى صفوف المسلمين عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي فأصبحا مجاهدين في سبيل الإسلام بعد أن كانا من ألدّ أعدائه .

وأمّا سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق فهو رجل من فارس وقد وقع قبل الهجرة أسيراً في يد الخزرج فاستعبدوه وبعد الهجرة أسلم وحسن إسلامه إلاّ أنّه لم يتحرّر إلاّ بعد غزوة أُحُد وكانت أول مشاهده غزوة الخندق وكان هذا الصحابي نبيهاً ذكياً على معرفة وسداد رأي حتى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يستشيره ويسمع له .

وَقَابَلَتْ بِحَصَاهَا ٱلنَّاسُ نَوْفَلَ إِذْ   كَانَتْ عَلَى جِسْمِهِ ٱلْمَنْهُوْكِ تَرْمِيْهَا

وَإِذْ رَأَى نَوْفَلُ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُ   مِنَ ٱلْحَصَى لَا وَلَا يُرْجَى تَوَقِّيْهَا

نَادَى أَلَا مَوْتَةٌ يَا عُرْبُ أَحْسَنُ مِنْ   هَذِيْ ٱلَّتِيْ كُلُّ حُرٍّ كَانَ آبِيْهَا

فَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَوْلَانَا ٱلْعَلِيُّ لِيُوْ   لِيْ نَوْفَلًا بُغْيَةً قَدْ رَاحَ بَاغِيْهَا

وَٱنْقَضَّ فِيْ سَيْفِهِ هَلْ كَانَ صَاعِقَةً   مِنَ ٱلسَّمَاءِ قَدِ ٱنْقَضَّتْ لِرَائِيْهَا

وَقَدْ حَبَى نَوْفَلًا أَسْمَى مَقَاصِدِهِ   بِضَرْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمَاً يُثَنِّيْهَا

فَقَدَّ جُثْمَانَهُ قَدّاً وَعَادَ إِلَى   أَصْحَابِهِ مُطْمَئِنُّ ٱلنَّفْسِ هَانِيْهَا

وَٱلْمُشْرِكُوْنَ ٱسْتَشَاطَتْ مِنْ تَغَيُّظِهِمْ   نُفُوْسُهُمْ وَلَظَى ٱلْخُذْلَانِ كَاوِيْهَا

فَجَاءَ عَمْرُو ٱبْنُ وُدٍّ بَعْدَهُ طَلَبَاً   لِلثَّأْرِ مُسْتَعِرَ ٱلْأَحْشَاءِ دَامِيْهَا

وَكَانَ قَدْ نَاهَزَ ٱلتِّسْعِيْنَ وَهْوَ بِقُوَّ م ةِ ٱلشَّبَابِ ٱلَّتِيْ مَا مَنْ يُقَاوِيْهَا

أَعْيَا ٱلسِّنِيْنَ وَمَا أَعْيَتْ عَزِيْمَتَهُ   وَلَمْ يَزَلْ بِكُرُوْرِ ٱلدَّهْرِ يُعْيِيْهَا

وَكَانَ أَشْهَرَ مَنْ هَزَّ ٱلْمُهَنَّدَ فِيْ ٱلْـــ ـحَرْبِ ٱلْعَوَانِ إِذَا نَادَى مُنَادِيْهَا

وَكَانَ أَبْطَشَ بَطَّاشٍ إِذَا طَلَبَ ٱلْأَ م عْدَاءَ يَوْمَ ٱلْوَغَى بِٱلسَّيْفِ يُدْمِيْهَا

وَقَبْلُ عَنْتَرَةٌ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ   وَشِعْرُهُ فِيْهِ يُنْبِيْ كَانَ خَاشِيْهَا

وَكَانَ ذِكْرُ ٱسْمِهِ يَمْلَأ ٱلْعِدَى رَهَبَاً   إِنْ قِيْلَ عَمْرُو ٱبْنُ وِدٍّ فِيْ مَغَازِيْهَا

وَصَاحَ يَا صَحْبَ طَهَ وَيْلُ أُمِّكُمْ   مِنِّيْ صِيَاحَاً مَلَا تِلْكَ ٱلْأَتَاوِيْهَا

مَنْ مِنْكُمُ يَبْتَغِيْ مَثْوَى ٱلْجِنَانِ وَقَدْ   زَعَمْتُمُ أَنَّكُمْ تَثْوُونَ عَالِيْهَا

وَمَنْ يُبَارِزُنِيْ مِنْكُمْ فَأَبْعَثُهُ   إِلَى مَرَابِعِهَا ٱلزَّهْرَا لِيَثْوِيْهَا

مَا بَالُكُمْ قَدْ فَرِقْتُمْ مِنْ مُبَارَزَتِي   وَبُحَّ صَوْتِيْ لِفُرْسَانٍ أُنَادِيْهَا

وَرَاحَ يَرْجُزُ لَغْوَ ٱلْقَوْلِ مُدَّعِيَاً   بِنَفْسِهِ يَتَخَطَّى خَطْوَهُ تِيْهَا

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ حُماةِ ٱلدِّيْنِ مُجْتَرِيءُ عَلى مُـلاَقَـاةِ عَمْـرٍو رَاحَ وَاخِيْهَـا

إلاَّ ٱلْعَلِيُّ ٱلَّـذِيْ أَعْـدَاؤُهُ عَـرَفَت مِنْـهُ ٱلشَّجَاعَـةَ مُـذْ أَمْسَى يُـلاَقِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ فِيْ جُمُوْعِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ سِوَا هُ أَرْوَعَـاً دَعْـوَةُ ٱلـدَّاعِيْ يُـوَافِيْهَـا

فَقَـالَ لِلْمُصْـطَفَى : إِنِّيْ لَـهُ فَـأَبَـا هَا ٱلْمُصْطَفَى بَـرْزَةً مَا ٱلأَمْنُ تَـالِيْهَا

فَكَـرَّرَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِئْذَانَ صَاحِبِـهِ بِعَـزْمَـةٍ مَـا لِقَـاءُ ٱلْمَـوْتِ يُثْنِيْهَـا

وَكَـانَ هَـزْرُ ٱبْنِ وُدٍّ لِلْمَخَـاطِـرِ يَـدْ فَـعُ ٱلْعَلِيَّ فَلَمْ يَـرْهَبْ تَـوَخِّيْهَـا

وَقَـالَ : شُهْرَةُ عَمْـرٍو فِيْ شَجَـاعَتِـهِ لاَ تَـقْعُـدَنَّ بِـمُـثْـلِيْ عَنْ تَـلَقِّيْـهَـا

إِنِّيْ سَـأَكْفِيْكُـمُ تَهْـدِيْـدَهُ بِـشَبَـا سَيْفِيْ وَأَشْـلاَؤُهُ لِلطَّيْـرِ أُلْـقِيْـهَـا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُصْـطَفَى إِصْرَارَ حَيْـدَرَةٍ عَلى مُبَـارَزَةٍ مَـا ٱنْفَـكَّ يَنْـوِيْهَـا

وَمَـا سِوَاهُ عَلَيْهَـا قَـدْ تَجَـرَّأَ مِنْ أَصْحَـابِـهِ بَـلْ رَأَى مِنْهُمْ تَجَـافِيْهَـا

أَجَـازَهَـا لِعَلِيٍّ وَهْـوَ يَـسْـأَلُ أَنْ تَنَـالَ يُمْنَـاهُ عَفْـوَاً عَـوْنَ بَـارِيْهَـا

وَذُوْ ٱلْفِقَـارِ لَـهُ أَعْـطَى وَأَلْبَسَـهُ دِرْعَ ٱلْحَدِيْـدِ وَعَيْنُ ٱلْعُجْبِ يُثْنِيْهَا

وَبَـعْـدُ عَمَّـمَـهُ زَاهِيْ عَـمَـامَتِـهِ فَكَـانَ أَهْيَبَ مَـا يُلْقَى تَـزَيِّيْـهَـا

وَقَالَ : هٰذَا أَخِيْ هٰـذَا ٱبْنُ عَمِّيَ يَا رَبَّـاهُ نَصْـرَتُـكَ ٱلْعَلْيَـا أُرَجِّيْهَـا

فَـلاَ تَـذَرْ أَحْمَـدَاً فَـرْدَاً فَـإِنَّـكَ خَيْـــرُ ٱلْـوَارِثِيْنَ لِـذِيْ ٱلـدُّنْيَـا وَأَهْلِيْهَـا

أَمَّـا ٱلْعَلِيُّ فَقَـدْ وَافَى ٱبْنَ وُدَّ بِنَفْـــسٍ لاَ تَهَـابُ ٱلْمَنَايَـا أَوْ تُحَاشِيْهَـا

وَقَالَ : مَا كُنْتَ تُدْعَى لِلثَّلاَثِ كَمَـا عَـاهَـدْتَ إِلاَّ وَإِحْـدَاهَـا تُلَبِّيْهَـا

فَقَالَ عَمْرُو : أَجَلْ فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمَا نِيْـكَ ٱلثَّـلاَثَ فَـإِنِّيْ ٱلآنَ وَاعِيْهَـا

فَقَـالَ : وَحِّدْ وَآمِنْ بِـٱلرِّسَـالَـةِ أَسْـــلِمْ قَـالَ : دَعْ دَعْوَةً مَـا زِلْتُ آبِيْهَـا

فَقَـالَ : فَٱرْجِـعْ إِلَى مَغْنَاكَ مُنْتَظِرَاً نَصْـرَ ٱلـرِّسَـالَـةِ إِذْ يَهْنَـاكَ هَـانِيْهَـا

أَجَابَ : كَلاَّ فَلاَ أُبْقِي نِسَاءَ قُرَيْـــشٍ لاَحِيَاتٍ لِذِكْرِيْ فِيْ مَخَابِيْهَا
فَقَدْ نَذَرْتُ بِبَدْرٍ إِذْ هَرَبْتُ جَرِيْـــحاً أَنْ أَعُوْدَ إِلَى ٱلْهَيْجَا فَأَصْلِيْهَا
وَأَقْتُلَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ وَسْطِ مُلَّتِهِ وَنِذْرَتِي جِئْتُ هٰذَا ٱلْيَوْمَ أُوْفِيْهَا
فَقَالَ حَامِيْ حِمَى ٱلْإِسْلاَمِ وَيْلُكَ فَٱبْـــرُزْ لِيْ وَوَدِّعْ حَيَاةً جِئْتَ تُفْنِيْهَا
إِنِّيْ مُجِيْبُكَ لِلشَّرِّ ٱلَّذِيْ رَغِبْتْ فِيْهِ مَطَامِعُكَ ٱلْمَلْعُوْنُ نَاوِيْهَا
أَجَابَ عَمْرٌو : وَهَلْ تَبْغِيْ مُبَارَزَتِيْ وَلَيْسَ مِنْ عَاقِلٍ فِيْ ٱلْعُرْبِ يَبْغِيْهَا
نَادَى : نَعَمْ قَالَ أَقْصِرْ ذِيْ رُعُوْنَةُ غِـــرٍّ جَاهِلٍ مَا أَنَا تَٱللَّهِ رَاضِيْهَا
لاَ أَرْتَضِيْ لَكَ قَتْلاً مَنْ يَدِيْ فَدَعِ ٱلْـــغُرُوْرَ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْمُوْدِيْ تَشَهِّيْهَا
وَفِيَ عُمُوْمَتِكَ ٱلْأَقْوَى فَدَعْنِيَ أَلْـــقَى جَمْعَهَا مُفْرَداً حَتَّى أُلاَشِيْهَا
إِنِّيْ لَأَكْرَهُ أَنْ أَلْقَى مَثِيْلَكَ مِنْ فِتْيَانِ قَوْمِيْ وَإِنْ شَطَّتْ أَمَانِيْهَا
وَكَانَ فِيْ صِحْبَتِيْ قِدْماً أَبُوْكَ وَإِنِّـــيْ فِيْكَ صِحْبَتُهُ ٱلْغَرَّا أُرَاعِيْهَا
وَكَانَ يَضْحَكُ مِنْ إِقْدَامِ حَيْدَرَةٍ على ٱلْمَنِيَّةِ كَيْ يُلْقِيْهِ فِيْ فِيْهَا
وَكَانَ فِيْ عُجْبِهِ فَوْقَ ٱلْجَوَادِ يَرَى لِنَفْسِهِ عِزَّةً لاَ عِزَّ يَحْكِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى صَاحَ مِنْ بَعْدِ ٱلْجِدَالِ بِهِ : أَقْصِرْ حَدِيْثَكَ قَدْ حُمَّ ٱلْقَضَا إِيْهَا
أَنْزِلْ إِلَيَّ وَبَارِزْنِيْ وَكُنْ بَطَلاً وَٱلْقَ ٱلْحَقَائِقَ لاَ تَبْغِ ٱلتَّرَارِيْهَا
فَٱنْقَضَّ عَمْرٌو وَقَدْ أَرْدَى ٱلْجَوَادَ عَلى عَلِيِّنَا يَدُهُ بِٱلسَّيْفِ يُهْوِيْهَا
فَقَدَّ دِرْقَتَهُ ثُمَّ وَجُبْهَتُهُ قَدْ شَجَّ شَجّاً فَأَخْزَى ٱللَّهُ مُدْمِيْهَا
إِذْ ذَاكَ أَهْوَى عَلِيٌّ فَوْقَ هَامَتِهِ بِضَرْبَةٍ بَلَغَتْ مِنْهُ تَمَنِّيْهَا
فَكَبَّرَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلرَّاصِدُوْنَ لَهَا بُشْراً بِنَصْرَتِهِمْ شُكْراً لِجَانِيْهَا
وَهَلَّلَ ٱلْمُصْطَفَى تَهْلِيْلَ مُغْتَبِطٍ بِمِلَّةٍ أَهْلَكَ ٱلْبَارِيْ مُنَاوِيْهَا

وَقَابَلَ ٱلْمُرْتَضَى يَدْعُو وَيَحْمِدُهُ   وَقَدْ كَفَى أُمَّةَ ٱلْإِسْلَامِ طَاغِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا شَتَّتَ ٱلْأَحْزَابَ خَالِقُهَا   مِنْ بَعْدِ مَا أَظْهَرَتْ لُؤْماً تَعَادِيْهَا
فَقَدْ أَسَا بَعْضُهَا بِٱلْبَعْضِ ظَنَّتَهُ   إِسَاءَةً فَرَّقَتْ بَادِي تَجَمِّيْهَا
وَٱلرِّيحُ هَبَّتْ عَلَيْهَا وَهْيَ مُحْدِثَةٌ   زَوَابِعاً نَسَفَتْ نَسْفاً أَثَافِيْهَا
وَسَلَّمَ ٱللَّهُ أَنْصَارَ ٱلْحَنِيْفِيَةِ ٱلسَّمْحَاءِ مِنْ مِحْنَةٍ سَوْدَا تُقَاسِيْهَا

أمير المؤمنين في يوم الحديبية

كَانَ ٱلرَّسُوْلُ كَكُلِّ ٱلْعُرْبِ مُحْتَرِماً   فَرِيْضَةَ ٱلْحَجِّ بِٱلْإِحْرَامِ يَقْضِيْهَا[1]
وَكَانَ إِذْ كَانَ فِيْ أُمِّ ٱلْقِرَى أَبَداً   يَطُوفُ بِٱلْكَعْبَةِ ٱلْغَرَّاءِ تَجْرِيْهَا

---

(١) خرج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يريد الحجّ ومكة المكرّمة لا تزال في أيدي أعدائه وفي خروجه خطر عليه وعلى مصاحبيه من غدر ولؤم أولئك الأعداء وبالبداهة أن خروجه لم يكن إلّا لاهتمامه بقضاء هذه الفريضة المقدسة التي صارت فيما بعد من شروط الإسلام الخمسة إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » وهوذا نقصُّ عليك بداءة تاريخ الحج من أقدم أيام العرب وكيفية قضاء هذه الفريضة المقدسة فنقول :

كان العرب يحجّون إلى الكعبة كرّمها الله من قبل الإسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً وبالأحرى منذ بناها إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام . ويبعد العرب في تاريخ حجّهم فيقولون إنّ آدم عليه السلام حجّ إلى موضع الكعبة مستغفراً عن إثمه وحجّت إليه حواء زوجه مستغفرة عن إثمها وأنّهما تعارفا في عرفات في حديث يطول ليس هنا موضعه .

وكانت العرب يحجّون إلى الكعبة على اختلاف أديانهم بين موحدين على دين إبراهيم ووثنيين ومشركين وحتى من تهوّد منهم أو تنصر وكانوا يعتبرونها بيت إلّه العالمين فلم تختصّ بها فئة منهم دون الفيئات الأخرى . ورغماً عن شيوع الوثنية بين=

وَبَعْـدَ هِجْـرَتِـهِ لاَ شَيْءَ أَحْـزَنَـهُ   كَبُعْـدِهِ مَـعْ ذَوِيْـهِ عَنْ مَغَـانِيْهَـا

= العرب ما عبدوا الكعبة لنفسها كما أنّهم لم يعبدوا الحجر الأسود الذي فيها لنفسه بل كانوا يكرمون الكعبة على اعتبار أنّها بيت الله والحجر الأسود على اعتبار أنّ سيدنا إبراهيم الخليل وضعه في الكعبة للعهد على نفسه وولده بجعل هذا البيت العظيم مثابةً للناس وقد وضعه سيدنا إبراهيم في الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت الذي جعله مصلّى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركّع والساجدين إلى الأبد .

وما زال الحجّ عند عرب الجاهلية على ملّة إبراهيم واسماعيل واجباً ومشاعره محترمة حتى عظم شأن قريش بعد واقعة الفيل وقال الناس فيهم إنّهم أهل الله وهو يدافع عنهم إذ ذاك تعالوا على العرب وقالوا : نحن ولاة البيت وسدنته وليس لأحد من الناس مثل منزلتنا واتّفقوا على أن لا يعظّموا شيئاً من الحلّ فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها وأفاضوا من جمع « المزدلفة » وقالوا لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحرم إذا جاءوا حجاجاً وأوجبوا أن لا يطوفوا بالبيت إلاّ في ثياب الحمس « أي المتحمسين في دينهم » فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراةً ، فدانت العرب بذلك وقد كان السعي بين الصفا والمروة من لوازم الحجّ في الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمّى « أساف » وآخر على المروة يسمى « نائلة » وكانوا ينحرون عندهما هديهم . فلما جاء الإسلام امتنع المسلمون عن السعي كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيتهم فنزل قوله تعالى : ﴿ **إنّ الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ وحينئذٍ عاد المسلمون إلى السعي بينهما .

أمّا طريقة الحجّ التي يجري عليها المسلمون فهي أنّهم عندما يصلون إلى ميقات الإحرام يحرمون بنية الحج أي أنّ الرجل منهم يتجرّد من مخيط الثياب ويلبس إزاراً أبيض معه رداء ونعلان إذا تيسر له ذلك والمرأة تلبس ملابسها وتكشف يديها ووجهها إن لم تخش الفتنة . ويقول الحاج أو الحاجة في حالة الإحرام « اللّهمَّ إنّي نويت الإحرام لحجّ بيتك الحرام فيسّره لي وتقبّله منّي » ومنهم من ينوي نية العمرة وهي كالحج ولكن ليس لها مدة معينة وأركانها إحرام ، وطواف وسعي ، ومن الحجّاج من ينوي الحجّ والعمرة معاً ، ويُسنُّ على الحاج المحرم أو المعتمر حلق ما شعث تحت البطن وتقليم الأظفار وتسريح الشعر والغسل وصلاة ركعتين يبدأ الإحرام بهما .

ويحرم الحاج منذ وصوله إلى حدّ حرم مكة وهذا الحرم يحتاطها من جميع =

= جوانبها ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التي هي الكعبة المشرّفة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ خمسة عشر كيلومتراً أمّا من جهة الغرب فلا تتجاوز الخمس كيلومترات . وعلى حدّ الحرم من الجنوب مكان يسمّونه « أضاه » . ومن الغرب يميل قليل إلى الشمال قرية « الحديبية » التي نحن بصددها كما ترى في المتن . ومن الشرق على طريق الطائف مكان يسمى « الجوّانة » . وفي هذا الحرام يتناول الأمان الإنسان والحيوان حتى النبات فكل من دخله فهو آمن وكل من فيه من هذه العوالم الثلاث فهو آمن .

ثمّ إنّ الحاج يبدأ حجّته بقوله « لبيك اللّهمَّ لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إنّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » وعليه أن يكرر هذه التلبية من وقت إلى آخر حتى إذا ما دخل مكة المكرّمة يقول : « اللهم إنّ هذا الحرم حرمك ، والأمن أمنك ، والعبد عبدك . اللهمّ إنّي جئتك من بلاد بعيدة ، بذنوب كثيرة ، راجياً أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك ، وأن تحرّم جسدي على النار ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . فإذا انتهى إلى الحرم يدخل من باب السلام وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهمّ أنت السلام ومنك السلام ، فحيينا بالسلام ، وادخلنا الجنة دار السلام ، بفضلك ياذا الجلال والإكرام » ثم يسير نحو الكعبة من جهة الشرق وهو يقول : « اللهمّ إنّ هذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك ، اللّهمَّ حرّم جسمي على النار » وعندما يقع بصره على الكعبة المعظمة يقول : بسم الله والله أكبر (ثلاثاً) لا إلّه إلّا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ويدخل بعد ذلك من باب شيبة وهو يقول : « ربِّ أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحقّ ، وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً . وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً » ثمَّ يتّجه نحو الحجر الأسود فيستقبله ويقول : « بسم الله ، الله أكبر ، ولله الحمد ، اللهمَّ اغفر لي ذنبي ، وطهّر لي قلبي ، واشرح لي صدري ، وعافني برحمتك فيهن تعافي » ثمَّ يستلم الحجر بيمينه ويقبّله (إذا استطاع إليه وصولاً أو يكتفي أن يفعل إشارة التقبيل) وينوي الطواف ويقول : « اللهمَّ إنّي نويت طواف بيتك المعظّم سبعة أشواط لوجهك الكريم . =

وَطَالَمَا ٱشْتَاقَهَا شَوْقَ ٱلْمُحِبِّ إِلَى حَبِيْبِهِ وَشَكَا قَاسِيْ تَنَائِيْهَا

= اللهمَّ يسرها لي . وتقبّلها مني » ثمَّ ينطلق بعد ذلك بطوافه وهو يقول : « اللهمَّ ، إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاءً بعهدك ، واتّباعاً لسنّة نبيّك محمد ﷺ ، أشهد أن لا إلّه إلّا الله ، وحده لا شريك له . وأنَّ محمداً عبده ورسوله . اللّهمَّ إنّ هذا البيت بيتك . والحرم حرمك . والأمن أمنك . وهذا مقام العائذ بك من النار . فأعذني منها يا عزيز يا غفّار . اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الكفر . والفقر . وضيق الصدر . وعذاب القبر . ومن فتنة المحيا والممات . اللهمَّ : إنّي أسألك العفو . والعافية . والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة . اللهمَّ . أظلّني تحت عرشك . يوم لا ظلّ إلّا ظلّك . واسقني بكأس نبيّك محمد ﷺ . شربةً هنيةً مريئةً لا أظمأ بعدها أبداً . اللهمَّ اجعله حجّاً مبروراً . وسعياً مشكوراً . وذنباً مغفوراً . وتجارةً لن تبور . اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الشكّ . والشرك . والنفاق . وسوء الأخلاق . وسوء المنقلب . وسوء المنظر في المال والأهل والولد . اللهمَّ إنّي عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة . اللهمَّ ما كان لك منها فاغفره لي وما كان منها لعبادك فاحمله عني » يتلو الحاجّ هذه الدعوات من أعماق نفسه في طريق طوافه حتى إذا ما أخذ يدنو من الحجر الأسود يقول : « ربّنا آتنا في الدنيا حسنة . وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار » فإذا حاذى الحجر الأسود يقول (وهو يستلم الحجر أو يسلّم عليه بيمينه إذا تعذّر الاستلام) « بسم الله . الله أكبر » ثم يدعو الله بما يشاء من الأدعية السابقة أو ما يحضره من غيرها .

وبعد الطواف سبعة أشواط يتوجه الحاج خلف مقام إبراهيم ويصلّي ركعتين وهي سنة الطواف ويقول : « اللهمَّ إنّك دعوت عبادك إلى بيتك الحرام ، وقد جئت طائعاً لأمرك ، فاغفر لي وارحمني اللهمَّ ، اغفر لي ، ولوالديَّ ، وارحمهما كما ربياني صغيراً . اللهم ، اغفر لي ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات » ثم يقصد الحاج بعد ذلك (الملتزم) وهو يقول : « اللهمَّ ، يا ربَّ البيت العتيق ، اعتق رقابنا ، ورقاب آبائنا ، وأمهاتنا ، وإخواننا ، وأولادنا ، من النار . اللهمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة . اللهمَّ ، إنّي عبدك ، وابن عبدك ، وأقف تحت بابك ، ملتزم لأعتابك ، متذلّل بين يديك ، أرجو رحمتك ، وأخشى عذابك . اللهم اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واغفر لي ذنبي » ثمَّ يذهب الحاجّ إلى بئر زمزم فيشرب منها هنيئاً مريئاً ثمَّ يتوجّه إلى المسعى فإذا خرج من =

حَتَّى إِذَا مَا ٱلنَّوَى قَدْ طَالَ سَارَ إِلَيْـــهَا زَائِراً لَمْ يَهَبْ عُـدْوَى أَهَـالِيْهَـا

=باب الصفا يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ثمّ يصعد على درجات الصفا ويتوجه إلى الكعبة وعندما يقع نظره عليها يقول : « بسم الله ، الله أكبر ، ولله الحمد » ثمّ يسعى إلى المروة قائلاً : « لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له، له الملك . وله الحمد ، يحيي ويميت . وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلاّ الله ، ولا نعبد إلاّ إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهمَّ ، إنّي أعوذ بك من عضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وشماتة الأعداء وزوال النعمة ، ونزول النقمة » ثمّ يهرول الحاجّ بين الميلين الأخضرين وهما عمودان مبنيان في جدران الحرم أحدهما بجوار باب القبلة والثاني بجوار باب علي والمسافة بينهما سبعون متراً ويقول « ربّ اغفر ، وارحم ، وتجاوز عمّا تعلم ، إنّك أنت الأعزّ الأكرم ، ربّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة . وقِنا عذاب النار ، يا عزيز يا غفّار ، يا أرحم الراحمين » ثمّ يدعو الحاج بما يشاء ويُعدُّ هذا شوطاً من السعي ويجب أن يكرّره سبعاً .

أمّا المسعى هذا فهو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو ٤٢٠ متراً وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين بما يجعله مزدحماً دائماً بالناس ولا سيما في موسم الحجّ .

وبعد أن يسعى الحاج سبع أشواط يحلق أو يقصر ويتحلل (أي يفك إحرامه) إذا كان محرماً للعمرة فقط ويظل متحللاً إلى يوم التروية وهو اليوم السابق ليوم عرفة حيث يحرم للحج أمّا إذا كان محرماً للحجّ أو للحج والعمرة معاً فيظلّ محرماً لبعد عرفة بغير تحلل .

ثمّ أنّ الحاج يتوجه إلى عرفة وله أن يبيت في منى إذا أراد ويقضي في عرفة اليوم التاسع من ذي الحجة وجزءاً من ليلة عاشرة في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي وآله والإكثار من تلاوة سورة الإخلاص ومن قوله « لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » ثم عليه أن يكثر من الدعاء والتضرّع إلى الله بقبول حجّه ، وغفران ذنبه ، وعلى الخصوص بعد العصر . ويسنّ الجمع (أي العصر مع الظهر) مع الإمام بعرفة . فإذا أفاض الإمام أو نائبه من عرفة فينفر معه إلى المزدلفة . =

= واعلم أنّ أهل السنة يكفي عندهم الوقوف بعرفة ولو لحظة واحدة من يوم تاسع ذي الحجة وليلة عاشره ولو فاته الوقوف فاته الحج من عامه فيتحلل بعمرة وعليه قضاء الحج في العام القابل ، ولو كان حجّه نفلاً . وأمّا أهل الشيعة فلو فات الحاج منهم الوقوف بعرفة يوم تسعة ذي الحجة وليلة عاشره فإنّه لا يتحلل حتى يقضي حجّه في عام قابل لذلك يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليومين التاسع والعاشر من ذي الحجة ولا ينزلون من عرفة إلّا بعد قليل من ليل الحادي عشر منه .

وبعد أن ينفر الحاج إلى مزدلفة يجمع فيها حصى الجمار وعددها ٤٩ حصوة ثم يسير إلى منى وهناك يرمي جمرة العقبة بسبع حصوات وهو يقول « بسم الله ، الله أكبر ، رجماً للشيطان وحزبه ، اللهمَّ ، تصديقاً بكتابك ، واتّباعاً لسنّة نبيّك وخليلك عليهما الصلاة والسلام » ثمَّ يذبح إن كان عليه هدي . ثمَّ يحلق أو يقصر وهو يقول « الحمد لله الذي قضى عني نسكي ؛ اللهمّ زدني إيماناً ويقيناً » وبعد هذا يحلُّ للحاج كل ما حرّم عليه في الإحرام إلّا النساء والطيب . وفي اليوم الثاني يرمي الحاج جمرة العقبة بعد الزوال . ثم يرمي الجمرة الثانية فالثالثة بسبع حصوات في كل جمرة . ويفعل مثل هذا في اليوم الثالث . وبعد ذلك ينزل إلى مكة كرّمها الله ويطوف طواف الإفاضة ويسعى (إذا كان عليه سعي) ويكون يومه هذا الثالث عشر من ذي الحجّة وحينئذٍ يتحلل من إحرامه ويحلّ له النساء والطيب فكل ما حرّم عليه في الحج .

أمّا محرّمات الإحرام فهي : لبس المخيط وتغطية الرأس أو إزالة شعره بنتف أو حلق ، فإذا فعل شيئاً من ذلك تعمداً أو سهواً فعليه الفدية بذبح شاة إلّا إذا كان ما أزيل من شعر الرأس لا يتجاوز الاثنتي عشر شعرة فعليه أن يتصدق بحفنة برّ . ويحرّم عليه أيضاً تقليم أظافره ، وعليه الفدية إن فعل إلّا إذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدّق بمدّ أو مدين من البر . ويحرم عليه الطيب في بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو في دهان ويجب عليه الفدية لو فعل . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به فدية دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج .

وإذا فات الحاج شيء من أركان الحجّ أو العمرة أو شروطهما سهواً أو عمداً بطل =

فَسَارَ مِنْ طِيْبَةٍ بِٱلصَّحْبِ مُعْتَمِراً لِمَكَّةٍ وَفُرُوْضُ ٱلْحَجِّ نَاوِيْهَا
وَلَمْ يَزَلْ طَاوِياً مَعْهَا ٱلْقِفَارَ إِلَى إِنْ أَقْبَلَتْ وَأَنَاخَتْ فِيْ ضَوَاحِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ رَاغِباً بِٱلْحَرْبِ وَهْوَ بِأَشْهُرِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّتِيْ قَدْ حُرِّمَتْ فِيْهَا
وَفِيْ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْحَدْبَا ٱسْتَقَرَّ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّأْيَ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِيْهَا(١)

=حجّه وعمرته وإن فاته شيء من الواجبات وجب عليه فدية دم لكل واجب تركه ، وذلك بأن يذبح شاة في الحرم فإن عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت إحرامه إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده . هذا إذا ترك شيئاً من واجباته قبل يوم الوقفة في عرفات أمّا إن تركه بعد الوقفة فعليه أن يصوم الأيام العشرة بعد عودته إلى وطنه . وإن فاته شيء من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق فقط .

(١) بعد ارفضاض أمر الأحزاب استقرّ رسول الله بالمسلمين في المدينة المنورة إلى جمادى الأولى « سنة ٦ هـ » حيث سار ﷺ على بني لحيان يطالبهم بأصحاب الرجيع ولما بلغ « غُران » وهو واد بين أمج وعسفان وكان بنو لحيان نازلين فيه وجدهم قد عرفوا نبأه وهربوا من وجهه معتصمين برؤوس الجبال فتركهم وعاد إلى المدينة .

ولم تستقرّ المدينة برسول الله وأصحابه بضع ليال حتى انتهى إليه ﷺ إنّ عيينة بن حصن أغار في خيل من غطفان على لقاح له في الغابة فأرسل سريّة مستعجلة بقيادة سعد بن زيد في طلب غطفان ثمَّ تبعها بخيله ورجله واستنقذ بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد حيث جرت مناوشة مع غطفان يوماً وليلةً ثمَّ عادوا قافلين إلى المدينة .

وبقي رسول الله في المدينة إلى شعبان (سنة ٦ هـ » حيث خرج يريد بني المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنّهم يتحفزون لحربه بزعامة الحارث بن ضرار فلقيهم على ماء لهم يسمى « المريبع » من ناحية قُدَيد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانكسرت خزاعة وفاز المسلمون بأموالهم وأسروا أبناءهم ونساءهم وفيهم جويرية بنت الحارث المشار إليه فتزوجها رسول الله وقسم السبايا على المسلمين وعاد إلى المدينة .

وبعد أن لبث رسول الله في المدينة إلى ذي القعدة « سنة ٦ هـ » خرج بالناس =

وَهُمْ لَقَدْ فَرِقُوْا مِنْ فَجْيءِ حَجَّتِهِ   وَمَا دَرَوْا أَنَّ حُبَّ ٱللَّهِ دَاعِيْهَا

=يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهَدي وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم وحرم ﷺ بالعمرة ليأمن الناس من حربه ونزل في موضع يسمى الحُدَيبية . ولما بلغ قريشاً مسيره ﷺ حسبته غازياً محارباً وتأهبت للذود عن مكة كرّمها الله وأرسلت له بديلاً بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه إلى الحديبية يسأله عن مقدمه فقال لهم إني قدمت حاجّاً ولست محارباً فرجعوا إلى قريش بذلك فأبت أن تصدق القول وقالت وإن صحّ أنّ المسلمين قادمون للحج فإنّهم لا يدخلون مكة أبداً وبعثت إلى المصطفى رسولاً آخر يسأله عن مقدمه فأجابه بما أجاب بديلاً فلما عاد إلى قريش بجوابه لم تطمئن نفوسهم وبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه المصطفى عن بعد قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلى قريش ينبئهم بأنّ المسلمين قادمون للحج فجبهوه قائلين إنّك أعرابي لا علم لك بالسياسة فغضب الحليس وقال أعلى هذا حالفناكم ؟؟ أيصدّ عن البيت من جاءَ معظماً له ؟؟ وتهددهم بالانتقاض عليهم إن منعوا المسلمين عن الحج فطيبت قريش خاطره وأرسلت للمصطفى عروة بن مسعود الثقفي وأمّه سبيعة فقصداه وكلمه مسعود فقال أجئت قومك بأوشاب الناس لتذلّهم ؟ فإنّ قريشاً قد عاهدت الله أن لا تدخل مكة عنوةً أبداً فتلطف به رسول الله وأكد له أنّه لم يأت مكّة إلّا لقضاء فريضة الحج فعاد الرجل بأمّه إلى قريش يخبرهم بما سمع .

وبعد انصراف عروة استدعى المصطفى عمر بن الخطاب وأمره أن يسير إلى قريش ويخبرهم بما قدم لأجله فأجابه عمر أنّه يخاف قريشاً على نفسه وليس في مكة من بني عدي من يمنعه منهم وقال ولكن أرسل عثمان بن عفان فهو من أميّة وهي الآمرة في مكة اليوم فأرسل المصطفى عثمان بهذه المهمة فلما بلغ مكة لقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية وأجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله فغضبت قريش لجوابه واحتبسته عندها وبلغ المسلمين أنّ عثمان قد قتل فلما انتهى الخبر إلى رسول الله قال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه إلى المبايعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة على أن لا يفروا ولكن سرعان ما بلغه بطلان الإشاعة وأنّ عثمان لا يزال سليماً وذلك بوصول رسول قريش إليه وهو سهيل بن عمرو العامري . =

= قدم سهيل على رسول الله وأنبأه إصرار قريش على منعه من دخول مكة بأصحابه واتّفق معه على أن يعود أدراجه على شروط هذه خلاصتها : أولاً أن يرجع المسلمون أدراجهم فلا يدخلون مكة في عامهم ولكن يصح لهم أن يقدموا إليها في الحجة التالية أو بعدها على شريطة أن تكون سيوف فرسانهم في القرب . وثانياً أن لا تحدث حرب بين المسلمين وقريش إلى عشر سنين . وثالثاً أنّ من يأتي محمداً ﷺ من قريش من غير إذن وليّه يردّه عليهم ومن يجيء قريشاً من أصحاب محمد لا يردّونه ورابعاً تطلق الحرية للناس في الدخول في عقد محمد أو عقد قريش .

ومما يذكر في هذا العقد أنّ رسول الله استدعى علياً عليهما الصلاة والسلام وطفق يمليه عليه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فاعترضه سهيل بن عمرو قائلاً لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللّهمّ فقال رسول الله لعلي : اكتب باسمك اللهم فكتب فقال النبي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فكتب علي ذلك بينما سهيل صاح معترضاً : لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدّك عن البيت ولكن اكتب باسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله فقال رسول الله لعلي وهو يبتسم : امح يا علي كلمة رسول الله فقال علي : ما أنا بالذي يمحوها فقال رسول الله : أرني القرطاس فقدمه له فمحا بيده الشريفة كلمة رسول الله وقال : اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . وقال بعد ذلك : أنا والله رسول الله وإن كذبتموني ثمّ مال إلى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وقال : لك مثلها تعطيها وأنت مقهور وكانت قولته تلك نبوّة لما جرى بعد ذلك لأمير المؤمنين مع عمرو بن العاص في موقعة صفين على ما سيجيء . وبعد نهاية كتابة العقد وإمضائه سار سهيل إلى مكة وتحفز المصطفى للعودة إلى المدينة .

وغضب المسلمون لخيبتهم من قضاء الحج وكان أشدهم غضباً عمر بن الخطاب فعارض المصطفى بصلحه فجبهه قائلاً « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيمني » ثمّ أنّ المسلمين تحللوا من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرؤوس . وكان هذا الصلح في ظاهره نصر للمشركين ولكنه في الحقيقة كان نصراً للمسلمين لأنّهم بواسطته أمنوا جانب قريش وانصرفوا إلى إذاعة الدعوة ومكاتبة الملوك ورؤوساء العشائر وكانت رسل محمد إليهم تغدو وتروح وهي آمنة . =

بِمَنْ لَـهُ بَعَثَتْ مِنْ رُسْلِهَـا فَـأَتَتْـــهُ وَٱنْشَقَتْ وَهْيَ لاَ تُلْقِيـهِ مُؤْذِيْهَـا

وَبَعْـدَ طُـوْلِ جِـدَالٍ قَـامَ قَـائِمُـهُ قَـدْ أَعْلَنَتْ عَلَنَـاً رَاضِي تَصَـافِيْهَـا

بِجَلْسَـةٍ هَـادَنَ ٱلْهَـادِيْ سُهَيْـلَ فَتَى قُـرَيْشَ فِيْهَـا وَأَرْضَى مُسْتَنَـابِيْهَـا

بِـأَنْ يَعُـوْدَ بِـلاَ حَجٍّ لِطِيبَةَ عَـوْ دَةً تُـزِيْـلُ شُكُـوْكَ ٱلْقَـوْمِ تُقْصِيْهَـا

وَإِنْ بَغَى حَجَّـةً فِيْ مُقْبِـلٍ فَلَهُ ثَـلاَثُ فِي مَكَّـةٍ بِـٱلنّسْـكِ يَقْضِيْهَـا

وَأَنْ تَجِيْءَ جُمُـوْعُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَلاَ سِـلاَحَ مَعْهَـا وَلاَ حَـجٌّ لِشَـاكِيْهَـا

وَأَنْ يَسُوْدَ رِبَى ٱلْعُرْبِ ٱلسَّلاَمُ حُؤُوْ لاً عَشْـرَةً حَيْثُ لاَ حَـرْبٌ تُؤَاذِيْهَـا

وَإِنْ أَتَى أَحْمَـدَاً مِنْ غَيْـرِ إِذْنِ وَلِيِّـــهِ فَتَى مِـنْ قُـرَيْشٍ أَوْ مَـوَالِيْـهَـا

أَعَـادَهُ وَقُـرَيْشٌ لاَ تَـرُدُّ لأَحْـــمَـدٍ فَتَىً مِنْ بَنِي ٱلإِسْلاَمِ يَـأْتِيْهَـا

وَأَنْ يُبَـاحَ لِكُلِّ ٱلْعُـرْبِ عِقْـدُ قُـرَيْـــشٍ أَوْ مُحَمَّـدَ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا

وَكَـانَ يَكْتُبُ هَـاتِيْـكَ ٱلشُّـرُوْطَ عَلِـــيٌّ وَٱلـرَّسُوْلُ ٱلْمُفَـدَّى كَانَ يُمْلِيْهَـا

فَقَـالَ : بَسْمِـلْ فَلَمْ يَقْبَـلْ بِبَسْمَلَةٍ سُهَيْـلُ إِذْ قَـالَ : لاَ أَدْرِيْ مَعَـانِيْهَـا

قَـالَ ٱلرَّسُـوْلُ : بِبِسْمِ ٱللَّهِ تَبْدَأُهَـا فَقَطْ فَـإِنَّ قُـرَيْشَـاً ذَاكَ يُـرْضِيْهَـا

وَٱكْتُبْ : فَذَا مِنْ رَسُوْلِ ٱللَّهِ أَحْمَدَ مَا عَلَيْـهِ صَـالَحَهَـا صُلْحَـاً يُؤَاتِيْهَـا

نَـادَى سُهَيْلٌ : لَـوَ ٱنّي لِلرِّسَالَـةِ قَدْ عَـرَفْتُ مَا كُنْتُ مَـعْ قَوْمِيْ أُنَـاوِيْهَـا

قَالَ ٱلرَّسُوْلُ: إِذَنْ تَمْحُوْ ٱلرِّسَالَـةَ يَا عَلِيُّ قَـالَ: مُحَـالٌ لَسْتُ مَـاحِيْهَـا

إِنّـي أُؤَيِّـدُهَـا حَتَّـى أَرَى عَـلَنَـاً كُـلَّ ٱلْبَرِيَّـةِ قَـدْ دَانَتْ لِهَـادِيْهَـا

فَقَـالَ أَحْمَدُ: نَـاوِلْنِيْ ٱلْـوَثِيْقَـةَ كَيْ أَمْحُـوْ فَـإِنّي ذِيْ ٱلـدُّنْيَا أُمَـاشِيْهَـا

وَمِثْلُهَـا سَتُـلاَقِيْ وَقْعَـةً عَبَسَتْ لَهَـا ٱلْـوُجُـوْهُ فَـلاَ تَـأْبَى تَـرَضِّيْهَـا

وَغِيْـرَةُ ٱلْمُـرْتَضَى لاَحَتْ بِمَـوْقِفِـهِ أَسْنَى مِنَ ٱلشَّمْسِ فِيْ أَبْهَى مَجَالِيْهَا

أَمَّـا ٱلرَّسُـوْلُ فَنَادَى ٱلنَّـاسَ قَالَ أَنَـا رَسُوْلُ رَبِّي لِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَهْـدِيْهَا
إِنْ كَـذَّبَتْنِي قُـرَيْشٌ فَـٱلْجَهَـالَـةُ عَنْ تَصْـدِيْقِ دَعْـوَتِيْ ٱلْغَـرَّاءِ تُثْنِيْهَـا
وَهٰكَـذَا كُتِبَتْ تِلْكَ ٱلشُّـرُوْطُ وَأَمْـــضَـاهَا سُهَيْـلُ وَطَـهَ آضَ مُمْضِيْهَـا
وَعَـادَ أَصْحَـابُ طَـهَ لِلْمَـدِيْنَـةِ فِيْ عَهْـدٍ لِنَشْـرِ ٱلْهُـدَى جَهْـرَاً يُهَيِّيْهَـا

أمير المؤمنين في غزوة خيبر

دَعَـا ٱلـرَّسُـوْلُ فَلَبَّى ٱلْمُؤْمِنُـوْنَ إِلَى تَـأْدِيْبِ خَيْبَرَ عَنْ مَـاضِي تَعَدِّيْهَـا(١)
إِذْ مَـالأَتْ خِفْيَـةً أَعْـدَاءَ أَحْمَـدَ مِنْ يَهُـوْدِ قِنْقَـاعَ ثُمَّ مِنْ نَضِيْـرِيْهَـا

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ فإنّ المسلمين ساءَهم صلح الحديبية على ما في ظاهره من الحطّ من قدرهم لصدّهم عن قضاء فريضة الحجّ وهم قادمون إلى مكة معتمرين ومن الغبن في شروط الهدنة التي كتبت بينهم وبين المشركين لالتزام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يعيد لهم من يأتيه من قريش بغير إذن وليّه خلافاً لقريش التي لا تسلّم من يأتيها من المسلمين هارباً من عدل رسول الله . إلّا أنّ نتيجة هذه المعاهدة كانت في مصلحة الإسلام والمسلمين معاً لأنّها كما سبقت الإشارة تركت رسل رسول الله في أمن فصارت تغدو وتروح بكتبه صلى الله عليه وآله وسلم حيث تريد ولا من يعترض لها . وكان من نتائجها أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما عاد بالمسلمين إلى المدينة المنورة وهو مرتاح البال من عداء قريش انصرف همّه إلى مناجزة عدوّ يقرب المدينة طالما أظهر العداء للمسلمين وأثبت بأقواله وأفعاله أنّه ينتظر أن تدور الدائرة عليهم ليكون أول محاربهم وذلك العدو هو أهل خيبر وهم من اليهود .

وخيبر هذه هي مدينة بنيت باسم رجل من العماليق وقيل إنّ باني المدينة هو أخو يثرب المسمى خيبر أحد أولاد نوح وهذه المدينة تبعد عن المدينة المنورة نحواً من ٩٢ ميلاً وكانت لذلك العهد وافرة العمران فيها مزارع ونخل وكان أهلها من اليهود ولغتهم العربية وسرّ نقمتهم على المسلمين هو انتصارهم لإخوانهم بني النضير الذين كان من أمرهم ما كان . ولذلك لم يستقر المقام برسول الله في طيبة حتى أخذ يتهيأ إلى غزوة=

وَقَـالَ : غَـزْوَتُنَـا لِلَّهِ وَجْهَتُهَـا   لاَ لِلْغَنَـائِمِ فَلْيَرْجِـعْ مُـرَجِّيْهَـا

= خيبر واستنفر لهذه الغزوة من صحبوه إلى الحديبية من المهاجرين والأنصار فنفروا معه . وجاءه صلى الله عليه وآله وسلم المتخلفون يريدون الخروج معه رجاء الغنيمة فجبههم مؤدباً فقال : « لا تخرجوا معي إلّا راغبين في الجهاد فأمّا الغنيمة فلا » وأمر منادياً ينادي بذلك . وكان خروجه صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الغزوة في ٢٠ محرم سنة ٧هـ .

وعندما وصل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى ضواحي خيبر ضرب عليها الحصار فامتنعت فصبر عليها ثم أقرّ على فتحها فأعطى اللواء إلى أبي بكر وبعثه بالمسلمين لاختراق الأسوار فسار أبو بكر بالمسلمين وما زالوا يقاتلون بياض يومهم فجهدوا ولم يكن فتح وعادوا في المساء إلى المعسكر . وفي صباح اليوم الثاني أرسل المصطفى المسلمين بقيادة عمر بن الخطاب لاختراق أسوار خيبر فساروا وقاتلوا بياض نهارهم ولم يكن فتح وعادوا في المساء أدراجهم إلى المصطفى . وفي اليوم الثالث استدعى المصطفى الحباب بن المنذر وهو من أبطال الأنصار وأعطاه رايته وأرسله بالمسلمين لاختراق هاتيك الأسوار فلم يكن حظه أفضل من حظ أبي بكر وعمر فعاد في المساء مع المسلمين وهم مجهودون ولم يكن فتح . وفي اليوم الرابع دعا المصطفى إليه سعد بن عبادة وهو من شجعان الأنصار وأعطاه رايته وأرسله في هاتيك المهمة مع المسلمين فساروا وحاربوا مستيئسين وعادوا في المساء أدراجهم على غير نتيجةٍ . فلما رأى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ أسوار خيبر قد امتنعت على المسلمين ولم تفد فيها شجاعة أبو بكر وعمر والحباب وسعد وهم أكبر قوادّه ذكر بطل الإسلام الأكبر ذكرى يحقُّ له عليه صلوات الله أن يتمثل عندها بقول الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لأدفعنَّ الراية إلى رجل يحبُّ الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، كرَّار غير فرَّار » ولا تخال المسلمين جهلوا في مسائهم ذلك الرجل الذي عناه المصطفى .

وفي صباح اليوم الخامس صلّى رسول الله بالمسلمين صلاة الفجر ثمَّ سأل عن عليّ عليهما الصلاة والسلام فقيل له أنّه يشتكي عينيه فقال : ومن يأتني به ؟؟ ولم يكد يلقي هذا السؤال حتى أسرع سلمة بن الأكوع إلى خيمة علي فوجده عليه السلام منطرحاً على =

وَخَيْبَرُ ذَاتُ يُسْرٍ وَٱلرِّيَاضُ حَـوَا لَيْهَـا وَأَشْجَـارُهَـا تَمْـلَا ضَـوَاحِيْهَـا

= فراشه عاصباً عينيه فأبلغه رغبة المصطفى فقال : « اللّهمّ لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت » ونهض من فراشه وقال « قدني إليه » فأخذ سلمة بيده وسار به إلى المعسكر فلما دخل على المصطفى ﷺ أنبأه بما كان من امتناع أسوار خيبر على أكابر قوّاده وقال : ليس لها إلّاك يا أبا الحسن فقال علي : « ولكني أرمد يا رسول الله فلا أكاد أبصر موضع قدمي » فمدَّ المصطفى يديه الكريمتين وجذب بهما رأس عليّ ووضعه في حجره الشريف وكشف عصابة عينيه تفل بهما من بصاقه الشريف ودلكهما فبرئتا بإذن الله حتى كأن لم يكن فيهما رمد ولا ألم وقال علي إنّه لم يشك بعد ذلك بعينيه طوال حياته .

وبعد أن شفيت عينا أمير المؤمنين عقد له المصطفى لواءه الأبيض وقال له : « امش ولا تلتفت » فسار عليّ يتبعه المسلمون مهلّلين مكبّرين حتى إذا ما خطا بهم بضع خطوات وقف من غير أن يلتفت إلى ورائه وصرخ بأعلى صوته : « يا رسول الله علامَ أقاتل الناس ؟؟ » فأجابه المصطفى « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد منعوا منك دماءهم ، وأموالهم ، إلّا بحقّها ، وحسابهم على الله تعالى العالم بما تخفي سرائرهم ، أخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم ، تتصدّق بها في سبيل الله ، يا علي : والذي نفسي بيده ، إنّ معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عليه السلام عن يمينك ، بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنّة ، يا علي : إنّك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » نقول : بهذه الكلمات الطيبة ودّع المصطفى عليّاً عليهما الصلاة والسلام .

سار الأسد الغالب علي بن أبي طالب لمهمة عجز عنها أبو بكر وعمر والحباب وسعد حتى داخل الناس اليأس من النجاح فانكسرت قلوبهم أو كادت . حتى إذا ما بلغ بجيشه أسوار خيبر ركّز رايته تحت الحصن وأخذ يعُدُّ جيشه للهجوم فأطلّ عليه بعض حماة الحصن وناداه أحدهم بصوت جهوري فقال : من أنت ؟ قال : أنا من تعلم عليّ بن أبي طالب . صاح المنادي : علوتم وحقّ ما أنزل على موسى . ولم يكد الصائح يتمّ كلامه إلّا ونزلت طائفة من شجعان الخيبريين فصمد لها المسلمون واشتبك القتال فما زال أمير المؤمنين عليه السلام يدير دفة الحرب بمهارته وشجاعته حتى انكشف =

وَأَهْلُهَا حَسِبُوْا أَنَّ ٱلْحُصُوْنَ وَإِنْ   هُمْ يَظْلِمُوْنَ لَتَحْمِيْهِمْ وَتَحْمِيْهَا

= الأعداء وتباعدوا عنه . فهمّ عليّ باتباعهم ودخول الحصن وإذا بشجاع من خيبر يدعى الحارث تصدّى لسيدنا علي ودعاه للبراز فلبّاه واشتبكا ولم يكن إلاّ القليل حتى وقع الحارث قتيلاً فلما رأى الخيبريون المنكشفون ما كان من أمر أشجع شجعانهم ولّوا هاربين نحو حصنهم الحصين وفي أثناء ذلك أقبل رجل مفتول الساعدين وانقضّ على أمير المؤمنين وهو مشهر سيفه وينادي أنا مرحب أخو الحارث أطالب بدمه وفاجأ أمير المؤمنين بضربة سيف تلقاها عليه السلام بترسه فطرحتها من يده فمال علي وإذا بجانبه باب ملقى بجانب الحصن لا يقوى على حمله السبعة أنفار فتناوله بيده القوية وترّس به فارتجز مرحب فقال :

قد علمت خيبر أنّي مرحب   شاكي السلاح بطل مجرَّب

وارتجز أمير المؤمنين فقال :

أنا الذي سمتني أُمي حيدره   ضرغامُ آجامٍ وليث قسورة

وما زال هذان البطلان يتبارزان بل الأسدان يتصارعان وعلي متترس بذلك الباب ومرحب لابس الدرعين ومتقلد السيفين ومعتم العمامتين من فوقهما مغفر تحته حجر متقوب قدر البيضة حتى تمكن الأسد الهاشمي من مرحب الخيبري فضربه ضربة سيف على أمّ رأسه تلقاها مرحب بترسه فقدَّت الترس وشقّت المغفرة وكسرت الحجر ومزقت العمامتين وفلقت هامته حتى أخذ ذو الفقار بأضراسه فسقط ذلك البطل الخيبري على الأرض صريعاً يختبط بدمه وكان لقتله ضجة فرح في صفوف المسلمين وضجيج خوف في صفوف الخيبريين فهمّ أمير المؤمنين باختراق الحصن وإذا ببطل من خيبر لا يقل عن صاحبه شجاعةً يدعى ياسر وهو أخو مرحب والحارث الذين بخع بهما أمير المؤمنين قد انقضّ عليه وهو ينادي : أنا ياسر أخو مرحب والحارث أطلب بثارهما وكان يرتجز :

قد علمت خيبر أنّي ياسر   شاكي السلاح بطل مغاور

فتلقاه أمير المؤمنين عليه السلام بضربة سيف أعجلت بروحه إلى الهاوية . وحينئذٍ خارت عزائم الخيبريين وطلبوا منه الأمان والصلح فصالحهم على أن يبقوا في أرضهم شرطاً أن يدفعوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصف غلالها وأن يكونوا تحت حكم المسلمين إلاّ إذا شاء المصطفى إجلاءهم عن بلادهم وعاد منصوراً فائزاً إلى المصطفى فحمد الله على =

لِـذَاكَ شَـادُوْا بِـإِسْـرَافٍ حُصُـوْنَهُمُ فَـطَاوَلَتْ مَـطْلِعَ ٱلشِّعْـرَى مَبَـانِيْهَـا
عَلَى حُصُـوْنِهِمْ كَـانَ ٱتِّكَـالُهُـمُ بِخَفْـرِهِمْ ذِمَّـةَ ٱلْإِسْـلَامِ تَجْـرِيْهَـا
وُمُـذْ رَأَوْا قَـوْمَ طَـهَ أَقْبَلَتْ قَـفَلُوْا أَبْـوَابَهَـا وَتَخَبَّـوْا فِيْ مَخَـابِيْـهَـا

=هذا النصر العظيم الذي أوتيه على يد أخيه ووصيّه عليهما السلام .

ولقد عظمت وقفة أمير المؤمنين تلك في خيبر وقتله مرحب الذي كان الناس يضربون بشجاعته المثل وصار المسلمون يتمثلون بتلك الضربة التي ضربه بها على كثرة ما كان محتاطاً لنفسه لاتّقاء مثلها وما زال الناس يتمثّلون بضربة سيف أمير المؤمنين هذه خلفاً عن سلف حتى انتهى إلى شعرائهم فقال أحدهم :

وشادنٍ أبصرته مقبلاً قلت من وجدي به مرحبا
قدَّ فؤادي بالهوى قدُّهُ قدَّ عليٍ في الوغى مرحبا

وعلى ذلك هذه الحادثة أقول إنّي سمعتها لأول مرة من فم عظمة مولاي معز السلطنة السردار أرفع الشيخ خزعل خان سردار عربستان الذي يزين مجالسه الملوكية دائماً بذكرى نوادر أمير المؤمنين وآثاره العظيمة عليه السلام واستشهد عظمته بالبيتين الآنفي الذكر فقلت مولاي لقد خطرت لي أبيات ارتجلتها على ذكر هذه الموقعة قال قل فقلت :

رماني الحبُّ بين يدي فتاةٍ تكبرها على قدر انكساري
فأريدُ وصالها وتريدُ هجري وذنبي عندها حسن اصطباري
فلما ضاق صدري من جفاها أردت أن أعرّفها اقتداري
فقلت لها احذري فتكي فقالت : ومني يا أخا الهيجا حذارِ
فإن تكُ « مرحباً » لا تنسَ عيني عليك تسلُّ سلاً « ذا الفقار »
فهبت لقاءَها ذكّرتني بمصرع مرحب وسترت عاري
ببسمة طالبٍ عفواً وراجٍ رضىً قد قابلتها بالنفار
وولّت وهي قائلةٌ : بعيد على من ليس يكرمني مزاري

فتبسم عظمة مولاي روحي فداه وقال مازحاً « أحسنت وربِّ الكعبة ، ولكن لا تعامل بمثل هذه الشدة الحسان ، لتأمن الذلّ والهوان ، يا صاحب العمران » .

وَطَالَ حَصْرُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ بَلْدَتَهُمْ فَلَمْ تُسَلِّمْ وَلَمْ يَخْنَعْ أَهَالِيْهَا
فَقَالَ : نَفْتَحُهَا قَهْراً بِحَوْلِكَ يَا رَبَّاهُ مَهْمَا تَمَادَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا
فِيْ ٱلْحَالِ نَادَى أَبَا بَكْرٍ وَسَلَّمَهُ ٱلـ ـلِّوَاءَ قَالَ لَهُ : فَٱقْصُدْ حَوَامِيْهَا
فَسَارَ وَٱلْجَمْعُ مِنْ حَوْلَيْهِ مُطَّلِبَاً فَتْحَاً وَهِمَّتُهُ لَمْ يَنْبُ مَاضِيْهَا
وَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَى فَتْحٍ وَعَادَ إِلَى طَـهَ وَبُغْيَتُهُ قَدْ خَابَ بَاغِيْهَا
فَأَوْفَدَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِهِ عُمَرَاً وَقَالَ حَاجَتُنَا لَا شَكَّ تَقْضِيْهَا
فَسَارَ فِيْهَا أَبُوْ حَفْصٍ عَلَى عَجَلٍ وَٱرْتَدَّ عَنْهَا وَلَمْ يَبْلِغْ صَيَاصِيْهَا
فَأَرْسَلَ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْحَبَّابَ يَحْسَبُهُ لِذِيْ ٱلْمُهِمَّةِ أَهْلاً أَنْ يُوَفِّيْهَا
فَسَارَ فِيْ غَدِهِ ثُمَّ ٱنْثَنَى يَؤُسَاً مِنْ نَصْرَةٍ رَامَ بِٱلْأَرْوَاحِ يَشْرِيْهَا
كَذَاكَ أَرْسَلَ سَعْدَاً تَحْتَ رَايَتِهِ فَمَا عَلَى خَيْبَرٍ قَدْ كَانَ مُرْبِيْهَا
فَٱسْتَاءَ طَهَ لِحَمْلَاتٍ لَهُ فُشِلَتْ عَلَى ٱلتَّوَالِيْ وَلَمْ يَنْجَحْ تَتَالِيْهَا
وَقَالَ : إِنِّي لَأُعْطِيْ رَايَتِيْ بَطَلاً بِٱلنَّصْرِ فَوْقَ رِبَى ٱلْأَعْدَاءِ يُعْلِيْهَا
فَتَىً أَحَبَّ إِلَهَ ٱلْعَرْشِ عَنْ وَلَهٍ وَقَدْ تَدَلَّهَ بِي تَٱللَّهِ تَدْلِيْهَا
يَكُرُّ كَرَّاً وَلَا يَرْضَى ٱلْفِرَارَ وَيَلْـ ـقَى ٱلْأُسْدَ فِيْ غَابِهَا تَأْوِيْ مَآوِيْهَا
عَلَى يَدَيْهِ إِلَهُ ٱلْعَرْشِ يَفْتَحُ لِيْ هٰذِيْ ٱلْحُصُوْنَ وَإِنْ عَزَّتْ بِحَامِيْهَا
وَفِيْ ٱلْغَدَاةِ دَعَا طَهَ ٱلْعَلِيَّ إِلَى مُهِمَّةٍ هُوَ بِسْمِ ٱللَّهِ قَاضِيْهَا
فَقِيْلَ: إِنَّ عَلِيَّاً يَشْتَكِيْ رَمَدَ ٱلْـ ـعَيْنِ ٱلَّتِيْ رُؤْيَةُ ٱلْأَنْوَارِ تُؤْذِيْهَا
حَتَّى مَسَالِكُهُ يَخْشَى ٱلْعِثَارَ إِذَا مَا سَارَ فِيْهَا فَلَا تُلْقِيْهِ يَطْوِيْهَا
فَقَالَ طَهَ : وَمَنْ يَأْتِيْ بِهِ وَإِذَا «بِسَلْمَةٍ» رَغْبَةُ ٱلْمَهْدِيِّ يُمْضِيْهَا
وَجَدَّ يَطْلِبُ مَوْلَانَا أَبَا حَسَنٍ مِنْ وَسْطِ خَيْمَتِهِ إِذْ كَانَ لَاجِيْهَا

فَأَظْهَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَوْفَى طَوَاعِيَةٍ لِرُغْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمَاً يُعَاصِيْهَا

وَقَالَ : إِنْ يَمْنَعِ ٱللَّهُ ٱلْهِبَاتِ فَلاَ مُعْطٍ وَلاَ مَانِعٌ إِنْ كَانَ مُعْطِيْهَا

فَقَادَهُ «سَلْمَةٌ» وَهْوَ ٱلْمُعَصِّبُ عَيْـنَيْـهِ وَخَطْوَتُهُ رَيْثٌ تَخَطِّيْهَا

وَإِذْ رَآهُ رَسُوْلُ ٱللَّهِ أَمْسَكَهُ وَقَالَ : ذَا مُبْلِغِيْ رَغْبَى أُرَجِّيْهَا

وَقَالَ : خَيْبَرُ فِيْ أَسْوَارِهَا ٱمْتَنَعَتْ وَأَنْتَ قَاهِرُهَا حَتْمَاً وَخَازِيْهَا

فَسِرْ عَلَيْهَا وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ فَاتِحُهَا وَبِٱلْمَذَلَّةِ وَٱلْإِهْوَانِ مَانِيْهَا

قَالَ ٱلْعَلِيُّ : وَلٰكِنْ مِنْ أَذَى رَمَدِيْ أَشْكُوْ وَعَيْنِي قَدْ سَالَتْ مَآقِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ : لاَ تَجْزَعْ فَرَمْدَتُكَ ٱلْـعَضْلاَءُ إِنِّيْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ أُبْرِيْهَا

وَرَاحَ مُسْتَقْبِلاً رَأْسَ ٱلْعَلِيِّ عَلَى ٱلْـحِجْرِ ٱلشَّرِيْفِ بِأَلْطَافٍ يُوَالِيْهَا

ثُمَّ جَلاَ بِبَنَانِ ٱللُّطْفِ عَصْبَةَ عَيْـنَيْـهِ وَرَمْدَتُهُ أَمْسَى يُدَاوِيْهَا

وَبِٱلْبُصَاقِ ٱنْثَنَى يَجْلُوْ ٱلْعَمَاسَةَ عَنْـهُمَا فَزَالَتْ وَكَانَ ٱلْبُرْءُ تَالِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا مَا شَكَا مِنْ رَمْدَةٍ دَهَمَتْ عَيْنَيْهِ كَلاَّ وَلَمْ يَعْرِفْ تَأَذِّيْهَا

وَقَالَ طٰهَ : فَسِرْ لاَ تَلْتَفِتْ أَبَدَاً حَتَّى تُدَوِّخَ غَاوِيْهَا وَعَاتِيْهَا

وَعَنْ يَمِيْنِكَ جِبْرِيْلٌ وَفِيْ يَدِهِ سَيْفٌ إِذَا ضَرَبَ ٱلْأَجْبَالَ يَفْرِيْهَا

وَمَنْ بِيُمْنَاهُ نَفْسِيْ عَوْنُ غَزْوَتِكَ ٱلْـغَرَّا بِنَصْرَتِهِ ٱلْعَلْيَا يُوَشِّيْهَا

أَبْشِرْ بِرِضْوَانِ رَبِّيْ أَنْتَ كَاسِبُهُ وَبِٱلْجِنَانِ ٱلَّتِيْ لاَ شَكَّ تَثْوِيْهَا

وَأَنْتَ لِلْعُرْبِ مَوْلَى مُنْجِدٌ وَأَنَا مَوْلَى بَنِيْ آدَمٍ طُرَّاً وَمُهْدِيْهَا

فَسَارَ حَيْدَرَةٌ سَيْرَ ٱلْهِزَبْرِ إِلَى مَلْقَى ٱلْفَرَائِسِ بِٱلرَّغْبَى يُمَنِّيْهَا

وَبَعْدَ بِضْعِ خُطَىً نَادَى ٱلرَّسُوْلَ : عَلَى مَاذَا أُحَارِبُهَا أَوْ مَا أُقَاضِيْهَا

فَقَالَ : قَاتِلْ ذَوِيْهَا أَوْ تَصِيْخُ إِلَى ٱلـشَّهَادَتَيْنِ وَتَرْضَى أَمْرَ بَارِيْهَا

لَكَ ٱلظَّوَاهِرُ تُبْدِيْهَا فَتَقْبَلُهَا   وَلِلْمُهَيْمِنِ مَا تُخْفِي خَوَافِيْهَا

أَبْلِغْ جَمَاعَتَهَا طُرّاً فَرَائِضَنَا   وَأَفْرِضْ عَلَيْهَا جَمِيْعَاً أَنْ تُؤَدِّيْهَا

فَإِنْ أَجَابَتْكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهَا حَقَنَتْ   دِمَاءَهَا وَنَجَتْ مَعْ مَا بِأَيْدِيْهَا

وَإِنْ بِكَ ٱللَّهُ آتَى هَدْيَهُ رَجُلاً   خَيْرٌ مِنَ ٱلنِّعَمِ ٱلْكَثْرَى تُزَكِّيْهَا

كَذَا ٱلْعَلِيُّ سَعَى وَٱلنَّاسُ تَتْبَعُهُ   إِلَى ٱلْحُصُوْنِ ٱلَّتِيْ أَعْيَتْ مُلاقِيْهَا

ثُمَّ تَسَارَعَ فِيْ إِرْكَازِ رَايَتِهِ   بِقُرْبِهَا عِنْدَ مَا أَمْسَى مُدَانِيْهَا

وَصَاحَ: هَلْ مِنْكُمُ يَا آلَ خَيْبَرَ مَنْ   يَبْغِيْ مُبَارَزَةً قَدْ جِئْتُ دَاعِيْهَا

فَصَاحَ صَائِحُهُمْ: مَنْ أَنْتَ قَالَ: أَنَا   عَلِيٌّ نَادَى مَغَازِيْكُمْ بِعَالِيْهَا

ثُمَّ ٱلْحُمَاةُ إِلَى لُقْيَاهُ قَدْ خَرَجَتْ   وَٱلْمُسْلِمُوْنَ تَنَائَوْا عَنْ مَرَامِيْهَا

أَمَّا ٱلْعَلِيُّ فَلَمْ يَجْزَعْ لِمَوْقِفِهِ   وَلَمْ يَخَفْ وَهْوَ فَرْدٌ مِنْ تَلَقِّيْهَا

فَجَاءَهُ ٱلْحَارِثُ ٱلصِّنْدِيْدُ وَهْوَ بِخَيْـ   ـبَرَ ٱلشُّجَاعُ ٱلَّذِيْ يَلْقَى أَعَادِيْهَا

يَبْغِيْ عَلَى جَهْلَةٍ مِنْهُ مُبَارَزَةً   تَاللَّهِ مَا عَاقِلٌ فِيْ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْهَا

فَصَاوَلَ ٱلْحَارِثَ ٱلْغَمْرَ ٱلَّذِيْ بَطَشَتْ   بِهِ يَمِيْنُ عَلِيٍّ وَهْوَ يُهْوِيْهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْخَيْبَرِيُّوْنَ ٱلْقَتِيْلَ لَوَوْا   وُجُوهَهُمْ وَٱصْفِرَارُ ٱلْمَوْتِ غَاشِيْهَا

وَأَسْرَعُوْا فِرَقَاً يَأْوُوْنَ حِصْنَهُمُ   لِهَلْكَةٍ فَاجَأَتْ رَامُوْا تَوَقِّيْهَا

ثُمَّ ٱنْبَرَى مَرْحَبٌ يَبْغِيْ مُبَارَزَةً   لِأَخْذِ ثَأْرِ أَخِيْهِ ٱلْمُبْتَلَى فِيْهَا

وَفَاجَأَ ٱلْمُرْتَضَى فَجْئاً بِضَرْبَةِ سَيْـ   ـفٍ طَيَّرَتْ تِرْسَهُ يَا وَيْلَ مُلْقِيْهَا

وَكَانَ فِيْ قُرْبِهِ بَابٌ إِذَا طَلَبَتْ   حِمْلانَهُ ٱلسَّبْعَةُ ٱلْأَنْفَارُ يُعْيِيْهَا

فَرَامَهُ ٱلْمُرْتَضَى تِرْسَاً وَرَدَّ بِهِ   عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَهُ ٱلْعَرْشِ وَاقِيْهَا

وَكَرَّ كَرّاً عَلَى ٱلْعَادِيْ وَأَرْسَلَهُ   لِلنَّارِ فَهْوَ وَحَقِّ ٱللَّهِ صَالِيْهَا

وَجَـاءَهُ يَـاسِــرُ لِلثَّــأْرِ بَعْـدَهُمَــا   فَكَـانَ إِثْرَهُمَـا فِي ٱلنَّـارِ يَـأْوِيْهَـا
وَبَعْـدَ ذَا فُتِحَتْ أَسْـوَارُ خَيْبَـرَ فَتْـــحاً بِـٱلْعَلِيِّ وَقَـدْ دُكَّتْ رَوَاسِيْهَـا
وَرَدَّدَ ٱلْمُصْـطَفَى شُكْـرَ ٱلْعَلِيِّ وَلاَ   قَتْـهُ جَمَـاعَتُـهُ وَٱلْحَمْـدُ فِيْ فِيْهَـا

أمير المؤمنين وأبو سفيان

سِرْعَانَ مَا ٱنْتَشَرَتْ فِيْ ٱلْعُرْبِ دَعْوَةُ أَحْـــمَدَ ٱلَّتِيْ كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ دَاعِيْهَا(١)
فَقَـدْ رَأَيْنَـا وَمَـا مَـرَّتْ ثَمَـانِيَـةُ ٱلْـــحُؤُوْلِ بِٱلْهُجْرَةِ ٱلْمَغْبُـوطُ سَارِيْهَـا

---

(١) لمـا حـال الحـول على عمـرة الحـديبيـة المتقـدمـة الـذكـر خـرج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه الذين صدّوا معه في العام المـاضي ليقضوا تلك العمـرة التي فـاتتهم حسب المعاهـدة التي كتبت وقتئذٍ فبلغ بمن معـه الحـديبيـة في ذي القعـدة من السنة السابعة للهجرة ومنها دخلوا مكّة وإذ أرادوا الطواف حول الكعبـة كرّمهـا الله خرج منهـا المكّيون وقضى المصـطفى والمسلمون طـوافهم وعمرتهم وأقـاموا ثـلاثاً في مكـة وقفلوا راجعين إلى المدينة في ذي الحجة من تلك السنة ولم يعـرض لهم حادث يـذكر غير أنّ قريشاً كانت تحسب أنّ محمداً وأصحابه في جهد وخوار عزيمـة فدهشـوا عندمـا رأوهم أشداء أقوياء العضل تتدفق مياه الصحة من وجوههم فكان ذلك على غير ما أملوا ورجوا .

وسبقت الإشـارة أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعـد أن صالـح قريشـاً في الحـديبيـة الصلح الذي عرفناه تفرغ إلى مراسلة الملوك والأمراء ليدعوهم إلى الإسلام وكان في جملة من راسله هـرقـل ملك الـروم وقـد بلغـه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ هـرقـل هـذا قـدم أورشليم « سـنـة ٦٢٩ مسيحية » ليشكر الله الذي نصره على الفرس واستخلاصـه منهم الخشبة المقـدسة التي يـزعمون أنّ سيـدنا عيسى عليه السلام صلب عليهـا . وكان رسـول المصطفى إلى هـرقل هـو الحارث بن عمير الأزدي فبينما هو في طريقه إلى هـرقل تصدّى له شـرحبيل بن عمـرو الغساني وقتله فلما بلغ ذلـك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اغتمّ وجهّـز سريـة للإقتصـاص منه وكـان عددها ثلاثة آلاف مقاتل وسلّم قيادتها إلى زيد بن حارثة وقال للجيش فإن قتل فرئيسكم جعفر بن أبي طالب فإن قتل فرئيسكم عبد الله بن رواحة فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ هجرية فلمّا نزلوا معان بلغهم أنّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في جيش كثيف =

أَنَّ ٱلأُلَى هَـرَبُـوْا مِنْ مَكَّـةٍ فَـرَقَـاً   مِنْ مُشْـرِكِيْهَا لَقَـدْ أَمْسَـوْا مُخِيْفِيْهَـا

= وانضمّ إليهم من عرب غسان في الشام عدد كبير فلم يرهبهم هذا ومضوا حسب أمر المصطفى ﷺ بعد أن أقاموا ليلتين في معان فلما بلغوا تخوم بلقاء لقيهم جيش الروم عند قرية تسمى « مشارف » فانحاز المسلمون إلى قرية تسمى « مؤتة » ثم التقى الجمعان فاقتتلا ولم تكن بينهما نسبة لقلة المسلمين وكثرة جيش الروم فقتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة وحينئذٍ أصبح المسلمون بلا أمير فأمّروا عليهم بانتخابهم « خالد بن الوليد » ومن هذه الموقعة بدأت تظهر مواهب هذا القائد العربي العظيم إذ أخذ يحارب الروم وهو يتقهقر بجيشه بانتظام فتهيب الروم اللحاق به مخافة أن يلقي بهم في الصحراء فلم يتبعوه وهكذا أنقذ السرية من الخطر الذي كان محدقاً بها ولم يتجاوز عدد قتلى المسلمين الاثني عشر شخصاً وعاد بها إلى المدينة المنورة .

وكان من قواعد عهد الحديبية إباحة انضمام قبائل العرب لقريش أو لمحمد فدخل بنو بكر في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد المصطفى ﷺ وكان بين هاتين القبيلتين دماء من عهد الجاهلية فحجز بينهما الإسلام لاشتغال الناس به عمّا سواه . وحدث أنّ شخصاً من بني نفاثة إحدى أفخاذ بكر طفق يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجّه فثار الشرُّ بين الحيين لما كان بينهما من العداوة القديمة فطلب بنو نفاثة من شجعان قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ففعلوا وفاجأت بكر وبعض رجال قريش خزاعة ليلاً وهم على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم ٢٠ أو ٢٣ رجلاً . واختلف الرواة في معاونة قريش لبكر في هذه الموقعة فقال بعضهم إنّ الذين عاونوا بكراً من القرشيين لم يشاوروا سيد قريش أبا سفيان وقال بعضهم بل شاوروه فأبى عليهم المعاونة فأتوها خفيةً عنه على ظنّ أنّ رسول الله سوف لا يعلم بها . ولكن الذين عاونوا بكر من قريش ندموا على فعلتهم وخافوا سوء مغبتها بعد إتيانها لأنّهم صاروا يدركون أنّ المصطفى ﷺ أصبح ذا حول وطول وأوفدوا زعيمهم الحارث بن هشام إلى أبي سفيان فأخبروه بما كان فقال أبو سفيان « هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وأنّه لشرّ والله ليغزونا محمد » وأسرع فاجتمع بأشراف قريش وذاكرهم في الأمر فلم يكن منهم إلّا المقدر سوء العاقبة من نكث العهد مع المصطفى وقرَّ رأيهم على أن يسير أبو سفيان نفسه إلى المدينة ليستعطف محمداً =

=ويعتذر منه عمّا أخطأت قريش ويجدّد العهد وهكذا سار أبو سفيان إلى المدينة ولم يصحب غير عبده .

أمّا رسول الله ﷺ فكان ليلة واقعة بكر وخزاعة بائتاً عند عائشة وقد حدّثت هذه فقالت: إنّ رسول الله قال لي في صباحها حدث في خزاعة حدث فقلت: يا رسول الله أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم فقال ينقضون العهد لأمر يريده الله فقلت ألخير أم لشرّ ؟؟ قال : لخير . وما هي إلاّ أيام حتى جاءَ وفد خزاعة يشكو إلى رسول الله اعتداء بكر عليهم بمعاونة قريش فدخلوا عليه وهو ﷺ في مجلسه في المدينة والناس حوله وأنشد زعيمهم عمرو بن سالم يقول :

يا ربّ إنّي ناشدٌ محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيّتونا بالغدير هجّدا وقتلونا ركعاً وسجّدا

فتلقاهم المصطفى بالترحاب وقال ﷺ : « نُصرتَ يا عمرو بن سالم » ودمعت عيناه ثمّ قال : « لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي وأهل بيتي » ثم مرّت به سحابة في السماء وأرعدت فقال : « إنّ هذا السحاب يستهل بنصر بني كعب » ثم عكف على وفد خزاعة وكانوا أربعين فارساً فتلطف بهم ووعدهم بالنصرة وأوصاهم بالكتمان وأعادهم إلى منازلهم . .

ثمّ أنّ المصطفى ﷺ أنبأ أصحابه وأنصاره فقال : « كأنّكم بأبي سفيان قد جاءَكم ليشدّ العقد ويزيد في المدة وهو راجع بسخطه » وبالفعل لم تمض بضعة أيام حتى أقبل أبو سفيان على المدينة المنورة فقصد رسول الله في مسجده وقال : « لقد كنت غائباً في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة » فأجابه ﷺ : « ألذلك جئت يا أبا سفيان ؟ » قال : « نعم » فقال المصطفى ﷺ : « هل كان فيكم من حدث ؟؟ » قال أبو سفيان : « معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغيّر ولا نبدّل » فأجابه المصطفى : « ونحن على مدتنا وصلحنا » فأعاد أبو سفيان التماسه وكرّره محاولاً أن يستدرج رسول الله إلى غير ما قال بغية الاعتذار له والتفاهم معه إذا كان له علم بواقعة بكر وخزاعة فلم يتوفق إلى جواب شافٍ ولم يندّ عنه أنّ رسول الله في نفسه شيء من قريش فتركه وانصرف وهو وجل يطلب لنفسه فرجاً من المأزق الذي كانت أمّته فيه . =

وَأَنَّ قُـوَّتَـهُ مَـعْـهُـمْ تُـؤَيِّـدُهُـمْ   وَقُـوَّةُ ٱللَّهِ تَخْـزِيْ مَنْ يُقَـاوِيْـهَـا

= ورأى أبـو سفيـان بعـد خـروجـه من المسجـد النبـوي على غيـر نتيجـة مـع محمد ﷺ أن يوسط لديه المقربين من أصحابه فقصد أبا بكر في بيتـه والتمس منه أن يخاطب المصطفى في تجـديد العقـد وتحديـد المدة فقـال أبو بكـر : « إنّ جواري في جوار رسول الله والله لو وجدت الذرَّ تحاربكم لأعنتهـا عليكم » فعرف من هـذا الجواب شيئاً مما في أنفس المسلمين نحو قريش فاشتدّ قلقه وتركـه وقصد عمـر بن الخطاب في منزله وعرض عليه الوساطـة لدى محمـد قال عمـر : « أأنا أشفـع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله ما كـان من حلنا جـديداً أخلقـه الله وما كـان مقطوعـاً فلا وصله الله » فغضب أبـو سفيان وقال « جزيتَ من ذي رحمٍ شراً يـا أبا حفص » وانصـرف وهو وجـل وأسرع إلى عثمان بن عفان فلما دخل عليه في منزلـه قال : « ليس في القـوم أقرب بي رحمـاً منك (لأنّ كـلاهما من أميـة كما تعلم) فـزد في المدة وجـدّد العقد فـإنّ صاحبـك (ويريـد رسول الله) لا يردّ طلبك أبداً » فقـال عثمان : « إنّ جـواري في جوار رسـول الله » ولم يزد . فخرج أبو سفيان وهو في غاية اليأس وبينما هو في أسواق المدينة ذكر علياً وما لـه من الدلالة على رسول الله فقال إنّي لمسرع إليه يعيننا لدى محمد .

وبينما سيدنا علي في بيته وبين يديه سيدنا الحسن يـداعبه وبـالقرب منـه سيدتنـا فاطمة وعلى حجرها سيدنا الحسين تناغيه وإذا بأبي سفيان داخـل عليهم فرحّب بـه أمير المؤمنين عليه السلام وقال اجلس فجلس أبو سفيان وقال : « يا عليّ إنّك أمسُّ القوم بي رحماً وإنّي قد جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائبـاً » فقال علي : « ومـا هي حاجتـك التي قد جئت بها ؟؟ » قال أبو سفيان « أن تشفع بي لدى محمد فيجدد العقد ويزيد في المدة » فقال علي عليه السلام : « ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر فلا نستطيع أن نكلمـه فيـه » فـاصفـرَّ وجـه أبي سفيـان وجـلًا ويـأسـاً والتفت إلى سيـدتنـا فـاطمـة الزهراء عليها السلام بذلة وانكسار وقال : « يـا ابنة محمـد أجيري بين النـاس » فقالت : « أنـا امرأة إنّما ذاك إلى رسول الله » فلما رأى أبو سفيان من سيدتنا فاطمة هذا الردَّ مـع علمه أنّ المصطفى لا يردُّ لهـا التماساً سقط في يده وأطـرق إلى الأرض واجماً فنبّهـه صوت سيدنا الحسن وهو يخاطب أباه فعاد إلى سيدتنا فـاطمة وقـال : « هل لـك يا فـاطمة أن تأمري ابنـك هذا أن يجيـر بين الناس فيكـون سيد العـرب إلى آخر الـدهر ؟ « فنـظرت سيدتنا فاطمة إلى سيـدنا الحسن بمـلء عينيها وتبسمت وقـالت : « والله ما يبلغ بـولدي =

وَبَيْنَمَا شِرْعَةُ ٱلْإِسْلَامِ بَالِغَةٌ بِحَوْلِ رَبِّكَ مَا يُرْضِي مُرِيدِيهَا
كَذَاكَ أَعْلَامُهَا ٱلْعَلْيَا قَدِ ٱنْتَشَرَتْ فَوْقَ ٱلرُّؤُوسِ وَهَابَتْهَا أَعَادِيْهَا
وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ تَخْشَى أَنْ تُغَاضِبَ أَهْـ ـلِيْهَا وَتَسْعَى إِلَى مُرْضَاةِ هَادِيْهَا
إِذَا بِأَصْحَابِنَا فِيْ مَكَّةٍ نَكَثَتْ عُهُوْدَهَا وَتَغَاضَتْ عَنْ تَأَلِّيْهَا
نَسَتْ فَمَا ذَكَرَتْ عَهْدَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْـ ـمَشْهُوْرِ أَوْ قَدْ تَنَاسَتْ عَهْدَهَا تِيْهَا
وَنَاصَرَتْ بَكْرَ فِي حَرْبِ ٱلْخَزَاعَةِ لَمْ تَرْهَبْ بِفَعْلَتِهَا طَهَ مُوَالِيْهَا
وَٱلْوَحْيُ أَبْلَغَ طَهَ مَا خَزَاعَةُ فِيْـ ـهِ مِنْ أَذَى صَاحَ أَلْقَى ٱلْيَوْمَ مُؤْذِيْهَا
ثُمَّتْ أَتَتْهُ بِشَكْوَاهَا خَزَاعَةُ تَرْ جُوْ عَوْنَهُ وَهْوَ أَسْمَى مَنْ يُشَكِّيْهَا
فَطَيَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لِطْفاً خَوَاطِرَهَا وَرَدَّهَا وَهْوَ بِٱلْكِتْمَانِ يُوْصِيْهَا

= وهو صبي أن يجير بين الناس وما يجير أحد على محمد بن عبد الله » ومع هذا الردّ الذي يضيع معه كلُّ أمل ازداد أبو سفيان إلحاحاً فقال : « فكلمي عليّاً إذن يا فاطمة » فقال سيدنا أمير المؤمنين « يا أبا سفيان ليس أحد من أصحاب محمد يقتات عليه بجوار » فأجابه أبو سفيان : « ولكن يا أبا الحسن أرى الأمور انسدّت عليَّ فانصحني » قال عليّ : « والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم أنت وأجر بين الناس ثمَّ الحق بأرضك » قال أبو سفيان : « أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ » قال : « والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك » فنهض أبو سفيان واجماً مأيوساً وقصد المسجد النبوي حيث كان رسول الله وحوله طائفة من المسلمين فقال : « أيّها الناس إنّي أجرت بين الناس ولا والله لا أظنُّ أحداً يخفرني ويردّ جواري : فقال المصطفى « وأنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ » ولم يزد وبعد هذا عاد أبو سفيان أدراجه إلى مكة كرّمها الله حيث حدّث أصحابه بما كان فقالوا له : هل أجاز محمد جوارك قال : لا وإنّما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ولم يزدني . قالوا : رضيت بغير رضى وجئت بما لا يغني عنّا ولا عنك شيئاً ولعمر الله ما جوارك بجائز وإنّ إزالة خفارتك على المسلمين لهيّن وهكذا أصبحت قريش وهي تتوقع أن يغزوها محمد في مكة .

وَلَمْ يَعُدْ بَعْدُ مِنْ عَهْدٍ يُؤَخِّرُهُ ... عَنْ مَكَّةٍ وَلَهُ شَاقَتْ مَغَانِيْهَا

وَكَانَ يَصْبُوْ إِلَيْهَا وَهْيَ مَوْطِنُهُ ... وَعَيْنُهُ نَحْوَهَا تُبْدِيْ تَرَنِّيْهَا

وَلَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ ٱلْعُرْبَ أَجْمَعَهَا ... بِٱلْبِرِّ تَسْتَقْبِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِيْ فِيْهَا

وَأَنَّ أَصْحَابَهُ لَا شَيْءَ يُطْرِبُهُمْ ... مِثْلُ ٱلتَّرَبُّعِ فِيْ عَالِيْ مَبَانِيْهَا

وَأَنَّ فِيْ فَتْحِهَا نَصْرُ ٱلْحَنِيْفَةِ نَصْـ ... ـرَةً تُدَهْوِرُ فِيْ ٱلْخِذْلَانِ عَاصِيْهَا

لِذَا تَعَجَّلَ فِيْ إِعْدَادِ غَزْوَتِهَا ... بِعَزْمَةٍ عِنْدَهُ بَسْلٌ تَوَانِيْهَا

بِهَا أَسَرَّ إِلَى أَقْطَابِ أُمَّتِهِ ... فَٱسْتَعْجَلَتْهُ وَمَا كَانَتْ لِتُرْجِيْهَا

وَقَالَ: إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ يَقْصِدُنَا ... غَدَاً لِتَرْضِيَةٍ أَصْبَحْتُ آبِيْهَا

وَإِذْ أَحَسَّتْ قُرَيْشٌ بِٱلْمَخَاطِرِ خَا ... فَتْ شَرَّ مَا صَنَعَتْ فِيْ ٱلْأَمْسِ أَيْدِيْهَا

وَأَوْفَدَتْ لِجُمُوْعِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ أَبَا ... سَفْيَانَ سَيِّدَهَا حَتَّى يُرَاضِيْهَا

وَيَسْتَعِيْدَ لَهَا ٱلْعَهْدَ ٱلْقَدِيْمَ فَلَا ... تَدْهَى بِدَاهِيَةٍ صَعْبٌ تَوَقِّيْهَا

فَهَبَّ هَبَّاً أَبُوْ سَفْيَانَ مُنْتَقِيَاً ... مِنَ ٱلْأَصَائِلِ عَادِيْهَا وَخَادِيْهَا

وَجَدَّ فِيْ ٱلسَّيْرِ يَبْغِيْ طِيْبَةً فَطَوَى ٱلْـ ... ـقِفَارَ حَتَّى أَظَلَّتْهُ عَوَالِيْهَا

فَجَازَهَا لِمَقَرِّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَأَ ... مَّ ٱلْمُصْطَفَى وَمُنَاهُ قَامَ يُبْدِيْهَا

فَقَالَ طَهَ : وَهَلْ أَحْدَثْتُمُ حَدَثاً ... يُضِيْعُ عُهْدَتَنَا ٱلْوُثْقَى وَيَنْفِيْهَا

أَجَابَ كَلَّا : فَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى : وَأَنَا ... عَلَى عُهُوْدِيْ كَمَا نُصَّتْ أُرَاعِيْهَا

فَقَالَ: لَكِنَّنِيْ أَرْجُوْ فَقَاطَعَهُ ... وَمَالَ عَنْهُ بِعَيْنِ ٱلْجَفْوِ يُغْضِيْهَا

فَهَابَ صَخْرٌ أَبُوْ سَفْيَانَ مَوْقِفَهُ ... إِزَاءَ نَارٍ يُرَجِّيْ أَنْ يُطَفِّيْهَا

وَجَاوَزَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلطِّيْبِيَّ فِيْ جَزَعٍ ... وَسَارَ فِيْ طِيْبَةٍ يَنْحُوْ مَنَاحِيْهَا

عَلَى رَجَاءِ لُقَى شَهْمٍ يَمُدُّ يَدَاً ... إِلَيْهِ أَوْ مَنْ لَهُ تُعْمَى فَيُسْدِيْهَا

بِهَا يَنَالُ رِضَاءَ ٱلْمُصْطَفَى كَرَمَاً ... عَنِ ٱلْعُمُومَةِ فِيْ أَسْوَا مَسَاوِيْهَا

فَلَمْ يَجِدْ فِيْ أَبِيْ بَكْرٍ سِوَى كَلَفٍ ... بِٱلْحَرْبِ لاَ يَنْثَنِيْ عَنْ سَعْرِ خَابِيْهَا

وَكَانَ أَكْثَرَ مَيْلاً لِلْوَغَى عُمَرٌ ... وَنَارُهُ لَمْ يَزَلْ يَبْغِيْ تَلَظِّيْهَا

كَذَاكَ عُثْمَانُ مَعْ دَانِيْ قَرَابَتِهِ ... مِنْهُ أَبَى نَصْرَةً قَدْ جَاءَ يَبْغِيْهَا

فَيَمَّمَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ بَيْتِهِ طَلَبَاً ... لِبُغْيَةٍ هُوَ أَسْمَى مَنْ يُلَبِّيْهَا[1]

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ مَغْبُوطَاً بِمَنْزِلِهِ ... مَا بَيْنَ أُسْرَتِهِ ٱلْعَلْيَا يُؤَاسِيْهَا

فِيْ حُجْرِهِ حَسَنٌ طِفْلٌ يُدَاعِبُهُ ... مُنَاهِزٌ مِنْ حُؤُوْلِ ٱلْعُمْرِ سَادِيْهَا

وَقُرْبُهُ قَدْ ثَوَتْ بِٱلْبُشْرِ فَاطِمَةٌ ... مَعْهَا ٱلْحُسَيْنُ تُنَاغِيْهِ فَيُشْجِيْهَا

قَرَا ٱلسَّلاَمَ أَبُوْ سَفْيَانَ ثُمَّ جَثَا ... يُبْدِيْ رَغَائِبَهُ يَرْجُوْ تَقَاضِيْهَا

وَقَالَ : إِنِّيْ أَرَى فِيْ ٱلْمُرْتَضَى عَضَدَاً ... عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ يُكْفِيْنِيْ عَوَادِيْهَا

---

(١) خليق بنا هنا أن نصف الأسرة العلوية الطاهرة التي هي مظهر الشرف الأكبر لكلّ شريف في العرب والعجم هو شرف النبوّة على صاحبها وعلى أفرادها الخيرين الصلاة والسلام . وقد مرّ بنا فيما تقدّم أنّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام زفّت إلى سيدنا علي بن أبي طالب في السنة الثانية للهجرة وفي السنة الثالثة رزقا من هذا الزواج المبارك سيدنا الحسن وعندما ولد دعاه أمير المؤمنين « حرباً » وأرسل يبشر جدّه المصطفى بولده فأسرع صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت فاطمة ودخله وهو يقول والفرح يتدفق من وجهه الشريف أروني المولود فقدمته سيدتنا فاطمة له فاحتضنه بين يديه وقال وما سميتموه ؟ قالت « حرباً » فقال بل هو « حسن » وحنّكه بتمر وأعاده إلى أمه بعد أن دعا له وحمد الله . وفي السنة الرابعة كان مولد سيدنا الحسين وقد سمّاه المصطفى بهذا الإسم كما سمى أخاه الحسن . وفي السنة الخامسة للهجرة ولدت سيدتنا فاطمة الزهراء مولوداً ثالثاً سمّاه المصطفى « محسن » إلاّ أنّه لم يعش . وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كثير الشغف بالحسنين وطالما رآه الناس يحضنهما ويداعبهما ويقول : « إنّ الحسن والحسين زهرة شباب الجنة » .

فَكُنْ مُعِيْنِيْ عَلى آسْتِرْضَاءِ أَحْمَدَ فِيْ   تَجْـدِيْدِ عُهْـدَتِنَـا إِذْ هَمَّ يُلْغِيْهَـا
فَقَالَ : وَيْحَكَ طَهَ لَيْس يَرْجِـعُ عَنْ   إِرَادَةٍ هَـمَّ بِسْـمِ آللَّهِ يُـمْـضِيْـهَـا
فَمَـالَ وَآلْيَـأْسُ فِيْ عَيْنَيْـهِ مُـرْتَسِمٌ   لِبِنْتِ أَحْمَـدَ يَسْتَـدْعِيْ تَحَـنِّيْـهَـا
قَـالَتْ : أَنَا مَـرْأَةٌ لاَ شَـأْنَ لِيْ أَبَـدَاً   فِيْ مِثْـلِ رَغْبَتِكَ آلْمَـرْدُوْدُ سَاعِيْهَـا
فَقَالَ : هَلْ لَـكِ أَنْ تَسْتَعْمِلِيْ حَسَنَاً   لِنَجْـدَةِ آلْعُـرْبِ يَغْـدُوْ وَهْـوَ وَالِيْهَـا
قَالَتْ : وَهَلْ لِصَبِيٍّ أَنْ يُجِيْـرَ عَلى   مُحَمَّـدٍ جِيْـرَةً ذَاعَتْ مَـخَـازِيْهَـا
فَقَـالَ : فَآسْتَعْـطِفِيْ لِطْفَـاً عَلِيٍّ بِقُرْ   بَى لَمْ يَخِبْ فِيْ كِرَامِ آلْعُرْبِ مُدْلِيْهَا
فَلَمْ تُجِبْ وَجَمَتْ إِذْ ذَاكَ فَـاطِمَـةٌ   وَهَـالَهَـا ذِلُّ صَخْـرٍ إِذْ يُفَـاهِيْهَـا
وَقَـالَ حَيْـدَرَةٌ: وَآللَّهِ لَيْسَ عَلى آلـــرَّسُوْلِ يُفْتَاتُ مَـا رُغْبَـاكَ تَقْضِيْهَـا
فَقَالَ : فَآنْصَحْ إِذَنْ إِنَّ آلأُمُوْرَ قدِ آنْـــسَدَّتْ بِوَجْهِيْ كَمَا أَصْبَحْتُ رَائِيْهَا
أَجَابَ: صَعْبٌ تَلاَقِيْ أَزْمَـةٍ حَدَثَتْ   وَلاَ أَظُنُّـكَ يَـا صَخْـرُ مُخَـطِّيْهَـا
وَأَنْتَ مَا دِمْتَ رَأْسَ آلْعُرْبِ سَيِّـدَهَا   يَلْتَفُّ حَـوْلَيْكَ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا
فَقُمْ أَجِـرْ أَنْتَ بَيْنَ آلنَّـاسِ مُتَّكِـلاً   عَلى وَجَـاهَتِـكَ آلْغَـرَّاءِ تَعْمِيْهَـا
وَآلْحَقْ بِمَكَّـةَ لاَ تَلْبَثْ بِـطِيْبَتِـنَـا   مِنْ غَيْـرِ فَـائِـدَةٍ حَسْنَـاءَ تَجْنِيْهَـا
فِيْ آلْحَالِ خَفَّ أَبُوْ سُفْيَـانَ مُعْتَمِدَاً   نَصِيْحَةَ آلْمُرْتَضَى وَآنْصَـاعَ يُجْرِيْهَـا
وَلاَذَ بِـآلْمَسْجِدِ آلأَسْنَى وَأَحْمَـدُ فِيْـــهِ بَيْنَ نُـدْوَتِـهِ سِـرَّاً يُـنَـادِيْهَـا
وَقَالَ: يَا نَـاسُ أَصْغُوْا لِي فَـإِنِّيَ قَدْ   أَجَـرْتُ قَـوْمِيْ قُـرَيْشَـاً فِيْ مَـآوِيْهَـا
وَلاَ إِخَـالُـكُـمُ تَـنْـوُوْنَ رَدَّ جِـوَا   رِيْ أَوْ خُفُـوْرَ عُهُـوْدٍ رِحْتُ رَاعِيْهَـا
أَجَابَهُ آلْمُصْطَفَى : هَلْ أَنْتَ قَائِلُ ذَا   وَلَمْ يُـزِدْهُ عَلى مَـا قَـالَ تَسْفِيْهَـا
فَـآرْتَـدَّ حَـالاً أَبُـوْ سُفْيَـانَ مُـطَّلِبَـاً   أَصْحَـابَـهُ بِـآلَّـذِيْ قَـدْ تَمَّ يُنْبِيْهَـا

وَعِنْدَ مَا حَلَّ فِيْ أُمِّ ٱلْقِرَى سَرَدَ ٱلأَ م خْبَارَ لِلْقَوْمِ بِـاَلتَّزْوِيْقِ يَـرْوِيْهَـا
فَقَـالَ : لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ رَعَـا يَا قَدْ أَطَـاعَتْ وَرَبِّ ٱلنَّاسِ رَاعِيْهَـا
وَقَدْ وَجَدْتُ ٱلْجَفَا مِنْ أَحْمَدٍ وَذَوِيْــــهِ إِنَّ جَفْـوَتَهُمْ أَصْبَحَتْ خَـاشِيْهَـا
وَكَـانَ أَلْيَنَهُـمْ قَـوْلاً وَأَسْلَمَهُـمْ أَبُـوْ تِـرَابٍ عَـزِيْـزُ ٱلنَّفْسِ زَاكِيْهَـا
أَشَـارَ فَضْـلاً عَلَيَّ فَـاَمْتَثَلْتُ لَـهُ نَصِيْحَـةً كُنْتُ بِـاَلْإِسْـرَاعِ آتِيْهَـا
وَقَصَّ قِـصَّـتَـهُ مَـا بَـيْـنَ أُمَّـتِـهِ كَمَـا جَرَتْ مُبْدِيَـاً أَخْفَى خَـوَافِيْهَـا
فَمَـا ٱطْمَـأَنَّتْ إِلَى دَعْـوَى إِجَـارَتِـهِ كَمَـا رَوَاهَـا رَأَتْهَـا لَيْسَ تُنْجِيْهَـا
وَأَعْلَنَتْ فَشَـلَ ٱلْمَسْعَى وَخَيْبَتَـهُ وَلاَزَمَتْ فَـرَقَـاً خَـافِيْ مَـلاَجِيْهَـا

أمير المؤمنين في فتح مكة

لِمَكَّـةٍ فِيْ نُفُـوْسِ ٱلْعُـرْبِ مَنْزِلَـةٌ عَلْيَا تُطَأْطِيْ لَهَا ٱلْهَامَـاتِ تَحْنِيْهَا[1]
فَـإِنَّ فِيْ رَبْعِهَـا «ٱلْبَيْتُ ٱلْعَتِيْقُ» مَقَــــرُّ ٱلْغَفْـرِ طَـالِبُـهُ بِـاَلْبِـرِّ يَـأْتِيْهَـا

---

(١) يجمل بنا هنا أن نذكر شيئاً عن مكة كرّمها الله التي كانت مقرّاً لسيدنا إبراهيم عند ما هاجر إلى جزيرة العرب مع سيدنا اسماعيل عليه السلام والتي هي حاضرة قريش وما قريش إلّا القبيلة التي ظهر فيها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام .

إنّ مكة وتسمى بكة أيضاً ويطلق عليها اسم أمّ القرى تعظيماً لها أي أنّها بالنسبة إلى القرى المنتشرة في بلاد الجزيرة هي الأم وإليها يرجع الناس . هي مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وطول ٤٠ درجة و٩ دقائق وينتهي تاريخ بنائها إلى سيدنا إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل فقد نزلا في هجرتهما في موضع الكعبة التي بنياها لعبادة الله ثم عاش أبناؤهما حول الكعبة في ظلال بيوت الشعر إلى عهد قصي بن كلاب في نحو القرن الثاني قبل الهجرة فإنّ قصي هذا سافر إلى الشام متاجراً فشاقه ما رأى من بيوتها وعندما عاد بنى لنفسه بيتاً من الحجر بجانب =

= الكعبة وتبعته قريش في البناء . وهذه المدينة شرّفها الله تمتد اليوم من الغرب إلى الشرق على عرض ثلاثة كيلومترات طولاً في نحو كيلو متر ونصف عرضاً في وادٍ يميل من الشمال إلى الجنوب وينحصر بين سلسلتي جبال يكاد أن يتصل بعضها ببعض عند أبواب البلد الثلاثة أي من الشرق والغرب والجنوب . أمّا أسماء هذه الجبال فهي في الشمال الفلق ، وقيقعان ، والجبل الهندي ، ولعلع ، وكداء وهذا في أعلى مكة ومن جهته دخل المدينة المصطفى يوم الفتح . وفي الجنوب جبل أبي حديدة ، وكُدَى ، وكُدَيٌّ ، فجبل أبي قبيس ، فجبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالدور بعضها فوق البعض من الأعلى إلى طرف الوادي وعددها اليوم نحواً من سبعة آلاف دار بين كبيرة وصغيرة وأعظمها دور الأشراف الذين يتوارثون الحكم فيها من عهد عهيد جداً . ولا تزال بعض الدور الأثرية باقية آثارها في مكة بالرغم عن إهمال الأتراك الذين كانوا يحكمونها منها دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك إلى المروة ، وآثار دار أبي سفيان في الشرق الشمالي للحرم .

والحرم الشريف بين هذه الدور مائل إلى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس وفي هذه الجهة دار الخيزران أم الرشيد « وآثارها باقية » يتلوها شرقاً شعب بني هاشم ويسميه الناس شعب علي وهو أشهر وأعظم أنسال بني هاشم بعد المصطفى ، ثم شعب المولد ، ثم شعب بني عامر ، وفي هذه الجهة كانت منازل بني عبد المطلب في الجاهلية ويسكنها اليوم كثيرون من الأشراف . أمّا باقي قريش فكانوا يسكنون في الجهة الأخرى من الحرم نحو الشمال ومن دونهم كانت منازل باقي أهل مكة .

ويتوسط مكة طريق تقطعها من الغرب إلى الشرق وهي أكبر شوارعها وهذا الشارع له أسماء مختلفة فعند بداءته من جرول يسمى حارة الباب فالشبيكة ، فلما يصل إلى الحرم يسمى الشامية فإذا انعطف إلى الجنوب على يمين الحرم يسمى السوق الصغيرة فجياد وهناك البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها الحميدية وصارت بعد استقلال الحجاز مركز الوزارة الحجازية ، وإلى جوارها إدارة الصحة ، فمركز قشلاق الطوبجية ، فالمطبعة الأميرية ، فإذا وصل هذا الشارع إلى الصفا سمي المسعى ، فالقشيشية ، فسوق الليل ، فالغزة ، ومن هذا الموضع يخرج السائر إلى باب مكة الشرقي أو باب المصلّى . وفي المدينة شوارع =

كَـانَتْ مَثَـابَـةَ إِبْـرَاهِيْمَ مَنْـزِلَـهُ   مَـعَ ٱبْنِـهِ نَـزَلاَ بِـآلْيُمْنِ وَادِيْهَـا

= أخرى غير هـذه ولو لم تكن بـأهمية هـذا الشارع منها السوق ، والقرارة ، والنقى ، والسلمانية ، والحيدرية ، والبراضية .

وأهالي مكة اليوم مختلفو الأجناس ففيهم عدا الأشراف والعرب الوطنيين مهاجرو الشام ومصر والعراق والمغرب والترك وجاوه والقوقاس وبخارى والهند وغيرها من البلاد الإسلامية وهؤلاء المهاجرون قصدوا هذه المدينة المقدّسة بدافع التقوى أو بعامل التجارة فاستوطنوها وتناسلوا فيها ولذلك نقدر أن نقول إنّ مكة أكثر بلاد الله في اختلاط أجناس سكّانها واختلاف أزيائهم وتنوّع لهجاتهم وبلبلة ألسنتهم على أنّهم جميعاً يجتمعون على كلمة « لا إله إلاّ الله » التي وحدت بينهم .

وفي مكّة المكرّمة غير الحرم الشريف مزارات عظيمة الشأن من الوجهتين الدينية والتاريخية أهمّها مولد النبي وهو في شعب بني عامر ويسمونه شعب المولد . وهو مكان ينزل إليه بنحو متر ونصف بدرجات من الحجر يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار وفي جداره الغربي باب يدخل منه إلى قبة في وسطها مقصورة من خشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها وهي بقية الدار التي كان يسكنها عبد الله بن عبد المطلب وزوجه آمنة وولد فيها سيد العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكان قد وهبها المصطفى لابن عمّه عقيل بن أبي طالب فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج فلما بنى داره المشهورة باسم « دار ابن يوسف » وكانت بجوارها أدخلها فيها . ولما حجّت الخيزران أم الرشيد بحثت عن الدار التي كانت مهداً لأشرف الخلائق صلى الله عليه وآله وسلم فلما علمت بضمها إلى دار ابن يوسف اشترت تلك الدار وخرّبتها وفصلت منها موضع دار المصطفى وأعادتها إلى مثل ما كانت عليه وجعلتها مسجداً وهي لا تزال كذلك إلى يوم الناس هذا .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية مولد سيدنا علي عليه السلام وهي قريبة من مولد النبي وهي نفس الدار التي كان يسكنها الشيخ أبو طالب وولد فيها أمير المؤمنين وهي أقلّ اتّساعاً من دار المصطفى ولها من الاحترام في أنفس الناس الشيء الكثير .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية مولد سيدتنا فاطمة =

وَعَمَّـرَا فِيْ رِبَـاهَـا عِنْـدَ زَمْـزَمَ كَعْــــبَـةً لِتَعْبُـدَ فِيْهَــا آلنَّـاسُ بَــارِيْهَـا

= الزهراء عليها السلام وهي دار سيدتنا خديجة وموضعها في درب الحجر وفيها ولـدت للمصطفى كلّ أولاده وسمّيت « مولد فاطمة » لما علمت من الميزة التي خصّها الله ورسـوله بسيـدة النساء هذه، وهذه الدار ينزل إليها بجملة درجات توصل إلى طرقة وعلى يسار هذه الطرقة شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ثلاثين سنتمتراً ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً وهي اليوم مستعملة كتاباً يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه إلى طرقـة ضيقة عـرضها نحـو مترين وفيهـا ثلاثـة أبواب أحدها الذي عن اليسار يفتح على غرفة كـانت لعبادة المصـطفى وفيها كـان ينزل عليـه الوحي وعلى يمين الـداخل إليهـا مكان منخفض عن الأرض كـان محـل وضـوئـه والباب الذي قبالة الداخل إلى الطرقة يفتح على غرفة واسعة هي غرفته صلى الله عليه وآله وسلم مـع زوجه سيدتنا خديجة . والباب الذي على اليمين يفتح على غرفة مستطيلة واسعـة في وسطهـا مقصـورة صغيرة أقيمت على المكـان الذي ولـدت فيه سيـدة العالمين سيـدتنـا فـاطمـة الزهراء عليها السلام . ولما هاجر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنوّرة استولى على هذه الدار ابن عمّه عقيل بن أبي طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيـان فجعلها مسجـداً ، وعمرت في زمن الناصر العباس . ثم تهدّمت فأعاد عمارتهـا الأشرف شعبـان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان العثماني سنة ٩٣٥ للهجرة .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية التاريخية « دار الخيزران » وهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا . وهي دار الأرقم المخزومي التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يختبىء فيها مع من آمن معه في صدر بعثته ليقيموا الصلوات سرّاً . وباب هـذه الدار يفتـح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة واسعة غيـر مسقوفـة وعلى يسارهـا إيوان مسقـوف ، وفي وسط الحائط الذي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة واسعة كـانت مسجد المسلمين ولعلّه أول المساجد الإسلامية .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية غار حرّاء وهو الغار الذي كان يتعبّد فيه المصطفى ويصحبه إليه سيـدنا علي عليهمـا الصلاة والسـلام على ما تقـدم معنا في حاشية سابقة .

أمّا مقبرة مكة المكرّمة المسماة « المعلى » ففيها من القبور التاريخية العـظيمة مـا تطأطأ له الرؤوس خشوعاً فهناك ضريـح السيدة خـديجة زوج النبي ، وقبـة السيدة آمنـة =

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بَاتَتْ وَهْيَ عَاصِمَةٌ لِلْعُرْبِ طُرّاً وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ثَاوِيْهَا

كَانَتْ بِسُكَّانِهَا ٱلْأَمْجَادِ دَارَ عُلَىً مَا فِيْ ٱلْجَزِيْرَةِ مِنْ مِصْرٍ يُحَاكِيْهَا

لِذَا دَعَاهَا ٱلْوَرَى «أُمَّ ٱلْقِرَى» وَلَعَمْـرِيْ قَدْ أَصَابَ بِهَذَا ٱلْإِسْمِ دَاعِيْهَا

إِنَّ ٱلْقِرَى كُلَّهَا بَلْ وَٱلْمَدَائِنَ لَا تَأْبَى عَلَى مَكَّةَ ٱلْعُظْمَى تَأَمِّيْهَا

وَكَانَ سُكَّانُهَا أَسْمَى ٱلْأَعَارِبِ أَقْـدَاراً وَأَفْضَلَهُمْ مَجْداً وَتَوْجِيْهَا

أَوْلَادُ سَيِّدِنَا آسْمَاعِيْلَ نُسْبَتُهُمْ إِلَيْهِ حَسْبُ ٱلْمَعَالِيْ أَنْ نُسَمِّيْهَا

وَهُمْ قُرَيْشٌ وَمَا فِيْ ٱلْعُرْبِ أَجْمَعِهَا مُنَافِسٌ لِقُرَيْشٍ فِيْ تَسَامِيْهَا

وَٱلْعُرْبُ كَانَتْ لَهَا تَٱللّٰهِ طَائِعَةً وَلَمْ يَكُنْ آمِنَاً يَوْمَاً مُعَاصِيْهَا

فَكَانَ أَحْمَدُ يَرْجُوْ فَتْحَ مَكَّةَ كَيْ تَصُوْلَ شِرْعَتُهُ ٱلسَّمْحَا بِأَهْلِيْهَا

وَكَيْ يُطَهِّرَ بِٱلتَّوْحِيْدِ كَعْبَتَهَا فَلَا رَجَاسَةُ شِرْكٍ بَعْدُ تَأْوِيْهَا

وَعَهْدُهُ مَعْ قُرَيْشٍ كَانَ يَمْنَعُهُ عَنْهَا وَعُهْدَتُهَا مَا كَانَ نَاسِيْهَا

= والدة النبي ، وقبّة أبي طالب والد سيدنا علي ، وقبة عبد الله بن الزبير ، وقبر جعفر المنصور الخليفة العباسي وكان قد قدم مكة حاجّاً سنة ١٥٨ هـ فمات ودفن بالمعلى إلاّ أنّ قبر هذا الخليفة غير معروف خلافاً للقبور العظيمة بأصحابها السابق ذكرها وهناك شيء كثير من هذه القبور الأثرية .

ولا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ هذه المزارات المباركة الأثرية الدينية الثمينة مهملة جدّ الإهمال وليس فيها من دلائل العظمة شيء مما رأيناه في أوروبا من آثار عظمائهم ولا سيما في روما حيث يعتني النصارى كلّ العناية في تفخيم المواضع الأثرية الدينية التي عندهم وأعتقد أنّ هذا الإهمال هو من فساد الحكم التركي السابق ولا بدّ للدولة الحجازية الجديدة التي استقلت سنة ١٩١٦ في أثناء الحرب الأوروبية العامة أن تهتم بهذه المزارات المقدسة وتعمل على تعزيزها بالنفائس اللائقة بها من ثريات وقناديل وغير ذلك إشارة إلى ما لها في النفوس من صادق الاحترام .

لَكِنْ قُرَيْشٌ أَبَتْ إِلاَّ خِيَانَتَهُ — وَمَزَّقَتْ عَهْدَهَا ٱلسَّامِيْ بِأَيْدِيْهَا
فَلَمْ يَعُدْ مَانِعٌ تَٱللَّهِ يَمْنَعُهُ — عَنْ حَرْبِهَا فَجَرَى فِيْ ٱلْحَالِ يُمْضِيْهَا
وَقَدْ مَضَى مُسْرِعَاً فِيْ ٱلْأَمْرِ يُنْفِذُهُ — بِغَزْوَةٍ هَيَّأَ ٱلْبَارِيْ دَوَاعِيْهَا[1]

---

(١) ما كان الله ليرضى لرسوله أن ينكث عهوده وهو الآمر بالوفاء بها وما كان رسول الله لينكث عهده مع قريش وهو الأمين المأمون ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه سبحانه على كل شيء قدير وقد قال ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

إنّ رسول الله ﷺ أمضى عهد الحديبية مع قريش وهو كاره والمسلمون كارهون لكن قد صدق الله عزَّ وجلَّ القائل ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾فإنّ في أقل من عامين اثنين بلغ الإسلام مكانة عالية من نفوس العرب ما كان يقدّرها له المقدّرون حتى باتت قريش وهم أعدى أعدائه يخافون سطوة أهله ويرسلون زعيمهم أبي سفيان ليسترضي رسول الله ويستغفره على ما مرَّ بنا مع أنّهم قبل عامين كانوا يرفعون عقيرتهم منادين إنّ المسلمين لا يدخلون مكة حتى ولو حجاجاً مسالمين فسبحان محوّل الأحوال .

نعم هيأ الله لرسوله ﷺ سبباً لفتح مكة كرّمها الله ما كان يمرُّ على خاطره الشريف لأنّه لم يفكر قط بحنث عهده مع قريش ومبادرتهم العدوان بعد أن حالفهم على السلام لمدة عشرة أعوام وما ذلك السبب إلّا جرأة قريش نفسها على نكث عهدها بيدها ومناصرة حليفتها بكر على خزاعة حليفة المصطفى حينئذٍ بات المصطفى في حلّ من العهد الذي أمضاه وكان له أن ينتقم من المعتدين على حلفائه ويؤدبهم أيضاً ويلقي عليهم درساً نافعاً لا ينسونه أبداً وهو أنّ من أوجب واجبات الأفراد والجماعات المحافظة على عهودهم والثبات عليها مهما تبدّلت الأحوال .

نكثت قريش عهدها مع رسول الله في الوقت الملائم وأقرَّ ﷺ على محاربتها والاستيلاء على مكة التي هي حاضرة البلاد الحجازية وقبلة العرب أجمعين وكان يعلم يقيناً أنّ فتح مكّة هو الإنتصار النهائي لدين الله وللقضاء الأخير على الكفر والإشراك في شبه جزيرة العرب .

وأبى المصطفى ﷺ أن يتساهل مع أبي سفيان عندما جاء يستغفره لا بتجديد =

وَقَدْ تَسَرَّعَ لَمْ يُمْهِلْ قُرَيْشَ وَلَا أَضَاعَ فِرْصَةَ فَتْحٍ عَادَ مُلْقِيْهَا

= العهد ولا بتمديده كما كان يطلب وأسرَّ إلى أكابر صحابته بنيته على غزوة قريش ودخول مكة كرّمها الله عنوة . وبعد أن ارتحل أبو سفيان عائداً إلى مكة شمّر المصطفى عن ساعد العزم وأخذ يستعدّ لهذه الغزوة الكبرى التي ستكون الفاصل بين الحق والباطل . وبعد أن شاور صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه وأعدّ للحرب عدّته آذن بالغزو وآمر المسلمين بالجهاد ولكن من غير أن يعلم العامة بغرضه الذي يرمي إليه حتى لا يشيع الخبر فيتصل بقريش فتستعد للحرب . وأرسل إلى محالفيه من أهل البادية وإلى عموم المسلمين المنتشرين خارج المدينة المنورة أن يكونوا في أول رمضان من السنة الثامنة للهجرة في المدينة المنورة وما هلَّ هلال رمضان حتى هبط على مدينة الرسول قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وبني أسد وبني سليم وغيرهم فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده النبوي وخطب فيهم داعياً إلى الجهاد وأوصاهم بكتمان الأمر بقوله : « واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . ثمَّ دعا فقال : « اللهمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » ثمَّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرصد العيون والأرصاد في الطرق المتصلة بالمدينة المنورة حتى لا يتصل نبأ غزوته بقريش فتستعدّ لدفعه ومحاربته .

ولم يسلم المسلمون من منافق حاول أن يغدر بهم وهو حاطب بن أبي بلتعة فكتب كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه بمسير المسلمين لغزوهم وأرسله مع امرأة فعثر عليها بعض عيون المصطفى ففتشوها وأخذوا الكتاب منها وأرسلوها والكتاب إليه صلى الله عليه وآله وسلم فاستدعى حاطباً إليه وأطلعه على سوء فعلته فاعتذر وقبل عذره لكي لا تكون فتنة تفسد عليه سياسته .

وفي ٨ رمضان سنة ٨ هجرية « ١ يناير سنة ٦٣٠ مسيحية » خرج المصطفى بعشرة آلاف مقاتل يريد مكة كرّمها الله فيهم ٧٠٠ من المهاجرين وأربعة آلاف من الأنصار والباقون من رجال القبائل الآنفة الذكر . وبينما كان المسلمون في طريقهم إلى مكة لقيهم العباس عمّ النبي في مكان يدعى الجحفة وقيل ذو الحليفة وكان مهاجراً بعياله فرحّب به المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقال له : « هجرتك يا عمّ آخر هجرة كما أن نبوّتي آخر نبوّة » ولمّا علم العباس بالغرض السائر فيه المسلمون أرسل عياله إلى المدينة ورجع معهم وطفق يقول لأصحاب رسول الله : « إنّ نفسي رقّت لأهل مكة فوالله لئن دخلها محمد عنوة قبل أن يأتوه ويستأمنوه أهلك قريشاً » كان يقول عباس هذا لصحابة =

= رسول الله وهم قرشيون مثله يشعرون بما يشعر نحو الأمّة التي هم منها فوجدهم مثله حنواً وإشفاقاً وفي أنفسهم نحو أبناء بجدتهم مثل الذي في نفسه ثم كاشف بذلك ابن أخيه ﷺ فوجده على رغبة الرفق بقريش ولذلك لم يمنعه من المسير إليهم وتحذيرهم مغبة التمادي في عداوة المسلمين وأعطاه بغلته التي كان أهداها له دحية الكلبي ومضى بها مسرعاً لنصيحة قريش .

أما القرشيون فكانوا منذ عودة أبو سفيان من المدينة المنورة على قلق واضطراب من أمر محمد ﷺ يتوقعون أن يغزوهم كما كانو عارفين أنّهم لم يعودوا أكفّاء لصده عن مكة إذا قصدها غازياً فاتحاً وبينما هم لكذلك اتّصل بهم نبأ خروج محمد بأصحابه وأنصاره للغزو ولكنهم ، لم يعرفوا وجهته فخرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام من مكة يتجسسون أخبار المسلمين وما كادوا يصلون إلى الأراك وهو من ضواحي مكة المكرمة حتى صادفهم العباس عمّ النبي فسلّم عليهم وقال لأبي سفيان وكان صديقه : يا أبا سفيان هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به . فقال أبو سفيان : واصباحَ قريش فما الحيلة فداك أبي وأمي . فقال العباس : والله لئن ظفر بك محمد ليضربنَّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيك المصطفى فاستأمنه لك وليرجع صاحباك إلى مكة يشيران على أهلها بالتسليم . فقبل أبو سفيان وصاحباه رأي العباس ورجع صاحباه إلى مكة وركب هو رديفاً للعباس وسارا على بغلة المصطفى وما أبعدت بهما قليلاً حتى ظهرت لهما نيران المسلمين في موضع اسمه « مرّ الظهران » وكان الوقت ليلاً فتقدما منها ووجدا القوم قد حطوا رحالهم وأوقدوا نيرانهم وكانا كلما مرّا بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا ؟ ثمّ يتعرفون بغلة المصطفى ويقولون إنّه عمّ النبي فلا يتعرضون له . ولمّا مرّت البغلة بنار عمر بن الخطاب نهض لها وما أبصر أبا سفيان رديفاً للعباس حتى صاح « ها أبو سفيان عدوّ الله ، الحمد لله الذي قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد » وسار مسرعاً إلى المصطفى يستأذن بالفتك بأبي سفيان . أمّا العباس فلم يفته الخطر المحدّق بصاحبه فأركض البغلة حتى سبقت عمر وأسرع بإدخال أبي سفيان على المصطفى وتبعهما عمر وهو يلهث ويقول : « يا رسول الله هذا هو أبو سفيان عدوّ الله قد أمكننا الله منه من غير عقد ولا عهد فدعني لأضرب عنقه » فقال العباس : « يا رسول الله لقد أجرته » ثم جلس إلى رسول الله وأخذ برأسه الشريف =

= وقال : والله لا يناجيه الليلة رجل دوني . فما أصغى عمر لقول العباس وأخذ يكدّ في شأن أبي سفيان . فقال العباس : مهلاً يا عمر فوالله لو كان أبو سفيان من رجال بني عدي بن كعب (ويريد قبيلة عمر) ما قلت مثل هذا ولكنك قد عرفت أنّه من رجال عبد مناف فقال المصطفى إذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت ائتني به ففعل وانصرف عمر إلى مخيمه غاضباً .

وعندما أصبح الصباح غدا العباس بأبي سفيان إلى المصطفى فقال له ﷺ : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلاّ الله » قال أبو سفيان : « بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك للرحم لقد ظننت أنّه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنّي شيئاً بعد » فقال المصطفى : « ويحك يا أبا سفيان : أما آن لك تشهد أنّي رسول الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمّي أمّا والله هذه فإنّ في النفس منها شيئاً حتى الآن فارجئها» فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « سوف تؤمن » فقال أبو سفيان : « يا محمد ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزمت قريش فكفت أيديها تأمن ؟؟ » قال المصطفى : « نعم من كفَّ يده وأغلق بابه فهو آمن . ومن لجأ إلى الكعبة فهو آمن » ثمّ قال ﷺ للعباس : سر بصاحبك أبي سفيان إلى مضيق الوادي حتى تمرّ به جنود الله فيراها « أراد بذلك أن يري زعيم أعدائه الحول الذي آتاه الله فتنكسر نفسه ولا يعود إلى ما مضى من لؤمه وعدائه فيغرّر بقريش ويحملها على مناوأته فينالها ما نال سواها من القبائل العربية التي ما زالت تناوئه حتى بطش بها وأبعدها عن ديارها وأمن شرّها » .

وفي الحقيقة أنَّ قريشاً على ما كانت عليه من حول وطول كان من الضروري أن تنضمَّ إلى الإسلام وتقوم بنشره كما كان من الضروري أيضاً أن يحتفظ بها سيدنا محمد ﷺ لأنّها عشيرته وأهل عصبيته وعصبية أصحابه ولا قوام للممالك إلاّ بعصبياتها كما قرّر علماء الاجتماع فإنّ الدول تقوى بقوة عصبيتها وتضعف بضعفها . ولهذا كان همّ رسول الله وأصحابه أن يرضخ القرشيون للقوة الإلٓهية القاهرة ويسلموا له بغير حرب فيدخل مكة هادياً محرراً منقذاً مؤدباً ولا يدخلها فاتحاً غازياً قاهراً مخرباً .

أمّا العباس فسار بصاحبه أبي سفيان إلى ذلك المضيق بينما كان المسلمون يستعدون للمسير إلى مكة كرّمها الله وأخذت قبائلهم تسير في طريق ذلك الوادي وهي =

= متحمسة لدخول البلد الذي كان قبلة العرب فصار قبلة المسلمين يولوا إليه وجوههم من كل الأرض .

وكان أبو سفيان دهشاً مما يرى من القبائل معجباً بنشاط رجالها وحماسهم وما يظهر عليهم من دلائل القوة والبأس وما زال كذلك والقبائل تمرّ من أمامه حتى أقبلت الأوس والخزرج وهما الأنصار وكانت رايتهم مع سعد بن عبادة فلما حاذى سعد أبا سفيان والعباس نظر إليهما بعينين ملؤهما الحقد على قريش وقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الكعبة ، اليوم أذلَّ الله قريشاً » فاضطرب أبو سفيان لهذا القول وقال للعباس : « والله إنّ ابن أخيك لمهلك قومه » فقال العباس : « كلا فإنّ ابن أخي أوصل لرحمه من كل إنسان عرفته » وبعد قليل مرّ المصطفى بكتيبة خضراء وهو على ناقته القصواء وإلى يمينه سيدنا علي بن أبي طالب وحولَهما عليهما الصلاة والسلام رؤساء المهاجرين والأنصار فاعترض المصطفى أبو سفيان صائحاً : « يا محمد لعلّك أمرت بقتل قومك ، فقد زعم سعد أنّه قاتلنا ومذلّ كعبتنا ومذلّنا ، فأنشدك الله في قومك ، وأنت أبرّ الناس وأرحمهم وأوصلهم للرحم » فتبسم المصطفى من مقالة أبي سفيان الدالة على انكسار نفسه وانخذاله ونظر إليه نظرة المشفق وبينما هو لكذلك وإذ تقدم من ناقته ﷺ عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وقالا : « يا رسول الله إنّ أبا سفيان لم يقل إلاّ الحق فإنّا لا نأمن من سعد أن تكون له صولة في قريش » حينئذٍ مال ﷺ بوجهه الشريف إلى أبي سفيان وقال : « كذب سعد يا أبا سفيان ، فاليوم يوم المرحمة ، اليوم أعزّ الله قريشاً ، اليوم يعظّم الله الكعبة ، اليوم تكسى الكعبة » ثمّ توجه بنظره إلى عليّ وأمره أن يسرع إلى سعد وينزع منه اللواء ويحمله ويستلم قيادة الجيش . وحينئذٍ اطمأن أبو سفيان بالاً وقال للعباس « والله ما لأحد قِبَل لهؤلاء ولا طاقة يا أبا الفضل فقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » فقال العباس : « والله إنّها النبوّة » فقال أبو سفيان «نعم والله فما الرأي عندك يا أبا الفضل ؟؟ » فقال العباس : « أسرع يا صاح إلى قومك واجهد في حملهم على الخضوع والتسليم » فامتثل أبو سفيان وأسرع بجواده إلى مكة كرّمها الله .

لما سار العباس بأبي سفيان إلى معسكر المصطفى عاد رفيقاه بديل وحكيم بن حزام فأخبرا أهل مكة بمقدم محمد عليهم غازياً فاتحاً بجيش جرار لا تقوى قريش على =

فَقَـالَ أَرْجِـعْ فَـإِنَّ ٱلْعُـرْبَ طَـالِبَـةٌ   دُخُـوْلَ مَكَّـةَ مَـا ٱلْأَخْـطَارُ تُثْنِيْهَـا

= صدّه.فجزعوا لها النبأ وأخذوا يضربون أخماساً لأسداس فيما يفعلون لحماية مدينتهم المقدسة من المسلمين ولم يتفقوا على رأي لأنّ الضعف قد أخار عزائمهم وبينما هم في هذا القلق وكل طائفة منهم على رأي وإذا بأبي سفيان داخل مكة وهو يصرخ بملء فيه « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به فاستأمنوه » فأزاد صراخه في جزع القوم وكثر الشغب بينهم واختلطت نساؤهم برجالهم وكان في مقدمة النساء زوج أبي سفيان هند بنت عتبة أم معاوية ، فتقدمت من زوجها أبي سفيان وأخذت بلحيته وجعلت تنادي « يا آل غالب اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، قُبح من طليعة قوم ، ودافعوا عن أنفسكم وبلدكم » فانتهرها أبو سفيان قائلاً « ويحكِ اسكتي وادخلي بيتك » وقال للناس « ويحكم لا تغرّنكم هذه المرأة من أنفسكم ، فإنّ محمداً قد جاءكم بما لا قِبلَ لكم به ، فمن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل بيته وأغلقَ بابه فهو آمن » فأصغت أكثر قريش لنصيحة أبي سفيان ولاذ بالكعبة من لاذ ولجأ إلى بيته من لجأ ولم يبق على فكرة لقاء المسلمين وصدّهم عن مكة إلّا العدد القليل ممن كان الغرور يملأ رؤوسهم .

ولما دنت جيوش المسلمين من مكة كرّمها الله أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالداً بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ويغرز رايته عند أدنى البيوت وقال « لا تقاتلوا إلّا من قاتلكم » وأمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة في جملة من قبائل العرب من جهة الحجون ويغرز رايته هناك وأمرهم كما أمر الأولين . وأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يقود المشاة ويأخذ معهم بطن الوادي وأمرهم كما أمر الذين من قبلهم. وهكذا انقسمت جيوش المسلمين إلى ثلاث سرايا وهاجمت مكة المكرّمة من أطرافها الثلاث فدخلتها من أعلاها صلحاً ومن أسفلها عنوةً إذ تصدّى للمسلمين بعض قريش فقتل بعضهم خالد بن الوليد وجيشه وفرّ الباقون .

ثمّ أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة المكرمة دخول الفاتح المنصور وإلى يمينه ربيبه ووصيّه سيدنا علي أمير المؤمنين وحولهما عليهما الصلاة والسلام أكابر الصحابة . وكان الرسول وقتئذٍ على ناقته القصواء وهو معتمٌّ بشقة برد حمراء وقد وضع رأسه الشريف على رحل ناقته تواضعاً لله عزّ وجلّ وكان دخوله بموكبه الحافل هذا من كداء وكان في دخوله يقرأ سورة الفتح ولمّا جاء البيت طاف به سبعاً على راحلته وكان =

فَقَـالَ: لٰكِنْ قُرَيْشٌ قَـدْ تُضَعْضِعُهَـا   هٰذِيْ ٱلْجُيُوْشُ ٱلَّتِيْ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا

= محمد بن أبي مسلمة آخذاً بزمامها ليستلم الحجر بمحجتين في يده ثم أخذ المصطفى مفتاح الكعبة من صاحبها عثمان بن طلحة الشيبي ووقف على باب الكعبة كرّمها الله والناس بين يديه جماعات وقال : « لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يدّعي به فهو تحت قدميَّ هاتين ؛ إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج » ثمَّ قال « يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ثمَّ قال : « يا معشر قريش ما تظنون أنّي فاعل بكم ؟؟ » فصاحت جموعهم « خيراً . أخ كريم . وابن أخ كريم » فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ودخل في الإسلام في يوم الفتح هذا معظم رجالات قريش وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية . وأطلق عليهما وعلى أمثالهما ممّن أسلم معهما يوم الفتح اسم « الطلقاء » .

وفي مساء يوم الفتح أخذ رسول الله ﷺ يفكّر بتطهير الكعبة المكرّمة من أرجاس الوثنية بإزالة ما عليها وما في مسجدها من الأصنام والأنصاب قالوا وكان في الكعبة ٣٦٠ صنماً لكلّ حيّ من أحياء العرب صنم خاص . وحسن للمصطفى بعد إعمال رويته ومناجاة خالقه أن يذهب إليها في جنح الدجى ويحطّم أصنامها بيديه الشريفتين فيصبح الناس ولا أثر لوثنيتهم في البيت المخصص لعبادة الله الواحد الأحد . ولم يصطف المصطفى لمعاونته في هذه المهمة المقدسة غير أخيه وصنوه ووزيره المرتضى عليهما الصلاة والسلام فخفَّ إلى مخيمه وكان قريباً منه ودعاه إليه وهرولا مسرعين إلى الكعبة كرّمها الله فطافا بها سبعاً تحت جنح الدجى ثمَّ عكفا على هاتيك الأصنام فكان المصطفى يضربها بقضيب في يده فتتحطم وهي كما تعلم من الصخور والحجارة بمعجزة إلّهية وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً » وكان عليّ يبعثر حطامها هنا وهناك ليختلط بعضها ببعض وما زالا كذلك حتى أتيا عليها كلّها ولم يبق أمامهما إلّا الصنم الأكبر وقد كان مقرّه فوق سطح الكعبة وهو مثبت فيها فعمد المصطفى إلى الصعود إلى سطح الكعبة لتحطيمه فقال لعلي : اجلس . فجلس علي القرفصاء وصعد رسول الله على منكبيه وقال : انهض . فنهض علي متثاقلاً بعض النهوض فلما رأى رسول الله ضعفه بالرغم عمّا اشتهر من قوته تبسم وقال : « اجلس فإنّك لا تستطيع حمل ثقل النبوّة » فجلس علي ونزل المصطفى من =

دَعْنِي أَسِيْرُ إِلَيْهَا ٱلْيَوْمَ أَنْصَحُهَا   عَسَى تَطِيْعُ وَلَا تُبْدِي تَعَصِّيْهَا
فَمَا لَنَا نَدْحَةٌ عَنْهَا لِنَصْرَةِ دِيْـ   ـنِ ٱللَّهِ فَٱرْفِقْ بِهَا دَعْنِي أُدَارِيْهَا
فَقَالَ : سِرْ مُسْرِعَاً وَٱجْهَدْ لَعَلَّكَ بِٱلـ   ـتَّسْلِيْمِ لِلَّهِ وَٱلْإِسْلَامِ تُرْضِيْهَا
وَهٰذِهِ بَغْلَتِي تَطْوِيْ ٱلْفَلَاةَ بِهَا   مَعَ ٱلرِّيَاحِ وَلَا تُبْطِي بِمَاطِيْهَا
كَذَا ٱمْتَطَى بَغْلَةَ ٱلْهَادِيْ وَسَارَ بِهَا   يَطْوِيْ ٱلْقِفَارَ مُجِدًّا فِيْ فَيَافِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ مَكَّةٍ وَبَدَتْ   لَهُ ٱلْجِبَالُ ٱلَّتِيْ تَغْشَى مَبَانِيْهَا
رَأَى هُنَاكَ أَبَا سَفْيَانَ مَعْهُ حَكِيْـ   ـمٌ مَعْ بَدِيْلٍ عُيُوْنَاً فِيْ مَمَاشِيْهَا
قَدْ أَرْسَلَتْهَا قُرَيْشٌ لِلتَّجَسُّسِ عَنْ   طَهَ مَخَافَةَ بِٱلْعُدْوَى يُفَاجِيْهَا

= على منكبيه وفي الحال جلس القرفصاء وقال لعلي : إصعد . فامتنع علي عن الصعود احتراماً لشخص رسول الله فكرّر عليه القول : إصعد يا علي . فصعد علي بن أبي طالب على كاهل محمد النبي العربي الأمّي عليهما الصلاة والسلام فنهض به . وحدَّث عليٌّ الناس عن وقفته تلك على كاهل رسول الله فقال : لما نهض بي رسول الله خيّل لي أنّي لو شئت لنلت أُفق السماء بل لو شئت أن أتناول الثريا بيدي لفعلت . وحينما بلغ علي سطح الكعبة تناول ذلك الصنم الضخم بيديه القويتين فخلعه من الأوتاد المثبت بها وقذف به إلى أرض الكعبة فتحطم وتحطمت معه الوثنية من جزيرة العرب كلها . ثمَّ نزل عن كاهل المصطفى وسارا معاً وقد قضيا القضاء الأخير على كل كفر وإشراك وعادا عليهما الصلاة والسلام إلى فراشيهما . وعند الفجر أذّن بلال وأسرع الناس للصلاة في الكعبة فوجدوا الأصنام قد تحطمت وصلّوا صلاة الفجر وراء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . وبعد الصلاة أعاد رسول الله مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة الشيبي سادنها ثانية ولا يزال مفتاح الكعبة في أعقابه إلى يوم الناس هذا .

وقد كان فتح مكة أعظم حادث في الإسلام أصبحت بعده قريش في مقدمة أنصاره واستعادت بالإسلام المكانة العليا التي كانت لها في الجاهلية فلا عجب إذا قلنا أنّه لم يمض على فتح مكة سنتان حتى دانت جزيرة العرب بالإسلام وتلاشى من ربوعها كل أثر للأديان الأخرى .

وبَيْنَمـا هِيَ تَسْعَى سَعْيَهـا وَجَـدَتْ   عَمَّ ٱلـرَّسُـوْلِ بِإسْـرَاعٍ مُـرَافِقِيْهـا

وَأَقْـبَلَتْ نَـحْـوَهُ تَـجْـلُوْ خَـبِيْـئَـتَـهُ   لَعَلَّ عَنْ جَيْشٍ هادِيْ ٱلْخَلْقِ يُنْبِيْها

فَقَالَ : وَيْحكَ يَا صَخْرُ فَقَدْ هَلَكَتْ   قُـرَيْشُ ٱبْـنُ أَخِيْ آتٍ لِـيُفْـنِـيْـهَـا

وَأَنْـتَ أَوَّلُ مَنْ يَـقْضِـيْ بِـهَـلْكَتِـهِ   عَلى ٱلْمَسـاوِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتَ تَأْتِيْها

أَعِـدْ رَفِيْقَيْـكَ حَـالاً يُنْبِئَـانِ قُـرَيْـــشَـاً أَنْ تُسَلِّمَ وَٱلتَّسْلِيْمُ يُـنْجِـيْهَـا

وَسِـرْ عَلى بَغْلَةِ ٱلْهَـادِيْ وَرائِي كَيْ   تَصُـوْنَ نَفْسَـكَ مِنْ هُلْكٍ يُـلاَقِيْهَـا

أَنَـا أُجِيْـرُكَ عِنْـدَ ٱلْمُصْـطَفَى وَإِجَـا   رَتِـيْ وَحَقِّـكَ مَـا طَـهَ بِـآبِـيْهَـا

أَصْغَتْ عُيُوْنُ قُرَيْشٍ لِلنَّصِيْحَةِ وَٱلْـــعَبَّاسُ قَدْ كَانَ بِٱلْإِخْلاَصِ يُسْدِيْهَا

وَعَـادَ إِبْنُ حِـزَامٍ مَـعْ بَدِيْـلَ إِلَى   قُرَيْشَ كَيْ يُبْلِغاهَـا ٱلنُّصْحَ تَجْـرِيْها

وَأَرْدَفَ ٱلْـبَـرُّ عَـبَّـاسٌ وَرَاهُ أَبَـا   سَفْيَانَ سَارَ بِهِ فِيْ ٱلْأَرْضِ يَطْوِيْهَـا

حَتَّى إِذَا أَشْـرَفَـا بَعْـدَ ٱلْمَسِيْـرِ عَلى   مَنَـازِلٍ جَيْشُ طَـهَ كَـانَ مَـالِيْهَـا

وَكَانَ جِنْحُ ٱلدُّجَى يَمْلَأ ٱلْفَضَاءَ وَنَا   رُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ تَضِيْ فِيْـهِ لَـوَاظِيْهَـا

مَـرَّا عَلَيْهَـا وَمَـا شَـامَـا مُعَـارَضَـةً   لِأَنَّ بَـغْـلَةَ طَـهَ ٱلْـكُـلُّ دارِيْـهَـا

لٰكِنَّمَـا عُمَـرٌ مَـا إِنْ تَـبَيَّـنَ صَخْـــرَاً صَاحَ إِيْهَـاً أَبَـا سَفْيَـانِنَـا إِيْهَـا

قَـدْ جِئْتَنَا حَيْثُ لاَ عَهْـدٌ تَصُـوْنُ بِـهِ   هٰـذِيْ ٱلْحَيَاةَ ٱلَّتِيْ بِـٱلْإِثْمِ تَقْضِيْهَـا

فَـٱعْلَمْ بِـأَنِّيَ هٰـذَا ٱلْيَـوْمَ مُنْتَقِمٌ   لِشِـرْعَـةِ ٱللَّهِ مِنْ أَعْـدَى أَعَـادِيْهَـا

وَسَــارَ يَقْصِـدُ طَـهَ وَسْطَ خَيْمَتِـهِ   وَكَـانَ سَـابِقَـهُ ٱلْعَبَّـاسُ آتِيْـهَـا

طَـالَ ٱلْجِدَالُ وَثُمَّ قَـالَ أَحْمَـدُ لِلْـــعَبَّاسِ : عَوِّهْ أَبَـا سَفْيَـانَ تَعْـوِيْهَـا

إِلَى صَبَاحِ غَـدٍ حَتَّى نَـرَى فَـأَنَـا   لاَ أَظْلِمُ ٱلنَّـاسَ يَـا عَمَّـاهُ تَعْمِيْهَـا

وَفِيْ غَـدٍ جَـاءَ عَبَّـاسٌ بِصَخْـرَ إِلَى   مُحَمَّـدٍ وَثِيَـابُ ٱلـذُّلِّ كَـاسِيْهَـا

فقَـالَ : أَحْمَـدُ آمِنْ يَـا زَعِيْمَ قُـرَيْـــشٍ قَـالَ: مَسْأَلَـةُ آلإِيْمَانِ نُـرْجِيْهَا

فَقَــالَ مُبْتَسِمَــاً: لَا بُــدَّ تُؤْمِنُ يَــوْ مَـاً إِنَّنِيْ مُـرْسَـلٌ لِلنَّـاسِ أَهْــدِيْهَـا

فَقَالَ صَخْرٌ: أَلَا تُـوْلِي آلْأَمَانَ قُـرَيْـــشَـاً إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا فِيْ مَـآوِيْهَـا

فَقَالَ أَحْمَدُ: مَنْ أَلْقَى آلسِّـلَاحَ أَمِيْـــنٌ أَوْ بَغَى آلْكَعْبَـةَ آلْعَلْيَـاءَ يَـأْوِيْهَـا

ثُمَّ أَشَــارَ إِلَى آلْعَبَّـاسِ قِفْ بِــأَبِيْ سَفْيَانَ كَيْ يَعْرِضَ آلْأَجْنَادَ يُحْصِيْهَا

فَسَارَ صَخْرٌ مَعَ آلْعَبَّاسِ نَحْـوَ مَضِيْـــقٍ مِنْـهُ طَـهَ جُنُـوْدُ آللَّهِ يُمْشِيْهَـا

هُنَاكَ قَـدْ وَقَفَـا وَآلْعُـرْبُ سَـائِـرَةٌ إِلَى قُـرَيْشٍ صُفُـوْفَـاً فِيْ تَتَـالِيْهَـا

حَتَّىٰ إِذَا مَـرَّ بِـآلْأَنْصَـارِ قَـائِـدُهَـا سَعْـدٌ وَرَايَتُهَـا آلـزَّهْـرَاءِ مُعْلِيْهَـا

نَـادَى بِصَخْرٍ: بِهَـذَا آلْيَوْمِ كَعْبَتُكُمْ قَـدِ آسْتُحِلَّتْ لَنَا مَـعْ قَهْـرِ حَـامِيْهَـا

وَآلْيَـوْمَ ذَلَّتْ قُـرَيْشٌ بَعْـدَ عِـزَّتِهَـا عَلَى يَــدَيْنَا وَقَــدْ بِتْنَـا مُــذِلِّيْهَـا

فَهَـالَ تَهْدِيْـدُ سَعْـدٍ نَفْسَ صَـاحِبِنَـا صَخْرٍ وَبَاتَتْ وَهَـوْلُ آلذُّلِّ غَـاشِيْهَا

حَتَّىٰ إِذَا مَـرَّ طَـهَ بَيْنَ كَـوْكَبَـةٍ خَضْـرَاءَ مِنْ جِنْـدِهِ بَـادٍ تَسَـطِّيْهَـا

وَآلْمُـرْتَضَى بَطَلُ آلْإِسْـلَامِ يَصْحَبُهُ فِيْ سَيْـرِهِ صِحْبَـةً تَسْمُـوْ مَعَـانِيْهَـا

نَادَاهُ صَخْرٌ: أَبَيْتَ آللَّعْنَ أَحْمَدُ هَلْ تَسِيْـرُ نَحْـوَ قُـرَيْشَ آلْيَـوْمَ تُـرْزِيْهَـا

أَتَسْتَحِــلُّ فَــدَتْـكَ آلنَّفْسُ كَعْبَتَنَــا وَهَــلْ مَـذَلَّتُنَـا أَصْبَحْتَ بَــاغِيْهَـا

فَـإِنَّ سَعْدَاً بِـذِيْ آلْوَيْـلَاتِ هَـدَّدَنِيْ وَقَـالَ لِيْ سَـائِـرٌ ذَا آلْيَـوْمَ يُجْـرِيْهَـا

فَآسْتَغْرَبَ آلْمُصْطَفَى تَهْدِيْدَ صَاحِبِهِ لِقَـوْمِـهِ وَهْــوَ لَا يَـرْضَى تَــلَاشِيْهَـا

وَقَـالَ عُثْمَـانُ : لَا أَمْنٌ بِسَعْـدَ عَلَى قُـرَيْشَ أَبْعِـدْهُ عَنْهَــا فَهْـوَ مُؤْذِيْهَـا

كَـذَا آبْنُ عُوْفٍ لَقَـدْ ثَنَّى مَقَالَـةَ عُثْـــمَـانٍ وَكَـانَ رَسُــوْلُ آللَّهِ مُصْغِيْهَـا

حَتَّى إِذَا آنْتَهَيَـا مَـالَ آلـرَّسُـوْلُ إِلَى أَصْحَــابِـهِ بِــآلَّــذِيْ تَبْغِي يُمَنِّيْهَـا

وَقَالَ : أَقْوَالُ سَعْدٍ كُلُّهَا كَـذِبٌ   وَلَسْتُ أَسْمَحُ أَنْ تَجْرِيْ أَحَاشِيْهَا
فَٱلْيَوْمَ يَوْمٌ بِهِ لِلنَّاسِ مَرْحَمَـةٌ   فَـلَا وَرَبِّـكَ لَا تَسْعَى لِتُشْقِيْهَـا
وَٱلْيَـوْمَ يَـوْمٌ أَعَـزَّ ٱللَّهُ فِيْـهِ قُـرَيْـــشَـاً عِـزَّةً وَبِـهِ أَخْزَى مُـذِلِّيْهَـا
وَٱلْيَـوْمَ عَـظَّمَ رَبُّ ٱلْعَـرْشِ كَعْبَتَـهُ   وَإِنَّنِيْ بِٱسْمِهِ ٱلْقُـدُّوْسِ كَـاسِيْهَـا
ثُمَّ ٱنْثَنَى لِـعَلِيٍّ قَـالَ : لَـيْسَ لَنَـا   إِلَّاكَ مَنْ يَـدْفَـعُ ٱلْأَخْـطَارَ يُقْصِيْهَـا
أَسْرِعْ إِلَى سَعْدَ خُذْ فِيْ ٱلْحَالِ رَايَتَهُ   وَقُـدْ جُيُوْشِيْ وَكُنْ لِلنَّصْـرِ مُخْطِيْهَـا
مَضَى أَبُـوْ حَسَنٍ فِيْ أَمْـرِ صَـاحِبِـهِ   وَمَـا أَوَامِـرُهُ إِلَّاهُ يُـمْـضِـيْـهَـا
وَسَـارَ بِـٱلـرَّكْبِ طَـهَ وَهْيَ مُنْشِـدَةٌ   حَـوْلَيْهِ عَنْ طَـرَبٍ أَشْجَى أَغَـانِيْهَـا
وَقَالَ صَخْرٌ : غَدَا مُلْكُ ٱلْأَمِيْنِ عَظِيْـــمَـاً وَهْـوَ قَـاهِـرُ أَعْـدَاهُ وَمُخْـزِيْهَـا
فَقَـالَ عَبَّاسُ: بَـلْ هٰـذِيْ ٱلنُّبُوَّةُ قَـدْ   تَعَـزَّزَتْ وَتَعَـالَتْ فِيْ مُـرِيْـدِيْهَـا
أَسْـرِعْ إِلَى مَكَّةٍ وَٱنْصَـحْ جَمَاعَتَهَـا   بِـأَنْ تُقَـابِـلَ بِـٱلتَّـرْحِيْبِ آتِيْهَـا
فَجَـدَّ جَـدَّاً أَبُـوْ سَفْيَـانَ مُبْتَغِيَـا   نَصِيْحَةَ ٱلْقَوْمِ يَـأْبَى أَنْ يُمَارِيْهَـا[1]

(١) يحسن بنا هنا أن نذكر شيئاً من ترجمة أبي سفيان هذا فنقول : هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي المكي كان في الجاهلية تاجراً يبيع الزيت والأدم ويجهز التجارة بماله وأموال قريش إلى بلاد الشام والعراق . وكان من سادات قريش المعدودين وما زال كذلك إلى أن قامت قيامة قريش على الهواشم وتحالفت ضدها قبيل الهجرة حينئذٍ انتهت إليه زعامة قريش العليا وأصبح وكلمته نافذة على الجميع وأخذ على عاتقه محاربة الإسلام والمسلمين . وكان عند الهجرة في نحو السابعة والخمسين من عمره وقد مرَّ معنا فيما تقدم من مجمل حوادث المغازي النبوية الجهد الذي بذله أبو سفيان لإطفاء نور الله وأبى الله إلّا أن يتمّ نوره .

وفي السنة السادسة للهجرة قصد أبو سفيان الشام للتجارة فأحبّ هرقل ملك الروم وكان وقتئذٍ في الشام أن يقف منه على ما كان يسمعه من نبأ محمد والإسلام فاستدعاه =

وَإِذْ أَتَى مَكَّـةَ نَـادَى بِهَـا عَلَنَـاً: إِنَّ ٱلْأَمِيْنَ عَلَى ٱلْأَبْـوَابِ غَـازِيْهَـا
وَإِنَّــهُ مُـعْـلِنٌ فِـيْـهَـا ٱلْأَمَـانَ إِذَا مَـا سَـالَمَتْـهُ وَلَمْ تُـظْهِـرْ تَعَصِّيْهَا
وَهٰكَذَا سَلَّمَتْ أُمُّ ٱلْقِرَى لِنَبِيِّ ٱللَّهِ سِلْمَـاً وَكَـانَ ٱلْخَـوْفُ فَـاشِيْهَـا
وَهٰكَـذَا فُتِحَتْ لِلْمُسْلِمِيْـنَ حُصُـوْ نُ ٱلْمُشْـرِكِيْنَ ٱلأُلَى هَابُـوا تَدَاعِيْهَـا
وَمَـا دَرَى أَهْلُهَـا إِلَّا وَأَحْمَـدُ فِيْ رُبُـوْعِهَا بِجُمُـوْعٍ تَـاهَ مُحْصِيْهَـا
فَمِنْ مُشَـاةٍ وَقَـدْ أَنْضَتْ مَـوَاضِيْهَا وَمِنْ كُمَـاةٍ وَقَـدْ هَـزَّتْ عَـوَالِيْهَـا
وَبَيْنَهَـا ٱلْمُصْطَفَى بِـٱلنَّصْرِ دَاخِلُهَـا وَبِـٱلْخُشُـوْعِ وَبِـٱلتَّقْـوَى مُـوَافِيْهَا
قَدِ ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْـوَاءَ وَهْيَ بِهَا دِيْ ٱلْخَلْقِ مُـطْرَبَةٌ تُبْـدِيْ تَهَـادِيْهَـا
وَرَأْسُـهُ طَـاعَـةً لِـلَّهِ مُلْتَـصِـقٌ بِـرَحْلِهَـا وَهْـوَ آيُ ٱلْفَتْـحِ تَـالِيْهَـا
تَـرَى ٱلْغُزَاةَ بِفِـرْزِ ٱلرَّحْـلِ مُمْسِكَةً تُـوَحِّـدُ ٱللَّهَ أَوْفَى ٱلنَّصْـرِ مُـوْلِيْهَـا

=إليه وباحثه في الأمر ملياً بواسطة ترجمان وقال أبو سفيان لأصحابه بعد أن خرج من عند ملك الروم « لقد أمر ابن أبي كبشة (ويريد محمداً ﷺ) وأصبح ملوك الـروم يهابـونه في سلطانهم » وعرف الناس من قوله هذا أنّ أبا سفيان فهم من حديث هرقل بـأنّه بـات متخوفاً من الإسلام الذي ظهر في بلاد العرب . ومع ذلك ظلّ أبـو سفيان هـذا متمادياً بعداوة المصطفى يحارب المسلمين جهده ويحزّب الأحزاب ضـدهم إلى يوم فتـح مكة حيث أسلم مع بقية قريش كما تقدم .

وأول شـاهد أبي سفيـان مع المسلمين كـانت في غـزوة حنين في السنـة الثـامنـة للهجـرة ولما قسمت الغنـائم أعطاه المصـطفى مئة بعيـراً منهـا إشـارة إلى مكـانتـه في قـريش . ثمَّ اشترك أبـو سفيان في يـوم الطائف فـأصابتـه نبلة في إحـدى عينيـه ففقئت وأصبح أعور . واشترك أبو سفيان في واقعة اليرموك سنة ١٣ للهجرة على عهـد أبي بكر فأصابت نبلة عينه الثانية ففقأتها وأصبح أعمى . وتـوفي أبو سفيـان في دمشق عند ولـده معاوية وكان واليها سنة ٣١ للهجرة عن ٨٨ سنة ودفن فيها .

كَـانَتْ تُكَبِّرُ تَكْبِيْـراً دَوَى بِفَضَـا ... أُمِّ ٱلْقِـرَى دَاعِيَـاً لِلْحَقِّ أَهْـلِيْهَـا

وَإِذْ أَتَى ٱلْكَعْبَـةَ ٱلزَّهْـرَاءَ طَافَ بِهَا ... سَبْعَـاً يُسَابِقُ فِيْهَـا مُسْتَـطِيْفِيْهَـا

ثُمَّ عَلَى بَـابِهَـا أَلْقَـى خِـطَابَتَـهُ ... وَٱلنَّـاسُ تَعَجَبُ إِعْجَـابَـاً بُمُلْقِيْهَا

فَـوَحَّـدَ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـرْشِ نَـاصِـرَهُ ... عَلَى عِـدَى ٱلـدِّيْنِ إِنْسِيْهَا وَجِنِّيْهَا

وَقَـالَ إِنَّ دَعَـاوِيْ ٱلْقَـوْمِ بَـاطِلَةٌ ... فَلْتَعْدِلِ ٱلنَّاسُ عَـنْ مَاضِيْ دَعَاوِيْهَا

إِلَّا سَـدَانَـةُ بَيْتِ ٱلـلَّهِ كَـعْبَتِـهِ ... إِنِّيْ لَتَـارِكُـهَـا عَفْـوَاً لِـشَيْبِيْـهَـا

كَـذَا ٱلسِّقَـايَـةُ مُبْقِيْهَـا لِصَـاحِبِهَـا ... كَيْمَـا يُلَاقِيْ بِهَـا ٱلْحُجَّـاجَ يَسْقِيْهَـا

وَيَا قُرَيْشُ دَعِيْ مَاضِيْ ٱلتَّعَاظُمِ بِٱلآ ... م بَـاءِ خَيْـرُ عِبَـادِ ٱلـلَّهِ تَـاقِيْـهَـا

فَـٱلنَّـاسُ مِنْ آدَمٍ طُـرَّاً وَآدَمُ مِـنْ ... تِرَابِ ذِيْ ٱلْأَرْضِ جَلَّ ٱللَّهُ ذَارِيْهَا

وَمَـا تَـظُنِّيْنَ إِنِّيْ ٱلْيَـوْمَ فَـاعِلُهُ ... فَـأَحْسَنَتْ كُلُّهَـا فِيْـهِ تُـظَنِّيْـهَـا

فَقَـالَ: أَنْتُمُ يَـا أَهْـلَ ٱلْـوَلَا طُلَقَـا ... ءُ فَـٱذْهَبُـوْا وَبِكُمْ نَفْسِيْ أُهَنِّيْـهَـا

وَإِذْ رَأَتْ كَـرَمَ ٱلْهَـادِيْ قُـرَيْشٌ فَلَمْ ... يَبْـطُشْ بِهَا بَـلْ غَدَا لُـطْفَاً يُؤَاسِيْهَـا

تَـشَهَّـدَتْ أَسْـلَمَـتْ لِـلَّهِ رَاضِيَـةً ... بِـدِيْنِ أَحْمَـدَ غَـازِيْهَـا وَوَالِيْهَـا

وَبِـٱلْحَنِيْفِيَـةِ ٱلسَّمْحَـاءِ قَـدْ رَضِيَتْ ... دِيْنَـاً وَطَـابَ لَهَـا صَـافِيْ تَفَيِّيْهَـا

وَفِيْ دُجَى ٱللَّيْـلِ وَٱلْأَعْرَابُ نَـائِمَةٌ ... بِمَكَّـةٍ فِيْ أَمَـانٍ مِنْ غَـوَاشِيْهَـا[1]

---

(١) إنّ الكعبـة المعظمـة وهي التي تسمى « البيت العتيق » بناهـا سيدنـا إبراهيم وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام لما هاجرا إلى مكة بنياها على شكل مربع زواياه إلى الجهات الأربع حتى تتكسر عليها تيارات الهواء فلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها ، وطـريقة البنـاء هذه هي التي اتّبعهـا الفراعنـة في بناء الأهـرام المصريـة فكانت مـوضع إعجاب أكابر مهندسي العالم في كل عصـر . وما زالت الكعبـة على بناء إبـراهيم حتى جدّد بناءها العمالقة ثمَّ جرهم . ولما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب في القرن الثاني =

= قبل الهجرة هدمها وأعاد بناءها فأحكمه وجعل سقفها من خشب الدوم وجزوع النخل وبنى إلى جانبها دار الندوة وهي أهمّ بناء في مكة بعد الكعبة وجعلها مقرّاً لحكومته وموضعاً لشوراه . ثمّ قسم جهات الكعبة بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حولها وكانت تخرج الأبواب إليها . وقبل البعثة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بنحو خمس سنوات هدم السيل الكعبة فاقتسمت قريش بناءها بين قبائلها وكان ياقوم الرومي هو مهندس بنائها بمساعدة نجار مصري فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا في أي قبائل قريش تختصّ بشرف وضعه في محله وكاد يقضي اختلافها إلى حرب أهلية لو لم يتدارك الأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان في الخامسة والثلاثين من عمره السعيد الشريف وكان يشتغل معهم في بنائها وكان معروفاً منهم جميعاً بكمال سيرته وعلوّ أخلاقه وصدقه حتى كانوا يدعونه « الأمين » فارتضوه صلى الله عليه وآله وسلم حكماً فأخذ رداءً وضع فيه الحجر الأسود وأمر رجال القبائل فمسكوا أطرافه ورفعوه بالحجر حتى إذا وصلوا به إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه في موضعه بيده الشريفة . وكان الحجر داخلاً في الكعبة فلمّا نادى عبد الله بن الزبير بنفسه خليفة وهو في مكة وأرسل يزيد بن معاوية جيشه لإخضاعه التجأ الزبير إلى المسجد الحرام فضربه الحصين قائد جيش يزيد بالمنجنيقات فأصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها وأحرقت كسوتها مع بعض أخشابها . على أنّ الحصين لم يلبث أن عاد عن مكة إذ بلغه هلاك يزيد وحينئذٍ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وأتى لها من اليمن بالجصّ النقي فبناها به وأدخل الحجر في البيت وألصق الباب بالأرض وجعل قبالته إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه وجعل ارتفاعه ٢٧ ذراعاً ولما فرغ من بناء الكعبة طيّبها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً وكساها بالديباج وكان نجاز بنائها في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . ولما ولي الخلافة في الشام عبد الملك بن مروان أرسل على عبد الله بن الزبير قائده الحجاج بن يوسف الثقفي فحصر مكة وفتحها وقتل ابن الزبير « سنة ٧٣ هـ » وأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه على عهد المصطفى ولم يطرأ عليها بعد ذلك إلّا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليم العثماني « سنة ٩٦٠هـ » ثمّ العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد « سنة ١٠٢١ هـ » ثمّ العمارة التي أمر بها السلطان مراد الرابع على أثر السيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ هـ فأحدث فيها صدوعاً رممت بأمر السلطان المذكور . =

= أمّا شكل الكعبة على التعديل الذي أحدثه الحجـاج وقال إنّـه طبق الشكل الـذي كان على عهد رسول الله ﷺ وهو الشكل الذي لا يـزال باقيـاً حتى الآن ، فهو شكـل مربع تقريباً ، مبني بالحجارة الـزرقاء الصلبـة ، ويبلغ ارتفاع البنـاء خمسة عشـر متراً ، وطول ضلعه الذي فيه الميزاب والذي قبالته ، عشـرة أمتار وعشـرة سنتيمترات ، وطـول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً، وباب الكعبـة على ارتفاع متـرين من الأرض ، ويصعد إليه بدرج يحكي مدارج المنابر ، ودرجها الحالي من الخشب مصفح بالفضة ، أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو نقّال لا يوضـع في مكانـه منها إلاّ إذا فتح بابهـا للزائرين في الاحتفـالات الكبرى ، وهـذه الاحتفالات لا تتجـاوز ١٥ مرة في السنة ، وموضع هذا الدرج اعتيادياً بجوار قبة زمزم من جهـة باب شيبـة ، على أنّ لباب الكعبة درجاً خشبياً بسيطاً يوضع أمـام بابهـا على الدوام . وفي الـركن الذي على يسـار باب الكعبة الحجر الأسود ، وهو موضوع على ارتفاع متر ونصف من أرضية المكان .

ويحيط بالكعبة من خارجها سور من البناء متوسط ارتفاعه ربع متر ومتوسط عرضه ثلاثون ســنتيمتراً ، ويسمـون هذا السـور « شاذروان » ولعلّهم أقـاموا هـذا السور حـول الكعبة لوقايتها من تأثير السيول التي تنزل بكثـرة من الجبال المحيـطة بمكة إلى الـوادي الذي فيه البلد والكعبة .

ويسمـون زوايا الكعبـة الخارجيـة بالأركـان ، فالشمـالي منهـا يسمـونـه « الـركن العـراقي » والغربي « الـركن الشامي » والقبلي « الـركن اليماني » وفيـه حجـر يسمـونـه « الحجر الأسعد » والشرقي « الركن الأسود » لأنّ فيه الحجر الأسود وتسمية هذه الأركان ترجع إلى اتجاهها .

أمّا الحجر الأسود : فهو حجر صقيل بيضاوي ، غير منتظم ، ولونه أسود يميل إلى الإحمـرار ، وفيه نقط حمـراء ، وتعاريـج صفراء ، وهي أثـر لحـام القـطع التي كـانت تكسـرت منـه ، وقـطره نحـو ٣٠ سنتيمتـراً ، ويحيط بـه إطـار من الفضـة عـرضـه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التي بين ركن الحجر وبـاب الكعبة يسمـونها الملتـزم ، وهو مـا يلتزمه الطائف في دعائه واستغاثته هناك .

ويخـرج من على منتصف حائط الكعبـة الشمالي الغـربي الميـزاب « المـزراب » =

كَـانَتْ بِكَثْـرَتِهَـا تَمْـلَا جَـوَانِبَـهُ   وَٱلْعُـرْبُ تَعْبُـدُهَـا زُلْفَى لِبَـارِيْهَـا

=ويسمونه « ميزاب الرحمة » وهو من بناء الحجاج وضعه على سطح الكعبة لتجري المياه منه ؛ وكان من النحاس فأبدله السلطان سليمان العثماني سنة ٩٥٩ هـ بآخر من الفضة ، ثمَّ استبدل السلطان أحمد العثماني هذا الميزاب بغيره من الفضة المنقوشة المزركشة بميناء زرقاء تتخللها نقوش ذهبية سنة ١٠٢١ هـ . وبعد ذلك صنع السلطان عبد المجيد العثماني سنة ١٢٧٣ ميزاباً من الذهب وأرسله إلى الكعبة فوضع على سطحها وهو الموجود الآن ونقل ميزاب السلطان أحمد إلى الآستانة وحفظ في دار الآثار فيها .

وقبالة الميزاب من الخارج « الحطيم » وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي الكعبة الشمالية والغربية ، ويبعد عنهما مسافة مترين ، ويبلغ ارتفاعه متراً ، وسمكه متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام المنقوش ، ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ٨ أمتار و٤٤ سنتيمتراً ، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط الكعبة يسمونه « حجر اسماعيل » وكان نحو ثلاثة أمتار منه في نفس بناء الكعبة كما بناها إبراهيم الخليل وولده اسماعيل عليه السلام والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها اسماعيل ويقال إنّهما مدفونان في هذا الموضع .

أمّا داخل الكعبة فشكله مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على يمين الداخل وبهذا الموضع باب صغير يسمونه « باب التوبة » يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطح الكعبة ، وفي وسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القافلي ، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من الجهة الأخرى . وقطر كل عامود نحو ٣٠ سنتيمتراً ، وهذه الأعمدة من وضع عبد الله بن الزبير ، ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها « الله جلّ جلاله » وهذه الكسوة هدية من السلطان عبد العزيز العثماني . وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلّي فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ويحيط بناء الكعبة من الداخل إزار من الرخام المجزّع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور عليها أسماء الذين جددوا شيئاً في الكعبة من السلاطين والأمراء . وبجانب باب الكعبة من داخلها على اليسار طاولة من الخشب ، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر ، موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الأطلس =

وَكُـلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعُرْبِ ٱلْكِـرَامِ لَـهُ   هُنَـاكَ دُمْيَـةُ شِـرْكٍ كَـانَ يَتْقِيْهَـا

= الأخضر المزركش بالقصب ، يأتي إليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة ، ومعلّق بسقف الكعبة عدة مصابيح ذهبية وفضية وبعضها مرصع بالأحجار الكريمة . وتفتح الكعبة في العاشر من محرم للرجال ، وفي ليلة ١١ منه للنساء ، وفي ليلة ١٢ من ربيع الأول للدعاء من غير أن يدخلها أحد من الزائرين ، وفي صبيحته للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة « وكان يحضر الغسل على العهد العثماني شريف مكة والوالي وبعد استقلال الحجاز صار يحضر الغسل جلالة ملك الحجاز ووزراؤه » وفي أول جمعة من رجب للرجال ، وفي تاليه للنساء وفي صباح تاليه للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي السابع عشر منه للدعاء ، وفي آخر جمعة منه كذلك ، وفي نصف ذي القعدة للرجال ، وفي تاليه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة . وفي ٢٨ منه لإحرامها « وذلك في بدء وقت الحج أمّا طريقة إحرامها فهي أنّهم يحيطونها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المكان بعد أن يقصوا بهذا المقدار من ستار الكعبة تعجيلاً لبيعه من الحجاج . وتفتح الكعبة في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها ، وتفتح في ٢٠ من ذي الحجة للغسل .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم يحضره جلالة ملك الحجاز ووزراؤه وأعيان مكة . فيدخل جلالة الملك داخل الكعبة فيصلي ركعتين ثمَّ يؤتى إليه بجراول ماء من عين زمزم فيدفقها على أرضها ثمَّ يباشر غسلها مع من معه بمكانس صغيرة من الحوض معدَّة لهذا الغرض ، ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثمّ يغسلها جلالة الملك بماء الورد ، ويضمخ أرضيتها وحيطانها على ارتفاع الأيدي بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالندّ والعود صاعداً من جميع جهاتها ، ثمَّ يقف جلالة الملك في الباب ويلقي بالمكانس وطول الواحدة ٣٠ سانتيمتراً ، على الجموع المحتشدة فيتزاحمون على تناولها والسعيد منهم من يفوز بواحدة منها للبركة .

والكعبة مكسوة من الخارج ، وهي كذلك من أجل بعيد ، وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حِمْيَر حين مرّ عليها راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، كساها بالبرد المقصبة وعمل لها باباً ومفتاحاً . وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي زمناً طويلاً ، ثم أخذ الناس يقدمون لها هدايا من الكساوي المختلفة فيضعون بعضها فوق البعض ، ولما انتهى أمر مكة إلى قصي وضع على القبائل رفادة =

= لكسوتها سنوياً واستمرّ ذلك إلى بنيه ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها سنة ، وقد كساها النبي ﷺ بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، ولما حجَّ المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ هـ كان على الكعبة جملة كساوي فشكا إليه سدنتها من كثرتها فأمر بإنزالها تخفيفاً عن سقفها وأمر بأن لا تعلق عليها سوى كسوة واحدة ، ومن هذا التاريخ صار لا يوضع عليها غير كسوة واحدة وصار سدنة الكعبة يوزعون ستار الكعبة القديمة على الحجاج بالثمن الذي يختص به سدنتها .

وبالغ الخلفاء العباسيون بكسوة الكعبة وكانوا يعملونها من الحرير الأسود الذي هو شعارهم وكانوا يستصنعونها في مدينة تنيس المصرية وهي ثغر على البحر المتوسط في شمال دمياط هدمه الملك الكامل سنة ٦٢٤ هـ لكثرة ما كانت تهاجمه سفن الإفرنج في الحروب الصليبية . ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين صارت كسوة الكعبة ترسل لها تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر إلاّ أنّها ما كانت ترسل سنوياً ، ثم اختصَّ بها سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر ابن قلاوون قريتي باسوس وسندبيس من أعمال القليوبية فكان خراجهما مختصاً بصنع كسوة الكعبة وكانت العادة أنّه كلما قام على مصر ملك أو سلطان يرسل للكعبة كسوةً داخلية من الحرير الأحمر وأخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة وأمّا الكسوة الخارجية فكانت ترسلها مصر سنوياً وهي من الحرير الأسود ولا تزال هذه العادة جارية في مصر حتى الآن .

وكسوة الكعبة الخارجية تتألف من ثمان ستائر من الحرير الأسود يكتب عليها بالقصب في كل مكان منها « لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله » وطول الستارة نحواً من ١٥ متراً ومتوسط عرضها ٥ أمتار وبعض سنتيمترات ، وتعلق كل ستارتين على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاهما في حلقات من الحديد تثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عرى وازرة وتثبتان من الأسفل في حلقات مثبتة في « الشاذروان » ثم تربط هذه الستائر ببعضها عند الأركان بعرى وازرة فتصبح كالقميص على جسم الكعبة ، ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمونه « رنكاً » مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب =

= « القصب » مكتوب عليه آيات قرآنية فيكون كالزنار لذلك القميص .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها « البرقع » وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفاتيح الكعبة ، وكسوة مقام إبراهيم الخليل ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وكل هذه الأشياء تصنع من الأطلس الأسود وتزركش بالقصب وعليها آيات قرآنية .

وللكسوة الشريفة مربوط مخصص في ميزانية الحكومة المصرية قدره ٤٥٥٠ جنيهاً وتحتفل مصر احتفالاً عظيماً بإرسال الكسوة مع المحمل المصري سنوياً تعطل في يومه دواوين الحكومة وكذلك تحتفل يوم رجوع المحمل . أمّا الكسوة القديمة فتقطع قطعاً وتباع للحجاج للبركة وذلك عند وصول الكسوة الجديدة قبيل عيد الأضحى المبارك كما سبقت الإشارة .

أمّا مطاف الكعبة فهو على شكل دائرة بيضاوية من الشمال إلى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرخام من عهد عهيد ، وهو على حدود الحرم في عهد المصطفى ﷺ ؛ ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ متراً ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ متراً وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة إلى الشمال جزء مربع منحط عنه سعته نحو المترين من كل جهة يسمى « المعجن » وقطر دائرة المطاف من الشمال إلى الجنوب نحو ٥١ متراً ومن الشرق إلى الغرب نحو ٤١ متراً ، والكعبة في وسط المطاف تقريباً .

وأما الحرم المكي فكان في عهد رسول الله ﷺ على حدود المطاف الآن ، وهي حدوده القديمة على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وزاد فيه عمر وعثمان مما اشترياه من الدور التي حوله ، ثم زاد فيه عبد الله بن الزبير عندما جدّد بناء الكعبة ، وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي وعمره عمارة حسنة ، ولما حجّ المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ هـ رأى أنّ الكعبة ليست في وسط المسجد فاشترى كثيراً من الدور ولا سيما التي في الجهة الشرقية القبلية وأدخلها إلى المسجد . وزاد فيه أيضاً ابنه الهادي . وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية . وكان ينزل فيها الخلفاء والأمراء في حجهم . فهدمها المعتضد الخليفة=

العباسي سنة ٢٨١ هـ وجعلها مسجداً قائماً بنفسه ، ولها قبلة إلى الكعبة . واستمر هـذا المسجد مصلّى الإمام الحنفي إلى سنة ٩٤٧ هـ حيث هدمه كلدي أمير جده وبناه ثـانيةً مسجداً ذا طبقتين إحداهمـا للإمـام والمصلين والثانيـة للمؤذنين والمبلغين وهو لا يـزال كذلك حتى الآن . ثم طفق سـلاطين مصر يقـومون بتعميـر مـا يتهـدم من الحـرم المكي الشريف إلى أن استولت على البلاد الدولة العثمانية فصار السلاطين العثمانيون يقومـون بهذا الواجب المقدس .

والحـرم المكي من داخله على شكل مـربع تقـريباً وفي وسـطه يميل إلى الـزاوية الجنوبية الكعبة المكرمة . وطول ضلع الحرم المقابـل للحطيم الـذي فيه بـاب الزيـادة ١٦٤ متراً وطول الضلع الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصف ١٦٤ متراً . وطول ضلعه الذي فيه باب السلام ١٠٨ أمتـار . وطول الضلع الـذي يقابله وفيـه باب إبـراهيم ١٠٩ أمتار . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ٣١١ عاموداً . تقوم عليها قبـاب على محيط المسجد . وأبواب الحرم ثمانية في الجهة الشمالية وهي : باب الدريبـة . وباب المـدرسة . وبـاب الحكمة . وبـاب الـزيـادة . « إشـارة إلى أن هـذه الجهـة زادت في المسجـد ولم تكن منه » وبجـواره إلى الغرب بـاب القطبي . وبـاب الباسـطية . وبـاب الزمازمية . وباب عمـرو بن العاص « وكـان يسمى باب العتيق أو بـاب السدة » . ويليـه من الجانب الغربي ثـلاثة أبـواب وهي : باب العمـرة « لأنّ الحجاج يخـرجون منـه إلى العمرة » وباب إبـراهيم . ثمّ باب الحـزورة « والحزورة إسم لسـوق في الجاهليـة كانت في مكان هذا البـاب » . ويليه من الجهـة الجنوبيـة سبعة أبـواب وهي : باب أم هـاني « وهي زوجـة هبيرة بن عمـرو المخزومي وكـان بيتهـا في مـوضـع هـذا البـاب » وبـاب العجلة . وباب الرحمـة . وباب أجيـاد . وباب الصفـا . وباب بني مخـزوم . ثمّ باب بـازان . ويلي ذلك من الجهـة الشرقيـة أربعة أبـواب وهي : باب علي « ويسمى أيضـاً باب بني هاشم » وباب العباس « لأنّه مقابـل لدار العبـاس عمّ النبي » وباب النبي « لأنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان يـدخل منـه إلى الكعبة لقـربه من بيت سيـدتنا خـديجة » ثمّ بـاب السلام وهو الذي يدخل منه الحاج إلى الحرم عند طواف القدوم .

وفي الحـرم المكي ستّ منارات ويؤذن عليهـا كلها في الأوقـات الخمس على أنّ شيـخ المؤذنين ويسمونـه « الميقاتي » يؤذن على قبـة زمزم وهي التي بنـاهـا أبـو جعفـر=

فَبَاشَرَ ٱلْمُصْطَفَى تَحْطِيْمَهَا بِقَضِيْبٍ وَٱلْعَلِيُّ عَلَى ٱلْعَبْرَاءِ يُذْرِيْهَا

مَا كَادَ يَهْوِيْ لَهَا إِلاَّ وَقَدْ شَهِدَا   مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمَا ٱلْأَعْلَى تَهَاوِيْهَا

رَاحَا يَقُولاَنِ جَاءَ ٱلْحَقُّ يُزْهِقُ مَا   فِيْ ٱلْأَرْضِ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ كَانَ يُغْوِيْهَا

وَكَانَ أَكْبَرُ أَصْنَامِ ٱلْأَعَارِبِ فَوْ   قَ ٱلْكَعْبَةِ ٱلنَّائِلُ ٱلْغُفْرَانَ نَاحِيْهَا

بَيْتٌ لِتَوْحِيْدِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ شُيِّدَ لاَ   لِلْوُثْنِ أَلَّهَهَا ٱلْجُهَّالُ تَأْلِيْهَا

فَحَاذَيَاهُ وَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى لِعَلِيٍّ : إِنَّنِيْ ٱلْكَعْبَةُ ٱلشَّمَاءُ رَاقِيْهَا

أَجْلِسْ وَفِيْ ٱلْحَالِ كَتْفَيْهِ ٱلرَّسُوْلُ عَلاَ   وَقَالَ : فَٱنْهَضْ لِكَيْ أَلْقَى أَعَالِيْهَا

أَعْيَا قُوَى ٱلْمُرْتَضَى حَمْلُ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ   شَخْصِ ٱلنَّبِيِّ وَمَا ٱلْأَثْقَالُ تُعْيِيْهَا

فَقَالَ طَهَ : فَعُدْ وَٱجْلِسْ فَإِنَّ قِوَا مَ لَكَ ٱلْخَائِرَاتِ حَرِيٌّ أَنْ أُدَارِيْهَا

ثُمَّ جَثَا قَائِلاً : فَٱصْعَدْ فَكَتْفِيَ أَوْ مَ لَى أَنْ تَشِيْلَكَ لاَ تَرْهَبْ تَلَوِّيْهَا

أَجَابَ أُكْرِمْتَ أَنْ أَعْلُوْكَ قَالَ لَهُ:   لاَ فَعْلَةٌ فِيْ رِضَى رَبِّي أُجَافِيْهَا

كَذَا عَلاَ كَاهِلَ ٱلْهَادِيْ عَلِيُّ وَلَوْ   أَرَادَ غَشْيَ ٱلثُّرَيَّا كَانَ غَاشِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ: أَلْقِ ٱلآنَ أَكْبَرَ أَصْنَامِ ٱلْأَعَارِبِ يَكْفِيْهُمْ تَسَدِّيْهَا

فَهَزَّهُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱلْعُنْفِ هَزَّ بِهِ   عِبَادَةَ ٱلْوُثْنِ هَزَّاتٍ تُلاَشِيْهَا

وَمَا تَنَاوَلَهُ حَتَّى رَمَاهُ فَنَا   دَىْ ٱلْمُصْطَفَى أَزْهَقَ ٱللَّهُ ٱلتَّرَارِيْهَا

= المنصور الخليفة العباسي سنة ١٤ هـ وتحت هذه القبة بئر زمزم التي يستقي منها الحجاج ويحضرون معهم من مائها إلى بلادهم للبركة .

أمّا الأصنام التي كانت في الكعبة وأزالها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام فقد كانت تملأ مسجد الكعبة وقد تقدم معنا تاريخ إدخالها إلى الكعبة في حاشية سبقت .

وَقَـدْ تَحَطَّمَ تَحْـطِيمَـاً بِـرَمْيَتِـهِ   وَٱللَّهُ بَـارَكَ كَفَّـاً وَهْـيَ تَـرْمِيْـهَـا

وَإِنَّ أَفْضَـلَ أَعْمَـالِ ٱلنُّبُـوَّةِ تَـحْـــطِيْمُ ٱلتَّمَـاثِيْلِ بَـلْ أَسْمَى مَـآتِيْهَـا

بِـهِ ٱلْخَلَائِقُ قَـدْ أَضْحَتْ مُـوَحِّـدَةً   يَجْثُـوْ إِلَى ٱللَّهِ بِـٱلْإِخْبَـاتِ جَـاثِيْهَـا

وَقَـدْ تَطَهَّـرَتِ ٱلْعُـرْبَـانُ مِنْ رَجَسَـا   تِ ٱلشِّرْكِ حَاضِـرُهَا ٱلـزَّاهِيْ وَآتِيْهَا

وَوَقْفَةُ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ فَوْقِ كَتْفِ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ أَكْسَبَتْـهُ ٱلـدَّهْـرَ تَـوْجِيْهَـا

أمير المؤمنين يصلح ما أفسده خالد

قَدْ شَايَعَـتْ أَحْمَدَ ٱلْهَادِيْ بِشِـرْعَتِهِ   قَبَـائِلُ وَٱهْتَـدَتْ مَا كَـانَ دَارِيْهَـا[1]

فَـأَسْلَمَتْ وَٱنْثَنَتْ عَنْ شِرْكِهَـا وَأَقَـرَّ   تْ بِـٱلشَّهَـادَةِ تَـوْحِيْـدَاً لِبَـارِيْهَـا

---

(١) ذاع الإسلام وشاع في جزيرة العرب بفضل الله تعالى حتى إنّ بعض قبائل العرب دانت بالإسلام وقامت بفرائضه وابتنت المساجد وعمرتها بالسجود والعبادة ولم يتصل نبأها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن هذه القبائل التي دانت بالإسلام قبيلة بني جذيمة وكانت نازلة بناحية «يلملم» وكانت هذه القبيلة في الجاهلية ذات حول وطول وقد وترت الناس بمن قتلت منهم ومن قتلاها الفاكه عمّ خالد بن الوليد وعوف والد عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور وغيرهم من كبار رجالات قريش ولعلّها ما أسرعت إلى الإسلام إلّا لتحتمي به من الذين وترتهم .

ولما دخل رسول الله مكّة المكرّمة ظافراً منصوراً ودخلت قريش في الإسلام أفواجاً حسن للمصطفى أن يرسل سرية لبني جذيمة والظاهر من واقعة الحال أنّ الموتورين من قريش هم الذين حسنوا للمصطفى إرسال هذه السرية إلى جذيمة وأنّ غرضهم لم يفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمر السرية بالمسير عليها ولكن حصر مهمتها بدعوة القبيلة إلى الإسلام فقط فلم يسمح لها بمقاتلتها ولو رفضت الدعوة واختار لقيادة هذه السرية خالد بن الوليد فسار هذا بسريته على جذيمة وكان عددها ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم . فلما دنت السرية من يلملم شعر بها بنو جذيمة فتهيبوا مقدمها ولم يأمنوها مع أنّهم مسلمون فشكوا أسلحتهم وخرجوا إلى لقائها فلما دنا منهم خالد بن الوليد قال لهم : « هل أنتم مسلمون أم كفّار ؟؟ » قالوا : « نحن =

= مسلمون قد صلّينا وصدقنا برسالة محمد وبنينا المساجد في ساحتنا وأذّنا فيها » قال خالد : « إذن فما بال السلاح عليكم ؟ » قالوا : « إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فشككنا سلاحنا للدفاع عن أنفسنا » قال : « إذن فضعوا سلاحكم » فأطاعه بعضهم ورموا أسلحتهم وفرّ الباقون فأمر خالد بأسر من وضع سلاحه فأسروا . وبات ليلته يضرب أخماساً لأسداس للإنتقام منهم لعمّه الفاكه حتى إذا ما لاح الفجر أمر الناس بقتل الأسرى فقتلوا جميعاً وعاد أدراجه إلى مكة كأنّه لم يأتِ أمراً إدّاً .

ولما انتهى إلى المصطفى ﷺ ما صنع خالد بن الوليد بجذيمة مع اعترافها بالإسلام كبر الأمر عليه ﷺ وقال : « اللهمَّ إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد » ثمّ استدعى علياً وهو كما تعلم موضع ثقته وقال له : علمت ما صنع خالد بجذيمة وهم مسلمون وما لنا سواك لإصلاح ما أفسد فسر إليهم بالنوق والمال فدِ قتلاهم وعوّض عليهم خسائرهم وتلطفهم بإزالة الأحقاد من صدورهم فصدع علي بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وسار بالنوق والمال إلى جذيمة فتلطف بها واستصفى صدورها من الأحقاد ببلاغة بيانه وودى قتلاها وعوَّض عليها أضرارها وثبتها في إسلامها وعاد إلى مكة فأنبأ المصطفى بما فعل فقال : أحسنت وأصبت ثمَّ قام رسول الله فاستقبل القبلة شاهراً يديه وهو يقول « اللّهمَّ أبرأ إليك مما صنع خالد » قال ذلك ثلاثاً مستغفراً ربّه من هاتيك الجريمة التي لم يكن الله راضياً عنها ولا رضيها أحد من المسلمين حتى أنّ عبد الرحمن بن عوف الذي كانت قتلت جذيمة في جاهليتها أباه فإنّه غضب وأغلظ القول لخالد فيما فعل ؛ غيرة للدين واحتفاظاً على زمام المسلمين .

أمّا خالد هذا فهو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المخزومي . كان في واقعة أحد في صفوف المشركين وأسلم بعدها . وكان في الجاهلية من أكابر الغزاة المحاربين فلما أسلم لم يهمل رسول الله ﷺ الاستفادة من شجاعته وبراعته الحربية وكان يسمّيه سيفاً من سيوف الله . وأول إمرة تولاها في الإسلام كانت في فتح مكة حيث وجهه رسول الله مع سرية من المسلمين على مكة ليدخلها من أسفلها ففعل وقد وجهه رسول الله وهو في مكة إلى موضع يسمى « نخلة » وفيه صنم يسمى « العزى » فخرج بسريته إليها وكسر الصنم وهدم البيت الذي فيه وعاد منصوراً . ثمّ وجهه على جذيمة =

مِنْهَا جُذَيْمَـةُ كَـانَتْ فِيْ يَلَمْلُمَ قَـدْ   حَلَّتْ هُنَـاكَ تَـرَى شَتَّى مَـآوِيْهَـا

= فكان أمره معها ما كان . على ما سبق البيان .

وفي السنة العاشرة للهجرة أرسل المصطفى خـالداً على اليمن فلم يفلح فأرسـل سيـدنا أميـر المؤمنين عليه السلام لهذه المهمـة وأمره أن يعيـد خالـداً في حديث سنـذكره في حاشية تالية .

وعندما تولى الخلافة أبو بكر وارتدت طائفة من المسلمين عن الإسلام سار خـالد لمحاربتها فجاء هناك أمراً إدّاً وذلك أنّه قتل من أهل الردة رجلاً يدعى «مالك بن نويرة» بالرغم عن توبته وشهادة شاهدين من الصحابة برجوعه إلى الإسلام وبعد أن قتله جعـل رأسه ثالثة الأثافي وطبخ طعامه فوق الـرأس وتزوج امـرأته وكـانت رائعة الجمـال فتقوَّل الناس أنّه لم يقتل مالكاً إلاّ طمعاً بامرأته فغضب عمر أشدّ الغضب لهذه الجريمة وقصد أبا بكر وطلب منه أن يقتله بمالك فرفض بحجة أنّه متأوّل في حكمه فطلب منه أن يعزله فقال أبو بكر « لا أغمد سيفاً شهره رسـول الله » وهكذا ثبت خالد على قيـادة جيوش أبي بكر طول حياته ولكن لا نكران للحق أنّه كان من أعظم القوّاد .

ولما ظهر مسيلمة الكذّاب مدّعيـاً النبوّة وجّه أبو بكر خالداً لمحاربته فسار إليه في « اليمامة » وبطش بأتباعه . ولم يكد يتمّ مهمته حتى وجهه أبو بكر إلى فتح العراق وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة فسار إليها ودوخ أصحابها الفرس وأخـذ منهم الجزيـة وكانت أول جزية جبيت في الإسلام .

وكان أبو بكر وجّه أبا عبيدة بن الجراح على الشام في جيش من المسلمين فعجـز أبو عبيدة عن تدويخ الروم فيها فأمدّه أبو بكر بخـالد على أن يكـون تحت إمرتـه فدخـل خالد الشام سنة ١٣ للهجرة .

وعندما مات أبو بكر وتولى عمـر الخلافـة كانت بـاكورة أعمـاله أن كتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد من إمارة الجيوش التي يقودها فتلطف أبو عبيدة بإبلاغه العزل فلم يعبأ خالد بـأمر عمـر ولا تكدّر منـه ورضي العزل إلاّ أنّـه ظلَّ في الشـام بين غزاة المسلمين كواحد منهم يجاهد في سبيل الله ورأى أبو عبيدة أنّه لا يستغني عن قائد خبير مثله فظلّ يستعين به في فتوحاته وعرف هذا عمـر فتغاضى عن وجـوده في جيش الشام ولم يشـدّد بطلبه إلى المدينة . ثم أنّ عمراً عرف خطأه بعزل خـالد فصـار يذكـره في كتبه إلى أبي =

فَبَعْـدَ أَنْ سَـادَ طَـهَ قَـوْمَـهُ وَأَوَى أُمَّ ٱلْقُـرَى وَأَطَـاعَتْـهُ حَـوَامِيْهَـا
إِلَى جُذَيْمَةَ أَسْرَى خَـالِدَاً بِسَرِيَّـــةٍ وَقَـالَ لَـهُ : فَـٱذْهَبْ لِنَهْدِيْهَـا
وَلَمْ يَكُـنْ بِقِتَـالِ ٱلْقَـوْمِ آمِـرَهُ إِنْ لَمْ تُـطِعْ بِرِضَـاهَا صَـوْتَ دَاعِيْهَا
وَخَـالِدٌ كَـانَ مُنْذُ ٱلْجَـاهِلِيَّـةِ حَـا قِـدَاً عَلَيْهَـا وَلَمْ يَنْفَـكَّ شَـانِيْهَـا
فَعَمُّـهُ فَـاكِـهُ قَبْـلاً لَقَـدْ قَتَلَتْ وَإِنَّ قَـتْلَتَـهُ مَـا كَـانَ نَـاسِيْـهَـا
وَإِنَّـهُ كَـانَ مَـوْتُـوْرَاً وَسَـارَ عَلَيْـــهَا وَهْـوَ أَخْـذَةُ ثَـأْرِ ٱلْعَمِّ نَـاوِيْهَـا
وَإِذْ دَرَتْ خَـالِـدُ إِبْنُ ٱلْـوَلِيْدِ أَتَـا هَـا بِـٱلسَّرِيَّـةِ خَـافَتْ شَـرَّ آتِيْهَـا
ظَنَّتْ بِمَقْـدَمِـهِ حَـرْبَـاً يُـرِيْـدُ بِهَـا سَفْـكَ ٱلدِّمَـاءِ وَمَا كَـانَتْ تُحَاشِيْهَـا

= عبيدة حيث يأمره بالمسير للفتح في أطراف الشام . واشترك خالـد بنوع خـاص في فتح دمشق وحمص وقنسرين وحلب وكـان المجلّي في مـواقـع المسلمين مـع الـروم في هاتيك الأطراف .

ثم عظم شأن خالد في نفوس العرب الذين حولـه كما عـظمت ثروتـه وصار يهب الهبات بكرم لمن حوله فلما علم بذلك عمر تهيب العاقبة وأرسل فعزله سنة ١٧ للهجـرة معلناً أنّه لم يعزله إلّا ليعلم المسلمون بأنّ ما أوتوه من النصر كان بمعـونة الله لا ببـراعة خالد ونبوغه الحربي فرضي خالد العزل وانزوى عن القتـال وأطاع عمـراً فيما أخـذه من ماله بحجة أنّه يزيد على حقّه في « الفيء » والغنائم كما أطاعـه في المسير إلى المـدينة المنورة وبعد ذلك عاد إلى سوريا وأقام في حمص وتوفي فيها سنة ٢١ للهجـرة وله قبـر هناك يزار وبجواره مسجد يعرف إلى يوم الناس هذا باسم « مسجد سيدي خالـد » وأنت ترى من مجمل ما سردنـاه من أعمال هـذا الصحابي النـابغة أنّـه كان من أفـراد شجعان المسلمين ولولا حقد عمـر عليه لكـان القائـد الأكبر لجيوش المسلمين على عهده كمـا كان في عهد أبي بكر . أمّا سبب حقد عمر على خالد فقالوا أنّهما تصارعا في الجاهلية وكانا في مقتبل العمر فصرع خالد عمراً وكسر رجله فحقدها عليه ولم ينسها وقال غيرهم بـل ان حقد عمـر عليه هـو لأنّه كـان يرى في خـالد شيئـاً من التراخي في فـروضه والله أعلم .

فَـأَسْرَعَتْ لِلِقَـاهُ وَهْيَ حَـامِلَةُ آلــــسِّـلَاحِ مُشْهِـرَةٌ شَهْـرَاً مَـوَاضِيْهَـا
وَمُـذْ دَنَـا خَـالِدُ مِنْهَـا بِصُحْبَتِـهِ نَـادَى بِـدَعْـوَتِـهِ لِلدِّيْنِ تَجْـرِيْهَـا
قَالَ : آلسَّلَامَةُ فِيْ آلْإِسْلَامِ مَنْ تَبِعَ آلــــدِّيْنَ آلْحَنِيْفَ فَـلَا حَـرْبُ يُعَـانِيْهَـا
قَـالَتْ : حَنَانَيْـكَ إِنَّا بِـآلْحَنِيْفِيَـةِ آلــــسَّمْحَـاءِ دِنَّـا وَأَهْمَلْنَـا آلتَّـرَارِيْهَـا
فَلَيْسَ فِيْنَـا أَخُـوْ شِـرْكٍ عَشِيْـرَتُنَـا دَانَتْ لِأَحْمَـدَ فَـانِيْهَـا وَنَـاشِيْهَـا
وَهُــوَّذَا عَمُـرَتْ فِيْنَـا مَسَـاجِـدُنَـا وَلِـلتَّـعَـبُّـدِ لِـلْخَـلَّاقِ نَـأْوِيْـهَـا
نَادَى : عَلَامَ إِذَنْ هٰذِي آلسُّيُوْفُ فَمَنْ أَطَـاعَ أَحْمَـدَ يَمْشِيْ وَهْـوَ مُلْقِيْهَـا
فَمَـا عَصَتْ فِئَـةٌ أَلْقَتْ مَـوَاضِيْهَـا فَـرَاحَ آسِـرَهَـا إِذْ فَـرَّ بَـاقِيْهَـا
وَبَـاتَ فِيْ لَيْلَةِ آلْمَلْسُـوْعِ يُقْلِقُـهُ ذَاكَ آلْعَـدَاءُ وَفِيْـهِ كَـانَ مُحْيِيْهَـا
يُـرِيْـدُ يَثْـأَرُ ثَـأْرَاً مِنْ جُـذَيْمَـةَ لِلــــعَمِّ آلَّـذِيْ أَهْلَكَتْـهُ قَبْـلُ أَيْـدِيْهَـا
وَعِنْدَ مَا لَاحَ نُـوْرُ آلْفَجْرِ أَهْلَكَ أَسْــــرَاهُ وَلَمْ يَكُنِ آلْإِسْـلَامُ مُنْجِيْـهَـا
وَعَـادَ مُغْتَبِـطَاً بِـآلْإِنْتِقَـامِ إِلَى أُمِّ آلْقِرَى نَاشِـرَ آلـرَّايَاتِ مُعْلِيْهَـا
وَمُـذْ دَرَى آلْمُصْطَفَى بِـآلْأَمْرِ أَكْبَـرَهُ نَـادَى سَـرِيَّتُنَـا سَـاءَتْ مَـآتِيْهَـا
إِنَّ آلْحُقُـوْقَ آلَّتِيْ آلْإِسْلَامُ قَـدَّسَهَـا قَدْ جَارَ مَـا عَرَفَ آلْإِنْصَـافَ لَا فِيْهَا
وَقَـالَ : رَبَّـاهُ إِنِّيْ مِنْ جَـرِيْمَـةِ خَـا لِـدٍ بَـرِيءٌ وَإِنِّيْ لَسْـتُ رَاضِيْـهَـا
ثُمَّ رَأَى آلْمُصْـطَفَى أَنْ يُسْرِعَنَّ إِلَى جُــذَيْمَـةٍ بِفَتىً تَـاقٍ يُـرَاضِـيْهَـا
وَأَنْ يُلَطِّفَ بِـآلتَّعْـوِيْضِ مُحْنَتَهَـا وَبِـآلتَّلَطُّفِ وَآلْحُسْنَى يُـوَاسِيْهَـا
وَمَـا لَـدَيْـهِ حَكِيْمٌ غَيْـرُ حَيْـدَرَةٍ لِـذِيْ آلْمُهِمَّـةِ بِـآلتَّدْقِيْقِ يُجْـرِيْهَـا
لِـذَا دَعَـا آلْمُـرْتَضَى حَـالاً وَأَوْفَـدَهُ إِلَـى يَلَمْـلُمَ بِـآلْأَمْـوَالِ وَافِيْـهَـا
وَقَالَ : أَسْرِعْ إِلَى مَلْقَى جُذَيْمَةَ إِسْــــرَاعَـاً فَمِحْنَتُهَـا أَبْغِيْ تَـلَافِيْهَـا

وَدِ ٱلأُلَى قُتِلَتْ مِنْهَا بِغَيْرِ وَنَى فَإِنَّنَا دِيَةُ ٱلْقَتْلَى نُؤَدِّيْهَا
وَٱسْتَصْفِهَا لِوَلاَنَا وَهْيَ مُسْلِمَةٌ وَقُلْ لَهَا إِنَّنَا طُرّاً مَوَالِيْهَا
وَقُلْ لَهَا وُحْدَةُ ٱلْإِسْلَامِ تَجْمَعُ أَهْـــلِيْهِ فَهُمْ أُخْوَةٌ صَفْوُ تَآخِيْهَا
وَإِنَّ جَامِعَةَ ٱلْإِسْلَامِ رَاسِخَةُ ٱلأَ رْكَانِ خُيِّبَ مَنْ يَرْجُوْ تَدَاعِيْهَا
أَوْفَى ٱلرَّسُوْلُ حَكِيْماً فِيْ مُهِمَّتِهِ وَإِنَّهُ مِثْلَمَا يَرْجُوْهُ قَاضِيْهَا
وَأَيُّ مُشْكِلَةٍ مَا حَلَّ عِقْدَتَهَا وَأَيُّ مُعْضِلَةٍ مَا دَكَّ رَاسِيْهَا
إِنَّ ٱلذَّكَاءَ إِلَى عُلْيَاهُ مُنْتَسِبٌ وَبَيْنَ أَرْبَابِهِ مَا ٱنْفَكَّ ذَاكِيْهَا
وَبَيْنَ أَضْلُعِهِ قَلْبٌ تَطَهَّرَ بِٱلْإِ يْمَانِ عَمَّا يُضِلُّ ٱلنَّاسَ يُطْغِيْهَا
سَارَ ٱلْعَلِيُّ يَدِيْ ٱلْقَتْلَى بِأَيْنُقِ طَـــهَ وَهْوَ يَطْلُبُ أَنْ يُرْضِيْ أَهَالِيْهَا
وَفِيْ يَلَمْلَمَ لاَقَتْهُ جُذَيْمَةُ بِٱلْـــوَلاَ كَذَاكَ بِهِ أَمْسَى مُلاَقِيْهَا
وَقَامَ فِيْهَا خَطِيْباً وَهْوَ أَخْطَبُ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ كَانَ إِلَى ٱلْإِخْلَاصِ دَاعِيْهَا
فَلَمْ يَخِبْ ظَنُّهُ فِيْهَا وَقَدْ رَضِيَتْ بِٱلْإِعْتِذَارِ ٱلَّذِيْ أَبْدَى مُفَاهِيْهَا
فَسَالَمَتْ مَنْ أَتَى لُطْفاً يُسَالِمُهَا وَبِٱلصَّفَا وَٱلْوَلاَ لاَقَتْ مُوَافِيْهَا
وَكَرَّرَتْ بَيْنَ أَيْدِيْهِ تَمَسُّكَهَا بِشِرْعَةِ ٱللَّهِ قَالَتْ : لاَ نُخَلِّيْهَا
وَبِٱلثَّنَا قَبِلَتْ مِنْ جُوْدِهِ دِيَةَ ٱلْـــقَتْلَى ٱلَّتِيْ بِٱلسَّخَا قَدْ رَاحَ عَاطِيْهَا
كَذَاكَ عَوَّضَ تَعْوِيْضاً خَسَائِرَهَا حَتَّى ٱلَّذِيْ خَسِرَتْهُ مِنْ أَوَانِيْهَا
وَعَادَ أَدْرَاجَهُ وَٱلنَّاسُ مُعْجَبَةٌ بِفَضْلِهِ وَلَقَدْ حَبَّتْهُ تَوْلِيْهَا
وَإِذْ أَتَى مَكَّةَ وَافَى ٱلرَّسُوْلَ بِمَا أَجْرَى فَأَطْرَى فِعَالاً كَانَ مُجْرِيْهَا
وَقَالَ أَحْسَنْتَ صُنْعاً يَا أَبَا حَسَنٍ لاَ زِلْتَ لِلْحَسَنَاتِ ٱلزُّهْرِ تُسْدِيْهَا
وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقِبْلَةَ ٱلزَّهْرَا بِرَفْعِ يَدَيْـــهِ طَالِباً رَحْمَةَ ٱلْبَارِيْ مُرَجِّيْهَا

وَقَالَ نَفْسِيَ مِمَّا جَاءَ خَالِدُ يَا   رَبِّيْ ثَلاَثَةَ مَرَّاتٍ أُبَرِّيْهَا

أمير المؤمنين يهدى اليمانيين

بِفَتْحِ مَكَّةَ عَدْنَانُ لَقَدْ خَضَعَتْ   حِكْمَاً لأَحْمَدَ دَانِيْهَا وَنَائِيْهَا[1]

وَعِنْدَ مَا أَسْلَمَتْ فِيْهَا قُرَيْشٌ غَدَا آلإِ   سْلاَمُ شِرْعَةَ قَارِيْهَا وَبَادِيْهَا

---

(١) مع أنّ دخول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مكة وخضوع قريش له ودخولهم في الإسلام أفواجاً قد بدّل حالة جزيرة العرب تبديلاً تامّاً من الوجهتين الدينية والسياسية لأنّ الإسلام تغلب على الوثنية فيها وجمع قلوب ناسها المتشاكسة فأصبحت أمةً واحدةً مع لك بقيت بقايا من العرب تأبى إلاّ محاربة المسلمين والعصيان على الإسلام منها بطون هوازن وبطون ثقيف وكلّها من قيس غيلان فاجتمعت كلمتها على محاربة سيدنا محمد بن عبد الله واختارت لزعامتها رجلاً يدعى مالك بن عوف النصري . فلما سمع رسول الله باجتماع هذه البطون على قتاله خرج إليها باثني عشر ألفاً من المسلمين وهو أكبر عدد خرج به المصطفى غازياً . وعندما بلغ المسلمون وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه وجدوا هوازن وثقيفاً كامنة في شعابه فتصادم الجمعان وكانت الغلبة للمسلمين فقتلوا من قتلوا من المشركين وغنموا مالهم وسلاحهم وظعنهم وأسروا نساءَهم وأولادهم .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤدب ثقيفاً في مواطنها فيأمن عاقبة مكرها فسار عليها وكانت تنزل الطائف وحاصرها ثم عاد منها من غير أن يفتحها في عودته نزل الجعرانة وهناك أتاه وفد هوازن يلتمسون منه العفو عنهم وإعادة نساءَهم وأولادهم وأموالهم إليهم فأشفق عليهم المصطفى وأراد أيضاً أن يكتسب قلوبهم بالحسنى فقال لهم اختاروا بين أموالكم وبين نسائكم وأولادكم فاختاروا النساء والأولاد فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما كان لي ولبني عبد المطلب منها أعدته إليكم وأمّا ما كان للمسلمين فالأمر فيه لهم ولكن إذا صلّيت الظهر بالناس تعالوا إليّ مستشفعين لعلّي أبلغكم رغبتكم فجاءُوه بعد أن صلّى بالمسلمين وقالوا « نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا » فقال المصطفى : « أمّا ما كان لي ولأبناء عبد المطلب فهو لكم » فلما سمع المسلمون جواب المصطفى هذا قالوا : « ما كان لنا فهو لرسول الله » وهكذا أرجع المصطفى لهوازن نساءَهم وأولادهم فلما رأوا هذا المعروف دخلوا في الإسلام أفواجاً وهم معجبون بهذا الفضل المحمدي العظيم ولا يستعبد الإنسان غير الإحسان . =

= وبعد هذا الحادث وفد على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن عوف النصري زعيم ثقيف وهوازن مستغفراً تائباً فردّ عليه نساءَه وأولاده وأحسن إليه بمئة من الإبل فأسلم وحسن إسلامه وصار سيفاً من سيوف المسلمين وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم يكتسب قلوب الناس بالإحسان فيستعبدها علماً منه أنّ الإحسان فوق القوة القاهرة .

وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجعرانة يوزّع الغنائم وجه نظره الشريف إلى اليمن فبعث سريّة « بقيادة خالد بن الوليد» إلى همدان وهي إحدى قبائلها وأمره أن يدعوها إلى الإسلام وأن لا يحاربها إلّا إذا حاربته وهذه السرية أجمع المؤرخون على ذكرها إجمالاً بغير تفصيل وليس بين يدينا ما هو أصدق من رواية « البراء » وهو من الصحابة وشهدها بنفسه وهاك روايته على ما نقلها البخاري قال البراء : « بعثنا رسول الله مع خالد إلى اليمن بعد رجوعه من الطائف وقسمة الغنائم في الجعرانة (سنة ٨ هجرية) ثمّ بعث عليّاً مكانه فقال : مرّ أصحاب خالد من شاءَ منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل قال البراء : فكنت فيمن عقب معه فغنمت أواني ذوات عدد » وروى الاسماعيلي رواية البراء هذه وزاد عليها قوله نقلاً عن البراء أنه قال « فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلّى بنا علي وصفّنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا فقرأ على اليمانيين كتاب رسول الله فأسلمت همدان جميعاً فكتب علي إلى رسول الله بإسلامهم فلما قرأ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان »اهـ وهذا الحادث من أعظم حوادث تاريخ صدر الإسلام وأعظمها في نتيجته لأنّ قبيلة همدان اليمانية هي من القبائل الكثيرة العدد في اليمن وإسلامها في يوم واحد على يد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام له من الشأن ما كان يجب أن يسهب في تفصيلها المؤرخون ولكن لسوء الحظ أن التواريخ التي اتصلنا إليها لم تفصله كما أنّ هذه التواريخ التي أجمعت على بعث سيدنا عليٍ في أثر خالد وبعضها يقول أنّ رسول الله أمر عليّاً وقتئذٍ بقوله : « قيد خالداً وأرسله مع من شاء من أصحابه » ما ذكرت شيئاً عن السبب الي حمل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على عزل خالد من الإمارة وإرجاعه سواءٌ مقيداً أو حراً إلى مكة كرّمها الله وهذا السكوت موضع نظر للمتأمل أيضاً . كذلك رأينا بعض المؤرخين « الذين اتصلنا بتواريخهم » يخلطون بين هذه السرية وسرية أمير المؤمنين إلى مذحج في السنة العاشرة للهجرة ولكنهم يعودون للقول بأنّهما سريتان لا سرية واحدة . =

= وإذا جاز لي أن أقول شيئاً عن إهمال المؤرخين لهذا الحادث العظيم مع ذكرهم بالإسهاب ما هو أقلّ من ذلك شأناً من حوادث صدر التأريخ الإسلامي فإنّي أقول بأنّ لذلك واحداً من سببين فإمّا أن المؤرخين ارادوا تغطية أمور أتاها خالد بن الوليد في هذه السريّة إجلالاً لمقامه الصحابي الرفيع والأعمال الباهرة التي أتاها فيما بعد في الفتوحات الإسلامية وإمّا أنهم أرادوا أن يخفوا عملاً عظيماً أتاه سيدنا علي عليه السلام يوم كان يهمّ الناس أن يسدلوا ستاراً كثيفاً على الأعمال العظيمة التي قام بها سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب عليه السلام وربما كان سكوت المؤرخين للسببين معاً فاكتفوا بإشارة بسيطة لذلك الحادث العظيم وهو دخول الإسلام بسرعة مدهشة إلى الأرجاء اليمانية بواسطة صنو المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكيفما كان الحال فمن الثابت الذي لا ريب فيه أنّ خالداً بن الوليد سار بسريّة من المسلمين لليمن للتبشير بالإسلام ولم يفلح وأنّ سيدنا علي تبعه بأمر المصطفى واستلم قيادة السرية وأفلح بإدخال همدان في الإسلام فأسلمت في يوم واحد ولعمري ما هذا النجاح إلّا كرامة عظمى من كراماته ونعمة كبرى للإسلام يحقّ للمصطفى عندما بلغه نبأها أن يخرّ للأرض ساجداً لله وهو يقول « السلام على همدان » ونحن نقول بعد كل هذه الأعوام : السلام على علي الذي هدى همدان للإسلام في ظلال السلام .

وكان دخول همدان في الإسلام على يد سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام بدء دخول الإسلام إلى اليمن التي هي مهد بني قحطان وقبائلهم ترجع جميعها إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهذه القبائل هي حمير وأشهر بطونها زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك وكهلان وأشهر بطونها همدان التي نحن بصددها وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وهم أنصار المصطفى وقد سبقت الإشارة إليهم وعلى ذكر همدان هذه يخلق بنا أن نذكر شيئاً عن عرب قحطان وهم جرثومة العرب وسبب هجرتهم من اليمن فنقول :

إنّ ملوك قحطان كانوا فكروا بالاستفادة من السيول التي تجري في وديانهم لتعينهم على الزراعة فبنوا لذلك سدّاً في موضع يسمى « مأرب » وصفه ياقوت فقال « كان بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلّا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص =

لِـذَا تَـوَجَّـهَ طَـهَ يُـمْنَـةً وَبَغَى قَحْـطَانَ فِيْ يَمَنٍ لِلْحَقِّ يَهْـدِيْهَـا
فِيْ ذِيْ آلْمُهِمَّـةِ قَدْ أَسْرَى سَرِيَّتَـهُ وَكَـانَ فِيْ مُـطْلَقِ آلتَّبْشِيْرِ مُسْـرِيْهَـا
وَخَـالِدٌ بِـآسْمِ طَـهَ كَـانَ قَـائِـدَهَـا فَسَـارَ فِيْهَـا إِلَى هَمْـدَانَ يُمْشِيْهَـا
فَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَـىٰ رُغْبَى آلرَّسُـوْلِ وَمَا حَمْـدَانُ قَدْ قَـابَلَتْ صَفْوَاً مُـوَافِيْهَـا

= فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من ماء السيول فيصير خلف السدّ كالبحر فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا » على أنّ هذا السدّ العظيم الذي يشير إلى حضارة عظمى لأسلافنا العرب القدماء لما تقادم عهده تصدّعت أركانه ولعلّ تصدّعه يشير إلى أنّ العرب الذين حدث ذلك التصدّع على عهدهم لم يكونوا كأسلافهم من الهندسة فعجزوا عن تلافي الخطر وما استطاعوا تعهد السدّ فنسفته المياه نسفاً في سنة ٤٢٠ قبل المسيح وفاضت مياهه الكثيرة على القرى والمزارع فأتلفتها وأهلكت كثيراً من أهلها وعلى أثر هذا السيل هجر كثير من قبائل العرب البلاد اليمانية لأنّ أراضيها ما عادت تكفيهم للمعيشة بزعامة سيدهم عمران بن عمرو سيد ولد الأزد من كهلان فقدم ثعلبة بن عمرو بن عمران مع عشيرته على الحجاز ونزل بين الثعلبية وبين قار ثمَّ توجه نحو المدينة ونزل على أهلها اليهود وهم أجداد الأوس والخزرج . وسار حارثة بن عمرو بن عمران فافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جُرهم وأبناؤه يسمون « خزاعة » وعطف عمران بن عمرو نحو عمان ونزلها ويدعى أبناؤه « أزدعمان » . وسارت قبائل نصر بن الأزد ونصر هذا أخو عمران ونزلوا في تهامة . وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها وبنوه هم آباء الغساسنة سموا كذلك نسبة إلى غسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه . وممن ترك اليمن وقتئذٍ قبيلة لخم بن عدي بن كهلان ثمَّ من بني الأزد ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ومنهم طيء ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال فنزلوا بين جبلي « أجأ » و« سلمى » في الشمال الشرقي من المدينة المنورة ويخترقهما وادي الدهناء وكانت الأمثال تضرب في منعتهما . ومنهم قبيلة كلب بن وتيرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق . ومع ذلك بقي في اليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكانت السيادة لهم على البلاد ومنهم الملوك والأقيال .

فَأَسْرَعَ آلْمُصْطَفى فِيْ بَعْثِ حَيْدَرَةٍ   وَقَالَ : بَعْثَتُهُ كُلُّ آلرَّجَا فِيْهَا
وَقَالَ أرْجِعْ إِلَيْنَا خَالِداً عَجِلاً   فَإِنَّ رَجْعَتَهُ أَمْسَيْتُ بَاغِيْهَا
وَصَحْبُهُ مَنْ تَرَى مِنْهَا إِعَادَتَهُ   أَعِدْهُ حَالاً وَأَبْقِ مَعْكَ بَاقِيْهَا
فَسَارَ حَيْدَرَةٌ مَعْهُ سَرِيَّتُهُ   إِلَى رِبَى يَمَنٍ يَنْحُوْ نَوَاحِيْهَا
وَمُذْ رَأى خَالِداً فِيْ آلْحَالِ أَبْلَغَهُ   رِسَالَةَ آلْمُصْطَفى إِذْ رَاحَ قَارِيْهَا
فَعَادَ أَدْرَاجَهُ مَعْ بَعْضِ صُحْبَتِهِ   لِمَكَّةٍ عَوْدَةً مَا كَانَ رَاجِيْهَا
وَآلْبَعْضُ عَوَّهَهُ مَا بَيْنَ صُحْبَتِهِ   أَبُوْ آلْحُسَيْنِ حَبِيْبُ آلنَّاسِ تَعْوِيْهَا
وَصَاحَ يَا آلَ هَمْدَانٍ أَتَيْتُكُمُ   بِشِرْعَةِ آللَّهِ فِيْ سَامِيْ مَثَانِيْهَا
وَرَاحَ يَخْطِبُ فِيْ عَالِيْ مَعَانِيْهَا   وَيَكْشِفُ آلسِّتْرَ عَنْ زَاهِيْ مَغَازِيْهَا
فَكَانَ يَنْثُرُ مَا بَيْنَ آلْوَرَى دُرَراً   هَيْهَاتَ مَا دُرَرُ آلْغَوَّاصِ تَحْكِيْهَا
وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِيْ مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ   وَآلنَّاسُ تَحْدِجُ بِآلأَنْظَارِ مُلْقِيْهَا
حَتَّى تَوَلَّى آلْهُدَى تِلْكَ آلنُّفُوْسَ جَمِيْعَاً وَآلْعَلِيُّ بِآيِ آللَّهِ مُشْجِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ آمَنَتْ بِآللَّهِ بَارِيْهَا   وَبِآلرَّسُوْلِ وَآيُ آلشُّكْرِ فِيْ فِيْهَا
وَآسْتَقْبَلَتْ بِآلثَّنَا وَآلْحَمْدِ حَيْدَرَةً   وَمَا نَسَتْ فَضْلَهُ إِذْ كَانَ مُهْدِيْهَا
وَبَادَرَ آلْمُرْتَضَى طَهَ يُبَشِّرُهُ   بِأَنَّ هَمْدَانَ لَبَّتْ صَوْتَ دَاعِيْهَا
وَآمَنَتْ كُلُّهَا إِيْمَانَ مُعْتَرِفٍ   بِآلْحَقِّ حَتَّى نِسَاهَا مَعْ ذَرَارِيْهَا
فَخَرَّ لِلَّهِ طَهَ وَهْوَ يَحْمَدُهُ   بِسَجْدَةٍ آضَ بِآلإِخْبَاتِ آتِيْهَا
وَقَالَ جَهْرَاً : سَلاَمُ آللَّهِ عَاطِرُهُ   ثُمَّ سَلاَمِيْ عَلَى هَمْدَانَ أُقْرِيْهَا
وَعَادَ يَسْحَبُ ذَيْلَ آلنَّصْرِ حَيْدَرَةٌ   لِمَكَّةٍ فَتَلَقَّى شُكْرَ أَهْلِيْهَا
وَبِآلْبَشَاشَةِ لاَقَاهُ آلرَّسُوْلُ وَنَا   دَى : ذَا أَخِي وَمُنَايَ فِيْهِ أُلْفِيْهَا

وَحَاتِمٌ قَدْ حَبَى طَيْئاً بِشُهْرَتِهِ ... وَجَاهَةً لَمْ تَكُنْ لَوْلَاهُ تَجْنِيْهَا[1]

بِهِ تَسَامَتْ عَلَى قَحْطَانَ أَجْمَعِهَا ... وَلَيْسَ مِنْ مُنْكِرٍ أَصْلاً تَسَامِيْهَا

---

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي من قبيلة طيء في اليمن ولد على ما يلوح لنا حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة ومات قبلها أيضاً بسنوات غير كثيرة . ومات أبوه وهو غلام يترعرع فكفله جدّه سعد . وما زال في كفالته حتى طرده من بيته على أثر نفحة من نفحات كرمه العظيمة . وكان سعد رئيساً لقبيلة.طيء ذا نوق وتجارة ولم نقف على أنّه كان ممتازاً بالكرم أمّا إذا قلنا كان كريماً فإنّ العرب كلهم كرام واللئيم دخيل عليهم وليس منهم . أمّا عتبة أمّ حاتم فقد كانت ممتازة بالكرم وما زالت تنفق من أموالها على قاصديها بلا رحمة حتى خاف إخوتها عليها الإملاق فحجروا عليها وعلى هذا فيكون حاتم قد ورث الكرم عن أمّه ونهض به نهضة أعجز بها الأوائل والأواخر فبات مضرب الأمثال .

قلنا إنّ العرب كلهم كرام وأنّهم لبريئون من كل بخيل لئيم فهو ليس منهم ولا هم منه حتى لو كان ملكاً يلقب بصاحب الجلالة . ولعمري إنّ قوماً كالعرب من أجلى مظاهرهم الكرم لا بدّ لمن يمتاز بينهم بهذه السجية المحمودة المتخلقون بها حتى أصبحت في طباعهم الطبيعية نعم لا بدَّ أن يكون له من الأعمال في سبيل الكرم ما لم يأت بمثله غيره من الكرام فما الذي فعله حاتم من ضروب الكرم حتى نال بها هذه الشهرة الواسعة التي دامت له كل هذا الزمان وستدوم إلى الأبد ؟ هذا محل حيرة المؤرخ المفكر .

إنّ الشهرة لا تأتي عبثاً ولا تكتسب بالتضليل والتمويه ولا تظننَّ أنّ كلمة مدح من متملق تكسي الممدوح ثوباً لا يبلى أبد الدهر فإنّك إذا ظننت هذا فقد أخطأت . فهذا عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان رجل العرب الأكبر في هذا العصر أصبح حديث الناس في مشارقها ومغاربها يتحدثون عن كرمه وفضله وعدله وعلمه وحسن سياسته وبات ثناؤه ملء الأفواه تسمعه حيثما كنت وكيفما اتجهت فهل تحسب أنه حفظه الله قد نال هذه الشهرة صدفةً أو لأنّ بعض الشعراء اتّصلوا به فرفدهم فحمدوه ؟؟ لا والله فلو كان الأمر كذلك لكان لغيره من ملوك العرب وأمرائهم مثل ما له من الذكر العاطر بين الناس فإنّ كثيرين من الشعراء قد قصدوهم ومدحوهم ونالوا رفدهم ولكن =

فَاْعْجَبْ لِفَرْدٍ عَلَتْ فِيْهِ عَشِيْرَتُهُ   قَدْرَاً وَمَا زَالَ لِلآبَادِ مُعْلِيْهَا

=الأعمال الباهرة المتواصلة التي يأتيها عظمة مولانا الشيخ في كلّ يوم قد ذاع أمرها وشاع بين الناس فكثرت رواتها وتغنى بها الناس في كلّ صقع ومصر وبها اشتهر وأصبح عند حدّ قول الشاعر :

كريمٌ إذا أمدحه والورى   معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فبينما يروي أحدهم لعظمته نادرة في الكرم يعززها آخر بنادرة في العلم فثالث بنادرة من نوادر عدله فرابع بنادرة من نوادر سياسته وكل يوم يسمعون من جدائد أعماله ما يؤيد قدائمها بمثل هذا بلغ أوج المجد والشهرة الخالدة الطيبة وما شاء الله . حتى إنّ حساده وأعداءه ومنافسيه وليسوا بقليلين خرست أفواههم أمام إجماع الناس على حمده فباتوا إذا ذكر اسمه الكريم بمعرض ثناء يطاطئون رؤوسهم واجمين ساكتين رغم أنوفهم .

وعندنا أن حاتماً لم يبلغ ما بلغه من الشهرة بالكرم إلاّ لأنّه كان كعظمة مولانا السردار أرفع يواصل أعماله الطيبة مواصلةً لم تدع سبيلاً لأعدائه وحساده ومنافسيه يصلون بها إلى التأثير على شهرته الطيبة الخالدة والحطّ من قدر فضله الكبير . حدّث عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان في أحد مجالسه الأدبية جلاسه عن حاتم وكنت بينهم فقال « ذُكر حاتمٌ يوماً لمعاوية بكرمه فغضب وقال ما للناس يعجبون بكرم هذا الرجل وكل الذي أنفقه في سبيل كرمه لا يبلغ عطية واحدة من عطاياي الكثيرة ؟ » فتصدّى له أحد جلاّسه الجريئين وكان من كرام العرب فقال « إنّ حاتماً كان يحسن حبّاً بالإحسان و أمّا أنت فتبذل الأموال لتشتري بها رضاء الناس عنك بعد أن تصديت لمحاربة ابن عمّ رسول الله وأخيه وصنوه وعصيت خلافته وناديت بها لنفسك فهل يكون كرمك ككرم حاتم الذي كان يهب كل ما تصل إليه يده لتلبية طالب وإغاثة ملهوف ؟؟ » قال مولانا الشيخ حفظه الله « فأطرق معاوية قليلاً ثمّ قال صدقت والله ان حاتماً كان كريماً » .

أمّا حوادث الكرم الحاتمي فهي كثيرة لو أردنا استيعاب ما انتهى إلينا منها لاحتجنا إلى مجلد ضخم فنجتزىء منها بالقليل للدلالة على الكثير قالوا : إنّ حاتماً منذ كان غلاماً يترعرع كان إذا أعطته أمه غذاءَه يخرج به إلى الحي فيشرك أبناء الجيران =

فَلاِسْمِهِ لَيْسَ فِيْ آلآرَاضِ مِنْ عَرَبِـــيٍّ لَيْسَ يَعْـرِفُ طَيْشَاً أَوْ يُسَمِّيْهَـا

= به فلحظت أمّه ذلك وأنّه يكاد يضوي من الجوع فصارت تكرهه على مناولـة طعامـه في بيتها .

وعندما شبّ حاتمٌ رأى جدّه أن يستخدمه في رعي إبله فـأرسله بطائفـة منها يـرتاد لها مرعى وبينما هو في طريقه لقيه ركب من العرب فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال حاتم متحمساً : أتسـألوني عن القـرى وقد تـرون الإبل فـانزلـوا . فنزل الـركب وهو لا يعرفهم ونحر لهم ثلاثة من الإبل فدهش الـركب من هذا الكرم العجيب الذي لم يعهدوا مثله وقـال أحـدهم : سـألنـاك القـرى ونحن نـريـد اللبن وكـان القليـل منـه يكفي لإرواء ظمئنـا . قال حـاتم : قد عـرفت هذا ولكني رأيت فيكم وجـوهاً مختلفـة وألوانـاً متفـرقة فعلمت أنّكم من بـلاد مختلفـة فـأحببت أن أريكم من كـرمي مـا تتحـدثـون بـه في بلادكم إذا عدتم إليها . فقالوا : وهل عـرفت من نحن ؟ قال : لا ولكني لأحسبكم من كـرام العرب قـالـوا : بلى والله ثم عـرّفـوه بنفـوسهم فـإذا هم : عبيـد بن الأبـرص وبشر بن أبي حازم والنـابغة الـذبياني نـوابغ شعـراء العرب . فسـرّ حاتم لهـذه الصدفـة المباركة لما تعلم من حفاوة العرب بالشعراء وازداد سروره عنـدما سـألوه ومن أنت أيهـا الأمير ؟ قال : أنا حاتم بن عبد الله بن سعد من طيء . فصاحوا بارك الله فيك وأخذ كلٌّ منهم يمدحه بشعره . فأخذته نخوة العربي الكريم وقال لقد أحببت أن أحسن إليكم فإذا أنتم المحسنون إليّ وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي أو تقتسمـوها . فمـا وسعهم « وهم شعراء رزقهم من شعرهم » إلاّ اقتسامها فـأصاب الـواحد منهم ٣٩ بعيـراً ومضوا وهم يترنمون بمدح حاتم والتنويه باسمه في منازل العرب فكان هذا بدء شهرتـه بالكـرم التي طبقت بعد ذلك الآفاق. أمّا حاتم فبعد أن انصرف أولئك الشعراء بإبله عـاد أدراجه إلى منازل طيء فلما دخل على جدّه ابتدره قائـلاً ويلك أين تركت الإبـل ؟؟ قال حـاتم والسرور يتدفق من وجهه « يا جدّاه طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر وكرماً لا يـزال الرجل يحمل بيت شعر آنس بـه علينا عـوضاً عن إبلك » فعـرف الجدّ أنّ حفيـده أضاع الإبـل بكـرمـه فقـال « ويلك أبـإبلي فعلت ذلـك ؟ » قـال : « نعم » قـال الجـدّ : « لا أساكنك أبداً » وهكذا طرده من بيته خوفاً من أن يبدّد جميع ماله . نقول إن سعد الطائي جدّ حاتم قد مات منذ ألف وأربعمائة سنة تقـريباً وسيـان ما إذا كـان قد مـات موسـراً أو معسراً فإنّ العمر هو فترة من الزمـان تنقضي على عسر أو يسـر ولكن ما قـاله لـه حفيده =

= حاتم من أنّه طوقه مجد الدهر هو الصحيح لأننا بعـد كل هـذه المدة نـذكره اليـوم بكرم حفيده ولو كان مثله بالكرم لذكرناه بالإطراء الذي اختصّ به حفيـده ولعمري مـا الإنسان إلّا ما جنى من حمد وشكران .

وتزوج حاتم بشـريفة غنيـة من كرائم العـرب تدعى مـاوية بنت مغـزر وكانت من الجمال والثروة على قسط عظيم وخطبها كثير من أمـراء العرب ووجـوههم فردتهم لأنّهـا لم ترهم أكفاء لها وآثرت حاتماً عليهم لشهرته بكرمه وما كاد يقتـرن بها حتى أعمـل يده في ثروتها الواسعة فجعل يوزعها على عفاته والظاهر أنّها عذلته يوماً على إسرافه بكـرمه فقال :

أمـــاويَّ إنـي لا أقـــول لـســـائـلٍ	إذا جـاء يومـاً حلَّ في مـالنـا النـذرُ
أمـــاويَّ أمّـــا مـــانـــعٌ فـــمبـــيَّـــنٌ	وأمّـــا عـــطاءٌ لا ينهـنهـــه الـــزجـــر
أمـــاويَّ مـا يغني الثـــراءُ عن الفتى	إذا حشرجت يومـاً وضاق بها الصدر
أمـــاويَّ إن يصبـح صــدايَ بقفـرةٍ	من الأرض لا مـاءٌ لـديَّ ولا خمـــرُ
تـري أنَّ مـا أنفقت لم يـكُ ضـرّني	وإنَّ يــدي ممـا بخلتُ بـــه صفـــرُ
وقـــد علم الأقـــوام لـــو أنَّ حـــاتمـــاً	أراد ثـــراء المـــال كـــان لـــه وفـــرُ

ولا نعلم ان كانت زوجه ماوية قد رضخت لرأيه وأقرته برضاها بعد هذا القول على كرمه أم لا ؟ ولكن الذي نعلمه أنّه ظلّ إلى آخر حياته وهو يوزع هباته على الناس فينفق كل ما تصل إليه يده وقد اتصل إلى المال الـوفير فبـدَّده حتى نحر يـوماً فـرسه ولم يكن يملك سواها لامرأةٍ أتته في ليلة مـظلمة والنـاس في قحل تشكـو له جـوع أولادها وأنت تعلم منزلة الخيل عند العرب حتى ليفضلونها على نفوسهم .

وكان حاتم يأمر في كل ليلة أحد غلمانه أن يوقد النار على يفاع من الأرض لتراها الناس وتقصد بيته للقرى وهو يقول :

أوقد فإنَّ الليل ليلٌ قرُّ   عسى يرى نارك من يمرُّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

وبـالفعل كـان يحرر الغلام الذي أوقد النـار إذا جاءَه ضيف مهتـدياً بنـورها ولكن الأغرب أن أولئك العبيد الذين كان يعتقهم كانوا يأبون العتق ولسـان حالهم « ومن وجـد الإحسان قيداً تقيدا » ولعمري إلى أين يذهب أولئك العبيد العتقاء إذا تركوا خدمة أكـرم كريم في العرب ؟؟ . =

وَطَيءُ قَـدْ نَحَتَتْ مِنْ صَخْرِهَـا وَثَنـاً   لَـهُ ٱلْعِبَـادَةُ بِـٱلْإِخْبَـاتِ تُسْـدِيْهَـا[1]

= وقد كرتني نار حاتم هذه بنور عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان أمير المحمرة وأمير الكرم حياه الله فإنّ عظمته استجلب النور الكهربائي من باريس سنة ١٩١١ فكان أول عهد بلاد العرب بجملتها بالكهرباء ومدّ أسلاكه في قصوره العامرة في القبلية والكمالية فأصبحت كل قصوره تتلألأ بتلك الأنوار الساطعة وأمر حفظه الله أن يقام قنديل منها بقوة ألفي شمعة على سطح القصر الخزعلي العالي في الكمالية على منارة عالية فسأل بعض المقربين من عظمته عن الحكمة في إيقاد هذا القنديل في فضاء هذا العلو الشاهق فضحك عظمته وقال ألا ترى الناس تأتينا ليلاً فوالله أخشى أن تضل سبيلها إلينا فوضعنا لها هذا النور لتهتدي به إلى منازلنا فكرت حينئذٍ ما كان يفعله حاتم من إيقاد ناره على بقاع الأرض لهذا الغرض الشريف وقلت في الحضرة ارتجالاً :

قـد كان حـاتمُ يوقـد النيـران للـ   ـقصّاد في الليل البهيم الـداجي
فـإذا بشيخِ المحسنين جـلا ديـا   جيـه بنـور الكهـربـاء الــوهـاج
والله خزعلُ لم تدع مجداً لمحـ   ـسانٍ ولا رجـوى تـرام لـراجي

وولدت ماوية لحاتم ولداً يدعى عديّ وابنة تـدعى سفّانـة فكانـا من السخاء عند ظن والدهما وقد أدركا الإسلام وأسلما على ما سيجيء في الحاشية التالية .

ولم تقتصر عظمة حاتم الطائي على سخائه فقط بل كان من الشعراء المبرزين ومن يقرأ شعره يجد فيه مبلغ عزّة نفسه وتحدثه عن كرمه فيعلم من هو . وكان شجاعاً مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ما نهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، « والضرب بالقداح من أنواع المقامرة عند العرب » وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان قد أقسم أن لا يقتل وحيداً لأمه « فكان إذا بارز شجاعاً سأله إذا كان له أخ أم لا فإذا عرفه وحيداً عفا عنه » وكان إذا أهلّ الشهر الأصمّ « وهو رجب الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية » ينحر كل يوم من أيامه عشراً من الإبل ويطعم الناس .

وتوفي حاتم في السنة الثامنة لعام الفيل الموافقة لسنة ٥٧٩ مسيحية أي بعد ولادة رسول الله بثمان سنوات وحسبه فخراً أنّ المصطفى شهد له بمكارم الأخلاق كما سيجيء .

(١) أخذ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته إلى المدينة المنورة تتميم مهمته المقدسة =

«فِلْسَاً» دَعَتْهُ وَكَمْ جَاءَتْ لِمَسْجِدِهِ آلـــزُّوَّارُ وَآلْجَهْلُ لِلْإِشْرَاكِ حَادِيْهَا

=بتعميم نشر دعوته ومحاربة كل أثر للإشراك والكفر في بلاد العرب وقد اتصل بمسامعه الشريفة أنّ في طيء في محلة آل حاتم الطائي الكريم الأنف الذكر صنم يسمى الفلس وله بيت يعبده الناس فيه فصمّم صلى الله عليه وآله وسلم على تحطيم الصنم وهدم البيت الذي فيه ولم يجد لهذه المهمة العظيمة سوى أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فوجهه بسرية فيها نحو مئة وخمسين رجلاً فأغار على أحياء من العرب في طريقه وبشرها بالإسلام وكان الفوز رفيقه حتى إذا ما وصل بسريته إلى محلة آل حاتم هاجمها عند مطلع الفجر وتغلب على أهلها ودكّ بيت الصنم وحطم ذلك الصنم تحطيماً ووجد في خزانته ثلاثة سيوف وثلاثة دروع وكانت هذه السيوف أثرية لها شهرة عند العرب وتسمى رسوب والمخذم واليماني فغنمها مع ما غنم عليه السلام من النعم وسبى النساء وكانت فيهنّ سفّانة ابنة حاتم الطائي وسار بالسبي والغنائم عائداً إلى المدينة المنورة حيث قدمها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاختصّ المصطفى نفسه الشريفة بهاتيك السيوف . ووزّع الغنائم والسبي على المسلمين إلّا سفانة ابنة حاتم الطائي فقد تقدمت منه وكانت جذلة ذات وقار وعقل وقالت « يا محمدٍ أرأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإنّي ابنة سيد قومي وكان أبي يحمي الذمار ، ويفكُّ العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم طيء . فقال المصطفى : هذه مكارم الأخلاق حقّاً خلوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق وان الله يحبّ مكارم الأخلاق . فشكرت سفّانة نعمة المصطفى ودعت فقالت « شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيمٍ حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم إلّا وجعلك سبباً لردّها عليه » فتبسم لها الرسول وانصرف وظلّت سفّانة في حظيرة المسجد فمرَّ بها المصطفى والمرتضى في اليوم التالي فأشار إليها المرتضى أن تكلّم المصطفى فتصدت له وقالت منّ عليَّ منّ الله عليك قال « لقد فعلت فلا تعجلي حتى تجدي ثقة يبلغك بلادك » ثمَّ تركها ومضى بعد أن أوصى بها خيراً . وبعد أيام قدم المدينة رهط من طيء وبلغها خبره فأسرعت إلى المصطفى في مسجده وأخبرته بقدوم قومها وثقتها بهم فكساها وأعطاها نفقة وركوباً فأسلمت ودعت وانصرفت إلى أخيها عدي بن حاتم وكان يومئذٍ في الشام هرباً من الإسلام فلما انتهت إليه قال لها : ما ترين في هذ=

دَرَى بِهَا ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِ عَوْدَتِهِ   مِنْ مَكَّةٍ قَالَ طَيْءُ لَسْتُ نَاسِيْهَا
وَلَا أَنَا تَارِكُ «فِلْسَاً» وَمَسْجِدَهُ   وَلَا عِبَادَتُهُ لِلنَّاسِ مُبْقِيْهَا
وَصَاحَ بِٱلْمُرْتَضَى: أَسْرِعْ أَخِيَّ إِلَى   طَيْءٍ فَأَنْتَ بِلَا شَكٍّ مُرَبِّيْهَا
وَحَطِّمْ ٱلصَّنَمَ ٱلْمَعْبُوْدَ لَا تَدَعِ ٱلْـ   ـجُهَّالَ تَأْتِي إِلَيْهِ وَهْوَ يُغْوِيْهَا
وَأَنْتَ أَعْدَى عَدُوٍّ قَاهِرٍ وُثُنَ ٱلْإِ   م شْرَاكِ بَلْ أَنْتَ أَسْمَى مَنْ يُلَاشِيْهَا
فَأَسْرَعَ ٱلْمُرْتَضَى وَٱلنَّاسُ تَتْبَعُهُ   وَإِنَّهَا عَرَفَتْ لِلنَّصْرِ يُمْشِيْهَا
حَتَّى إِذَا صَارَ فِيْ طَيْءٍ فَمَا خَضَعَتْ   لِدَعْوَةٍ كَانَ بِسْمِ ٱللَّهِ دَاعِيْهَا
لِذَا أَثَارَ عَلَيْهَا ٱلْحَرْبَ أَشْعَلَهَا   وَحَقَّقَ ٱلظَّنَّ إِذْ أَمْسَى مُجَلِّيْهَا
فَرَاحَ يَفْتِكُ بِٱلْأَبْطَالِ يَسْحَقُهَا   وَعَادَ بِٱلنَّهْبِ عَنْهَا وَهْوَ سَابِيْهَا
وَجَاءَ طَيْئَاً فَهَدَّ ٱلْبَيْتَ وَٱلصَّنَمَ ٱلْـ   ـمَشْهُوْرَ فِيْهِ عَلَى مَرْأَى أَهَالِيْهَا
وَعَادَ بِٱلسَّبْيِ وَٱلْأَسْلَابِ عَوْدَةَ مَنْـ   ـصُوْرٍ بِتَقْوَاهُ يَأْبَى ٱلْكُبْرَ وَٱلتِّيْهَا
فِيْهَا ثَلَاثَةُ أَسْيَافٍ قَدِ ٱشْتَهَرَتْ   فَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِيْ مُؤَدِّيْهَا
وَمَعْهُ سَفَّانَةٌ بِنْتُ ٱلْمُمَجَّدِ حَا   تِمٍ أَبَرِّ كِرَامِ ٱلْعُرْبِ سَاخِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ أَبَى مِنْ أَجْلِ وَالِدِهَا   لَهَا ٱلْإِسَارَ وَلَمْ يَقْبَلْ تَسَرِّيْهَا
فَأَسْلَمَتْ وَدَعَتْ لِلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ   تَرْوِيْ مَحَامِدَهُ ٱلْغَرَّا وَتُطْرِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ لِبِلَادِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ أَنْ   تَلْقَى أَخَاهَا ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ يَثْوِيْهَا
قَدْ كَانَ مَعْ وُفْدِ طَيْءٍ وَهْوَ يَقْصُدُ طَـ   ـهَ فِيْ رِبَى طِيْبَةٍ صَفْوَاً يُمَاشِيْهَا

= الرجل ؟ قالت : أرى والله أن نلتحق به سريعاً فإن يك نبيّاً فللسابق إليه فضيلة وإن ملكاً فلن تزال في عزّ اليمن وأنت أنت فقال : والله هذا هو الرأي وسار لساعته إلى المدينة المنورة وأسلم وحسن إسلامه وأكرم المصطفى مثواه .

لَكِنَّــهُ فَــرَّ مِــنْ إِخْــوَانِــهِ هَــرَبَــاً مِنَ ٱلْهِدَايَـةِ مُـذْ وَافَتْ عَـوَالِيْهَـا
رَوَتْ لَـهُ أُخْتُـهُ طَيْئَـاً وَنَـكْبَتَهَـا قَـالَتْ : أَبُوْ حَسَنٍ قَـدْ رَاحَ غَازِيْهَـا
وَحَـدَّثَتْـهُ بِمَـا فِيْ طِيْبَـةٍ وَبِهَـا ءُ مَجْـدِ أَحْمَدَ وَٱلْإِسْـلَامِ غَـاشِيْهَـا
قَـالَتْ: فَـأَسْـرِعْ إِلَيْهَـا مُسْلِمَـاً وَتَقَـرَّبْ بِـٱلتَّـوَدُّدِ مِنْ أَعْتَـابِ وَالِيْهَـا
تَقْنِي بِدُنْيَاكَ فَخْرَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَفِيْ ٱلأُ خْـرَى مَثُـوْبَتَهُمْ طُـوْبَى لِقَـانِيْهَـا
أَصْغَى عَـدِيٌّ أَخُوْهَـا لِلنَّصِيْحَةِ إِصْـغَـاءً وَسَـارَ بِـلَا بُطْءٍ لِيُجْـرِيْهَـا
فَرَحَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لُطْفَاً بِصَاحِبِ طَيْءٍ وَٱبْنِ حَـاتِمِهَـا أَسْمَى مَـوَالِيْهَـا

أمير المؤمنين في غزوة تبوك

سُبْحَانَكَ ٱللَّـهُ وَٱلتَّسْبِيْحُ أَصْبَحَ فِيْ جَـزِيْرَةِ ٱلْعُـرْبِ فِيْ أَفْوَاهِ أَهْلِيْهَـا(١)
وَقَـدْ غَـدَتْ دَوْلَـةُ ٱلْإِشْـرَاكِ دَائِلَةً مِنْهَـا وَأَصْنَـامُهَـا هُـدَّتْ مَبَـانِيْهَـا

---

(١) وأقام المصطفى ﷺ بعد عودته من مكة المكرمة في المدينة المنورة إلى رجب من السنة التاسعة للهجرة وفيه أمر المسلمين أن يتجهزوا لغزو الروم انتقاماً لزيد بن حارثة ومن أصيب معه في « مؤتة » كما تقدم في حاشية سابقة ويسمي المسلمون الجيش الذي خرج في هذه الغزوة بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان في زمن عسرة لشدّة الحرّ والجذب في البلاد وفوق ذلك فإنّ المسلمين تهيبوا المسير على الروم وصار يقول المنافقون منهم الذين كانوا يظهرون الإسلام ويكتمون الكفران محاربة الروم لا تشبه محاربة العرب بعضهم لبعض وأخذوا يتشائمون بالانكسار ويثبط بعضهم عزائم بعض . ولم يفت المصطفى ما كان يتهامس به هؤلاء من التشاؤم مع إظهار الارتياح إليه فرأى ﷺ أنّ الضرورة تقضي بإبقاء سيدنا علي أمير المؤمنين على المدينة وهي الغزوة الوحيدة التي لم يصحبه فيها . نعم إنّ المصطفى لم يرَ بداً من تخلف سيدنا أمير المؤمنين عن هذه الغزوة لأنّه الكفء الوحيد لإدارة زمام المملكة الإسلامية التي كانت قد امتدت لأكثر جهات جزيرة العرب على كثرة ما في العرب من المسلمين ولا سيما أنه كان يعلم بأنّه سائر إلى محاربة الروم وهو يدرك قوات الروم لا يستخفّ بها فإذا لم=

فَبَعْـدَ تِسْعَـةِ أَعْـوَامٍ لِهِجْـرَةِ طَـــهَ دَانَتِ ٱلْعُرْبُ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْرِيْهَا
وَأَصْبَحَتْ أُمَّـةً كُبْـرَى مُـوَحَّـدَةَ ٱلْأَ م مَيَــالِ تَـارِكَـةً مَـاضِي تَعَـادِيْهَـا
وَرَايَـةُ ٱلـدِّيْنِ أَمْسَتْ وَهْيَ عَـالِيَـةٌ فِـيْهَـا وَلَا أَمْـنَ إِلَّا فِيْ تَـفَـيِّـيْهَـا

= تصب غزوته النجاح فقد ينتقض عليه المنافقون وكثيرهم .

على أنّ المصطفى ما كاد يبعد بغزاة المسلمين من المدينة المنورة حتى طفق أولئك المنافقون الفجار يلغطون باستخلاف سيدنا علي عليه السلام عن الغزوة ويرجفون قائلين « ما خلف المصطفى إلّا استثقالاً له وتخففاً منه » ولعلّهم أرادوا من قولهم هذا أن يوغروا صدره الشريف على المصطفى ويحدثوا شقاقاً بذلك بين المسلمين ينالون مأربهم الشرير من تضييع المجهودات المحمدية الناجحِة .

ولما انتهى إلى المسامع الحيدرية الشريفة صدى لغط الناس هذا اغتاظ صلى الله عليه وآله وسلم وشكّ سلاحه وركب جواده وأسرع مقتفياً آثار المصطفى وجيشه فوجدهم منيخين في موضع يسمى « الجرف » فدخل على محمد والعرق يتصبب من جسمه الشريف والغضب بادٍ على وجهه النيّر وقال : « يا نبيّ الله لقد زعم المنافقون أنّك ما خلفتني في المدينة إلّا لأنّك استثقلتني وأردت أن تتخفف مني » فتبسم المصطفى وقال « كذبوا كما كذبوا عني فقالوا إنّي ساحر ، وإنّي كاهن ، وإنّي كذّاب ، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك يا علي ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي » فاستبشر علي بما سمع وعاد أدراجه إلى المدينة المنورة يدبر أمر المملكة الإسلامية العظمى .

وانتهى المصطفى بجيشه الجرار إلى موضع يسمى « تبوك » وهناك جاءه يحنة « يوحنا » ابن رؤبة صاحب « ايله » فصالح رسول الله على الجزية وأتاه أيضاً أهل « جرباء » وأهل « أذرح » فأعطوه الجزية وبعث صلى الله عليه وآله وسلم وهو في « تبوك » خالد بن الوليد في سرية إلى « أكيدر تومة » فذهب إليه وحاربه وأسره وجاء به إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فعفا عنه وصالحه على الجزية وأعاده إلى بلده .

وبعد أن أقام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بضع عشرة ليلة في تبوك عاد إلى المدينة المنورة وكانت هذه الغزوة آخر غزواته .

وَٱلرُّوْمُ فِيْ ٱلشَّامِ خَافَتْ نَهْضَةَ ٱلْعَرَبِ ٱلْـــكُبْرَى وَقَـدْ أَكْثَـرَتْ فِيْهَـا تَـظَنِّيْهَـا
وَقَــدَّرَتْ أَنَّ طَــهَ قَــدْ يُثِيْـرُ عَـلَيْــهَا ٱلْحَرْبَ إِنْ لَمْ تُسَارِعَ فِي تَوَقِّيْهَا
وَأَنْ تُفَـاجِئَـهُ بِـٱلْحَـرْبِ غَـازِيَـةً مِنْ قَبْلِمَا ٱلْعُرْبُ بِـٱلْعُدْوَى تُفَـاجِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ دَرَى مَا فِي نُفُوسِ جُمُوْ عِ ٱلـرُّوْمِ مِنْ نِيَّـةٍ سَـوْدَاءَ تَنْـوِيْهَـا
فَـقَــالَ إِنِّيَ بِسْمِ ٱلـلَّهِ أَسْبِقُـهَـا لِـلْحَـرْبِ إِنِّيَ أَوْلَـى أَنْ أُلَاقِـيْـهَـا
وَٱللَّهُ يَنْصُــرُ دِيْنـاً رُحْتُ نَـاشِـرَهُ وَٱلـلَّهُ يَكْـبِتُ أَعْـدَاهُ وَيُـخْــزِيْهَـا
وَصَاحَ فِي ٱلنَّاسِ يَدْعُو لِلْمَسِيْرِ عَلَى ٱلْأَ رْوَامِ فِيْ ٱلشَّامِ فَٱنْصَاعَتْ لِدَاعِيْهَا
وَلَمْ تُعَارِضْ سِوَى أَهْلِ ٱلْنَفَاقِ فَقَـا لَتْ: مَـا مُحَـارَبَــةُ ٱلْأَرْوَامِ نَبْغِيْهَـا
تَشَاءَمَتْ بِٱنْكِسَارِ ٱلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ تُحَـذِّرُ ٱلنَّـاسَ مِنْ حَـرْبٍ يُلَظِّيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ مَـا أَشَاعَتْ مِنْ تَشَـائِمِهَـا نَصِيْـحَــةً لِعِبَــادِ ٱللَّهِ تُـسْــدِيْهَـا
لٰكِنْ أَرَادَتْ بِـهَــا تَــٱللَّهِ مَـفْسَــدَةً لِلنَّـاسِ كَيْمَـا عَنِ ٱلْقِيْتَــالِ تُثْنِيْهَـا
لِأَنَّهَــا قَــدْ أَسَــرَّتْ لِلْحَنِيْفِيَــةِ ٱلْــسَّمْحَـاءِ نِيَّـةَ سُـوْءٍ فِيْ مَـطَاوِيْهَـا
وَكَــانَ يَـعْــرِفُ طَــهَ مَــا تُخَـبِّئُــهُ صُـدُوْرُهَا مَـا ٱخْتَفَتْ عَنْهُ خَـوَافِيْهَـا
لِـذَاكَ أَبْقَى عَلِيّاً فِيْ ٱلْمَـدِيْنَـةِ يَـرْ عَى مُلْكَــهُ وَأَهَـالِيْـهِ يُـرَاعِيْـهَـا
وَمَــا سِــوَاهُ لِأَرْبَــابِ ٱلـنِّفَــاقِ إِذَا غَابَ ٱلرَّسُولُ وَجَدَّتْ فِي مَسَاوِيْهَا
وَسَـارَ يَطْلُبُ أَرْضَ ٱلشَّامِ يَنْشُدُهَـا بِــرَكْبِـهِ لَمْ يَهَبْ تَقْتَــالَ رُوْمِيْهَـا
وَمَا غَزَا ٱلْمُصْـطَفَى غَزْوَاً بِغَيْـرِ عَلِــــيٍّ ٱلْمُـرْتَضَى قَاهِـرِ ٱلْكُفَّارِ نَـاكِيْهَا
وَلَا تَسَعَّرَ فِيْ عَهْدِ ٱلْجِهَادِ لَظَى ٱلْـــهَيْجَـاءِ إِلَّا عَلِيٌّ كَـانَ صَـالِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ رَاضِيــاً ذَا ٱلْيَـوْمَ قَعْـدَتَـهُ عَنِ ٱلْكَـرِيْهَـةِ إِلَّا طَـوْعَ رَاضِيْهَـا
فَشَنَّـعَ ٱلْقَوْمُ قَـالُوْا: قَـدْ تَخَفَّفَ مِنْــــهُ ٱلْمُصْـطَفَى وَلَهُ قَـدْ رَامَ تَعْـوِيْهَـا

هَمَّ ٱلْعَلِيَّ ٱلَّذِي قَالُوْا فَخفَّ إِلَى آلـــسِّلَاحِ فِيْ عَزْمَـةٍ لَمْ يَخْبُ وَارِيْهَا

وَسَـارَ مُتَّبِـعَ ٱلـرِّكْبَانِ قَـاصِـدَهَـا فَـوْقَ ٱلْمُطَهَّمِ وَٱلآثَـارَ قَـافِيْهَـا

حَتَّى رَآهَـا بِأَرْضِ ٱلْجُرْفِ نَـازِلَـةً فَـحَــلَّ فِيْـهَـا وَلاَقَـاهُ مُـلاَقِيْـهَـا

وَقَابَلَ ٱلْمُصْطَفَى يَشْكُوْ إِلَيْـهِ لَغَا ٱلْـــفُجَّارِ يَـرْوِيْ لَـهُ إِرْجَافَ هَـاذِيْهَا

وَقَـالَ : عَـطْفَـاً نَبِيَّ ٱللَّهِ تَخْـذِلُنِيْ أَنَا آبْنُ عَمِّكَ قَالَ ٱلْمُصْطَفَى : إِيْهَا

لَئِنْ تَمَنَّتْ عَلَيْكَ ٱلْعُـرْبُ قَـوْلَتَهَا فَمَـا نَسِيْتُ لَهَـا مَـاضِيْ تَمَنِّيْهَـا

أَلَمْ تَقُـلْ إِنَّنِيْ ٱلسَّحَّارُ أَسْحَـرُهَا وَإِنَّنِيْ كَـاهِـنُ ٱلأَصْنَـامِ أَرْقِـيْهَـا

وَإِنَّنِيْ كَـاذِبٌ بِـٱلْمَيْنِ أَخْـدَعُهَـا وَإِنَّـنِي بِـأَبَـاطِـيْلِي أُمَـارِيْـهَـا

تَـأَسَّ بِيْ وَٱصْطَبِرْ مَا أَنْتَ مِنِّيَ إِلَّا م مِثْلُ هَـرُوْنَ مِنْ مُـوْسَى فَتِـهْ تِيْهَـا

خَـلاَ ٱلنُّبُـوَّةِ مَـا بَعْدِيْ يَقُـوْمُ نَبِـــيٌّ فِيْ ٱلْبَـرِيَّـةِ يَـرْعَـاهَا وَيَهْـدِيْهَا

أَرْجِـعْ إِلَى طِيْبَـةٍ إِنِّيْ تَـرَكْتُـكَ لِلَّـــذِيْنَ خَلَّفْتُهُـمْ مِنْ عِتْـرَتِيْ فِيْهَـا

فَـطَابَ نَفْسَـاً عَلِيٌّ وَٱنْثَنَى فَـرِحَـاً لِـطِيْبَـةٍ وَهْــوَ وَالِيْهَـا وَقَـاضِيْهَـا

وَغَـزْوَةُ ٱلْمُصْـطَفَى كَـانَتْ مُـوَفَّقَـةً وَنَصْـرَةُ ٱللَّـهِ قَـدْ كَـانَتْ تُـؤَسِّيْهَـا

وَفِيْ تَبُـوْكٍ لَقَـدْ كَـانَتْ وَقَـائِعُهَـا لِـذَا بِهَـا كَـاتِبُ ٱلتَّـارِيْـخِ يُسْمِيْهَـا

وَإِنَّمَـا غَـزَوَاتُ ٱلْمُصْــطَفَى خُتِمَتْ بِهَـا وَقَـدْ كَـانَ بِـٱلإِسْعَـادِ مُنْهِيْهَـا

أمير المؤمنين في حجة أبي بكر

وَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ عَامِ تِسْعَـةِ أَنْ تَمْضِيْ لِحَجَّتِهَـا ٱلْحُجَّاجُ تَـأْتِيْهَا(١)

وَقَـالَ يَسْعَى أَبُـوْ بَكْـرٍ بِـرُفْقَتِهَـا فَهْـوَ ٱلأَمِيْرُ عَلَيْهَـا وَهْـوَ حَـامِيْهَا

(١) في ذي القعـدة من السنة التـاسعة للهجـرة أذن المصطفى لمن يـريـد الحج =

كَـذَاكَ سَـارَ أَبُـوْ بَكْـرٍ لِحَجَّتِـهِ   بِـاَلْمُسْلِمِيْنَ اَلْأُلَى كَانُـوْا مُرِيْـدِيْهَـا

=بالحج وسمّى أبا بكر أميراً للحج فخرج بالحجاج في أول ذي الحجة قاصداً مكة المكرمة وكان عددهم نحو الثلاثمائة وبعد ذهاب الحجاج بثلاثة أيام أوحى الله إلى رسوله بالبراءة من عهوده مع المشركين فبشّر بها أصحابه فقال له قائلهم : « لو بعثت بها إلى أبي بكر فيبلغها الناس » فأجاب ﷺ « لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي » ثم دعا عليّاً عليهما الصلاة والسلام وقال أخرج على ناقتي القصواء فاتبع الحجّاج وادخل معهم مكة فاقض مناسك الحجّ حتى إذا ما أفاضوا إلى منى يوم النحر فأذن بالناس وأبلغهم البراءة كما أوحيت لي » فصدع المرتضى بأمر المصطفى وامتطى الناقة القصواء وسار في أثر الحجاج فالتقى بهم بالقرب من مكة فدخلها معهم وبعد أن قضوا فريضة الحج وأفاضوا إلى منى يوم العيد الأكبر وعند الجمرة الأولى تقدَّم عليه السلام على ناقة المصطفى « القصواء » وصاح بالناس خطيباً فقال « أيّها الناس لا يدخل الجنّة إلاّ مؤمن ، ولا يحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالكعبة عريان . ومن كان له مع رسول الله عهد فله عهد أربعة أشهر من يومنا هذا ثم لا عهد له ، ومن لا عهد له فعهده إلى انقضاء المحرم » وعرف المشركون من خطاب أمير المؤمنين هذا ما كانوا يجهلونه من اضمحلال الإشراك نهائياً وزوال شوكته من عموم جزيرة العرب .

وممّا تجب الإشارة إليه هنا هو أنّ المشركين في ذلك العام قصدوا مكة محرمين للحج حسب عادتهم ناسين أو متناسين بأنّ مكة وكعبتها كرّمهما الله قد باتا بأيدي المسلمين فاختلطوا بحجاج المسلمين وهم يكبّرون تكبير المشركين وكان من أولئك المشركين أناس يتعرون وراء المسجد الحرام ويطوفون بالكعبة عراة الأبدان رجالاً ونساءً وكان يقول هؤلاء العراة إننا لا نطوف بالكعبة ونعبد الله بثياب أذنبنا فيها كما كان يرى بعضهم بأنّهم يعرّون من ذنوبهم كما تعروا من ثيابهم ومن أغرب أحوال هؤلاء العراة أنّ امرأة منهم طافت بالبيت عريانة ويدها على قبلها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   فما بدا منه فلا أحلّه

ولمنع عادة التعرّي التي كانت شائعة بين المشركين في حجّهم وعبادتهم نزلت آية ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق** ﴾ الآية .

وبعد ذلك رجع المرتضى وأبو بكر بالحجاج إلى المدينة المنورة وعرف الناس أنّه=

فَجَازَ طِيْبَةَ يَبْغِي مَكَّةَ لِفَرِيْـضَةٍ يَنَالُ رِضَاءَ ٱللَّهِ قَاضِيْهَا

وَبَعْدَ غَيْبَتِهِ أَوْحَى لِأَحْمَدَ آ يَاتِ ٱلْبَرَاءَةِ وَٱلْإِنْذَارِ مُوْحِيْهَا

فَقِيْلَ لِلْمُصْطَفَى : فَٱبْعَثْ بِهَا لِأَبِيْ بَكْرٍ فَيُعْلِنُهَا لِلنَّاسِ يُفْشِيْهَا

فَقَالَ : كَلَّا فَمَا غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ يُبَلِّـغُ ٱلْبَرَاءَةَ أَوْ يُنْثِيْ مَثَانِيْهَا

ثُمَّ دَعَا ٱلْمُرْتَضَى فِيْ ٱلْحَالِ أَبْلَغَهُ آيَ ٱلْبَرَاءَةِ كَيْ يَمْضِيْ يُؤَدِّيْهَا

وَقَالَ أَسْرِعْ عَلَى ٱلْقَصْوَاءِ فِيْ طَلَبِ ٱلْـحُجَّاجِ آثَارُهَا كُنْ صَاحِ قَافِيْهَا

وَٱدْخُلْ بِهَا مَكَّةً وَٱقْضِ ٱلْمَنَاسِكَ مَعْـهَا مُسْتَثِيْباً بِهَا ٱلْخَلَّاقَ ثَاوِيْهَا

وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَعْلِنْ صَاحِ أَنَّ عُهُوْدِيْ لِلْأَعَارِبِ قَدْ أَصْبَحْتُ مُلْغِيْهَا

وَأَنَّ نَفْسِيَ مِنْ تِلْكَ ٱلْعُهُوْدِ كَمَا قَدْ شَاءَ رَبِّيْ وَأَوْحَى لِيْ أُبَرِّيْهَا

كَذَا ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْوَاءَ حَيْدَرَةٌ وَرَاحَ يَتْبَعُ ٱلْحُجَّاجَ يَبْغِيْهَا

وَقَدْ تَلَاقَى بِهَا فِيْ قُرْبِ مَكَّةَ إِذْ كَانَتْ تَجِدُّ إِلَيْهَا فِيْ مَسَاعِيْهَا

فِيْ ٱلْحَالِ أَنْبَا أَبَا بَكْرٍ مُصَاحِبَهَا أَسْرَارَ جَيْئَتِهِ مَا كَانَ مُخْفِيْهَا

وَصَاحَبَ ٱلنَّاسَ فِيْ كُلِّ ٱلْفُرُوْضِ وَكَا نَتْ مِثْلَمَا شَاءَ رَبُّ ٱلْبَيْتِ تُجْرِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا أَفَاضَتْ وَٱنْتَهَتْ لِمُنَى ٱلْـحُجَّاجُ أَوْقَفَهَا صَوْتٌ يُنَادِيْهَا

صَوْتُ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِيْ مِنْ فَوْقِ نَاقَتِهِ وَافَى بِمَا أَمَرَ ٱلْهَادِيْ يُفَاهِيْهَا

فَقَالَ : يَا نَاسُ أَصْغُوْ لَيْسَ يَدْخُلُ فِيْ ٱلْـجِنَانِ إِلَّا أَخُوْ ٱلْإِيْمَانِ يَثْوِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا ٱلْعَامِ لَا حَجٌّ لِمُشْرِكِكُمْ أَصْلاً وَمَكَّةُ تَأْبَى أَنْ يُوَافِيْهَا

= لا يبلغ رغائب المصطفى إلّا المرتضى عليهما الصلاة والسلام ولا سيما إذا كانت تنزيلاً ووحياً .

وَلَا يَـطُوْفُ بِبَيْتِ ٱللَّهِ مِـنْ عَبَـدَتْـــهِ بَعْدَ حَجَّتِنَـا ذَا ٱلْعَـامَ عَـارِيْهَـا
وَمَنْ لَـهُ مَعَنَـا عَهْـدُ فَـأَرْبَعَـةٌ مِنَ ٱلشُّهُـوْرِ نُـرَاعِي عَهْـدَهُ فِيْهَـا
وَمَنْ يَكُنْ دُوْنَ عَهْـدٍ عَهْـدُنَـا مَعَـهُ حَتَّى ٱلْمُحَـرَّمَ ثُمَّ ٱلْحَـرْبُ تُصْلِيْهَـا
بِذَاكَ أَنْذَرَ أَصْحَابَ ٱلْغَوَايَـةِ وَٱلْإِشْـــرَاكِ أَنْ لَيْسَ مِنْ سِلْمٍ يُـوَاتِيْـهَـا
وَمَـا ٱحْتَفَى بِـأُنَـاسٍ هَـدَّدَتْـهُ وَنَـا دَى: مَا سِوَى شِرْعَةِ ٱلْإِسْلَامِ تُنْجِيْهَا
وَعَـادَ يَصْطَحِبُ ٱلْحُجَّـاجَ مَعْـهُ أَبُـوْ بَكْـرٍ وَطِيْبَـةُ قَـدْ سُرَّتْ بِـآتِيْهَـا
وَأَدْرَكَ ٱلـنَّــاسُ أَنَّ ٱلْـمُـرْتَـضَـى لَمُبَلِّـغُ ٱلـرِّغَـابِ ٱلَّتِي يَسِيْنُ يُلْقِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْأَخَصِّ إِذَا كَـانَتْ مُقَـدَّسَـةً وَكَـانَ جِبْرِيْـلُ بِـٱلتَّنْزِيْـلِ مُمْلِيْهَـا

أمير المؤمنين يهدي مَذحج

بَيْنَ ٱلـرَّسُـوْلُ عَلَى مَحْمُـوْدِ عَـادَتِـهِ مَـا بَيْنَ صُحْبَتِهِ فِيْ وَسْـدِ نَادِيْهَـا(١)
فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْيَمَنِيِّ فِيْ ٱبْتِدَا رَمَضَا نِ وَهْـوَ بِٱلصَّـوْمِ إِذْ صَامَتْ يُهَنِّيْهَـا

---

(١) إنّ فـوز سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام في هـداية همـدان اليمانيـة بعد أن عجـز خالد عن هدايتها كان له صدى عظيم بين المسلمين وعمـوم العرب فتحـدّث به النـاس ولذلك عندما أقرّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على إرسـال سريـة لبني مَذحـج في اليمن لم يجد كفئاً لها غير هذا الرجل العظيم فاستدعاه إليه وأمره بـالمسير على رأس ثـلاثمائـة فارس إلى مـذحج وعمّمـه بيده الشـريفة وقـال : « امض ولا تلتفت فإذا نـزلت بسـاحتهم فـلا تقاتلهم حتى يقاتلوك » فسار المرتضى بهذه السرية في رمضان سنـة عشرة للهجـرة فلما وصل إلى منازل مذحج فرّق خيله في ضـواحيها فـأتوا بنهب وغنـائم وأطفال ونسـاء ونعم وشاء وغير ذلك وجعل على الغنائم ابن الحُصيب فأقبل على المرتضى رجال من مذحـج يـرمونـه بالنبـل والحجارة فـدعاهم إلى الإسـلام فـأبـوا فصفّ رجـالـه ودفـع لـواءه إلى مسعود بن سنان ثمَّ حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً وفرَّ الباقون وتفرقـوا فكفّ عن طلبهم واكتفى أنّه حلَّ في بلدهم فجاءَه نفر من رؤسائهم خاضعين فأسلموا وقـالوا نحن على من ورائنا من قومنا وهذه صـدقاتنـا فخذ منهـا حقَّ الله ففعل عليه السلام ثمَّ قسم الغنـائم=

نَـادَى مَخَـالِفُ قَحْـطَانٍ أَوَدُّ لَهَـا   هِـدَايَـةً وَحَـرِيٌّ أَنْ نُـوآخِيْـهَـا

وَكُلُّنَـا عَـرَبٌ سِيَّـانِ مَنْ قَـطَنَتْ   هُنَـا وَفِيْ يَمَنٍ أَوْ مَـا يُنَـاجِيْـهَـا

وَجِدُّنَـا يَعْـرِبُ ٱلْمَشْهُـوْرُ يَجْمَعُنَـا   فِيْ خَيْـرِ جَـامِعَـةٍ لَسْنَـا نُجَـزِّيْهَـا

وَٱلْعُـرْبُ فِيْ يَـمَنٍ إِلاَّ أَبُـوْ حَسَنٍ   مَـا إِنْ لَهَا مِنْ دُعَـاةِ ٱلدِّيْنِ يَهْـدِيْهَـا

وَإِنَّنِيْ ٱلْيَـوْمَ بِسْـمِ ٱللَّهِ مُـرْسِلُهُ   لِمَـذحِجٍ وَهْـوَ كِفْـءٌ أَنْ يُـلاَقِيْهَـا

وَمَـالَ صَلَّى عَلَيْـهِ ٱللَّهُ نَحْـوَ أَخِيْـــ   ـهِ قَالَ: سِرْ عَجِـلاً وَٱقْصُدْ مَثَـاوِيْهَا

فَهَبَّ حَيْـدَرَةٌ فِيْ ٱلْحَالِ يَـطْلُبُ أَبْــ   ـطَالَ ٱلـرِّجَـالِ وَلِلْمَسْـرَى يُهَيِّئْهَـا

وَبَعْـدَ مَـا ٱجْتَمَعَتْ جَمْعَـاً سَـرِيَّتُـهُ   وَٱلْخَيْـلُ مِنْ تَحْتِهَا تُبْـدِيْ تَهَـادِيْهَـا

وَافَى ٱلـرَّسُـولَ لِكَيْ يَلْقَى أَوَامِـرَهُ   عِنْـدَ ٱلْـوَدَاعِ وَبِـٱلتَّـدْقِيْقِ يُجْـرِيْهَـا

فَقَـالَ يَمِمّ بِـلاَ بِطْءٍ مَـوَاطِنَ مَـذْ   حِجٍ وَكُنْ لِهُدَى ٱلإِسْـلاَمِ دَاعِيْهَـا

وَلاَ تُقَـاتِـلْ إِذَا مَـا سَـالَمَتْـكَ وَقَـا   تِلْهَـا إِذَا رَغِبَتْ بِـٱلْحَـرْبِ تُلْظِيْهَـا

وَعَمَّمَ ٱلْمُصْـطَفَى يُمْنَـاً أَبَـا حَسَنٍ   وَرَاحَ يَـدْعُـوْ لَـهُ بِـٱلنَّصْـرِ تَجْـرِيْهَـا

مَضَى إِلَى مَـذْحِجٍ بِـٱلْيُمْنِ حَيْـدَرَةٌ   وَحَـوْلَـهُ ٱلـرَّكْبُ تُمْشِيْـهِ وَيُمْشِيْهَـا

حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ أَرْضِهَـا بَعَثَ ٱلـــ   ـرِّجَـالَ تَـطْلُبُ غُنْمَـاً مِنْ بَـرَارِيْهَـا

غَـابَتْ وَبَعْـدَ قَلِيْـلٍ نَحْـوَهُ رَجِعَتْ   بِـوِلْـدِهَـا وَنِسَـاهَـا مَـعْ مَـوَاشِيْهَـا

ثُـمَّ رِجَـالَتُـهَـا وَافَـتْ مُـحَـارِبَـةً   فَكَـانَ بِٱلْحَـرْبِ مُخْـذِيْهَـا وَمُصْمِيْهَا

= أخماساً خصَّ الخمس منها لله وأقرع عليهـا وقسم الباقي في أصحـابه . وبلغ عليّـاً وهو في مذحج أنّ رسول الله خرج إلى الحج بجموع من المسلمين وهي حجّة الوداع فتبعـه إلى مكة بعد أن كلل الله سريّته بهذا الفوز الباهر ودخل مكة محرماً للحج مهللاً على ما أهلّ المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقابله الرسول بالفرح وحمد الله على نعمائه .

فَـأَدْبَـرَتْ وَهْيَ مِنْ حَـوْلَيْـهِ هَـارِبَـةٌ   تَـرْجُوْ سَـلاَمَتَهَا مِنْ بَـطْشِ غَازِيْهَـا

وَأَرْسَلَتْ رُوسَـاهَـا لِلْعَـلِيِّ فَجَـا   ءَتْـهُ وَإِسْـلاَمُهَـا تُبْـدِيْـهِ مِنْ فِيْهَـا

فَـأَكْـرَمَ آلْمُـرْتَضَى لُـطْفاً وِفَـادَتَهَـا   وَفِيْ تَعَـطُّفِـهِ أَمْـسَى يُـدَارِيْـهَـا

وَفِـيْ بَـلاَغَتِـهِ قَـدْ رَاحَ يَـنْشُـرُ آ   يَـاتِ آلشَّـرِيْعَـةِ تَبْشِيْـراً وَيَنْشِيْهَـا

ثُمَّ آلْغَنَـائِمُ بِـآلإِنْصَـافِ خَمَّسَهَـا   وَخَصَّ بِـآللَّهِ رَبِّ آلْعَرْشِ خَـامِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا هُــوَ فِيْ سَـامِيْ مُهِـمَّتِـهِ   كَمَـا يُحِبُّ رَسُـوْلُ آللَّهِ يُمْضِيْهَـا

وَإِذْ تَلَقَّى نَبَـا حَجِّ آلـرَّسُـوْلِ وَقَـدْ   وَافَى رِبَى مَكَّـةٍ بِـآلـطُّهْـرِ يَـأْوِيْهَـا

فَخَفَّ يَنْـوِيْ قَضَاءَ آلْحَجِّ مُـطَّلِبَـاً   أَمَّ آلْقِـرَى مَعَـهُ هَـدْيٌ يُضَحِّيْهَـا

وَفِيْ حِمَى آلْكَعْبَةِ آلزَّهْـراءِ يَمَّمَ طَـــهَ مُحْـرِمَـاً   فَـرَآهُ مُحْـرِمَـاً فِيْهَـا

هُـنَـاكَ حَـدَّثَـهُ عَمَّـا أَتَـمَّ بِمَـذْ   حِجٍ وَقَالَ غَـدَا آلإِسْـلاَمُ فَـاشِيْهَـا

فَكَـرَّرَ آلْمُصْطَفَى شُكْـرَانَ صَـاحِبِـهِ   عَلَى آلْفِعَالِ آلَّتِيْ قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَـا

وَقَـالَ مَـا يَـمَـنُ وَآلـلَّهِ نَـاسِيَـةٌ   لَكَ آلْمَسَاعِيْ آلَّتِي قَدْ رُحْتَ سَاعِيْهَا

وَمَـا هِـدَايَـةُ قَحْـطَانٍ بِجُمْلَتِهَـا   إِلاَّ بِفَضْلِكَ يَـا خِلِّيْ فَـتِـهْ تِيْـهَـا

وصاية المصطفى للمرتضى

هَبَّ آلـرَّسُوْلُ يُـرِيْدُ آلْحَـجَّ يَـطْلُبُـهُ   فِيْ عَشْرَةٍ مِنْ حُؤُوْلِ آلنَّاسِ هَجْرِيْهَا[1]

فَسَارَتِ آلنَّاسُ تَبْغِيْ آلْحَجَّ صِحْبَتَهُ   وَمَـا تَخَلَّفَ مِنْهَـا غَيْـرُ ضَـاوِيْهَـا

---

(١) صحّت عزيمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قضاء فريضة الحج في السنة العاشرة للهجرة ليودّع في بيت الله المسلمين ويبلغهم بلاغه الأخير لأنّه ما كان يجهل ان مهمته المقدسة قد تمت وأنّه يوشك أن يسير إلى لقاء ربّه عزَّ وجلَّ وكان خروجه من المدينة المنورة في يوم الخميس لستٍّ بقين من ذي القعدة سنة ١٠ للهجرة وكان معه عدد كبير =

= من المسلمين قالوا يتجاوز المئة ألف وصحب في حجته هذه سيدتنا فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين ونساءه وعمّه العباس وكل من كان لديه من آل عبد المطلب إلّا سيدنا علي الذي كان في مذحج كما تقدم وقد صحبه أيضاً أكابر الصحابة والأنصار وعندما دخل مكة استقبل القبلة ولبّى قائلاً « لبيك اللهمَّ لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، لبيك إلّه الخلق لبيك ، حقّاً تعبد أو رقاً » وكان الناس معه يزيدون في هذه التلبية أو ينقصون على ما يشاؤون فلم يمنعهم وكانوا يلبون سرّاً فجاءه جبريل عليه السلام وأمره أن يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فأمرهم بذلك فملأوا فضاء مكة بالتلبية . وهكذا صار رفع الأصوات بالتلبية من شعار الحج . وبعد أن دخل المصطفى مكة بقومه وفد عليه أمير المؤمنين عائداً من مذحج محرماً سائقاً معه الهدي وبعد أن قضى صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة ركب ناقته القصواء وأتى بالناس بطن الوادي فخطب على راحلته خطبة الوداع الشهيرة ذكر فيها تحريم الدماء والأموال والأعراض ، ومنع ربا الجاهلية « أي ما كان من ربا في الجاهلية لا يطالب به في الإسلام وأنت تعلم أنّ الإسلام حرّم الربا بتاتاً » ووضع الدماء في الجاهلية « أي الموتورين في الجاهلية لا يحق لهم أخذ الثأر من واتريهم بعد أن أسلموا » وبهذا صالح قبائل العرب وأزال من صدورهم الأحقاد ، وأوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالنساء خيراً ، وأمر الناس أن يعتصموا بكتاب الله ، وقال إنّ من اعتصم بكتاب الله لا يضلّ ، وأشهد الله سبحانه على أنّه بلغ ما أمر به واستشهدهم على ذلك فشهدوا ، ثم أمر الناس أن يبلّغ شاهدهم غائبهم بما شهد وما سمع ، ثم أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حرّم على المسلمين دماءهم ، وأبلغهم أنّ كل ما يخالف القرآن من عوائد الجاهلية قد داسه بقدميه الشريفتين إشارة إلى أنّه بات ملغياً ؛ وبينما كان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على ظهر ناقته القصواء في موقفه العظيم ذاك نزلت عليه آية ﴿ **اليوم أتممت عليكم نعمتي ، وأكملت لكم دينكم** ﴾ فتلاها والناقة من تحته يكاد يندقّ عضدها من ثقل الوحي وكانت هذه الآية الشريفة آخر الأحكام التي أوحيت لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم انصرف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى المنحر بمنى فنحر هديه وكانت ٦٣ بدنة على عدد عمره الشريف وأمر علياً أن ينحر هديه وأمره أن يقسم لحوم الهدي وجلودها بين الناس وقال : « وخذ لنا جذبة من بعير واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها =

أَمَّا ٱلرِّجَالُ فَقَدْ كَانَتْ مُسَارِعَةً مَعْهُ فَرَاكِبُهَا فِيْ جَنْبِ مَاشِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى كَانَ يَسْعَى فَوْقَ نَاقَتِهِ ٱلْـ ـقُصْوَى بِحُجَّاجِهِ ٱلْأَخْيَارِ يُخْطِيْهَا
قَدْ أَحْرَمُوا وَأَتَوْا أُمَّ ٱلْقِرَى لِقَضَا ءِ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِيْ ٱلْحُجَّاجُ تَقْضِيْهَا
وَعِنْدَ مَا بَلَغُوا بِٱلْبِرِّ كَعْبَتَهَا طَافُوْا بِهَا أَكْرَمَ ٱلْبَارِيْ مُطِيْفِيْهَا
وَأَقْبَلَ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ مَذْحِجٍ لِرِبَا هَا بَعْدَ عَقَدُوْا خَيْرَ ٱلْحِبَى فِيْهَا
هُنَاكَ بَشَّرَ طَهَ وَٱلْحَجِيْجَ بِإِسْـ ـلَامِ ٱلْأُلَى سَارَ لِلْإِسْلَامِ يَهْدِيْهَا
وَبَعْدَ مَا ٱلْحَجُّ قَدْ تَمَّتْ مَنَاسِكُهُ وَٱلنَّاسُ نَالَتْ بِهِ رُضْوَانَ بَارِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى أَسْمَعَ ٱلْحُجَّاجَ خُطْبَتَهُ ٱلْـ ـغَرَّا ٱلَّتِي كَانَ لِلتَّوْدِيْعِ مُلْقِيْهَا
وَضَحَّتِ ٱلنَّاسُ فِيْ تِلْكَ ٱلرُّبُوعِ فِدَى آثَامِهَا وَلَقَدْ تَابَتْ أَضَاحِيْهَا
أَفَاضَ أَحْمَدُ مِنْ حَجِّ ٱلْوَدَاعِ وَمَعْـ ـهُ ٱلنَّاسُ قَدْ رَجِعَتْ تَبْغِيْ مَثَاوِيْهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى كَانَتْ بِإِمْرَتِهِ تَسِيْرُ فِيْ سُبْلِهَا تَطْوِيْ مَطَاوِيْهَا
حَتَّى إِذَا نَزَلَتْ لِلْإِسْتِرَاحَةِ فِيْ «غَدِيْرِ خَمٍّ» وَكَانَ ٱلسَّيْرُ مُعْيِيْهَا[1]

= ونشرب من مرقها » ففعل المرتضى ما أمره به . وأخبر المصطفى أنّ منى كلها منحر وأنّ فجاج مكة كلها منحر . ثم ركب قاصداً مكة والناس تتعبد فطاف طواف الإفاضة وبعد أن طاف بالبيت سبعاً وقف في « الملتزم » بين ركن الحجر وباب الكعبة فدعا الله سبحانه وألصق صدره الشريف ووجهه بالملتزم ثم انطلق إلى المدينة المنورة والحجاج تتبعه .

(١) وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعاً بالحجاج انتهى إلى مكان يقال له « غدير خم » وهو يقرب موضع يسمى رابغ وهناك حطّ الرحال وجمع المصطفى أكابر صحابته وأمير المؤمنين إلى يمينه وخطب فيهم فقال : « أيها الناس إنّما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني مسؤول ، وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون ؟؟ » =

= فأجابه أصحابه قائلين «نشهـد أنك قـد بلّغت ، وجهدت ، ونصحت فجـزاك الله خيراً » فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أليس تشهدون أن لا إلـه إلّا الله وإني عبده ورسـوله ، وأن جنتـه حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبـور ؟؟؟؟؟ » قالـوا : « بلى نشهد بـذلك » قـال المصـطفى : « اللَّهمَّ اشهد » ثم إنّ المصطفى أخذ يحض على التمسك بكتاب الله فأسهب ، ثم وصّى بأهل بيتـه خيراً فـأطال ، ثم سـأل الناس فقـال : « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ » فأجـابوا جميعهم بنعم مصدقين معترفين فرفع حينئذٍ المصطفى يمين المـرتضى وكان إلى جـانبه وقال : « من كنت مولاه فعلي مـولاه ، اللهمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عـاداه ، واحبب من أحبّـه ، وابغض من أبغضـه ، وانصـر من نصـره ، وأعن من أعـانـه ، واخـذل من خذله ، وأدر الحق من حيث دار » فسمعت الصحابة هذا وأحنت رؤوسها خضوعاً لقـول المصـطفى وكان ذلـك اليوم السعيـد هو الثـامن عشر من ذي الحجـة وقد اتّخـذه محبّو سيدنا أمير المؤمنين يوم عيد وبركة من كل عام .

ثم إنّ المصطفى سار بـالحجاج قـاصداً المـدينة المنورة حيث حلّ فيهـا وذاعت خطبته هذه بين المسلمين وتناقلها العرب في جميع الأقطار وعرفوا منها المنزلـة الممتازة لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

غير أن الناس تتفاوت رغباتهم ومـطامعهم كما يختلفـون بعواطفهم حتى يستحيـل على الفرد الواحد مهما علت صفاته وعظم شأنه أن يرضيهم جميعاً ولا سيما سيدنا أميـر المؤمنين الـذي كان كثيـرون من العرب لا يحبّـونه ليس لأنّـه لم يكن أهلاً لحبّهم على كمالاته المشهورة وأخلاقه العالية بل لأنّه كان قاهرهم وواترهم في الحروب التي أثـارها المصطفى لنصرة الإسلام عليهم فهؤلاء بطبيعة الحال عزّ عليهم أن يكون عليّ مـولاهم كما أن رسول الله مولاهم . كما أنّ كثيرين منهم أبوا هذه السيادة لسيدنا عليّ حسـداً من عند أنفسهم والحسد آفة الإنسان ومصـدر كثير من الشـرور التي نشاهـدها في العـالم . ومن الذين لم يرضوا بوصيـة المصطفى للمـرتضى عليهما الصلاة والسلام رجـل يدعى الحـارث بن النعمان الفهـري ولا نعلم ان كان هذا الرجل من أعـداء أمير المؤمنين لأنّـه واتره وقاهر قومه أو من حسّاده فركب جواده وأسرع يطلب المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينـة المنورة ليتثبت الخبر من فمه الطاهر وعندما دخل المدينة المنورة قصد المسجـد النبوي =

حَتَّى إِذَا آجْتَمَعَتْ جَمْعاً بِحَضْرَتِهِ آلْـــعَلْيَـا وَطِيْبِيُّهَا حَـاذَى قُـرَيْشِيْهَـا
نَـادَى أَنَـا بَشَـرٌ يَـا نَـاسُ مِثْلُكُمُ وَكُـلُّنَـا لِلْمَنَـايَـا لاَ نُحَـاشِيْهَـا
وَإِنَّ دَعْـوَةَ رَبِّيْ لِيْ لَقَـدْ قَـرُبَتْ وَبِـآلـرِّضَى بِـآلْقَضَـا إِنِّيْ أُلَبِّيْهَـا
وَسَـوْفَ يَسْـأَلُكُمْ عَنِّيْ وَيَسْـأَلُنِيْ عَنْكُمْ إِلٰهُ جُمُـوْعِ آلْخَلْقِ ذَارِيْهَـا
فَمَـا تَقُـوْلُـوْنَ عَنِّي عِنْـدَ رَبِّكُـمُ وَعَنْ فِعَـالِيْ آلَّتِـيْ قَـدْ كُنْتُ آتِيْهَـا
قَالُوا: فَنَشْهَدُ قَدْ بَلَّغْتَ دَعْـوَتَكَ آلْـــغَرَّا آلْخَـلاَئِقَ عُـرْبِيْهَـا وَعُجْمِيْهَا
وَقَـدْ جَهَدْتَ كَمَـا يَرْضَى آلْإِلٰـهُ لِهَـــذَا آلـدِّيْنِ لَمْ تَأْلُنَـا نُصْحَـاً وَتَنْبِيْهَـا
فَـآللَّهُ يُجْـزِيْـكَ خَيْـراً يَـا مُبَشِّـرَنَـا وَذِيْ شَـهَـادَتُنَـا كُـلٌّ يُـذَكِّيْهَـا
فَقَـالَ أَحْمَـدُ: هَــلاَّ تَشْهَـدُوْنَ بِــأَ م نَّ آللَّهَ ذَارِيْ آلْبَـرَايَـا وَهْـوَ مُفْنِيْهَا
وَإِنَّـنِـيْ لَـرَسُـوْلُ آللَّهِ جِئْتُـكُـمُ بِمُنْـزِلِ آلآيِ وَآلـرَّحْمٰنُ مُـوْحِيْهَـا
وَإِنَّ جَـنَّـتَـهُ حَـقٌّ وَحَـشْـرَكُـمُ حَـقٌّ وَنِـيْـرَانَـهُ حَـقٌّ يُـلَظِّيْـهَـا

=الشريف رأساً ودخل على المصطفى فوجده جالساً بين أصحابه فجثا بين يديه وقال « يا محمد إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك . وأنك أمرتنا أن نصلّي في اليوم والليلة خمس صلوات. ونصوم شهر رمضان ، ونزكي أموالنا ، ونحجّ البيت . فقبلنا ذلك منك ، ثمّ لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمّك علي ففضلته، وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه . فهل كان هذا الشيء منك أو من الله ؟؟ » فاحمرّت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « والله الذي لا إله إلّا هو ، إنّه من الله وليس مني » قال ذلك ثلاثاً . فغضب الحارث ونهض وهو يقول : « اللّهمّ إن كان ما يقول محمد حقاً فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ووالله ما كاد يبلغ الحارث هذا باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه وخرج من دبره فمات وأنزل الله قوله : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع للكافرين** ﴾ الآية وصدق الله العظيم .

وَإِنَّمَا آلسَّاعَةُ آلْكُبْرَى لآتِيَةٌ ... لاَ رَيْبَ فِيْهَا وَمَوْتَى آلنَّاسِ تَأْتِيْهَا

قَالُوْا: بَلَى شَهِدْنَا قَالَ أَحْمَدُ: يَا ... رَبَّاهُ فَآشْهَدْ وَوَالِى آلْقَوْلَ تَجْرِيْهَا

فَحَضَّ حَضّاً عَلَى حِفْظِ آلشَّرِيْعَةِ فِيْ ... سَامِيْ أَوَامِرِهَا أَوْ فِيْ نَوَاهِيْهَا

وَبَعْدَ ذٰلِكَ قَدْ وَصَّى بِعِتْرَتِهِ ... خَيْراً وَعِتْرَتُهُ فَرْضٌ تَوَلِّيْهَا

وَقَالَ : هَلاَّ أَنَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ مِنْ ... نُفُوْسِكُمْ بِكُمُ هَلْ تُوْهِبُوْنِيْهَا

قَالُوْا: نَعَمْ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَمُحَمَّـ ... ـدٌ إِجَابَتُهُمْ ذِيْ رَاحَ رَاضِيْهَا

وَمَالَ لِلْمُرْتَضَى آلثَّاوِيْ بِجَانِبِهِ ... وَكَانَ يَمْسِكُ يُمْنَاهُ وَيُعْلِيْهَا

وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ عَلِيٌّ لَهُ ... مَوْلَىً وَرُغْبَايَ ذِيْ بِآلْجَهْرِ أُبْدِيْهَا

ثُمَّ تَوَجَّهَ لِلَّهِ آلْقَدِيْرِ بِوَجْـ ... ـهِهِ وَأَصْحَابُهُ تُصْغِيْ لِهَادِيْهَا

وَقَالَ : لاَ هُمَّ مَنْ وَالَى عَلِيَّكَ وَا ... لِهِ وَأَعْدَاؤُهُ أَنْتَ آلْمُعَادِيْهَا

أَحْبِبْ مُحِبِّيْهِ وَآبْغُضْ مُبْغِضِيْهِ وَمَنْ ... سَعَتْ إِلَى فَضْلِهِ وَفِّقْ مَسَاعِيْهَا

وَآنْصُرْ بِحَوْلِكَ قَوْماً عَنْ تُقَى نَصَرَتْ ... رَايَاتِهِ وَآلأُلَى بِآلصِّدْقِ تُرْبِيْهَا

وَآخْذِلْ بِعَدْلِكَ يَا رَبَّاهُ أَنْفُسَ مَنْ ... نَوَتْ لَهُ آلْخَذْلَةَ آلسُّوْءَى مَطَاوِيْهَا

أَعِنْهُ لاَ هُمَّ فِيْ سَامِيْ مَقَاصِدِهِ ... أَعِنْ مُعِيْنِيْهِ رَبِّيْ مَعْ مُعِيْنِيْهَا

وَآلْحَقُّ رَبِّيْ أَدِرْهُ كَيْفَ دَارَ لِيَنْـ ... ـصُرَ آلشَّرِيْعَةَ أَوْ يُخْزِيْ أَعَادِيْهَا

وَمَا آنْتَهَى آلْمُصْطَفَى مِنْ غُرِّ أَدْعِيَةٍ ... قَدْ كَانَ لِلَّهِ بِآلإِخْبَاتِ يُزْجِيْهَا

حَتَّى رَأَى فِيْ وُجُوْهِ آلنَّاسِ وَاضِحَةً ... إِشَارَةَ آلطَّاعَةِ آلْمَحْمُوْدُ مُوْلِيْهَا

وَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَا صَحْبُ آلرَّسُوْلِ خُطَا ... هَا لِلْمَدِيْنَةِ إِذْ حَلَّتْ مَغَانِيْهَا

وَسَارَتِ آلرَّكْبُ فِيْ قَوْلِ آلرَّسُوْلِ لِأَطْـ ... ـرَافِ آلْجَزِيْرَةِ تَرْوِيْهِ لِأَهْلِيْهَا

تَقُوْلُ لِلْمُرْتَضَى أَوْصَى آلرَّسُوْلُ عَلَى ... غَدِيْرِ خُمٍّ بِذَا أَوْلاَهُ تَجْوِيْهَا

وَمَا مَضتْ مُدَّةٌ حَتَّى آلْـوَصِيَّـةُ شَـا عَتْ فِيْ آلْأَعَارِبِ فِيْ سَامِيْ مَعَانِيْهَا
وَبِآلرِّعضى قَابَلَ آلنَّاسُ آلْوَصِيَّةَ مِنْ دُوْنِ آعْتِـرَاضٍ وَقَدْ كَـانُوا مُـطِيْعِيْهَا
قَـالُـوْا: إِرَادَةُ طَـهَ مِـنْ إِرَادَةِ بَـا رِيْـهِ فَـلَا مُـسْلِمٌ بَـرٌّ يُـنَـاوِيْـهَـا
إِلَّا أُنَـاسٌ أَكَـنَّـتْ بُـغْـضَـةً لِـعَلِـيٍّ مَا نَسَتْ أَنَّهُ قَـدْ كَانَ غَـازِيْهَا
فَآسْتَعْظَمَتْ أَمْرَ هَاتِيْكَ آلْوَصِيَّـةِ لَمْ تَـرْغَبْ بِهَا كَـذَّبَتْ مَنْ رَاحَ يَرْوِيْهَـا
أَوْ أَنَّهَـا حَسَـدَاً كَـانَتْ تُؤَوِّلُ هَـا تِيْـكَ آلْـوَصِيَّـةَ أَوْ تَسْعَى لِتُخْفِيْهَـا
وَآلنَّـاسُ إِذْ كَثُـرَتْ شَتَّى مَـطَامِعِهَـا لَا آلْأَنْبِيَـاءُ وَلَا آلْأَمْـلَاكُ تُـرْضِيْهَـا
فَكَيْفَ تَرْضَى عَلَى آلْمَوْلَى أَبِيْ حَسَنٍ وَكَـانَ مُكْبِتَ عَـاصِيْهَـا وَعَـاتِيْهَـا
كَمَا نَرَى آلْحَـارِثَ آلْفَهْرِيَّ تُغْضِبُهُ وَصِيَّـةُ آلْمُصْـطَفَى يَعْنَى لِيَنْفِيْهَـا
مَـا حَدَّثُـوْهُ بِهَا حَتَّى آمْتَـطَى عَجَـلاً جَـوَادَهُ وَسَعَى فِيْ آلْأَرْضِ يَطْوِيْهَـا
وَإِذْ أَتَى طِيْبَـةَ أَلْفَى آلـرَّسُـوْلَ بِهَـا فِيْ آلْمَسْجِدِ آلنَّبَوِيِّ آلنَّـاس يُفْتِيْهَا
فَجَـاءَهُ غَـاضِبَـاً فِيْ زِيِّ مُشْتَبِـهٍ وَسَـائِلٍ عَنْ أُمُـوْرٍ لَيْس يَـدْرِيْهَـا
نَـادَى: أَأَحْمَـدُ قَـدْ آمَـرْتَنَا فَـأَطَعْـنَا خَمْسَةً مَـا سَمِعْنَا قَبْلُ سَـادِيْهَـا
هِيَ آلشَّهَـادَةُ بِـآلتَّـوْحِيْدِ ثُمَّ بِـأَنَّـكَ آلـرَّسُوْلُ شَهِـدْنَـاهَـا وَنَحْكِيْهَـا
وَأَنْ نُصَلِّيْ مِـرَارَاً خَـمْسَـةً وَلَـنَحْـنُ آلْيَـوْمَ كُـلُّ فَتَىً مِنَّـا يُصَلِّيْهَـا
وَأَنْ نَصُـوْمَ وَصُمْنَـا بِـآلتُّقَى رَمَضَـا نَـاً وَآلـزَّكَـاةَ وَهَـا إِنَّـا نُـزَكِّيْهَـا
وَأَنْ نَحُـجَّ وَهَـا حُجَّـاجُنَـا قَصَـدَتْ رُبُـوعَ مَكَّـةَ مِنْ أَقْصَى مَثَـاوِيْهَـا
وَقُلْتَ هٰـذِيْ شُرُوْطُ آلـدِّيْنِ فَآتَّبِعُـوْ هَـا قَـوْلَـةً كُلُّنَـا قَـدْ بَـاتَ وَاعِيْهَـا
فَمَـا آكْتَفَيْتَ بِذَا بَـلْ جِئْتَنَـا بِـوَصِيَّـةٍ مُجَـدَّدَةٍ بِـآلْأَمْسِ تُـوْصِيْهَـا
فَقَـدْ رَفَعْتَ بِضَبْعَيْ إِبْنِ عَمِّكَ رِفْـعَـةً وَحَقِّـكَ لَا جَـاهٌ يُـوازِيْهَـا

وَقُلْتَ «مَنْ كُنْتُ مَـوْلاَهُ ٱلْعَلِيُّ لَـهُ   مَـوْلَى» ٱلْمَقَالَـةُ ذِيْ قَدْ أَسْمَعُـوْنِيْهَا
فَقُلْ لَنا جَهْـرَةً هَلْ ذِيْ ٱلْمَقَـالَةُ مِنْ   أَوْضَـاعِ نَفْسِكَ أَمْ بَـارِيْك مُـوْحِيْهَا
فَقَـالَ أَحْمَدُ: بَـلْ مِنْ عِنْدِ رَبِّيَ مَـا   مِـنِّـيْ أَلِيَّـةُ حَقٍّ رُحْـتُ آلِيْـهَـا
وَٱلـلَّهِ وَٱلـلَّهِ أَلْـقَـاهَـا ٱلإِلٰـهُ إِلَـــيَّ   مِثْلَمَـا كُنْتُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُلْقِيْهَـا
وَٱلْحَارِثُ ٱغْتَاظَ مِنْ قَوْلِ ٱلرَّسُوْلِ وَوَلَّى   فِيْ خُطَىً لَيْسَ يَدْرِيْ كَيْفَ يُخْطِيْهَا
وَقَـالَ : إِنْ تَـكُ حَقَّـاً يَـا إِلٰهِي قَـوْ   لَـةُ ٱلـرَّسُـوْلِ وَحَقَّـاً أَنْتَ بَـاغِيْهَـا
أَرْسِلْ عَلَيْنَا جَمِيْعَاً مِنْ سَمَائِكَ أَحْـــجَاراً   وَعَذِّبْ نُفُـوْسَاً رُمْت تُشْقِيْهَـا
وَمَـا أَتَـمَّ خَـزَاهُ ٱلـلَّهُ قَـوْلَـتَـهُ   فِيْ بَـابِ مَسْجِدِ طَـهَ وَهْـوَ تَـالِيْهَـا
إِلاَّ ٱلْحِجَارَةُ مِنْ عَالِيْ ٱلسَّمَـاءِ عَلَيْــهِ   ٱللَّهُ سُبْحَـانَـهُ قَـدْ كَـانَ رَامِيْهَـا
فَمَـاتَ حَـالاً وَتِلْكَ ٱلْحَقَّ مُعْجِـزَةٌ   بِـهَـا أَطَـاعَ رَسُـوْلَ ٱللَّهِ رَائِيْهَـا
وَأَيْقَنَـتْ أُمَّـةُ ٱلْهَـادِيْ بِـأَنَّ عَـلِيَّـــنَا   لَقَدْ فَـاقَ كُلَّ ٱلنَّـاسِ تَـوْجِيْهَـا

أمير المؤمنين في مرض المصطفى ووفاته

عُلَّ ٱلرَّسُوْلُ فَعُلَّ ٱلدِّيْنُ وَٱشْتَكَتِ ٱلــدُّنْيَا   ٱلسَّقَامَ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ شَاكِيْهَا[1]
وَقَالَ: خُيِّرْتُ مَا بَيْنَ ٱلْخُلُوْدِ بِذِيْ ٱلـــدُّنْيَـا   وَخَيْرَاتِهَـا مَـعْ كُـلِّ مَـا فِيْهَـا

---

(١) انتهينا هنا إلى النقاط الخلافية في تاريخ صدر الإسلام وهي النقاط التي أقامت المسلمين وأقعدتهم في جميع أدوار تاريخهم إلى يوم الناس هذا ولعلّ خلافهم عليها سيدوم إلى يوم يبعثون . وليس لمثلي أن يخوض هذه النقاط الخلافية التي تفاقم أمرها ويأمن العثار ولا سيما بعد أن صار لها شبه شكل ديني ودخلت في عداد الاعتقادات الإسلامية وبسببها تشعبت مذاهب القوم ويستحيل عليَّ أن أرضي قرّاء علويتي هذه وحواشيها الضافية إلاّ إذا تساهلوا معي وترفقوا بي وتلطفوا بنظرهم إليَّ كرجل أحبَّ أمير المؤمنين وأكبَّ على مطالعة كل ما يتعلق بشخصه الأقدس في =

وَبَـيْـنَ جَـنَّــةِ رَبِّـيْ إِذْ أَفُـوْزُ بِــأَنْـــوَارِ ٱلْمُهَيْمِنِ فِيْ سَامِيْ عَـلاَلِيْهَــا

= التواريخ المختلفة وقد حسنت نيته وخلصت طويته وصلحت هويته وانصرفت للخير رغبته ألا وإنني أقول إني فيما أكتبه في هذه الحاشية وما سأكتبه بعدها ليس هو رأيٌ خاصٌ لي أرجح به رواية على أخرى بل عليّ أن أنقل كلام المؤرّخين وأترك الحكم للقارئين فأقول :

بعد أن رجع المصطفى من حجة الوداع إلى المدينة المنورة بشهرين أخذ يشتكي المرض وصار يحدّث الناس عن قرب وفاته وقال إنّه خُيّر بين الخلود ونعم الدنيا وبين الآخرة وجوار ربّه فاختار الآخرة وجوار ربّه ولعمري أنّ النبيّ الأمين الذي أرسله الله يهدي الناس إلى التوحيد ويعلمهم مكارم الأخلاق ويعدّ لهم الخلود في جنان النعيم لحريٌّ به أن يكون مؤثراً لنفسه الطاهرة نعيم ما أحبه للناس من الخلود على هذه الدنيا وجميع ما فيها .

ولما اشتدّ المرض على رسول الله ﷺ قبل وفاته باثني عشر يوماً كان في بيت زوجه ميمونة فجمع نساءه في بيتها وطلب منهنّ أن يسمحن له بأن يمرّض في بيت عائشة فسمحن وهكذا انتقل إلى بيت عائشة وكان جسمه من الضعف بحالة يعجز معها عن المشي على قدميه فتوكأ على كتفي سيدنا علي وعمّه العباس فأوصلاه إلى بيت عائشة .

ويوم الأربعاء السابق ليوم وفاته بستة أيام شعر ﷺ بدنوّ أجله فطلب عليّاً إليه فأسرعت زوجه عائشة واستدعت أباها أبا بكر وكذلك فعلت زوجه حفصة فاستدعت أباها عمر فلما رأى الثلاثة بحضرته قال ﷺ : « انصرفوا فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم » فانصرفوا وفي يوم الخميس اجتمع الأصحاب والأنصار بحضرته فنادى ﷺ في ذلك اليوم قال : « أئتوني باللوح والدواة أكتب لكم ما لا تضلّوا من بعدي » فتنازع الحاضرون بين من يريد تلبية طلبه ومن يعارض فيها وكان أول المعارضين عمر بن الخطاب فقال دعوا رسول الله إنّه يتألّم وعندكم القرآن وإذ رأى رسول الله النزاع قال : « أخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع » فقالوا فيما بينهم : « ما شأنه أهجر ؟ استفهموه » فذهبوا يعيدون عليه فقال « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه » ثمَّ أوصى فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » وهاتان الروايتان منقولتان عن ابن عباس نقلها كل المؤرخين السنيين فضلاً عن مؤرخي الشيعة فهما ولا جدال صحيحتان فما كان كان يريد أن يقول المصطفى =

=لسيدنا علي عندما طلبه إليه ؟؟ ولماذا عندما رأى أبا بكر وعمر معه داخلان عليه صرفهم جميعاً ولم يفه ببنت شفة ؟؟ وفي حادثة الخميس نقول : ما الذي كان يريد أن يكتب المصطفى في اللوح الذي طلبه ؟ ولماذا تعرَّض عمر لمنع إيصال اللوح والدواة إليه وهو يقول : « إنّ رسول الله غلبه الوجع وعندكم القرآن » ولماذا ارتفعت أصوات الناس لمعارضة عمر حتى أمر المصطفى بخروج الناس من عنده ؟؟ وما هو غرض المصطفى ؟ وما الذي كان يريد أن يسطره على اللوح لكي لا يضلُّ الناس من بعده ؟ ولماذا لم يرد عمر ما أراد رسول الله ؟؟ والله إنّي لفي ارتباك من هذا .

ثمَّ أنّ أبا بكر قد صلّى في الناس من مساء الخميس الذي كان يذكره ابن عباس فيبكي وهو ذلك الخميس الذي لم يُؤتَ في صباحه بلوح وقرطاس إلى رسول الله ليسطر ما يؤمن بعده أمّته الاختلاف إلى صباح الاثنين الذي توفي فيه صلى الله عليه وآله وسلم هذا إذا صحّت رواية الذين قالوا إنّ أبا بكر صلّى في الناس سبعة عشرة مرة . وصلاة أبي بكر في الناس قد حصلت فعلاً فهي حقيقية لا ريب فيها . ولكن موضع الخلاف هو في الذي أمر أبا بكر أن يؤمَّ الجماعة في الصلاة فمن الناس من يقول أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمره بذلك وعلى هذا القول أهل السنة ومنهم من يقول بل عائشة هي التي أصدرت الأمر إلى أبي بكر بإقامة الصلاة في الناس أمّا من عند نفسها مباشرةً أو بإدلالها على رسول الله وعلى هذا القول أهل الشيعة . ويزيد بعضهم على أنّ المصطفى أمر أبا بكر بإقامة الصلاة وعارضت في ذلك عائشة مقترحة أن يقيمها عمر وعللوا هذه المعارضة بخوف عائشة أن يتشائم الناس من أبي بكر إذ يرونه يصلّي بهم ونبيّهم يحتضر . وهذا قرأته في كتب أهل السنّة . ويجوز لمتطفّل ضعيف الفكر قليل العلم أن يتساءَل أولاً لماذا كان رسول الله بالرغم عمّا في جسمه الشريف من الضعف والعياء يتحامل للخروج إلى المسجد وأبو بكر يصلّي في الناس بأمره ؟ أكان راغباً عليه الصلاة والسلام بإمامة الجماعة بعد أن أوجد من ينوب عنه فيها ؟ أو لغرضٍ آخر ؟ مع أنّه على ما في كتب السنة أيضاً بينما كان مرةً يجرّر نفسه للخروج إلى المسجد أغمي عليه ثلاثة مرّات . ثانياً إذا كانت إنابة المصطفى لأبي بكر بإمامة المسلمين عنه في الصلاة دليلاً على استخلافه لولاية المسلمين من بعده لماذا عارضت بها عائشة ؟ .
ثالثاً ألا يصحّ لأبله مثلي أن يخطر له أن ما خطر لعائشة من تشاؤم المسلمين من أبي=

بِـذَاكَ أَنْبَـأَ عَنْ دَانِيْ مَنِـيَّتِـهِ   وَإِنَّـهُ لَـمُـلَـبٍّ صَـوْتَ دَاعِـيْـهَـا

= بكر إذا أمَّ الناس في الصلاة ورسول الله يحتضر قد خطر مثله على بال المصطفى لو أناط هذه المهمة بعليّ بن أبي طالب عليهما الصلاة والسلام فأشفق على علي كما أشفقت عائشة على أبيها أن يتشائم الناس منه لو أمّهم ورسول الله يحتضر ؟؟ رابعاً هل هذه الإنابة التي اختصّ بها أبو بكر أكبر قيمةً من وصاية المصطفى للمرتضى في « غدير خمّ » ؟ وأعود فأقول إنّ رجلاً قليل العلم ضعيف النظر مستفسراً مستفتياً غير حازم ولا مرجّح رأياً أو قاطع حكماً أو على حدّ قول الشاعر :

وكم من منكرٍ تولاً صريحاً   وآفته من الفكر السقيم

نعم إنّ رجلاً هذا حاله مثلي لأخلق بالقارىء الكريم أن يرحب صدره بالإغضاء عمّا اشتبه عليه من هذه الروايات وأن تُطلب له الهداية من الهادي القدير لا أن تتوجه عليه خصومة المخاصمين وعذل العاذلين ومن أقرَّ بجهله حرم عذله وحقّ على المنصفين عذره على أنني لا أجهل بأنني عرّضت نفسي للوم فلأستهدف له طالما الناس على اختلاف وأنا لا أستطيع على ضعفي وجهلي أن أوفق بينهم .

ثمَّ إنّ المصطفى ﷺ أصبح صباح الإثنين وهو أحسن حالاً وأوفر صحةً فاطمأنّ عليه أصحابه حتى أنّ أبا بكر جاءَه واستأذنه بالمسير إلى بيته بالسنح وهي إحدى ضواحي المدينة وتبعد عنها نحو نصف فرسخ ولعلّ بقية أصحابه فعلوا فعله عدا سيدنا علي الذي ما ترك خدمة المصطفى وتمريضه عليهما الصلاة والسلام إلى أن ذهبت نفسه لخالقها مارة بين صدره ونحره . وفي ضحى لك اليوم عاودته العلة فاشتدَّت وتمت إرادة الله باختيار رسوله إلى جواره فمات ﷺ على صدر المرتضى راضياً مرضياً وأسرع أمير المؤمنين ومعه أعيان بني هاشم إلى الإهتمام بتجهيزه وأقبلت الصحابة فغصّ المسجد النبويّ بهم وأشهر عمر سيفه وجعل يتهدد ويتوعد كل من يقول إنّ رسول الله قد مات إلى أن جاءَه أبو بكر فخطب في الناس فقال : « أيّها الناس من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات » وتلا آية ﴿ **وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً * وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ فرجع عمر بقول أبي بكر هذا إلى رشده وقال « فكأنّي لم أسمع بهذه الآية في كتاب الله تعالى قبل الآن لما نزل بنا فإنّا لله وإنّا إليه راجعون=

وَعِنْدَمَا ٱسْتَحْكَمَتْ فِيْ ٱلْجِسْمِ عِلَّتُهُ   وَٱسْتَفْحَلَتْ وَلَقَدْ أَعْيَتْ مُـدَاوِيْهَـا

= وصلوات الله وسلامه على رسوله وعند الله نحتسب رسولـه » فلما رأى أبـو بكر أنّ ذكـر تلك الآيـة خففت من جزع عمـر والمسلمين استتلى خـطابـه فقـال : « قـال الله تعـالى لمحمد : إنّك ميت وإنّهم ميتون . وقال تعـالى : كل شيء هـالك إلاّ وجهـه له الحكم وإليـه ترجعـون . وقـال سبحـانـه : كـلّ من عليهـا فـان ويبقى وجـه ربّك ذي الجـلال والإكرام . وقال عزّ وجل : كل نفس ذائقة المـوت وإنّما تـوفون أجـوركم يوم القيـامة » فكـانت تلاوة هـذه الآيات الشـريفة معـزية للنـاس عن خطبهم بنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وبينمـا كان النـاس في المسجد وهذا حالهم كان علي والعباس وبقية الهواشم حـول المصطفى وهـو مسجى على سرير الموت وهم يقومون بالواجبات الأخيرة نحوه .

وكـانت وفاة المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين من شهـر ربيع الأول سنـة ١١ هجـريـة واختلف النـاس في تعيين أي الأثانين كان ؟؟ فقيل لليلتين خلتـا من الشهر وقيـل لاثنتي عشر خلت من الشهـر . وقيـل لثلاث عشـرة منه ويكـون يوم ١٣ ربيـع أول من سنة ١١ هجـرية حسب رأي هؤلاء مـوافقاً ليـوم ٨ يـونيـو سـنة ٦٣٢ مسيحيـة . وكنّـا ذكـرنـا أنّ ولادته صلى الله عليه وآله وسلم كانت في يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنـة خلت من ملك كسـرى أنـوشـروان المـوافق ليـوم العشـرين من إفـريـل سنـة ٥٧١ مسيحية وعلى ذلـك فيكون عمـره السعيد صلى الله عليه وآله وسلم ٦١ سنـة شمسيـة إلاّ تسعـة وأربعين يوماً والله أعلم ؟ .

أمّـا غسل المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم وتكفينه ودفنـه فقد كـان بمبـاشـرة سيـدنـا علي أميـر المؤمنين عليه السلام وتحت إشرافه فهو الذي غسّله وهو الذي كفّنه وهو الذي أنزله في حفـرته وأكثر الرواة قـالوا بـأحاديث شتّى ثـابتة بـل المصطفى كـان أوصى عليّاً بذلك ومما يؤيد صحة هذه الأحاديث ما عرفناه من تعلق المصطفى بالمرتضى في حياتـه وما سمعنـاه من فمه الشريـف عنه فلا عجب إذا أناط به تـولي أمره في ممـاته لعلمـه أنّه لا يـأتي أمراً إلاّ وللشرع فيه رضى وبالإجمال أنّ المرتضى كان كل شيء في ذلك اليوم .

تـوفي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ضحى يـوم الإثنين وقـد زاغت الشمس وحفـرت حفـرتـه الشريفة في الموضع الذي توفي فيـه في بيته المـلاصق للمسجد النبـوي الذي اختصّـه بسكنى زوجـه عائشـة وبعد أن غسله المـرتضى بمعاونـة عمّه العبـاس ونفر ممن طلبـوا =

= شرف هذه المعاونة وكفنه بثلاثة أكفان أسجاه على فراشه بجوار حفرته ووقف بجانبه عليهما الصلاة والسلام وقال يرثيه :

« بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله . لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة . الأنباء ، وأخبار السماء . وخصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك . وعممت حتى صار الناس فيك سواء ولولا أنّك أمرت بالصبر . ونهيت عن الجزع . لأنفدنا عليك ماء الشؤون . ولكان الداء مماطلاً والكمد محالفاً . وقلاًّ لك . ولكنه ما لا يملك ردّه . ولا يستطاع دفعه . بأبي أنت وأمي أذكرنا عند ربّك . واجعلنا من بالك » اهـ .

وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجى على فراشه بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثاء وبياض يوم الثلاثاء وفي يوم الثلاثاء هذا جاءَ أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار وبقية المسلمين رجالاً ونساءً وأولاداً لزيارة المصطفى وتوديعه فكان يدخل الفوج منهم بعد الفوج على قدر ما تسع الحجرة النبوية فيجدون المرتضى عند رأسه والحسن والحسين عند رجليه وعمّه العباس ونفر من بني عبد المطلب حوله . وعندما دخلوا على المصطفى لم يكن إمامٌ يؤمهم فكبّر كلٌّ منهم أربع تكبيرات أرسالاً ثم قال أبو بكر وعمر : السلام عليك يا رسول الله . ثم قالا : اللهمَّ نشهد أنّه قد بلّغ ما أنزل إليه . ونصح لأمّته . وجاهد في سبيل الله . حتى أعزَّ الله دينه . وتمت كلمته . فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذي أنزل معه. واجمع بيننا وبينه حتى تعرّفه بنا وتعرّفنا به . فإنّه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً . لا نبتغي بالإيمان به بدلاً . ولا نشتري به ثمناً أبداً » فأمّن الناس على ما قالا .

وفي ليلة الأربعاء أُخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبره ونزل معه في قبره علي بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم أخوه وشقران مولاهم وكان ثمَّ حاضراً أوس بن خولي فسأل علياً أن يسمح له بالنزول معه فسمح وهناك ودعوا خير الخلق الوداع الأخير ثم خرجوا فهالوا عليه التراب .

بقي لنا أن نسأل لماذا أبقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجّى على فراشه هذه المدة الطويلة أي بين ضحى الإثنين وليلة الأربعاء ؟ أكان ذلك كاحتجاج من المرتضى الذي =

= كان صاحب الكلمة العليا في الغسل والتجهيز على أصحاب رسول الله وأنصاره الذين اشتغلوا عن وفاة المصطفى بأمر الخلافة كما يقول بعضهم ؟ أم كان نظراً بعيداً من سيدنا أمير المؤمنين عليه وعلى المصطفى وآلهما الصلاة والسلام فأراد أن لا يعجل بدفن المصطفى في غيبة أصحابه وأنصاره حتى لا تكون هنالك فتنة فينتقم المسلمون على الذين شغلتهم أنفسهم عن واجب وداع المصطفى كما يرى آخرون ؟ إنّ الجواب على هذا ليس من الأمور السهلة لتشعب الرواة والأخبار والذي نعرفه هو أنّ المهاجرين والأنصار « عدا الهواشم » عندما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة للمداولة بأمر الخلافة على أثر وفاة المصطفى جاءَ العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وغيرهما من رجالات قريش إلى علي وهو يعتني بتجهيز المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعرضوا عليه أن يبايعوه فوجَّه علي إليهم نظرة من يقول أنحن في موقف بيعة أم في مأتم أعظم خلق الله وكعادته من حضور ذهنه وتجلده على ملقى الخطوب الجسام قال ارتجالاً :

« أيّها الناس : شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرّجوا عن طريق المنافرة ، وضعوا تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح ، واستسلم فأراح ، هذا ماءٌ آجن ، ولقمة يغصُّ بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها ، كالزارع بغير أرضه ، فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتي ، والله لإبن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثديي أمه ، بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة » اهـ .

والناظر إلى ما وراء هذه الكلمات العلوية يعلم أنّ علياً عليه السلام فوق الموضع الذي وضعه فيه أصحابه عندما عرضوا عليه البيعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجّى على فراش الموت فما عليّ بالذي يرهب الموت ، ولا بالذي يحرص على الملك ، ولا بالذي يجني الثمرة قبل وقت إيناعها ، وفوق ذلك فقد كان يعلم أشياء لو علمها أصحابه ومريدوه لاضطربوا ولعلّ هذه الأشياء هي التي حملته على السكوت عما فعل أصحاب السقيفة وعلى إبقاء رسول الله بغير دفن حتى يفرغ أصحاب السقيفة من مهمتهم ويأتونه للقيام بأقدس واجب وهو دفن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والله سبحانه أعلم .

وعلينا ونحن مشتغلون بمصاب الإسلام الأكبر بالنبي الأمين سيدنا =

وَأَرْسَلَتْ حَفْصَــةُ أَيْضَـاً إِلَى عُمَــرٍ   بِهَــا وَتَــطْلِبُ مِنْــهُ أَنْ يُــوَافِيْهَــا

= محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ترجع إلى شخصه الأقدس فنذكر من أحواله وشخصيته وما تمَّ على عهده إجمالاً ما يكون فيه الإتمام لمباحث كتابنا هذا الذي أحببنا أن نجمل فيه تاريخ صدر الإسلام فنقول :

« نســـب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »

تقدَّم معنا في حاشيةٍ سابقةٍ ذكر النسب النبوي الشريف في كلامنا على قريش فلا نعيد هنا ذكر شرف هذه النبعة الطاهرة التي ابتدأت من اسماعيل بن إبراهيم حتى انتهت إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ويكون النسب النبوي الشريف هكذا : محمد . بن عبد الله . بن عبد المطلب . بن هاشم . بن عبد مناف . بن قصي . بن كلاب . بن مرة . بن كعب . بن لؤي . بن غالب . بن فهر . بن مالك . بن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن الياس . بن مضر . بن نزار بن معد . بن عدنان . هذا هو المجمع عليه في نسب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ لا جدال ولا خلاف في انتهاء نسب عدنان إلى اسماعيل بن إبراهيم وإنّ تعذّر على علماء الأنساب حفظ النسب بين عدنان واسماعيل وغاية ما قالوا إنّ اسماعيل هو الجدّ الحادي والثلاثون للمصطفى عليهما الصلاة والسلام وما من ريبةٍ في ذلك ولا نزاع .

« أزواج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

وأمَّا أزواج المصطفى فأولاهنَّ سيدتنا خديجة ولم يتزوج صلى الله عليه وآله وسلم في حياتها عليها وقد ذكرنا خلاصة ترجمتها الزاهرة فيما مضى .

وسودة بنت زمعة . وهي من بني النجار لأنّها بنت أخي سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب وكانت قبله عند السكران ابن عمّها وهاجر بها إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها وهي أول أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم بعد سيدتنا خديجة وكان عقده عليها في رمضان الشهر الذي ماتت فيه سيدتنا خديجة .

وعائشة بنت أبي بكر . وسوف نأتي على ترجمتها تفصيلاً في حاشية تجيء .

وحفصة بنت عمر بن الخطاب . وهي شقيقة عبد الله بن عمر وأسنُّ منه وأمّها زينب أخت عثمان بن مظعون وكانت قبل المصطفى تحت خنيس بن حذافة فتوفي عنها=

= جريحاً بغزوة بدر الكبرى . تزوجهـا المصطفى على رأس ثـلاثين شهراً للهجـرة وكانت ولادتها قبل النبوَّة بخمس سنوات وماتت في المدينة المنورة في شعبان سنة ٤٥ للهجـرة ولها من العمر ٦٣ سنة ودفنت في البقيع وطلّقهـا المصطفى ثم استـرجعها بـأمر جبـريل عليهما الصلاة والسلام في حديث طويل ليس هنا محلّه .

وزينب بنت خزيمة . وهي أخت ميمونة مربية المصطفى لأمّها وكـانت تدعى في الجاهلية بأمّ المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم وكـانت قبل المصـطفى تحت الطفيـل بن الحـارث فقتل يـوم بدر شهيـداً فتزوجهـا ﷺ على رأس أحـد وثـلاثين شهـراً للهجـرة وتوفيت زينب بعد زواجها بثمانية أشهر ودفنت في البقيـع عن ثلاثين عـاماً ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ إلّا زينب هذه وسيدتنا خديجة وريحانة .

وأم سلمـة . واسمهـا هنـد وكـانت قبـل زواجهـا بـالمصـطفى عنــد أبي سلمـة عبـد الله بن عبـد الأسـد وأبـو سلمـة هـذا هـو ابن عمـة المصـطفى المسمـاة بـرَّة بنت عبد المطلب وهو أيضاً أخو المصطفى بالرضاعة وكان أبو سلمة وزوجه أم سلمة أول من هاجرا إلى الحبشة ولما مات أبو سلمـة تزوجهـا المصطفى وكفـل بناتهـا الأربع ومـاتت على عهد يزيد بن معاوية وكان عمرها ٨٤ سنة في المدينة ودفنت في البقيع .

وزينب بنت جحش . وكان اسمها برّة فسماها زينب وكانت قبـل المصطفى عنـد زيد بن حارثة ثمَّ طلقها فلما انقضت عدتها تزوجها ﷺ ولزواجهـا هذا حـديث طويـل نزلت فيه آية من السماء وتوفيت سنة ٢٠ للهجـرة في المدينـة المنورة ودفنت في البقيـع ولها من العمر ٥٣ سنة .

وجويرية . وهي من بني المصطفى سبيت في غـزوتهم ووقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على تسع أواق فأدّى المصطفى عنها ذلك وتزوجها وكان اسمها برَّة فسماها المصطفى جويرية تصغير جارية لما أشرنا من حديث سبيها وعتقهـا وكانت عنـد زواجها في العشرين من عمرها وتوفيت في المدينة المنورة سنة ٥٦ هـ ولهـا من العمر ٧٠ سنـة ودفنت في البقيع .

وريحـانة بنت يـزيـد . وهي من بني النضيـر وقيـل من بني قـريـظة وكـانت قبـل المصطفى عند رجل من بني قريظة يقال لـه الحكم ووقعت في سبي بني قريـظة فكانت =

فَقَـالَ : مَا آلآنَ يَـا صَحْبِيْ أُرِيْدُكُمْ   وَلَيْسَ مِنْ حَاجَةٍ فِيْ آلْحَالِ أُسْدِيْهَا

= صفي رسـول الله فخيرهـا بين الإسلام ودينهـا وهو اليهـودية فـاختارت الإسـلام فأعتقهـا وتزوجها . وطلّقهـا المصطفى ثم راجعهـا وماتت مـرجعة في حجـة الوداع في المـدينة المنورة ودفنت في البقيع .

وهنـالـك أزواج أخـرى خـطبهنَّ ﷺ أو عقـد عليهنَّ ثم فـارقهنَّ أو طلقهنّ ولم يدخل عليهنَّ لا فائدة من الإسهاب بأسمائهن .

وأمّا سراري المصطفى فقد كنَّ أربعاً وهنَّ ماريا القبطية أهداها له المقـوقس وهي أم ولده إبراهيم وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وزليخة القرظية وريحانة .

« أولاد المصطفى ﷺ »

ولـم تلد له من نسائـه ﷺ غير سيـدتنا خـديجة وقـد تقدم معنـا ذكر أولاده منهـا وولدت له سريته ماريا القبطية ولداً ذكراً في ذي الحجـة من السنة الثـامنة للهجـرة وعقَّ عنه بكبشين في اليوم السابع لمولده وحلق رأس الغلام وتصدَّق بـزنة شعـره فضة ودعـاه إبراهيم ودفعه لأمّ بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصاري زوجة البرَّاء بن أوس لترضعه وتـربيه على أنّـه لم يعش فمات في سنـة عشر ولـه من العمر سنـة وعشـرة أشهـر ولمـا احتضر جاءَ المصطفى ﷺ فوجده في حضن أمّه يحتضر فأخذه إلى حجره وقال : « يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً » ثم زرفت عيناه الشريفتان بالـدموع وقـال : « إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكي العين . ويحزن القلب. ولا نقـول ما يسخط الـربّ . ولولا أنّه وعـد صادق . ومـوعود جـامع . فـإنّ الآخر منّـا يتبع الأول . وجـدنا عليـك يا إبراهيم وجداً شديداً ما وجدناه » ولما نزل الموت بـإبراهيم أخـذ المصطفى يبكي فقـال عبد الرحمن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال ﷺ : « لا ولكنّي نهيت عن صـوتين أحمقين وصوتين آخـرين صوت عنـد مصيبـة وخمش وجـوه وشق جيـوب ورنـة شيطان . وصوت عند نغمة لهو . وهذه رحمـة منّي لإبراهيم » بـذلك عـرف المسلمون كيف يستقبلون مصـائبهم بالصبـر وبدون جـزع . ودفن إبـراهيم في البقيـع عليـه وعلى المصطفى الصلاة والسلام .

« كتاب المصطفى ﷺ »

كـان رسول الله ﷺ أمّيـاً لا يقرأ ولا يكتب وكـان يستخدم لكتـابتـه كثيـرين في =

وَلَمْ يَبُـحْ لَهُمُ عَمَّـا لَـهُ طَلَبَ آلْـ ـعَلِيِّ بَـلْ ظَـلَّ رُغْبَـاهُ مُـخَبِّـيْهَـا

= مقدمتهم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأرقم وكان هذا يكتب الرسائل للملوك وكان في أغلب الأوقات يكتب الوحي وكثير غير هؤلاء وبعد فتح مكة كرّمها الله عندما أسلمت قريش صار من كتابه أبو سفيان وولداه يزيد ومعاوية .

« شعراء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

ولقد أيّد المصطفى سنة ملوك العرب وأمرائهم في إجازة الشعراء والعناية بهم وإكرام منزلتهم ومن الشعراء الذين تشرّفوا باللياذ بحضرته النبوية وكانوا يمدحونه ويناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفّار قريش حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم .

« أشهر الحوادث التي تمت في حياة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

ولد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في عام الفيل في مكة المكرمة وفي السنة الثالثة لمولده الشريف شُقَّ صدره الطاهر عند ظئره حليمة . وفي السنة الرابعة لولادته المباركة ولد أبو بكر بن أبي قحافة . وفي السنة السادسة كانت وفاة أمّه آمنة . وفي هذه السنة ولد عثمان بن عفان . وفي السنة السابعة لولادته استقلَّ بكفالته جدّه عبد المطلب . وفيها أصابه رمد شديد . وفي السنة الثامنة لولادته توفي جدّه عبد المطلب وكفله عمّه أبو طالب . وفي هذه السنة مات كسرى أنو شروان وفي السنة العاشرة لولادته كانت حرب الفجار الأولى . وفي السنة الثانية عشرة لولادته كانت حرب الفجار الثانية . وفي هذه السنة سافر مع عمّه إلى الشام . وفي سنة ١٣ لولادته ولد عمر بن الخطاب . وفي سنة ١٤ لولادته كانت حرب الفجار الثالثة وحلف الفضول وفي سنة ١٧ لولادته كان سفره إلى اليمن للتجارة مع عميه الزبير والعباس ابنيّ عبد المطلب . وفي سنة ٢٥ لولادته كان سفره إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة . وفي هذه السنة تزوج خديجة . وفي سنة ٣٠ لولادته ولد سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكانت ولادته في الكعبة . وفي سنة ٣٤ لولادته ولد معاوية بن أبي سفيان ومعاذ بن جبل وفي سنة ٣٥ لولادته هدمت قريش الكعبة وبنتها .

وابتدأت نبوّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في السنة السابعة والثلاثين من عمره السعيد ففي =

وَفِيْ ٱلْخَمِيْسِ وَيَا يَوْمَ ٱلْخَمِيْسِ وَكَمْ   مِنْ أَدْمُعٍ عِنْدَهُ قَدْ سَالَ هَامِيْهَا

= هذه السنة صار يرى الضوء والنور ويسمع الأصوات . وفي سنة ٣٨ لولادته كان ابتداء نزول الوحي عليه ﷺ في اليقظة ويحسب المؤرخون هذه السنة الأولى من النبوة . وفي السنة الثالثة للنبوة توفي ورقة بن نوفل . وفي السنة الرابعة للنبوة كان إظهار الدعوة . وفي السنة الخامسة للنبوة ولدت عائشة بنت أبي بكر . وفي هذه السنة كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة . وفي السنة السادسة للنبوة أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وفي السنة السابعة للنبوّة تعاهدت قريش على عداء بني هاشم وبني المطلب . وفي السنة العاشرة للنبوة مات أبو طالب وخديجة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى سودة بنت زمعة وعقد له على عائشة بنت أبي بكر وهي بنت سبع سنين . وفي سنة ١١ للنبوة كان ابتداء إسلام الأنصار . وفي سنة ١٢ للنبوة كان الإسراء والمعراج . وفي هذه السنة وقعت بيعة العقبة الأولى . وفي سنة ١٣ للنبوة كانت بيعة العقبة الثانية أو الكبرى . وفي سنة ١٤ للنبوة كانت الهجرة الكبرى للمدينة ومنها يبتدىء التاريخ الهجري الذي يعتمد عليه المسلمون في تواريخهم .

وفي السنة الأولى للهجرة حلَّ المسلمون في المدينة المنورة على الرحب والسعة بضيافة الأوس والخزرج وهم الأنصار . وفي هذه السنة كان بناء المسجد النبوي في المدينة ومسجد قباء والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . وفي السنة الثانية للهجرة ابتدأت الغزوات النبوية فكانت فيها غزوة الأبواء . وغزوة ودان . وفي هذه السنة بنى المصطفى بعائشة بنت أبي بكر وهي في التاسعة من عمرها وفيها شرع الآذان . وفيها سار حمزة بن عبد المطلب لاعتراض عير قريش . وفيها سار عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى بطن رابغ لاعتراض عير قريش أيضاً . وفيها سار سعد بن أبي وقّاص إلى الخرّار لهذا الغرض . وفي هذه السنة تزوج سيدنا علي بسيدتنا فاطمة عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وفيها أيضاً كنى المصطفى عليّاً بكنية « أبي تراب » . وفيها أيضاً كانت غزوة بواط وغزوة العشيرة وسرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة . وفيها أيضاً كان تحويل القبلة . وفرض صوم رمضان . وثمَّ غزوة بدر الكبرى . وفي هذه السنة أيضاً توفيت رقية بنت المصطفى ﷺ . وفيها فرضت زكاة عيد الفطر . وفيها شرعت صلاة عيد الفطر . وفيها فرضت زكاة الأموال . وفيها كانت غزوة قرقرة الكدر وسرية سالم بن عمير ثم غزوتا بني قينقاع والسويق . وفي هذه السنة شرعت التضحية =

فِيْهِ عَلَى ٱلْمُصْطَفَى آشْتَدَّتْ وَيَا لَهَفِيْ   آلَامُــهُ شِــدَّةً أَضْحَى يُعَـانِيْهَـا

= وصلاة عيد الأضحى .

وفي السنة الثالثة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف . وفيها تزوج عثمان بن عفان بأمّ كلثوم بنت المصطفى . وفي هذه السنة كانت غزوتا غطفان ونجران . وسرية زيد بن حارثة إلى قردة . وفي هذه السنة أيضاً تزوج المصطفى ﷺ حفصة ابنة عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسن عليه وعلى والديه والمصطفى صلاة الله وسلامه . وفي هذه السنة أيضاً كانت غزوتا أحد وحمراء الأسد .

وفي السنة الرابعة للهجرة كانت سرية أبي مسلمة إلى قطن وسرية عبد الله بن أنيس إلى عرفة وسرية القرّاء إلى بئر معونة وسرية عمرو بن أمية الصخري إلى مكة . وفي هذه السنة كانت غزوات بني النضير وذات الرقاع وبدر الصغرى . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسين عليه وعلى أخيه ووالديه والمصطفى الصلاة والسلام . وفي هذه السنة ماتت زينب بنت خزيمة زوج المصطفى وفيها تزوج المصطفى ﷺ أم سلمة . وفي هذه السنة كان تحريم الخمر مبدئياً .

وفي السنة الخامسة للهجرة كانت غزوات دومة الجندل والمريسيع والخندق وبني قريظة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى جويرية وزينب بنت جحش . وفي هذه السنة نزلت آية الحجاب وفيها أيضاً فرض الحج على المسلمين .

وفي السنة السادسة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء وسرية عكاشة إلى الغمر وسرية محمد بن مسلمة أيضاً إلى ذي القصة . وسرية عبيدة بن الجراح إلى مصارع أصحاب محمد بن مسلمة وسرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم وسرية زيد بن حارثة إلى العيص . وسرية زيد هذا إلى الطرف . وسريته أيضاً إلى وادي القرى وسريته أيضاً إلى أم قرفه . وسرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع . وعبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر. وفي هذه السنة كانت غزوات بني لحيان والغابة والحديبية . وفي هذه السنة كان تحريم الخمر تماماً . وفيها تزوج المصطفى بأم حبيبة .

وفي سنة ٧ للهجرة اتّخذ المصطفى الخاتم وصار يختم به رسائله . وفي هذه=

فَقَالَ يَا نَاسُ هَاتُوا ٱللَّوْحَ وَٱطَّلِبُوْا   لِيَ ٱلدَّوَاةَ بِهَا فَلْيَأْتِ دَاوِيْهَا

=السنة أرسل المصطفى رسله إلى الملوك . وفيها كانت غزوة خيبر . وفيها كانت سرية عمر بن الخطاب إلى طائفة من هوازن . وسرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم وفيها أيضاً كانت عمرة القضاء . وفي هذه السنة تزوج ميمونة .

وفي سنة ٨ للهجرة كان فتح مكة وتلا الفتح غزوة الطائف وغزوة حنين وسرايا كثيرة أهمها سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة وتلافي سيدنا علي أمرها . وفي هذه السنة كان اتّخاذ المنبر الشريف للخطابة . وفيها كانت ولادة ولده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام من ماريا القبطية . وفي هذه السنة أخذت تفد الوفود على المصطفى وأولها وفد هوازن . وفيها ماتت زينب بنت رسول الله . وفي هذه السنة أسلمت همدان كلّها بدعوة سيدنا علي في يومٍ واحدٍ .

وفي سنة ٩ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي إلى طيء ودك معالم بيت صنمها فلس . وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك . وسرية خالد بن الوليد إلى أكيدر . وفي هذه السنة ماتت أم كلثوم . وفي هذه السنة كانت حجة أبي بكر ومسير سيدنا علي لإبلاغ « البراءة » وفي هذه السنة كانت عدّة سرايا .

وفي سنة ١٠ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي إلى اليمن . وفيها حجة الوداع وفيها أوصى المصطفى للمرتضى عليهما الصلاة والسلام في غدير خمّ . وكانت في سرايا كثيرة وقدمت فيها وفود كثيرة .

وفي سنة ١١ للهجرة كانت وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على نحو ما تقدم .

« صفات المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كمال الجمال ما يعجز عن تصويره القلم وتعيا عن تصوُّره المخيلة وهنا نصفه على ما وصفه واصفوه ومعاشروه قالوا : كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر وفي وجهه الشريف تدوير ، واسع الجبين ، أزجَّ الحاجبين ، بينهما عرق يدرّه الغضب أقنى العرنين ، أدعج العينين ، أكحلهما ، أهدب الأشفار ، أسيل الخدين ، خليع الفم أشنبه ، مفلج الأسنان ، كثّ اللحية ، وكان شيب لحيته في عنفقته وصدغيه متقرناً ، وكان عنقه كجيد دمية وكان جسمه الشريف بادناً ذ لحم متماسك ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين والركبتين ، موصول ما بين اللبه =

كَيْمَا أُسَطِّرُ يَا أَهْلَ آلْوَلاَ لَكُمُ ... مَا تَأْمَنُوْنَ بِهِ مِنْ يَعْدِي آلتِّيْهَا

فَعَارَضَ آلْمُصْطَفَى فِيْ سُؤْلِهِ عُمَرٌ ... جَهْراً وَرَغْبَتُهُ مَا شَاءَ يُمْضِيْهَا

وَقَالَ : إِنَّ رَسُوْلَ آللَّهِ تَغْلِبُهُ ... آلاَمُهُ لاَ تَكُوْنُوْا مُسْتَزِيْدِيْهَا

وَعِنْدَكُمْ لِلْهُدَى آلْقُرْآنُ فَآتَّبِعُوْا ... آيَاتِهِ لاَ يَضِلُّ آلرَّأْيَ وَاعِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا آرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ صَحْبِ رَسُوْ ... لِ آللَّهِ حَتَّى دَوَى فِيْ آلدَّارِ دَاوِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ: مَا جَازَ آلنِّزَاعُ أَمَا ... مَ آلأَنْبِيَا تُقْيَةً ذُوْ آلدِّيْنِ يَتْقِيْهَا

هَيَّ آخْرُجُوْا وَدَعُوْنِيْ هَانِئاً بِفِرَا ... شِيْ فِيْ صَفَا خَلْوَةٍ أَصْبَحْتُ رَاجِيْهَا

وَقَالَتِ آلنَّاسُ : مَا لِلْمُصْطَفَى هَجَرَ آلأَ ... صْحَابَ مَا عَادَ يَرْضَى أَنْ يُوَصِّيْهَا

وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهُ فِيْ آلْحَالِ تَسْأَلُهُ ... عَنْ رَغْبَةٍ صَدْرُهُ قَدْ كَانَ يُخْفِيْهَا

فَقَالَ : مَا أُضْتُ فِيْهِ آلآنَ أَفْضَلُ مِنْ ... مَسَائِلٍ جِئْتُمُوْنِيْ تَسْأَلُوْنِيْهَا

=بشعر يجري كالخيط ، عاري الثديين والبطن ، أشعر الذراعين والمناكب وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، عظيم الذراعين ، رحب الراحة لينها ، سائل الأصابع ، شثن الكفين والقدمين ، مربوع القامة ، متهادي المشية ، يمشي هوناً برفق ووقار شأن أصحاب الهمم العالية ، ولونه البياض مشرب بحمرة ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا التفت التفت جميعاً ولا يلوي عنقه ، وكان فصيح اللهجة ينطق بجوامع الكلم ويعطي كل حرف من حروف كلامه حقّها من اللفظ ، وكان إذا أشار فإشارته بكفه كلّها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدَّث قارب يمناه من يسراه وضرب بإبهام اليمنى على اليسرى ، وربما حرَّك رأسه الشريف ، أو عضَّ شفته ، أو ضرب بيده على فخذه ، أو نكت الأرض بعوده ، لك حسب مواضيع حديثه الشريف ، وإذا اشتدَّ وجده أكثر من مسّ لحيته الطاهرة ، وإذا اشتدَّ غمُّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، وتنفس الصعداء وقال « حسبي الله ونعم الوكيل » وكان معظم ضحكه التبسم وكان غالباً يمشي منتعلاً وطالما مشى حافياً ، وبالإجمال كان أجمل إنسان خلق وسيخلق على ظهر البسيطة صلى الله عليه وآله وسلم .

وَفِيْ أَوَاخِرِ أَيَّامِ ٱلـرَّسُوْلِ أَبُـوْ　　بَكْـرٍ إِمَـامَـةُ طَـهَ كَـانَ رَاعِيْهَـا

بِـأَمْرِ عَـائِشَـةٍ أَوْ أَمْـرِهِ ٱخْتَلَفَتْ　　فِيْ ذَا ٱلْجَمَاعَـةُ سُنِّيْهَـا وَشِيْعِيْهَـا

لٰكِنْ رَأَيْنَا رَسُوْلَ ٱللَّهِ يَحْمِـلُ نَفْـسَهُ ٱلَّتِيْ كَادَتِ ٱلْأَمْـرَاضُ تُوْهِيْهَـا

إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ قَدْ كَانَ يَـرْغَبُ أَنْ　　يَلِيْ ٱلْإِمَـامَـةَ أَمْ يَبْغِيْ تَـوَلِّيْهَـا

وَهَـلْ صَلَاةُ أَبِيْ بَكْـرٍ تُشِيْرُ إِلَى　　أَنَّ ٱلـرَّسُـوْلَ مُـوَلِّيْـهِ أَهَـالِيْهَـا

ذَا لَسْتُ أَدْرُكُـهُ إِنَّ ٱلْحَقِيْقَـةَ فِيْـهِ فَـوْقَ تَقْدِيْرِ عَقْلِيْ لَسْتُ أَدْرِيْهَا

وَإِنَّنِيْ عَـارِفٌ جَهْلِيْ وَمُعْتَـرِفٌ　　بِـهِ فَلَا أَدَّعِيْ بِـٱلْعِلْمِ تَمْـوِيْهَـا

قَدْ تَنْكُرُ ٱلْعَيْنُ نُوْرَ ٱلشَّمْسِ عَنْ رَمَدٍ　　وَنُـوْرُهَـا ٱلْمُبْهِجُ ٱلْأَكْـوَانِ يُؤْذِيْهَـا

وَقَـدْ يَكُـوْنُ ٱلَّـذِيْ تَلْقَـاهُ ذَا بَصَـرٍ　　أَعْمَى ٱلْبَصِيْـرَةِ وَٱلتَّضْلِيْـلُ مُعْمِيْهَـا

وَلَا يُكَلِّفُ نَفْسَـاً فَـوْقَ طَـاقَتِهَـا　　إِلَّا ٱلَّـذِيْ رَامَ بِـٱلْإِعْنَـاتِ يُعْيِيْهَـا

وَصَحَّ أَحْمَدُ فِيْ ٱلْإِثْنَيْنِ وَٱنْصَـرَفَتْ　　أَصْحَـابُـهُ وَأَوَتْ صَفْـوَاً مَـآوِيْهَـا

إِلَّا ٱلْعَلِيُّ فَلَمْ يَتْـرُكْ مُـلَازَمَـةَ ٱلْـهَـادِيْ وَصُحْبَتُـهُ مَـا كَـانَ مُخْلِيْهَـا

فَكَـانَ فِيْ قُـرْبِـهِ بِـرَّاً يُمَـرِّضُـهُ　　بِنَفْسِـهِ وَمُنَـاهُ كَـانَ يُـجْـرِيْهَـا

وَفِيْ ٱلضُّحَى ٱشْتَدَّدَاءُ ٱلْمُصْطَفَى وَبِنَفْـسِهِ مَضَى لِجِنَـانِ ٱلْخُلْدِيُثْـوِيْهَـا

فَـأَعْـوَلَتْ جَـزَعَـاً نِسْـوَانُـهُ وَبَنَـا　　تُـهُ وَمَـا كَـانَ أَشْجَى مِنْ تَـدَعِّيْهَـا

وَصَاحَ فِيْ ٱلنَّاسِ نَاعِيْهِ وَرَدَّدَتِ ٱلْـصِّيَاحَ وَٱلدَّمْـعُ يَهْمِيْ مِنْ مَـآقِيْهَـا

فِيْ ٱلْأَرْضِ فَـاجِعَةٌ ذَاعَتْ مَنَـاعِيْهَا　　وَفِيْ ٱلسَّمَـا فَرْحَـةٌ شَاعَتْ تَهَـانِيْهَـا

مُحَمَّـدٌ مَاتَ وَٱلْأَمْـلَاكُ قَـدْ بَهِجَتْ　　بِـرُوْحِهِ مُـذْ ثَوَتْ فِيْ قُـرْبِ مُبْدِيْهَـا

وَثَـابَ لِلَّهِ مَحْمُـوْدَ ٱلْفِعَـالِ وَقَـدْ　　أَدَّى ٱلـرِّسَـالَـةَ فَـٱسْتَوْفَتْ تَـأْدِيْهَـا

وَأَكْمَلَ ٱلدِّيْنَ حَتَّى لَا ٱنْتِقَاصَ بِأَحْـكَامٍ لَهُ كَـانَ بِـٱلْإِحْكَـامِ مُنْشِيْهَـا

وَرَاحَ مِنْ حَوْلِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ خَيْرَ شَفِيْـــعٍ لِلْأُلَى حَفِظُوْا سَامِيْ مَبَادِيْهَا
وَمَنْ أَطَاعُوْا وَلَمْ يَعْصَوْا أَوَامِرَهَا وَمَا تَعَدَّوْا بِتَقْوَاهُمْ نَوَاهِيْهَا
وَقَابَلَ ٱلْمُرْتَضَى وَقْعَ ٱلْقَضَا بِشُجُوْ نٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا إِلَّا مُعَانِيْهَا
وَقَالَ وَٱلْحُزْنُ قَدْ أَمْسَى مُسَاوِرَهُ وَنَفْسُهُ لَا تَرَى شَيْئَاً يُعَزِّيْهَا
بِوَالِدَيَّ رَسُوْلَ ٱللَّهِ أَنْتَ وَبِٱلْـــنَّفْسِ ٱلَّتِيْ عَنْكَ لَا سَلْوَى تُسَلِّيْهَا
بِمَوْتِكَ ٱنْقَطَعَتْ عَنَّا ٱلنُّبُوَّةُ وَٱلْأَ م نْبَاءُ ظَاهِرُهَا ٱلزَّاهِيْ وَخَافِيْهَا
فَلَا تُرَدَّدُ أَخْبَارُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا نَفُوْزُ بَعْدُ بِهَا إِذْ غَابَ رَاوِيْهَا
خُصِّصْتَ حَتَّى غَدَتْ تَاللَّهِ أَنْفُسُنَا مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ مَا ٱلْأَرْزَاءُ تُؤْذِيْهَا
وَقَدْ عَمَمْتَ فَكُلُّ ٱلنَّاسِ مُكْرَبَةٌ حُزْنَاً عَلَيْكَ يُزِيْدُ ٱلْكَرْبَ بَاكِيْهَا
وَٱللَّهِ لَوْ لَمْ تَكُنْ بِٱلصَّبْرِ آمِرَنَا وَوَفْقَةُ ٱلْجَزَعِ ٱلْمُؤْذِيِّ نَاهِيْهَا
ٱسْتَنْفَدَتْ دَمْعَهَا ٱلْمَذْخُوْرَ أَعْيُنُنَا عَلَيْكَ حَتَّى يُرَوِّيْ ٱلْأَرْضَ هَامِيْهَا
وَٱلدَّاءُ مَاطَلَنَا وَٱلْغَمُّ حَالَفَنَا وَمَا لِعِيْشَتِنَا بِشْرٌ يُمَاشِيْهَا
وَإِنَّ لَوْعَتَنَا قِلَّاً عَلَيْكَ وَهَا نُفُوْسُنَا بَلَغَتْ فِيْهَا تَلَاشِيْهَا
لٰكِنْ إِرَادَةُ رَبِّيْ لَيْسَ يُمْلَكُ رَدُّ م هَا وَطُوْبَى لِمَنْ كَانُوْا مُطِيْعِيْهَا
لَا يُسْتَطَاعُ لَهَا دَفْعٌ إِذَا نَفَدَتْ وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ طُرَّاً مَنْ يُقَاوِيْهَا
فِدَى حَيَاتِكَ أُمِّيْ سَيِّدِي وَأَبِيْ وَمُهْجَتِيْ وَنَوَاكَ ٱلْيَوْمَ مُدْمِيْهَا
وَعِنْدَ رَبِّكَ فَٱذْكُرْنَا وَأُمَّتَنَا حَاشَاكَ لَسْتَ بِنَاسِيْنَا وَنَاسِيْهَا
وَبَيْنَمَا ٱلْمُرْتَضَى يَرْثِيْ ٱلرَّسُوْلَ وَيَبْـــكِيْهِ وَلَوْعَتُهُ مَا ٱلدَّمْعُ يُطْفِيْهَا
كَانَتْ تَغَصُّ رِحَابُ ٱلْمَسْجِدِ ٱلنَّبَوِ م يِّ بِٱلْحَزَانَى وَهَوْلُ ٱلْخَطْبِ غَاشِيْهَا
كَانَتْ مُبَلْبَلَةَ ٱلْأَفْكَارِ تَيِّهَهَا مَنْعَى ٱلْمُفَدَّى رَسُوْلِ ٱللَّهِ تَتْيِيْهَا

وَجَـاءَهَـا عُمَـرٌ وَٱلسَّيْفُ فِيْ يَـدِهِ ... يُكَذِّبُ ٱلنَّاسَ فِيْ مُشْجِيْ مَسَـاعِيْهَا

يَقُـوْلُ: مَـا مَـاتَ طَـهَ إِنَّ مَـوْتَتَـهُ ... أَهْـلُ ٱلنِّفَـاقِ لِضَـرِّ ٱلـدِّيْنِ تَبْغِيْهَـا

تَـاللَّهِ هَـامُ ٱلأُلَى تَنْعِيْ مُحَمَّـدَنَـا ... تَقُـوْلُ مَـاتَ نَبِيُّ ٱللَّهِ أَفْـرِيْـهَـا

مَـا مَاتَ أَحْمَـدُ كَـلَّا لَا يَمُـوْتُ وَلَنْ ... يَمُـوْتَ شَـوَّهْتُمُ ٱلْإِسْـلَامَ تَشْـوِيْهَـا

بِمِثْـلِ ذَا عُمَـرُ قَـدْ كَـانَ مُـطَّلِبَـاً ... لِمَنْ نَعَى خَيْـرَ خَلْقِ ٱللَّهِ تَسْفِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا كَـانَ فِيْ بَـادِيْ تَضَعْضُعِـهِ ... وَرَوْعَـةُ ٱلْخَـطْبِ نَـالَتْـهُ بِـأَيْـدِيْهَـا

وَإِذْ بَـدَا بَيْنَ هَاتِيْـكَ ٱلْجُمُـوْعِ أَبُـوْ ... بَكْـرٍ وَصَاحَ بِـهِ: يَـا صَاحِبِيْ إِيْهَـا

مَـا ٱلْمُصْـطَفَى مَـا أَعَـزَّ ٱللَّهُ سُؤْدُدَهُ ... بَيْنَ ٱلْخَـلَائِقِ إِلَّا مِـنْ أُنَـاسِيْـهَـا

وَإِنَّـهُ لَـرَسُـوْلٌ قَـبْـلَهُ رُسُـلٌ ... خَلَتْ وَلَيْسَ بِـبَـاقٍ غَيْـرُ ذَارِيْـهَـا

مَنْ كَـانَ يَعْبُـدُهُ خَـابَتْ عِبَـادَتُـهُ ... وَإِنَّ عُـبَّـادَهُ سَـاءَتْ مَسَـاعِـيْهَـا

أَمَّـا ٱلأُلَى عَبَـدُوْا ٱللَّهَ ٱلْكَـرِيْمَ فَهُمْ ... عَلَى هُـدَى لَمْ يَضِلُّوْا عَنْ مَـرَامِيْهَـا

فَقُلْ لِمَنْ جَزِعُوْا مِنْ مَوْتِ أَحْمَدَ قَدْ ... ضَلَلْتُمُ سُبُـلاً قَـدْ كَـانَ هَـادِيْهَـا

وَنَحْنُ مُحْتَسِبُـوْهُ عِـنْـدَ خَـالِقِـهِ ... وَقَـدْ تَبَوَّأَ فِيْ ٱلْجَنَّـاتِ عَـالِيْهَـا

عَلَيْـهِ أَعْـطَرُ تَسْلِيْمَـاتِ مُـرْسِلِهِ ... عَـلَيْـهِ مِنْ صَلَوَاتِ ٱللَّهِ ذَاكِيْـهَـا

وَرَاحَ يَسْـرِدُ آيَـاتٍ تُـشِيْـرُ إِلَـى ... وَفَـاةِ طَـهَ وَيَسْتَقْصِـيْ مَعَـانِـيْهَـا

نَـادَى لَهَا عُمَـرٌ: مَـا كُنْتُ ذَاكِـرُهَـا ... كَـأَنَّنِيْ قَبْـلُ لَمْ أَسْمَـعْ مَثَـانِيْهَـا

وَخَـطْبُ أَحْمَدَ مَـا أَنْسَى أَبَـا حَسَنٍ ... فُـرُوْضَهُ فَـٱنْثَنَى بِـٱلْحَـزْمِ يَقْضِيْهَـا

فَهْـوَ ٱلَّـذِيْ غَسَـلَ ٱلْهَـادِيْ وَكَفَّنَـهُ ... وَصِيَّـةُ كَـانَ قَبْـلاً مِنْـهُ أُوْصِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا ٱلْمُـرْتَضَى فِيْ ذَاكَ مُشْتَغِـلٌ ... وَنَفْسُـهُ بَلَغَتْ حُـزْنـاً تَـرَاقِـيْهَـا

وَلَا يَـرَى وَرَسُـوْلُ ٱلـلَّهِ مُـنْبَسِطٌ ... عَلَى ٱلثَّرَى غَيْرَ أَشْجَـانٍ يُقَـاسِيْهَـا

إِذَا بِصَخْرٍ مَعَ ٱلْعَبَّاسِ مَعْ نَفَرٍ   مِنْ خِيْرَةِ ٱلْعُرْبِ مَكِّيْهَا وَطِيْبِيْهَا
وَافَتْ إِلَيْهِ بِأَنْبَاءِ ٱلسَّقِيْفَةِ تُنْـــبِيْهِ بِمَا كَانَ فِيْهَا مِنْ مَكِيْنِيْهَا
نَادَتْهُ : أَسْرِعْ تَقَبَّلْ صَاحِ بَيْعَتَنَا   فَإِنَّنَا بِٱلرِّضَى بِتْنَا مُبِيْعِيْهَا
فَٱسْتَغْرَبَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَنْبَاءَ أَنْكَرَهَا   وَإِنْ يَكُنْ وَاثِقاً مِنْ صِدْقِ مُنْبِيْهَا
وَبَيْعَةُ ٱلصَّحْبِ حُبَّاً بِٱلسَّلَامَةِ مِنْ   إِثَارَةِ ٱلشَّرِّ أَمْسَى وَهْوَ آبِيْهَا
وَلَا يَهُوْنُ عَلَى مَنْ شَادَ أَصْرِحَةَ ٱلْإِ   سْلَامِ أَنْ يَرْتَضِيْ يَوْماً تَدَاعِيْهَا
وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيْحِ وَإِنْ   لَمْ يُرْضِهَا نَفْسُهُ قَدْ كَانَ مُرْضِيْهَا
فَقَالَ : مِنْ دُوْنِنَا أَمْوَاجُ ذِيْ ٱلْفِتَنِ ٱلْـــكَثْرَى وَقَدْ يُغْرِقُ ٱلدُّنْيَا تَتَالِيْهَا
فَجَاهِدُوْا وَعَسَى نَجْتَازُهَا بِمَرَا   كِبِ ٱلنَّجَاةِ ٱلَّتِيْ بِٱلسِّلْمِ نُرْسِيْهَا
وَعَرِّجُوْا عَنْ طَرِيْقٍ لَا سَلَامَةَ فِيْـــهَا لِلْأُلَى بِٱلْعَدَى رَامُوْا تَخَطِّيْهَا
تَاجُ ٱلْمُبَاهَاةِ يَا صَحْبِيْ ضَعُوْهُ فَمَا   نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا يَوْماً تَبَاهِيْهَا
وَلَيْسَ يَفْلَحُ إِلَّا نَاهِضٌ بِجَنَا   حٍ وَٱلْمُلُوْكُ لَتَقْوَى فِيْ مُعِيْنِيْهَا
أَوْ مَنْ غَدَا مُسْتَسْلِمَاً فَيُرِيْـــحُ ٱلنَّفْسَ مِنْ فِتْنَةٍ صَعْبٌ تَلَافِيْهَا
وَتِلْكَ نَهْلَةُ مَاءٍ آجِنٍ لِعَجُوْ   لٍ رَامَ يَنْهَلُهَا فِيْ ٱلنَّاسِ ظَامِيْهَا
وَلُقْمَةٌ لِأَكُوْلٍ غَيْرُ سَائِغَةٍ   بِهَا يَغَصُّ فَمَا ذُوْ ٱلرَّأْيِ شَاهِيْهَا
هَلْ يَسْتَفِيْدُ مِنَ ٱلْأَثْمَارِ إِنْ قُطِفَتْ   قَبْلَ ٱلنُّضُوْجِ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ جَانِيْهَا
أَوْ زَارِعٌ زَرْعُهُ فِيْ أَرْضِ صَاحِبِهِ   وَٱلنَّاسُ إِنْ زَرَعَتْ تَزْرَعْ أَرَاضِيْهَا
فَإِنْ أَقُلْ قِيْلَ عَنْ حِرْصٍ مَقَالَتُهُ   عَلَى ٱلتَّمَلُّكِ تَالِيْهَا وَمُمْلِيْهَا
وَإِنْ سَكَتُّ لَقَالُوْا كَانَ ذَا جَزَعٍ   مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ أَمْسَى وَهْوَ خَاشِيْهَا
هَيْهَاتِ بَعْدَ ٱللُّتَيَّا وَٱلَّتِيْ وَمُعَا   نَاةِ ٱلشَّدَائِدِ قَاسِيْهَا وَحَامِيْهَا

مِثْلِي إذَا أُرْهِبَتْ غَيْـرِي فَـوَاجِيْهَـا أَنْ تَمْسِيَنَّ آلْمَنَـايَـا وَهْيَ مُـرْهِبَـةٌ

تَـآللَّهِ آنَسُ بِـآلْــمَوْتِ آلَّذِيْ آلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَيُفْنِيْهَـا لاَبْنُ أَبِيْ طَـالِبٍ

وَقَـدْ أَوَى حِجْـرَهَـا يَلْقَى تَحَنِّيْهَـا مِنَ آلـرَّضِيْعِ بِثَـدْيِ آلأُمِّ يَرْضَعُـهُ

فِيْـهِ آضْـطَرَبْتُمُ مِنْهَـا لَسْتُ أُبْـدِيْهَـا لَكِنْ بِصَـدْرِيَ عِلْمٌ لَـوْ أَبَثْتُ خَـوَا

بِصَحْبِـهِ يَبْتَغِي آسْتِجْـلاَءَ خَـافِيْهَـا وَقَـدْ أَجَـالَ بُعَيْـدَ آلْقَـوْلِ نَـاظِـرَهُ

بِـأَنَّـهُ فِـيْ رَجَـاهَـا لاَ يُؤَاتِيْـهَـا وَإِنَّهَـا أَدْرَكَتْ مِنْ وَقْـعِ نَـظْرَتِـهِ

مِنَ آلْمَخَـاطِـرِ خَـافِيْهَـا وَبَـادِيْهَـا وَإِنَّـهُ نَـاظِـرٌ مَـا لَـيْسَ تَـنْـظُرُهُ

وَآلنَّـاسُ تُشْغِلُهَـا عَنْـهُ أَمَـانِيْهَـا وَظَـلَّ أَحْمَـدُ مُسْجَى فَـوْقَ فَـرْشَتِـهِ

إِلَيْـهِ تَنْـدُبُـهُ مَـعْ هَـاشِمِيِّيْهَـا حَتَّى إذَا بَـلَغَتْ آمَـالَهَـا رَجِعَـتْ

مٍ فِيْ صُفُوْفِ أَلِيْمُ آلْخَطْبِ مُشْجِيْهَا صَلَّتْ عَلَيْـهِ زَرَافَـاتٍ بِغَيْـرِ إمَـا

وَلَيْلَةُ آلأَرْبَعَـا عِنْـدَ آلْعِشَـا دَفَنَ آلْــعَلِيُّ طَـهَ وَلَمْ يَحْفَـلْ بِـدَاجِيْهَـا

إِلَى آلْحَفِيْـرَةِ فَـآعْتَـزَّتْ بِثَـاوِيْهَـا بِنَفْسِـهِ أَنْـزَلَ آلْجُثْمَـانَ أَوْصَـلَهُ

أَنْفَـاسِـهِ زَفْـرَةً مَـا آلنَّـارُ تَحْكِيْهَـا ثُمَّ تَنَهَّـدَ مَحْـزُوْنَـاً وَأَرْسَـلَ مِـنْ

تَسْقِيْ حَفِيْـرَتَـهُ آلْعُظْمَى وَتَـرْوِيْهَـا وَأَرْسَـلَتْ عَيْـنُـهُ فَيَّـاضَ أَدْمُـعِهَـا

لَكَـانَ مِنْ حَـظِّهِ وَآلـلَّهِ وَافِيْـهَـا وَلَـوْ تَقَسَّمَ خَطْبُ آلْمُصْـطَفَى قِسَمَاً

أمير المؤمنين في خلافة أبي بكر

بِآلْمُصْطَفَى لاَ يَرَى آلدُّنْيَا تُوَازِيْهَا[1] وَبَيْنَمَـا آلْمُـرْتَضَى لاَهٍ بِـفَجْـعَتِـهِ

نَـوَادِبُ آلْعُرْبِ فِيْ مُشْجِيْ تَـدَعِّيْهَا وَآلْمُصْطَفَى فِيْ فِرَاشِ آلْمَوْتِ تَنْدُبُهُ

---

(١) عندما ابتدأت علّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي انتهت بموته أمر أسامة بن زيد بن =

وَقَبْـلُ أَنْ يَتَـوَارَى فِيْ حَفِيْـرَتِـهِ   جُثْمَـانُـهُ وَبِعَفْـوِ ٱلـلَّهِ يَـأْوِيْهَـا

=حارثة وهو في الثامنة عشرة من عمره أن يسير بسرية إلى موضع يسمى « أبنى » بضم الهمزة وفتح النون وهو موضع بين عسقلان والرملة وقيل بل قرية عند « مؤتة » وكان قد قتل هناك أبو زيد بن حارثة وقال له « سرّ لأخذ ثأر أبيك » وأمر عليه السلام أن يصحب هذه السرية أكابر الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقّاص وغيرهم فتقمقم هؤلاء من المسير في سرية يقودها غلام كأسامة لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وعلم المصطفى بتقمقمهم فخرج إلى المسجد وهو معصوب الرأس فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أمّا بعد أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وأيم الله كان خليقاً بالإمارة وأنّ ابنه من بعده لخليقٌ بالإمارة وأنّه كان لمن أحبّ الناس إليَّ وأنّهما مظنّة لكلّ خير فاستوصوا به خيراً فإنّه من خياركم » ونزل بعد ذلك المصطفى راجعاً إلى بيته حيث أوى فراشه وهو عليل . أمّا أصحاب رسول الله فما أرادوا الابتعاد عن المدينة ورسول الله عليل بالرغم عن إلحاحه بتسييرها غير مرّة ولرغبة المصطفى في سير هذه السرية وهو عليل وفيها أكابر أصحابه تحت إمارة شاب في مقتبل عمره ولتسكع هذه السرية عن المسير آراء مختلفة وأقاويل عديدة نكتفي بالإشارة إليها هنا تاركين للقارىء اللبيب حكمه فيها وغاية القول أنّ السرية ظلّت في المدينة المنورة بالرغم عن إلحاح المصطفى بتسييرها إلى أن توفي عليه السلام .

وعندما نعى النعاة المصطفى إلى أصحاب رسول الله عليه السلام وأنصاره اجتمعوا جزعين في المسجد وجاءهم عمر وهو أشدهم جزعاً فأشهر سيفه وهو يقول إنّه لم يمت ثمّ تبعه أبو بكر فخطب في الناس وسرد الآيات المشيرة إلى موته فسكّن روعة عمر ومن كان هنالك من المتضعضعين مثله . ثمّ إنّ أكابر الصحابة والأنصار تركوا المسجد وساروا إلى سقيفة بني ساعدة حيث كان ينوي سعد بن عبادة وكان مريضاً . وقيل بل إنّ الأنصار عند تأكدهم وفاة المصطفى اجتمعوا في تلك السقيفة للنظر في أمر الخلافة فنمي خبرهم إلى أبي بكر وعمر فصحبا نفراً من قريش وساروا إلى هاتيك السقيفة ولما تكامل الجمع قام خطيب من الأنصار فأثنى على الله ما هو أهله ثم قال : « أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفّت دافّةٌ منكم تريدون أن تختزلونا من أهلنا وتستبدون به دوننا » . ومن هذا الخطاب المقتضب الذي=

=نقله مؤرخو السنّة يظهر لعقلي الضعيف السخيف أنّ الأنصار لم يكونوا البادئين بالاجتماع بل إنّهم ما اجتمعوا إلّا بعد أن علموا أنّ المهاجرين يعملون للخلافة بينهم هذا ما استفدته من قول خطيب الأنصار هذا الذي لما انتهى وقف أبو بكر وقال « أمّا بعد فما ذكرتم من خير فأنتم له أهل ولم تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ولدتنا العرب كلها فليست منها قبيلة إلّا لقريش منها ولادةٌ ودارٌ . وكنّا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ونحن عشيرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأقاربه وذوو رحمه فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة » وبعد ذلك أخذ أبو بكر يسرد الآيات التي نزلت في قريش والأنصار والأحاديث التي حدّث بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هؤلاء وهؤلاء ثمَّ وجه أبو بكر خطابه لسعد فقال : لقد علمت يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعد بين يديه : إنَّ قريشاً هم ولاة هذا الأمر . أليس الأمر كذلك ؟ فقال سعد صدقت . فقال أبو بكر : فنحن الأمراء وأنتم الوزراء وقد قال رسول الله : « الأئمة من قريش » وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وأنتم أحقّ بالرضاء بقضاء الله وقد رضيت لهذا الأمر أحد هذين الرجلين وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح وكانا على جانبيه فقال عمر وأبو عبيدة « بل لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر » فقام ضجيج بين الأنصار وهم يريدونها لأنفسهم فكانوا يقولون منّا أمير ومنكم أمير وساد الهرج بينهم وبين المهاجرين مدةً حتى كاد أن يستفحل ويؤول إلى ما لا تحمد مغبته ولكن في الأخير رضيت أكثريتهم بخلافة أبي بكر وبايعته . وممّا يجب أن لا يذهب عن الفكر أنّ هذا الاجتماع خلا من الهواشم وأنّ المهاجرين والأنصار في أثناء شجارهم على الخلافة ما ذكروا حقَّ الهواشم فيه ولا سيما سيدنا علي عليه السلام فهل كانوا مبدئياً متفقين على أن لا تكون الخلافة في بني هاشم لكي لا يجتمع شرف النبوّة وشرف الملك لهم كما يقول بعض النقّاد ؟؟ هذا لا نحير عليه جواباً . ومما نذكره أنّ سعد بن عبادة وهو زعيم الأنصار وكان الاجتماع في سقيفته أبى الرضاء ببيعة أبي بكر وغضب عمر وأراد أن يبطش به فحال الناس دون رغبته . ثم حاول أبو بكر أن يكرهه على البيعة بعد ذلك فأصرَّ على إبائه وأقام مدةً لا يحضر اجتماعاتهم ولا يصلّي في المسجد ولا يسلّم على من لقي منهم حتى إذا كان بعرفة يقف ناحية عنهم وكان يلحُّ عمر على أبي بكر أن يكرهه على البيعة بالسيف فيأبى أبو بكر ذلك مخافة الفتنة ولما ولّي الخلافة عمر هجر سعد المدينة وسار إلى دمشق ومات فيها سنة ١٥ للهجرة . =

وَلَمْ يَكُنْ هَـاشِمِـيٌّ بَيْـنَهَـا فَـكَـأَ   نَّ ٱلْأَمْـرَ لَمْ يُعْنِ يَـوْمَـاً هَـاشِمِيِّهَـا

= وبعد أن تمّت البيعة لأبي بكـر في سقيفة سعـد في نفس يوم الاثنين الـذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف الناس إلى بيوتهم . وفي صباح الثلاثاء ورسـول الله مسجّى على فـراشه اجتمـع الناس « عـدا الهواشم » في المسجـد النبـوي وفي اجتمـاعهم ذاك كانت البيعة الكبـرى إذ بايـع الناس أبـا بكر بـدعوة عمـر . ثمّ إنّهم انصرفـوا إلى وداع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة عليه فقصدوه في حجرته زرافـات يصلّون عليه بغيـر إمام كمـا تقدم .

وبعـد دفن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم انصـرف أبو بكـر وعمر إلى تـدبيـر أمـر الأمّـة فكـان اهتمـامهم منصرفـاً قبـل كـل شيء إلى إرغـام الهـواشم ومن شـايعهم من المهـاجـرين والأنصار على مبايعة أبي بكر فأرغماهم جميعـاً على البيعة فبـايعوا إلاّ عليّـاً . ثمَّ اهتما بمحاربة أهل الردّة وإرجاعهـا إلى الإسلام فأفلحا . وظلَّ الناس يلغطون ببيعـة أبي بكر وينتقدونها سـرّاً وجهراً حتى اضـطرَّ عمر أن يصعـد المنبر في مسجـد المدينـة ويقول : « فلا يغرنَّ أمرءً أن يقول انّ بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فلقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها » وكان قد سبق له أن قال على أثر بيعة أبي بكـر : « إنّ بيعة أبي بكـرٍ كانت فلتـة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها قاتلوه » وذاع هذا القول عنه وتداوله النـاس وفي قولـه هذا كفاية لقوم ينصفون .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فأبى البيعة كما أنّه أبى ممالئة الذين انتصروا له وأشاروا عليه بإعلان العداء لأبي بكر وانزوى في بيته يعنى بجمع القرآن وترتيب آياته الشريفة وما زال كذلك إلى أن توفيت زوجه فاطمة الزهراء عليها السلام حينئذٍ بايع أبا بكر . ورأيه عليه السلام في بيعة أبي بكر صريح ظاهر في كثير من خطبه ورسائله المنشورة في « نهـج البلاغـة » ونكتفي هنا بما قاله في خـطبته الشقشقيـة قال : « أمّـا والله لقد تقمصهـا ابن أبي قحافـة ، وإنه ليعلم أنَّ محلي منهـا محلّ القـطب من الرحى ، فسـدلتُ دونها ثـوبـاً ، وطـويتُ عنهـا كشحاً ، وطفقتُ أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء ، أو أصبر على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبيـر ، ويشيب فيها الصغيـر ، ويكدح فيهـا مؤمن حتى يلقى ربّه ، فـرأيت أنّ الصبـر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهباً » أهو قول المرتضى خير ما يختم به هذا المقال .

وإنّا لندع بعد هذا ما اختلف فيه الرواة عمّا جرى على سيدنا علي وسيدتنا فاطمة=

= عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام فجميعه مما يؤلم ذكره ولا يحسن الآن نشره وأنَّ بعضه لو كان صحيحاً لكان من الكبائر التي لا تغتفر والله سبحانه أعلم .

على أنّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ماتت مكربةً حزينةً غاضبةً بعد وفاة أبيها صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم بستين أو سبعين يوماً وقيل ستة أشهر وأزاد وفاتها المرتضى زهداً بالخلافة فغدا إلى أبي بكر وهو في المسجد فبايعه . واستقبل أبو بكر وأصحابه بيعة سيدنا علي بالسرور والاغتباط وقال أبو بكر وهو آخذ بيد علي « انّ عصابةً أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة، وأنّ أمةً أنت فيها لمرحومة ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا ، نخاف الله إذا سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا إنّي شدهت ، لما أجبت إلى ما دعيت إليه ، ولكني خفت الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر على قريش ، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنت حاضراً لبايعتك ، ولم أعدل بك ؛ ولقد حطَّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به ، وما أسدُّ من ينظر الله إليه بالكفاية ، وإنا إليك لمحتاجون . وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهديك في جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك معوّلون » فتبسم أبو الحسن عليه السلام لهذا الإعتذار الذي جهر به أبو بكر في المسجد وانصرف إلى بيته متشاغلاً بحزنه بوفاة رسول الله وفاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وعاكفاً على عهد الله ينظر فيه ويجمع ما تفرّق منه رجاء ثوابٍ معدٍّ لمن أخلص لله عمله وسلم لعلمه ومشيئته أمره .

« ترجمة أبي بكر »

كان يدعى أبو بكر في الجاهلية عبد اللات وقيل عبد العزّى فسمّاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله . فهو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ويجتمع مع رسول الله في مرّة بن كعب . وأمّه أمّ الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أسلمت بعد إسلامه . وقد دعي أبو بكر باسم « عتيق » لأنّ رسول الله قال له أنت « عتيق النار » وقيل بل أمّه سمّته « عتيقاً » لأنّها ما كان يعيش لها ولد فلما ولد سمّته عتيقاً أي « عتيق الموت » ويلقّب باسم « الصديق » لأنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما عرّج ورجع إلى مكة فأخبر الناس فلم يصدّقوه وقصدوا أبا بكر قائلين : إنّ صاحبك يزعم كذا وكذا فقال لهم « إن قال ذلك فقد صدق . إنّي لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . =

= أصدقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ » فلقّب من ذلك الوقت بالصديق .

كان أبو بكر في أول أمره بزّازاً . وكان وجيهاً في قريش . وكان عالماً بأنساب العرب ولا سيما قريش . وكان من السابقين بالإسلام أسلم في حال دعوة المصطفى له . وصار من دعاة الإسلام فدعا إليه كثيرين وأسلموا بواسطته منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله . وكان ملازماً المصطفى منذ أسلم لا يمنع عنه ماله . ورافق النبي في غزواته كلّها . وفي خلافة أبي بكر قامت فتنة أهل الردّة فأطفأها . وظهر الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب وسجاح المتنبئة وطليحة الأسدي . فحاربهم وأخزاهم وأبطل دعوتهم وكلّهم ادّعوا النبوَّة . وأرسل خالد بن الوليد إلى العراق من أدناه وعياض بن غَنم من أعلاه . فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب الموضع الذي بنيت فيه البصرة وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد أن قتل رئيسهم هرمز . ثمَّ قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية . ثمَّ سار إلى الأنبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة . وسار إلى عين التمر فالتقت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان فيها وأسر الأسرى وفي جملتهم نصير أبو موسى فاتح الأندلس. ثمَّ سار إلى دومة الجندل وأخذها عنوةً . وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد إلى بلد حتى وصل إلى تخوم الشام . فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها فنصره الله عليهم ثمَّ رجع إلى الحيرة ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج . أمّا عياض بن غنم فإنّه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وأرمينيا ثمَّ انضمَّ إلى جيوش أبي عبيدة في الشام كما سبقت الإشارة في ترجمة خالد .

وأنشأ أبو بكر بيت المال للمسلمين بعد أن كثر الفيء وجعل على القضاء عمر بن الخطاب بل كان عمر في الحقيقة وزيره ومشيره وعيبة سرّه وكان خالد بن الوليد قائد جيوشه .

وكان تقياً ورعاً سخياً صالحاً كثير التواضع كثير التقشف كثير الزهد كثير الكرم وكان يقول دائماً « ولّيت عليكم ولست بأخيركم فأعينوني وإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني . وإذا رأيتموني زغت فقوّموني » وتزوج أبو بكر في الجاهلية امرأةً تدعى قتيلة بنت عبد العزّى بن عامر بن لؤي فولدت له ابنه عبد الله وابنته أسماء وتزوج أيضاً في =

وَبَعْدَ عُنْفِ جِدَالٍ طَالَ وَٱنْقَسَمَتْ ... فِيْهِ مَطَامِعُ طِيْبِيْهَا وَمَكِّيْهَا

وَقَدْ تَمَادَتْ بِهِ حَتَّى ٱلْوَعِيْدِ مَعَ ٱلـ ... ـتَّهْدِيْدِ مُعْلِنَةً فِيْهِ تَعَادِيْهَا

وَفِيْ ٱلْأَخِيْرِ تَرَاضَتْ أَنْ يَكُوْنَ أَبُوْ ... بَكْرٍ أَمِيْرَاً لَهَا سَمَّتْهُ وَالِيْهَا

= الجاهلية امرأةً تدعى أم رومان واسمها دعد وهي بنت عامر بن عميرة الكنانية فولدت له ابنه عبد الرحمٰن وابنته عائشة زوج المصطفى . وتزوج في الإسلام امرأةً تدعى أسماء وهي بنت عُمَيس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب فولدت له ابنه محمد . وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة وقيل أم حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري وكان يسكنها بالسنح « من ضواحي المدينة المنورة » وولدت له هذه بعد وفاته ابنته أم كلثوم .

واختلف الناس في وفاته فقيل إنّه توفّي على أثر سمّ يقتل بعد تناوله بسنة وقيل بل اغتسل في يوم بارد فحمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة وهذا أصحُّ وأمر عمراً أن يصلّي بالمسلمين في مدّة مرضه وكانت آخر كلماته وهو يحتضر « اللهمَّ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » وكانت وفاته بين المغرب والعشاء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية أمّا مولده فكان بعد الفيل بثلاث سنوات وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام وقيل عشرين يوماً وقبل وفاته أوصى بالخلافة إلى عمر على ما سيجيء .

أمّا صورة أبي بكر على ما صوّره المؤرخون فقد كان أبيض البشرة خفيف العارضين محني القامة لا يتمسك إزاره معروق الوجه نحيفاً أقنى الأنف غائر العينين .

« ترجمة سعد بن عبادة »

أمّا سعد بن عبادة الذي اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفته يوم وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان في نية الأنصار مبايعته بالخلافة يومئذٍ فهو سعد بن عبادة الأنصاري الصحابي الخزرجي الساعدي سيد الخزرج وزعيمها الأكبر وكان نقيب بني ساعدة وصاحب راية الأنصار في المشاهد النبوية كلها . وكان مشهوراً بالكرم وكذلك كان آباؤه من قبله . ومن نوادر كرمه أنّه كان يبعث إلى رسول الله جفنةً مملوءَةً ثريداً ولحماً في كل يوم منذ حلَّ المصطفى في المدينة المنورة إلى أن سار إلى لقاء ربّه في جنانه ولم يبايع أبا بكر كما تقدم القول وقاطع المسلمين على عهده ولما تولى عمر الخلافة أبى الإقامة في المدينة فهجرها وخرج إلى الشام وما زال هناك إلى أن توفي في حوران من بلاد الشام في سنة ١٥ للهجرة .

بِذِيْ ٱلْوَلَايَةِ فِيْ ٱلْإِثْنَيْنِ يَوْمِ وَفَا ةِ ٱلْمُصْطَفَى عَلَناً نَادَى مُنَادِيْهَا

وَفِيْ صَبَاحِ ٱلثَّلَاثَا وَسْطَ مَسْجِدِ طَـ ـهَ تَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ ٱلْكُبْرَى لِبَاغِيْهَا

بِهَا تَسَمَّى أَبُـوْ بَكْـرٍ خَلِيْفَةَ طَـ ـهَ وَهْيَ تَسْمِيَةُ سَامٍ تَسَمِّيْهَا

وَلَمْ يُبَايِعْ عَلِيٌّ بِٱلْخِلَافَةِ مَنْ سَمُّوْا خِلَافَتَهُ مَا كَانَ رَاضِيْهَا

وَهُـوَّذَا نَحْنُ نَرْوِيْ لِلْمَلَا بِأَمَا نَـةٍ وَصِحَّةِ نَقْلٍ رَأْيَهُ فِيْهَا

فَقَالَ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَقَمَّصَهَا وَلَيْسَ يَجْهَلُ حَقِّيْ فِيْ تَوَلِّيْهَا

وَعَالِمٌ أَنَّنِيْ مِنْهَا أُحُلُّ مَحَلَّ ٱلْقُطْـ ـبِ عِنْدَ ٱلرَّحَى فِيْ عُرْفِ رَاحِيْهَا

وَٱلسَّيْلُ مُنْحَدِرٌ عَنِّيْ وَلَيْسَ لِطَيْـ ـرِ ٱلْأُفْقِ نَيْلُ مَحَلِّيْ فِيْ تَعَالِيْهَا

وَإِنَّنِيْ مُسْدِلٌ دُوْنَ ٱلْخِلَافَةِ ثَوْ بَ ٱلزُّهْدِ إِنِّيْ بِهِ كُنْتُ ٱلْمُغَطِّيْهَا

وَقَدْ طَوَيْتُ لِوَجْهِ ٱللّٰهِ كَشْحِيَ عَنْـ ـهَا وَٱلشُّرُوْرُ بِذَا قَدْ كُنْتُ طَاوِيْهَا

وَكُنْتُ بَيْنَ مُرِيْدٍ صَوْلَةً بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ صَابِرٍ نَفْسِيْ أُهَدِّيْهَا

وَتُهْرِمُ ٱلْكَهْلَ حَتْماً صَوْلَتِيْ وَتُشِيْـ ـبُ ٱلطِّفْلَ شَيْباً إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا

وَٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُتَّقِي بَارِيْهِ يَكْدَحُ حَتَّـ ـى ٱلْحَشْرَ يَوْمَ يُلَاقِيْ رَبَّهُ فِيْهَا

لٰكِنْ رَأَيْتُ جَمِيْلَ ٱلصَّبْرِ أَحْمَدَ عُقْـ ـبَى وَٱلْخُصُومَةَ أَوْلَى أَنْ أُحَاشِيْهَا

لِذَا صَبَرْتُ وَفِيْ ٱلْخَلْقِ ٱلشَّجَا وَقَذَىً فِيْ ٱلْعَيْنِ يَطْرِفُهَا حَتَّى يُؤَذِّيْهَا

أَرَى تُرَاثِيَ مَنْهُوْباً وَإِنِّيَ صَا بِرٌ بِعَيْنِيْ وَلٰكِنْ كُنْتُ أُغْضِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى لَمْ يُبَايِعْ بِٱلْخِلَافَةِ فِيْ حَيَاةِ فَاطِمَةِ ٱلزَّهْرَا لِوَالِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا قَضَتْ غَمّاً أَنَالَ أَبَا بَكْرٍ مُنَاهُ ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ عَاشِيْهَا

وَقَالَتِ ٱلنَّاسُ أَقْوَالاً بِهَا وَبِمَنْ دَعَا إِلَيْهَا وَآتِيْهَا وَمُمْضِيْهَا

دَوَتْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى رَأَى عُمَرُ أَنْ لَيْسَ سَهْلاً وَقَدْ ذَاعَتْ تَعَاشِيْهَا

لِذَاكَ رَدَّ ٱلصَّدَى فِيْ قَوْمِهِ وَدَعَا   هَا «فَلْتَةً» قَالَ: فَلْيُقْتَلْ مُثَنِّيْهَا

وَقَالَ: كَانَتْ وَلٰكِنَّ ٱلْإِلٰهَ وَقَى ٱلْـ   ـعِبَادَ مِنْ شَرِّهَا حَمْدَاً لِوَاقِيْهَا

لِلَّهِ أَنْتَ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ فَقَدْ   لَاقَيْتَ مِنْ نُوَبِ ٱلْأَيَّامِ قَاسِيْهَا

وَقَدْ تَنَاسَيْتَ أَرْزَاءً مُنِيْتَ بِهَا   بِفَضْلِ تَقْوَاكَ لٰكِنْ لَسْتَ نَاسِيْهَا

وَقَدْ صَبَرْتَ عَلَىٰ ٱلْأَحْدَاثِ صَبْرَ كَرِيْـ   ـمٍ صَادِقِ ٱلْعَزْمِ مُسْتَجْلٍ غَوَاشِيْهَا

وَسِرْتَ نَحْوَ أَبِيْ بَكْرٍ تَرُوْمُ تَلَا   فِيْ فِتْنَةٍ خَيْرُ مَا يُلْفَى تَلَافِيْهَا

بَايَعْتَهُ بَيْعَةً قَدْ كَانَ يَنْشِدُهَا   وَبِعْتَهَا مَنْ غَدَا بِٱلْبُشْرِ يَشْرِيْهَا

وَقَدْ طَلَبْتَ بِهَا لِلدِّيْنِ عِزَّتَهُ ٱلْـ   ـقَعْسَا ٱلَّتِيْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلنَّاسِ جَانِيْهَا

وَإِنْ تَنَافَسَ أَرْبَابُ ٱلْجِهَادِ بِهَا   فَأَنْتَ أَوَّلُهَا لَا مِنْ أَوَالِيْهَا

أمير المؤمنين في وفاة فاطمة الزهراء

عَرِّجْ عَلٰى طِيْبَةٍ وَٱنْزِلْ مَعَانِيْهَا   وَسَائِلِ ٱلنَّاسَ شَاكِيْهَا وَبَاكِيْهَا

لَعَلَّ يَلْقَاكَ فِيْهَا مَنْ يُجِيْبُكَ عَنْ   تِلْكَ ٱلشُّجُوْنِ ٱلَّتِيْ عَمَّتْ أَهَالِيْهَا

---

(١) إنّ انفجاع سيدة نساء العالمين سيدتنا فاطمة الزهراء على أبيها وعليها وعلى آلهما الصلاة والسلام كان على قدر حبّه النبوي لكمالاتها وطهرها وقداستها فكلاهما كان عظيماً والذي أزاد « السيدة » فجعةً وأبعد عن قلبها الطاهر مواطن التعزية هو خروج الخلافة من بيتها وحرمان زوجها منها مع أنّها كانت تحسب أنّها حقٌّ موروثٌ شرعيٌّ لسيدنا عليّ لا خلاف عليه ولا جدال فيه . ونحن نمسك القلم عمّا روى الرواة وكتب الكتاب وسطر المؤرخون عن مسعى سيدتنا فاطمة الزهراء لإرجاع الخلافة إلى زوجها وما لقيت في سبيل ذلك من الذلّ لأنّ ذكر بعضه لا كلّه مما يؤلم القلوب ويجرح العواطف وحسبنا أن نحيل القارىء الكريم إلى كتب التاريخ ليستخلص منها ما أغضينا عن ذكره ونحن آسفون . وكل ما نقوله هنا أنّ سيدتنا فاطمة عليها السلام كانت تخرج إلى الأنصار مستخفية تحت جنح الظلام تستنصرهم لزوجها عليه السلام فكانوا يقولون لولا أننا =

= بايعنا أبا بكر لما تأخرنا عن بيعة علي ولكن سبق السيف العزل ومما لا جدال فيه أنّ المسألة لم تكن سبق بالبيعة ومسابقة إلى الخلافة ولكن تفرّق في كلمة الجماعة رجحت معها الفيئة التي كان يجانبها عمر بن الخطاب المعروف بشدّته وهيبته فقد قبض بيده الحديدية على زمام الحالة واشتدَّ على المهاجرين والأنصار فجمع كلمتهم راضين مكرهين على بيعة أبي بكر وهكذا تمَّ الفوز له .

أمّا سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فأثرت على صحتها الشريفة وفاة أبيها عليهما الصلاة والسلام أولاً وضياع الخلافة من يد زوجها ثانياً والشدّة التي لقيتها من عمر بن الخطاب ثالثاً ولم يكن لها ما يسليها ويعزّيها وما زالت أليفة حزنٍ وكربٍ وهمٍّ وغمٍّ حتى تسلطت الأمراض على جسدها الطاهر فماتت بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بستين يوماً وقيل سبعين يوماً وقيل ستة أشهر والإجماع على أنّها ماتت وهي غاضبة غير راضية على ما جرى . وروى بعضهم أنَّ أبا بكر اجتهد كثيراً ليسترضيها فما رضيت وماتت وهي معلنة بأنّ حقوق زوجها عليهما الصلاة والسلام قد غُصبت ونُهبت .

وعندما استأثرت رحمة الله بنفسها الطاهرة على صدر سيدنا علي زوجها أسرع بتجهيزها ودفنها في حجرتها في بيتها المناوح لبيت رسول الله في جوار المسجد النبوي الآن وقد سبق لنا وصف تربتها الشريفة في حاشية سابقة . وبعد أن تمَّ دفنها وقف علي عليه السلام على قبرها الطاهر وقال : « السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك . والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري . ورقَّ عنها تجلدي . إلّا أنَّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك . وفادح مصيبتك . موضع تعزٍّ . فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . فلقد استرجعت الوديعة . وأخذت الرهينة . أمّا حزني فسرمد . وأمّا ليلي فمسهد . إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمّتك على هضمها . فأحفها السؤال . واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد . ولم يخلق منك الذكر . والسلام عليكما . سلام مودّعٍ لا قالٍ ولا سئمٍ . فإن انصرف فلا عن ملالة . وإن أقم فليس عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين » اهـ .

وكان للمرتضى صلى الله عليه وآله وسلم في موت فاطمة ما يزيد زهده في الدنيا وما فيها فسار إلى أبي بكر وبايعه وانحلّت المشكلة التي كانت تقلق الخواطر في ذلك الحين .

وَكُـلُّ خِـلٍّ يُسِـرُّ ٱلْكَرْبَ يَنْفُثُـهُ   لِصَحْبِـهِ وَبِـهِ هَمْسَـاً يُنَـاجِيْهَـا
أَصِخْ لَعَلَّكَ تَدْرِيْ مَا يُضَعْضِعُ سُكَّـ   ـانَ ٱلْمَـدِيْنَـةِ مَكِّيْهَـا وَطِيْبِيْـهَـا
أَوْ عَـلَّ صُفْرَةَ هَـاتِيْكَ ٱلْـوُجُوْهِ بِهَـا   غِنَىً عَنِ ٱلْقَـوْلِ أَنْ تُبْدِيْـهِ مِنْ فِيْهَا
نَعَمْ لَقَـدْ جَزِعَتْ مِنْ مُحْنَـةٍ دَهَمَتْ   بِـإِثْـرِ أُخْـرَى فَـأَنْسَتْهَـا تَهَنِّيْهَـا
فِيْ أَمْسِهَـا رُزِئَتْ رِزْءاً بِـهَـادِيْهَـا   وَٱلْيَـوْمَ إِبْنَـتُـهُ ٱلْأَقْـدَارُ تَنْعِيْـهَـا
وَهَـالَهَـا أَنَّ بِنْتَ ٱلْمُصْـطَفَى ذَهَبَتْ   غَضْبَى إِلَيْـهِ فَتَشْكُـوْ وَهْـوَ مُشْكِيْهَـا
وَمَنْ بِحَقِّـكَ لَا يَعْنَى بِـفَـاطِمَـةٍ   وَمَنْ بِكُـلِّ عَـزِيْـزٍ لَيْسَ يَفْـدِيْهَـا
وَكَيْفَ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمَتْ   بِـأَنَّ لِلْمَوْتِ كَـانَ ٱلْحُـزْنُ حَـادِيْهَـا
وَأَنَّهَـا لَقَضَتْ عَـنْ لَـوْعَـةٍ وَأَسَىً   قَـدْ أَوْهِيَاهَـا فَمَـا أَجْـدَى تَـدَاوِيْهَـا
وَأَنَّهَـا ٱحْتَـرَقَتْ فِيْ نَـارِ زَفْـرَتِهَـا   وَلَمْ يَكُنْ دَمْعُهَـا ٱلْهَـامِيْ مُـطَفِّيْهَـا
وَأَنَّهَـا غَـرِقَتْ فِيْ سَيْـلِ أَدْمُعِهَـا   وَمَـا ٱلـزَّفِيْـرُ مِنَ ٱلتَّغْـرِيْقِ مُنْجِيْهَـا
وَأَنَّهَـا قَدْ غَـدَتْ فِيْ قُرْبِ وَالِـدِهَـا   تَـأْوِيْ ٱلْجِنَانَ ٱلَّتِيْ ٱلْأَبْـرَارُ تَـأْوِيْهَـا
أَجَـلْ فَبِنْتُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ مَـا صَبَرَتْ   عَلَى ٱللَّيَـالِيْ ٱلَّتِيْ أَدْجَتْ دَيَـاجِيْهَـا
وَمَــا ٱسْتَـطَاعَ عَلِيٌّ مَـعْ بَـلَاغَتِـهِ   بِسَــرْدِ آيِ ٱلتَّـأَسِّيْ أَنْ يُؤَسِّيْهَـا
وَلَمْ تَـزَلْ كَارِثَـاتُ ٱلـدَّهْـرِ تُنْحِلُهَـا   وَلِلْمَنِيَّـةِ بِـٱلْإِسْـرَاعِ تُمْشِيْـهَـا
حَتَّى قَضَى ٱللَّهُ أَنْ تَقْضِيْ بِكَـرْبَتِهَا   حَزِيْنَةَ ٱلنَّفْسِ كَـانَ ٱلْيَأْسُ غَـاشِيْهَا
بِـذِمَـةِ ٱللَّهِ ذَاتِ ٱلـطُّهْـرِ فَـاطِمَـةً   وَٱللَّهُ فِيْ رَحَبَـاتِ ٱلْخُلْدِ مُثْـوِيْهَـا
لَئِنْ قَضَتْ وَهْيَ يَـا لِلَّـهِ سَـاخِـطَةٌ   فَٱلْمُصْطَفَى فِيْ ٱلسَّمَا ٱلْعَلْيَا يُرَاضِيْهَا
وَإِنْ تَكُنْ حَرِمَتْ فِيْ ٱلْأَرْضِ تَسْلِيَةً   فَفِيْ ٱلْجِنَـانِ تُـلَاقِيْ مَـا يُسَلِّيْهَـا
لَكِنَّهَـا تَـرَكَتْ مِنْ بَعْـدِهَـا ٱلْحَسَنَيْـ   ـنِ يَبْكِيَـانِ عَلَى وَافِـيْ تَحَنِّيْهَـا

وَغَـادَرَتْ بَعْلَهَـا يَبْكِي لِفُـرْقَتِهَـا أَمْنَـاً وَيُمْنَاً وَتَـوْجِيْهَاً وَتَـرْفِيْهَـا

وَخَطْبُهَا ضَاعَفَ ٱلْحُزْنَ ٱلْمُبَرِّحَ فِيْ نَفْسِ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِيْ مَا ٱنْفَكَّ يَرْثِيْهَا

وَبَعْـدَ مَا أُوْدِعَتْ فِيْ وَسْطِ حُفْـرَتِهَا لِـرَحْمَـةِ ٱللَّهِ وَٱلْإِجْـلَالُ غَـاشِيْهَـا

تَطَلَّعَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِطْلَاعَ ذِيْ لَهَفٍ إِلَى ٱلتِّـرَابِ ٱلَّـذِيْ أَمْسَى مُغَـطِّيْهَـا

ثُمَّ إِلَى تُـرْبَـةِ ٱلْهَـادِيْ تَـوَجَّـهَ فِيْ أَلِيْمِ أَحْـزَانِـهِ مَـا ٱسْـطَاعَ يُخْفِيْهَـا

وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ ٱلْهَادِيْ عَلَيْـكَ سَلَا مِيْ مَـعْ سَلَامِ ٱلَّتِي تَهْـوَى تَلَاقِيْهَـا

هٰـذِيْ ٱلَّتِيْ لَحِقَتْ عُلْيَاكَ مُسْـرِعَـةً وَفِيْ جِـوَارِكَ حَلَّتْ كَيْ تُؤَاسِـيْهَـا

قَلَّ ٱصْطِبَـارِيَ قِلاًّ عَنْ صَفِيَّتِـكَ ٱلْـــزَّهْرَا وَنَفْسِيَ هٰذَا ٱلْخَطْبُ مُوْهِيْهَـا

لٰكِنْ بِفُـرْقَتِكَ ٱلْعُـظْمَى وَجَدْتُ لِنَفْـــسِي فِيْ ٱلْمُصِيْبَـةِ هٰذِيْ مَـا يُسَلِّيْهَا

مَا بَيْنَ نَحْرِيْ وَصَدْرِيْ إِنَّ نَفْسَكَ قَدْ فَـاضَتْ وَلَبَّتْ نِـدَا رَبٍّ يُنَـادِيْهَـا

وَفِيْ حَفِيْـرَتِـكَ ٱلْعَلْيَـا دَفَنْتُـكَ مَحْـــزُوْنَـاً وَلَـوْعَـةُ نَفْسِيْ أَنْتَ تَـدْرِيْهَـا

لِلَّهِ نَحْنُ وَنَحْـنُ ٱلـرَّاجِعُـوْنَ إِلَيْـــهِ رَجْعَـةً لَيْسَ مِنَّا مَنْ يُعَـاصِيْهَـا

إِنَّ ٱلْـوَدِيْعَةَ مِنِّي ٱلْيَـوْمَ قَـدْ أُخِـذَتْ وَٱسْتُرْجِعَتْ لَمْ تَكُ ٱلْأَقْدَارُ تُرْجِيْهَـا

وَإِنَّ حُـــزْنِيَ بَـاقٍ سَـرْمَــداً أَبَــدَاً بِـهِ طِوَالُ ٱللَّيَـالِيْ أُضْـتُ أُحْيِيْهَـا

حَتَّى يَخَـارُ لِيَ ٱللَّهُ ٱلـرَّحِيْمُ دِيَـا رَاً أَنْتَ يَـا خَيْـرَ خَلْقِ ٱللَّهِ تَثْـوِيْهَـا

وَإِنَّ إِبْنَتَـكَ ٱلـزَّهْـرَاءَ تُخْبِـرُكَ ٱلْأَ م خْبَـارَ عَنْ حَالِنَـا ٱلسُّوْءَى وَتَـرْوِيْهَـا

وَسَـوْفَ تَعْلَمُ مِنْهَـا أَنَّ أُمَّتَـكَ ٱلْـــعَـرْبَا عَلَى هَضْمِهَـا أَمْسَى تَجَمِّيْهَا

فَـأَحْفِهَـا كَـرَمَـاً مِنْـكَ ٱلسُّؤَالَ وَكُنْ مُسْتَخْبِـرَاً حَـالَنَـا مِنْهَـا فَنَحْكِيْهَـا

هٰـذَا وَلَمْ يَطُلِ ٱلْعَهْـدُ ٱلْمَجِيْدُ بِنَـا عَهْـدُ ٱلنُّبُـوَّةِ فِيْ سَـامِيْ تَجَلِّيْهَـا

وَٱلـذِّكْرُ مِنْكَ ٱلَّـذِي يَحْلُوْ تَـذَكُّرُهُ مَـا أَخْلَقَتْـهُ ٱللَّيَـالِيْ فِيْ تَتَـالِيْهَـا

ثُمَّ سَــلَامٌ عَلَى رُوْحَيْكُـمَــا عَـطِرٌ　أَتْلُوْهُ مَـا فِيْ ٱلسَّمَـا لَالَتْ دَرَارِيْهَــا

سَــلَامُ غَـيْــرِ بَغِـيْضٍ لَا وَلَا سَئِمٍ　مُـوَدِّعٍ زَهِـدَ ٱلــدُّنْيَـا وَمَــا فِيْهَــا

إِنِ ٱنْصَـرَفْتُ فَلَيْسَ ٱلْإِنْصِرَافُ مَـلًا　لَا وَٱلْمَـلَالَـةُ مِثْلِيْ لَا يُــدَانِيْـهَــا

وَإِنْ أَقَمْتُ فَمَا عَنْ سُوْءِ ظَنِّيَ بِـٱللَّـــهِ ٱلْمُعَــزِّيْ ٱلْحَزَانَى　فِيْ تَعَازِيْهَا

وَلَا بِمَـا وَعَـدَ ٱللَّهُ ٱلْأُلَـى صَبَــرُوْا　عَلَى ٱلْمَصَـائِبِ دَاهِيْهَـا وَقَــاسِيْهَـا

بِــذَا لَقَـدْ وَدَّعَ ٱلْمَحْــزُوْنُ حَيْـدَرَةٌ　بِنْتَ ٱلـرَّسُـوْلِ ٱلَّتِيْ يَبْكِيْ تَنَائِيْهَـا

وَٱلْـحُــزْنُ أَشْــغَــلَهُ أَهَــمَّ سِــوَا　هُ مِنْ مَـطَامِـعِ دُنْيَـا خَـابَ رَاجِيْهَـا

أمير المؤمنين وخلافة عمر

مَـا طَـالَ عَهْـدُ أَبِيْ بَكْـرٍ بِـأُمْـرَتِـهِ　وَلَا خِـلَافَتُـهُ ٱمْتَـدَّتْ لَيَـالِيْهَــا(١)

وَإِذْ أَحَــسَّ بِــأَنَّ ٱلْمَـوْتَ مُعجِلُهُ　وَأَنَّ سَــاعَـاتِـهِ تَخْـدِيْ ثَــوَانِيْهَــا

---

(١) إنّ المؤرخ المدقّق بسير الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر يجد بكل صراحة أنّ عمراً بن الخطاب كان مستشار أبي بكر الأكبر في كـلّ صغيرةٍ وكبيـرةٍ فلا عجب إذا عهـد إليه أبـو بكر بـالخلافـة عندمـا حضرتـه الوفـاة وهذا الـذي كانت تنتـظره صحـابـة رسول الله على ما سترى في قصة هذا العهد على أننا نستطيع أن نقول أنّ عهد أبي بكر لعمر قد صار سابقة ارتكن عليها المسلمون في الخلافـة على نحو مـا فعل بنـو أمية في الشام والعباسيون في العراق والفاطميون في المغرب ومصر وليس لي أن أتوسع في هذا الموضوع البادي الخطر ولكن هـل يتسامـح معي قرّاء علويتي المبـاركة فـأسأل عمّـا أنا مشتبه به فأقول : هل عهد أبو بكر لعمر بالخلافة لأنّه وجده الأكفـأ لها ؟ أو أنّـه رأى في ترك الخلافة لاجتهاد الصحابة خطر شقاق أحبَّ أن يتلافاه ؟ الله أعلم .

لما عرف أبو بكر أنّ الموت نازل به لا محالة استدعى إليـه عثمان بن عفـان وكان يستكتبـه غالبـاً وقال لـه اكتب « بسم الله الرحمن الـرحيم هذا مـا عهد أبـو بكـر بن أبي قحافة عثمان أمّا بعد » ولم ينته أبو بكر إلى هذه الكلمة حتى أغمي عليه فأسـرع عثمان من عند نفسه وكتب أبو بكر مغمى عليه « فإنّي قـد استخلفت عليكم عمر بن الخـطاب =

= لم آلكم خيراً» وأخذ بعد ذلك يرقب أبا بكر إلى أن أفاق فقال إقرأ عليَّ ما كتبت فقرأ ما كتبه حتى الذي كان من عند نفسه فكبَّر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن متُّ في غيبتي . قال نعم . قال جزاك الله عن الإسلام وأهله خيراً . ولي هنا أن أسأل هل كان عثمان مجتهداً فكتب اسم عمر في العهد وأبو بكر في غشيته أم كان مضطلعاً على سرّ هذا العهد ؟ . ثمَّ إنّ أبا بكر أتمَّ إملاء العهد فكانت صورته هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة عثمان ، أمّا بعد فإنّي قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً . حيث أجلت رأيي . وأعملت فكري . فرأيت أنّ هذا الأمر لا يصلح آخره . إلاّ بما يصلح به أوله . ولا يحتمله إلاّ أفضل العرب مقدرةً . وأملكهم لنفسه . وأشدَّهم في حال الشدّة . وأسلسهم في حال اللين . وأعلمهم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه . ولا يحزن لما لم ينزل به . ولا يستحي من التعلم . ولا يتحير عند البديهة . قويّ على الأمور . ولا يجوز بشيء منها حدَّهً وعدواناً ولا تقصيراً . يرصد لما هو آتٍ عتاده من الحذر » اهـ .

وبعد أن تمّت كتابة العهد استدعى أبو بكر عمراً فلما مثل بين يديه قال له : «« إنّي قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فأوصيك بتقوى الله » ثمَّ قال : « يا عمر إنّ لله حقاً بالليل ولا يقبله في النهار . وحقاً في النهار لا يقبله في الليل . وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة . ألم ترَ يا عمر إنّما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثقله عليهم . وحقٌّ لميزان لا يوضع فيه غداً إلاّ حقٌّ أن يكون ثقيلاً . ألم ترَ يا عمر إنّما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفَّته عليهم . وحقٌّ لميزان أن لا يوضع فيه إلاّ باطل أن يكون خفيفاً . ألم ترَ يا عمر إنّما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة . وآية الشدّة مع آية الرخاء ؟ . ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له . ولا يرهب رهبةً يلقي فيها بيديه . ألم ترَ يا عمر إنّما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إنّي لا أرجو أن أكون منهم . وانه كر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنّه تجاوز لهم عمّا كان من سيء . فإذا ذكرتهم قلت : أين عملي من أعمالهم ؟ . فإن حفظت وصيتي فلا يكوننَّ غائب أحبَّ إليك من حاضر من الموت ولستَ بمعجزه » اهـ .

وبعد أن أوصى أبو بكر عمراً بما تقدم أرسل عهده مع غلامٍ له يحرسه عمر=

ثُمَّ دَعَا عُمَراً أَسْدَى نَصِيْحَتَهُ إِلَيْهِ قَالَ : آلرَّعَايَا كُنْ مُدَارِيْهَا

= ليقرأه على الناس فخرج عمر بالغلام ومعه العهد فجمع المسلمين حيال بيت أبي بكر وقرأ الغلام العهد بينما كان يقول لهم عمر انصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فإنّه لم يألكم نصحاً . فلما انتهت تلاوة العهد قال الناس سمعنا وأطعنا فلما سمع أبو بكر وهو على فراشه صياح الناس بقولهم سمعنا وأطعنا تحامل على نفسه وأخرج رأسه من شرفة بيته وقال « أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإنّي لم أستخلف عليكم ذا قرابة . وإنّي قد استخلفت عليكم عمراً . فاسمعوا له وأطيعوا . فإنّي والله ما آلوت من جهد الرأي » فأجابوه سمعنا وأطعنا .

أمّا أكابر الصحابة فما راق لهم استخلاف عمر فسار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال له : انّ عمراً لذو غلظة وقد استخلفته علينا فقال أبو بكر : ذاك لأنَّه يراني رقيقاً ، ولو قد أفضي الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرضى عنه ، وإذا ألنت له أراني الشدَّة عليه فخرج ابن عوف والله يعلم ما في نفسه . فدخل طلحة على أبي بكر وقال : ما أنت قائل لربّك غداً يا أبا بكر وقد ولَّيت علينا فظّاً غليظاً تفرق منه النفوس وتنفضُّ عنه القلوب ؟ فقال أبو بكر أسندوني وكان مستلقياً على ظهره فأسندوه فجلس وقال لطلحة : أبالله تخوِّفني ؟ وإذا قال لي الله لك قلت ولَّيت عليهم خير أهلك . فخرج طلحة وفي نفسه ما لا يعلمه إلاّ الله أمّا سيدنا علي عليه السلام فإنّه لم يدخل في هذا الأمر ولم يكن له فيه رأي .

وبعد وفاة أبي بكر دفنه عمر بجوار رسول الله وجعل رأسه عند منكبيه صلى الله عليه وآله وسلم وخرج بعد ذلك إلى المسجد فخطب في الناس وأخذ بيعتهم فلم يتخلف الناس عنها وبالبداهة فيهم الراضون وفيهم المتظاهرون بالرضاء وهم كارهون وكان في جملة المبايعين سيدنا عليّ عليه السلام ولم يعدُ سمع عمر ما كان يتهامس به بعضهم عن عهد أبي بكر له فتجاهله .

ثمَّ إنّ الناس صاروا يسمون عمراً خليفة خليفة رسول الله لأنَّ أبا بكر كانوا يسمونه خليفة رسول الله وكأنّهم اعتبروا عمراً خليفة أبي بكر . ثمَّ إنّهم استثقلوا هذه التسمية فسمّوا عمراً « أمير المؤمنين » فكان أول من لقّب بهذا اللقب .

أمّا رأي سيدنا علي عليه السلام باستخلاف أبي بكر لعمر فقد أبانه بإحدى خطبه إذ =

وَبَعْدَ ذَا سَارَ عَبْدٌ بِٱلْوَصِيَّةِ كَيْ   يُذِيْعَهَا قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مُوَصِّيْهَا
وَسَارَ مَعْهُ أَبُوْ حَفْصٍ لِيَجْمَعَ أَنْـ   ـصَارَ ٱلنُّبُوَّةِ جَمْعَاً مَعْ صَحَابِيْهَا
حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِيْ قُرْبِ دَارِ أَبِيْ   بَكْرٍ وَلَمْ تَدْرِ مَا دَاعِيْ تَنَادِيْهَا
نَادَى بِهَا عُمَرٌ: إِنَّ ٱلْخَلِيْفَةَ قَدْ   أَوْصَى وَصِيَّتَهُ صَغْيَاً لِقَارِيْهَا
وَرَاحَ عَبْدُ أَبِيْ بَكْرٍ يُذِيْعُ عَلَى ٱلنَّاسِ ٱلْوَصِيَّةَ فِيْ أَجْلَى مَعَانِيْهَا

= قال :

« حتى مضى الأوَّل لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده ، فيا عجباً بين هو يستقيلها في حياته ، إذ عقدها الآخر بعد وفاته ، لشدَّ ما تشطَّرا ضرعيها ، فصيرها في حوزةٍ خشناءَ يغلظ كلمها ، ويخشن مسُّها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة ، ان أشنق لها خرم . وإن أسلس لها تقحَّم . فمني الناس لعمر الله بخيطٍ وشماس . وتلوُّنٍ واعتراض . فصبرتُ على طول المدَّة وشدة المحنة » اهـ .

وأشار المرتضى بقوله هذا إلى ما كان يقوله أبو بكر في حياته مراراً وتكراراً « أقيلوني منها » وهو يعجب كيف كان يطلب في حياته الاستقالة من الخلافة ثمَّ يعهد بها إلى غيره على عهدته بعد مماته أيم الله إنَّ في ذلك لعجباً .

على أنّ مولانا العلي عليه السلام لهو أسمى وأعلى قدراً وهمة أن يبخس الناس أشياءَهم وإذا كان يرى حقّه قد غصب أولاً وثانياً وثالثاً فإنّ ذلك لم يمنعه عن أن يقول في عمر بن الخطاب وعهده كلمة حق فقال : « لله بلاد فلان (وأجمع مفسّرو نهج البلاغة على أنَّ فلاناً هذا هو عمر بن الخطاب كما أنَّ في المقال ما يشير إليه) فقد قوَّم الأود ، وداوى العمد ، وأقام السنّة ، وخلَّف الفتنة ،ذهب نقيَّ الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، (ويريد الخلافة) وسبق شرَّها ، أدَّى إلى الله طاعته ، واتَّقاه بحقه ، رحل وتركهم (أي المسلمين) في طرق متشعبة ، لا يهتدي بها الضال ، ولا يستعين المهتدي » اهـ ولعمر الحق قد أنصف أمير المؤمنين عمراً في حكمه ولم يأخذ عليه إلاّ تركه الناس من بعده على ما تركهم عليه مما كثرت منه الشكوى وعمّت فيه البلوى على ما سترى .

فَصَاحَتِ آلنَّاسِ سَمْعَاً لِلْخَلِيْفَةِ صَيْـــحَةً دَوَى فِيْ آلْقَضَا إِذْ ذَاكَ دَاوِيْهَا

ثُمَّ آلْخَلِيْفَـةُ مِنْ مِنْفَـاذِ غُـرْفَتِـهِ قَدْ شَارَفَ آلنَّـاسَ يَبْغِيْ أَنْ يُفَاهِيْهَا

وَقَـالَ : هَلاَّ رَضِيْتُمْ مَنْ عَهِـدْتُ لَهُ وَلَيْسَ مِنِّـيْ أَخَـا قُـرْبَى أُرَاعِيْهَـا

عَهِـدْتُ فِيْكُمُ مِنْ بَعْـدِيْ إِلَى عُمَـرٍ بِـذِيْ آلْخِـلاَفَـةِ هَـلْ بِتُّمْ مُـطِيْعِيْهَا

قَـالُوْا : نَعَمْ فَـآنْثَنَى عَنْهُمْ لِفَـرْشَتِـهِ مُعَـالِجَاً سَكَـرَاتِ آلْمَوْتِ غَـاشِيْهَا

فَجَـاءَهُ إِبْنُ عَـوْفٍ قَـائِلاً: عُمَـرُ ذُوْ غُلْظَةٍ فَهْوَ قَاسِيْ آلنَّفْسِ جَـافِيْهَا

فَكَيْفَ وَلَّيْتَـهُ أَمْـرَ آلـرَّاعِيَّـةِ نَـا دِى: لاَ تَخِفْهَـا وَلاَ تَرْهَبْ تَمَـادِيْهَا

قَـدْ كَانَ يَغْلُظُ إِنْ أَبْـدِيْ آللُّيُوْنَـةَ أَوْ يَلِيْنُ إِنْ غُـلْظَةٌ لِلنَّـاسِ أَبْـدِيْـهَـا

فَسَـارَ مُقْتَنِعَـاً أَوْ غَيْـرَ مُـقْتَنِـعٍ بِحَـالَـةٍ لَيْسَ غَيْـرُ اللَّهِ يَـدْرِيْهَـا

فَجَـاءَهُ طَلْحَـةُ وَآلنَّـارُ تَقْـدَحُ مِنْ عَيْنَيْـهِ مَا كَـانَ غَيْـرُ آلْحُقْـدِ مُلْظِيْهَـا

وَقَـالَ : مَـا أَنْتَ عِنْـدَ آللَّهِ مُعْتَـذِرٌ بِـهِ غَـدَاً إِنْ جِنَـانُ آلْخُلْدِ تَـأْتِيْهَـا

وَقَـدْ تَـرَكْتَ لَنَـا فَـظَّاً فَـأَنْفُسُنَـا تَخْشَـاهُ فَآشْفُقْ عَلَيْهَـا مِنْ مُخَشِّيْهَـا

إِنَّ آلْقُلُوْبَ لَفِيْ قَـاسِيْ غِـلاَظَتِـهِ لاَ بُـدَّ تَنْقَضُّ عَنْـهُ وَآلْقِـلاَ فِيْهَـا

فَقَـالَ: وَيْلُكَ هَـلْ بِـآللَّهِ تُـرْهِبُنِيْ وَفَعْلَتِيْ هَـلْ عَلَيَّ آلْيَـوْمَ تَنْعِيْـهَـا

فَـإِنْ يَقُـلْ خَـالِقِي مَـا أَنْتَ قَـائِلُهُ أَقُـلْ عَـلَىٰ أُمَّتِـيْ وَلَّيْتُ ذَاكِيْـهَـا

فَسَـارَ هٰذَا وَمَنْ يَـدْرِيْ خَبِيْثَـةَ صَـدْ رِهِ آلَّتِيْ كَـانَ عَنْ كُـرْهٍ مُخَبِّيْـهَـا

كَـذَا آلْخِلاَفَـةُ بَاتَتْ فِيْ يَـدَيْ عُمَـرٍ مِنْ قَبْـلُ أَنْ يَتَـوَفَّى آللَّهُ رَاعِيْـهَـا

وَبَعْـدَ مَـوْتِ أَبِيْ بَكْـرٍ وَلَحْـدَتِـهِ بِقُـرْبِ طَهَ آلَّتِي قَـدْ كَانَ مُـوْصِيْهَـا

تَسَـابَقَتْ أُمَّةُ آلْهَـادِي لِمَسْجِـدِهِ إِطَـاعَـةً لِأَبِيْ حَفْصٍ مُـنَـادِيْهَـا

هُنَـاكَ قَـامَ خَـطِيبَاً بَيْنَهَـا فَـدَعَـا هَـا أَنْ تُـطِيْعَ فَمَـا أَبْـدَتْ تَعَصِّيْهَـا

وَنَـالَ بَيْعَتَهَا طُـرّاً وَلَمْ يَـكُ مَـوْ   لاَنَـا آلْعَلِيُّ لِـذَاكَ آلْعَهْـدِ آبِيْهَـا
لٰكِنَّمَـا هَمَسَتْ نُـقَّـادُ عَهْـدِ أَبِيْ   بَكْـرٍ بِـآذَانِ مَنْ كَـانَتْ تُنَـاجِيْهَـا
وَسَارَ فِيْ آلنَّاسِ قَوْلٌ لاَ جَوَابَ لَـهُ   هَـلِ آلْخِلاَفَـةُ إِرْثٌ كَيْ يُلَجّيْهَـا
وَكَـانَ يُـدْعَى أَبُـوْ بَكْـرٍ خَلِيْفَـةَ طَـــهَ فِيْ خِـلاَفَتِهِ مِنْ كُـلِّ أَهْلِيْهَـا
وَإِذْ قَـضَى وَتَـوَلَّـى بَـعْـدَهُ عُـمَـرٌ   قَدْ حَارَتِ آلنَّـاسُ فِيْ تَلْقِيْبِ وَالِيْهَا
ثَـنَّتْ بِـتَلْقِيْبِـهِ لَـفْظَ آلْخَلِيْفَـةِ لٰـــكِنْ ثِنْيَـةُ آللَّفْظِ مَا طَـابَتْ لِوَاعِيْهَـا
فَـآسْتَحْسَنَتْ بَعْـدَهَـا تَلْقِيْبَهُ بِـأَمِيْـــرِ آلْمُؤْمِنِيْنَ بِـهِ يَـدْعُـوْهُ دَاعِيْهَـا
فَكَـانَ أَوَّلَ مَـدْعُـوٍّ بِـهِ وَغَـدَتْ   مِنْ بَعْـدِهِ آلْخُلَفَـا يَتْلُوْ أَسَـامِيْهَـا
وَرَأْيُ حَيْـدَرَةٍ فِيْ ذِيْ آلْخِـلاَفَـةِ يُلْـــقِيْـهِ بِخُـطْبَتِـهِ آلْغَـرَّاءَ قَـارِيْهَـا
فَقَـالَ : إِنَّ أَبَـا بَكْـرٍ قُبَيْـلَ وَفَـا   تِـهِ إِلَى عُمَـرٍ قَـدْ رَاحَ مُـوْلِيْهَـا
فَـآعْجَبْ لَهُ وَهْوَ حَيٌّ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ   يُقَـالَ مِنْهَـا وَيَشْكُـوْ مِنْ تَـوَلِّيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَـا قَضَى أَمْسَى مُـوَرِّثَهَـا   لِآخَـرٍ بَـعْـدَهُ يَـهْـوَى تَـذَرِّيْـهَـا
لَشَدَّ مَا آقْتَسَمَـا دُوْنَ آلصَّحَابَـةِ ضَرْ   عَيْهَـا وَقَـدْ رَوِيَـا مِنْ دَرِّ أَثْـدِيْهَـا
وَبَعْـدُ صَيَّـرَهَـا فِيْ حَـوْزَةٍ خَشُنَتْ   جُـرُوْحُهَا غَلُظَتْ قَـدْ خَـابَ آسِيْهَـا
مِنْهَـا لَيَكْثُـرُ قَـوْلُ آلْإِعْتِـذَارِ وَيَكْـــثُرُ آلْعِثَارُ كَمَـا يَخْشَى آلْوَرَى فِيْهَـا
كَـالنَّاقَـةِ آلصَّعْبَةِ آلْهَـوْجَاءَ لَيْسَ أَمِيْـــنَاً مِنْ مُفَـاجَـأَةِ آلْأَخْـطَارِ مَـاطِيْهَـا
إِنْ رَامَ يُشْنِقُهَـا لاَ شَـكَّ يَخْـرِمُ أَنْـــفِهَـا وَتُؤْذِيْـهِ إِنْ أَمْسَى مُؤَاتِيْـهَـا
وَعَمْـرَكَ آللَّهَ إِنَّ آلنَّـاسَ قَـدْ مُنِيَتْ   بِهَـا فَمَـا تَـدْرِيْ كَيْفَ تُمْشِيْهَـا
فَمِنْ شِمَـاسٍ إِلَى خَبْطٍ بُعَيْـدَ تَلَوُّ   نٍ وَسُـوْءِ آعْتِـرَاضٍ فِيْ تَخَـطِّيْهَـا
وَهٰذِهِ مُحْنَتِيْ مَـعْ هَـوْلِ شِـدَّتِهَـا   وَطُـوْلِ مُـدَّتِهَـا بِـالصَّبْـرِ أُجْلِيْهَـا

ذَا قَوْلُ حَيْدَرَةٍ فِيْ أُمْرَةٍ عُمَرُ   قَدْ كَانَ آخِذَهَا مِنْ كَفِّ مُعْطِيْهَا

لٰكِنَّهُ كَانَ أَسْمَى هِمَّةً وَتُقَىً   أَنْ يَبْخَسَ ٱلنَّاسَ شَيْئاً مِنْ مَآتِيْهَا

فَقَالَ فِيْ عُمَرٍ أَيْضاً مَقَالَةَ حَـ   ـقٍّ مِثْلُهُ لَيْسَ يَرْضَى أَنْ يُوَارِيْهَا

فَقَالَ : لِلَّهِ أَرْضٌ أَنْبَتَتْ عُمَراً   فَقَدْ رَأَيْنَاهُ سُبْلَ ٱلْخَيْرِ يَأْتِيْهَا

فَإِنَّمَا ٱلْأَوَدُ ٱلْمُعْوَجُّ قَوَّمَهُ   وَكَانَ لِلْعُلَلِ ٱلشَّتَّى مُدَاوِيْهَا

وَسِنَّةُ ٱلْمُصْطَفَى حَقّاً أَقَامَ وَلٰـ   ـكِنْ خَلَّفَ ٱلْفِتْنَةَ ٱلْكُبْرَى وَمُوْرِيْهَا

وَسَارَ وَهْوَ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ غَيْرُ كَثِيْـ   ـرِ ٱلْعَيْبِ مُتَّرِكَا بَلْوَى تُعَانِيْهَا

وَكَانَ مُجْتَنِباً خَيْرَ ٱلْخِلاَفَةِ سَا   بِقاً شُرُوْراً تَعَالَى صَوْتُ شَاكِيْهَا

بِحَقِّ خَالِقِهِ قَدْ كَانَ خَائِفَهُ   وَإِنَّ طَاعَتَهُ أَمْسَى مُؤَدِّيْهَا

وَخَلَّفَ ٱلنَّاسَ لَمَّا مَاتَ فِيْ طُرُقٍ   تَشَعَّبَتْ أَتْعَبَتْ تَٱللَّهِ مَاشِيْهَا

مَا إِنْ بِهَا ٱلْمُهْتَدِيْ مُسْتَيْقِنٌ وَكَذَا   مَنْ ضَلَّ مَا زَالَ فِيْهَا يَشْتَكِيْ ٱلتِّيْهَا

بِذَا أَشَارَ عَلِيٌّ لِلْخِلاَفَةِ فِيْ   عَهْدٍ بِهِ عُمَرُ قَدْ كَانَ كَاسِيْهَا

وَكَيْفَ أَمَّنَهَا حَيّاً وَخَلَّفَهَا   مِنْ بَعْدِهِ لِصُرُوْفِ ٱلدَّهْرِ تُشْقِيْهَا

فَكَانَ مُنْصِفَهُ فِيْ حُكْمِهِ وَفِعَا   لُهُ ٱلْحِسَانُ بِخَيْرِ ٱلْمَدْحِ مُبْدِيْهَا

أمير المؤمنين في خلافة عمر

كَانَ ٱلْعَلِيُّ لِذَاكَ ٱلْعَهْدِ مُلْتَزِماً   شَرِيْعَةَ ٱلْمُصْطَفَى يُبْدِيْ خَوَافِيْهَا[1]

يُفْتِيْ بِهَا بَيْنَ أَهْلِيْهَا ٱلْأُلَى عَرَفُوْ   هُ أَوْسَعَ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلْأَحْكَامِ تَفْقِيْهَا

---

(١) من المعلوم أنّ النزاع كان شديداً بين القائلين بخلافة سيدنا علي عليه السلام وأنّها غصبت منه أولاً وثانياً وثالثاً وبين الذين لم ينكروا أنّه كان الأفضل والأخلق بها مع إجازة =

وَكَـــانَ يَقْصُـــدُهُ فِيْ كُـــلِّ مُعْضِلَةٍ   بَـــدَتْ لَـهُ عُمَـــرُ يَـدْعُـــوْهُ مُفْتِيْهَـــا

=ولاية المفضول بحضور الأفضل وإننا لا نتعرض لأقوال هؤلاء وهؤلاء على كثرتها ولكننا نقول إنّ هذين الفريقين ولك أن تسميهم أهل السنة وأهل الشيعة بحثوا طويلاً وتجادلوا ملياً في موقف سيدنا علي بإذاء الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ولكل فريق من ذينك الفريقين استنتاجات استنتجوها لتأييد رأيهم . على أنّ ما لا ريب فيه أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام كان أنبل غاية وأسمى قدراً من أن يضيع مصلحة الإسلام حبّاً بمصلحته مع أنّه على ما هو صريح من خطبه وكتبه والأقوال المأثورة أنّه كان ثابت عند القول بأنّ حقّه في الخلافة قد غُصب ونُهب . وخليق بنا معاشر العرب ونحن على أبواب نهضةٍ جديدةٍ نسأل الله أن تكون مباركة أن نتمثل بهذا الإمام الأكبر فلا ينقم صاحب حقّ وقد سلب منه على الأمّة ويعمد إلى الإضرار بها انتقاماً لحقّه المغصوب لما نعلم أنّ الأفراد تفتدي الجماعات بنفوسها ولكن لا يجوز أن تذهب الجماعات فداءً للأفراد .

وكان سيدنا علي عليه السلام في عهد أبي بكر ملازماً بيته يعنى بجمع ما تفرّق من كتاب الله وإفتاء المسلمين بما يشكل عليهم من أمور دينهم ولا يبخل على الخليفة بالنصح والإرشاد إذا استنصحه واسترشد برشده وقد فعل . وكذلك كان في عهد عمر فقد كان لا يألوه نصحاً وإرشاداً ووعظاً وتنبيهاً وكان عمر أعرف الناس بقدر أمير المؤمنين وعلمه وأحرصهم على إكرامه وتمجيده والتنويه باسمه تدلّ على ذلك القصة التالية :

حدَّث المحدثون أنّ عمراً نزلت به يوماً نازلةٌ فقام لها وقعد وترنّح لها وتفطّر وقال لمن عنده : يا معشر الحاضرين ما تقولون في هذا الأمر ؟ فقالوا يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع فغضب وقال : يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً . ثم قال : أمّا والله إنّي وإيَّاكم لنعلم أن نجدتها والخبير بها . قالوا : كأنّك أردتَ ابن أبي طالب . قال : وأنّى يُعدل بي عنه ؟ وهل طفحت حرّةٌ مثله ؟ قالوا : فلو دعوت به يا أمير المؤمنين . قال : هيهات ان هناك شمخاً من هاشمٍ وأثرةً من علمٍ ولحمةً من رسول الله يُؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه . فانصفوا نحوه وأفضوا إليه فألفوه في حائطٍ له عليه تبّان وهو يتركل على مسحاته ويقرأ أيحسب الإنسان أن يترك سدىً إلى آخر السورة وكانت دموعه تهمي على خديه فأجهش الناس لبكائه فبكوا ثمَّ سكت فسكتوا فسأله عمرُ عن تلك الواقعة فأصدر جوابها . فقال عمرُ : أمّا والله لقد أرادك الحقُّ ولكن أبى =

وَذَاتُ يَـوْمٍ أَبُوْ حَفْصٍ لَقَـدْ نَـزَلَتْ بِـهِ مُـلِمَّـةُ سُـوْءٍ رَامَ يَـتْـقِـيْـهَـا

= قومك . فقال أمير المؤمنين عليه السلام : يا أبا حفص خفض عليك من هنا ومن هنا إنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً . فوضع عمر إحدى يديه على الأخرى وأطرق إلى الأرض وخرج كأنّه ينظر في رماد . اهـ .

نقول ومن هذه الموقعة تعلم كيف كان عمر يحترم أمير المؤمنين عليه السلام ويقدر قدر فضله وعلمه وكيف كان أمير المؤمنين حاضر الذهن سديد الرأي يحلّ المشاكل التي تعرض له بالسرعة التي حلّها لعمر وهو واقف بين يديه وما هذا بكثير على سيدنا علي على ما عرف الناس من علمه وفضله .

وكان عمر على ما علم الناس شديداً سريع الغضب كثير الصخب وهذا مجمع عليه لا إختلاف فيه وكانت الصحابة والأنصار تتقيه وتخشاه إلاّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان وحده يتصدّى له ويعترضه وكيف لا يكون كذلك وهو الذي ما كان يرهب في الحق لومة لائم . وحدث في ذات يوم أنّ عمراً استدعى امرأة حاملاً لتأدية شهادة أمامه فأجهضت فرقاً من هيبته وشدّته فأمر بإخراجها من حضرته وبقي بوجلٍ من مسؤولية إجهاضها أمام الله والشريعة فاستفتى في ذلك أكابر الصحابة فقالوا لا حرج عليك في شدّتك وإنّما أنت مربٍّ . وكان في ذلك المجلس سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فغضب للشريعة غضبةً « هاشميةً » وقال : حنانيك يا عمر فإن كان أصحابك بما قالوا قد راقبوك فقد غشوك وإن كان جهد رأيهم فقد أخطئوا . والحقيقة أنّك مذنب في هذه الشدة التي سببت هذا الضرر وعليك تحرير رقبة كفّارة عن ذنبك فرجع عمر إلى حكمه وأمر بتحرير رقبة وقال : « لولا عليّ لهلك عمر » وكان عمر يكرر هذا القول في كل موطن يتصدّى له فيه سيدنا عليّ عليه السلام للمحافظة على حقوق الله كما هو مشهور .

وما كان سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام يبخل على عمر بنصائحه الرشيدة وآرائه السديدة سواء في سياسة الأمة أو في حروبه مع الروم والفرس على ما هو مشهور ومعلوم .

وقصارى القول أنّ أمير المؤمنين كان يخلص النصيحة لعمر حبّاً بمصلحة الإسلام والمسلمين وما كانت تشغله عن المصلحة العامة مصلحته الخاصة التي ضاعت فهل فينا =

وَلَمْ يَجِدْ ذَا حِجَى مِنْ صَحْبِهِ وَمُشِيْـــرِيْـهِ بِصَـائِبِ آراءٍ يُـجَـلِّيْـهَـا

=نحن معاشر العرب من ينحو نحوه ويتأثر خطواته إذا ضاعت مجهوداته وبُخس حقه في هذا العصر ؟ .

« ترجمة عمر بن الخطاب »

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزَّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في لؤي . وأمّا أمّه فهي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وكان مولده في مكة في عام ١٣ بعد الفيل فهو أصغر من رسول الله بـ١٣ سنة . وأسلم عمر بعد جماعةٍ من الناس وبعد أن كان أشدَّ الناس على المسلمين وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرّاً من عمر فدخل إليهما خباب بن الأرت يعلمهما الدين خفيةً فوشى بهم واشٍ إلى عمر فجاء دار أخته غاضباً فتوارى خباب منه داخل البيت فقال عمر : ما هذه الهينمة عندكم ؟ قالت أخته : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صبوتما . قال صهره أرأيت إن كان هو الحق ؟ فوثب عليه عمر فوطئه وطئاً شديداً فجاءت أخته فدفعته عنه فنفحها بيده فدمى وجهها ثمَّ ندم ورقَّ وجلس واجماً . فخرج إليه خبّاب فقال : أبشر يا عمر فإنّي أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لك الليلة قد استجيبت فإنّه لم يزل يدعو منذ الليلة « اللَّهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمروٍ بن هشام » قال عمر صدقت يا صاح وانطلق لساعته وهو متقلد سيفه إلى دار الأرقم بن الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفون بها ورسول الله معهم وكان وقتئذٍ على الباب حمزة وطلحة وأناسٍ من المسلمين فوجل القوم من عمر إلاّ حمزة فإنّه قال قد جاءنا عمر فإن يرد الله به خيراً يهده وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً . وكان رسول الله عندئذٍ في غرفته مختلياً يناجي ربّه فسمع كلامهم وخرج وأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه وقال « ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللَّهمَّ هذا عمر اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر » فقال عمر في الحال « أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله » ففرح المصطفى والمسلمون بإسلامه فرحاً كثيراً .

وكان عمر شديداً غليظاً بقدر ما كان غيوراً حازماً يدلك على غلظته معارضته =

= رسول الله ﷺ في صلح الحديبية وله مع المصطفى كثير مثلها ولكن المصطفى كان يتسامح معه لما يعلمه من غيرته وحسن نيته . وتعرف شدّته من معارضته رسول الله ﷺ يوم طلب اللوح والدواة ليكتب ما يؤمن الناس الضلال بعده . وقد ظهرت شدَّته على أشدها في مجتمع السقيفة حيث أراد أن يقتل سعداً وهو زعيم الأنصار على ما علمت لأنّه أبى بيعة أبي بكر ولولا أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف لقتله . وكان في عهد أبي بكر هو المتصرف بشؤون الخلافة بشدّته واعتذر عنه أبو بكر بأنّه كان يشتدُّ عند ما يرى أبا بكر يلين للناس ويلين عندما كان يشتدّ . وكان في مدة خلافته لا يجرأ أحد من زعماء الصحابة والأنصار على مواجهته ومخالفة رأيه إلّا سيدنا عليّ أمير المؤمنين ولم يذكر المؤرخون ان غيره من أكابر الصحابة والأنصار قوي على مناهضته أو جريء على مخالفة أوامره . ومن شدّته أنّه حجر عليهم جميعاً في المدينة المنورة فما كان يسمح لأحدهم بمبارحتها إلّا من كان موضع ثقته منهم فاستخدمه في حروبه أو ولّاه الحكم في بلاده ورعاياه .

وفي عهد عمر امتدَّت الفتوحات الإسلامية امتداداً عظيماً ونصر الله المسلمين على مملكتي الروم والفرس بسرعة هائلة فأصبحت دولة الخلافة واسعة السلطان عظيمة الجاه . وكان عمر قابضاً عليها بيده الحديدية يسيرها على الروح الإسلامية التي بثها محمد بن عبد الله ﷺ بوحيٍ من الله .

وكان عمر تقياً ورعاً زاهداً غير مفرّط في أحكام الشريعة إلّا أنّه كان يتوسَّع في هاتيك الأحكام على ما تقضي به مصلحة الدولة بعد أن اتّسعت ودانت لها مصر والشام واليمن والعراق وفارس أو معظمها .

وإجمال القول ان عمراً الذي كان في الجاهلية يرعى الإبل وينقل عليها متاجره إلى الشام ومصر وفارس قد برهن على اقتدار عجيب في السياسة والرئاسة والكفاءة النادرة في توسيع سلطان المسلمين إلى أبعد مدى كان ينتظر في السنوات العشر التي تربَّع بها على عرش الخلافة .

وتزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جُمح من قريشٍ فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة التي تزوجها رسول الله . وتزوج في الجاهلية أيضاً =

= مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية . وتزوج قريبة ابنة أبي أمية وفارقها . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة . وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصماً وطلقها . وتزوج أم كلثوم بنت سيدنا عليّ فولدت له زيداً ورقية ومات عنها . وتزوَّج لهيَّة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو . وخطب أم كلثوم ابنة أبي بكر التي ولدت له بعيد وفاته وهي صغيرة وأرسل فيها إلى أختها عائشة زوجة رسول الله وكانت تربيها عندها فقالت الأمر إليك ثمَّ خاطبت الفتاة أم كلثوم بذلك فقالت لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم إنّه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته بذلك فقال أكفيك عمراً وسار إليه فقال له يا أمير المؤمنين بلغني خبرٌ أعيذك بالله منه قال ما هو ؟ قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبتَ بها عني ؟ قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ولا نقدر أن نردّك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها فكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلّك على خير منها أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب تعلق بها بنسب من رسول الله فاقتنع عمر وتزوَّج بأم كلثوم . وكذلك خطب عمر أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت « يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً » .

وكان عمر مشهوراً بعدله وفضله وكمالاته شهرةً لا يختلف فيها اثنان إلّا أنّه مع ما عرف عن حزمه وسداد رأيه عجز عن ضمان راحة المسلمين من بعده كما ضمنها في حياته فترك الأمر شورى من بعده عرضةً للقضاء والقدر والباحثون المدققون في التاريخ ما زالوا في حيرةٍ من هذا الأمر أو أنّهم كانوا ولا يزالون يتحاشون الخوض فيه بحرية يتعذّر على المؤرخين الاستمساك بها من غير أن يتعرضوا إلى ما لا يحبون من الغمز واللمز وعندي على ضعف رأيي وقلة علمي أنَّ عمراً الذي طالما لحظ توسع معاوية في الشام وعجز عن استخلاصها منه كما فعل مع غيره من العمال ما فاته أنَّ هذا الداهية الأموي سينصر بعده عثماناً بن عفان وهو أمويٌّ مثله ومن عمومته تحقيقاً لمطامع أمية التي كانت لها الزعامة في قريش على عهد الجاهلية وهي تصبو إلى استعادتها في =

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَوِيْهِ رَبُّ مَشْوَرَةٍ يُزِيْحُ نَازِلَةً قَدْ رَاحَ خَاشِيْهَا
فَقَالَ: أَعْلَمُ مَعْكُمْ بِٱلْخَبِيْرِ بِهَا وَبِٱبْنِ نَجْدَيْهَا مُجْلِي دَيَاجِيْهَا
قَالُوْا : لَعَلَّ ٱلَّذِيْ تَعْنِيْهِ حَيْدَرَةً فَإِنَّ آرَاءَهُ مَا مَنْ يُخَطِّيْهَا
أَجَابَ : مَا مِثْلُهُ مِنْ حُرَّةٍ طَفَحَتْ وَمَا سِوَاهُ لَهُ ٱلْحَاجَاتُ أُسْدِيْهَا
قَالُوْا : أَلَا فَٱدْعُهُ حَالاً لِمَجْلِسِكَ ٱلْـ ـعَالِيْ وَدَعْوَتُكَ ٱلْعَلْيَا يُلَبِّيْهَا
أَجَابَ : إِنَّ هُنَا شَمْخَ ٱلْقَرَابَةِ مِنْ طَهَ وَإِثْرَةَ عِلْمٍ قَدْ تُوَازِيْهَا
يُؤْتَى وَهَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيْ وَسَاحَتُهُ أَخْلَقْ بِنَا أَنْ نُرَاعِيْهِ وَنَأْتِيْهَا
هُبُّوْا إِلَيْهِ فَهَبُّوْا وَٱلْخَلِيْفَةُ مَعْـ ـهُمْ لِلَّذِيْ فَاقَ كُلَّ ٱلنَّاسِ تَجْوِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَوْا مِنْ دَارِهِ دَخَلُوْ هَا بِٱحْتِرَامٍ لِمَنْ بِٱلْمَجْدِ يَشْوِيْهَا
أَلْفَوْهُ مُؤْتَزِراً تَبَّانَهُ وَبِخَلْـ ـوَةٍ بِهَا ٱلْعُزَّةُ ٱلْعَلْيَا يُنَاجِيْهَا
وَكَانَ يَتْلُوْ تُقىً آيَ ٱلتَّزَهُّدِ كَيْ يُرَوِّضَ ٱلنَّفْسَ تَرْوِيْضاً فَيُشْجِيْهَا
وَكَانَ يَبْكِيْ فَأَبْكَاهُمْ وَيَطَّلِبُ ٱلـ ـرِّضَى لِأُمَّتِهِ مِنْ فَضْلِ بَارِيْهَا
حَتَّى إِذَا كَفْكَفَ ٱلدَّمْعَ ٱلْهَطُوْلَ وَكَفْكَفُوْا ٱلدُّمُوْعَ ٱلَّتِيْ فَاضَتْ مَجَارِيْهَا
أَبْدَى لَهُ عُمَرٌ خَافِيْ مَشَاكِلِهِ وَقَالَ : مَا ٱلرَّأْيُ قُلْ لِيْ كَيْ أُدَارِيْهَا
فَرَاحَ يُبْدِيْ عَلِيٌّ مِنْ زَكَانَتِهِ ٱلـ ـرَّأْيَ ٱلسَّدِيْدَ لِيَجْلُوْهَا وَيَنْقِيْهَا

الإسلام نعم ما فاته هذا كما لم يفته حقّ بني هاشم في الخلافة ولا سيما زعيمهم الأعظم سيدنا أمير المؤمنين فحار في أمره ولم يجد وسيلةً للخلاص من هذا المأزق إلّا بترك الخلافة الشورى حصرها في الستة الباقين من العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم تاركاً لهم أن يدبروا أمرهم بأنفسهم وهذا كان غاية اجتهاده على أنّه لم يكن اجتهاداً صحيحاً لما حدث على أثره من الثورات والفتن على ما سنبين ذلك فيما يجيء .

فَـأَدْهَشَ آلنَّـاسُ ذَيَّـاكَ آلـذَّكَـاءُ وَلَمْ   تَجْهَلْهُ مِنْ قَبْـلُ أَنْ أَمْسَى مُفَـاهِيْهَـا
وَقَـالَ لِلْمُـرْتَضَى رَبِّ آلـذَّكَـا عُمَـرٌ   مَقَـالَـةً قَـالَ قَبْـلاً مَـا يُضَـاهِيْهَـا
أَرَادَكَ آلْـحَـقُّ لَـكِـنَّ آلْأَنَـامَ أَبَـتْ   تِلْكَ آلْإِرَادَةَ نَـادَى آلْمُـرْتَضَى إِيْهَـا
خَفِّضْ عَلَيْكَ أَبَا حَفْصٍ بِحَقِّكَ مِنْ   هُنَـا وَمِنْ هٰهُنَـا آلْأَقْـوَالُ تُلْقِيْهَـا
فَـإِنَّمَا كَـانَ يَوْمُ آلْفَصْـلِ عِنْدِيَ مِيْـ   ـقَـاتَـاً وَأَحْـوَالُـهُ أَدْرِيْ خَـوَافِيْهَـا
فَـدَقَّ كَفَّـاً بِكَفٍّ سَـاهِيَـاً عُمَـرٌ   بِنَـظْرَةٍ لِلثَّـرَى قَـدْ رَاحَ مُلْقِيْـهَـا
وَسَـارَ تَـتْبَـعُـهُ أَصْـحَـابُـهُ وَعَـلِـ   ـيٌّ عَـادَ لِلْخَلْوَةِ آلْمَحْمُـوْدُ رَاضِيْهَـا
وَتِلْكَ مَـوْقَعَـةٌ مَـا بَيْنَ حَيْـدَرَةٍ   وَبَيْنَـهُ مَـا خَلَتْ مِمَّـا يُـدَانِيْهَـا
كَـذَاكَ كَـانَ عَـلِيٌّ وَحْـدَهُ يَـتَصَـ   ـدَّى لِلْخَلِيْفَـةِ تَـذْكِيْـرَاً وَتَنْبِـيْهَـا
وَهْـوَ آلَّـذِي دَوَّنَ آلتَّـارِيْـخُ شِـدَّتَـهُ   وَقَالَ : كَانَتْ وُجُـوْهُ آلْعُرْبِ تَتْقِيْهَـا
فَكَانَتِ آلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَتَرْهَبُ صَخْـ   ـبَـةً لَـهُ كَـانَ لَا يَنْفَـكُّ سَـاخِيْهَـا
وَقَـدْ دَعَـا حَـامِـلاً يَـوْمَـاً لِحَضْـرَتِـهِ   يَبْغِيْ آلشَّهَـادَةَ مِنْهَـا كَيْ تُـؤَدِّيْهَـا
فَـأَجْهَضَتْ فَـرَقَـاً مِنْـهُ وَأَنْـزَلَتِ آلْـ   ـجَنِيْنَ خَـوْفَـاً فَنَـادَى مَنْ يُنَحِّيْهَـا
وَسَـارَ مُسْتَفْتِيَاً جَمْـعَ آلصَّحَابَـةِ فِيْ   جِنَـايَـةٍ قَـالَ عَمْـدَاً لَسْتُ جَـانِيْهَـا
فَأَجْمَعَتْ وَقَضَتْ أَنْ لَا قِصَاصَ عَلَيْـ   ـهِ إِنَّـهُ لِـرِعَـايَـاهُ مُـرَبِّـيْـهَـا
إِلَّا آلْـعَلِيُّ فَـنَـادَاهُ بِـلَا رَهَـبٍ   إِنَّ آلصَّحَـابَـةَ قَـدْ سَـاءَتْ فَتَـاوِيْهَـا
فَـإِنْ تُـرَاقِبُـكَ فِيْهَـا فَهْيُ خَـادِعَـةٌ   أَوْ كَـانَ ذَا عِلْمُهَـا إِنِّي مُخَـطِّيْهَـا
عَلَيْـكَ تَحْرِيْـرُ عَبْـدٍ كَيْ تُكَفِّـرَ عَنْ   جِنَـايَـةٍ أَنْتَ عِنْـدَ آلشَّـرْعِ آتِيْهَـا
فَلَمْ يَسَـعْ عُمَراً إِلَّا آلْخُضُـوْعُ لِأَحْـ   ـكَامِ آلشَّرِيْعَةِ نَادَى : أَنْتَ قَاضِيْهَا
وَقَـالَ لَـوْلَا عَلِيٌّ مَـا نَجَـا عُمَـرٌ   مِنَ آلْهَـلَاكِ وَأَتْلَى آلْقَـوْلَ تَـأْوِيْهَـا

نَعَمْ فَـإِنَّ عَلِيَّـاً فِيْ آلشَّـرِيْعَـةِ لاَ يَبْغِيْ سِوَى مُرْتَضَى آلرَّحْمٰنِ مُوْجِيْهَا

وَلاَ يَهَـابُ عَـظِيْمَـاً فِيْ أَوَامِـرِهَـا وَلاَ يُمَـارِيْ وَجِيْهَـاً فِيْ نَـوَاهِيْهَـا

وَكَـانَ يَعْـرِفُ قَـدْرَ آلْمُـرْتَضَى عُمَـرٌ مُنَـوِّهَـاً بِـآسْمِـهِ فِيْ آلْخَلْقِ تَنْـوِيْهَـا

وَهْـوَ آلْمُشِيْرُ عَلَيْـهِ فِيْ مُعَـالَجَـةِ آلـــ ـصِّعَابِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تُعْيِي مُشِيْـرِيْهَا

وَكَـانَ مُـتَّـبِـعَـاً آرَاءَهُ بِـحُـرُوْ بِ آلْفُرْسِ وَآلرُّوْمِ لَمَّا رَاحَ صَالِيْهَا

وَلَمْ يَكُنْ عُمَـرٌ يَـوْمَـاً لِيَنْـكُـرَ آ لاَءَ آلْعَلِيِّ آلَّتِيْ آلتَّـارِيْـخُ يُنْشِيْهَـا

أمير المؤمنين والتاريخ الهجري

وَلَمْ تَكُ آلنَّاسُ فِيْ آلْإِسْـلاَمِ ذَاكِرَةً تَـارِيْـخَ أَعْمَـالِهَـا إِمَّـا تُسَمِّيْهَـا[1]

وَلاَ رَسَـائِلُهَـا كَـانَتْ تُـؤَرَّخُ كَيْ يَـدْرِيْ لَهَـا زَمَنَ آلْإِرْسَـالِ قَـارِيْهَـا

---

(١) لم يهتم المسلمون بأمر التاريخ حتى عهد عمر بن الخطاب فكانت كتب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكتب أبي بكر وعمر نفسه كما كانت كتب عمّال الدولة الإسلامية وكتب المسلمين بعضهم لبعض غفلاً من تاريخ كتابتها ومازال الحال كذلك إلى السنة السابعة للهجرة وكان الناس إذا جرى بينهم ذكر ولادة أحدهم أو موقعة من مواقعهم جعلوا تاريخها من عام الفيل الذي هو عام مولد رسول الله أو من حرب الفجار أو من بناء الكعبة إلى مثل ذلك من الحوادث التي كانت مشهورة بينهم . وأول من انتبه إلى وجوب إيجاد تاريخ ثابت يرجعون إليه في تاريخ كتبهم ووقائعهم هو أبو موسى الأشعري عامل عمر على البصرة فإنّه كتب إلى عمر يقول « تأتينا كتبك وليس لها تاريخ نعرف منه موعد صدورها فيشتبه علينا قديمها من جديدها وناسخها من منسوخها فهلاّ اتّخذت لها تاريخاً يزيل عنّا الإشكال وتنتظم منه الأحوال ؟؟ » فلما انتهى هذا الكتاب إلى عمر انتبه لسدّ هذه الثلمة وجمع أعيان الصحابة والأنصار وعرض عليهم طلب أبو موسى وسألهم أيَّ تاريخ نتبع ؟ فقال قوم منهم ان الأولى أن نتبع تاريخ الفرس وقال آخرون بل نتبع تاريخ اليهود وقال غيرهم بل الأولى بنا أن نتبع تاريخ الفيل الذي كنا نستعمله في جاهليتنا فاعترضهم أمير المؤمنين عليه السلام وقال : « بل نتبع تاريخ هجرتنا مع =

كَذاكَ كَانَتْ تَحارِيْرُ ٱلْخَلِيْفَةِ مَا ٱلْـــعُمَّـالُ أَوَّلُهَـا تَـدْرِي وَثَـانِيْهَـا

وَقَـدْ يُحَـرِّرُ فِيْ أُخْـرَى رَسَـائِلِهِ مَـا فِيْهِ يَنْسَـخُ أُوْلاَهَـا وَيُلْغِيْهَـا

كَـانَتْ تَحَـارُ بِهَـا ٱلْعُمَّـالُ جَـاهِلَةً أَيَّ ٱلْأَوَامِـرِ يَبْغِيْهَـا لِتُجْـرِيْـهَـا

وَٱلْأَشْعَـرِيُّ بِـذَا أَفْضَى إِلَى عُمَـرٍ وَقَـالَ كُتُبُكَ تَتْـرَى حَـارَ تَـالِيْهَا

وَمَـا لَـهَـا زَمَـنٌ فِـيْـهِ تُـؤَرِّخُـهَـا كَـيْمَـا نُـلِمُّ بِبَـادِيْهَـا وَتَـالِيْهَـا

فَـذَاكَـرَ ٱلْقَـوْمَ فِيْ تَـارِيْخِـهِ عُمَـرٌ يُـرِيْدُ فَتْـوَى حَصِيْفُ ٱلرَّأْيِ يَفْتِيْهَا

فَكَـانَ مِنْهَـا ٱلَّتِيْ رَامَتْ مُتَـابَعَـةَ ٱلْأَ م عْجَـامِ قَـالَتْ بِـهِ إِنَّـا نُمَـاشِيْهَـا

وَمَنْ أَشَـارَتْ بِتَـارِيْـخِ ٱلْيَهُـوْدِ وَقَـا لَتْ نَحْنُ فِيْـهِ خَلِيْقٌ أَنْ نُجَـارِيْهَـا

= رسول الله ﷺ فإنَّه بدء مجد ديننا الحنيف » فوافق عمر والحاضرون على قوله وحسبوا السنين التي مرَّت عليهم منذ هجرتهم إلى ذلك العهد فإذا هي سبعة عشر حولاً فدعوا عامهم العام ١٧ للهجرة . ثم تباحثوا في الشهر الذي تبتدىء منه سنتهم الهجرية فقال بعضهم رمضان لأنَّه أكرم الشهور عند الله وفيه نزل القرآن وقال آخرون بل المحرم أولى أن يكون بدء السنة الهجرية إذ فيه ينصرف الناس من حجِّهم فخليق أن يحسبوه بدء سنتهم فاتَّفقوا على ذلك . ومن ذلك العهد أخذ المسلمون يؤرخون كتبهم ووقائعهم الهامة على الحساب الهجري . وكان العرب منذ جاهليتهم يتمشون على القمر ويحسبون شهورهم على سيره فتبدأ عند إهلاله وتنتهي عند تمام محاقه فظلوا كذلك بعد الإسلام إلى يوم الناس هذا .

أمَّا عام الفيل الذي كانت قريش تؤرخ منه حوادثها فقصته أن أبرهة ملك الحبشة قدم الحجاز ونزل مكة ومعه خلق كثير وكانوا يركبون الفيلة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل فأهلكتهم وهكذا بمعجزة سماوية سلَّم الله بيته من ذلك الغازي الذي كان قادماً لتهديمه وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الحادث في قرآنه الشريف . ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزَّت قريش وهابتهم الناس كلهم . وفي عام الفيل هذا ولد المصطفى ﷺ على قول أكثر المؤرخين .

وَمَنْ أَشَارَتْ بِامِ ٱلْفِيلِ قَائِلَةً قُرَيْشُ ٱتَّخَذَتْهُ قَبْلُ هَادِيْهَا
فَصَاحَ حَيْدَرَةٌ كَلَّا وَأُمَّتُنَا لَهَا ٱلْمَزَايَا ٱلَّتِي ٱلتَّارِيْخُ يُسْنِيْهَا
وَهُجْرَةُ ٱلْمُصْطَفَى مِنْهَا مَفَاخِرُنَا تَبْدَا فَحَقَّ لَنَا تَدْوِيْنُهَا فِيْهَا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ : نِعْمَ ٱلرَّأْيُ رَأْيُكَ يَا عَلِيُّ زَادَكَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ تَجْوِيْهَا
وَإِنَّهَا مِنْ حَكِيْمٍ حِكْمَةٌ بَلَغَتْ مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ عَالِيْهَا
وَسَارَتِ ٱلنَّاسُ مِنْ ذَاكَ ٱلزَّمَانِ عَلَى تَارِيْخِ هُجْرَتِهَا تُحْصِيْ مَآتِيْهَا

أمير المؤمنين في خلافة عثمان

وَبَيْنَمَا عُمَرٌ يَوْماً بِمَسْجِدِ طَـهَ لِلصَّلَاةِ وَمَا صَلَّى مُصَلِّيْهَا(١)
إِذْ خَرَّ مُلْقَىً وَمَطْعُوْنَاً بِسِتِّ جَرَا حَاتٍ يُهَدِّدُهُ بِٱلْمَوْتِ دَامِيْهَا

---

(١) بلغ ملك المسلمين من السعة ما شاء الله أن يبلغ في أقرب ما يكون من الزمن على عهد عمر بن الخطاب وذلك بفضل الله وعونه وإخلاص المسلمين في دينهم وعدلهم في فتحهم وحكمهم حتى دانت لهم الشام والحجاز وفارس وعجزت عن لقائهم دولتا الروم والفرس وجيء إلى المدينة المنورة بغلمان من الفرس كانوا سبياً فاستعبدوهم منهم فيروز الملقب بأبي لؤلؤة وكان هذا غلاماً للمغيرة بن شعبة وكان يبيح له العمل لقاء درهمين في كلّ يوم يدفعهما خراجاً له فجاء أبو لؤلؤة هذا يوماً إلى عمر وهو يطوف في أسواق المدينة وقال له أعنّي على المغيرة بن شعبة فإنّ عليّ خراجاً كثيراً قال : وكم خراجك : قال درهمان في كل يوم قال عمر : وما هي صناعتك ؟ قال نجار ونقاش وحدّاد قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال وقد بلغني عنك أنّك لو أردت لعملت رحاً تطحن بالريح قال : نعم قال : فاعمل لي رحاً قال : إن عشت لأعملن لك رحاً يتحدّث بها من في المشرق والمغرب وانصرف فقال عمر : لقد توعدني العبد .

جرى هذا الحديث بين عمر وأبي لؤلؤة قبل أربعة أيام من مقتله فما اهتمّ عمر بتهديد الغلام ولا احتاط لنفسه منه وقيل إن كعب الأحبار اليهودي جاء عمراً وأنبأه بأنّه

وَكَانَ طَاعِنَهُ مَوْلَى آلْمَغِيْرَةِ إِثْـئَاراً لأُمَّتِهِ إِذْ رَاحَ غَازِيْهَا

= سيموت بعد ثلاثة أيام على ما يترائى له في التوراة في اليوم التالي لمحادثته مع أبي لؤلؤة وأنّه كرر عليه ذلك في اليومين السابقين لمقتله وإني لأستبعد هذه الرواية لأنّ عمر على ما كان عليه من الشدّة والهيبة لأبعد من أن يتحمل من كعب الأحبار إنذاره بالموت اليوم بعد اليوم وهو لا يشكو ألماً كما أنّ أولاد عمر لأبعد من أن يتخذوا كعب الأحبار كشريك مع الذين تآمروا على عمر أو عارف بتلك المؤامرة التي أفضت إلى قتله فيقتلونه مع من قتلوا ممن اشتبهوا بهم .

وظاهر السبب الذي حمل أبا لؤلؤة الفارسي على تهديد عمر ثمَّ الفتك به هو تظلمه إليه من ثقل الخراج الذي كان يدفعه لسيده المغيرة وردّ عمر له بقوله إن ذلك الخراج ليس بكثير ولو كان أبو لؤلؤة ناقماً من تحمل ذلك الخراج حقيقةً لكان الأولى أن يقتل المغيرة الذي يتقاضاه منه لأنّه عدوّه المباشر ومستعبده لا من عمر وهو حاكم المسلمين الأكبر وإمامهم الأعظم ولا بدَّ أن يكون هنالك دافع له على الجريمة غير دافع الانتقام من سبب بسيط كهذا .

على ان قد شاع بين المسلمين بعد أن جُرح عمر ان الجريمة كانت على أثر مؤامرة إذ روى عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر بأنّه رأى جفينة والهرمزان وأبا لؤلؤة يتهامسون فلما وقعت عيونهم عليه اضطربوا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فلما روى عبد الرحمن هذه الرواية جيء له بالخنجر الذي قتل به عمر فقال هو نفس الخنجر الذي سقط من أيدي أولئك المتآمرين وأنت تعلم أنّ الثلاثة الذين ذكرهم عبد الرحمن بن أبي بكر هم من الفرس فإذا صحّت الرواية وهي صحيحة بشاهد الخنجر يكون أولئك الثلاثة قد تآمروا على قتل عمر وان المنفذ لهاتيك الجريمة كان أبو لؤلؤة فما الداعي لهذه الجريمة يا ترى ؟؟ .

إنّ المسلمين على شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر اتهموا هؤلاء الثلاثة غير انهم لم يتمهلوا لاستطلاع طلع سرّهم في جريمتهم ففي حال طعن عمر في المسجد تبع أبا لؤلؤة رجل من التيم فقتله وأخذ الخنجر من يده وبعد وفاة عمر أسرع ابنه عبيد الله إلى الهرمزان وجفنة وقتلهما وهكذا قتل الثلاثة من غير أن يسألوا عن جريمتهم والسبب الذي دفعهم إليها ولذلك بقيت سرّاً في ضمير الأيام . =

لِأَنَّـهُ فَـارِسِـيٌّ شَـامَ دَوْلَـتَـهُ   قَدْ جَاسَتِ ٱلْعُـرْبُ دَانِيْهَا وَقَـاصِيْهَا

= والذي أراه هو أنّ الاثنين من هؤلاء الثلاثة وهما أبو لؤلؤة والهرمزان مجوسيان من أهل فارس وثالثهم جفنة كـان نصرانيـاً من أهل الحيـرة أقدمـه سعد بن أبي وقـاص إلى المدينة ليعلم بها الناس الكتابة فلا يبعد أن يكـون هؤلاء الناس قـد ثارت ثـائرتهم على عمر فتآمـروا على قتله لأنّه رئيس الأمّـة العربيـة التي دوخت قومهم الفـرس وأخضعتهم لسلطانها فتكون الجريمة سياسية محضاً .

ومما يذكر عن هذه الجـريمة أنّ صهيب الـذي كان وقتئـذٍ نائب الخليفـة المؤقت قبض على عبيد الله بـن عمر قاتل الهرمزان وجفنة وسجنه لأنّ إقدامه على قتلهما لمجرد رؤية عبد الرحمن بن أبي بكر أنّها يسارّان أبـا لؤلؤة ومن غير إذن وليّ الأمـر افتئات على الشرع ما كان عدل المسلمين يرضاه حتى ولو كان القتيـل خليفتهم . فلما بـويع عثمـان بالخلافة جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر وقال لمن حوله من أكابر المهاجرين والأنصار أشيروا في هذا الذي قتل في الإسلام ما فتق فاختلف الناس فيما بينهم وذهب الكثيرون منهم أن يطلق سراحه بحجة أنّه منتقم لأبيـه إلاّ سيدنـا علي عليه السلام فقد كـان لا يعرف في شرع الله كبيراً ولا صغيراً ولا عربياً ولا أعجمياً فقال : إنّه قاتل وأرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين : قُتل عمر بالأمس ويقتل اليوم ابنه وقال عمـرو بن العاص : يـا أمير المؤمنين إنّ الله قد أعفاك أن يكون هـذا الحدث كـان ولك على المسلمين سلطان إنّما كان هذا الحدث ولا سلطان لك فقال عثمان : أنا وليّ المسلمين وقـد جعلتها ديـةً واحتملتها في مالي وهكذا دفع الدية عثمان وأطلق سبيل عبيد الله بن عمر . وأنت تـرى في هذه القضية التي عرضت على عثمان في بدء حكمه أنّ علياً عليه السلام كان يرى أن تظلّ للشرع هيبته في النفوس بتنفيذه على كبار المسلمين قبل صغارهم ليلزم كلّ رجـل منهم حـدّه . وان المهاجـرين ما استـطاعوا ان يعـارضوه فيمـا رأى إلاّ أنهم أكبـروا ان يقتـل الخليفة في يوم وأن يقتل أحد أولاده في اليوم التالي فكان دفاعهم عن القـاتل من قبيـل الشفقة عليه وأمّا فتوى عمـرو بن العاص فلم تكن صحيحـة لأنّ السلطان الحقيقي على الناس ليس لشخص الحاكم بل للشريعة التي قام للسهر على تنفيذها فإذا مـات الحاكم وقتـل لا تموت الشـريعة بـل تظـلّ حيةً وعلى الحـاكم الجديـد ان ينفـذ حـدّهـا على المجرمين ولو كان إجرامهم سابقاً لعهد حكمه وإلاّ للزم كلّ حاكم أن يصـدر عفواً عـاماً عن جميع المجرمين الـذين أجرمـوا قبل ولايتـه ولم يُفصل في أمـرهم إذا صحت فتوى=

= ابن العاص وعندي ان عثمان لم يفته فساد ما ذهب إليه عمرو بن العاص وإنّما استعمل حقّه كوليّ المسلمين بالعفو عن القاتل والإكتفاء بالدية التي دفعها من جيبه مؤيداً بذلك قول سيدنا عليّ بأنّ الشرع يعتبر عبيد الله قاتلاً وجب عليه الحدّ ولكنه راعى الظروف التي حدثت فيها الجريمة وموقفه في بدء عهده بالخلافة .

أمّا حادثة القتل فقد كانت هكذا : فإنَّ عمراً بن الخطاب خرج إلى الصلاة في المسجد النبوي صباح الأحد لست ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٤ للهجرة وقد استوت الناس صفوفاً للصلاة حتى إذا ما تقدم الناس ليؤمهم وسجد ابتدره أبو لؤلؤة من ورائه بخنجر مسموم طعنه به ست طعنات كانت الثلاث الأولى في ظهره فالتفت ليرى طاعنه فعاجله بثلاث مثلها في صدره وكانت الطعنة الأخيرة في سرَّته التي فتكت به وقضت عليه وجرح أبو لؤلؤة معه بعض من كانوا في القرب منه .

وعندما جرح عمر أمر عبد الرحمن بن عوف وكان بجانبه أن يصلّي بالناس واحتمله ابنه عبد الله وبعض المسلمين إلى داره وجيء له بطبيب يداوي جروحه فلما كشف عليها قال يا أمير المؤمنين وصّ ومال إلى من حوله وقال إنّه لا يشفى فجاءَه بعض المقربين منه وطلبوا منه أن يوصي بالخلافة أسوةً بأبي بكر فتردّد وقال : لو كان أبو عبيدة حيّاً استخلفته لأنّ رسول الله كان يُسميه « أمين هذه الأمة » فقال بعضهم ألا تستخلف ابنك عبد الله ؟ قال عمر قاتلك الله والله ما أردت هذا كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ألا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهلي بشيء إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شرّاً فشرعنا إلى عمر فحسب آل عمر أن يحاسب رجل واحد ويسأل عن أمر أمّة محمد وقد كنت أريد أن أولي رجلاً أمركم هو أحراكم بأن يحملكم على الحقّ وأعني به عليّاً ثمّ رأيت أن لا أتحمل أمركم حيّاً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة ومات وهو عنهم راضٍ وهم علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص خالا رسول الله والزبير بن العوام حواريه وابن عمّته وطلحة الخير بن عبيد الله فيختاروا منهم رجلاً فإذا اتفقوا على اختيار أحدهم والياً فأوصه بالعرب فهم أس الخلافة وبالأنصار أن يحسن لمحسنهم ويعفو عن مسيئهم وأحسنوا مؤازرته وأعينوه .

ثمّ إنّ عمراً دعا خمسة من أشار إليهم لأنّ سادسهم وهو طلحة كان غائباً فلما=

= اجتمعوا لديه قال لهم : إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راضٍ وإنّي لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس وإنّي لممهلكم ثلاثة أيام بعد دفني تختارون فيها واحداً منكم وانظروا طلحة فهو آتيكم . ثمَّ قال لأبي طلحة المقداد بن الأسود إذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت واحد ولا تدع أحداً يختلط بهم حتى يختاروا رجلاً منهم .

ثمَّ وجه عمر بصره إلى صهيب وقال له صلّ بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً وعثمان وسعد وابن عوف والزبير وطلحة إذا حضر وأحضر معهم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحداً فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما فإن انقسموا نصفين فرضي ثلاثة رجلاً ورضي الثلاثة الآخرون رجلاً فحكم ولدي عبد الله بن عمر .

ثمَّ استدعى عمر ولده عبد الله وقال له أقم مع الرهط وارقب شوراهم وأعنهم على الاتفاق على رجل منهم وساعد صهيب على قتل واحد أو اثنين منهم إن اختلفا عن الجماعة وإن انقسموا قسمين فكن مع القسم الذي فيه عبد الرحمن بن عوف. واعلم أن ليس لك من الأمر شيء ولا أرضى أن تدخل في هذا الأمر .

وتوفي عمر ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة ودفن في سحر الأربعاء بجوار المصطفى وأبي بكر وكان وهو على فراش الموت قد أرسل واستأذن عائشة بأن يدفن مع صاحبيه في تلك الحجرة التي كانت حجرتها على عهد المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم فأذنت . وكانت مدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هجرية إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية وكان عمره حين قتل ٦٣ سنة وهو العمر الذي عاشه المصطفى وأبو بكر .

أمّا المملكة الإسلامية التي مات عنها عمر فقد كانت تقسم إلى عشر أمارات وهي : أمارة مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي . وأمارة الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي . وأمارة صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بني نوفل . وأمارة =

فَـهَــالَــهُ مَــا رَأَى مِـنْ ذُلِّ أُمَّـتِـهِ   وَهَمَّ يَبْغِيْ آنْتِقَـامَــاً مِنْ مُــذِلِّيْهَــا

= نجـد وأميرهـا عبد الله بن أبي ربيعـة وأمارة البحـرين وما يتبعهـا وأميرهـا عثمان بن أبي العاص الثقفي « وهذه الأمارات الخمس في الجزيرة العربيـة » وأمارة الكـوفة ومـا يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي . وأمارة البصرة ونواحيها وأميرها أبـو موسى عبـد الله بن قيس الأشعـري « وكلتا الأمـارتان في العـراق » وأمـارة دمشق وأميـرهـا معـاويـة بن أبي سفيـان . وأمارة حمص وأميـرها عميـر بن سعد « وكلتـاهما في سـوريـا » وأمـارة مصـر وأميرها عمرو بن العاص السهمي . وكانت عاصمة الخلافة المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام وكان الخليفة يقيم فيها وإليه مرجع الأمور كلّها فهـو الذي يـولّي ويعزل ويصدر الأحكام ويسير الجيوش وإليه ينتهي الخراج .

وعندما دفن عمر جمع أبو طلحة المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة عدا طلحة الـذي كان غـائباً وأدخـل معهم عبد الله بن عمـر ووقف على حراستهم فكثـر بينهم اللجاج واستحال الاتفاق فتهددهم المقداد ان توانـوا عن البتّ في الأمر في ثـلاثة أيام كما أوصى عمر ولحلّ الإشكال تقدم عبد الرحمن بن عوف وخلع نفسه من كلّ حقٍّ بالخلافة وطلب أن يحكموه فكان أول راضٍ بالتحكيم عثمان وتبعه الآخرون إلّا سيدنـا علي عليه السلام فقد ظلّ ساكتاً فقال له ابن عوف ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : أعطني ميثاقـاً لتؤثرنّ الحقّ ولا تتبع الهوى ولا تخصّ ذا رحم ولا تألـوا الأمة فـأعطاه ميثـاقه : فـرضي بـأن يكون في الأمـر حكماً . وحينئـذٍ خرج والأمـر في عنقه إلى النـاس يتلمس رغبتهم فوجدهم متحيزين لعثمان فعاد إلى بيت المسور فخلا بالزبير وسعد فوجـد ضلعهما مـع علي فقـال لا يقوم بعـد أبي بكر وعمـر أحد يـرضى عنه النـاس . ثمَّ انصرف إلى علي فناجاه طويلاً ولا يعلم أحد ما دار بينهما كل ذلـك كان في سـواد الليل حتى إذا مـا آذن الفجر خرجوا إلى الصلاة في المسجـد وبعد الصـلاة دعا عبـد الرحمن بن عـوف أكابـر المهـاجرين والأنصـار والأمراء ووجـه خطابـه إلى عليّ قائـلاً : عليك عهـد الله وميثاقـه لتعملن بكتاب الله وسنّة رسـوله وسنّـة الخليفتين من بعده . فغضب أميـر المؤمنين وقال بل أعمل بسنـة الله ورسولـه ومبلغ علمي وطاقتي . فـأعرض عنه ابن عوف إلى عثمـان وقال له ما قال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة وتأثر سيدنا علي عليه السلام وسـار قليلاً وهو يقول : « سيبلغ الكتاب أجله » ثمّ رجع يشقّ الناس وبايع عثمان وتقدم الناس فبايعوه وكانت بيعته يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ فاستقبـل بخلافتـه =

= المحرم سنة ٢٤ هـ .

لا جرم أنَّ بيعة عثمان كانت بتأثير بني أمية وان عبد الـرحمن بن عوف مـا اشترط على سيـدنـا عليّ أن يعمـل بسنـة الخليفتين إلاّ وهـو يعلم أنّـه لا يفعـل ولكن أراد أن يعرض الأمر على علي وهو لا يجهل أنّ الأمر له ولكن كما قال عليه السلام : « سيبلغ الكتاب أجله » .

هـذا وان المرتضى عليه السلام عنـدما سـار لمبـايعـة عثمـان بن عفـان بـالخـلافـة قـال لأصحاب الشورى « لقد علمتم أنّي أحقُّ بها من غيري ، ووالله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خـاصة ، التمـاساً لأجـر ذلك وفضله ، وزهـداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » اهـ وفي هذه الكلمـات الجامعـة المختصرة أبـان ما في نفسه الشريفة من الزهد والورع وإيثار مصلحة المسلمين على مصلحة نفسه فحقَّ له في ذلـك حمد الحـامـدين وشكـر الشـاكـرين إلىٰ يـوم الـدين ولا سيمـا على قـولـه أن تسليمـه عليه السلام بما أرادوا منحصـر ببقـاء الـظلم مقتصـراً عليـه لا يتجـاوزه إلى سـواه من المسلمين فهـل من فضل فـوق فضل أبـو الحسنين الذي تنـاسى حقّـه ولم ينس حقـوق المسلمين ؟؟ .

« العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم »

كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرة من أصحابه اختصهم لمشورته وتدبير أمـر أمّته ومـات وهو عنهم راضٍ وكان هؤلاء أعوانه وحواريوه وعيبة سرّه وموضع ثقتـه وهم زعماء الأمّـة بغير جدال أولهم وأفضلهم بـالإجماع سيـدنا علي بن أبي طـالب عليه السلام الذي آخـاه دون سائر المسلمين وقال : من كنت مولاه كان عليّ مولاه وقـال له : إنّـك مني كهارون من مـوسى إلاّ النبوّة . وأبـو بكر بن أبي قحـافة . وعمـر بن الخطاب . وعثمـان بن عفان . وعبـد الرحمن بن عـوف . وأبـو عبيـدة بن الجـرّاح . وخـالـد بن الـوليـد . وطلحـة بن عبيد الله . والزبير بن العوّام . وسعد بن أبي وقاص . ويخلق بنا بعد أن حصر عمر عند موته الخلافة في الستـة الذين بقـوا منهم دون سائـر المسلمين حتى أولاده اعترافـاً منه بميزتهم أن ننشر تراجمهم تتميماً لمباحث علويتنا المباركة هـذه التي نرمي إلى تلخيص تاريخ صدر الإسلام في حواشيها وتـراجم نوابـغ الرجـال الذين ظهـروا في ذلك العهـد الأنور . =

= ولقد سبق لنا نشر تراجم أبي بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد . وسنأتي على تراجم عثمان بن عفّان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في مواضعها من هذه القصيدة المباركة كلٌ في موضعه وننشر هنا تراجم أبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص لأنّ ليس لنا رجعة إليهم فيما بعد فنقول :

« ترجمة أبي عبيدة بن الجراح »

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك القرشي الصحابي يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فهر . وأمّه أمّ غنيمة بنت جابر . أسلم في بدء الدعوة فهو من المسلمين السابقين وكان بطلاً مجرباً خبيراً مجلياً وكان يسميه المصطفى « أمين الأمّة » وكان أبو عبيدة كثير الشغف برسول الله يداوم صحبته ولا يريد مفارقته حتى أنّ الرسول في السنة الثانية للهجرة أراد أن يرسله في سريّة للغزو فتجهّز ولما دنا موعد المسير أخذ يبكي صبابة إلى المصطفى فأشفق على هذه العواطف الشريفة التي كان يبديها نحوه وردّه وبعث مكانه عبد الله بن جحش . ثم كانت لأبي عبيدة سرية إلى ذي القصة في السنة السادسة للهجرة في أربعين رجلاً فغزوا وغنموا . وفي غزوة السلاسل كان أبو عبيدة في الذين أرسلهم المصطفى إلى عمرو بن العاص يشجعونه قبل وقوع الغزوة لأنّه خاف الإقدام في أرض جذام في مسيره ليدعو إلى الإسلام . وشهد أبو عبيدة غزوة بدر وقتل أباه فيها بيده وكان في صفوف كفّار قريش . وشهد بعدها كل المشاهد النبوية .

وفي خلافة أبي بكر توجّه أبو عبيدة لفتح الشام وكان قائداً لجيوش المسلمين السائرين لفتح حمص وإذ تعذّر عليه فتح الشام وحده أمدّه أبو بكر بخالد بن الوليد على ما تقدم في ترجمة خالد . واشتهر في أثناء فتوح الشام عدل أبي عبيدة وحلمه ورعايته لأهل البلاد المغزوّة خلافاً لخالد الذي اشتهر بشدّته فلما حصر المسلمون دمشق تقدم أهاليها من أبي عبيدة بالتسليم فدخلها صلحاً ودخلها خالد من الطرف الثاني عنوة واختلفا فيما بينهما على ذلك اختلافاً كاد يقضي على النزاع مع أنّ خالداً كان يومئذٍ تابعاً لأبي عبيدة وليس له صفة رسمية في جيش المسلمين لعزل عمرٍ له على ما سبقت الإشارة ولم ينته الإشكال بينهما إلاّ بطلب أبي عبيدة أن يحكم عمراً في الاختلاف=

وَسَارَتِ ٱلنَّاسُ بِٱلْمَجْرُوْحِ طَالِبَةً شِفَا ٱلْجُرُوْحِ وَوَافَى مَنْ يُدَاوِيْهَا

= الذي حدث بينهما . وفتوحات الشام كلها كانت بقيادة أبي عبيدة أو تحت إشرافه وكان خالد معاوناً له وأظهر أبو عبيدة من حسن السياسة مع السوريين ما حببهم بالتسليم لحكم المسلمين بحيث كانت المواقع التي جرت تجري مع جيش الروم وحده لا يساعدهم فيها مساعد من الأهالي وذلك لثقتهم بالعرب الفاتحين وعدل أبي عبيدة هذا فضل كبير لهذا الصحابي العظيم الذي يدعى بحق من مشاهير رجال السياسية والحرب أمّا خالد فكان يفضله في البراعة الحربية ولكن كان دونه بمراحل بحسن السياسة لذلك نقل عن عمر عند موته أنّه قال : لو كان أبو عبيدة حيّاً لما رجحت غيره للخلافة .

وتوفي أبو عبيدة بالطاعون في غور بيسان عند قرية تسمى عمياً وقبره هناك لا يزال قائماً إلى الآن وهو موضع احترام الناس وكانت وفاته سنة ١٨ للهجرة عن ٥٨ سنة قضاها بالجهاد في سبيل الإسلام وإعلاء كلمته واسمه سيظلُّ خالداً في ربوع الشام معروفاً بالثناء على مروءته وفضله وحلمه وعطفه ومكارم أخلاقه إلى يوم يبعثون .

« ترجمة عبد الرحمن بن عوف »

هو عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري يرجع بنسبه إلى زهرة أخي قصي ولدا مرة بن كلاب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمرة وكان إسلامه بواسطة أبي بكر فكان من المسلمين الأولين السابقين وهاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهجرة المدينة وشهد بدراً وأحد والمشاهد كلها وفي يوم أحد جرح ٢١ جرحاً وسلّمه الله على أنّ بعض النبل أصابت رجله فكان يعرج وسقطت ثنيتاه فكان أهتم . وكان رسول الله يحبّه كثيراً لما يشاهد من غيره ومروءته وبعثه بسرية إلى دومة الجندل على بني كلاب وقبل ذهابه عممه بيده الشريفة وسدلها بين كتفيه وقال له : إن فتح الله عليك فتزوج ابنة شريفهم فسار متوكلاً على الله وانتصر وتزوج تماضر بنت الأجنع ابن ثعلبة أميرهم . وفي غزوة تبوك ميَّز رسول الله ابن عوف على سائر أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وأمره أن يصلّي في الناس وأدركه مرةً وهو يصلّي بالناس فصلّى خلفه وما اتّخذ الناس صلاته هذه بأمر المصطفى حجةً على حقّه بإمامة المسلمين ولكن حسبوها عطفاً من المصطفى عليه وتشريفاً لمقامه .

وعندما توفي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لزم الحياد في كل ما جرى في السقيفة وبايع مع المبايعين ولم ينبث ببنت شفة وانصرف من ذلك اليوم إلى تجارته في المدينة وكان =

فَلَمْ يُفِـدْهُ ٱلتَّـدَاوِيْ وَٱلـطَّبِيْبُ لَقَـدْ   نَادَى : جُرُوْحُكَ لَيْسَ ٱلطِّبُّ مُبْرِيْهَا

= موفقاً فيها ميسوراً ولم يدخل في حرب ولا في عمل من أعمال المسلمين إلاّ من خير يسديه أو نصيحة يؤدّيها وكذلك فعل عندما أوصى أبو بكر بالخلافة لعمر فكان على رأس المبايعين وكان عمر يحبّه ويحترمه كثيراً ويثق به ثقةً لا تحدّ يدلك على ذلك قوله لولده عبد الله وهو يوصي قبيل وفاته إذا انقسم هؤلاء الستة فكان ثلاثة في جانب وثلاثة في جانب فكن في الجانب الذي فيه ابن عوف وما ذلك إلاّ لاعتقاد عمر بعدالته ونزاهته .

وكان عبد الرحمن بن عوف زاهداً بعمالات الدولة حتى بالخلافة نفسها يدلك على ذلك تنازله عن حقوقه فيها بالشورى التي عينها عمر لاختيار الخليفة مع أنّه جعله من أصحاب الحقّ فيها وكان تنازله عن حقوقه سبباً لحلّ المشكلة بالتي هي أحسن وقد وثقت منه الصحابة وجعلته حكماً بينها . وأراد ابن عوف بعد أن أصبح الأمر في عنقه أن يتثبت من رأي الناس في الخليفة الذي يرضونه فخرج إليهم وأخذ يتطلع سرّهم فوجد بني أمية قد لعبوا دورهم واستمالوا الناس إلى عثمان فرجع إلى أصحابه وأسرَّ إلى ابن أبي وقّاص بأنّ الناس لا يجتمعون على واحد ثمَّ خلا بسيدنا علي طويلاً قبل بزوغ الفجر ولم يذكر أحد من المؤرخين ما دار بينهما ولكن الراجح أنّه أطلعه على ما يجول في صدور الناس مبيناً له اضطراره إلى مبايعة عثمان وقد استنتجت هذا من سكوت سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام عن عبد الرحمن بن عوف فلم يقل فيه كلمة لوم لا تصريحاً ولا تلميحاً لمبايعته عثمان عند ذكر الشورى ويكفي هذا للاعتقاد بنزاهة هذا الصحابي الكبير وطهارة ذيله من كل ما جرى .

وفي عهد عثمان انصرف عبد الرحمن بن عوف إلى تجارته فنمت نمواً عظيماً ولم يتطلع إلى وظيفة ولا عمل عملاً في دولته إلاّ أنّه ما كان راضياً عمّا جرى في عهده وهو أول من اجترأ عليه فقسم إبل الصدقة بين الناس بعد أن وهبها عثمان لبعض أولاد الحكم وكان همّه الإنفاق على المعوزين من ماله فكان يتصدّق بالسبعمائة راحلة وأكثر للفقراء بأحمالها وأقتابها ومما يؤثر عنه ورعه وتقواه وتواضعه .

وتوفي عبد الرحمن بن عوف في سنة ٣٢ هجرية في أواخر أيام عثمان وكان سعد بن أبي وقاص ممن حملوا جنازته وسيدنا علي بن أبي طالب من مشيعيه ودفنوه في =

=البقيع وبعد دفنه قال سيدنا علي عليه السلام : « إذهب يابن عوف أدركت صفوها وسبقت كدرها » فكان قوله هذا من جملة ما يؤثر عنه من أنبائه بالغيب . وخلف ابن عوف مالاً عظيماً من ذهب ومتاع وماشية وغير ذلك وأوصى بصدقات كثيرة من بعده .

« ترجمة سعد بن أبي وقاص »

هو إسحاق بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري المكي المدني أسلم بدعوة أبي بكر وعمره ١٧ سنة وهو أول من رمى النبل في الجهاد وكان من المهاجرين الأولين وسمّاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم « فارس الإسلام » وشهد جميع المشاهد النبوية واشترك في فتح الشام فكان على رأس الجيش الذي فتح الحيرة سنة ١٢ هجرية ثمَّ سار بجيش كبير على القادسية وفتحها . وبعد ذلك أرسله عمر إلى المدائن في العراق فدخل بابل ومن هناك أرسل سرايا من جيشه لفتح العراق وفارس ثمَّ سار إلى مدائن كسرى ففتحها وصلّى صلاة الفتح في إيوان كسرى الشهير وكانت أول جمعة أقيمت في العراق وذلك في صفر سنة ١٦ للهجرة وغنمت جيوشه غنائم كثيرة من الفرس . وسعد هذا هو الذي مصر الكوفة والبصرة وحوّل معسكره من المدائن إلى الكوفة وبنى الناس له قصراً فخماً فيها أطلق عليه اسم « قصر سعد » .

ولم يسلم سعد ممن سعى إليه إلى عمر فعزله كما فعل مع غيره من عمّاله فإنَّ عمراً لم يبق على أمير أو عامل أمداً طويلاً إلاّ على اثنين فقط أولهما أبو عبيدة بن الجراح فقد أبقاه على إمارة جيشه في الشام حتى مات ومعاوية فقد أبقاه في الشام رغم ما انتهى إليه عنه والظاهر أنّه كان يرى نفسه عاجزاً عن عزله وكان عزل سعد عن إمارة العراق في سنة ٢٠ للهجرة .

وكان سعد في الشورى من أنصار سيدنا علي قال ذلك لعبد الرحمن بن عوف صراحةً عندما ناجاه في الأمر . وعندما تمَّ الأمر لعثمان عزل أمير الكوفة المغيرة بن شعبة وأعاد سعداً إليها وذلك سنة ٢٤ للهجرة وظلَّ في إمارة الكوفة في صدر خلافة عثمان على أحسن حال حتى إذا ما بدأ الأمويون يتوسعون بتسلطهم على عمالات الخلافة فلم يكن سعد من ممالئيهم وكيف يكون كذلك وهو على ما تعلم من أكابر الصحابة المتلقين الإسلام من فم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ؟؟ فنووا له ما نووه لأمثاله من =

أَوْصَى بِشُورَى لِتَعْيِينِ ٱلْخَلِيْفَةِ مُحْـــتَـاطـاً لِحَـادِثَـةٍ تُخْشَى طَـوَارِيْهَـا
وَبِـٱلْبَقِيَّـةِ مِنْ صَحْبِ ٱلـرِّسَـالَـةِ نَـا طَ ٱلسُّـدَّةَ ٱلْمُبْتَغى سَـامِيْ تَـرَقِّيْهَـا
سَعْـدٌ عَلِيٌّ وَعُثْمَـانُ وَطَلْحَـةُ وَآلْــزُّبَيْرُ كَانَ آبْنُ عُوْفٍ صَاحِ سَـادِيْهَا
مِنْ صُحْبَةٍ عَشْرَةٍ مَاتَ ٱلرَّسُوْلُ وَقَدْ أَرْضَتْـهُ كُلَّ ٱلـرِّضَى جُلَّى مَسَاعِيْهَـا
لَهَـا دَعَـا عُمَـرٌ وَٱلْعَهْـدُ أَبْلَغَهَـا ثُـمَّ نَصَـائِحُـهُ قَـدْ رَاحَ يُلْقِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ طَلْحَـةُ فِيْ طِيْبَـةٍ وَلِـذَا قَـالَ آنْـظُرُوْهُ ثَـلاَثَـاً وَهْـوَ يَـأْتِيْهَـا
ثُمَّتْ أَبَا طَلْحَـةٍ نَـادَى وَقَـالَ لَـهُ: صَحَـابَةُ ٱلْمُصْـطَفَى رَاقِبْ مَثَاوِيْهَـا
وَلاَ تَـدَعْ قَبْـلَ أَنْ تَقْضِيْ مُهِمَّتَهَـا شَخْصَـاً يَـزُوْرُ حِمَـاهَـا أَوْ يُنَـاجِيْهَـا

=مخالفيهم وكان مع سعد عبد الله بن مسعود على الخراج وكان موضع ثقة الأمويين فطفق هذان يتنافسـان ويتصادمـان وحدث أنّ سعـداً استدان من بيت المـال مالاً قـرضاً حسنـاً فجاءَه عبد الله بن مسعود وهو في عسرة يتقاضـاه الدين فـاستمهله فما أمهله وشـدّد عليه النكير حتى أنّه استعان ببعض أصحابه على إكراهه على دفع ما عليه واضـطرّ سعد على عظم مقامـه في الإسلام أن يـوسط الناس لإقنـاع ابن مسعود بـاستنظاره ورفـع الأمر إلى عثمان فما كان منه إلاّ أن عزل سعداً من الأمارة وأبقى ابن مسعود في عمله . فكبر هذا على سعد بن أبي وقاص وقدم المدينة فلزم بيته وآلى على نفسه أن لا يدخل بشيء فيما بعد من شؤون المسلمين وصدق في حلفه فما دخل في فتنة عثمان ولا تعرّض لها بخير ولا بشـرّ . حتى إذا ما انتهت الفتنـة بمقتل عثمـان وبويـع سيدنـا علي عليه السلام بالخـلافـة استدعاه للبيعة فجاءَه وقال « لقد آلوت على نفسي أن لا أدخل بأمر من أمـور المسلمين ولذلك لا أبايع حتى يبايع الناس لأكون كواحد من سوادهم ولكن والله ما عليـك فيَّ من بأس » فخلّى عنه وعندما بايع المسلمون جاءَه وبايعه وانصـرف لعزلتـه فلم يتداخـل في أمر من أمور الخلافة في ما كان بعد ذلك .

وكان سعد حليمـاً غير شـديد كـريماً سخيـاً مهاب الـدعوة فصيح اللسان صـادق العزيمة وعاش إلى سنة ٥١ هجرية وقيل ٥٥ وتوفي في المدينة ودفن في العقيق ولـه من العمر ٧٤ سنة .

أَوْصِ ٱلْخَلِيْفَةَ بِٱلْعُرْبِ ٱلْكِرَامِ فَهُمْ إِسُّ ٱلْحَنِيْفَةِ مُذْ شِيْدَتْ مَبَانِيْهَا
أَوْصِ ٱلْخَلِيْفَةَ بِٱلأَنْصَارِ مُحْسِنُهَا يَحْنُو عَلَيْهِ وَيَعْفُو عَنْ مُسِيْئِيْهَا
وَبَعْدُ أَوْصَى صُهَيْبَاً أَنْ يَؤُمَّ عِبَا دَ ٱللَّهِ حَتَّى تُوَلِّيْ ٱلنَّاسُ وَالِيْهَا
وَقَالَ : عَوِّهْ بِدَارٍ بَعْدَ دَفْنِيَ أَصْـ ـحَابَ ٱلْمَشُوْرَةِ يَاٱبْنَ ٱلْوِدِّ تَعْوِيْهَا
وَٱمْنَعْ مُوَاصَلَةً مَعْهَا تَؤُوْلُ إِلَى مُنَافَسَاتٍ أَنَا مَا زِلْتُ حَاشِيْهَا
حَتَّى تَقِرَّ عَلَى فَرْدٍ تُبَايِعُهُ مِنْهَا وَيَنْهَضُ لِلأَحْكَامِ يُجْرِيْهَا
فَإِنْ تَنَكَّبَ فَرْدٌ عَنْ جَمَاعَتِهَا فَٱقْتُلْهُ مَا دَامَ يَأْبَى أَنْ يُمَاشِيْهَا
وَإِنْ تَجَنَّبَ إِثْنَانِ ٱلْجَمَاعَةَ حَكِّـ ـمْ فِيْهِمَا ٱلسَّيْفَ كَيْ يَعْتَزَّ بَاقِيْهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ حَكِّمْ لَهَا وَلَدِيْ وَنَفِّذِ ٱلْحُكْمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ ٱبْنَهُ ٱسْتَدْعَى وَقَالَ: أَعَبْـ ـدَ ٱللَّهِ رَاقِبْ بِذِيْ ٱلشُّوْرَى مُشِيْرِيْهَا
فَإِنْ هِيَ ٱخْتَلَفَت كُن حَيْثُ أَكْثَرُهَا أُجْبُرْ عَلَى رَأْيِهَا ٱلأَعْلَى أَقَلِّيْهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ كُن عِنْدَ قِسْمَتِهَا مَعَ ٱبْنِ عُوْفٍ وَمَا لِي مَنْ يُمَالِيْهَا
وَلاَ تَغُرَّكَ أَمْجَادُ ٱلْخِلاَفَةِ يَا بُنَيَّ يَوْمَاً فَتَشْهَاهَا وَتَبْغِيْهَا
فَلَسْتَ صَاحِبَهَا كَلاَّ وَلَسْتَ لَهَا أَهْلاً وَأَوْزَارُهَا مَا أَنْتَ شَالِيْهَا
يَكْفِيْ ٱلَّذِيْ نَالَنِيْ مِنْهَا وَخَيْرُ بَنِـ ـيَّ مَنْ إِذَا مَا دَنَتْ مِنْهُ يُجَافِيْهَا
وَظَلَّ يَأْمُرُ وَٱلأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ وَنَفْسُهُ لُفِظَتْ وَٱلنُّصْحُ فِيْ فِيْهَا
وَبَعْدَ مَوْتِ أَبِيْ حَفْصٍ قَدْ ٱجْتَمَعَتْ صَحَابَةُ ٱلْمُصْطَفَى طَوْعَاً لِدَاعِيْهَا
وَكَانَ ثُمَّ ٱضْطِرَابٌ فِيْ مَبَاحِثِهَا وَكَانَ قِيْلٌ وَقَالٌ فِيْ تَنَاطِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا إِلاَّ ٱلْمُطَالِبُ بِٱلْـ ـعَرْشِ ٱلَّذِيْ زَهْوُهُ قَدْ كَانَ مُغْرِيْهَا
وَفِيْ ٱلأَخِيْرِ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّلاَمَةَ فِيْ ٱلْـ ـتَّحْكِيْمِ وَهْوَ مِنَ ٱلأَرْزَاءِ مُنْجِيْهَا

وَٱسْتَسْلَمَتْ لِابْنِ عَوْفٍ بَعْدَمَا ٱقْتَنَعَتْ أَنَّ ٱلْمُحَالَ لَأَدْنَى مِنْ تَرَاضِيْهَا

وَبَعْدَ مَا قَالَ جَهْرًا قَدْ تَرَكْتُ حُقُوْ قِيْ بِٱلْخِلَافَةِ إِنِّيْ زَاهِدٌ فِيْهَا

أَمَّا ٱبْنُ عَوْفٍ فَمُذْ بَاتَ ٱلْمُحَكَّمَ فِيْ أَصْحَابِهِ وَهْوَ نَاءٍ عَنْ تَرَجِّيْهَا

تَتَبَّعَ ٱلنَّاسَ يَسْتَجْلِيْ غَوَامِضَ مَا تَخْفِيْ ٱلصُّدُوْرُ ٱلَّتِيْ شَطَّتْ أَمَانِيْهَا

وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلًا مَا فِيْ أُمَيَّةَ مِنْ مَنَازِعٍ لِلْعُلٰى كَانَتْ تُخَفِّيْهَا

كَانَتْ سِيَادَتُهَا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تُغْـــرِيْهَا بِنَيْلِ مَقَامَاتٍ تُضَاهِيْهَا

وَكَانَ فِيْ ٱلشَّامِ مَنْ يَعْنَى وَيَجْهَدُ فِيْ إِيْجَادِ عِتْرَتِهِ مَاضِيْ تَوَلِّيْهَا

وَكَانَ فِيْ طِيْبَةٍ قَوْمٌ تُعَاوِنُهُ عَلٰى مُنَاهُ ٱلَّتِيْ مَا ٱنْفَكَّ يَنْوِيْهَا

وَكَانَ عُثْمَانُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَشِيْرَةِ قَدْ يُنِيْلُهَا مَا تَرَجَّتْ مِنْ تَعَلِّيْهَا

لِذَاكَ أَلْقَى ٱبْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَغْبَتَهَا بِهِ مُحَالٌ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاوِيْهَا

فَعَادَ أَدْرَاجَهُ إِذْ مَدَّ رَاحَتَهُ مُبَايِعًا لِابْنِ عَفَّانٍ مُوَالِيْهَا

وَبَايَعَ ٱلنَّاسُ عُثْمَانًا كَمَا طَلَبَتْ أُمَيَّةُ ٱلْعُرْبِ مَكِّيْهَا وَشَامِيْهَا

فِيْ عَهْدِهِ ٱسْتَقْبَلَتْ مَجْدًا لَقَدْ فَقَدَتْــهُ فِيْ ٱلْحَنِيْفَةِ مُذْ سَادَتْ مَبَادِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى مَا تَعَدَّى ٱلْإِحْتِجَاجَ عَلٰى شُوْرَى قَدِ ٱنْحَرَفَتْ عَنْهَا مَوَالِيْهَا

وَكَانَ مُنْتَظِرًا تِلْكَ ٱلنَّتِيْجَةَ لَمْ تَفُتْهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَبْدُو خَوَافِيْهَا

لٰكِنَّهُ ٱعْتَادَتْ أَنْ يَلْقَى ٱلْحَوَادِثَ بِٱلـــتَّرْحَابِ مَهْمَا تَنَاهَتْ فِيْ مَسَاوِيْهَا

يَقُوْلُ يَا نَفْسُ صَبْرًا أَجْمِلِيْ جَزَعًا دَعِيْ ٱلتَّقَادِيْرَ تَجْرِيْ فِيْ مَجَارِيْهَا

وَمَدَّ نَحْوَ ٱبْنِ عَفَّانٍ يَدَيْهِ وَلَمْ يُبْطِئْ بِبَيْعَتِهِ أَعْظِمْ بِمُعْطِيْهَا

وَهٰكَذَا صَارَ عُثْمَانُ ٱلْخَلِيْفَةَ فِيْ ٱلْأَ مِ غْرَابِ آمِرَهَا ٱلْأَسْمَى وَنَاهِيْهَا

وَقَالَ فِيْ تِلْكُمُ ٱلشُّوْرَى أَبُو حَسَنٍ مَقَالَةً لَا يَضِلُّ ٱلْحَقَّ وَاعِيْهَا

لَـمَّــا تَـبَـيَّـنَ أَنَّ آلـنَّـــاسَ مَــائِـلَةٌ إِلَى آبْنِ عَفَّـانَ إِذْ شَامَتْـهُ مُـرْضِيْهَـا

فِيْهَــا أَبَـانَ خَفَــايَــا نَفْسِـهِ وَتَفَــا نِيْهَـا لِخَيْـرِ آلـرَّعَـايَـا مَـعْ تَعَـالِيْهَـا

فَقَــالَ : لَمْ تَجْهَلُوْا أَنِّيْ بِبَيْـعَتِـكُمْ أَوْلَى وَلٰكِـنَّـكُـمْ مَــا بِعْـتَمُـوْنِـيْهَــا

وَهَــا أُسَلِّمُ وَآسْمِ آللَّهِ مَــا سَلِمَتْ هٰـذِيْ آلـرَّعِيَّـةُ مِنْ حَيْفٍ يُنَـاجِيْهَــا

وَمَـا تَخَصَّصَ بِيْ ذَا آلظُّلْمُ فَـادِحُـهُ وَآلنَّـاسُ تَـرْتَـعُ فِيْ عَـدْلٍ يُهَنِّيْهَــا

وَإِنَّمَــا كَــانَ تَسْلِيْمِـيْ لِمَـثْــوبَــةٍ قَدْ بِتُّ مِنْ فَيْضِ جُوْدِ آللَّهِ رَاجِيْهَا

وَلِلزَّهَــادَةِ فِيْـمَــا آلنَّــاسُ رَاغِـبَــةٌ بِــهِ وَمِنْ أَجْلِهِ تُـبْــدِيْ تَفَــانِـيْهَــا

نَعَمْ عَلٰى نَفْسِهِ قَـدْ كَـانَ يُؤْثِـرُ أُمَّــــةَ آلـرَّسُــوْلِ عَلِيٌّ كَيْ يُؤَاسِيْـهَــا

وَهْوَ آلْخَلِيْقُ بِحَمْدِ آلنَّـاسِ أَجْمَعِهَا إِنْ أَنْصَفَتْ نَـظَمَتْ فِيْـهِ أَغَــانِيْهَا

أمير المؤمنين في مقتل عثمان

وَمُــذْ تَـبَــوَّأَ عُـثْـمَــانٌ خِــلَافَـتَــهُ وَجَـازَ سُلْطَانُـهُ قَـاصِيْ أَرَاضِيْهَـا[١]

بَــدَتْ أُمَيَّـةُ بِــآسْتِقْبَـالِ سُؤْدُدِهَــا مَـعَ آلزَّمَـانِ آلَّـذِيْ أَضْحَى مُؤَاتِيْهَا

---

(١) يظهـر لي على قلّة علمي وزهـادة بضـاعتي أنّ عثمـان بن عفـان كـان طيّب القلب جداً حسن الطوية سهل القياد لين العريكة وأنّه على ما اشتهر من مزاياه الصالحة في صحبته لرسول الله ﷺ أنّه لو لم يكن أمويـاً ولو لم تكن أميّـة طامحـة إلى استعادة مكانتها في الإسلام وعلى رأسها معاوية وهو من الدهاء على ما علم الناس لما ترك عمر الأمـر وهو يحتضـر على فراش المـوت في ذمّة الـرهط الباقين من العشـرة الذين تـوفي رسول الله وهو راضٍ عنهم ولما خطر لعثمان أن يصل يوماً إلى الخـلافة ويتـولى أمرهـا فعثمـان مـظلوم لا في خلعـه وقتله فقط بـل وفي ولايتـه على المسلمين وهم في صـدر الإسـلام يعرفـون حلالـه وحرامـه ومتأدبـون بآدابـه العاليـة وفيهم خلق كثيـر قـد عـرفـوا رسول الله وصحبوه وتلقوا آيات الله من فمه وتفقهوا على يديه .

تولّى عثمان الخلافة وهو لا يجهل ضعفه وقوة من حـوله من أميّـة التي مهدت لـه=

= الصعاب حتى بلغ ذروة المجد وتربع على دست الحكم فما أمهل أن استنام لأصحابه الأمويين واللائذين بهم فسلمهم قياد الخلافة واكتفى أنّه صاحبها . والأمويون على ما هو معروف كانوا في الجاهلية كأبناء عمهم الهواشم أهل حول وطول في قريش ولكن لما ظهر المصطفى ﷺ بدعوته وأبت قريش التصديق بها وانقلبت عليه تضطهده وتكذّبه وتحقره انتقلت بالتحقير والإضطهاد إلى الهواشم حتى أنّها تحالفت ضدّهم وأبعدتهم عن مكة وفيهم المصدق بالدعوة والمكذّب لها والشديد عليها كأبي لهب عمّ المصطفى واغتنم الأمويون هذه الفرصة وتوسعوا في جاههم وباتت لهم الزعامة المطلقة على قريش كلها يدلّك على هذا أنَّ أبا سفيان والد معاوية كان زعيم القوم وهو الذي كان يحرّضهم على محاربة المصطفى والمسلمين قهراً للإسلام ودكاً لمعالمه وما كان ذلك منه لكراهته للإسلام وتمسكه بالكفر والإشراك فقط بل رغبةً أن يقضي نهائياً على جاه الهواشم استئثاراً بالسلطة لأميّة وحدها . وأنت تعلم أنّ الذين دخلوا الإسلام من أمية قبل فتح مكة المكرمة كانوا أفراداً قلاقل على رأسهم عثمان بن عفان . وأنّ المصطفى في يوم الحديبية إذ أراد أن يرسل عمراً بن الخطاب إلى قريش ليتفاهم معهم قال إني أخاف على نفسي إن ذهبت إذ لا أجد لي ناصراً فيها فيقتلونني مع أنّه من أعيان قريش وقال بل أرسل عثمان وله من قومه ما يضمن سلامته وهكذا كان .

وكان إسلام الأمويين قهراً يوم فتح مكة فهم قد أسلموا لا عن اقتناع بالإسلام والنبوّة بل خضوعاً للقوّة القاهرة وحسبك أنَّ أبا سفيان مع خوفه من جيش المصطفى وهو ﷺ قادم لفتح مكة ومع أنّه قدم على المصطفى في معسكره بنصيحة صاحبه العباس ومع أنّه رأى بعينيه عظمة الإسلام مع ذلك أبى أن يصغي لدعوة رسول الله ويشهد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله وقال له أرجئها فإنّ في النفس منها شيء على أنّه ما أمهل يوم الفتح أن أسلم مع ولديه يزيد ومعاوية لكي لا تفقد أمية مكانتها بل ان قريشاً لم تسلم كلها في ذلك اليوم إلّا برغبة الاحتفاظ بمنزلتها في العرب بعد أن رأت ان رسول الله قد تغلّب عليها بمن جاء بهم من مختلف القبائل العربية المسلمة .

ثم إنّ معاوية تولى الشام على أثر فتحها وأخذ يوطّد له فيها مركزاً دائماً بالرغم عن أنّه عامل لعمر وعمر ما كان ينام عن عمّاله وما كان يبقي على واحد منهم إذا بلغه عنه بعض ما كان يبلغه عن معاوية من الترف وجمع المال والظهور بمظاهر العظمة ولا =

وَبَـاتَ عُثْمَـانُ مَـزْوِيّـاً بِمَنْـزِلِـهِ   وَصَـارَ مِرْوَانُ رَاعِيْهَـا وَقَـاضِيْهَـا

=يتأتى أن يكون عمر قد أغفل أمر معاوية شذوذاً بل بـالعكس لا بدّ انـه فكر كثيـراً بعزلـه ولكنه لم يقدم عليه حذراً من حـدوث ما لا تـأمن مغبته لـو هو عـزله . وبـالرغم عن ان الأخبـار في ذلـك قليلة وقلتهـا نـاجمـة عن مـداراة النـاس الأمـويين في خـلافتهم التي استطالت على الخلافة بعد عهد قصير وبـالرغم عن ذلـك بقي عندنـا ما يشيـر إلى عدم رضاء عمر عن معاوية فقال الرواة انَّ عمراً ذهب إلى الشام في رحلته الثانية وهو على ما تعلم من زهده في معيشته فاستقبله معاوية بعظمة ملوك الروم وهو على أفخر بـرذون في أفخر ثياب فأعرض عنه عمر فتبعه معتذراً فقـال إنّ القوم في الشـام اعتادوا على مـظاهر العظمة في ملوكهم فليس لي أن أغيّر ما اعتادوا قالوا إنّ عمراً قبل عذر معاوية وأقول أنا انه ما قبل العذر إلّا وهو مضطرّ .

وعندي أنّ الناس عندما ناجاهم ابن عوف فوجدهم شيعة عثمـان ما كـانوا كـذلك إلّا ولأمية وبالأحرى معاوية يدٌ في الميل إلى عثمان وممـا يستلفت الأنظار ان المؤرخين لم يقولوا عن ابن عوف انه وجد في الناس من يميل إلى غير عثمان من أكابـر الصحابـة كالزبير وطلحة وسعد وفي هذا دلالة واضحة على انَّ الناس كانوا يعرفـون الحقّ لسيدنـا علي عليه السلام وانّهم ما مالوا عنه لسواه على رغبة فيه بل بدافع من بني أميـة أمّا دافـع رغبة كسب أو تهيب مغبة شرّ .

ثمَّ رأينا الزبير وسعداً عندما رجع ابن عوف إلى أصحابه في جـانب علي ولذلـك قال ابن عوف لا أرى القوم سيجتمعون على خليفة وقد صدق .

وما كاد عثمـان كما سبق القـول يستسلم لعمومتـه الأمويين حتى أخـذت الشكوى تتعـالى من هنا ومن هنـا ليس لأنّه أسـرع فأبـدل عمّال الخـلافة بـالأمـويين أو مـواليهم وشيعتهم بل لأنّ الذين ولّاهم لم يكـونوا من النـزاهة والعـدل والاستقامـة وحسن السيرة على ما عهد المسلمون بولاتهم وحكامهم وتحوّلت شكايات النـاس إلى تقمقم وموجـدة عنـدما رأوا أنّهم يـرفعون شكـاويهم إلى الخلافـة فلا ينـظر فيها إلّا إذا أكـره على ذلـك إكراهاً خـلافاً لمـا عهدوا في زمن عمـر وازدادوا حقداً ومـوجدةً عنـدما رأوا أمـوال الأمّة وأشياءَها تتسرَّب إلى جيوب الأمويين وأشياعهم وهي على مـا تعلم كانت مشتـركة بينهم يقتسمونها على السوية على عهد النبوَّة وفي عهدي أبي بكر وعمر فكان هذا أسوأ مـا أثر عليهم وحملهم على إعـلان غضبهم على الأمويين وعلى الخليفـة عثمان الـذي استبدوا=

كَـذَا أُمَيَّـةُ صَـالَتْ دُوْنَـهُ وَقَـدِ آسْـتَصْفَتَ لِأَنْفُسِهَـا خَيْـرَاتِ أَهْلِيْهَـا

= بالخلافة تحت ظلاله وكانوا يقولون إمّا أنّ الخليفة على رأيهم وهو الذي يمهّد لهم سبل الانتفاع ليسلكوها وإمّا أنّه على غير رأيهم ولكنه يعجز عن صدّهم لضعفه وعلى الحالين هو غير كفء للخلافة وعليه أن يخلع نفسه منها .

وسبق لنا القول انّ الناس لم يزالوا يذكرون حقّ علي في الخلافة فأصبحوا يتشيعون له في طعنهم على عثمان وينوهون باسمه في كلّ زمان ومكان ويرجعون إليه في الشكوى فيجدونه مثلهم ناقماً على ما ينقمون وغير راضٍ كما أنّهم ليسوا براضين ولهذا كان عثمان يتهم سيدنا عليّ بتحريش الناس ضدّه ولا أعتقد أنّه لم يكن عارفاً بحقيقة الأسباب التي حملت الناس على النشوذ عليه والنهوض في وجهه ولكنه مع ذلك لم يكن لضعفه بمستطيع أن يعمل عملاً مع عمومته الأمويين فيكفّ أذاهم عن الناس ويكتسب بذلك رضاء الناس .

وكان على رأس المشنعين بعثمان ومن حوله من الأمويين رجل من أكابر الصحابة القريشيين يدعى أبو ذرّ فقد عرف الناس هذا الرجل من أقدم أصحاب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه صادق أمين غيور على الإسلام فكانوا يحترمونه ويكرّمونه . وقد أبى هذا الرجل إلّا الجهر بما في نفسه من إنكار تساهل عثمان مع الأمويين وذلك عندما أعطى عثمان بيوت أموال المسلمين إلى مروان بن الحكم واختصّ ابن ثابت بشيء منها فصار أبو ذرّ يتجوّل في شوارع المدينة المنورة وهو ينادي « بشّر الكافرين بعذاب أليم » ويشفع هذا بتلاوة قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم** ﴾ وكان ينقل الناس إلى عثمان نبأ أبي ذرّ وهو يتغاضى حتى استفحل الأمر في المدينة فأرسل له رسولاً يقول له انته عمّا أنت فاعل فشجبه قائلاً : أينهاني عثمان عن قراءَة كتاب الله تعالى ؟ وعيب من ترك أمر الله تعالى ؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليَّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضاء عثمان . فأغضب جوابه عثمان واحفظه ولكنه تصابر وتماسك إلى أن قال عثمان يوماً في المسجد والناس حوله وفيهم أبو ذرّ أيجوز للإمام أن يأخذ من مال المسلمين شيئاً قرضاً فإذا أيسر قضى ؟ فقال كعب الأحبار لا بأس بذلك فانتهره أبو ذرّ قائلاً أتعلمنا ديننا ياابن اليهوديين ؟ فغضب عثمان وقال قد كثر أذاك لي وتوليك بأصحابي يا أبا ذرّ فالحق بالشام ولا تقم بعد اليوم بجواري . وبالفعل أرسله إلى معاوية في الشام فجعل أبو ذرّ =

في الشام ينكر على معاوية أشياء يفعلها جهراً في الأسواق وهـو يكرر الآيـات فبعث إليه معاوية ليسكته ثلاثمائة ديناراً فقال أبـو ذرّ لرسـوله إن كـان هذا المـال من عطائي الـذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها وإن كان صلةً فلا حـاجة لي فيـه وردّه عليه فعلم معـاوية أنّ الرجل فوق أن يبيع ذمته بالمال فتهيبه وبقي أبو ذرّ على حاله من تجوله في الأسواق وهو يجهر بما يجهر به من التشنيع على الأمويين فكان يقول : لقد حدثت أعمـال ما أعـرفها والله ما هي في كتاب ولا سنّة نبيّه والله والله لأرى حقّاً يطفأ وباطلاً يحيا وصـادقاً مكـذّباً وأثرةً بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه ونحو ذلك .

ثمّ إنّ معاوية بنى قصره في دمشق المعروف بالخضراء فجاءه أبو ذرّ وقـال إن كان ما بنيت من مال الله فهو الخيانة وإن كان من مالك فهو الإسراف فضاق صدر معاوية عن احتماله وخاف على الشام من فلتات لسانه فاستـدعاه إليـه وقال لـه : يا عـدوّ الله وعدوّ رسوله لقد أزعجت الناس بما تقول ووالله لـو كنتُ قاتـل رجلٍ من أصحـاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك ولكني أستـأذن فيك فـأغلظ له أبـو ذرّ في الجواب فأمر بسجنه وكتب إلى عثمان فأجابه أن أحمل جندباً بن جنادة « إسم أبي ذرّ » إليّ على أخشن مركب فوجّه به كذلك إلى المدينة فلما دخل على عثمـان وقد أنهكـه السفر حتى سقط لحم فخذيه أمره عثمان بالمسير إلى الربذة « بجوار البصرة » ليعيش منفياً فيها وأمر الناس أن يتجنبوا محادثته ومخالطته .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فقد أكبر معاملة أبي ذرّ على هـذا الوجـه من الشدّة لا لسبب سـوى أنّه غـاضب لله ناقـدٌ أعمال الأمـويين فما عبيء بمنـع عثمان عن مخـالطتـه وسار لوداعه وهو ذاهب إلى المنفى وكان معـه الحسنان وأخـوه عقيل وعمّـار وكان مـروان بن الحكم يرافق أبا ذرّ ليمنع الناس عن مكالمته فأراد الحسن مخاطبته فمنعه مـروان فتقدم سيدنا علي غاضباً من مروان وضرب السوط بين أذني بعيره وقال لمروان تنحَّ نحاك الله إلى النار فتنحى وظلّ سيدنا علي ومن معـه يلاطفـون أبا ذرّ إلى أن أبعـدوا عن المدينـة وحينئذٍ خاطب سيدنا علي جندباً وهو يودّعه فقال :

« يا أبا ذرّ غضبتَ لله فارجُ من غضبت له ، إنّ القوم خافـوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم مـا خافـوك عليه ، واهـرب منهم بما خفتهم عليـه ، فما أحـوجهم إلى ما منعتهم ، ومـا أغناك عمّـا منعوك ، وستعلم من الـرابح غـداً ، والأكثر=

=حسداً ، ولو أنَّ السموات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلاّ الحقُّ ، ولا يوحشنك إلاّ الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » اهـ .

ثمَّ إنَّ سيدنا علي عليه السلام مال إلى ولديه وقال ودّعا عمّكما وإلى أخيه وقال ودّع أخاك فودّعه كلٌّ منهم بكلمات طيّبة مؤثّرة فبكى أبو ذرّ وكان شيخاً كبيراً وقال : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله وما لي في المدينة سكن ولا شجن غيركم اني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام فسيرني إلى بلد ليس لي فيه نصير ولا دافع إلاّ الله والله لا أريد إلاّ الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة . ثمَّ صافح أبو ذرّ مودّعيه فصافحوه وعادوا إلى المدينة . أمّا مروان فأكبر انتهار سيدنا علي له وقامت قيامته إلاّ أنّه ظلَّ أمام هذا السيد العظيم مقهوراً مخذولاً في حديثٍ يطول لا محلَّ له هنا . وأمّا أبو ذرّ فقد مات في الربذة بعد نفيه ببضع سنوات وكان أبو ذرّ رجل أسمر ضربٌ من الرجال خفيف العارضين في ظهره انحناء ولم أقف على ترجمته أكثر من أنّه كان كثير الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد شهد عنه علي فقال قال رسول الله : « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ » .

ومن قصة نفي أبي ذرّ إلى الشام فالربذة والكلمات التي ودّعه بها سيدنا علي عليه السلام عرفنا أنَّ حكم عثمان لم يكن على ما يريد المسلمون الأولون الذين تلقوا آداب الإسلام وتفقهوا في شريعته على رسول الله عليه السلام فإنَّ أبا ذرّ من السابقين في الإسلام وغضبته على عثمان وعمّاله لها محلها من الاعتبار وسيدنا أمير المؤمنين لا يجرأ مسلم صادق الإيمان على الطعن في صدقه أو انتقاصه بذمّ وإقراره أبا ذر على رأيه في خلافة عثمان وعمّالها لا يمكن إغفال وجاهته عند الباحثين المدققين . ومن ثمَّ فقد كان إجماع في المسلمين على الشكوى من عمّال عثمان وقد اتّفق هذا الإجماع على رأي أبي ذرّ وعلي فإذا كانت لا تجتمع الجماعة على باطل وإذا كان سيدنا علي أسمى من أن يؤيد باطلاً أو يحارب حقّاً وإذا أضفنا إلى هذا وذاك إنكار عائشة وطلحة والزبير أعمال عمّال عثمان أيضاً وجهرهم بالتشنيع بحكمه على ما هو ثابت صريح في كتب التاريخ على اختلافها حتى التي وضعت لإرضاء بني أمية ظهر لنا أنَّ الشكوى من خلافة =

وَأَكْثَرَتْ بَعْدَ ذَا نَقْدَ آلْخِلاَفَةِ حَـــتَّى أَصْبَحَتْ هَدَفاً يَرْمِيْهِ قَالِيْهَا

=عثمان في محلها ولكنا نعود فنقول إنّ عثمان لا ذنب له في كل ما جرى في خلافته إلّا ضعفه واستسلامه إلى الأمويين ولا سيما مروان بن الحكم الذي كان وزيره وصاحب ختمه والمسيطر على خلافته ومعاوية داهية الأمويين الذي كان وهو حاكم الشام لا ينفكّ يعمل إلى غرض معين ظهر فيما بعد وهو استئثاره بالخلافة لنفسه ولبيته من بعده .

وبعد فإنّ الخلافة ما تعرضت للأخطار التي تعرَّضت لها إلّا لأنّهم جعلوها مشاعاً بلا قاعدة في قريش في يوم السقيفة على أثر وفاة المصطفى ﷺ ولو أنّهم أقروها في بيتٍ معين لما طمع بها الطامعون فتفرقوا لأجلها شيعاً فكان من أمرها ما نعلم لأنّ ما في كل وقت يقوم « مستبدٌ عادل » كعمر يضبط الأمور كما ضبطها ويمنع النفوس من إدراك مطامعها . وعندي وأعود فأقول على جهلي وقلة علمي أنّ وجوه مهاجري قريش من يوم السقيفة دخل على نفوسهم طمع الوصول إلى الخلافة إن لم يكن عاجلاً فآجلاً فإذا توفق عمر إلى الحجر على بعضهم في المدينة وهو يقول « خيرٌ لكم أن لا تروا الدنيا ولا تراكم » فما كلُّ خليفة يستطيع أن يقول هذا القول ويستطيع أن ينفذه إذا هو قاله .
وعلى هذا فتكون الثورة التي أفضت إلى قتل عثمان قد كانت بداءَة أسبابها من عمل أهل السقيفة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثمَّ أنّ استخلاف أبي بكر عمراً قد أوجد للثورة سبباً آخر فقد تمَّ الاستخلاف بمجرد اجتهاد الإمام ومن غير أن يتقيد بشورى فصار همّ الذين يحسبون أنفسهم أولياء عهد الخلافة التزلف للخليفة والتسابق لكسب رضاه ولعلَّ هذا السبب هو الذي أعان عمر على تنفيذ رغبته بحبس من حبس في المدينة من وجوه قريش ولكن لا يبعد أن يكون أوجد شيئاً من التحاسد بين الذين كان عمر عنهم راضٍ والذين لم يكن راضياً عنهم وبالأحرى بين الذين استعملهم وبين الذين أهمل أمرهم ولا جرم أنَّ الشورى التي جعلها عمر مبدءاً جديداً للإستخلاف كانت سبباً ثالثاً للثورة فإنَّ عمراً بمطلق اجتهاده حصر المرشحين للخلافة بالستة الباقين من العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم فجعل لعمله شبه مصوَّغ ولا بدَّ أنّ الناس تساءَلوا همساً إن لم يكن جهراً إذا أراد عثمان أن ينحو نحوه فيمن يحصر الخلافة ؟ وقد لا يموت إلّا والذين حصر عمر فيهم الشورى قد تداركهم الموت إلّا واحد أو اثنين منهم فيكون له عذر أن يرجع إلى قاعدة أبي بكر فيستخلف ولا أظنهم كانوا يعتقدون أنّه سيستخلف غير واحد من بني أميّة لما =

وَرَاجَعَتْهَا تُرِيدُ ٱلْعَدْلَ شَاكِيَةً عُمَّالَهَا فَتَأَبَّتْ أَنْ تُشَكِّيهَا

= أظهر من الميل الشديد إلى أبناء عشيرته الأمويين والظاهر أنّ هذا كان عندهم عند حدّ اليقين ولذلك كانوا شديدي القلق من استسلامه للأمويين وتسليمه زمام الخلافة لهم كأنّه يهيئوهم إلى الاستئثار بالخلافة دون جميع قريش فيكون ما أباه أبو بكر وعمر على الهواشم وهم أهل رسول الله وعشيرته وورثاؤه الشرعيون قد صار للأمويين وليس لهم يد بيضاء في نشر الإسلام بل بالعكس كانوا على رأس محاربيه والمجاهدين في سبيل محوه .

فمن هذه الأسباب التي سردناها يسهل على القارىء اللبيب أن يفهم شيئاً من حقيقة ما دفع الناس إلى التقمقم على خلافة عثمان والرغبة عنها وتفرُّق كلمة وجوه قريش إذ راح كلٌّ منهم يعمل لنفسه فيجمع الأموال ويحزب الأحزاب انتظاراً لليوم الذي تخلو فيه الخلافة من واليها فينهض للمطالبة بها .

هذا ما كان من أمر وجوه قريش أمّا المسلمون فقد كانوا مسلمين قبل كلّ شيء وكانوا ينظرون إلى الخلافة كإمامة دينية ويهمهم أن يكون صاحبها متشبهاً برسول الله الذي يمثله فيما بينهم ولا سيما بالمساواة بين الناس بالفيء والغنائم والوظائف وكانت لعهد عثمان أدرّ مالاً وأعظم نفعاً وأكثر وجاهةً مما كانت على عهد النبوّة وكانوا يرون أنفسهم متساوين في الحقوق لا يفضل قرشيهم سائر العرب ولا عربيهم سائر المسلمين فلما رأوا عثمان يميز الأمويين بوظائفه وخيرات خلافته حتى أثرت بطونهم ثارت ثائرتهم وانصرفوا إلى البحث في الخلافة ولمن هي شرعاً وهم راغبون بإرجاعها إلى صاحبها الشرعي وهو سيدنا عليّ لما عهدوه من استعداده إلى إرجاع الحكم فيها لما كان عليه على عهد المصطفى ﷺ وكان هذا سبباً لإيجاد فئةٍ من الناس تنادي بحق سيدنا عليّ الضائع وتطلب أن يعاد إليه وهي أساس الشيعة .

ويجب أن لا ننسى أنّ الناس يعملون بطبيعة سنة البقاء لمصالحهم فكان كثيرون منهم ينظرون إلى المستقبل وقد فاتهم الخير من حاضرهم وانقسموا بذلك شيعاً فكانت شيعة تتحزب إلى طلحة لأنّ طلحة اتّصل بها وأخرى إلى الزبير لأنّها عرفته وغيرها إلى غيره من وجوه قريش ممن تحسب أنّه سيفوز بالخلافة وكل شيعة من هاته الشيع كانت تؤمل أن يكون حظها على عهد صاحبها لو هو تولى الخلافة ما ناله الأمويون وشيعتهم على عهد عثمان على أنّ أشياع سيدنا علي كانوا شاذّين عن هذه القاعدة لأنّهم يعرفونه =

وَكَـانَ فِيْهَـا أَبُـوْ ذَرٍّ يُجَـاهِـرُ فِيْ نَقْدِ ٱلْخِلَافَةِ لَا يُخْفِيْ مَسَاوِيْهَـا

=لا يحابي بالوجوه ولا يشتري الدنيا بالآخرة ولا يعرف في الحق صاحباً محاذياً أو عدوّاً مخالفاً وهذا ثابت ومعروف ولذلك لا يصعب علينا أن نقول أن شيعة علي ما تشيعت له إلّا وهي على اعتقاد أنّه على الحقّ وأنّها تنصر الله ورسوله في انتصارها له وبالبداهة أنّ هذه الشيع كان نموها في العراق ومصر أكثر من الشام التي كانت خاضعة لمعاوية وهو على ما تعلم من يده الحديدية ذات القفاز المخملي الناعم فهناك لم يكن من يجرأ على المجاهرة بعداِء الأمويين إمّا رهبةً من معاويتهم أو توقعاً للخير منه في الحال على ما عرف من سخائه أو في الاستقبال عند ما يصبح الخليفة .

ويظهر أنّ الأمويين بعد أن تقادم عهد عثمان بالخلافة ما عادوا يكترثون لنقد الناقدين ونقمة الناقمين فازدادوا تمادياً وازداد الناس تقمقماً وكان الخليفة عثمان في المدينة لا يسمع لهم شكوى أو ان سمعها لا يعمل على ما يزيلها فأخذوا يفكرون بعمل جدّي يقومون به لإكراه خليفتهم على سماع شكاويهم والعدل في حكمه معهم وجعلوا يتكالبون في ذلك بين سائر الأمصار الإسلامية ويريد أن يقنعنا المؤرخون وآخرهم الشيخ محمد الخضري المصري في عصرنا هذا بأنّ الذين كانوا يتكاتبون للتحريض على عثمان هم فئات قليلة وأنّهم كانوا يفتئتون على عمال عثمان افتئاتاً فقالوا إنّ أهل كلّ مصر كانوا إذ انتهت إليهم كتب الشكوى من عمّال عثمان في الأمصار الأخرى يحمدون الله أنّ ليس حال مصرهم كحال تلك الأمصار وإنّي لا أريد أن أمرّ على هذه النقطة من غير أن أبحث فيها على قلة علمي مع أنّي لا أجهل كيف كانت تكتب التواريخ حتى قام أناس من أهل النقد علقوا عليها بما سمّوه « بفلسفة التاريخ ونقده » .

إذا صحّت رواية هؤلاء المؤرخين بأنّ الناقمين على عمّال عثمان كانوا أفراداً قلاقل وأنّهم كانوا يكذبون بما يشيعونه عن مفاسدهم لأغراض خاصة يرمون إليها فهل كان يتعذّر على عمّال عثمان إظهار كذبهم ومنع الناس عن الاغترار بهم ؟؟ نعم لم يكن في ذلك الزمان تيلغراف ولا تليفون ولا بريد منظم ولا سكك حديدية ولا طيارات تقرّب الأبعاد وتصل الناس بعضهم ببعض بالسرعة التي توصلهم بها اليوم ولكن الناس كانوا في بقعة متجاورة متلاصقة هي عبارة عن الحجاز واليمن ونجد والعراق والشام وفلسطين ومصر وكانوا يتنقلون في أطرافها للتجارة وفوق ذلك كان حجاجهم يجتمعون سنوياً في مكة المكرمة فيتعارفون ويتآلفون ثمّ يعود كلُّ فريقٍ منهم لبلده فإذا صحّت رواية =

فَكَـانَ يَمْشِيْ بِأَسْـوَاقِ ٱلْمَدِيْنَـةِ وَٱلآ م يَــاتُ عَنْ ظُلَمِ ٱلـظُّلَّامِ يَـرْوِيْهَــا

= المدافعين عن الأمويين عن كذب ما كان يرويه الناقمون على عمّال عثمان للزم أن يظهر كذبهم للملأ إن لم يكن بين عشية وضحاها فقل بين سنة وأخرى وهـذا لم يحصل بـل الذي ينظر إلى ما بين سطور التاريخ كان يجد عداد الناقمين على عثمـان ينمو عـددهم يـوماً بعـد يوم وسنـة بعد أخـرى حتى إذا ما كـان الحول الـرابع والثـلاثين للهجرة كـان الخطب قد استفحل وبلغ الحزام الطيبين وكانت الشكـوى بالأكثـر من مروان بن الحكم المتصـرف بشؤون الخلافـة فعلاً فسمـه ما تشـاء وزيراً أو مسيـطراً أو حـاكمـاً بـأمـره أو « دكتاتور » كما يقول الإفرنج في عصرنا الحاضر .

والظاهر أنّ عثمـان ما كـانت تصل إليـه كل شكـاوى الناس بـل كان الكثيـر منها يخفيه عنه مروان بن الحكم والقليل الـذي يصله كان يسهـل على مروان أن يقنعـه بأنّـه كذب وافتراء من أعداء الأمويين والحاسدين لهم على النعمة التي ظفروا بها على عهده وكان عثمان لطيبة قلبه كثير الثقة بمروان فيصـدقه فيمـا يقول كمـا أنّ معاويـة كان يتـابع كتبه لعثمان مشنعاً بأعداء الأمويين المنبثين في العراق ومصر فيصدقه أيضاً ومثل معـاوية ما كان يصعب عليـه أن يؤثر رجـلٍ طيب القلب طاهـر السريـرة حسن النية كعثمـان بن عفان .

وقد استفحل أمر نفر من القرشيين النازلين في الكوفة أولاً فمـا وجد مـروان لحلّ مشكلتهم إلّا ببعثهم إلى الشـام بـأمـر عثمـان على أمـل أن يتـولاهم معـاويـة بحكمتـه فاستقبلهم هذا الداهية بالبشاشـة والإكرام وأدرَّ عليهم الخيـر الكثير ولكن لم يجـده هذا نفعاً وظلوا على نقد خلافة عثمان ينعون على عمّاله عملهم فخاف أن يفسدوا عليه أهل الشام فكتب بذلك إلى عثمان فـأمره أن يـوجههم إلى حمص فأرسلهم إليهـا فكانـوا في حمص على نحو ما كانوا في الشام فشدّد عليهم عبـد الرحمن بن خـالد بن الـوليد أميـر حمص فأظهروا الرضوخ فأمنهم وأعادهم إلى الكـوفة فعـادوا أشدَّ ممـا كانـوا نقمةً على الأمويين .

وكان سيدنا علي عليه السلام لا ينفك يجتمع بعثمان ويسدي إليه النصيحة أثر النصيحـة ويحذّره عقبى الاستسلام إلى أصحابه ويشرح له شكايات الناس ومظالمهم ويـطلب منه أن يكشفها وكان يلين له طوراً ويغلظ تارةً أمّا عثمان فكان يحسب أنّ كل ما كـان يقولـه لـه سيدنـا علي ليس من النصيحة في شيء وإن هـو إلّا من تأثيـر حقده عليـه لأنّـه فـاز =

= بالخلافة دونه وأجمع المؤرخون بعضهم صراحةً وبعضهم ضمناً أنّ عثمان لو أصغى إلى نصائح علي لما كان تلافي الشرّ صعباً عليه .

وعندما كثرت شكاوى الناس إلى عثمان من عمّاله وأصحابه الأمويين رأى أن يرسل رسله إلى أطراف الخلافة فيقفون بنفوسهم على مبلغ هاتيك الشكاوى من الحقيقة فسيّر محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمّار بن ياسر إلى مصر وآخرين مثلهم من أكابر قريش إلى الجهات ليستطلعوا طلع الحالة وكان ذلك في بدء سنة ٣٥ للهجرة فعادوا إليه جميعاً منكرين على الناس شكاياتهم ولم يتخلف عنهم إلاّ عمّار فإنّه بقي في مصر وانضمَّ إلى الناقمين الشاكين ونحن لا نريد أن نعتقد أنّ هؤلاء الزعماء مالوا مع الهوى ولكن يسبق إلى اعتقادنا أنّ عمّال عثمان تناولوهم وأقاموا بينهم وبين الشاكين سدّاً فلم يصلوا إليهم وما هذا بعزيز على الحكّام إذا أرادوا أن يخفوا الحقائق على المحققين كما أننا نرى في تخلف عمّار بمصر برهاناً على أنّه كان يعتقد بأنّ عودته إلى المدينة بالنبأ اليقين قد يعود عليه بالضرر ولا نفع منه للمسلمين .

عاد هؤلاء إلى عثمان ينكرون كل شكوى للناس ويحمدون عمّال عثمان ولكن الشكاوى لم تنقطع بل ظلّت ترد على عثمان تترى وكان سيدنا علي عليه‌السلام لا ينقطع عن نصحه وتنبيهه إلى الخطر المحدق به وبالخلافة رغماً عمّا كان يراه منه من سوء الظنّ بإخلاصه فأحرج بذلك عثمان فأرسل هذا إلى عمّاله أن يقدموا عليه في موسم الحج فجاءَه منهم عبد الله بن عامر أمير البصرة ومعاوية أمير الشام وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر فجمعهم وضمَّ إليهم سعيد بن العاص أمير الكوفة وكان في المدينة وعمرو بن العاص فاتح مصر وسألهم عمّا يشكو الناس منه فأنكروا عليه كلّ شكاية وقالوا له أمّا أرسلت روَّادك فجاءُوك بالنبأ اليقين؟وكل ما عدا ذلك فهو فرية وكذب فسألهم عن مداواة الداء قبل أن يستفحل فما كان منهم إلاّ من أوجب استعمال الشدَّة فمن قائل يقتل الشاكين ومن قائل أن يرجع إلى الشدَّة التي كان يجري عليها عمر فهزَّ عثمان رأسه وقال : « إنّ الفتنة لدائرة وطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها » وفي قوله هذا ما يفيد أنّه كان بينهم مغلوباً على أمره يشعر من نفسه أنّه ألعوبة بأيديهم لا حول له ولا طول وبعد ذلك أعادهم إلى عمالاتهم من غير أن يفعل شيئاً يرضي به الشاكين فيطفىء نار الفتنة =

= ومما يذكـر أنّ معاويـة لم يفته حـرج الحالـة فطلب إلى عثمـان أن يسير معـه إلى الشام فيحميه من أعدائه فأبى قائلاً أنّه لا يدع جوار رسول الله فعرض عليه أن يرسل لـه جيشاً من الشام يحميه فقال لا أضيق على أهل المدينة بهم ولا بدَّ أنّ عثمان قد حذر الأمـرين وتوقع من ورائهما الفتنة التي كـان شديـد الخوف منهـا فقد يفضي مسيـره إلى الشام أن يجتمع الناس في المـدينة ويخلعـوه ويولّـوا سواه وفي قبـوله جيش الشـام يحتمي به أن يهاجم الناس المدينة بحجة إخراج جيش الشام منها فيفضي الأمر إلى خلعه وهو ما كان يرضى الخلع كما عرفنا ذلك منه عندما ضيّق الناس عليه الحصـار وطلبوا منـه أن يخلع نفسه فقال إنّه لا يخلع ثوباً كساه الله .

أمّا أولئك الشاكون فقد كان صبرهم قد أعيل فهمّوا بالفتنة بعد خروج أمرائهم إلى المدينة بدعوة عثمان ولكن لم يتيسّر ذلك لهم إلاّ من في الكوفة فقد خرجوا بحجة أنّهم يستعينـون بعثمان على أميـرهم سعيد بن العـاص وما كـادوا يصلون إلى الجـرعـة حتى وجـدوا سعيداً قـادماً عليهم فـردّوه كرهـاً إلى المـدينـة ورجعـوا متمسكين بـأبي مـوسى الأشعري وكتبوا بذلك إلى عثمان فأقرَّهم على ما فعلوا تلافياً للفتنة .

وتـراسل بعـد هذا أهـل الكوفـة والبصرة ومصـر على أن يـرسلوا وفـوداً منهم إلى عثمان « يأمرون بالحق وينهون عن المنكر ويسـألون عثمـان عن أشياء ينكـرونها عليـه » فلما علم عثمان بمقـدم هؤلاء الوفـود استشار من حـوله من الأعيـان في أمرهم فـأشاروا عليه أن يقتلهم فلم يفعل مخافة أن يوري زند الفتنة بيده وهو الأمر الـذي كان منـه على أشدّ الحذر فخالفهم وأحضر الوفد إليه وسمع شكاياتهم الواحدة بعد الأخرى وأخذ يفند لهم واحدةً واحدة لا بإنكارها أو إثبات صحة اجتهاده فيها بل بالاستشهاد بأن قد أجرى مثلها المصطفى ﷺ أو عمر أو أبو بكر وكان فيما قاله شيء من المغالطة على نحو ما نأتي ببعضه للاستشهاد . فأجاب عثمـان عن حجة النـاس عليه بـأنّه ولّى الأحـداث بأنّ المصطفى سبق له تولية أسامة بن زيد وهو حدث ووجه المغالطة في الأمر هو الفرق بين أسامة الذي كان موضع إعجاب المصطفى بكمالاته وبين الذين ولاّهم عثمان وقـد ثبت عليهم ما ثبت من عدم كفاءتهم للحكم واسترسـالهم في أهوائهم . واحتجَّ عن إعطائـه أمواله إلى بني أمية بأن ما أعطاه لهم هو من ماله الخاص الذي أصابـه من الفيء بصفته خليفـة المسلمين وأنه حـرٌّ فيـه وأنّـه كـان يـولي النـاس الأعـطيـات الكبيـرة على عهـد =

ضَجَّتْ أُمَيَّـةُ مِنْـهُ وَٱلْـخَلِيْـقَـةُ إذْ   قَـدْ كَانَ يُؤْذِيْـهِ مَا قَـدْ كَـانَ يُؤْذِيْهَـا

= المصطفى إلى آخر ما قال ووجه المغالطة في هذا هـو أنّه كـان يعطي أموالـه على عهـد المصطفى للفقراء لا لبني أميّة وان ما كـان يعطيـه هو من صلب مـاله لا من مـال الفيء الذي اختصه لنفسه وهو للمسلمين وما كان يفعـل مثل ذلـك أبو بكـر وعمر بـل المأثـور عنهما أنّهما كانا لا ينالان من أموال المسلمين إلاّ ما يسدّ حاجتهما وحاجة عيالهما وفات عثمان أيضاً وجه شكوى المسلمين من تخصيص بني أميّة بالأموال الوفيرة أو هو تجاهله وحقيقـة تلك الشكوى هي أنّـه بإعـطائـه الأمـوال إلى بني أميّـة وبتسليمـه إلى عهـدتهم المملكة الإسلامية يحكمونهـا كان يعمـل على تحويـل الخلافـة الإسلاميـة التي أسسها رسول الله ﷺ لتكون اشتراكية عـاملة على إسعاد أهلهـا على السويـة على أبدع نـظام عرفه البشر إلى « ملك عضوض » لا يمتاز بشيء عن الممالك الدنيوية المعروفة وأحقيـة شكوى السلف الصالح هذه ظهرت بكل جـلاء ووضوح فيمـا بعد عنـدما نهض معـاوية لمحاربة سيـدنا علي عليه السلام ثم استئثـاره بالخـلافة لنفسـه وحصرهـا في بني أميّة فلم تبق تلك الخلافة على مـا أوجدهـا الله على يد رسـوله النبيّ العـربي الأمي لإسعاد البشـرية على أسمى وأفضـل مبادىء الشعبيـة « الديمـوقـراطيـة » التي بعـد ١٣٠٠ سنـة أخـذت تتطلبها وتسعى إليها أرقى وأعظم شعوب الأرض .

وفي الأخير انصرفت الوفود من المدينة وهي غير راضية عن عثمـان بل ومـأيوسـة من إعادة الخلافة إلى العهد الـذي كانت عليـه في ظلال رسـول الله ﷺ على نحو مـا يعلمـون من أحكام الشـريعة الإسـلامية السمحـاء وعنـدمـا عـادوا إلى بـلادهم وأبلغـوا جماعتهم ما كان من أمر عثمـان منهم ازدادوا غضباً وأخـذوا يتحفزون إلى عمـل حاسم يضع حدّاً لتمادي أمية في الحكم مستفيدةً قوةً من ضعف عثمان بن عفان .

أمّا الشكاوى التي كان الناس يتمسكون بها على عثمان فهي كثيرة أهمها أنّه أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاّهم الولايـات وأقطعهم القـطائع . وافتتحت أرمينيـا في أيامـه فأخذ الخمس كله ووهبه إلى مروان . وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلةً فأعطاه أربعمائة ألف درهماً . وأعاد الحكم بن أبي العاص إلى العمل بعد أن صرفـه رسول الله ولم يستخدمه أبو بكر وعمر وما كفاه هذا بل نفحه مئة ألف درهماً . وأقـطع الحارث بن الحكم مـوضع سـوق يسمى تهرز وكـان رسـول الله ﷺ تصـدّق بـه على المسلمين . وأقـطع مروان بن الحكم « فـدك » وقد كـانت سيـدتنـا فـاطمـة عليها السلام طلبتهـا بعـد وفـاة =

وَمَا ٱسْتَطَاعَ ٱبْنُ عَفَّانٍ بِهَامِيَةِ ٱلْأَمْوَالِ إِسْكَاتَهُ إِذْ رَاحَ يُسْدِيْهَا

= أبيها ﷺ تارةً بالميراث وأخرى بالنحلة فدفعها أبو بكر وعمر عنها . وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلّا عن بني أمية فأباحها لهم . وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقيا بالمغرب « من طرابلس الغرب إلى طنجة » من غير أن يشرك فيه أحد من المسلمين . وأعطى أبا سفيان بن حرب والد معاوية مائتي ألف درهماً من بيت المال في اليوم الذي وهب مروان المئة ألف درهم وقد زوَّجه ابنته أم أبان فجاءَ زيد بن الأرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان أتبكي إن وصلت رحمي ؟ قال لا ولكن أبكي لأنّي أظنك أخذت هذا المال عوضاً عمّا كنت تنفقه في سبيل الله في حياة رسول الله ولو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيراً ولو أعطيت أبا سفيان درهماً واحداً لكان أكثر وكلاهما حاربا الإسلام ما شاء الله فقال عثمان الق المفاتيح يابن أرقم فإنّا سنجد غيرك . وأتاه أبو موسى الأشعري بأموال العراق فقسمها كلّها في بني أمية وغير ذلك كثير . ولم يكن هذا وحده سبب نقمة الناس على عثمان بل هنالك أمور أخرى منها تحجبه عن رعاياه وتهاونه في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية وأنت تعلم أنّ أكثر هاتيك الأيدي العادية كانت أيدي بني أمية ومن شايعهم .

وفي حجه سنة ٣٥ هجرية خرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم نحو الألف وكان أميرهم الأكبر الغافقي بن حريب العكي وكان معهم ابن السوداء ولم يعلنوا أنّهم خارجون للثورة بل أظهروا للناس أنّهم سائرون للحجّ . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم نحو الألف وكان أميرهم عمرو بن الأصمّ وادّعوا أنّهم يريدون الحج أيضاً وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم نحو الألف وعليهم أربعة أمراء وأميرهم الأكبر حرقوص بن زهير السعدي وتظاهروا برغبة الحج أيضاً . لا جرم أن خروج هؤلاء الثائرين للمدينة وهم يتظاهرون برغبة الحج وجهل عمّال عثمان بحقيقة نواياهم مما يوجد العجب من دهاء منظمي هذه الثورة وبراعتهم في تكتم نياتهم . وقد بلغ ثائرو هذه الأمصار الثلاثة ضواحي المدينة المنورة في زمن متقارب وفي هذا أيضاً من البراعة والدهاء ما فيه ونزلوا في موضع يسمى « ذخشب » وأرسلوا من قبلهم روّاداً قصدوا أكابر الصحابة وفي مقدمتهم سيدنا عليّ وطلحة والزبير وأنباؤهم أنّهم ما قدموا المدينة للاعتداء على شخص الخليفة ولا لإحداث حدث في الإسلام ولكن لإكراه الخليفة على إقالة عمّاله الذين طالما شكوهم =

بَـــلْ زَادَهُ جِــرْءَةً إِذْ كَـــانَ يَشْجِبُــهُ   يَقُــوْلُ تِلْكَ حُقُــوْقُ آللَّهِ أَقْضِيْهَـــا

=لعثمان ولم يشكّهم وعادوا من غير أن يجدوا مشجعاً لهم ولعلّهم كانوا يطلبون قبل كل شيء إقصاء مروان بن الحكم عن الخلافة على نوع خاص على اعتبار أنّه السبب الأكبر لكل ما كان يجري في الخلافة .

وأرسل الثائرون من يرود أمر المدينة ويطّلع طلع أهلها فعادوا إليهم ينبئونهم أنّ الناس في المدينة لا يعلمون عن مقدمهم شيئاً فأقبلوا على المدينة ودخلوها فتهيب عثمان قدومهم وأسرع بنفسه إلى منزل سيدنا عليّ عليه السلام فدخل عليه وقال : يابن عم إن قرابتي قريبة ولي عليك حقّ وقد جاء من ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحيّ ولك عند الناس قدرٌ وهم يسمعون منك وأحبُّ منك أن تركب إليهم فتردهم عنّي فإن في خروجهم عليَّ وهناً لأمري وجراةً عليَّ فقال عليّ : على أي شيءٍ أردُّهم ؟ قال عثمان : على أنّ أصير إلى ما أشرتَ به ورأيته لي. قال علي : إنّي قد كلمتك مرةً بعد أخرى وأنت تعد وترجع وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد إذ أطعتهم وعصيتني قال عثمان : ولكن الآن آليت أن أطيعك فقال حبذا لو صدقت وأسرع فركب إلى القوم ومعه ثلاثون رجلاً من خيار المهاجرين والأنصار فكان من المهاجرين سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وكان من الأنصار أبو أسيد الساعدي وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهم فأتوا الثائرين وكلمهم علي ومحمد بن مسلمة فسمعوا منهما وهمّوا بالرجوع بأصحابهم يطلبون مصر ورجع سيدنا علي عليه السلام مع من معه إلى المدينة وقابل عثمان وأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس منه ليسكنوا إلى ما بعدهم به من النزوع إلى الإصلاح وقال له : إنّ البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن أن يجيء الشرّ من جهة أخرى فتقول لي يا عليّ اركب إليهم فإن لم أفعل تقول قد قطع رحمي واستخفَّ بحقي فقبل عثمان النصيحة وأرسل فاستدعى زعماء الثائرين فقدموا إلى المسجد وخرج إليهم عثمان فخطب خطبته نزع فيها ما يشكى منه ووعد بالتوبة فرقّ الناس وبكوا حتى خضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً فلما نزل وعاد إلى بيته وجد هناك مروان وسعداً ونفراً من بني أمية لم يحضروا خطبته بل سمعوا بها ونقموها فقال مروان أأتكلم يا أمير المؤمنين أم أسكت ؟ فقالت نائلة إمرأة عثمان وكانت حاضرة بل تسكت فأنتم والله قاتلوه وميتمو=

= أطفاله انه وقد قال مقالته لا ينبغي له أن ينزع عنها فشجبهـا مروان فشجبتـه وتشاتمـا ثمَّ عاد مروان فقال لعثمان : بأبي أنت وأمي وددت لو أنّ مقـالتك هـذه كانت وأنت ممتنـع فكنتُ أنا أول من رضي بها وأعان عليها لكنك واأسفاه قلت ما قلت حين أعطى الخـطة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبةٍ تخوَّف عليها . مـا زدت على أن جرأت الناس عليك وما زال مروان يغري عثمان بالـرجوع عن وعـده مبيناً له أنّه هو الذي أطمع الناس بضعفه حتى اقتنع وسمـح له أن يخـرج إلى الناس وينقض قوله فخـرج مروان وقـال لهم بغلظةٍ : ما بـالكم قد اجتمعتم كـأنّكم جئتم لنهبٍ شاهت الوجوه أتريدون أن تنزعوا ملكنـا من أيدينـا اعزبـوا عنّا وان والله رمتمـونا لتمـرنَّ عليكم ماحلاً ولتملنَّ بكم ما لا يسركم ولا تحمدوا فيه غبَّ رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنّا والله غير مغلوبين على ما في أيـدينا اهـ فلمـا سمع النـاسِ من فم مروان غيـر ما سمعـوا من عثمان رجعوا وهم يسبّونهما كليهما . ولما بلغ علياً عليه السلام ما كـان من مروان أسـرع إلى عثمـان فوبّخـه لانقياده إلى مـروان وأنذره بسـوء العقبى وأعلنه بـأنّه سـوف لا يعـود إلى معاتبته أبداً وانصرف وبعد انصرافه دخلت عليه امرأته نائلة فحضته على الإصغاء لسيدنا علي والإعراض عن مروان فندم على ما كان منه وأرسل ثانيةً إلى علي يستقدمـه فرفض أن يجيء إليه فسار إليه عثمان تحت جنح الظلام فقال له علي عليه السلام ما هذا يـا عثمان ؟ أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله وأعـطيت من نفسك ثمَّ دخلت بيتـك فخرج مـروان إلى الناس يشتمهم على بابك ؟ والآن تريـد مني أنِ أعود فـأراضي الناس فهـل تظن أنَّ باستطاعتي أن أراضيهم لا والله وهكذا انصرف عثمان من دار علي وهو مأيوس .

وفي صباح اليوم التـالي خرج عثمـان إلى المسجد ليصلي بـالناس وخـطب فيهم بعد الصلاة فقال إنَّ الناس قد رجعوا بعد أن علموا أن ما بلغهم عن إمامهم كـان باطـلاً فما أمهل عمرو بن العاص ان عارضه قائلاً وإنك هناك يابن النابغة فملت والله جبتك مذ عزلتك عن العمل . فلما سمع عمرو بن العاص قول عثمان خرج من المسجد وهو أشدُّ نقمةً على عثمان من كلّ الناقمين عليه وسار لساعته إلى قصره في فلسطين فأقام فيه بعد أن بذر في صدور الناس من الحقد على عثمان ما بذر .

وما أمهل الثائرون ان عادوا بعد خروجهم من المدينة فاعتـرضهم علي عليه السلام رغبة تلافي الشرّ وكـان معه محمـد بن مسلمة وقـال لهم ما سبب عـودتكم ؟ وهو يـظنّ أنّهم=

فَـرَاحَ مُبْعِـدَهُ لِلشَّـــامِ يَحْسِبُ قَـدْ   يَـكُفُّ شِــرَّتَــهُ عَـنْــهُ مُعَـاوِيْـهَــا

=عائدون لـلإنتقام لأنفسهم مما أسمعهم مروان في أمسهم فـأخرجـوا صحيفةً في أنبـوبة رصـاص وقالـوا وجدنـا غلام عثمـان بالبـويب على بعير من إبـل الصدقـة ففتشنا متـاعه فـوجدنـا فيه هـذه الصحيفة يـأمر فيهـا بجلد عبد الـرحمن بن عويس وعمـرو بن الحمق وعـروة بن البيـاع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحـاهم وصلب بعضهم فـاغتـاظ سيـدنـا علي عليه السلام من هـذه الفعلة التي كانت مـوقظة الشرّ وسـار ومعـه محمـد بن مسلمـة إلى عثمان فدخلا عليه وكان عنده مروان وأخبراه برجعة الثـائرين إلى المـدينة وطلبـا منه أن يأذن بدخول المصريين منهم عليه فقال مروان بل أنا أخرج فأكلمهم فقال عثمان أسكت فضّ الله فاك ما أنت وهذا الأمر أخـرج عنّي فخرج فقصَّ علي مـا كان من أمـر الأنبوب الذي مسكه المصريون مع ساعيه وأخرج له الأنبوب من جيبـه فتناولـه عثمان ونـظر إلى الكتاب الذي فيه وأقسم بالله أنّـه ما كتبـه ولا أرسله فقال علي أليس هـذا الختم ختمك والسـاعي من عمّالـك والراحلة من نـوق الصدقـة قال نعم ولكني مـا كتبت الكتـاب ولا أمرت به فقال محمد بن مسلمة : صدق والله هذا من عمل مـروان فقال علي ان الأولى لتلافي الشرّ أن تسمـح للمصريين بـالدخـول عليك وتتلطف بهم لعلّك تستميـل قلوبهم قال فليدخلوا فأرسل علي أحد السعاة يـطلبهم فحضر منهم بعض وجـوههم فلم يسلّموا عليه بالخـلافة وذكر ابن عديس مـا فعل عبـد الله بن سعد عـامله على مصر بـالمسلمين وأهل الذمة وكيف استأثر بالغنائم وقال ومثل هذا يشكو أهل الكوفة والبصرة وغيرهما من الأمصـار وقد قـدمنا المـدينة ونحن نـريد أن نحملك على الحقّ فـردّنا علي وضمن لنـا نزوعك إلى الحقّ وما كدنا نهمُّ بالعـودة حتى رأينا غـلامك وكتـابك وعليـك خاتمـك . فحلف عثمان أنّه ما كتبه وقال علي ومحمد إنّه لصادق فقال المصريون ومن كتبه ؟ فقال عثمان لا أدري قالوا فمن يجرأ عليـك ويبعث غلامـك وجمل من الصـدقة وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم ؟ قال عثمان لا أعلم والله قالوا ما أنت إلاّ صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد حقّ عليـك الخلع لما أمـرت به من قتلنا والتنكيل بنا بغير حقّ وإن كنت صادقاً فالواجب أن تخلع نفسـك لضعفك عن هـذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيـد من تقطع الأمـور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله فقال عثمـان لا أنزع قميصـاً ألبسنيه الله ولكن أتوب وأنزع قالوا لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنـا ولكن رأينـاك تتـوب ثمَّ تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى وإن منعك أصحابك =

لٰكِنْ أَبُــوْ ذَرٍّ لاَقَى فِيْ ٱلشَّـآمِ أُمَيَّـــــةً عَلَى نَحْـوِ مَـا قَـدْ كَـانَ يَـدْرِيْهَـا

=وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك فقال عثمان أما ان أتبرأ من خلافة رسول الله فـالقتل أحبّ إليّ من ذلـك وأمّا قـولكم تقاتلون من منعني فـإنّي لا آمر أحـداً أن يقـاتلكم فمن قاتلكم فبغير أمـري وكثر بعـد ذلك الجـدال بين عثمان والمصـريين فنهض سيدنـا علي وأخرج المصريين حتى إذا ما أصبحوا خـارجاً حـاول أن يلطف من شنآنهم فمـا استطاع إلى ذلك سبيلاً فتركهم ومضى إلى بيته وهو آسف مما جرى ويتوقع الشرّ مما هو آت .

أمّا الثائرون فإنّهم يئسوا من الإصلاح وحصروا عثمان في الحال فلم يجد مشيروه خيراً من أن يكتبوا إلى الأجناد يستنجدونهم على الثائرين على أنّهم أشـاروا على عثمان أيضاً أن يعود إلى سيـدنا علي عليه السلام كي يستخـدم نفوذه على الثـائرين وبفضـل مساعيـه يطاولونهم إلى أن تصل النجدات المطلوبة ففعـل وأرسل إلى علي أن يتـوسط بينه وبين الثائرين ويردهم عنه على أن يعطيهم ما يطلبونه فقال سيـدنا علي إنّهم لا يقبلون التعلل وقد كان من أمري معهم ما كان وهكذا ردّ الـرسول ولم يفتـه عليه السلام أنّ عثمان وبـالأحرى مشيريه في هذه المرة يريدون المطاولة فأعاد عثمان رسوله إلى علي وهو ملحف عليه أن يـأتيه فمـا امتنع وجـاءَه فقال لـه : قد تـرى مـا كـان من النـاس ولست آمنهم على دمي فارددهم عنّي فإنّي أعطيهم ما يـريدون من الحقّ من نفسي وغيـري فقال سيـدنا علي : إنّ الناس أحوج إلى عدلك منهم إلى قتلك ولا يرضون إلاّ بـالرضى وقـد كنت أعطيتهم أولاً عهداً فلم تفِ به فلا تعوزني هذه المرة فـإنّي معطيهم عليـك الحقّ فقال عثمـان : أعـطهم فـوالله لأفينَّ لهم فخـرج علي إلى النـاس وقـال لهم : إنّمـا طلبتم الحقَّ وقـد أعطيتموه وقد زعم عثمان أنّه منصفكم من نفسه وأنا الضمين فقال النـاس قبلنا فـاستوثق منه لنا فإنا لا نرضى بقول دون فعل فتركهم سيدنا علي وعاد إلى عثمان فأنبأه بأنّ الناس ما عادوا يقنعون بمجرد الوعد بل يطلبون العمل . فقال عثمان إنّي لا أستطيع أن أردّ مـا كرهوا في يوم واحد فاضرب بيني وبينهم أجلاً . فقال عليّ : أمّا ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمـرك إليه قـال نعم فأجلي فيمـا في المدينـة ثلاثـة أيام فأجابـه إلى ذلك وكتب تعهـد على نفسه على ردّ كـل مظلمـة وعزل كـلّ عامـل كرهـوه فخرج علي إلى الثائرين وبشّرهم بما كان فاستبشروا وخففـوا الحصار وأقـاموا ينتـظرون التنفيذ .

أمّا عثمان وبالأحرى بطانته فجعلوا يعدّون عدتهم للقتال ومضت الأيام الثلاثة ولم =

رَأَى جَمَـاعَتَهَـا فِيْ مِثْلِمَـا عُمَـرٌ   لَمَّـا تَجَـوَّلَ فِيْهَـا كَـانَ رَائِيْهَـا

=يفعل شيئاً فـاغتاظ الثـائرون وشـدّدوا الحصار عليـه فأشـرف عليهم من منزلـه وخاطبهم متلطفـاً بهم يسألهم الـرفق به وبهم وهم يقـولون اخلع نفسـك فيقـول لا أخلع سـربـالاً ألبسنيه الله .

ولما مضت ثمان عشرة ليلة من الحصار قدم المدينـة ركبان من الأمصـار فأخبـروا خبر من تهيأ إليهم من الجنود الذين أعدهم عمّال عثمان لنجدته حسب طلبه فلما انتهى ذلـك إلى الثائـرين اشتدَّت عـزيمتهم على حلّ المشكلة قبـل أن تصـل جنـود الأمصـار فحالوا بين عثمان والناس ومنعوه كل شيء حتى الماء وهم ينادون بـأعلى أصواتهم أنّهم لا يريدون قتله ولكن خلعه أمّا عثمان فكان مصرّاً على البقاء في خلافته وأرسل سرّاً إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي يطلب منهم إسعـافه بـالماء فكـان أول من لبّاه سيـدنا علي عليه‌السلام فجاءَه في الغلس فقال أيّها الناس إنَّ الـذي تفعلونه لا يشبـه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإنّ الروم وفارس لتأسر فتـطعم وتسقي فقـالوا : لا والله ولا نعمـة عين فرمى بعمـامته بـالدار وأمـر بـالمـاء وأدخله على عثمان عنوةً ثمَّ جاءَت أمّ حبيبة زوج النبي بالماء لعثمان فما استطاعت توصيله إليه . أمّا عائشة زوج النبي فكانت من أشدّ الناس على عثمان تغـري الناس بـه وتنعي عليه عمله وتسميـه نعثلاً فلمـا وصلها رسـوله يـطلب منهـا أن تمـدَّه بـالمـاء علمت أنّ الثـورة قـد استفحلت فأحبت الخروج إلى مكة حتى لا تحضر الفاجعة واستدعت أخاهـا محمد بن أبي بكر وطلبت منه أن يصحبها فأبى فخرجت وحدها إلى مكة قبيل سفر الحجاج .

وكان طلحة لا يتحاشى الظهور بعداوته لعثمان فيؤلّب عليه الناس ويشدّد عزائمهم خلافاً للزبير الذي كان ملازماً بيته لكنه كان إذا أتى إليـه الثائـرون يحسّن لهم عملهم . وكـان عبد الله بن عبـاس ملازمـاً باب عثمـان لا يفارقـه فلما آن ميقـات الحـج وعثمـان محصور ولّاه أمارة الحجّ فقال الأفضـل عندي أن أبقى على جهـاد هؤلاء الناس فـأقسم عليه أن يسير فسار .

ولمـا رأى الثائـرون أن موسم الحـج قد دنـا وأن عمّال عثمـان قد وجهـوا الجنود عليهم عمـدوا إلى حلّ المشكلة بقتـل عثمان ونمي ذلـك إلى سيدنـا علي فأسـرع حالاً وأرسل ولديه الحسن والحسين وقال الزما بابه وموتا دونه أو تمنعاه وكذلك قـدم لحمايـة عثمان من القتل محمد بن طلحة ومـروان بن الحكم وسعيد بن أبي وقّـاص وعبد الله بن=

فَعَادَ لِلنَّاسِ فِيْ ٱلْأَسْوَاقِ يَنْشِرُ مِنْ آيِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّتِيْ رَامُوْهُ يَطْوِيْهَا

= الزبير وغيرهم من أبناء الصحابة فوقفوا بباب عثمان ومنعوا الثائرين من الدخول وبينما هم يجالدونهم خرج عثمان إلى أبناء الصحابة فزجرهم وأدخلهم داره وأغلق الباب عليهم دون الثائرين فقام رجل من أسلم يقال له تيار بن عياض وكان من الصحابة فنادى عثمان فخرج إليه وبينما هو يناشده أن يخلع نفسه إذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله فصاح المصريون قائلين ادفع إلينا القاتل لنقتله به قال ما أنا لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي فلما سمعوا جوابه ثاروا وهاجموا الباب فدخل عثمان وأقفله وجلس إلى المصحف يقرأ فيه أمّا الثائرون فإذ تعذر عليهم فتح الباب جاءُوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي فوقه وبينما هم لكذلك خرج إليهم من دار عثمان أولاد الصحابة على رأسهم الحسن والحسين ليردّوا الناس وكان معهم مروان بن الحكم فتعرض له رجل من بني الليث يدعى « البياع » فضرب مروان على رقبته فأثبت سيفه وقطع أحد علباويه فعاش بعد ذلك أوقص ولو لم تنجده مرضعته فاطمة أم إبراهيم بن عدي وتأخذه جريحاً إلى بيته لذففوا عليه . ولقي المغيرة بن الأخنس بن شريف رجلاً فقتله واقتحم الناس بعد ذلك الدار فتصدى لهم الحسن والحسين ومن معهما من أولاد الصحابة فمنعوهم فما كان منهم إلاّ أن اقتحموا الدار من دار عمر بن حزم التي بجوارها حتى ملأوها وندبوا منهم رجلاً ليعرض على عثمان أن يخلع نفسه فدخل عليه وهو في غرفته مكبّ على قراءة القرآن فقال له اخلعها وندعك فقال ويحك والله لست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة فخرج عنه ولم ينله بسوء . فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فآخر فكان يجيب عثمان كلاً منهما بما يرضيه ولكنه يأبى أن يخلع نفسه فيخرج ولا يناله بسوء . وكان آخر من دخل عليه محمد بن أبي بكر فقال له عثمان ويلك أعلى الله تغضب هل لي إليك جرم إلاّ حقّه أخذته منك « إشارة إلى أنّه عزله من أمارة مصر » فأمسك محمد بلحية عثمان وقال قد أخزاك الله يا عثل فقال لست بعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى عنك معاوية ولا مروان وفلان وفلان فقال عثمان ياابن أخي ما كان أبوك « ويريد أبا بكر » ليقبض عليها . فقال محمد لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك ،والذي أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك . فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه محمد وخرج وهو يقول تصاغر أمامي فتركته . وفي حال خروجه هجم على عثمان قتبرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه فسال دمه على المصحف وجاء سودان =

وَلَمْ يُفِـدْ مَعَـهُ مَسْعَى مُـعَـاوِيَـةٍ   إِذْ أَنَّ ذِمَّتَـهُ مَـا آسْـطَاعَ يَشْـرِيْهَـا

=ليضربه بالسيف فأكبت عليه امرأته نائلة لتمنعه وتلقت السيف بيدها فنفح أصابعها فـأطنَّ أصـابع يـدها وولت وثنّى على عثمـان فقتله . ودخـل غلمـة لعثمـان لينصـروه فضـرب أحدهم رقبة سـودان فقتله ووثب قتبرة على الغـلام فقتله وانتهبوا مـا في البيت وخرجـوا وأغلقوه على القتلى الثلاثة عثمان والغلام وسودان وبخـروجهم وثب أحد غلمـان عثمان على قتبـرة فقتله وكـان قتـل عثمـان يـوم الجمعـة لثمـاني عشـرة خلت من ذي الحجـة سنة ٣٥ هـ .

وبقي عثمان ثلاثة أيام قتيلاً مضرجاً بدمه لا يجرأ أحـد على دفنه ثمَّ أن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلّمـا علياً أن يـأذن بدفنـه فأذن وحسن لهم أن يـدفن ليلاً تلافياً للشرّ وسار بجنازته الحسن والحسين والزبير ومـروان بن الحكم وحذيفـة ودفن في حشّ كـوكب خـارج البقيـع وصلّى عليـه جبيـر بن مـطعم وكـانت ولايتـه ١٢ عـامـاً إلاّ ١١ يوماً .

وقد أفصح سيدنا أمير المؤمنين عن رأيه الأعلى في قتل عثمان وقتلتـه بما لم يبق معه مقال لقائل فقال : « لو أمرتُ به لكنت قاتلاً ، أو نهيت عنه لكنت ناصـراً ، غير أنَّ من نصره لا يستطيع أن يقول خـذله من أنـا خيرٌ منـه ، ومن خذلـه لا يستطيـع أن يقول نصره من هو خير مني ، وأنا جامع لكم أمره ، استأثـر فأسـاء الأثرة ، وجـزعتم فأسـأتم الجزع ، ولله حكم واقع ، في المستأثر والجازع » اهـ .

« كلمة إلى الشيخ محمد الخضري »

رأت إدارة الجامعة المصرية أن تلقي محاضرات في تاريخ الأمم الإسـلامية على طلبتها فانتدبت لذلـك حضرة الأستـاذ الشيخ محمـد الخضري ففعـل وطبع محـاضراتـه ووزعها على الناس . وبـالطبـع ان إدارة الجامعـة عندمـا وثقت بعلم الشيخ وأنـاطت به إطلاع تلاميذ الجامعة وهم زهرة الشبيبة المصرية أعلى تاريـخ الأمم الإسلاميـة وما فيـه من العبر أرادت منه أن يكون صادعاً بالحق متوخياً ما فيه مصلحة المسلمين والظاهـر أنّ الشيخ كان عارفاً بالمهمة التي انتدب إليها يقدّرها حقَّ قدرها .

وقد رأينا في محـاضرات الشيـخ الخضري أقـوالاً كثيرةً لا يقـول بها إلاّ بنـو أميّة وأنصارهم فقلنا ما كان أحرى بالشيخ لو كان في أيام معاوية بن أبي سفيان ومن تبعه من =

وَرَامَ قَتْلَتَهُ لٰكِنَّ قَتْلَةَ أَصْحَابِ ٱلرَّسُوْلِ ٱلْأَدَانِي كَانَ خَاشِيْهَا

=الخلفاء الأمويين فيلقي من حواليهم محاضراته على الناس فيرضيهم بها أمّا الآن وقد مرَّت على الدولة الأموية نحو ألف وثلاثمائة عاماً فأنا أؤكد لحضرة الأستاذ الفاضل بأنّ ما في الناس من يرضيهم قوله إذا لم يكن مدعوماً بالحقّ مؤيداً بالبرهان الأشهب .

لم يذكر الشيخ الخضري في محاضراته ما كان في « غدير خمّ » ولم يلتفت حق الإلتفات إلى الأسباب التي دعت حملة أسامة بن زيد على الامتناع عن الخروج بأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للغزو ولا قال لنا شيئاً عن عمر عندما منع أن يؤتى للمصطفى باللوح والدواة وهو على فراش الموت واعتذر ما شاء الإعتذار عمّا كان في السقيفة وكلّ هذا نغتفره له لاعتقادنا بأنّه مُلبسٌ ثوبه الدينيَّ ولو قال جهرةً في محاضراته ان المسألة سياسية بحتة لا علاقة لها بالدين وغلَّط الذين ألبسوها ثوبها الديني . ولكن الذي لا نعذره عليه هو تصغيره أمر الخوارج الذين خرجوا على عثمان وذهابه مع الذاهبين إلى تكذيبهم ونسبته حركتهم ضمناً بل قل صراحةً إلى الصحابة ولا سيما سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ضمناً أو صراحة أمير المؤمنين والصحابة الآخرين لأنّهم كانوا يعيبون عثمان وعمّاله لتجاوزهم الحدود الإسلامية في سياسة الرعية وتمتعهم بخيراتها ولومه عثمان لأنّه لم يستعمل الشدّة مع الذين وقفوا بوجهه يطلبون منه الرجوع إلى الحقّ كما أشار عليه عمّاله كل هذا وأمثاله كثير في محاضراته المشار إليها وقع منا موقع الدهشة والاستغراب حتى خلنا أنّه أمويٌّ في القرن الأول للهجرة يتكلم لا أحد علماء القرن الرابع عشر الهجري . ولعمري إذا هان على الناس سماع كلمة في أيّ كان من السلف فما فيهم مؤمن يرضى أن ينال نائل من سيدنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هذا العصر حيث لا مؤثر سياسي يحملهم على الإغضاء وهم متألمون .

إننا بكل احترام نتقدم من حضرة الأستاذ الشيخ محمد الخضري ببيان منزلة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام من أنفس المسلمين أمّا منزلته عند الله ورسوله فهو أدرى بها مني لأنّه مسلم صحيح الإيمان يعرف فوق ما أعرف أنا من حقيقتها ولا أريد أن أجادله في هذا الأمر إلاّ من الوجهة التاريخية الدنيوية فأقول : إنّ الأستاذ يعلم ما فعلت السياسة لتنفير المسلمين من سيدنا علي وحسنيه عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام ولا يعزب عن علمه الواسع كيف كان الناس يسبّون سيدنا علي على عهد الأمويين من على المنابر وفي مجالسهم وذلك صريح ثابت لا جدال فيه ولا يجهل =

فَــرَاحَ يَشْكُــوْ مَــآتِيْــهِ لِصَــاحِبِــهِ   وَقَــالَ شِــرَّتُــهُ صَعْبٌ تَــلاَفِيْهَــا

=الأستاذ حفظه الله ما كان ينال شيعة سيدنا عليّ ومحبّيه من اضطهاد الأمويين وعمّالهم وما بُذل من الهبات والجهود لوضع الأحاديث وتصنيفها لتحقير سيدنا علي أو إيصال غيره من الصحابة إلى مرتبته العليا . وفي الأخير يعلم الأستاذ ولا يجهل أنّ مساعي بني أمية هذه قد نجحت نجاحاً باهراً حتى كنت لا تجد في المسلمين من يسمّي أولاده عليّاً أو حسناً أو حسيناً وقد انتشرت فيهم أسماء معاوية ويزيد وعبد الملك ومروان بعضهم لتشبعه من روح الكره لآل البيت الطاهر وبعضهم خوف الاتهام بتشيعه لهم حتى روى أحد الرواة أنّه لم يجد في الشام كلّها في نحو سنة ٨٠ للهجرة من سمّى أولاده بأسماء آل البيت الشريفة سوى رجل واحد عثر به في برية الشام فاستغرب أمره وظنّه متشيعاً فسأله كيف رضي أن يسمّي أولاده عليّاً وحسناً وحسيناً فقال : إنّي ما سمّيتهم بهذه الأسماء إلاّ لأستبيح سبهم وانتهارهم فكأنّي أسبّ أولئك الذين لهم هذه الأسماء فتأمّل .

نعم هذا ما فعله بنو أميّة في مدى حكمهم وقد بلغ المئة عاماً . على أنّ هذا لم يمنع الناس أن يكونوا متشيعين سرّاً لسيدنا عليّ وولديه وأولادهما رغم تلك السياسة القاهرة الضاغطة فنال من شعر الأمويون بهم على هذا المذهب ما نالهم من الشرّ على ما هو معلوم . ثمّ أنّ آل البيت الطاهر وشيعتهم لم يسلموا على عهد العباسيين من الاضطهاد والتنكيل أيضاً لمطالبتهم بالخلافة وحسبانها من حقّ الطالبيين دون سواهم فما استطاع العباسيون على طول عهدهم بالخلافة ودخول الأتراك فيها من قتل هاتيك الروح الشريفة روح التشيع لوصي المصطفى ووزيره وأفضل وأكمل رجل في الإسلام بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام . ثمّ دارت الأفلاك وتحوّلت الأحوال وتلاشت القوى الضاغطة على العقول وأطلقت للناس الحرية في اعتقادها فرجعت إلى ما كانت عليه من احترام أهل البيت الطاهر وتقديسهم فما عدت تجد واحداً يخلو بيته من اسم محمد أو عليّ أو حسن أو حسين كما ما عدت ترى شخصاً واحداً يدعى باسم معاوية أو يزيد أو عبد الملك أو مروان . وهذا الإنقلاب وحده يكفي للإعتقاد بأنّ لآل البيت الطاهر مكانة عند الناس منبثقة من مكانة المصطفى وأنّ المكانتين متلازمتان لا انفكاك لإحداهما عن الأخرى سيان ذلك في نظر العامة أو الخاصة فالعامة تنظر إلى مكانة أهل البيت من الجهة الدينية فقط والخاصة من جهتي الدين والعلم بالتاريخ حتى صار=

فَاسْمَحْ بِإِرْجَاعِهِ أَوْ مُرْ فَأَقْتُلُهُ فَإِنَّهُ مُقْلِقُ ٱلدُّنْيَا مُدَسِّيهَا

=كثيرون من علماء السنّة الذين لا بدَّ لهم من إقرار ما جرى في صدر الإسلام والدفاع عنه أن يجهروا بجواز ولاية المفضول بحضور الفاضل وأن يعلنوا عند ذكر الحوادث التي نحن بصددها قولهم : « إننا لا نظن بصحابة رسول الله إلّا خيراً » وما ذكرنا هذا لحضرة الأستاذ لأنّه لا يعرفه ولكن لأنّا نشكو من تطرفه بالتشيع للأمويين ما ساقه إلى تقرير كل ما كتب للدفاع عن دعوى بني أميّة كحقائق راهنة لا تقبل الجدل حتى زلق به القلم إلى توجيه ما كنّا نريد أن ننزّه قلمه عنه إلى شخص سيدنا علي عليه السلام حتى لرأيناه يتهم هذا السيد الأروع الجليل بمقتل عثمان بشبه صراحة إن لم تقل بصراحة .

وبعد فهل يعتقد حضرة المؤرخ الكبير الشيخ محمد الخضري اعتقاداً صحيحاً أنّ سيدنا علي ما بذل فوق الجهد ليرجع عثمان عمّا يساق إليه من الشطط بأيدي أصحابه الأمويين ؟ وهل يعتقد اعتقاداً صحيحاً أنّ سيدنا علي الذي طالما عارض عمراً على شدَّته غيرةً على الشريعة السمحاء وكان عمر يسمع له ويقول : « لولا علي لهلك عمر » يسهل عليه أن يرى الأمويين يسيطرون في ظلال عثمان على المسلمين ويتمتعون بخيرات الخلافة الإسلامية ويسكت ؟؟ وهل يعتقد أنّ سيدنا علي ما بذل جهده ليمنع الفتنة مراراً وتكراراً وإنّه لم يتوسط بإخلاص بين عثمان والثائرين لذلك وكان عثمان يقتنع من نصائحه الصادقة وبعد بالإصلاح ثمَّ يعترض الأمر ويفسده مروان ؟ إذا كان يعتقد الشيخ الخضري أنّ هذا لم يحصل ولذلك لم يذكره في كتابه لتبرير سيدنا علي من قتل عثمان فما أحراه أن يرجع إلى التاريخ وإن كان يعتقده قد حصل ولكن لم يكن عليٌّ مخلصاً فيه فكان يجب أن يذكره في كتابه ويقيم البراهين على عدم إخلاص سيدنا علي بنصائحه لنعرف كيف نقيم الحجة لإقناعه بإخلاص الإمام وفي الأخير إذا كان الشيخ الخضري يعتقد ما كتبه في محاضراته بأنّ عمّال عثمان ما كانوا مخطئين وأنّ الثائرين قد ظلموهم وظلموا صاحبهم عثمان وأنّ سيدنا علي وغيره من كبار الصحابة كطلحة والزبير حتى عبد الرحمن بن عوف الذي كان متجنباً الخلافة وعمالاتها وكان أول من تجرأ على عثمان فمدَّ يده إلى إبل الصدقة التي ما كادت تصل إلى عثمان حتى وهبها لبعض ولد الحكم فأخذها وقسّمها بين الناس احتجاجاً على الهبة واعتراضاً عليها فإذا كان مبلغ علمه بالتاريخ أنّ هؤلاء الصحابة وبقية الناس كانوا مخطئين بتخطئة عثمان فيما يفعل ولا يرضاه الشرع الإسلامي فأقول بكل أسف إنّه قد بعد عن الحقيقة =

فَقَــالَ عُثْمَــانُ أَرْجِعْــهُ بِغَيْــرِ تَــوَا   نٍ إِنَّ قَتْلَتَــهُ مَــا ٱلْخَيْــرُ تَــالِيْهَــا

= وأأسف أن يحلَّ تلامذة الجامعة المصرية في القرن الرابع عشر للهجرة محاضراته في محل الاعتبار كأنّها حقيقة واقعية لا ريب فيها ولا باطل يعتورها .

وأراد الشيخ محمد الخضري حسب اجتهاده أن يصغّر المسألة في نظر المسلمين لقصد حسن طبعاً وهو جمع كلمتهم بعد أن بعدوا عن هاتيك المواقع بهذا العهد الطويل وبعد أن لم يبق في الناس من يهمه التسلح بها فقال : « من الغريب أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلاّ لأنّ المسألة ألبست ثوب الدين وكلٌّ حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه قومٌ من رعيته بعضهم سيء القصد « كذا » والبعض الآخر تابع لهم ثمّ قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثمّ نحكم بأنّهم أخطأوا خطئاً عظيماً ثمّ ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه وغاية الأمر أنّ الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همّه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » انتهى قوله .

ونحن نشكر للشيخ محمد الخضري حسن قصده في هذا القول وتقرُّه على أن على المسلمين اليوم أن لا يحقدوا على ما كان بل أن يستفيدوا منه العبرة ويعودوا إلى جمع كلمتهم بعد تفريقها ولا نتعرض إلى تجريده المسألة من ثوبها الديني كل هذا نحن به مع الشيخ الخضري ولكن نخالفه فيما عداه نخالفه في أنّ الناس غضبوا على عثمان عن سوء قصد والغاضبون الحقيقيون هم سيدنا علي وأبو ذرّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعائشة ونحوهم من زعماء المهاجرين والأنصار وما غضبوا على عثمان إلاّ لأنّه أغضب الشريعة فإن كان المراد من البحث في الموضوع هو العبرة فعلينا أن نظهر الحقيقة ليعتبر الناس بها فنقول لهم مثلاً : « إنّ عثمان مع أنّه زوج ابنتي رسول الله ومع أنّه ثالث الخلفاء الراشدين ومع أنّه من السابقين إلى الإسلام مع ذلك كلّه عندما أخطأ إلى الشريعة باستسلامه إلى الأمويين وتوزيعه عليهم أموال المسلمين وعمالات المسلمين لم يتسامح معه المسلمون بأن وقفوا في وجهه وثاروا عليه وحصروه وطلبوا منه أن يصلح ولما لم يستطع الإصلاح طلبوا منه أن =

فَكَـانَ مُـرْجِعَـهُ بَيْنَ ٱلْجُنُـوْدِ بِـلَا كَـرَامَـةٍ هُـوَ أَوْلَى أَنْ يُـلَاقِيْـهَـا

=يستقيل ولما أبى الاستقالة قتلوه » نعم إذا قلنا هذا القول نكون قد قلنا الحقيقة وألقينا على الملوك والناس درساً من أشرف الدروس الشعبية « الديموقراطية » الإسلامية التي يفتخر المسلمون أنّها من أصول دينهم الحنيف ولا سيما إذ يرون الأوربيين يعملون بها بعد ألف وثلاثمائة عاماً وبعد أن بلغوا من الرقي العلمي والعملي ما بلغوا وفي إعطائنا هذا الدرس للمسلمين وملوك المسلمين نكون قد وصلنا إلى الغاية الصحيحة التي ينشدها الشيخ محمد الخضري وكل من يهتمُّ بخير المسلمين ويتمنى لهم أن يعودوا إلى ماضيهم المجيد وقد يكون هذا القول إذا اقتنع به المسلمين اليوم وسيلةً لجمع كلمتهم بعد فرقتها كل هذه الأعوام الطوال فقد يجتمعون على حبّ محمد وآل محمد ﷺ ولكن من المحال أن يجتمعوا على قولٍ يحطُّ من أقدار آل البيت الطاهر والله سبحانه أعلم .

« ترجمة عثمان »

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي يجتمع برسول الله بعبد مناف . وأمّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . ولد في السنة الخامسة من ميلاد المصطفى ﷺ على يد أبي بكر وزوّجه المصطفى ابنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة وهاجر مع المهاجرين إلى المدينة وحضر المشاهد مع المصطفى إلّا بدراً حيث كان يمرّض زوجه رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثمَّ زوَّجه ابنته الثانية أمّ كلثوم ولذلك دعي « ذو النورين » وفي يوم الحديبية أراد المصطفى أن يرسل عمراً ليتفاهم مع المشركين فخاف قائلاً ليس لي من ينصرني فابعث بعثمان إليها وقومه هم السائدون فيها فأرسل عثمان بهذه المهمة على نحو ما تقدم في يوم الحديبية وفي غزوة تبوك أنفق عثمان كثيراً من ماله واشترى بئر رومة بماله أيضاً ثمَّ تصدَّق بها على المسلمين وكان في جملة كتاب الوحي وأخلص لأبي بكر في خلافته فكان أمينه وكاتبه وبيده كتب عهده لعمر على ما تقدم . وكان وفياً لعمر يكتب له . وولّي الخلافة بعد مقتل عمر على نحو ما تقدم معنا أيضاً .

وفي عهد عثمان كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان . وسيّر سلمان بن ربيعة الباهلي على أرمينيا بعد انتقاضها فأيد بها حكم الخلافة وفتحت أيضاً طبرستان =

= وهي مصرٌ واسعٌ على شاطىء بحر الخزر . وفي سنة ٣٢ هـ أوغل عبد الرحمن الباهلي في بلاد الخزر ولم يكن نجاحه كبيراً . وثارت الفرس على عهده وانتقضت على حكمه فطوعها جيش البصرة . وكان معاوية بعهده يغزو الروم فبلغ عمورية وتوسع في أرمينيا حتى تفليس وفي هذا العهد صنع معاوية السفن الحربية وأنزل فيها المسلمين وكان عمر من قبل يمنعه من ذاك ففتح قبرس وهذا أول عهد المسلمين بالحرب البحرية وأمر عثمان أن يكون جند المسلمين في البحر متطوعين بملء إرادتهم وكان أميرال أسطول معاوية عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً . وهذا أول أميرال عربي مسلم خاض البحار للحرب والغزو . ثم أنَّ عمرواً بن العاص عاد في أيامه إلى مصر وصنع أسطولاً بحرياً أيضاً ثمَّ عزله عثمان ثانيةً وعيّن لمصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ولما جاء قسطنطين ملك الروم بأسطول فيه ستمائة سفينة حربية يريد فتح الثغور المصرية سار إليه ابن أبي سرح بأسطوله وقدم معاوية بأسطوله وحاربا أسطول الروم في البحر وتغلبا عليه وقهراه واستوليا على كثير من سفن الروم وسمّيت هذه الموقعة بموقعة أم الصواري وهكذا أصبحت الخلافة الإسلامية في عهد عثمان دولة بحرية ولم يكن لها عهد في البحار قبل ذلك .

ولم تكن أيام عثمان هادئة فإنّ البلاد انتقضت عليه فحاربها وأعادها إلى الطاعة ثمَّ ثار عليه العرب وانتهت ثورتهم بمقتله على نحو ما تقدم وكانت أعوام خلافته اثنتي عشر عاماً إلّا ١٢ يوماً .

وتزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله فولدت له عبد الله ولم يعش وتزوج في المدينة أختها أم كلثوم . وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الأصغر فلم يعش . وتزوج أم عمر بنت جندب الروبي فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمرواً ومريم . وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأمَّ سعيد . وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات . وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو . وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم .

أمّا عمّال عثمان في عام مقتله فهم : عبد الله بن الحضرمي على مكة . والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف . ويعلى بن منبه على صنعاء . وعبد الله بن عامر =

= على البصرة . ومعاوية بن أبي سفيان على الشام . وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص « وكان مرجعه إلى معاوية » . وحبيب بن مسلمة الفهري على قنسرين وحلب . وأبو الأعور السلمي على الأردن . وعلقمة بن حكيم الكناني على فلسطين . وأبو موسى الأشعري على الكوفة « وعلى خراجها جابر المازني وعلى حربها القعقاع بن عمرو » وجرير بن عبد الله البجيلي على قرقسيا . والأشعث بن قيس الكندي على آذربيجان وعتبة بن البهاس على حلوان . ومالك بن حبيب على الملة . والنيسر على همدان . وسعيد بن قيس على الريّ . والسائب الأقرع على أصبهان . وكان على مصر عبد الله بن سعد ولكن الثورة أفضت إلى تغلب محمد بن أبي حذيفة عليها وكان له على بيت المال بمصر عقبة بن عامر وعلى القضاء زيد بن ثابت .

أمّا صورة عثمان : فقد كان ربعة ليس بالقصير والطويل . حسن الوجه . بوجنتيه نكات جدري . أقنى مشرف الأنف . رقيق البشرة . عظيم اللحية طويلها . أسمر اللون . كثير الشعر . له جمة أسفل أذنيه . ضخم الكراديس . بعيد المنكبين . أصلع الرأس .

« مصحف عثمان »

والمعروف بين الناس أنّ القرآن الشريف هو من جمع عثمان بن عفان ولذلك يسمّونه مصحف عثمان والحقيقة في هذا الأمر هو أنّ سيدنا علي انصرف إلى جمع القرآن بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام وكانت حفصة بنت عمر زوج المصطفى تجمع هي أيضاً ما تفرّق من الكتاب الكريم وتمّ ترتيبه وقتئذٍ والأمر بيد أبي بكر وصار الناس يتناسخونه فلما كان عهد عثمان حدث لغط بين الأمصار فيقولون مصحف فلان خير من مصحف فلان أو مصحف الشام مثلاً خير من مصحف العراق فخاف عثمان أن يفضي الحال إلى إدخال شيء من التحريف على الكتاب الكريم فطلب الصحف التي كانت عند أبي بكر واستكتب منها عشر نسخ وأرسلها إلى الجهات وأمر بإحراق كل ما عداها وهكذا حفظ القرآن الشريف بغير تغيير ولا تبديل ولا خطأ وأطلق عليه إسم « مصحف عثمان » ولا نعلم ما فعل الله بهذه المصاحف العشرة إلّا أنّهم يقولون أنّ أحدها موجود في المكتبة القيصرية في موسكو وله صورة أخذت بالفوتوغراف باسم الحكومة المصرية وهي موجودة في المكتبة السلطانية في القاهرة . =

وَعَـادَ فِي طَيْبَـةٍ يَـرْغِيْ وَيَـزْبِـدُ تَشْـــنِيْعَـاً لِأَعْمَـالِـهِ ٱلْكَثْـرَى وَتَسْفِيْهَـا

=وفي مكتبة السلطنة المصرية أيضاً يوجد مصحف آخر يقولون أنّه أحد هاتيك المصاحف العشرة . ويوجد في خزينة الآثار النبوية في القسطنطينية مصحف ثالث يقـولون أنّـه من هاتيك المصـاحف . ويقولـون أنّ المصحف الشريف الـذي سبق لنا ذكـره في الحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة هو منها والله أعلم .

« ترجمة مروان بن الحكم »

أمّا ترجمة مروان بن الحكم الـذي هو رأس هـذه الفتنة فهـو مروان بن الحكم بن العاص بن أميّة الأموي القرشي وأمّه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنـاني ولد في السنـة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم مـع من أسلم من كفّار ومشـركي قريش يـوم الفتح وهم الـذين سماهم المصـطفى ﷺ يومئـذٍ « الطلقـاء » وأطلق المسلمـون عليهم إسم « المؤلّفـة قلوبهم » والحكم هذا هـو عمّ عثمان بن عفّـان وسار بعـد الفتح إلى المـدينة فأقام فيها مدّةً ثمّ طرده رسول الله ﷺ منها فسار إلى الـطائف بولـده وفيهم مروان وهـو غـلام يترعـرع وسكنها أمّـا سبب طرد النبي الحكم بن العـاص فذلـك لأنّـه كـان يحتـال ويستخفي ويسمع ما يسرُّه رسول الله إلى أكابر الصحابة ويفشيه في مشركي قريش وسائر الكفّـار والمنافقين وكـان يقلد المصطفى في مشيتـه مستهزئـاً وأنت تعلم أنّه ﷺ كـان يتكفـأ في مشيته وكـان يفعل الحكم ذلـك عن حسد وشنئـان فالتفت رسـول الله ووجده على هذه الحالة فقال له كذلـك فلتكن يا حكم ومن ذلـك الوقت أصبـح الحكم يرتعش ويختلج وبعد أن وقف رسول الله على سوء خبيئته نفاه إلى الطائف فظلّ فيها ولم يسمح أبو بكر وعمر له بالخروج منها حتى إذا تولى الأمر عثمان قدم المدينة مع ولـده فاختصّ عثمان كبيرهم مـروان للكتابـة فما زال حـوله حتى تغلب عليـه وأصبح الآمـر الناهي في خلافته وكان عمره لا يزيد عن ٢٢ عاماً .

وكان مروان داهيةً حيالاً خبيثاً فاختصه معاويـة بصداقتـه واتّفق معه على السيـطرة على الخلافة الإسلامية في عهد عثمان بن عفـان وهكذا كـان ويدلـك على اقتدار هـذا الرجل ما رأيت من جرأته من الكتابِ الذي كتبه وختمـه بخَتم عثمان وأرسله إلى عـامل مصر وفيه ما فيه من الأمور ذات المسؤولية الكبـرى والنتائـج المخيفة من غيـر أن يعرف عثمان هذا والناس في بحران ثورتهم .

وعنـدما قتـل عثمان أصيب مـروان بضربـة سيف على مـا تقـدم فقـطعت إحـدى =

فَـآمَـرَ آلنَّـاسَ أَنْ تَجْفُـوْ مَجَــالِسَـهُ   وَأَنْ تُـقَــاطِعُــهُ سِــرّاً وَتَـجْـرِيْهَــا

= علباويه وأصبح بعدها أوقص على أنّ مروان هذا زيادةً في جرأته لم يشأ أن يهرب إلى معاوية مع من هرب من بني أميّة بعد مقتل عثمان بل ظلّ هناك وكان مع المبايعين للإمام عليّ على أنّه ما أمهل أن نكث بيعته وانضمّ إلى عائشة والزبير وطلحة ومن معهما من أصحاب الجمل وصحبهم إلى البصرة . وفي واقعة الجمل وقع مروان أسيراً في يد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فتقدم منه ولداه الحسن والحسين مستشفعين به فخلّى سبيله فعرضا عليه أن يأتي ويبايعه فقال : « أو لم يبايعني بعد قتل عثمان ، لا حاجة لي في بيعته ، إنّها كفٌّ يهودية ، لو بايعني بيده لغدر بسبته ، أمّا أنّ له أمرةً كلعقة الكلب أنفه ، وهو أبو الأكبش الأربعة ، وستلقىٰ الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر » وهذا أيضاً مما كان عليه السلام ينبىء به عمّا يجري في المستقبل إذ بالفعل تولّى مروان الخلافة أجلاً يسيراً على ما سترى ثمّ تولّاها بعده أحفاده الأربعة الواحد بعد الآخر وهم أولاد ابنه عبد الملك الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكان من أمر الأمّة في عهدهم ما لم يخرج عن أخبار أمير المؤمنين عليه السلام .

وبعد أن أطلق سيدنا علي عليه السلام مروان خرج إلى الشام فانضمّ إلى صاحبه معاوية وحضر معه حرب صفين وبعد مقتل سيدنا عليّ وتنازل سيدنا الحسن عن الخلافة إلى معاوية ولّى هذا على المدينة صاحبنا مروان ثمّ جمع له إلى المدينة مكة والطائف ثمّ غضب عليه فعزله وولّى سعيد بن العاص مكانه فسار مروان إلى الشام غاضباً ولقي معاوية وأغلظ له القول وتهدّده بأولاده وأنذره بالتغلب على الخلافة وأقام في دمشق وهو ليس على ولاء مع معاوية .

ولما أصرّ معاوية على أخذ بيعة الناس لابنه يزيد على حياته كبر هذا على مروان وهو كما تعلم شريكه في استخلاص الخلافة لبني أميّة من عهد عثمان ولذلك هجر دمشق وأقام في المدينة المنورة وفي نفسه ما فيها على معاوية . وتوفي معاوية سنة ٦٠ هجرية وخلفه ابنه يزيد فظلّ مروان في المدينة أيضاً على عهده وما زال كذلك إلى أواخر سنة ٦٣ هجرية حيث ثار أهالي المدينة وانتقضوا على يزيد بن معاوية وكان أول عمل عملوه أنّهم حصروا الأمويين في دار مروان ثمّ أطلقوا سراحهم على أن يرتحلوا عن المدينة وأن يقسموا أن لا يمالئوا عليهم يزيد ولا غيره من أعدائهم ففعلوا وكان في جملة الذين خرجوا من المدينة من الأمويين مروان وابنه عبد الملك . وانجلت الثورة =

فَمَـا أَطَـاعَتْ وَلاَ عَنْـهُ قَـدِ آمْتَنَعَتْ   وَظَـلَّ يَهْجُـوْهُ فِيْ ضَـافِيْ نَـوَادِيْهَـا

= عن خضوع المدنيين ليزيد . ويزيد هـذا هو صـاحب الجريمـة المشهورة ألا وهي قتـل سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه وعلى أبيه وجدّه وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

وفي ١٤ ربيع أول سنة ٦٤ هـ « ١٠ نوفمبر ٦٨٣ مسيحية » توفي يـزيد بن معـاوية فخلفه ابنه معاوية الثاني بعهدٍ منه وما كاد معاويـة الثاني وهـو لم يكن يتجاوز من العمـر ٢١ سنـة يتربـع على دست الخلافـة حتى رأى الناس حـوله علي حـزبين أحدهمـا مـع عبد الله بن الزبيـر الذي كـان قد نـادى بنفسه في الحجـاز خليفةً للمسلمين والثـاني مع مـروان بن الحكم ابن عمه . وذلـك لأنّ مروان صعب عليـه أولاً ولاية يـزيد فـاحتملهـا مكرهاً منزوياً في المدينة ولكنه لم يحتمل ولاية معاوية الثاني فهمَّ أن يترك الشام ليلحق بـالمدينـة فقيل لـه بل الأولى أن تـظلَّ هنا فـإنّ معاويـة لا يعيش لضعف جسمـه وكثـرة أمراضه وأنت زعيم الأمويين فأصغى وقام على رأس حزبه الكبير ينظر إلى ما يكون .

غيـر أنّ معاويـة الثاني لضعف جسمـه وتأثيـر الأمراض عليـه لم يطق حـال الشام وانقسام الناس فيها كما لم يتحمل الذين يدلون عليه والذين يكيـدون له فـاستدعى يـوماً الناس بعد قليـل من خلافتـه إلى المسجد الأمـوي ووقف فيهم خطيبـاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أمّا بعد فإنّي قد ضعفت من أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخـطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستةً مثل ستة الشـورى فلم أجدهم فـأنتم أولى بأمركم فاختاروا لـه من أحببتم » ونزل عن المنبـر نافضـاً ردنيه من أمـر لـم يكن كفئاً لـه ودخل بيته منزوياً بأمراضه ولـم يطل انزواؤه فمات بعد ثلاثة أشهر وعلى أثر وفاته اجتمع أهــل الشـام على بيعــة مـروان وبــايعـوه وكــان ذلـك لثـلاثٍ خلون من ذي القعـدة سنة ٦٤ للهجرة .

وكـان زعيم المتشيعين لعبد الله بن الـزبير الـذي نـادي بنفسـه خليفـة منـذ تـولى الخلافة معاوية الثاني رجل اسمه الضحاك وكان يكتفي بإقلاق راحة معـاوية الثـاني وهو يعلم أنّه لا يعيش فلما رأى مروان أصبح خليفـة المسلمين هاجمـه بين الجابيـة والمرج ودام القتـال بينهما عشـرين ليلةً وانتهى بقتل الضحـاك وانخذال أصحـابه وكـان هذا في محرم سنة ٦٥ للهجرة وبعد ذلك انصرف مروان إلى أمصار سوريا وأخضعها بالسيف ثم سار بجنده إلى مصر ففتحها كل ذلك في مدى تسعة أشهر .

وكان الناس عندما بايعوا مروان بايعوا بولاية العهد خالداً بن يزيد بن معـاوية وهـو =

لِـذَا نفَـاهُ لِيَنْجُـوْ مِنْ مَـلاَمَتِـهِ   إِلَى حِمى آلـرَّبَذَةِ آلْمَشْقِيُّ ثَـاوِيْهَـا
وَعِنْدَ مَـا سَـارَ لِلْمَنْفَى آلتَّقِيُّ أَبُـوْ   ذَرٍّ بِجُنْـدِ آبْنِ عَفَّـانٍ يُمَـاشِيْهَـا
سَعَى لِتَـوْدِيْعِـهِ آلْمَـوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ   وَآبْنَـاهُ مِنْ طِيْبَـةٍ حَتَّى عَـوَالِيْهَـا
وَإِذْ دَنَـا مَـوْعِـدُ آلتَّفْـرِيْقِ وَدَّعَـهُ   بِـخُـطْبَـةٍ قَـرَّطَ آلآذَانَ دُرِّيْـهَـا
فَقَـالَ بُشْـرَى أَبَـا ذَرٍّ فَغضْبَتُـكَ آلْـــكُبْرَى لِـرَبِّكَ لَمْ تَنْفَكَّ تُبْـدِيْهَـا
فَـاطْلُبْ مُكَـافَـأَةً مِمَّنْ غَضِبْتَ لَـهُ   سُبْحَـانَـهُ فَهْـوَ يَا بُشْـرَاكَ مُسْـدِيْهَـا
وَآلنَّـاسُ مِنْـكَ عَلَى دُنْيَـا تُلَذُّ بِهَـا   خَـافَتْ وَكَمْ غَرَّتِ آلـدُّنْيَـا أَهَـالِيْهَـا
وَخِفْتَ مِنْهَـا عَلَى دِيْنٍ تَـدِيْنُ بِـهِ   وَقَـدْ أَبَيْتَ لَـهُ يَـا صَاحِ تَشْـوِيْهَـا
فَاهْرُبْ بِمَا خِفْتَ مِنْهَا يَا أُخَيَّ عَلَيْـــهِ وَآتْـرِكْ مَـالَـهُ خَـافَتْ بِـأَيْـدِيْهَـا
مَـا كَانَ أَحْـوجُهَا تَـآللَّهِ لَـوْ رَشَـدَتْ   إِلَى آلَّـذِي عَنْـهُ قَـدْ أَحْبَبْتَ تُنْهِيْهَـا
وَأَنْتَ عَمَّـا عَلَيْكَ آلْيَـوْمَ قَـدْ مَنَعَتْ   مَـا كَانَ أَغْنَـاكَ مَا آلـدُّنْيَـا تُـرَجِّيْهَـا
غَـدَاً سَتَعْلَمُ مَنْ رَبُّ آلـرَّبَـاحِ وَمَنْ   هُـوَ آلْحَسُوْدُ وَعُقْبَى آلـدَّارِ تَـدْرِيْهَـا
لَوْ كَانَتِ آلأَرْضُ رَتْقَاً وَآلسَّمَاءُ عَلَى   عَبْـدٍ وَبَيْنَهُمَـا قَـدْ تَـاهَ تَتْيِيْـهَـا

= صغير . فلما استتبَّ الأمر لمروان في الشام ومصر حدثته نفسه أن يبايع لولديه عبد الملك وعبد العزيز ويخلع خالداً بن يزيد ولهذا السبب تزوَّج أم خالد ليسيطر على ولدها خالد وهو ولي عهده ويمنعه من معارضته في خلعه وبيعة ولديه وهكذا فعل . أمّا أمّ خالد فغضبت لابنها وضيعة حقّه بالخلافة وكتمت ما في نفسها أياماً إلى ذات ليلة حيث جاءها مروان لينام عندها فقامت عليه مع جواريها وهو نائم وجعلن الوسائد والبرادع عليه وجلسنَ فوقها حتى خنقته وذلك في دمشق في شهر رمضان سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن ٦٣ سنة وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي لعب أكبر دور في عهد عثمان وفاز بالخلافة لنفسه في آخر الزمان .

ثُمَّ ٱتَّقى ٱللَّهَ حَقّاً فَهْوَ يُخْرِجُهُ   مِنْ ضِيْقَةٍ كَانَ لَا يَرْجُوْ تَخَطِّيْهَا

لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا ٱلْحَقُّ تَتْبَعُهُ   وَٱسْتَوْحِشَنَّ أَخَا ٱلدِّيْنِ ٱلتَّرَارِيْهَا

لَوْ كُنْتَ تَقْبَلُ دُنْيَاهَا وَتَقْرِضُ مِنْـــهَا أَمَّنَتْكَ وَهَامَتْ فِيْكَ تَوْلِيْهَا

وَكَانَ يُصْغِيْ أَبُوْ ذَرٍّ لِخُطْبَةِ مَوْ   لَانَا ٱلْعَلِيِّ وَيَسْتَقْصِيْ مَعَانِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى نَادَى بَقِيْتَ أَبَا ٱلْـــحُسَيْنِ لِلنَّاسِ فِيْ ٱلْبَلْوَى تُؤَاسِيْهَا

وَقَالَ أَنْتُمُ آلَ ٱلْبَيْتِ رَحْمَةُ رَ م بِّيْ لِلْخَلَائِقِ جَلَّ ٱللَّهُ مُوْلِيْهَا

لَوْلَاكُمُ لَمْ أَجِدْ مِنْ وَحْشَةٍ لِمَدِيْــنَةِ ٱلرَّسُوْلِ ٱلَّتِيْ عُثْمَانُ يَثْوِيْهَا

بِذَاكَ وَدَّعَهُ ثُمَّ تَوَجَّهَ لِلْـــمَنْفَى لِيَحْيَا بَعِيْدَ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا

وَنَفْيُهُ قَدْ أَزَادَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَى   أُمَيَّةٍ حِقْدَهُمْ بَاتُوْا مُلِيْمِيْهَا

وَمِثْلُهَا كَمْ أَتَتْ مِنْ فَعْلَةٍ نَفَرَتْ   مِنْهَا نُفُوْسُ ٱلْأُلَى كَانُوْا مُحِبِّيْهَا

وَإِنَّهُمْ آخَذُوا عُثْمَانَ وَهْوَ وَلِـــيُّ ٱلْأَمْرِ فِيْ كُلِّ سُوْءٍ مِنْ مَسَاوِيْهَا

وَسَادَ بَيْنَهُمُ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ   مِنْهَا وَقَدْ عَمَّ فِيْ ٱلْأَمْصَارِ شَاكِيْهَا

إِلَّا بِعُزْلَةِ عُثْمَانٍ زَعِيْمِ أُمَيَّـــةٍ وَكَانَتْ بِهِ تُجْرِيْ تَسَطِّيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ لَا يَأْلُوْ ٱلْخَلِيْفَةَ إِرْ   شَاداً وَنُصْحاً وَإِنْذَاراً وَتَأْبِيْهَا

وَقَدْ تَوَقَّعَ أَحْدَاثَ ٱلزَّمَانِ لَهُ   وَأَنَّهُ سَوْفَ يَعْيَا عَنْ تَوَقِّيْهَا

وَكَانَ كُلُّ ٱلَّذِيْ قَدْ شَامَ بَارِقَهُ ٱلْـــعَلِيُّ فِيْ سُحُبٍ سَحَّتْ هَوَامِيْهَا

وَقَدْ تَسَعَّرَتِ ٱلنِّيْرَانُ وَٱلْتَهَبَتْ   وَرَاحَ مُعْتَرِفاً بِٱلْعَجْزِ مُطْفِيْهَا

فَفِتْنَةٌ فِيْ ضِفَافِ ٱلنِّيْلِ قَائِمَةٌ   وَفِيْ ٱلْعِرَاقَيْنِ أُخْرَى لَاحَ خَافِيْهَا

وَفِيْ ٱلشَّآمِ أَمَانٍ بَاتَ صَائِدُهَا   مُعَكِّراً مِنْ مِيَاهِ ٱلْمُلْكِ صَافِيْهَا

وَفِيْ بَقِيَّةِ أَمْلَاكِ ٱلْخِلَافَةِ أَخْـــطَارُ مُهَدِّدَةٌ صَعْبٌ تَحَامِيْهَا

وَفِيْ آلشِّفَـاهِ وَفِيْ آلآذَانِ وَشْـوَشَـةٌ   بِـآلشَّـرِّ تُنْبِيءُ كَانَ آلْخَـوْفُ يُكْمِيْهَـا
مِنْهَـا آلصَّحَابَـةُ وَآلْأَنْصَارُ فِيْ شَغَبٍ   بَـاتَتْ وَمَا خَـابَ فِيْ آلْبَلْوَى تَظَنِّيْهَـا
هِيَ آلْكُمَـاةُ آلَّتِيْ آحْتَجَّتْ بِحَجَّتِهَـا   وَأَقْبَلَتْ لِلْعِـدَا وَآلْحِقْـدُ حَـادِيْهَـا
وَافَتْ إِلَى طِيْبَـةِ آلْفَيْحَـاءِ ثَـائِـرَةً   عَلَى آبْنِ عَفَّـانَ مِنْ نَـائِيْ بَـوَادِيْهَـا
كَـانَتْ وُفُـوْداً مِنَ آلْأَمْصَـارِ قَـادِمَـةً   عَلَيْـهِ تُبْـدِيْ لَـهُ مُخْـزِيْ شَكَـاوِيْهَـا
مُصْـرِيُّهَا كَـانَ مُغْتَاظَـاً يُسَابِقُ بَصْـــرِيْهَـا وَفَـاتَهُـمَـا بِـآلسَّبْقِ كُـوْفِيْهَـا
وَإِذْ رَأَى جَمْعَهَـا عُثْمَـانُ مُحْتَشِـدَاً   خَـافَ آلْقَضَـاءَ آلَّـذِيْ يَتْلُوْ تَنَـادِيْهَـا
وَسَـارَ يَطْلِبُهَـا فِيْ وَسْطِ مَسْجِدِ طَـــهَ بِـآلتَّلَطُّفِ يَبْغِيْ أَنْ يُـرَاشِيْـهَـا
وَقَدْ عَلاَ مِنْبَرَ آلْهَادِيْ وَبَسْمَـلَ وَآسْـــتَهْدَى وَأَيَّـهَ بَيْنَ آلْجَمْـعِ تَـأْيِيْهَـا
وَقَـالَ : تُبْتُ إِلَى رَبِّيْ وَعُـدْتُ إِلَى   رَعِيَّتِيْ مُقْسِمَـاً أَنْ لاَ أُرَائِيْـهَـا
وَلَمْ يَـزَلْ خَـاطِبَـاً فِيْهَـا يُجَـامِلُهَـا   حَتَّى هَمَتْ فِيْ آلْبُكَـا مَعْـهُ مَـآقِيْهَـا
لٰكِنَّـهُ لَمْ يَكَـدْ يَـأْوِيْ لِـمَنْـزِلِـهِ   حَتَّى رَأَتْ بَعْـدَهُ مُـرْوَانَ لاَحِيْهَـا
فَجَـاءَهَا غَـاضِبَـاً يَلْحُـوْ تَجَمْهُـرَهَـا   وَرَاحَ بِـآللَّوْمِ وَآلتَّعْنِيْفِ يُـؤْذِيْهَـا
فَـأَذْهَبَتْ مِنْ نُفُوْسِ آلْقَوْمِ قَسْوَتُـهُ   مَـا نَـالَ عُثْمَـانُ مِنْ بَـادِيْ تَحَنِّيْهَـا
وَأَيْقَنَتْ أَنَّ إِصْـلاَحَ آلْخِـلاَفَـةِ لاَ   يُنَـالُ مَـادَامَ مُـرْوَانُ مُنَـاجِيْـهَـا
وَأَنَّ عُثْمَـانَ لاَ يَـنْفَـكُّ مُـعْتَـمِـدَاً   عَلَى وِزَارَتِـهِ هَيْـهَـاتِ يُقْصِيْـهَـا
فَهَـاجَمَتْ بَيْتَـهُ حَـالاً وَقَـدْ بَلَغَ آلْـــسَّيْلُ آلزُّبَى وَطِلاَبُ آلْعَدْلِ يُغْرِيْهَا
وَحَـاصَـرَتْـهُ بَغَتْ مِنْـهُ آلتَّنَـازُلَ أَرْ   بَعِيْنَ يَـوْمَـاً طِـوَالاً مَـعْ لَيَـالِيْهَـا
وَكَـانَ مُمْتَنِعَـاً أَنْ يَسْتَـقِيْـلَ وَيَـعْـــرَى مِنْ ثِيَـابِ فَخَارٍ آضَ كَـاسِيْهَـا
وَبَعْدَ أَنْ طَالَ عَهْدُ آلْحَصْرِ أَرْسَلَ عُثْـــمَـانُ عَلِيَّـاً إِلَيْهَـا كَيْ يُـرَاضِيْهَـا

وَقَالَ : إِنِّيْ أَخَافُ ٱلْمَوْتَ مِنْ يَدِهَا   فَٱحْقُنْ دَمِي وَٱصْرِفْنَهَا عَنْ تَعَدِّيْهَا
فَقَالَ: وَٱللَّهِ يَا عُثْمَانُ مَا قَصَدَتْ   لَكَ ٱلْهَلَاكَ وَلَا ذَا مِنْ مَرَامِيْهَا
وَإِنَّمَا هِيَ تَبْغِيْ ٱلْعَدْلَ مِنْكَ فَإِنْ   عَدَلْتَ وُقِّيْتَ أَسْوَاءَ تُلَاقِيْهَا
شَكَتْ إِلَيْكَ مِرَارَاً وَهْيَ صَابِرَةٌ   وَلَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا تَرْجُوْ مُشَكِّيْهَا
أَحْرَجْتَهَا وَهْيَ هٰذَا ٱلْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ   عَلَيْكَ إِنِّيْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَّ مُعْطِيْهَا
أَجَابَ عُثْمَانُ: عِدْهَا بِٱلَّذِيْ طَلَبَتْ   وَعُوْدَ صِدْقٍ أُرِيْدُ ٱلآنَ أُوْفِيْهَا
قَالَ ٱلْعَلِيُّ : وَلٰكِنْ مَا صَدَقْتَ لَهَا   قَبْلَاً فَإِيَّاكَ تَنْوِيْ أَنْ تُدَاجِيْهَا
وَسَارَ يُبْلِغُهَا وَعْدَ ٱلْخَلِيْفَةِ يَسْـــتَرْضِيْ قُلُوْبَاً طَوَتْ ضِغْنَاً مَطَاوِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ دَاوَى ٱلنُّفُوسَ مِرَا   ضَاً بِٱلْعِدَا وَهْوَ طَبٌّ أَنْ يُدَاوِيْهَا
وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهَا بِٱللُّطْفِ يُعْطِفُهَا   عَمَّا تُحَاوِلُ مِنْ شَرٍّ وَيُثْنِيْهَا
وَبِٱلْمَوَاعِيْدِ يُطْفِيْ نَارَ حِدَّتِهَا   وَبِٱلْمَوَاعِظِ وَٱلآيَاتِ يَهْدِيْهَا
حَتَّى ٱسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ فِيْ رَغَائِبِهَا   بِشَرْطِ أَنَّ ٱبْنَ عَفَّانٍ يُجَارِيْهَا
وَأَمْهَلَتْهُ ثَلَاثَاً كَيْ يُقِيْلَ بِهَا   عُمَّالَهُ كَانَ ذَا أَقْصَى تَوَخِّيْهَا
مَرَّتْ وَلَمْ يُجْرِ عُثْمَانُ ٱلْإِقَالَةَ بَلْ   لَوْ رَامَهَا لَمْ يَكُنْ مُرْوَانُ مُمْضِيْهَا
لِذَاكَ شَدَّتْ عَلَيْهِ شِدَّةً جَزِعَتْ   لَهَا ٱلنُّفُوْسُ وَجَدَّتْ فِيْ تَحَرِّيْهَا
نَفَاقَمَ ٱلْخَطْبُ حَتَّى قَدْ تَعَذَّرَ دَفْـــعُ ٱلْكَارِثَاتِ ٱلَّتِيْ هَلَّتْ بَوَادِيْهَا
فَأَنْجَدَ ٱلْمُرْتَضَى عُثْمَانَ بِٱلْحَسَنَيْـــنِ قَائِلَاً: فَٱحْمِيَاهُ مِنْ تَصَدِّيْهَا
أَوْ تُقْتَلَا دُوْنَهُ لَا تَرْهَبَا خَطَرَاً   مِنَ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِيْ فَحَّتْ أَفَاعِيْهَا
لٰكِنَّهُ ٱلْقَدَرُ ٱلْمَحْتُوْمُ حُمَّ وَقَدْ   قَضَى ٱبْنُ عَفَّانَ مَقْتُوْلَاً بِأَيْدِيْهَا
وَٱسْتَحْكَمَتْ فِتْنَةٌ كَانَتْ أُمَيَّةُ فِيْ   كُلِّ ٱلْإِمَارَاتِ تُوْرِيْهَا وَتُذْكِيْهَا

وَقَالَ فِيْ قَتْلِ عُثْمَانٍ أَبُوْ حَسَنٍ   مَقَالَةً أَظْهَرَتْ آرَاءَهُ فِيْهَا

فَقَالَ : لَوْ أَنَّنِيْ يَوْمَاً بِقَتْلَتِهِ   أَمَرْتُ مَنْ قَتَلُوْهُ كُنْتُ جَانِيْهَا

أَوْ كُنْتُ نَاصِرَهُ لَوْ كُنْتُ زَاجِرَ ثُوَّ م   ارٍ عَلَيْهِ تَعَدَّتْ أَوْ مُنَهِّيْهَا

مَا بِآسْتِطَاعَةِ أَنْصَارِ آلْقَتِيْلِ مُبَا   هَاةِ آلأُلَى خَذَلَتْهُ فِيْ تَزَوِّيْهَا

وَلاَ آلأُلَى خَذَلَتْهُ أَنْ تُفَاخِرُهَا   أَنْصَارُهُ مَا تَمَادَتْ فِيْ تَبَاهِيْهَا

وَإِنَّنِيْ مُجْمِلٌ أَمْرَ آلْفَجِيْعَةِ فِيْ   مَقَالَةٍ لَيْسَ مِنْ بُطْلٍ بُغَشِّيْهَا

قَدْ كَانَ مُسْتَأْثِرَاً بِآلأَمْرِ صَاحِبُنَا   وَإِنَّ أَثْرَتَهُ سَاءَتْ مَآتِيْهَا

وَآلنَّاسُ قَدْ جَزِعَتْ مِنْ سُوْءِ أَثْرَتِهِ   فَأَتْبَعَتْهَا بِأَسْوَاءٍ تُحَاكِيْهَا

وَآلْحُكْمُ لِلَّهِ فِيْ مُسْتَأْثِرٍ وَجَزُوْ   عٍ أَوْرَثَانَا مِنَ آلأَرْزَاءِ قَاسِيْهَا

وَآلْقَوْلُ قَوْلُ عَلِيٍّ وَهْوَ أَعْرَفُ بِآلأُ م   مُوْرِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَرْوِيْ أَمَالِيْهَا

خلافة أمير المؤمنين

مَا مَاتَ عُثْمَانُ إِلاَّ وَآلصِّيَاحُ دَوَى   بَيْنَ آلأَعَارِبِ أَعْطُوْا آلْقَوْسَ بَارِيْهَا(١)

إِنَّا نَرُوْمُ إِمَامَاً عَالِمَاً فَقِهَاً   وَعَى آلشَّرِيْعَةَ وَآسْتَقْصَى مَعَانِيْهَا

---

(١) لا بدَّ من إرسال نظرة صادقة تخترق أعماق ما في فؤاد سيدنا عليّ عليه السلام ساعة بلغه نبأ قتل عثمان ليسهل علينا تفصيل بيعته وكيفية قبوله الخلافة . فإنّ سيدنا علي عليه السلام على ما تشهد أعداؤه قبل أصدقائه ومبغضوه قبل محبّيه لم يكن من رجال الدنيا المتمسكين بزخارفها المتولعين ببهرجتها بل ما كانت عنده على ما فيها من جاه ومجد ويسر وترف لتساوي عفطة عنز كما قال . وإذا كان قد نادى بالخلافة لنفسه وشدَّد على الذين حرموه منها بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقد كان ذلك منه لثلاثة أمور : أولها اعتقاده أنّها من حقّه الشرعي وقد غصبت منه وثانيها اعتقاده أنّه أقدر على تمشية الأمور على سنن ابن عمّه المصطفى من سواه وثالثاً لأنّ سيدتنا فاطمة الزهراء كانت تأبى أن ترى في زعامة المسلمين بعد أبيها غير زوجها عليهم الصلاة =

= والسلام . ولكن وفاة سيدتنا فاطمة وانتقال الخلافة من أبي بكر إلى عمر إلى عثمان وحصول ما قد حصل في عهد عثمان من القلاقل والفتن ومرور الأيام بأحداثها والأعوام بصروفها كل ذلك جعل حكيماً زاهداً عابداً مثل سيدنا أمير المؤمنين غير راغب بالولاية يتمنّى لو خلص من متاعبها على شرط أن يخلص من التبعة التي في عنقه نحو الإسلام والمسلمين أمام الله سبحانه ولم يكن يرهب سواه هو أصرَّ على رفضها .

قد لا يدرك كنه ما نقوله الذين لا يعرفون ما هي التقية وما هو الصلاح وما هي التبعة وما هو الضمير الحي وفي الأخير من هو عليٌّ بن أبي طالب على حقيقة قداسة نفسه وطهارة وجدانه وصحة عقيدته ومتانة إيمانه ولذلك نقول جازمين غير وجلين ولا مترددين أنَّ سيدنا علي عليه السلام عند ما سمع بمقتل عثمان لم يدخل على نفسه الشريفة ما دخل على نفوس غيره من الناس من مختلف المؤثرات فما أكبر الخطب كما أكبره الأمويون لأنّ عثمان ولو أنّه خليفة المسلمين ما خرج عن حدّ أنّه واحد منهم تلك مبادىء الاشتراكية الإسلامية وقد قتل قبله عمر وهو خليفة . ولا صغر الخطب في نظره كما صغر في نظر غيره من أعداء عثمان لأنّه كحكيم حازم بعيد النظر ما فاته ضرر الفوضى التي فشت في المسلمين حتى انتهت بمقتل عثمان وطالما جاهد ليتلافى هاتيك الفوضى بما بذل من النصح لعثمان ولم يفلح . ولا شمت بمقتله كما شمت كثيرون لأنّه في الحقيقة لم يكن عدواً لشخص عثمان وحاشا لنفسه العلوية الطاهرة أن تخبىء عداوة وحقداً لعثمان أو غيره من الذين كانوا يظهرون له العداوة أو يحقدون عليه . وإجمال القول أنّه كان عند تلك الواقعة ينظر إلى المصلحة الإسلامية وهو في عقر بيته ويفكر في ما سيعقبها من الأخطار وعلى الأخص في مسؤوليته الشخصية أمام ربّه ودينه وابن عمّه المصطفى والمسلمين .

أمّا الثائرون فعند ما فصلوا في أمر عثمان على ما لم يكونوا يريدونه لأننا لا نزال على رأينا بأنّهم كانوا يفضلون أن يستقيل عثمان ولا يغمسوا أيديهم بدمه وما قتلوه إلاّ بعد أن يئسوا من استقالته وخافوا أن تدهمهم الجيوش التي أرسل يطلبها من عمّاله فتنكل بهم وتبقى الخلافة على الحال التي كانوا يرونها مخالفة للشرع وعلى رأيهم كان أكابر الصحابة والأنصار نعم عندما فصلوا في أمر عثمان بقتله طفقوا ينادون باسم سيدنا علي عليه السلام جهراً ويصفونه بما عرف به من العلم والفضل والزهد والسابقة والقرابة =

وَسَيِّدَاً مَا تَعَالَى عَنْ رَعِيَّتِهِ   فَإِنْ أَتَتْهُ تُفَاهِيْهِ يُفَاهِيْهَا

=والشجاعة وغير ذلك من حميد الصفات التي حلّاه الله بها فجعلته المفرد العلم لا ندّ له بمحامده وأخلاقه الفاضلة وكانوا ينوهون باسمه جهرةً حتى ملأوا بأصواتهم آفاق المدينة المنورة وما كان منهم من يرضى أن يكون خليفة المسلمين سوى وصيّ الرسول الأمين .

أمّا كبار المهاجرين فقد كان على رأسهم ثلاثة هم بقية العشرة الذين مات رسول الله وهو عنهم راضٍ وهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وكان سعد هذا غاضباً على عثمان أشدّ الغضب وقد آلى على نفسه أن لا يدخل قطعاً بشؤون المسلمين ولذلك كان على حيدةٍ تامةٍ خلافاً للزبير وَطلحة فإنّهما كانا على رغبة شديدة بالخلافة يتمنى كلُّ واحدٍ منهما لو تكون نصيبه ولكن ما فاتهما أنَّ دون وصولهما إليها وقتئذٍ خرط القتاد لأنّ الناس بعد أن مرَّ عليهم ما مرَّ من الأحداث لم يعودوا ينصرفون عن علي إليهما مهما كان الحال وأعني بالناس هم أهل المدينة وفيهم أكابر الصحابة والأنصار وجماعة الثائرين النازلين فيها .

وكان المقرَّر لدى الناس أنّ الكلمة الأولى والأخيرة في الخلافة هي لأهل المدينة المنورة أنفسهم دون سواهم فقد رأينا أبا بكر قد أصبح خليفةً في حال بيعة أهل المدينة له وكتب بذلك إلى الأمصار التي كانت خاضعة لرسول الله فمن رضي ببيعته أقرَّه ومن عصاها حاربه وكذلك عمر أصبح خليفةً منذ قرىء عهد أبي بكر له على أهل المدينة من غير أن يهتمَّ بمن في بقية الأمصار وكذلك كان الحال في ولاية عثمان فإنّ عبد الرحمن بن عوف عندما تفوَّض من أصحابه الخمسة أن يكون الحكم بينهم خرج ليسأل أهل المدينة رأيهم بالذي يريدونه للخلافة وما خطر له قط أن يرجع في الأمر إلى أهالي الأمصار . وحسب هذه السوابق ما كان في المدينة المنوَّرة من يشكّ بأنّ لأمصار المسلمين الأخرى أدنى حقّ أو رأي بانتخاب أو تعيين الخليفة . وبطبيعة الحال ما كسب أهالي المدينة هذا الحقّ إلّا لأنّ رؤساء المهاجرين والأنصار كان أكثرهم فيها وهم على التحقيق أهل الحلّ والعقد في مصالح المسلمين .

وعندما انجلت الثورة عن مقتل عثمان أسرع زعماء بني أميّة وأكابر المنتمين إليهم إلى الإختفاء من وجه الثائرين فبعضهم لزموا بيوتهم والبعض هربوا إلى الشام ملتجئين إلى معاوية زعيمهم وكان في وقت الحصار قد ترك المدينة أناس منهم أيضاً ومع ذلك =

وَآمِـرَاً إِشْـتِـرَاكِيَّـاً كَـمَـا نَـزَلَتْ آيُ ٱلْهُـدَى وَكَمَا قَـدْ شَاءَ مُـوْحِيْهَـا

= كان معظم رؤساء المهاجرين والأنصار الأقدمين في المدينـة كما سبق القـول خلافـاً لما زعم الشيخ محمد الخضري في محاضراته من أن أكثرهم كان خارج المدينـة وهو وهـم ينفيه التاريخ بكل صراحةٍ .

ولقـد تشعبت الروايـات في كيف كانت بيعـة سيدنـا علي عليه السلام ولم يكن تشعبهـا لعدم إمكان الوصول إلى حقيقتهـا فإنّ الـذين حفظوا الـوقائـع التي قبلها مـا كان يتعـذّر عليهم حفظها ولكن لأنَّ الناس في صدر الإسلام كان يهمهم إرضـاءً لمعاويـة والأمويين أن يزيدوا وينقصوا فيها على ما تقتضيه المصلحة أو تريده « القوة القـاهرة » فـانتهى إلينا من متضارب الروايات ما يحـار في تمحيصه اللبيب أمّـا نحن فنرى أنّ أصحّ الروايـات التي يرتاح إليها الضمير هي رواية سيدنا علي عليه السلام نفسه عن هاتيك البيعـة فإنّـه أولاً ما من مسلم صادق الإيمان يشكّ بصدقه وثانياً أنّه كان يخاطب بأقواله الكريمـة التي نعتمد عليها لنعرف حقيقة كيفية بيعته منها الذين حضروها فلا يتـأتى أن يخاطبهم بمـا لم يكن كأنّه كـان وهو يـريد أن يحجهم بـه ومثل سيـدنا علي أسمى قـدراً وأعظم نـزاهةً من أن يقول ما لم يكن أو تنطق شفتاه بغيـر الحق فقد قـال عليه السلام في خطبتـه الشقشقية بعـد أن ذكـر ولاية أبي بكـر وعمر وعثمـان ما نصـه « فما راعني إلاّ والنـاس كعُرف الضبـع إليّ ينثـالون عليّ من كـل جانب ، حتى لقـد وطىءَ الحسنان ، وشُقَّ عـطفـاي ، مجتمعين حولي كربيضـة الغنم » أي أنّه عليه السلام في حـال قتل عثمـان فاجـأه الناس من كـل صوبٍ وحـدبٍ يريـدون بيعته . وقـد كرَّر مثـل هذا القـول في غير مـوضع من خـطبه ورسـائله الشـريفة . ثمَّ روى لنـا عليه السلام كيف كان قبـوله الخـلافة على التمـاس القوم وإلحـاحهم فقال : « أمّا والـذي فلق الحبة ، وبـرأ النسمة ، لـولا حضور الحـاضر ، وقيـام الحجة بـوجود النـاصر ، ومـا أخذ الله على العلمـاء أن لا يقارُّوا على كـظة ظـالم ، ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » وفي هذه الكلمات ومثلهـا أيضاً أبـان الأسباب التي حملتـه على قبول رجاءَ النـاس والتماسهم وهي أولاً وجـاهة حجتهم عليـه بأنّهم ينصـرونه على الحقّ ، وثانياً أنّه كان يرى بأنّ الله قد أوجب على العلماء أن لا يتغافلوا عن ظلم الظالم ومظلمة المظلوم وأنَّ هذين السببين هما اللذان حملاه على قبول الخلافة ولولاهما لكان بلا شكّ قد تخلّى عن الخلافة أخيـراً كما تخلّت عنه أولاً . =

= ثمَّ أنّ علياً عليه السلام كتب إلى معاوية على أثر بيعته ما نصه « أمّا بعد فإنَّ الناس قد قتلوا عثمان عن غير مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع فإذا أتاك كتابي فبايع لي وأوفد إليَّ أشراف أهل الشام قبلك » ولا يمكن أن يكتب سيدنا أمير المؤمنين بأنَّ الناس بايعوه عن مشورة وإجماع إلى معاوية وهو أعلم الناس بما في صدره من الضغن إن لم يكن حقيقةً راهنة لا جدال فيها كما أننا لم نرَ في أجوبة معاوية لأمير المؤمنين على ما فيها من لغو وجرأة وافتئات ما أنكر عليه صحة بيعته أو أنَّ الناس ما أجمعوا عليها .

وليس أمامنا سوى قول طلحة والزبير أنّهما بايعا بلسانيهما ولم يكونا راضيين عن البيعة في قلبيهما وهذا نحن مصدقوه عنهما مثبتوه لهما فإنَّ كلاً منهما كان يشتهي الخلافة لنفسه عاملاً لأجلها في سرّه ولكنهما لم يجرءَا على طلبها جهرةً بعد أن قتل عثمان باذاء إجماع المسلمين على سيدنا علي وانثلالهم إليه من كلِّ صوبٍ وحدبٍ فرضيا بالأمر الواقع وتقدما الناس بعرض الخلافة على علي لأنّهما أدركا أنّ الثورة التي نفخا في ضرامها طويلاً لا يمكن أن يطفئها إلّا سيدنا علي ورأيا أيضاً بظهورهما أمامه بمظهر الراغب ببيعته ما يوصلهما إلى بعض مطامعهما من الولاية على البصرة والكوفة بدليل جيئتهما إليه بعد بيعته يطالبانه بهذين المصرين وهما يمتنان عليه بالبيعة .

ولا يجب أن ننسى في هذا المقام أنّ أهالي المدينة وهم أصحاب وأنصار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأولادهم أنهم كانوا في أثناء الثورة من رأي الثائرين لأنّهم لو لم يكونوا كذلك لوقفوا في وجوههم وحاربوهم وأنت تعلم أنّ الثائرين الذين قدموا المدينة كانوا في نحو ثلاثة آلاف مقاتل وقيل في نصف هذا العدد كما تعلم أنَّ أهالي المدينة وضواحيها كان فيهم من رجال القتال أضعاف هذا العدد فلو لم يكونوا على رأي الثائرين لما أقرّوهم على عملهم بل ستعلم فيما بعد أن عبدان الصحابة مع أعراب البادية انضموا إلى الثائرين أيضاً . وثانياً أنَّ أهالي المدينة كانوا على رأي الثائرين في بيعة سيدنا علي ولو لم يكونوا على رأيهم لما مشوا معهم إلى علي يعرضون عليه البيعة .

وعلى هذا فالثابت المقرّر عندنا على اختلاف الروايات أنّ الناس اجتمعوا وتشاوروا وأجمعوا على بيعة سيدنا علي وكان على رأسهم طلحة والزبير وأنّ سيدنا علي =

=ما قبل التماسهم ورضي بخلافتهم إلّا بعامل الإخلاص لدينه وملّته وعلى نية أن يعيد الحال إلى ما كانت عليه على عهد المصطفى أو يروح ضحيةً للدين الحنيف الذي طالما جاهد في سبيله لذلك ما أصغى إلى من حوله من الناصحين الذين أرادوا أن يداري ويراشي الناس لتطمئنّ به الخلافة . وقد أعلن الناس عندما قدموا يلحون عليه بقبول البيعة بذلك وهاك ما جرى :

سار القوم إلى سيدنا علي عليه السلام على أثر مقتل عثمان وهو يستعيذ بالله من شرّ ما كان ودخل عليه زعماؤهم وفيهم طلحة والزبير وغيرهما من وجوه المهاجرين والأنصار وزعماء الثائرين وفاجئوه بقولهم « لا بدَّ للناس من إمام وأنت إمامنا » فانتهرهم سيدنا علي وقال « لا حاجة لي في أمركم » فقال طلحة والزبير يستحيل أن نعدل عنك لسواك بل ليس لهذا الأمر غيرك وأنت أسبق الناس إلى الإسلام وأقربهم قرابةً إلى رسول الله فقال عليه صلوات الله : « دعوني والتمسوا غيري ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ولا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . وإنَّ الآفاق قد أغامت ، والحجة قد تنكرت ، واعلموا إنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأن أكون لكم وزيراً ، خير لكم منّي أميراً » فقالوا ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ وما زالوا به حتى أصاخ إلى طلبهم وقال لهم بصراحته المعهودة وبلاغته المشهورة « أمّا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارُّوا على كظّة ظالم أو سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » فقالوا بورك فيك يا أمير المؤمنين فامدد يدك لنبايعك . فنظر إليهم نظرة المعاتب وقال عليه السلام بعد أن استخار الله واستعان به « ففي المسجد فإنَّ بيعتي لا تكون خفيةً ولا تكون إلّا في المسجد » فساروا به إلى المسجد وهم فرحون متهللون يهللون ويكبّرون حتى إذا ما دخله علا المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ذمتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم ، إنَّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات ، ألا وإنَّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي بعثه بالحق لتبلبلنَّ بلبلةً ، ولتغربلنَّ غربلةً ، ولتساطنَّ سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم =

= أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقنَّ سابقون كانوا قصروا ، وليقصرنَّ سابقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وسمةً ، ولا كذبت كذبةً ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ، ألا وإنَّ الخطايا خيلٌ شمس ، حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم في النار ، ألا وأنَّ التقوى مطايا ذللٌ حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة ، حقٌ وباطلٌ ، ولكل أهلٌ فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ، ولئن قلَّ الحقُّ فلربما ولعلّ ، ولقلَّما أدبر شيءٌ فأقبل ، شُغل مَن الجنة والنار أمامه . لساعٍ سريعٌ نجا ، وطالبٌ بطيءٌ رجا ، ومقصر في النار هوى . اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجارة ، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منقذ السنة ، وإليها مصير العاقبة . هلك من ادَّعى . وخاب من افترى . من أبدى صفحته للحق هلك . وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره . لا يهلك على التقوى سنخ أصل . ولا يظمأ عليها زرع قوم . فاستتروا في بيوتكم . واصلحوا ذات بينكم . والتوبة من ورائكم . ولا يحمد حامد إلّا ربّه . ولا يلم لائم إلّا نفسه »اهـ وبعد أن انتهى المرتضى عليه السلام من سرد هذه الجواهر المنثورة على الناس نزل عن المنبر فأقبلوا عليه يبايعونه وعلى رأسهم طلحة والزبير فقال لهما تواضعاً وتلطفاً بل أنا أبايعكما قالا كلّا فإننا مبايعاك وكان أول المبايعين طلحة بيده الشلاء فتشائم الناس منها وقالوا إنّ أول يدٍ قدمت إليه كانت شلاء ثمَّ ثنى الزبير وتبعهما الناس وبعد ذلك طُلب سعد بن أبي وقاص فجيءَ به فقيل له بايع فقال « لقد آلوت أن لا أدخل بأمر من أمور المسلمين فأمهلني ريثما يبايعك الناس ولا بأس عليك مني » فتركه وكذلك فعل عبد الله بن عمر فإنّه طلب المهلة إلى بعد بيعة الناس وكفله سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

وبعد أن تمّت البيعة خطب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « إنَّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشرّ . فخذوا نهج الخير تهتدوا . واصرفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تؤدّكم إلى الجنة . إنَّ الله حرَّم حراماً غير مجهول . وأحلَّ حلالاً غير مدخول . وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وشدَّ الإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحق . ولا يحلُّ أذى المسلم إلّا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت . فإنَّ الناس أمامكم وإنَّ الساعة تحدوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأولكم آخركم . اتّقوا الله في عباده وبلاده . فإنّكم مسؤولون حتى عن =

نَخْتَارُ مَنْ يَزْدَرِيْ آلْأَمْوَالَ يَحقِرُهَا زُهْداً وَيَبْذِلُهَا بِرّاً لِعَافِيْهَا

نَخْتَارُ مَنْ بِفُرُوْضِ آلدِّيْن مُضْطَلِعاً مِنْ بَدْئِهَا مُفْضِياً فِيْهَا لِخَامِيْهَا

نَخْتَارُ مَنْ كَانَ لِلْهَادِيْ آلرَّسُوْلِ أخاً تِلْكَ آلْأُخُوَّةُ أَخْلِقْ أَنْ نُرَاعِيْهَا

نَخْتَارُ خَيْراً وَصِيَّ آلْمُصْطَفَى لِعِبَا دِ آللّهِ مَا غَيْرُهُ لِلْحَقِّ يُمْشِيْهَا

نَخْتَارُ وَآلْأَمْرُ شُوْرَى زَوْجَ فَاطِمَةٍ إِلَى آلْخِلَافَةِ تُسْمِيْهِ وَيُسْمِيْهَا

خِرْنَا آلَّذِيْ رَبُّهُ قَدْ خَارَهُ وَرَسُوْ لُهُ وَخِيْرَتُهُ هُبُّوْا لِنُمْضِيْهَا

فَلْنَسْرِعَنَّ بَنِيْ آلْإِسْلَامِ أَجْمَعُنَا لِنُسْكِنَ آلدَّارَ بِآلْإِجْلَالِ بَانِيْهَا

كَذَاكَ كَانَتْ جُمُوعُ آلْمُسْلِمِيْن يُنَا دِيْ بَعْضَهَا آلْبَعْضُ مَا أَحْلَى تَنَادِيْهَا

وَبِآلتَّهَالِيْلِ أمَّتْ دَارَ حَيْدَرَةٍ بِمَا لَدَيْهَا مِنَ آلآمَالِ تُزْجِيْهَا

وَإِنَّ أَصْوَاتِ خَلْقِ آللّهِ مَا آجْتَمَعَتْ إِلاَّ عَلَى آلْحَقِّ تُعْلِيْهِ فَيُعْلِيْهَا

وَزُمْرَةٌ مِنْ وُجُوْهِ آلْقَوْمِ قَدْ دَخَلَتْ عَلَى آلْعَلِيِّ وَحَيَّاهُ مُحَيِّيْهَا

فِيْهَا آلزُّبَيْرُ وَفِيْهَا طَلْحَةُ وَسِوَى هٰذِيْنِ مِمَّنْ سَمَوْا فِيْ آلْعُرْبِ تَوْجِيْهَا

قَالَتْ : مَمَالِكُنَا ذَا آلْيَوْمَ شَاغِرَةٌ وَأَنْتَ صِهْرَ نَبِيِّ آللّهِ تَحْمِيْهَا

بَادِرْ لِنَجْدَتِنَا وَآقْبَلْ إِمَارَتَنَا فَضْلاً وَإِنَّا إِلَى عُلْيَاكَ نُهْدِيْهَا

فَقَالَ: لَا حَاجَةٌ لِيْ فِيْ إِمَارَتِكُمْ وَلَا أَنَا بَعْدَ هٰذَا آلْيَوْمِ بَاغِيْهَا

قَالَتْ: نُحَاذِرُ أَنْ نَرْضَى سِوَاكَ لَهَا وَمَنْ سِوَاكَ مِنَ آلْأَرْزَاءِ يُنْجِيْهَا

= البقاع والبهائم . وأطيعوا الله ولا تعصوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا به . وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه » اهـ .

وبعد أن أكمل أمير المؤمنين عليه السلام خطبته خرج من المسجد يتبعه الناس وعلى وجوههم سمات الفرح وتوزعوا في المدينة وهم يهنئون بعضهم بعضاً بإعطاء القوس باريها وإسكان الدار بانيها .

وَأَنْتَ أَسْبَقُ كُلِّ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْإِ م يْمَانِ سَابِقَةُ أَكْرِمْ بِآتِيْهَا
وَأَنْتَ أَقْرَبُ قُرْبَى لِلرَّسُوْلِ وَنْحْـنُ أُسْرَةُ ٱلْمُصْطَفَى طُرّاً نُوَالِيْهَا
نَادَاهُمُ: يَمِّمُوْا غَيْرِيْ فَإِنِّيَ قَدْ زَهِدْتُ فِيْهَا وَامُّوْا مُسْتَحِبِّيْهَا
إِنَّا لَمُسْتَقْبِلُوْ أَمْرٍ مَصَاعِبُهُ لَهَا وُجُوْهٌ تُغَشِّيْهَا طَوَارِيْهَا
فَلاَ تَقُوْمُ لَهَا هٰذِيْ ٱلْقُلُوْبُ وَلاَ ٱلْـعُقُوْلُ تَثْبُتُ فِيْ مَلْقَى تَمَاسِيْهَا
آفَاقُكُمْ قَدْ أَغَامَتْ وَهْيَ مُمْطِرَةٌ بُرُوْقُهَا مَا ٱخْتَفَى عَنِّيْ تَلَوِّيْهَا
وَقَدْ تَنَكَّرَتِ ٱلسُّبْلُ ٱلَّتِيْ وَضَحَتْ تَنَكُّراً يُوْرِثُ ٱلْإِضْلاَلَ وَٱلتِّيْهَا
فَإِنْ أَجَبْتُ فَإِنِّيْ رَاكِبٌ بِكُمُ طُرْقاً بِعِلْمِيْ يُجَافِيْهَا مُجَافِيْهَا
وَلَسْتُ أُصْغِيْ إِلَى قَوْلٍ وَمَعْتَبَةٍ مَا دِمْتُ أَحْكَامَ رَبِّ ٱلْعَرْشِ أُجْرِيْهَا
وَإِنْ تَرَكْتُمْ عَلِيّاً مِنْ وِلاَيَتِكُمْ فَإِنَّنِيْ وَاحِدٌ مِنْ بَيْنِ أَهْلِيْهَا
وَقَدْ أَكُوْنُ وَأَيْمُ ٱللّهِ أَكْثَرُكُمْ سَمْعاً وَطَوْعاً وَإِخْلاَصاً لِوَالِيْهَا
وَإِنْ أَكُوْنَ وَزِيْراً فِيْ إِمَارَتِهِ خَيْرٌ لَكُمْ فَدَعُوْنِيْ مِنْ تَوَلِّيْهَا
وَمَا ٱنْتَهَى مِنْ مَقَالِ ٱلرَّفْضِ حَيْدَرَةٌ وَعَزْمَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلتَّصْمِيْمِ يُبْدِيْهَا
حَتَّى عَرَتْ سَامِعِيْهِ دَهْشَةٌ وَإِلَيْـهِ وَجَّهُوْا نَظَرَاتِ ٱلْيَأْسِ تَوْجِيْهَا
قَالُوْا: وَلَيْسَ لَهَا إِلاَّ أَبُوْ حَسَنٍ يُجْرِيْ سَفِيْنَتَهَا أَمْناً وَيُرْسِيْهَا
إِنَّا نُنَاشِدُكَ ٱللّهَ ٱلْمُهَيْمِنَ أَنْ تُعِيْدَ لِلشِّرْعَةِ ٱلسَّمْحَا تَلاَلِيْهَا
وَأَنْ تَمُدَّ يَداً بَيْضَا لِأُمَّتِنَا بِهَا تَعُوْدُ إِلَى مَاضِيْ تَصَافِيْهَا
أَلاَ تَرَى يَا مُفَدًّى شَرَّ مَوْقِفِهَا وَمَا غَدَتْ فِيْهِ مِنْ بَلْوَى تُعَانِيْهَا
أَلاَ تَرَى ٱلْمُلْكَ وَٱلْإِسْلاَمَ فِيْ خَطَرٍ دَانٍ وَنَكْبَتُهُ صَعْبٌ تَلاَفِيْهَا
أَلاَ تَرَى ٱلْفِتْنَةَ ٱلْهَوْجَاءَ تُحْرِقُنَا نِيْرَانُهَا لَعَنَ ٱلْبَارِيْ مُلَظِّيْهَا

أَلَا تَخَافُ إِلٰهاً أَنْتَ تَعْبُدُهُ فِيْ أُمَّةٍ بِكَ قَدْ نَاطَتْ أَمَانِيْهَا

وَلَمْ يَزَالُوْا بِهِ حَتَّى أَصَاخَ لَهُمْ سَمْعاً وَدَعْوَتُهُمْ أَمْسَى مُلَبِّيْهَا

وَقَالَ: لَوْلَا حُضُورُ ٱلْحَاضِرِيْنَ وَنَصْـ ـرُ ٱلنَّاصِرِيْنَ لَهَا مِنْ مُسْتَهِيْنِيْهَا

وَمَا عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ ٱللّٰهُ يَأْخُذُ مِنْ مَوَاثِقٍ خَيْرُهَا سَعْياً مُوَفِّيْهَا

أَنْ لَا تَقَرَّ عَلَى كَظَّاتِ ظَالِمِ قَوْ مٍ أَوْ سَغَابَةِ مَظْلُوْمٍ يُقَاسِيْهَا

لَكُنْتُ أَلْقَيْتُ أَحْبَالَ ٱلْخِلَافَةِ مَا طَالَتْ عَلَى مَنْكِبَيْهَا غَيْرَ شَالِيْهَا

وَكُنْتُ آخِرَهَا مِنْ كَأْسِ أَوَّلِهَا أُسْقِيْ فَخَمْرَتُهَا يُؤْذِي تَحَسِّيْهَا

وَإِنَّ دُنْيَاكُمُ عِنْدِيْ لَأَهْوَنُ مِنْ عَفِيْطِ عَنْزٍ تَرَعَّتْ فِيْ مَرَاعِيْهَا

وَمَا أَتَمَّ عَلِيٌّ سَرْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى ٱلْوُجُوْهِ ٱلَّتِيْ حَازَتْ تَرَجِّيْهَا

حَتَّى عَلَى فَضْلِهِ أَثْنَتْ وَصَاحَ أَمِيْـ ـرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَمِيْدَ ٱلْعُرْبِ مُثْنِيْهَا

أُمْدُدْ يَمِيْنَكَ فَضْلاً كَيْ نُبَايِعَهَا وَٱظْفَرْ بِبَيْعَةِ إِخْلَاصٍ نُؤَدِّيْهَا

فَقَالَ: فِيْ عُقْرِ دَارِيْ لَسْتُ أَقْبَلُ مِنْـ ـكُمْ خِفْيَةً يَا مُسْتَبِيْعِيْهَا

وَإِنَّمَا ٱلْمَسْجِدُ ٱلْمَبْرُوْرُ مَوْضِعُهَا وَٱلنَّاسُ تَشْهَدُ عَاطِيْهَا وَمُعْطِيْهَا

فَأَسْرَعُوْا بِٱلْعَلِيِّ ٱلْمُرْتَضَى وَأَهَا زِيْجُ ٱلسُّرُوْرِ يُغَنِّيْهَا مُغَنِّيْهَا

وَٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ تُبْدِيْ بَشَائِرَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَتْ فِيْهِ تَمَنِّيْهَا

حَتَّى بِاذَا مَا ٱنْتَهَتْ لِلْمَسْجِدِ ٱلنَّبَوِ مِيِّ بَايَعَتْهُ وَمَا ضَنَّتْ بِأَيْدِيْهَا

وَهٰكَذَا صَارَ مَوْلَانَا ٱلْعَلِيُّ أَمِـ ـيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَسَادَ ٱلْعُرْبَ حَامِيْهَا

وَسُرَّتِ ٱلْخَلْقُ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ بِهِ وَفَاضَتْ عَلَى ٱلدُّنْيَا تَهَانِيْهَا

أَمَّا أُمَيَّةُ فَٱغْتَاظَتْ لِخَيْبَتِهَا وَأَصْبَحَتْ وَهْيَ سَكْرَى فِيْ تَشَاجِيْهَا

خطط أمير المؤمنين في خلافته

سَنَّ ٱلشَّـــرِيْعَـةَ طَـهَ مِثْلَمَا نَــزَلَتْ عَـدْلاً وَبِـرّاً وَإِحْسَـانَـاً وَتَنْــزِيْهَـا[1]
وَكَـــانَ بَيْنَ يَــدَيْــهِ فِـيْ رِسَـــالَتِــهِ « وَصِيُّـــهُ » رَاقِبُ أَعْمَـــالَـــهُ فِيْــهَـــا

---

(١) لا بدّ لمؤرخ الحوادث التي نحن بصددها إذا كان ناقـداً حصيفاً نـزيهاً من البحث عن ظروفها وملابساتها لا الإكتفاء بروايات الرواة المختلفة وإصدار الحكم عليها كما لا بدَّ له من إرسال رائدِ طـرفه إلى الأشخـاص القائمين بهـا وأحوالهم النفسيـة إذا أراد أن يتجنب الخطل في أحكامه

فقد تولى سيدنا علي عليه السلام الخلافة والناس على غير ما كانوا عليه في زمن النبـوَّة يوم كانوا مسلمين بكل معنى الإسـلام يطلبـون الآخرة ويجـاهدون في سبيلهـا ويزدرون بالدنيا وزخارفها وملاهيهـا وتعودوا في أيـام عثمان بن عفـان ما لم يعـرفوه من قبـل وهو التفاوت بين المسلمين في الوظائف والحقوق والأموال فنسوا أنّ الإسـلام قد سـاوى بين الجميع وأنّ المسلم لا يفضل أخاه المسلم إلّا بالتقوى وان من كان من أقـرباء النبـوة أو ذا وجاهة في قريش أو سابقة في إسلام أو جهاد لا ميزة له على إخوانـه المسلمين عربـاً كانوا أو عجماً أحراراً أو عبيداً نعم كلّ هذا نسيه المسلمون بعد أن رأوا في عهـد عثمان أنّ الأمويين قد نالوا من المنافع في خلافته ما كان يحسدهم عليه سائر الناس وأن الذين كانوا يتزلفون إليهم فازوا بربح ووجاهة لم يفز بمثلهمـا من كان بعيـداً عنهم غير متصـل بهم .

أمّـا سيدنـا علي عليه السلام فظلَّ وحـده كما كـان على عهـد المصـطفى لا يعـرف إلّا الشريعة التي رضع لبنها منذ نعومة أظفاره وتـربى على يديهـا وتأدّب بـآدابها العـالية ولم يفته التبدل الـذي حدث في المسلمين بـل كان على تمـام معرفتـه ولذلـك بات زاهـداً بولاية المسلمين راغباً عن خلافتهم بعـد أن كان يـطالب بها وهـو متحقق بأنَّ حقّـه فيها صريح وقد أخذوه منه عنوةً وظلماً وكان متأكداً بـأنّه لـو تولاهـا لما استقـام له الأمـر فيها ولذلك رفضها عندمـا عرضت عليـه بعد مقتـل عثمان وقـال خير أن أكـون وزيراً من أن أكون أميراً لأنّ الـوزير عليـه إعطاء الـرأي والمسؤولية أمـام الله واقعة على الخليفـة وقد يستخفُّ النـاس بهذه المسؤوليـة إلّا الذين آمنـوا واتّقوا الله وتفـانوا بـطلب رضاه . وفي يقيني أنَّ سيدنا علي مـا قبل الخـلافة التي عـرضت عليه بـإلحاح إلّا بـدافع واحـد وهو =

= مسؤوليته أمام الله لو هو أصرَّ على رفضها بعد أن وضعها أعيان الصحابة والأنصار في عنقه معلنين أنّ ليس لها سواه لانتشال الأمّة من المصائب التي تتهددها . هذه هي الحقيقة لا ما قاله الشيخ الخضري في محاضراته وهذا نصّه « كانت الكلمة في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين (وقد سبق له فحقرهم ما شاء) الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلاً ثمَّ أجاب إلى ذلك » لا يا حضرة الشيخ ليس هذا هو الصحيح فإنَّ الذين كلموا سيدنا علي بالخلافة كانوا وجوه المهاجرين والأنصار مع زعماء الثائرين وفي نظر المؤرخ النزيه أنّ كلَّ من كان في المدينة كانوا على رأي الثائرين وأنّ سيدنا علي ما امتنع عن قبول الخلافة « قليلاً » بل امتنع طويلاً ولو لم يخيفوه من الله ويستنزلوا شفقته على المسلمين أن تتأكلهم الفوضى ولو لم تكن نفسه الشريفة تدفعه إلى نجدة الناس وهم في أشدّ المحنة لما رضي بخلافتهم كما جهر صراحةً أمامهم وما ذلك لأنّها ليست من حقّه ولا لأنّ الذين يعرضونها عليه ليسوا أهل الحق بالبيعة ولا لعدم كفاءته بسياسة البلاد وجدارته بتمشية الأمور كلا لا هذا ولا ذاك ولكن لأنّه عليه السلام كان يعلم حقّ العلم بما عرض على الناس فبدّل أحوالهم تبديلاً لا يرضاه عالمٌ حكيمٌ صالحٌ مثله وإنَّ بإرجاعهم إلى ماضي حالهم في عهد النبوة من المصاعب والأهوال ما لم يكن ليخفى عليه وقد جهر بهذا على أثر بيعته وصارح الناس به فقال : « لم تكن بيعتكم إيايّ فلتةً ، وليس أمري وأمركم واحداً ، أنّي أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم ، أيُّها الناس ، أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه ، ولأقودنَّ الظالم من خزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً » وقال : « إنّي حاملكمْ على نهج نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنفّذ فيكم ما أمرتُ به إن استقمتم لي ، وبالله المستعان ، ألا إنَّ موضعي من رسول الله بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته ، فامضوا إلى ما تؤمرون به . وقفوا عند ما تنهون عنه ، ولا تعجلوا في أمر حتى أبينه لكم ، فإنَّ لنا عن كلِّ أمرٍ تنكرونه عذراً » وقال أيضاً : « ألا ليقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غمرتهم الدنيا ، فاتّخذوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتّخذوا الوصائف الرقفة ، فصار ذلكَ عليهم عاراً وشناراً إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ويستنكرون ، ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، يرى أنَّ الفضل له على سواه لصحبته ، =

وَقَـدْ تَفَقَّـهَ فِيْهَـا فَهْـوَ عَـالِمُهَـا   وَقَـدْ تَبَحَّـرَ فِيْهَـا فَهْـوَ فَـالِيْهَـا
وَقَـدْ تَشَبَّـعَ مِنْ رُوْحِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ حَـــتَّى لَمْ يَفُتْـهُ دَقِيْقٌ مِنْ مَعَـانِيْهَـا
وَمَـا مِنَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ٱلرَّاشِـدِيْنَ عَلَيْـــمٌ كَـانَ يَقْـرُبُ مِنْ عُلْيَـاهُ تَفْقِيْهَـا
وَطَـالَمَـا نَـوَّهَ ٱلْهَـادِيْ بِعِلْمِ عَلِـــيٍّ مَعْ زَكَانَتِـهِ فِيْ ٱلنَّاسِ تَنْوِيْهَا
بِذَا ٱلصَّحَابَـةُ وَٱلْأَنْصَارُ قَـدْ شَهِدَتْ   شَـهَـادَةً كُـلُّ ذِيْ دِيْنٍ يُـزَكِّـيْهَـا
فَإِنْ يَقُلْ قَدْرَ عِلْمِيْ قَدْ حَكَمْتُ فَمَا   أَحْكَـامُـهُ غَيْـرُ آيِ ٱللَّهِ يُبْـدِيْهَـا
وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَأَدَّ م ى ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِيْ ٱلْإِسْلَامُ يَقْضِيْهَا
وَكَـانَ مُسْتَمْسِكـاً بِـٱلشَّـرْعِ مُقْتَفِيـاً   فِيْهِ خُطَى ٱلْمُصْـطَفَى يَأْبَى تَخَطِّيْهَا
وَكَـانَ لِلْحَقِّ سَيْفُ ٱللَّهِ فِيْ يَـدِهِ   بِـهِ ٱلْأَبَـاطِيْـلُ لَا يَنْفَـكُّ يُفْلِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ عِنْـدَهُ ٱلـدُّنْيَـا وَزُخْـرُفُهَـا   إِلَّا مَـتَـاعَ غُـرُوْرٍ فَهْـوَ قَـالِـيْهَـا
وَمُذْ عَلَا ٱلْعَرْشَ نَادَى بِٱلرُّجُوْعِ إِلَى   مَـوَاطِنِ ٱلشَّـرْعِ رُجْعَى هَمَّ يُجْـرِيْهَا

= فـإنّ الفضل النير غداً عنـد الله ، وثـوابـه وأجـره على الله ، وأيمـا رجـل استجـاب لله وللرسـول ، فصدّق ملتنـا ، ودخل في ديننـا ، واستقبل قبلتنـا ، فقـد استـوجب حقـوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمـال مال الله ، يقسم بينكم بـالسويـة ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء ، وأفضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ، وما عند الله خيرٌ للأبرار » .

نقول هذه هي الخـطط التي وضعها سيـدنا علي لنفسـه في خلافتـه ولم يكن فيها مبتدعاً مجتهداً ولكن مقلداً لرسول الله عليهما الصلاة والسلام وهي الخـطط التي يقرّهـا الشرع وتنطبق على أحكام القرآن الشريف فإذا كان المسلمون قد أبوا السيـر عليها فمـا الذنب ذنبه ووالله لو كان علي يريد الدنيا لما فاته السير فيها ولا كان عاجزاً عن مـراضاة النـاس عليها ولكن هيهـات هيهات مـا أبو الحسن ببـائعٍ أخـراه بـدنيـاه ولا هـو راضٍ للمسلمين إلّا ما يرضاه الله ورسول الله .

فَمَـا تَلَفَّتَ حَـوْلَيْـهِ لِيَنْـظُرَ حَـا … لَا لَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا ٱلْإِسْلَامُ يَبْغِيْهَـا

وَلَا رَنَـا لِـلْأُلَى كَـانَتْ مَـطَامِعُهَـا … بِـٱلْمُلْكِ وَاسِعَـةً لَا شَيْءَ يَكْفِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ مِنْـهُ هٰـذَا غَـفْلَةً وَغَبَـا … وَلَا خَفَـايَا ٱلْـوَرَى قَدْ كَـانَ غَـابِيْهَا

وَهْـوَ ٱلَّذِي كَـانَ فِيْ وَافِيْ فَـرَاسَتِـهِ … أَحْـدَاثُ مَـا تَلِدُ ٱلْأَيَّـامُ يُنْبِيْـهَـا

وَإِنَّمَـا كَـانَ يَهْـزَا بِـٱلْمَصَـاعِتِب فِيْ … جَنْبِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ إِمَّـا رَاحَ يُمْضِيْهَـا

وَعِنْـدَهُ أَنْ يُـرَاضِيْ ٱللَّهَ أَفْضَـلُ مِنْ … إِسْخَـاطِـهِ وَرَعَـايَـاهُ يُـرَاضِيْهَـا

يَقُوْلُ : يَا نَاسُ أَصْغُوْا لِيْ فَأَنْصَحُكُمْ … نَصِيْحَـةً خَيْـرُكُمْ مَنْ رَاحَ وَاعِيْهَـا

فَـإِنَّ بَيْعَتَكُـمْ إِيَّـايَ لَمْ تَـكُ فَلْـتَةً وَلَا كُنْتُ فِيْ ذَا ٱلْعَهْدِ بَـاغِيْهَا

أَنْتُمْ تُـرِيْـدُوْنَنِيْ مِنْ أَجْـلِ أَنْفُسِكُمْ … إِرَادَةً لَـمْ أَكُنْ أَصْـلًا مُـجَـارِيْهَـا

وَمَـا أَنَـا مِـثْلُكُـمْ إِنِّـيْ أُرِيْـدُكُـمُ … لِـلَّهِ نِيَّـةُ صِـدْقٍ ظِـلْتُ نَـاوِيْـهَـا

فَبَــادِرُوْا وَأَعِيْـنُـوْنِـي بِـبِـرِّكُـمُ … عَلَى نُفُـوْسِكُـمُ كَـيْمَـا أُوَاسِيْهَـا

يَـنَـاسُ إِنِّـي لِلْمَـظْلُوْمِ أُنْـصِفُـهُ … فَـلَا يُـرَدِّدُ تَشْهَـاقَـاً وَتَـأْوِيْـهَـا

وَأَسْحَبُ ٱلـظَّالِمَ ٱلْعَـاتِـيْ وَأُوْرِدُهُ … مَنَـاهِـلَ ٱلْحَقِّ كُـرْهَـاً وَهْـوَ آبِيْهَـا

عَلَى مَنَاهِجِ هَادِيْ ٱلْخَلْقِ حَامِلُكُمْ … وَخَيْـرُكُمْ يَـا عِبَـادَ ٱللَّهِ قَـارِيْهَـا

وَإِنَّـنِـيْ مُـنْـفِـذٌ فِـيْـكُـمْ أَوَامِـرَهُ … إِنِ ٱسْتَقَمْتُـمُ لِيْ حَتَّى اجَـرِّيْـهَـا

وَمَوْضِعِيْ مِنْ رَسُوْلِ ٱللَّهِ ظَـلَّ كَمَا … لَـوْ كَـانَ حَيَّـاً بِـهِ وُجِّهْتُ تَـوْجِيْهَـا

فَـٱمْضُوْا مُضِيَّـاً إِلَى مَا تُؤْمَـرُوْنَ بِـهِ … تَقْـوَىً وَبِـرَّاً وَخَيْـرُ ٱلْخَلْقِ تَـاقِيْهَـا

وَعِنْـدَ مَا عَنْـهُ تُنْهَوْنَ ٱنْتَهُـوْا وَقِفُـوْا … بِـطَاعَـةٍ فَـازَ بِـٱلنُّعْمَى مُـؤَدِّيْهَـا

لَا تَعْجَلُوْا فِيْ أُمُـوْرٍ عَنْكُمُ خَفِـيَتْ … حَتَّى أُبَيِّنَ بِـٱلْإِفْصَـاحِ خَـافِيْهَـا

فَـإِنَّ لِيْ ٱلْعُـذْرُ عَمَّـا تُنْكِـرُوْنَ وَلَا … أُمْضِيْ أُمُـوْرَاً كِتَـابُ ٱللَّهِ يَنْفِيْهَـا

وَمِنْكُمُ ٱلْيَوْمَ مَنْ دُنْيَاهُمُ غَمَرَتْـــ ـهُمْ فَٱنْكَفَوْا أَوْسَعَ ٱلْأَقْوَامِ تَرْفِيْهَا

قَوْمٌ لَقَدْ فَجَرُوْا ٱلْأَنْهَارَ وَٱتَّخَذُوْا ٱلْـــ ـعُقَارَ سُكْنَى أَطَابَتْ نَفْسَ غَانِيْهَا

قَدْ ٱمْتَطَوْا صَهَوَاتِ ٱلْخَيْلِ عَنْ بَطَرٍ وَسَاكَنُوْا ٱلْغِيْدَ وَٱسْتَحْلَوْا تَصَبِّيْهَا

فَإِنْ مَنَعْتَهُمُ حَالاً تَلَذُّهُمُ وَعِيْشَةً مَا رَسُوْلُ ٱللَّهِ رَاضِيْهَا

وَسِرْتُ فِيْهِمْ إِلَى مَا يَعْلَمُوْنَ مِنَ ٱلْـــ ـحُقُوْقِ وَهْيَ ٱلَّتِيْ أَبَى تَخَطِّيْهَا

عَدُّوْا ٱسْتِفَاءَتَهُمْ عَمَّا إِلَيْهِ مَضَوْا عَاراً وَمَا كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ نَابِيْهَا

وَٱسْتَنْكَرُوْا عَنَتاً فَتْوَى حَكَمْتُ بِهَا وَأَضْمَرُوْا ٱلْحُقْدَ وَٱلْبَغْضَا لِمُفْتِيْهَا

قَالُوْا أَبُو حَسَنٍ قَدْ هَمَّ يَحْرِمُنَا حُقُوْقَنَا قَوْلَةً أَبْغِي تَحَاشِيْهَا

فَأَيُّمَا رَجُلٌ مِنْكُمْ بِصُحْبَةِ طَـــ ـهَ قَدْ أَدَلَّ وَوَافَى وَهْوَ يُدْلِيْهَا

يَرَى عَلَى غَيْرِهِ فَضْلاً بِهَا وَعُلَىً لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُكَافِيْهَا

فَإِنَّمَا فَضْلُهُ عِنْدَ ٱلْمُهَيْمِنِ وَهْـــ ـوَ بِٱلَّذِي تَكْسِبُ ٱلْأَقْوَامُ يُجْزِيْهَا

وَأَيُّمَا رَجُلٌ لَبَّى ٱلْإِلٰهَ وَهَا دِيْ ٱلْخَلْقِ تَلْبِيَةً تَهْدِيْ مُلَبِّيْهَا

وَدَانَ مَعْنَا بِدِيْنِ ٱللَّهِ مُعْتَلِنَاً وَلَاءَ أُمَّتِنَا مَعْ حَرْبِ عَادِيْهَا

وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقُبْلَةَ ٱلْعَلْيَاءَ قُبْلَتَنَا بِخَشْيَةِ ٱللَّهِ يَا بُشْرَى لِخَاشِيْهَا

فَإِنَّهُ بَاتَ بِٱلْإِسْلَامِ مُشْتَرِكَاً مَعْنَا شَرَاكَةَ حَقٍّ لَسْتُ خَابِيْهَا

لَهُ ٱلْحُقُوْقُ ٱلَّتِيْ ٱلْإِسْلَامُ وَاضِعُهَا كَمَا ٱلْحُدُوْدُ ٱلَّتِيْ سُنَّتْ يُرَاعِيْهَا

أَنْتُمْ عِبَادَ ٱلَّذِيْ أَبْرَاكُمْ وَكَذَا ٱلْأَ م مْوَالُ أَمْوَالُهُ فِيْكُمْ أُجَزِّيْهَا

وَإِنَّنِيْ لَمُسَاوٍ بَيْنَ أُمَّةِ طَـــ ـهَ وَٱلْمُهَيْمِنُ قَدْ أَمْضَى تَسَاوِيْهَا

وَٱلْمُتَّقُوْنَ لَهُمْ خَيْرُ ٱلْجَزَاءِ غَدَاً فِيْ جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ مَا أَثْوَوْا مَثَاوِيْهَا

لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ هٰذِيْ ٱلدَّارَ مَثُوبَةَ ٱلْأَ م بْرَارِ حَتَّى يُرَجِّيْهَا مُرَجِّيْهَا

بِــذَا أَبُــوْ حَسَنٍ نَــادَى بِخُـطَّتِـهِ فِيْ قَـوْمِهِ عِنْـدَ مَا قَـدْ بَـاتَ رَاعِيْهَـا
وَصَــارَحَ ٱلْقَـوْمَ أَنْ لَا مِيْــزَةٌ أَبَـدَاً فِيْ حُكْمِـهِ بَيْنَ عُـرْبِيْهَــا وَعُجْمِيْهَـا
وَإِنَّــهُ لِحُـدُوْدِ ٱلشَّــرْعِ مُـرْجِعُهَـا وَإِنَّــهُ لِـرِضَــاءِ ٱلـلَّهِ مُـمْشِـيْـهَـا

أول مشاكل خلافة أمير المؤمنين

مَـا تَمَّتِ ٱلْبَيْعَـةُ ٱلْكُبْـرَى لِحَيْـدَرَةٍ وَٱلنَّـاسُ فِيْ ثَوْرَةٍ صَعْبٌ تَـلَافِيْهَا[1]
وَلَمْ يَكَدْ يَعْمِلُ ٱلـرَّأْيَ ٱلسَّدِيْـدَ بِهَا كَيْمَـا عَلٰى خَيْرِ مَـا يُـرْجَى يُهَـدِّيْهَـا

---

(١) إنَّ أول مشكلة عرضت على سيدنـا علي أمير المؤمنين عليه السلام في خـلافته هي مشكلة الثـائرين الـذين باتـوا في الحقيقة بعـد مقتل عثمـان أصحاب الحـلّ والعقد في المدينة المنورة فكان من همّ الخليفة قبل كلّ شيء وهو عليه السلام مـا تعلم من أصالـة الرأي أن يعنى بتفـريق جموعهم فيعيـد أهالي الأمصـار إلى أمصارهـا ويستعيد النـظام رويـداً رويداً بعد الفوضى التي أحدثتها الثورة وهذا لا يتأتى لـه إلّا إذا عاونـه وجهاء المسلمين الذين حوله من المهاجرين والأنصار وعمّال الأمارات الإسـلامية . وبعـد ذلك لا بـدَّ أن ينظر في مقتل عثمـان وتوقيـع القصاص على القتلة إذا كـان في ذلك مصلحـة الخلافـة والمسلمين لأنّ القصاص الشرعي لم توجده الشريعة السمحـاء وعموم الشـرائع المنـزلة والموضوعة للإنتقام بل للتأديب حباً بالمصلحة العامة فإذا أمضى في سبيل الإنتقام وكان في إمضائه أضرار بالمصلحة العامـة خرج عن حـدّه الشرعي وأنتـج الحكم على ضعف رأي ممضيه وفأله . ولذلك ترى في القرآن العزيز الرحمة مصاحبة العدل لقـد أمر بهمـا الله سبحانه عباده معاً وقال ما يلخص بأنّ الرحمة أقرب للتقوى إذا كان في العدل تقية .
كمـا نرى جميـع الشرائـع تترك للملك حقَّ العفـو عن المجرمين لمـا قدمنـا من تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فتـلافي الفتنة مثـلاً أفضل بكثيـر من اقتصاصٍ لقتيل من قاتله إذا كان القصاص مفضياً إلى فتنة وهذا من الأمور البديهية التي لا تحتـاج إلى إسهابٍ في البحث .

ومن المعلوم أنّ للقوَّة الشأن الأول في إجراء أحكام الشريعة فالضعيف مثلاً يعجز عن إجراء أحكام الشرع على القوي المعتزّ بقوّته ومن ذلك أمر الثورات التي تحدث في العالم وهي قديمة فيه فإنّ الثائرين إذا ما فازوا بثورتِهم يكون فوزهم نتيجـة قوتهم سـواءٌ =

= إذا كانت ثورتهم على حقّ أو على باطل ولذلك اعتاد الملوك ومن حولهم من أولياء الأمور أن يعملوا على إطفاء نيران الثورات بالعفو العام حتى ولو تغلبوا على الثائرين لأنّهم لا يجهلون أنّ التشديد على الثائرين قد يعدُّهم إلى العودة إلى الثورة متى رأوا من نفوسهم قوةً عليها .

لا جرم أنَّ هذا مما ينطبق على الثورة التي قامت في المدينة المنورة وانجلت عن قتل عثمان فإنّ الثائرين تغلبوا على الخليفة في عاصمته فحصروه في داره وأعلنوا مراراً وتكراراً أنّهم لا يريدون قتله ولكن إقالته من خلافته والظاهر أنّهم لم يكونوا يملكون حقَّ عزله وخلعه لما تعلم من أنَّ الخلافة الإسلامية وقتئذٍ لم يكن لها نظام ثابت يعين الذين يولون الخليفة والذين يملكون حقّ خلفه أو عزله والذين تحقّ لهم الخلافة دون سواهم بل كان ذلك كلّه بمطلق اجتهاد أكابر الصحابة وكانوا ينفذونه بما يملكون من قوة وإذا تحقق لنا هذا وهو محقق لا ريب فيه كان في تعيين المجرمين الذين أجلبوا على عثمان ومبلغ استحقاقهم للقصاص الشرعي نظرٌ هذا على فرض أنّ الخليفة الجديد استطاع أن يملك ناصيتهم ويجري فيهم القصاص . إذ أنَّ الشرع الشريف بل وعموم الشرائع الإلّهية والموضوعة تحكم على القاتل بالقتل ولكنها تنظر قبل كل شيء إلى نية القاتل « والأعمال بالنيّات » فما سواءٌ قتل امرىءٍ لأخذ ماله أو للاثثار منه أو لأيّ سبب من الأسباب الخصوصية وقتل امرىءٍ رأى قاتلوه أن وجوده مضرٌّ بالجماعة لما بيده من السلطة العامة ولا سيما إذا حاولوا إصلاحه وبالأكثر إذا عرضوا عليه الاستقالة وألحّوا بها وكان يرفضها وفوق ذلك إذا أرسل يستدعي أنصاراً له يحاربهم بهم ليظلَّ في دسته متمكناً من نواصي الأمّة . وفي تواريخ الثورات في جميع شعوب الأرض وفي الخلافة الإسلامية نفسها شيء كثير من هذا فطالما ثار الناس على الخلفاء والملوك وقتلوهم أو خلعوهم وكان البعض ممن يخلفونهم يدني الثائرين منه ويعتزُّ بهم والبعض ينكل بهم تنكيلاً إذا رأى نفسه متمكناً من نواصيهم مخافة أن يفعلوا معه ما فعلوه مع سلفه . والعبرة كل العبرة بالقوة فهي التي تفعل فعلها في الثورات وفي غير الثورات بل وفي كل شيء نقول هذا كنظرة إجمالية ونحن لا نرى الثائرين قد أحسنوا الصنيع بقتل عثمان ولا نقرّهم على عملهم بل بالعكس نشجب كل ثورة وكل اعتداء شخصي على الحياة .

ولنعد الآن إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقد رأيناه يرفض الخلافة عندما عرضت =

= عليه على أثر مقتل عثمان لما يعلمه من المشاكل التي تحيط بها وقال خيرٌ لكم أن أكون وزيراً من أكون أميراً ثمَّ رأيناه يقبلها لأنّه رأى نفسه مسؤولاً أمام الله والمصطفى ودينه عن المسلمين في فوضاهم على أنّه ما كان يجهل أنّ الأمر لم يكن في يده وقتئذٍ بل في أيدي الثائرين الذين ملكوا ناصية القوّة . وأخذ ككل عاقل مدبر حازم يعالج الأمر بالتي هي أحسن وبينما هو كذلك ولم يمرّ عليه يوم أو يومان وهو على دست الخلافة وإذا ببعض الصحابة قد جاءوه ولا نعرف ان كانوا حسني النية أو سيئيها ولكن الذي نعلمه أنّهم لم يكونوا مقدرين الحالة حقَّ قدرها وعرضوا عليه معاقبة الذين أجلبوا على عثمان فنظر إليهم المرتضى عليه السلام بعين ملؤها الودّ والعطف وأجابهم بصراحةٍ وإخلاصٍ وسداد رأي قال :

« يا أخوتاه إنّي لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بقوّةٍ ، والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ، وها هم هؤلاء ، قد ثارت معهم عبدانكم ، والتفّت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيءٍ تريدونه ؟ ، وإنَّ هذا الأمر أمر جاهلية ، وإنَّ لهؤلاء القوم مادَّةً ، إنَّ الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور : فرقةٌ ترى ما ترون ، وفرقةٌ ترى ما لا ترون ، وفرقةٌ لا ترى هذا ولا ذاك ، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحةً ، فاهدأوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ، ولا تفعلوا فعلةً ، تضعضع قوَّةً ، وتسقط منَّةً ، وتورث وهناً وذلّةً ، وسأمسك الأمر ما استمسك ، وإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ » اهـ .

والذي يتدبر كلمات سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام والحكمة تتدفق من كل حرف من حروفها يظهر له أولاً أنّ الثوّار كانوا قابضين على زمام الحالة ، وأنّهم ليسوا نفراً من الأمصار فقط بل كان معهم عبدان صحابة المصطفى وأنصاره وبالطبع ما انضمَّ عبدان هؤلاء إلى الثائرين إلّا برضاء ساداتهم وثانياً قد كان معهم عدد ليس بقليل من عربان بادية الحجاز ولهم نصيبهم من الحول والطول وثالثاً أنّ أهالي المدينة وهم بالطبع أكابر الصحابة والأنصار ووجوه المسلمين ما كانوا مجمعين على رأي ففرقة تحبذ عمل الثائرين فلا ترضى الاقتصاص منهم وفرقة على العكس تطلب الاقتصاص منهم لأنّهم عارضوا مصالحها وأضرّوا بها بثورتهم وفرقة على الحياد وهذه الفرقة لا أحد يعلم إلى أيّ الفرقتين تنضوي إذا حرَّك سيدنا أمير المؤمنين ساكناً في الأمر بمثل هذه السرعة . =

فَهَـلْ أَرادَ بِـذَا إِخْـرَاجَ مَـوْقِفِـهِ   يَـا هَـلْ تَـرَى أَمْ أَرادَ ٱلْعَـدْلَ آتِيْهَـا
عَنْهَـا تَـرَى نَـدَّ أَنَّ ٱلنَّـاسَ ثَـائِـرَةٌ   وَذُوْ ٱلـرَّشَـادِ عَلَيْـهِ أَنْ يُـدَارِيْهَـا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ أَدْرَى بِٱلْمَصَاعِبِ مِنْـ   ـهَـا وَهْـوَ مُفْتَكِـرٌ فِيْمَـا يُجَلِّيْهَـا
لِـذَا تَلَطَّفَ إِذْ أَصْغَى لِمَـطْلَبِـهَـا   وَرَاحَ بِـٱلْعَطْفِ وَٱلْحُسْنَى يُفَـاهِيْهَـا
فَقَـالَ: يَا أُخْـوَتَاهُ لَسْتُ أَجْهَـلُ حَـا   لاً قَـدْ وَفَـدْتُمْ عَلَيَّ تُعْلِمُـوْنِيْهَـا
لٰكِنَّمَـا شَـوْكَـةُ ٱلثُّـوَّارِ قَـائِـمَـةٌ   فَكَيْفَ لِيْ ٱلْيَوْمَ قُوْلُـوْا أَنْ أُقَـاوِيْهَـا
وَإِنَّـهَـا مَـلَكَـتْـنَـا وَهْـيَ ظَـافِـرَةٌ   بِنَـا فَصَبْـراً إِلَى أَنْ تُمْلِكُـوْنِـيْهَـا
ثَـارَتْ وَعِبْدَانُكُمْ مَعْهَـا بِشِرْكَـةِ أَعْـ   ـرَابِ ٱلْبَـوَادِيْ ٱلَّتِيْ وَافَتْ تُمَـالِيْهَـا
وَإِنَّهَـا بَيْـنَكُـمْ بَـاتَتْ تَـسُـوْمُكُـمُ   مَـا تَبْتَغِيْ كُلُّكُمْ بِتُّمْ مُـطِيْـعِيْـهَـا
فَهَـلْ تَرَوْنَ لَـدَيَّ ٱلْيَوْمَ مَـوْضِعَ قُـدْ   رَةٍ عَلَى فِعْـلِ شَيْءٍ مَعْ تَجَمِّيْهَـا
وَٱلْأَمْـرُ ذَا جَـاهِلِيٌّ لَيْسَ تَعْـرِفُـهُ   شَرِيْعَةُ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ عُرْفِ أَهْلِيْهَـا
أَلَا ٱعْـلَمُـوْا أَنَّ لِـلثُّـوَّارِ ثَـوْرَةَ أَفْـ   ـكَـارٍ مُـرُوْرُ ٱللَّيَـالِيْ قَـدْ يُـلَاشِيْهَـا
وَإِنَّ لِلنَّـاسِ فِيْ مَشْهُـوْدِ فِتْنَتِهَـا   أَمْـراً مُحَـرِّمُـهُ حَتْمـاً يُجَـزِّيْهَـا
فَفِـرْقَـةٌ رَأْيُهَـا مَعْكُـمْ تُـوَافِقُـكُمْ   عَلَى ٱلْقِصَـاصِ بِهِ نَـادَى مُنَـادِيْهَـا

= ثمَّ عرفنا أنّ سيدنا أمير المؤمنين كان في نيتـه أن ينظر في المشكلة متى هـدأت الأحوال وانطفأت نار الثورة بحيث يعطي كلَّ ذي حقّ حقّه بالحسنى من غير تعرُّض إلى ما يضيع قوةً ويورث ذلّاً وخواراً . هذا كان عزمه عليه السلام وختم كلامـه بقولـه أنّه سيمسـك الأمر مـا استمسك إلّا إذا اضطرّ فسيمضي عزمه بالشدة فإنّ آخر الدواء الكي .

لا جرم أنّ سيدنـا علي قد أصـاب القول وصـرَّح عمّا في نفسـه بغير ريـاء وأظهر الحالة لأصحابه كما هي بغير مداجاة ولو كان مَن حوله مخلصين لما جرى من الشـدائد ما جرى بعد ذلك ولكن قُدّر فكان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى عَدْلاً مُنَابَذَةَ آلـــثُّوَّارِ تَطْلِبُ مِنَّا أَنْ نُوَاتِيْهَا

وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى هٰذا وَذَاكَ وَلاَ نَدْرِيْ لَهَا وَجْهَةً مِنْ بَعْدُ تَمْشِيْهَا

فَالصَّبْرُ أَوْلَى اَصْبِرُوا حَتَّى الزَّمَانُ يُهَدِّ م يُّ آلنُّفُوْسَ آلَّتِيْ شَطَّتْ مَرَامِيْهَا

وَرَيْثَمَا تَقَعُ آلْأَلْبَابُ مَوْقِعَهَا وَتَسْتَمِرُّ عَلَى حَالٍ نُوَخِّيْهَا

إِذْ ذَاكَ تُؤْخَذُ بِآلْحُسْنَى آلْحُقُوْقُ عَلَى سَمَاحَةٍ دُوْنَ أَهْوَالٍ نُعَانِيْهَا

أَلَا آهْدَأُوا وَآنْظِرُوا مَاذَا يَجِيءُ بِهِ أَمْرِيْ فَمَا أَنَا مُغْضِيْ آلْعَيْنِ غَافِيْهَا

وَجَانِبُوْا فَعْلَةً تُفْضِيْ نَتِيْجَتُهَا إِلَى آلتَّضَعْضُعِ مَا ذُوْ آلرَّأْيِ يَأْتِيْهَا

وَقَدْ يَكُوْنُ بِهَا إِسْقَاطُ مُنَّتِنَا أَوْ ذِلَّةٌ إِنْ فَعَلْتُمْ تُوْرِثُوْنِيْهَا

مَاآسْتَمْسَكَ آلْأَمْرُ إِنِّيْ سَوْفَ أَمْسُكُهُ وَكُلُّ جَائِحَةٍ عَنْهُ سَأَزْوِيْهَا

أَمَّا إِذَا آسْتَفْحَلَتْ تَاَللّٰهِ عِلَّتُهُ فَآلْكَيُّ آخِرُ مَا أُلْفِيْهِ يُشْفِيْهَا

وَقَوْلَةُ آلْمُرْتَضَى هٰذِيْ لَتُنْبِئُنَا بِنِيَّةٍ لِصَلَاحِ آلنَّاسِ يَنْوِيْهَا

وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيْ آلْحَقِّ مُتَّرِكاً فَوْضَى تَعُمُّ بِلَا آسْتُثْنَا مَسَاوِيْهَا

وَلَمْ يَكُنْ رَاضِياً إِهْمَالَ عُلَّتِهَا لٰكِنَّهُ كَانَ يَرْجُوْ أَنْ يُدَاوِيْهَا

مَتَى آسْتَقَرَّتْ أُمُوْرُ آلنَّاسِ وَآنْطَفَأَتْ نَارُ آلْعِدَا كَانَ يَعْنَى كَيْ يُطَفِّيْهَا

بِحُكْمَةٍ تُرْتَجَى مِنْ مِثْلِهِ فَإِذَا آسْـــتَعْصَتْ عَلَيْهِ بِنَارِ آلْحَزْمِ يَكْوِيْهَا

وَمَا لِحَيْدَرَةٍ إِبْلَاغُ أَنْفُسِ أَرْ بَابِ آلْمَطَامِعِ إِنْ جَارَحت أَمَانِيْهَا

أسباب الانتقاض على أمير المؤمنين

تَقْوَى وَزُهْدٌ وَبِرٌّ ذِيْ صِفَاتُ أَمِيْـــرِ آلْمُؤْمِنِيْنَ لِكُلِّ آلنَّاسِ يَبْغِيْهَا[1]

---

(١) إنَّ المؤرّخ الناقد إذا أجال نظرةً صادقةً إلى الأسباب الحقيقية التي عجّلت =

= بانتقاض الناس على خلافة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام يظهر لـه أنّها غيـر ما كتبـه كثيرون فيها من نقّاد التاريخ والباحثين فيه ومذهبة لحيرة الذين حاروا منهم بـالتوفيق بين ما اشتهر عن سيدنا علي من أصالة الـرأي ومضاء العـزيمة وبعـد الهمة وغـزارة الحكمة وسعـة العلم وبين التشويش الـذي رافق خلافتـه منذ تـولاهـا إلى اليـوم الـذي فيـه قتله عبـد الرحمن بن ملجم لعنـه الله . وعندي على قلّة علمي أنّ مـا من إنسان في الـوجود كان في طوقه أن يعمل خيراً مما عمـل سيدنـا أمير المؤمنين اللهمَّ إذا كـان مقيداً بقيـود الشريعة السمحاء مصرّاً على إجراء أحكامهـا في المسلمين في الظروف التي تـولّى فيها هذا السيد العظيم الخلافة فالـظروف إذن هي التي أوجدت ذلـك الإضطراب لا شخص الإمام الأعظم ولا سوء تدبيره كما يطعن عليه أعداؤه عليه السلام .

لا جرم لو تولّى سيدنا علي الخلافة على أثر وفاة رسول الله لما حدث في خلافته حادث مما سيمرُّ بنا وإذا كـان ليس لنا أن نتكهن عن شيء لم يحصـل فما هـو بمحظور علينا أن نشير إليه لتنبسط أمام القارىء اللبيب الحقيقة التي طالما تلمسها المتلمسون .

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقام دعوته على دعامة الدين والتفَّ حوله الناس وهم يـطلبون ثواب الآخرة لا يهمهم شيء من زخـارف الدنيـا فكانـوا الفئة القليلة الـظافرة بقـوة إلّهية على الفئـة الكثيرة . ولمـا تمَّ النصر لـلإسلام ودخـل الناس فيـه أفواجـاً بعد فتـح مكـة المكـرمة لم تكن قلوب « الـطلقاء والمؤلفـة قلوبهم » متشبعـة من روح الإسـلام كقلوب المهـاجرين والأنصـار ولـذلـك كثـر عـدد المنـافقين بين المسلمين وهم الـذين أظهـروا الإسـلام بألسنتهم خضـوعاً للقـوة وانطوت قلوبهم على الكفـر والإشراك . وقـد ظهرت نيات هؤلاء السيئة للإسلام على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك على مـا مرَّ بنـا إذ تقاعس عنها كثيرون وقام كثيرون يرجفـون بسوء نتـائجها تثبيــطاً لعـزائم المسلمين عن الجهـاد . كما ظهـر خبث نوايـا هؤلاء أيضاً بعـد وفاة المصـطفى إذ ارتدَّ كثيـرون منهم فحاربهم أبو بكر وأعادهم إلى الإسلام بالسيف لما تعلم من حكم الشرع على المرتدّ .

وظـلَّ هؤلاء المنـافقـون منتشـرين بين المسلمين في عهـد عمـر وليس لهم سمـة معلومة تميّزهم عن المخلصين الصادقين في الإيمان فكان بالطبع تأثيرهم كبيراً في ذلك الوسط الإسلامي . وأراد الله سبحانه أن يجعل عهد عمر فتحاً ونمـواً للإسـلام فاتّسعت الـدولة الإسـلامية وكثـر الألى دخلوا في الإسلام من الفـرس والروم والأرمن والسـريـان =

= وغيرهم فأزاد هذا النمو بالطبع عدد المنافقين بين المسلمين أو على الأقل قل إنّ كثيرين ممن أسلموا من الروم والفرس والسريان والأرمن لم يكونوا واقفين على حقائق الشريعة الإسلامية السمحاء وآدابها العالية ومباديها الراقية فكان لانضمامهم إلى الجماعة تحت لواء الإسلام تأثيره ولا سيما لأنّ الإسلام يساوي بين تابعيه مساواةً لا تمييز فيها لمسلم على مسلم لا بجنس ولا بسابقة ولا بمال ولا بحسب ولا بعصبية ولا بأي شيء آخر .

ثمّ انتقلت الخلافة إلى عثمان بن عفان وعلى عهده كانت الكلمة العليا لبني أميّة وهؤلاء من الطلقاء المؤلفة قلوبهم وقد أسلموا « إلاّ زعيمهم عثمان » يوم فتح مكة المكرمة فلا ينتظر منهم بعد أن استضعفوا زعيمهم وحكموا باسمه المملكة الإسلامية أن يدققوا في إجراء الأحكام الشرعية ويطبّقوا قوانينها على أنفسهم أولاً وعلى المسلمين ثانياً بل كان هذا لا يلائم مطامعهم إذ من الثابت أنّهم كانوا يعملون في عهد عثمان على استبقاء الخلافة في بيتهم أو على الأقلّ أن يصبحوا إذا لم يتوفقوا إلى استبقاء الخلافة في بيتهم في حالة من الوجاهة والثروة والنفوذ تجعل الخليفة رهن إشارتهم كائناً من كان فجعلوا يتناولون من أموال المسلمين باسم هبات من عثمان ما يستطيعون نيله وكانوا يحزبون الأحزاب بمن تسهل استمالته إليهم بالأموال والمنافع سواء من العرب أو من الأعاجم الذين دانوا بالإسلام والناس تسعة أعشارهم إذا لم نقل كلهم عبيد منافعهم .

ثمّ أنَّ الناس الذين قلنا أنّهم عبيد منافعهم ليس كلهم ينظرون إلى منافعهم الدنيوية بل منهم من كانوا ينظرون إلى منافعهم الأخروية الآجلة ويفضلونها على المنافع الدنيوية العاجلة ومثل هؤلاء كانوا كثيرين في ذلك الزمان لجدة الإسلام وقرب العهد بالمصطفى وانبثاث الكثيرين بينهم ممن صحبوه صلى الله عليه وآله وسلم ورووا أنباءه وحدّثوا بأحاديثه الباهرة وهؤلاء هم الذين نعوا على عثمان أعمالهم وكانوا غير راضين عمّا كان يجري في الخلافة على عهده وانضمَّ إلى هؤلاء المحرومون من المنافع التي فاز بها الأمويون وأصحابهم بدافع الحسد والغيرة .

وعلى هذا لنا أن نقول إنّ سيدنا علي عليه السلام قد تولى الخلافة والناس لم يبقوا على ما كانوا عليه في عهد النبوة وعهدي أبي بكر وعمر يعملون أعمالهم ووجهتهم الآخرة=

فَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَسْمَى مِنْ قُرَيْشَ وَلَا ٱلأُ م عْـرَابُ يَفْضُلُهَـا قَــدْرَاً صَحَـابِيْهَــا

=زاهدين بالدنيا وزخرفها بل تعوَّدوا شيئاً آخر وهو أنَّ في الخلافة منافع قد يختصُّ بها من كان من عشيرة الخليفة أو اتصلوا به وبالمتوجهين بخلافته . ونستطيع أن نقول إنّ هذا التحوّل في الأفكار كاد يكون عامّاً في المسلمين يوم قتل عثمان إلّا من عصم الله .

ولا بدَّ لنا من نظرية أخرى معقولة وأحسبها واقعية وهي أنّ العرب الذين غلبهم الإسلام على أمرهم وأشير إلى بعضهم باسم « المنافقين » وإلى البعض باسم « المؤلفة قلوبهم » كانوا على أشدّ الكره لرسول الله ولوصيّه عليهما الصلاة والسلام وإنّما القوّة القاهرة كانت تحملهم على إخفاء هذا الكره في صدورهم لعلمهم ما يتبع إظهاره من التنكيل بهم . وهذا الكره أمر طبيعي لا غرابة فيه إذ ما من مغلوب يحبّ غالبه المنتصر عليه . ويدلّك على هذا الكره ما كان من أمر الحكم أبي مروان الذي كان يتنصت أحاديث المصطفى ويشيعها بين المسلمين للإضرار بالإسلام وبطبيعة الحال ما كان يشيعها إلّا بين الذين يرضون سماعها من شركائه بكراهة رسول الله وأمثال هذا ما كانوا قليلين .

وإذا كان هؤلاء المنافقون يكرهون رسول الله لأنّه تغلّب عليهم فبالأولى كانوا يكرهون أصحابه وأنصاره الذين كانوا سيوفه المشهرة وقد شهرها لحربهم وقهرهم بها بإذن الله . وبالبداهة كان هذا الكره لأصحاب رسول الله وأنصاره يتفاوت بتفاوت أعمالهم الحربية . وإذا عرفنا أنَّ سيدنا علي كان فتى المغازي النبوية وأنّ ما في أولئك المنافقين من لا يذكر أنّه عليه السلام قاتل أباه أو أخاه أو عمّه أو خاله أو ابنه كان من الصعب جداً أن ينسوا الثأر على ما نعلم من « ثارات العرب » وأن تصفو قلوبهم إلى من كان المجلي في الحروب التي اشتملت بين المسلمين والمشركين إلّا الذين عصمهم الإسلام فعرفوا أنَّ علياً كان سيف الله وقد أشهره سبحانه على المشركين والكافرين لنصرة دينه وإعلاء راية شريعته في العالمين . وإذا كان هؤلاء الناقمون على سيدنا علي وهم ليسوا بقليلين عاجزين عن الإثئار لأنفسهم منه فما كان يصعب عليهم أن يلبّوا دعوة كلِّ من ينادي بعداوته ولا سيما بعد أن أصبح خليفة المسلمين وهم لا يطيقون لو أنَّ الحكم لهم أن يروا قاهرهم والمنكل بهم صاحب الحكم فيهم . وعندي أنَّ هذا الكره الذي كان متأصلاً في صدورهم هو الذي أقعدهم عن نصرة أمير المؤمنين لما دعتهم إليها سيدتنا فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام . =

وَلَا ٱلْأَعَاجِمُ مُذْ دَانَتْ لِشِرْعَةِ أَحْـــمَدٍ يُنَافِسُهَا فِيْ ٱلنَّاسِ عُرْبِيْهَا
وَمَا هُنَالِكَ تَمْيِيْزٌ وَلَا رِتَبٌ لَدَى أَبِيْ حَسَنٍ لِلنَّاسِ يُعْطِيْهَا
هٰذِيْ خُلَاصَةُ رَأْيِ ٱلْمُرْتَضَى بِإِمَا مَةٍ يُقِيْمُ حُدُوْدَ ٱلشَّرْعِ وَالِيْهَا
وَمُذْ تَرَبَّعَ فِيْ دَسْتِ ٱلْخِلَافَةِ أَعْـــلَنَ ٱلرَّغِيْبَةَ ذِيْ مَا كَانَ مُخْفِيْهَا
وَٱلْمُسْلِمُوْنَ لَقَدْ فَاتُوْا بَدَاوَتَهُمْ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ وَٱجْتَازُوْا فَيَافِيْهَا
تَعَوَّدَتْ رَفَلَاتِ ٱلْعَيْشِ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى تَنَاسَتْ بِإِسْرَاعٍ تَبَدِّيْهَا
فَقَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرْضَى ٱلْخُشُوْنَةَ فِيْ عَيْشٍ تَعَوَّدَ فِيْهِ قَبْلُ تَرْفِيْهَا
وَإِذْ رَأَوْا ٱلْمُرْتَضَى لَا شَكَّ مُرْجِعَهُمْ إِلَى بَدَاوَتِهِمْ وَٱلْكُلُّ آبِيْهَا
تَقَمْقَمُوْا وَتَوَلَّوْا عَنْ خِلَافَتِهِ وَصَارَ هَمُّهُمُ ٱلْأَسْمَى تَدَاعِيْهَا

= وبعد هذا البيان سهل علينا أن نفهم لماذا تسارع القوم إلى الإرفضاض من حول سيدنا علي عليه السلام من يوم تربّعه على دست الخلافة ومجاهرته بما جهر به من عزمه على المساواة بين الناس وإعادتهم إلى عهدهم في زمن رسول الله عليه السلام فمنهم من كانوا يكرهونه ويحقدون عليه . ومنهم من توسموا خيبتهم بمطامعهم في خلافته . ومنهم من عزَّ عليهم أن يرجعوا إلى خشونة العيش بعد أن ترفّهوا وبطروا . وكان وراء هؤلاء جميعاً بنو أمية وأصحابهم . وما كان ينتظر منهم أن يرضوا بخلافة سيدنا عليّ ويخضعون لها وهم موقنون أنّه سيفتتح أعماله بالضرب على أيديهم جميعاً وتنحيتهم عن كلما كسبوه من مال وجاه وسلطان على عهد عثمان . فقل لي يرعاك الله هل كان باستطاعة إنسان مهما عظمت قدرته وتعالت ميزته ومهما تسامى في علمه وفضله ومهما قويت إرادته واتّسعت حكمته أن يرضي هؤلاء الجماعات وحاله معهم حال علي التي ذكرناها وإيمانه بالله ما عرفنا ؟؟ لا والله . وقد كان سيدنا علي عارفاً بما ينتظره من المصاعب ولكنه أقدم على قبول الخلافة بعد الإحجام وهو موقن أنَّ هذا القبول هو جهاد جديد في سبيل الإسلام فإمّا أن يعيد حالته إلى ما كانت على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام وإمّا أن يموت شهيداً في سبيله وهو تفانٍ له حقه من الإجلال والاعتبار .

إِلَّا ٱلْأُلَى عَصَمَ ٱلْبَـارِيْ نُفُـوْسَهُمُ   فَٱسْتَمْسَكَتْ بِنُصُوْصِ ٱلشَّرْعِ تَتْقِيْهَا
فَكَـانَ ذَا بَدْءُ عَهْـدِ ٱلْإِنْقِـلَابِ عَلَى   إِمَـامَـةٍ سُنَنُ ٱلْهَـادِيْ تُمَشِّيْهَـا
وَمَـا تَقَـادَمَ فِيْهَـا عَهْـدُ حَيْـدَرَةٍ   بَـلِ ٱنَّـهُ مِثْلَمَـا نَـدْرِيْ مُمَسِّيْهَـا
بَلْ لَمْ يَكُنْ حَقَّهَا نِسْيَـانُ عَهْدِ رَسُـوْ   لِ ٱللَّهِ وَهْـوَ عَلَى هٰذَا مُـرَبِّيْهَـا
كَـذَاكَ لَمْ تَنْسَ مَـا لِلْمُـرْتَضَى بِنُفُـوْ   سِ ٱلْعُرْبِ مِنْ غَصَّةٍ كَـانَتْ تُخَبِّيْهَا
فَهَـلْ نَسَتْ أَمْسَهَا إِذْ كَـانَ قَاهِـرَهَـا   بِـذِيْ ٱلْفَقَـارِ وَمُـدْمِيْهَـا وَمُصْمِيْهَـا
وَلَيْسَ فِيْهَا سِوَى ٱلْمَـوْتُوْرِ مَـاتَ أَبُوْ   هُ أَوْ أَخُـوْهُ وَهٰـذَا ٱلْقَـرْمُ مُـرْدِيْهَـا
وَٱلْعُـرْبُ ثَـارَاتُهَـا لَا تُنْتَسَى أَبَـدَاً   وَٱلْأَخْـذُ بِٱلثَّـأْرِ مِنْ أَسْمَى مَبَـادِيْهَـا
وَٱلشِّـرْكُ مَـا زَالَ يُغْـرِيْ أَكْثَـرِيَّتَهَـا   عَلَى كَـرَاهَـةِ مَـاحِيْـهِ وَغَـازِيْهَـا
وَبَعْـدَ هٰـذَا وَهٰـذَا مَـا أُمَيَّـةُ تُغْـــضِيْ عَنْ مَطَامِعِهَا أَوْ عَنْ أَمَـانِيْهَـا
وَكَـانَ عُمَّالُ أَمْصَـارِ ٱلْخِـلَافَـةِ شِيْـــعَـةً لَهَـا أَوْ أُنَـاسَـاً مِنْ مُحِبِّيْهَـا
بِهِمْ فَشَتْ بَيْنَ كُلِّ ٱلنَّاسِ سَطْوَتُهَا   وَسَطْوَةُ ٱلْحُكْمِ تُعْيِيْ مَنْ يُقَـاوِيْهَـا
كَـذَاكَ كَانَتْ جَمَـاعَاتُ ٱلْعِـدَاةِ يُنَـا   جِي بَعْضَهَا ٱلْبَعْضُ كَيْ تُبْدِي تَعَصِّيْهَا
كَـانَتْ بِثَـارَاتِ عُثْمَـانٍ تَصِيْـحُ وَفِيْ   فُؤَادِهَـا غَيْـرُ مَـا تُبْـدِيْـهِ مِنْ فِيْهَـا
وَإِنَّـمَـا دَمُـهُ فِيْ عُـنْـقِـهَـا وَلَئِـنْ   لَاقَى مَنِيَّتَـهُ مِـنْ غَيْـرِ أَيْـدِيْـهَـا

رؤساء أعداء أمير المؤمنين

لِكُـلِّ مُجْتَمَعٍ فِيْ أَيِّمَـا عَمَـلٍ   نَـاسٌ تَـذِيْـعُ بِـهِ ذَيْعَـاً أَسَـامِيْهَـا[1]
وَلَـيْسَ مِنْ ثَـوْرَةٍ إِلَّا لَـهَـا زُعَمَـا   ءُ تَنْفُـخُ ٱلنَّـارَ عُـدْوَانَـاً وَتُلْظِيْهَـا

---

(١) لا بدَّ لكل مجتمع في أي عمل كان من أناس تذيع أسماؤهم فيه وقد يكونون هم دعاته أو مسيروه وكذلك حال الثورات فإنّها لا تتم بغير زعماء يدعون إليها =

وَلَا تُسَاقُ سَوَادُ ٱلنَّاسِ ثَائِرَةً   إِلَّا إِذَا أَحْكَمَ ٱلتَّدْبِيرَ دَاعِيهَا
فَرَاحَ يَخْلِقُ أَسْبَاباً لِفُتْنَتِهِ   تُثِيرُ ثَائِرَةَ ٱلْبَغْضَا وَتُسْنِيهَا
وَإِنَّ أَعْدَاءَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ   مِنْ يَوْمِ امْرَتِهِ أَبْدَتْ تَعَصِّيهَا
طَوْعَاً لِأَرْبَعَةٍ كَانُوا ٱلرُّؤُوسَ لَهَا   وَكَانَ حَوْلَهُمْ جَهْرَاً تَجَمِّيهَا
فَطَلْحَةٌ وَٱلزُّبَيْرُ ٱلطَّامِعَانِ بِخَيْرَاتِ ٱلْخِلَافَةِ وَٱسْتِقْطَاعِ أَرْضِيهَا

=ويحسنون للناس ركوب المخاطر فيها بما يختلقونه من الأسباب المبرِّرة لها . والثورة التي قامت من اليوم الأول الذي تولّى فيه سيدنا علي عليه السلام الخلافة ذاع فيها بين الناس أسماء زعمائها فإذا هم معاوية بن أبي سفيان أمير الشام وطلحة والزبير وهما من أكابر الصحابة وعائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ هؤلاء الأربعة قاموا ينادون بها ويدعون الناس إليها وكانت حجّتهم الظاهرة لعصيانهم الخليفة هي المطالبة بدم عثمان وقد اتّهموا به سيدنا علي ظلماً وعدواناً وأمّا الأسباب الحقيقية التي دعتهم إلى الثورة فقد كانت غير ذلك إذ عرفنا وعرف الناس أنّ معاوية كان يطمح بنظره إلى الخلافة وحوله بنو أميّة . وطلحة والزبير كلٌّ منهما كان يرجو الخلافة لنفسه ولما لم ينالاها طمحا إلى أمارتي الكوفة والبصرة ليشبعا مطامعهما من خيرات ذينك المصرين ولكي يكيدا فيهما للخليفة . وأمّا عائشة فحتى الآن يجهل الناس حقيقة غرضها من النهوض بالثورة فقالوا أنّها كانت تكرهه عليه السلام لأنّه من أحمائها على القاعدة العامة في النساء وهي كرههنّ لأحمائهنّ ولكن هذا الكره مهما تعاظم ما كان يدعو مثل عائشة لتترك خباءَها وتقف على رأس الثائرين في وجه أحبّ الناس لزوجها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فما الذي دعاها يا ترى لركوب هذا المركب الخشن ؟ لا أعلم تالله حقيقته ولا وجدت في المؤرخين من أبدى له سبباً يقنعني . على أنّ هؤلاء الزعماء لم يجدوا سبباً يقنعون الناس به على الإقدام على عصيان سيدنا علي في خلافته ومحاربته غير المطالبة بدم عثمان كما سبق القول بعد جعله في عنقه وما كانوا يجهلون براءَة سيدنا علي من دم عثمان ولكنهم اتّهموه به عن ظلم وعدوان ووجدوا النفوس مهيأة لقبول الدعوة ضد سيدنا علي لما أسلفنا من كره بعضهم له وعدم معرفة بعضهم ولا سيما الأعاجم لقدره ومكانته العليا ولتأثر البعض بنفوذ حكّامهم عليهم وكانوا من أميّة أو من أصحاب الأمويين .

يَلِيْهِمَا فِيْ تَحَدِّيْهَا مُعَاوِيَةٌ وَكَانَ دُوْنَهُمَا يَبْغِيْ تَوَلِّيْهَا
تَلِيْهِ عَائِشَةٌ وَٱلنَّاسُ تَجْهَلُ حَتَّى ٱلْيَوْمَ مَا كَانَ لِلْعُدْوَانِ حَادِيْهَا
وَكَانَ عُثْمَانُ فِيْ ٱلشَّنْآنِ حِجَّتَهَا يُدْلِيْ بِهَا لِخِدَاعِ ٱلنَّاسِ مُدْلِيْهَا

عداء عائشة لأمير المؤمنين

فَهَلْ نَسَتْ لَحْيَهَا عُثْمَانَ عَائِشَةٌ عَلَى رُؤُوْسِ ٱلْمَلا لَوْماً وَتَسْفِيْهَا
وَطَالَمَا أَعْلَنَتْ أَنْ لاَ ٱنْطِبَاقَ عَلَى حُكْمِ ٱلشَّرِيْعَةِ أَعْمَالٌ يُجِرِّيْهَا
وَكَمْ صِحَابُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ قَدْ سَمِعَتْ مِنْهَا مَلاَمَتَهُ سِرّاً وَتَجْرِيْهَا
وَكَمْ دَعَتْ وُجَهَاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِلَى إِرْجَاعِهِ عَنْ أُمُوْرٍ كَانَ يَأْتِيْهَا
وَكَمْ بِأَقْوَالِهَا ٱلثُّوَّارُ قَدْ شَجَعَتْ لَمَّا تَكَاثَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ رَاوِيْهَا
وَلَمْ تَدَعْ طِيْبَةً إِلاَّ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ بُغْيَتَهَا ٱلثُّوَّارُ تُمْضِيْهَا
مَا بَالُهَا خَذَلَتْ عُثْمَانَ وَهْوَ عَلَى شَفِيْرِ هَاوِيَةٍ لاَ شَكَّ هَاوِيْهَا

---

(١) سبقت الإشارة عن حيرة الناس في أمر عائشة ودخولها في مضايق الثورة ضد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام حتى كانت من زعماء الثائرين الأربعة الذين اشتهرت أسماؤهم في عداوته وشنآنه وكانوا السبب الأكبر في تألّب الناس عليه وجعل عهد خلافته عهد تشويش واضطراب وحروب داخلية أفضت في الأخير إلى سفك دمه الأقدس من يد لئيم رافقت اللعنات روحه إلى أبد الأبيد هي لعنات الله وملائكته ورسله والناس أجمعين .

نعم حار النقّاد في ثورة عائشة زوج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وابنة أبي بكر لركوبها هذا المركب الخشن فجعلوا ينقبون في ثنايا التاريخ ويقلّبون حوادث حياتها مع المصطفى لعلّهم يجدون سبباً مقنعاً لحملها على الحقد على سيدنا علي عليه السلام إلى درجة أن تؤلب الناس عليه من ساعة انتهاء نبأ بيعته إلى سمعها وهي في مكة المكرمة فذكروا بعض حوادث لا بدَّ أن تحدث بينها وبين سيدتنا الزهراء بصفتها ابنة زوجها أو بين سيدنا علي بصفته من أحمائها وأحبّ الناس إلى زوجها المصطفى وأكثرهم دلالاً عليه فما ذكروا =

وَلَمْ تُحَـرِّكْ يَـدَاً بَيْضَـاءَ تُـنْقِـذُهُ   بِهَـا وَعَنْهُ صُـرُوْفُ ٱلـدَّهْـرِ تُجْلِيْهَـا

=غير تافه الحوادث وبسائطها مما لا يدعو إلى شنآن مستمرّ حتى بين عامة النساء فكيف بخاصتهنّ كعائشة وقد دخلت بيت المصطفى في التاسعة من عمرها وتربّت على يديه ؟ حتى أنَّ سيدنا علي عليه السلام هو أيضاً كان في حيرة من أمرها فقال : « وما لنا إلى عائشة من ذنب إلّا أنّ أدخلناها في حيزنا » وما هذا بذنب كما تعلم فكأنّه يقول إننا لا ذنب لنا إليها حتى تجاهر بعداوتنا وتدعو الناس إلى محاربتنا .

وقال بعض نقّاد المؤرخين إنّ عائشة كانت ترجو في تحريضها على عثمان أن يخلعه الثائرون أو يقتلوه ويتولّى الخلافة طلحة بن عبيد الله لترجع الخلافة إلى بيتها وعللوا ذلك بقولهم إنّ الأمويين عندما أعادوا بالخلافة إلى عصبية الجاهلية تنبهت بقية العصبيات في قريش فقام طلحة وعائشة يتعاونان على استعادة الخلافة إلى عشيرة بني تيم التي منها أبو بكر وطلحة بحجّة أنَّ أول الخلفاء كان أبو بكر وأنَّ طلحة كان أحد الستّة الذين حكم عمر بأحقيتهم بالخلافة بجعلها شورى بينهم وأنت تعلم أنَّ أبا بكر هوابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وأمّا طلحة فهو ابن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فيكون أبو بكر ابن عمّ عبد الله والد طلحة ويجمعهما كليهما تيم . وقد تكون هذه الحجة معقولة ولكن هل كانت عائشة يا هل ترى واثقةً من إمكان فوز طلحة بالخلافة مع وجود سيدنا علي عليه السلام ؟ ومن ثمَّ إذا كانت فكرة العصبية الجاهلية قد أعادها الأمويون إلى نفوس المسلمين أما كانت الثورة على عثمان التي أثارتها تلك العصبية كافية لإقناع عائشة وطلحة قبل غيرهما بأنّها بدعة غير مضمونة النجاح ؟ وفي الأخير هل وجد طلحة وعائشة في بني تيم ومن حولهم من الأنصار الذين يميلون لهم وهم أهل الكوفة على ما نعلم الكفاءَة الكافية للتغلب على الأمويين وهم مسيطرون على كل بلاد الخلافة بما نشروا فيها من العمّال المخلصين لهم عدا عن أهل الشام الذين كانوا شيعةً لهم ؟ فضلاً عن الهواشم واعتزازهم بالمصطفى والمرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وتمجّدهم بالنبوَّة واحترام عموم المسلمين لهم احتراماً دينياً يوجب على كل متدين منهم أن يكون شيعةً لهم . أقول إذا كان مبلغ اجتهاد عائشة وطلحة ينتهي إلى هذا الحدّ فلا عجب إذا كانت خيبتهما قريبة سريعة وهكذا كان .

ويقول بعض نقّاد التاريخ ان عائشة حصلت في أيام عثمان على حول وطول على =

بَـلْ أَسْرَعَتْ بِخُـطَاهَا وَهْيَ قَـائِلَةٌ: دَعِ ٱلتَّقَـادِيْرَ تَجْـرِيْ فِيْ مَجَـارِيْهَـا

وَلاَزَمَتْ مَكَّـةً كَـانَتْ تُـرَاقِبُ مِنْـهَـا فِتْنَـةً لَمْ تُخَيِّبْ ظَنَّ مُـوْرِيْهَـا

فَمَـا لَهَـا أَكْبَـرَتْ قَـاسِيْ نَتِيْجَتِهَـا وَلَمْ تَجُـزْ رَغْبَـةً كَـانَتْ تُـوَخِّيْهَـا

لَعَلَّهَـا طَلَبَتْ لِـلأَمْـرِ طَـلْحَتَـهَـا إِذْ كَـانَ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَـرْبَاءِ تِيْمِيْهَـا

وَإِذْ تَـوَلاَّهُ عَـنْ حَـقٍّ أَبُـوْ حَسَـنٍ وَخَـابَ فِيْمَـنْ أَرَادَتْـهُ تَمَنِّيْـهَـا

بَكَتْ عَلى مَنْ نَعَتْ أَعْمَـالَهُ وَسَعَتْ لِقَتْلِهِ بِـٱلَّـذِي أَبْـدَتْـهُ مِنْ فِيْهَـا

لِكَيْ تُضَعْضِـعَ حُكْمَ ٱلْبَـرِّ حَيْـدَرَةٍ بِـفِتْـنَـةٍ تَـتَـلَظَّى مِـنْ تَـبَـاكِـيْـهَـا

أَوْ إِنَّهَـا رَهِبَتْ حُكْمَ ٱلْعَلِيِّ بِشِـدَّ م ةِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ إِذْ تَبْغِـيْ تَـرَاخِيْـهَـا

فَلَمْ تَجِـدْ غَيْـرَ إِبْـدَاءِ ٱلْعَـدَاءِ لَـهُ وَسِيْلَةً مِنْ قَضَـاهُ ٱلْعَـدْلِ تُنْجِيْهَـا

أَوْ إِنَّهَـا كَنَّـةٌ فِيْ صَـدْرِهَـا لِبَنِيْ أَحْمَـائِهَـا بُغْضَـةٌ تَـأْبَى تَحَـامِيْهَـا

وَهْيَ ٱلَّتِيْ دَفَعَتْهَـا لِاَعْتِلَانِ عَـدَا ٱلْـوَصِيِّ عَفْـواً وَلَمْ يَنْظُرْ تَعَـدِّيْهَـا

وَٱلْمُـرْتَضَى قَالَ فِيْ شِنْـآنِ عَـائِشَـةٍ لَـهُ وَقَـدْ شَنِئَتْ مَنْ لَيْسَ شَـانِيْهَـا

سِوَى ٱنْضِوَاهَـا إِلَيْنَـا مَـا لَنَـا أَبَـدَاً ذَنْبٌ إِلَيْهَـا إِلَى ٱلْعُـدْوَى يُهَيِّـيْهَـا

وَٱلنَّـاسُ فِيْ حِيْرَةٍ مِنْ أَمْـرِهَـا وَإِلَى ذَا ٱلْيَـوْمِ مَا مِنْهُمُ يَـدْرِيْ خَـوَافِيْهَـا

تَـٱللَّهِ مَـا خَيْبَـةٌ حَـاقَتْ بِـطَلْحَتِهَـا تَكْفِيْ إِلَى ٱلْجَهْرِ بِٱلْبَغْضَاءِ تَجْرِيْهَـا

= المسلمين فكانوا يرجعون إليها فتروي لهم الأحاديث عن زوجها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطتها صار لها نفوذ عظيم عليهم وكان الأمويون قد تركوا لها هذه الميزة إضعافاً لشأن سيدنا علي ونفوذه بين المسلمين وأنّها عندما علمت بولاية سيدنا علي أيقنت بأنّ نفوذها سيتلاشى بجانبه كما يتلاشى نور القمر إذا بزغت الشمس فنهضت لمحاربته احتفاظاً بمكانتها وهذا القول أيضاً لا يخرج عن حدود العقل ولكنه أضعف من القول المتقدم وذاك عندي هو الأقوى والله أعلم .

وَلَا ٱلْعَـدَاوَةُ لِـلْأَحْمَـاءِ مُـوْصِلَةٌ   إِلَى مُخَـاطَـرَةٍ صَعْبُ تَخَـطِّيْهَـا
لٰكِنْ أَرَادَتْ رُكُوْبَ ٱلصَّعْبِ مُعْرِضَةً   عَنْ نَـاصِحِيْهَـا وَمَنْ بَـاتُـوْا مُلِيْمِيْهَـا
وَٱسْتَهْـدَفَتْ لِسِهَـامِ ٱللَّوْمِ رَاضِيَـةً   فَهَـلْ يُـلَامُ لَعَمْـرُ ٱلْحَقِّ رَامِيْهَـا

عداء طلحة والزبير لأمير المؤمنين

فِيْ عَهْدِ عُثْمَانَ جَدَّتْ صَحْبُ أَحْمَدَ فِيْ ٱسْـ   ـتِصْفَاءِ قَوْمٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا تُمَالِيْهَا[1]
فَكَانَ فِيْ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْـرَاءِ طَلْحَةُ مَنْـ   ـظُوْراً صُـحْبَـةٌ مَـعْـرُوْفَـةٌ فِيْـهَـا

---

(١) ليس في عداء الزبير وطلحة لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام ما يدعو إلى العجب فإنّهما صارا يطمعان بالخلافة منذ جعلها عمر شورى في الستة الذين هم من العشرة الحاصلين على رضوان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والطمع في رؤوس الرجال . ويجب أن نعلم أنَّ طلحة غير الزبير ولكلٍّ منهما وجهةٌ فإنَّ طلحة من يوم السقيفة ظهر بتشيعه لأبي بكر لأنّه تيميّ مثله وقد علمت أنّه نقم على أبي بكر عندما عهد بالخلافة إلى عمر دونه فدخل عليه وهو على فراشِ الموت وقال له ما قال كما ذكرنا في حاشيةٍ وسبقت . أمّا الزبير فهو من قصي ويمتُّ للهواشم من طرف أمّه وهي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم وهي عمّة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام ولذلك كان يحسب من بني هاشم أو على الأقلّ شيعةً لهم وقد روى الثقاة إنّ القوم عندما بايعوا أبا بكر يوم السقيفة غضب الزبير للإفتئات على ابن خاله سيدنا علي عليه السلام وخلا ومعه أبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعباس وعلي وجعلا يحرضانهما على طلب الخلافة ولو بالسيف فأبيا لا فرقاً ولا عن خوار عزيمة ولكن خوف الفرقة والفتنة . ثمَّ أنّ الزبير لم يبايع أبا بكر إلّا مكرهاً وكان بين الذين رفضوا بيعته ولاذوا ببيت سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فجاءَهم عمر والسيف مشهر بيده واستاقهم لبيعة أبي بكر وهم كارهون في حديث طويل لا فائدة من سرده . وكان يقول سيدنا علي عليه السلام : « ما زال الزبير منا حتى كبر ابنه عبد الله فأقصاه عنّا » وأنت تعلم أنّ عبد الله بن الزبير أمّه أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة وأنّ عائشة هي التي ربّته وكانت تتكنى به فتدعى « أمّ عبد الله » فلا بدَّ أنَّ عائشة هي التي غرست في صدر عبد الله بن الزبير كراهة سيدنا علي وهو الذي حوَّل أباه عن سيدنا علي بعد أن تجدَّد في نفسه الطموح إلى الخلافة على أثر عهد عمر =

وَكَـانَ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّـا ٱلزَّبِيْـرُ لَـهُ صَحْبٌ يُنَـادِيْ بِـهِ جَهْـرَاً مُنَـادِيْهَـا

= بشوراه . هذا كلُّ ما يقال عن الزبير وما في نفسه نحو الخلافة لا نفس الخليفة فأين هو من طلحة الذي كان جشعاً للمال طالباً للدنيا يحسب نفسه كوليّ عهد للخلافـة بعد أبي بكر لأنّه من أرومته وكلاهما تيميٌّ فإنّه لم يكن ساعةً واحدةً منذ بويع أبو بكـر بالخـلافة في جانب سيدنا علي عليه السلام أو من محبّيه .

وقد كان طلحة والزبير على رأس معارضي عثمان في استسلامه إلى الأمويين وطالما انتقداه ونصحاه كما كان يفعل علي وأبو ذرّ وعبد الرحمن بن عـوف وعائشـة وغيرهم من أكـابر المهـاجرين والأنصـار . ولما اشتـدت الفتنة واستفحـل أمر الثـائرين صـار طلحة والزبير دون من ذكرنا على رأس المحرضين على قتل عثمـان حتى رووا أنّ عثمان كـان يقول وهو محصور « ويلي على ابن الحضرمية » (يريد طلحة) أعطيته كـذا وكذا بهـاراً ذهبـاً وهو يـروم دمي يحرّض النـاس على نفسي اللهمَّ لا تمتعه بـه ولقّه عـواقب بغيـه » وروى مؤرخو تلك الفتنة أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين النـاس وكان يـرمي دار عثمان بـالسهام ورووا أيضـاً أنّه لمـا امتنع على الـذين حصـروه الـدخول من بـاب الدار حملهم طلحـة إلى دار بعض الأنصار فـأصعدهم إلى سـطحها وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه .

أمّا الزبير فكان في وقت الفتنة ملازماً داره حتى إذا ما جاءَه بعض رؤساء الثـائرين كان يحرضهم على خلع عثمان أو قتله مشنعاً بأعمالـه حتى إذا ما جـاء يوم القتـل خرج إلى الثـائرين وطفق يقـول لهم جهرةً اقتلوا عثمـان فقد بـدل دينكم فقالـوا لـه إنّ ابنـك عبد الله على بابه يحامي عنـه فقال مـا أكره أن يقتـل عثمان ولـو بُدىء بـابني أنَّ عثمان لجيفة على الصراط غداً .

والـذي يؤيد هـذه الروايـات وغيرهـا مثلها ممـا لم نذكـر هو أولاً أنّ عثمـان كان يستعين في ضيقه في حصره بسيـدنا علي عليه السلام ولم يستعن بـطلحة والـزبير وهـذا يكفي وحده للدلالة على أنّه كان واثقـاً من إخلاص سيـدنا أميـر المؤمنين له وسـوء نيّة طلحـة والزبير نحوه وثانياً أنّ مروان بن الحكم في موقعة الجمل قتل طلحة وهو يقول إنّه مثئرٌ منه لعثمان لأنّه قاتله ولو لم يهرب الزبير من تلك الموقعة وظفر به مـروان لما تـأخر عن قتله كما قتل طلحة وسترى تفصيل هذا عند كلامنا على موقعة الجمل ثـالثاً وهـو الأثبت من كل ما تقدم أنّ سيدنا علي عليه السلام عندما بلغه نكث طلحة والزبير بيعته وتأليبهما الناس=

=عليه بدعوى مطالبته بدم عثمان بعد أن فارقاه إلى مكة بحجة الحج قال « والله ما انكروا عليَّ منكراً ، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً ، وأنّهم ليطلبون حقـاً هم تاركـوه ، ودماً هم سفكوه ، فإن كنت شريكهم فيه فإنَّ لهم نصيبهم منه ، وإن كانوا وُلُّـوه دوني فما الـطلبة إلاّ قِبلهم ، وأنَّ أول عـدلهم للحكمُ على أنفسهم ، وأنَّ معي لبصيرتي ، مـا لبَّست ولا لبِّس عليَّ ، وأنّهـا للفئة البـاغية فيهـا الحما والحمـة ، والشبهـة المغـدقـة ، وأنَّ الأمـر لواضحٌ وقد زاح الباطـل عن نصابـه ، وانقطع لسـانه عن شغبـه ، وأيم الله لأفرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحه ، لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعده في حسىً » وهذا يكفي للإقناع بأنّ طلحة والزبير كانا في مقدمة الناقمين على عثمان المؤلبين عليه ينعون عليه عمله إلاّ أنّهما كانا في الوقت نفسه يتمنيان أن يترك الخلافة استقالةً أو خلعاً أو قتلاً ليفوزا به وهنا يفترقان لأنّهما في خلع عثمان أو قتله كانا متفقين أمّا في الولاية فكانـا مختلفين لأنّ كلاًّ منهما كان يطلبها لنفسه ولا يرضاها لصاحبه وإذا كان الغرض مرض كما يقـال فقد كـان غرضهما بالخلافة منسيهما سيدنا أمير المؤمنين وحقّه المقدس فيها .

وعندما أظهر طلحة والزبير ما كانا يخفيانـه من مطامعهمـا ونكثا بيعـة سيدنـا علي جهرةً لأنّه لم يُبلغهما ما كانا يرجوانه من المطامع دون الخلافـة بعد أن أرغمتهمـا الثورة على التخلّي عنها قال سيدنا أمير المؤمنين وفي قوله عليه السلام فصل الخطاب واصفاً إقبالهما عليه على رأس الناس لبيعته ثمَّ انصرافهما عنه ناكثين بيعتهما ما نصه :

« فأقبلتم إليَّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون : البيعـة البيعة ، فقبضت كفي فبسطتموها ، ونازعتكم يـدي فجذبتمـوها ، اللهمَّ أنّهمـا قطعـاني وظلماني ونكثـا بيعتي وألّبا الناس عليَّ ، فاحلل ما عقدا ، ولا تحكم لهما مـا أبرمـا ، وأرهما المسـاءَة فيما أملا وعملا ، ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت لهما أمام الدفاع ، فغمـطا النعمة وردًا العافية » اهـ .

وقصارى القول أنّ طلحة والزبير كان كلٌّ منهما طامعاً بالخلافة لنفسه حتى إذا مـا خـابـا منهـا رضيـا بمـا دونهـا من المـطامـع فلمـا رأيـا أنّهمـا لا يبلغـانهـا وأميـر المؤمنين عليه السلام على سدّة الخلافـة نهضا للعصيـان بدعـوى المطالبـة بدم عثمـان ودعيا الناس إلى حربه وكانا من زعماء محاربيه .

وَإِنَّــهُ إِنْ بَغَى نَيْلَ ٱلْخِـلاَفَـةِ ٱلْـــ ـفَـاهَا لِبُغْيَتِـهِ تُنْضِي مَــوَاضِيْهَــا
وَمُـذْ هُمَـا رَأَيَـا أَنَّ ٱلْخِـلاَفَـةَ صَـا رَتْ لِلْعَلِيِّ وَخَـابَـا فِي تَــوَلِّيْهَــا
سَــارَا إِلَيْــهِ وَقَــالاَ وَلِّـنَـا فَـلَـنَـا حُقُــوْقُنَـا إِنَّنَـا نَبْغِي تَقَـاضِيْـهَـا
وَفَــوْقَ ذَا إِنَّنَــا نَبْـغِي مُكَـافَـأَةً عَلَى ٱلْإِمَـامَـةِ إِذْ جِئْنَـاكَ نُهْـدِيْهَـا
فَخَيَّبَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ ٱلْحَالِ مَسْأَلَةَ ٱلْإِ م ثْنَيْنِ قَـالَ: ٱرْجِئَاهَـا لَسْتُ مُعْطِيْهَـا
مَـا رَدَّهَا ٱلْمُـرْتَضَى إِلَّا وَكَـانَ يَـرَى مَصَـالِحَ ٱلـدِّيْنِ وَٱلـدُّنْيَا تُنَـافِيْهَـا
وَكَـانَ يَعْـرِفُ رُغْبَى صَـاحِبَيْـهِ وَمَـا أَرْضُ ٱلْعِــرَاقَيْنِ أَيْمُ ٱللَّهِ تَكْفِيْـهَـا
وَفَـوْقَ هٰذَا هَـلِ ٱلْمَوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ بِـٱلْمُلْكِ يَرْشُـوْ ٱلرَّعَـايَا أَوْ يُـرَاشِيْهَا
لِـذَا ٱسْتَمَـالَهُمَـا عَفْـواً مُعَـاوِيَـةٌ إِلَيْـهِ بُغْيَـةَ غُنْمٍ كَـانَ يَبْـغِيْـهَـا
وَٱفْتَهُمَـا رِقْعَـةٌ مِنْـهُ بِبَيْعَـةِ أَهْـــلِ ٱلشَّامِ بَيْعَةَ مَكْـرٍ رَاحَ يُسْدِيْهَـا
قَـالَ ٱلـزُّبَيْـرُ لَهَـا وَهْـوَ ٱلْأَسَنُّ وَفِيْـــمَا بَعْدُ طَلْحَةُ بِٱلْإِقْبَالِ حَـامِيْهَـا
وَقَـالَ: دُوْنَكُمَا أَرْضَ ٱلْعِـرَاقِ فَـأُمَّـــاهَا وَأَمْـرُكُمَا لاَ شَـكَّ يُـرْضِيْهَـا
وَإِنَّ بَيْعَـتَهَـا تُـدْنِيْـكُمَـا لِحِـمَى خِـلاَفَةِ ٱلْمُصْـطَفَى ٱلْعَلْيَا وَتُـدْنِيْهَـا
وَمِنْ عَجَـائِبِ هٰذَا ٱلـدَّهْـرِ مِثْلُهُـمَـا يَغْـرَى بِهَـا وَعَلِيٌّ ٱلْقَـرْمُ رَاعِيْهَـا
لَـوْلاَ مَـوَاقِفُ شُـوْرَى سَنَّهَـا عُمَـرٌ مَـا كَـانَ مِثْلُهُمَـا يَـرْجُـوْ تَـذَرِّيْهَـا
نَعَمْ لَقَـدْ شَجَعَـا مِنْ رُقْعَـةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِـمَـا رَأَيَـا كُـلَّ ٱلْمُنَى فِـيْهَـا
وَأَسْـرَعَـا لِـرُبَى أُمِّ ٱلْقِـرَى وَقَـدِ ٱنْـــضَمَّـا لِعَـائِشَـةٍ مَعْ مَنْ يُــوَالِيْهَـا
وَأَلَّفَــا عُصْبَــةً رَاحَتْ تَـنُـوْحُ عَلَى عُثْمَــانَ مُعْلِيَــةً فِيْــهِ تَــدَعِّيْـهَـا
وَفِيْهِمَـا ٱلْمُرْتَضَى قَـدْ قَالَ قَـوْلَةَ حَـــقٍّ مَـا مُرُوْرُ لَيَـالِيْ ٱلـدَّهْـرِ يُنْسِيْهَا
فَقَـالَ: وَٱللَّهِ مَـا هُمْ مُنْكَـراً نَكَـرُوْا عَلَيَّ أَوْ بِــدْعَـةٌ كَــانُوْا مُــزِيْلِيْهَـا

وَلَا هُمُ جَعَلُوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ عَدَالَةً حَبَّذَا لَوْ قَاسَمُوْنِيْهَا

قَدْ أَوْهَمُوْنِي بِعُثْمَانٍ وَقَتْلَتِهِ جَرِيْمَةٌ هُمُ لَا يَعْدُوْنَ آتِيْهَا

فَإِنْ تَوَلَّوْهُ دُوْنِيْ أَنَّ طَلْبَتَهُمْ عَلَيْهُمُ أَنْ يَكُوْنُوْا مُسْتَجِيْبِيْهَا

وَإِنْ أَكُنْ مَعَهُمْ فِيْهَا مُشَارِكَهُمْ فَشِرْكَةُ ٱلشُّرَكَا عَدْلٌ تَسَاوِيْهَا

وَإِنَّ حِصَّتَهُمْ مِنْهَا لَمُوْقِعَةٌ عَلَيْهِمِ ٱلْحَقَّ فِيْ دَعْوَى مُدَاعِيْهَا

فَلْيَعْدِلُوْا بَدْءَ ذِيْ بَدْءٍ بِحُكْمِهِمِ عَلَى نُفُوْسِهِمِ وَٱلْإِثْمُ غَاشِيْهَا

وَقَدْ أَبَى ٱلْمُرْتَضَى إِلَّا مُصَارَحَةَ ٱلْإِ م ثْنَيْنِ فِيْ خُطْبَةٍ مَا مَانَ مُلْقِيْهَا

فَقَالَ: أَقْبَلْتُمُ إِقْبَالَ مُطْفِلَةٍ عُوْذٍ عَلَى وُلْدِهِنَّ كَيْ تُرَانِيْهَا

وَقُلْتُمُ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْكُبْرَى لِصَاحِبِهَا وَكُنْتُمُ عَلَنَاً جَهْرَاً مُبَيْعِيْهَا

وَإِنَّ كَفِّيَ عَنْكُمْ قَدْ قَبَضْتُ فَكُنْـ ـتُمْ بَاسِطِيْهَا وَلَمْ تُبْسَطْ لِخَازِيْهَا

نَازَعْتُكُمْ نَزْعَةَ ٱلآبِيْ يَدِيْ فَجَذَبْـ ـتُمُ أَنَامِلَهَا كُنْتُمْ مَشُوْقِيْهَا

رَبَّاهُ إِنَّهُمَا ظُلْمَاً لَقَدْ قَطَعَا نِيْ دُوْنَ مَعْتَبَةٍ أَخْشَى تَجَلِّيْهَا

وَهَا هُمَا بَيْعَتِيْ ٱلزَّهْرَاءُ قَدْ نَكَثَا هَا مُسْرِعِيْنَ إِلَى مَلْقَى مُبِيْحِيْهَا

عَلَيَّ قَدْ أَلَّبَا لَمْ يَرْهَبَا حَرَجَاً مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ فَٱسْتَعْصَى مُوَالِيْهَا

فَٱحْلِلْ إِلٰهِيَ مِنْ عُلْيَاكَ مَا عَقَدَا هُ تِلْكَ بُغْيَةُ حَقٍّ جِئْتُ بَاغِيْهَا

وَمَا هُمَا أَبْرَمَاهُ لَسْتَ تُحْكِمُهُ لِتَطْمَئِنَّ ٱلرَّعَايَا مِنْ مُضِلِّيْهَا

وَمَا هُمَا أَمَّلَاهُ عَامِلَانِ لَهُ تُرِيْ مَسَاءَتَهُ مَنْ لَيْسَ رَائِيْهَا

إِنِّيْ ٱسْتَتَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ فَمَا ثَابَا وَحَرْبُهُمَا مَا زِلْتُ مُرْجِيْهَا

وَنُعْمَتِيْ غَمَطَاهَا فِيْ عِنَادِهِمَا قَدْ كُنْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ مُعْطِيْهَا

عداء معاوية لأمير المؤمنين

أَمَّـا مُعَـاوِيَـةُ وَٱلشَّـامُ طُعْمَتُـهُ وَبَيْنَ جَنْبَيْـهِ آمَـالٌ يُـوَخِّيْهَـا[1]

فَلاَ سَبِيْـلَ إِلَى ٱسْتِرْضَـائِـهِ أَبَـداً لِبَيْعَـةِ ٱلْمُـرْتَـضَى حَتَّى يُؤَدِّيْهَـا

---

(١) أمّا معاوية بن أبي سفيان أمير الشام فعداؤه للمرتضى يدرك سرّه القارىء اللبيب بالبداهة بعد الذي قدمناه من مشاكل الخلافة على عهد عثمان بن عفان وكل ما يقال فيه هو أنّ هذا الرجل كان أقدر رجالات الأمويين بل كان داهية المسلمين في ذلك الحين وعندي أنّه هو الذي أوجد في صدور بني أمية فكرة استعادة المجد الذي كان لهم في الجاهلية وقد بدأ عمله أن توسع في الشام واستفحل أمره على عهد عمر فيها حتى لم يستطع عزله مع ما عرف عن شدّة عمر على عمّاله وعزله بعضهم ولم يأتوا بعض ما أتى معاوية في الشام والذي يعرف عمر بن الخطاب وسهره على عمّاله وأباءه عليهم الترف واقتناء الأموال وتخريب الأحزاب وسكوته عن معاوية وقد فعل هذا جميعه لا يسعه إلّا القول بأنّ عمر كان يدرك حقّ الإدراك بأنَّ عزل معاوية عن الشام ليس من الهنات الهينات . ومن الغريب أنّ هذه النظرية البسيطة التي يدركها كل واقف على تاريخ صدر الإسلام ممعن بأنبائه قد فاتت حضرة الشيخ محمد الخضري في محاضراته فجعل بقاء معاوية في الشام على عهد عمر شاهداً على كفاءَة الرجل ورضاء عمر عنه فتأمل . ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنَّ عمر لم يترك عند مقتله الأمر شورى للستة إلّا حذراً من معاوية واستفحال أمره وقد أدرك بثاقب رأيه بأنّه لو عهد بالخلافة إلى واحدٍ وكان الواحد غير عثمان لأثار معاوية الفتنة من ذلك الزمان . مع أنّ الأيام أظهرت أنّ ترك عمر الأمر للستة هو الذي سبب كل هذه المتاعب التي نحن بصددها وهو الذي مهّد لمعاوية طريق الفوز بالخلافة فقبض على خناقها وأورثها للأمويين وأنّي لمعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ القوم ما أجمعوا على عثمان عند الشورى العمرية إلّا بتأثير معاوية ونفوذه على الناس كما سبق القول وأنَّ عثمان لم يستسلم للأمويين حتى استحكمت الفوضى في بلاد المسلمين إلّا بتأثير معاوية أيضاً . وإجمال القول أنّ معاوية كان من الدهاء على أعظم جانب وكان يستحلّ كل أمر للفوز بغرضه وكان يعرف كيف يستجلب الناس إليه بالهبات والمواعيد فلا عجب إذا التفوا من حوله والناس لا يزالون ناساً يعبدون منافعهم ويسعون وراء مصلحتهم .

هذه حال معاوية بن أبي سفيان مع سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام من وجهة =

= طمعه بالخلافة أمّا من الوجهة النفسية الشخصية فقد كان معاوية شخصياً أعدى عدوّ لأمير المؤمنين لأنّه واتره بأخيه حنظلة وخاله الوليد وجدّه عتبة قتلهم عليه السلام بيمينه القاهرة عندما كانوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صفوف المشركين ولم يخرج معاوية عن كونه أحد العرب الموتورين بأعزّ الناس إليه وهم الأخ والخال والجد فلا عجب إذا كان في نفسه من الحقد على قاتلهم ما لا يمحوه كرور الأيام فكيف يرضى أن يخضع لهذا القاتل ويطاطىء له رأسه إذا ما أحسَّ أنّ باستطاعته مقاومة سلطانه وضعضعة أركان خلافته ؟؟ .

ومن تدبر حال معاوية وظروفه ومطامعه واستعداده على حوله وسلطانه وتمكنه من أهل الشام وكثيرين من كبار العرب وعلى توسعه بالعطاء والمنع يظهر له جلياً أنّ المستحيل أقرب من رضائه ببيعة سيدنا علي عليه السلام وأنّه سيحارب البيعة العلوية جهده وما وجد إلى الحرب سبيلاً .

وما كان معاوية وحده في الشام كفؤاً لمناوأة سيدنا أمير المؤمنين ومكانته العالية في نفوس المسلمين لا تقاوم لولا عمّال عثمان وكلهم من الأمويين أو من المتشيعين لهم وهم مسيطرون على البلاد الإسلامية يسيرون الناس على ما يريدون شأن الحكّام مع المحكومين في كل زمان ومكان .

وقد نشرنا في حاشية سبقت الكتاب المختصر الذي أرسله سيدنا علي عليه السلام إلى معاوية يطلب منه أن يبايع وأن يرسل أشراف الشام إلى المدينة المنورة للبيعة وهذا الكتاب يدلّ على أنّ سيدنا علي لم يفاجىء معاوية بالعزل خلافاً لما يزعم بعض رواة التاريخ وتابعهم الشيخ الخضري وبنى عليه ما بنى من ملامة سيدنا أمير المؤمنين لتعجله بالعزل إذ لم يكن فيه ما يشير إلى العزل . وأمّا معاوية فقد كان جوابه أنّه شجب البيعة وأرسل إلى طلحة والزبير يطمعهما بالخلافة على ما سترى حينئذٍ رأى سيدنا علي بحكمته أنّ الإغضاء عن معاوية أو تجاهل أمره ليس من الحكمة في شيء وما من فائدة من مجاملة رجل لا يقنع بشيء دون الخلافة فكتب له الكتاب التالي بعد أن فرغ عليه صبره وهاك نصه :

« أمّا بعد فإنّ الله سبحانه جعل للدنيا ما بعدها ، وابتلى فيها أهلها ، ليعلم أيهم =

وَٱلْمُـرْتَضَى قَـاهِـرٌ أَيْضَـاً أَبَـاهُ بِهَـا   تِيْكَ ٱلْحُرُوْبِ فَسَلْ إِنْ شِئْتَ يَدْرِيْهَا
فَكَـانَ فِيْ نَفْسِـهِ مِنْـهُ كِفَـايَتُهَـا   وَٱلْخَوْفُ مِنْ عَدْلِهِ قَدْ كَـانَ غَاشِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ جَـاهِلاً مَـعْ ذَا حَقِيْقَةَ حَـا   لِ كُـلِّ ذِيْ بَصَرٍ فِيْ ٱلنَّـاسِ رَائِيْهَا
بِـأَنَّ لَا ٱلْمُـرْتَضَى يَـرْضَى إِمَارَتَـهُ   فِيْ ٱلشَّامَ كَلَّا وَلَا ٱلْإِسْـلَامُ رَاضِيْهَا
وَلَا هُـوَ ٱلْمُكْتَفِيْ بِـٱلشَّـامِ يُقْنِعُـهُ   مِنْهَـا ٱلتَنَعُّمُ فِيْ هَـانِيْ مَغَـانِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلزَّعِيْمُ ٱلْمُـرَجَّى مِنْ أُمَيَّةَ كَيْ   يُعِيْـدَ سُلْطَتَهَـا ٱلْعَلْيَـا وَيُسْنِيْهَـا
وَحَـوْلَـهُ عُصْبَـةٌ تَبْكِيْ وَتَنْـدُبُ عُثْـ   ـمَـانَـاً وَإِنْ سَكَتَتْ يَسْعَى لِيُبْكِيْهَـا
وَكَـانَ مَنْ تَـطْلِبْ ٱلـدُّنْيَـا تُمَـالِئُهُ   عَلَى هَـوَاهُ كَمَـا أَضْحَى يُمَـالِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ تُـرْفَـةُ ٱلـدُّنْيَـا وَزِيْنَتُهَـا   لِلْمُـرْتَضَى كَيْ بِهَا يُـرْضِيْ مُحِبِّيْهَـا
وَفِيْـهِ أَقْـوَالُـهُ تَتْـرَى وَنَنْـظِمُ مِنْـ   ـهَـا مَا يُشِيْـرُ إِلَى مَنْثُوْرِ بَـاقِيْهَـا
فَقَالَ : يَاآبْنَ أَبِيْ سِفْيَانَ قَدْكَ فَخَفْ   رَبَّ ٱلشَّـرِيْعَةِ وَٱسْتَعْصِمْ بِهَـادِيْهَـا

= أحسن عملاً ، وليس للدنيا خلقنـا ، ولا بالسعي فيهـا أمرنـا ، وإنّما وضعنـا فيها لنبتلى فيها ، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل أحدنا حجةً على الآخر ، فغـدوت على طلب الدنيا بتـأويل القـرآن ، وطلبتني بما لم تجن يـدي ولساني ، وعصبتـه أنت وأهل الشام بي ، وألب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم ، فـاتّق الله في نفسك ، ونـازع الشيطان قيادك ، واصرف إلى الآخرة وجهك ، فهي طريقنا وطريقـك ، واحذر يصيبـك الله منه بعاجل قارعة تمسّ الأصل وتقطع الدابر ، فإنّي أولي لك بالله إليـةً غير فـاجرة ، لئن جمعتنـا وإيّاك جـوامع الأقـدار ، لا أزال ببـاحتـك حتى يحكم الله بيننـا وهـو خيـر الحاكمين » .

ولا ضرورة إلى الإشارة بـأنّ معاويـة كان قـد تسلح بفتنته بـدم عثمان وقـد عصبه بسيدنا علي ليحمل الناس على عدائه ويسـوقهم إلى قتالـه وأوَّل آيات القـرآن على هواه وكان ما كان . . . .

فَٱللَّهُ قَدْ جَعَلَ ٱلدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا   لِمَا يَلِيْهَا فَلاَ يَخْدَعْكَ زَاهِيْهَا

كَمَا ٱبْتَلَى أَهْلَهَا فِيْهَا لِيَعْلَمَ مِنْ   أَعْمَالِهَا مُحْسِنِيْهَا مِنْ مُسِيْئِيْهَا

وَمَا خُلِقْنَا لِذِيْ ٱلدُّنْيَا لِنَطْلُبُهَا   لِنَفْسِهَا وَنُقَضِّيْ ٱلْعُمْرَ تَرْفِيْهَا

وَإِنَّمَا قَدْ وُجِدْنَا فِيْ بَحَابِحِهَا   لِنُبْتَلَى بِرَزَايَاهَا وَنُخْلِيْهَا

وَلاَ أُمِرْنَا بِسَعْيٍ دَائِمٍ لِمَلَذَّ م اتِ ٱلْحَيَاةِ فَنُمْسِيْ مُسْتَلِذِّيْهَا

بِكَ ٱلْإِلٰهُ ٱبْتَلاَنَا وَٱبْتَلاَكَ بِنَا   عَافَانِيَ ٱللَّهُ مِنْ بَلْوَى أُرَانِيْهَا

فَقَدْ غَدَوْتَ عَلَى ٱلدُّنْيَا لِتَطْلُبَ نُعْـــمَاهَا وَنَفْسُكَ شَطَّتْ فِيْ تَشَهِّيْهَا

لَهَا تَأَوَّلْتَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ عَلَى   مَا تَشْتَهِيْهِ فَحَالَتْ عَنْ مَعَانِيْهَا

طَلَبْتَنِيْ بِٱلَّذِيْ لَمْ أَجْنِهِ بِيَدِيْ   وَلاَ لِسَانِيْ فَقُلْتَ ٱلْكِذْبَ تَمْوِيْهَا

عَصَبْتَ مَعْ مَنْ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ مَأْثَمَةً   بِيْ لَمْ أَكُنْ وَٱسْمِ رَبِّ ٱلْخَلْقِ جَانِيْهَا

وَرَاحَ عَالِمُكُمْ يُغْرِيْ ٱلْجَهُوْلَ بِعُدْ م وَانِيْ فَقُبِّحَتِ ٱلْغَرْوَى وَمُغْرِيْهَا

نَازِعْ قِيَادَكَ شَيْطَانَاً يُخَادِعُهُ   إِنَّ ٱلشَّيَاطِيْنَ تَسْتَغْوِيْ مُطِيْعِيْهَا

وَٱصْرِفْ بِوَجْهِكَ لِلأُخْرَى وَنَحْنُ لَهَا   نَسْعَى وَقَدْ بَلَغَ ٱلْإِسْعَادَ سَاعِيْهَا

وَٱحْذَرْ لَعَمْرُكَ أَنْ تَمْنَى بِقَارِعَةٍ   تَلْقَى ٱلْأُصُوْلَ وَأَسْرِعْ أَنْ تُلاَشِيْهَا

أُوْلِيْ أَلِيَّةَ صِدْقٍ غَيْرَ فَاجِرَةٍ   بِٱللَّهِ يَا ٱبْنَ أَبِيْ سُفْيَانَ أُبْلِيْهَا

لَئِنْ تُجَمِّعُنَا ٱلْأَقْدَارُ أُنْزِلُ فِيْ   ذَرَاكَ مُسْتَمْكِنَاً مِنْ ضَبْعِ أَهْلِيْهَا

حَتَّى ٱلْمُهَيْمِنُ يَقْضِيْ بَيْنَنَا نَصَفَاً   وَٱلنَّاسُ يُكْفِيْهُمُ طُغْيَانَ طَاغِيْهَا

مَا فَاجَأَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ ذَا مُعَاوِيَةً   تَحَدِّيَاً لِيُثِيْرَ ٱلْحَرْبَ يُورِيْهَا

وَلاَ أَرَادَ بِذَاكَ ٱلْإِنْتِقَامَ لِهَا م شِمٍ وَقَدْ عَمَّ مِنْ عُثْمَانَ شَاكِيْهَا

لٰكِنْ بَوَادِرُ شَرٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ   وَلَمْ يَفُتْ عِلْمَهُ مَا قَدْ يُتَالِيْهَا

وَمَـا ٱلْعَلِيُّ لَيَرْضَى فِيْ خِـلاَفَتِـهِ أَنْ لاَ تَعُـوْدَ رَعَـايَـاهُ لِمَـاضِيْهَـا
فَـلاَ تَمُـوْتُ ذِئَـابُ ٱلْغَـابِ جَائِعَـةً وَلاَ ٱلْخِـرَافُ ذِئَـابُ ٱلْغَـابِ تُفْنِيْهَـا
وَلاَ يَنَـامُ وَمِنْ حَـوْلَيْـهِ تُنْصَبُ أَشْــرَاكُ ٱلْمَكَائِدِ سَاهِيْ ٱلْعَيْنِ غَافِيْهَـا
وَإِنَّـهُ لَـمُـدَاوٍ دَاءَ أُمَّـتِـهِ بِـطُبِّهِ وَٱلشِّفَـا مِنْ عِنْـدِ بَـارِيْهَـا
وَإِنْ تَلُمْـهُ أُنَـاسٌ فِيْ سِيَـاسَتِـهِ إِلَى ٱلْمَـلاَمَةِ كَـانَ ٱلْجَهْـلُ دَاعِيْهَـا

ابتداء النزاع بين معاوية وأمير المؤمنين

تُسْعُـوْنَ يَوْمَـاً لَقَدْ مَـرَّتْ لِمَقْتَلِ عُثْــمَانٍ تُعِدُّ لِـذِيْ ٱلدُّنْيَـا عَـوَادِيْهَـا[1]
بِهَـا ٱلْخِلاَفَـةُ قَـدْ بَـاتَتْ مُهَـدَّدَةً بِثَـوْرَةٍ خَـابَ مَنْ يَـرْجُـوْ تَـوَقِّيْهَـا

---

(١) لم يكن معاوية بجاهل أمر الثورة القائمة على عثمان ولا أعتقد أنّه لم يكن مستطيعاً أن يكشف عنه أو على القليل أن يجاهد لدفع الأذى عنه ولكنه لم يفعل ولعلّه رأى مصلحته بترك الأمور للأقدار تتصرف فيها كيف تشاء . وظلَّ معاوية يترقب أنباء المدينة حتى ورده كتاب مروان بن الحكم ينعي له به عثمان وهاك نصه : « وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم ، وصلاح النية ، ومنَّ عليك بمعرفة الحقّ واتباعه ، فإنّي كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام ، وأيُّ قتلةٍ قُتل ؟ نحركما ينحر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل ، بعد أن نُقبت صفحته بطيّ الراحل ، وسير الهجير ، وإنّي معلمك بخبره غير مقصر ولا مطيل ، انَّ القوم استطالوا مدَّته ، واستقلوا ناصره ، واستضعفوه في بدنه ، وأملوا بقتله بسط أيديهم فيما كان قبضه عنهم ، واعصوصبوا عليه ، فظلَّ محاصراً قد منع من صلاة الجماعة ، وردّ المظالم ، والنظر في أمور الرعية ، حتى كأنَّه هو فاعلٌ لما فعلوه ، فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوَّفهم الله وناشدهم ، وذكرهم مواعيد رسول الله ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ولم ينكروه ، ثمَّ رموه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله ، فأظهر لهم التوبة مما كرهوا ، ووعدهم الرجعة إلى ما أحبّوا ، فلم يقبلوا ذلك ، ونَهبوا داره ، وانتهكوا حرمته ، ووثبوا عليه فسفكوا دمه ، وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءَها ، منكفئين قِبَل ابن أبي طالب ، انكفاء الجراد أبصر المرعى ، فأخلق ببني أمية =

فَقَـدْ تَلَقَّى ٱبْنُ هِنْـدٍ نَعْيَ صَـاحِبِـهِ   وَقَـالَ: قَتْلَتُـهُ مَـا ٱلسِّلْمُ تَـالِيْهَـا

= أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العبوق ، إن لم يثأره ثائر ، فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنه والسلام » اهـ .

فلما انتهى هذا الكتاب إلى معاوية شمّر عن ساعد العزم طالباً الأمر لنفسه متسلحاً بطلب دم عثمان وأعدَّ للأمر عدّته بنفسه ووضع له الخطط التي حسبها موصلةً لغرضه وكان أول ما فعله أن خرج إلى المسجد فنعى للناس عثمان وأكبر أمر الجريمة التي أفضت إلى قتله وبكى فاستبكى الناس ثمَّ عطف عليهم واستمالهم إلى ممالئته بالمطالبة بدم عثمان فعاهدوه على ذلك غاضبين على القتلة . ثمَّ جيء إلى معاوية بقميص عثمان وهو مغموس بدمه وأصابع نائلة التي بترت عندما تلقت ضربة سيف قاتله فعلا المنبر وأعانهما على أهل الشام فازدادوا حقداً على قاتليه ورغبةً في المطالبة بدمه وكان يقول أنّ دم عثمان معصوب بعنق ابن أبي طالب الذي حضَّ القتلة على قتله رغبةً في نيل الخلافة لنفسه .

وبادر معاوية فأرسل إلى عمّال الأمصار وهم على ما علمت إمّا من الأمويين وإمّا من أشياعهم يحضهم على إفساد الناس ومنعهم من بيعة علي وإنهاضهم إلى المطالبة بدمه المعصوب بعنق ابن أبي طالب على زعمه فقام عمّال الأمصار بما أشار معاوية مستعملين بذلك نفوذهم كحكّام .

ولم يفت معاوية أنّ مساعيه لا يكون لها التأثير الذي يريده ما لم يكن له مناصرون في المدينة المنورة وهي عاصمة الخلافة وفيها أهل الحلّ والعقد ورأى أنّ أفضل من يستعين بهم على سيدنا علي عليه السلام فيها الزبير وطلحة لما لهما من الحول والطول لأنّهما من العشرة المشهود لهم بالجنّة ومن الستّة الذين أدخلهما عمر في الشورى فصار لهم حقّ بالخلافة فكتب إلى الزبير كتاباً هذا نصّه :

« إلى الزبير بن العوام من معاوية بن أبي سفيان سلامٌ عليك ، أمّا بعد فإنّك الزبير بن العوام ابن أبي خديجة ، وابن عمّة رسول الله ، وحواريه ، وسلفه ، وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين ، وأنت الباذل في الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان ، بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ ، بالسيف المتصلت ، تخبط خبط الجمل الوديع ، كلّ ذلك قوة إيمان ، وصدق يقين ، وسبقت لك من رسول الله البشارة بالجنة ، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمّة ، واعلم يا أبا عبد الله ، أنّ الرعية=

وَمَـا أَنَـا تَـارِكٌ ثَـأْرَ ٱبْنِ عَمِّيَ بَـلْ   عِـدَاتُـهُ بِشَبَـا سَـيْفِـيْ أُلَاشِيْهَـا

=أصبحت كـالغنم المتفرقـة لغيبة الـراعي ، فسارع رحمـك الله إلى حقن الـدمـاء ، ولمّ الشعث ، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قبل تفاقم الأمر ، وانتشـار الأمّة ، فقـد أصبـح الناس على شفـا جرف هـار ، عمّا قليـل ينهار ، إن لم يـرأب ، فشمّـر لتـأليف الأمّة ، وابتغ إلى ربّـك سبيلاً ، فقـد أحكمت الأمر من قبلي لـك ولصاحبـك (ويريـد طلحة) على أنّ الأمر للمقدم ثمَّ لصاحبه من بعده ، جعلك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى والسلام » اهـ .

وكتب إلى طلحـة كتابـاً هذا نصـه : « من معاويـة بن أبي سفيـان إلى طلحـة بن عبيد الله سلامٌ عليك ، أمَّا بعد فإنَّك أقلُّ قريش في قريش وتراً ، مع صباحة وجهـك ، وسماحة كفـك ، وفصاحـة لسانـك ، فأنت بـأزاء من تقدمـك ، في السابقـة ، وخامس المبشـرين بالجنـة ، ولك يـوم أُحُد وشـرفه وفضله ، فسـارع رحمك الله إلى مـا تقلدك الرعية من أمرها ، مما لا يسعك التخلف عنه ، ولا يرضى الله منك إلّا بالقيام به ، فقد أحكمت لك الأمر قبلي ، وأمّا الزبيـر فغير متقـدّم عليك بفضـل ، وأيّكما قـدّم صاحبـه فالمقدَّم الإمام والأمر من بعده للمقدَّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لـك رشد الموفقين والسلام » اهـ .

ومـا اكتفى معاويـة بهذين الكتـابين بل كتب كتبـاً أخرى إلى وجهـاء الأمويين في المـدينة وبـاقي الأمصار تنشـر منها مـا يشير إلى مـا في نفس الـرجـل من الأطمـاع إلى الخلافة وهاك نصّ كتابه إلى مروان بن الحكم « أمّـا بعد فقـد وصل إليَّ كتـابك بشـرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركبوه به ، ونالوه منه ، جهـلاً بالله ، وجـرأةً عليه ، واستخفـافاً بحقّه ، ولا أمانٍ لوَّح الشيطان بهـا في شرك البـاطل ، ليـدهدههم في أهـويات الفتن ، ووهـدات الضلال ، ولعمـري لقد صـدق عليهم إبليس ظنه ، ولقـد قنصهم بـالشـوطـة فخه ، فعلى رسلك أبا عبد الله يمشي الهوينا ويكون أولاً ، فـإذا قرأت كتـابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلّا غيلةً ، ولا يتشازر إلّا عن حيلةٍ ، وكـالثعلب لا يفلت إلّا روغانـاً ، واخفِ نفسـك منهم إخفاء القنفـذ رأسه عنـد لمس الأكفّ ، وامتهن نفسك امتهـان من ييـأس القوم نصـره وانتصاره وابحث عن أمـورهم بحث الدجـاجة عن حبّ الـدخن عند فقاسها ، وانغل الحجاز فإنّي منغل الشام والسلام » اهـ .

وكتب إلى سعيـد بن العاص وهـو كما تعلم أمـويٌّ وكان أميـر الكوفـة كتابـاً وهذا=

وَصَاحَ فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلشَّامِيِّ : وَاكَرَبِيْ   لِـقَتْـلَةٍ كَـانَ عُثْمَـانٌ مُعَـانِيْهَـا

= نصّه : « أمّا بعد فإنّ كتاب مروان ورد عليَّ من ساعة وقعت النازلة ، يقبل به البرد بسير المطيّ الوجيف ، تتوجس توجس الحية الذكر خوف ضربة الفأس وقبضة الحاوي ، ومروان الرائد لا يكذب أهله ، فعلامَ الإفكاك يابن العاص ، ولات حين مناص ؟ ، ذلك أنّكم يا بني أمية عمّا قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفاً ،ويصدُّ عنكم من كان لكم واصلاً ، متفرقين في الشعاب ، تتمنون لمظة المعاش ، إنَّ أمير المؤمنين (ويريد به عثمان) عُتب عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم ، ففيمَ القعود عن نصرته ، والطلب بدمه ! ، وأنتم بنو أبيه ذوو رحمه وأقربوه وطلاب ثاره ، أصبحتم مستمسكين بشظف معاشٍ زهيد ، عمَّا قليل يُنزع منكم ، عند التخاذل وضعف القوى ، فإذا قرأت كتابي هذا فدبَّ دبيب البرء في الجسد النحيف ، وسرّ سير النجوم تحت الغمام ، واحصد حصد الذرة في الصيف لانجحارها في الصرد ، فقد أيدتكم بأسد رأي والسلام » اهـ .

وكتب إلى عبد الله بن عامر ما نصّه « أمّا بعد فإنَّ المنبر مركب ذلول ، سهل الرياضة ، لا ينازعك اللجام ، وهيهات ذلك إلاّ بعد ركوب إثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب ، وكأنّي بكم يا بني أمية شعار يركُّ كالأوارك تقودها الحداة ، أو كرخم الخندمة تذرف خوف العقاب ، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشري الفساد ، ويدبُّ السوط جديداً ، والجرح لمَّا يندمل ، ومن قبل استضراء الأسد والتقاء لحييه على فريسته ، وساور الأمر مساورة الذئب الأطلب كسيرة القطيع ، ونازل الرأي ، وانصب الشرك ، وارم عن تمكن وضع الهناء مواضع النقب ، واجعل أكبر عدتك الحذر ، وأحدَّ سلاحك التحريض ، واغضِ عن العوراء ، وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشوس ، وقوّ عزم المريد ، وبادر العقبة ، وازحف زحف الحية ، واسبق قبل أن تسبق ، وقم قبل أن يقام لك ، واعلم أنّك غير متروك ولا مهمل ، فإنّي لكم ناصح أمين والسلام » اهـ .

وكتب إلى الوليد بن عقبة ما نصّه : « يا ابن عقبة ، كنُّ الجيش ، وطيب العيش ، أطيب من سفعٍ سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها ، إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك ، فاطلب لنفسك ظلاًّ تستكنُّ به ، إنّي أراك على التراب رقوداً ، وكيف بالرقاد بك ، لا رقاد لك ، فلو قد استتبَّ هذا الأمر لمريده ، ألفيت=

وَنَكْبَةٌ دَهَمَتْ ذَا ٱلْيَوْمَ أُمَّتَنَا   هَيْهَاتِ مَا نَكَبَاتُ ٱلدَّهْرِ تَحْكِيْهَا

=كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ، وعن قليل تشرب الرنق ، وتستشعر الخوف ، أراك فسيح الصدر ، مسترخي اللبّ ، رخو الحزام ، قليل الاكتراث ، وعن قليل يجتثُّ أصلك والسلام » اهـ .

وكتب إلى يعلى بن أمية ما نصّه : « حاطك الله بكلاءته ، وأيدك بتوفيقه ، كتبت إليك هذا صبيحة ورد عليَّ كتاب مروان بخبر قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه ، وأنّ أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه ، وثقلت نهضته ، وظهرت الرعشة في أعضائه ، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية ، وثبوا له ، وأكبّوا عليه ، فكان أعظم ما نقموا عليه ، وعابوه به ، ولايتك اليمن ، وطول مدتك عليها ، ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال ، حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادراً بها القوت ، وهو مع ذلك صائم ، معانق المصحف ، يتلو كتاب الله فيه ، عظمت مصيبة الإسلام بصهر رسول الله ، والإمام المقتول على غير جرم سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم أنَّ بيعته في أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحقّ ، ولا في أمرة توردنا النار ، وأنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه ، فشمّر لدخول العراق ، فأمّا الشام فقد كفيتك أهلها ، وأحكمت أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة ، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق ، حزونة عقابها ، واعلم يابن أمية أنّ القوم قاصدوك باديءَ بدءٍ لاستنزاف ما حوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله والسلام » اهـ .

أقول وما نشرت كتب معاوية هذه ومثلها كثير مما كتبه إلى زعماء الأمويين وأنصارهم صبيحة ورود نعي عثمان إليه إلّا لبيان فساد زعم الزاعمين بأنَّ سيدنا علي عليه السلام تعجّل بمقاطعة معاوية وأنّه لو سالمه لأمن شرَّه حتى أنّ جناب الشيخ محمد الخضري في محاضراته التي وضعها بعد هذه الحوادث بألف وثلاثمائة سنة وقع في هذا الخطأ ولامه عليه السلام على تلك المقاطعة وكان من رأيه أن سيدنا علي كان من الواجب أن يقتصّ من الثائرين صبيحة يوم بيعته وأن يسالم معاوية والأمويين ويقرّهم على ما بأيديهم من الأمارات وبعض حالهم ما تقرأه في كتب معاوية فتأمّل . . .

على أنّ سيدنا علي عليه السلام مع ما يعلم من خوافي معاوية وما يكنه صدره من =

= المطامع البعيدة أرسل إليه يعلنه ببيعته بجواب سبق لنا نشره في حاشية سابقة فكان جواب معاوية له أنّه يأبى بيعته وأنّه يعصب فيه دم عثمان أو يسلمه الثائرين إلى آخر ما قال وكرّر الكتابة إلى الزبير في معنى ما كتبه له ولطلحة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان سلامٌ عليك ، أمّا بعد فإنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا ، واستوثقوا كما يستوثق الحلب ، فدونك الكوفة والبصرة ، لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب ، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فاظهرا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدُّ والتشمير ، أظفركما الله وخذل مناويكما » اهـ . وأفلحت هذه الدسيسة من معاوية إذ لم يشكّ الزبير وطلحة بصدقه في بيعتهما ونشطا إلى مناوأة سيدنا علي عليه السلام بعد أن خيبهما بولاية الكوفة والبصرة وسارا إلى مكة المكرمة وانضما إلى عائشة وتبعهما مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وأخذوا يستعدون إلى المسير إلى العراق لأخذ بيعة أهلها ومحاربة علي بهم تنفيذاً لدسيسة معاوية المشار إليها .

وسبق القول أنّ سيدنا علي عليه السلام كتب إلى معاوية يعلنه بأنَّ الناس في المدينة بايعوه مجمعين ويطلب بيعته فأجابه أنّه لا يبايعه إلاّ إذا سلّمه قتلة عثمان وما من يجهل الغرض الذي رمي إليه معاوية بطلبه هذا بل هو بديهيٌّ يحكم به كل ذي إلمام بحوادث صدر الإسلام فإنّ معاوية ما كان يجهل غلبة الثائرين على المدينة وأنّ علياً لو مالأ معاوية وسلّمه قتلة عثمان أو أراد أن يجري القصاص عليهم لثار الثائرون عليه كما ثاروا على عثمان وهكذا يكون قد أفسد عليه أمره من أهون الطرق على أنَّ سيدنا علي لم تفته الدسيسة فتحاشاها وأجاب معاوية بأن بايع وطع ثمَّ تقدم من الخليفة مطالباً بدم عثمان لأنّ العاصي لا ينظر في دعواه فكان جوابه هذا سبباً لعصب معاوية دم عثمان بسيدنا علي وكان يقول إنّه ما حمى القتلة إلاّ لأنّه هو الذي دفعهم إلى القتل وبعد أخذ ورد بين سيدنا علي ومعاوية وظهور مساعي معاوية ضد الخلافة لم يرَ سيدنا علي عليه السلام إلاّ استعمال الحزم وقد بلغ السيل الزبى فجهر برأيه في المسجد النبويّ خطيباً فقال : « وقد قلبت هذا الأمر ببطنه وظهره ، حتى منعني النوم ، فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاءَ به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت معالجة القتال ، أهون =

وَذَا قَمِيصُ آبْنِ عَفَّانٍ وَذَا دَمُهُ عَلَيْهِ أَفْعَالُ مَنْ أَرْدَوْهُ يَنعِيْهَا
وَذِيْ أَصَابِعُ ذَاتِ ٱلصَّوْنِ نَائِلَةٍ أَمَامَكُمْ كَانَ سَيْفُ ٱلظُّلْمِ فَارِيْهَا
وَكَانَ يَبْكِي لِيَسْتَبْكِيْ ٱلْعُيُوْنَ عَلى عُثْمَانَ وَٱلنَّارُ فِيْ ٱلْأَلْبَابِ يُلْظِيْهَا
حِقْداً عَلى مَعْشَرِ ٱلثُّوَّارِ ثُمَّ يُنَا دِيْ ٱلنَّاسَ لِلثَّأْرِ شَامِيْهَا وَمَكِّيْهَا
ثُمَّ يَقُوْلُ : وَلَوْلَا حَضُّ حَيْدَرَةٍ عَلى ٱلْجَرِيْمَةِ مَا ٱلثُّوَّارُ تُمْضِيْهَا
فَٱلثَّأْرُ عِنْدَ عَلِيٍّ وَهْوَ قَاتِلُهُ وَحَرْبُهُ كُلُّ ذِيْ دِيْنٍ يُوَخِّيْهَا
بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِيْ ٱلنُّفُوْسَ إِلَى عَدَاوَةِ ٱلْمُرْتَضَى ظُلْماً وَيُغْرِيْهَا
بِذَاكَ أَشْعَلَ نَارَ ٱلْحِقْدِ أَلْهَبَهَا فِيْ أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ كَيْ تُبْدِيْ تَعَصِّيْهَا
لِإِمْرَةِ ٱلْمُرْتَضَى كَيْمَا تُعَارِضُ بَيْـ ـعَةً تَحِقُّ لَهُ شَرْعاً وَتُلْغِيْهَا
وَمَا ٱكْتَفَى بِأَهَالِيْ ٱلشَّامِ أَفْسَدَهَا عَلى خِلَافَتِهِ حَتَّى تُنَاوِيْهَا
بَلِ ٱسْتَطَالَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ شَجَّعَهَا عَلى ٱلْعَصَاوَةِ قَاصِيْهَا وَدَانِيْهَا
وَإِنَّ أَعْوَانَهُ سَارَتْ مُوَزَّعَةً عَلى ٱلْمَمَالِكِ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَا
كَانَتْ تُنَادِيْ بِثَارَاتِ ٱلْقَتِيْلِ وَتَسْـ ـتَبْكِيْ ٱلْعُيُوْنَ عَلَيْهِ فِيْ تَبَاكِيْهَا
ثُمَّ تَقُوْلُ: عَلِيٌّ كَانَ قَاتِلَهُ حُبّاً بِأُمْرَتِهِ يَبْغِيْ تَوَلِّيْهَا
وَإِنَّ قَتْلَةَ عُثْمَانٍ بِذِمَّتِهِ وَمِنْهُ لَا مِنْ سِوَاهُ نَحْنُ نَبْغِيْهَا
وَٱلنَّاسُ هَيْهَاتِ تَعْنَى بِٱلْحَقَائِقِ فِيْ ٱلْأَ م قْوَالِ إِنْ أَحْسَنَ ٱلتَّلْفِيْقَ رَاوِيْهَا
فَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ أَنْ تَسْتَنِيْمَ إِلَى خَدِيْعَةٍ سَمِعَتْهَا مِنْ مُفَاهِيْهَا

= عليّ من معالجة العقاب ، وموتات الدنيا ، أهون عليَّ من موتات الآخرة »
وأخذ عليه السلام يستعد لحرب معاوية في الشام ولسان حاله يقول :

السيف أصدق إنباءً من الكتبِ في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعبِ

وَأَنْ تَهُبَّ إِلَى ثَأْرِ ٱلْخَلِيْفَةِ مَعْ ... أُمَيَّةٍ وَشَنِيْعُ ٱلْقَتْلِ مُوذِيْهَا

وَأَنْ تُعَاصِيْ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيَّـــاً مِثْلَمَا قَدْ قَضَى بَغْيَاً مُعَصِّيْهَا

كَذَا مُعَاوِيَةٌ مَا فَاتَ طَلْحَةَ وَٱلـــزُّبَيْرَ مَنَّاهُمَا ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيْهَا

بِرُقْعَةٍ قَالَ فِيْهَا: بَيْعَتِيْ لَكُمَا ... وَٱلشَّامُ طَوْعُكُمَا فِيْ ٱلْحَالِ تُعْطِيْهَا

فَعَجِّلاَ وَٱطْلِبَاهَا فِيْ ٱلْعِرَاقِ فَمَا ... بِهَا يَضُنُّ عَلَى زَعْمِيْ عِرَاقِيْهَا

وَلِلْعَلِيِّ لَقَدْ أَوْفَى رِسَالَتَهُ ... يَقُوْلُ: مَا لَكَ وَٱلثُّوَّارُ تَحْمِيْهَا

فَأَسْرِعْ إِلَيْنَا بِهَا أَوْ أَنْتَ حَامِلُهَا ... عَلَى ٱلْجَرِيْمَةِ فَٱسْتَنْظِرْ تَوَالِيْهَا

وَإِنَّ أُمْرَتَكَ ٱلْعَلْيَا أُقَاوِمُهَا ... وَلَنْ أَزَالَ مَدَى ٱلْأَيَّامِ عَاصِيْهَا

وَإِنَّنِيْ مُثْئِرٌ مِنْكَ ٱلشَّهِيْدَ وَلاَ ... تَرَى أُمَيَّةُ إِلَّا أَنْتَ عَادِيْهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى هٰذَا وَذَاكَ وَمَا ٱلْـــحُسْنَى بِمُجْدِيَةٍ نَفْعَاً لِوَاخِيْهَا

وَقَدْ تَعَذَّرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ دَمْلُ دَمَا ... مِيْلِ ٱلْخِلاَفَةِ نَادَى صِرْتُ أُكْوِيْهَا

وَآذَنَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحَرْبِ ٱلْعَوَانِ عَلَى ... أَهْلِ ٱلشَّآمِ وَمَنْ وَالَى مُعَاوِيْهَا

وَقَالَ: قَلَّبْتُ بَطْنَ ٱلْأَمْرِ مُفْتَكِرَاً ... لِظَهْرِهِ بِخَوَافِيْهِ أُجَلِّيْهَا

وَقَدْ حُرِمْتُ لَذِيْذَ ٱلنَّوْمِ مِنْ قَلَقِيْ ... وَفِيْهِ كَمْ مِنْ لَيَالٍ كُنْتُ مُحْيِيهَا

فَمَا وَجَدْتُ سِوَى هَوْلِ ٱلْقِتَالِ لِأَعْـــدَاءِ ٱلْحَنِيْفَةِ أَوْ عِصْيَانِ هَادِيْهَا

وَإِنَّ نَارَ ٱلْوَغَى عِنْدِيْ لَأَهْوَنُ مِنْ ... نَارِ ٱلْجَحِيْمِ ٱلَّتِيْ أَخْشَى تَلَظِّيْهَا

وَإِنَّ مَوْتَاتِ ذِيْ ٱلدُّنْيَا لَأَهْوَنُ مِنْ ... مَوْتَاتِ آخِرَةٍ مَا زِلْتُ أَتَّقِيْهَا

كَذَاكَ أَفْتَى بِحَرْبِ ٱلشَّامِ حَيْدَرَةٌ ... فَتْوَى أَخُوْ ٱلرَّأْيِ وَٱلتَّفْكِيْرِ يُفْتِيْهَا

فَقَابَلَتْهَا عِبَادُ ٱللّٰهِ رَاضِيَةً ... وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَا يُرْضِيْهِ يُرْضِيْهَا

مسير طلحة والزبير بعائشة إلى البصرة

وَبَيْنَمَا يَتَهَيَّا ٱلْمُرْتَضَى لِجِهَا دِ ٱلشَّامِ مِنْ بَعْدِ مَا أَبْدَتْ تَعَصِّيْهَا(١)
وَإِذْ تَلَقَّى نَبَا عِصْيَانِ عَائِشَةٍ بِمَكَّةٍ مَعَ قَوْمٍ مِنْ مُرِيْدِيْهَا

---

(١) تقدم لنا القول أنّ عائشة كانت أشدَّ الناس على عثمان ونزيد هنا أنّها ما زالت تغري الناس بعدائه والانتقاض عليه حتى أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وعثمان قد أبلى سنته . قالوا إنّ عائشةً هي أول من سمّى عثمان نعثلاً والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد وقد كان عثمان كذلك كما علمت وكانت تقول اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً . وقد سبق لنا القول أنّ عائشة تركت المدينة والفتنة على أشدّها وهي لا تشكُّ أنَّ عثمان مقتول وأقامت في مكة تنتظر هذه النتيجة التي كانت تتوقعها والظاهر أنّها لم تكن تتوقع أن يتولى سيدنا علي الخلافة وكانت تنتظرها لطلحة فقد روى المؤرخون أنّ عائشة عندما بلغها وهي بمكة نبأ مقتل عثمان قالت : بعداً لنعثل وسحقاً ، إيهِ ذا الأصبع (تريد به طلحة وقد شلّت أصبعه يوم أُحُد) إيه يا شبل ، إيهِ يابن عمّ ، لكأنّي أنظر إلى أصبعه (الشلاء) وهو يأخذ البيعة حثوا له الإبل ودعُوها . وأقبلت مسرعة إلى المدينة وهي تقول : إيهِ ذا الأصبع لله أبوك أمّا إنّهم وجدوا طلحة لها كفؤاً ؟ وما أسرعت بالسفر إلّا وهي تظنّ أنّ الناس يتأخرون بالبيعة فتأتي المدينة وتعمل على مبايعة طلحة وما كان أشدّ خيبة أملها عندما انتهت إلى « شراف » وهي في ضواحي مكة فهناك استقبلها عبيد ابن أبي سلمة الليثي وكان قادماً من المدينة فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان . قالت بلهف : ثمَّ ماذا ؟ . قال : ثمَّ حارت بهم الأمور إلى خير محار بايعوا عليّاً . فاصفرّ وجه عائشة كمداً وحزناً وصاحت : لوددت أنَّ السماء انطبقت على الأرض إن تمَّ هذا ويحك انظر ماذا تقول . قال : هو ما قلت لك يا أمّ المؤمنين فولولت فقال لها : ما شأنك يا أمّ المؤمنين والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها من علي ولا أحقّ ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته ؟؟ فما ردّت له جواباً وأمرت بالحال بردّ ركايبها إلى مكة وعادت وهي تخاطب نفسها فتقول : قتلوا ابن عفّان مظلوماً . فقال لها قيس بن أبي حازم وكان بركابها ألم أسمعك تقولين بعداً لنعثل وسحقاً وقد عهدتك من قبل أشدَّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً قالت : لقد كان ذلك =

وَكَـانَ مَعْهَـا ٱلـزَّبِيْـرانِ ٱللَّذَانِ أَرَا   دَا فِتْنَـةَ ٱلْقَـوْمِ وَٱسْتِغْـوَا مُـطِيْعِيْهَـا

=ولكن نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه .

وعندما استقرَّت عائشة في منزلها في مكة جعلت تنوح وتندب عثمان وتشدّد النكير على قاتليه ولا تكتم أسفها على أخصائها فتقول : تعسوا تعسوا! لا يردّون الأمر في تميم « وهذا على ما أظن هو بيت القصيد من انقلابها » وإذ كان لعائشة بين الناس مكانة ممتازة لما هو مشهور عن حبّ المصطفى لها صلى الله عليه وآله وسلم ولأنّها كانت تكثر من تحديث الناس بأحاديثه النبوية التفَّ الناس من حولها وبكوا لبكائها وأخذوا معها يطالبون بدم عثمان .

ثمَّ أنَّ طلحة والزبير عندما يئسا وهما في المدينة من علي واقرَّا على الإنتقاض عليه كتبا لعائشة يحضانها على تخذيل الناس على بيعة علي وأرسلا لها كتاباً مع ربيبها عبد الله بن الزبير فازدادت به جرأة وطفقت تذيع دعوتها بمطالبة علي بدم عثمان والتفَّ من حولها الأمويون والمتشيعون لهم وهم الذين أسماهم المؤرخون « عثمانية » فرصة انقلابها هذا فتناسوا لها نقمتها على عثمان وتحريضها الناس عليه بغية الانتفاع بنفوذها على محاربة سيدنا علي بن أبي طالب . وهكذا أصبحت عائشة في مكة زعيمة المطالبين بدم عثمان وموضع اهتمام معاوية ومروان وأصحابهما الأمويين في تنفيذ الخطط التي وضعوها لمحاربة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

أمّا طلحة والزبير بعد أن تمّت بيعة سيدنا عليّ انتظرا أياماً في داريهما وهما يتوقعان أن يكونا منه كما كان مروان من عثمان فيستبدان بالخلافة دونه فخاب فألهما ورأيا أمير المؤمنين مشتغلاً برتق الفتق وإصلاح الفاسد برأيه وحكمته وأنّه مصمّم تصميماً قاطعاً على معاملة المسلمين بالمساواة التي يقضي بها الشرع فلا يميزهما عن غيرهما بفيء ولا بحق فنقما ذلك عليه . ولا بدَّ أنّ الذين جاءوه يغرونه بالاقتصاص من قتلة عثمان كان بينهم طلحة والزبير أو أنّهما صاحبا هاتيك الفكرة أرادا بها أن يوقعاه بمشكلة لا يستغني بها عن التماس معونتهما فما فازا بأربهما بل رأياه يقضي الأمور بسديد رأيه بغير مشورتهما فتأكدا حينئذٍ أنّهما في دولته غير بالغين أرباً . فما عتما أن توجها بآمالهما إلى الإبتعاد عن المدينة فيكون الزبير أميراً للبصرة وله فيها شيعة وطلحة أميراً للكوفة وله فيها شيعة فاتفقا على الذهاب إلى سيدنا علي ومطالبته بهاتين الأمارتين =

= لنفسيهما وبالفعل ذهبا إليه بملتمسهما بعد ولايته ببضع أيام وطلبا منه أن يولّيهما البصرة والكوفة فقال سأنظر في هذا الأمر فامهلاه أياماً ثمَّ عادا إليه فوجداه غير مبلغهمـا سؤلهما فذكراه بمعاونتهما له على بلوغ الخلافة وتمنيا عليه بذلك فردَّهما ولا رضي أن يرشوهما ببلاد المسلمين فحقدا عليه وأغضبهما ردّه وخرجا نـاقمين . وبينما همـا لكذلـك وردت عليهما تحارير معاوية ببيعته لهما وأخذ مروان وغيره من الأمويين يجتمعون عليهما فكان ذلك مشدداً عزيمتهما على الخروج على سيدنا علي عليه السلام ولم يكونا جاهلين أمر عائشة في مكة واستلامها زعامة المطالبين بدم عثمان فيهـا فأقـرًّا على الإنضمام إليهـا وإذ كان رحيلهمـا إلى مكة لا يكـون بغير إذن سيـدنا علي عليه السلام سـارا إليه فـاستأذنـاه بـالخـروج فانقطعـا عنه مـدة ثمَّ جاءَاه فـاستأذنـاه بالخـروج إلى مكة قصـد العمرة فلم يفتـه ما في نفسيهما وقال والله ما العمرة تريدان فحلفا له أنّهما لا يريـدان غير العمـرة فقال لهمـا ما العمرة تريدان وإنّما تريدان الغدرة ونكث البيعة فحلفـا بالله مـا الخلاف عليـه ولا نكث بيعته يريدان وما بغيتهما غير العمرة فقال عليه السلام فأعيدا البيعة ثانيةً فأعاداها بأشدّ ما يكون من الإيمـان والمواثيق فـأذن لهما كـل هذا والنـاس بين يديـه وهو في المسجـد النبـوي وبعدما خرجا التفت إلى من حوله وقال : والله لا ترونهما إلاّ في فتنة يقتتـلان فيها قـالوا يا أمير المؤمنين فمرّ بردهمـا عليك قـال بل أدعهمـا ليقضي الله أمراً كـان مفعولاً . ومن هذا القول العلوي نعلم أنّه عليه السلام لم يكن جاهلاً أمرهمـا وأمر الـذين يكيدون لـه معهما ولكنه أبى أن يأخذهما على ما يعلم من سرهمـا ويجهل النـاس حتى لا يعطي لأعـدائه حجةً عليه تؤيد حجتهم الأولى وهي اتهامه بدم عثمان . لا جرم أنَّ علياً عليه السلام لو قبض على طلحة والزبيـر عندمـا جاءَاه مستـأذنين للعمرة وحجـر عليهما لامتـلأت أرجاء بـلاد الخلافة بصياح الأمويين قائلين أنَّ علياً قتـل في الأمس عثمان وحجـر اليوم على طلحـة والزبير ليستبدَّ بالخلافة ويكـون لقولهم هـذا تأثيـر عظيم في الصـدور لأنَّ الناس يجلون طلحة والزبير ويعرفون لهما المكـانة العـالية في العـالم الإسلامي وهكـذا يرى المـدقق الحكيم مبلغ حكمـة سيـدنـا أميـر المؤمنين بعـدم التعـرض لحـريـة هـذين الصحـابيين والاكتفاء باستعادة بيعتهما إمام المسلمين في المسجد النبوي .

وعندما خرج طلحة والزبير من المدينة إلى مكة جعلا يقولان لكل من يلقيـانه في طريقهما أنّ ليس لعلي في عنقهما بيعة وإنّما بايعاه مكرهين واتّصل قولهمـا هذا بسيـدنا =

وَٱبْنُ ٱلـزَّبِيْرِ ٱلَّـذِي مَا زَالَ مُلْتَـزِمَـاً   رِكَـابَهَـا مَـا تُنَـاجِيْـهِ يُنَـاجِيْهَـا

=علي من القادمين على المدينة فقال عليه السلام « أبعـدهما الله ، وأغـرب دارهما ، أمّـا والله لقد علمت أنّهما سيقتلان نفسيهما أخبث مقتل ، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العمرة يريدان ، ولقد أتياني بوجهي فاجرين ، ورجعا بـوجهي غادرين نـاكثين ، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلاّ في كتيبة خشناء يقتتلان فيها بنفسيهما ، فبعداً لهما وسحقاً » .

وعندما انتهى طلحة والزبير إلى مكة أسرعا إلى منزل عائشة وأخذوا يـدبرون أمـر المسير إلى العراق حسب إشارة معاوية وانضمّ إليهم مروان بن الحكم وقد ترك المـدينة فراراً ويعلى بن أمية حاكم اليمن وجاء معه ببعض رجالات اليمن وذاع نبـأ مسير عـائشة إلى البصرة فأكبـره أهالي مكـة لأنّهم ما انتـظروها أن تـدخل في الفتنـة بصورة جـديّة . وكان في مكة وقتئذٍ أم سلمة وهي إحدى أزواج المصطفى فسارت إليها غير مرة وأكثرت لها النصيحة وذكرتها بمكانة سيدنا علي عند المصطفى عليهما الصلاة والسلام وبأحاديثه الكثيرة التي تشير إلى موقفها الحرج الذي وقفتـه والواجب أن تتحـاشاه فمـا سمعت لها نصيحة وكانت تقول إنّها ضرَّةٌ تغشني .

وعندما صحت عـزيمة هؤلاء العصـاة على السفر طلبـوا لهودج عـائشة بعيـراً أيّداً فجاءَهم يعلى بـن أمية ببعيره المسمى عسكر وكان عظيم الخلق شديداً فلما رأته عـائشة أعجبها وأنشأ الجمال يحدثها بشدته وقوته ويسميه في أثناء حديثـه عسكراً فلمـا تكررت لفظة « عسكر » على لسان الجمال تشاءمت من الجمل واسترجعت وقالت ردّوه لا حاجة لي بـه فتقدم منهـا عبد الله بن الـزبير وهـو ربيبها وأدلّ النـاس عليهـا وسـألهـا عن سبب رفضها ركوب « عسكر » على شدّته وقوتـه فقالت انّ رسـول الله كان ذكـرها جمـلاً بهذا الإسم ونهاها عن ركوبه وأمرته أن يطلب لها جمـلاً غيره فمضى في هـذه المهمة فـوجد في أسواق مكة رجلاً من عرنية ومعه جمـل أحمر شـديد القـوى فاعتـرضه واشتـرى منه جمله بعد أن أخبره أنّه لعائشـة أمّ المؤمنين وسألـه إن كان يعـرف طريق البصـرة فيكون دليلهم فيها فقال نعم وكان دليلهم . ولما عرض جمل العرني على عائشـة رضيته مـطيةً لهـودجها فـرفع عليـه الهودج وكـان موشحـاً بجلود النمر ووضعـوا فوقـه دروع الحـديـد والرفارف المزركشة ودخلت فيـه عائشـة وأنزلت السـتائر وسـار في مقـدمة النـاس وكان رايتهم ولم يكن لهم رايـة سواه ولـذلك دعـاهم الناس « أصحـاب الجمل » وكـان ذلك العرني دليل القوم ماسكاً زمام الجمل وكانت عائشة فيه هي الآمرة الناهية .   =

= وكان يعلى بن أمية أمير اليمن الذي هبط مكة بعد وصول كتاب معاوية إليه وقد سبق لنا نشره هو الذي يجهز الناس للرحيل وجاءهم بستماية بعير وستماية ألف درهم ومن هذا وحده تعلم كيف كان عمّال عثمان يحكمون الناس ويتسطون على أموالهم .

وسار المنادون في أسواق مكة وهم ينادون : « إنّ عائشة أمّ المؤمنين ، وطلحة ، والزبير ، شاخصون إلى البصرة ، فمن أراد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ، وليس له مركب وجهاز فليأتِ » فأقبل الناس على النداء بين مكيين ومدنيين فكانوا ستماية راكب وصار يتبعهم الناس حتى بلغوا التسعماية ثمَّ انضمت إليهم رجال القبائل في طريقهم فبلغوا نحواً من ثلاثة آلاف .

ولما خرج أصحاب الجمل من مكة والجمل رأيتهم وقائدهم أذن مروان بن الحكم في الناس ثمَّ أقبل على طلحة والزبير وقال على أيّكما أسلّم بالأمارة وأؤذن بالصلاة فقال عبد الله بن الزبير وهل لها غير أبي وقال محمد بن طلحة وهل لها غير أبي وابتدأت بينهما الفتنة فتدراكتها عائشة من وسط هودجها واستدعت مروان إليها وقالت له أتريد أن تفرّق أمرنا ؟ فليصلِّ بالناس ابني عبد الله « وتريد به ابن أختها عبد الله بن الزبير » فكان يصلّي بالناس .

وما زال أصحاب الجمل سائرين في طريقهم حتى انتهوا إلى «الحوأب» وهو ماء لبني عامر بن صعصعة فأخذت الكلاب تنبح وكانت كثيرة فنفرت صعاب الإبل وقال قائلٍ بقرب هودج عائشة « ألا ترون ما أكثر كلاب الحوأب ما أشدّ نباحها ؟ » وما كادت ترنُّ هذه الكلمات في أذن عائشة وهي في هودجها حتى اصفرَّ وجهها وقفَّ الشعر في رأسها وارتجفت أعصابها وصاحت وأنّها لكلاب الحوأب !! ردّوني ردّوني وما زالت تصيح حتى أناخ الحادي جملها ووقف الركب وجاءها الزبير وولده عبد الله وطلحة ومروان ويعلى بن أمية وغيرهم يسألونها عمّا نالها فقالت ردّوني ردّوني إنّي للهيَّة فقد كان رسول الله بين نسائه في ذات يوم فطلب أن يغسل رأسه فجئته بماء وجعلت أصبّه على رأسه وأخذت أمّ سلمة تحيس له وبينما نحن لكذلك رفع رأسه الشريف وهو مبتلّ بالماء وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا ليت شعري أيتكنَّ صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . فرفعت أم سلمة يدها وقالت أعوذ بالله وبرسوله من ذلك =

وَهٰكَذَا عِصْبَةُ ٱلْعَـاصِيْنَ قَدْ جَمعَتْ   جُمُـوْعَهَـا وَبِهَـا جَـدَّتْ حَـوَادِيْهَـا

= وامتنعت أنا عن صبّ الماء وقلت قولها وإذا بالمصطفى ﷺ يضرب بيمناه على ظهري ويقول : إيّاك أن تكونيها ثم قال ثانيةً : يا بنت أبي أميّة إيّاك أن تكونيها يا حميراء قالت عـائشة فـاصفرّ وجهي وجـزعت ولكن تجلدت وقلت أعوذ بـالله أن أكونهـا يا رسـول الله فتبسّم وهـزّ رأسـه الشـريف وعـدنـا إلى غسله . ومـا أتمّت عـائشـة سـرد قصتهـا حتى استرسلت بالنواح والبكاء وهي تقول ردّوني إلى بيتي فقد صـدق رسول الله فـأنا صـاحبة الجمـل الأذنب وهوذا كـلاب الحـوأب تنبحني وقـد تنكبت عن الصـراط فـأخـذ القـوم يشجعونها على المسير وهي ترفض إلى أن أعياهم حالها وخافوا إن هي عادت أدراجهـا أن تفشـل حملتهم وتضيع مجهـوداتهم وتخيب آمالهم وبينمـا هم في حيـرتهم تلك وإذا بعبد الله بن الزبير يناديها ويقول : ويلنا يا أمّاه (وكان عبد الله يدعو عائشة أمّه وهي كما تعلم خالته) فقد أدركتنا خيل ابن أبي طالب فجزعت لهذا النبأ ورضيت بالمسير وهكذا استأنف القوم المسير في طريقهم .

ولما انتهى أصحاب الجمل إلى « حفر أبي موسى » قريبـاً من البصرة أنـاخوا فيـه وبلغ نبأهم عثمان بن حنيف وكـان عامـل عليّ على البصرة فجـزع من مقدمهم وأرسـل لهم أبـا الأسود الـدؤلي يعلم له علمهم فسـار إليهم حتى إذا ما بلغ منـزلهم قصد خبـاء عائشة وكان في وسط القوم وسألها عن سبب مجيئها بمن معها ؟ فقالت إنّي مطالبـة بدم عثمان فقال ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد قالت نعم فإنّهم مع عليّ بن أبي طالب في المدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله أتغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟ فقـال أبو الأسـود ما أنت من السـوط والسيف ؟؟ إنّما أنت حبيس رسول الله ﷺ وقد أمرك أن تقرّي في بيتك ، وتتلي كتاب ربّـك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماءَ ، وأنّ عليّاً لأولى بعثمـان منك ، وأمسُّ رحمـاً ، فإنّهمـا أبناء عبد مناف . فقالت عائشة لست بمنصـرفة حتى أمضي لمـا قدمت إليـه أتظنّ يـا أبا الأسود أنّ أحداً يقدم على قتالي ؟ فتبسم أبـو الأسود وقـال أمّا والله لنقـاتلنّ قتالاً أهـونه الشديد . وتركها وسار غاضباً إلى الزبير فقال له : يا أبا عبد الله عهـد الناس بـك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك تقـول : لا أحد أولى بهـذا الأمر من ابن أبي طـالب فأين هذا المقام من ذاك ؟ فقال الـزبير ولكنّـا نطالب بـدم عثمان فقـال أبو الأسـود أنت وصاحبك (ويريد طلحـة) وليّتماه فيما بلغنا ؟ فتلعثم لـسـان الزبيـر وقال : فـانطلق إلى =

= طلحة واسمع ما يقول فعرف أبو الأسود أنَّ الزبير سبق إلى الفتنة على غير إرادته فهو مغلوب على أمره فتركه ومضى إلى طلحة فوجده سادراً في غيّه مصرّاً على الحرب والفتنة فعاد إلى البصرة وأخبر عثمان بن حنيف بما رأى وسمع وقال إنّها الحرب فتأهب لها .

أمّا عثمان بن حنيف فحار في أمره وطفق يضرب أخماساً لأسداس فما وجد له مخرجاً وذاكر في الأمر أعيان البصرة فوجدهم مفترقين فمنهم من يقول أنَّ أصحاب الجمل على الحقّ وفيهم عائشة وطلحة والزبير ومكانتهم من الإسلام والمصطفى لا يقدح فيها قادح ومنهم من كانوا يقولون إنّ هؤلاء جاءونا بعد أن بايعوا علياً ناكثين فعلينا أن نردَّهم ومنهم من كانوا يقولون ما لنا ولهؤلاء قدموا علينا يفتنوننا ويلوننا فإذا كانوا يطلبون دم عثمان فإنّ قتلة عثمان عندهم لماذا لم يقتلوهم وإذا كانوا يريدوننا لنشاركهم بطلب قتلته فما لنا بذلك أرب وإذ رأى أميرهم عثمان بن حنيف منهم الفرقة انكسر قلبه .

ثم إنّ عائشة وطلحة والزبير أمروا أصحابهم باقتحام البصرة فساروا إليها حتى إذا ما بلغوا المربد دخلوا من أعلاه ولقيهم عثمان بأصحابه وانقسم البصريون قسمين قسمٌ من شيعة سيدنا عليّ ونفراً بجانب أميرهم عثمان بن حنيف وقسم كانوا من شيعة أصحاب الجمل فانضموا إليهم وخطب طلحة في الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله وما استحلَّ منه ودعا إلى الطلب بدمه وحثّهم عليه . ثمَّ تبعه الزبير فقال قول طلحة . وكان البصريون يسمعون الخطابين وفيهم من يقول صدقاً وبرّاً ومنهم من يقول فجراً وغدراً وأمراً بالباطل فقد بايعا علياً ثمَّ جاءَا يستنهضاننا لمحاربته وكثر اللغط والهرج . وحينئذٍ تقدَّمت عائشة وهي في هودجها على جملها وقالت بصوتها الجهير « كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عمّاله ، ويأتوننا بالمدينة فيستنيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننتظر في ذلك ، فنجده برياً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرةً غدرةً كذبةً ، وهم يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا كاثروه ، واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والشهر الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر ، ألا أنَّ لما ينبغي لا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة كتاب الله » فأزاد خطاب عائشة الشغب بين البصريين ثمَّ اشتبك القتال بينهم وانضمَّ أصحاب الجمل إلى من تشيع لهم =

وَقَــدْ تَقَـدَّمَتِ آلــرُّكْبَـانَ عَــائِشَــةُ   وَآلنَّـاسُ مِنْ حَوْلِهَـا تَشْدُوْ أَغَـانِيْهَـا
كَرَايَةِ آلْحَرْبِ كَانَتْ ضِمْنَ هَوْدَجِهَا   وَآبْنُ آلـزُّبَيْـرِ فَتَـاهَـا كَـانَ مُعْلِيْهَـا
وَكَـانَ هَـوْدَجُهَــا يَسْعَى بِـهِ جَمَــلٌ   قَــدْ بَـاعَــهُ عَـرَنِيٌّ مِنْ حَــوَاشِيْهَـا
أُفٍّ لَــهُ جَـمَــلاً أُفٍّ لِسَـائِــقِــهِ   فَــإِنَّــهُ سَـائِقُ آلْأَرْزَاءِ مُفْشِيْـهَــا
يَـا لَيْتَنا مَـا عَرَفْنَـا ذٰلِكَ آلْجَمَـلَ آلْـــمَشْئُوْمَ فِيْ خَطَوَاتٍ رَاحَ خَـاطِيْهَـا
وَبَيْنَمَـا آلنَّـاسُ مَعْـهُ وَهْـوَ قَـائِـدُهَـا   تَسِيْـرُ فِي فَلَوَاتِ آلْأَرْضِ تَـطْوِيْهَــا
مَـرَّتْ عَلَىٰ عَيْنِ مَاءٍ وَآلْكِـلَابُ بِهَـا   نَبَّـاحَةٌ فَعَـوَى فِيْ آلْحَـالِ عَـاوِيْهَـا
وَصَاحَ صَائِحُهَا ذِيْ مَاءُ حَـوْأَبَ فَلْـــنَشْرَبْ وَهٰذِيْ ظَوَامِيْ آلْعِيْسِ نُسْقِيْهَا
وَمَـا دَوَتْ «حَوْأَبٌ» فِيْ اذْنِ عَـائِشَةٍ   حَتَّى أَعَـادَتْ إِلَيْهَـا ذِكْـرَ مَـاضِيْهَــا
عَادَتْ إِلَى عَهْدِهَـا فِيْ طِيْبَةٍ بِحِمَى   طَــهَ وَجِـيْــرَتُــهُ آلْغَــرَّاءُ تُـؤْوِيْهَــا

= من البصريين فكاثروا أصحاب عثمـان بن حنيف وتغلبوا عليهم ودخلوا البصـرة عنوة في حديث يطول وكان قد لجأ عثمان بن حنيف إلى بيته فأرسلوا بطلبه فاقتحموا بيته وضربوه وأهانوه ونتفـوا لحيته وشـاربيه وحـاجبيه وأشفـار عينيه وامتنعـوا عن قتله إكرامـاً لصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل ذلك جرى بأمر عائشة وجعل أصحاب الجمل على بيت المـال في البصـرة عبد الـرحمن بن أبي بكـر . علـى أنّ البصـريين لم يـرضخـوا لتغلب أصحـاب الجمل عليهم فنهضوا إليهم وحـاربوهم بمـوقعة كبـرى قتل فيهـا خلق كثير وكـانت هذه المـوقعة لخمس ليـالٍ بقين من شهر ربيـع الآخـر سنـة ٣٦ للهجـرة وانجلت عن تغلب أصحـاب الجمل فهـرب من ظلّوا على ولاء سيدنـا علي عليه السلام يقصدونـه وبـايـع طلحـة والزبير وعـائشة المستضعفـون وبعد أن تمَّ فـوز أصحاب الجمـل على البصريين أرسلوا يبشرون به معـاوية في الشـام وأصحابهم في المـدينة المنـوَّرة وأرسلت عائشـة إلى أبي مـوسى الأشعري أميـر الكوفـة تطلب منـه الانضمام إليهـا وتهيئة الـرجال لنجـدتها على محـاربة سيـدنا عليّ والـطلب بدم عثمـان فما أجـابها وأقـرَّ على التزام الحيـاد في هذه الفتنة .

وَقَـوْلَـةٌ نَسِيْتَهَـا كَـانَ قَـائِلَهَـا   لَهَـا فقَالَتْ: نَعَمْ ذَكَّـرْتُمُـوْنِيْهَـا

فَـإِنَّـهُ كَـانَ يَـوْمَـاً بَيْنَ نِسْـوَتِـهِ   عَـطْفَاً يُؤَانِسُهَـا صَفْـوَاً يُفَـاهِيْهَا

وَإِذْ بِـهِ قَـالَ مَنْ مِنْكُنَّ تَـنْبَحُـهُ   كِلَابُ حَوْأَبَ فِيْ ضَافِيْ مَجَارِيْهَا

فَـآسْتَغْرَبَتْ قَـوْلَةَ آلْهَـادِيْ نِسَاهُ وَلَمْ   تَـدْرِيْ آلَّتِي بَيْنَهُنَّ كَـانَ يُعْنِـيْهَـا

ثُمَّ رَنَـا آلْمُصْطَفَى عَـطْفَاً لِعَـائِشَـةٍ   وَقَـالَ: إِيَّـاكِ مِنْهَـا أَنْ تَكُـوْنِيْهَـا

تَذَكَّرَتْ وَهْيَ فِيْ وَسْطِ آلنَّبِيْحِ مَقَا   لَ آلْمُصْطَفَى فَبَكَتْ وَآلذِّكْرَ مُشْجِيْهَا

وَآسْتَرْجَعَتْ حَزَنَـاً كَانَتْ تَقُـوْلُ: أَنَا   لُـهَيَّـةُ وَآنْثَنَتْ تَشْكُـوْ تَلَهِّـيْـهَـا

وَأَسْرَعَتْ فَـأَنَـاخَتْ وَهْيَ غَـاضِبَـةٌ   بَعِيْـرَهَـا وَآلْبُكَـا يَمْـلَا مَـآقِيْهَـا

وَأَعْـلَنَـتْ أَنَّـهَـا لَا بُـدَّ رَاجِعَـةٌ   عَنْ رَكْبِهَا فَهْيَ تَـأْبَى أَنْ تُمَـاشِيْهَا

رَاحَتْ تَقُوْلُ: أَنَا تَـآللَّهِ صَاحِبَـةُ آلْـ   ـمَاءِ آلَّتِيْ كَانَ خَيْـرُ آلْخَلْقِ يَبْغِيْهَا

رُدُّوْا بَعِيْـرِيْ وَرُدُّوْنِـيْ عَلَيْـهِ إِلَـى   خِـدْرِيْ فَنَفْسِيَ مَا قَـدْ كَانَ يَكْفِيْهَـا

وَآلْتَفَّ أَصْحَـابُهَا مِنْ حَـوْلِهَـا وَلَقَـدْ   هَـابُـوْا تَـرَدُّدَهَـا رَامُـوْا تَـرَضِّيْهَـا

وَعَـالَجُـوْا أَنْ تُؤَاتِيْهُمْ بِـزُخْـرُفِ مَـا   قَـالُـوْا وَظَلَّتْ عَلَى جَـافِيْ تَـأَبِّيْهَـا

فَلَمْ يَكُنْ غَيْـرُ أَنْ قَـالُـوْا آلْعَلِيُّ أَتَى   بِخَيْلِهِ مَـا عَنِ آلتَّنْكِيْبِ يُثْنِيْـهَـا

خَـافَتْ عَلِيَّـاً وَوَاتَتْهُمْ بِمَـا طَلَبُـوْا   وَآسْتَـأْنَفَتْ مَعَهُمْ كُـرْهَـاً تَخَطِّيْهَـا

حَتَّى إِذَا بَلَغَ آلـرُّكْبَـانُ بَصْـرَةَ أَلْـ   ـقَوْا آلذُّعْرَ فِيْ أَهْلِهَا كَـانُوْا مُثِيْـرِيْهَا

وَبَعْـدَ أَنْ فَتَنُـوْا آلأَهْلِيْـنَ وَآقْتَـتَلُوْا   مَعْهُمْ قَـدِ آسْتَلَمُـوْا شَتَّى مَـلَاجِيْهَـا

دَرَى آلإِمَـامُ بِذَا فَـآخْتَـارَ طَلْبَـةَ مَنْ   حَلُّوْا آلْعِرَاقَ وَأَثْوَوْا فِيْ ضَـوَاحِيْهَـا

وَأَرْجَـأَ آلشَّـامَ حَتَّى يَسْـتَتِبَّ لَـهُ   أَمْـرُ آلْعِـرَاقِ وَمِنْ ثَـمَّ يُـوَافِيْـهَـا

مسير أمير المؤمنين إلى البصرة

سَهْلٌ عَلى ٱلنَّاسِ أَنْ تُبْدِيْ مَلامَتَها عَلى ٱلْفِعَالِ ٱلَّتِيْ ٱلْحُكَّامُ تُجْرِيْهَا[1]
وَتُصْـدِرَ ٱلْحُكْمَ فِيْ تَسْفِيْهِهَـا وَحَـرِ م يٌّ أَنْ نَخُصَّ بِـذَاكَ ٱلْحُكْمِ تَسْفِيْهَا
فَكَمْ جَهُـوْلٍ رَأَى سَيْرَ ٱلْإِمَـامِ إِلَى صَحَـابَةِ ٱلْجَمَـلِ ٱلْمَلْعُوْنِ يُـرْزِيْهَـا

(١) عندما سمع سيدنا أمير المؤمنين نبأ أصحاب الجمل وقصدهم البصرة صحت عـزيمته على اللحـوق بهم ومقاتلتهم قبـل المسير إلى الشـام ومقاتلتهـم لأنّ مـا خـطر لمعاوية بدهائه لم يفت حكمة سيدنا أميـر المؤمنين وسداد رأيـه وهو أنّ القـوم في الشام قـد حملهم معاويـة على العصيـان وكـان من أمـرهم مـا كـان العجلة في حـرب الشـام كالمتمهل ما وراء ذلك من ضرر وأمّا القـوم في العراق فـإنّهم ما زالوا على الطاعـة وأنَّ عائشة وطلحة والزبير وبقية العصابة ما قصدوا بـلادهم إلاّ يستميلوهم إلى رأيهم ويشدوا أزرهم بهم فـالمصلحة تقضي بـالحيلولة بينهم وبين مـا يطلبـون وهي لعمر الحقّ نـظرةٌ صادقةٌ من سياسيٍّ حكيمٍ يعرف من أين تؤكل الكتف . وكان يريد سيدنا أمير المؤمنين أن يظفر بـأصحاب الجمـل وهم في الطريق فيقـاتلهم قبل أن يـدخلوا البصرة ويعيـدهم أدراجهم خائبين فلم يتوفق إلى ذلك لاختلاف الناس حوله في أمر غزوته فمنهم من كان يقول له : دع القوم وما يصنعون فإن أطـاعوك سـرت بهم على نهج الشـريعة السمحـاء وإن عصوك كان لك عذرٌ عند ربّك بإهمالك شأنهم . ومنهم من كان يشير عليه أن يبقى في المـدينة المنـوَّرة ويرسـل سريّـةً وراء أصحاب الجمـل تحاربهم . ومنهم من كـانوا يقولون له الأمر أمرك ونحن طوع رضاك . أمّا سيـدنا أميـر المؤمنين عليه السلام فما أعجبـه إلاّ المسير وراء أصحاب الجمـل ضاربـاً بكـل رأيٍ يخـالف رأيـه هـذا عـرض الحـائط . والـظاهر أنَّـه كان قـد سئم تفرقـة الكلمة ، واضـطراب حبل الأمّـة ، وتضارب الآراء ، واختلاط المنافقين بـالأوفياء ، فقـال : « والله لا أكون كـالضبع تنـام على طول اللدم ، حتى يصل إليها طالبها ، ويختلها راصدها ، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق ، المدبر عنه ، وبالسامع المطيع ، العـاصي المريب ، أبـداً . حتى يأتي عليَّ يـومي ، فوالله مـا زلت مـدفوعـاً عن حقي ، مستأثـراً عليَّ ، منذ قبض الله نبيّـه صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يوم النـاس هذا »اهـ لا جرم أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد أصاب ، لباب الصواب ، وقال مـا فيه فصل الخطاب ، فحسبه التغلب عليه ، والتلاعب بحقوقه ، وكفاه يرضى بما يـرضى به =

= الناس وهم متعنتون ، فأمّا أن يعيدهم إلى الحقّ ، أو يدعهم والباطل .

وعلى ذكر الضبع التي قال سيدنا عليّ أنّه لا يكون مثلها مخدوعاً نقول : إنّ العرب تضرب بها المثل في الحمق فتقول : « أحمق من الضبع » وزعموا أنّ صائد الضبع يدخل عليها وجارها وهو يقول : أطرقي أم طريق ، خامري أمَّ عامر ، ويكرّر ذلك عليها فتلجأ إلى أقصى مغارها فتنقبض فيقول الصائد : أمّ عامر ليست في وجارها ، أم عامر نائمة ، ولا يزال يكرر ذلك على سبيل اللدم وهو ما يقال للأطفال حتى يناموا إلى أن تطمئن فتمدّ يديها ورجليها وتستلقي ، فيدخل عليها ويوثقها وهو يقول لها : أبشري أمَّ عامر ، بشاء هزلي ، وجواد عظلي ، يقول هذا وهو يشدّ عراقيبها وهي صابرة صامتة ولو شاءت لقتلته .

وبعد أن أعدَّ سيدنا علي عليه السلام عدّته للخروج إلى البصرة صلّى في الناس في المسجد النبويّ وعلا المنبر فأفصح عن سرّ رحلته فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس ، انَّ عائشة سارت إلى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌ منهما يرى الأمر له دون صاحبه ، أمّا طلحة فابن عمّها ، وأمّا الزبير فختنها ، وأنّهم لو ظفروا بما أرادوا ، ولن بنالوا ذلك أبداً ، ليضربنَّ أحدهما عنق صاحبه ، بعد تنازعٍ شديد ، والله أنَّ راكبة الجمل الأحمر ، ما تقطع عقبة ، ولا تحلُّ عقدةً ، إلاَّ في معصيَة الله وسخطه ، حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، أي والله ، ليقتلنَّ ثلثهم ، وليهربنَّ ثلثهم ، وليتوبنَّ ثلثهم ، وأنّها التي تنبحها كلاب الحوأب ، وأنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان ، وربَّ عالمٍ قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قامت الفتنة ، فيها الفئة الباقية ، أين المحتسبون ؟ ، أين المؤمنون ؟ ، ما لي ولقريش ، أمّا والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلاَّ أنَّا قد أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرنَّ الباطل حتى يظهر الحقُّ من خاصرته ، فقل لقريش : فلتضجّ ضجيجها » اهـ فهلّل الناس وكبّروا لخطابه وهم متحفزون للمسير تحت رايته المنصورة .

وكان خروج المرتضى عليه السلام إلى البصرة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة خرج ومعه أولاده الحسن والحسين ومحمد (ابن الحنفية) ومن والاه من المهاجرين والأنصار وأتقياء المسلمين وبلغ عدد ركبه نحو التسعمائة . =

وَلَـوْ تَـدَبَّـرَتِ ٱللُّوَّامُ خَـافِيَـةَ ٱلأَ م مْـرِ ٱلَّتِيْ ٱلْمُرْتَضَى قَـدْ كَانَ دارِيْهَـا

لاَسْتَصْوَبَتْ عَزْمَةً كَانَتْ سَـلاَمَةُ أَطْـــرَافِ ٱلْعِـرَاقَيْنِ فِيْهَـا مِنْ عَيُـوْثِيْهَـا

عَـزِيْمَـةٌ مَـا لَهَـا إِلاَّ أَبُـوْ حَسَنٍ عِنْـدَ ٱلشَّـدَائِـدِ وَٱلْأَخْـطَارِ يُمْضِيْهَـا

نَادَى بِغَيْرِ وَنًى فِيْ ٱلنَّاسِ فَٱجْتَمَعَتْ حَـوْلَيْـهِ رَاكِبُهَـا ٱلْغَـازِيْ وَمَـاشِيْهَـا

وَمَـا تَوَانَى سِـوَى أَهْلِ ٱلنِّفَـاقِ فَلَمْ تَحْفَـلْ بِـدَعْـوَةِ حَقٍّ رَاحَ دَاعِيْهَـا

وَقَالَ بَعْضُهُمُ: دَعْ حَرْبَ طَلْحَةَ وَٱلـــزُّبَيْـرِ وَٱلـرَّأْيُ عِنْـدِيْ فِيْ تَـلاَفِيْهَـا

فَقَالَ: وَٱللَّهِ لاَ احْكِيْ ٱلْضِبَاعَ بِـإِهْــمَالِ ٱلْمَكَائِدِ مَعْ مَغْـرَى مُكِيْدِيْهَـا

إِنَّ ٱلْضِبَاعَ عَلَى ٱللَّدْمِ ٱلطَّوِيْـلِ تَنَا م مُ شَـرَّ نَـوْمَتِهَـا وَٱللَّدْمُ هَـادِيْهَـا

حَتَّى تَـرَى رَاصِـدِيْهَـا تَمَّ خَتْلُهُمُ لَهَـا وَقَـدْ أَسَـرُوْهَـا فِيْ مَخَـابِيْهَـا

لٰكِنَّنِيْ أَضْرِبُ ٱلْمُسْتَدْبِـرِيْنَ عَنِ ٱلْـــحَقِّ ٱلَّـذِينَ أَذَاعُوْا ٱلْبُـطْلَ تَمْوِيْهَـا

بِـٱلْمُقْبِلِيْنَ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلَّـذِيْنَ بِهِمْ أَلْقَى أَعَـادِيْـهِ مَنْصُـوْراً وَأُفْنِيْـهَـا

وَبِٱلسَّمِيْعِ ٱلْمُطِيْعِ ٱلْمُهْتَدِيْ بِهُدَى مُـحَمَّـدٍ إِنَّـنِيْ أَلْـقَى مُـرِيْـبِيْـهَـا

= وكانت وفود العرب تفد عليه مقدمة الطاعة وتطلب الانضمام إليه والسير معه فيحمد لها طاعتها وإخلاصها ويعيدها أدراجها وذلك لأنه عليه السلام لم يكن خارجاً للغزو والفتح ولكن لتأديب طائفة من المسلمين عصت عليه وردّها إلى الطاعة فرأى بنظره البعيد ورأيه السديد أنّه لو صحب العربان في خروجه لما أمن استفحال الخطب ولتعذر عليه حفظ النظام بين أصحابه وعدم الاختلاف في المهمة التي هو خارج إليها وهي إعادة السلام إلى المسلمين واستئصال الفتنة وتأديب مثيريها .

وكان عليه السلام يتلقى في طريقه أبناء الممالك الإسلامية عاصيها وطائعها حتى إذا ما بلغ الربذة علم بأنَّ أصحاب الجمل دخلوا البصرة محاربين بعد أن قاتلهم البصريون فأقام في الربذة أياماً موجهاً بصره نحو الكوفة لعلمه أنَّ أهلها من أخلص المخلصين لخلافته .

حَتَّى آلْمَنَـــايَا تُـلاَقِيْنِي بِبَسْمَتِهَـا يَـوْمَـاً كَمَـا بِـآبْتِسَـامَـاتِيْ أُلاَقِيْهَـا

حَسْبِـيْ فَـوَآللَّهِ أَنِّـيْ لَمْ أَزَلْ أَتَشَـــكَّى مِنْ ضِيَاعِ حُقُوْقِيْ أَوْ مُضِيْعِيْهَا

مِنْ يَوْمِ قَدْ قَبَضَ آللَّهُ آلرَّسُوْلَ إِلَى يَوْمِ آلْعُصَاةِ آلَّتِيْ أَصْبَحْتُ غَـازِيْهَا

وَعِنْـدَ مَـا آنَ مِيْقَـاتُ آلْمَسِيْـرِ دَعَـا أَبُـوْ آلْحُسَيْنِ آلرَّعَـايَا كَيْ يُفَـاهِيْهَـا

مُـوَدِّعَـاً مُفْصِحَـاً عَنْ سِرِّ رَحْلَتِـهِ مُجَلِّيَـاً كُـلَّ لَبْثٍ قَـدْ يُـغَشِّيْهَـا

فَقَـالَ: عَـائِشَــةُ سَـارَتْ بِعُصْبَتِهَـا إِلَى آلْعِـرَاقِ لِتَسْتَغْـوِيْ أَهَـالِيْهَـا

وَطَلْحَـةُ سَـارَ مَعْهَـا وَآلـزُّبَيْـرُ وَكُـــلٌّ مِنْهُمَـا أُمْرَةُ آلْإِسْلاَمِ شَـاهِيْهَـا

صِهْـرٌ لَهَـا ذَا وَذَا أَدْنَى عُمُـوْمَتِهَـا قُـرْبَى فَسَـارَا بِهَـا لِلْحَرْبِ تُلْظِيْهَـا

وَآللَّهِ لَـوْ ظَفَـرُوْا يَـوْمَـاً بِـطَلْبَتِهِمْ وَآلْمُسْتَحِيْـلُ لَأَدْنَى مِـنْ تَلَقِّيْهَـا

لَآسْتَحْكَمَتْ فِتْنَـةٌ شَعْـوَاءُ بَـيْنَـهُمُ فِيْ آلْحَـالِ نِيْـرَانُهَـا تُعْيِيْ مُـطَفِّيْهَـا

فِيْهَـا آلزُّبَيْـرَانِ كُـلٌّ جِيْدَ صَاحِبِهِ يَفْـرِيْ بِضَـرْبَـةِ سَيْفٍ لَا يُثَنِّيْهَـا

وَآللَّهِ إِنَّ آلَّتِيْ سَارَتْ عَلَى آلْجَمَلِ آلْــمَشْئُوْمِ وَهْوَ بِهَـا آلآرَاضُ يَطْوِيْهَـا

فَـلاَ تَحُلُّ وَقَـدْ سَـارَتْ وَتَقْـطَعُ عِقْـــدَةً وَشَـوْطَـاً بِـلاَ إِسْخَـاطِ بَـارِيْهَـا

حَتَّى تَـرَاهَـا بِمَنْ مَعْهَـا لَقَـدْ وَرَدَتْ مَـوَارِدَ آلْهُلْكِ تَهْـوِيْ فِيْ مَهَـاوِيْهَـا

وَصَحْبُهَـا سَـوْفَ يَفْنَى ثُلْثُهَـا وَيَفِـــرُّ آلثُّلْثُ عَنْهَا وَيَرْجُـوْ آلْعَفْوَ بَـاقِيْهَا

وَهْيَ آلَّتِيْ فِيْ تَجَـرِّيْهَـا لَتَنْبَحُهَـا كِـلاَبُ حَـوْأَبَ إِنْـذَاراً وَتَنْبِـيْهَـا

كَـذَا آلـزُّبَيْـرَانِ قَـدْ جَـاءَا بِعِلْمِهِمَـا خَـطِيْئَـةً لَيْسَ مِنْ غَفْـرٍ لِجَانِيْهَـا

وَرُبَّ صَـاحِبِ عِلْمٍ فِيْ جَهَـالَتِـهِ قَضَى وَمَـا عِلْمُـهُ عَنْـهُ مُجَلِّيْـهَـا

وَحَسْبُنَــا آللَّهُ هٰـذِيْ فِتْنَـةٌ سُعِـرَتْ لٰـكِنْ لَـنَـا فِئَـةٌ مَبْـرُوْرَةٌ فِـيْـهَـا

فَـأَيْنَ يَا نَـاسُ جَمْـعُ آلْمُؤْمِنِيْنَ وَأَهْـــلُ آلْإِحْتِسَـابِ فَإِنِّي آلْيَـوْمَ دَاعِيْهَـا

مَالِيْ وَمَا لِقُرَيْشٍ كُنْتُ قَاتِلَهَا فِيْ ٱلْأَمْسِ كَافِرَةً مَا كُنْتُ مُبْقِيْهَا

وَٱلْيَوْمَ أَقْتُلُهَا عَدْلاً وَقَدْ فُتِنَتْ أَوْ إِنْ تَتُوْبَ وَتَنْأَى عَنْ مَسَاوِيْهَا

وَعِنْدَ بِنْتِ أَبِيْ بَكْرٍ خَطِيْئَتُنَا دُخُوْلُهَا بَيْنَنَا مَا إِنْ تُمَحِّيْهَا

لَأَبْقِرَنَّ وَأَيْمُ ٱللَّهِ بَاطِلَهَا حَتَّى ٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ أَحْشَاهُ أُبْدِيْهَا

فَقُلْ غَدَاً لِقُرَيْشٍ فَلْيَضِجَّ ضَجِيْـ ـجُهَا وَإِنِّيْ كَمَا تَهْوَى مُلَاقِيْهَا

كَذَاكَ جَيْشُ ٱلْوَصِيِّ ٱلْمُرْتَضَى قَصَدَ ٱلْـ ـعِرَاقَ كَيْمَا مِنَ ٱلْإِفْسَادِ يُنْجِيْهَا

تَقَدَّمَ ٱلنَّاسَ غَازِيْ ٱلْكَافِرِيْنَ إِمَا مُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِحَوْلِ ٱللَّهِ يُخْطِيْهَا

وَحَوْلَهُ حَسَنَاهُ مَعْ مُحَمَّدِهِ كَوَاكِبٌ نُوْرُهُ ٱلْوَهَّاجُ يُسْنِيْهَا

وَفِيْ ٱلطَّرِيْقِ تَلَقَّى عَنْ رَعِيَّتِهِ أَنْبَاءَ عَادِلِهَا ٱلتَّاقِيْ وَبَاغِيْهَا

وَعَنْ مَمَالِكِهِ أَنْبَاءَ خَاضِعِهَا إِلَى خِلَافَتِهِ ٱلْكُبْرَى وَعَاصِيْهَا

كَانَتْ بِهَا ٱلرُّسْلُ تَأْتِيْهِ مُتَابِعَةً فِيْ كُلِّ مَرْحَلَةٍ بِٱلْيُمْنِ يَطْوِيْهَا

وَقَابَلَتْهُ وُفُوْدُ ٱلْعُرْبِ طَالِبَةً مِنْهُ إِلَى حَيْثُ يَبْغِيْ أَنْ يُمَاشِيْهَا

وَلَوْ يَشَا سَاقَ مِنْهَا تَحْتَ أُمْرَتِهِ ٱلْـ ـصُّفُوْفَ يَمْلَا بِهَا تِلْكَ ٱلْأَتَاوِيْهَا

لٰكِنْ أَبَى وَهْوَ خَاشٍ مِنْ تَنَافُرِهَا أَنْ يَسْتَعِيْنَ بِبَادِيْهَا وَقَارِيْهَا

فَكَانَ يُرْجِعُهَا عَنْهُ وَيُثْنِيْ عَلَى إِطَاعَةٍ لِوَلِيِّ ٱلْأَمْرِ تُسْدِيْهَا

وَمَعْهُ أَصْحَابُهُ كَانَتْ كِفَايَتُهُ وَكَانَ فِيْ نَفْسِهِ ٱلْكُبْرَى يُوَازِيْهَا

وَهَلْ أَبُوْ حَسَنٍ فِيْ ٱلْحَرْبِ يَنْتَظِرُ ٱلْأَ صْحَابَ فِيْ ٱلنَّصْرِ إِنْ ثَارَتْ لَوَاظِيْهَا

وَهَلْ إِذَا ٱشْتَبَكَتْ فِيْهَا ٱلرِّجَالُ وَحَـ ـقَّ ٱلْقَتْلُ وَٱلضَّرْبُ إِلَّاهُ مُجَلِّيْهَا

وَلَمْ يَزَلْ ضَارِبَاً فِيْ ٱلْبِيْدِ يَقْطَعُهَا وَخَيْلُهُ يَمْلَأُ ٱلآفَاقَ مَهْبِيْهَا

حَتَّى بِالَى ٱلرَّبْذَةِ ٱلرَّكْبُ ٱنْتَهَتْ فَثَوَتْ فِيْ ظِلِّ حَيْدَرَةِ ٱلْغَازِيْ ضَوَاحِيْهَا

وَلَمْ تَـكُ ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّا لَتَبْعُـدُ عَنْـــهَـا غَيْـرَ بِضْعَـةِ أَمْيَـالٍ لِمَـاشِيْهَـا

مدد الكوفيين لأمير المؤمنين

لَمَّـا ٱسْتَقَـرَّ إِمَـامُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِـرَبْـــذَةٍ وَأَنْصَـارُهُ قَـدْ خَيَّمَتْ فِيْهَـا[١]

رَأَى بَـدَاءَةَ ذِيْ بَـدْءٍ مُخَـاطَبَـةَ ٱلْأَ م صْحَابِ فِيْ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْـرَا بِنَادِيْهَا

أَوْفَى لَهَـا رُسْلَهُ كَيْمَـا تُخَبِّـرُهَـا عَنْ حُسْنِ رَغْبَتِـهِ حَتَّى تُمَـالِيْهَـا

(١) عندما نزل سيدنا علي عليه السلام في الربذة وبلغه ما فعل أصحاب الجمل في البصرة من اعتدائهم على الناس ودخولهم البلد محاربين رأى بداءَة ذي بدءٍ أن يستنفر إليه أهل الكوفة وهم مخلصون له مطيعون خلافته مبايعون فكتب إليهم الكتاب التالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار ، وسنام العرب ، أمّا بعد ، فإنّي أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه ، انَّ الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلًا من المهاجرين أكثر استعتابه ، وأقلُّ عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة عتب ، أتيح له قوم قتلوه ، وبايعني الناس غير مكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين ، واعلموا أنَّ دار الهجرة قلعت بأهلها وقلعوا بها ، وجاشت جيش المرجل ، وقامت الفتنة على القطب ، فحسبي بكم إخواناً ، وللدين أنصاراً ، فانفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله لعلّكم تفلحون » اهـ وكتب عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري » وكان قد تولى إمارة الكوفة في آخر أيام عثمان بطلب الكوفيين وأقرّه سيدنا علي على أمارتها لقول الأشتر له إنّ الناس فيها تريده » الكتاب التالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، أمّا بعد فقد بعثت إليك هاشم بن عتبة ، لتشخص إليَّ من قبلك من المسلمين ، ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم ، فأشخص بالناس إليَّ معه حين يقدم عليك ، فإنّي لم أوّلك المصر الذي أنت فيه ، ولم أقرّك عليه ، إلّا لتكون من أعواني على الحقّ وأنصاري على هذا الأمر والسلام » اهـ .

نقول أرسل سيدنا علي عليه السلام هذين الكتابين إلى أبي موسى الأشعري وأهل الكوفة مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو لا يشكُّ أنَّ أبا موسى سينهض إلى تلبيته بالطاعة الواجبة له عليه السلام كخليفة المسلمين وكربيب المصطفى وابن عمّه وصهره أمّا أبو =

كَـذَاكَ أَوْفَـى بِـلاَ بِطْءٍ أَوَامِـرَهُ   إِلَى آبْنِ قَيْسٍ أَبِيْ مُـوْسَى لِيُمْضِيْهَا

=موسى فلم يكن عند ظنّ سيدنا علي فحبس الكتاب الذي كتبه للكوفيين وأخشن الجواب لهاشم قائلاً : إذا كان يريد عليٌّ الصلح فأنا معه وإذا كان يريد الحرب فأنا مخالفه وأنَّ بيعة عثمان هي في عنق علي وعنقي فلنبدأ أولاً بقتلة عثمان ثمَّ ننظر في غيره وإذ ألحف عليه تهدده بالسجن والقتل وهكذا أظهر أبو موسى ابتعاده عن نصرة الإمام ورغبته بمشاكسته فكتب هاشمٍ إلى سيدنا أمير المؤمنين يقول : « إنّي قدمت بكتابك على امرىءٍ مشاقّ ، بعيد الردّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهددني بالسجن ، وخوفني بالقتل » فلما انتهى جواب هاشم إلى سيدنا علي لام الأشتر الذي كان قد أشار عليه بالإبقاء على أبي موسى أميراً للكوفة وبعث إلى الكوفة ابنه الحسن عليه السلام ومعه عمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة وأمرهم أن يعزلوا أبا موسى عن أمارة الكوفة وصحبهم إلى الكوفيين بالكتاب التاليَ « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى من بالكوفة من المسلمين ، أمّا بعد فإنّي خرجت مخرجي هذا ، إمّا ظالماً وإمّا مظلوماً ، وإمّا باغياً وإمّا مبغياً عليَّ ، فانشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلاّ نفر إليَّ ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً استعتبني ، والسلام » اهـ .

ولما بلغ سيدنا الحسن عليه السلام بأصحابه الكوفة دعوا الناس إلى المسجد فحضروا وفيهم أبو موسى الأشعري أميرهم فعلا المنبر سيدنا الحسن خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس إنّا جئناكم ندعوكم إلى الله ، وإلى كتابه وسنّة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقصد به السابقة ، إلى من قربه الله ورسوله قرابتين ، قرابة الدين ، وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى من أعان الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون ، وصلّى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم ترد له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعمّاله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » وبعد هذا الخطاب تلا عليهم كتاب سيدنا علي عليه السلام فكان للكتاب والخطاب تأثيرهما في نفوس =

وَكَــانَ مِنْ عَهْـدِ عُثْمَــانٍ أَوَاخِــرِهِ   كَمَــا أَبُــوْ حَسَـنٍ أَبْقَــاهُ وَالِـيْهَــا

= الناس مما لم يخف على أبي موسى فعلا المنبر خطيباً فقال : « الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ، فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة ، وحرَّم علينا دماءَنا وأموالنا ، قال الله سبحانه : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها** ﴾ فاتّقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم ، أمّا بعد يا أهل الكوفة ، إن تطيعوا الله بادئاً وتطيعوني ثانياً ، تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوي إليكم المضطرّ ، ويأمن فيكم الخائف ، إنّ علياً إنّما يستنفركم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن ، إنّها إذا أقبلت شبهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنّي أخاف عليكم أن يلتقي غاران منكم فيقتتلا ، ثمَّ يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوة من الأرض ، ثمَّ يبقى رجرجة من الناس ، لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، إنّها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى ، تترك الحليم حيراناً ، كأنّي أسمع رسول الله يذكر الفتن فيقول : أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خيرٌ منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً ، فثلّموا سيوفكم ، وقصّفوا رماحكم ، وانصلوا سهامكم ، وقطّعوا أوتاركم ، وخلوا قريشاً ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت ، سمها في أديمها ، استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ، يتبين لكم رشدكم ، وتصلى هذه الفتنة من جناها » اهـ .

قال الراوي : كان أبو موسى يخطب في الناس وهم ينظرون إليه شزراً ولولا الذي رأوه من رصانة وسعة صدر سيدنا الحسن وعمّار بن ياسر لمزقوه إرباً لأنّهم لم يكونوا يوماً راضين عن عمّال عثمان وقد عرفت كيف أكرهوه على عزل عامله عليهم سعيد بن العاص كما رأيت ثوارهم في المدينة يشتركون بالثورة ضد عثمان مع المصريين والبصريين . وما كاد ينتهي من خطابه حتى ابتدره سيدنا الحسن بآدابه العالية الخليقة بمن يكون جدّه المصطفى وأباه المرتضى وأمّه فاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وقال لأبي موسى « علامَ يا عمّ تثبط الناس عنّا فوالله لا نريد إلّا الإصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف منه على شيء » قال أبو موسى صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن وإنّي أوردت ما سمعته عن المصطفى ﷺ عن الفتنة . فغضب عمّار وقال أيّها =

= الناس إنّما قال رسول الله ذلك لأبي موسى خاصةً . فاعترضه رجل من تميم وتقدم أناس فانتصروا لعمّار وطفق أبو موسى يكفّ الناس عن الفتنة وبينما هم لكذلك وإذا برسول يحمل كتابين من عائشة أحدهما لأبي موسى خاصةً والثاني لأهل الكوفة فقرأهما على الناس فإذا بهما تطلب من الكوفيين وأميرهم أن يقعدوا عن نصرة علي إذا لم يرغبوا بالنهوض معها لمطالبته بدم عثمان فقال زيد بن صوحان وكان من أصحاب عليٍ : انظروا أيّها الناس إلى هذه المرأة أمرت أن تقرَّ في بيتها وأمرنا نحن أن نقاتل حتى لا تكون فتنة فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به . فاعترضه رجل يدعى شيث بن ربعي قائلاً : وما أنت وذاك أيّها العماني الأحمق سرقت أمس بجلولاء فقطعك الله وتسب أمّ المؤمنين ؟ فمد زيد يده المقطوعة إلى أبي موسى وقال : أترد الفرات عن أمواجه دع عنك ما لست تدركه ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا** ﴾ ثمَّ أمال وجهه إلى الناس وقال : سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين وانفروا أجمعين . وتلا زيداً سيدنا الحسن عليه السلام فصاح : أيّها الناس ، أجيبوا دعوة إمامكم ، وسيروا إلى اخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لئن يليه أولو النهي ، أمثل في الآجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا ، وأعينونا على أمرنا ، أحلمكم الله » وما كاد سيدنا الحسن ينتهي من دعوته حتى نهض عبد خير فقال : يا أبا موسى أخبرني عن هذين الرجلين (ويريد طلحة والزبير) ألم يبايعا عليّاً ؟ قال : بلى قال : أفأحدث عليّ حدثاً يحلُّ به نقض بيعته ؟ قال أبو موسى لا أدري . قال : لا دريت ولا أتيت إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري . ثمَّ مال إلى الناس وقال : هلمّوا إلى أمير المؤمنين فهناك الناس يطلبون نصرة الحق على الباطل وهكذا كان الإجماع ضد أبي موسى فنزل عن المنبر وخفَّ إلى بيته مخذولاً .

وأرسل سيدنا الحسن رسولاً إلى سيدنا علي على المصطفى وعليهما الصلاة والسلام ينبئه عمّا كان من أبي موسى فنادى الأشتر وكان بصحبته وقال له : أنت شفعت في أبي موسى أن أقرّه على الكوفة فاذهب فأصلح ما أفسدت فأسرع الأشتر إلى الكوفة ووصلها بأسرع ما يمكن وجعل يمرّ بالناس ويقول اتبعوني إلى القصر فيتبعونه حتى إذا ما انتهى إلى قصر الأمارة دخل على أبي موسى وقال له : اخرج من قصرنا لا أمّ لك اخرج الله نفسك فوالله إنّك لمن المنافقين قديماً . فاصفرَّ وجه أبي موسى وسأله أن يمهله عشية ذلك اليوم فأمهله على أن لا يبيت بعدها في قصر الأمارة . وحاول =

وَقَالَ: بَيْعَةُ عُثْمَانٍ لَفِيْ عُنقِ آلْـــعَلِيِّ مَا بَالُهُ قَدْ رَاحَ نَاسِيْهَا

وَإِنَّنِيْ لَسْتُ مِطْوَاعَاً لِرَغْبَتِهِ ... وَلاَ بِكُوْفَتِنَا نَاسٌ تُوَخِّيْهَا

لٰكِنْ إِذَا كَانَ يَبْغِيْ آلصُّلْحَ يَنْشُدُهُ ... فَآلنَّاسُ مَعْهُ وَإِنِّي فِي أَوَالِيْهَا

كَذَاكَ رَدَّ سُعَاةَ آلْمُرْتَضَى بِخُشُوْ ... نَةٍ فَعَادَتْ بِلاَ جَدْوَى لِمُوْفِيْهَا

فَأَوْفَدَ آلْمُرْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا حَسَنَاً ... بِسُلْطَةٍ مَا أَبُوْ مُوْسَى يُنَاوِيْهَا

فَسَارَ وَآسْتَنْفَرَ آلأَصْحَابَ مُعْتَمِدَاً ... عَلَى نُفُوْذِ أَبِيْهِ فِيْ تَجَمِّيْهَا

وَأَجْلَبَ آلرَّجْلَ مِنْ أَهْلِ آلْبَدَاوَةِ وَآلْـ ... ـقِرَى وَأَبْعَدَ مَنْ كَانُوْا مُعِيْقِيْهَا

وَعَنْ إِمَارَتِهَا نَحَّى آلأَمِيْرَ أَبَا ... مُوْسَى وَأَقْصَاهُ عَنْ سُكْنَى مَثَاوِيْهَا

وَكَانَ سُكَّانُهَا أَنْصَارَ بَيْعَةِ مَوْ ... لاَنَا أَبِيْ حَسَنِ آلسَّامِيْ مُرِيْدِيْهَا

سَارَتْ جُمُوْعَاً تُنَادِيْ بِآسْمِ حَيْدَرَةٍ ... عَلَى خُطَى حَسَنِ آلْقَدَّامِ مُخْطِيْهَا

وَقَبْلَمَا وَصَلَتْ أَنْبَا آلْوَصِيُّ بِمَا ... تَعُدُّ كَانَتْ كَمَا أَنْبَا لِمُحْصِيْهَا

وَقَابَلَتْهُ بِذِيْ قَارٍ وَكَانَ مَضَى ... بِصَحْبِهِ نَحْوَهَا أَثْوَوْا صَيَاصِيْهَا

فَآسْتَقْبَلَ آلْقَوْمَ بِآلتَّرْحَابِ حَيْدَرَةٌ ... وَرَاحَ يُطْرِيْ وَقَدْ لَبَّتْ تَدَاعِيْهَا

= الكوفيون أن يقتحموا القصر وينتهبوا ما فيه من متاع أبي موسى فمنعهم وقال إنّي قد أخرجته وعزلته عنكم وهذا حسبنا وحسبكم فكفَّ الناس عنه .

وفي اليوم التالي أعلن الأشتر دعوة الجهاد تحت راية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فسار بهم سيدنا الحسن وعمّار بن ياسر إلى « ذي قار » حيث كان يثوي جيش سيدنا علي وكان عليه السلام أنبأ أصحابه قائلاً : سيأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل فكان كما قال لهم وبلغ عدد الكوفيين الذين انجدوا الخليفة هذا العدد بتمامه كأنّه كان محصيهم وما هذه هي المرة الأولى التي أنبأت بها سيدنا علي عليه السلام بما سيكون وصدق .

فَقَالَ : أَهْلاً بِكُمْ أَبْنَاءَ كُوْفَةَ فِيْـــكُمْ نَصْرَةُ ٱلدِّيْنِ أَنَّى آضَ يَبْغِيْهَا

قَاتَلْتُمُ قَوْمَ كِسْرَى وَٱنْتَصَرْتُمُ فِيْ قِتَالِهَا وَغَنِمْتُمْ مَا بِأَيْدِيْهَا

مَنَعْتُمُ بِٱسْمِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ حَوْزَتَكُمْ أَعَنْتُمُ ٱلنَّاسَ فِيْ مَلْقَى أَعَادِيْهَا

وَقَدْ دَعَوْتُكُمُ دَعْوَى لِأُشْهِدَكُمْ مَعْنَا ٱلْأُلَى ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّاءُ تَأْوِيْهَا

فَإِنْ رَأَيْتُمُ مِنْهَا ٱلْإِنْصِيَاعَ فَذَا تَٱللَّهِ بُغْيَتُنَا ٱلْكُبْرَى نُرَجِّيْهَا

وَإِنْ تَلُجَّ فَبِٱلْحُسْنَى تُعَالِجُ أَمْـــرَاضاً شَكَتْ وَبَكَتْ مِنْهَا لِنُشْفِيْهَا

وَإِنْ هِيَ ٱبْتَدَأَتْ بِٱلظُّلْمِ نَدْفَعُهَا بِمِثْلِهِ وَإِذَا أَرْغَتْ نُرَاشِيْهَا

وَلَسْتُ أَتْرُكُ مَا فِيْهِ ٱلصَّلَاحُ وَلَا أَرْضَى ٱلْمَفَاسِدَ مَا رَاحُوْا مُعِيْثِيْهَا

بِذَا أَبُوْ حَسَنٍ عَنْ كُنْهِ رَحْلَتِهِ أَمَاطَ كُلَّ لِثَامٍ قَدْ يُغَشِّيْهَا

إِذَا بِهِ لَا يُرِيْدُ ٱلْإِعْتِدَاءَ عَلَىٰ ٱلْـــعَاصِيْنَ لٰكِنَّهُ وَافَى يُرَبِّيْهَا

مقابلة أمير المؤمنين لطلحة والزبير

وَجَدَّتِ ٱلصُّلَحَا فِيْ ٱلصُّلْحِ تُنْشِدُهُ لِلْمُسْلِمِيْنَ فَلَمْ تَنْجَحْ مَسَاعِيْهَا[1]

كَانَتْ تَرَى عِنْدَ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ سَمَاحَةً وَلَدَى أَعْدَائِهِ تِيْهَا

---

(١) لم يكن سيدنا علي عليه السلام في خروجه إلى البصرة يريد البطش والانتقام ولكن التأديب وإعادة النظام ولذلك كان يتأنى كثيراً في قتال أصحاب الجمل ويتمنى لو توفق إلى حلّ مشكلتهم من غير أن يلجأ إلى تحكيم السيف وكان كثيرون من رؤساء المسلمين والعلماء على مثل نيته الطاهرة فاجتهدوا في صرف المشكلة بإقناع عائشة بالعودة إلى خدرها وترك السياسة والحرب للرجال وإقناع طلحة والزبير بالرجوع عمّا أقدما عليه ولا سيما أنّ بيعة سيدنا علي في عنقيهما فلم يفلحوا ومن هؤلاء من أقبلوا بعشائرهم على سيدنا علي ينصرونه ومنهم من ضربوا في الفلوات الشاسعة ابتعاداً عن فتنة شجرت بين المسلمين وما استحلوها .

وإذ أعيت الحيل سيدنا علي عليه السلام ولم يبق في قوس اصطباره منزع سار أصحابه =

حَتَّى إِذَا يَئِسَتْ مِنْ مَنْـعِ أُمَّـةِ طَـــهَ مِنْ مَـوَاقِفِ شَـرٍّ كَـانَ آتِـيْهَـا

= من ذي قار يريـد البصرة وعلم أصحـاب الجمل بمقـدمه فخـرجوا إلى لقـائه وعسكـروا حيال البصرة ولم يبق إلّا أن يشتبك الجيشان ويحكم السيف في هذا الخلاف .

وأراد سيدنا علي عليه السلام بدافع حميته الدينية وغيرتـه الإسلاميـة أن يرمي آخـر سهم في كنـانته في سبيـل الصلح فركب جـواده وهو أعـزل من السلاح وانـطلق نحو معسكـر أصحاب الجمل أمّا أصحابه فدهشوا لمسيره نحو أعدائـه على هذه الحـال وهم يعلمون أن أقصى ما يتمنونه قتله وحاولوا أن يرجعوه عن رغبته فما استطاعوا لذلـك سبيلاً . أمّـا أصحاب الجمل فعندما رأوا علياً مقبلاً عليهم تهيبوه وفرقوا لمقدمه وهم لا يجهلون مبلغ شجـاعة أبي الحسنين عليه السلام حتى إذا مـا دنا منهم وصـار صوتـه مسموعـاً من معسكرهم نادى الزبير وطلحة أن يقبلا إليه فما امتنعا عن تلبيته وبادر وهما مدججان بالسـلاح على جواديهما حتى إذا ما دنوا منـه صاح بهم قـائلاً لقـد أعددتمـا للحرب عـدتها ولكن هـل أعددتما لها عذراً تعتَذران به عند الله ؟ وهل أتيت ذنباً أو أحدثت حدثاً أحـلَّ دمي ؟ أما قال الله في كتابه العزيز ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ فعلامَ تثيران هذه الفتنة ؟ فقـال طلحة بلا خشية ولا وجل إننا جئنا نطالبك بدم عثمان فنظر إليه سيدنا علي بن أبي طالب بعين العاتب هل أنت يا طلحة تطالب بدم عثمان وهو لا يعدوك قال بـل دم عثمان في عنقـك ما دمت تحمي قتلته فقال ويلك أأتيت بعرس رسول الله عدة حـرب وتركت عـرسك في بيتهـا ؟ أما بـايعتني يا طلحـة علناً !؟ فقـال طلحة قـد كان ذلـك والسيوف مشهـرة على عنقي . فعرف سيدنا علي من حديث طلحة أنّه لا يرعوي عن غيـه فتركـه وأرسل نـظرةً صادقة إلى الزبير وقال : إنّما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلّك نـاسيه . قـال قل لعلّي أذكـره . قال علي أتـذكر يـوم رآك رسول الله معتنقي فقـال لـك أتحبه ؟ قلت وما لي لا أحبّه وهو أخي وابن خالي ؟ فقال أما أنّك ستحاربه وأنت ظـالم له . فأطرق الزبير هنيهة كمن يفكر ثمَّ حوقل واسترجع وقال : أذكرتني يا أبـا الحسن ما أنسانيه الـدهر وقـد ندمت على مـا فعلت فوالله لا أحـارب قومـاً أنت تحميهم قال هـذا الزبير وثنى عنان جواده راجعاً إلى معسكر أصحاب الجمل وهو نادم تـائب وتبعه طلحـة وهو يحرق الأرم على سيدنا علي بعد الذي رأى من نـدم صاحبـه الزبيـر . ولما وصـلا إلى معسكر الجمل لقيهما زعماء القـوم يستخبران منهمـا خبر علي فقـال طلحة إنّـه فتن صاحبكم وقال الزبير على البداهة : =

لَاذَتْ بِحَيْدَرَةٍ حَامِيْ آلْحِمَى فِئَةٌ   مِنْهَا وَأُخْرَى تَوَلَّتْ فِيْ بَرَارِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ لِلْوَغَى جِنْدُ آلْخِلَافَةِ قُبْـ   ـلَ آلْبَصْرَةِ آلْمُبْتَلِيْ بِآلشَّرِّ ثَاوِيْهَا
وَخَيَّمَتْ بِإِذَاءِ آلْمُعْتَدِيْنَ لِـرَ   دِّ آلْكَيْدِ قَهْراً وَأَثْوَتْ فِيْ ضَوَاحِيْهَا
وَأَشْفَقَ آلْمُرْتَضَى أَنْ يُهْرِقَنَّ دِمَا   ءَ آلْمُسْلِمِيْنَ بِلَا عِذْرٍ وَيُمْنِيْهَا
فَرَاسَلَ آلنَّاسَ يَدْعُوْهَا لِطَاعَتِهِ   بِآسْمِ آلْكِتَابِ وَبِآلنُّعْمَى يُمَنِّيْهَا
فَمَا آرْعَوَتْ وَعَلَى آلشَّرِّ آلَّذِي رَغِبَتْ   فِيْهِ أَصَرَّتْ وَظَلَّتْ فِيْ تَرَغِّيْهَا
وَلَا تَعَجَّلَهَا بِآلْحَرْبِ حَيْدَرَةٌ   بِحُلْمِهِ بَلْ أَنَّى يَبْغِيْ تَلَافِيْهَا
وَبَادَرَ آلْقَوْمَ فَرْداً أَعْزَلاً وَصِحَا   بُهُ بِفِعْلَتِهِ تُبْدِيْ تَحَزِّيْهَا
وَكَانَ يَسْعَى بِهِ رَكْضاً مُطَهَّمُهُ   بِطَلْبَةٍ تَحْمُدُ آلدُّنْيَا مُوَخِّيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ مَبْرَكِ آلْجَمَلِ آلَّـ   ـذِيْ آلْعِدَاةُ حَوَالَيْهِ تَجَمِّيْهَا

= نادى عليٌّ بأمرٍ لست أنكره   وكان عمرو أبيك الخير مذ حين
فقلت حسبك من عذلٍ أبا حسنٍ   بعض الذي قلتَ منذ اليوم يكفيني
ترك الأمور التي تخشى مغبتها   والله أمثل في الدنيا وفي الدين
فاخترتُ عاراً على نارٍ مؤجَّجةٍ   أنّى يقوم لها خلقٌ من الطين

فاصفرَّت وجوه القوم وعلموا أنّ الزبير قد ندم على ما فعل ولم يعد على رأيهم في محاربة سيدنا أمير المؤمنين وأخذوا يضربون أخماساً لأسداس لتلافي هذا الخطر الذي فوجئوا به .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فقد عاد إلى أصحابه وهو مسرورٌ منشرح الصدر فقالوا له يا أمير المؤمنين تبرز إلى طلحة والزبير حاسراً وهما شاكا السلاح وأنت تعرف مبلغ حقدهما عليك ؟ فتبسّم عليه السلام وقال : « إنّهما ليسا بقاتليَّ ، إنّما يقتلني رجلٌ خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً ، في غير ما حرب ، ولا معركة رجل ، ويل أمّه إنّه أشقى البشر ، ليودنَّ أنَّ أمّه هبلت به ، أمّا أنّه وأحمر ثمود لمقرونان في قرنٍ » .

نَـادَى ٱلـزُّبَيْـرَ وَنَـادَى طَلْحَـةً عَلَنَـاً   أَنْ أَقْبِلَا حَسْبُ أَهْلِ ٱلدِّيْنِ نُغْوِيْهَـا

فَـأَقْبَـلَا وَلِكُـلٍّ مِنْهُـمَـا طَمَـعٌ   أَعْمَى بَصِيْـرَتَـهُ عَمَّـا يُـدَانِيْـهَـا

وَقَــدْ تَـدَرَّعَ وَٱشْتَـكَّ ٱلسِّـلَاحَ وَوَا م   فَـاهُ بِشِـدَّتِـهِ مَـا كَـانَ مُكْمِيْهَـا

مَـا سَلَّمَا عِنْدَ مَا مِنْ جَاهِهِ دَنَـوَا   وَلَا عُيُـونُهُمَـا هَـابَتْ مُـلَاقِيْهَـا

أَمَّـا ٱلْإِمَـامُ فَعَيْنُ ٱلْعَتْبِ أَرْسَـلَ مِنْــــهَا تَظْرَةً ذُوْ ٱلْحِجَى يَدْرِيْ مَعَانِيْهَـا

وَقَـالَ : أَعْدَدْتُمَـا لِلْحَـرْبِ عِـدَّتَهَـا   يَـا صَـاحِبَيَّ عَلَىٰ بَـادِيْ مَسَـاوِيْهَـا

فَهَـلْ لِـرَبِّكُمَـا أَعْـدَدْتُمَـا حُجَجَـاً   لِعُصْبَـةٍ سُقْتُمَـاهَـا قَـدْ تُبَـرِّيْهَـا

أَمَـا ٱلشَّـرِيْعَـةُ آخَتْ بَيْنَ أُمَّتِنَـا   أَمَـا حَـرِيٌّ بِنَـا نَـرْعَى تَـآخِيْهَـا

أَمَا خَلِيْقٌ بِنَـا تَحْـرِيمُ سَفْـكِ دِمَـا   ءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَنَكْفِيْـهُمْ مُـرِيْـقِيْـهَـا

بِـآللَّهِ هَـلْ حَـدَثٌ مِنِّيْ أَحَـلَّ دَمِي   أَمِ ٱلْمَحَـارِمُ قَـدْ بِـتُّمْ مُـحِلِّيْـهَـا

فَقَـالَ طَلْحَـةُ : أَأَلَّبْتَ ٱلْعُصَـاةَ عَلَىٰ   عُثْمَـانَ لَـوْلَاكَ لَمْ يَفْقُمْ تَعَصِّيْهَـا

وَثَـأْرُهُ مِنْـكَ نَحْنُ ٱلْيَـوْمَ نَـطْلُبُـهُ   مَـا دِمْتَ تَـأْوِيْ أَعَـادِيْهِ وَتَحْمِيْهَـا

فَقَهْقَـهَ ٱلْمُـرْتَضَى سُخْـرَاً بِقَـوْلَتِـهِ   وَقَالَ : شَوَّهْتَ صَاحِ ٱلْحَقَّ تَشْوِيْهَا

هَلْ أَنْتَ يَا طَلْحُ قَدْ وَافَيْتَ تَطْلُبُ ثَا   رَاتِ آبْنِ عَفَّـانَ تَسْتَقْضِيْ مُـدِيْنِيْهَـا

فَلَعْنَـةُ ٱللَّهِ تَغْشَى قَـاتِلِيْـهِ وَأَخْـــشَى أَنْ يَنَـالَكَ قِسْطٌ مِنْ غَـوَاشِيْهَا

يَا طَلْحُ قَدْ جِئْتَنَا مَكْرَاً بِعِـرْسِ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ عِـدَّةَ حَرْبٍ رُحْتَ شَاكِيْهَـا

وَجُزْتَ عِرْسَـكَ فِيْ صَافِيْ مَنَازِلِهَا   أَمِيْنَـةً تَـتَـهَـنَّـا فِيْ تَـظَلِّيْـهَـا

يَـا طَلْحُ قُـلْ لِيْ أَمَـا بَـايَعْتَنِيْ فَعَلَى   مَ تَنْكُثُ ٱلْبَيْعَـةَ ٱلْمَحْمُـوْدُ مُعْطِيْهَـا

فَقَـالَ طَلْحَـةُ لَا خَـاشٍ وَلَا خَجِـلٌ   مَقَـالَـةً قَـدْ أَسَـا مُسْتَعْـذِرَاً فِيْهَـا

بَـايَعْتُكَ ٱلْأَمْسَ وَٱلْأَسْيَـافُ مُشْهَـرَةٌ   مَـا فَـوْقَ رَأْسِي مِنْ أَيْـدِيْ مُبِيْعِيْهَـا

وَإِذْ رَأَى آلْمُرْتَضَى أَنَّ آلنَّصِيْحَةَ مَعْـــهُ غَيْرَ مُجْدِيَـةٍ نَفْعَـاً لِمُسْـدِيْهَـا
أَمَـالَ أَلْحَـاظَـهُ عَنْـهُ وَسَـدَّدَهَـا إِلَى آلـزُّبَيْـرِ فَلَمْ تُخْـطِئْ مَـرَامِيْهَـا
وَقَـالَ : إِنَّ مَـرَدَّ آلنَّـاسِ أَجْمَعِهَـا إِلَى آلْإِلَـهِ آلَّـذِي يَـدْرِي خَـوَافِيْهَـا
وَهْـوَ آلَّـذِي يَتَـوَلَّى أَمْـرَهَـا نَصَفَاً عَلَى صَنَـائِعِهَـا آلشَّتَّى يُكَـافِيْهَـا
وَسَـوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ آللَّهَ مُسْـعِـدُهَـا إِنْ أَحْسَنَتْ وَإِذَا أَخْـطَتْ فَمُشْقِيْهَـا
وَقَـدْ دَعَوْتُـكَ هَذَا آلْيَـوْمَ أُذْكِرُكَ آلْـــمَاضِيْ فَقَدْ تَحْسُنُ آلذِّكْرَى لِنَاسِيْهَا
مَقَـالَـةُ آلْمُصْـطَفَى إِذْ قَـالَهَـا لِكُلَيْـــنَا هَلْ لَبِثْتَ نَـظِيْرِي صَـاحِ وَاعِيْهَا
فَقَـالَ : كَـلَّا فَقُلْهَـا عَـلَّ أَذْكُـرُهَـا قَـالَ آلْعَلِيُّ : أَصِخْ سَمْعَاً لِأَرْوِيْهَا
فِيْ ذَاتِ يَـوْمٍ لَقَـدْ أَلْفَـاكَ مُعْتَنِقِيْ عِنَـاقَ ذِيْ مِقَـةٍ يَهْـوَى تَبَقِّيْـهَـا
فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ تَهْوَى صَاحِبِيْ وَأَخِيْ وَهَـلْ حُقُـوقُ وَلَاهُ أَنْتَ مُـوْفِيْهَـا
فَقُلْتَ : مَا لِيَ لَا أَهْـوَاهُ وَهْـوَ أَخِيْ هُـوَ آبْنُ خَـالِيَ قُـرْبَـاهُ أُهَـاوِيْهَا
نَـادَى : فَـإِنَّـكَ قَـالِيْـهِ وَظَـالِمُـهُ غَـدَاً وَمَـا زَادَ عَمَّـا قَـالَ تَنْبِيْهَـا
وَمَا آنْتَهَى آلْمُرْتَضَى مِنْ سَرْدِ قِصَّتِهِ عَلَى آلزُّبَيْرِ آلَّذِي قَدْ كَـانَ صَاغِيْهَا
حَتَّى آرْعَوَى مُرْجِعَاً يُؤْذِيْ أَصَابِعَهُ مِنَ آلنَّـدَامَةِ تَعْضِيْضَـاً وَيُـدْمِيْهَـا
يَقُـولُ : أَذْكَرْتَنِي مَـا آلدَّهْـرُ صَرَّفَـهُ عَنْ فِكْرَتِيْ يَا وَصِيَّ آلْمُصْطَفَى إِيْهَا
قَـدِ آرْعَـوَيْتَ فَـوَآللَّهِ آلْعَـظِيْمِ يَمِيْـــنَاً لَا أُحَارِبُ قَـوْمَـاً أَنْتَ حَـامِيْهَـا
وَعَـادَ أَدْرَاجَـهُ يَبْغِـيْ جَمَـاعَـتَـهُ لِكَيْ بِتَـوْبَتِـهِ آلْحَسْنَـاءِ يُنْبِيْـهَـا
وَعَـوْدُهُ نَحْـوَهَـا بِـآلْيَـأْسِ حَيَّـرَهَـا فَـلَا تَسَـلْ كَيْفَ لَاقَى مُسْتَحِيْـرِيْهَا
وَطَلْحَـةُ عَـادَ مَعْـهُ وَهْـوَ مُمْتَعِضٌ مِنْـهُ زِنَـادُ آلْـوَغَى لِلنَّـاسِ يُـوْرِيْهَـا
وَآلْمُـرْتَضَى عَادَ مَسْـرُوْرَ آلْفُؤَادِ إِلَى أَصْحَـابِـهِ طَـالِبَـاً هَـانِيْ مَثَـاوِيْهَـا

حرج موقف الزبير

قَدْ هَالَ عَائِشَةً عَوْدُ ٱلزُّبَيْرِ عَنِ ٱلْــقِتَالِ وَٱكْتَأَبَتْ مِنْهُ حَوَاشِيْهَا[1]
وَخَافَتِ ٱلنَّاسُ خُذْلَاناً بِزَوْرَتِهِ عَنْهَا يُشَتِّتُ تَشْتِيْتاً تَجَمُّيْهَا

(١) ما شاع بين أعيان أصحاب الجمل رجوع الزبير عن حرب علي حتى سقطوا في أيديهم لما يعلمونه من سوء تأثير رجعته على الناس وهم يبرّرون به وبطلحة وعائشة محاربتهم لسيدنا علي وازدحموا حوله يقنعونه بالرجوع عن عزمه بما أوتوا من زلاقة لسان وقوّة بيان فلم يفلحوا وفي الأخير لم يروا من ينيلهم بغيتهم بالتأثير على أفكاره غير ولده عبد الله الذي كان متسلطاً عليه فاستدعته عائشة وطلبت منه أن يذهب إلى أبيه ويقنعه بالبقاء مع حملتها فأسرع إليه وقال له : ما هذا يا أبتاه أتراك هبت سيوف أصحاب علي أو خفت شجاعته ؟ أم تراه رشاك بأمارةٍ لتشتت هذه الجموع التي غرّرت بها فجمعتها للقتال فتفرّ من وجهه فيعمل سيفه برقابها ؟ قال الزبير : لا يا بنيَّ ليس هذا ولا ذاك وما عليٌّ ممن يرشو ولا أنا ممن يخاف لقاء المنون ولكن هي حقوق أخوالي بني هاشم وحقوق محمد بن عبد الله وعلي بن أبي طالب مقدسة لدى المسلمين فلا نستطيع تجاهلها وإنّي لقد خفت الآخرة وعلمت أنّ الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً فتبت عن خطئي وأقسمت أن لا أحارب علياً ولا قوماً يحميهم . فقال يا أبتاه أترى من مصلحتنا أن يظلَّ علي خليفة المسلمين وهو مساوينا مع أداني الناس ويأبى علينا أن يميزنا بفيء أو أمارة مع أننا ما أيقظنا هذه الفتنة إلّا لتكون أنت الخليفة ونحن عمّالها وهكذا ما زال عبد الله يغري أباه ويتملّقه ويقول له كفّر عن يمينك بتحرير رقبة وسرّ معنا إلى قتال عدونا وعدوّك ولا تجعلنا مضغةً بأفواه الناس وأحدوثةً لنساء قريش فتقول قد جبن الزبير حتى أثرت عليه هيبة ابن أبي طالب ورجاله وفي مثل هذا أثار ثائرة نخوته فقال إنّ عبدي مكحول حرّ كفّارة عن يمينٍ أرجىء تنفيذها وسأسير معكم فابتدىء القتال حتى لا يقال إنّي جبنت عن حرب ابن خالي أبي الحسن ولكن يا ولدي لا أظنكم بقتال ابن أبي طالب بناجحين فقال عبد الله دع عنك سوء الظن فإنّنا ننفر من كل من يسيء ظنه بنتيجة هذا القتال أن تكون لنا وأقم معنا وهذا ما تتمناه أمي (ويريد عائشة) التي تتوكأ عليك في فتنتها فقال إنّي على ما تريد عائشة وتريد أنت ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

وَهَـاجَمَتْـهُ لِتُغْـوِيْـهِ وَتُـرْجِعُـهُ عَنْ تَـوْبَـةٍ قَـدْ نَـوَاهَـا لاَ يُخَلِّيْهَـا
فَلَمْ تَـدَعْ حُجَّةً مِمَّـا تَخَـالُ بِهَـا آلإِ م قْنَـاعَ إِلاَّ بِهَـا جَـاءَتْـهُ تُـدْلِيْهَـا
حَتَّى إِذَا عَجِـزَتْ عَنْـهُ وَعَـزْمَتُـهُ عَلَى آلإِنَـابَـةِ أَوْهَتْ عَـزْمَ مُثْنِيْهَـا
وَافَـاهُ يَلْحُـوْهُ عَبْـدُ آللَّهِ وَهْـوَ فَتَـا م هُ بِـآسْمِ خَـالَتِـهِ مَـعْ مَنْ يُـوَالِيْهَـا
فَقَـالَ : يَـا أَبَتِيْ أَوْرَيْتَ فِـتْنَتَنَـا حَتَّى إِذَا آشْتَعَلَتْ حَـاوَلْتَ تُـطْفِيْهَـا
أَهِبْتَ رَايَاتِ صَحْبِ آلْمُرْتَضَى فَجَبُنْـ ـتَ أَمْ تَهَيَّبْتَ أَنْ تَـلْقَى قَـوَارِيْـهَـا
أَمْ قَـدْ رَشَـاكَ عَلِيٌّ كَيْ تُشَتِّتَ أَعْـ ـدَاهُ فَيَتْبَعُـهَـا بِـآلسَّيْفِ يُـفْنِيْهَـا
وَأَنْـتَ تَعْـلَمُ مَـا نَبْـغِيْ بِـفِتْنَتِـنَـا إِلاَّ آلْخِـلاَفَـةَ إِذْ نُلْفِيْـكَ رَاعِيْهَـا
قَـالَ آلزُّبَيـرُ : أَعَبْـدَ آللَّهِ وَيْلَكَ تُغْـ ـرِيْنِي بِحَـرْبٍ لَقَـدْ أَمْسَيْتُ آبِيْهَـا
فَـلاَ تَخَـوَّفْتُ أَصْحَـابَ آلْعَلِيِّ وَلاَ طَمِعْتُ بِـآلرَّشْـوَةِ آلْمَلْعُوْنُ عَـاطِيْهَا
لٰكِنْ تَذَكَّرْتُ عَهْدِيْ فِيْ صَحَابَةِ طَـ ـهَ وَآلْحُقُـوْقَ آلَّتِي حَقِّيْ أُرَاعِـيْهَـا
حُقُـوْقُ هَاشِمَ أَخْـوَالِيْ وَأَحْمَدَ وَآلْـ ـعَلِيِّ وَاضِحَـةٌ صَعْبٌ تَعَـاشِيْهَـا
وَيْلِيْ أَمَا آلْمُرْتَضَى أَوْلَى آلْبَـرِيَّةِ بِيْ إِنْ تَطْلُبِ آلنَّاسُ فِيْ آلدُّنْيَا مُحِبِّيْهَـا
وَمَا آنْتِفَاعِيْ بِذِي آلدُّنْيَـا إِذَا هِيَ عَـ ـنِّي يَـا فَتَى تُبْعِدُ آلأُخْـرَى وَتُقْصِيْهَا
فَثِقْ بُنَيَّ لَقَـدْ عَـادَ آلصَّـلاَحُ إِلَى نَفْسِيْ فَمَـا عُدْتُ بِـآلإِفْسَـادِ أُمْنِيْهَـا
وَقَـدْ حَلَفْتُ يَمِيْنَـاً لَسْتُ تَـارِكَهَـا مَـا بَـرَّ بِـآلأَيْمُنِ آلـزَّهْـرَاءِ آلِيْهَـا
أَنْ لاَ أُحَـارِبَ قَـوْمَـاً كَـانَ حَيْـدَرَةٌ زَعِيمَهَـا وَهْـوَ لِلنِّيْضَـالِ مُمْشِيْهَـا
فَرَاحَ يَضْحَكُ عَبْـدُ آللَّهِ ضِحْكَةَ مَقْـ ـهُـوْرٍ وَقَالَ : أَبِيْ حُوْشِيْتَ تَسْفِيْهَا
يَـأْبَى أَبُـوْ حَسَنٍ إِنْصَـافَنَـا فَيُسَـا م وِيْـنَـا بِـأُمَّـتِنَـا حَـتَّى أَدَانِـيْـهَـا
وَلِـلْبَـدَاوَةِ يَبْـغِـيْ أَنْ يُـرَجِّـعَنَـا أَدْرَاجَنَـا تَـارِكِيْ آلـدُّنْيَـا لأَهْلِيْهَـا

وَإِنَّ أَحْـوالَـهُ ذِيْ غَيْـرُ صَـالِحَـةٍ لَنَـا وَأَنْتَ رَعَـاكَ ٱلـلَّهُ تَـدْرِيْهَـا
أَشْفِقْ عَلَيْنَـا وَلَا تَتْـرُكْ جَمَـاعَتَنَـا فِيْ شَـرِّ مَـوْقِفِهَـا ٱلْأَرْيَـاحُ تَـذْرِيْهَـا
وَعَنْ يَمِيْنِـكَ كَفِّـرْ إِذْ رَجِعْتَ بِهَـا كُفَّـارَةً يُصْبِحُ ٱلْإِسْـلَامُ رَاضِيْهَـا
وَلَا تَبِتْ مُضْغَةَ ٱلْأَفْوَاه فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْـ ـعَرْبَا يَلُوْكُ بِمَا قَدْ جِئْتَ لَاكِيْهَا
تُمْسِيْ نِسَـاءَ قُـرَيْشٍ وَهْيَ قَـائِلَةٌ إِنَّ ٱلـزُّبَيْـرَ جَبَـانٌ فِيْ نَـوَادِيْهَـا
وَبَعْـدَ أَنْ لَـجَّ عَبْـدُ ٱللَّهِ صَاحَ أَبُـوْ هُ إِنَّ عَـزْمَتِـيَ ٱلْـغَـرَّا أُوَنِّـيْـهَـا
وَإِنَّ عَـبْـدِيَ مَـكْـحُـوْلٌ أُحَـرِّرُهُ كُفَّـارَةً لِيَمِيْـنٍ عُـدْتُ مُكْـرِيْـهَـا
وَإِنَّنِيْ نَـازِلٌ لِـلْحَـرْبِ مُبْتَـدِىءٌ بِهَـا لِتَعْلَمَ أَنِّيْ لَسْـتُ خَـاشِيْـهَـا
وَكَيْ أُحَقِّـقَ رُغْبَـى أَنْتَ طَـالِـبُهَـا لٰكِنْ أَظُنُّـكَ يَـا آبْنِيْ لَسْتَ مُلْفِيْهَـا
فَقَالَ : دَعْ عَنْكَ سُوْءَ ٱلظَّنِّ يَا أَبَتِيْ فَصَحْبُنَـا لَمْ يَسُـؤْ يَـوْمـاً تَـظَنِّيْهَـا
وَسِـرْ لِحَـرْبِ عَلِيٍّ مُسْـرِعَـاً مَعَنَـا وَنَـلْ نَصِيْبَـكَ إِنْ كُنْتَ ٱلْمُجَلِّيْهَـا
وَذَاكَ كُـلُّ ٱلَّـذِيْ تَـبْغِـيْـهِ أُمِّيَ إِذْ عَلَيْـكَ كَـانَ بِـلَا شَـكٍّ تَـرَكِّيْهَـا

بدء واقعة الجمل

لَمْ تَـطْمَئِنَّ إِلَى وَعْدِ ٱلـزُّبَيْـرِ صِحَا بُـهُ وَزَوْرَتُـهُ عَنْهَـا لَـتُـوذِيْهَـا[1]
لِـذَا رَأَتْ أَنَّ حُسْنَ ٱلرَّأْيِ صَـائِبَـهُ أَنْ تَبْـدَأَ ٱلْحَـرْبَ حَـالاً لَا تُـرَجِّيْهَـا

---

(١) كان كثيرون من زعماء العرب حول عائشة وطلحة والزبير يثبطون عزائمهم عن متابعة الفتنة حقناً لدماء المسلمين ويقنعونهم بمصالحة سيدنا عليّ والرجوع إلى طاعته فلم يفلحوا وبينما كان هؤلاء يجدّون في مساعيهم السلمية ويرسلون رسلهم إلى سيدنا عليّ فيقول لهم قوله المشهور وهو إنّي ما جئت للحرب ولكن للصلاح كان أصحاب الجمل يتحفزون للحرب وهم يعتقدون أنّهم منصورون على جيش أمير المؤمنين عليه السلام لا لأنّهم أشجع منه وأصبر على مكاره الحرب ولا لأنّ من عندهم من ـ

وَتُعْلِنُ ٱلنَّاسَ بِٱلنِّيْضَالِ عَائِشَةُ   وَبِٱلْأَحَادِيْثِ عَنْ طَهَ تُنَخِّيْهَا

وَبِٱلْمَثُوبَةِ فِيْ ٱلْجَنَّاتِ تُطْمِعُهَا   وَبِٱلتَّوَسُّعِ فِيْ ٱلْإِرْغَادِ تُغْرِيْهَا

وَبِٱبْنِ عَفَّانَ كَانَتْ تَسْتَثِيْرُ عَلى   أَبِيْ ٱلْحُسَيْنِ مِنْ ٱلْأَحْقَادِ قَاسِيْهَا

وَكَانَ ثَمَّ دُعَاةٌ لِلصَّلَاحِ تُرِيْدُ   ٱلسُّلْمَ لٰكِنَّمَا خَابَتْ مَسَاعِيْهَا

= الناس أعظم حولاً وطولاً من رجال أمير المؤمنين بل لاعتقادهم بأنَّ ما في المسلمين من يجرأ على الوقوف في وجه عائشة بصفتها أحبّ أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبصفتها امرأة لما تعلم من امتناع العرب عن محاربة النساء ولهذا الغرض احتمل العصاة عائشة إلى الحرب وجعلوا جملها رايتهم

فلما تقدم سيدنا علي عليه السلام من معسكر أصحاب الجمل ودعا طَلحة والزبير إليه وخاطبهم بما خاطبهم به كما تقدم القول وعاد الزبير وهو تائب عن العصيان معرض عن حرب أمير المؤمنين راغباً عن قتال أصحابه ذاكراً إنذار المصطفى له وتعب الناس في إقناعه للبقاء معهم حتى جاءَه ابنه عبد الله وأغراه بالرجوع عن عزيمته وتقديم الكفارة عن يمينه لكي لا يقول الناس قد جبن حينئذٍ صحت عزيمة أصحاب الجمل على البدء بالقتال مخافة أن يعود الزبير إلى توبته فيكون سبباً لتفرّق الناس عن جملها اقتداءً به . وبالفعل كان الزبير هو مفتتح القتال ليذهب عن نفوس ولده وأصحاب الجمل ما اتّهموه به من أنَّ نكوله عن حرب أمير المؤمنين هو لجبنه فنصل سنان رمحه وحمل على عسكر علي عليه السلام فلمّا رآه سيدنا أمير المؤمنين كاراً على عسكره برمحٍ لا سنان له عرف على البداهة أنّه محرجٌ على خوض غمرات الحرب وأنّه لا يزال عند يمينه فنادى بأصحابه أن أفرجوا عنه فإنّه محرج . وهكذا دنا الزبير من معسكر الخليفة أولاً وثانياً وثالثاً وعاد إلى أصحاب الجمل ولم يصب بشرٍ وفي المرة الثالثة عندما رجع إلى أصحاب الجمل كرّر إنشاد أبياته التي سبق لنا نشرها فلما سمعها أصحاب الجمل عرفوا أنّه فارٌ من الحرب غير ثابت معهم على الاصطلاء بنارها فأسرعوا إلى إشعال نار القتال وهاجموا معسكر سيدنا أمير المؤمنين فلقيهم عليه السلام بأصحابه واشتبك القتال بين المسلمين ذلك القتال الذي تألّم له المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في السماء فشكا إلى خالقه من جور أهل النفاق الذين أحدثوا بين المسلمين هذا الشقاق .

وَثَـارَتِ ٱلْفِتْنَةُ ٱلْهَـوْجَاءُ تَحْـرِقُ فِيْ نِيْـرَانِهَـا كُـلَّ مَنْ قَـدْ رَاحَ صَـالِيْهَـا
وَقَــدْ تَقَـدَّمَتِ ٱلْعَــاصِيْنَ عَـائِشَــةٌ كَــأَنَّـهَــا رَايَــةٌ فِيْ كَـفِّ مُعْـلِيْهَــا
وَكَـانَ هَـوْدَجُهَــا يَسْعَى بِـهِ جَمَـلٌ بِـهِ دَعَـا هَــاتِـهِ ٱلْمَــأْسَاةَ دَاعِيْهَــا
يَقُــوْدُهُ كُـلُّ ذِيْ جَــاهٍ وَذِيْ حَسَبٍ مِنَ ٱلْأَعَــارِبِ مَكِّيْهَـا وَبَصْــرِيْهَــا
وَكَـانَ مُفْتَتِحَ ٱلنِّيْضَـالِ صَاحِبُنَـا ٱلـــزُّبَيْـرُ يَبْغِيْ ٱلْمَنَـايَـا لَا يُحَـاشِيْهَــا
أَرْجَـا ٱلْيَمِيْنَ ٱلَّتِيْ قَدْ كَـانَ حَالِفَهَـا لَـوْلَا ٱبْنُـهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللَّهِ مُــرْجِيْهَـا
مِنْ غَيْــرِ أَسْلِحَـةٍ قَــدْ كَـرَّ كَــرَّتَــهُ عَلَى رِجَــالِ عَلِيٍّ غَيْـرَ خَــاشِيْهَـا
كَيْ لَا يُقَـالَ لَقَـدْ خَـارَتْ عَـزَائِمُـهُ كَمَـا لَـهُ قَــالَ عَبْـدُ ٱللَّهِ تَجْــرِيْهَـا
وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا سِلَاحَ مَعَ ٱلـــزُّبَيْـرِ فِيْ ٱلْهَجْمَـةِ ٱلْمَقْتُـوْلُ آتِيْهَـا
نَـادَى بِأَصْحَـابِهِ عَنْـهُ ٱفْرِجُـوْا كَرَمـاً فَــإِنَّـهُ مُحْـرَجٌ لِلْحَـرْبِ يُمْضِيْهَــا
فَمَـا تَصَـدَّى لَـهُ مِنْ صَحْبِـهِ أَحَــدٌ لِأَنَّـهَــا عَــرَفَـتْـهُ غَـيْــرَ رَامِيْـهَــا
فَـأَقْبَلَتْ بَعْـدَهُ أَصْحَــابُ عَـائِشَــةٍ إِلَى ٱلْقِتَـالِ وَشَـدَّتْ فِيْ تَـدَاعِيْهَـا
فَقَـابَلَتْهَـا صَنَـادِيْـدُ ٱلْخِلَافَـةِ بِـٱلْأَ سْيَــافِ تَــطْلِبُ أَنْ تُفْنِيْ مُـلِدِّيْهَــا
يَقُـوْدُهَا ٱلْقَـاهِرُ ٱلْأَسْمَى أَبُـوْ حَسَنٍ وَحَسْبُهَــا أَنَّــهُ لِلنَّصْــرِ مُمْشِيْـهَــا
وَهَكَذَا ٱشْتَبَكَ ٱلْجَمْعَـانِ وَٱبْتَسَمَتْ بِيْضُ ٱلـظُّبَى وَبَنُوْ ٱلْإِيْمَـانِ فِيْ فِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى فِيْ ٱلسَّمَا يَشْكُوْ لِخَالِقِهِ مَــا نَــالَ أُمَّتَــهُ مِنْ مُسْتَـخِيْنِيْـهَــا

انتصار أمير المؤمنين في موقعة الجمل

وَطَـالَتِ ٱلْحَـرْبُ أَيَّــامـاً مُسَــاْجَلَةً وَٱلنَّـاسُ فِيْهَا لَقَـدْ أَبْدَتْ تَفَـانِيْهَا[1]

---

(١) لما عاد الزبير إلى أصحاب الجمل وهو ينشد أبياته تقدم منه طلحة وسار بـه =

وَكَــانَ حَيْـدَرَةٌ فِيْهَــا ٱلْمُبَــارِزُ وَٱلْـــبَطَّاشُ يَضْرِبُهَــا بَٱلسَّيْفِ يُـدْمِيْهَــا

= بين الناس وهو يقول « إنَّ علياً إن يظهر فهـو مفنيكم يا أهـل البصرة ، فـاحموا حقيقتكم منه ؟ ، فإنّه لا يبقي حرمةً إلّا انتهكها ، ولا حريماً إلّا هتكـه ، ولا ذريّةً إلّا قتلهـا ، ولا ذوات خدر إلّا سباهنَّ ، فقـاتلوا مقاتلة من يـذبُّ عن حـريمـه ، ويختـار المـوت على الفضيحة يراهـا في أهله » إلى مثل ذلـك من الأقوال التي كـانوا يختلقـونها ليخيفـوا بها البصـريين ليثبوا على معسكـر المرتضى ويثبتـوا على قتالـه وهكذا استـاقـوا النـاس إلى مهاجمة معسكـر سيدنـا أمير المؤمنين وأخـذوا يرشقـون أصحابـه بنبالهم فكـأنّها صبيب المطر .

أمّـا سيدنـا أميـر المؤمنين عليه‌السلام فتمهّـل عن مقـابلة الشـرّ بمثله إلى أن رأى نبـال العصـاة تترامى على أصحـابه وجيء لـه ببعض القتلى منهم فاستسلم لقضـاء الله ونـزل على ما نزل عليه القوم من تحكيم السيف وأعطى رايته إلى ابنه محمد بن الحنفيـة وقال « تـزول الجبال ولا تـزل ، عضَّ على ناجـذك ، أعـر الله جمجمتـك ، تـد في الأرض قـدمـك ، إرمِ ببصـرك أقصى القـوم ، وغضَّ بصـرك ، واعلم أنَّ النصـر من عنـد الله سبحانه » .

فتهيب محمد وهو غـلامٌ يافـعٌ موقفـه وتوقف قليـلاً فقال لـه أبوه أميـر المؤمنين : احمل يا محمد . فقال أما ترى يا أبتاه السهام كأنّهـا شآبيب المـطر ؟ فدفعـه في صدره وقال أدركك عرق من أمك . ثم أخذ منه الراية فهزّها وقال :

اطعن بـهــا طعـن أبيــك تـحمـدِ لا خيـر في حـربٍ إذا لم تـوقـد
بالمشرقيّ والقنا المسدَّدِ

ثمَّ حمل عليه‌السلام فحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصـرة وأعاد للنـاس ذكر فعـاله العظيمة في الغزوات النبوية وهو المجلي والمصلي فيها على ما يعلم الثقلان .

وبقيت الحرب أيامـاً حول الجمـل وكان كلّمـا قتل قـوم من أصحاب عـائشة قـام للدفاع عن جملها آخرون وكانت عائشة في هـودجها تتمثـل بالمصـطفى صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم كـان يخرج لغزو الكفّار والمشركين لنصرة الدين وشتـان بين الموقفين حتّى أنّهـا مرةً بـل غير مرةٍ أخذت كفّاً من حصى فحصبت بها أصحاب سيدنـا علي عليه‌السلام وهي تصيح بصـوتها الجهوري شاهت الوجوه كما صنع رسول الله يوم حنين فمـا عدمت قـائلاً يقـول بقربهـا =

يَهِـزُّ هَـزّاً وَيَهْـوِيْ ذَا ٱلْفَقَـارِ عَلَىٰ   هَـامَـاتِهَـا فِيْ تَـدَاعِيْهَـا فَيُفْـرِيْهَـا

= « ومـا رميتِ إذا رميتِ ولكن الله رمى » فانـظر رعاك الله إلى أيّ حـدٍّ بلغ اجتهاد عـائشة حتى حسبت أنّها تحارب سيدنا علي وقومه كما كان المصطفى يحارب أبا سفيان وقـومه على أنّ الذي قال « الله رمى » بقربها هـو الذي صـدقها المقـال ورمية الله سبحـانه هي الصادقة بغير جدال .

وفي اليـوم الثالث للمـوقعة أصبـح القومـان على القتال فـزحف سيدنـا علي نحو الجمـل بنفسه في كتيبتـه الخضراء من المهـاجرين والأنصـار وحولـه بنوه حسن وحسين ومحمد فدفع رايته إلى محمـد وقال « أقـدم بها حتى تـركزهـا في عين الجمل ولا تقفنَّ دونه » فتقدم محمد فرشقته نبال العصاة فقال لأصحابه رويداً حتى تنفد سهامهم فلم يبق لهم إلاّ رشقـة أو رشقتان وإذ رأى أميـر المؤمنين وهو يـرقب الحملة تباطئهـا أرسـل إلى محمد يستحثه وأمره بالمناجزة فلما أبطأ عليـه جاءَ بنفسـه من خلفه فـوضع يـده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له أقدم لا أمَّ لـك ثم أدركته عليه السلام رقـة على ولده فتنـاول الرايـة بيسراه وأشهر ذا الفقار بيمناه وحملَ فغاص في عسكـر الجمل فـأهلك خلقاً كثيـراً منهم وعاد وقد انحنى سيفه وهو يقطر دماً فـأقامـه بركبتـه وهو يـزئر زئـرة الأسد فقـال له بنـوه وأصحابه والأشتر وعمّار نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فما أجاب أحداً منهم ولا ردَّ إليهم بصره وعاد ثـانيةً لـوحده فـدخل وسط عسكـر الجمل وجعـل يضربهم بـذي الفقار وهم ينفضون من حوله فرقين خائفين جزعين حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثمَّ رجـع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فاعصوصب بـه أصحابـه فناشـدوه الله في نفسه وفي الإسـلام وقالوا إن تصب يذهب الدين فـامسك ونحن نكفيـك فقال : والله لا أريـد بما تـرون إلاّ وجه الله والدار الآخرة . ثمَّ مال إلى ابنـه محمد وقـال هكذا تصنـع يـابن الحنفيـة فقال الناس من ذا يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين ؟؟ .

وهكذا دامت الحرب بضعة أيام قتل فيها خلقٌ كثير من الفريقين ولمـا رأى سيدنـا علي أنّ الموت عند الجمل وأنّه ما دام قائمـاً فالحـرب لا تطفـأ نارهـا وضع سيفـه على عاتقه الشريف وعطف نحوه وأمر أصحابه بذلك فتبعوه وكان زمام الجمل قـد أفضى إلى بني ضبـة بعد أن تـداوله خلقٌ كثيـرٌ للدفـاع عنـه فقتلوا دونـه حتى إذا مـا انتهى الإمـام وأصحابه إلى الجمل اشتبكوا بالقتال مع أصحابـه ولا سيما بني ضبـة الآخذين بخـطامه وكان من واجبهم أن يموتوا دونه فاستمرَّ القتـال فيهم وخلص علي عليه السلام في جماعـة من =

بِنَفْسِـهِ وَهْـوَ فَـرْدٌ كَـانَ يَهْجُمُ مَـا   بَيْنَ ٱلصُّفُـوْفِ وَيَسْتَقْصِي هَـوَادِيْهَـا

= النخع وهمدان إلى الجمل فقال لرجل من النخع اسمه بحير : دونك الجمل يا بحير . فبادر هذا وضرب الجمل بسيفه ضربةً نجلاء فوقع لجنبه وضرب الأرض بجرانه وعجَّ عجيجاً لم يسمع بأشدّ منه فما هو أن صرع الجمل حتّى فرّت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب فصاح سيدنا أمير المؤمنين أن قوا عائشةً من الهلال وأمر أخاه محمد بن أبي بكر وكان في أصحابه أن يتولى أمر أخته عائشة وينقلها بهودجها إلى البصرة ففعل وسار بها إلى دار عبد الله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وأمر عليه السلام بالجمل أن يحرق ثمّ يذرّى في الريح وقال « لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل » ثمّ قرأ قوله تعالى : ﴿ **وانظر إلى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليمّ نسفاً** ﴾ الآية .

وبعد أن رأى سيدنا أمير المؤمنين ما حوله من جرحى أصحاب الجمل وأنّ أصحابهم قد فرّوا وتفرقوا أيدي سبا أمر المنادي أن ينادي في أصحابه أن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا دور المسلمين فينهبونها ويسبون مخدراتها وكان أمره هذا مؤيداً لما كرر قوله به عليه السلام وهو أنّه سائر لتأديب عصاة المسلمين لا للتنكيل بأمّة سيد المرسلين فهو مؤدّب ومربّي لا غازي وفاتح فأعجب الناس بأمره وخضعوا لمشيئته .

ولما انهزم أصحاب الجمل ركب علي على البغلة الشهباء التي كان يركبها رسول الله عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وكانت عنده وسار في القتلى يستعرضهم فمرَّ بكعب بن سور قاضي البصرة وهو قتيل فقال أجلسوه فأجلسوه فقال له : « ويل أمّك يا كعب بن سور لقد كان لك علم لو نفعك ولكن الشيطان أضلّك وأغواك فعجلك إلى النار أرسلوه . . ثمّ مرَّ بطلحة بن عبيد الله قتيلاً (وسنذكر كيفية قتله فيما بعد) فقال أجلسوه فأجلسوه فقال له عليه السلام (أعزز عليَّ أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي ، أبعد جهادك في الله ، وذبِّك عن رسول الله ، تعرض نفسك إلى ما تعرضت إليه ؟ » وبينما عليّ يقول هذا وإذا برجل وقف إلى جانبه وقال أشهد يا أمير المؤمنين لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو جريح فصاح بي فقال : من أصحاب من أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فقال : امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين فمددت إليه يدي فبايعني لك فقال علي « أبى الله أن يلقى =

كَـأَنَّمَـا صَعقَـاتُ ٱللَّهِ يَحْمِـلُهَـا عَلَىٰ ٱلْعِـدَى فَهْيَ تفْنَى فِيْ تَلَقِّيْهَـا
لِـلَّهِ دَرُّ عَـلِيٍّ وَهْـوَ خَـائِضُ هَـا تِيْـكَ ٱلْمَعَامِـعِ لاَ يَخْشَى دَوَاهِيْهَـا
أَعَـادَ ذِكْرَ مَغَـازِيْ ٱلْمُصْـطَفَى وَعَلِـيٌّ كَـانَ فِيْهَـا مُجَلِّيْهَـا مُصَلِّيْهَـا
ذِكْرَى لَتفْـرَقُ أَرْبَـابُ ٱلنِّفَـاقِ لَهَـا عَـادَتْ إِلَى ذُهْنِ مَنْ يَبْغِيْ تَنَاسِيْهَـا
فِيْ وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلسَّوْدَا ٱلَّتِيْ تَرَكَتْ أَصْحَـابَـهُ وَبَـلاَءُ ٱللَّهِ دَاهِيْـهَـا
وَقَدْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَى إِنْهَـاءِ مَجْـزَرَةٍ إِنْ شَـاءَ يُـنْهِيْهَـا
إِلَّا إِذَا ٱلْجَمَلُ ٱلْمُغْوِيْ ٱلْعُصَاةَ هَوَى فَـإِنَّـهَـا تَـتَـصَبَّـاهُ وَيُـرْدِيْـهَـا

= طلحة ربّه إلاّ وبيعتي في عنقه » ثمَّ مرَّ بعبد الله بن خلف الخزاعي وكـان عليه السلام قتله بيده مبارزةً وكان رئيس أهل البصرة فقال أجلسوه فأجلسوه فقـال : « الويـل لك يـابن خلف لقد عانيت أمراً عظيماً » وهكذا كان كلما مرَّ عليه السلام بوجيه من القتلى يقول كلمته فيه حتى إذا ما بلغ البصرة دخل بيت انمال فلما رأى كثرة ما فيه قال مراراً « يـا بيضاء ويـا صفراء غرّي غيري » ثم صعَّد نظره في هاتيك الأموال وقال أقسموها بين أصحابي خمسماية فخمسماية فقسمت بينهم فما نقصت درهماً ولا زادت درهماً كأنّه عليه السلام كـان يعرف مبلغها ومقدارها وكانت ستة آلاف ألف درهم وكان أصحاب سيدنا علي اثني عشر ألفاً . وبعد أن توزعت الأموال بين الناس قدم أعرابي لم يحضر وقعة الجمل وقـال يا أمير المؤمنين كنت شاهداً معك بقلبي وإن غـاب عنك جسمي فـاعطني من الفيء شيئاً فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهماً ولم يصب من الفيء شيئاً .

ثمَّ طلب الناس من سيدنـا علي عليه السلام أن يقسم بينهم أهل البصرة فيكونون رقيقاً وسبياً لهم فقال « لا » فقالوا فكيف تحلُّ لنا دماءَهم وتحرم علينا سبيهم ؟ فقال : « كيف يحـلُّ لكم ذريّة ضعيفـة في دار هجرة وإسلام ؟ أمّا مـا أجلب به القـوم في معسكـرهم عليكم فهو لكم مغنم ، وأمَّا مـا وارت الدور ، وأغلقت عليه الأبواب ، فهـو لأهله ولا نصيب لكم في شيء منـه » فلمـا أكثروا عليه وألحوا أراد أن يقنعهم بصواب حكمه فقال : « فأقرعوا على عائشة إذن لأدفعها إلى من تصيبه القـرعة » فقـالوا نستغفـر الله يا أمير المؤمنين أن تسبى زوج رسول الله . فتبسّم سيـدنا علي عليه السلام وقـال وكذلـك النساء المسلمات فإنّهنَّ جميعاً بنات رسول الله . فاقتنع القوم بحكمه وانصرفوا .

كَانَتْ حَوالَيْهِ تَفْنَى وَهْيَ صَابِرَةٌ عَلَى ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي رَاحَتْ تُلَاقِيْهَا

كَمْ فِرْقَةٍ قَدْ تَلاشَتْ عِنْدَ مَوْقِفِهِ بِأَثْرِ أُخْرَى وَمَا هَابَتْ تَلاشِيْهَا

حَتَّى تَظُنُّ بِهَاتِيْكَ ٱلنُّفُوْسِ عِبَادَةً لَهُ تَتَرَجَّى خُلْدَهَا فِيْهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنَّ ٱلْجَهَالَةَ تُمْـــشِيْ ٱلنَّاسَ حَتَّى مَنَايَاهَا وَتُرْزِيْهَا

نَادَى بِأَصْحَابِهِ : فَٱرْمُوْا نِبَالَكُمُ عَلَيْهِ حَتَّى تُغَشِّيْهِ رَوَامِيْهَا

فَسَدَّدَتْ نَحْوَهُ أَقْوَاسَهَا وَرَمَتْ نِبَالَهَا لَمْ يَكُنْ يُخْطِيْهِ رَامِيْهَا

حَتَّى غَدَا جِسْمُهُ ٱلْمُرْمَى كَقُنْفُذَةٍ لَاقَتْ بِأَشْوَاكِهَا ٱلْكَثْرَى مُفَاجِيْهَا

ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْهُ ٱلْمُسْلِمُوْنَ وَمِنْ حَوْلَيْهِ عِصْبَتُهُ تُبْدِيْ تَرَاغِيْهَا

وَٱلْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِيْهَا تُبَاعُ نُفُوْسُ ٱلنَّاسِ مُرْخَصَةً وَٱلْمَوْتُ يَشْرِيْهَا

صَاحَ ٱلْعَلِيُّ ٱعْقُرُوْهُ وَٱنْشَطُوْا لِنَقِيْ فِيْ ٱلْحَالِ عَائِشَةٌ مِمَّا يُؤَاذِيْهَا

فِيْ ٱلْحَالِ كَانَ مُجِيْرٌ عِنْدَ دَعْوَةِ مَوْلَانَا ٱلْعَلِيِّ بِلَا بِطْءٍ مُلَبِّيْهَا

وَبَادَرَ ٱلْجَمَلَ ٱلْمَلْعُوْنَ أَهْلَكَهُ بِضَرْبَةِ ٱلسَّيْفِ عَاشَتْ كَفُّ مُهْوِيْهَا

أَقْعَى وَعَجَّ عَجِيْجاً وَهْوَ يَضْرِبُ بِٱلْـــجُرَانِ أَرْضاً نَجِيْعُ ٱلدَّمِ رَاوِيْهَا

وَإِذْ رَأَتْ هُلْكَهُ أَنْصَارُ عَائِشَةٍ تَهَارَبَتْ فِرَقاً تَبْغِيْ مَخَابِيْهَا

حَتَّى لَتَحْسَبُهَا سِرْبَ ٱلْجَرَادِ إِذَا طَارَتْ وَكَانَ هُبُوْبُ ٱلرِّيْحِ ذَارِيْهَا

وَآمَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا يُسَاءَ إِلَى ٱلْـــجُرْحَى وَأَنْ يَتَوَلَّاهَا مُؤَاسِيْهَا

وَلَا تُتَبَّعَ مَنْ فَرَّتْ مُرَجِّيَةً سَلَامَةً وَأَوَتْ خَوْفاً مَآوِيْهَا

وَأَنْ تُصَانَ فَلَا تُفْجَا مَنَازِلُهَا بِدَاخِلِيْهَا لِيَلْقَى ٱلْأَمْنَ ثَاوِيْهَا

وَقَالَ : إِنْ هِيَ إِلَّا فِرْقَةٌ سَلِمَتْ مُذْ أَسْلَمَتْ وَكِتَابُ ٱللهِ حَامِيْهَا

وَإِنْ تَخَطَّتْ حُدُودَ ٱلشَّرْعِ جَاهِلَةً فَٱللهُ يَغْفِرُ مَاضِيْهَا بِآتِيْهَا

وَصَاحَ بِٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ ٱلْـ ـزَمْ خِدْرَ عَائِشَةٍ كُنْ أَنْتَ آوِيْهَا
وَبَعْدَ أَنْ نَقَلُوْا بِٱلْعَطْفِ هَوْدَجَهَا وَضَيْعَةُ ٱلنَّصْرِ فِيْ ٱلنِّيْضَالِ تُشْجِيْهَا
نَادَى ٱلْوَصِيُّ : ٱحْرِقُوْا هٰذَا ٱلْبَعِيْرَ وَذُ م رُّوْا فِيْ ٱلرِّيَاحِ بَقَايَاهُ لِتُسْفِيْهَا
عَلَيْهِ لَعْنَةُ رَبِّيْ قَدْ تَشَبَّهَ بِٱلْـ ـعِجْلِ ٱلَّذِيْ قَدْ غَوَى آسْرَائِيْلَ تَشْبِيْهَا
وَسَارَ لِلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا فَوَاصَلَهَا مُسَالِمَاً وَٱعْتَنَى فَضْلاً بِأَهْلِيْهَا
أَلْفَى هُنَالِكَ أَمْوَالاً فَخَصَّصَهَا بِنَاصِرِيْهِ بِهَا أَغْنَى مُفِيْئِيْهَا
وَأَعْلَنَ ٱلْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ عَصَاهُ وَمَنْ مَا لَا ٱلْعِدَاةَ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ مُخْزِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِبَادِ ٱللَّهِ مُنْتَقِمَاً وَقَدْ أَطَاعَتْ وَعَدَّتْ عَنْ تَعَصِّيْهَا

مصير الزبير بن العوام

فَرَّ ٱلزُّبَيْرُ مِنَ ٱلنِّيْرَانِ خَلَّفَهَا لِقَوْمِ أَحْمَدَ تَقْلِيْهَا وَتَشْوِيْهَا[١]
وَقَدْ تَنَدَّمَ عَمَّا جَرَّ مِنْ إِحَنٍ عَلَى ٱلْخِلَافَةِ مَا سَهْلٌ تَلَافِيْهَا

---

(١) فرَّ الزبير من واقعة الجمل قبيل اشتباك الفريقين في القتال حاسباً فراره هو الغنيمة لأنّه ذكر في كلام سيدنا علي له وفيما ذكره من حديث المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام ما جدَّد في نفسه العواطف الدينية والإنسانية معاً وإذ كان ذا ضميرٍ حيّ ٍ ووجدانٍ صحيح تجسم أمام عينيه الشرُّ الذي أقدم عليه فرأى أنّه في تلك الفتنة مسيءٌ قبل كل شيء إلى الإسلام ومن ثمَّ إلى رسول الله ووصيّه عليهما الصلاة والسلام ومن ثمَّ إلى المسلمين ومن ثمَّ إلى أخواله الهواشم فكبر ذلك عليه وعاد إلى هداه وإذ كان يعرف أنَّ تلافي الفتنة ليس في طوقه ولا أمر العصاة في يده فيصرفهم عن عصيانهم اكتفى بوعد سيدنا علي أمير المؤمنين بأن لا يخوض غمار الحرب وعزَّز وعده بصادق الإيمان على أنّه لم يحنث بيمينه ولم ينكث عهده برضائه ولكن أرغم عليه بإلحاح ابنه عبد الله أن يظلّ بين العصاة حتى لا يقال أنّه فرَّ من القتال جبناً لأنّ الجبن عند العرب داعية الذلّ والخزلان بل هو العيب الكبير الذي لا يرضاه من كان ذا مكانة فيهم كالزبير فنصل سنان رمحه وبرز للقتال مفرداً متعرضاً لنبال أنصار الخلافة وربما كان يتمنى في =

وَكَـانَ إِذْ غَـادَرَ ٱلْمَيْـدَانَ مُكْتَئِبَـاً   عَلَى ٱلشُّـرُوْرِ ٱلَّتِيْ قَـدْ فَـاتَـهُ فِيْهَـا

= خـروجه ذاك أن تصيبـه نبلةٌ فتقتله كفارةً عن الـذنب الذي جنـاه بعصيان أميـر المؤمنين ووصي رسول ربّ العالمين وما هذا ببعيد عن مثل الزبير وإخلاصه لـدينه ونبيـه وآل بيته هذا هو اعتقادنا فيه بل اعتقـاد أمير المؤمنين نفســه الذي كـان يقول « مـا زال الزبيـر منّا حتى كبر ابنه عبد الله فصرفه عنّا » .

وبعد أن فرَّ الزبير من الموقعة وفي حالةٍ من الندم واليأس يدركها من يتصور حالته وهو فارّ ووراؤه المسلمون يقتتلون بفتنةٍ كان يحب أن لا تكون لو خلصت النوايا وعدمت المطامع وانصرفت النفوس إلى المصلحة العامة أخذ يتنقل بجواده بين الجبال والوديـان حتى انتهى إلى موضع يدعى « وادي السباع » فنزل فيه .

وكان في وادي السباع جمـعٌ من بني تميم زعيمهم الأحنف بن قيس وكانـوا هناك معتـزلين الفتنة التي شجـرت بين المسلمين آسفين لحدوثهـا وبينما الأحنف جـالس في مجلسه والناس حوله وإذا بوافد عليه من قومه ينبئه بوصول الزبير فارّاً من القتال فحـوقل ذلك الأمير واسترجع وقال بصوت عال « ما أصنع بالـزبير وقـد لفَّ غارين من المسلمين حتى أخذت السيوف منهما مأخذها انسـلَّ وتركهم أمّـا أنّه لخليق بـالقتل قتله الله » ومن أمعن النظر في قول الأحنف هذا ظهر له مبلغ الكمد الـذي كان يشعـر به لحـدوث هذه الفتنة وأنّه كان يعتقد أنّ الزبير هو في مقدمة الذين كانوا مثيريها .

وكـان من جملة النـاس الملتفين على الأحنف في مجلســه ذاك رجـل يـدعى عمـرو بن جرمـوز وكان قـاتلاً فـاتكاً فلمـا سمع كلمـات الأحنف حدثتـه نفسه أن ينتقم للمسلمين من الزبير فأسرَّ ذلك في نفسه وأعدَّ له عدّته .

أمّا الزبير فقد بلغه مقال الأحنف فيه فخاف على نفسه القتل وبادر فامتـطى جواده طالباً الفرار وما كاد يبعد قليلاً حتى رأى فارساً يتبع خطواته ولما دنا منه وقف وقال : مـا شأنك ؟ قال عمرو بن جرموز وكان هو المقتفي خطواته : جئت لأسـألك عن أمـر الناس الذين تركتهم وراءك قال الزبير : إنّي تركتهم قياماً في الركب يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف . فسار ابن جرموز معه وكلٌّ منهما يتّقي الآخر على أنَّ ابن جرموز كان بين حين وآخر يعود فيسأله عن الناس وما هم فيه من الحرب ومـا زالا سائـرين إلى أن حضرتهمـا الصلاة فقال الزبير : يا هذا إنا نريـد أن نصلّي فقال ابن جـرموز : وأنـا أريد ذلـك قال=

وَسَارَ فِيْ فَلَوَاتِ ٱلْأَرْضِ مُخْتَفِيَاً عَنِ ٱلْأَنَامِ فَلاَ يَرْنُوْهُ رَائِيْهَا

=الزبير : فتؤمنني وأؤمنك . قال نعم . وهكذا نزلا عن جواديهما عند نبع ماء وأخذا يتوضئان ثمَّ مال الزبير إلى الصلاة فما كاد يسجد سجدته الأولى حتى شدَّ عليه عمرو بن جرموز بسيفه فاحتزَّ رأسه وأخذ خاتمه وسيفه وحثا على جثمانه التراب ورجع على الفور إلى الأحنف بن قيس فأخبره بما فعل وهو يحسب أنّه قد أحسن صنعاً . فقال الأحنف : والله ما أدري أسأت أم أحسنت ؟ إذهب إلى علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ومفتي المسلمين وأخبره بما صنعت فأسرع عمرو بن جرموز على جواده وخاتم الزبير وسيفه معه قاصداً أمير المؤمنين عليه السلام .

سار ابن جرموز قاصداً البصرة وهو يعلم أنَّ أمير المؤمنين مخيمٌ في ضواحيها يحارب العصاة على ما كان أخبره الزبير وكان يعلّل نفسه ببعيد الآمال فيحسب أنَّ سيدنا علي سيلقاه بصدره الرحب وثغره الباش ويطلق لسانه على بلاغته المشهورة بالثناء على همّته ونجدته ويغدق عليه من الخيرات الشيء الكثير لأنَّه قتل كبيراً من عصاة خلافته وربما علل نفسه في الحصول على أمارة في مصر من أمصار المسلمين مكافأةً على صنيعه هذا وما زال يطوي به جواده الأرض وهو محلق في سماء الخيال طامعاً ببعيد الآمال حتى دنا من البصرة فعلم من الناس بانجلاء موقعة الجمل عن نصر سيدنا أمير المؤمنين ودخوله البصرة ظافراً غانماً فازدادت مطامعه بالمكافأة قائلاً في نفسه : كم سيكون أمير المؤمنين مغتبطاً مسروراً بعد انتصاره على أصحاب الجمل عندما سيقف على بشرى مقتل الزبير الذي ما فرَّ إلاّ لإثارة فتنة أخرى على خلافته ؟ وبهذه النية دخل ابن جرموز البصرة وقصد رأساً سيدنا أمير المؤمنين في دار الأمارة فألفاه في مجلسه يعمل لإصلاح الفاسد ومداواة المعتل والعمل على ما فيه خير المسلمين فسلّم عليه بالأمارة ووضع بين يديه خاتم الزبير وسيفه وقصَّ عليه أمره معه لم يخف عنه شيئاً كل ذلك وأمير المؤمنين عليه السلام يصغي وعيناه تحدقان بسيف الزبير الملقى أمامه حتى إذا ما انتهى ابن جرموز من سرد قصته صعَّد إليه بصره وقال له : أنت قتلته ؟ قال : نعم . قال أمير المؤمنين : « والله ما كان ابن صفية جباناً ، ولا لئيماً ، ولكن الحين ومصارع السوء » وصمت قليلاً ثمَّ قال : ناولني هذا السيف . فأسرع ابن جرموز بالتقاط السيف وتقديمه إلى سيدنا علي فتناوله بيده الشريفة وأخذ يهزُّه مراراً وقال : « هذا سيف الزبير وطالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله » فقال ابن جرموز وقد بدأ يفهم أن مطامعه=

جَــرَى بِــهِ خَبَبَــاً يَسْعَى مُــطَهَّمُــهُ   يَعْلُوْ ٱلْجِبَــالَ وَيَهْـوِيْ فِيْ مَهَـاوِيْهَـا

=بعيـدة التحقيق : أين الجـائـزة يـا أميـر المؤمنين وقـد قتلت أعـدى أعـداء خـلافتـك ؟ فتبسّم عليه السلام وقال أتطلب الجائزة يـا ابن جرموز وقد قتلت الـزبير حـواري رسول الله ؟؟ والله لـولا دخولـه في الفتنة حتى أهـدر الشرع دمـه لقتلتك بـه ولكن جائـزتك هي التي أعدّها الله لقاتله فقد سمعت رسول الله يقول : « بشّر قاتل ابن صفيّة بـالنار » فلمّـا رأى ابن جـرموز أنّ جـائزتـه هي تبشيره بـالنار وأنّـه لولا الشـرع وإحلالـه دماء العصـاة على الخلافة لكان مقتولاً بالزبير هرول هارباً ناقماً راضياً من الغنيمة بـالسلامـة وفي نفسه من العداء لسيدنا علي ما فيهـا ثمَّ خرج على أميـر المؤمنين مع أهـل النهر لضيعـة مطامعـه وخيبة آماله فقتله عليه السلام معهم .

هكذا ختمت حياة الزبير بن العوام الذي صـرعته مصـارع الحين كما قـال سيدنـا أمير المؤمنين والذي يستلفت النـظر في هذه القصـة هو كمـال سيدنـا أمير المؤمنين في أخلاقه العالية ذلك الكمال الذي رفَّعه عن الحقد والضغينة وحب الانتقام من رجل أقـلُّ ما يقال فيه أنّه كان من زعماء الذين ألَّبوا الناس عليه وحملوه على أن يفتتح عهد خلافته بسفـك دماء المسلمين . لا جـرم أنّ هذا العلوّ في الأخـلاق الفـاضلة لا يكـون إلّا في نفس من عـلا الناس بقـداسته وطهـارته وإيمـانه كـالإمام الأعـظم أمير المؤمنين سيـدنـا علي بن أبي طـالب عليه السلام ولو كـان غيره في مـوقفه لمـا أمهل أن صفق طـرباً لمن وافـاه يبشّره بهلك أعدى عداة خلافتـه ولكن أنعم على قاتله بـالهيل والهيلمـان وضمه إلى من حوله من الأنصار والأعوان ولكن حاشا لأمير المؤمنين أن يكون كـذلك . إنّـه عليه السلام كان كعميد للمسلمين ينظر إلى جمهـورهم نظر الأب إلى البنين فهـو لا يحقد على العـاصي ولا يحفظ في صدره ضغينةً على المعـادي بل يـطلب للجميع الصـلاة والإصلاح شـأن الأب المربي . إنّه ما كتم أسفه لمصرع الزبيـر ولا نسي خدمـات هذا الصحـابي الكبير للإسلام على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام فأنسـاه فضله هذا إسـاءَته الأخيـرة لخـلافتــه ولا عجب في ذلــك وهــو يعــرف معنى قــول الله ﴿ **الحسنــات تــذهبن السيئات** ﴾ وأبى إلّاأن يهزَّ سيف الزبير ويذكر لصاحبه مـواقفه في الغـزوات النبويـة كما أبت عليه نفسه الشـريفة أن يكتم قـاتله بأنَّ جـزاءَه النار وأنّـه لولا أن يهـدر الشرع دمـاء العاصين على الخلافة لقتله بالزبير . وبذلك كان سيدنا علي بن أبي طالب أفضـل قدوة للأمراء المسلمين في معاملة رعاياهم فلا يحقدون عليهم ولا يمكرون بهم ولا يكيـدون لهم أحياءً وأمواتاً . =

حَتَّى إِذَا حَلَّ فِيْ وَادِيْ ٱلسِّبَاعِ رَأَى   أَنَّ ٱلْهَنَا عِنْدَهَا فِيْ قَعْرِ وَادِيْهَا

= وأقول هنا والشيء بالشيء يذكر إنّ هذه القصة كنت سمعتها من فم عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان للمرة الأولى في سنة ١٩١١ ميلادية ففي تلك السنة كنت في المعية السنية في المحمرة وحدث فيها حادث يحسن بنا تلخيصه للتاريخ لما فيه من العبرة البالغة وهو :

في خلال سنة ١٩١٠ عيّن الاتحاديون الذين كانوا مسيطرين على الدولة العثمانية رجلاً منهم يدعى سليمان نظيف والياً لولاية البصرة وهي كما تعلم على حدود المحمرة ومرّ هذا الوالي بمصر فاجتمعت به وذكرت له فساد السياسة التركية مع العرب وأمرائهم ووجوب تبديلها بسياسة أنفع للأتراك والعرب ولا سيما في العراق واليمن وذلك بمسالمة الأمراء المجاورين وإنصاف أهالي المدن الخاضعين للحكم العثماني مباشرةً وقلت إنّها السياسة الوحيدة التي يرجى من ورائها تجديد مجد الدولة العثمانية كما يحب العرب والأتراك معاً فأظهر ذلك الوالي حسن النية في سماع نصائحي التي هي نتيجة درس واختبار طويلين وسار إلى البصرة وبالفعل سار عليها وتودّد إلى عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان وساكن الجنان الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت أجمل تودّد وكانت أجمل مظاهر سياسته تلك أنّ الأمان قد استتب في ولاية البصرة لأنّ الأشقياء الذين كانوا يغتنمون فرصة غضب هذين الأميرين العظيمين وهما صاحبا الحول في هاتيك الأطراف من سوء سياسة الولاة الأتراك فيعوثون في البلاد فساداً قد تهيبوا هذا الوفاق لعلمهم إنّ الدولة العثمانية إذا كانت تعجز عن تأديبهم فالأميران لا يعجزان وهكذا بقيَ سليمان نظيف والياً في البصرة ثمانية أشهر والولاية على أحسن ما يكون من الأمن لا بفضل تدابيره ولا بسطوة دولته ولكن بنفوذ الأميرين الجليلين المشار إليهما وهما في الحقيقة صاحبا الحول والطول وكان من حسن حظ العرب توثّق عرى الوداد بينهما حتى كانا كأخوين متضامنين .

غير أنّ الطبع غلاب والاتحاديون لم تكن سياستهم في الدولة العثمانية سياسة تأمين وتعمير بل سياسة ضغط وتوسع فصعب على سليمان نظيف بل وعلى الوزارة الاتحادية في الآستانة نفسها أن يكون الأمر في سواحل العراق بيد هذين الأميرين العظيمين وكانا على اتحاد تام فحدثتهم نفوسهم الشريرة بالاعتداء عليهما وبالفعل انقلب سليمان نظيف بين عشية وضحاها على الأميرين وابتدأ العدوان ضد إمارة =

= المحمرة في حديث يطول وكانت نتيجة اعتدائه هذا أن تحوَّلت هذه السياسة الاتحادية الخرقاء إلى مشكلة دولية حملت الدولة الإنكليزية الوفية على الظهور بمظهرها الحقيقي وهو المحاماة عن حقوق أمراء العرب وأسرعت الوزارة الاتحادية لإخفاء خزلانها بعزل سليمان نظيف عن البصرة وكان لي في هذا الحادث يد معروفة لأنّي ذهبت وقتئذٍ إلى بغداد وقابلت ناظم باشا الذي أرسله الاتحاديون إلى العراق لإكراه ناسها على الاستسلام لإدارة الاتحاديين القاهرة وهي ترك لغتهم وجنسيتهم العربية الشريفة بالقسر فحدثت ناظم باشا عن فساد سياسة سليمان نظيف وما ستجرُّ على الدولة من المشاكل وأنا أحسبه عاقلاً نزيهاً فإذا هو شرّ من أصحابه وإذ لم يقنع من قولي أرسلت التيلغرافات العديدة لطلعت بك وشوكت باشا زعيمي الاتحاديين في وزارتهم وقتئذٍ . وعلى أثر جهادي هذا وإخلاصي اعتدى ناظم باشا على حريتي وأخرجني من بغداد باستبداد التركي الغشوم في حديث غريب ليس هنا محلّه .

أذكر أنني بعد عودتي من بغداد إلى المحمرة المحمية كنت مرة في حضرة عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان في مجلسه العامر بأهل العلم والفضل وإذ ذكر ذاكرٌ سليمان نظيف وعزله وارتحاله عن البصرة مخذولاً فقال عظمته حفظه الله تعالى لا تذكروه بشرّ فقد فعل ما فعل تنفيذاً لرغبات الدولة التي ائتمنته على مصالحها وإذا كان عمله قد جرَّ عليه أو على دولته الضرر فما الذنب عليه بل على الوزارة التي عملت برأيه أو حملته على السير على ما ارتأت وإنّي لست بحاقد عليه إنّها مشادّة بين العرب والأتراك فهم يحاولون أن يستعبدونا ونحن نحاول أن لا نكون عبيداً لهم : فأعجب الحاضرون بهذه الأخلاق الفاضلة المزدانة بها تلك النفس العالية نفس الحضرة السنية الخزعلية فقال روحي فداه لا تتعجبوا فأين أنا من أبي الحسن عليه السلام ألم تسمعوا بما قاله يوم قتل الزبير بن العوام وجاءَه قاتله يستجيزه وقصَّ علينا قصة الزبير . ثم قال حفظه الله : ألا أن من يريد أن يتعلم مكارم الأخلاق فليتربَّ على يدي سيدنا أمير المؤمنين وليتأدّب بأدبه فازددنا إعجاباً بهذا الأمير العظيم بارك الله فيه وقلت في الحال مرتجلاً :

الله أكبر يا معزُّ فأنت أفضل من تسوَّد في الأعارب أو حكم
وأبرُّ مَن تبع العليَّ مقلّداً   أحكامه ومردّداً عنه الحكم
لا غروَ أن أضحت بك العرب الكرا   مُ بعزةٍ تعساءَ تحسدها العجم
=

= فلقـد حلمت عن العـدى حتى لتأ بى أن تَنـالَ وقـد بغت بغيـاً بـذم
وكـذاك كـان المـرتضى لعـداتـه وكـذا يكـون المجـد حقّـاً والكـرم

« ترجمة الزبيـــر »

هو أبو عبد الله الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي فيجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقصيّ . وأمّـه صفية بنت عبـد المطلب بن هـاشم عمّة المصـطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام . أسلم الزبير وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان إسلامه بعد أبي بكر بقليل وهاجر إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة ثانياً . وهو أحد العشرة المشهـود لهم بالجنّـة وأحد الستـة الذين خصّهم عمـر بـالشـورى . وقـد شهـد الـزبيـر المشـاهد كلّهـا مع رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وكان أول من سـلَّ سيفاً للجهـاد في الإسـلام . وآخى الـرسول بينـه وبين سلمة بن سـلامة من الأنصـار . وكان يـدعى الـزبيـر حـواري رسـول الله والحواري معنـاه الخالصـة أو المخلص تقول فـلان خالصـة فلان وخلصـانه وحواريه وسبب تلقيبه بهذا اللقب الشـريف هو أنّـه في يوم الأحـزاب في غزوة الخنـدق لبّى دعوة الرسول إذ انتدب ثلاثاً مَن يأتيه بنبأ القوم فكان الزبير ملبّيه فيهـا فقال إنّ لكـل نبيٍّ حواري وحواريَّ الزبير . وكان الزبير مع عمرو بن العاص يوم فتح مصـر على عهد عمر بن الخطاب . وقد كان الزبير أشدّ الصحابـة تمسكاً بـالولاء لبني هـاشم على عهد الرسول لأنّهم أخواله وكانوا يحسبونه واحداً منهم .

وكان الزبير أشدَّ الناس كدراً لضياع الخلافة من سيدنـا عليّ في يومِ السقيفـة ولم يبايع أبـا بكر إلّا وهـو مكره إذ لجـأ وقتئذٍ إلى بيت سيـدتنا فـاطمة وجـاءَه عمر والسيف مشهر بيده واستاقه قهراً إلى أبي بكر حتى بـايعه والقصـة مشهورة وكـان يصحب فاطمـة الزهراء عليها السلام لاستنهاض المهاجرين والأنصار لنكث بيعة أبي بكر ومبايعة عليّ وأحـاديثه في الانتصار لأمير المؤمنين عليه السلام كثيرة أجمع المؤرخون على صحتها .

وعندما عـاد عبد الـرحمن بن عوف يـوم الشورى من مشـاورة الناس وأنبـأ الزبيـر بوجوب مبايعة عثمان أنكر عليه ذلك ونادى ليس لها إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام . ولم ينقلب الـزبير على سيـدنا علي إلّا بعـد أن كبر ابنـه عبد الله فـأثر عليـه وأبعد قلبـه عن موالاته طمعاً بالخلافة على ما سترى في ترجمة عبد الله هذا . =

وَلَمْ تَكُنْ عَنْ قِتَالِ ٱلْقَوْمِ رَاضِيَةً   فَحَايَدَتْهَا وَقَرَّتْ فِيْ مَثَاوِيْهَا

= وكان الزبير شديداً على عثمان يغري الناس بقتله كما كان بقية وجوه الصحابة والأنصار وكان في مقدمة من بايعوا سيدنا علي بايعه بعد طلحة ثمَّ كان في مقدمة المنقلبين عليه على ما سبقت الإشارة وتلا ذلك مسيره مع أصحاب الجمل لحربه ففراره إلى أن قتل غيلةً كما تقدم القول وكان مقتله وهو في السابعة والستين من عمره . وكان الزبير أسمر اللون ربعة في القوام معتدل اللحم خفيف اللحية أسود الشعر فصيح اللسان .

أمّا مدينة الزبير التي دعيت باسمه فهي تبعد ثمانية أميال عن البصرة وقد بنيت على الأرض التي جرت عليها موقعة الجمل وكان في موضع هذه المدينة قبر الزبير ولم نجد فيما بين أيدينا من التواريخ كيفية نقل رفاته من وادي السباع إلى هذا الموضع ولا أسماء الذين نقلوها ولكن قبر الزبير كان هناك من عهد عهيد وكان متهدماً وكان بجواره خان تنزل فيه القوافل وهي سائرة من البصرة إلى الشام وبنيت بجواره بضعة بيوت من الآجر وسوق صغيرة من قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة .

وعندما ظهر الشيخ أحمد عبد الوهاب الشهير في نجد بدعوته وأيّده الأمراء آل سعود ترك نجداً كثيرون من ذوي البيوتات النجدية الكريمة منهم آل زهير وآل بسام وآل ثاجب وآل فداغ وآل مشري وآل منديل وسكنوا في هذا الموضع ودعوه على إسم الزبير وابتنوا بجوار قبر الزبير مسجداً للصلاة وأخذ الناس يتبعونهم ويجاورونهم فكبرت بهم المدينة واشتهرت بتجارة الخيل يستوردونها من نجد ويرسلونها بطريق البصرة أو الكويت إلى بومباي لتباع في أسواق الهند ويبلغ عدد سكان هذه المدينة الآن نحو عشرة آلاف نسمة وكان الحكم فيها لآل زهير ظلّوا يحكمونها إلى منذ أربعين سنة وكان آخر حكّامها منهم المرحوم سليمان الزهير الشهير . ثمَّ تسطت عليها الدولة العثمانية بعد أن تسطت على البصرة واستخلصت حكم هذا البلد من آل سعدون وجعلتها قصبةً تابعة للبصرة إلاّ أنّها أبقت الزعامة فيها لأهلها العرب وكان حاكمها الأخير على ما أعهد منذ أعوام صاحب السعادة عبد الكريم آل مشري .

وليس في الزبير وضواحيها زراعة لعدم وجود الماء هناك ولذلك عمد كثيرون من أشراف الزبيريين إلى الانتقال إلى البصرة فأصبحت أكثر العائلات الكريمة التي أشرنا إليها ساكنة البصرة اليوم ولكن ظلّ لها أقرباء وعلائق عقارية ومالية في الزبير . =

وَبَيْنَمَـا ٱلْأَحْنَفُ ٱلْمُقْـدَامُ مُجْتَمِـعٌ   بِصَحْبِـهِ بِـٱلَّـذِي يَجْـرِيْ يُفَـاهِيْهَـا

= « ترجمة عبد الله بن الزبير »

هـو عبد الله بن الـزبير بن العـوام وأمّـه أسمـاء بنت أبي بكـر أخت عـائشـة زوج رسول الله ﷺ لأبيها وعندما هاجرت أمّه إلى المدينـة مع زوج أبيهـا أم رومان وأختهـا عائشة كانت حاملاً به فولدتـه في « قباء » فكـان أول مولـود للمهاجـرين وجاءَت بـه إلى رسول الله ﷺ فوضعته في حجره فدعا بتمرة فمضغها ثمَّ تفـل في فيه فكـان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ثمَّ حنّكه بتلك التمرة ودعا له وبـاركه . وكـان فرح المسلمين بمولد عبد الله كبيراً لأنّ اليهود كانـوا يقولـون إنّ المسلمين سوف لا يلد لهم ولـد . وقد دعاه رسول الله عبد الله وكنّاه بكنية جدّه « أبي بكر » .

وكان الزبير شديـد الشغف بولـده عبـد الله كمـا كان المسلمـون يحبّونـه للسبب الأنف ذكـره وعندمـا بلغ السابعـة من عمره أرسله أبـوه الزبيـر إلى المصـطفى ليبـايعـه فتبسّم ﷺ وقبل بيعته .

ثمَّ إنَّ عائشة إذ لـم يرزقها الله ولداً انصرفت إلى تربية ابن أختها عبد الله بن الزبير والعناية به وكانت تحبّه حباً جماً وقالت عائشة للمصطفى يوماً وقد يئست من الولد بمـاذا أكنّى وليس لي ولد فقال ﷺ بابن أختك عبد الله فصارت تكنى « بأمّ عبد الله » .

وشبَّ الـزبيـر بين يـدي خـالتـه فـأثـرت على أميـالـه وأبعـدتـه عن ولاء سيـدنـا علي عليه السلام مع موادّة بني هاشم حتى إذا ما بلغ الشبـاب صار يؤثّـر على أبيه ويبعـده عن عليّ وبني هاشم . ودخل على نفس عبد الله بن الزبير الطمـع بالخـلافة من يـوم حصر عمر حقّ ولايتها بالستة وأبوه أحدهم فكان يحلم بأن يكون أبوه الخليفة وفي أيام عثمـان كان عبد الله بن الزبير من أشدّ الناس على عثمان يقدح به ويحرش النـاس عليه . حتى إذا ما قتل عثمان وخاب فأل خالته بولاية طلحة أسـرع إلى مكة وانضمَّ إليهـا قبل مسيـر أبيـه وطلحة إليهـا . ورافق عائشـة وأصحاب الجمـل إلى البصـرة وكـان في مـدة حملة الجمل هو الذي يصلّي بالناس بأمر عائشة كما تقدم . كما كان عبد الله هذا هو الـوسيط الوحيد بين الناس وعائشة فهو الذي أحضر لها جمل العـرني لتركبـه وهو الـذي هددهـا بجيش سيدنا علي عنـد « الحوأب » حتى حملهـا على استئناف المسيـر بعد أن عـزمت على الرجوع تائبةً نادمةً . وكذلك كان هو الذي أثّر على أبيه الزبير ليحنث باليمين التي =

= حلفها لسيدنا علي أن لا يحاربه . وعندما أظفر الله سيدنا علي بأصحاب الجمل عرض عبد الله هذا أن يبايعه عليه السلام بواسطة محمد بن أبي بكر فرفض بيعته لعلمه بأنّه غير صادق بها وعفا عنه فهرب إلى الشام وانضمَّ إلى معاوية وحضر معه موقعة صفّين الشهيرة .

وبعد مقتل سيدنا علي عليه السلام ورضاء سيدنا الحسن ببيعة معاوية ذهب عبد الله بن الزبير إلى المدينة وأقام فيها وكان معاوية يغدق عليه نعمه شأنه مع أعاظم رجال قريش ووجوه الأنصار على أنّ عبد الله بن الزبير كان في جملة الذين انقلبوا على معاوية عندما أرسل يطلب منه ومن أمثاله من كبار أبناء الصحابة والأنصار الرضاء ببيعة ابنه يزيد فرأى معاوية بعد أن استوثق من أهل الشام والعراق لابنه أن يسير بنفسه إلى المدينة ليستعمل نفوذه عليهم ويحملهم على الرضى بيزيد وقبل وصوله إلى المدينة أسرع سيدنا الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير هذا إلى مكة وهم مصممون على رفض البيعة ليزيد ومقاومتها مهما كانت الحالة . وكان معاوية يهمّه بيعة هؤلاء قبل كل مَن في المدينة لأنّهم كانوا وقتئذٍ أكبر وأوجه أولاد المهاجرين فلمّا وصل المدينة بخيله ورجله وهيله وهيلمانه وسمع أنَّ هؤلاء الزعماء الثلاثة قد تركوها وساروا إلى مكة كرمها الله تبعهم إليها وهو يتظاهر أنّه يريد النسك والحج فلما بلغها استدعاهم إليه وطلب منهم البيعة لابنه يزيد وعللهم بأن يكونوا في ولايته أصحاب الحلّ والعقد فلم يجب سيدنا الحسين وقال عبد الله بن الزبير أنّ الأولى أن تتركها شاغرة كما تركها رسول الله فيختار الناس لها من يشاؤون أو أن تعهد بها إلى رجل ليس من بني أبيك كأبي بكر أو أن تجعلها في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولدك ولا بني أبيك كما فعل عمر فحاول معاوية أن يستدرجهم بالوعود إلى موافقته على بيعة يزيد فما أفلح معهم وأصرّوا على إباء البيعة فقال : أحببت أن أتقدم إليكم ، إنّه قد أعذر من أنذر ، إنّي كنت أخطب فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنّي قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدٌ منكم كلمةً في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجلٌ إلّا على نفسه . وبعد أن أتمَّ كلماته هذه دعا بصاحب عسكره بحضرتهم وقال : أقم على رأس كلّ رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجلٌ منهم يردُّ عليَّ كلمةً =

نَـادَى : وَمَاذَا أَنَـا بِـآللَّهِ أَفْعَـلُ بِـآلـــزُّبَيْــرِ مُشْقِيْ عِبَـادِ آللَّهِ مُـؤْذِيْهَـا

=بتصديق أو تكذيب فليضـرباه بسيفيهمـا ثمَّ قال : ومنذا أنا ذاهب إلى المسجـد فسقهم إليه . وبالفعل خرج معاوية المسجد وكان غاصاً بالناس بدعوة معاوية واستيق إليه سيدنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وقام على رأس كـلِّ منهم رجلان مشهـران سيفيهما . وعلا معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إنَّ هؤلاء الرهط ، (وأشار إلى الثـلاثـة) سـادة المسلمين وخيـارهم ، لا يبتـزُّ أمر دونهم ، ولا يقضى إلاّ عن مشورتهم ، وأنّهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعـوا على إسم الله » فلم يكن في الناس إلاّ المبايع لأنّهم لو أرادوا أن لا يبايعوا لما استـطاعوا إلى ذلـك سبيلاً ولأنّهم رأوا سـاداتهم والسيوف مشهرة على رؤوسهم فتهيبوا موقفهم وبعد أن أكـره هؤلاء الثلاثـة على البيعة عادوا إلى المدينة وفي نفوسهم ما فيها على الحقّ المغصوب والأمر المسلوب .

وعندما مرض معاوية مرض الموت دعا إليـه ابنه يـزيد فـأوصاه وصيتـه وأهمها أن يكرم أهل الحجاز ويبرُّهم وأن يمالىءَ أهل العـراق بحيث إذا طلبوا منـه في كل يـوم أن يعزل عاملاً فليفعل وأن يعتصم بأهل الشام ويتخذهم بـطانته ثمَّ قـال : ولست أخاف أن ينازعك في الخلافة سوى أربعة أولهم الحسين بن علي وهذا سوف لا يدعه أهل العراق فإذا ظفرت به فلا تتعرَّض له بسوء لقرابته من رسول الله . والثاني عبد الله بن عمـر وهذا وقذته العبادة فإذا رأى الناس قد بايعوك بايع . والثـالث عبد الـرحمن بن أبي بكر وهـذا ليس له همة سوى في اللهو والنساء فيصنع ما يصنع الناس . والرابع عبد الله بن الـزبير وهذا سيجثم لك جثوم الأسد ويروغك مراوغة الثعلب فإن هو فعلهـا فظفـرت به فقـطعه إربـاً إربـاً اهـ وتـرى من هـذا أنّ معـاويـة لم يكن يحسب حسـابـاً إلاّ لسيـدنـا الحسين وعبد الله بن الزبير .

وعنـدما تـوفي معاويـة في هـلال رجب سنـة ٦٠ للهجـرة « ٧ إفـريـل سنـة ٦٨٠ ميلادية » نادى ابنه يـزيد بنفسـه خليفةً للمسلمين فبـايعه النـاس في دمشق ثمَّ كتب إلى الأمصار فبايعته وكان همّه الأعظم أن يأخذ بيعة النفر الـذين ذكرنـاهم فكتب بذلـك إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة ما نصّه « أمّا بعد فخـذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذاً ليس فيـه رخصة حتى يبـايعوا والسـلام » فلما ورد نعي معاوية على المدينة المنوَّرة وهمَّ الوليد بن عتبة بالعمل حسبما أمره يزيد أسرع عبد الله بن الزبير إلى مكة وقال للناس : إنّي عائذٌ بالبيت . ولم يكن يصلّي مع النـاس=

قَـدْ لَفَّ غَـارَيْنِ مِنْ أَخْيَـارِ أُمَّتِنَـا بِفِتْنَـةٍ نَـارُهَـا تُعْيِي مُـطْفِيْهَـا

= أو يفيض في الحج بإفاضتهم . وفعل مثل ذلك سيدنا الحسين فخرج بأولاده ونسائه وأولاد ونساء أخيه الحسن إلى مكة وبايع عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ليزيد بعد أن بايع الناس .

وعندما أقبل سيدنا الحسين على مكة أقبلت الناس عليه وفيهم عبد الله بن الزبير وكان هذا يعلم يقيناً أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين موجوداً فكتم ما في نفسه واتضع لصاحبه . حتى إذا ما دعا العراقيون سيدنا الحسين إليهم ليبايعوه ولبّاهم وسار إليهم أخذ عبد الله بن الزبير يترقب سير الحوادث وهو ينوي أن يعلن الدعوة لنفسه سواءً ظفر الحسين على معاوية بمعاونة العراقيين أو خُذل . فلما انتهى إلى عبد الله بن الزبير نبأ فاجعة المسلمين الكبرى بمقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا الناس إلى بيعته فبايعه الحجازيون وكان سبق ذلك عصيان أهل المدينة وأرسل يزيد بن معاوية مسلماً بن عقبة لقتالهم فسار إليهم وحاربهم وانتهك حرمة مدينة الرسول وأخضعهم بالسيف . وعلى أثر ذلك سار بأمر يزيد إلى مكة لإخضاع عبد الله بن الزبير اللائذ بالبيت العتيق فانتهى إلى مكة لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ فصمد له عبد الله بن الزبير وطال القتال ورمى رجال يزيد مكة كرّمها الله والبيت العتيق بالمجانيق وما زال القتال مشتبكاً حتى ورد على مكة نعي يزيد وقد مات لأربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوڤمبر ٦٨٣ ميلادية » فوقف القتال وارتدّ جيش الشام أدراجه وظلّ عبد الله بن الزبير ولي الأمر في مكة كرّمها الله وكل الحجاز .

وخلف يزيد ابنه معاوية الثاني وهذا لم تطل مدّته فاعتزل ومات وخلفه مروان بن الحكم كما مرَّ معنا في ترجمة مروان وهذا قاتل الضحاك وغلبه وكان هواه مع عبد الله بن الزبير ومات ولا يزال عبد الله بن الزبير ولي أمر المسلمين في الحجاز . ولما مات مروان خلفه ابنه عبد الملك بن مروان وهذا رأي الحجاز والعراق منتقضتين عليه فقرَّ رأيه على أن يبدأ بمحاربة العراق ثمَّ يذهب إلى إخضاع الحجاز فلم يفلح بحربها وامتدَّت سلطة عبد الله بن الزبير إلى العراق . ثم أنّ عبد الملك سار بنفسه إلى العراق وحاربها وأخضعها ووجّه وهو في الكوفة حملةً على الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي وذلك سنة ٧٢ للهجرة وبوصوله إلى مكة حصرها ورماها بالمجانيق ولم يزل كذلك حتى أضنى أهل مكة الحصار وضرب المجانيق فتفرقوا عن عبد الله بن الزبير =

حَتَّى إِذَا ٱحْتَكَمَتْ بِيْضُ ٱلظُّبَى بِرِقَا   بِ ٱلنَّـاسِ بَـالِغَـةً مِنْهَـا تَمَنِّيْهَـا
وَلَّى عَلَى وَجْهِـهِ مِنْ بَيْنِهَا هَـرَبـاً   وَخَلَّفَ ٱلـدَّارَ تَنْعِيْ خَـطْبَ بَـانِيْهَا
أَحْرَى بِهِ ٱلْقَتْـلُ فَلْيَشْرَبْ ثُمَـالَةَ هَـا   تِيْكَ ٱلْخُمُوْرِ ٱلَّتِيْ قَـدْ كَانَ سَـاقِيْهَا
وَكَـانَ عَمْرُو ٱبْنُ جَـرْمُوْزٍ بِحَضْـرَتِهِ   يُصْغِيْ لِقَـوْلَتِـهِ إِذْ رَاحَ مُلْقِـيْهَـا
فَـهَبَّ مُـقْتَـفِيَـاً آثَـارَ صَـاحِبِـنَـا   بِنِيَّـةِ ٱلْقَتْـلِ كَـانَ ٱللَّهُ قَـافِيْهَـا
وَصَـحَّ مَنْ رَاحَ يَـرْوِيْ لِلزُّبَيْـرِ مَقَـا   لَـةَ ٱبْنِ قَيْسٍ وَأَنَّ ٱلْقَتْـلَ تَـالِيْهَـا
فَهَـابَ مَثْـوَاهُ فِيْ تِلْكَ ٱلْقِفَـارِ وَلَمْ   يَـأْمَنْ عَلَى نَفْسِـهِ إِنْ ظَـلَّ آوِيْهَـا
وَسَـارَ عَنْهَـا وَرَجْـوَاهُ ٱلنَّجَـاةُ وَأَرْ   ضُ ٱللَّهِ وَاسِعَـةٌ فِيْ وَجْـهِ طَاوِيْهَـا
وَمَـا خَـطَا خَـطَوَاتٍ فِيْ تَهَـرُّبِـهِ   إِلَّا رَأَى خَـلْفَـهُ شَخْـصَـاً يُتَـلِّيْهَـا
حَتَّى إِذَا ٱلْتَقَيَـا قَـالَ ٱلـزُّبَيْـرُ : وَمَـا   تَبْغِيْ فَبُغْيَتُـكَ ٱلْحَسْنَـا أُلَبِّـيْهَـا
أَجَابَ عَمْروٌ : لَقَدْ وَافَيْتُ أَسْأَلُ عَنْ   أَهْلِ ٱلْحَنِيْفَةِ قَالَ : ٱلْحَرْبُ تُفْنِيْهَا
وَبَعْـدَ طُـوْلِ حَـدِيْثٍ تَـطْمَئِنُّ لَـهُ   نَفْسُ ٱلـزُّبَيْرِ ٱلَّتِيْ خَـافَتْ مُمَاشِيْهَـا
عَلَيْهِمَـا حَـانَ مِيْقَـاتُ ٱلصَّـلَاةِ فَنَـا   دَاهُ ٱلـزُّبَيْـرُ : هَلُمَّ كَيْ نُصَـلِّيْهَـا
وَقَالَ : تُؤْمِنُنِيْ يَا عَمْـرُو قَالَ : بَلَى   وَعَجَّلَتْ كُـلُّ نَفْسٍ فِيْ تَـوَضِّيْهَـا
وَإِذْ جَـثَـا أَبُ عَبْـدِ ٱللَّهِ عَـاجَلَهُ   عَمْـروٌ بِضَـرْبَـةِ سَيْفٍ رَاحَ مُهْـوِيْهَـا
وَٱجْتَثَّ رَقْبَتَـهُ وَٱحْـتَـازَ خَـاتِمَـهُ   وَسَيْفَـهُ وَٱنْـثَنَـى فِيْ زَهْـوِهِ تِـيْهَـا

= وخرجوا بالأمان إلى الحجاج فأمنهم ودخل مكة فاعتصم عبد الله بن الزبير بالبيت العتيق فما رعى له الحجاج حرمةً وضرب الكعبة بالمنجنيق واجتازها عنوةً ودخل على عبد الله بن الزبير وهو معتصم بالكعبة وقتله أشنع قتلة وكان في الثانية والسبعين من عمره إذ كان مولده في السنة الأولى من الهجرة كما سبق القول وأمّا خلافته فدامت تسع سنين إذ كانت بيعته سنة ٦٤ للهجرة .

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنِّيْ ٱنْتَقَمْتُ لِأُمَّـــةِ ٱلرَّسُوْلِ وَقَدْ أَهْلَكْتُ طَاغِيْهَا

وَعَـادَ لِـلْأَحْنَفِ ٱلْمُغْـرِيِّ يُخْبِرُهُ بِفَعْلَةٍ فِي سَبِيْـلِ ٱلـدِّيْـنِ آتِيْـهَـا

فَقَالَ : لَمْ أَدرِ إِنْ كُنْتَ ٱلْمُسِيءَ بِهَا أَمِ ٱلْمُجِيْـدَ صَنِيْعَـاً فِي تَـوَلِّيْهَـا

فَاقْصُدْ حِمَى ٱلْمُرْتَضَى وَٱسْتَفْتِهِ عَجِلاً فَـمَـا لِأُمَّـتِـنَـا إِلَّاهُ يُـفْـتِـيْـهَـا

فَسَارَ لِلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّاءِ يَضْرِبُ فِي ٱلْـــبَيْـدَا مُطَهَّمُـهُ يَطْوِيْ فَيَافِيْهَـا

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى لِلْحَضْرَةِ ٱلْعَلَوِيَّـــةِ ٱلَّتِيْ لَا تُحَابِيْ مَنْ يُـوَالِيْـهَـا

سَيْفَ ٱلـزُّبَيْرِ لَقَدْ أَلْقَى وَخَاتِمَـهُ أَمَـامَهَا بِهِمَـا يَـرْجُـوْ تَـرَضِّيْهَـا

وَقَـالَ : أَهْلَكْتُـهُ أَبْغِي رِضَـاءَ إِلٰـــهِيْ وَٱلْخِلَافَةُ عَـاشَتْ بَعْدَ عَـادِيْهَا

فَـأَنْكَرَ ٱلْمُـرْتَضَى هٰذِي ٱلْجِنَايَةَ إِنْـــكَاراً عَلَى عَمْرِوٍ ٱلْجَـرْمُوْزِ جَـانِيْهَا

وَقَالَ : وَٱللَّهِ مَا كَانَ ٱلـزُّبَيْـرُ إِذَا خَاضَ ٱلرِّجَالُ غِمَارَ ٱلْحَرْبِ كَاعِيْهَا

لٰكِنَّمَا ٱلْحَيْنُ مَعْ سُوْءِ ٱلْمَصَارِعِ يَرْمِيْ ٱلْمَرْءَ فِيْ نَكْبَةٍ صَعْبٌ تَـوَقِّيْهَـا

ثُمَّتْ تَنَـاوَلَ ذَاكَ ٱلسَّيْفَ فِيْ يَـدِهِ وَهَـزَّهُ هَـزَّةً قَـدْ كَـانَ رَاصِيْهَـا

وَقَـالَ : يَا طَـالَمَا جَلَّى ٱلـزُّبَيْـرُ بِـهِ عَنِ ٱلـرِّسَالَـةِ خَـطْبَـاً كَـانَ فَـاجِيْهَا

فَقَالَ عَمْرُوٌ أَجِـزْنِي وَٱلصَّنِيْعَـةُ قَـدْ جَلَّتْ بِجَـائِـزَةٍ كُبْـرَى تُـوَازِيْهَـا

قَالَ ٱلْوَصِيُّ : أَتَرْجُوْ أَنْ أُجِيْـزَ عَلَى صَنِيْعَـةِ ٱلشَّـرِّ وَٱلآثَـامِ مُسْـدِيْهَـا

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُـوْلَ ٱللَّهِ يَنْـذِرُ مَنْ يُـرْدِيْ ٱلـزُّبَيْـرَ بِنَـارِ ٱلْخُلْدِ يَصْلِيْهَـا

كَـذَاكَ قَـدْ رَدَّ عَمْـرَواً خَـائِبَـاً يَئِساً مِنَ ٱلْأَمَـانِي ٱلَّتِيْ قَـدْ كَـانَ رَاجِيْهَا

لَـوَ لَمْ تَكُنْ فِتْنَـةٌ فِيْهَـا دِمَاءُ ذَوِيْـهَا ٱلشَّرْعُ مُهْدِرُهَا مُعْفٍ مُـرِيْقِيْهَا

لَمَا نَجَا عَمْرُو مِنْ عَذْهَل ٱلْإِمَامِ وَإِنْ نَجَّى ٱلْإِمَـامَـةَ مِمَّنْ كَـانَ شَـانِيْهَـا

وَمَـا ٱكْتَفَى أَنْ يُجَـافِيْـهِ وَيُـرْجِعَـهُ مَـعَ ٱلْبِشَـارَةِ بِـٱلنِّيْـرَانِ يَشْـوِيْهَـا

وَٱلْمُـرْتَضَى كَانَ أَسْمَى هِمَّـةً وَتُقَىً مِنْ أَنْ يُؤَاتِيْ عَلَى ٱلآثَـامِ مُجْرِيْهَـا
وَإِنْ تَكُنْ خِـدْمَتُـهُ فِيْ سِيَـاسَتِـهِ وَضَعْضَعَتْ عَـزْمَ مَنْ أَمْسَى يُنَاوِيْهَـا
وَكَـانَ يَـرْفِضُ عَـوْنـاً لِلْخِـلاَفَـةِ لاَ تَـرْضَى ٱلشَّـرِيْعَـةُ عَنْهُ مِنْ مُعِيْنِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلَّذِيْ قَـدْ تَوَلاَّهَـا لِيَخْدِمَ شَـرْ عَ ٱلْمُصْـطَفَى لاَ لِإِطْمَاعٍ يُـوَخِّيْهَـا

مصير طلحة بن عبد الله

أَعْمَالُ طَلْحَةَ فِيْ قَتْـلِ ٱلْخَلِيْفَةِ عُثْـــمَانٍ أُمَيَّـةُ لَمْ تَجْهَـلْ خَـوَافِيْهَـا[1]
فَـإِنَّهَـا عَــرَفَتْ مَـاضِي عَــدَاوَتِـهِ لَـهُ وَكَـانَ عَلَى ٱلْأَشْهَـادِ يُبْـدِيْهَـا
وَطَالَمَا كَـانَ يَسْتَهْوِيْ ٱلنُّفُـوْسَ إِلَى عِصْيَـانِهِ عَلَنَـاً بِـٱلْقَتْـلِ يُغْـرِيْهَـا

(١) مرَّ بنا فيما تقدم أنَّ طلحة كان في مقدمة النـاقمين على عثمان النـاعين عليه وعلى عمّاله أعمالهم وكان يغري الثائرين بقتله ويدعوهم إليه حتى أنّه في يوم مقتله كان مشتملاً بشملته إخفـاءً لشخصه وكـان يرمي دار عثمـان بنبله مع رمـاتها ولمـا تعذّر على الثائرين دخول دار عثمان لتصدّي الحسن والحسين وبقية أبناء الصحابـة إلى منعهم سار بهم إلى دار مجـاورة لدار عثمـان وأصعـدهم إلى سـطحهـا وبـذلـك دخلوا دار عثمـان وقتلوه . وكان الأمويون يعرفون هذا كلّه ولا سيما مروان بن الحكم إلاَّ أنّهم ما كانوا في الحقيقة مطالبين بدم عثمان بل كانوا يطلبون الخلافة ولذلك وجّهوا خصومتهم على أمير المؤمنين عليه السلام واتّهموه ظلماً بالتحريض على عثمان وحماية قتلته والذين ثاروا عليـه من العقـاب ولو تـولاها أيٌّ كـان من غير بني أميّـة لكانت نغمتهم واحـدة باتّخـاذ دم عثمان حجةً لهم يحتجون بهـا عليه ليضعفـوا أمره ويؤلّبـوا الناس عليـه توصـلاً إلى الخلافـة . ولهذا لا عجب إذا أغضوا عن طلحة والزبير وغيرهما ممن تألبوا على عثمان وتناسوا لهم حمـلاتهم الشديـدة على ذلك الخليفـة المقتول أو تجـاهلوا ذلك بعـد أن انضموا إليهم وأصبحوا في صفوفهم .

إلّا أنّ مروان بن الحكم يختلف عن سائر الأمويين بـأنّه هـو السبب المباشـر لقتل عثمان وإذا كان الثائرون على عثمان نقموا عليـه لأجل عمّـاله فجـلُّ نقمتهم كانت على مروان الذي كان هو الخليفة « غير الرسمي » المتصرف بشؤون الخلافة بينما كان عثمان=

فَهَــوَّشَ ٱلنَّــاسَ تَهْــوِيْشَــاً وَأَلَّبَهَــا   عَلَيْــهِ حَتَّى تَمَــادَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَــا

= عاكفاً على الصلاة والصوم وتلاوة القرآن العزيز ولم يكن له من الأمر غير الإسم . ولهذا كان ضمير مروان يوبّخه ويؤنّبه كلَّ ما ذكر عثمان وطيبة قلبه وأنَّه قتل بجريرته وكان كعربي يرغب من صميم قلبه أن يثأر له من قاتليه الأصليين وعلى رأسهم طلحة والزبير .

وما زال مروان بن الحكم يحارب مع أصحاب الجمل إلى أن تشتت شملهم وامتلأت الأرض من دماء قتلاهم حتى إذا ما تفرَّقوا بعد هلاك الجمل أيدي سبا رأى أنّه مكرهٌ على الفرار كما فرّ من بقي حيّاً من أصحابه ولكن عزَّ عليه أن يترك ميدان القتال وطلحة وهو عدوّه الأكبر حيّ فقال لا أطلب ثار عثمان من طلحة بعد اليوم وانتحى له بسهمٍ أصاب ساقه وقطع أكحله وكان طلحة قبل سهم مروان قد أصيب بجروح كثيرة وهو ثابت على القتال يشجّع النفر القليل الذين ثبتوا معه على حرب أنصار الخليفة فلما أصابه سهم مروان وقع من فوق جواده إلى الأرض وتركه الذين ظلّوا معه وولّوا هاربين يطلبون السلامة لأنفسهم من بطش سيدنا أمير المؤمنين .

وجعل طلحة يئنُّ بين الجرحى الكثيرين الذين حوله وهو يقول « ما رأيت كاليوم دم شيخ قرشي أضيع من دمي » وبينما كان طلحة يجود بروحه ودماؤه تسيل من جسده وشرُّها دم أكحله حيث أصابه سهم مروان وإذا بأعرابيّ مرَّ به فقال له من أصحاب مَن أنت ؟ فقال من أصحاب علي عليه السلام فقال اقرىء أمير المؤمنين السلام وأبلغه توبتي وندمي على ما كان مني وامدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين ثانيةً فمدَّ إليه يده فبايعه وتركه الأعرابي ومضى أمّا طلحة فزفر وتأوَّه وقال اللَّهمَّ خذ لابن عفّان منّي وقضى . ثم مرَّ معنا في حاشية سابقة كيف مرَّ أمير المؤمنين بجثته وهو قتيل مضرّج بدمه وما قاله عندها وهكذا انتهت حياة هذا الصحابي الكبير .

« ترجمة طلحة »

هو أبو محمد طلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة ويجتمع برسول الله بمرَّة . وأمّه تدعى الصعبة بنت الحضرمي وكانت قبل أن يتزوجها أبوه عبيد الله زوجاً لأبي سفيان بن حرب والد معاوية فطلّقها ثمَّ تبعتها نفسه فقال يتشوَّق إليها قصيدة مطلعها : =

وَعِنْدَمَا ٱسْتَفْحَلَتْ إِذْ ذَاكَ فِتْنَتُهَا   وَخَابَ مَسْعَى ٱلْأُلَى رَامُوْا تَلَافِيْهَا

= إنّي وصعبة فيما أرى   بعيدان والودُّ ودٌّ قريب

وطلحة أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين ترك عمر الأمر شورى بينهم . وكان يلقّب بطلحة الخير . وطلحة الفياض . وطلحة من السابقين إلى الإسلام أسلم على يد ابن عمّ أبيه أبي بكر قبل إظهار الدعوة وهاجر إلى المدينة مع نساء أبي بكر وعياله . ولم يحضر طلحة موقعة بدر فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسله يومئذٍ مع سعيد بن زيد ليتجسس عبر قريش على أنّه شهد أغلب المشاهد النبوية .

وأهمّ مواقف طلحة كانت في غزوة أُحُد وفيها شُلّت أصبعه وقد روى طلحة نفسه ما جرى له في أُحُد قال : « أتى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله وكانت رميته لا تخطيء فاتّقيت السهم بيدي عن وجه رسول الله فأصاب خنصري فشلّ » ولذلك كانوا يسمّونه « أبا أصبع » كما رأينا عائشة تدعوه . وروى الثقاة أنّ طلحة عندما ألقى السهم وأصاب أصبعه قال آه فقال رسول الله « لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون ، من أحبَّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا ، وهو من أهل الجنة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » وأنَّ سيدنا عليّ عليه السلام وهو على ما علمت من إنصافه لأعدائه قبل أصدقائه ذكر ذاكرٌ بحضرته بعد موقعة الجمل طلحةً بسوء فزبره وقال : « إنّك لم تشهد يوم أُحُد وعظم غنائه عن الإسلام مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » . فقال قائلٌ وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أُحُد ؟ فقال عليه السلام : « نعم يرحمه الله لقد رأيته وأنّه يترس بنفسه دون رسول الله وأنّ السيوف لتغشاه والنبل من كل ناحية وما هو إلّا جنةً لرسول الله يقيه بنفسه » وهكذا كان عليّنا عليه السلام لا يبخس الناس أشياءَهم ولو كانوا عداته ولا سيما أكابر الصحابة الذين أيدوا الإسلام ونشروا دعوته .

ولم يحضر طلحة مجتمع السقيفة عندما بويع ابن عمّه أبو بكر إلّا أنّه لم يتأخّر عن البيعة . وبواسطة قرابته من أبي بكر كان يطمع أن ينال الخلافة ويعدُّ نفسه لها يدلك على ذلك دخوله على أبي بكر وهو يجود بنفسه يعاتبه على بيعة عمر كما تقدم القول في حاشية سبقت . والظاهر أنّ عمر كان يحسب لطلحة حساباً فاتّخذه موضع شوراه وميّزه بعطاء قالوا وكان طلحة على عهد عمر يختلي بخاصته ويتحادثون بالخلافة بعد عمر على أن يبايعوه بها وبلغ ذلك عمر فخطب في الناس محذراً لهم العودة إلى ما جرى في وقت بيعة أبي بكر قائلاً « إنّها فلتة ولكن وقّى الله شرَّها » .   =

قَدْ كَانَ طَلْحَةُ فِيْ بَابِ ٱلْخَلِيْفَةِ مَشْـــمُـوْلاً بِشَمْلَتِـهِ مُسْتَخْفِيَـاً فِـيْهَـا

= وكان طلحة غائباً عن المدينة عندما قتل عمر فلم يحضر شورى الستة وعاد إليها يوم بيعة عثمان فلمّا علم بها داخله الهمّ والغمّ وكان في مقدمة الناقمين عليه ولكن ما تأخّر عن بيعته ويظهر لي أنه عرف بأنّ فوز عثمان كان بفضل ما بذل معاوية من المال في تحزيب الأحزاب فأراد أن يحذو حذوه ودليلي على ذلك أنّه باع من عثمان أرضاً بسبعمائة ألف درهم فحملها إليه فقال طلحة « إنّ رجلاً يبيت وهذا المال عنده وفي بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله » وبالفعل شرع في تلك الليلة يوزعها مع رسله في شوارع المدينة المنوَّرة على الناس حتى أصبح الصباح وما عنده درهمٌ واحدٌ . قال راوي هذا الخبر وهو حسن البصري فعل هذا طلحة ثم جاءَ إلينا يطلب الدينار والدرهم . وعلى مثل هذه الرواية وما عرفناه بعد من نقمته على سيدنا علي لأنّه أراد المساواة بينه وبين المسلمين بالعطاء لا يفسّر توزيعه المال على الناس إلّا لاكتساب قلوبهم يوم يعلن البيعة لنفسه والله أعلم .

أمّا ظهوره بالعداء لعثمان فهو ما لا ريب فيه وقد تضافرت عليه الروايات وأهمّها في نظرنا شهادة أمير المؤمنين الذي لا يشكّ مؤمن في صدقها وقد شهد عليه السلام غير مرّة بكل صراحة بأنَّ طلحة كان أشدَّ الناس على عثمان ومن هاتيك الشهادات بل أبينها وأصرحها قوله عندما بلغه أنّ طلحة نكث بيعته ونهض يطالبه بدم عثمان على شفار السيوف « قد كنت وما أهدَّد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب ، وأنا على ما قد وعدني ربّي من النصر ، والله ما استعجل (طلحة) متجرّداً للطلب بدم عثمان ، إلّا خوفاً من أن يطالب بدمه لأنَّه مظنته ، ولم يكن في القول أحرص عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الأمر ، ويقع الشك ، ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدةً من ثلاث ، لئن كان ابن عفان ظالماً كما كان يزعم ، لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه ، وأن ينابذ ناصريه ، ولئن كان مظلوماً ، لقد كان ينبغي له أن يكون من المتهنهين عنه ، والمعذرين فيه ، ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركن جانباً ، ويدع الناس معه ، فما فعل واحدةً من الثلاث ، وجاءَ بأمر من لم يعرف بابه ، ولم تسلم معاذيره » اهـ وفي هذا كفاية .

ثمَّ رأينا في سياق ما نحن فيه كيف بايع طلحة قبل كل الناس سيدنا علي وكيف نكث بيعته وكيف ألَّب الناس عليه وكيف سار إلى البصرة وكيف قُتل . ومما تجب =

وَكَـانَ فِيْ زمْـرَةِ ٱلثُّـوَّارِ حِيْن رَمَتْ   دَارَ آبْنِ عَفَّـانَ بِـٱلْأَنْبَـالِ يَـرْمِيْهَـا

وَصَـارَ يَـطْلُبُ مِـنْهَـا قَـتْلَهُ وَبِـهِ   قَدْ كَانَ رَغْمَ نَـوَاهِيْ ٱلشَّرْعِ يُفْتِيْهَـا

حَتَّى إِذَا هَـاجَمَتْ دَارَ ٱلْخِلَافَـةِ تَبْـ   ـغِيْ قَتْلَ صَاحِبِهَـا صَبْرَاً بِـأَيْـدِيْهَـا

وَحَـالَ دُوْنَ مُنَـاهَـا مَـوْقِفُ ٱلْحَسَنَيْـ   ـنِ مَعْ بَنِيْ ٱلصَّحْبِ إِذْ صَدُّوْا تَعَدِّيْهَا

وَافَى بِهَـا طَلْحَـةٌ دَارَ ٱلْخَلِيْفَـةِ مِنْ   سَـطْحٍ بِجِيْرَتِهَـا ٱلـدِّنْيَـا يُحَـازِيْهَـا

أُمَيَّـةٌ عَـرَفَتْ هَـٰذِيْ ٱلْفِعَـالَ لَـهُ   لٰكِنَّهَـا أَظْهَـرَتْ عَنْهَـا تَغَـاضِيْهَـا

لَمَّـا رَأَتْـهُ عَلَى عُـدْوَانِ حَيْـدَرَةٍ   مُصَمِّمَـاً وَهْـوَ فِيْ هٰـذَا مُـرَاهِيْهَـا

وَكَـانَ يَعْـرِفُ مُـرْوَانٌ حِكَـايَتَـهُ   وَكَـانَ مَـعَ طَلَبِ ٱلثَّـارَاتِ يَحْكِيْهَـا

وَكَـانَ مَعْ مَنْ سَعَـوْا سَعْيَـاً بِعَـائِشَـةٍ   لِـوَقْعَـةِ ٱلْجَمَـلِ ٱلسَّـوْدَاءَ يُـزْفِيْهَـا

وَعِنْـدَ مَـا نَصَـرَ ٱللّٰهُ ٱلْعَلِيَّ وَأَعْـ   ـدَاهُ قَـدِ ٱنْخَـذَلَتْ وَٱللّٰهُ مُخْـزِيْهَـا

مُـرْوَانُ نَادَى : وَثَـأْرِيْ لَسْتُ تَارِكَـهُ   وَنَسْـأْتِيْ لَسْتُ بَعْـدَ ٱلْيَـوْمِ مُنْسِيْهَـا

لَأَقْـتُـلَنَّ بِـعُـثْـمَـانٍ وَإِنْ طَـلَبَ ٱلـ   ـنَّاسُ ٱلسِّوَى طَلْحَةً كِذْبَـاً وَتَمْوِيْهَـا

فَـإِنَّـهُ دُوْنَ كُـلِّ ٱلنَّـاسِ قَـاتِلُهُ   وَٱلنَّفْسُ فِـيْ قَتْـلِهِ تُلْفِـيْ تَشَـفِّيْـهَـا

وَبَيْنَمَـا طَلْحَـةٌ بَـاقٍ لِحَـرْبِ رِجَـا   لِ ٱلْمُرْتَضَى مَعْ بَقَايَا ٱلنَّاسِ يُنْخِيْهَا

وَقَدْ مَلَتْ جِسْمَهُ نَبْلُ ٱلْخِلَافَـةِ وَٱلْـ   ـجِرَاحُ مِنْ دَمِهِ سَـالَتْ مَجَارِيْهَـا

= الإشارة إليه هنا هو أن اشتراك طلحة والزبير في نقمتهما على عثمان وعدائهما لسيدنا عليّ قد جعل اسميهما مصطحبين ولذلك أطلق عليهما إسم « الزبيرين » فحيثما وجدت هذا الإسم فاعلم إنّما يراد به طلحة والزبير .

وقتل طلحة بين من قتل مع الجمل وله من العمر ٧٥ سنة ودفن في موضع الموقعة وهو إلى الشمال الشرقي من بلد الزبير على مسافة يسيرة ومدفنه معروف هناك إلى اليوم ويسمّونه « قبر طلحة الخير » .

وَإِذْ رَمَى طَلْحَــةً مِرْوَانُ رَمْيَــةَ مَوْ   تُــوِرٍ تَشَفَّـى بِهَــا تَــاَللَّهِ رَامِيْـهَــا
فَـرَاحَ طَلْحَـةُ يَشْكُـوْ مِنْ جِـرَاحَتِـهِ   وَقَـدْ دَرَى لَيْس غَيْرُ ٱلْمَـوْتِ تَالِيْهَـا
وَبَيْنَمَـا هُـوَ مَـا فَـوْقَ ٱلتِّـرَابِ يُعَـا   نِيْ سَكْرَةَ ٱلْمَوْتِ مَعْ جَرْحَى تُعَانِيْهَا
لاَقَى فَتَىً قُرْبَهُ يَمْشِيْ فَقَالَ : أَخَا ٱلْأَ   م عْـرَابِ بَـادِرْ عَـزِيْـزَاً فِيْ قُــرَيْشِيْهَـا
فَجَــاءَهُ ٱلْعَــرَبِيُّ ٱلشَّهْمُ يَسْــأَلُــهُ   عَنِ ٱلـرِّغَابِ ٱلَّتِي يَـرْجُوْ لِيَقْضِيْهَـا
فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ حَيْدَرَةٍ   أَجَــابَ : أُمْــرَتُــهُ إِنِّيْ مُــوَالِيْهَــا
فَقَالَ : مَا نَفْسُ شَيْخٍ فِيْ ٱلْأَعَارِبِ قَدْ   ضَــاعَتْ كَنَفْسِيْ وَإِنِّيْ كُنْتُ مُرْدِيْهَـا
هَلْ أَنْتَ تَعْرِفُنِيْ يَا صَاحِ قَالَ : بَلَى   يَا طَلْحَ ذِيْ ٱلْحَرْبُ مَا إِلَّاكَ مُلْظِيْهَا
فَقَــالَ ؛ أَبْلِغْ عَلِيَّــاً تَــوْبَتِيْ عَلَنَــاً   وَٱطْلُبْ لِيَ ٱلْعَفْوَ مِنْ عَلْيَاهُ تَجْـرِيْهَا
وَٱمْــدُدْ يَــدَاً كَيْ أُثَنِّيْ ٱلآنَ بَيْعَتَــهُ   بِـهَــا مُـبَــايَعَــةً لِلَّهِ أُعْـطِيْــهَــا
فَـمَــدَّهَــا وَتَلَقَّى مِـنْــهُ بَـيْـعَـتَــهُ   وَسَــارَ نَـحْــوَ عَلِيٍّ كَـيْ يُؤَدِّيْـهَــا
وَبَعْــدَ ذَا طَلْحَــةُ أَبْــدَى تَــأَوُّهَ مَــأْ   يُــوسٍ وَمُـهْجَتُــهُ بَادٍ تَعَـفِّـيْـهَــا
وَصَاحَ : خُذْ لِٱبْنِ عَفَّانٍ بِعَدْلِـكَ يَا   رَبَّــاهُ مِنِّيْ حُقُــوْقَــاً أَنْتَ رَاضِيْهَــا
وَلَمْ يَــزَلْ جِـرْحُــهُ ٱلنَّغَّـارُ يُنْهِكُــهُ   حَتَّى قَضَى لاَهِبَ ٱلْأَحْشَـاءِ ذَاكِيْهَـا

مصير عائشة أم المؤمنين

بِهَلْكَـةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُـوْنِ صَاحَ عَلِــــيٌّ تِلْكَ عَــائِشَــةٌ إِنِّيْ لَحَــامِيْهَــا
بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّـا ٱذْهَبُوْا وَأَحِلُّـــــوهَـا هُنَـالِـكَ فِيْ أَضْفَى مَبَـانِيْهَـا

---

(١) لما قتل الجمل لعنه الله في موقعة الجمل على ما تقدم في حاشية سبقت أمر سيدنا علي عليه السلام أن يحتفظ الناس بالهودج وفيه عائشة ثمَّ أمر محمد بن أبي بكر وهو =

= أخوها على ما تعلم وعمّار بن ياسر بأن يسرعا إلى الهودج وينظرا في أمر عائشة وراحتها ويحملانها إلى البصرة ففعلا ونقلا الهودج بعائشة وهي صاخبة باكية وأنزلاها في دار عبد الله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وطفقا بأمر أمير المؤمنين يتعهدان راحتها . وزارها سيدنا أمير المؤمنين مغضياً عن كلما كان منها إجلالاً لحبّ المصطفى لها وأسمعته في زيارته لها من قوارص الكلم ما وسعه حلمه شأنه عليه السلام مع المستضعفين والنساء . ثم أنّ أمير المؤمنين أمر برجوع عائشة إلى المدينة المنوَّرة وجهزها بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ونحو ذلك مما يوفّر لها الراحة في سفرها وسمح لها أن تصحب من أصحابها الذين أتوا معها من أحب الرجوع إلى المدينة واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليكنَّ في صحبتها ويسهرن على راحتها وجعل موكبها تحت إشراف وقيادة أخيها محمد بن أبي بكر .

وفي يوم السبت غرّة رجب سنة ٣٦ للهجرة خرجت عائشة من البصرة راجعة إلى الحجاز وخرج سيدنا علي ووجوه الناس لوداعها وقبل أن يتحرّك هودجها قالت « يا بنيَّ ، لا يعتب بعضنا على بعض ، إنّه والله ما كان بيني وبين علي في القديم ، إلاّ ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وأنّه على معتبتي لمن الأخيار » فقال سيدنا علي عليه السلام : « صدقت والله ، ما كان بيني وبينها إلاّ ذاك ، وأنّها لزوجة نبيّكم في الدنيا والآخرة » وسارت عائشة من البصرة قاصدةً مكّة كرّمها الله حتى إذا ما بلغتها بقيت إلى الحجّ فحجّت ثمَّ استأنفت مسيرها إلى المدينة فاستقرَّت في بيتها وهي تقول « مكانك تحمدي أو تستريحي » .

وأجمع المؤرخون أنّ عائشة منذ حرب الجمل استسلمت إلى اليأس والحزن والفجيعة فكانت تكثر من النوح والبكاء تائبةً عمّا فعلت نادمةً أشدَّ الندم زاهدةً بالدنيا راغبةً عن أهلها متمنيةً الموت وكانت تقول ليتها رزقت عشرة أولاد وفقدتهم ولا كانت حرب الجمل أو ليتها ماتت قبل عشرين عاماً فلا رأت موقعة الجمل ولا حضرتها . وعندما بلغ عائشة نبأ مقتل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام اشتدَّ جزعها وتفاقم الخطب عليها فأخذت تكثر من تعداد فضائله وتطريه وتندبه وقد تجسمت أمام عينيها كمالاته الباهرة وصفاته الزاهرة وما زالت كذلك إلى أن روَّحها الموت من شقائها فسارت إلى ربّها رهينة عفوه وغفره في سنة ٥٧ للهجرة . =

=

« ترجمـــة عائشـــة »

إنَّ عائشةً هي بنت أبي بكر وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم وأمّها أمّ رومان ابنة عامر بن عـويمر بن عبـد شمس بن عتاب بن أذينـة بن سبيـع بن دهمـان بن الحـارث بن تميم بن مالك بن كنانة . عقد عليها رسـول الله ﷺ في مكة وهي بنت سبـع سنين وبنى عليها في المدينة وهي بنت تسع سنين وكان ذلك في شوّال على رأس ثمـانية عشـر شهراً من الهجرة . وكانت فقيهـة راوية للشعـر ذات حظّ من رسول الله وميـل ظاهـر إليها وكـانت أجرأ نسائـه وأدلهنَّ عليه ومـا زالت تزداد جـرأة ودلالاً حتى كان منهـا في أمره في قصـة مارية ما كان من الحديث الذي أسرَّه إلى زوجه حفصـة بنت عمر وأدَّى إلى تـظاهرهمـا عليه وأنزل الله فيهما قرآناً يتلى في المحاريب يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تصريح بوقوع الذنب وصفو القلب وخلاصة هذه القصة هي : أنَّ رسول الله كان يوماً عند زوجه حفصة بنت عمر فاستأذنته هذه لزيارة ضرّتها عائشـة فأذن لهـا ثمَّ عادت فـوجدت سـريته مـارية القبطية بين يديه في بيتها فغضبت فأسرَّ إليها أنّه سيهجر مـارية فـأفشت سرّه إلى عـائشة واتفقت الثنتان على مقاطعته وأفضى ذلك إلى غضبه عليهما معاً ثمَّ رضائـه ﷺ عنهما إلى آخر ما كان .

وجرأة عائشة وادلالها على المصطفى قد أثرا أعظم تأثير على السيـاسة الإسـلامية العامة منذ خلافة أبي بكر وقد أشار إلى ذلك المؤرخون الناقدون تصـريحاً وتلميحـاً ممّا مررنا على بعضه في الحواشي السابقة وغـاية مـا نقولـه هنا أنّ عـائشة تـربَّت على يدي المصـطفى ﷺ فأزادت تـربيتها هـذه ذكاءَهـا نموّاً وظهـوراً فكانت ذات دهـاء واقتدار عجيبين يعرفهما كل باحث في تاريخ صدر الإسلام . وصـار لها تـأثير عـظيم حتى على كبار المهاجرين والأنصار لأنّهم كانوا يوسطونها لدى رسول الله في حوائجهم فـاستعملت نفوذها في كل مهمة سياسية دخلت فيها .

وبعد وفاة المصطفى ﷺ أخذت تروي عنه الأحاديث فأصبح لرأيهـا نفوذ عـظيم وتـأثير كبيـر على نفوس المسلمين وبـاتت في المدينـة المنوَّرة مقصـد القصـاد لـلإفتـاء مزاحمةً في ذلـك أكابـر الصحابـة من المهاجـرين والأنصار مـزاحمةً جعلت لهـا مكانـةً ممتازةً بينهم .

=

وَأَسْـرَعَـا مِثْلَمَـا شَـاءَ ٱلْعَلِيُّ بِهَـا إِلَى رِبَى ٱلْبَصْـرَةِ ٱلْغَنَّـا لِتَـأْوِيْهَـا
وَقَـدْ ثَـوَتْ دَارَ عَبْـدِ ٱللَّهِ أَعْـظَمَ دُوْ رِ ٱلْبَصْرَةِ ٱلرَّحْبِ تَهْنـا فِيْ مَغَانِيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَـا أَتَى تِلْكَ ٱلْمَـدِيْنَـةَ مَـوْ لاَنَـا وَلاَقَى بِحُسْنِ ٱلصَّفْحِ أَهْلِيْهَـا
وَافَى إِلَيْهَـا كَـرِيْمَـاً صَـافِحَـاً فَتَلَقَّـتْـهُ عَلَى غَيْـرِ مَـا يُـرضِي مُحِبِّيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ مُهْمِـلاً تَـرْفِيْـهَ عِيْشَتِهَـا وَلاَ ٱلْتَقَـاهَـا بِلَوْمٍ مَـعْ مُلِيْمِيْهَـا
وَبَعْـدَ بِضْعَـةِ أَيَّـامٍ لِمَـكَّـةَ قَـدْ أَعَـادَهَـا بِجَـلاَلٍ مَعْ حَـوَاشِيْهَـا
وَكَـانَ مَعْهَـا أَخُـوْهَـا رَأْسَ مَـوْكِبِهَـا وَهْـوَ ٱلْمُـرِيْـدُ لَهَـا رَغْـدَاً وَتَـرْفِيْهَـا
وَأَرْبَـعُـوْنَ فَـتَـاةً فِيْ رَكَـائِبِـهَـا تَسْعَى بِخِـدْمَتِهَـا كَيْمَـا تُؤَاسِيْهَـا
وَلِلْوَدَاعِ أَتَى ٱلْمَـوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ بِصَحْبِـهِ كَـرَمَـاً مِنْـهُ يُـحَيِّيْهَـا
فَـأَكْبَـرَتْ بَعْـدَ ذَيَّـاكَ ٱلْعَـدَا لَـهُ هٰذِيْ ٱلْأَيَادِي ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ يُسْدِيْهَـا
وَأَعْلَنَتْ شُكْـرَهَـا بَيْنَ ٱلْأُلَى مَعَـهُ لِنُعْمَـةٍ لَمْ تَكُنْ تَـرْجُـوْ تَـلَقِّيْـهَـا

= وفي عهـد عمر بن الخـطاب لم يكن لها غيـر رواية الحـديث والإفتـاء على أنّهـا أظهرت اقتدارها على أشدّه في عهـد عثمان إذ انقلبت عليـه مع المنقلبين على نحـو ما أشرنا إليه في حاشية سبقت . ثمَّ أعلنت العداء لسيـدنا علي عليه السلام وكـان من أمرهـا معه في يوم الجمل ما كان وقد ذكرنا أسبابه .

ولم تسلم عـائشـة على عهـد المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم من قـذف القـاذفين فـاتّهمـوهـا بصفـوان بن المعطل السلمي فـأنزل الله بـراءتهـا في قـرآنٍ يتلى وينقـل وجُلد قـاذفـوهـا الحدّ . ولم تحمل عائشة ولا ولدت وتطييباً لخاطرها كنّاها المصطفى بابن أختهـا أسماء عبـد الله بن الزبيـر فصارت تـدعى « أمُّ عبـد الله » . ومـات المصـطفى عنهـا وهي دون العشرين من عمرها .

وتوفيت عائشة في ١٧ رمضان من عـام ٥٧ للهجرة في عهـد معاويـة في المدينـة المنوَّرة ودفنت في البقيع فارتاحت من آلامها النفسية التي كانت تعانيهـا ليلاً ونهـاراً منذ حرب الجمل إلى يوم وفاتها وكان عمرها عند وفاتها ٦٤ سنةً .

قَـالَتْ : بَنِيَّ تَصَافُـوْا لاَ عِتَـابَ وَلاَ مَـلاَمَ أُمَّتُنَـا أَبْغِي تَـصَـافِـيْـهَـا
وَلَيْس بَيْـنَ أَمِيْـرِ آلْـمُؤْمِنِيـنَ وَبَيْـــنِيْ مِنْ مُنَـازَعَةٍ مَـا آلدَّهْـرُ مَاحِيْهَـا
وَلَـمْ تَـكُـنْ بَـيْـنَنَـا إلاَّ مُـنَـافَـرَةٌ تَكُـوْنُ بَيْنَ آلْحَمَى فَـرْضٌ تَنَـاسِيْهَـا
وَآلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ يُـرْجَى لِمَعْتَبَتِيْ وَإِنَّـهُ مِنْ خِيَـارِ آلنَّـاسِ تَـاقِيْهَـا
وَقَـالَ حَيْـدَرَةٌ : وَآللَّهِ قَـدْ صَـدَقَتْ بِـقَـوْلِهَـا فَـعَلَيْنَـا أَنْ نُـدَارِيْهَـا
وَوَاصَلَتْ بَعْـدَ ذَاكَ آلسَّيْـرَ عَـائِشَـةٌ بِرَكْبِهَا فِيْ صَيَاصِيْ آلْأَرْضِ تَطْوِيْهَا
سَـارَتْ مُبَلْبَلَةَ آلْأَفْكَـارِ يَصْحَبُهَـا بِلْبَـالُهَـا أَبَـدَاً تَـلْحُـوْ تَجَنِّيْـهَـا
تَبْكِيْ وَتَنْـدُبُ مَـا قَـدْ كَـانَ نَـادِمَـةً نَـدَامَـةً كَـالَّتِي تُنْمَى لِكِسْعِيْهَـا
وَبَعْـدَ مَـا بَلَغَتْ أُمَّ آلْقِـرَى لَبَثَتْ لِمَـوْعِدِ آلْحَجِّ فِيْ ضَافِيْ مَثَاوِيْهَا
ثُمَّ آنْثَنَتْ بِجَـوَاهَـا لِلْمَـدِيْنَـةِ لاَ شَيْءٌ عَلى شَرِّ مَا جَاءَتْ يُعَـزِّيْهَـا
فَمَـا رَقَـا دَمْعُهَـا يَـوْمَـاً بِتَـوْبَتِهَـا عَمَّـا جَنَتْـهُ وَلاَ جَفَّـتْ مَـآقِيْـهَـا
وَقَتْلَةُ آلْمُـرْتَضَى أَنْمَتْ نَـدَامَتَـهَـا وَأَحْـرَمَتْهَـا آلتَّكَـرِّيْ فِيْ لَيَـالِيْهَـا
وَطَالَمَا قَـدْ تَمَنَّتْ لَوْ قَضَتْ وَمَضَتْ لِـرَبِّهَـا قَبْـلُ أَنْ سَـاءَتْ مَسَـاعِيْهَـا
أَوْ لَيْتَهَـا عَشْـرَةٌ مِنْ وُلْـدِهَـا وَلَـدَتْ وَآلـدَّهْـرُ فِيْهِمْ جَمِيعَـاً كَـانَ رَازِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ مَـعَ أَعْـدَاءِ آلْعَلِيِّ إِلَى شَـرِّ آلْمَسَاعِي آلَّتِيْ رَامَتْ تُمَـاشِيْهَا
وَطَـالَمَا ذَكَـرَتْ جَهْـرَاً فَضَـائِـلَ مَـوْ لاَنَـا آلْعَلِيِّ آلْمُفَدَّى وَهْيَ تُـطْرِيْهَـا
حَـزِيْنَـةً لَمْ تَـزَلْ فِيْ بَيْتِهَـا تَتَمَنَّـــى آلْمَوْتَ مَا غَيْرُهُ قَدْ كَانَ يُرْضِيْهَـا
حَتَّى تَـوَلَّتْ إِلَى دَارِ آلْخُلُودِ فَجَـا زَتْ فِيْ ثَـوَا آلْقَبْـرِ آلاَمَـاً تُعَـانِيْهَـا
لِسَبْعَـةٍ بَعْـدَ خَمْسِيْنٍ لِهِجْـرَةِ طَـــهَ بِـآلْمَنِيَّـةِ قَـدْ لاَقَتْ تَـمَنِّيْهَـا

مراقبة معاوية لموقعة الجمل

وَكَـانَ يَـرْقُبُ عَنْ بُعْـدٍ مُعَـاوِيَـةٌ حَوَادِثَ آلْجَمَلِ آلشَّتَّى وَيَـدْرِيْهَا[1]
وَهْـوَ آلَّـذِي بِـدَهَـاهُ كَـانَ أَوْجَـدَهَـا وَهْوَ آلَّذِيْ كَـانَ قَدْ أَغْـرَى مُشِيْرِيْهَـا
وَكَـانَ يَـطْمَـعُ أَنْ تَكْفِيْـهِ عَـائِشَـةٌ مُـوَاقِفَـاً مَـعْ عَلِيٍّ كَـانَ خَـاشِيْهَـا

(١) كان معاوية صاحب الرأي الأول في مسير طلحة والزبير إلى العراق فهو رأس فتنة الجمل وكان يرقب عن بعد أنباء هـاتيك الفتنـة ويستطلع أخبـارها فيقف عليهـا أولاً فأولاً من أصحابه الذين كانوا يأتونه بها طمعاً بهباته فعرف كلَّ ما جرى وأهمّه خيبـة ظنه بعائشة التي كان يرجو أن تكفيه بنفوذها هول مقاتلة سيدنا علي عليه السلام .

أمّا سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه كما رأينا قد أصدر عفواً عاماً عن الثائـرين بعـد مـوقعـة الجمـل وسبق وأوصى أصحـابـه أن لا يتتبعـوا الهـاربين ولا يجهـزوا على الجرحى فبرهن في هذا : أولاً على أنّه كـان ولا يزال يعتبـر نفسه من المسلمين بمنـزلة الأب من أولاده فهو مؤدّب عصاتهم وثائريهم لا منتقم منهم ولا طامع بمـا في أيديهم . وثانياً على أنّـه السياسي الـذي يضع الأمـور في مواضعهـا فيعفو ويحمـل عند المقـدرة ويشتدّ في التأديب حتى لا يظنُّ به أعداؤه العجز . وثالثاً على أنّـه ما كـان يرهب الـذين نجوا من زعماء الثائرين أن ينضووا إلى من ورائهم في الشام اعتمـاداً على الله سبحانـه وعلى الحقّ الـذي له وهـو صريـح لا يقبل التـأويل ولـذلـك لم ينكـل بهم بـل تـركهم أحراراً .

أمّا زعماء الثائرين الـذين نجوا من القتـل في موقعـة الجمل فكـان المشهور فيهم مـروان بن الحكم وعبد الله بن الـزبير وهـذان أقامـا مدَّةً في البصـرة وعـرضـا بـواسـطة المقربين من سيدنا الإمام الأعظم أن يعودا إلى بيعته فرفض قائلاً لو بايعاني كلَّ يـوم لما أمهلا أن ينكثا بيعتي كما فعلا وعرف هذان من جواب سيدنـا أمير المؤمنين أنّـه عليه السلام لا يركن إليهما وعرفا من نفسيهما أن فراسته فيهما صادقة فانتهزا الفـرصة وأسـرعا بـالهرب إلى الشام وكذلك فعل غيرهما من زعماء أصحاب الجمل ولاذوا جميعاً بمعاوية .

أمّـا معاويـة فالـظاهر لنـا أنّه لم يتـوقع انتصـار عـائشـة وأصحـابهـا على سيـدنـا علي عليه السلام بعد أن تبعهم ولكنه كـان يظنُّ عنـدما دبـر أمر الحملة على العـراق أنّ الإمام =

فَخَابَ ظَنَّاً كَمَا خَابَحت وَمَنْ مَعَهَا   زَوْجُ آلرَّسُوْلِ بِآمَالٍ تُرَجِّيْهَا

= يعتمد على حقّه ونفوذه وعمّاله في ذلك الصقع ويلزم المدينة المنوَّرة فيسهل على أصحاب الجمل استمالة العراقيين بحجة المطالبة بدم عثمان وبتأثير نفوذ عائشة وطلحة والزبير على المسلمين وإذا اعترض هؤلاء الخوارج معترض من أصحاب علي تغلبوا عليه بحدّ السيف كما فعلوا في البصرة عندما قدموا إليها . وربما كان هذا رأي عائشة وأصحابها بل أبعد هؤلاء في ظنهم إلى أن حسبوا أنَّ المسلمين لا يجرأون على محاربه عائشة بصفتها زوج المصطفى المحبوبة بدليل ما قالته إلى أبي الأسود الدؤلي عندما أرسله عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين على البصرة ليستطلع طلع مسيرها فساء فألها وخابت في ظنّها .

ولما جرى ما ليس بالحسبان ووقف الناس في وجوه أصحاب الجمل انتصاراً للخليفة الشرعي وتقديراً لمكانته الرفيعة في الإسلام بصفته ابن عمّ المصطفى وربيبه وصهره زوج أحبّ بناته إليه وأخيه ووصيّه عليهما الصلاة والسلام سقط أصحاب الجمل في أيديهم ولكنهم أصرُّوا على القتال ولما انجلت الموقعة عن انتصار الخليفة ومقتل طلحة والزبير وهلاك أصحاب الجمل وسارت الأنباء في ذلك إلى معاوية هاله الأمر وعرف بعده أنّ الفوز على خلافة سيدنا علي ليس من الهنات الهينات فأخذ يضرب أخماساً لأسداس بما أوتي من الدهاء ليخرج من هذه المعمعة على شيء من مطامعه البعيدة وهو مقتنع كل الإقتناع أنَّ لا سبيل إلى الإتفاق مع الإمام الذي يأبى إلاَّ إعادة المسلمين إلى عهد النبوَّة على ما يرضى عنه الشرع . ولهذا أخذ يستدني أكابر القرشيين ويغدق عليهم الأموال ويعللهم بالوعود فاجتمعت لديه طائفة منهم ممّن همتهم الدنيا . وفي الوقت نفسه كانت نوادب عثمان تتجوَّل في الأمصار مناديةً بثارات عثمان متهمةً سيدنا علي بدمه وحماية قاتليه فتفسد عليه الألى أطاعوه وبايعوه وكان نجاحها يزيد معاوية شجاعةً في مواصلة العداء لسيدنا علي والإصرار على عصيانه وغرضه من هذا كلّه معروف وهو الاستيلاء على الخلافة . وممَّا أزاد معاوية أملاً بنيل الخلافة هو مقتل طلحة والزبير لأنّه بعدهما وبعد أن رأينا سعداً وهو بقية العشرة المشهود لهم بالجنة زاهداً بالخلافة وكلّ ما دونها من الوظائف لم يعد أمامه من يستطيع أن يقول إنّه أليق من معاوية للخلافة من شيوخ قريش هذا إذا تغلب على سيدنا عليّ عليه السلام واستلبها من يده .

وَأَطْفَأَ ٱلْفِتْنَةَ ٱلْهَوْجَاءَ حَيْدَرَةٌ   بِقُدْرَةِ ٱللَّهِ فَٱنْزَاحَتْ عَوَادِيْهَا
فَمَنْ أَطَاعَتْ عَلِيّاً مِنْ جَمَاعَتِهَا   قَدِ ٱطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَهْوَ رَافِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ هَرَباً تَبْغِيْ مُعَاوِيَةً   مِنْهَا ٱلأُلَى لَمْ تَزَلْ تَنْوِي تَعَصِّيْهَا
فَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَمُرْوَانٌ وَغَيْرُهُمَا   مِنَ ٱلْعُصَاةِ ٱلَّتِيْ شَطَّتْ مَرَامِيْهَا
سَارَتْ إِلَى ٱلشَّامِ تَرْوِيْ شَرَّ مَا شَهِدَتْ   فِيْ حَرْبِ حَيْدَرَةٍ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيْهَا
فَهَابَ ٱبْنُ أَبِيْ سُفْيَانَ مَوْقِفَهُ   وَشَامَ أَطْمَاعَهُ ٱلأَقْدَارُ تُنْئِيْهَا
وَحَارَ فِيْ أَمْرِهِ لَمَّا رَأَى ٱلْخُطَطَ ٱلْـــسُّوءَى ٱلَّتِيْ خَطَّهَا ضَاعَ ٱلرَّجَا فِيْهَا
لٰكِنَّمَا نَفْسُهُ ظَلَّتْ تُحَدِّثُهُ   بِنَيْلِ أَطْمَاعِهِ أَوْ مَا يُدَانِيْهَا
فَرَاحَ يَعْنَى بِلاَ بِطْءٍ بِعَسْكَرِهِ   وَيَسْتَزِيْدُ لَهَا مِمَّا يُقَوِّيْهَا
وَيَسْتَمِيْلُ إِلَيْهِ مِنْ قُرَيْشَ رُؤُوْ مِ سَهَا ٱلأُلَى كَانَ مَا تَبْغِيْهِ يُوْلِيْهَا
وَبِٱلَّذِي هِيَ تَرْجُوْهُ مِنَ ٱلرُّتَبِ ٱلْـــعَلْيَا ٱلَّتِيْ تَتَشَهَّاهَا يُمَنِّيْهَا
فَأَصْبَحَتْ حَوْلَهُ فِيْ ٱلشَّامِ طَائِفَةٌ   مِنْهَا تُؤَيِّدُهُ سِرّاً وَتَجْرِيْهَا
بِهَا ٱسْتَعَزَّتْ وَعَادَتْ نَفْسُهُ لِمُنَا م هَا بَعْدَمَا ٱلْيَأْسُ أَمْسَى وَهْوَ مُوْهِيْهَا
وَٱزْدَادَ فِيْ غَيِّهِ مِمَّا إِلَيْهِ تَرَا   مَى مِنْ مُمَالَأَةِ ٱلأَمْصَارِ قَاصِيْهَا
كَانَتْ نَوَادِبُ عُثْمَانٍ تَجُوْلُ عَلَيْـــهَا بِٱسْمِهِ وَهْيَ بِٱلشَّنْآنِ تُغْرِيْهَا
كَانَتْ تُنَادِيْ جِهَاراً : إِنَّ قَتْلَتَهُ   تَمَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ وَهْوَ رَاضِيْهَا
وَإِنَّ مَنْ قَتَلْتَهُ قَدْ أَوَتْ لِظِلاَ م لِهِ فَأَمَّنَهَا مِمَّا يُؤَذِّيْهَا
فَلَمْ يَنَلْهَا قِصَاصُ وَهْيَ قَاتِلَةٌ   عَمْداً وَلَيْس لَهَا عُذْرٌ يُبَرِّيْهَا
بِمِثْلِ ذَا سَدَلَتْ فَوْقَ ٱلْحَقِيْقَةِ فِيْ   قَتْلِ ٱلْخَلِيْفَةِ عُثْمَانَ ٱلتَّرَارِيْهَا
بِهَا مُعَاوِيَةٌ صَحَّتْ عَزِيْمَتُهُ   عَلَى مُوَاصَلَةِ ٱلْعُدْوَانِ يُمْضِيْهَا

فَـلاَ مَقَـامُ عَلِيٍّ فِيْ آلْخِـلاَفَـةِ أَوْ مَصَـالِـحُ آلـدِّيْنِ وَآلـدُّنْيَـا لَتُثْنِيْهَـا
وَلاَ آلسَّـلاَمَـةُ لِـلْإِسْـلاَمِ وَهْـوَ لَقَـدْ أَمْسَى عَلَى خَـطَرٍ قَـدْ كَـانَ يَبْغِيْهَـا
قَدْ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ يَرْقَى آلْخِـلاَفَةَ أَوْ تَنْـدَكُّ أَرْكَـانُهَـا مَـا فَـوْقَ رَاقِيْهَـا
ثُمَّ آلـزُّبَيْـرَانِ مَـاتَـا كَـانَ مَـوْتُهُمَـا مُـزِيْـدَ أَطْمَـاعِـهِ فِيْهَـا وَمُنْمِيْهَـا
فَمَـا خَلِيْـقٌ بِهَـا إِلاَّهُ بَـعْـدَهُمَـا وَبَعْـدَ سَعْـدٍ وَقَـدْ أَمْسَى مُجَـافِيْهَـا
إِذَا أَزَاحَ عَـلِيَّـاً عَـنْ مَـعَـالِـمِـهَـا فَيَنْـثَنِـيْ دُوْنَ شَـكٍّ وَهْـوَ وَالِيْـهَـا
هٰذَا آلَّذِيْ كَانَ فِيْ نَفْسِ آبْنِ هِنْدَ عَلَى قَـاصِيْ مَـطَامِعِهَـا وَهْـوَ آلْمُقَـوِّيْهَـا

أمير المؤمنين ومعاوية

مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ تَلاَشَتْ فِتْنَةُ آلْجَمَلِ آلْـمَلْعُوْنِ وَآلنَّاسُ عَدَّتْ عَنْ تَعَادِيْهَا[1]
وَقَـدْ أَعَـادَ صَفَـاءَ آلسِّلْمِ حَيْـدَرَةٌ إِلَى رِبَى آلْبَصْـرَةِ آلْغَنَّـا وَأَهْلِيْهَـا

---

(١) بعد أن أقام سيدنا أمير المؤمنين حيناً في البصرة رتق فيها الفتق الذي فتقته أصحاب الجمل وأعاد إليها الأمان وأمّن أهلها من العدوان ولّى أمرها عبد الله بن عباس وأقبل عليه السلام إلى الكوفة وكان كما سبقت الإشارة على ثقة من ولاء أهلها فضلاً عن إخلاص الذين نصروه منهم في موقعة الجمل فاستقبله الكوفيون بالإجلال والإحترام وتألّبوا من حوله يتمنون رضاءه ولو بتضحية أرواحهم . وما كاد يستقرّ في الكوفة حتى أخذ يراسل عمّال عثمان في أطراف العراق وفارس يطلب بيعتهم فلبّاه أكثرهم وكان في مقدمتهم جرير بن عبد الله البجلي وهو عامل عثمان على همدان فإنّه ما كاد يتلقى كتاب أمير المؤمنين حتى دعا أهل همدان لمبايعته فلبّوه . ثم سار جرير إلى الكوفة وبايع سيدنا عليّ وبينما هو في الكوفة صحّت عزيمة أمير المؤمنين على بعث من يأتمنه إلى معاوية يطلب بيعته وذكر ذلك لأصحابه فقال جرير : ابعثني يا أمير المؤمنين إليه فإنّه لم يزل لي ممحضاً الودّ فإنّ آتيه فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر ويجتمع معك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله كما وأرجو أن أعدّ أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلّهم قومي وأهل بلادي =

أَنْضَى إِلَى ٱلْكُوفَةِ ٱلْخضْرَا ٱلْإِمَامُ خُطَا ۝ هُ وَٱنْثَنَى بِـاَلْهَنَـا وَٱلْيُمْنِ ثَـاوِيْهَـا

= وقد رجوت أن لا يعصوني . فقال الأشتر وكان في المجلس لا تبعثه يا أمير المؤمنين ولا تصدّقه فوالله إنّي لأظنُّ هواه هواهم ونيته نيتهم فقال أمير المؤمنين دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا وبالفعل كتب عليه السلام كتاباً إلى معاوية هذا نصّه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، أمّا بعد ، فإنَّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنَّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يردَّ ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا على رجل ، وسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضىً ، فإن أبي قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى ، ويصليه جهنم وساءَت مصيراً ، وأنَّ طلحة والزبير بايعاني ، ثمَّ نقضا بيعتي ، فكان نقضهما كردَّتهما ، فجاهدتهما على ذلك ، حتى جاءَ الحقُّ ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أحبَّ الأمور إليَّ منكَ العافية ، إلَّا أن تتعرَّض للبلاء ، فإن تعرَّضت له قاتلتك ، واستعنتُ بالله عليك ، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثمَّ حاكم القوم إليَّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأمّا تلك التي تريدها ، فخدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري ، لئن نظرتَ بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا تحلُّ لهم الخلافة ، ولا تُعرض فيهم الشورى ، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوَّة إلّا بالله ، اهـ » .

ثمَّ إنَّ سيدنا علي استدعى جرير إليه وسلّمه الكتاب الآنف الذكر وقال له : إنَّ حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من أهل الرأي والدين من قد رأيتَ ، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك أنَّك من خير ذي يمن ، ائتِ معاوية بهذا الكتاب ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون فنعمًّا ، وإلَّا فانبذ إليه ، وأعلمه إنّي لا أرضى به أميراً ، وأنَّ العامة لا ترضى به خليفةً . فتناول جرير كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ووعده بأنّه سيبذل ما بوسعه لإقناعه بالطاعة وسار برسالة أمير المؤمنين متوجهاً إلى الشام .

وعندما بلغ جرير دمشق استقبله معاوية بالحفاوة والإكرام على ما هو معروف عن دهائه وتناول منه كتاب أمير المؤمنين فقرأه بإمعان ثمَّ ذكر له جرير الشيء الكثير لإقناعه بالطاعة لأمير المؤمنين وحضه على الدخول فيما دخل فيه المسلمون . فلم يكن لمعاوية =

وَقَـدْ أَطَاعَتْ عُـلاَهُ غَيْـرَ نَـاكِثَـةٍ   أَهْـلُ ٱلْعِـرَاقَيْنِ نَـائِيْهَـا وَدَانِيْهَـا

= أن يبتَّ في مجاوبته رأياً فاكتفى أن تلطف بجرير وقال له انظر وتنظر واستطلع رأي أهل الشام وأعاقه عنده بين التسويف والمماطلة ريثما يستوثق من أمره وتفتق له حيلته ما يخرجه من حيرته .

« كلمة في الخلافة »

ويخلق بنا هنا أن نرسل نظرة إلى كتاب أمير المؤمنين هذا الذي أرسله إلى معاوية وفيه من التصريح في أمر الخلافة ما اتّخذه فيما بعد بعض العلماء كأساس لاختيار الخليفة فنقول :

إنّ حقّ سيدنا علي عليه السلام بالخلافة صريحٌ لا يقبل الجدل سواءٌ بصفته أخا رسول الله وربيبه ووصيّه وزوج أحبّ بناته إليه سيدتنا فاطمة الزهراء ووالد أولادها الذين هم أبناء رسول الله عليهم جميعاً الصلاة والسلام أو بصفته أول من أسلم وأعظم من نصر الإسلام وأعلم من تفقه وأفتى في الشريعة وأتقى وأزهد وأبرّ المسلمين . على أنّه عليه السلام لم يذكر حقّه هذا لمعاوية مع أنّه ذكره في مواضع شتّى من خطبه وكتبه لعلمه بأنّ معاوية غير راضٍ به ولا خاضعٍ له بل ذكر له أموراً يرضاها ويعتقدها تسهيلاً لإقناعه بالحقّ الذي ينكره وفي ذلك من النظر البعيد والرأي السديد ما يخلق صدوره عن أرشد رشيد أنجبه الإسلام وهو سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

اكتفى سيدنا علي عليه السلام أن يحجَّ معاوية بما هو معترف به فقال له إنّ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان بايعوني فتلزمك بيعتي فكأنّه يقول له ما دمت تعتقد أنَّ بيعة هؤلاء الخلفاء الثلاثة صحيحة فعليك أن تعتقد بصحة بيعتي فتبايع .

ثمَّ قال سيدنا أمير المؤمنين أنّ ليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردَّ وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار وأراد بهذا عليه السلام أن يقول لمعاوية ما دام الناس قد قبلوا وأنت منهم ببيعة المهاجرين والأنصار لأولئك الخلفاء الثلاثة وما تركوا للذين شهدوا بيعتهم من سائر المسلمين حقّ الخيرة ولمن غابوا حقّ الردّ فلا يجوز لك طالما بايعني هؤلاء المهاجرون والأنصار أن تختار في البيعة أو تردّ بيعتي .

ثمَّ إنَّ سيدنا علي عليه السلام صرَّح لمعاوية بأنَّ الذي يبايعه المهاجرون والأنصار يكون لله فيه رضى لأنَّ كلَّ أمر لا يكون إلاّ بسماح من الله وعلى هذا فالخارج على الخليفة =

إِذْ ذَاكَ هَمَّ بِأَهْلِ آلشَّامِ يَطْلُبُ مِنْـــهَـا أَنْ تُبَـايِعَـهُ أَوْ أَنْ يُنَـاوِيْهَـا

أَوْفَى لِـذَاكَ جَرِيْـرَاً نَحْـوَهَـا بِـرِسَـا لَـةٍ لَقَدْ كَـانَ بِـآلْإِخْـلَاصِ مُمْلِيْهَـا

كَانَتْ بِإِسْمِ آبْنِ صَخْرٍ وَآلْوَصِيُّ عَلِيْـــمٌ عَـارِفٌ أَنَّـهُ حَتْمَـاً مُعَصِّيْهَـا

وَكُلُّهَـا حِكَـمٌ مَسْـرُوْدَة وَمَـوَا م عِظٌ وَآيَـاتُ إِرْشَـادٍ لِـقَـارِيْـهَـا

قَـالَ آلْإِمَـامُ عَلِيٌّ بَعْـدَ بَسْمَلَةٍ غَـرًّا وَحَمْـدَلَـةٍ تَحْلُوْ لِتَـالِـيْهَـا

وَبَعْدَ حُسْنِ صَلَاةٍ قَدْ زَكَتْ وَصَفَتْ عَلَى مُحَمَّـدَ خَيْـرِ آلْخَلْقِ هَـادِيْهَـا

أَمَـا وَإِعْـلَانُ أَقْطَابِ آلْمَـدِيْنَـةِ بَيْـــعَتِي آلَّتِي جَـرَّهْتَهَـا قَبْـلُ تَجْـرِيْهَـا

= الذي يبايعه المهاجرون والأنصار على هؤلاء أن يـردّوه بالحجـة فإن أبى كـان عليهم أن يقاتلوه .

ثمَّ ذكـر عليه السلام أنَّ حكم الخارج على الخليفـة كحكم المـرتـدّ عن الإسـلام يجب قتـاله وحسب هـذا الحكم الشرعي قـاتل الإمـام الأعظم طلحـة والزبيـر ومن معهما من أصحاب الجمل .

ثمَّ تبـرَّأ عليه السلام من قتل عثمـان وقال لـه إنّك لـو نظرت بعين العقـل إلى كيفية قتله لاعترفت أنت بنفسك ببراءَتي منها . أمّا مسألـة النظر في قتلة عثمـان والاقتصاص منهم فقد صرح له عليه السلام أن دعواه بها في حال عصيانه على الخلافة غير مشروعة ولا مسموعة فمن الواجب عليه أن يطيع خليفته ثمَّ يحاكم القـوم إليه فيحمله وإيّـاهم على كتاب الله وفي هذا الجواب الحجّة البالغة .

ثمَّ ذكر له عليه السلام أنّه من الطلقـاء وهم كفّار قـريش ومشركـوهم الذين أسلمـوا بعد فتح مكّة فعفـا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقـال إنّ هؤلاء الطلقـاء لا تحقُّ لهم الخلافـة ولا تعرض فيهم الشورى وهنـا تحديـد يجب الإنتباه إليـه في مسألـة الخلافـة فإذا كـانت لا تجوز للطلقاء من قريش فكيف تسامح المسلمون بهـا لمن لم يكن قريشيـاً بل ولم يكن عربياً ؟ .

هذا ما عنَّ لنا تسطيـره ذيلاً لكتـاب أمير المؤمنين عليه السلام لمعـاوية علمـاً منّا أنّـه لا يخلو من فائدةٍ لمستفيد أو ذكرى لناسٍ والله وليّ الهداية .

لأنْتَ مُلْتَزِمٌ شَرْعَــاً بِهَا مَـعَ أَهْــــلِ آلشَّامِ مُؤْمِنِهَـا آلتَّـاقِيْ وَذُمِّيْهَـا

لِأَنَّ مَنْ بَـايَعُـوْنِي بِـاْلْخِـلَافَـةِ بَـا   يَعُـوْا آلْأُلَى سَلَفُـوْنِي فِيْ تَـوَلِّيْهَـا

وَبَـايَعُـوْنِي عَلَى مَـا بُـوْيِعُـوْا قُبُلِيْ   عَلَيْـهِ مِنْ وَاجِبَـاتٍ رُحْتُ أُجْـرِيْهَـا

فَلَمْ تَكُنْ خِيْـرَةٌ لِـلشَّـاهِـدِيْنَ وَلَا   رَدٌّ لِمَنْ غَـابَ إِنْ كَـانُـوْا مُـرِدِّيْهَـا

وَإِنَّمَا خُصَّتِ آلشُّوْرَى بِمَنْ هَجَرَتْ   أُمَّ آلْـقِـرَى لِنَـبِيِّ آلـلَّهِ مُنْـجِيْـهَـا

وَبِـآلْأُلَى نَصَـرَتْـهُ فِيْ مُحَـارَبَـةِ آلْـــكُفَّـارِ وَآسْتَنْـزَلَتْـهُ فِيْ مَغَـانِيْهَـا

فَإِنْ هِيَ آجْتَمعَتْ جَمْعَاً عَلَى رَجُلٍ   يَلِيْ آلْإِمَـامَـةَ أَمْسَى وَهْـوَ وَالِيْهَـا

وَإِنَّ رَبَّـكَ رَاضٍ عَـنْ وِلَايَـتِـهِ   وَكُـلُّ ذِيْ تِقْيَـةٍ حَسْنَـاءَ رَاضِيْهَـا

وَإِنْ تَفَـرَّدَ عَنْ إِجْمَـاعِهَـا رَجُـلٌ   بِمَـطْعَنٍ أَوْ بِـرُغْبَى كَـانَ يَبْغِيْهَـا

رَدَّتْـهُ لِلْحَقِّ بِـآلْبُـرْهَـانِ نَـاصِحَـةً   وَإِنْ أَبَـاهُ عَلَيْهَـا فَـهْـوَ عَـادِيْهَـا

وَقَـاتَـلَتْـهُ إِلَى أَنْ يَـسْلُكَـنَّ سَـبِيْـــلَ آلْمُؤْمِنِيْنَ آلَّتِيْ مَـا ضَلَّ مَـاشِيْهَا

وَآلـلَّهُ سُبْـحَـانَــهُ وَلَّاهُ مُنْـتَـصِفَـاً   مَـا قَدْ تَـوَلَّى وَرُشْدُ آلـرَّأْيِ مُوْلِيْهَـا

وَإِنَّـهُ سَـوْفَ يُصْلِيْـهِ جَـهَـنَّـمَ إِذْ   سَاءَتْ مَصِيْرَاً لِمَنْ قَـدْ رَاحَ يَصْلِيْهَا

إِنَّ آلـزُّبَيْرَ وَمَعْـهُ طَلْحَـةُ نَقَضَـا   لِيْ بَيْعَـةً بَـايَعَـاهَـا مَـعْ مُبَيْعِيْهَـا

وَنَقْضُهَـا مِنْهُمَـا مِثْـلُ آرْتِـدَادِهِمَـا   عَنِ آلْحَنِيْفَةِ فِيْ أَحْكَامِ قَـاضِيْهَـا

لِـذَاكَ جَاهَـدْتُ قَهْـرَاً فِيْ قِتَـالِهِمَـا   بِعَـزْمَـةٍ أَنْتَ قَبْـلُ آلنَّـاسِ تَـدْرِيْهَـا

حَتَّى تَغَلَّبَ أَمْـرُ آلـلَّهِ وَآنْتَصَـرَتْ   حُقُـوْقُـهُ وَآخْـزَوَتْ خَـزْيَـاً أَعَـادِيْهَـا

فَـآدْخُـلْ مُعَـاوِيَـةُ فِيْمَـا آلْعِبَـادُ بِحَــــقٍّ فِيْـهِ دَاخِلَةٌ وَآتْبَـعْ مَخَـاطِيْهَـا

فَـإِنَّ أَفْضَـلَ مَـا أَرْجُـوْهُ عَـافِيَـةٌ   تَهْنَـا بِهَـا وَتُبَـاهِيْ فِيْ تَكَسِّيْهَـا

إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَخْتَـارُ آلْـخِصَـامَ وَلَا   تَبْغِيْ آلسَّـلَامَ لِأَطْمَـاعٍ تُـرَجِّيْهَـا

فَلَيْسَ لِيْ غَيْرُ هٰذَا ٱلسَّيْفِ مِنْ حَكَمٍ وَٱللَّهُ عَوْنِيَ فِيْ بَلْوَى أُعَانِيْهَا

يَا صَاحِ فِيْ قَاتِلِيْ عُثْمَانَ تُكْثِرُ إِكْـ ـثَاراً حَقِيْقَتُهُ ٱلْبُطْلَانُ غَاشِيْهَا

أَطِعْ كَمَا قَدْ أَطَاعَ ٱلنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ خِلَافَتِيْ فَهْيَ لَمْ تَظْلُمْ مُطِيْعِيْهَا

وَحَاكِمِ ٱلْقَوْمَ وَٱرْجِيْ ٱلْإِنْتِصَافَ إِلَىٰ شَرِيْعَةِ ٱللَّهِ إِذْ بِٱلْعَدْلِ أُمْضِيْهَا

أَمَّا ٱلَّتِيْ أَنْتَ تَبْغِيْهَا وَتَنْشُدُهَا فَرَغْبَةٌ مَا ٱخْتَفَتْ عَنِّيْ خَوَافِيْهَا

كَخِدْعَةِ ٱلصَّبِيِّ عَنْ ثَدْيِ ٱلظُّؤْرِ وَقَدْ أَبَتْ رِضَاعَتَهُ إِذْ رَاحَ شَاهِيْهَا

لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَيْنِ ٱلْعَقْلِ دُوْنَ هَوًى وَأَعْيُنُ ٱلْعَقْلِ مَا ٱلْبُطْلَانُ يُعْمِيْهَا

وَجَدْتَنِيْ مِنْ دَمِ ٱلْمَقْتُوْلِ أَبْرَأَ عُرْ بِ ٱلْأَرْضِ طُرًّا قُرَيْشِيْهَا وَعَامِيْهَا

وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِنَا ٱلطُّلَقَا وَهْيَ ٱلَّتِيْ حَرِمَتْ مَعْنَا تَكَافِيْهَا

فَلَا يَحُلُّ لَهَا عَرْشُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْـ ـشُّوْرَى إِذَا طُلِبَتْ مِنْ مُسْتَحِقِّيْهَا

وَهَا جَرِيْرٌ إِلَيْكَ ٱلْيَوْمَ أَبْعَثُهُ كَيْمَا لَهُ بَيْعَتِيْ ٱلْكُبْرَى تُؤَدِّيْهَا

بَايِعْ وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِرَبِّكَ وَٱعْـ ـلَمْ إِنَّهُ لِلَّذِيْ يَتْقِيْهِ يُوْلِيْهَا

لٰكِنْ مُعَاوِيَةٌ لَاقَى جَرِيْرَ بَشُوْ شاً لَمْ يُجَبِّهْهُ فِيْمَا جَاءَ تَجْبِيْهَا

وَرَاحَ يُمْطِلُهُ مَطْلًا وَرَغْبَتُهُ بِبَيْعَةِ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ يُرْجِيْهَا

وَكَانَ فِيْ حِيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ وَصُرُوْ فُ ٱلدَّهْرِ يَرْهَبُ أَنْ يَدْهَاهُ دَاهِيْهَا

معاوية وعمرو بن العاص

مَا ٱنْفَكَّ فِيْ هَمِّهِ يَعْنَى مُعَاوِيَةٌ وَحَالُهُ مَعْ عَلِيٍّ غَيْرَ رَاضِيْهَا[1]

فَكَانَ يَعْلَمُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ خَطَرٍ فِيْ حَرْبِهِ إِذْ سَعَى كَيْمَا يُلَظِّيْهَا

---

(١) لم يكن أشدّ حيرةً وارتباكاً من معاوية في تلك الأيام العصيبة التي تلت قهر =

وَكَـانَ لاَ يَـرْتَجِيْ نَفْعَـاً بِـدَوْلَتِـهِ لِنَفْسِـهِ إِنْ غَـدَا يَـوْمـاً مُـوَالِيْهَـا

=أصحاب الجمل وانتصار سيدنا علي عليه السلام وكأنّ شديد التردّد لا يعرف كيف يتدبَّر في أمره بالرغم عن إطاعة أهل الشام له وكثرة الأنباء التي تأتيه من الأمصار مشجعةً له على العصيان وبينما هو في حيرته وتردّده جاءَه أخوه عتبة بن أبي سفيان وقال له : استعن بعمرو بن العاص فإنَّه مَن قد علمت في دهائه ورأيه وقد اعتزل عثمان في حياته وهو لأمرك أشدُّ اعتزالاً إلاَّ أن تثمن له دينه فسيبيعك فإنّه صاحب دنيا . فقال أصبت يا أخي فقد أذكرتني بداهية العرب هذا وكنت ناسيه وأسرع فكتب إلى عمرو بن العاص الكتاب التالي : أمّا بعد ، فإنّه كان من أمر علي وطلحة والزبير ، ما قد بلغك ، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، في نفرٍ من أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله البجلي في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك ، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها ، إن شاء الله اهـ .

وقد علمنا مما مضى من حواشي كتابنا هذا كيف ترك عمرو بن العاص المدينة قبيل مقتل عثمان وسيره إلى القدس وانزوائه في دارٍ كانت له في تلك المدينة المقدسة على أنّه كان كثير الاهتمام بأنباء الخلافة يتطلع إلى ما يجري فيها وكانت جواسيسه تحمل إليه أنباءَها فعرف منها كل ما كان بغير زيادة ولا نقصان وما جهل حيرة معاوية وخوار عزائم الأمويين بعد انتصار سيدنا علي على أصحاب الجمل وكان يعلم من نفسه أنّه إذا انضمّ إلى معاوية قد يفوزان على أمير المؤمنين بدهائهما إلاّ أنّه ما كان يرى في ذلك ما يرضي ضميره ودينه كما أنّه ما كان يرى لدى سيدنا علي عليه السلام ما يبلغه مطامعه في دنياه لعلمه أنَّ أبا الحسنين لا يماليه على رغباته ولا يرضى له إلاّ ما يرضى عنه الشرع .

وبينما كان عمرو بن العاص في حيرته لا يدري إن كان يظلُّ على عزلته أو يخرج منها إلى معاوية لنيل مطامعه وإذ وافى إليه رسول معاوية ومعه كتابه فجدّد الطمع في نفسه واستدعى ولديه عبد الله ومحمد إليه وأطلعهما على كتاب معاوية وطلب رأيهما فيما يفعل . فقال ابنه عبد الله أرى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبض وهو عنك راضٍ ، والخليفتان بعده ماتا وهما راضيان عنك ، وقتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقرَّ في منزلك ، فلست مجعولاً خليفةً ، ولا تزيد على أن تكون حاشيةً لمعاوية ، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا وتتركاها ، فتتساويا في عقابها . وقال ابنه محمد : أرى أنّك =

وَإِنَّـهُ لَـمُضِيْـعٌ فِـي خِـلاَفَتِـهِ   مَـآرِبَـاً يَـشْتَـهِيْـهَـا لاَ يُخَـلِّيْـهَـا

=شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرَّم هذا الأمر وأنت عليه غافل ، تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يداً من أيديها ، طالباً بدم عثمان ، فإنّه سيقوم بذلك بني أمية . فقال عمرو : أمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني . وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي . وأنا ناظر ما يقرُّ عليه رأيي . وصرفهما وبقي بياض يومه وسواد ليلته وهو يفكر ضارباً أخماساً لأسداس تتنازعه عوامل الدين والدنيا وهي كما رأيت متضاربة . وما زال في حيرته وتردّده حتى اختلط عقله فدعا غلامه وردان وكان داهيةً مارداً وقال : ارحل يا وردان . احطط يا وردان . وكرر ذلك ثلاثاً . فقال له وردان خلطت أبا عبد الله أمّا أنّك إن شئت أنبأتك بما في قلبك . قال هات ويحك . قال اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلتَ أنَّ علياً معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوضٌ عن الدنيا . وأنَّ معاويةً معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض عن الآخرة وأنت واقف بينهما . فتبسم عمرو بن العاص وقال قاتلك الله ما أخطأت ما في قلبي فما ترى يا وردان ؟ قال أرى أن تقيم في بيتك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فصمت عمرو قليلاً ثمَّ رفع رأسه وقال بل أسير إلى معاوية . وأمر في الحال بشدّ الرحال إلى الشام .

وعندما بلغ عمرو بن العاص الشام استقبله معاوية بالإكرام وأنزله على الرحب والسعة وبالغ في إكرامه . وعرف عمرو من حفاوة معاوية به شدّة حاجته إليه فباعده من نفسه وكايد كلُّ واحدٍ منهما صاحبه وما زالا كذلك إلى ذات يوم حيث جاءَه معاوية وقال أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر . قال وما ذاك ؟ قال أولها أنَّ محمداً بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدين . وثانيها أنّ قيصر ملك الروم زحف بجماعته على الشام . وثالثها أنّ علياً في الكوفة تهيأ للمسير إلينا . فتبسم عمرو تبسّم من لا يعبأ بالأخطار وقد اعتاد معالجة الأقدار وقال أمّا ابن أبي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به وإن قاتل لم يضرّك . وأمّا قيصر فاهدِ له الوصائف وآنية الذهب والفضة وسله الوداعة فإنّه إليها سريع وأمّا علي فلا والله يا معاوية ما يسوّى بينك وبينه في شيء من الأشياء وأنّ له في الحرب حظاً ما هو لأحدٍ من قريش . وأنه لصاحب ما هو فيه إلّا أن تظلمه . قال معاوية ولكن أنت تعلم أنّه شقَّ عصا المسلمين ، وقتل =

= الخليفة ، وأظهر الفتنة ، وفرَّق الجماعة ، وقطع الرحم . فقال عمرو خفّف عنك يا معاوية ما أنت وعلي حملا بعير ، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه ، ووالله ما أنت بكفءٍ لحربه ، ولكني قد تعودّت من الله إحساناً وبلاءً جميلاً ، فما تجعل لي أن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما في ذلك من الغرر والخطر ؟ قال معاوية احتكم عليَّ وإنّي لراضٍ . قال عمرو : أتجعل مصراً طعمةً لي ؟ فتلكأ عليه معاوية وقال يا أبا عبد الله إنّي أكره لك أن تتحدَّث العرب عنك أنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا . قال عمرو : إذن فدعني عنك أمّا أنت تريد بحرب علي الدنيا أيضاً ؟؟ . فقال معاوية إنّي لو شئت أن أمنّيك وأخدعك لفعلت . قال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يخدع لأنّا أكيس من ذلك . وما زالا يتشادّان حتى وعد معاوية عمراً بمصر وأقسم على ذلك فعاهده عمرو على أن يناصره على سيدنا عليّ وهكذا اتّفقا لأمرٍ يريده الله .

« ترجمة عمرو بن العاص »

هو أبو عبد الله (ويكنى أبو محمد أيضاً وهو إسم ثاني أولاده) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن حصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وكان أبوه العاص بن وائل أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمكاشفين له بالعداوة والأذى وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى ﴿ **إنّا كفيناك المستهزئين** ﴾ وأبوه هذا لقبه المسلمون (بالأبتر) لأنّه قال لقريش « سيموت هذا الأبتر غداً (ويريد رسول الله) فينقطع ذكره » لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له ولد ذكر يعقب منه فأنزل الله قوله ﴿ **إنَّ شانئك هو الأبتر** ﴾ وكان عمرو بن العاص كأبيه يؤذي رسول الله بمكة ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة يوم كان صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة فكان عمرو بن العاص يضع في طريقه الحجارة ليعثر بها . وكان عمرو بن العاص في القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله عندما خرجت مهاجرةً من مكة إلى المدينة فروَّعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنيناً ميتاً من أبي العاص بن الربيع بعلها فلما انتهى صنيع هؤلاء إلى سمع رسول الله نال منه وشقَّ عليه مشقةً شديدةً ولعنهم . وكان عمرو بن العاص يهجو رسول الله هجاءً شديداً ويعلمه صبيان مكة فينشدونه فكان هؤلاء الصبيان يصيحون برسول الله إذا مرَّ بهم =

= رافعين أصواتهم بذلك الهجاء وإذ علم المصطفى ﷺ هذا قال وهو يصلّي في الكعبة « اللهمَّ انَّ عمراً بن العاص هجاني ولست بشاعر فالعنه بعدد ما هجاني » . وفي ذات يوم بينما كان رسول الله ساجداً يصلّي في فناء الكعبة عمد عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص إلى سلاجل فرفعوه بأيديهم ووضعوه على رأسه الشريف فصبر ﷺ ولم يرفع رأسه وبكى في سجوده ودعا عليهم فجاءَت ابنته فاطمة الزهراء وهي باكية فاحتضنت ذلك السلاجل ورفعته وألقته وقامت على رأس أبيها عليهما الصلاة والسلام تبكي فرفع رأسه الشريف وقال « اللهمَّ عليك بقريش » قالها ثلاثاً ثمَّ قال رافعاً صوته « أنّي مظلوم فانتصر » قالها ثلاثاً ثمَّ قام فدخل منزله وكان ذلك بعد موت عمّه أبي طالب بشهرين . ولشهرة عمرو بن العاص بعداوة المصطفى ﷺ أوفدته قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليزهده في الإسلام فيطرد عن بلاده من هاجر إليها من المسلمين فسار إلى الحبشة وقام بمهمته جهده ولكن ما أصغى النجاشي إلى قوله وظلَّ على إكرام المسلمين .

إنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله فإنّ عمراً بن العاص ما زال عدواً للإسلام والمسلمين يحارب رسول الله مع الكفّار والمشركين إلى أن هداه الله للإيمان وقد حدَّث هو نفسه عن إسلامه وهذه روايته قال : لما انصرفنا من غزوة الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منّي فقلت لهم والله إنّي لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً منكراً وإنّي قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟ فقالوا ما رأيت ؟ فقلت أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي فإن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد أمّا إذا ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا قالوا إنّا على رأيك فقلتُ فأجمعوا ما نهدي له وكان أحبُّ ما يأتيه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنّا لفي الحبشة موضع إكرام وحفاوة النجاشي الذي سرَّ من هديتنا وإذ قدم عمرو بن أمية الضمري وكان بعثه رسول الله ﷺ في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية لو قد دخلتُ على النجاشي على ما تعلمون من إدلالي عليه وسألته إيّاه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأت قريش إنّي قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد . فاستحسن أصحابي عزيمتي ودخلت على النجاشي وسجدت بين يديه فرحّب =

= بي كعادته معي فقلت له إنَّ الرجل الذي أتاك من الحجاز هـو رسول عـدوّ لنا فـاعطنيـه لأقتله فإنَّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب النجاشي وضرب أنفه بأصبعه ضربـةً شديدةً هي إشارة الغضب عند القوم قال عمـرو بن العاص : فـوالله إذ رأيت هذا وددت لو انشقت الأرض ودخلتها فرقاً منه . ثمَّ قلت أيّها الملك والله لـو ظننت أنّك تكـره هذا ما سألتكه . فقال النجاشي ويل أمُّـك أتسألني أن أعـطيك رسـول رجل يـأتيه النـاموس الأكبـر الذي كـان يأتي مـوسى لتقتله ؟ فقلت أيّها الملك أكـذلـك هـو ؟ فقـال أيّ والله أطعني ويحك واتبعه فإنَّه والله لعلى حقّ وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر مـوسى على فرعون وجنوده . قال عمرو بن العاص : فلمّا سمعت هذا من فم النجـاشي صبوت إلى الإسلام وعدت إلى أصحابي فأخبرتهم بالأمر وأسرعت إلى المدينة فلمـا أتيتها قصـدت خالد بن الوليد وكان صديقي وأسررت إليه بما في نفسي فسار معي إلى رسـول الله فلمّا دخلت عليه قلتُ يا رسـول الله أبايعـك على أن تغفر لي مـا تقدَّم من ذنبي ولم أذكـر ما تأخر فقال بايع يا عمـرو فإنّ الإسـلام يجبُّ ما قبله وإنَّ الهجـرة تجبُّ ما قبلهـا فبايعتـه وأسلمت اهـ هذه رواية عمرو بن العاص عن إسلامه وكان إسلامه سنة ثمـان من الهجرة وعرف المصطفى مكانته من الشجـاعة والـدهاء فـاستدنـاه منه وأرسله بسـرية إلى ذوات السـلاسل من بـلاد قضاعـة على رأس ثلاثمـائة مقـاتل وكـانت أمُّ العاص بن وائـل من (بلى) فبعث رسـول الله عمراً إلى أرض (بلى) وعـذرة ليتالف أهلهـا ويـدعـوهم إلى الإسـلام فسار حتى إذا كـان على ماء أرض جـذام يقال لـه السلاسـل وبها سمّيت تلك السرية (ذات السـلاسل) خـاف فكتب إلى رسول الله يستنجـده فأمـدَّه بجيش فيه مئتـا فـارس فيهم أهل الشـرف والسوابق من المهـاجرين والأنصـار منهم أبو بكـر وعمر وأمَّـر عليهم أبو عبيدة بن الجرَّاح فلمّا قدموا على عمرو بن العاص قال هذا أنـا أميركم وإنمـا أنتم مددي فقال أبو عبيدة بل أنا أمير من معي وأنت أمير من معك فأبى عمرو ذلك فقال أبو عبيدة لقد أمرني المصطفى أن أطاوعك ولا أخالفك فإن خـالفتني أطعتك قـال عمرو إنّي أخالفك فسلم إليـه أبو عبيـدة بالأمـارة وصلّى خلفه في الجيش كلّه وانتهت الحملة بنصرة المسلمين .

ثمَّ إنَّ رسـول الله ولّى عمـراً بن العـاص على عمّـان وظـلَّ في ولايتـه حتّى قُبض ﷺ ثمَّ عمل عمرو لأبي بكر في مدّة خلافته . وعنـدما فتحت سـوريا وفلسـطين =

وَإِذْ أُشِيْــرَ إِلَيْــهِ أَنْ يَـعُــوْدَ إِلَىٰ آبْــــنِ ٱلْعَاصِ فَهْوَ ٱلَّذِي ٱلْبَلْوَى يُجَلِّيْهَا

= على عهد عمر بن الخطاب كان عمرو بين القواد الفاتحين تحت إمرة أبي عبيدة بن الجرّاح وبعد الفتح ولّى عمر على دمشق وبعلبك معاوية وعلى فلسطين والأردن أخاه يزيد بن أبي سفيان ولم تطل أيام يزيد فمات فولّى عمر مكانه عمراً بن العاص ثمّ جمع عمر فلسطين والأردن لولاية معاوية وأرسل عمراً بن العاص لفتح مصر ففتحها ولم يزل عليها حتى مات عمر وخلفه عثمان فثبّته عليها أربع سنوات ثمّ عزله عنها وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري فكان هذا بدء الشرّ بين عمرو بن العاص وعثمان على أنّ عمراً كان على ما عرف عن دهائه يداري ما في نفسه فيظهر الود ويخفي البغضاء والحقد .

وقد عرفنا مما تقدم كيف ترك عمرو بن العاص عثمان بين يدي قاتليه وارتحل عن المدينة إلى داره في القدس . وكيف أظهر الشماتة عندما سمع بمقتل عثمان . وكيف ارتحل إلى معاوية واتّفق معه . وسنذكر ما كان منه في حرب صفّين فيما يجيء إن شاء الله .

وقد برَّ معاوية بعهده فأطلق يد عمرو بن العاص في مصر فسار إليها فاتحاً وكانت خاضعة لسيدنا علي وكان يحكمها من قبله محمد بن أبي بكر فحاربه ودخلها عنوة ثم ظفر به فأحرقه بجوف حمار وقام بهذا الإثم الفظيع معاوية بن حديج . ولما بلغ ذلك عائشة في المدينة ازداد كربها وغمّها وجزعت جزعاً شديداً وصارت تلعن معاوية وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج عقب كل صلاة وضمّت عيال أخيها محمد إليها .

وسنأتي فيما بعد على ذكر المؤامرة التي دبّرت لقتل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام في موضعها .

وما زال عمرو بن العاص والياً لمصر متمتعاً بخيراتها ولم يكن لمعاوية فيها غير الإسم إلى أن توفي سنة ٤٣ للهجرة عن تسعين عاماً ودفن في المقطم من ناحية السفح .

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وقادتهم وحكمائهم المحنكين وكان شاعراً حسن الشعر وله حكمٌ مأثورة وكان أظهر مظاهره الدهاء حتى أنّ عمر بن الخطاب كان كلّما استضعف رجلاً في عقله ورأيه يقول أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحدٌ يريد=

فَـإِنَّـهُ بِـآلـدَّهَـا مَا مَنْ يُشَـاكِلُهُ   وَإِنَّـهُ يَـطْلُبُ آلـدُّنْيَـا وَيَبْـغِيْـهَـا
فَهَمَّ فِيْ آلْحَـالِ يَدْعُـوْهُ لِحَضْـرَتِـهِ   بِـرُقْعَـةٍ كَـانَ بِـآلْإِسْـرَاعِ مُـوْفِيْهَـا
وَكَـانَ فَاتِـحُ مِصْرٍ ذُوْ آلـدَّهَاءِ لَـدَى   عُثْمَـانَ فِيْ حَـالَـةٍ لَبْسٌ خَـوَافِيْهَـا
يُـرِيْـدُ مِنْهَـا رِغَـابَـاً غَيْـرَ بَـالِغِهَـا   وَكَـانَ يُـظْهِـرُهَـا آنَـاً وَيُخْفِيْهَـا
فَعِنْـدَ مَـا ثَـارَتِ آلثُّـوَّارُ نَـاقِمَـةً   عَلَىٰ آبْنِ عَفَّـانَ لَمْ يَنْكُـرْ تَـدَاعِيْهَـا
وَكَـانَ يُـظْهِـرُ بَيْنَ آلنَّـاسِ نَصْـرَتَـهُ   وَبِـآلْخَفَـاءِ عَلَيْـهِ كَـانَ يَنْعِيْـهَـا
حَتَّى إِذَا بَلَغَ آلسَّيْـلُ آلـزُّبَى وَتَيَقَّـ   ـنَ آلْمَصِيْبَـةَ مَـا آلْأَقْـدَارُ تُنْشِيْهَـا
عَنِ آلْمَـدِيْنَـةِ قَـدْ وَلَّى وَخَلَّفَ عُثْـ   ـمَـانَـاً لِأَعْـدَائِـهِ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيْهَـا
وَسَـارَ لِلْقُـدْسِ فِيْـهِ كَـانَ يَمْلِكُ دَا   رَاً فَخْمَـةً وَأَوَى ضَـافِيْ مَبَـانِيْهَـا
وَكَانَ يُرْسِيْ عَلَىٰ حَسْبِ آلْهَوَا سُفُنَ آلْأَ   طْمَـاعِ حَتَّى إِذَا مَـا هَبَّ يُجْرِيْهَـا
وَكَـانَ يَسْمَـعُ أَنْبَـاءَ آلْـخِـلَافَـةِ مِنْ   سُعَـاتِـهِ آلْكُثْـرِ تَـأْتِيْـهِ فَتَـرْوِيْهَـا
مِنْهَـا دَرَى قَتْلَ عُثْمَـانٍ وَكَيْفَ جَرَى   فَقَـالَ : قَتَلْتُـهُ مَـا كُنْتُ آبِيْـهَـا
وَبَيْعَـةُ آلْمُـرْتَضَى مِنْهَـا تَلَقَّـفَهَـا   مَعْ مَا جَرَى بَعْدُ مِنْ عِصْيَانِ عَاصِيْهَا

= أنّه سبحانه خالق الأضداد .

أمّا أمّ عمرو بن العاص فهي سلمى وتلقب (بالنـابغة) وهي بنت حـرملة من بني صـلان بن عنترة بن أسـد بن ربيعة بن نـزار أصابهـا سبأ فـاشتراهـا عبد الله بن جـدعـان الشيمي بمكة ثمَّ أعتقها فصارت بغياً فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأميّة بن خلف الجحمي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيـان بن حرب والعـاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمـراً فـادّعاه كلّهم فحكمت أمّـه فبه فقـالت هو من العـاص بن وائل فقيل لها أبو سفيـان أشرف نسبـاً فقالت إنّ العـاص بن وائل كثيـر النفقة عليَّ وأبـو سفيان شحيح قالوا ولكنَّ عمراً كان أقرب شبهاً بأبي سفيان وكان الناس كثيراً ما يهجـون عمراً بأمّه ويقدحون بنسبه ويعيبونه فيه .

وَلَمْ تَفُتْـهُ رِغَابُ ٱلصَّـائِحِيْنَ بِثَـا رَاتِ ٱبْنِ عَفَّانَ خَافِيْهَا وَبَادِيْهَـا

وَحَمْلَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُونِ إِذْ خَرَجَتْ عَلَىٰ ٱلْخَلِيْفَةِ أَيْضَاً كَانَ يَدْرِيْهَـا

وَظَلَّ فِيْ كُلِّ هٰذَا وَهْوَ مُعْتَـزِلٌ حَوَادِثَ ٱلدَّهْرِ يَأْبَى أَنْ يُمَاشِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا تَلاَشَتْ فِتْنَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَـــلْعُوْنِ وَٱنْخَذَلَتْ فِيْهَـا أَهَالِيْهَـا

أَمْسَى يُفَكِّـرُ فِيْ أَمْـرٍ يُـوَصِّلُهُ إِلَى مَـطَامِعِهِ مَـا كَانَ نَـاسِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا هُـوَ فِيْ هَـذَا أَتَتْـهُ رِسَـا لَةُ ٱبْنِ هِنْدٍ فَلَمْ يَغْفَـلْ مَعَانِيْهَـا

مِنْهَـا دَرَى أَنَّـهُ أَمْسَى بِحِيْـرَتِـهِ مُضَعْضَعَ ٱلرَّأْيِ يَسْعَى فِيْ دَيَاجِيْهَا

مَعْـهُ أُمَيَّةُ قَـدْ خَارَتْ عَـزِيْمَتُهَا وَمَـا لَهَـا غَيْـرُهُ شَخْصٌ يُقَـوِّيْهَـا

وَإِنَّـهُ إِنْ سَعَى مَـعْهَـا يُؤَيِّـدُهَـا حَتَّى تَفُـوْزَ بِـآمَـالٍ تُـوَخِّيْـهَـا

فَقَـدْ يَنَالُ بِهَـا قَـاصِيْ مَـطَامِعِهِ وَمَـا ٱلْعَلِيُّ إِذَا وَافَـاهُ يُـعْـطِيْهَـا

وَكَـانَ أَبْنَاهُ مَعْـهُ فَـٱسْتَشَـارَهُمَا بِـدَعْوَةٍ لَيْسَ يَـدْرِيْ مَـا يُتَـالِيْهَا

قَـالَ ٱلْكَبِيْـرُ: فَحَـاذِرْ مِنْ مُعَـاوِيَـةٍ وَدَعْـوَةٍ لاَ يُـرِيْـدُ ٱلْحَقَّ دَاعِيْهَـا

أَرْضَيْتَ أَحْمَـدَ وَٱلصِّدِّيْقَ مَـعْ عُمَـرٍ حَتَّى قَضَـوْا بِفِعَـالٍ كُنْتَ آتِيْـهَـا

وَإِنَّ قَـتْلَةَ عُـثْـمَـانٍ لأَنْـتَ بَـرِيْ ءُ مِنْ شَـرَاكَـةِ بَـاغِيْهَـا وَجَـانِيْهَا

وَلَسْتَ تَطْمَعُ فِيْ نَيْـلِ ٱلْخِلاَفَـةِ بَلْ هَيْهَـاتَ يَـا أَبَتَـاهُ أَنْ تُـدَانِيْـهَـا

فَـإِنْ يَـفُـزْ بِتَـوَلِّـيْهَـا مُـعَـاوِيَـةٌ فَلَسْتُ أُلْفِيْـكَ إِلاَّ مِـنْ مَـوَالِيْـهَـا

وَإِنَّنِي مُشْفِـقٌ أَنْ تَتْرُكَاهَا سَرِيْـــعَاً حَامِلَيْنِ إِلَى ٱلأُخْرَى مَسَاوِيْهَا

وَقَـالَ ثَـانِيْهِمَـا: كَـلاَّ فَعُـزْلَتُـهُ تُفْضِيْ إِلَى حِطَّةٍ فَـرْضٌ تَحَاشِيْهَـا

فَلْيَلْحَقَنَّ بِـأَرْضِ ٱلشَّامِ مُضْـطَلِبَـاً أَسْمَى ٱلْمُنَى وَٱلْمَعَالِيْ مِنْ مُعَاوِيْهَا

فَقَـالَ عَمْـرٌو: فَعَبْـدُ ٱللَّهِ يَـطْلُبُنِيْ لِـلدِّيْنِ طَـلْبَـةَ حَقٍّ كُنْتُ وَاعِيْهَـا

لٰكِنَّمَا رَغْبَةُ آلدُّنْيَا يَجُوْلُ بِهَا مُحَمَّدُ وَأَنَا مَا زِلْتُ شَاهِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ طَالَ فِيْ هٰذَا تَفَكُّرُهُ أَنْضَى خُطَاهُ إِلَى آلدُّنْيَا يُمَالِيْهَا

وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَرْشِيْ مُعَاوِيَةً يَقُوْلُ: خَاطِبُ ذَاتِ آلْحُسْنِ يُحْلِيْهَا

وَمَا آرْتَضَى غَيْرَ مِصْرٍ رَشْوَةً لِيُمَا لِيْهِ عَلَىٰ شَهَوَاتٍ كَانَ شَاهِيْهَا

وَمِصْرُ تُطْمِعُ أَرْبَابَ آلْمَطَامِعِ بِآلْـ ـخَيْرِ آلْوَفِيْرِ آلَّذِيْ يُلْفى بِوَادِيْهَا

وَعَمْرُو فَاتِحُهَا وَهْوَ آلْخَيْرُ بِهَا فَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ إِنْ بَاتَ بَاغِيْهَا

وَمَا مُعَاوِيَةُ لَوْلَا تَحَوُّجُهُ إِلَى مُعِيْنٍ كَعَمْرٍو وَكَانَ يُوْلِيْهَا

وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ مَالِكَهَا لِذَا بِهَا نَفْسُ عَمْرٍو رَاحَ شَارِيْهَا

وَكَمْ أَتَى آلشَّامَ كَآبْنِ آلْعَاصِ ذُوْ جَشَعٍ فَنَالَ شَهْوَتَهُ أَوْ مَا يُوَازِيْهَا

وَفِيْ آلْخِلَافَةِ مَا يُغْرِيْ آلطَّمُوْعَ بِهَا إِلَّا إِذَا خَافَ رَبَّ آلْعَرْشِ حَامِيْهَا

معاوية يعلن العصيان

كَفٌّ تُصَافِحُ كَفّاً وَهْيَ طَامِعَةٌ بِمِصْرَ نَارُ آلْوَغَى وَآلظُّلْمِ تُوْرِيْهَا[1]

وَحِلْفُ شَرٍّ بِهِ تَمَّتْ مُحَالَفَةٌ ضِدَّ آلْخِلَافَةِ مَا آلْإِسْلَامُ رَاضِيْهَا

قَدْ فَازَ عَمْرٌو بِوَعْدٍ مِنْ مُعَاوِيَةٍ بِأَنْ يَعُوْدَ لِمِصْرٍ وَهْوَ وَالِيْهَا

---

(١) شعر معاوية بعد أن استوثق من معونة عمرو بن العاص بكفاءته لمقاومة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فصحت عزيمته على إعلان العداء فأمر منادياً ينادي الصلاة الجامعة فلمّا اجتمع الناس وفيهم جرير بن عبد الله البجلي رسول الخليفة علا معاوية المنبر وقال : الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً ، والشرائع للإيمان برهاناً ، يتوقد فيه في الأرض المقدسة ، جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده ، فأحلّهم أرض الشام ، ورضيهم لها ، كما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ، ومناصحتهم خلفاءه والقوّام بأمره ، والذابين عن دينه وحرماته ، ثمَّ جعلهم لهذه الأمّة نظاماً ، وفي سبيل=

= الخيرات أعلاماً ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، وبالله نستعين ، على ما تشعَّب من أمر المسلمين بعد الإلتئام ، وتباعد بعد القرب ، اللهمَّ انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دمائنا ، وإخافة سبلنا ، وقد علم الله أنا لا نريد لهم عقاباً ، ولا نهتك لهم حجاباً ، ولا نوطئهم زلفاً ، غير أنّ الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ، ما جاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعرف الهوى ، حملهم على ذلك البغي والحسد فنستعين الله عليهم ، أيُّها الناس ، قد علمتم أنّي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفّان ، عليكم ، إنّي لم أقم رجلاً منكم على خزايةٍ قطُّ ، وإنّي وليُّ عثمان ، وقد قتل مظلوماً ، والله تعالى يقول : ﴿ **ومن قُتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً** ﴾ وأنا أحبُّ أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان » اهـ وما كاد ينتهي معاوية من خطابه الذي على ما رأيت بين سطوره من الدهاء والمكر حتى نادى الناس بالمطالبة بدم عثمان وبايعوا معاوية على ذلك وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله . ثمَّ انصرف معاوية فانصرف الناس حتى إذا ما خلا في قصره استدعى إليه جريراً وقال له لقد طال مكوثك عندنا وأعملت الفكرة طويلاً فرأيتني لا يسعني إلاّ المطالبة بدم عثمان وأنا وليّه فارجع إلى صاحبك وأخبره إنّي لا أبايعه ولا أطيعه وكذلك أهل الشام أو يدفع لنا قتلة عثمان فنقتلهم به وهذا كتاب منّي إليه فاحمله له فحاول جرير كثيراً أن يثنيه عن عزمه فما أفلح وهكذا عاد خائباً إلى الكوفة يخبر أمير المؤمنين بكلّ ما رأى وسمع بعد طول غيبته عنه .

أمّا الكتاب الذي حمله جرير إلى سيدنا علي عليه السلام فهذا نصّه « من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب ، أمّا بعد ، فلعمري ، لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت (الخلافة) شورى بين المسلمين ، ولعمري ليست حججك عليَّ ، كحججك على طلحة والزبير ، لأنّهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل =

= البصرة ، لأنَّ أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، فأمّا شرفك في الإسلام ، وقرابتك من النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وموضعك من قريش ، فلست أدفعه ، والسلام » اهـ .

وإنّا نعود فنقول إنّ معاوية ما كان يهمه في الحقيقة قتل عثمان ولا كان يشجيه قميصه الملطخ بالدم وأصابع نائلة التي قُدَّت يوم مقتله . ولكنها ذريعة كان يتذرع بها للوصول إلى الخلافة ، ووسيلة يتوسل بها لتأليب الناس على سيدنا علي عليه السلام توصلاً لخلعه عن الخلافة واستئثاراً بها .

أمّا أهل الشام فهم صنفان صنف من خالصة العرب وقد التفوا حول معاوية طمعاً بالاستفادة من كرمه الجمّ الحاتمي والوصول إلى ما يحلمون به من الرتب العالية لو هو تولّى الخلافة . وصنف من عامة العرب وسواد أهل الشام وهم خاضعون لمعاوية من عهدٍ عهيد وقد ملك قيادهم وسيطر عليهم فما كان لهم إلّا أن يرضوا بما يرضى وأن يسيروا وراءه كيف سار وهكذا استفحل أمر معاوية وأصبح خطراً على سلامة المسلمين وباتت الحرب بمساعيه ضد أمير المؤمنين على قاب قوسين .

أمّا بيعة أهل الشام لمعاوية يومئذٍ فقد كانت على الطلب بدم عثمان وعلى أن يكون أميراً لا يطمع في الخلافة بل يترك أمرها شورى . قالوا وكان في المسجد يومئذٍ أربعمائة رجل من المهاجرين والأنصار ممن صحبوا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على رأسهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبيد الله بن عمر ومروان بن الحكم ونحوهم فاعجب لهذا العدد الكبير الذي انضوى لمعاوية طمعاً بالدنيا وكانت لا تزال هذه الدنيا غرّارة بأهلها ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

« ترجمة جرير »

هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة بن جثم بن عويف بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر من كهلان قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان سنة عشر للهجرة فبايعه وأسلم وكان جرير صبيح الوجه جميلاً . قال رسول الله فيه « كأنّ على وجهه مسحة مَلك » وكان عمر يقول جرير يوسف هذه الأمّة . وكان طوالاً ينقل في ذروة البعير من طوله . وكانت نعله ذراعاً . وكان =

أَلَا يَهُوْنُ عَلَيْهِ بِٱلْخِلَافَةِ أَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ وَنَىً مِصْراً لِرَاجِيْهَا
هٰذَا إِذَا لَمْ يَخُنْهُ بَعْدَ نَصْرَتِهِ خِيَانَةً كَانَ عَمْروٌ مِنْهُ خَاشِيْهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ عَمْراً فِيْ حَقِيْقَتِهِ تَٱللَّهِ صَاحِبُهُ يَدْرِيْ خَوَافِيْهَا
وَإِنَّهُ وَاحِدٌ فَذٌّ يُقَابِلُ بِٱلـ ـدَّهَا ٱلْأُلُوْفَ وَلَا يَخْشَى تَجَمِّيْهَا
لِذَا ٱسْتَعَزَّ بِهِ عِزّاً مُعَاوِيَةٌ وَلَمْ يَعُدْ يَرْهَبِ ٱلْأَخْطَارَ دَاهِيْهَا
وَرَدَّ رَدّاً جَرِيْراً قَائِلاً عَلَناً: مَا أُمْرَةُ ٱلْمُرْتَضَى يَا صَاحِ أُدْرِيْهَا
وَقُلْ لَهُ مَا أَنَا رَاضٍ بِأُمْرَتِهِ وَلَسْتُ وَٱللَّهِ أُحْصَىٰ مِنْ مُطِيْعِيْهَا
كَذَاكَ عَادَ جَرِيْرٌ خَائِباً خَجِلاً بِخَيْبَةِ ٱلسَّعْيِ يَشْكُوْ مِنْ مُخَيِّبِيْهَا
ثُمَّ ٱنْبَرَى بِٱلدَّهَا يُغْرِيْ مُعَاوِيَةٌ أَصْحَابَهُ وَبِمَا تَرْضَى يُمَنِّيْهَا
يَقُوْلُ: أَصْبَحْتُ يَا أَخْوَانُ مُلْتَزِماً حَرْبَ ٱلْخِلَافَةِ أَبْغِيْ أُقَاوِيْهَا
فَقَدْ حَمَتْ قَاتِلِيْ عُثْمَانَ فَهْيَ إِذاً مَسْئُوْلَةٌ عَنْ دِمَاءٍ أُضْتُ أُجْرِيْهَا

=يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلها إذا أصبح فتخرج كالنير واستعمله عمر وعثمان بعده وآخر عمل له كان في همذان استعمله عليها عثمان وقد مرَّ معنا كيف أنّه بايع سيدنا علي وحمل أهل همذان على بيعته بعد انتهاء موقعة الجمل . ثمَّ عرفنا كيف وجهه المرتضى عليه السلام إلى معاوية في الشام بعد أن عرض هو عليه ذلك بناءً على ثقته بنفوذه هناك .

ولما عاد جرير بالفشل والخيبة اتّهمه أصحاب سيدنا علي بممالئة معاوية وأنّه ما أطال المكوث في الشام وطاول في مخابرة معاوية إلّا ليكتسب هذا الوقت الكافي ليعدّ عدّته للعصيان والظاهر أنّ سيدنا علي عليه السلام داخله الشك بإخلاصه فأهمل شأنه فاعتزله ولم يحضر حرب صفّين على أنّه اعتزل معاوية أيضاً وأقام في الجزيرة في العراق ملتزماً بيته حتى توفي بالسراة من أعمال العراق سنة ٤٤ للهجرة في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة .

بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِي ٱلشَّآمَ إِلَى ٱلْـــعِصْيَانِ وَٱلْحَرْبِ يمْشِيْهَا وَيُزْجِيْهَا
فَٱسْتَسْلَمَتْ وبَكَتْ معَهُ قَتِيْلَ بَنِيْ أُمَيَّـةٍ لَيْتَ يَـدْرِيْ ٱلْحَقَّ بَـاكِيْهَـا
صَاحَتْ بِثَارَاتِ عُثْمَانٍ تُرِيْـدُ عَلِيّـــاً مِثْلَمَـا بُلِّغَتْ مِنْ مُسْتَشَـارِيْـهَـا
وَبَـايَعَتْ بِٱسْـمِ أَخْـذِ ٱلثَّأْرِ مُقْـدِمَـةً عَلَىٰ ٱلصِّعَابِ ٱلَّتِيْ تُخْشَى مُعَاوِيْهَا
وَٱلشَّـامُ بُؤْرَةُ شَـرٍّ أَصْبَحَتْ وَبِهَـا سُكَّـانُهَـا قَـدْ تَمَادَتْ فِيْ تَـرَاغِيْهَـا
فِيْهَا عِدَا ٱلْمُرْتَضَى ظُلْمَاً قَدِ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ كُـلِّ صَوْبٍ وَحَـدْبٍ فِيْ تَفَعِّيْهَا
هُنَـاكَ دَاهِيَـةُ ٱلـدُّنْيَـا مُعَـاوِيَـةٌ يَـرْمِيْ ٱلْخِلَافَـةَ كَيْ يَصْطَادَ بَـازِيْهَا
مَـا هَمُّـهُ دَمُ عُثْمَـانٍ وَمَنْ سَفَكَتْـــهُ أَصْبَحَـتْ عِنْـدَهُ إِذْ رَاحَ آوِيْـهَـا
وَلَا قَمِيْصُ ٱبْنِ عَفَّـانَ ٱلْمُلَطَّخُ بِـٱلْــدَّمِ ٱلَّـذِي أَهْـرَقَتْـهُ فِيْ تَعَصِّيْهَـا
وَلَا أَصَـابِـعُ ذَاتِ ٱلْخِـدْرِ نَـائِلَةٍ وَإِنْ هِيَ ٱنْتَثَرَتْ مِنْ قَـدِّ مَـاضِيْهَـا
لٰكِنَّ نَفْسَ ٱبْنِ حَـرْبٍ فِيْ شَرَاهَتِهَـا لَا شَيْءَ عَنْ طَلَبِ ٱلثَّـارَاتِ يُثْنِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ تَـطْلُبُ ٱلثَّارَاتِ مُلْحِفَـةً إِلَّا لِـتُبْـلِغَهَـا أَقْصَـى أَمَـانِيْـهَـا
فَتَـرْتَقِيْ سِـدَّةَ ٱلـدِّيْنِ ٱلْحَنِيْفِ بِثَـا رَاتٍ تُنَادِي بِهَا فِيْ ٱلنَّـاسِ تَمْوِيْهَـا
وَٱلْتَفَّ مِنْ حَوْلِهَا مَنْ كَانَ يَضْطَلِبُ ٱلـــدُّنْيَـا وَأَغْـرَتْـهُ بِٱلسُّـوءَى مَـلَاهِيْهَـا
مِنْ كُـلِّ مُرْتَقِبِ ٱلْعُلْيَـاءِ ذِيْ وَلَـعٍ بِـهَـا وَمَـا هَـمُّـهُ إِلَّا تَـرَقِّـيْـهَـا

مسير أمير المؤمنين إلى الشام

وَبَعْـدَ عَـوْدِ جَـرِيْـرٍ لِـلْإِمَـامِ بِـأَنْـــبَـاءِ ٱلشَّآمِ وَمَـا يَنْوِيْ مُعَـاوِيْهَـا[1]
أَبَـى أَبُـوْ حَسَنٍ إِلَّا مُـرَاسَلَةَ ٱلْـــعَاصِيْ ٱبْنِ صَخْرٍ بِآيِ ٱلنُّصْحِ يُسْدِيْهَا

(١) قدم سيدنا علي عليه السلام من البصرة إلى الكوفة-بعد موقعة الجمل لاثنتي عشرة =

طَـالَتْ وَلٰكِنَّهَـا مَـا أَثْمَـرَتْ ثَمَـراً فِيْ أَنْفُسٍ طَـوَتِ ٱلْبَغْضَا مَـطَاوِيْهَـا

= ليلة من شهر رجب سنة ٣٦ للهجرة . فدخل الكوفة ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم فاستقبله أهل الكوفة بالتكبير والتهليل وفيهم قرَّاؤهم وأشرافهم ودعوا له بـالبركـة ونزل في الرحبـة ثمَّ دخل المسجـد الأعظم فصلّى فيـه ركعتين وصعد المنبـر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله وقال : « أمّا بعد ، يا أهل الكوفة ، إنَّ لكم في الإسـلام فضلاً ، ما لم تبدّلوا وتعبروا ، دعوتكم إلى الحقّ فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتـم ، إلاَّ أنَّ فضلكم فيمـا بينكم وبين الله ، فـأمَّـا الأحكـام والقسم ، فـأنتم أسـوة غيـركم ممن أجـابكم ، ودخل فيمـا دخلتم فيه ، ألا إنّ أخـوف ما أخـاف عليكم ، اتبـاع الهـوى ، وطول الأمل ، أمَّا أتباع الهوى فيصدُّ عن الحقّ ، وأمَّا طول الأمل ، فينسي الآخرة ، ألا إنَّ الدنيا قد رحلت مدبـرةً ، وأنَّ الآخرة قـد ترحلت مقبلةً ، ولكـلّ واحدةٍ منهـا بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حسـاب ولا عمل ، الحمـد لله الذي قصر وليه ، وخذل عدوَّه ، وأعزَّ الصادق المحقّ ، وأذلَّ الناكث المبـطل ، عليكم بتقوى الله ، وطاعـة من أطاع الله من أهـل بيت نبيكم ، الذين هم أولى بـطاعتكم فيما أطـاعـوا الله فيــه ، من المستحلين المـدعين ، القـائلين إلينـا ، يتفضلون بفضلنـــا ، ويجاحدونا أمرنا ، وينازعـونا حقّنـا ، ويدافعـونا عنـه ، فقد ذاقـوا وبال مـا اجترحـوا ، فسوف يلقون غيّـاً ، إلاَّ أنّه قـد قعد عن نصـرتي رجالٌ منكم ، وأنـا عليهم عاتب ذارٍ ، فـاهجروهم ، وأسمعـوهم ما يكـرهون ، حتى يعتبـوا ، ليعرف بـذلـك حـزب الله عنـد الفرقة » وعندما انتهى أمير المؤمنين من خطابه تقدم إليـه وجوه الـذين تعدوا عن نصـرته فاعتذروا فقبل أعذارهم ورضي عنهم بعد أن أكثر من عتابهم ولومهم .

وقد سبقت الإشارة بأنّه عليه السلام ما كاد يستقرّ به المقام في الكوفـة حتى انصرف إلى دعوة أمراء العراق وفارس إلى الـطاعة فلبّـوه وأطاعـوه وبايعـوه ثمَّ انصرف إلى مخـاطبة معاوية ومخابرته فأرسل له جريراً كما تقدم وكـانت نتيجة رسـالته مـا رأينا من التسـويف والمماطلة ثمَّ رجوع جرير إلى أمير المؤمنين بالخيبة والفشل وتلا ذلك مـراسلات كثيـرة بين سيدنا عليّ ومعاوية لم تنجم عن خبر وقد تمادى معاوية مع سيـدنا علي في رسـائله تمـادياً مـا وجدت في العلمـاء والمؤرخين من رضيـه لـه حتى ولا الـذين يتشيعـون إلى الأمويين وإنّي لأعرض عن كل ذلك وأنزّه هذه العلوية المباركة عن نشر هاتيك الرسائـل وأكتفي بالإشارة إليها ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله . =

= وقد صبر سيدنا علي عليه السلام أشهراً معدودة حـاول فيها جهـده أن يستميله إلى الحقّ ويحوّله عن البـاطل فمـا أجدت مسـاعيه نفعـاً وظلَّ معـاوية وأعـوانه يعيثـون فساداً في ممالك الخلافة فيحملون الناس باسم ثأر عثمان على كره سيدنـا علي ونكث بيعته حتى إذا مـا استفحل الخـطب وتفاقم الخـطر لم يرَ سيـدنا أميـر المؤمنين غير تحكيم السيف لإعادة السلام إلى بلاد الخلافة فنادى بـالجهاد على أهـل الشام فلبّـاه أكثر أهـل العراق وتقاعس الأقلون ممن تأكلهم الترف وخارت منهم العزائم وكان خروجه عليه السلام من الكوفة في أوائل ذي الحجة سنة ٣٦ للهجرة .

سـار المرتضى بـأصحابـه إلى النخلة وهي إحدى ضـواحي الكـوفـة وهنـاك رتب صفوفهم وركب في مقدمتهم ودعا فقال « اللهمَّ ، إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسـوء المنظر في الأهـل والمال والـولد ، اللهمَّ أنت الصـاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل ، ولا يجمعهمـا غيرك ، لأنّ المستخلف لا يكـون مستصحباً ، والمستصحب لا يكـون مستخلفـاً » (نقـول : وابتـداء هـذا الكـلام يـروى عـن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قفّاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تتمة من قولـه ولا يجمعهمـا غيرك إلى آخر ما قـال فأجـاد وأعجـز لأنَّ من يستصحب لا يكـون مستخلفـاً لاستحـالة وجـود الشيء الواحـد في مكانين بـالنظر إلى الجسم البشـري وأمّا الله جلّت قدرته فذاته القدسية ليست مكانية بل هو جلَّ جلاله موجـود في كل زمـان ومكان فيحيط علمه وقضاؤه وقدره وعنايته بالمستصحبين والمستخلفين معاً فهو سبحانه المـرجوّ لنصـرة السائرين لنصره وحماية المستخلفين من الأهل والولد) .

وقد ولّى سيدنا علي عليه السلام على الكوفة عند خروجه منها حبيب بن مالـك فقال لـه وهـو آخذ بعنـان دابته عنـد رحيله : أتخرج يـا أمـير المؤمنين بـالمسلمين فيصيبوا أجـر الجهاد بالقتال وتخلفني بالكوفة لحشر الرجال ؟ فقال : لن يصيبـوا من الأجر شيئـاً ، إلاّ كنتَ شريكهم فيه ، وأنت ههنا أعظم غنـاءً عنهم ، منك لـو كنت معهم » وعندمـا قطع سيدنا علي برحاله النهر أمـر مناديـه فنادى بـالصلاة فتقـدم عليه السلام فصلّى ركعتين حتى إذا قضى الصلاة أقبل على الناس بوجهه فقال : « أيّهـا الناس ألا من كـان مشيعاً أو مقيمـاً فليتمَّ الصـلاة ، فإنّـا قوم سفـر ، ألا ومن صحبنـا فـلا يصـومنَّ المفـروض ، والصـلاة المفروضة ركعتان » . وبعد هذا سار أمير المؤمنين بركبه قاصداً الشام لحرب معاوية .

كَيْمَا يُشِيْدُ لَـهُ مُلْكاً عَلَىٰ أُسُسِ ٱلْـــخِلاَفَـةِ ٱلْمُشْتَهى مِنْـهُ تَـدَاعِيْهَـا
وَكَانَ يَسْمَعُ أَعْمَـالَ ٱلْعُصَاةِ أَبُـوْ ٱلْـــحُسَيْنِ مِنْ فَمِ رَاوِيْهَـا وَشَـاكِيْهَـا
فَيَسْتَعِيْــذُ بِبَـارِيْــهِ وَيَـنْشُــدُ مَـنْ حَـوْلَيْهِ مِنْ صَحْبِـهِ لِلْحَرْبِ يُنْخِيْهَـا
فَــلاَ يَــرَى غَيْــرَ آرَاءٍ يُشَتِّتُـهَـا ٱلْـــخُؤُوْرُ مَـا إِنْ تُلَبِّيْ صَوْتَ دَاعِيْهَـا
وَظَـلَّ فِيْ ذَا شُهُـوْراً وَهْـوَ مُصْطَبِرٌ عَلَىٰ عِـدَاهُ ٱلَّتِيْ وَالَتْ تَـعَـدِّيْهَـا
وَقَـدْ تَمَـادَتْ فَـلاَ صِقْـعٌ وَلاَ بَلَدٌ لَمْ تَفْشُ فِيْ أَهْلِهِ شَتَّى مَسَـاوِيْهَـا
وَلَمْ يَعُـدْ لِعَلِيٍّ أَنْ يَخَـارَ سِـوَى حَـرْبٍ بِنِيْـرَانِهَـا يَكْـوِيْ مُلَظِّيْهَـا
فَـأَعْلَنَ ٱلْحَرْبَ مُضْـطَرّاً وَحُمَّ قَضَـا ءُ ٱللَّهِ أَنْ تُـزْعِجَ ٱلـدُّنْيَـا تَمَـاسِيْهَـا
كَيْمَـا يُـرَبِّيْ بِهَـا أَهْـلَ ٱلشَّـآمَ وَقَـدْ جَـارَتْ بِمَـا أَظْهَـرَتْـهُ مِنْ تَعَصِّيْهَـا
ذَا بَعْـدُ أَنْ ضَـاعَ مَسْعَـاهُ بِعَـوْدَتِهَـا إِلَى ٱلْهُــدَى وَأَطَـاعَتْ مُسْتَضِلِّيْهَـا
كَـذَاكَ قَدْ سَـارَ يَبْغِيْ ٱلشَّامَ حَيْـدَرَةٌ يُـرِيْـدُ تَـطْوِيْـعَ عَـاصِيْهَـا وَبَـاغِيْهَـا
وَحَـوْلُـهُ مِنْ كُمَـاةِ ٱلْحَـرْبِ طَـائِفَـةٌ يَفُـوْتُ قَافِـزُهَـا فِيْ ٱلسَّيْـرِ مَـاشِيْهَـا
وَكَـانَ مَسْعَاهُ مَـا بَيْنَ ٱلْفُـرَاتِ وَدَجْـــلَةٍ يَجِـدُّ بِتِلْكَ ٱلْأَرْضِ يَـطْوِيْهَـا
وَكَـانَ عِنْـدَ مَــوَاقِيْتِ ٱلصَّـلاَةِ يُنَـا دِيْ ٱلنَّـاسَ عَنْ وَرَعٍ كَيْمَا تُصَلِّيْهَـا
وَمَــرَّةً لَمْ يَجِــدْ أَرْضَــاً مُــلاَئِمَــةً إِلَى ٱلصَّلاَةِ بِوَقْتِ ٱلْعَصْرِ يَقْضِيْهَا[١]

---

(١) روى عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرّة الثقفي عن أبيه عن عبد خير قـال كنت مع علي أسير في أرض بابل في سيره إلى صفين وحضرت صلاة العصر فجعلنا لا نأتي مكـاناً إلاّ رأيناه أقبح من الآخـر حتى أتينا على مكـان أحسن ما رأينـا وكـادت الشمس تغيب فنزل علي فنزل الناس معه فدعا الله فرجعت الشمس كمقدارهـا من صلاة العصـر فصلّينا العصر وغابت الشمس فأكبرنا معجزةً صنعها الله سبحانه بكرامته عليه السلام .

فَجَدَّ حَتَّى ٱنْتَهَى وَقْتَ ٱلْغُرُوْبِ إِلَى ... أَرْضٍ أَرَادَ يُصَلِّيْ عَصْرَهُ فِيْهَا

وَإِذْ دَعَا قَدْ أَعَادَ ٱللَّهُ خَالِقُهُ ٱلـ ... ـشَّمْسَ ٱلْمُضِيْئَةَ فِيْ أَسْنَى تَلالِيْهَا

ظَلَّتْ تُلألِىءُ حَتَّى مَا ٱلصَّلاَةُ كَمَا ... يَرْضَى ٱلإِلٰهُ ٱنْتَهَى مِنْهَا مُصَلِّيْهَا

غَابَتْ وَقَدْ عَادَتِ ٱلدُّنْيَا لِظُلْمَتِهَا ... وَبَاتَ صَحْبُ عَلِيٍّ فِيْ دَيَاجِيْهَا

وَتِلْكَ مُعْجِزَةٌ كُبْرَى لِحَيْدَرَةٍ ... ذَاعَتْ وَشَاعَتْ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ تَحْكِيْهَا

ثُمَّ عَلَىٰ كَرْبَلاَءٍ مَرَّ حَيْدَرَةٌ ... فَأَوْقَفَ ٱلنَّاسَ حِيْنَاً فِيْ بَرَارِيْهَا[1]

نَادَى : ٱلرِّحَالُ هُنَا تَثْوِيْ بِكَرْبَتِهَا ... هُنَا ٱلدِّمَاءُ عِدَاةُ ٱللَّهِ تُمْنِيْهَا

مَا كَرْبَلاَءُ سِوَى كَرْبٍ وَمَعْهُ بَلاَ ... ءٌ لِلأُلَى سَوْفَ تَثْوِيْ فِيْ مَثَاوِيْهَا

بِذَاكَ أَنْبَأَ عَنْ خَطْبِ ٱلْحُسَيْنِ وَكَمْ ... مِنَ ٱلْحَوَادِثِ قَدْ شِمْنَاهُ يُنْبِيْهَا

وَعِنْدَ مَا بَلَغَتْ سَابَاطَ حَمْلَتُهُ ... حَلَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ فِيْ ضَوَاحِيْهَا[2]

---

(١) روى سعيد بن حكيم العبسي عن الحسن بن كثير عن أبيه أنَّ علياً عليه السلام أتى كربلاء في طريقه إلى صفين فوقف فيها قليلاً فقيل له يا أمير المؤمنين هذه كربلاء فقال ذات كربٍ وبلاءٍ ثم أومأ بيده إلى مكان فقال ههنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثمَّ أومأ بيده إلى مكانٍ آخر فقال ههنا مراق دمائهم ثمَّ مضى إلى ساباط وكان هذا من جملة أنبائه بالغيب التي اختصّه الله بها وقد أشار بها إلى مصرع سيد الشهداء الحسين عليه وعلى أبيه وجدّه وآل البيت الصلاة والسلام .

(٢) ولمّا مرَّ سيدنا علي بساباط وهي بالقرب من الأنبار استقبله بنو خشوشة وهم دهاقينها فنزلوا عن خيولهم وتقدموا منه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه فقال عليه السلام ما هذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم ؟ ويريد نزولهم عن خيولهم في ملاقاته قالوا أمّا هذا الذي صنعنا فهو منا نعظم به الأمراء وأمّا هذه البراذين فهدية لك وقد صنعنا للمسلمين طعاماً وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً فقال عليه السلام أمّا هذا الذي زعمتم أنّه فيكم خلق تعظمون به أمراءكم فوالله لا نفع به للأمراء وأنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم فلا تعودوا له . وأمّا دوابكم هذه فإن أحببتم أن =

وَأَقْبَلَتْ نَحْـوَ مَـوْلاَنَـا أَبِيْ حَسَنٍ   مِنْهَا ٱلدَّهَـاقِيْنُ فِيْ أَجْلَى تَصَافِيْهَا
عَلَيْهِ قَدْ عَرَضَتْ شَاهِيْ ٱلْمَآكِلِ مَعْ   ضَافِيْ ٱلْمَنَازِلِ نَادَى : لَسْتُ رَاضِيْهَا
فَـمَـا عَلَيْـكُمْ أَيْـمُ ٱللَّهِ تَـكْـلِفَـةٌ   لَـنَـا وَكُلْفَـتُكُـمْ إِنِّي أُحَـاشِيْـهَـا

= آخذها منكم وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم . وأمّا طعامكم الذي صنعتم لنا فإنّا نكره أن نأكل من أموالكم إلاّ بثمن . قالوا يا أمير المؤمنين نحن نقوّمه ثمَّ نقبل ثمنه قال إذن لا تقوّمونه بثمنه نحن نكتفي بما هو دونه . قالوا يا أمير المؤمنين فإنَّ لنا من العرب موالي ومعارف أتمنعنا أن نهدي لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منّا ؟ فقال كلّ العرب لكم موالي وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم وان غصبكم أحد فاعلمونا قالوا يا أمير المؤمنين إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا قال ويحكم فنحن أغنى منكم وتركهم وسار .

نقول من يتدبر هذه القصة تتجلى له صفات أمير المؤمنين العالية ومباديه السامية مما لم تبلغ حدّه ديموقراطية هذه الأيام التي يتغنى بها المتغنون فقد نصح سيدنا أمير المؤمنين دهاقين الفرس أن يعدلوا عن النزول عن خيولهم إكراماً للأمراء إذا مرّوا بهم واستقبلوهم ولسان حاله يقول : بالتساوي بين الناس حتى لا يكلّف أحدهم مشقةً لإكرام الآخر بما ليس وراءه فائدة لمستفيد . وامتنع عن قبول هديتهم إلاّ بثمنها وذلك غاية العدل لأمير يقود جيشاً محارباً سائراً للقتال . وعندما احتجوا بقولهم أنّ بعض العرب لهم أصدقاء يريدون أن يهادوهم أجابهم أمير المؤمنين بل إنَّ كلَّ العرب أصدقاؤكم لا بعضهم مشيراً إلى أنّ وجود العرب الفاتحين بأرضهم لا يمنع أن يجعل الغالبين والمغلوبين بحكم الأصدقاء . لا جرم أنّ الديموقراطية الحقيقية التي هي من أجلى المبادىء الإسلامية قد تجلّت في كلمات سيدنا علي بن أبي طالب المسجدية التي خاطب بها دهاقين الفرس وهي التي يوجبها الإسلام على تابعيه من الحكّام اللهمَّ إذا كان القائم على تنفيذها تقيّ صالح عارف بأحكام الله كسيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام .

ويخلق بنا في هذا المقام أن نذكر اعترافاً بالحقّ وإقراراً بالفضل ما شهدناه شهادة عيان ونحن في خدمة مولانا صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أدامه الله مدى الدوران فطالما رآه الناس وهو يتجوَّل على يخته الملوكي في شطّ العرب ونهري بهمشير وقارون ينادي بالناس الذين يتجولون على بلايمهم فيتكلفون . الوقوف لأخذ سلامه وتقديم =

وَحَمْلَةُ ٱلْمُـرْتَضَى مَـرَّتْ بِفَجْـوَةِ أَرْ ضٍ لَمْ تَجِدْ عِنْدَهَـا مَاءً تُـرَوِّيْهَا[1]

= الاحترام لشخصه الملوكي أن اجلسوا يا أولادي ولا تتكلفوا هذه المشقة فما أنا إلاّ أبوكم وصاحبكم وشهدت هذا بنفسي وأنا بين يدي عظمته الملوكية فأثنيت على هذا العطف واللطف فقال حفظه الله : هذا ما تلقيناه عن سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام وذكر لي قصة دهاقين ساباط وقال بدعته المحمودة المشهورة ومن أكون أنا بجانب أمير المؤمنين الذي أبدى مثل هذا العطف لأولئك الدهاقين ؟؟ وذكرت هذا العطف واللطف الخزعلي وأنا معجب لكثيرين من أهالي العراق فحدثوني أمثال ذلك عن عظمته الشيء الكثير وألفيتهم أكثر إعجاباً مني بأخلاقه الفاضلة التي تركته في أرفع مقام من الاحترام في عيون العرب والأعجام .

كذلك كنت بخدمة عظمته الملوكية سنة ١٩١١ فصحبني أعزَّ الله به الإسلام إلى الأهواز وكان خارجاً إلى لقاء البختيارية الذين اعتدوا عامئذٍ على حدود أمارته المحمية فعندما حلَّ في الأهواز وأخذت تفد عليه رجال القبائل للحرب أخذت أيضاً ترد عليه الهدايا من القبائل المجاورة من قمح وأرز وغنم ودجاج وسمن فكان لا يقبل شيئاً منها إلّا بثمنه على أنّه حفظه الله كان يدفع للذين يهادونه بأضعاف أثمان هداياهم فكانوا يتأبون عن قبولها وهم يقولون إنّ أرواحهم وأموالهم هي وقف لخدمته فيقول لهم لا والله فإنّ سيدنا علي ما قبل الهدايا بغير ثمنها عندما سار إلى صفين . شهدت هذا بنفسي وعرف العراقيون أكثر منه عن عظمته الملوكية في جميع حروبه وهم يذكرونها لعظمته بالإعجاب .

ولقد كنت أعجب من هذه الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة التي خصَّ الله سبحانه بها هذا الأمير العربيّ العظيم الذي تتبع تعاليم سيدنا علي عليه السلام وتأدّب بأدبه العلوي فبارك الله فيه وأكبت حساده وأعاديه وأعزَّ به أصحابه ومريديه .

(١) روى سعيد التيمي المعروف بعقيصاء قال كنّا مع علي عليه السلام في مسيره إلى الشام حتى إذا كنّا في السواد عطش الناس واحتاجوا إلى الماء فانطلق بنا سيدنا علي حتى أتى إلى صخرة ضرس في الأرض كأنَّها رابضة عنز فأمرنا فاقتلعناها فخرج لنا من تحتها ماء فشرب الناس وزاد عن حاجتهم ثمَّ أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضوا قليلاً قال عليه السلام أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه ؟ قالوا نعم يا أمير المؤمنين . قال فانطلقوا إليه فانطلق منّا رجالٌ ركباناً ومشاةً فاقتصصنا الطريق إليه =

وَقَدْ رَأَتْ صَخْرَةً ضِرْساً كَرَابِضَةِ آلْـــعَنْزِ آلْمُقِيْمَةِ فِيْ ضَافِيْ مَرَاعِيْهَا

فَجَدَّ حَيْدَرَةٌ جَدّاً لِمَرْبَضِهَا حَتَّى غَدَا مَعَ مَنْ مَعَهُ مُدَانِيْهَا

وَصَاحَ هُبُّوْا لَهَا يَا صَحْبُ وَآقْتَلِعُوْ هَا وَآشْرَبُوْا مِنْ مِيَاهِ آلنَّبْعِ صَافِيْهَا

فَبَادَرُوهَا بِأَيْدِيْهِمْ كَمَا أَمَرَ آلْـــمَوْلَى أَبُوْ حَسَنٍ رَاحُوْا مُزِيْحِيْهَا

فَفَجَّرَ آللَّهُ عَيْناً تَحْتَ مَرْبَضِهَا وَأَسْرَعُوْا وَتَسَقَّوْا مِنْ مَجَارِيْهَا

وَأَكْفَأُوْا فَوْقَهَا فِيْ آلْحَالِ صَخْرَتَهَا وَوَاصَلُوْا آلسَّيْرَ يَطْوُوْنَ آلْأَتَاوِيْهَا

وَكَانَ بِآلْقُرْبِ دَيْرٌ يَمَّمُوْهُ وَقَصُّـــوْا قِصَّةَ آلْعَيْنِ لِاسْتِجْلَاءِ خَافِيْهَا

فَقَالَ صَاحِبُهُ: تَآللَّهِ مَا بُنِيَتْ عَمَارَةُ آلدَّيْرِ إِلَّا كَيْ تُجَرِّيْهَا

وَلَيْسَ غَيْرُ نَبِيٍّ أَوْ وَصِيِّ نَبِـــيٍّ مِنْ خَلَائِقِ رَبِّ آلْعَرْشِ يُجْرِيْهَا

فَأَكْبَرُوْا عِنْدَ هَذَا آلْقَوْلِ مُعْجِزَةً كَانَ آلْخَلِيْفَةُ بِآسْمِ آللَّهِ آتِيْهَا

ثُمَّ مَضَى آلْمُرْتَضَى بِآلصَّحْبِ يَسْلُكُ فِيْ طَرِيْقِهِ آمِنَاً فِيْ سَيْرِهِ آلتِّيْهَا

حَتَّى إِلَى آلرِّقَّةِ آلْمَعْرُوْفُ مَوْضِعُهَا عَلَى آلْفُرَاتِ آنْتَهَى أَثْوَى ضَوَاحِيْهَا(١)

= حتى انتهينا إلى المكان الذي حسبنا أنّه فيه فطلبناه فلم نجد للماء أثراً حتى إذا عجزنا انطلقنا إلى دير قريب منّا فسألناهم أين هذا الماء الذي شربنا منه منذ قليل ؟ قالوا ليس قربنا ماء فقلنا بلى فقد شربنا منه . قالوا أأنتم شربتم منه ؟ قلنا نعم . فقال صاحب الدير ما بني ديرنا هذا إلّا بذلك الماء وما استخرجه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ فأكبروا ما سمعوا وعلموا أنّ الماء خرج لسقيهم بكراماته عليه السلام وعادوا فحدثوا أمير المؤمنين عليه السلام بما كان فحمد الله الذي خصّه بكرامته وعنايته حمداً كثيراً .

(١) إنَّ الرقة بلد صغير على الفرات معروف لا يزال عامراً إلى يوم الناس هذا . وكان أهله عندما انتهى إليه أمير المؤمنين عليه السلام شيعةً لمعاوية وذلك أنّ سماك بن معاوية الأسدي كان قد فارق سيدنا علي في نحو مئتي رجل من بني أسد وترك الكوفة وجاء إلى الرقة ونزلها ودخل في طاعة معاوية ثمَّ تبعه أناس من بني أسد فبلغوا السبعماية . =

وَأَهْلُهَا لَمْ تَكُنْ طَوْعَ ٱلْخِلَافَةِ كَا نَتْ مَعْ مُعَاوِيَةٍ تُبْدِيْ تَعَصِّيْهَا
فَكَانَ مَنْزِلُهُ عِنْدَ ٱلْبَلِيْخِ عَلَىٰ ٱلْـ ـفُرَاتِ يَقْرِبُ مِنْهَا لَا يُقَاصِيْهَا
وَجَاءَهُ رَاهِبٌ ثَمَّ وَأَخْبَرَهُ بِمَا تُخَبِّيْ ٱلنَّصَارَى فِيْ مَخَابِيْهَا[1]
فَقَالَ أَصْحَابُ عِيْسَى سَطَّرَتْ قِدَماً أُسْطُوْرَةً تُدْهِشُ ٱلدُّنْيَا أَمَالِيْهَا

= فلمّا وصل أمير المؤمنين إلى الرقة امتنع هؤلاء بها فأبى سيدنا علي أن يحاربهم ونزل في القرب من الرقة في موضع يسمى البليخ على الفرات أيضاً وجعله معسكراً له .

(١) بعد أن نزل سيدنا علي البليخ جاءَه راهبٌ من صومعةٍ قريبةٍ منها وقال له عندنا كتاب ورثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام أتحبُّ أن أعرضه عليك ؟ قال نعم . فقرأ الراهب الكتاب فإذا فيه « بِسم الله الرحمن الرحيم ، الذي قضى فيما قضى ، وسطر فيما كتب ، أنّه باعثٌ في الأميين رسولاً منهم ، يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، أمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل نشز ، وفي كلّ صعودٍ وهبوط ، تذنُّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل والتسبيح ، وينصره الله على من ناوأه ، فإذا توفّاه الله ، اختلفت أمّته من بعده ، ثمَّ اجتمعت فلبثت ما شاءَ الله ، ثمَّ اختلفت ، فيمرُّ رجل من أمَّته بشاطىء هذا الفرات ، يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، ويقضي بالحق ، ولا يركس الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرماد ، في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمآن ، يخاف الله في السرّ ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومة لائم ، فمن أدرك ذلك النبيّ ، من أهل هذه البلاد فآمن به ، كان ثوابه رضواني والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح ، فلينصره ، فإنَّ القتل معه شهادة » اهـ . وبعد أن تلا الراهب على سيدنا علي الكتاب قال له : وأنا مصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك . فبكى عليه السلام ثمَّ قال : الحمد لله الذي لم أكن عنده منسياً ، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار . ثمَّ إنّ الراهب ظلّ مع سيدنا علي لا يفارقه وكان يتغذّى معه ويتعشّى حتى أصيب يوم صفين . فلمّا خرج الناس يدفنون قتلاهم . قال سيدنا علي : اطلبوا الراهب فطلبوه فإذا هو قتيل . فصلّى عليه أمير المؤمنين واستغفر له مراراً وقال : هذا منّا أهل البيت . لا جرم أنَّ من أخلص لآل البيت الطاهر فهو منهم ويحشر معهم .

مَحْفُوْظَةٌ قَدْ وَرِثْنَاهَا تُخَبِّرُ عَنْ رِسَالَةِ ٱلْمُصْطَفَى خَافِي مَعَانِيْهَا
وَعَنْ حُدُوْثِ شُرُوْرٍ بَيْنَ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتَتِهِ صَعْبٌ تَلافِيْهَا
وَعَنْ مُرُوْرِ تَقِيٍّ مِنْ صَحَابَتِهِ عَلَى ٱلْفُرَاتِ ٱلْهُدَى يَعْنَى لِيُفْشِيْهَا
وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْهَادِيْ وَدَانَ لَهُ لَفَازَ بِٱلْجَنَّةِ ٱلْمَغْبُوطُ ثَاوِيْهَا
وَإِنَّ نَصْرَةَ ذَيَّاكَ ٱلتَّقِيِّ لَفَرْضٌ وَٱلشَّهَادَةُ مَعْهُ ٱللَّهُ رَاضِيْهَا
وَقَالَ لِلْمُرْتَضَى : مَوْلَايَ إِنِّيَ رَاغِبٌ بِصُحْبَتِكَ ٱلْعَلْيَا مُوَخِّيْهَا
مَا عُدْتُ أَتْرُكُهَا حَتَّى أُصَابَ بِمَا بِهِ تُصَابُ بِحَرْبٍ رُحْتَ تُلْظِيْهَا
وَقَوْلَةُ ٱلرَّاهِبِ ٱلتَّاقِيْ وَصُحْبَتُهُ أَبْكَتْ عَلِيَّاً وَأَشْجَتْهُ مَغَازِيْهَا
وَقَالَ: أَحْمَدُ رَبِّي فَهْوَ ذَاكِرُنِيْ ذِكْرَى غَدَتْ كُتُبُ ٱلْأَبْرَارِ تَرْوِيْهَا

مسير معاوية للقاء جيش أمير المؤمنين

قَدْ كَانَ يَقْظَانَ يَسْتَنْبِيْ مُعَاوِيَةٌ حَوَادِثَ ٱلْمُرْتَضَى يَعْنَى لِيَدْرِيْهَا[1]
وَكَانَ يَرْشُوْ ٱلَّذِي يَأْتِيْ إِلَيْهِ بِهَا مِنَ ٱلْجَوَاسِيْسِ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا
وَكَانَ يَرْجِعُ فِيْ كُلِّ ٱلْأُمُوْرِ إِلَى عَمْرٍو وَآرَاؤُهُ كَانَتْ تُمَشِّيْهَا

(١) كان معاوية منذ جاءَه عمرو بن العاص إلى دمشق وعاهده على مناوأة سيدنا علي عليه السلام شديد الركون إليه عظيم الثقة به لعلمه أنّه أدهى دهاة العرب وكان لا يبرم أمراً دون مشورته ولا يجري عملاً إلّا بإشارته ولم يفت معاوية خطر موقفه في عصيان سيدنا علي عليه السلام ولذلك كان دائم السهر على تنسم أخباره والوقوف على ما يجريه في الكوفة وكان له قوم يتجسسون معسكر الخلافة في الكوفة ويأتونه بصحيح الأخبار طمعاً بهباته .

وعندما عرف معاوية أنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سائر إليه بخيله ورجله وقد خرج من الكوفة فعلاً سقط في يده وأسرع إلى عمرو بن العاص يستشيره فقال له =

وَعِنْدَ مَا شَاعَ فِيْ أَرْضِ ٱلشَّآمِ مَسِيْــــرُ ٱلْمُرْتَضَى نَحْوَهَـا لِلْفَتْحِ يَبْغِيْهَـا

= هذا : ما دام عليٌّ سائر إليك بنفسه فعليك أن تسير إليه بنفسك لكي لا يعدم جيشك سداد رأيك ولا عدوّك مكيدتك وعليك أن لا تدعه يصل إلى الشام فيحاربك فيها بل أسرع إليه واعترضه في طريقه وحاربه بعيداً عنها . ومن نصيحة عمرو هذه يظهر لنا أنّ فاتح مصر كان مقدّراً سيدنا أمير المؤمنين حقَّ قدره عارفاً أنَّ الانتصار عليه ليس من الهنات الهينات وأنّ محاربته عليه السلام تحتاج إلى مكايدة وإطالة رويَّة . ثمَّ أنَّ عمراً على ما يظهر كان يدرك حقّ الإدراك أنّ انتصار أمير المؤمنين على معاوية من الأمور الممكنة القريبة الوقوع ولذلك أشار على معاوية أن يعترضه بطريقه ويحول دون وصوله إلى الشام مقدّراً أنّه إذا انتصر على معاوية يستطيع هذا أن يعود بفلول جيشه إلى الشام ويعتصم بها لحربٍ أخرى خلافاً لما لو جرت الحرب في الشام وتمت النصرة لسيدنا علي حينئذٍ يدخل الشام منصوراً كما دخل البصرة ويفسد أمر معاوية نهائياً . وفي الأخير نظنُّ أنّ اعتماد عمرو بن العاص في هذه الحرب قد كان بالأكثر على المكايدة لعلمه أنّ أمير المؤمنين بعيدٌ من الكيد يتحاشى الختل والخديعة لما عرف عن صحة دينه وصدقه في عبادته أمّا عمرو ومعاوية فكانا لا يتحاشيان كل عمل يفضي إلى النصر . ولقد أصغى معاوية إلى نصيحة عمرو وأقرَّ على السير مع جيشه يقوده بنفسه .

أمّا أهل الشام فلم يذع بينهم نبأ سير سيدنا علي لمحاربتهم حتى تولاهم الفرق لما سمعوه من صحابة المصطفى وأنصاره عن مواقفه العظيمة في الغزوات النبوية حتى كان يجول على ألسنتهم قول جبريل من السماء له « لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي » وكانوا يضربون بشجاعته الأمثال وأزادهم فرقاً من بطشه ما سمعوه من إبلائه بأصحاب الجمل من أفواه الذين نجوا بأنفسهم وقصدوا الشام . وفوق هذا كانوا يرهبون أهل العراق لما اشتهر عنهم من البسالة في حروبهم . ولذلك خارت عزائمهم وصاروا لا يخفون مخاوفهم فهمَّ هذا معاوية وعمرو بن العاص فأخذ عمرو على عاتقه تبديد ما تسطى على نفوس أهل الشام من الخوف فطفق يخطب في مجالسهم فيقول إنّ علياً أمسى بغير حول ولا طول وأنَّ أصحابه تولّاهم الخور وتفرقت كلمتهم وأنَّ أهل العراق قد تفرَّق جمعهم ووهنت شوكتهم وفُلَّ حدُّهم وأنَّ أهل البصرة مخالفون لعلي بعد أن قتل منهم الخلق الكثير وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل وإنّما سار علي في شرذمة قليلة سهل لقاؤها قريب خذلها والانتصار عليها . وكان يتبع هذا =

نَـادَى مُعَاوِيَـةً عَمْـروٌ: سَـرَاعِ إِلَى لِقَـائِـهِ فِيْ طَـرِيْقٍ رَاحَ يَمْشِيْـهَـا

وَلَا تَـدَعْـهُ يُـوَافِيْ آلشَّـامَ يَقْـرَبُهَـا بَـلْ لَا تَـدَعْـهُ بِمَنْ مَعْـهُ يُـدَانِيْهَـا

وَسِرْ بِنَفْسِكَ فِيْ رَأْسِ آلْجُنُـوْدِ وَلَا تَـدَعْ قِيَـادَتَهَـا كُنْ أَنْتَ رَاعِيْهَـا

وَلَا تَغِبْ عَنْـهُ غَيْبَاً بِـآلْمُكَـايَـدَةِ آلْـــمَنْصُـوْرُ بَيْنَكُمَـا تَـآللَّهِ رَاصِيْهَـا

فَـإِنَّ حَيْـدَرَةً صَعْبُ آلْمَـرَاسِ وَلَا تَهُـوْنُ حَـرْبُ عَـوَانٌ هَمَّ يُلْظِيْهَـا

وَخَافَتِ آلنَّاسُ مِنْ مَلْقَى أَبِيْ حَسَنٍ لَمَّـا دَرَتْ أَنَّـهُ بِـآلْجَيْشِ آتِيْـهَـا

فَرَاحَ يَخْطُبُ عَمْروٌ فِيْ آلْمَجَالِسِ كَيْ يَجْلُوْ مَخَـاوِفَهَـا عَنْهَـا وَيُقْصِيْهَـا

فَقَـالَ: إِنَّ عَلِيَّـاً بَـاتَ أَضْعَفَ مِنْ أَنْ يَغْلِبَ آلشَّـامَ أَوْ يَلْقَى أَهَـالِيْهَـا

وَإِنَّ أَصْحَـابَـهُ خَـارَتْ عَـزَائِمُهَـا وَعَـادَ أَهْـوَنُ شَيْءٍ أَنْ نُـلَاشِيْهَـا

وَشَتَّتَ آلـدَّهْـرُ آهَـالَ آلْعِـرَاقِ فَـأَمْـــسَتْ يَسْتَحِيْـلُ وَلَا يُـرْجَى تَجَمِّيْهَـا

وَأَصْبَحَتْ مَـا لَهَا مِنْ شَـوْكَةٍ وَقِـوَى وَفَلَّتِ آلْغِيَـرُ آلْكُثْـرَى مَـوَاضِيْهَـا

وَغَـزْوَةُ آلْجَمَـلِ آلْكُبْـرَى مُضَيِّعَـةٌ رِجَـالَهَـا بَيْنَ كُـوْفِيْهَـا وَبَصْـرِيْهَـا

وَإِنَّ حَـيْـدَرَةً آتٍ بِـشِـرْذِمَـةٍ قَـلِيْـلَةٍ إِنَّـنَـا لَا شَـكَّ نُـرْدِيْـهَـا

يَـا نَـاسُ ثَـارَاتُ عُثْمَـانٍ لَنَـطْلُبُهَـا وَمَـا آلتَّقِيُّ أَخُـوْ آلْإِيْمَـانِ نَـاسِيْهَـا

آللَّهَ آللَّهَ فِيْ صَـوْنِ آلْحُقُـوْقِ فَـلَا تُضَـاعُ مِنَّـا وَمَـا كُنَّـا مُضِيْعِيْهَـا

= الهذيان في تضعيف سيدنا علي والاستهانة بحملته باستثارة حميتهم ونخوتهم بذكر مقتل عثمان فيقول : وقد قتل خليفتكم والله الله في حقّكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تطلّوه .

وهكذا نجح هذا الداهية عمرو بن العاص من جمع أهل الشام وتبديد الخوف من نفوسهم فعادوا واجتمعوا حول معاوية فسار بهم مجتازاً حماة فحلب حتى بلغ الفرات فعسكر على ضفافه بالقرب عن معسكر سيدنا علي عليه السلام في موضع الرقة بقرب صفين .

وَفِي دِمَـائِكُمْ مِنْ أَنْ تُطَلَّ سُـدَىً   أَوْ أَنْ تَنَامُوْا عَلَى عُـدْوَى مُـطِلِّيْهَا
بِمِثْلِ ذَا كَانَ عَمْـرُوٌ يَسْتَثِيْـرُ نُفُـوْ   سَ آلنَّاسِ يَدْفَعُهَا لِلْحَرْبِ يُغْـرِيْهَا
حَتَّى إِذَا آجْتَمَعَتْ تِلْكَ آلْجُمُوعُ لَدَيْـــهِ   سَاقَهَا لِلْوَغَى ظُلْمَاً مُعَاوِيْهَا
وَكَانَ يَصْحَبُهَا عَمْـرُوٌ فَجَازَ بِهَا   حَمَـاةَ مَعْ حَلَبٍ مَعْمَـا يُتَـالِيْهَـا
حَتَّى آنْتَهَتْ وَأَنَاخَتْ فِيْ آلْفُرَاتِ عَلَى   ضَفَـافِـهِ وَتَـدَانَتْ مِنْ أَعَـادِيْهَـا

موضع موقعة صفين وتاريخها

وَفِيْ آلْفُرَاتِ آلتَقَى آلْقَوْمَانِ وَآصْطَدَمَا   وَآلْحَـرْبُ بَيْنَهُمَا فَحَّتْ أَفَاعِيْهَـا[1]
فِيْ فَجْوَةٍ بِآسْمِ صِفِّيْنٍ لَقَدْ عُرِفَتْ   بِـآلْقُـرْبِ مِنْ رِقَّـةٍ أَوْ مَـا يُنَـاحِيْهَـا

---

(١) وجرت الموقعة بين سيدنا علي ومعاوية في موضع يسمى صفين على الفرات وهذا الموضع قريب من بلد « الرقة » أو من قرية « جرابلس » وهي قريبة من الرقـة على أنّ هذا الموضع لم يعرف إلاّ بهذه الموقعة المحزنـة ولم يكن معروفـاً قبلها ولا صـار له شـأن بعدهـا . وقد يكـون اسم صفين مشتق من صفن الرجـل أي صفّ قدميـه فكأنّهم يريدون الموضع الـذي صُفَّت فيه أقـدام الرجـال أو ربما أخـذوا هذا الإسم من صـافن القوم الماء أي اقتسموه بالحصص لأنّ بدء موقعة صفين كانت على المـاء إذ منع رجـال معاوية رجـال علي من الاستقاء فضـربوهم وغلبـوهم حتى إذا ما تغلبـوا على الماء أمـر سيدنا علي أن يسمحـوا لرجـال معاويـة المغلوبين أن يستقوا كرماً منه وفضـلاً . هذا إذا اعتبرنا أنّ اسم صفين وضعه المسلمون في أثناء تلك الموقعة أو بعدها أمّا إذا كـان هذا الإسم قد أطلق على ذلك الموضع قبل الموقعة فقد تكون تسميته مشتقة من صافن على تقدير أنَّ الناس كانوا يستقون منه بالمحاصَّة أو قد يكون هذا الإسم محرَّفاً عن السريانية أو الفـارسية لأنّ قبـل الإسلام كـانت هاتيـك الأطراف في حكم السـريان فـالفرس والله أعلم .

وقد أطلق القوم على هذه الموقعة إسم هذا المـوضع فعـرفت بموقعـة صفين كما عرفت موقعة سيدنا علي مع عائشة والزبير وطلحة في البصرة باسم موقعـة الجمل نسبـةً إلى الجمل الذي كان يحمل هودج عائشة وقد تفانى الناس من حوله . =

وَإِنْ هِيَ ٱنْدَرَسَتْ مَازَالَ ذَاكِرُهَا يَبْكِي ٱلدِّمَاءَ ٱلَّتِي رَوَّتْ أَرَاضِيْهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى ٱلشَّنْآنُ فَرَّقَهَا حَتَّى تَعَادَى عُرَاقِيْهَا وَشَامِيْهَا
وَكَانَ مَهْبَطُهَا لِلْحَرْبِ حَجَّةَ سِتٍّ وَٱلثَّلَاثِيْنَ فِيْ تَارِيْخِ هِجْرِيْهَا

ابتداء موقعة صفين

وَآمَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا تُبَادَأَ أَعْدَاهُ ٱلْعَدَا قَبْلَ أَنْ تُبْدِي تَعَدِّيْهَا[1]
وَكَانَ يَرْغَبُ فِيْ عَوْدِ ٱلسَّلَامِ إِلَى أَهْلِ ٱلْحَنِيْفَةِ مَعْ مَاضِيْ تَآخِيْهَا

= أمّا تاريخ موقعة صفين فقد كان ابتداؤها في أواخر ذي الحجة سنة ٣٦ هـ وفي محرم سنة ٣٧ تهادن القوم لأنّه شهر حرام وعادت الحرب فاشتدت ثانيةً في شهر صفر سنة ٣٧ على ما سترى .

(١) عندما أصبح جيشا سيدنا علي ومعاوية متجاورين على ساحل الفرات أخذا يتحفزان للقتال . وأول ما كان من أمرهما أنَّ أبا الأعور السلمي وكان على مقدمة جيش معاوية أخذ يناوش مقدمة الجيش العلوي فكان ثمَّ قتال غير ذي شأن وكان على مقدمة جيش سيدنا علي الأشتر النخعي على أنَّ أبا الأعور بعد أن كرَّر مناوشاته ليعجم عود الجيش العلوي عاد إلى معسكر معاوية العام وفي عوده استولى على « قناصرين » وهو الموضع الذي كان يستقي منه الجيشان الماء فلما بلغ ذلك الأشتر هجم على أبي الأعور بأربعة آلاف مقاتل وأجلاه عن الماء فما كان من معاوية إلاّ أن هجم بقضه وقضيضه على الأشتر فتهيبه وانسحب إلى معسكر سيدنا علي تاركاً الماء لمعاوية فمنع هذا الورد عن الجيش العلوي . أمّا سيدنا علي عليه السلام فلما رجع إليه الأشتر ينبئه بتغلب معاوية على الماء أقدم بجيشه الجرار وكان يربو على مئة ألف مقاتل إلى موضع صفين وتقدمت طلائع هذا الجيش العظيم من جيش معاوية وأخذت ترميه بنبالها فلقيها جيش معاوية بالنبال واشتبك القتال هوياً وانتهى بانتصار العلويين على أهل الشام فاستولوا على الشريعة وقال قائلهم أنا نعامل أعداءنا بما عاملونا به فنمنعهم الماء وعرضوا ذلك على سيدنا أمير المؤمنين فقال « خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلوا بين أهل الشام وبين الماء ، فإنَّ الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » فترك العلويون حسب أمر خليفتهم عليه السلام حرّاً فصار العراقيون والشاميون يستقون منه أحراراً =

وَكَـانَ فَـاتِحَـةَ ٱلنِّيْضَـالِ مَنْـعُ رِجَـا   لِ ٱلشَّامِ عَنْ صَحْبِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تُسْقِيْهَا

=ولا يؤذي أحـدهم صاحبه وكـانت تلك منـةً من أميـر المؤمنين أبي معـاويـة وعمـرو بن العـاص أن يعتـرفـا بهـا ويعـرفـا لصنـو المصـطفى وأخيـه فضله وعـطفـه . على أنَّ المرتضى عليه السلام ما لبث بعد هذا أن أعلن بين أصحابه « لقـد خلّينا المـاء لأهل الشـام ، لأنّا لا نفعل فعل الجاهلية ، وسنعرض عليهم كتاب الله ، وندعـوهم إلى الهدى ، فـإن أجـابوا وإلاَّ ففي حـدّ السيف ما يغني ، إن شـاء الله » كذلـك كـان يـرمي سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام إلى الساعة الأخيرة إلى تلافي الشـرّ بالتي هي أحسن وبـالفعل كتب إلى معاوية الكتاب التالي :

« من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قريش ، سلام عليكم ، وإنني أحمد إليكم الله الذي لا إلٓـه إلاّ هو ، أمّـا بعد ، فـإنَّ لله عباداً آمنـوا بالتنـزيل ، وعرفوا التـأويل ، وفقهـوا في الدين ، وبين الله فضلهم في القـرآن الحكيم ، وأنتم في ذلك الزمان ، أعداءُ الرسول ، تكذبون بالكتاب ، مجمعـون على محاربـة المسلمين ، من ثقفتم منهم حبستمـوه أو عـذبتمـوه أو قتلتمـوه ، حتَّى أراد الله تعـالى إعـزاز دينـه ، وإظهار أمره ، فدخلت العرب في الدين أفواجاً ، وأسلمت له هذه الأمّة طـوعاً وكـرهاً ، فكنتم ممن دخـل في هذا الـدين ، إمّا رغبـةً ، وإمَّا رهبـةً ، على حين فاز أهـل السبق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضلهم ، ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الـدين ، ولا فضـائلهم في الإسـلام ، أن ينـازعهم الأمـر الـذي هم أهله وأولى بـه ، فيحارب ويظلم ، ولا ينبغي لمن كان له عقل ، أن يجهل قدره ، ويعدو طوره ، ويشفي نفسه بالتماس ما ليس بأهله ، فإنَّ أولى الناس بأمر هذه الأمّة قديماً وحديثاً ، أقربها من الرسول ، وأعلمها بالكتـاب ، وأفقهها في الـدين ، أولهم إسلامـاً ، وأفضلهم جهاداً ، وأشدُّهم بما تحمله الأئمة من أمر الأمّة اضطلاعاً ، فاتّقوا الله الذي إليـه ترجعـون ، ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل ، وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون ، واعلمـوا أنَّ خيار عبـاد الله ، هم الذين يعملون بما يعلمون ، وأنَّ شرارهم الجهّال الذين ينازعون بـالجهل أهـل العلم ، فـإنَّ للعالم بعلمـه فضلاً ، إنَّ الجـاهل لا يـزداد بمنازعتـه العـالم إلاَّ جهـلاً ، ألا وإنّي أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنّة نبيّه ، وحقن دماء هذه الأمّة ، فإن قبلتم أصبتم رشدكم ، واهتديتم لحظكم ، وإن أبيتم إلاّ الفرقة ، وشقّ عصا هذه الأمّة ، لم تزدادوا من الله إلاّ بعداً ، ولا يزداد الربّ إلاّ سخطاً ، والسلام » اهـ . =

فَقَاتَلَتْهَا وَفَازَتْ بِآلْمِيَاهِ فَنَا　　دَى آلْمُرْتَضَى فَآتْرُكُوْا وِرْدَاً لِظَامِيْهَا

أَبْدَى بِذْلِكَ مِنْ فَيَّاضِ رَحْمَتِهِ　　عَلَى أَعَادِيْهِ مَا يَكْفِي لِيَهْدِيْهَا

وَرَامَ مِنْ فَوْقِ ذَا حَقْنَ آلدِّمَا وَرَعَاً　　بِدَعْوَةٍ رَاحَ لِلتَّوْفِيقِ دَاعِيْهَا

وَأَرْسَلَ آلرُّسْلَ لِلْأَعْدَاءِ تَنْشُدُهَا　　لِلسِّلْمِ كَانَ بِذَا فَضْلاً مُوَافِيْهَا

فَلَمْ يُفِدْ سَعْيُهَا سِلْمَاً وَقَدْ رَجَعَتْ　　إِلَى أَبِيْ حَسَنٍ تَنْعِي مَسَاعِيْهَا

فَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ تَحْكِيْمِ آلسُّيُوْفِ فَخَا　　رَ آللَّهَ حَيْدَرَةٌ فِيْ شَهْرِ مَاضِيْهَا

كَذَاكَ سُلَّتْ سُيُوْفُ آلْمُسْلِمِيْنَ مِنَ آلْأَغْمَادِ　　وَآنْجَلَتِ آلْفُرْسَان تُنْضِيْهَا

وَثَارَتِ آلْحَرْبُ تُفْنِيْ آلْمُؤْمِنِينَ عَوَا　　دِيْهَا فَوَيْلٌ لِمَنْ كَانُوا مُثِيْرِيْهَا

فِيْ شَهْرِ حِجَّةَ قَدْ كَانَتْ مَوَاقِعُهَا آلـ　　ـشُّعْوَا سِجَالاً فَغَشَّتْهُ دَوَاهِيْهَا

= سار رسول أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب بهذا الكتاب وفيه ما فيه من الصراحة التي يوحيها الإسلام وتقضي بها الحكمة ويدعو إليها حبّ السلام حتى إذا ما دفعه إلى معاوية بن أبي سفيان تلاه هذا مثنى وثلاث واستدعى عمراً بن العاص وأطلعه عليه فما أثرت نصائحه ومواعظه على عواطفهما ولا ثناهما عن عزمهما وأقرَّا على مجاوبته ببيت واحد من الشعر وهو :

ليس بيني وبين قيسٍ عتابٌ　　غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فلمّا عاد رسول أمير المؤمنين إليه بهذا الجواب الجاف المشير إلى تصميم أعدائه على حربه استعاذ بالله واسترجع وتألّم لما سيصيب المسلمين وتوجّع وتلا آية ﴿ **لا تهدِ من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وأمر الناس أن يتهيأوا للمسير إلى القتال فأطاعوا فمرَّ بهم على الفرات وسبقته مقدمته إلى لقاء مقدمة أهل الشام وابتدأ القتال بين القومين وكان أهل الشام البادئين لأنّ سيدنا علي أمر مقدمته أن لا تبادىء القوم القتال وكان قتالهم تراميأ بالسهام فتطاعناً بالرماح فتضارباً بالسيوف ويتخلل ذلك مبارزات بين الأبطال وقضوا في ذلك ما بقي من شهر ذي الحجة سنة ٣٦ وكان القتال بينهما سجالاً لم يسفر عن فصل لأحدَ الفريقين .

فَلَمْ تَكُنْ نُصْـرَةٌ تُنْهِي ٱلْفَجِيْعَـةَ أَوْ رَأْيٌ سَـدِيـدٌ لِأَهْـلِ ٱلْخَيْـرِ يُنْهِيْهَـا

هدنة محرم سنة ٣٧ هجرية

وَلَا يَجُوْزُ لَدَى ٱلْعُـرْبِ ٱلْقِتَالُ بِـأَشْـهُـرِ ٱلْحَرَامِ فَتَـأْبَى خَوْضُـهُ فِيْهَا[١]

كَـانَتْ تُحَـرِّمُـهُ كَيْمَـا تَجِيءُ إِلَى أُمِّ ٱلْقِرَى وَفُرُوْضَ ٱلْحَـجِّ تَقْضِيْهَا

---

(١) كـان بدء القتـال في صفين في أواخر ذي الحجـة وهو كمـا تعلم من الأشهر الحرُم المحرَّم فيها القتال ولكن معاوية وأصحابه ما عبثوا بالتحريم فـابتدأوا فيـه الحرب وما كان لأصحاب سيدنا علي عليه السلام إلّا الدفاع عن أنفسهم فتلقوا ضرباتهم بمثلهـا والشرّ بالشرّ والبادي أظلم على أنّ الحرب كـانت سجالاً فلمـا انسلخ ذو الحجة ودخـل محرّم نـادى سيدنـا علي بتوقيف القتـال على أمل نهـو المشكلة بالصلح بعـد أن ظهرت قـواته الكبرى أمام معاوية بأعظم مظاهرها وأوفى له رسله في ذلـك فكان جـوابه واحـداً « وهو أن يسلم له قتلة عثمان ليقتلهم به ويترك الأمر شورى » وهكذا انتهى شهر محـرّم بطولـه والرسل تغدو وتروح بين معاوية وأمير المؤمنين على غير جـدوى لأنَّ معاويـة كان مصـرّاً على رفض الطاعة لأميـر المؤمنين ويطمـع إذا تخلّى عن الخلافـة أن ينال بـدهائـه بيعة المسلمين وعرف الناس بعـد ذلك أنَّ لا بـدَّ من استئناف القتـال ليحكم السيف في هذا الخصام .

« الأشهر الحرُم »

ذكرنا في حاشية سبقت عناية العرب بالحـجّ إلى البيت الحرام منـذ الجاهليـة وإذ كانت معيشة العرب وقتئذٍ على الغزو والحرب وكـان بعضهم أعداءً لبعض رأوا بضـرورة الحال ضرورة تحريم القتال في زمن الحـج حتى لا تتعطل النـاس عنه وهـو فرض دينيٌّ عند جميعهم فحرّموا الشهر الذي يكون فيه الحجّ وهو ذو الحجة والشهر الذي يسيـر فيه الناس إلى الحجّ وهـو ذو القعدة والشهـر الذي يعـودون فيه إلى منـازلهم وبلادهم وهـو محرّم ليكون الحجّاج آمنين في هذه الأشهـر الثلاثـة على نفوسهم عنـد قضاء الفـريضة وعلى منازلهم وبلادهم إذا تركوها للحجّ وهذه الأشهر الثلاث الحرُم من أسمائها ما يدلُّ على هذا التحريم فأشاروا بذي القعدة إلى قعـود الناس عن الحـرب وبذي الحجـة إلى أنّه الشهر الذي تقام فيه فريضـة الحج وبمحـرَّم إلى أنّه الشهـر الذي يحتـرم فيه النـاس =

كَـذَا ٱلشَّـرِيْعَـةُ قَـدْ نَصَّتْ بِحُـرْمَتِـهِ   بِمُنَّـزَلِ ٱلآيِ فِيْ أَجْلَى نَـوَاهِيْهَـا

=بعضهم بعضاً فيحرمون فيه القتال . وكان العرب أيضاً يحرّمون شهر رجب فيسمّونه الأصمّ أي الذي لا يسمع فيه صوت قرقعة سلاح أو أنّة جريح أو حشرجة قتيل . والسبب في تحريم هذا الشهر هو لأنّهم كانوا يرصدونه لابتياع حوائجهم والقيام بشؤونهم الخاصة قبل مسيرهم إلى الحجّ .

والناس في اختلاف في تعيين هذا الشهر فكانت مضر تعرفه نفس الشهر الذي يتقدم شعبان أمّا ربيعة فكانت تعتبر رمضان رجباً وتحرّم فيه القتال لذلك يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كلّ منهما . ويطلق العرب كلمة الفرد على رجب إشارةً لعزلته عن الأشهر الحرم الأخرى . وربما كانوا يستعملون رجب لقضاء العمرة ويسمونها الحج الأصغر أو الحج الرجبي .

ومعنى تحريم هذه الأشهر عند العرب أنّهم كانوا يحترمونها ويلقون السلاح فيها ويتركون الغزو الذي كانت عليه معايشهم . وكانت هذه الشهور هدنة عامة عند العرب جميعاً حتى لا يحول القتال دون قضاء فريضة الحج . وكانوا يستقبحون الحروب الأربعة التي ثارت فيها فسموها بالفجار (بكسر الفاء) إشارة إلى أنّ الذين حاربوا فيها قد فجروا وفسقوا وداسوا نواميس القوم وقد قال في ذلك شاعرهم خداش بن زهير العامري :

فلا توعديني بالفجار فإنّه   أحلَّ ببطحاء الحجون المخازيا

وقد أقرَّ الإسلام الحرمة في الأشهر الحرُم على أثر ما حدث في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة وقد أشرنا إليها في حاشية سبقت فإنّ رسول الله ﷺ بعث عبد الله هذا إلى نخلة وأعطاه كتاباً وأمره أن لا يفتحه إلاّ بعد مسيرة يومين فلمّا فتحه وجد فيه « امضِ حتى تنزل بنخلة فائتنا من أخبار قريش بما اتّصل إليك منهم » فسار بأصحابه وكانوا ثمانية حتى نزلوا « نخلة » فمرَّ بهم عمرو بن الحضرمي بنفرٍ من قريش ومعهم تجارة وكان ذلك في آخر يوم من شهر رجب الأصم فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا رجلاً من قومه وساقوا العير إلى المدينة فأنكر رسول الله على عبد الله فعلته وقال « والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ولما بلغ قريشاً فعلة عبد الله في الشهر الحرام استقبحوها هم أيضاً وأقبل قوم منهم على المصطفى محتجين قائلين « أيحلُّ القتال في الشهر الحرام ؟؟ » فنزلت حينئذٍ آية ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال** =

لَكِنْ مُعَاوِيَةٌ مَـا كَـانَ يَعْبَـأُ بِـآلـــنُّصُوصِ بَلْ كَانَ بِآلتَّأْوِيلِ يَلْوِيْهَـا

= فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله ﴾ ثمَّ نزل بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وهكذا أيّد الله تحريم القتال في الأشهر الحرُم فلا يحارب فيها المسلمون إلاّ مدافعين لقوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

« تحريم النسيء »

وكانت العرب تنسيء الشهور أي تؤخّرها فتحلّ القتال في شهرٍ حرام وتحرّمه في شهرٍ ثانٍ وقد اختلف الباحثون في فهم هذا التأخير الذي نزلت فيه آية التحريم فقال بعضهم إنّ العرب كانوا يؤخّرون سنتهم كل أربع سنوات شهراً ليوفقوا بين الدورة القمرية والدورة الشمسية رغبةً منهم في جعل موسم الحج في زمنٍ ثابتٍ . وقال آخرون بل هو تلاعب منهم يريدون به أن يحلّوا المحرّم حتى لا تمرّ عليهم ثلاثة أشهر متتاليةً وهم ممتنعون عن القتال الذي كان عليه مدار تعيشهم . وكان يتولى منهم النسيء قوم من بني كنانة يطلق عليهم اسم « النسائين » أو « القلامس » فكان يقوم أحد هؤلاء إذا صدر الحجاج من مُنى فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ولا يردُّ لي قضاء » فيقول الناس : صدقتَ أنسئنا شهراً فيحلّ لهم المحرم ويحرّم عليهم صفر من السنة التالية وكان هؤلاء يفتخرون بهذا الحق وقال فيه شاعرهم عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفتخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معدٌّ أنَّ قومي ... كرام الناس إنَّ لهم كراما
فأيُّ الناس فأتونا بوترٍ ... وأيُّ الناس لم تعلك لجاما
ألسنا الناسئين على مُعدٍّ ... شهورُ الحلّ نجعلها حراما

والذي نراه أنّ النسيء لم يكن عملية حسابية يريدون بها جعل الحجّ في زمنٍ ثابتٍ كما ذهب بعضهم ولو كانت كذلك لوجب أن يزاد شهر في كل سنة رابعة يستغرق تقريباً الفرق بين الدورتين الشمسية والقمرية كما يفعل اليهود في شهورهم فهم يماشون القمر ويحسبون دورته شهراً ولكنهم في كل سنة رابعة يزيدون على شهورها شهراً فتكون ثلاثة عشر شهراً ويسمونه آذاراً ثانياً فيكون فيها آذاران لا آذار واحد فلو صحّ زعم هؤلاء لكان من الواجب أن يكون للعرب شهر مزاد في كل سنة رابعة يسمونه محرماً ثانياً =

بَادَا بِذِي ٱلْحِجَّةِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ رِجَا ... لَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْحَرْبَ فِي صِفِّينَ تَجْرِيْهَا

فَقَـابَلَتْهُ دِفَـاعَـاً وَهْيَ مُكْـرَهَـةٌ ... عَنْ نَفْسِهَـا وَبِهَـا لاَقَتْ مُبَـادِيْهَـا

وَٱلْإِثْمُ فِيْمَـا يُحِلُّ ٱلْمُحْـرَمَـاتِ بِـلاَ ... شَـكٍّ عَلَى هَامِ مَنْ رَاحُـوْا مُحِلِّيْهَا

وَفِيْ ٱلْمُحَرَّمِ نُوْدِيْ بِـٱلْمُوَادَعَـةِ ٱلْـ ... ـحُسْنَـا فَكَانَتْ كَمَـا نَادَى مُنَـادِيْهَـا

وَعَـادَتِ ٱلنَّاسُ وَٱلتَّحْـرِيْمُ مُمْسِكُهَا ... عَنِ ٱلْقِتَـالِ إِلَى ضَـافِيْ مَـآوِيْهَـا

وَبَـادَرَ ٱلْمُـرْتَضَى حِلْمَـاً مُعَـاوِيَـةً ... بِـدَعْـوَةِ ٱلسِّلْمِ وَافَـاهُ يُـثَنِّيْهَـا

أَوْفَى بِهَـا رُسْلَهُ حُبَّـاً بِحَقْـنِ دِمَـا ... ءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فَمَـا أَلْفَتْـهُ مُصْغِيْهَـا

مَرَّ ٱلْمُحَرَّمُ فِيْ تِلْكَ ٱلْمُسَـاوَمَةِ ٱلْمَـ ... ـحْمُـوْدُ رَاغِبُهَـا ٱلْمَـذْمُـوْمُ آبِيْهَـا

وَٱلنَّاسُ قَدْ سَئِمَتْ طُوْلَ ٱلْجِدَالِ بِلاَ ... جَدْوَى وَعَادَتْ إِلَى مَاضِيْ تَجَالِيْهَـا

وَهٰكَـذَا ضَـاعَتِ ٱلآمَـالُ ثَـانِيَـةً ... بِٱلصُّلْحِ وَٱلسِّلْمِ مَا أَشْقَى مُضِيْعِيْهَا

عودة الحرب في صفر

وَحَرْبُ صِفِّيْنَ فِيْ أَهْوَالِهَـا ٱسْتَعَرَتْ ... وُقُوْدُهَا ٱلنَّـاسُ وَٱلْإِعْنَاتُ يُـوْرِيْهَا[١]

كَـانَتْ بَـدَاءَتُهَـا مُنْـذُ ٱبْتَـدَا صَفَـرُ ... بَيْنَ ٱلْقَبِـيْلَيْـنِ فِي تَـالِـيْ تَلَظِّيْـهَـا

= لا أن يؤخّروا تحريم محرم إلى صفر كما كانوا يفعلون . ومما يؤيّد رأينا هذا آية تحريم النسيء وهي ﴿ **إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله** ﴾ ومن هذه الآية الكريمة يظهر سبب النسيء بكل صراحة وهو تحليل ما حرّمه الله من القتال في الشهر الحرام فقال سبحانه وتعالى إنّه زيادة في الكفر وحاشا لله سبحانه وتعالى أن يجعل من الكفر رغبة قوم أرادوا جعل الحجّ في زمنٍ ثابتٍ لو أرادوه والله سبحانه أعلم .

(١) لما فشلت المساعي السلمية التي بذلها سيدنا علي أمير =

=المؤمنين عليه السلام وكـانت عن محض حلم ودافع تقـوى في فرصـة موادعـة المحرَّم لم يبق فرار من استئناف القتال فانصرف ليلة أول صفر كلٌّ من الفريقين يتحفز للقتال ويستعدُّ له جهده .

أمّا سيدنا أمير المؤمنين فقد أصبح ودعا بالصلاة الجامعة فاجتمع الناس فصلّى بهم وبعد أن انتهت الصلاة ناداهم قائلاً : « أيّها الناس ، لا تقاتلوا الأعداء حتى يقاتلوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم قتالهم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورةً ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم ، فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأةً ، وإن شتمت نساؤهم أعراضكم ، وسببنَ أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهنَّ ضعاف القوى والأنفس ، عباد الله ، اتّقوا الله ، وغضّوا الأبصار ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمناضلة والمعافقة والمكادمة والملازمة ، فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إنَّ الله مع الصابرين » ثمَّ رفع أمير المؤمنين يديه إلى السماء ودعا فقال : « اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر » ثمَّ أنّه عليه السلام جعل الأشتر على خيل الكوفة . وسهل بن حنيف على جند البصرة . وعمّار بن ياسر على رجال الكوفة . وقيس بن سعد على رجالة البصرة . وسلّم راية الحرب إلى هاشم بن عتبة المرقال . وجعل على قرآء الكوفة والبصرة مسعر بن فدكي .

وأمّا معاوية بن أبي سفيان فأصبح فجمع أصحابه وأنصاره فصلّى بهم ثمَّ إنّه جعل على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري . وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري . وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص . وعلى رجالة دمشق مسلم بن عقبة المري . وعلى الناس كلّهم الضحاك بن قيس .

وإذ كان رجال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد أمروا أن لا يبادئوا أعداءَهم القتال ظلّوا في معسكرهم متحفزين للقاء أعدائهم لو هم هاجموهم على أنَّ أهل الشام ما تأخّروا عن الابتداء بالقتال فبايع رجال منهم على الموت وعقلوا أنفسهم بعمائمهم فكانوا خمسة صفوف وهاجموا معسكر أمير المؤمنين في صبيحة أول صفر الخير وكانوا بقيادة حبيب بن مسلمة فخرجت للقائهم طائفة من رجال الخلافة من أهل الكوفة بقيادة=

=الأشتر واشتبكوا بالقتال يومهم بطوله وكان القتال شديداً ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

وفي صباح يوم ٢ صفـر خرج للقتـال أبو الأعـور السلمي بطائفـة من أهل الشـام فخرج للقائهم هاشم بن عتبة بطائفة من جنـود الخلافـة فاقتتلوا معـظم يومهم ثمَّ تفـرقوا وكانت الحرب سجالاً لم يتمَّ فيها نصر لأحد الفريقين .

وفي صباح يوم ٣ صفر الخير خرج عمّار بن ياسر بطائفة من جنود الخلافـة فخرج للقائه عمرو بن العاص بطائفة من أهل الشام فلمّـا رأى عمّار عمـراً خارجـاً لقتالـه نادى بمن معـه قـائـلاً « يـا أهـل العـراق أتـريـدون أن تنـظروا إلى من عـادى الله ورســولـه وجـاهدهمـا ، وبغى على المسلمين ، وظاهـر المشـركين ، فلمّـا رأى الله يُعزُّ دينـه ، ويظهر رسوله ، أتى النبيَّ عليـه وعلى آله الصـلاة والسلام ، وهـو فيما نـرى راهب غير راغب ، ثمَّ قبض النبيُّ ، فما زال والله بعده معروفاً بعـداوة المسلم ، واتّباع المحـرَّم ، فدونكموه فاثبتوا له وقاتلوه » ثم مـال عمّار لـزياد بن النضـر وهو على الخيـل وقال لـه : أحمـل على أهل الشـام . فحمل زيـاد وقاتله النـاس وصبروا لـه . فحمل عمّـار فـأزال عمراً بن العاص عن موضعه . ثمَّ إنَّ زيـاداً بارز عمـراً بن معاويـة من بني المنتفق وكان أخاه من أمّه فلما التقيا تعارفا فانصرف كـلٌّ منهما عن صـاحبه وتـراجع النـاس ولم يكن ثمة فصل في الحرب .

وفي صباح يوم ٤ صفر الخير خرج محمد بن سيدنا علي (ابن الحنفيـة) بطائفـة من رجال الخلافة فخرج للقائه عبيد الله بن عمر بطائفة من أهـل الشام (وكـان هذا من رجال معاوية وسبب انضوائه إلى معاويـة هو أنّـه كان نـاقماً على سيـدنا علي عليه السلام لأنّـه عندما قتـل الذين اتّهمـوا بمقتل أبيـه عمر بن الخـطاب طلب سيدنـا علي من عثمان أن يجري عليه الحدّ على ما تقدمت الإشارة إلى ذلك في حاشية سابقة) واشتبك الفريقان وكـانا عـظيمين بقتال هـائل مخيف كثـر فيه القتلى والجـرحى على غير جـدوى فـطلب عبيد الله محمداً إلى المبارزة فأسـرع إليه فلمّـا رأى سيدنـا علي عليه السلام تقدم ابنـه محمد لمبارزة عبيد الله بن عمر أسرع على جـواده فردّ ابنـه وتقدم للمبـارزة عوضـاً عنه فخـاف عبيـد الله من بطش سيـدنا أميـر المؤمنين وفرَّ من وجهـه وهكـذا انتهى القتـال في ذلـك اليوم . =

= وفي صباح يوم ٥ صفر الخير خرج عبد الله بن عباس بطائفة من جنود الخلافة فخرج إليه بعض أهل الشام بزعامة الوليد بن عقبة واستمرَّ القتال وعمَّ الوبال وفي أثناء الحرب تقدم الوليد من عبد الله بن عباس وسبّه وسبَّ معه بني عبد المطلب فغضب عبد الله غضبةً هاشميةً وطلبه للبراز فجبن الوليد عن لقائه شأن الجبان الذي يطلق لسانه بالسبِّ ويضنُّ بجسمه عن الضرب وانصرف من أمامه فازداد غضبه وهاجم جمع الشام وأعمل بهم سيفه وهو غاضب لبني أبيه فأبلى فيهم بلاءً عظيماً .

وفي صباح يوم ٦ صفر الخير هجم من جيش أمير المؤمنين قيس بن سعد الأنصاري بطائفة من المقاتلة فلقيه ابن ذي الكلاع الحميري بطائفة من أصحاب معاوية فكان القتال بينهما شديداً سِجالاً ثمَّ افترقا وقد انسلخ النهار من غير فصل .

وفي صباح يوم ٧ صفر الخير جرى القتال بين طلائع القومين وعلى أصحاب الخلافة الأشتر وعلى أصحاب معاوية حبيب بن مسلمة ودام القتال بينهما إلى الظهر ثمَّ افترق الفريقان من غير جدوى منتجة . حينئذٍ رأى سيدنا علي عليه السلام أنَّ هذه المطاولة في حرب الطلائع لا تنهي حرباً ولا تفصل في المشكلة فقال لمن حوله « حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟؟ » وأخذ يفكربهجوم عام ويعدُّ له عدَّته بفكره النير .

وبعد أن صلّى أمير المؤمنين بالناس صلاة العشاء في ليلة الأربعاء (٨ صفر الخير) قام فيهم خطيباً فقال : « الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض ، وما أبرم لم ينقضه الناقضون ، ولو شاء ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الأمّة في شيء ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، فنحن بمرأى من ربّنا ومسمع ، فلو شاءَ عجّل النقمة ، وكان من التغيير ، حتى يكذب الظالم ، ويعلم الحقُّ أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القرار ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا وإنَّكم لاقو القوم غداً ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، وألقوا أعداءَكم بالجدّ والحزم ، وكونوا صادقين » اهـ فكبّر القوم ملبّين وأسرعوا إلى تعهد سلاحهم فمرَّ بهم كعب بن جعيل وشهد استعدادهم للحرب فقال :

أصبحت الأمّة في أمرٍ عجب ... والملك مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... أنَّ غداً تهلك أعلام العرب =

= وقضى أمير المؤمنين ليلته وهو يصلّي آونةً ويتعهد أبطال الرجال أخرى حتى إذا ما لاح الفجر صلَّى بالناس وخرج بهم إلى القتال بهجوم عام . وما فات معاوية وعمرو بن العاص استعداد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام للهجوم العام ففعلا في تلك الليلة فعله وأخذا يتعهدان أصحابهما ويستحثانهم على القتال . وعند الفجر أمر معاوية جيوشه بأن يصطفوا للقتال . ثمَّ اشتبك القومان بقتال مخيف سالت فيه الدماء أنهاراً وغطت جثث القتلى الأرض وافترقا عند المساء وكلٌّ غير غالب .

وفي صباح الخميس ٩ صفر الخير صلّى علي عليه السلام بالناس غلساً وخرج بهم إلى أهل الشام وكان على ميمنته عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والناس على راياتهم ومراكزهم وكان في قلب الجيش مَن معه من أنصار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من أهل المدينة وعدد من خزاعة وكنانة . وأمّا معاوية فقد رفع في ذلك اليوم قبةً عظيمةً وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق . وزحف عبد الله من بديل أولاً على جيش معاوية فلقيه حبيب بن مسلمة فلم يزل يحوزه ويكشف خيله حتى اضطرَّهم إلى التقهقر حيث قبة معاوية في ظهر ذلك اليوم فنادى عبد الله بن بديل بأصحابه قائلاً « ألا إنَّ معاوية ادَّعى ما ليس له ، ونازع الحقَّ أهله ، وعاند من ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحقَّ ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، الذين قد زُينت لهم الضلالة ، وزُرع في قلوبهم حبُّ الفتنة ، ولبّس عليهم الأمر ، وزادهم رجساً إلى رجسهم ، فقاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم ، قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشفِ صدور قوم مؤمنين » ثمَّ طفق يحمسهم بمثل هذا الكلام . وتبعه زيد بن قيس الأرحبي فجعل أيضاً يحرّض الناس بكلامه المشجّع على مداومة القتال وهكذا ظلّ رجال علي يداومون ملاصقة رجال معاوية المتقهقرين المغلوبين . ولمّا رأى معاوية انكشاف أصحابه ودنوَّهم من قبته أمدَّهم بمدد كبير كشف أهل العراق وردَّهم أدراجهم فلما رأى سيدنا علي انكشاف جيشه خرج بنفسه مدداً له فنشط خروجه عليه السلام عزائم القوم فاستمرَّ القتال على أشدّه وكان يومئذٍ ما تشيب له الأطفال من ضرب الأسنة ورمي النبال ودام الحال على هذا المنوال وعمَّ النكال في ثلاثة أيام بين الأنهر والليال لم ينقطع فيها النضال وكان ثمَّ مجزرة هائلة انتثرت فيها رؤوس الرجال وتجندلت من ورائها الأبطال وكان فيها سيدنا علي عليه السلام فوق جواده يرقب الموقعة بنفسه ويتعهد صفوف جيشه بشخصه متنقلاً=

فَلَيْسَ يُبْرَمُ مَا قَدْ كَانَ نَاقِضَهُ مِنَ ٱلشُّؤُوْنِ ٱلَّتِيْ ٱلدُّنْيَا تُلاَقِيْهَا

وَلَيْسَ يُنْقَضُ مَا قَدْ كَانَ مُبْرِمَهُ مِنَ ٱلْأُمُوْرِ ٱلَّتِيْ قَدْ شَاءَ يُجْرِيْهَا

لَوْ شَاءَ مَا ٱثْنَانِ فِيْ دُنْيَاهُمَا ٱخْتَلَفَا وَلاَ شَكَتْ أُمَّةٌ مُؤْذِيْ تَجَزِّيْهَا

وَلاَ تَحَدَّى أَخَا فَضْلٍ وَمَكْرَمَةٍ مَفْضُوْلُهُ جَاحِدَ ٱلآلاَءِ نَاسِيْهَا

وَهُوَذَا غِيَرُ ٱلْأَقْدَارِ تَدْفَعُنَا مَعَ ٱلْعِدَى لِمَهَاوٍ لاَ نُحَاشِيْهَا

وَنَحْنُ مِنْ رَبِّنَا ٱلْوَافِيْ ٱلْجَلاَلِ بِمَسْـــمَعٍ وَمَرْأَى أَمَانِيْهِ نُجَارِيْهَا

فَلَوْ يَشَا ٱلنَّقْمَةَ ٱلْكُبْرَى لَعَجَّلَهَا وَكَانَ عَنْ رَحْمَةٍ بِٱلنَّاسِ مُرجِيْهَا

وَكَانَ مِنْ فَضْلِهِ ٱلتَّغْيِيْرُ يُحْدِثُهُ فِيْ ٱلْمُعْضِلاَتِ ٱلَّتِيْ تَدْجُوْ دَيَاجِيْهَا

حَتَّى يَرَى ٱلظَّالِمُ ٱلْكَذَّابُ كِذْبَتَهُ لاَحَتْ لَدَى ٱلنَّاسِ مَهْمَا شَاءَ يُكْمِيْهَا

وَإِنَّمَا ٱلْحَقُّ حَقٌّ لاَ يَضِيْعُ وَلَوْ فِيْ أُمَّةٍ أَصْبَحَتْ تَهْوَى ٱلتَّرَارِيْهَا

وَٱللَّهُ قَدْ جَعَلَ ٱلدُّنْيَا دِيَارَةَ أَعْمَـــالٍ يَفُوْزُ ٱلْأُلَى قَدْ أَحْسَنُوْا فِيْهَا

نَعَمْ وَقَدْ جَعَلَ ٱلْأُخْرَى دِيَارَ قَرَارٍ نَحْنُ نَغْبُطُ فِيْهَا مُسْتَثِيْبِيْهَا

إِنَّ ٱلنُّفُوْسَ ٱلَّتِيْ قَدْ أَحْسَنَتْ فَلَهَا ٱلْـــحُسْنَى جَزَاءٌ وِفَاقٌ مِنْ مُجَازِيْهَا

وَإِنْ أَسَاءَتْ لَهَا ٱلسُّوْءَى جَزَاءُ مَسَاوِيْهَا ٱلَّتِيْ خَالِقُ ٱلْأَكْوَانِ مُحْصِيْهَا

أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَقُوْ عِدَاتِكُمُ غَدَاً وَخَيْرُكُمُ تَقْوَى مُغَادِيْهَا

تَهَجَّدُوْا وَٱسْجُدُوْا لِلَّهِ لَيْلَتَكُمْ وَٱلآيَ فَٱتْلُوْا تُقَوِّيْكُمْ مَثَانِيْهَا

=ذات اليمين وذات الشمال فما كان يرى ثلمةً في جيشه إلّا سدَّها بسيفه البتّار وناهيك بضربات ذي الفقار . حتى إذا ما أيقن معاوية بالإنكسار مال إلى صاحبه عمرو بن العاص وكان عنده أكبر مستشار وأخذا يتداولانِ بحيلةٍ تنقذهما من الإنخذال والعار وتوصلهما إلى ما يحلمان به من بعيد الأوطار .

وَٱلنَّصْرُ فَٱطَّلِبُوْهُ مِنْ إِلٰهِكُمُ أَخْلِقْ بِهِ طَلْبَةُ ٱلتَّاقِيْنَ يُوْلِيْهَا
وَٱلْقَوْا ٱلْعِدَى بِنُفُوْسٍ مِلْؤُهَا ثِقَةٌ بِٱللَّهِ كَيْ تُكْفِؤُوْهَا عَنْ تَنَزِّيْهَا
بِذَا أَبُوْ حَسَنٍ أَنْبَا ٱلصِّحَابَ بِهَجْـ ـمَةٍ بِهَا حَرْبُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يُنْهِيْهَا
وَلَمْ تَكَدْ تَبْلُغِ ٱلْأَصْحَابَ دَعْوَتُهُ حَتَّى ٱسْتَجَابَتْ وَقَرَّتْ أَنْ تَلَبِّيْهَا
وَكَبَّرَتْ بِحَمَاسٍ وَهْيَ صَائِحَةٌ تَقُوْلُ نَصْرَةُ رَبِّ ٱلْعَرْشِ نَبْغِيْهَا
وَفِيْ ٱلصَّبَاحِ لَقَدْ شَدَّتْ بِغَيْرِ وَنَى عَلَى ٱلْعِدَى وَعَلِيٌّ ٱلْقَرْمُ هَادِيْهَا
فَقَابَلَتْهَا جُيُوْشُ ٱلشَّامِ وَٱسْتَعَرَتْ حَرْبٌ مَلَتْ أُفْقَ صِفِّيْنٍ سَوَافِيْهَا
دَامَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِشِدَّتِهَا ٱلْـ ـقُصْوَى وَأَنْهُرُهَا تَتْلُوْ لَيَالِيْهَا
وَٱلنَّاسُ تُهْرِقُ مَعْصُومَ ٱلدِّمَاءِ فَتَجْـ ـرِيْ لِلْفُرَاتِ ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ يَسْقِيْهَا
وَغَشَّتِ ٱلْأَرْضُ قُتْلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَجَرْ حَاهُمْ وَلَا مَنْ يُدَاوِيْ أَوْ يُوَارِيْهَا
وَكَانَ حَيْدَرَةٌ فِيْ صَحْبِهِ أَسَداً تَتْلُوْهُ أُسْدٌ تُمَلِّيْ عَيْنَ رَائِيهَا
وَكَانَ يَلْقَى أَعَادِيْهِ بِصَارِمِهِ فَيَنْثُرُ ٱلْهَامَ صَيَّالاً وَيَذْرِيْهَا
وَذُوْ ٱلْفَقَارِ وَلَا سَيْفٌ يُعَادِلُهُ إِنْ جَازَ مِنْ كَفِّهِ ٱلْعَلْيَا هَوَادِيْهَا
وَلَا فَتَىً كَعَلِيٍّ وَٱلْعَلِيُّ فَتَى ٱلْإِ م سْلَامِ مَا تَطْلُبُ ٱلْعَلْيَا مُكَافِيْهَا
وَمَنْ يُنَاوِيْ قُرَيْشاً وَهْيَ مُشْرِكَةٌ فَعِنْدَ فُتْنَتِهَا أَيْضاً يُنَاوِيْهَا
وَمَا عَجِيْبٌ إِذَا أَمْسَتْ بِبَطْشَتِهِ مَقْهُوْرَةً مَا سِوَى ٱلتَّسْلِيْمِ يُنْجِيْهَا
أَجَلْ فَإِنَّ عَلِيّاً فَازَ وَٱنْتَصَرَتْ جُيُوْشُهُ وَإِلٰهُ ٱلْعَرْشِ حَامِيْهَا
وَلَمْ يَعُدْ مِنْ سَبِيْلٍ لِلنَّجَاةِ لَدَى ٱلْأَ م عْدَاءِ إِنْ طَلَبَتْ خَوْفاً مَنَاجِيْهَا
إِلَّا مُكَايَدَةً يَسْعَى مُعَاوِيَةٌ بِهَا وَمَا غَيْرُ إِبْنِ ٱلْعَاصِ يُنْشِيْهَا

أمير المؤمنين يطلب مبارزة معاوية

وَحَــرْبُ صِفِّيْنَ مَا زَالَتْ بِشِــدَّتِهَـا وَنَـارُهَـا تَـأْكُـلُ ٱلْأَبْــطَالَ تُفْنِيْهَـا[1]
فَاَسْتَشْهَدَتْ فِئَةٌ مِنْ خَيْرِ صَحْبِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ دُوْنَ عَلِيٍّ ٱلْمُـرْتَضَى فِيْهَـا
فَـهَــالَ حَيْــدَرَةً قَـتْلَى بِــلاَ عَــدَدٍ أَطْمَــاعُ إِبْنِ أَبِيْ سَفْيَـانَ تُــرْدِيْهَــا

(١) كثرت القتلى في ذلك اليوم من الجانبين حتى غشت أشلاؤها أرض صفّين وكان سيدنا علي عليه السلام حزيناً على هذه النفوس المسلمة البريئة التي تستشهد ظلماً وعدواناً لا لسبب سوى لطمع معاوية بالخلافة وأزاده حزناً مقتل عمّار بن ياسر وهو من أكابر الصحابة وقد كان عزيزاً عليه كما كان عزيزاً على المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقال حتى متى هذه المجزرة ؟ قال هذا وساق جوداه طالباً معسكر معاوية مع نفرٍ من أبطال أصحابه وحمل حملةً شعواء على أهل الشام فنقض صفوفهم نقضاً وشتّت جموعهم تشتيتاً وقال :

أقــتــلهــمُ ولا أرى مــعــاويــه ألجاحظ العين العظيم الحـاويـه

ثمَّ نادى معاويةً للبراز قائلاً على مَ يقتل الناس بيننا هلمَّ أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه ، استقامت له الأمور .

أمّا معاوية فلمّا رأى هجوم سيدنا علي عليه السلام على معسكره وانتقاض صفوف جيشه تهيب موقفه وولّى إلى أخريات الناس حيث رأى عمراً بن العاص فسأله أن يعينه برأيه لتلافي الشرّ وبينما هما لكذلك وإذ جاءهما من أصحابهما من أخبرهما بطلب علي معاوية للبراز فقال عمرو بن العاص : لقد أنصفك والله فاخرج إليه واقتله ونل الخلافة قال هذا وبسمة الهزء على شفتيه . فصاح معاوية ويلك ما أنصفتني إنّك لتعلم أنَّ علياً لم يبرز إليه أحد إلّا قتله فقال عمرو ولكن لا يحسن بك وأنت تضع نفسك في موضعه وتزاحمه على خلافته أن تترك مبارزته جبناً تكسب به سبّة الأبد . فغضب معاوية وقال ويلك أمّك لقد طمعت بالخلافة من بعدي تتطلب أن أهلك لتنالها والله لا أبارزه أبداً .

وبعد أن رأى سيدنا علي عليه السلام أنَّ معاوية قد جبن عن الخروج إليه عاد فأعمل سيفه فيمن لقيه من أهل الشام مخضباً الأرض بدمائهم على ما عهد الملأ من شجاعته وبطشه .

= **« ترجمة عمّار بن ياسر »**

أمّا عمّار بن ياسر الـذي أفجع مقتله سيـدنا علي أمـير المؤمنين وعموم المسلمين فهاك ترجمته مع قصة قتله :

هو عَمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي المـذحجي يكنّى أبا اليقـظان وكان حليف بني مخزوم . كان ياسر والد عمّار قحطانيـاً عربيـاً من عنس في مذحـج أمّا ابنه عمّار فكان مولى لبني مخزوم لأنَّ أباه ياسراً قدم مكة مع أخوين له يقال لهما مالـك والحارث في طلب أخ لهم رابعٍ فرجع الحارث ومالـك إلى اليمن وأقام يـاسر في مكـة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوَّجه أبو حذيفـة أمةً يقـال لها « سميَّة » فأولدها عمّاراً فأعتقه أبو حذيفة فمن ههنا كان عمّار مولى بني مخزوم على أنَّ أباه عربيٌّ قحطانيٌّ لا غشَّ فيه .

وكان عمّار بن يـاسر ممن سبقـوا إلى الإسلام قبـل الهجرة فـاشتدَّت عليـه قريش وعذّبته حتى اضطرَّ أن يجحد إسلامه بلسانه مـع اطمئنان قلبـه بالإيمـان فنزل فيـه قولـه تعالى : ﴿ **إلاّ من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان** ﴾ . وقـد هاجـر عمّار إلى أرض الحبشـة ثمَّ إلى المـدينة المنـورة فكان من المهـاجرين الأوّلين . وشهـد بدراً والمشـاهد كلّهـا وأبلى بلاءً حسناً فيها ثمَّ شهد اليمامة وقطعت أذنه فيها . وكان عمّار آدم طوالاً يضطرب في مشيته أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين شائب اللحية لا يخضبهـا بالحنـاء . وكان يقول إنّه ترب رسول الله في سنه لم يكن أقرب إليه ﷺ بالعمر منه . وكـان يقول عنـه المصـطفى « إنّ عماراً مليء إيمـاناً إلى أخمص قـدميه » وكـان عليـه الصـلاة والسـلام يقول : « من أبغض عمّاراً أبغضه الله فما زلت أحبّه من يومئـذٍ » وسئل المصـطفى يومـاً إذا اختلف الناس من بعدك وقامت الفتنة فيمن تأمرنا به أن نتبع ؟ قال عليكم بابن سمية (أي عمّار) فإنّه لن يفارق الحقَّ حتى يموت .

وعنـدما شـرع المصطفى ﷺ ببنـاء المسجد الجـامع في المـدينة المنـوَّرة كان المسلمون ينقلون اللبن لبنة بعد لبنة إلاّ عمّار فقد كـان ينقل لبنتين بعـد لبنتين لحماسٍ في دينه وزيادة رغبته في الأجر وما زال مجداً في ذلك حتى غُشي عليه من شـدّة التعب فأتاه رسول الله وجعل يمسح التراب عن رأسـه بيده الشـريفة ويقـول : « ويحك يـا ابن =

وَإِذْ دَرَى أَنَّ عَمَّـارًا قَضَى وَمَضَـى فِيْ حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ أَمْسَى مِنْ أَضَاحِيْهَا

= سميّة ، الناس ينقلون لبنةً لبنةً وأنت تنقل لبنتين لبنتين ، رغبةً في الأجر ، وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » وذاع قول المصطفى هذا بعمّار بين المسلمين وحفظوه كما حفظوا الأقوال الشريفة النبوية الأخرى التي قالها له وكانوا بعد أن افترقوا يعرفون الحقّ في الفرقة التي يكون معها عمّار ويقولون لا تقتله إلّا « الفئة الباغية » .

وظلَّ عمّار يجاهد في سبيل الإسلام فكانت له يد بيضاء في فتوحات الشام والعراق على عهدي أبي بكر وعمر ثمَّ استعمله عمر بن الخطاب على الكوفة وأرسل معه عبد الله بن مسعود مستشاراً ووزيراً وكتب إلى أهل الكوفة يقول : « أمّا بعد فإنّي بعثت إليكم عمّاراً أميراً ، وعبد الله بن مسعود وزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، فإنّي قد آثرتكم بهم على نفسي » .

وكان عمّار من أشدّ الناقمين على عثمان لا ينفكُّ ينعي عليه عمل عمّاله وجعله الخلافة طعمةً لبني أميّة ولشدّته هذه حمل غلمان عثمان عليه ونالوا منه من الضرب الموجع الشيء الكثير حتى إنفتق له فتق في بطنه وزعموا أنّهم كسروا ضلعاً من أضلاعه وكان ضربه هذا سبباً لانقلاب بني مخزوم وهو من مواليهم على ما تقدم على عثمان ومجاهرتهم بعدائه .

وكان عمّار في عهد سيدنا علي عليه السلام من سيوفه المشهرة فسار معه إلى قتال الجمل وقد رأينا مسيره مع سيدنا الحسن إلى الكوفة عندما أبى أبو موسى الأشعري مناصرة أمير المؤمنين كما تقدم في حاشية سابقة وأبلى أفضل بلاء وأحسنه في حرب الجمل .

وفي حرب صفين كان عمّار بن ياسر في مقدمة قوّاد سيدنا علي ومن أكابر المحاربين معه على شيخوخته لأنّه كما سبق القول كان ترب المصطفى بالسنّ فيكون عمره يومئذٍ بين ٩٤ و٩٥ سنة ومع ذلك كان من القوّة ما يدعو إلى الدهش بدليل ما رواه المؤرخون من آيات البسالة التي أبداها في تلك الحرب وكان آخر أمره أنّه في يوم ٩ صفر الخير سنة ٣٧ للهجرة وموقعة صفين على أشدّها خرج على الناس فقال : « اللهمَّ ، إنّك تعلم ، إنّي لو أعلم أنَّ رضاك في أن أقذف نفسي في هذا البحر (وأراد الفرات الذي يجري بقربه) لفعلته ، اللهمَّ ، إنّك تعلم ، إنّي لو أعلم ، أنَّ رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ، ثمَّ أنحني عليها حتى تخرج من ظهري ، لفعلته ، وإنّي =

بَكَاهُ حُزْنَاً عَلَى وَافِي صَدَاقَتِهِ   لِدِيْنِهِ وَٱنْبَرَى فِي ٱلنَّاسِ يَنْعِيْهَا

=لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته ، أيّها الناس ، إنّي لأرى قوماً ليضربونكم ضرباً يرتاب منه المبطلون ، وأيم الله ، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعلمت أنا على الحقّ ، وأنّهم على الباطل » ثمَّ قال : « من يبتغي منكم رضوان الله ربّه ، ولا يرجع إلى مال ولا ولد ، فليصحبني » فأتته عصابة من الأبطال ملبيةً نداءه متحمسة بحماسه فقال لهم « أقصدوا بنا هؤلاء القوم ، الذين يطلبون دم عثمان ، والله ما أرادوا الطلب بدمه ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها ، وعلموا أنَّ الحقّ لزمهم ، حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها ، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس ، والولاية عليهم ، فخدعوا أتباعهم ، وقالوا إمامنا قتل مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكاً ، فبلغوا ما ترون ، فلولا هذا ما تبعهم من الناس رجلان ، اللهمَّ ، إن تنصرنا فلطالما نصرتَ ، وإن تجعل لهم الأمر ، فادَّخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم» قال عمّار هذا في أصحابه ومضى بهم إلى المعمعمة فكان لا يمرُّ بوادٍ من أودية صفين إلاَّ وتبعه من كان فيها من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا ما انتهى إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص وهو مرقال وكان صاحب راية سيدنا علي وكان أعور فقال له « يا هاشم أعوراً وجبناً لا خير في أعور لا يغشى البأس ، إركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يقول :

أعور يبغي أهله محلاَّ   قد عالج الحياة حتى ملاَّ
لا بدَّ أن يفلَّ أو يُفلاَّ   يتلُّهم بذي الكعوب تلاَّ

وعمّار يقول : « تقدَّم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم التقى الأحبة ، محمداً وحزبه » وهكذا انقضَّ عمار وأصحابه على الأعداء والموقعة على أشدّها فلقي عمراً بن العاص بوجهه يحارب فناداه قائلاً « ويلك يا عمرو ، بعتَ دينك بمصر ، تباً لك » فقال عمرو : ولكن اطلب بدم عثمان . قال عمّار « أشهد على علمي فيك ، إنّك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله ، وإنّك إن لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم ما نيتك ، لقد قاتلتَ صاحب هذه الراية (ويريد علياً) ثلاثاً وهو مع رسول الله وهذه الرابعة ما هي أبرُّ وأتقى » قال هذا عمّار وانبرى للقتال بقلب كأنَّه قُدَّ من الصخر الأصمّ فما زال يبلي بالناس عاملاً السيف برقابهم حتى=

وَكَـانَ عَمَّـارُ خَيْـرَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ جِهَـا دَاً وَٱلصَّحَـابَـةِ مَكِّيْهَـا وَطِيْبِيْـهَـا
وَقَـالَ أَحْمَـدُ فِيْـهِ كُـلَّ مَحْمَـدَةٍ حَسْنَـاءَ مَا زَالَتِ ٱلْأَقْـوَامُ تَـرْوِيْهَـا
وَإِنَّ أَعْمَـالَـهُ فِيْ ٱلـدِّيْنِ بَـاهِـرَةٌ مَحْمُـوْدَةٌ تُـطْرِبُ ٱلـدُّنْيَـا أَمَـالِيْهَـا
وَإِنَّ قَـتْلَتَـهُ تَـٱلـلَّهِ فَـاجِـعَـةٌ وَمَـا فَجَـائِـعُ صِفِّيْنٍ تُحَـاكِيْـهَـا
نَادَى لَهَا ٱلْمُـرْتَضَى وَٱلْحُزْنُ مَـالِكُهُ حَتَّى مَتَى يَـا تَرَى صَحْبِيْ أُضَحِّيْهَـا

= قتل خلقاً كثيراً على أنّه أصيب بجروح كثيرة خارت معها قواه فوقع على الأرض مضرَّجاً بدمه بضربة سيف ضربه بها أبو الغارية واحتزَّ رأسه ابن السكسكي .

ومن غـريب أمر النـاس في موقعـة صفين أنّهم كانـوا عندمـا ينتهي القتـال يختلط بعضهم ببعض ويتحادثون كإخوان متصـافين كأنّ مـا يقومـون به من القتـال ليس بالأمـر الكبير. وروى عبد الـرحمن السلمي من مقاتلة الخـلافة قـال : « لما قتـل عمّـار دخلت عسكر معاوية لأرى هل بلغ منهم قتل عمّار ما بلغ منّا فإذا أرى معاوية وعمراً بن العاص وعبد الله بن عمرو على خيولهم يتحدثون فدنوت منهم بجوادي لأسمع حديثهم فسمعت عبد الله بن عمرو يقول لأبيه يا أبتِ قتلتم عمّاراً في يومكم هذا وقد قال رسول الله فيه ما قال : قال عمرو وما قال ؟ فروى عبد الله لأبيه قول رسول الله بعمّـار يوم بنـاء المسجد في المدينة فمال عمرو بن العاص إلى معاوية وقال أما تسمع ما يقول عبد الله ؟ فهزَّ معـاوية كتفيه استخفافاً وقال أنحن قتلنا عماراً ؟ إنّما قتله من جاءَ به .

وعاش أبو الغارية قاتل عمّار بن ياسـر إلى زمن الحجاج بن يـوسف الثقفي ودخل هذا يوماً على الحجاج وهو يحكم العراق بشدّته وظلمه وحولـه أصحابـه فأكـرمه وسـأله قائلاً هل أنت قاتل عمّار بن ياسر ؟ قال نعم فتبسم الحجاج وقـال لأصحابـه من سرَّه أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سميّة . ثمَّ إنَّ أبا الغارية سأل الحجاج حاجةً له فلم يجبه إليها فقال توطىء لهم الدنيا ولا يعطونا منها ويزعم إنّي عظيم الباع يـوم القيامـة فضحك الحجـاج حتى استلقى وقال : «أجل والله ، من ضـرسه مثل أُحُد ، وفخذه مثل جبل ورقان ، ومجلسه مثل المـدينة والـربذة ، إنّـه لعظيم البـاع يوم القيامة ، والله ، لو أنَّ عمّاراً ، قتله أهل الأرض كلهم ، لدخلوا كلّهم النار » .

وَسَاقَ نَحْوَ ٱلْعِدَى حَالاً مُطَهَّمَهُ   بِسُرْعَةٍ طَالِبَاً مَلْقَى مُعَاوِيْهَا
وَعِنْدَمَا ٱلْمُرْتَضَى وَافَى مَعَسْكَرَ أَهْـلِ ٱلشَّامِ خَافَتْ وَوَلَّتْ عَنْ مَثَاوِيْهَا
وَصَاحَ أَيْنَ ٱبْنُ حَرْبٍ كَيْ أُحَاكِمَهُ   إِلَى عَدَالَةِ رَبِّيْ وَهْوَ آبِيْهَا
عَلَى مَ تُقْتَلُ فِيْ ٱلْمَيْدَانِ أُمَّتُنَا   ظُلْمَاً وَنَحْنُ زِنَادُ ٱلشَّرِّ نُوْرِيْهَا
إِلَيَّ فَٱبْرُزْ مُعَاوِيْ دُوْنَ أُمَّتِنَا   فَمَنْ يَفُزْ مِنْ كِلَيْنَا كَانَ وَالِيْهَا
فَهَابَ دَعْوَةَ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ   إِلَى ٱلْبِرَازِ ٱبْنُ صَخْرٍ رَاحَ خَاشِيْهَا
وَمَا رَأَى فِيْ سِوَى ٱبْنِ ٱلْعَاصِ مِنْ عَضُدٍ   عَنْهُ ٱلْكَوَارِثُ وَٱلْأَخْطَارُ يُدْرِيْهَا
فَجَاءَهُ مُسْتَشِيْرَاً وَٱلْقُنُوْطُ قَدِ ٱسْـتَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ وَٱلْحُزْنُ بَازِيْهَا
فَقَالَ عَمْروٌ سَدَادُ ٱلرَّأْيِ عِنْدِيَ أَنْ   تَلْقَى عَلِيَّاً وَهَذِيْ ٱلْحَرْبُ نُنْهِيْهَا
فَٱبْرُزْ لَهُ بَرْزَةً تَقْضِي عَلَيْهِ بِهَا   وَتَسْتَبِدُّ بِذِيْ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيْهَا
أَجَابَ وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى أَبَا حَسَنٍ   مِثْلِيْ وَلَقْيَتُهُ ٱلْإِهْلَاكُ تَالِيْهَا
تُرِيْدُ لِيْ مَوْتَةً شَنْعَا تَنَالُ بِهَا   بَعْدِيْ ٱلْخِلَافَةَ لَكِنِّي أُجَافِيْهَا
وَقَدْ تَبَسَّمَ عَمْروٌ وَٱبْتِسَامَتُهُ   لِقَوْلَةٍ قَالَهَا لَهْوَاً وَتَفْكِيْهَا
وَعَادَ حَيْدَرَةٌ مِنْ بَعْدِ صَيْحَتِهِ   وَلَمْ يَكُنْ إِبْنُ حَرْبٍ مَنْ يُلَبِّيْهَا
وَأَعْمَلَ ٱلسَّيْفَ فِيْ ٱلْأَعْدَاءِ جَنْدَلَهَا   قَتْلَى وَفَرَّقَ تَفْرِيقَاً تَجَمِّيْهَا

مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص

رَأَى مُعَاوِيَةٌ أَنَّ ٱلْأُمُوْرَ عَلَى   مَا لَا يُحِبُّ فَأَحْرَى أَنْ يُدَارِيْهَا[1]
رَأَى جُيُوشَ أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ تَكَادُ تَبْلُغُ ٱلنَّصْرَ مِنْهُ فِيْ مَغَازِيْهَا

(١) إنّ التجاء معاوية وعمرو بن العاص إلى المؤامرة والخديعة قد كان على أثر =

رَأى حَـوَالَيْـهِ أَبْـطَالَ آلْـوَغَى جُثَثَـاً وَآلــطَّيْــرُ نَــائِلَةٌ مِنْهَــا تَغَــدِّيْـهَــا

=ليلة الهرير وهي الليلة العظيمة التي اشتدَّ فيها القتال وما أدراك ما ليلة الهرير ها نحن نذكرها إجمالاً والتفصيل يحتاج إلى مجلد كبير .

غلَّس علي عليه‌السلام غداة الجمعة عاشر صفر الخير سنة ٣٧ هجرية فصلّى بالناس ثمّ زحف بعسكره على أهل الشام وكانت الحرب قد أكلت من الفريقين ولكنها في أهل الشام أشدّ نكايةً وأعظم وقعاً . وكان الملال من الحرب على كثرة ضحاياها قد نال مناله من النفوس وكان على مقدمة جيش الخلافة فتى الهيجاء الأشتر النخعي فسار على فرس كميت وهو مدجج بالسلاح وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بقناته ويقول سوّوا صفوفكم رحمكم الله حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وحمد الله وأثنى عليه وقال : الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمّ نبيّه ، أقدم المسلمين هجرةً ، وأولهم إسلاماً ، وإنّه لسيفٌ من سيوف الله ، صبّ الله على أعدائه ، فانظروا إذا حمى الوطيس ، وثار القتام ، وتكسر المرّان ، وجالت الخيل بالأبطال ، فلا أسمع إلّا غمغمة وهمهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري . قال الأشتر هذا ومال نحو معسكر أهل الشام فتبعته الصفوف وهي نهزأ بالحتوف فأبلوا أعظم بلاء بأصحاب معاوية وكانت موقعةً عظمى كثرت فيها الضحايا حتى قدروا القتلى والجرحى يومئذٍ بنحو سبعين ألفاً وقد دامت لموقعة ذلك اليوم بطوله وكل الليل وهي ليلة الهرير وكان سيدنا علي في قلب الجيش والأشتر على الميمنة وابن عباس على الميسرة . ولما انجلت الموقعة عن نصر عظيم لجيش الخلافة وقد ولّى من بقي سليماً من جيش معاوية هاربين وقف في القوم خطيباً سيدنا علي عليه‌السلام وكان قد بدأ الهزيع الثالث من ليلة الهرير فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيّها الناس ، قد أبلغ بكم وبعدوكم الأمر ما قد رأيتم ، ولم يبق من أهل الشام إلّا آخر نفس ، وأنّ الأمور إذا أقبلت أعتبر آخرها بأوّلها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غادٍ عليهم بالغداة ، أحاكمهم إلى الله » فهلل الناس وكبّروا ودعوا لأمير المؤمنين وقد اشتدّ نشاطهم إلى غزوة الغد وهم موقنون أنّ الحرب تنتهي فيها والنصر الأخير بات على قيد خطوات منهم .

لا جرم أن تفوّق جيش أمير المؤمنين على جيش معاوية قد بدأ بأسنى مظاهره حتى أيقن معاوية بالقهر والإنخذال وأزاد بلباله تقدم الإمام الأعظم سيدنا علي منه يريد مبارزته ففرَّ من وجهه مختفياً في أقصى معسكر ولم يعد له إلّا الإلتجاء إلى دهاء =

رَأى ٱلْجُمُوْعَ ٱلَّتِيْ وَافى بِهَا سَئِمَتْ هَـوْلَ ٱلْقِتَالِ فَعَـدَّتْ عَنْ تَـدَاعِيْهَـا
رَأى أَبَـا حَسَنٍ قَـدْ جَـاءَ يَـطْلُبُـهُ إِلَى مُبَـارَزَةٍ يَـلْقَى ٱلـرَّدَى فِـيْهَـا
وَفِيْ ٱلأَخِيْـرِ رَأَى أَنَّ ٱلْهَـزِيْمَـةَ قَـدْ حَلَّتْ بِـأَصْحَـابِـهِ صَعْبٌ تَـلافِيْهَـا
وَإِنَّــهُ مُشْــرِفٌ فِيْ شَــرِّ مَـوْقِفِـهِ عَلَى ضِيَـاعِ أَمَـانٍ كَـانَ رَاجِيْهَـا
فَصَــاحَ وَٱلْيَـأْسُ يَـطْوِيْهِ وَيَنْشُــرُهُ يَـا عَمْرُو خُـذْ بِيَدِيْ حَـاشَا تُخَلِّيْهَـا
فَقَالَ عَمْرٌو: أَرَى أَهْـلَ ٱلشَّآمِ لَقَـدْ خَـارَتْ عَـزَائِمُهَـا مَـا أَنْ تُقَـوِّيْهَـا

=عمرو بن العاص عسى أن يعينه برأي على حيلة تخرجه بجيشه من المأزق الحرج الذي بات فيه فجاءَه والخوف يملأ نفسه وقال : يا عمـرو إنّ غداً لمصبحنـا عليٌّ بالفصـل ولا أرى إلّا القهـر والذلّ فمـا ترى ؟ فتبسّم عمـرو بدهـائه المشهـور وقال : إنَّ رجـالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مثله، هـو يقاتلك على أمر ، وأنت تقاتلهم على غيـره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخـافون عليـاً إن ظفر بهم ، قـال ويلك وما الحيلة ؟ قـال لا تجزع يـا معـاويـة فقـد أعددتها من قبل ولكن هل عزمت عزماً لا رجوع بعده على أن تعطيني مصر ؟ فإنّ نفسي لم تزل تنزع إلى خيمتي التي نصبتها بجوار النيـل . قال معـاوية لقـد سبق واتّفقنا على هذا وقسماً بالله لست ناكثاً عهدي فامددني بـرأيك قبـل فوات الـوقت . قال عمـرو وهو مـطمئن البال يهـزأ بمعاويـة والمخاوف التي تسـاوره وقال : ألقِ إلى القوم أمراً إن قبلوا اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا وفي الحالين تفرّق كلمتهم وتنتصر عليهم . قال معاوية وما هو روحي فداك ؟ قال : وزّع نسـخ القرآن على جنـودك فتعليا في صبـاح الغد على رماحها في وجوه رجـال معـاويـة وأرسـل معهم من يـدعــوهم إلى تحكيم كتـاب الله في هــذا الخلاف . وإنّك بالغ في هذا حاجتك لا محالـة . وإنّي لا أزل أؤخّر هـذا الأمر لـوقت حاجتك إليه . ولكني أعود فأذكرك بمصر وأنا فـاتحها وأحقّ النـاس بالتمتـع بخيراتهـا . ولما سمع معاوية حيلة عمرو بن العاص صفّق لها طرباً . وقال صدقتَ وربِّ الكعبة انّها لحيلة ما خطرت على بـال إبليس وأنّها لنـاجحة بـإذن الله وأنّك لحـاكم مصر وصـاحبها وأنّـك لحيّـة يـا عمـرو فضحـك عمـرو بن العـاص وقـال ولكن لسوء الحظ إنّـك أنت الحاوي.

هكذا اتفق معاوية وعمرو بن العاص على الاحتيال على سيدنا علي عليه السلام بـاسم القرآن وأسرعا بدعوة قوادهمـا إذ أنبآهم بهـا وأمراهم بتنفيـذها فـأسرعـوا إلى ذلك كمـا سترى

وَأَنَّ صَحْبَكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوِدِّ عَاجِزَةٌ عَنْ صَحْبِ حَيْدَرَةٍ مَا أَنْ تُكَافِيْهَا
وَلَمْ تَكُنْ فِيْ لِقَاكَ ٱلْيَوْمَ نِيَّتُهُ كَنِيَّةٍ أَنْتَ فِيْ لُقْيَاهُ تَنْوِيْهَا
فَإِنَّهُ تَارِكُ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَأَنْتَ تَطْمَعُ فِيْ هَانِيْ مَلَاهِيْهَا
وَفَوْقَ هٰذَا فَآهَالُ ٱلْعِرَاقِ إِذَا بِهَا ظَفِرْتَ لَهَابَتْ أَنْ تُؤَاذِيْهَا
لِذَاكَ عَنْ نَفْسِهَا وَافَتْ مُدَافِعَةً بِحَرْبِهَا وَلِذَا تُبْدِيْ تَفَانِيْهَا
لٰكِنَّمَا ٱلشَّامُ لَا تَخْشَى ٱلْوَصِيَّ إِذَا مَا سَادَ فِيْهَا وَأَمْسَى وَهْوَ رَاعِيْهَا
لِحُسْنِ مَا ذَاعَ عَنْ سَامِيْ فَضَائِلِهِ بَيْنَ ٱلْبَرِيَّةِ عُرْبِيْهَا وَرُوْمِيْهَا
وَخَيْرُ مَشُوْرَةٍ عِنْدِيْ أَشُوْرُ بِهَا عَلَيْكَ وَٱلْفَوْزُ مَضْمُوْنٌ لِمُجْرِيْهَا
أَنْ تَطْرَحَنَّ إِلَى ٱلْأَعْدَاءِ مَسْأَلَةً وَٱللّٰهِ تَعْجُزُ عَنْ إِدْرَاكِ خَافِيْهَا
تَدْعُوْ لِفِرْقَتِهَا سِيَّانِ إِنْ قَبِلْتَـــهَا أَوْ أَبَتْهَا وَفِيْ ٱلْحَالَيْنِ تُغْوِيْهَا
فَقَالَ: عَجِّلْ بِهَا وَٱلْوَقْتُ دَارِكَ هَا رَكْبُ ٱلْعِرَاقِ قَدِ ٱشْتَاقَتْ مَهَارِيْهَا
وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَحُوْزَ ٱلنَّصْرَ أَبْهَرَهُ بِوَقْعَةٍ أَبْتَغِيْ حَتْمَاً تَوَقِّيْهَا
فَقَالَ عَمْرُوٌ: وَلٰكِنْ مِصْرُ إِنِّيَ لَا أَزَالُ أَطْمَعُ أَنْ أَثْوِيْ بِوَادِيْهَا
وَلَمْ أَزَلْ أَشْتَهِيْ ٱلنِّيْلَ ٱلسَّعِيْدَ وَخَيْـــمَتِيْ أُقِيْمَتْ عَلَيْهِ لَسْتُ نَاسِيْهَا
فَقَالَ: وَٱللّٰهِ مَا إِلَّاكَ يَحْكُمُهَا وَمَا لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنَ ٱلْعَاصِ مُعْطِيْهَا
فَهَاتِ رَأْيَاً بِهِ صَحْبُ ٱلْخِلَافَةِ عَنْ نَفْسِيْ وَعَنْ عَسْكَرِيْ فِيْ ٱلْحَالِ يُقْصِيْهَا
أَوْ تَسْطُوَنَّ عَلَى جَيْشِيْ وَتَقْهَرُنِيْ وَإِنَّنِيْ بِتُّ أَخْشَى مِنْ تَسَطِّيْهَا
فَقَالَ: حَسْبُكَ لَا تَجْزَعْ مُعَاوِيَةٌ فَمَكْرُ عَمْرِكَ بِٱلْأَعْدَاءِ يُوْهِيْهَا
أَسْرِعْ إِلَى نُسَخِ ٱلْقُرْآنِ دُوْنَ وَنَىً وَقُلْ لِصَحْبِكَ بِٱلْأَرْمَاحِ تُعْلِيْهَا
بِهَا تَقَابِلُ أَصْحَابَ ٱلْوَصِيِّ وَكُنْ جَهْرَاً إِلَى حُكْمِهِ ٱلْقُدْسِيِّ دَاعِيْهَا

بِذَا تَفُوزُ بِمَبْغَاكَ ٱلَّذِي عَجِزَتْ سُيُوفُ صَحْبِكَ عَنْهُ مَعْ عَوَالِيْهَا
وَإِنَّهَا حِيْلَةٌ قَدْ كُنْتُ مُعْدِدَهَا لِوَقْتِ حَاجَتِكَ ٱلْقُصْوَى وَمُرْجِيْهَا
فَٱنْهَضْ لَهَا وَٱذْكُرَنْ مِصْراً وَخِصْبَ أَرَا ضِيْهَا وَلاَ تَنْسَيَنْ فَضْلَ ٱبْنِ عَاصِيْهَا
فَقَالَ دَاهِيَةُ ٱلْعُرْبَانِ: إِنَّكَ حَيَّـةٌ أَجَابَ: وَلٰكِنْ أَنْتَ حَاوِيْهَا
وَهَبَّ لِلْمَكْرِ عَمْروٌ مَعْ مُعَاوِيَةٍ بِحِيْلَةٍ لَمْ يَكُنْ إِبْلِيْسُ رَاصِيْهَا

رفع المصاحف وطلب التحكيم

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ ٱلدَّهْرِ قَاتِمَةٍ لَيْلاَءَ عَمَّتْ بِلاَ ٱسْتِثْنَا كَوَادِيْهَا(١)

(١) عندما أصبح صباح السبت ١١ صفر الخير اصطفَّ أصحاب الخلافة للقتال وما كادوا يمضون إليه حتى رأوا أشباه الرايات أمام أهل الشام في وسط الفيلق فجعلوا يحدقون بها فعرفوا أنّها المصاحف في أطراف الرماح وهي عظام مصاحف العسكر ورأوا بينها ثلاثة رماح شدّت في بعضها وعليها مصحف المسجد الأعظم وكان يرفعه عشرة من الجنود وكان عدد المصاحف التي رفعها يومئذٍ أهل الشام نيف وخمسمائة مصحفاً ولا بدَّ لنا من القول أنّ المسلمين الأولين كانوا يحرصون على استصحاب مصاحفهم معهم في حروبهم وفي جميع أسفارهم فلا عجب إذا وجد في جيش معاوية خمسمائة مصحفاً وقد قدره المقدرون بنيف ومئة ألف مقاتل .

وبينما كان أصحاب سيدنا علي ينظرون إلى هاتيك المصاحف وقد أعليت فوق الرماح تقدم من رجال معاوية الطفيل بن أدهم وكان حيال وسط جيش سيدنا علي وأبو شريح الجذامي حيال الميمنة وورقاء بن المعمر حيال الميسرة ونادوا بملء أصواتهم بحيث يسمع أصحاب سيدنا علي قائلين « يا معشر العرب ، الله الله في النساء والبنات والأبناء ، من الروم والأتراك وأهل فارس غداً ، إذا فنيتم ، الله الله في دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم » وما كادت تدوي هذه الكلمات في آذان أصحاب سيدنا علي حتى اختلط حابلهم بنابلهم واختلت صفوفهم وانقسموا فرقاً بعضهم رأوا عدالة الطلب فنادوا بالتحكيم وبعضهم أبوا إلّا مداومة القتال وحدث ما قدره عمرو بن العاص من تفريق كلمة العلويين بحيلته فقال سيدنا علي حينئذٍ « اللهمَّ ، إنّك تعلم ، أنّهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحكم ، الحق المبين » .

فِيْهَا لَقَدْ هَـرَّتِ ٱلنَّاسُ ٱلْقِتَـالَ هَرِيْـــرَاً وَهْيَ تَـطْلُبُ أَنْ تُجْلَى دَيَاجِيْهَـا

حَتَّى إِذَا لاَحَ نُـوْرُ ٱلْفَجْرِ صَـاحَ عَلِـــيٌّ أَسْرِعُوْا فَـٱلْعِدَى فُلَّتْ مَـوَاضِيْهَا

قَدْ أَدْبَرَتْ عَنْكُمُ وَٱلْخَـوْفُ سَائِـدُهَا يَـدُوْسُ عَائِـرَهَا ٱلْمَجْـرُوْحَ كَاعِيْهَـا

وَٱللَّهُ مُؤْتِيْكُمُ ذَا ٱلْيَـوْمَ نَـصْـرَتَـهُ وَلاَ مَـرَدٌّ لِـنُعْمَى كَـانَ مُؤْتِيْـهَـا

فَـأَسْرَعَ ٱلنَّـاسُ لِاسْتِئْنَافِ هَجْمَتِهِمْ وَكُلُّهُمْ مُـطْمَئِنُّ ٱلنَّـفْسِ هَـادِيْهَـا

فَشَاهَدُوْا فَوْقَ أَرْمَاحِ ٱلْعِدَى نُسَخَ ٱلْـــقُرْآنِ كَـانَتْ مَـعَ ٱلتَّكْبِيْـرِ تُعْلِيْهَـا

وَمَنْ يَصِيْحُ بِهِمْ يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَ م جْـوَادِ حَتَّى مَتَى ٱلْبَلْوَى نُعَـانِيْهَـا

آلـلَّهُ آلـلَّهُ فِـيْ أَوْلَادِكُـمْ وَنِـسَـا كُمْ مِنْ مَـوَاقِفِ إِهْوَانٍ تُـلاَقِيْهَـا

إِذَا فَنِيْـتُمْ فَـإِنَّ ٱلْـفُـرْسَ غَـازِيَـةٌ دِيَـارَكُمْ وَجُمُـوْعُ ٱلـرُّوْمِ تَسْبِيْهَـا

وَٱلتُّرْكُ تُسْرِعُ فِيْ ٱسْتِئْصَالِ شَافَتِكُمْ وَأَكْبَـرُ ٱلشَّـرِّ فِي مَغْـزَى مَغُـوْلِيْهَـا

آللَّهُ آللَّهُ فِـيْ ٱلـدِّيْنِ ٱلْـحَنِيْفِ إِذَا أَنْصَـارُهُ كَـانَ هٰـذَا ٱلشَّـرُّ مُفْنِيْهَـا

هٰـذِتِي مَثَـانِيْ إِلٰـهِ ٱلْعَـرْشِ بَيْنَكُمُ وَبَيْنَنَـا مِثْلَنَـا كُـوْنُـوْا مُـطِيْعِيْهَـا

وَإِنَّهَـا ٱلْيَـوْمَ تَـدْعُـوْنَـا لِطَاعَتِهَـا دَعْـوَى وَأَفْضَلُنَـا تَقْـوَى يُلَبِّيْهَـا

وَإِذْ وَعَتْ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِيْ صِحَابُ عَلِـــيٍّ وَٱلْمَصَـاحِفُ تُعْلَى فِيْ أَيَادِيْهَـا

قَـالَتْ بِقَـوْلَتِـهِ عَنْ خِشْيَـةٍ وَتُقًى وَرَدَّدَتْـهَـا وَلَمْ تَـفْقَـهْ مَـغَـازِيْهَـا

وَقَـدْ تَـقَسَّـمَتِ ٱلآرَاءُ قِـسْمَـتَـهَـا فِيْهَـا كَمَـا شَـاءَ مُـوْحِيْهَـا وَمُفْشِيْهَـا

فَفِـرْقَةٌ قَـدْ رَأَتْ حُكْمَ ٱلْكِتَابِ وَأُخْـــرَى خَـالَفَتْهَا تَقُـوْلُ ٱلْحَرْبُ نَبْغِيْهَـا

بِـذَاكَ حَـابِلُهَـا قَـدْ بَـاتَ مُخْتَلِطَاً بِنَـابِلٍ مُمْنِيَـاً بِـٱلْعَجْـزِ سَـادِيْهَـا

وَصَـاحَ حَـيْـدَرَةٌ: رَبَّـاهُ إِنَّـكَ أَدْ رَى بِـٱلْأَعَادِيْ وَمَـا تَطْوِيْ مَـطَاوِيْهَا

وَإِنَّهَـا لَمْ تُـرِدْ أَصْـلاً كِتَـابَـكَ أَوْ تَبْغِيْ هِـدَايَتَـهُ وَٱلشَّـرُّ غَـاوِيْهَـا

فَـاَحْكُمْ إِلٰهِي فِيْمَـا بَيْنَنَـا وَلأَنْـــتَ اَلْحَاكِمُ اَلْعَدْلُ قَدْ نُزِّهْتَ تَنْزِيْهَا
عَمَّا تُكِيْدُ اَلْعِدَى لِيْ فِي مَصَاحِفِهَـا وَقَطُّ مَـا تَبِعَتْ سَـامِيْ مَبَـادِيْهَـا

مذاكرة أمير المؤمنين أصحابه بالتحكيم

ثُمَّ اَنْثَنَى لِكِبَـارِ اَلْـقَـوْمِ حَيْـدَرَةٌ يُرِيْدُ مِنْهَا بِذِيْ اَلـدَّعْوَى تَـرَوِّيْهَا[1]
فَمَا أَصَرَّتْ عَلَى اَلتَّحْكِيْمِ مُجْمِعَـةً وَلاَ عَلَى اَلْحَرْبِ شَدَّتْ كَيْ يُجَارِيْهَا

---

(١) فـاز عمرو بن العـاص بمكيدتـه ونال معـاوية بغيتـه ودبَّ الإنقسـام دبيبـه في أصحاب سيدنا علي أمير المؤمنين فقال عدي بن حـاتم الطائي يـا أمير المؤمنين إنّـه لم يصب منّا عصبة إلاّ وقد أصيب من أعدائنا مثلها وكلٌّ مقروح ولكنّـا أمثل بقيـةً منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلاّ ما نحبّ فناجزهم . وأيّد كلامه الأشتر النخعي فقال يـا أمير المؤمنين إنَّ معاويةً لا خلف له من رجاله ولكن بحمـد الله لك الخلف ولـو كان لـه مثـل رجالـك لم يكن له مثـل صبرك ولا نصـرك فأقـرع الحديـد بالحـديد واستعن بـالله الحميد . ونهض عمرو بن الحمق فقال يا أمير المؤمنين إنَّا والله مـا أجبناك ولا نصـرناك على البـاطل ولا أحببنـا إلاّ الله ولا طلبنا إلاّ الحقّ ولـو دعانـا غيرك إلى مـا دعوتنـا إليـه لاستشرى فيه اللجاج وطالت فيه النجوى وقـد بلغ الحقُّ مقطعـه وليس لنا معـك رأي . فاعترض هؤلاء الأشعث وقد كلل وجهه الغضب وقال يا أمير المؤمنين أنَّا لك اليـوم على ما كنّا عليه أمس وليس آخر أمرنا كـأوله ومـا من القوم أحـد أحنى على أهلِ العـراق ولا أوثر على أهل الشام منّي ومع ذلك أقول أجب القوم إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ فـإنَّك أحقُّ به منهم وقد أحبَّ الناس البقاء وكرهوا القتال .

أصغى سيدنا أمير المؤمنين إلى ما قال أصحابه بصدرٍ رحب حتى إذا ما أبدى كلٌّ منهم ما عنده أرسـل إليهم نظرةً تختـرق مكنونـات صدورهم وقـال : أيّها النـاس ، إنّي أحقُّ من أجـاب إلى كتاب الله ، ولكن معـاوية وعمـرو بن العـاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة (وهؤلاء كانوا الباقين من زعماء أهلِ الشام) ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنّي أعرف بهم منكم ، صحبتهم صغـاراً ورجالاً ، فكـانوا أشـرَّ صغار وشـر رجال ، ويحكم إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل ، إنّهم ما رفعـوا المصاحف وهم يعـرفونـا ويعملون بها ،ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماجمكم سـاعةً =

ثُمَّ رَأى ٱلنَّاسَ حَوْلَيْهِ قَدِ ٱجْتَمَعَتْ ... وَصَيْحَةُ ٱلسِّلْمِ تَعْلُو مِنْ نَواحِيْهَا
فَأَمَّهَا كَرَماً كَيْمَا يُشَافِهُهَا ... بِمَا لَهُ ٱجْتَمَعَتْ لا كَيْ يُمَارِيْهَا
وَقَالَ: إِنِّي يَا قَوْمِيْ أَحَقُّكُمُ ... بِآيِ رَبِّي إِنْ نَادَى مُنَادِيْهَا
لٰكِنْ دُعَاةُ كِتَابِ ٱللَّهِ قَدْ طَلَبَتْ ... بِمَا دَعَتْ أَنْ تُراشِي مُسْتَجِيْبِيْهَا
إِنِّيْ لأَعْرَفُ مِنْكُمْ أَجْمَعِيْنَ بِهَا ... وَبِٱلَّذِي تَبْتَغِيْهِ فِي مَرَامِيْهَا
صَحِبْتُهَا طِفْلَةً مِنْ يَوْمِ نَشْأَتِهَا ... حَتَّى أَشَابَتْ لَيَالِيْهَا نَواصِيْهَا
يَا قَوْمِ دَعْوَتُهَا حَقٌّ أُرِيْدَ بِهِ ... بُطْلٌ يُغَشِّيْ عَلى أَبْصَارِ مُصْغِيْهَا
بَلْ كَيْ تُخَادِعَكُمْ تُوْهِيْ عَزَائِمَكُمْ ... تُكَيْدَكُمْ بَعْدَ أَنْ أَعْيَا تَلَطِّيْهَا
أَهْلَ ٱلْجِهَادِ أَعِيْرُوْنِي سَوَاعِدَكُمْ ... سُوَيْعَةً فَبِهَا وَٱللَّهِ أُفْنِيْهَا
قَدِ ٱنْتَهَى ٱلْحَقُّ يَا قَوْمِيْ بِمَقْطَعِهِ ... إِلَى ٱلْعِدَاةِ ٱلَّتِيْ جَارَتْ لِيُرْدِيْهَا

= واحدة ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه ، ولم يبق إلّا أن يقطع دابر الذين ظلموا » وما كاد ينتهي أمير المؤمنين من كلماته الدرية التي برهن بها على أنّه أدرك حقَّ الإدراك سرّ مكيدة عمرو بن العاص ومعاوية وأنّه يرى أنَّ ساعة النصر قد دنت حتى دوت أصوات عشرين ألفاً من رجاله أقبلت نحوه بزعامة مسعر بن فدكي وزيد بن الحصين وعصابة من القراء الذي صاروا خوارج فيما بعد وطفقوا ينادون بملء أصواتهم « يا أمير المؤمنين ، يا علي ، أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيتَ إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله إنّا لنفعلنّها إن لم تجبهم » فخرج سيدنا علي إليهم وطفق يلاطفهم ويتملقهم في مثل قوله « ويحكم ، أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني ، أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إنّي إنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ، وأنّهم ليس العمل بالقرآن يريدون » على أنّ هؤلاء أصرُّوا على طلبهم وما كانت هذه الكلمات وأمثالها من فم الحضرة المقدسة الحيدرية لتثنيهم عن طلبهم فأخذوا يحاورونه مصرّين على إجابة أهل الشام وترك الخصام وتحكيم القرآن .

فَـأَيِّــدُوْهُ أَعِيْـرُوْهُ جَمَـاجِمَكُـمْ لِيَجْلُوَنَّ عَنِ آلـدُّنْيَـا آلتَّـرَارِيْـهَـا
وَكَـانَ حَيْـدَرَةٌ يُلْقِيْ خِـطَابَتَـهُ بِغَيْـرَةٍ تَـأْسُـرُ آلْأَلْبَـابَ تَسْبِيْهَـا
فَلَمْ تُؤَثِّـرْ عَلَى آلسُّمَّاعِ وَاأَسَفَ آلإِ سْـلَامِ تَـآللَّهِ لَمْ تُـدْرِكْ مَعَانِيْهَـا
وَصَاحَ عُشْرُوْنَ أَلْفـاً مِنْ جَمَـاعَتِهِ بِـهِ: أَلَا أَبْلِغِ آلْأَعْـدَا أَمَـانِيْـهَـا
أَلَا أَجِبْهَـا إِلَى حُكْمِ آلْكِتَابِ وَحَـا شَـا آيَـهُ أَنْ تُعَـادِيْ مَنْ يُصَـافِيْهَـا
أَجِـبْ وَإِلَّا فَـإِنَّ قَـاتِلُوْكَ كَـقَـتْـلَةِ آبْـنِ عَفَّـانَ هَـا إِنَّـا نُـثَنِّيْهَـا
وَبَعْـدَ ذَاكَ أَلَحَّتْ فِيْ مُـوَادَعَـةِ آلْـعِـدَى وَمَـا قَبِلَتْ إِلَّا تَـوَخِّيْهَـا
وَقَـدْ أَصَمَّتْ وَمَا أَصْغَتْ مَسَامِعَهَـا عَنْ بَيِّنَـاتِ عَلِيٍّ وَهْـوَ يُبْـدِيْهَـا
وَهْيَ آلْخَوَارِجُ فِيْمَا بَعْدُ قَدْ خَرَجَتْ عَلَى آلَّذِيْ أَكْـرَهَتْـهُ أَنْ يُهَـابِيْهَـا

الشغب في جيش أمير المؤمنين

وَبَيْنَمَـا عَنَتَـاً كَـانَتْ تُـغَـاضِبُـهُ وَكَانَ فِيْ حِلْمِهِ آلسَّامِيْ يُرَاضِيْهَـا[1]
كَـانَتْ طَـلَائِعُـهُ تَلْقَى أَعَـادِيَـهُ وَبِـآلْخَسَـائِرِ وَآلْأَرْزَاءِ تُـمْنِيْهَـا

---

(١) عندما خرج سيدنا أمير المؤمنين لملاقاة أولئك الألوف المؤلفة الطالبة إجابة أهل الشام إلى ما طلبوه من تحكيم القرآن خرج الأشتر بطائفة من أبطال العراق قاصداً نهو الحرب على شفار السيوف معتقداً أنّ أهل الشام خارت عزائمهم فلا يلبثون أن يسلموا إليه ويدينوا قهراً إلى أمير المؤمنين على أنّه ما كاد يدنو من أصحاب معاوية إلّا وتبعه بعض أصحابه ينبئه بأنّ طالبي الصلح والنزول على ما عرضه أهل الشام من تحكيم القرآن قد استفحل أمرهم حتى أنّهم يتهددون سيدنا أمير المؤمنين بالقتل وأنّه عليه السلام قد رحب بهم صدره كثيراً وتلطف بهم جهده ونشر عليهم من مواعظه الشيء الكثير وما ارعووا فحوقل واسترجع وتردّد في أمر هجومه وبينما هو في تردّده جاءَه يزيد بن هاني من قبل أمير المؤمنين يدعوه إليه فلما انتهى إليه أخبره بحرج موقف سيدنا علي مع الناس وأنّه يدعوه إلى الرجوع فقال الأشتر إرجع لأمير المؤمنين وقل له : ليس =

يَقُوْدُهَا ٱلْأَشْتَرُ ٱلْغَازِيْ ٱلْمُلَقَّبُ بِـٱلْـــكَبْشِ ٱلْعِـرَاقِيِّ لِلتَّغْلِيْبِ يُمْشِيْهَـا

= هذه بالساعة التي ينبغي لـك أن تزيلني عن مـوقفي إنّي قد رجـوت الفتح فـلا تعجلني فرجع يزيد إلى أمير المؤمنين وأخبره بقول الأشتر فلما علمه الناس ازدادوا هرجاً ومرجاً وقالوا يا علي والله ما نـراك إلاّ أمرتـه بالقتـال قال أرأيتمـوني ناجيت رسـولي سرّاً ؟ أمّا كلمتـه علانيـةً أمامكم وأنتم تسمعـون ؟ قالـوا فابعث إليـه فليأتـك وإلاّ فوالله إعتـزلنـاك وقاتلناك فقال أمير المؤمنين ويحك يا يـزيد أسـرع إلى الأشتر وقـل له أن يقبـل إليَّ فإنّ الفتنة قد وقعت فأسرع يـزيد إلى الأشتـر فإذا هـو قد أعمـل السيف برقـاب أهل الشـام ولاحت الغلبة لرجال أمير المؤمنين فـأخبره بـأمر المـرتضى وأنبأه نبـأ الفتنة فقـال الأشتر أبرفع المصاحف ثارت فتنتهم ؟ قال يزيـد نعم قال الأشتـر أمّا والله لقـد ظننت أنّها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقة بين رجالنا إنّها مشورة ابن النـابغة ثمَّ قـال لابن هاني ويحـك ألا تـرى إلى الفتح ؟ ألا تـرى إلى ما يلقى أعـداؤنا ؟ ألا تـرى إلى ما يصنـع الله لنـا ؟ أينبغي أن نـدع هذا وننصـرف عنه ؟ فقـال له يـزيد أتحبُّ أنّـك ظفـرت ههنـا وأنّ أميـر المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفرج عنه ويسلم إلى عدوّه ؟ قال الأشتر سبحـانه الله ، لا والله ، لا أحبُّ ذلك ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله . وثنى عنان جواده وعـاد أدراجه فتبعـه أصحابه وكلّهم آسفون على فوت النصر الذي لاحت لأعينهم بشائره وكاد يتمّ لهم .

وعنـدما بلغ الأشتـر موقف أميـر المؤمنين وجده بين النـاس على مثـل مـا حـدثـه يزيد بن هانىء وهم يتهددونـه بالإعتـزال عنه وبقتله أيضـاً فصاح بهم والغضب آخـذٌ منه مأخذه « يا أهل الذلّ والوهن ، أحين علوتم القـوم ، وظنوا أنكم لهم قـاهرون ، رفعـوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ، وقد والله تركوا ما أمر الله بـه فيها ، وتـركوا سنّـة من أنزلت عليه ، فـلا تجيبوهم ، أمهلوني فـواقاً ، فـإنّي قد أحسست بـالفتح » . فـأجابـوه بلسان واحدٍ لا نمهلك كلا لا نمهلك . قال فـأمهلوني عدوة الفـرس ، فإنّي قـد طمعت بالنصر . قالوا إذن ندخل معك في خطيئتك . فازداد كرب الأشتر وغيـظه وقال حـدثوني عنكم ، وقـد قتل أمـاثلكم ، وبقي أراذلكم متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقتلون أهـل الشـام ؟ فـأنتم الآن حين أمسكتم عن قتـالهم مبـطلون . أم أنتم الآن في إمسـاككم عن القتال محقون ؟ فقتـلاكم إذن الذين لا تنكـرون فضلهم ، وأنّهم خيرٌ منكم في النـار ، قـالوا دعنـا منك يـا أشتر قـاتلناهم في الله ، ونـدع قتالهم في الله ، إنـا لسنـا نـطيعـك فاجتنبنا . فقال خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب =

=الجباه السود ، كنّا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا ، وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت ، ألا فقبحاً لكم يا أشباه الرجال ، ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . وكان القوم والأشتر يخاطبهم بهذه الكلمات وهم يقاطعونه ويصفرون له ويمتهنونه ثمَّ سبّوه وسبّهم وضربوا بسياطهم وجه دابته .

وإذ رأى سيدنا أمير المؤمنين أنّ الخطب قد استفحل صاح بالناس فكفوا وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين إحمل الصفَّ على الصفّ تصرع القوم . فصاح الناس قائلين إنَّ أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن . فقال الأشتر إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين . فصاح الناس بملء أصواتهم : قد رضي أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين .

كل هذا جرى وسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام ساكت واجم مطرق إلى الأرض لا ينبث ببنت شفة ثمَّ رفع رأسه الشريف وأرسل نظره إلى الناس أهابت بهم فسكتوا فقال : « أيّها الناس : إنَّ أمري لم يزل معكم على ما أحبُّ ، إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوّكم فلم تترك ، وأنّها فيهم أنهى وأنهك ، إلّا أنّي كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت منهياً ، وقد أحببتم البقاء ، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون » وما انتهى سيدنا أمير المؤمنين من خطابه النفيس الدالّ على الآلام التي تشعر بها نفسه الطاهرة من فرقة الناس واختلافهم . إلّا وعاد الناس إلى الجدال بين موافق على التحكيم وقائل باستئناف القتال والهرج آخذ مأخذه منهم حتى بات جمع كلمتهم من المستحيل .

« ترجمة الأشتر »

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدَد . أدرك الإسلام على عهد المصطفى فأسلم وحسن إسلامه وأخلص لرسول الله فكسب رضاءَه وثقته وفي الحديث أنّهم ذكروا الأشتر أمام المصطفى يوماً فقال « إنّه المؤمن » مشيراً بذلك إلى قوّة إيمانه وصحة عقيدته . =

بِهَا لَقَدْ صَاحَ: يَا أَهْلَ ٱلْمَذَلَّـةِ وَٱلْإِ م هَـانِ يَـا مَنْ أَبَتْ إِلَّا تَـرَاخِيْهَـا

= وكان الأشتر أشهر أنصار سيدنا عليّ وأعوانه والقائلين بخلافته منذ وفاة المصطفى حتى قالوا إنّه كان لا يرى شرعية الخلافة لغير سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام . ولذلك يجعلونه أقدم وأعظم المتشيعين وأفضل من دافع عن حقوق وصيّ النبيّ الأمين .

وكان الأشتر في المسلمين الذين فتحوا العراق وفارس فأقام في الكوفة وبقي فيها وكان هناك في مدّة عثمان وكان مجاهراً بعداوة عثمان والنقمة على عمّاله الأمويين . واتّفق في أواخر أيّام عثمان أنّ الوليد بن عقبة عامله على الكوفة كان يجهر بشرب الخمر وإتيان المحرمات فكانت أعماله هذه بدء شكوى الكوفيين من عثمان فأخذوا يكتبون له عن أحوال عامله ويطلبون منه عزله وكان الأشتر زعيم هؤلاء الشاكين ولم يرَ عثمان بدأً من إرضائهم بعزله فعزله وولّى بدله سعيد بن العاص فلمّا قدم هذا الكوفة رأى من حسن السياسة أن يتألف من في تلك المدينة من العرب فجعل يكثر من دعوتهم إلى مجالسه ومسامرتهم والعمل على اكتساب قلوبهم وهم لا ينفكون ناقمين غير راضين عمّا يجري في الخلافة وفي ذات ليلة بينما كان وجهاء قريش في الكوفة يسمرون في دار الأمارة عند سعيد بن العاص قال هذا إنّ سواد العراق بستان لقريش عامةً ولبني أميّة خاصةً فغضب الأشتر لقوله وقال أتزعم أنَّ السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك ؟ ولم يكد يتمّ كلامه حتى انتهره صاحب الشرطة قائلاً ويلك يا أشتر أتردُّ على الأمير مقالته ؟ وأغلظ له في الكلام فازداد الأشتر غضباً ومال إلى من كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف العرب المقيمين في الكوفة وقال ألا تسمعون ؟ فأخذتهم نخوة العرب ووثبوا على صاحب الشرطة بحضرة سعيد ووطئوه بأرجلهم وطئاً عنيفاً وجرّوه من رجله فغضب سعيد من هذه الموقعة وامتنع عن مسامرتهم وازدادوا هم كراهةً لعثمان وعمّاله وطفقوا يجهرون بسبّهم والتشنيع بأعمالهم حتى استفحل أمرهم فأرسل سعيد يشكوهم إلى عثمان فكتب هذا إليه يأمره بإبعادهم إلى الشام فلمّا انتهى إلى سعيد بن العاص أمر عثمان استدعى إليه الأشتر ومالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد النخعي وعلقمة بن قيس النخعي وصعصعة بن صوحان العبدلي ومن نحا نحوهم بعداوة عثمان من العرب النازلين في الكوفة فلما اجتمعوا إليه قال لهم « إنّكم قوم من العرب ، ذوو أسنان (أي شيوخ) وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأمم وجنيتم مواريثهم ، وقد بلغني أنّكم ذممتم قريشاً ، ونقمتم على الولاة فيها ، ولولا =

أمُذْ عَلَتْ رَايَةُ ٱلنَّصْرِ ٱلْأَكِيْدِ عَلى صَحْبِ ٱلْوَصِيِّ وَهَابَ ٱلْقَهْرَ عَادِيْهَا

= قريش لكنتم أذلةً ، انَّ أئمتكم جُنَّتكم ، انَّ أئمتكم ليصبرون لكم على الجور ، ويحتملون فيكم العتاب ، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم الخسف ، ولا يحملكم على الصبر ، ثمَّ تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم ، وبعد وفاتكم » فجبهوه وردّوا قوله وأغلظوا له وهو يحاول أن يحملهم على الخضوع فيأبون فلم يرَ إلاّ أن ينفذ أمر عثمان فنفاهم إلى الشام .

ولما بلغ الأشتر وأصحابه الشام أكرم معاوية مثواهم وتلطّف بهم وأغدق عليهم الخير وهو يريد أن يتألفهم فما أفلح وظلّوا يشنعون بعثمان وعمّاله في مجالسه وبين الناس حتى أعجزه أمرهم فكتب إلى عثمان يستأذنه بإرجاعهم إلى الكوفة حتى لا يفسدوا عليه أهل الشام فأذن له بذلك فأرسلهم بطريق حمص وكتب إلى عاملها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أن يعوّقهم عنده ويشدّد عليهم فاستقبلهم عبد الرحمن بوجهٍ عابس وقال لهم « يا بني الشيطان ، لا مرحباً بكم ، ولا أهلاً ، قد رجع الشيطان محسوراً ، وأنتم بعد في بساط ضلالكم وغيّكم ، جزى الله عبد الرحمن (ويريد نفسه) ان لم يؤذكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ؟ أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية ؟؟ أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقي عين الردَّة ، والله يا أشتر ويا ابن صوحان ويا جميعكم ، لأطيرنَّ بكم طيرةً بعيدة المهوى ، إن بلغني عنكم ما أكره » وبعد هذا أمر أن يقيموا في دارٍ وأن يجري عليهم رزقهم بالتقتير وكان كلما ركب أمشاهم في ركابه أذلاّءَ فتهيبوا شدّته وصبروا على أذاه وطفقوا يظهرون له التوبة فصدَّقهم وكتب إلى عثمان يستأذنه بإرجاعهم إلى الكوفة وأنّه كبح جماحهم وأكرههم على الطاعة فأطاعوا . فأذن عثمان برجوعهم فرجعوا إليها وكأنّ أول عمل أتوه فيها أن ساروا بأهل الكوفة إلى المدينة يطلبون خلعه واشتركوا فعلاً بحصاره فقتله على ما مرَّ بنا في حاشيةٍ سابقة .

وكان الأشتر أول المنادين بعد مقتل عثمان بخلافة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وأقرب المقربين إليه وكان الأمير يعتمد عليه ويثق بإخلاصه ويستشيره بمهام الخلافة ويحترمه غاية الإحترام . وحدث أنَّ سيدنا علي ولّى على الحجاز واليمن والعراق بعض أبناء عمّه العباس فقال الأشتر علناً في أحد مجالسه « ها عليّ قد استعمل أبناء عمّه على عمالات المسلمين فلماذا قتلنا الشيخ (ويريد عثمان) بالأمس ؟! » فبلغ =

= قوله هذا مسامع الحضرة المقدسة الحيدرية فاستدعاه إليه وقال له : « بلغني يا مالك أنّك قلت كيتَ وكيت ولك الحقُّ والله فيما قلتَ ولكن هل وليتُ حسناً أو حسيناً أو واحداً من أولاد أخي جعفر أو أخي عقيلاً أو أحد أولاده عملاً من أعمال المسلمين ؟ اللهمَّ لا . وإنّما وليتُ أولاد عمّي العباس لأنّي سمعت عمّي العباس رحمه الله يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمارة مراراً فقال له : « يا عمّ إنّ الأمارة إن طلبتها وكلتَ إليها وإن طلبتك أعنت عليها » وقد رأيتُ بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم أن وُلّي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يولّى أحد منهم فأحببتُ أن أصل رحمهم وأزيل ما كان في أنفسهم . وبعدُ فإن علمتَ أحداً من أبناء الطلقاء هو خيرٌ منهم فائتني به » فلمّا سمع الأشتر اعتذار أمير المؤمنين عذره على عمله واعتذر عمّا قال فقال أمير المؤمنين : لا تعتذر فإنَّ النصيحة إخلاص في الصداقة . ومن هذه القصة يتضح لنا ما كان عليه الأشتر من الإخلاص والصراحة في قوله وعمله .

والأشتر هو الذي أشار على سيدنا علي عليه السلام بالإبقاء على أبي موسى الأشعري في أمارة الكوفة عند بيعته وقبل الإمام مشورته لثقته به ولعلمه أنّه أخبر الناس بأهل الكوفة فلمّا حلَّ أمير المؤمنين الربذة عندما سار لحرب الجمل وأرسل يستنصر بأهل الكوفة وأظهر أبو موسى التراخي في نصرته على ما تقدم القول في حاشية سبقت نادى سيدنا علي الأشتر وقال له معاتباً هذا صاحبك الذي أشرتَ أن تبقيه على الكوفة فغضب الأشتر وسار على الفور إلى الكوفة وعزل أبو موسى وجاء بمقاتلة الكوفة لحرب الجمل على ما رأينا .

وقد أبلى الأشتر في حرب الجمل أعظم بلاء ومن مواقعه أنّه بارز عبد الله بن الزبير وكلاهما على ظهر جواده وتعانقا متصارعين وارتميا إلى الأرض فكان الأشتر فوق عبد الله بن الزبير فجعل عبد الله يصرخ من تحته :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

ولشدة اختلاط الناس وثوران النقع ما فهم أصحاب الجمل قوله ولو قال اقتلوني والأشتر لقتلوهما وقتئذٍ معاً على أنّ عبد الله بن الزبير أفلت بعد جهاد كثير من تحت الأشتر لأنّ هذا كعادته كان يخرج إلى الحرب بعد أن يمتنع عن الأكل ثلاثة أيام . =

وَقَــدْ دَعَــتْكُــمْ لآيَــاتٍ مُــطَهَّــرَةٍ   وَآللَّهِ لَمْ تَنْــحُ فِي يَــوْمٍ نَــوَاحِيْهَــا

= وبعد نهاية وقعة الجمل زار الأشتر عـائشة فقـالت له يـا مالـك أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت ؟ قال نعم ولولا أنّي كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمّة محمد منه . فقالت أما علمت أنّ رسول الله قال « لا يحـلُّ دم المسلم إلاّ بإحـدى أمور ثـلاث : كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتـل نفس بغير حقّ ؟؟؟ فقـال الأشتر على بعض هـذه الثلاثة قاتلناه يا أمَّ المؤمنين وأيم الله ما خـانني سيفي قبلها ولقـد أقسمت أن لا يخونني بعدها ثمَّ قال على البداهة :

أعـــايش لـــولا أنّني كنت طـــاويـــاً	ثـلاثـاً لألقيتِ ابن أختـــك هـالكـــا
غـــداة ينـادي والـــرجـــال تحـــوزه	بـــأضعف صـوتٍ اقتلوني ومـــالكـا
فلم يعـــرفـــوه إذ دعـــاهـم وغمـــه	خـدبٌ عليـه في العجـاجـة بـاركـا
فـــنـجـــاه مـــنـــي أكـــلـه وشـبـــابـــه	وانّي شيـــخ لـم أكن متمـــاسكـــا
وقـالت على أيّ الخصال صـرعتـه	بـقـتــلٍ أتـــى أم ردّةٍ لا أبـــالـكـــا
أم المحصنُ الزاني الذي حـلَّ قتله	فقلتُ لهـــا لا بــدَّ من بعض ذلكـــا

فقطبت عائشـة وجهها وقـالت أحمد الله الـذي أنقذ عبـد الله لأسماء وإنّي عنـدما سمعت أنّه خرج لمبارزتك صحت « واثكل أسماء » .

وقـد رأينـا كيف كـانِ الأشتـر من أعـاظم القـوّاد الـذين صحبـوا سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام إلى صفين وأشرنا إلى بعض مواقعه العظيمة فيهـا ونقول إنّ سيـدنا أميـر المؤمنين بعد أن رجع إلى الكوفة وكان ما كـان من أمر التحكيم على مـا سيمرّ بنـا أناط بالأشتر عمالة الجزائر فكان مقامـه في « نصيبين » وأرسل محمـد بن أبي بكر أميـراً على مصر فلم يقوَ محمد على حكم البلاد لكثرة الدسائس التي كان يدسها معاوية وعمرو بن العاص له فأرسل يشكو أمره إلى سيدنا علي فما رأى عليه السلام لضبط حكم مصر إلاّ الأشتـر عامله على الجزيـرة فكتب إليه يقـول : « أمّا بعـد ، فإنّـك ممن أستظهـر به على إقـامة الدين ، وأقمع بـه نخوة الأثيم ، وأسـدُّ به الثغـر المخوف ، وقـد كنتُ ولّيتُ محمداً بن أبي بكـر مصر ، فخـرجت عليه خـوارج وهو غـلامٌ حـدث السنّ ، ليس بـذي تجـربـة للحروب ، فأقدم عليَّ لننظر فيمـا ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقـة والنصيحة من أصحابك والسلام » فلمّا وصل هذا الكتاب إلى يد الأشتر أسرع إلى الكوفة وتبـاحثا مليّاً في أمر مصـر ومطامـع عمرو بن العـاص ومعاويـة فيها وقـرّ رأياهمـا على أن يخرج=

خُدِعْتُمْ بِٱلَّذِي قَالَتْ وَخَدْعَتُهَا قِبْلْتُمُوهَا كَمَا يَهْوَى مُعَاوِيْهَا
وَٱللَّهِ قَدْ تَرَكَتْ آيَ ٱلْكِتَابِ وَسِنَّةَ ٱلنَّبِيِّ فَكَلًّا لاَ نُلاَحِيْهَا
يَا صَحْبَنَا أَمْهِلُوْنِي قَدْ شَعَرْتُ بِقُرْبِ ٱلنَّصْرِ أَعْدَاؤُكُمْ حَانَتْ مَخَازِيْهَا
وَكَانَ أَشْتَرُنَا يَتْلُوْ مَقَالَتَهُ وَٱلنَّاسُ يَصْخَبُ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا
وَطَالَمَا قَاطَعَتْهُ غَيْرَ رَاضِيَةٍ عَنْهَا تُصَفِّرُ تَصْفِيْراً لِتَالِيْهَا

= الأشتر إلى مصر وهكذا سار متوجهاً إليها .

وكان لمعاوية في الشام العيون والأرصاد في الكوفة فبادروه بنبأ تعيين الأشتر لمصر وخروجه إليها فعظم ذلك عليه ودعا واحداً من أعوانه وكان من موالي آل عمر وطلب منه أن يستعمل دهاءه في اغتيال الأشتر بحيلة فسار الرجل إلى الميناء التي كان يقصدها المسافرون من العراق إلى مصر على البحر الأحمر لأنّهم كانوا يقصدون مصر براً وأقام فيها إلى أن وصل الأشتر فتقرَّب منه بما ذكره له من فضل سيدنا علي وبني هاشم وذمّ الأمويين حتى وثق به واطمأنَّ إليه فاحتال أن دسّ له السمّ في شرابه فمات وكان ذلك في اليوم الثالث لوصوله إلى الميناء التي كان يقصد منها مصر على السفن ثمَّ اختفى الرجل فلم يعثر عليه أصحاب الأشتر .

وكانت وفاة الأشتر سنة ٣٩ للهجرة ولما بلغ سيدنا علي نعيه أكبر المصاب فيه وجزع عليه وقال : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، اللهمَّ إنّي أحتسبه عندك فإنَّ موته من مصائب الدهر » قال هذا وبكى ثمَّ قال : « رحم الله مالكاً ، فقد وفّى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقي ربّه ، وقد وطنا أنفسنا أن نصبر على كلّ مصيبةٍ ، بعد مصابنا برسول الله ، فإنّها من أعظم المصيبات » اهـ .

وعلى ذكر الأشتر هذا يخلق بنا أن ننشر عهد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إليه عندما ولّاه مصر وفي هذا العهد من ضروب السياسة وفنون الحكمة في سياسة الرعية ما يخلق به أن يكتب على ألواح بماء الذهب ويعلق على جدران دور الحكام ليتأدبوا بأدبه ويعملوا به لتسعد الرعية وتعمر البلاد وهو وحده يشهد لسيدنا أمير المؤمنين بأنّه أفضل من حكم الناس وخير من جاءَ للحكم بالقسطاس وأحكم من سطر السياسة الحكيمة على صفحات القرطاس وهاك العهد .

=

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى مِنْ سَرْدِهَا بَدَرَتْـــهُ بِٱلصُّرَاخِ وَهَجْرُ ٱلْقَوْلِ فِيْ فِيْهَا
قَالَتْ: فَلاَ مُهْلَةٌ تُخْطِيْ خَطِيْئَتَكَ ٱلْـــكُبْرَى بِهَا فَلْيَخَفْ بَارِيْهِ مُخْطِيْهَا

العهد العلوي العظيم

(وهو أفضل ما كتب في سياسة الرعية على الخطط الديموقراطية)

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما أمـر به أميـر المؤمنين عبد الله علي بن أبو طالب ، مـالـك بن الحـارث الأشتر النخعي ، في عهده إليه ، حين ولّاه مصر ، جبـاية خـراجها ، وجهـاد عدوّهـا ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمر بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتّباع ما أمر به في كتابـه من فرائضـه وسننه ، التي لا يسعد أحد إلاّ باتّباعها ، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنَّه جلَّ اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزَّه .

وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ، ويزعها عند الجمحـات ، فإنَّ النفس أمَّـارة بالسوء إلاّ ما رحم الله .

ثمَّ اعلم يا مالك : إنّي قد وجّهتك إلى بلادٍ قد جرت عليهـا دول قبلك من عدلٍ وجور ، وأنَّ الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمـور الولاة قبلك ، ويقـولون فيـك ما كنتَ تقـول فيهم ، وإنّما يستـدلُّ على الصالحين بمـا يجري الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحبُّ الذخائر إليك ذخيرة العمـل الصالـح ، فاملك هـواك ، وشحَّ بنفسك ، على ما لا يحلُّ لك ، فإنَّ الشـحّ بالنفس الإنصـاف منها فيمـا أحبّت أو كـرهت ، وأشعر قلبـك الرحمـة للرعية والمحبـة لهم واللطف بهم ، ولا تكـونَنَّ عليهم سبعـاً ضاريـاً تغتنم أكلهم ، فإنّهم صنفـان : إمَّا أخ لـك في الدين ، أو نـظير لـك في الخلق ، يفـرط منهم الـزلـل ، وتعـرض لهم العلل ، ويؤتى على أيـديهم في العمـد والخـطأ ، فأعـطهم من عفوك وصفحـك ، مثل الـذي تحبُّ أن يعـطيـك الله من عفـوه وصفحه ، فإنَّك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من وَلَّاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم .

= ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنَّه لا يدي لك بنقمته ، ولا غنى لك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمنَّ على عفو ، ولا تبجحنَّ بعقوبةٍ ، ولا تسرعنَ إلى بادرةٍ وجدت منها مندوحةً ، ولا تقولنَّ إنّي مؤَمَّـر آمر فأطاع ، فإنَّ ذلك أدغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرُّب من القبر ، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مخيلةً ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك ، على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإنَّ ذلك يطامنُ إليك من طماحك ، ويكفُّ عنك من غربك ، ويفيء إليك بما غرب عنك من عقلك .

إيّاك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه في جبروته ، فإنَّ الله يذلُّ كلَّ جبار ، ويهين كلَّ مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصَّة أهلك ، ومن لك فيه هوىً من رعيتك ، فإنّك ألَّا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكانِ لله حرباً له حتى ينزع ويتوب ، وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من إقامةٍ على ظلم ، فإنَّ الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

ولكن أحبُّ الأمور إليك ، أوسطها في الحقّ ، وأعمّها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإنَّ سخط العامة ، يجحف برضى الخاصَّة ، وأنَّ سخط الخاصَّة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء ، وأقلَّ معونةً لهُ في البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصَّة ، وإنّما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ، العامَّة من الأمَّة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنؤهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس ، فإنَّ في الناس عيوباً الوالي أحقُّ مَن سترها ، فلا تكشفنَّ عمَّا غاب عنك منها ، فإنّما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحبُّ ستره من رعيتك . =

وَقَــالَ أَنْجَــابُكُمْ مَــاتَتْ وَوَاأَسَفَــا ... ه أَيُّ خَيْــرٍ لَيُــرْجَى مِنْ بَــوَاقِيْهَــا

= أطلق عن الناس عقدة كلِّ حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر ، وتغابَ عن كلِّ ما لا يصـحُّ لـك ، ولا تعجلنَّ إلى تصـديق سـاعٍ ، فـإنَّ السـاعي غـاشٌ وإن تشبّـه بالناصحين .

ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقـر ، ولا جبانـاً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإنَّ البخل والجبن والحرص غرائز شتَّى يجمعها سوء الظن بالله .

إنَّ شرَّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فـلا يكوننَّ لك بطانةً ، فإنَّهم أعـوان الأثمة ، وإخـوان الظلمـة ، وأنت واجد منهم خيـر الخلف ، ممن لـه مثل آرائهم ونفـاذهم ، وليس عليـه مثـل آصـارهم وأوزارهم ، ممن لم يعـاون ظـالماً على ظلمـه ، ولا آثمـاً على إثمـه ، أولئـك أخفُّ عليـك مؤونـةً ، وأحسن لـك معـونةً ، وأحنى عليـك عطفـاً ، وأقلُّ لغيـرك ألفاً ، فـاتّخـذ أولئـك خـاصَّـةً لخلواتـك وحفلاتك ، ثمَّ ليكن آثرهم عندك ، أقولهم بمرِّ الحقّ لك ، وأقلَّهم مساعدة فيما يكـون منك ، مما كره الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع .

والصق بأهل الورع والصدق ، ثمَّ رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك ببـاطلٍ لم تفعله ، فإنّ كثرة الإطراءِ تحدث الزهو ، وتدني من العزَّة .

ولا يكـون المحسن والمسيء عندك بمنـزلةٍ سـواء ، فإنَّ في ذلـك تزهيـداً لأهـل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءَة ، والزم كلًّا منهم مـا ألزم نفسـه ، واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته ، من إحسانه إليهم ، وتخفيفـه المؤنات عليهم ، وترك استكراهه إيّاهم ، على ما ليس قبلهم ، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإنَّ حسن الـظن يقطعُ عنـك نصباً طـويلاً ، وأنَّ أحقَّ من حَسن ظنك به ، لمن حسن بلاؤك عنده ، وأنَّ من ساء ظنك به لمن ساء بـلاؤك عنده . ولا تنقض سنةً صالحـةً عمل بهـا صدور هـذه الأمّة ، واجتمعت بهـا الألفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثنَّ سنـةً تضرُّ بشيء من مـاضي تلك السنن ، فيكون الأجـر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر مدارسة العلمـاء ، ومنافثـة الحكماء ، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . =

يَـا وَيْحَكُمْ أَخْبِـرُونِي عَنْ مَـوَاقِفِكُمْ   مَـتَى بِـحَقِّـكُمْ كُـنْـتُـمْ مُـحِـلِّيْـهَـا

= واعلم أنَّ الـرعيـة طبقـات ، لا يصلح بعضهـا إلاّ ببعض ، ولا غنى ببعضهـا عن بعضٍ ، فمنها جنود الله ، ومنهـا كتَّابُ العـامة والخـاصة ، ومنهـا قضاة العـدل ، ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزيـة والخراج من أهـل الذمّـة ومسلمة النـاس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنـة ، وكلٌّ قد سمى الله سهمه ، ووضع على حدّه فريضةً في كتابه أو سنـة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ، عهـداً منه عندنا محفوظاً .

فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الـولاة ، عزُّ الـدين وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلاّ بهم ، ثمَّ لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج الـذي يقوون به في جهاد عدوّهم ، ويعتمدون عليـه فيما يصلحهم ، ويكـون من وراء حاجتهم ، ثمَّ لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب ، لما يحكمـون المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً إلاّ بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعـون عليه من مـرافقهم ، ويقيمونـه من أسـواقهم ، ويكفونهم من التـرفق بأيـديهم ، ما لا يبلغـه رفق غيرهم ، ثمَّ الـطبقـة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقُّ رفدهم ومعونتهم ، وفي الله لكلٍّ سعة ، ولكلٍّ على الوالي حقٌّ بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك ، إلاّ بالإهتمـام والاستعانـة بالله ، وتـوطين نفسه على لـزوم الحقّ والصبر عليـه ، فيما خفَّ عليه أو ثقلَ ، فولِّ من جنودك ، أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامـك ، وأنقـاهم جيبـاً ، وأفضلهم حلمـاً ، ممن يبـطىءُ عن الـغضـب ، ويسـتـريـح إلى العـذر ،ويرأف بـالضعفاء ، وينبـو على الأقويـاء ، وممن لا يثيره العنف ، ولا يقعـد به الضعف .

ثمَّ الصق بذوي الأحساب ، وأهـل البيوتـات الصالحـة ، والسوابق الحسنـة ، ثمَّ أهـل النجدة والشجـاعة ، والسخـاءِ والسماحـة ، فإنّهم جمـاع من الكرم ، وشُعَب من العرف ، ثمَّ تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالـدان من والدهمـا ، ولا يتفاقمنَّ في نفسـك شيءُ قـويتهم به ، ولا تحقـرنَّ لطفـاً تعاهـدتهم به وإن قـلَّ ، فإنّـه داعية لهم إلى بـذل النصيحة لك ، وحسن الظنّ بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكـالاً على جسيمها ، فإنَّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . =

= وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته ، بما يسعهم ويسع من وراءَهم من خلوف أهليهم ، حتى يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدوّ ، فإنّ عطفك عليهم ، يعطف قلوبهم عليك .

وإنَّ أفضل قرَّة عين الولاة ، استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودَّة الرعية ، وأنّه لا تظهر مودَّتهم إلّا بسلامة صدورهم ، ولا تصحُّ نصيحتهم إلّا بحيطتهم على ولاة أمورهم ، وقلّة استثقال دولهم ، وترك استبطاءِ انقطاع مدتهم ، فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناءِ عليهم ، وتعديد ما أبلى ذوي البلاء منهم ، فإنَّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزُّ الشجاع ، وتحرّض الناكل إن شاء الله ، ثمَّ اعرف لكل امرىءٍ منهم ما أبلى ، ولا تضيفنَّ بلاءَ امرىءٍ إلى غيره ، ولا تقصرنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرىءٍ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرىءٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقومٍ أحبَّ إرشادهم **﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسول ﴾** فالردُّ إلى الله ، الأخذُ بمحكم كتابه ، والردُّ إلى الرسول ، الأخذُ بسنته الجامعة غير المفرّقة .

ثمَّ اختر للحكم بين الناس ، أفضل رعيتك في نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصرُ من الفيءِ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراءٌ ، ولا يستميله إغراءٌ ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل ما يزيل علته ، وتقلُّ معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإنَّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا .

ثمَّ انظر في أمور عمّالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محاباةً وأثرةً ، فإنّهم =

= جماع من شَعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياءِ ، من أهل البيوتات الصالحة ، والقدم في الإسلام المتقدمة ، فإنّهم أكرم أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامع أشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثمَّ أسبغ عليهم الأرزاق ، فإنَّ ذلك قوَّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإنّ تعاهدك في السرّ لأمورهم ، حدوة لهم على استعمال الأمانة ، والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان ، فإنّ أحد منهم بسط يده إلى خيانة ، اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة في بدنه ، وأخذته مما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإنَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم ، لأنَّ الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض ، أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأنَّ ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلاّ قليلاً ، فإن شكوا ثقلاً أو علةً ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلنَّ عليك شيءٌ خففت به المؤنة عنهم ، فإنّه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم ، بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عوَّلت فيه عليهم من بعد ، احتملوه طيّبة أنفسهم به ، فإنَّ العمران محتمل ما حملته ، وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنّما يعوز أهلها اشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنّهم بالبقاء ، وقلّة انتفاعهم بالعبر .

ثمَّ انظر في حال كتّابك ، فولِ على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك ، أجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ، ممن لا تبطره الكرامة ، فيجترىء بها عليك في خلافٍ لك بحضرة ملأٍ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، فيما يأخذ لك =

لَسْنَا نُطِيْعُكَ دَعْنَا مِنْكَ وَٱجْتَنِبَنْ   جَمَاعَةً لَسْتَ أَهْلاً أَنْ تُدَانِيْهَا

= ويعطي منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإنَّ الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل ، ثمَّ لا يكن اختيارك إيّاهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإنّ الرجال يتعرَّفون لفراسات الولاة بتصنعهم ، وحسن خدمتهم ، وليس وراءَ ذلك من النصيحة والأمانة شيءٌ ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإنَّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمرٍ من أمورك رأساً منهم ، لا يقهره كبيرها ، ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان في كتَّابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته .

ثمَّ استوص بالتجار وذوي الصناعات ، وأوصِ بهم خيراً ، المقيم منهم ، والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه ، فإنّهم مواد المنافعِ ، وأسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في برِّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترؤون عليها ، فإنّهم سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أنَّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحّاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضرةٍ للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإنَّ رسول الله ﷺ منع منه ، ولكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرةً بعد نهيك إيّاه ، فنكل به ، وعاقبه من غير إسراف .

ثمَّ الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى والزّمنى ، فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً ، واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلّات صوافي الإسلام في كل بلد ، فإنَّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكلٌّ قد استرعيت حقّه ، فلا يشغلنّك عنهم بطر ، فإنَّك لا تعذر بتضييع التافه ، لأحكامك الكثير المهمّ ، فلا تشخص همّك عنهم ، ولا تصعّر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم ، ثمَّ اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه ، فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكلٌّ ، فاعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه ، وتعهد أهل =

= اليتم ، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيلٌ ، وقد يحفظه الله على أقوام طلبوا العاقبة ، فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعد الله لهم .

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً ، فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع ، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن ، (لن تقدّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القويّ غير متتعتع) ، ثمّ احتمل الخرق منهم والعيَّ ، ونحّ عنهم الضيق والأنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئاً ، وامنع في إجمال وأعذار .

ثمَّ أمور من أمورك لا بدَّ من مباشرتها ، منها إجابة عمّالك بما يعيا عنه كتّابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك ، بما تحرج به صدور أعوانك ، وأمض لكل يومٍ عمله ، فإنَّ لكل يومٍ ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلّها لله ، إذا صلحت فيها النيّة ، وسلمت منها الرعية .

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك ، إقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فاعط الله من بدنك ، وفي ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقرَّبت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلومٍ ولا منقوص ، بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت في صلاتك للناس ، فلا تكوننَّ منفراً ولا مضيعاً ، فإنَّ في الناس من به العلة ، وله الحاجة ، وقد سألتُ رسول الله ﷺ حين وجّهني إلى اليمن كيف أصلّي بهم ؟ فقال (صلِّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيماً) .

وأمّا بعد هذا ، فلا تطولنَّ احتجابك عن رعيتك ، فإنَّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشابُ الحقُّ بالباطل ، وإنّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحق سمات تعرفُ بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنّما أنت أحد رجلين ، أمّا امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ، ففيمَ احتجابك ، من واجب حقّ =

=تعطيه ، أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كفُّ النـاس عن مسألتـك ، إذا أيسوا من بَذلِك ، مع أنَّ أكثر حاجات الناس إليك ، مما لا مؤونـة فيه عليـك ، من شكاة مظلمة ، أو طلب إنصاف في معاملة .

ثمَّ إنَّ للوالي خاصة وبـطانة ، فيهم استئثـار وتطاول ، وقلّة إنصـاف في معاملة ، فـاحسم مـادةَ أولئك بقـطع أسبـاب تلك الأحـوال ، ولا تقـطعنَّ لأحـد من حـاشيتـك وخاصتك قـطيعةً ، ولا يـطمعنَّ منك في اعتقـاد عقدة تضـرُّ بمن يليها من النـاس ، في شربٍ أو عملٍ مشتـركٍ يحملون مؤونته على غيـرهم ، فيكون مهنـأ ذلك لهم دونـك ، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة .

والزم الحقَّ من لزمه من القريب والبعيـد ، وكن في ذلك صـابراً محتسبـاً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عينك منه ، فإنَّ مغبّة ذلك محمودة .

وإن ظنّت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم بأسحارك ، فإنَّ في ذلك ريـاضة منـك لنفسك ، ورفقـاً برعيتـك ، وأعذاراً تبلغ بـه حاجتـك ، من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوُّك ولله فيه رضى ، فإنَّ في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبـلادك ، ولكن الحذر كـل الحذر من عـدوّك بعد صلحـه ، فإنَّ العدوَّ ربما قارب ليتغفل ، فخذ بـالحزم واتهم في ذلـك حسن الظنّ ، وإن عقـدت بينـك وبين عدوك عقـدةً ، أو ألبسته منـك ذمَّةً ، فحط عهـدك بـالـوفـاءِ ، وارع ذمتـك بالأمانة ، واجعل نفسـك جُنَّة دون مـا أعطيت ، فـإنّه ليس من فـرائض الله شيء الناس أشدُّ عليه اجتماعاً ، مع تفرُّق أهـوائهم ، وتشتت آرائهم ، من تعظيم الـوفاءِ بـالعهود ، وقد لزم ذلك المشركـون فيما بينهم دون المسلمين ، لمـا استوبلوا من عـواقب الغدر ، فلا تغدر بذمتك ، ولا تخيسنَّ بعهـدك ، ولا تختلنَّ عدوَّك ، فـإنّه لا يجتـرىءُ على الله إلَّا جاهل شقي ، وقد جعل الله عهـده وذمته أمنـاً أفضاه بين العبـاد برحمتـه ، وحريمـاً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ، فـلا أدغال ولا مـدالسة ولا خـداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل ، ولا تعـولنَّ على لحنِ قول بعـد التأكيـد والتوثقـة ، ولا يدعونك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغيـر الحق ، فإنَّ صبـرك على =

وَأَوْقَـظَتْ فِتْنَـةٌ شَعْـوَاءُ وَٱلْتَهَبَتْ   نِيْـرَانُهَـا وَعَـلِيٌّ هَـمَّ يُـطْفِيْـهَـا

= ضيق أمرٍ ترجو انفراجه ، وفضل عاقبته ، خير من غدرٍ تخاف تبعته ، وأن تحيط بك من الله طلبة ، لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء وسفكها بغير حلّها ، فإنّه ليس شيءٌ أدعى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى لزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماءِ بغير حقها ، والله سبحانه مبتدىءٌ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرامٍ ، فإنَّ ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي ، في قتل العمد ، لأنَّ فيه قود البدن ، وإن ابتليت بخطأ ، وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة ، فإنَّ في الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحنَّ بك نخوة سلطانك ، عن أن تؤدّي إلى أولياءِ المقتول حقّهم .

وإيّاك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها ، وحبَّ الإطراء ، فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ، ليمشق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإيّاك والمنَّ على رعيتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فإنَّ المنَّ يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ .

وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التسقط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل أمر موقعه .

وإيّاك والإستئثار بما الناس فيه أسوة ، والتغابي عمّا تعنى به ممّا قد وضح للعيون ، فإنّه مأخوذ منك لغيرك ، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، ويُنتصف منك للمظلوم ، أملك حمية أنفك ، وسورة حدّك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك ، واحترس من كل ذلك ، بكفّ البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك ، فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك ، بذكر المعاد إلى ربّك .

والواجب عليك أن تتذكُر ما مضى لمن تقدّمك ، من حكومة عادلة ، أو سنّة فاضلة ، أو أثر عن نبينا ﷺ ، أو فريضة في كتب الله ، فتقتدي بما شاهدت مما =

فَصَاحَ بِٱلْقَوْمِ لَا تُعْطُوْا نُفُوْسَكُمُ أَهْوَاءَهَا حَسْبُهَا مُؤْذِي تَلَاحِيْهَا
فَقَالَ مَالِكُ: بَادِرْ بِٱلصُّفُوْفِ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى ٱلْأَعْدَا لِتُرْدِيْهَا
فَصَاحَتِ ٱلنَّاسُ: رَاضِيْ ٱلْمُرْتَضَى بِحُكُوْ مَةِ كِتَابُ إِلٰهِ ٱلْعَرْشِ قَاضِيْهَا
ثُمَّ تَوَالَى صِيَاحُ ٱلنَّاسِ: إِنَّ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ ٱرْتَضَاهَا لَا تُؤَنِّبْهَا
وَكَانَ حَيْدَرَةٌ وَسْطَ ٱلْمَشَاغِبِ فِيْ حَالٍ مِنَ ٱلْهَمِّ هَالَتْ قَلْبَ رَائِيْهَا
فَلَمْ يَفُهْ وَهْوَ سَاهٍ سَاكِتٌ يَتَرَ وَّى بِٱلْحُكُوْمَةِ يُلْفِيْ ٱلْمَكْرَ غَاشِيْهَا
حَتَّى إِذَا خَفَتَتْ صَيْحَاتُهَا نَهَضَ ٱلْإِ م مَامُ يَخْطُبُ فِيْهَا وَهْوَ رَانِيْهَا
فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَمْرِيْ لَمْ يَزَلْ مَعَكُمْ كَمَا أُحِبُّ بِكُمْ نَفْسِيْ أُهَنِّيْهَا
إِلَى مَوَاقِفِنَا ذَا ٱلْيَوْمَ حَيْثُ رَأَيْـــنَا ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكْثَرَتْ فِيْكُمْ أَضَاحِيْهَا
وَإِنْ تَكُنْ أَخَذَتْ ذِيْ ٱلْحَرْبُ مِنْكُمُ لٰـــكِنْ فِيْ عِدَاتِكُمْ أَرْبَى تَقَصِّيْهَا
قَدْ أَنْهَكَتْهَا وَأَنْكَتْ فِيْ جَمَاعَتِهَا وَخَلَّفَتْهَا يَخَافُ ٱلْقَهْرَ طَاغِيْهَا
أَنَا عَلَيْكُمْ قَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَآمَالِيْ أُجَرِّيْهَا
فَصِرْتُ ذَا ٱلْيَوْمَ مَأْمُوْراً أُنَفِّذُ أَطْـــمَاعاً لَكُمْ وَأَمَانِيكُمْ أُوَاتِيْهَا
إِنَّ ٱلْبَقَاءَ لَقَدْ أَحْبَبْتُمُ وَأَنَا مَا عُدْتُ أَمْنَعُ عَنْ رُغْبَى مُحِبِّيْهَا

= علمنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هذا ، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك ، لكيلا تكون لك علة عند تسرّع نفسك إلى هواها .

وأنا أسأل الله ، بسعة رحمته ، وعظيم قدرته ، على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه ، من الإقامة على العذر الواضح إليه ، وإلى خلقه ، مع حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، وتمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة ، إنا لله وإنّا إليه راجعون ، والسلام على رسول الله صلّى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين ، وسلّم تسليماً كثيراً والسلام اهـ .

وَلَمْ يُزِدْ فَوْقَ هٰذَا ٱلْمُرْتَضَى فَكَفَى بِــهِ ٱلْخُصُــوْمَــةَ بَــاغِيْهَــا وَآبِيْهَــا
وَأَبْــدَتِ ٱلْــقَــوْمُ آرَاءً مُــنَــوَّعَــةً هَيْهَاتَ مَا جُلِيَتْ عَنْهَا غَـوَاشِيْهَا
نَمَّتْ عَلَى فِرْقَةٍ بِـالـرَّأْيِ مُفْضِيَـةٍ إِلَى بُلُوْغِ ٱلْعِــدَى أَقْصَى أَمَانِيْهَـا

الرضـــاء بالتحكيــم

وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ فِيْ هٰذَا ٱلتَّضَارُبِ بِٱلآ م رَاءِ مِنْ غَيْـرِ أَنْ يَـرْفُضَ نَــادِيْهَـا[1]
وَإِذْ بِصَـائِحِ أَهْـلِ ٱلشَّامِ يَـطْلُبُهَـا إِلَى ٱلْحُكُـوْمَةِ يَسْتَهْـوِيْ مُـرِيْـدِيْهَـا

---

(١) وبينما كان الشغب على أشدّه بين أصحاب سيدنا علي عليه السلام وإذ برسول من قبل معاوية قدم عليه برقعة منه فيها يقول : « أمّا بعد ، فإنَّ هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكلٌّ واحدٍ منّا يرى أنّه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر ، وقد قتل فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقي أشدَّ مما مضى ، وأنّا سوف نسأل عن هذه المواطن ، ولا يُحاسب غيري وغيرك ، وقد دعوتك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعذر ، وبراءة وصلاح للأمّة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ، وذلك أن نحكّم بيني وبينك حكمين مرضيين ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خير لي ولك ، وأقطع لهذه الفتن ، فاتّقِ الله فيما دعيتَ إليه ، وارضَ بحكم القرآن ، إن كنت من أهله ، والسلام » اهـ .

قرأ المرتضى عليه السلام كتاب معاوية جهراً على الناس فازدادت به إصراراً على طلب التحكيم وأرغت وأزبدت على من لا يريده حتى تغلب رأي الذين يريدونه على رأي الذين يرفضونه حينئذٍ حوقل عليه السلام واسترجع وكتب إلى معاوية هذا الجواب « من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، أمّا بعد ، فإنَّ أفضل ما شغل به المؤمن نفسه ، اتّباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه ، وإنَّ البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا ، فإنّه لا فرح في شيءٍ وصلت إليه منها ، ولقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته ، وقد أقام قوم أمراً بغير الحق ، وتأوّلوه على الله جلَّ وعزَّ ، فأكذبهم ، ومتعهم قليلاً ثمَّ اضطرَّهم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من حمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ، وغرَّته الدنيا =

بِـرُقْعَةٍ كَـانَ مُـوْفِيْهَـا مُعَـاوِيَـةٌ إِلَى آلْـوَصِيِّ يُرِيْـدُ آلْكَيْـدَ مُـوْفِيْهَـا

يَقُـوْلُ : بَـادِرْ عَلِيُّ لِلْحُكُـوْمَـةِ كَيْ نَكْفِيْ آلْبَـرِيَّـةَ أَهْـوَالاً تُعَـانِيْهَـا

وَأَنْتَ أَفْضَـلُ مَنْ يَتْقِيْ أَوَامِـرَ بَـا رِيْـهِ أَلَيْسَ حَـرِيٌّ أَنْ تُـؤَاتِـيْـهَـا

وَأَنْتَ مِثْلِيَ مَسْـؤُوْلٌ وَحَقِّـكَ عَـنْ هٰـذِيْ آلدِّمَـاءِ آلَّتِيْ بِآلـظُّلْمِ نُمْنِيْهَا

أَسْرِعْ إِلَى دَعْوَةٍ قَـدْ جِئْتُ أَنْشُدُهَـا فَـآلصَّفْـوُ مَـا بَيْنَنَـا لاَ شَـكَّ تَـالِيْهَـا

وَآقْبَـلْ قُبُوْلِيَ أَحْكَـامَ آلشَّرِيْعَـةِ وَهْــــيَ آلْعَدْلُ إِنْ كُنْتَ حَقَّاً مِنْ أَهَـالِيْهَا

وَعِنْـدَمَا كَـانَ يَقْرَا آلْمُـرْتَضَى عَلَنَـاً تِلْكَ آلـرِّسَـالَـةَ يَسْتَجْلِيْ خَـوَافِيْهَـا

كَـانَتْ صَحَابَتُـهُ تُـرْغِيْ وَتُـزْبِـدُ مِنْ حَـوْلَيْـهِ قَـائِلَةً: مَـا آلْحَـرْبُ نَبْغِيْهَـا

وَقَدْ أَصَرَّتْ بِـلاَ فِكْرٍ عَلٰى طَلَبِ آلـــتَّحْكِيْمِ لَمْ يَـكُ مَنْ يُثْنِيْ مُصِرِّيْهَـا

وَقَـدْ تَغَلَّبَ رَأْيُ آلْـقَـائِلِيْـنَ بِهِـدْ نَـةِ آلشَّـآمِ عَلٰى مَنْ لَيْسَ رَائِيْهَـا

فَحَـوْقَلَ آلْمُـرْتَضَى وَآلنَّاسُ تُكْـرِهُهُ عَلٰى مُسَـايَـرَةِ آلْأَعْــدَاءِ تَكْـرِيْهَـا

وَخَطَّ أَسْــطُرَهُ فِيْهَـا يُـجِيْـبُ عِــدَا هُ لِلْحُكُــوْمَـةِ كُــرْهَـاً وَهْــوَ آبِيْهَـا

فَقَالَ: يَا آبْنَ أَبِيْ سَفْيَانَ أَفْضَلُ مَا آلإِ م نْسَـانُ يَشْغُـلُ فِيْــهِ آلنَّفْسَ يُـرْبِيْهَـا

هُـوَ آتِّبَـاعُ آلَّـذِيْ يَحْلُوْ وَيَحْسُنُ مِنْ خَيْــرِ آلْفِعَـالِ بِــهِ يَغْنَـا لِيَـأْتِيْهَـا

بِهَـا لَقَــدْ يَتَبَـدَّى فَضْلُهُ وَعُـيُـوْ بُـهُ وَإِنْ كَثُـرَتْ حَتْمَـاً تُـوَارِيْهَـا

وَآلْبَغْيُ وَآلزُّوْرُ فَآعْلَمْ يُـزْرِيَانِ بِدِيْـــنِهِ وَدُنْيَـاهُ وَآلآثَـامُ يَجْنِـيْـهَـا

= واطمأنّ إليها ، ثمَّ أنّك قد دعوتني إلى حكم القرآن ، وقد علمتُ أنّك لست من أهله ، ولا حكمه تريد ، والله المستعان ، ولقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولسنا إيّاك أجبنا ، ومن لم يرضَ بحكم القرآن فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ، والسلام » اهـ .

وعلى أثر هذا الكتاب والجواب تفاهم الفريقان على اختيار نوّاب عنهم يتذاكرون بتعيين الحكمين للوصول إلى الصلح على ما سترى . .

حَذَارِ دُنْيَاكَ مَا مِنْهَا وَصَلْتَ إِلَيْـــهِ مَا بِهِ فَـرَحٌ وَآزْهَـدْ مَـلاَهِيْهَـا

وَقَدْ عَلِمْتَ مُنَاكَ آلْكُثْرَ ضَائِعَةً وَبَعْـدَ يَـوْمِـكَ أَبْعِدْ أَنْ تُـلاَقِيْهَـا

وَإِنَّ قَـوْمَاً بِغَيْـرِ آلْحَقِّ قَـدْ طَلَبَتْ أَمْـرَاً وَطَلْبَتُهَـا هَيْـهَـاتَ تُلْفِـيْهَـا

لَهُ تَأَوَّلَتِ آلْكِـذْبَ آلصُّرَاحَ عَلَى آلْـــبَارِيْ وَآيَاتِـهِ قُـلْ جَـلَّ مُـوْحِيْهَـا

وَآللَّهُ أَكْـذَبَهَـا وَآلْـبُـطْلُ مَتَّعَهَـا هَـوْنَاً بِمَـا شَهِيَتْـهُ مِنْ أَمَـانِيْهَـا

فَـآضْطَرَّهَـا لِعَذَابَـاتِ آلْجَحِيْمِ وَيَـا وَيْـلٌ لِمَنْ فِيْ مَسَاوِيْـهِ يُـلاَقِيْهَـا

فَـآحْذَرْ مَـوَاقِفَ يَوْمٍ لاَ آغْتِبَـاطَ بِـهِ إِلاَّ لِمَنْ حُمِـدَتْ أَعْمَـالُـهُ فِيْهَـا

إِذْ ذَاكَ يَنْدَمُ مَنْ أَلْقَى آلْقِيَادَ إِلَى آلْـــشَّيْطَانِ يُنْفِـذُ أَغْـرَاضاً يُـوَخِّيْهَـا

إِذِ آطْمَــأَنَّ إِلَى آلـدُّنْيَـا وَغُـرَّ بِهَـا وَبَـاتَ مُـزْدَرِيَ آلأُخْـرَى وَنَـاسِيْهَـا

لِحُكْمِ آيَاتِ رَبِّيْ قَـدْ دَعَـوْتَ وَأَدْ رِيْ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا بَلْ لَسْتَ تَبْغِيْهَا

فَـآللَّهُ سُبْحَـانَـهُ عَـوْنِيْ عَلَيْكَ وَمَـا مَعُـوْنَـةُ آللَّهِ غَيْـرُ آلْبِـرِّ يَقْنِـيْهَـا

وَمَـا أَجْبَنَـاكَ كَـلاَّ يَـا مُعَـاوِيَـةُ بَـلْ آيَـهُ عَنْ تُقَىً بِتْنَـا مُجِيْبِـيْهَـا

وَمَنْ أَبَى حُكْمَ آيِ آللَّهِ ضَـلَّ وَمَنْ بِـهِ آرْتَضَى فَهْوَ خَيْـرُ آلنَّاسِ تَـاقِيْهَا

وَبَعْـدَ ذَاكَ بَـدَا حُسْنُ آلتَّفَـاهُمِ مَـا بَيْنَ آلْخُصُـوْمِ عِـرَاقِيْهَـا وَشَـامِيْهَـا

وَقَـدْ أَنَـابَتْ لِتَنْفِيْـذِ آلْحُكُـوْمَـةِ عَنْـــهَا نَـوْبَـةً قَـالَتِ آلْقُـرْآنُ يَهْـدِيْهَـا

تعييــن الحكميــن

وَفِيْ آلْمُـوَادَعَةِ آلْكُبْـرَى تَوَسَّطَ أَشْـــعَثٌ لِتَجْرِيْ صَفَاءً فِيْ مَجَارِيْهَا[1]

فَكَـانَ يُـظْهِـرُ إِخْـلاَصَـاً لِحَيْـدَرَةٍ وَإِنَّ أُمْـرَتَـهُ يَـبْغِـيْ تَـعَـالِـيْهَـا

---

(١) عندما تمَّ التفاهم بين سيدنا علي ومعاوية وأقرَّ أصحابهما على التحكيم تقدم الأشعث من أمير المؤمنين عليه السلام وكان من جملة أصحابه وقال له : يا أمير المؤمنين ، ما=

فَجَـاءَهُ قَـائِـلاً آذِنْ فَـأَذْهَبُ لِأَسْـتِفْسَـارِ نِيَّـاتِ أَهْـلِ ٱلشَّـامِ أَئْتِيْهَـا

= أرى الناس إلاَّ قد رضوا ، وسرَّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ، ونظرتُ فيما يسأل . قال : آتـه إن شئت . فسار الأشعث إلى معاوية وهو في معسكره وسأله قـائلاً : لمـاذا رفعتم هذه المصـاحف ؟ قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به ، فابعثوا رجلاً منكم تـرضونٍ بـه ، ونبعث منّا رجلاً ، ونأخذُ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ، ولا يعـدوانه ، ثمَّ نتبـع ما اتفقـا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحقّ ، ولكن ألا ترى أن تعتمد على قوم من فقهائنـا ، يختـارون من ينوب عنّـا ، وتفعلون أنتم كذلـك ؟ قال معـاوية : لا بـأسَ بهـذا . فعـاد الأشعث إلى أميـر المؤمنين وأنبـأه بمـا كـان من أمـره مـع معـاويـة فلم يعـارض وسمّى أصحاب سيدنا علي نفراً من فقهائهم وأرسلوا إلى معاوية فسمّى هو أيضاً نفراً من فقهـاء أصحابه وأطلق على هؤلاء وأولئك اسم القرّاء أي الذين يقرأون القرآن ويلمّون بأحكامه واجتمع هؤلاء القراء عراقيهم وشاميهم بين الصفوف ومعهم المصحف الشريف فنـظروا فيه وتدارسوا وتعهدوا على إحيـاء ما أحيـا القرآن وإمـاتة مـا أمات القـرآن وأقسموا على المصحف الشريف ورجع كلّ فريق من هؤلاء القرّاء إلى صاحبه .

أمّـا قرّاء الشـام فنادوا بعمـرو بن العاص حكمـاً عنهم فرضيـه معاويـة بل قـل إنَّ معاوية كان الموعز إليهم به وكان ذلك في حال وصولهم إلى معاوية كأنّهم متفقون عليـه من قبل وطار خبره في الحال إلى أميـر المؤمنين . وأمّا قـرّاء العراق فـإنّهم عندمـا بلغوا مجلس أميـر المؤمنين عليه السلام نـادوا بـاسم أبي مـوسى بن قيس الأشعـري حكمـاً ينـوب عنهم . فقال علي : إنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه فقـال الأشعث وزيد بن الحصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القرَّاء إنَّا لا نرضى إلاَّ به فـإنَّه قـد كان حـذّرنا مما وقعنا فيه . فقال علي إنّه ليس لي برضى وقد فارقني وخذل الناس عنّي وهـرب مني حتى أمنته بعد خمسة أشهر (وذلـك بعد انتهـاء موقعـة الجمل وذهـاب سيدنـا علي من البصرة إلى الكوفة) ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . قالوا والله ما نبـالي أكنتَ أنتَ أو ابن عباس ولا نريد إلاَّ رجلاً هو منك ومن معاوية سـواء ليس إلى واحد منكمـا أدنى من الآخـر . قـال علي فـإنّي أجعـل الأشتـر . فقـال الأشعث وهـل سعـر الأرض علينـا إلاَّ الأشتر ؟ وهل نحن إلاّ في حكم الأشتر ؟ قال علي ومـا حكمه ؟ قـال الأشعت ، حكمه أن يضـرب بعضنـا بعضـاً بـالسيف حتى يكـون مـا أردتَ ومـا أراده فتبسم سيـدنـا أميـر =

فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ سِرْ يَا صَاحِ فَٱنْصَرَفَ ٱلْوَ سِيْطُ نَحْـوَ ٱلْأَعَـادِيْ فِيْ مَثَاوِيْهَـا[1]

= المؤمنين وقال : إنَّ معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص وأنه لا يصلح للقرشي إلّا مثله فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به ، فإنَّ عمراً لا يعقد عقدةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يحلُّ عقدةً ، إلّا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلّا نقضه ، ولا ينقض أمراً إلّا أبرمه . فقال الأشعث لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن نجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر . فقال علي إنّ أخاف أن يُخدع يمنيكم فإنّ عمراً ليس من الله في شيء ، إذا كان له في أمرٍ هوى . فقال الأشعث والله لئن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبُّ في حكمهما وهما مضريان . فقال أمير المؤمنين عليه السلام وهو يجيل عينيه الكريمتين فيمن حوله من القرّاء قد أبيتم إلّا أبا موسى الأشعري ؟ قالوا نعم . قال فاصنعوا ما شئتم . فاعترضهم الأشتر وقال يا أمير المؤمنين الزنيّ عمرو بن العاص فوالذي لا إلّه غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنه . وقال الأحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين إنّك رُميتَ بحجر الأرض ، ومن حارب الله ورسوله ، وأنف الإسلام ، وإنّي قد عجنت هذا الرجل ، (ويريد أبا موسى) وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب المقعر ، وإنّه لا يصلح لهؤلاء القوم إلّا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم ، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم ، فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني ، وإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً ، فإنَّ عمراً لا يعقد عقدةً إلّا حللتها ، ولا يحلُّ عقدةً إلّا عقدت لك أشدَّ منها . فعرض سيدنا علي هذا على القرّاء فأبوه وقالوا لا يكون حكمنا إلّا أبا موسى . فقال سيدنا أمير المؤمنين موجهاً خطابه إلى الأشتر وحنيف بن قيس : إنّ القوم أتوني بعبد الله بن قيس مبرنساً فقالوا ابعث هذا رضينا به والله بالغ أمره . قال عليه السلام هذا ومال للقرّاء قائلاً : ائتوني بصاحبكم .

وكان أبو موسى معتزلاً القتال منزوياً بإحدى جهات الشام فبعثوا إليه رسولاً فأسرع إلى صفّين فأبلغه سيدنا علي وقوع اختيار أصحابه عليه وطلب منه أن يكون عند ظنّهم به فأقسم أن يكون صادقاً مخلصاً لا يحكم إلّا بما يحكم به القرآن .

ومن تأمّل هذا عرف حال أصحاب سيدنا علي وما كانوا عليه من شتات الرأي فلا عجب إذا وقع اختيارهم على رجل أقلّ ما يقال فيه أنّه كان معتزلهم وهم يقاتلون . كما=

لَاقَى مُعَاوِيَةً فِيْهَا وَأَنْبَأَ وَآسْتَنْبَا وَجَاءَ ذَوِيْهِ وَهْوَ مُنْبِيْهَا

=لا بدَّ لنا من الإشارة إلى أنّ القوم كانوا يحاولون أن لا يدعوا السلطان في قريش وكانت فكرتهم هذه هي التي أوجدت في نفوسهم الرغبة بأبي موسى كما نقول إنّ هؤلاء الذين أصرّوا على اختيار أبي موسى الأشعري لهذه المهمة هم زعماء الخوارج الذين خرجوا فيما بعد على أمير المؤمنين بحجّة أنّه رضي بالتحكيم ورضي بأبي موسى الأشعري حكماً مع أنّهمَ هم الذين أكرهوه على كل ذلك إكراهاً والأمر لله من قبل ومن بعد .

« ترجمة الأشعث »

هو أبو محمد معدي كرب الملقب بالأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتّع بن معاوية بن ثور بن عفير الكندي الصحابي . وأمّه كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرىء القيس بن عمرو مقصور الملك .

عرفنا الأشعث في الجاهلية شجاعاً نبيلاً وحدث أنَّ بني مراد قتلوا قيساً أبا الأشعث في بعض حروبهم فخرج الأشعث لطلب ثأر أبيه وخرجت معه كندة فاخطوا أعداءَهم بني مراد ووقعوا على بني الحارث بن كعب فدارت الدائرة عليهم وأسر الأشعث وافتدى نفسه إذ كان غنياً بثلاثة آلاف بعيراً وهي فدية عظيمة لم يفد بها عربي قبله ولا بعده فقال في ذلك عمرو بن معدي كرب الزبيدي :

فكان فداؤه ألفي بعيرٍ وألفاً من طريقاتٍ وتلدِ

وحدث أنّ كندة قدموا حجاجاً قبل الهجرة فعرض رسول الله نفسه عليهم كما كانت عادته صلى الله عليه وآله وسلم يعرض نفسه على القبائل فدفعه بنو وليعة من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه فلما هاجر إلى المدينة المنوَّرة وتمهَّدت دعوته وجاءته وفود العرب كان فيهم وفد كندة وفيهم بنو وليعة فأسلموا فأطعمهم رسول الله طعمةً من صدقات حضرموت . وكان قد استعمل المصطفى على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري فدفعها زياد إليهم فأبوا أخذها وقالوا لا ظهر لنا فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك فأبى زياد وحدث بينهم وبينه شرٌّ كاد يكون حرباً . فرجع قوم منهم إلى رسول الله وكتب زياد إليه صلى الله عليه وآله وسلم بما جرى فقال المصطفى لبني وليعة « لتنتهنَّ يا بني وليعة ، أو لأبعثنَّ عليكم=

= رجلاً عديل نفسي ، يقتل مقاتلكم ، ويسبي ذراريكم » وكان في مجلس المصطفى وقتئذٍ عمر بن الخطاب وقد روى هذه الحادثة فقال : « فما تمنيت الأمارة إلاّ يومئذٍ ، وجعلت أنصب له صدري ، رجاء أن يقول هو هذا ، فأخذ بيد علي عليهما الصلاة والسلام وقال : هو هذا » ثمَّ كتب لهم رسول الله كتاباً إلى زياد يحسم المشكلة . وكان في جملة وفد كندة الأشعث فأسلم معهم .

وعندما توفي المصطفى ﷺ وطار الخبر إلى قبائل العرب ارتدت بنو وليعة عن الإسلام وتحنَّث بغاياهم وخضبن أيديهنَّ شماتة بموته فأمّر أبو بكر زياداً على حضرموت وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم فبايعوه إلاَّ بني وليعة فلمّا خرج ليأخذ الصدقات من بني عمرو بن معاوية أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حجر فمنعه الغلام عنها وقال له خذ غيرها فأبى زياد ذلك ولجَّ فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حجر وانتهى الخلاف إلى إعلان بنو وليعة ردّتهم ومحاربة زياداً وأصحابه فقتل خلق كثير وكانت الغلبة للمسلمين واستغاث بنو وليعة بالأشعث فقال لا أغيثكم إلاّ إذا ملكتموني عليكم فملّكوه وتوَّجوه كما تتوَّج ملوك قحطان فخرج إلى زياد في جمع كثيف واستنجد زياد بأبي بكر فكتب هذا إلى مهاجر بن أبي أمية وكان عامله على صنعاء يأمره بنجدة زياد فأسرع إلى حضرموت وأنجد زياداً وحارب الأشعث وأصحابه وقهرهم ولجأ الأشعث ومن سلم من أصحابه إلى الحصن المعروف « بالنجير » فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى جاعوا وضعفوا فنزل الأشعث ليلاً إلى زياد ومهاجر وسألهما الأمان على نفسه مع عشرة من أصحابه حتى يقدما بهم على أبي بكر فأعطياه الأمان له ولمن طلب فسلمهما الحصن فدخلاه بالمسلمين وقالوا للأشعث أعزل أصحابك العشرة فعزلهم وقتلوا الباقين وكانوا ثمانماية وقطعوا أيدي النساء اللواتي أظهرن الشماتة بموت رسول الله وحملوا الأشعث إلى أبي بكر مصفداً بالحديد مع أصحابه العشرة فعفا عنه وعنهم . وأزاد أبو بكر في إكرام الأشعث وتأليف قلبه فأزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة وكانت عمياء فولدت له محمداً واسماعيل وإسحاق قالوا وخرج الأشعث يوم بنائه على أمّ فروة إلى أسواق المدينة فما مرَّ بذات أربع إلاَّ عقرها وقال لصاحبها هذه وليمة البناء وثمنها في مالي ودفع أثمانها إلى أربابها . وقال أبو جعفر محمد بن جرير في تاريخه وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وتلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه « عرف النار » وهو إسم للغادر عندهم . =

= واعتمد أبو بكر على الأشعث في حروبه وكذلك عمر بن الخطاب لأنّه كان باسلاً شجاعاً فشهد وقعة اليرموك في الشام ومواقع القادسية والعراق والمدائن وجلولاء ونهاوند وأبلى فيها البلاء الحسن وذلك على عهد عمر بن الخطاب .

وعندما أفضت الخلافة إلى عثمان ولّاه آذربيجان وكان له من خراجها ألف درهم سنوياً ثمَّ عزله عنها بعد سنوات وكان قد أثرى فانتقل إلى الكوفة وسكنها على أنّه ظلَّ على ولاء الأمويين فلم يشترك في ثورة الكوفيين ضد عثمان ولا اشترك في حرب الجمل بل تثاقل عنها . وقد انضمَّ إلى سيدنا أمير المؤمنين عندما دخل الكوفة بعد حرب الجمل وأصبح من رجاله واشترك معه في حرب صفين وكان له في استخلاص الماء من رجال معاوية شجاعة وعزيمة تحمدان كما حارب رجال معاوية بعد ذلك بإخلاص حتى إذا ما رفعت المصاحف كان على رأس القائلين بضرورة إجابة أهل الشام إلى التحكيم وعرض نفسه للوساطة بين سيدنا أمير المؤمنين ومعاوية وهو الذي أوجد فكرة تعيين أبي موسى الأشعري حكماً عن أهل الشام وكان على رأس القائلين به وذلك لأنّه يمانيٌّ مثله على أنّه كان في مقدمة النادمين على هذا الخطأ العظيم الذي ارتكبه أصحاب سيدنا علي بانتخاب أبي موسى وإكراه سيدنا علي عليه السلام على قبوله . وحضر الأشعث اجتماع دومة الجندل ثم عاد بعد ظهور حيلة عمرو بن العاص إلى الكوفة وهو ناقم على أهل الشام وعلى التحكيم وعلى كل ما جرى وقتئذٍ فجرَّ ما جرَّ من القلاقل والفتن على المسلمين فبرهن على أنّه كان من المنافقين أولاً وأخيراً .

ومما يذكر أنّ سيدنا أمير المؤمنين بينما كان مرةً في المسجد يخطب في موقعة صفين وأمر الخوارج يقلق خاطره الشريف ويزعجه أيّما إزعاج قام رجل من أصحابه وقال له نهيتنا عن الحكومة ثمَّ أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أسدُّ . فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال : « هذا جزاء من ترك العقدة » وأراد بقوله الشريف بالذي ترك العقدة جماعة المشاغبين الذين أصرّوا على قبول التحكيم ورفضوا قبول نصحه . وكان في المسجد الأشعث فحسب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد بقوله نفسه بأنّه هو الذي ترك العقدة فنال جزاءَه وصاح : « يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك » فغضب عليه السلام وخفض إليه بصره وقال : « ما يدريك ما عليَّ ممَّا لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرَّةً ، =

وَقَالَ ذِيْ ٱلْفِكْرَةُ ٱلْحَسْنَاءُ صَالِحَةٌ   لِـذِيْ ٱلْحُكُـوْمَـةِ أَخْلِقْ أَنْ نُؤَاتِيْهَـا

فَلَمْ يُعَـارِضْ عَلِيٌّ فِكْـرَةً بَـدَرَتْ   مِنِ ٱبْنِ صَخْـرٍ وَنَـادَاهُ: أُجَـارِيْهَـا

وَبَعْدَ ذَا صَحْبُهُ مَعْ صَحْبِ صَاحِبِهِ   سَمَّتْ بِغَيْـرٍ وَبَى جَهْـراً مُنَـابِيْهَـا

دَعُـوْا ٱلْمُنَـابِيْنَ بِـٱلْقُـرَّاءِ إِنَّهُـمُ   كَـانُوْا خِيَارَ ٱلْـوَرَى عِلْمـاً وَتَفْقِيْهَـا

وَعِنْـدَ مَا ظَهَـرُوْا بَيْنَ ٱلصُّفُوْفِ تَـلاَ   آيَ ٱلْكِتَـابِ مَـعَ ٱلْإِخْبَـاتِ تَـالِيْهَـا

وَبَعْـدَ ذٰلِـكَ سَمَّتْ عَمْــروَ نَـائِبَهَــا   جَمَـاعَةُ ٱلشَّـامِ لِٱسْتِرْضَـا مُعَاوِيْهَـا

وَٱلْأَشْعَـرِيُّ أَنَـابَتْـهُ صِحَـابُ عَلِــيٍّ   وَهْـوَ قَدْ كَـانَ عَنْ جَفْوٍ مُنَـابِيْهَا

قَــدْ كَــانَ مُعْتَــزِلاً صِفِّيْنَ مُبْتَعِـداً   عَنْ حَـرْبِهَا تَـارِكـاً كُـلَّ ٱلْأُلَى فِيْهَـا

وَمَــا نَسِيْنَــا لَــهُ مَـاضِيْ فَـعَـائِلِهِ   فِيْ كُـوْفَةٍ عِنْـدَ مَـا قَـدْ كَـانَ وَالِيْهَـا

وَمَــا خِـلاَفَـةُ مَـوْلاَنَــا أَبِيْ حَسَنٍ   يَــوْمـاً لَقَــدْ حَسِبَتْــهُ مِنْ مُعِيْنِيْهَــا

وَمَا ٱنْتَقَتْهُ صِحَابُ ٱلْمُرْتَضَى لِسِوَى ٱبْــ   ـتِعَــادِهِ فِيْ هَـوَاهُ عَـنْ مُنِيْبِيْهَا

فِيْـهِ لَقَـدْ رَغِبَتْ دُوْنَ ٱلْأَعَــارِبِ إِذْ   كَـانَ ٱبْنُ قَيْسٍ أَبُوْ مُـوْسَى يَمَانِيْهَـا

وَمَـا أَرَادَتْ قُـرَيْشِيَّ ٱلصِّحَـابِ لِهٰــ   ـذَا ٱلْأَمْـرِ أَوْ هَاشِمِيْهَـا أَوْ عِـرَاقِيْهَـا

وَذَاكَ يَكْفِيْ لِتَبْيَـانِ ٱلتَّخَـاذُلِ فِـي   صَحْبِ ٱلْعَلِيِّ وَيُنْبِيْ عَنْ تَجَـزِّيْهَـا

أَمَّــا عَلِيٌّ فَـلاَقَى ٱلنَّــاسَ مُعْتَلِنـاً   أَنَّ ٱلنِّيَــابَــةَ مَـا لاَقَتْ مُكَـافِيْهَـا

= والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدةٍ منهما مالك ولا حسبك ، وإنَّ أمراً دلَّ على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف ، لحرِيٌّ أن يمقته الأقرب ، ولا يأمنه الأبعد » ولعمري ما جبه سيدنا أمير المؤمنين الأشعث على ما يعهد الناس من حلمه إلَّا لضيق صدره الشريف من نفاقه الذي ابتدأ بالتحكيم وانتهى بشرّ الخوارج العظيم .

وتزوج الأشعث في سنة ٣٦ هـ إحدى كرائم الحسن عليه السلام وتوفي في الكوفة سنة ٤٢ هـ .

وَصَاحَ وَٱلْغَيْظُ يَبْدُوْ مِنْ جَوَارِحِهِ بِصَحْبِهِ وَهْيَ تَمْشِيْ فِيْ غَوَاسِيْهَا
هَلَّا ذَكَرْتُمْ أَبَا مُوْسَى وَخَذْلَتَهُ لِأَمْرَتِيْ عَلَنَاً مَا كَانَ يُخْفِيْهَا
نَسِيْتُمُ فِعْلَهُ فِيْ وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ ـمَلْعُوْنِ إِذْ كَانَ عَنِّيْ ٱلنَّاسُ يُقْصِيْهَا
وَفَرَّ مِنِّيْ شُهُوْرَاً خَمْسَةً وَأَتَا نِيْ خَاضِعَاً بَعْدَ مَا قَدْ هَلَّ سَادِيْهَا
وَفَوْقَ ذَا فَهْوَ لَا حَزْمٌ لَهُ وَذَكَا ءٌ كَيْ يُلَاقِيْ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ ذَاكِيْهَا
وَذَا مُعَاوِيَةٌ قَدْ خَارَ دَاهِيَةَ ٱلْأُ م عْرابِ عَمْرَاً لِيُرْضِيْهِ وَيُؤْذِيْهَا
وَلَيْسَ يَكْفَأُهُ رَأْيَاً وَحُسْنَ دَهَا إِنْ تَذْكُرِ ٱلنَّاسُ فِيْ يَوْمٍ دَوَاهِيْهَا
إِلَّا ٱبْنُ عَبَّاسَ عَبْدُ ٱللَّه فَهْوَ إِلَى ٱبْـ ـنِ ٱلْعَاصِ كِفْءٌ بِآرَاءٍ يُجَلِّيْهَا
فَإِنْ رَمَيْتُمْ بِهِ عَمْرَاً رَأَيْتُمُ دَبْـ ـسَاءَ تَتَبَّعُهَا لِلصَّيْدِ بَازِيْهَا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ: لَا نَرْضَى لِأُمَّتِنَا تَحْكِيْمَ إِثْنَيْنِ فِيْهَا مِنَ قُرَيْشِيْهَا
كَذَاكَ بَاتَ أَبُوْ مُوْسَى مُمَثِّلَ صَحْـ ـبِ ٱلْمُرْتَضَى كَانَ قَاصِيْ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا
فَأَرْسَلَتْ نَحْوَهُ رُوَّادَهَا فَأَتَتْ بِهِ إِلَيْهَا وَآلَى أَنْ يُوَالِيْهَا

صحيفة الهدنة

وَبَعْدَ ذَلِكَ قُرَّاءُ ٱلْعِرَاقِ وَقُرَّ م اءُ ٱلشَّآمِ تَوَلَّتْ فِيْ تَنَادِيْهَا
وَضْعَ ٱلشُّرُوْطِ ٱلَّتِيْ تُفْضِيْ بِأُمَّتِهَا إِلَى مُهَادَنَةٍ كَانَتْ تُرَجِّيْهَا

---

(١) بعد أن تمَّ اختيار الحكمين شرع القرّاء بتسطير صحيفة الهدنة والموادعة فبحثوا في ذلك طويلاً وأقرَّ رأيهم في الأخير على أن تكون صورتها هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله ، وسنّة رسوله ﷺ ، قضية علي على أهل العراق ، ومن كان من شيعته ، من شاهد وغائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ، =

حَتَّى إِذَا مَا آنْتَهَتْ مِنْ بَحْثِهَا كَتَبَتْ صَحِيْفَـةَ آلْعَهْدِ فَـآسْتَوْفَتْ مَعَـانِيْهَـا

= ومن كـان من شيعته من شـاهد وغـائب ، إننا رضينـا أن ننـزل عنـد حكم القـرآن فيمـا حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، فـإنّه لا يجمـع بيننا إلاّ ذلـك ، وإننا جعلنـا كتاب الله سبحـانه حكمـاً بيننا فيمـا اختلفنا فيـه ، من فاتحتـه إلى خـاتمتـه ، نحيي مـا أحيـا القـرآن ، ونميت ما أمـات القـرآن ، على ذلـك تقـاضينـا ، وبـه تـراضينـا ، وانَّ عليـاً وشيعته ، رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحـاكماً ، ورضي معـاوية وشيعتـه أن يبعثوا عمراً بن العـاص ناظـراً ومحاكمـاً ، على أنّهم أخذوا عليهمـا عهد الله وميثـاقه ، وأعظم ما أخـذ الله على أحدٍ من خلقـه ، ليتخذان الكتـاب إمامـاً ، فيما بُعثـا إليه ، لا يعدوانه إلى غيره ، ما وجداه فيه مسطوراً ، وما لـم يجداه مسمى في الكتاب ، ردَّاه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمـدان لها خـلافاً ، ولا يتبعـان هوىً ، ولا يـدخلان في شبهة ، وقد أخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، على علي ومعاوية ، عهـد الله وميثاقه ، بالرضاء بما يحكمان به من كتاب الله وسنّة نبيّه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه إلى غيره ، وأنّهما آمنان في حِكمهما ، على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، ما لم يعدوا الحقَّ ، رضي بذلك راضٍ ، أو أنكره منكر ، وأنَّ الأمّة أنصار لهما ، على ما يقضيان به من العدل ، فإن توفي أحد الحكمين ، قبل انقضاء الحكومة ، فـأمير شيعتـه وأصحابه ، يختارون مكانه رجلاً ، لا يألون عن أهل المعدلـة والأقساط ، على مـا كان عليـه صاحبـه من العهد والميثـاق ، والحكم بكتاب الله وسنّـة رسولـه ، وله مثـل شرط صاحبه ، وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء ، فلشيعته أن يـولّوا مكـانه رجـلاً يرضـون عدله ، وقـد وقعت هذه القضيـة ، ومعهما الأمن والتفـاوض ، ووضع السـلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ، أن لا يألوا اجتهاداً ، ولا يتعمدا جوراً ، ولا يـدخـلا في شبهـة ، ولا يعـدوا حكم الكتـاب ، فـإن لم يقبـلا ، بـرئت الأمّـة من حكمهمـا ، ولا عهد لهمـا ولا ذمة ، وقـد وجبت القضية ، على مـا قـد سمي في هـذا الكتـاب ، من مـواقـع الشـروط ، على الحكمين والأميـرين والفـريقين ، والله أقـرب شهيداً ، وأدنى حفيظاً ، والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاح موضوع ، والسبل مخلاة ، والشاهد والغـائب من الفريقين سـواء في الأمن ، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً ، بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه إلاّ من أحبا عن مـلأٍ منهمـا وتـراضٍ ، وأنّ المسلمين قـد أجلوا هـذين القـاضيين ، إلى انسـلاخ شهر رمضـان (سنـة ٣٧ هـ) ، فـإن رأيـا تعجيـل الحكـومـة فيمـا وجهـا إليـه =

= عجلاها ، وإن أرادا تأخرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم (موسم الحجّ) فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنّة نبيّه ، إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على أمرهم الأوّل في الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه ، على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهم يدٌ على من أراد فيه إلحاداً وظلماً ، أو حاول له نقضاً » اهـ وكان تاريخ هذه الصحيفة لليلة بقيت من صفر الخير سنة ٣٧ هـ وبعد الإنتهاء من وضعها على صورتها المشار إليها نسخوها نسختين سار بإحداها أصحاب سيدنا علي إليه ليمضيها ويشهدا الشهود ثمَّ يعطوها إلى معاوية وسار أصحاب معاوية بالنسخة ليمضيها ويشهد عليها الشهود ثمَّ يعطوها إلى سيدنا علي .

ولما انتهت نسخة الصحيفة إلى يد معاوية وكان بجانبه عمرو بن العاص أنكرا أن يلقّب سيدنا علي بفاتحتها بلقب « أمير المؤمنين » وقال معاوية : بئس الرجل أنا إن أقررت أنَّ علياً أمير المؤمنين ثمَّ قاتلته . وقال عمرو بل نكتب اسمه واسم أبيه إنّما هو أمير أهل العراق وأمّا أميرنا فلا . قال هذا واحتمل الصحيفة وسار بها إلى سيدنا علي عليه السلام في خيمته وقال له إننا لا نرضى بهذه الصحيفة ما لم تمح منها عن اسمك لقب « أمير المؤمنين » فإنّنا لو عرفناك أميراً للمؤمنين لما قاتلناك : فتبسم سيدنا علي عليه السلام وقال امحوا كلمة « أمير المؤمنين » ولكن الله سبحانه لا يمحوها عني فقال الأحنف كلا يا أمير المؤمنين لا تمح هذا اللقب عنك فإنّي أتخوف إن محوته أن لا يرجع إليك أبداً فلا تمحه . فقال عليه السلام لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول لي يوم الحديبية ستلقى مثلها وقصّ على الناس كيف أنكر المشركون على المصطفى لقب « رسول الله » يومئذٍ وطلبوا منه محوه وكيف أبى سيدنا علي وكان يكتب الصحيفة محوه وقد سبق لنا تفصيل ذلك في حاشية سبقت ثمَّ قال المرتضى إن ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم أكتبه إلى أبنائه كما كتبه رسول الله إلى آبائهم شبهاً ومثلاً . فقال عمرو بن العاص : سبحان الله أتشبهنا بالكفّار ونحن مسلمون ؟ فقال علي : يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين وليّاً وللمسلمين عدوّاً . فنهض عمرو بن العاص وهو غاضب وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم . فقال سيدنا علي أمّا والله إنّي لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك .

وما كاد يخرج معاوية حتى تولى الحماس الحاضرين فنضوا سيوفهم وقالوا : يا =

وَأَنْ يَكُوْنَ مَدَى ٱلتَّحْكِيْمِ دَوْرَةَ عَا ۝ مٍ علا تَقَاتُلَ مَا بَيْنَ ٱلْمَلَا فِيْهَا
وَإِنَّهَا هُدْنَةٌ فِيْهَا أَمَانُ جَمِيْـ ۝ ـعِ ٱلنَّاسِ فِيْ كُلِّ مَأْوَى مِنْ مَآوِيْهَا
وَفِيْ ٱلصَّحِيْفَةِ قَدْ سَمُّوْا ٱلْعَلِيَّ أَمِيْـ ۝ ـرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَا آلُوْهُ تَوْجِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا تَلَقَّاهَا مُعَاوِيَةٌ ۝ نَادَى: إِمَارَتُهُ مَا كُنْتُ أَدْرِيْهَا
بَلْ تَكْتُبُوْنَ آسْمَهُ وَآسْمِيْ كَمَا وُجِدَا ۝ صَرْفاً وَمِنْ بَعْدِ ذَا يَا صَحْبُ أُمْضِيْهَا
وَسَارَ عَمروٌ بِهَاتِيْكَ ٱلصَّحِيْفَةِ نَحْـ ۝ ـوَ ٱلْمُرْتَضَى طَالِباً تَحْوِيْرَ مَا فِيْهَا
وَقَالَ مَا أُمْرَةُ ٱلْإِسْلَامِ نَعْرِفُهَا ۝ أَصْلاً عَلَيْكَ فَكَلَّا لَسْتَ رَاعِيْهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةٌ: فَآمْحُوْا ٱلْإِمَارَةَ لَـ ۝ ـكِنَّ ٱلْمُهَيْمِنَ عَنِّي لَيْسَ مَاحِيْهَا
وَقَالَ: قَدْ صَدَقَ ٱلْهَادِيْ بِقَوْلَتِهِ ۝ لِيْ: سَوْفَ تَلْقَى رَزَايَا بِتُّ لَاقِيْهَا
وَقِصَّةُ ٱلْمُصْطَفَى يَوْمَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْـ ۝ ـمَشْهُوْرِ قَدْ رَاحَ بِٱلْأَشْجَانِ يَرْوِيْهَا
فَقَالَ: قَدْ أَنْكَرَتْ كُفَّارُ مَكَّةَ أَنَّـ ۝ ـهُ ٱلرَّسُوْلُ وَآلَى أَنْ يُرَاضِيْهَا
فَلَسْتُ أَعْجَبُ إِنْ أَنْسَالُهَا نَكَرَتْ ۝ إِمَارَتِيْ وَحَرِيٌّ أَنْ أُدَارِيْهَا
إِنْ أَمْحُهَا مَا أُمِّحَتْ عَنِّيْ وَرَبُّكُمُ ۝ لَا شَكَّ رَغْمَ عِدَاةِ ٱلْحَقِّ مُبْقِيْهَا
لِيْ أُسْوَةٌ بِرَسُوْلِ ٱللَّهِ لَسْتُ سِوَى ۝ رَبِيْبِهِ وَبِهِ نَفْسِي أُعَزِّيْهَا

= أمير المؤمنين مرنا بما شئت . فقال لهم سهل بن حنيف : أيّها الناس اتهموا رأيكم فقد شهدنا صلح رسول الله يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا ثمَّ لم نرَ في ذلك الصلح إلّا خيراً .

وبعد أن محي بأمر سيدنا علي لقب « أمير المؤمنين » عن اسمه الشريف وقَّع على الصحيفة بخاتمه المبارك وسار القرّاء بنسختيها إلى معاوية فوقّع عليهما بختمه . وكان ختم سيدنا علي من أعلاها وفيه « محمد رسول الله » وختم معاوية من أسفلها وفيه « محمد رسول الله » أيضاً اهـ .

فَقَالَ عَمْروٌ: وَيَا سُبْحَانَ رَبِّيَ قَـدْ   شَبَّهْتَنَـا بِـدُعَـاةِ ٱلْكُفْـرِ تَشْبِيْهَـا

فَقَالَ حَيْدَرَة: خَفِّضْ عَلَيْكَ مَتَى ٱلْـــكُفَّارُ لَمْ تَكُ قُـلْ لِيْ مِنْ مَـوَالِيْهَـا

بَلْ قُلْ مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَنِيْفِيَّةُ ٱلـــسَّمْحَاءِ تَعْنَى بِهَا مَـا كُنْتَ شَانِيْهَـا

فَٱغْتَاظَ عَمْروٌ وَنَادَى: مَا مَجَالِسُكَ ٱلـــسُّوْئَى عَلَى إِثْرِ يَـوْمِيْ ذَا أُخَطِّيْهَـا

وَعَـادَ أَدْرَاجَـهُ بَيْنَـا ٱلْـعَلِيُّ يُنَـا   جِيْ ٱللَّهَ أَنْ يَقْهَـرَ ٱلْأَعْدَا وَيُخْـزِيْهَا

وَهٰكَـذَا أُمْضِيَتْ تِلْكَ ٱلصَّحِيْفَةُ مِنْ   كِلَا ٱلْفَرِيْقَيْنِ كَيْ تَجْـرِيْ مَجَارِيْهَـا

فَكَـانَ مُسْتَبْشِـرَاً فِيْهَـا مُعَـاوِيَـةُ   إِذْ أَنْقَـذَتْـهُ مِنَ ٱلْبَلْوَى أَمَـالِـيْهَـا

أَمَّـا ٱلْعَلِيُّ فَـأَمْسَى وَهْـوَ مُكْتَئِبٌ   مِمَّـا تَجُـرُّ عَلَيْـهِ مِنْ مَسَـاوِيْهَـا

تأثير الحكومة على الناس

مِنْ بَعْدِ إِمْضَاءِ هَاتِيْكَ ٱلصَّحِيْفَـةِ مَا   بَيْنَ ٱلْفَـرِيْقَيْنِ فِيْ أَجْلَى مَبَـانِيْهَـا[1]

رَاحَتْ صِحَابُ ٱبْنِ حَرْبٍ وَهْيَ مُوْقِنَةٌ   بِفَـوْزِهَـا تَتَهَـادَى فِيْ تَهَـانِيْـهَـا

---

(١) بعد أن تمّت كتابة صحيفة الهدنة وأمضاها سيدنا علي ومعاوية حملها الأشعث وبعض أناس وساروا بها على الناس يعرضونها عليهم فرضيها أهل الشام فلم يكن فيهم من يعترض لثقتها باقتدار عمرو بن العاص ودهائه ولشدّة ارتكانها عليه . ثم ساروا بها إلى أهل العراق يعرضونها عليهم فقبلها بعضهم وأنكرها البعض وكان في مقدمة المنكرين فرقة عنزة وكانت في نحو أربعة آلاف مقاتل فصاح فتيان منهم لا حكم إلّا لله وحملت [illegible]السيوف على أهل الشام فلقيها هؤلاء واشتبك القتال وانجلى عن بعض القتلى والجرحى . وعندما وصل الأشعث إلى بني مراد من أصحاب علي عرض عليهم الصحيفة فقال صالح بن شفيق وكان من زعمائهم :

مـا لعليٍّ في الـدمـاء قـد حكم   لـو قـاتـل الأحـزاب يـومـا مـا ظلم

ثمَّ قالوا : لا حكم إلّا لله يا أشعث ولو كره المشركون . ثمَّ مرَّ على رايات بني راسب فقرأ الصحيفة عليهم فقال رجل منهم : « لا حكم إلّا لله ، لا نرضى ، ولا =

وَكَـانَ أَعْـظَمَهَـا بُشْـرَاً مُعَـاوِيَـةُ   يَـرَى رَغَـائِبَـهُ آلْأَيَّـامُ تُـدْنِيْهَـا

= نحكّم الرجال في دين الله » . ثمَّ مرَّ على رايات تميم وهو يقرأها فقال زعيمٌ منهم « لا حكم إلّا لله ، سبحانه يقضي بالحقّ وهو خير الفاصلين » وخرج عروة بن أذينة أخو مرداس بن أذينة التميمي فقال : « أتحكمون الرجال في أمر الله ؟ لا حكم إلّا لله ، فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثمَّ شدَّ بسيفه ليضرب به الأشعث فأخطأه وضرب عجز دابته ضربةً خفيفةً فصاح به الناس : أملك يدك . فكفَّ . ورجع الأشعث ومن معه إلى سيدنا علي فقالوا : يا أمير المؤمنين إننا عرضنا الحكومة على صفوف أهل الشام فقالوا جميعاً رضينا وعرضناها على أهل العراق فارتضاها أكثرهم وأنكرها قليل منهم وقالوا : « لا حكم إلّا لله » فمل بالراضين على الغاضبين حتى نقتلهم . فقال علي عليه السلام ما دام الغاضبون راية أو رايتين ونفراً من الناس فلندعهم وشأنهم . وما كاد عليه السلام ينتهي من كلماته إلّا وراءه نداء الناس من كلّ صوبٍ وحدبٍ « لا حكم إلّا لله ، الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله ، إنَّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه ، أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا ، وقد كنّا أخطأنا وزللنا حين رضينا بالتحكيم ، وقد بان لنا زللنا وخطأنا ، فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلّا برئنا منك » فقال علي عليه السلام : « ويحكم أبعد الرضاء والميثاق والعهد نرجع ؟ أليس الله تعالى قد قال : ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ ؟ وقال : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ أما جعلتم الله عليكم كفيلاً ؟ وهكذا أبى سيدنا علي أن يحنث بعهده ويغدر بأيمانه وأبت الخوارج إلّا تضليل التحكيم والطعن فيه . فبرىء هؤلاء من سيدنا علي وبرىء عليه السلام منهم واستفحل الشرّ .

ثمَّ إنَّ محمداً بن جريش تقدم من سيدنا علي وقال : أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ والله إنّي لأخاف أن يؤرّث ذلّاً . فقال عليه السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ إنَّ هذا لا يحلُّ ، ولعمري قد فعلتُ ما فعلتُ ، لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب . وبينما الناس في هذا البحران تقدمت همدان من سيدنا علي وقال زعيمها سعيد بن قيس : ها أنا ذا وقومي لا نردُّ لك أمراً يا أمير المؤمنين ، فقل ما شئتَ نعمله . فقال عليه السلام : أمّا لو كان هذا قبل سطر الصحيفة ، لأزلتهم عن عسكرهم ، أو تنفرد سالفتي ، ولكن كتب ما كتب فانصرفوا راشدين . =

مَـا دَامَ دَاهِيَـةُ ٱلْأَعْـرَابِ صَـاحِبُـهُ   رَبَّ ٱلْحُكُومَةِ يَـدْرِي كَيْفَ يُجْرِيْهَـا

لٰكِنَّمَـا شَعَرَتْ صَحْبُ ٱلْعَلِيِّ بِسُـوْ   ءِ ٱلْإِخْتِيَـارِ وَفَـاتَ ٱلْقَـوْسَ رَامِيْهَـا

= على أنّ سيدنا علي عليه السلام مهما اتصف به من الحلم وسِعة الصدر والتجمل لدى ترادف الأحداث ضاق صدره وعيل صبره من قوم أكرهوه على صلح لم يرَ فيه مصلحة المسلمين وعلى تحكيم من ليس بثقة ولا مقتدرٍ وجاءُوه في الأخير يلحون ويلحفون بأن ينكث عهده وينقض وعده فغضب لله وشريعته ورسوله وضميره وتولاه الجزع والهمُّ وخرج إلى الناس خطيباً فقال : إنَّ هؤلاء القوم ، لم يكونوا لينيبوا إلى الحق ، ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء ، حتى يرموا بالمناسر ، تتبعها العساكر ، وحتى يرجموا بالكتائب ، تقفوها الجلائب ، وحتى يجرُّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس ، وحتى يرعوا الخيول في نواحي أرضهم ، وبإحياء مشاربهم ومسارحهم ، وحتى تُشنُّ عليهم الغارات من كل فجّ ، وحتى يلقاهم قوم صُدق خُبر ، لا يزيدهم هلاك من هلك ، من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله ، إلّا جدّاً في طاعة الله ، وحرصاً على لقاء الله ، ولقد كنّا مع رسول الله نقتل آباءَنا وأبناءَنا وأخوالنا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً ، ومضيّاً على أمضّ الألم ، وجهداً على جهاد العدو ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان ، تصاول الفحلين يتخالسان نفسيهما أيُّهما يسقي صاحبه كأس المنون ، فمرَّةً لنا ومرَّةً لعدوّنا منّا ، فلما رآنا الله صدقاً صُبراً ، أنزل بعدوّنا الكبت ، وأنزل علينا النصر ، ولعمري لو كنّا نأتي ، مثل الذي أتيتم ، ما قام الدين ، ولا عزَّ الإسلام » اهـ .

وبعد أن ألقى سيدنا أمير المؤمنين هذا الخطاب على أصحابه أمرهم بالتحفز للعودة إلى الكوفة وسرعان ما عاد بهم إليها وهم بين خوارج ناقمين عليه ، ومطيعين يتفانون في سبيل رضاه . وكذلك فعل معاوية إلّا أنّ قومه كانوا طواعية له يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ولا يتوخون غير رضاه . فجاء بهم الشام ولا همَّ له ولهم إلّا أن يفوز صاحبه عمرو بن العاص بخديعة أبي موسى الأشعري وما كان ذلك باعتقاده بعيد المنال أو في حكم المحال .

على أنّ الناس قبل أن يعودوا إلى مواطنهم أسرعوا إلى دفن موتاهم واحتملوا جرحاهم ومما يسترعي الأنظار أنّهم جميعاً كانوا متصافين ولم يفرّق بينهم إلّا أنّ بعضهم شيعة لمعاوية وبعضهم شيعة أمير المؤمنين .

فَأَصْبَحَتْ تَتَنَاجَى بِٱلْمَخَاوِفِ مِنْ سُوْءِ ٱلْمَصِيْرِ وَلاَ تُلْفِي ٱلْمُنَجِّيْهَا

وَلِلْعَلِيِّ مَضَتْ تُبْدِيْ مَخَاوِفَهَا مِنِ آبْنِ قَيْسٍ ٱلَّذِيْ قَدْ صَارَ قَاضِيْهَا

صَاحَتْ مُجَاهِرَةً لاَ حُكْمَ إِلَّا لِرَبِّ ٱلْعَرْشِ هِيَّ إِلَى ٱلْهَيْجَاءِ نُلْظِيْهَا

فَقَالَ حَيْدَرَةُ: لاَ أَرْتَضِيْ نَكَلاً عَنْ عِهْدَةٍ أَنْتُمُ كُنْتُمْ مُسِيْقِيْهَا

وَٱللَّهُ آمَرَ أُوْفُوْا بِٱلْعُقُوْدِ فَلاَ نَعْدُوْ أَوَامِرَهُ لاَ بُدَّ نُوْفِيْهَا

فَسَارِعُوْا لِذَوِيْكُمْ وَٱرْقُبُوْا سُفُنَ ٱلأَقْدَارِ مَاخِرَةً تَبْغِيْ مَرَافِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا رَحَلَتْ أَجْنَادُ كُلِّ فَرِيْقٍ فِيْ صَحَابَةِ مَوْلاَهَا لأَرْضِيْهَا

فَسَارَ لِلْكُوْفَةِ ٱلْغَنَّا أَبُوْحَسَنٍ وَلِلشَّآمِ بِلاَ بِطْءٍ مُعَاوِيْهَا

وَكَانَ هٰذَا يُرَاعِيْ صَحْبَهُ وَيُرَا شِيْهَا وَبِٱلْمَالِ وَٱلأَقْطَاعِ يَرْشِيْهَا

وَذَاكَ يَقْصُدُ إِرْجَاعَ ٱلْعِبَادِ إِلَى عَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ أَبْهَى مَجَالِيْهَا

لِذَا ٱلْخَوَارِجُ كَانَتْ مِنْ نَصِيْبِ عَلِيٍّ فِيْ خِلاَفَتِهِ تَبْغِيْ تَدَاعِيْهَا

فَبَاتَ يَجْهَدُ فِيْ تَأْلِيْفِهَا عَبَثاً بِلُطْفِهِ فَيَرَى لاَ شَيْءَ يُرْضِيْهَا

وَمَنْ أَرَادَ رِضَاءَ ٱللَّهِ يَتْعَبُ مَعْ عِبَادِهِ وَلَيَعْيَا عَنْ تَرَضِّيْهَا

الحكمـــان

وَدُوْمَةُ ٱلْجَنْدَلِ ٱلْحُصْنُ ٱلْحَصِيْنُ غَدَا أُحْدُوْثَةَ ٱلنَّاسِ فِيْ شَتَّى مَثَاوِيْهَا[1]

كَانَتْ عُيُوْنُ عِبَادِ ٱللَّهِ تَرْقُبُهُ لَمَّا غَدَتْ فِيْ مَغَانِيْهِ أَمَانِيْهَا

---

(١) سار أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو بن العاص إلى « دومة الجندل » وهي حصن للمسلمين يبعد عن المدينة المنوَّرة نحواً من ١٥ مرحلة وعن الكوفة نحواً من عشر مراحل اختاراه لخلوتهما وأرسل سيدنا أمير المؤمنين مع أبي موسى أربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هاني الحارثي وأرسل معاوية مع عمرو بن العاص أربعمائة مقاتلاً أيضاً فأوصلوهما إلى حصن « دومة الجندل » وتركوهما فيه . وقبل أن =

فَـإِنَّمَا حَكَمَـاهَـا فِيْـهِ قَـدْ نَـزَلَا لِـخَلْوَةٍ وَضَـعَتْ فِـيْهَـا تَـرَجِّـيْهَـا

= يترك رجال أمير المؤمنين صاحبهم أبا موسى تقدَّم منه شريح بن هاني وأخذ بيده وقال : يا أبا موسى ، إنّك قد نصبت لأمرٍ عظيم ، لا يجبر صدعه ، ولا تستقـال فتنته ، ومهمـا تقـول من شيء عليك أو لـك ، يثبت حقّه ، ويـرى صحته ، وإن كـان باطـلاً ، وأنّه لا بقاء لأهل العراق إذا ملكهم معاويـة ، ولا بأس على أهـل الشام إن ملكهم علي ، وقـد كـانت منك تثبيـطة أيام الكـوفة والجمـل ، فإن تشفعهـا بمثلها يكن الـظنُّ بك يقينـاً ، والرجاء منك يأساً ، وأنشده شعراً :

أبـا مـوسى رميت بشـرِّ خـصمٍ فـلا تُضـع العـراق فـدتـك نفسي
وأعط الـحـقَّ شـامـهـمُ وخـذه فـليس الـيـوم ذا مـهـلٍ كـأمسِ
وانَّ غـداً يـجـيءُ بـمـا عـليـهِ بحكم الـدهـر من سعـدٍ ونحسِ
ولا يخـدعـك عمـروٌ انَّ عمـرواً عـدوُّ الـحقِّ مـطلعَ كـلِّ شـمسٍ
لـه خُـدَع يحـار العـقـل منهـا مـمـوَّهـة مـزخـرفـة بـلبسٍ
فـلا تجعـل معـاويـة بن حـربٍ كشيـخٍ في الحـوادث غيـر نكسِ
هـداه الله لـلإسـلام فـرداً سـوى عـرس النبيِّ وأيِّ عـرسِ

وتقـدم منه عبـد الله بن عباس وكـان يصحب الأربعمائـة ويصلّي بهم بالنيـابة عن سيدنا علي عليه السلام وقال له : يا أبا موسى ، إنَّ الناس لم يرضوا بك ، ويجتمعوا عليك ، لفضلٍ لا تشارك فيه ، وما أكثر أشباهـك من المهاجـرين والأنصار والمتقـدمين قبلك ، ولكن أهلِ العراق أبَوا إلاّ أن يكون الحكم يمانياً ، ورأوا أنَّ معظم أهل الشـام يمانيين ، وأيم الله أنّي لأظنُّ ذلـك شرّاً لـك ولنا ، فـإنَّه قـد ضُمَّ إليك داهيـة العرب ، وليس في معاوية خلة يستحقُّ بها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله ، تدرك حـاجتك منـه ، وان يطمع باطله في حقك ، يدرك حاجته منك ، واعلم يـا أبا مـوسى أنّ معاويـةً طليق الإسلام ، وأنّ أباه رأس الأحزاب ، وأنّه يدَّعي الخلافة من غير مشـورة ولا بيعة ، فـإن زعم لك أنَّ عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمـر وهو المـراقب عليه ، بمنزلة الـطبيب ، يحميه مـا يشتهي ، ويؤخّره ما يكره، ثمَّ استعمله عثمان بـرأي عمر ، وما أكثر من استعملاه ممن لم يدَّعِ الخـلافة ، واعلم أنَّ لعمـروٍ مع كـلّ شيءٍ يسرُّك ، خبثاً يسوءك ، ومهما نسيتَ ، فلا تنسَ أنَّ علياً بايعه القوم ، الذين بايعـوا أبا بكـرٍ وعمر وعثمان ، وأنّها بيعة هدى ، وأنّـه لم يقاتـل إلاّ العاصين والنـاكثين » فقال أبـو موسى : =

= رحمك الله ، والله ما لي إمام غير علي وإنّي لواقف عندما رأيٍ ، وأنَّ حقَّ الله أحبُّ إليَّ من رضاء معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلاّ بالله . ثمَّ مال إلى شريح وقال : ولكن ما ينبغي لقوم اتهموني ، أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً ، أو أجرَّ إليهم حقّاً . . . . !! .

أمّا أصحاب معاوية فإنّهم ودعوا عمراً بن العاص من غير أن يكلّموه كأنَّهم كانوا على ثقةٍ من أمره غير أنّه عندما ودّع معاوية قبل ارتحاله عن صفين قال له هذا « يا عمرو : إنَّ أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمَّ إليك رجل ، طويل اللسان ، كليل المدية ، وله بعدُ حظٌّ من دينٍ ، فإذا قال فدعه يقل ، ثمَّ قل فأوجز ، واقطع المفصل ، ولا تلقه بكلّ رأيك ، واعلم أنَّ خبء الرأي زيادة في العقل ، فإنّ خوَّفك بأهل العراق ، فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوَّفك بعلي ، فخوّفه بمعاوية ، وإن خوَّفك بمصر ، فخوّفه باليمن ، وإن أتاك بالتفصيل فأته بالمجمل . فتبسم عمرو تبسم الهازىء وقال : خفف عنك يا معاوية ، فأنت وعلي اليوم رجلا قريش ، ولم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ذكرت أنَّ لعبد الله ديناً ، وصاحب الدين منصور ، وأيم الله لأفنينَّ علله ، ولأستخرجنَّ خبأه ، ولكن إذا جاءَني بالإيمان والهجرة ومناقب علي ما عسيتُ أن أقول ؟؟؟ . قال معاوية : قل ما ترى . فقال عمرو وهل تدعني وما أرى ؟ قال بلى . قال عمرو فاسكت إذن . وتركه وخرج مغضباً كأنّه كره أن يوصيه ثقةً منه بنفسه . وقال عمرو بن العاص وهو خارج من حضرة معاوية لبعض أصحابه : إنّما أراد معاوية أن يصغر أمر أبي موسى لأنّه علم أنّي خادعه غداً فأحبّ أن يقول أنَّ عمراً لم يخدع أريباً فكدته بالخلاف عليه وأنشد :

يشجعني معاوية بن حرب ... كأنّي للحوادث مستكينُ
وإنّي عن معاويةٍ غنيٌّ ... بحمد الله والله المعينُ
فقلتُ له ولم أردد عليه ... مقالته وللشاكي أنينُ
ترى أهل العراق يذبُّ عنهم ... وعن جيرانهم رجل مهينُ
فلو جهلوه لم يُجهل عليٌّ ... وغثُّ القول يحمله السمينُ
ولكن خطبه فيهم عظيم ... وفضل المرء فيهم مستبينُ =

وَهَا هُمَا آنْزَوَيَا حَوْلاً لِمُعْضِلَةٍ   أَعْيَتْ مَشَاكِلُهَا ٱلْكَثْرَى مُحِلِّيْهَا

= فإن أظفر فلم أظفر بوغدٍ   وإن يظفر فقد قُطع الوتينُ

وعندما خلا عمرو بن العاص بعبد الله بن قيس الأشعريّ تجرَّد لخداعه وانصرف إلى استهوائه وطفق يحمد سبقه للإسلام وصحة دينه وذكاءه وتقاه ويخلق له من الأعمال الباهرة في سبيل الدين ما أتاه وما لم يأته وكان يجلسه في صدر المجلس ويجلس بين يديه ويبالغ بتجلته واحترامه وإكرامه وما زال كذلك حتى خدعه وكسب ثقته وفاز بودّه.

وكان أبو موسى هذا كثير التشيع إلى عمر بن الخطاب معجباً بأعماله متوفراً على حمد مآتيه وكان رأيه أنَّ خير حلّ لهذه المشكلة أن يتولى الخلافة عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو يعتقد أنّه سرُّ أبيه فيجدّد للمسلمين عهده وأنْ لا سبيل للوصول إلى هذا إلّا بخلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى كما تركها عمر بن الخطاب للستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فكان أبو موسى كلما اجتمع بعمرو بن العاص يقول له : هل لك في أمر هو للأمّة صلاح ولصلحاء الناس رضىً ان تولي عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا هذه الفرقة ؟ وكان عمرو يجيبه قائلاً : فأين أنت يا أبا موسى من معاوية . فيقاطعه أبو موسى قائلاً : لا تذكر صاحبك ألا تراني أعرض عن ذكر صاحبي . فيقول عمرو ألستَ تعلم أنَّ عثمان قتل مظلوماً فيقول أبو موسى : بلى . فيقول عمرو ما يمنعك إذن من معاوية وهو وليّ عثمان وقد قال الله تعالى : **﴿ من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴾** . ثمَّ كان عمرو بن العاص يسهب بشرح هذه الآية الكريمة فيفسّرها على هوى معاوية فيفسّر سلطان ولي المظلوم بالاستيلاء على وظيفته فيقول له إنّ الله في كتابه الكريم قد ولّى معاوية الخلافة التي كانت لعثمان وقتل عنها وهذا أغرب ما سمع بتأويل القرآن وقد نوَّه بهذا التفسير الفاسد سيدنا علي في غير موضع من خطبه الغرّاء . ثمَّ كان يقول : إنَّ بيت معاوية من قريش ما قد علمت . فإن خشيت الناس أن تقول ولّى معاوية وليس له سابقة فإنَّ لك حجةً أن تقول وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه ، الحسن السياسة ، الحسن التدبير ، وهو أخو أمّ حبيبة أمّ المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة ، واعلم يا أبا موسى ان هو وُليَ الأمر أكرمك كرامةً لم يكرمك أحد قطُّ مثلها . فيقول أبو موسى : اتّق الله يا ابن العاص أمّا ما ذكرت من شرف معاوية فإنّ هذا الأمر ليس على الشرف =

وَبَاتَ دَاهِيَةُ ٱلْأَعْرَابِ يَلْعَبُ بِٱلْـــ ـعَجُوْزِ أَلْعَابَ مَكْرٍ كَانَ رَاصِيْهَا
وَإِنَّ عَمْرَاً عَلَى عِلْمِ ٱلْعِبَادِ بِهِ مُدَرَّهُ ٱلْأَشْعَرِيَّ ٱلْغَمْرَ تَدْرِيْهَا
هُنَاكَ كُنْتَ تَرَى عَمْرَاً يُبَالِغُ فِيْ إِكْرَامِ صَاحِبِهِ يَحْبُوْهُ تَجْوِيْهَا
فَبِٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْإِكْرَامِ مَقْدَمَهُ يَلْقَى إِذَا جَاءَهُ مَكْرَاً وَتَمْوِيْهَا

= يولّاه أهله ولو كان على الشرف لكان أحقُّ الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح إنّما هو لأهل الدين والفضل . مع أنّي لو كنت أُعطيه لأفضل وأشرف قريش لأعطيته علياً بن أبي طالب . وأمّا قولك أنّ معاوية وليّ عثمان قوله هذا الأمر فإنّي لم أكن أوليه إيّاه لنسبته من عثمان وأدع المهاجرين الأولين . وأمّا تعريضك لي بالأمرة والسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليّته وما كنت أرتشي في الله وإن شئت وافقتني على سنّة عمر بن الخطاب بالرجوع إلى شوراه . بهذا وأمثاله كان يدور الجدال بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعريِ بين جدران دومة الجندلِ . وعلى مثل هذه الحوادث قد مضت الأيام فالأسابيع فالأشهر من غير أن يلين عود لأبي موسى إذ كان صلب الرأي لا يرضى أن تحلَّ هذه المشكلة إلّا على طريقته وهي خلع علي ومعاوية معاً وترك الأمر شورى لأعيان قريش كما تركه عمر للستّة شورى بينهم .

وبعد أن عجز عمرو بدهائه المشهور عن زحزحة أبي موسى عن رأيه يتظاهر باقتناعه به وتمسكه به وحتى لا يدع لأبي موسى سبباً للشكّ طفق هو أيضاً يذكر محاسن الشورى على طريقة عمر ويطري عبد الله بن عمر ويذكر له ما سيكون من أمر إدارة الخلافة وتنظيمها بعد خلع علي ومعاوية وشرع يذكر أسماء أعيان قريش الذين سيكون من حقّهم الدخول في الشورى إلى آخر ما كان يفيض فيه ويجيد لاكتساب ثقة صاحبه عبد الله الذي فرح فرحاً عظيماً بكسبه عمراً بن العاص إلى رأيه وحسب نفسه أنّه قد قام بأفضل خدمة للإسلام والمسلمين .

وأمّا عمرو بن العاص فقد كان يضحك في سرّه من سلامة نية أبي موسى الأشعري حتى وثق به وحسبه يوافقه على خلع معاوية ويساعده على تسليم زمام الخلافة لعبد الله بن عمر بن الخطاب حسبةً لله تعالى من غير أن يتفق معه على أخذ ولاية مصر لنفسه .

وَكَانَ يُعْلِيْ مَعَ ٱلْإِجْلَالِ مَجْلِسَهُ   يَقُوْلُ: صُحْبَتُكَ ٱلْهَادِيْ لَأَتْقِيْهَا
وَكَانَ يَخْلُقُ آثَاراً لَهُ حُمِدَتْ   مَا كَانَ يَعْهَدُهَا كِذْباً وَيُطْرِيْهَا
وَكَانَ بِٱلْمَدْحِ يُغْرِيْهِ وَيَخْدَعُهُ   بِلَا ٱنْقِطَاعٍ وَآيُ ٱلْحَمْدِ يُسْدِيْهَا
وَكَانَ يَنْعَتُهُ نَعْتاً بِأَفْضَلِ أَنْـــوَاعِ ٱلنُّعُوْتِ لِيَسْتَهْوِيْهِ زَاهِيْهَا
وَلَمْ يَزَلْ بِأَبِيْ مُوْسَى يَكِيْدُ لَهُ   كَيْداً وَأَمْيَالُهُ مَكْراً يُرَانِيْهَا
حَتَّى تَمَلَّكَهُ وَٱحْتَالَ حِيْلَتَهُ   عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْرِيْ مَغَازِيْهَا
فَرَامَ بَادِيءَ بَدْءٍ أَنْ يُجَرِّرَهُ   إِلَى جَمَاعَتِهِ كَيْمَا يُمَاشِيْهَا
فَخَابَ سَعْياً وَلَيْسَ ٱلْأَشْعَرِيُّ بِتَا   رِكٍ عَلِيّاً لِيَسْتَصْفِيْ مُعَاوِيْهَا
وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلشُّوْرَى شِعَارُ أَبِيْ   مُوْسَى يَقُوْلُ: لِمَاذَا لَا نُثَنِّيْهَا
فَنَخْلَعُ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلْقَائِمَيْنِ بِأَمْـــرِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَنُعْطِيْ ٱلْقَوْسَ بَارِيْهَا
مَنْ تَرْتَضِيْهِ جُمُوعُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِذَا   مَا نَالَ سَامِيْ ٱلتَّسَمِّيْ مِنْ مُشِيْرِيْهَا
وَكَانَ عَمْرُوٌ يُنَاوِيْهِ بِفِكْرَتِهِ   ذِيْ وَهْوَ يَأْبَى إِبَاءً أَنْ يُخَلِّيْهَا
وَبَعْدَ طُوْلِ جِدَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا   مِنْ غَيْرِ جَدْوَى لِإِبْنِ ٱلْعَاصِ يَجْنِيْهَا
أَبْدَى أَخِيْراً لَهُ ٱسْتُحْسَانَ فِكْرَتِهِ   وَقَالَ: هَيَّ بِنَا يَا صَاحِ نُمْضِيْهَا
أَعْيَا فَوَافَقَهُ عَيّاً وَثُمَّ لَصَى   إِلَيْهِ فِيْ خُدْعَةٍ قَدْ رَاحَ نَاوِيْهَا
وَقَالَ: إِنِّيَ أَرْضَى ٱلْخَلْعَ أَحْكُمُ فِيْـــهِ ثُمَّ شُوْرَاكَ قَدْ أَصْبَحْتُ بَاغِيْهَا
وَإِنَّ إِرْضَاءَ رَبِّ ٱلْعَرْشِ أَفْضَلُ مِنْ   إِرْضَاءِ صَحْبِيَ فِيْ إِغْضَابِ بَارِيْهَا
وَكَانَ عَمْرُوٌ بِذِيْ ٱلْأَقْوَالِ يَخْدَعُ عَبْـــدَ ٱللَّهِ مُسْتَرْسِلاً فِيْمَا يُضَاهِيْهَا
حَتَّى ٱسْتَنَامَ إِلَى مَا كَانَ يَسْرُدُهُ   مِنْهَا وَمَا خَالَهُ يَهْزَا بِهِ فِيْهَا
وَهٰكَذَا ٱتَّفَقَا أَنْ يَتْرِكَا عَلَناً   خِلَافَةَ ٱلْمُصْطَفَى شُوْرَى لِأَهْلِيْهَا

وَيَخْلَعَـا جَهْـرَةً عَنْهَـا مُعَـاوِيَـةً   وَٱلْمُرْتَضى خَلْعَةً مَا ٱلْعَدْلُ رَاضِيْهَـا

إعلان حكم الحكمين

مَـرَّتْ عَلى هُدْنَـةِ ٱلْإِسْلَامِ مِـدَّتُهَـا   وَٱلنَّـاسُ تَسْتَطْلِعُ ٱلْأَخْبَـارَ مُنْبِيْهَـا(١)
وَلَمْ تَكُنْ تَتَـرَجَّى أَنْ يَسُـوْدَ عَـلى   رُبُـوْعِهَـا ٱلسِّلْمُ أَوْ تَصْفُـوْ لَيَـالِيْهَـا

---

(١) لم تكن دومة الجندل سجناً لعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ولا صومعةً أنزويا فيها فلا يقابلان أحداً بل كان يقصدهما الناس بين حين وآخر وعرفنا من الذين زاروهما المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكانوا يجتمعون بهما ويحادثونهما على أنَّ هؤلاء الزوار كان منهم مَن هواه مع معاوية كالمغيرة وكان معتزل القتال ومنهم مَن كان يطلبها لنفسه كعبد الله بن الزبير ومنهم مَن كان هوى بعض الناس معه كعبد الله بن عمر بن الخطاب ومع أنّ اختلاط الناس بالحكمين مما يؤثر على آرائهما مع ذلك فأحسب أنّ مسألة التحكيم ابتدأت بالحيلة وانتهت بالحيلة فلم يؤثّر عليها مؤثّر ما وخلاصة ما في الأمر أنَّ الأشعث الذي كان يشجع الناس على قبول التحكيم لم يكن قطّ مخلصاً بطريقته لا في صحبة علي ولا ضدّه وأنَّ أبا موسى كان متعشقاً حكم عمر بن الخطاب وكل عملٍ ينمي إليه فمنذ دعي إلى الحكومة وضع نصب عينيه شيئاً واحداً وهو ترك الأمر شورى في قريش كما تركها عمر ولبلاهته لم يفرّق بين حالة الناس عند وفاة عمر وحالتهم بعد موقعة صفين وأنَّ الناس إذا قبلوا بالستّة الذين حصر فيهم عمر الخلافة فذلك لأنّهم من أصحاب رسول الله الذين جاهدوا معه ولأنَّ معاوية والأمويين كانوا وراءَهم يكرهونهم على ذلك الرضاء ولكن هيهات أن يقبلوا بغيرهم فلا تفترق كلمتهم ولا سيما إذا كان المزاحم على الخلافة معاوية وهو كما نعلم من الطلقاء وهم مشركو قريشٍ الذين ظلّوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن نصره عليهم بدخوله مكة المكرمة عنوةً وفاته أخيراً أنَّ معاويةً لا يتخلى عن الخلافة سواءٌ حكم الحكمان بتخليه عنها أو لم يحكما . أمَّا عمرو بن العاص وهو أبو حيلة التحكيم وأمُّها فكان هواه معروفاً وهو عامل على تنفيذه كيفما كانت الحالة .

ولقد عرفنا أنَّ الأيّام انقضت بعضها تلو البعض وعمرو بن العاص يروغ من أبي موسى روغان الثعلب وهذا لا يتحوَّل عن رأيه وفي الأخير تظاهر عمرو بالإقتناع برأي أبي موسى والنزول على حكمه وأرسل الحكمان في رمضان سنة ٣٧ هـ إلى سيدنا علي=

لِعِلْمِهَا أَنَّ فِي أَرْضِ ٱلشَّآمِ أُنَا   سٌ لَا تَرُوْمُ سِوَى تَأْمِيْرِ وَالِيْهَا

=ومعاوية يطلبان منهما أن ينتدبا من يحضر من قبلهما إلى دومة الجندل لسماع الحكم فأوفد سيدنا علي أربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هانىء الحارثي ومعه عبد الله بن عباس يصلّي بهم وصحبهم الأشعث أيضاً وأرسل معاوية أربعمائة مقاتلاً بقيادة يزيد بن أسد القسري فلما بلَغ الفريقان دومة الجندل خرج إليهم الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص فقال هذا لأبي موسى كعادته من خداعه تكلّم يا عبد الله فأنت مقدم عليَّ وقد صحبت رسول الله قبلي فأنت أكبر منّي سناً وقدراً ثمَّ أتكلم أنا فتقدم عبد الله بن عباس من أبي موسى وقد رأى من عيني عمرو بن العاص الخديعة وقال له : ويحك والله ، إنّي لأظنه خدعك ، إن كنتما اتفقتما على أمر ، فقدمه قبلك ليتكلم به ، ثمَّ تكلم أنت بعده ، فإنّه رجل غدّار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك . فجبهه أبو موسى قائلاً : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا وتركه وأقبل على الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أيّها الناس ، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمّة ، فلم نرَ شيئاً هو أصلح لأمرها ، وألمُّ لشعثها ، من أن لا تتباين أمورها ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي ، على خلع علي ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، يولون أمورهم من أحبّوا ، وإنّي قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم ، وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . وتنحى بعد هذا القول الأخرق فأقبل عمرو بن العاص وهو يتهادى تهادي المنتصر ، وحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال : إنَّ هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنّه وليُّ عثمان ، والطالب بدمه ، وأحقُّ الناس بمقامه . وما كاد يفوه عمرو بن العاص بهذه الكلمات حتى نزلت على سمع أبي موسى كالصاعقة فامتقع لونه وارتجفت أعصابه وصاح بملء فمه : ما لك لا وفقك الله قد غدرتَ وفجرتَ ، إنّما مثلك مثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، وإن تركته يلهث . فقال عمرو وهو يتبسم تبسم الساخر ببلاهته : إنّما مثلك مثل الحمار ، يحمل أسفاراً . وبينما كان أبو موسى وعمرو بن العاص يتلاحيان كان الهرج والمرج قد ساد الناس فتقدم شريح بن هانىء من عمرو بن العاص وقنعه بالسوط وحمل عبد الله بن عمرو بن العاص على شريح فقنعه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهما فجعل شريح يقول أخطأت إذ لم أضرب عمراً بالسيف بدل السوط أتى الدهر ما أتى . واغتنم فرصة الهرج عمرو بن العاص وأبو موسى فهربا من بين الناس مختفيين وصاح في الناس سعد بن=

=قيس الهمداني وكان من أصحاب سيدنا علي عليه السلام فقال : والله لو اجتمع الحكمان على هدى ، ما زادا بأعلى مما نحن عليه ، وما ضلالهما يلازم لنا ، وما رجعا إلاّ بما بدءا به ، وإنّا اليوم لعلى ما كنّا عليه أمس . فاعترضه يزيد بن أسد القسري وهو أمير أصحاب معاوية فقال : يا أهل العراق ، اتّقوا الله ، فإنَّ أهون ما تردُّونا وإيّاكم إليه الحرب ، ما كنّا عليه بالأمس ، وهو الفناء ، وقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الهلاك ، وأصبح كلُّ امرىءٍ يبكي على قتيل ، ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم ، وكرهتم آخره ؟ إنّه ليس لكم وحدكم الرضى . فجبهه أهل العراق وسفهوه وقال شاعرهم :

لآليت من يرضى من الناس كلهم ... بعمروٍ وعبد الله في لجة البحرِ
رضينا بحكم الله لا حكم غيره ... وبالله ربّاً والنبيّ وبالذكرِ
وبالأصلع الهادي عليٍّ إمامنا ... رضينا بهذا الشيخ في العسر واليسرِ
رضينا به حياً وميتاً وأنّه ... إمامُ الهدى في الحكم والنهي والأمر
فمن قال لا قلنا بلى إنَّ أمره ... لأفضل ما نعطاه في ليلة القدرِ
وما لابن هندٍ بيعة في رقابنا ... وما بيننا غير المثقفة السمرِ
وضرب يزيل الهام عن مستقره ... وهيهات هيهات الرضى آخر الدهرِ
أبت ليَ أشياخ الأراقم سبةً ... أسبُّ بها حتى أغيَّب في القبرِ

وهكذا انصرف أهل العراق للعراق وأهل الشام للشام وفي النفوس ما فيها من الأحقاد والأضغان وأيقنت الناس أنَّ لا صلح ولا سلام .

« ترجمة أبي موسى الأشعري »

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر بن عمر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر . وأمّه بنت أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قدم على رسول الله وأسلم وهو صلى الله عليه وآله وسلم في مكة قبل هجرة الحبشة والأكثرون على أنَّ أبا موسى لم يهاجر إلى الحبشة بل أسلم وعاد إلى اليمن ولم يزل فيها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على المصطفى فوافق يوم قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة فوافوا رسول الله في خيبر فظنَّ قوم أنَّ أبا موسى قدم من الحبشة =

وَقَلَّ مَنْ ظَنَّ خَيْرَاً فِيْ ٱلْحُكُـوْمَةِ مَـا دَامَ ٱبْنُ قَيْسٍ مَعَ ٱبْنِ ٱلْعَاصِ مُجْرِيْهَا

= مع جعفر . وصحب أبو موسى المصطفى مدةً ثمَّ ولَّاه ﷺ عدناً والساحل بجوارها (لحج وأبين وما جاورهما) . وولاه أبو بكر زبيداً من مخاليف اليمن . وفي عهد عمر بن الخطاب كان أبو موسى مع فاتحي الشام وشهد خطبة عمر في الجابية ووفاة عمر بن الجرّاح ثمَّ إنّ عمر ولَّى أبا موسى على البصرة سنة ١٧ هـ لمَّا عزل المغيرة عنها وبأمره فتح أبو موسى نصيبين في تلك السنة وفتح بأمره أيضاً الأهواز وأصبهان سنة ٢٣ هـ وعاد إلى البصرة فظلَّ فيها إلى صدرٍ من خلافة عثمان حيث عزله هذا الخليفة وولَّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩ هـ فغضب وسار إلى الكوفة فسكنها وفي نفسه ما فيها على عثمان وعمّاله .

وبقي الأشعري في الكوفة إلى أواخر أيام عثمان حيث هبَّ الكوفيون لمناوأة عثمان وأكثروا من الشكوى على واليه عليهم سعيد بن العاص فطلبه عثمان إليه مع من طلب من الولاة ثمَّ أعاده إلى الكوفة فأبى أهلها قبوله وأعادوه إلى عثمان ونادوا بأبي موسى والياً عليهم وذلك لما أنسوه فيه من الإنصراف إلى الصلاة والعلم بالكتاب ولشرف صحبته لرسول الله وقُتل عثمان والكوفة بولاية أبي موسى وبويع سيدنا علي خليفةً للمسلمين فأخذ عليه السلام ينظر في أمر العمّال ويستبدل الذين كثرت منهم الشكوى فأصرَّ الأشتر على إبقاء أبي موسى على ولاية الكوفة محسناً الظنَّ به شاهداً باستقامته وعدله فوافقه سيدنا علي على ذلك . ولمّا خرج أصحاب الجمل إلى البصرة وتغلبوا عليها وبطشوا بطشتهم بعامل سيدنا علي عليها كتبوا إلى أبي موسى أن ينضمَّ إليهم مع أهل الكوفة فأبى وأعلن حياده متعهداً أن لا يكون ضدَّهم وقال جهراً إنّها فتنة يتحاشاها فلما تبع سيدنا علي أصحاب الجمل ووصل إلى الربذة كان عليه السلام متأكداً أنّ أهل الكوفة شيعة له وأنَّ أبا موسى من الأمناء لبيعته فكتب إليه يطلب المدد فرفض وكان بعد ذلك ما مرَّ بنا تفصيله من ذهاب الأشتر إلى الكوفة وطرده أبا موسى منها فخرج أبو موسى إلى داخلية العراق وظلَّ خمسة أشهر مقاطعاً سيدنا علي ثمَّ عاد إليه تائباً وبايعه ومضى بعد ذلك إلى الشام فأقام في إحدى قراها في موضع سمّوه « عرضاً » وما عرفت أين موقعه وظلَّ هناك إلى أن انتهت موقعة صفين بالتحكيم واختاره الناس حكماً عن أهل العراق وكان من أمره في التحكيم ما قد رأينا .

وبعد فشله في التحكيم وظهور خديعته فرَّ إلى مكة غاضباً على عمرو بن العاص =

وَعِنْدَمَا حَانَ نُطْقُ ٱلْحُكْمِ وَٱلسَّنَةُ ٱلْـــمَضْرُوْبَةُ ٱلْوَعْدِ قَدْ وَافَتْ مُحِيْلِيْهَا

وَافَــتْ وُفُــوْدُ عَـلِيٍّ دُوْمَــةً وَوُفُــوْ دُ ٱلشَّـآمِ وَٱلضِّغْنُ بَـادٍ مِنْ مَـآقِيْهَـا

«وَٱلْعَيْنُ تَعْـرِفُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَـدِّثِهَـا إِنْ كَانَ مِنْ حُزْبِهَـا أَوْ مِنْ أَعَادِيْهَـا»

وَعِنْـدَمَا عَقَـدَتْ تِلْكَ ٱلْـوُفُـوْدُ حِبَـا هَـا وَٱسْتَقَـرَّ بِهَـا لِلْحُكْمِ نَـادِيْهَـا

وَافَى إِلَيْهَـا أَبُوْ مُـوْسَى بِمَـظْهَـرِ مَنْ حُقُـوْقُ شَرْعِ إِلٰـهِ ٱلْعَرْشِ مُـوْفِيْهَـا

وَكَــانَ يَتْبَعُـهُ عَمْــروٌ بِمَشِيَــةِ مُخْـــتَالٍ فَحُـوْرٍ يُجِيْـدُ ٱلــدَّلَّ وَٱلتِّيْهَـا

فَـٱسْتَقْبَلَ ٱلْحَكَمَيْنِ ٱلنَّـاسُ مُبْشِـرَةً وَقَـدْ حَفَى بِهِمَـا بِـٱلصَّفْـوِ حَـافِيْهَـا

وَقَـالَ عَمْروٌ: أَبَـا مُوْسَى فِـدَاكَ أَبِيْ مِنْ سَيِّــدٍ بَلَغَ ٱلْجَـوْزَاءَ تَـوْجِيْهَــا

لَقَــدْ صَحِبْتَ رَسُــوْلَ ٱللَّهِ قَبْلِيَ ثُــــمَّ فِتَّنِيْ بِسِنِيِّ ٱلْعُمْــرِ طَـاوِيْـهَـا

لَكَ ٱلتَّقَدُّمُ فِيْ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ أُذُنُ ٱلْإِ م سْــلَامِ تُصْغِيْ إِلَيْـهِ كُنْ مُنَــاجِيْهَـا

وَزُخْـرُفُ ٱلْقَوْلِ غَـرَّ ٱلْأَشْعَرِيَّ فَلَمْ يَفْـطَنْ لِحِيْلَةِ عَمْـروٍ كَيْ يُحَـاشِيْهَـا

وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحَمْدِ ٱلْوَفِيْرِ عَلَى ٱلْـــرَّبِّ ٱلْقَـدِيْـرِ إِلٰـهِ ٱلنَّـاسِ ذَارِيْهَــا

ثُمَّتْ عَلَى ٱلْمُصْطَفَى صَلَّى صَلَاةَ أَمِيْـــنٍ مُسْلِمٍ كُـلُّ ذِيْ تَقْـوَى يُصَلِّيْهَـا

وَقَـالَ: يَا نَـاسُ بِتْنَـا نَـاظِـرِيْنَ مَلِيًّـــاً فِيْ أُمُــوْرِكُمْ كَيْمَـا نُــوَاسِـيْهَـا

= وعلى نفسه وعلى كلّ ما حوله وكان يزعم أنّه أراد نصيحة الأمّة وظلّ في هاتيك المدينة المقدّسة إلى أن مات واختلف الناس في سنة موته فقالوا إنّها سنة ٤٢ هـ وقالـوا سنة ٥٠ والله أعلم .

وأبو موسى هذا هو الذي نبه عمر بن الخطاب إلى وجوب تأريخ كتبه وذلك عندما تولّى البصرة سنـة ١٧ هـ فكان تنبيهـه هذا سبباً لوضـع التاريـخ الهجري على مـا تقدم القول في حاشية سبقت .

وكان أبو موسى قصيراً خفيف اللحم حسن الصوت جيد القراءَة إلاّ أنّه كـان فائـل الرأي على بساطة تسهل معها خديعته على ما رأينا من أمره في التحكيم سامحه الله .

فَلَمْ نَرَ ٱلْخَيْرَ فِيْ ٱسْتُصْلَاحِ أُمَّتِكُمْ   مِنْ بَعْدِ أَنْ عَاثَهَا بِٱلشَّرِّ عَاثِيْهَا
وَكَيْ نَلُمَّ بِصَافِيْ وُدِّهَا شَعَثاً   بِهَا فَفَرَّقَ تَفْرِيْقاً مُحِبِّيْهَا
إِلَّا بِخَلْعِ عَلِيٍّ مَعْ مُعَاوِيَةٍ   خَلْعاً بِهِ ٱلشِّرْعَةُ ٱلسَّمْحَاءُ نُرْضِيْهَا
وَٱلْأَمْرُ نُبْقِيْهِ شُوْرَى بَيْنَ أُمَّتِنَا   لِتَنْتَقِيْ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ يُمَالِيْهَا
ذَا مَا عَلَيْهِ لَقَدْ تَمَّ ٱلْوِفَاقُ مَعَ آبْـ   ـنِ ٱلْعَاصِ أَعْلُنُهُ فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
وَإِنَّنِيْ خَالِعٌ مَعْهُ مُعَاوِيَةً   وَٱلْمُرْتَضَى خَلْعَةً كُوْنُوْا مُرِيْدِيْهَا
وَلْتَخْتَرِ ٱلنَّاسُ مَنْ تَرْضَى لِأُمْرَتِهَا   كِفْئاً كَرِيْماً يُرَقِّيْهَا وَيُهْنِيْهَا
وَمَا ٱنْتَهَتْ قَوْلَةُ ٱلْمَخْدُوْعِ وَهْوَ بِهَا   يَجُدُّ مَا كَانَ يَدْرِيْ ٱلْهَزْلُ يُغْمِيْهَا
حَتَّى تَصَدَّى لَهُ عَمْرٌو بِلَا خَجَلٍ   يُشَوِّهُ ٱلْحَقَّ بِٱلتَّضْلِيْلِ تَشْوِيْهَا
وَقَالَ: يَا نَاسُ هٰذَا قَالَ قَوْلَتَهُ   وَكُنْتُمُ سَامِعِيْهَا وَهْوَ تَالِيْهَا
فِيْهَا لَقَدْ خَلَعَ ٱلْيَعْسُوْبَ صَاحِبَهُ   عَنِ ٱلْخِلَافَةِ أَضْحَى مِنْهُ مُخْلِيْهَا
وَإِنَّنِيْ قَدْ خَلَعْتُ ٱلْيَوْمَ حَيْدَرَةً   مَعْهُ وَخَلْعَتُهُ بِٱلْعَدْلِ نَأْتِيْهَا
لٰكِنَّنِيْ مُثْبِتٌ جَهْراً مُعَاوِيَةً   فَوْقَ ٱلْخِلَافَةِ تُعْلِيْهِ وَيُعْلِيْهَا
هٰذَا وَلِيُّ ٱبْنِ عَفَّانٍ وَرَبُّكَ أَعْـ   ـطَاهُ ٱلْوِلَايَةَ فَهْوَ مِنْهُ عَاطِيْهَا
وَإِنَّهُ بِٱلدَّمِ ٱلْمَهْدُوْرِ يَطْلُبُ أَعْـ   ـدَاهُ ٱلَّتِيْ قَتَلَتْهُ فِيْ تَعَصِّيْهَا
لِذَا بِإِمْرَتِهِ قَدْ كَانَ أَجْدَرُ مِنْ   كُلِّ ٱلْوَرَى فَهْوَ بِسْمِ ٱللَّهِ رَاقِيْهَا
وَأَحْدَثَ ٱلشَّغَبَ ٱلْقَوْلَانِ وَٱضْطَرَبَتْ   مَعَاشِرُ ٱلنَّاسِ مِنْ مَغْنَى مُكِيْدِيْهَا
وَهَالَ صَحْبَ عَلِيٍّ أَنْ يَفُوْزَ بِعَبْـ   ـدِ ٱللَّهِ عَمْرٌو فَيُغْوِيْهِ وَيُخْزِيْهَا
وَٱغْتَاظَ غَيْظاً أَبُوْ مُوْسَى لِخِزْيَتِهِ   أَمَامَ أَصْحَابِهِ وَٱلْحِقْدُ فَاشِيْهَا
وَقَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرٌو غَدَرْتَ بِنَا   وَقَدْ فَجَرْتَ فَلَا لَاقَيْتَ تَرْفِيْهَا

ثُمَّ تَبَادَلَ هٰذَانِ ٱلسِّبَابَ بِأَقْوَالِ ٱلْبَذَاءَةِ كَانَ ٱلْحُقْدُ يُمْلِيْهَا
وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ عَمْروٍ شَرِيْحُ بِضَرْ بَاتِ ٱلسِّيَاطِ يُؤْذِيْهِ تَتَالِيْهَا
كَذَاكَ صَحْبُ عَلِيٍّ بِٱلْعَجُوْزِ لَقَدْ هَمَّتْ تُرِيْدُ بِهِ أَسْوَا مَآتِيْهَا
فَلَمْ تَنَلْهُ ٱخْتَفَى عَنْهَا وَسَارَ إِلَى أُمِّ ٱلْقِرَى خَلْسَةً إِذْ رَاحَ لَاجِيْهَا
وَعَادَ كُلُّ فَرِيْقٍ نَحْوَ مَوْطِنِهِ وَفِيْ ٱلنُّفُوْسِ حِزَازَتٌ تُلَظِّيْهَا
وَأَيْقَنَ ٱلنَّاسُ أَنْ لَا سِلْمَ يُرْفِهُهَا وَٱلْحَرْبُ بَالِغَةٌ مِنْهَا أَمَانِيْهَا

معاوية بعد نبأ التحكيم

خِدَاعُ عَمْروٍ خِفَافُ ٱلطَّيْرِ قَدْ حَمَلَتْـــهُ لِاٰبْنِ حَرْبٍ سَرِيْعَاً فِيْ خَوَافِيْهَا[1]
أَوِ ٱلْخَدِيْعَةُ كَانَ ٱلرِّيْحُ نَاقِلَهَا إِلَى مَسَامِعِهِ حَالاً وَرَاوِيْهَا

---

(١) هرب عمرو بن العاص من بين الناس واختفى عن العيون والأرصاد في إحدى غرف دومة الجندل مطمئناً إلى نجاحه مرتاحاً إلى عمله وأخذ القرطاس فكتب إلى معاوية :

أتتك الخلافة مزفوفةً	هنيئاً مريئاً تُقرُّ العيونا
تُزفُّ إليك زفاف العروس	بأهون من طعنك الدارعينا
وما الأشعريُّ بصلد الزناد	ولا خامل الذكر في الأشعرينا
ولكن أتيحت له حبَّة	يظلُّ الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنتُ أمرءاً	أجهجه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هندٍ على بعدها	فقد دافع الله ما يحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم	عدوّاً مبيناً وحرباً زبونا

وما انتهت أشعار عمرو بن العاص إلى معاوية حتى طار فرحاً وسروراً بها وازداد فرحاً عندما اطلع على نتيجة التحكيم وأسرع فدعا الناس إلى مبايعته فبايعه أهل الشام خليفةً واستقرَّ حكمه فيهم لا يتعداهم وأخذ يفكر بتوسيع أمره في بلاد الخلافة رويداً رويداً اتّكالاً على سعة حيلته وتساهله مع الناس وعلى نفرة الناس من حكم سيدنا أمير =

فأَعْلَنَ ٱلنَّاسَ خَلْعَ ٱلْمُـرْتَضَى وَدَعَا هَـا كَيْ تُبَـايِعَـهُ جَهْـراً بِـأَيْـدِيْهَـا
وَإِنَّ دَعْـوَتَـهُ أَلْـفَـتْ بِـأَنْـفُسِ آ هَـالِ ٱلشَّـآمِ هَـوىً وَافَتْ تُلَبِّيْهَـا
وَعَـادَ عَمْـروٌ إِلَيْهَـا وَهْـوَ مُنْتَصِـرٌ فَـٱسْتَقْبَلَتْهُ بِـآيِ ٱلْمَـدْحِ تُسْـدِيْهَـا
وَحَـلَّ أَسْمَى مَحَـلٍّ عِنْـدَ صَاحِبِهِ وَبَـاتَ مِنْـهُ قَـرِيْـرَ ٱلْعَيْنِ هَـانِيْهَـا
لٰكِنَّ بَيْعَـةَ إِبْنِ ٱلصَّخْرِ قَـدْ قَصُـرَتْ عَلَى ٱلشَّـآمِ وَمَـا جَـازَتْ أَهَـالِيْهَـا
وَإِنَّمَـا كَانَ يَـرْجُـوْ فَتْـحَ مَمْلَكَـةِ ٱلْإِ سْـلَامِ بِـٱلسَّيْفِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا
فَـوَاصَـلَ ٱلْعَـزْمَ فِيْ تَحْقِيْقِ رُغْبَتِـهِ وَمِـثْلُهُ لَـمْ يَكُـنْ وَٱللَّهِ مُـرْجِـيْـهَـا
إِذْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ ٱلنَّـاسَ تُوْجِـدُ فِيْ ظِـلَالِـهِ تِـرْفَـةً يَـحْلُوْ تَـفَيِّـيْـهَـا
لِـذَا تُـفَضِّـلُهُ عَـمَّـنْ يُـحَـاوِلُ أَنْ يَعُـوْدَ مَعْهَـا إِلَى قَـاسِيْ تَبـدِّيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلاً مَا فِيْ ٱلْعِرَاقِ مِنَ ٱلـ ـشِّقَـاقِ وَٱلنَّـاسُ يُـوْهِيْهَـا تَجَـزِّيْهَـا
وَإِنَّــهُ مَـعَ عَمْـروٍ بِـٱحْتِيَـالِهِمَـا قَـدْ يَظْفَـرَانِ بِذِيْ ٱلـدُّنْيَا وَمَـا فِيْهَـا
وَيَبْلُغُ ٱلْأُمْـرَةَ ٱلْـعُلْيَـا بِسُؤْدُدِهَـا مَهْمَا ٱلْمَصَاعِبُ حَالَتْ دُوْنَ بَاغِيْهَـا
وَبَاتَ يَطْمَـعُ فِيْ نَهْبِ ٱلْخِلَافَـةِ أَقْـ ـطَاعاً وَكَانَ ٱخْتِلَافُ ٱلنَّاسِ مُغْيِيْهَـا

أمير المؤمنين بعد نبأ التحكيم

أَمَّـا ٱلْإِمَامُ فَلَمْ يَجْهَـلْ مَكِيْـدَةَ عَمْـ ـروٍ كَـانَ مُنْتَظِراً كَيْـداً يُحَـاكِيْهَـا[1]

= المؤمنين الذي يأبى إلّا إرجاعهم إلى القرآن وسنّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان اتّكاله بالأكثر على ما عرفه يقيناً من اختلاف أهل العراق فيما بينهم مما يضعف أمرهم أمامه وما كان في ذلك فائل الرأي ضائع الحساب .

وبعد قليل وصل عمرو بن العاص إلى الشام فاستقبله معاوية بغاية التجلة والإكرام وأحلّه المحل اللائق به من الإجلال والإحترام .

(١) هرب أبو موسى الأشعري من أيدي أصحاب سيدنا علي وهو موقن أنّهم =

وَكَانَ أَدْرَى ٱلْـوَرَى بِٱلْأَشْعَرِيِّ وَمَا   فِيْ نَفْسِـهِ مِنْ خُـوَارٍ كَـانَ مُـوْهِيْهَـا

= قاتلوه لا محالة لو ظفروا به وقصد رأساً مكة معتصماً بالكعبة كرمها الله محتمياً بها وهو على أشدّ الندم والغيظ وكان يقول لمن يصادفه : والله لقد حذَّرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأنيت إليه وظننت أنّه لا يؤثّر شيئاً على نصيحة الأمّة . ونحن بدورنا نقول لا ندري والله ما هي نصيحة الأمّة التي أرادها أبو موسى بإخلاء الخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام وهو من الأمّة على ما نعلم ويعلم في محل القطب من الرحى كما نجهل ما كان يريد بترك الأمر شورى بين قوم كلّ منهم يريدها لنفسه وما فيهم بإجماع الأئمة من يعادل سيدنا أمير المؤمنين بوجه من الوجوه ولكن قُدّر فكان .

ولما انتهى نبأ ما كان من أمر التحكيم وخديعة أبي موسى الأشعري إلى سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام لم يقع منه في موقع الغرابة لأنّه كان مقدراً هذه النتيجة السوداء المحزنة وخرج إلى الناس في المسجد فعلا المنبر خطيباً فقال : « الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل ، وأشهد أنَّ لا إلَه إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، ليس معه له غيره ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، صلّى الله عليه وآله ، أمّا بعد ، فإنَّ معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرَّب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلت لكم مخزون رأيي ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنَّ الزند بقدحه ، فكنت أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمري بمتعرج اللوى   فلم تستبينوا النصح إلاَّ ضحى الغد

إلاَّ أنَّ هذين الرجلين ، اللذين اخترتموهما ، قد نبذا حكم الكتاب ، وأحييا ما أمات ، واتّبع كلٌّ منهما هواه ، وحكم بغير حجّة ولا بينة ولا سنّة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يرشد الله ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا في معسكركم » اهـ وعندما نزل أمير المؤمنين عن المنبر اعترضه الناس بين متقمقم يلومه على الحكومة وهو غير ملوم ومتفانٍ بالانتصار له يطلب منه أن يسرع بالهجوم .

« قصة قصير »

استشهد سيدنا علي عليه السلام بالمثل المشهور « لو كان يطاع لقصير أمر » فحسن لنا أن نسرد قصة قصير هذا فنقول : =

فَمُـذْ تَبَلَّغَ مَـا قَـدْ كَـانَ مِنْ نَبَـإِ آلــــتَّحْكِيْمِ وَآلْحِيْلَةِ آلسُّوْءَى وَمُجْرِيْهَـا

= كان في سنة ٢١٥ مسيحية ملك على الحيرة يدعى جذيمة بن مالك الأزدي وكان ذكياً شجاعاً انتصر في حروب كثيرة وكان أبرص ولكن الناس تأدباً كانوا يلقّبونه بالأبـرش أو الوضاح وكان جذيمة يأنف من منادمة النـاس منفرداً بنفسـه وكان سلوتـه الوحيـدة ابن أخته رقاش ويدعى عمرو ففقد خلسةً وجزع عليه أشدّ الجـزع وبعد مـدة عثر بعمـرو هذا رجلان من بني القين فأتيا به إلى جذيمة ففرح فرحاً عظيماً وخيرهما في المكافأة فاختارا منادمته ما عاش وعاشا فنادمهما أربعين سنة وسُرَّ من صحبتهما ولم يفرّق بينه وبينهما إلاَّ الموت وضربت النـاس بهما المثـل في دوام الصحبة فقـالوا « كنـدماني جـذيمة » وقـال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً مضمناً هذا المثل :

وكنـا كنـدمـاني جـذيمـة حقبـةً من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعـا
فلمّـا تفـرَّقنـا كـأني ومـالكـاً لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معـا

وكـان على عهد جـذيمة ملك من العمـاليق يدعى عمـرو بن الظرب وكـان يملك الجزيرة وأعالي الفرات ومشـارق الشام وكـانت عاصمتـه « تدمـر » فزحف إليـه جذيمـة ونـاصبه الحـرب حتى قتله وخلفت جذيمـة على الحيرة ابنته زينب الملقبة « بـالـزبـاء » وكانت وافرة الجمـال وافية الـذكاء كـاملة الاحتيال ومـا كادت تستلم زمـام الملك حتى أقـامت فيه من معـالم الإصلاح مـا جعلها مضـرب الأمثـال . وكـانت وهي مجـدّة وراء سياسة مملكتها عاملة على رقيها تفكر بالانتقام لأبيها من الأبرش قاتله وإذ رأت أنَّ أخذه عنوةً بحرب يتعذَّر عليها عمدت إلى الحيلة فطفقت تحسن مخاطبته وتكثـر من مراسلتـه بحجـة تأييـد السلم بين بلاديهمـا حتى إذا ما شعـرت من كتبه أنّـه بات على ثقـة منهـا أرسلت تخطبه لنفسها وتدعوه إليها ليقترنا ويضمـا مملكتيهما إلى مملكـة واحدة . فلمـا انتهى كتاب الزبـاء إلى جذيمـة الأبرش ارتـاح إليه وشـاور بما فيـه من أمر زواجهـا أهل خاصته فوافقوه عليه إلاّ وزيره قصير بن سعد اللخمي . وكـان هذا في الأصـل من عبيد جذيمة ولما ظهر عليه من الذكـاء وحسن الرأي حـرَّره واستوزره فـإنَّ قصيراً هـذا خالف أصحاب جذيمة وما فات سداد رأيـه ما في نفس الـزباء من سيـده وقال : « الـرأي أن تكتب إلى الزباء أن تحضر إليك فإن كانت صادقة النية لبت الطلب وأمّـا أنت يا مـولاي فإيّاك أن تذهب إليها وتقع في حبالتها وقد وترتها بقتل أبيها فـأبى جذيمـة الإصغاء إليـه وقد خالف مشيـريه وأزاده تشجيعـاً على إجابتهـا ابن أخته عمـرو بن عدي . فهـزَّ قصير =

وَافَى إِلَى آلنَّاسِ فِي سَامِيْ عَزِيْمَتِهِ   وَآلنَّـاسُ تَعْـرِفُـهُ مَـا هَمَّ يُمْضِيْهَـا
وَقَـالَ لِلَّهِ حَمْـدِيْ فَـآحْمَـدُوْهُ مَعِيْ   وَإِنْ أَرَتْـنَـا لَيَـالِـيْـنَـا كَـوَادِيْـهَـا

= كتفيه وقال « لا يطاع لقصير أمر » .

وصحت عزيمة جذيمة على الذهاب إلى الزباء فاستخلف عمراً ابن أخته على ملكه وسار بخاصته إلى تدمر وفيهم قصير وما كاد يدنو منها حتى أرسلت الزباء وفوداً من قبلها لاستقباله ومعهم الهدايا فقال جذيمة لقصير ما رأيك في هؤلاء القادمين علينا ؟؟ فقال : أعلم أنَّ هؤلاء هم جنود الزباء فإن ساروا أمامك فلا تخفهم وسر معهم وإن أحاطوا بك فاعلم أنّهم غادرون فاهرب على جوادك وما هو إلّا القليل حتى وصل رجال الزباء فأحاطوا بجذيمة ولم تفت قصير المكيدة فأدبر راجعاً إلى الحيرة .

ولما بلغ جذيمة تدمر سار به أصحاب الزباء إلى قصرها وعندما أدخلوه عليها بادرته جواريها فأخذنَ بضبعيه وأجلسنه على النطع وقطعن راهشيه ومددن ذراعيه على طست كي لا يضيع شيءٌ من دمه وما زال دمه يسيل حتى فاضت روحه وجمعت الزباء دمه في ربعةٍ (وعاء العطر) وحفظته في خزائنها . وفي خلال مقتل جذيمة على هذا الشكل كان رجال الزباء أوقعوا برجاله فأهلكوهم .

أمّا قصير فعندما بلغ الحيرة أخبر الناس بما ينتظر من الكيد لجذيمة فاجتمعوا وملكوا ابن أخته عمراً بن عدي عليهم وكان قصير يحرّض عمراً على الأخذ بثأر خاله جذيمة إلّا أنَّ عمراً كان يهاب الإقدام على ذلك لما سمعه من حيطة الزباء لنفسها وكثرة ما لديها من قوَّة فعمد قصير إلى الحيلة وجدع أنفه وصلم أذنيه وسار إلى الزباء وهو يظهر الحقد على عمرو بن عدي مدعياً أنّه هو الذي فعل به ما فعل انتقاماً لخاله بحجة أنّه هو الذي أشار عليه بالمسير إلى الزباء فلما رأت هذه قصيراً على ما ذكرنا وسمعت قوله انطلت عليها حيلته وأنزلته في قصرها وأكرمت مثواه وجعلته موضع شوراها فاغتنم الفرصة واطلع على دخائلها في قصرها وعرف فيه نفقاً متصلاً بخارج السور فأسرَّ ما عرف بنفسه ثمَّ ادَّعى أنّه يملك أموالاً وفيرة في الحيرة واستأذن أن يسير إليها ليأتي بها فأذنت له فخرج إلى الحيرة وأطلع عمراً بن عدي على سرّ النفق وجاءَ بألفي فارس شاكي السلاح وجعلهم في غرائر (أي أكياس كبيرة) وجعل كل غرارتين على جمل وجعل عمراً حادي تلك الجمال ومضى بها إلى تدمر حتى إذا ما دخلتها أسرع قصير إلى الزباء وقال لها أبشري فقد جئتك بما صأى وصمت أي الإبل والذهب فاصعدي =

وَإِنَّنِي شَاهِدٌ أَنْ لا إِلَهَ سِوَا ... هُ لِلْخَلائِقِ أُنْسِيهَا وَجِنِّيْهَا
وَإِنَّ أَحْمَدَ خَيْرَ ٱلْخَلْقِ أَجْمَعِهَا ... رَسُوْلُهُ ٱلْمُصْطَفَى لِلنَّاسِ يَهْدِيْهَا
صَلَّىٰ ٱلْإِلٰهُ عَلَيْهِ كُلَّمَا سَطَعَتْ ... شَمْسٌ عَلى أَرْضِنَا تُجْلِيْ دَيَاجِيْهَا
وَبَعْدُ يَا صَحْبَنَا فَإِنْ أَتَاهَا فَٱلدَّهْرُ ذُوْ غِيَرٍ ... فَأَبْعِدْ أَنْ نُحَاشِيْهَا

= إلى أعلى سور القصر لتنظريها فصعدت وأرسلت طرفها إلى المدينة فرأت الجمال تكاد تسوخ أقدامها في الأرض من ثقل أحمالها وبينما كانت تنظر إليها وإذا بها قد انيخت وخرجت الرجال من غرائرها وجعلت تعمل السيف بأهل المدينة .

وكان قصير عندما بلغ تدمر سار بعمرو بن عدي إلى باب النفق الخارجي وأدخله فيه وقال أسرع إلى داخل القصر وقف عند باب النفق الآخر حتى إذا ما جاءَت الزباء لتدخل النفق وتهرب استقبلها بسيفك وانتقم منها لخالك ففعل . وبالفعل عندما رأت الزباء المكيدة أسرعت إلى النفق لتهرب فوجدت عمراً في وجهها مشهراً سيفه فأسرعت إلى خاتم مسموم بأصبعها فامتصته وقالت « بيدي لا بيد عمرو » ووقعت ساقطةً عند قدميه تجود بنفسها فأجهز عليها واستحوز على أموالها ودكَّ معالم قصرها . وكان ذلك سنة ٢٧٢ مسيحية أي بعد أربع سنوات من قتل خاله ومات عمرو سنة ٢٨٨ مسيحية .

هذا خلاصة ما أورده العرب عن الزباء أمّا مؤرخو الإفرنج فيدعون الزباء ملكة تدمر ويقولون إنّها حاربت الرومان وانتصرت عليهم غير مرةٍ إلى أن انتصر عليها الأمبراطور الروماني « أورليان » فأسرها ونقلها إلى رومة وماتت فيها .

« أبيات دريد بن الصمة »

أمّا البيت الذي استشهد به سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام فهو من قصيدة حماسية منسوبة لدريد بن الصمة شاعر هوازن وهاك بعضها :

نصحتُ لعرَّاضٍ وأصحاب عارضٍ ... ورهط بني السوداءِ والقوم شهَّدي
علانيةً ظنوا بألفي مدجَّجٍ ... سراتهمُ في الفارسي المسرَّدِ
أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النصح إلاّ ضحى الغدِ
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى ... غوايتهم أو أنني غير مهتدي
وما أنا إلاّ من غزيَّة إن غوت ... غويتُ وان ترشد غزية أرشد

وَإِنَّ مَعْصِيَةَ ٱلنَّدْسِ ٱلشَّفِيْقِ أَخِيْ ٱلـــنُّصْحِ ٱلْمُجَرَّبِ لَمْ تُؤْمَنْ مَخَاشِيْهَا

فَتُوْرِثُ ٱلْحَسَرَاتِ ٱلْكُثْرَ صَاحِبَهَا   وَتُعْقِبُ ٱلنَّدَمَ ٱلْمَوْفُوْرَ آتِيْهَا

وَفِيْ ٱلْحُكُوْمَةِ أَمْرِيْ قَدْ أَمَرْتُكُمُ   إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ خَافِيْهَا كَبَادِيْهَا

وَقَدْ نَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُوْنَ رَأْيِي فِيْـــهَا مُوْصِلاً حَالَهَا ٱلْمُشْجِي بِآتِيْهَا

لٰكِنْ عَرَفْنَا « قَصِيْراً » لَا يُطَاعُ لَهُ   أَمْرٌ إِذَا ذَكَرَ ٱلْأَمْثَالَ نَاسِيْهَا

وَقَدْ أَبَيْتُمْ وَيَا ذُلَّاهُ مَشْوَرَتِيْ   إِبَاءَةٌ لَيْسَ مِنْ شَرٍّ يُوَازِيْهَا

خَالَفْتُمُوْنِي جُفَاةً فِيْ تَتَبُّعِهَا   نَابَذْتُمُوْنِيْ عُصَاةً فِيْ تَحَدِّيْهَا

حَتَّى قَدِ ٱرْتَابَ رَيْباً فِيْ نَصِيْحَتِهِ   نَصِيْحُكُمْ فَهُوَ يَأْبَى أَنْ يُثَنِّيْهَا

وَزَنْدُ فِكْرَتِهِ مَا عَادَ يَقْدَحُ نِيْـــرَانَ ٱلرَّوِيَّةِ فَٱلْعُصْيَانُ مُطْفِيْهَا

وَكُنْتُ مَعْكُمْ كَمَا كَانَتْ هَوَازِنُ مَعْ   نَصِيْحِهَا إِذْ عَصَتْهُ فِيْ مَخَاطِيْهَا

وَهَا هُمَا حَكَمَاكُمْ كَانَ حُكْمُهُمَا   مُخَالِفاً آيَ رَبِّيْ لَا يُرَانِيْهَا

هُمَا لَقَدْ نَبَذَا أَحْكَامَ شَرْعِهِمَا ٱلْأُم غَرِّ لَمْ يُرْسِيَاهَا فِيْ مَرَاسِيْهَا

وَأَحْيَيَا مَا أَمَاتَ ٱلشَّرْعُ مِنْ بِدَعٍ   وَمَوَّتَا سُنَناً وَٱلشَّرْعُ مُحْيِيْهَا

وَكَانَ كُلُّهُمَا وَٱللَّهِ مُتَّبِعاً   هَوَاهُ وَٱلنَّفْسُ تُغْوِيْ مَنْ يُهَاوِيْهَا

قَضَى بِلَا حُجَّةٍ زَهْرَاءَ وَاضِحَةٍ   وَسُنَّةٍ لِرَسُوْلِ ٱللَّهِ نَدْرِيْهَا

لِذَا قَدِ ٱخْتَلَفَا فِيْمَا ٱحْتَكَمَا   فِيْ أَمْرِكُمْ لِمُنًى فَسْلُ تَوَخِّيْهَا

كِلَاهُمَا ٱللَّهُ لَمْ يَرْشُدْ فَقَدْ غَوِيَا   غِوَايَةً نَحْنُ نَمْشِيْ فِيْ غَوَاشِيْهَا

فَلِلْجِهَادِ ٱسْتَعِدُّوْا وَٱلْعُصَاةُ لَتَأْ   بَى أَنْ يَكُوْنَ سِوَى ٱلنِّيْضَالِ قَاضِيْهَا

وَكَانَ يَخْطُبُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ حَيْدَرَةٌ   وَنَغْمَةُ ٱلْخِزْلِ فِيْ خَافِيْ مَطَاوِيْهَا

لَقَدْ أَسَاءَتْ إِلَيْهِ أَمْسِ وَٱنْصَرَفَتْ   إِلَى عَدَاوَتِهِ ذَا ٱلْيَوْمَ تُبْدِيْهَا

عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَتْ ظُلْماً تُؤاخِذُهُ بِرَغْبَةٍ قَدْ أَصَرَّتْ أَنْ تُجَرِّيْهَا

مَا آسْطَاعَ تَحْوِيْلَهَا عَنْ شَرِّ رَغْبَتِهَا بِأَمْسِهَا عِنْدَمَا وَافى يُفَاهِيْهَا

وَآلْيَوْمَ تَنْقِمُ مِنْهُ فِيْ نَتِيْجَتِهَا بَغْيَاً وَشِرَّتُهَا صَعْبٌ تَلَافِيْهَا

كَذَا آلْخِلَافَةُ بَاتَتْ فِيْ مَتَاعِبِهَا بِحَالَةٍ لَمْ تَكُنْ تُرْضِي مُحِبِّيْهَا

فَفِيْ آلْعِرَاقَيْنِ قَدْ هَبَّ آلْخَوَارِجُ لِلْـ ـحَرْبِ آلْعَوَانِ فَلَمْ تَهْدَأْ سَوَافِيْهَا

وَفِيْ آلشَّامِ آبْنُ حَرْبٍ بَاتَ يَطْمَعُ فِيْ أَرْضِ آلْخِلَافَةِ طُرَّاً فَهْوَ غَازِيْهَا

وَآلْمُرْتَضَى كَانَ يَلْقَى آلْكَارِثَاتِ بِعَزْ مٍ لَا يُفَلُّ فَتَلْقَاهُ تَمَاسِيْهَا

وَصَحْبُهُ آنْصَرَفَتْ لِلْحَرْبِ تَنْصُرُهُ عَلَى آللَّيَالِي آلَّتِيْ أَدْجَتْ دَيَاجِيْهَا

أمير المؤمنين ومؤلهوه

أَتَى آلْوَصِيُّ فِعَالاً فَوْقَ طَاقَةِ أَهْـ ـلِ آلْأَرْضِ مَا مِنْهُمُ تَاللَّهِ يَأْتِيْهَا[1]

هِيَ آلْخَوَارِقُ قَدْ أَضْحَى عَلَى يَدِهِ آلـ ـرَّحْمٰنُ خَالِقُهُ لِلنَّاسِ يُجْلِيْهَا

---

(١) لا جرم أنّ ما أتى أمير المؤمنين عليه السلام من الخوارق التي يعجز عن إتيانها البشر قد جعل في أنفس معاصريه ومشاهدي كمالاته ومعجزاته شكّاً في حقيقته فذهب قوم إلى أنه نبيّ ولكن ما يصنعون بقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو « لا نبيّ بعدي » ؟ وقال غيرهم إنّ الجوهر الإلٓهي حلَّ في بدنه على نحو ما قال النصارى في عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام وغلا آخرون فقالوا إنّما هو الإلٓه الواحد الخالق الرازق تنزّه الله عمّا كفروا وقد روى الرواة الثقاة عن هؤلاء الكفرة الذين ألّهوا المرتضى وعبدوه روايات شتّى وأجمعوا على أنّه عليه السلام عندما عجز عن إعادتهم إلى الهدى أحرقهم بالنار ليلاشي بدعتهم ويبيد كفرهم .

ولقد عرف المصطفى بما كشف الله عن بصيرته لمعرفة الغيب ما سيكون لابن عمّه وأخيه ووصيّه وصنوه المرتضى عليهما الصلاة والسلام من الشأن العجيب عند الناس فنبهه إلى ذلك وقال « يهلك فيك رجلان محبّ غال ومبغض قال » وقال له مرّةً « والذي نفسي بيده لولا أنّي أشفق أن يقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النصارى في =

فَكَانَ بِـالآتِيَـاتِ الْـوَاقِعَـاتِ يُفَـا   هِيْ النَّاسَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَجْرِيْ وَيُنْبِيْهَا
وَبِـالْبَـوَاهِـرِ مِنْ نُصْـحٍ وَمِنْ حِكَمٍ   يُـزِيْنُ أَقْـوَالَـهُ الْغَـرَّا وَيُحْلِيْـهَـا
وَأَوْقَفَ الشَّمْسَ عَنْ مَـرْئِيِّ دَوْرَتِهَا   أَوِ اسْتَضَـاءَ بِـأَنْـوَارٍ تُحَـاكِيْـهَـا
وَبَجَّسَ الْمَاءَ مِنْ صَخْرٍ وَمِنْـهُ سَقَى   جُيُـوْشَـهُ وَارْتَـوَتْ مِنْـهُ مَـوَاشِيْهَـا

=ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة ».

أمّا قصة أولئك الذين ألّهوا المرتضى فأول من جهر بهذا الكفر منهم هو عبد الله بن سبأ وتبعه نفر من الناس قالوا كانوا مرةً في المسجد الجامع في الكوفة فعلا المرتضى عليه السلام المنبر خطيباً وبينما هو يخطب في الناس قاطعه عبد الله وطفق يصيح أنت أنت ولا يزيد فقال له المرتضى ويلك من أنا ؟ فقال عبد الله أنت الله فأمر أمير المؤمنين بالقبض عليه مع شيعته وزجهم في السجن وهو مغتاظ ثمّ أسرع إلى سجنهم فلقيهم فيه وطفق يقنعهم بأنّه إنسان مثلهم وعبد من عبيد الله يحاكيهم ووضع خده على التراب وقال لهم ويلكم إنّما أنا عبد من عبيد الله فاتّقوا الله وارجعوا إلي الإسلام فأصرّوا على الكفر واستمروا على طغيانهم وهم يصيحون بل أنت إلّهنا وخالقنا ورازقنا ، وعندما أعيته الحيل معهم هاب أن تتفشى دعوتهم في الناس فأمر فحفرت لهم حفرتان تتصلان ببعضهما بسرب وأمر أن توقد النيران بإحداهما وأن يوضع أولئك الكفرة في الأخرى ليؤذيهم دخانها فيرتدعون فلمّا صاروا في حفرة الدخان استتابهم وتوعدهم فأبوا وأصرّوا على الكفر فأمر بزجهم في حفرة النار وعندما بلغوها صاحوا « الآن ظهر لنا ظهوراً بيناً أنّك أنت الإلّه لأنّ ابن عمّك الذي أرسلته قال لا يعذّب بالنار إلّا ربّ النار » وكان هذا آخر كلامهم واحترقوا .

وروى بعضهم أنّ زعيم هذه الفئة الضالة عبد الله بن سبأ أظهر التوبة وتوسط له بعض الناس لدى أمير المؤمنين فعفا عنه ونفاه من الكوفة إلى المدائن وظلّ فيها مخفياً كفره حتى قتل أمير المؤمنين عليه السلام فلمّا بلغه نبأ قتله قال والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرّة لعّلمنا أنّه لم يمت ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه قالوا واجتمع حول عبد الله بن سبأ هذا بالمدائن جماعة على هذا الكفر وكانت لهم دعوة تبعها كثيرون وبقيت باقيتهم زمناً طويلاً .

وَبِـالْكَمَـالِ تَـجَلَّى إِذْ تَـنَـزَّهَ عَنْ نَقَائِصِ النَّاسِ بِالْإِجْمَاعِ تَنْزِيْهَا
لِـذَا غَـلَتْ فِئَـةٌ فِيْـهِ بِقَـوْلَتِهَـا وَأَلَّـهَتْـهُ مَعَـاذَ اللَّهِ تَـأْلِـيْهَـا
وَنَبَّـأَ الْمُصْـطَفَى مِنْ قَبْـلُ حَيْـدَرَةً بِـأَمْـرِهَـا وَهْـوَ خَـاشٍ مِنْ تَغَـالِيْهَـا
فَقَـالَ: يَهْلَكُ مَنْ يَغْلُوْ بِحُبِّـكَ أَوْ يَغْلُوْ بِبُغْضِـكَ وَالنِّيْـرَانُ يَشْـوِيْهَـا
لَـوْلَا الْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمٍ تَقُـوْلُ كَمَـا قَالَ النَّصَارَى بِعِيْسَى فِيْكَ يَجْرِيْهَا
لَقُلْتُ فِيْـكَ مَقَالاً يَسْتَثِيْـرُ هَـوَى الـ ـنُّفُوْسِ نَحْوَكَ مِنْ أَقْصَى مَـطَاوِيْهَا
وَلِلتَّبَـرُّكِ تَـقْنِيْ النَّـاسُ أَتْـرِبَـةً مِنْ تَحْتِ نَعْلِكَ إِذْ فِيْ السَّيْرِ تُذْرِيْهَا
وَكَـانَ مَـا قَـالَ طَـهَ وَانْجَلَتْ فِئَـةٌ وَحُبُّ حَيْـدَرَةٍ بِـالشِّـرْكِ مُغْـوِيْهَـا
فَـأَلَّـهَتْـهُ وَضَـلَّتْ فِـيْ مَـحَبَّتِـهِ عَنِ الْهِـدَايَـةِ وَاجْتَـازَتْ مَثَـاوِيْهَـا
أَجَـلْ فَقَدْ كَـانَ عَبْـدُ اللَّهِ إِبْنُ سَبَـا لِلشِّـرْكِ قَـائِـدَهَـا جَهْـرَاً وَمُغْـرِيْهَـا
وَذَاتِ يَـوْمٍ أَمِيْـرُ الْمُؤْمِنِينَ عَـلَا فِيْ ذُرْوَةِ الْمِنْبَرِ الْكُـوْفِيِّ عَـالِيْهَـا
وَرَاحَ يَنْشُـرُ هَـاتِيْـكَ الْجَـوَاهِـرَ مِنْ فِيْـهِ عَلَى النَّاسِ فِيْ زَاهِيْ تَـلَالِيْهَا
وَأَعْيُنُ النَّـاسِ لَا تَنفَـكُّ تَحْـدُجُـهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَـدْبٍ وَهْوَ مَـالِيْهَا
كَـذَاكَ آذَانُهَـا تُصْغِيْ لِحِكْمَتِـهِ الْـ ـغَرَّا الَّتِيْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ يُلْقِيْهَـا
وَبَيْنَمَـا هُـوَ فِيْ غَـرَّاءِ خُـطْبَتِـهِ مُسْتَـرْسِلاً يَقْـرَعُ الْأَسْمَاعَ يُشْجِيْهَـا
وَإِذْ دَوَى صَـوْتُ عَبْدِ اللَّهِ وَهْـوَ يُنَـا دِيْ: أَنْتَ أَنْتَ فَنَادَى الْمُرْتَضَى إِيْهَا
وَقَـالَ: وَيْلُكَ يَـاذَا مَنْ أَكُـونُ أَنَـا أَجَـابَ: أَنْتَ إِلَـهُ الْخَلْقِ بَـارِيْهَا
فَـأَظْلَمَ النُّـوْرُ فِيْ عَيْنَيْ أَبِيْ حَسَنٍ غَيْـظَاً وَسَفَّهَ مُبْدِيْ الشِّـرْكَ تَسفِيْهَـا
وَقَـالَ: هَيَّ امْسُكُـوْهُ مَـعْ جَمَـاعَتِـهِ فَـإِنَّهُمْ شَـوَّهُـوْا الْإِيْمَـانَ تَشْـوِيْهَا
حَتَّى إِذَا حَـبَسُـوْهُـمْ رَاحَ يُقْـنِعُـهُمْ بِـأَنَّـهُ مِنْ عِبَـادِ اللَّهِ يَحْكِيْـهَـا

فَلَمْ يُفِدْ وَعْظُهُ فِيهِمْ وَلاَ قَنِعُوْا ... بِأَنَّهُ فِيْ ٱلْبَرَايَا مِنْ أُنَاسِيْهَا

فَهَالَهُ أَمْرُهُمْ هَوْلاً وَدَعْوَتُهُمْ ... لِلْكُفْرِ أَصْبَحَ يَخْشَى مِنْ تَفَشِّيْهَا

وَقَالَ: هَيَّ آحْرُقُوْهُمْ إِنَّ أَنْفُسَهُمْ ... إِبْلِيْسُ بِٱلْكُفْرِ وَٱلْإِشْرَاكِ طَاغِيْهَا

وَطَهِّرُوْا ٱلْأَرْضَ مِنْ طُغْيَانِهِمْ فَقَدِ آرْ ... تَدُّوْا عَنِ ٱلشِّرْعَةِ ٱلسَّمْحَا وَمُوْحِيْهَا

وَأَعْلَنُوا ٱلْكُفْرَ وَٱلْكُفَّارُ لَيْسَ لَهَا ... إِلَّا لَظَى ٱلنَّارِ فِيْ ٱلدَّارَيْنِ تَصْلِيْهَا

فَبَادَرَتْ حَفَرَتْ أَعْوَانُ حَيْدَرَةٍ ... حَفِيْرَةً أَلْهَبَتْ نِيْرَانَهَا فِيْهَا

وَأَوْصَلَتْهَا بِأُخْرَى لِلدُّخَانِ وَيَا ... سِرْعَانَ مَا بَاتَتِ ٱلْكُفَّارُ تَأْوِيْهَا

فَجَاءَهَا وَهْيَ فِيْ وَسْطِ ٱلدُّخَانِ يُنَا ... دِيْ أَنْ تَتُوْبَ فَمَا لَبَّتْ مُنَادِيْهَا

فَقَالَ: هَيَّ ٱنْقُلُوْهَا لِلسَّعِيْرِ فَمَا آرْ ... عَوَتْ وَلَا كَانَ ذَا ٱلدُّخَّانُ كَافِيْهَا

فَأَرْسَلُوْهَا إِلَى ٱلنِّيْرَانِ تَحْرِقُهَا ... فَلَمْ تَهَبْهَا وَظَلَّتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا

كَانَتْ تَقُوْلُ جِهَاراً: لَا يُعَذِّبُ بِٱلـ ... ـنِّيْرَانِ إِلَّا إِلٰهُ ٱلنَّارِ ذَارِيْهَا

إِنَّ آبْنَ عَمِّكَ طَهَ كَانَ أَنْبَأَنَا ... بِذَا وَنَبَّهَنَا مِنْ قَبْلُ تَنْبِيْهَا

وَقَدْ أَصَرَّتْ عَلَى طُغْيَانِهَا وَمَضَتْ ... فِيْهِ وَمَا آتَّعَظَتْ حَتَّى تَلَاشِيْهَا

أمير المؤمنين وصاحب الحلوى

وَافَى أَبَا حَسَنٍ يَوْماً أَخُوْ طَمَعٍ ... يَشْرِيْ وَلَاهُ بِحَلْوَى رَامَ يُهْدِيْهَا[1]

وَكَانَ يَطْلُبُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمُصَانَعَةِ ٱلـ ... ـسُّوْءَى مِنَ ٱلْمُرْتَضَى رُغْبَى يُرَجِّيْهَا

---

(١) خطر لأحد ذوي المطامع الراغبين عن الحق المقدمين على الباطل أن يتقرّب من سيدنا أمير المؤمنين بحلوى يكتسب بها رضاءَه فيسعف أمله بحاجةٍ له وإذ كان يعرف أنَّ عمله غير شرعي أتاه في ظلمة الليل فاحتمل في وعاءٍ حلوى طبخها وسار بها إلى منزل أمير المؤمنين عليه السلام فقرع الباب والناس نيام فخرج بنفسه الشريفة إلى الباب وفتحه وهو مستغرب تلك الزيارة في جنح الظلام وقد روى سيدنا علي نفسه ما =

وَافَاهُ فِي ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ وَقَدْ … كَانَ ٱلْأَمِيرُ يُنَاجِي رَبَّهُ فِيهَا

فَبَادَرَ ٱلْبَابَ يَسْتَجْلِيْ خَبِيْئَةَ هَا … تِيْكَ ٱلزِّيَارَةِ وَٱلْإِبْهَامُ غَاشِيْهَا

وَإِذْ بِشَخْصٍ وَفِي يُمْنَاهُ يَحْمِلُ حَلْـ … ـوَاهُ فَسَلَّمَ وَهْوَ مِنْهُ يُدْنِيْهَا

فَصَاحَ: وَٱعَجَبِي مِنْ طَارِقٍ بِظَلَا … مِ ٱللَّيْلِ دَاراً بِهَا قَدْ قَرَّ آوِيْهَا

وَفِي يَدَيْهِ لَنَا مَلْفُوفَةٌ بِوِعَا … ءٍ كَانَ فِيْهِ عَنِ ٱلرَّائِي مُغَطِّيْهَا

مَعْجُونَةٌ عُجِنَتْ فِيْمَا إِخَالُ بِرِيْـ … ـقِ ٱلصِّلِّ أَوْ قَيْئِهِ أُفٍّ لِطَاهِيْهَا

وَقَالَ: هَلْ ذِيْ زَكَاةٌ أَمْ لَنَا صِلَةٌ … أَمْ فِيْ عَطَا صَدَقَاتِ ٱلْبِرِّ تُعْطِيْهَا

مُحَرَّمٌ ذَا عَلَيْنَا نَحْنُ آلُ رَسُوْ … لِ ٱللَّهِ هَيْهَاتَ مَا كُنَّا مُحِلِّيْهَا

نَادَاهُ: لَاذَا وَلَاذَا ذِيْ هَدِيَّةُ مَنْ … يَرْجُوْ رِضَاكَ بِهَا ذَا سُؤْلُ مُهْدِيْهَا

فَهَبَّلَ ٱلْمُرْتَضَى رَبَّ ٱلْهَدِيَّةِ نَا … دَى إِنَّهَا خِدْعَةٌ يَا صَاحِ تَأْتِيْهَا

وَافَيْتَ تَخْدَعُنِيْ عَنْ دِيْنِ رَبِّيَ يَا … ذَا فِيْ هَدِيَّةِ مِطْمَاعٍ يُزَجِّيْهَا

هَلْ أَنْتَ مُخْتَبِطٌ أَمْ أَنْتَ تَهْجُرُ مَحْـ … ـمُوْماً أَمِ ٱلْجِنَّةُ ٱلْكُبْرَى تُؤَاخِيْهَا

وَٱللَّهِ لَوْ كُنْتُ أُعْطَى مَا تُقِلُّ أَقَا … لِيْمُ ٱلْبَرِيَّةِ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَا

= كان بينه وبين صاحب الحلوى فقال : « أعجب من طارق ، طرقنا بملفوفةٍ في وعائها ، ومعجونةٍ شنئنها ، كأنما عجنت بريق حيَّةٍ أو قيئها ، فقلت : أصلةٌ أم زكاةٌ أم صدقةٌ ، فذلك محرَّم علينا آل البيت ، فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هديَّةٌ . فقلتُ هبلتك الهبول ، أعن دين الله أتيتني لتخدعني ، ؟ أمختبط ؟ أم ذو جنة ؟ أم تهجر ؟ والله لو أعطيتُ الإقاليم السبعة ، بما في تحت أفلاكها على أن أعصي الله ، في نملة أسلبها جَلب شعيرةٍ ، ما فعلته ، وأنَّ دنياكم عندي ، لأهون من ورقةٍ ، في فم جرادةٍ تقضمها ، ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى ، ولذَّةٍ لا تبقى ، نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين » اهـ قال أمير المؤمنين هذا وعاد إلى داخل داره مستأنفاً مناجاة ربِّه على عادته ورجع صاحب الحلوى بحلواه يتعثر بأذيال الفشل وقد ضاع رجاه .

عَلَى مُعَاصَاةِ رَبِّي بِاَغْتِصَابِ نُمَيْـ ـلَةٍ جُلَيْبَ شَعِيْرٍ كُنْتُ آبِيْهَا
أَهْوِنْ بِدُنْيَاكُمْ يَا نَاسُ فِيْ نَظَرِيْ مَهْمَا تَغَالَى ٱلْمُغَالِيْ فِيْ تَقَنِّيْهَا
إِنِّي لَأَحْسَبُهَا مِثْلَ ٱلْوُرَيْقَةِ فِيْ فَمِ ٱلْجِرَادَةِ أَسْرِعْ أَنْ تُلَاشِيْهَا
مَا لِلْعَلِيِّ وَلَذَّاتٍ تَزُوْلُ وَلَا تَبْقَى وَنُعْمَى كُرُوْرُ ٱلدَّهْرِ يُفْنِيْهَا
أَعُوْذُ بِٱللَّهِ مِنْ شَرِّ ٱلسُّبَاتِ لِعَقْـ ـلِيْ أَوْ خُطَى زَلَلٍ قَدْ ضَلَّ خَاطِيْهَا
وَأَسْتَعِيْنُ بِهِ وَهُوَ ٱلْمُعِيْنُ عَلَى حُقُوْقِ دِيْنِيْ وَأَرْجُو أَنْ أُوَفِّيْهَا
قَدْ قَالَ هٰذَا لِذِيْ ٱلْحَلْوَى وَعَادَ إِلَى صَفَاءِ خَلْوَتِهِ طُوْبَى لِرَاضِيْهَا
وَسَارَ رَاشِيْهِ بِٱلْحَلْوَى وَخَيْبَةُ مَسْـ ـعَاهُ بِرَشْوَتِهِ ٱلْخُزْلَانُ تَالِيْهَا

أمير المؤمنين وأخوه عقيل

فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى رَبْعَ ٱلْأَمِيْرِ عَقِيْـ ـلٌ طَالِباً مِنْهُ جَدْوَى كَانَ يَبْغِيْهَا[١]
نَادَاهُ: أَنْتَ شَقِيْقِيْ وَٱلْعِيَالُ عَلَى طَوَىً وَمَنْ يَا تَرَى إِلَّاكَ يَكْفِيْهَا

---

(١) إنَّ أعظم ما صرف الناس عن سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام من بدء خلافته إلى نهايتها هو عدم محاباته الناس في توزيع الأموال عليهم والعدل في قسمتها بينهم على السوية كما أنّ أعظم الأسباب التي مكنت معاوية من مناهضة سيدنا علي أولاً وفوزه بالخلافة ثانياً هو توزيعه الأموال بغير حساب على كلّ من كان يرجو نفعه أو يخاف شرَّه . وكان سيدنا عليّ مقيداً نفسه بأوامر القرآن الشريف وسنّة ابن عمّه رسول الله عليهما الصلاة والسلام ومن جملتها المساواة في العطاء بين عموم المسلمين شريفهم ومشروفهم قديمهم في الإيمان وحديثهم لأنّه كان يعرف قدر الآية العظيمة التي نزلت على محمد بن عبد الله وهي ﴿ إنّما المؤمنون إخوة ﴾ وكان يدرك حقَّ الإدراك وهو إمام المتشرعين أنَّ من شروط الأخوَّة المساواة في الحقوق ولا تكون أخوَّة حيث لا يكون تساوي . وكان يدخل في هذا التساوي جميع المسلمين حتى أولاده وإخوته وأبناء عمّه وفي اعتقاده أنّ آل البيت الطاهر وآل بيت النبوّة لا يجوز أن يكونوا عالة على المسلمين أو على بيت مال المسلمين كما أنّه عليه السلام كان يرى أنَّ من كان ذا فضلٍ في =

فَقَالَ: أَبْشِرْ عَطَائِيْ يَا أُخَيَّ أَنَا   أُعْطِيكَهُ وَٱلْعَطَايَا قَدْرَ مُعْطِيْهَا

= المسلمين أو جهادٍ في سبيل الإسلام فإنَّ جزاءَه على ربّه في يوم الدين .

وحدث أنَّ عقيلاً وهو أخ شقيق لأمير المؤمنين كان كثير العيال وقد مال إلى الترف شأن أكثر المسلمين الذين مالوا إليه بعد أن اتّسعت المملكة الإسلامية وتوفَّرت أسباب الترف للمسلمين فيها وبعد أن استنَّ الأمويون على عهد عثمان سنّة التوسعة على ذويهم ومحبّيهم بدعوى أنّهم آل البيت المالك فقصد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام يسترفده في أواخر سنة ٣٨ للهجرة على ما أرجّح مدعياً أنّه كثير العيال وأنَّ عطاءَه من بيت مال المسلمين لا يكفيه بينما خيرات الخلافة تساق إلى أخيه وهو أمير المؤمنين . فتلطف به سيدنا علي وقال له : إنَّ بيت المال ، هو للمسلمين وليس لي ، ومنا أنا إلّا واحد من المسلمين ، فانظرني ريثما أقبض عطائي فأعطيك بعضه . فغضب عقيل وألحف بالسؤال وقال : لست أسألك أن ترفدني من عطائك وهو لا يكاد يكفيك ولكن أعطني من بيت مال المسلمين ونحن أحقُّ به من سوادهم . فتبسم عليه السلام وقال : أقم إلى يوم الجمعة والقني في الجامع فظنَّ عقيل أنّه بعد صلاة الجماعة سيحقق سؤله ويفتح له خزائن بيت المال فيوسّع عليه منها وانصرف على أن يعود إليه في اليوم الموعود .

وفي يوم الجمعة امتلأ جامع الكوفة بالمصلّين وأقيمت الصلاة وعند نهايتها علا سيدنا أمير المؤمنين المنبر كعادته فخطب في الناس مرهباً مرغباً بفصاحته المشهورة وبلاغته المأثورة فخلب الأسماع وأشجى النفوس بما نثر من درر الكلام ثمَّ نزل عن المنبر فاستدعى إليه أخاه عقيلاً وكان بين المصلّين وقال له : ما تقول في مَن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال عقيل : بئس الرجل هو . فضحك أمير المؤمنين وقال : فأنت تطلب مني أن أخونهم وأميّزك عنهم بالعطاء . فاستاء عقيل وتركه ومضى .

ثمَّ إنَّ عقيلاً صبر مدةً على القصد ونفسه تطمع بالتوسعة في الرزق وكان يتألم ممّا هو فيه من خشن العيش مع عياله فرجع إلى أخيه أمير المؤمنين ملحفاً بالسؤال طامعاً بالنوال فعرض عليه عطاءَه ثانيةً فأباه وهو لا يرى فيه ما يبلغه مطامعه فضلاً عمّا يورث أخاه من الضيق لو أخذ عطاءَه وسار غاضباً مغتاظاً فجمع صبيته وجاء بهم إلى أخيه أمير المؤمنين والبؤس والضرُّ ظاهران عليهم فلما رأى عليه السلام إلحاف عقيل قال جئني في المساء لأدفع إليك شيئاً فتركه وعاد بأولاده وفي المساء عاد إلى أخيه وفي حال =

وَلَا يَجُودُ يَدٌ إلّاَ بِمَا وَجِدتْ   مَهْمَا يَعُزُّ عَلَيْهَا قَدْرُ عَافِيْهَا

= وصوله له مدَّ أمير المؤمنين شيئاً في يده وقال : دونك هذا . فأهوى عقيل على العطية يحرص عليها وقد غلبه الجشع ولم تكد تلمسها يده حتى خار كما يخور الثور تحت يد جازره لأنّها كانت حديدةً محماةً بالنار . فضحك أمير المؤمنين وقال : ثكلتك أمك ، أتخور من حديدةٍ أوقدت لها نهار الدنيا ؟ فكيف بك وبي غداً إن سلكنا في سلاسل جهنم ؟ . ثمَّ قال له ليس لك عندي إلّا ما ترى . فغضب عقيل وانصرف عنه وسرعان ما ارتحل بعياله إلى الشام يطلب رفاه العيش في ظلّ معاوية .

وعندما بلغ عقيل الشام استقبله معاوية بالتجلة والإكرام شأنه مع كل الذين كانوا يقصدونه من أشراف قريش ليعتزَّ سلطانه بهم ويتخذ التفافهم حوليه حجةً على رضاء المسلمين بخلافته وكراهتهم لخلافة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام . وأمر له يوم قدومه بمئة ألف درهم وقال له رفّه بها عيالك ولك مثلها كلما نفدت . ثمَّ قال له وهو يحسب أنّه امتلك نفسه بعطائه : يا أبا يزيد ، أأنا خير أم عليّ ؟ . وكان عقيل جريئاً بديه الجواب فقال : وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك . فاحتمل معاوية هذا الجواب وكان حمولاً لغلظة قريش فيما يجبهونه به تفرغاً لعداء سيدنا علي وحده ولعلمه أنَّ قريشاً بأجمعها تعتبره مغتصباً الخلافة فهو مضطرٌّ إلى مداراتها والصبر عليها حتى لا تجتمع كلمتها ضدَّه وتنضمّ إلى سيدنا علي وتحاربه تحت راية الخلافة .

وظلَّ عقيل في الشام يتنعم بأموال المسلمين التي كان يغدقها معاوية عليه استجلاباً لرضائه وكان كثيرون من قريش عائشون في الشام بكرم معاوية مثله وفي ذات يوم بينما كان معاوية في مجلسه ووجوه الناس حوله وفيهم عقيل . خطر لمعاوية أن يلقي كلمةً يحطُّ بها من قدر سيدنا علي ويرفع نفسه فقال : هذا أبو يزيد بينكم ، لولا علمه أنّي خير له من أخيه ، لما أقام عندنا وتركه . فغضب عقيل لهذا التعريض بأخيه وقال : إنَّ أخي خيرٌ لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ، وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير . فخجل معاوية وسكت .

على أنَّ مسير عقيل إلى معاوية وإقامته عنده قد ترك سبيلاً لأعداء سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام أن يطعنوا بحكمه وينالوا منه فاختلفوا لارتحاله عنه أسباباً مختلفة كقول بعضهم أنّه تركه ومضى لأنّه ألفاه على غير الحق . وقول آخرين إنّ عقيلاً ترك أخاه ومضى لأنّه رأى معاوية أفضل منه وأحقّ بالخلافة . ونحو ذلك من الأقوال التي أرادوا =

فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَكْفِيْنِي عَـطَاؤُكَ وَآلـــدُّنْيَـا تُسَـاقُ لأَيْـدِيْ هَـاشِمِيِّيْهَـا

= بنشرها بين الناس تنفيرهم عنه . وأنت تعلم أنَّ الناس يصدّقون كل ما يسمعون من غير تحقيق ولا تدقيق وقد اتّصل لغط هؤلاء الأعداء بأمير المؤمنين فعزَّ عليه أن ينال أعداؤه منه ويحوّلوا فضيلته في عدم تمييزه أخاه عن سائر المسلمين إلى نقيصةٍ فيه فصعد المنبر في صلاة الجمعة خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرَّ في الأغلال مصفَّداً ، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاضباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حلولها ، والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحني من برّكم صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غُبر الألوان ، من فقرهم ، كأنّما سُوّدت وجوههم بالعظلم ، وعاودني مؤكّداً ، وكرَّر عليَّ القول مردّداً ، فأصغيت إليه سمعي ، فظنَّ أنّي أبيعه ديني وأتّبع قياده ، مفارقاً طريقتي ، فأحميت له حديدةً ثمَّ أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضجَّ ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد يحترق من مسّها ، فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسان للعبه ، وتجرّني إلى نار سجرها جبّارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ » اهـ .

قال هذا أمير المؤمنين عليه السلام ونزل عن المنبر وهو مرتاح الضمير إذ شافه المسلمين بحقيقة ما كانوا عليه مختلفين . أمّا الناس فلما وعوا هذا القول الصراح وفيه فصل الخطاب ، آبوا إلى رشدهم في قصة عقيل ، وابتعدوا عن الظنّ والتأويل ، وتركوا ما كانوا فيه من قالٍ وقيلٍ ، وانصرفوا معجبين ، من عدل أمير المؤمنين ، وإبائه خيانة المسلمين ، ولو بمساعدة أخيه وهو من الأقرباء الأدنين .

وقد تقع في موقع الغرابة قصة عقيل مع سيدنا علي هذه عند الناس في هذه الأيام فيعجبون من سيدنا أمير المؤمنين الذي أبى مساعدة أخيه من بيت مال المسلمين وكان مطلق التصرف فيه يستطيع أن يعطيه منه ما يشاء على نحو ما كان يفعل عثمان مع الأمويين وعلى نحو ما يعهدوه بالملوك والأمراء في سائر أزمنة التاريخ القديم ولكن الذين يعرفون نصوص الشريعة الإسلامية التي تقضي بأن يكون الخليفة أميناً على بيت المال غير متصرف فيه والتي لا ترضى بتمييز مسلم على آخر سواءٌ في ذلك الشريف والمشروف والقريب والبعيد ويضيف إلى هذا معرفة أخلاق أمير المؤمنين ورغبته الأكيدة =

= بأن يكون بنو هاشم قدوة الناس في الزهد وقصد العيش يتحول عجبه هذا إلى إعجاب بذلك الإمام العظيم الذي أخذ على عاتقه الشريف تنفيذ نصوص الشريعة وأنّه عليه السلام كان يرى أنّها لا تنفّذ بالدقة بين الناس إلّا إذا نفذها على نفسه وأبنائه وإخوانه ليكونوا قدوةً لغيرهم . وحاشا لله أن يجيز أمير المؤمنين لنفسه ما كان ينكره على عثمان وإن أجازه معاوية ومن تبعه من الخلفاء .

« ترجمة عقيل »

هو عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم فهو أخ شقيق لسيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام وابن عمّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان لفاطمة بنت أسد من أبي طالب بن عبد المطلب أربعة أولاد ذكور بين الواحد والآخر عشر سنوات أكبرهم طالب والثاني عقيل والثالث جعفر والرابع سيدنا علي فهو أصغرهم ويكبره عقيل صاحب الترجمة بعشرين سنة . ولأبي طالب من غير فاطمة أولاد آخرون سبق لنا ذكرهم في حاشية سبقت .

وكان أبو طالب كثير الشغف بعقيل يدلك على ذلك قوله لأخيه العباس وابن أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما قصداه ليأخذا منه بعض أولاده فيخففون عنه مؤونتهم في سنة الغلاء كما تقدمت الإشارة « دعوا لي عقيلاً وخذوا من تشاؤون » وقد أشار المصطفى إلى هذا بقوله لعقيل : « يا أبا يزيد ، إنّي أحبك حبين ، حبّاً لقرابتك مني ، وحبّاً لما كنت أعلم من حبّ عمّي إيّاك » والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان أحرص عباد الله أجمعين على صلة رحمه وأحفظ الناس طراً لجمائل المحسنين إليه وعلى رأسهم أبو طالب فلا غرو إذا كان حبّه الشريف لعقيل مضاعفاً .

وكان يكنّى عقيل بابنه يزيد كما كان كثير العيال وقد رأيناه يسوقهم إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام ليستنزل شفقته عليهم فيحسن إليهم من بيت مال المسلمين .

ونال عقيل من كفّار قريش ما نال جميع بني هاشم قبل الهجرة وتأخرت هجرته إلى المدينة فهاجر إليها مسلماً قبيل غزوة الحديبية وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر وظلّ في المدينة كل مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وخرج إلى الكوفة بعد موقعة صفين وأقام فيها ولم يشهد شيئاً من حروبه مع أخيه سيدنا علي ثمّ خرج إلى معاوية عندما رأى =

وَلَا تَـدَعْ صِبْيَتِي فِي شَرِّ مَتْـرَبَـةٍ   فِي عَهْدِ عَمٍّ لَهُ آلـدُّنْيَا وَمَا فِيْهَـا
قَـالَ آلْوَصِيُّ: فَجِئْنِي لِلصَّـلَاةِ بِيَـوْ   مِ آلْجُمْعَةِ آلظُّهْرَ صَلِّ مَعْ مُصَلِّيْهَا
وَبَعْـدَ ذَاكَ أَرَى تَحْقِيْـقَ مَسْـأَلَـةٍ   قَـدْ جِئْتَ تَـطْلُبُ مِنِّيْ أَنْ أُقَضِّيْهَـا
لَبَّى عَقِيْـلُ وَوَافَى لِلصَّـلَاةِ مَـعَ آلـ   ـنَّاسِ آلَّتِيْ أَقْبَلَتْ طَوْعَاً لِدَاعِيْهَـا
وَآلْمُـرْتَضَـى أَمَّهَـا بِـرَّاً كَعَـادَتِـهِ   وَقَـامَ فِيْهَـا خَـطِيْبَاً لَا يُـدَاجِيْهَـا
فَكَـانَ يَـأْمُـرُهَـا بِـآلْبِرِّ يَـطْلُبُـهُ   مِنْهَـا وَعَنْ مُنْهَيَـاتِ آلشَّـرْعِ يَنْهِيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَا آنْتَهَتْ تِلْكَ آلصَّلَاةُ دَعَا   عَقِيْـلَ دَعْـوَى فَـظَنَّ آلْمَـالَ تَـالِيْهَـا
فَقَـالَ: يَا آبْنَ أَبِيْ مَـاذَا تَقُـوْلُ بِمَنْ   يَخُـوْنُ هٰذِيْ آلـرَّعَـايَـا أَوْ يُحَـابِيْهَـا
أَجَـابَ: إِنَّ أَشَـرَّ آلنَّـاسِ خَـائِنُهَـا   إِنَّ آلْخِيَـانَـةَ تُـزْرِيْ قَـدْرَ آتِيْهَـا
فَقَـالَ: إِنَّـكَ قَـدْ وَافَيْتَ تُلْزِمُـنِيْ   خِيَـانَةً صَـاحِبُ آلتَّقْـوَى يُحَـاشِيْهَـا
فَسَـارَ عَنْـهُ عَقِيْـلُ غَيْـرَ مُقْتَنِـعٍ   بِحُجَّـةٍ لَمْ تُنِـلْ جَـدْوَى لِـرَاجِيْهَـا
وَعَـادَ ثَـانِيَـةً مَـعْ وُلْـدِهِ لِأَمِـيْـ   ـرِ آلْمُؤْمِنِيْنَ يُنَـادِيْ أَنْتَ كَـافِيْهَـا
فَقَـالَ: جِئْنِيْ مَسَـاءً يَـا عَقِيْـلُ فَقَـدْ   يَنَـالُ مَبْغَـاهُ مِنْ قَـوْمٍ مُمَسِّيْهَـا

= أخاه عليه السلام يأبى أن يميزه عن غيره من المسلمين بالعطاء على ما تقدم القول .

وانصرف عقيل عن معاوية عائداً إلى المدينة المنورة فابتنى فيها داره المعروفة إلى يوم الناس هذا باسم « دار عقيل » وسكنها إلى آخر عمره .

وكان عقيل حافظاً راوياً للأنساب وأخبار العرب بل كان أقدر الناس في هذا وكان الناس يقصدونه فيخبرهم بأخبار الجاهلية غثها وثمينها على أنّ الناس كانوا يكرهونه لسرده مساويهم وكان سريع البادرة في الجواب قويّ الحجة في الجدل فصيحاً ملساناً .
وكان من عادته أن يخرج كل يوم إلى المسجد الجامع في المدينة المنورة فيصلّي مع المصلّين ثمَّ يبسط سجادته ويجلس إلى الناس فيحدثهم بأنباء الجدود وأنسابهم وفقد بصره في آخر عمره وتوفي عام ٥٠ للهجرة في خلافة معاوية وله من العمر ٩٦ سنة .

فَجاءَهُ بَعْدَ أَنْ صَلَّى ٱلْعِشَاءَ فَلا قَاهُ ٱلْوَصِيُّ سَمُوْحَ ٱلنَّفْسِ رَاضِيْهَا
وَقَالَ: دُوْنَكَ يَا صَاحِ ٱلْعَطِيَّةُ خُذْ هَا تِلْكَ غَايَةُ مَا فِيْ ٱلطَّوْقِ أُعْطِيْهَا
فَمَدَّ يُمْنَاهُ حَتَّى مَا تَنَاوَلَهَا أَلْقَى بِهَا ٱلْأَرْضَ يَشْكُوْ لَذْعَ حَامِيْهَا
وَصَاحَ: مَا لَكَ تَكْوِيْنِيْ أُخَيَّ وَذِيْ حَدِيْدَةٌ مَا ٱبْتَغَى رَفْدِي مُحَمِّيْهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةٌ: أُلْفِيْكَ مُشْتَكِياً نَاراً بِدُنْيَاكَ سَهْلٌ أَنْ تُطَفِّيْهَا
فَكَيْفَ لَوْ أَنَّنَا سِرْنَا غَداً لِرَبَى جَهَنَّمٍ مِثْلَمَا تَهْوَى لِنَأْوِيْهَا
فَيَا أُخِيْ لَيْسَ عِنْدِيْ فَوْقَ حَقِّكَ مِنْ عَطِيَّةٍ مِثْلَمَا تَرْجُوْ أُؤَدِّيْهَا
فَسِرْ لِأَهْلِكَ وَٱقْصُدْ فِيْ حَوَائِجِهَا وَلَا تَرُمْ تِرْفَةً تُخْشَى مَسَاوِيْهَا
فَسَارَ عَنْهُ عَقِيْلٌ وَهْوَ مُكْتَئِبٌ يَأْبَى عَلَيْهِ فِعَالَ ٱلْبِرِّ يَنْعِيْهَا
وَيَمَّمَ ٱلشَّامَ يَرْجُوْ فِيْ مَرَابِعِهَا يُسْراً وَمَا ٱلْيُسْرُ نَاءٍ عَنْ مَثَاوِيْهَا
مَا دَامَ فِيْهَا مُعَاوِيْهَا يَجُوْدُ بِمَا لِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ كَفَيْضِ ٱلسُّحْبِ هَامِيْهَا
وَكَانَ يَلْقَى قُرَيْشاً بِٱلنُّضَارِ يُرَجِّـ ـيْ أَنْ يُحَوِّلَهَا عَنْ نَصْرِ عَالِيْهَا
وَطَالَمَا خَدَعَ ٱلْمَالُ ٱلنُّفُوْسَ فَشَطَّـ ـتْ فِيْ تَوَخِّيْهِ عَنْ أَحْكَامِ بَارِيْهَا
وَلَمْ يَخِبْ بِٱبْنِ حَرْبٍ ظَنُّ صَاحِبِنَا فَقَدْ رَأَى عِنْدَهُ يُسْراً وَتَرْفِيْهَا
حَبَاهُ مِيْئَةُ أَلْفٍ مِنْ دَرَاهِمِهِ بَدَاءَةً قَالَ فَٱشْكُرْ بِرَّ مُوْلِيْهَا
أَنْفِقْ بِغَيْرِ حِسَابٍ غَيْرَ مُقْتَصِدٍ مِنْهَا وَزِدْ مَعَ مَنْ تَهْوَاهُ تَرْفِيْهَا
وَقَالَ: هَلْ أَنَا خَيْرٌ يَا عَقِيْلُ أَمِ ٱلْـ ـعَلِيُّ لِلنَّاسِ إِنْ تُزْجِيْ أَمَانِيْهَا
نَادَى عَقِيْلٌ: أُخِيْ وَٱللّٰهِ يَرْتَقِبُ ٱلْـ ـجَنَّاتِ يَطْلُبُ أَنْ يَثْوِيْ أَعَالِيْهَا
وَأَنْتَ تَرْتَقِبُ ٱلدُّنْيَا لِلَذَّتِهَا وَتَبْتَغِيْ بِٱلْعَطَايَا كَسْبَ أَهْلِيْهَا
وَمَا تَعَلَّمَ مِنْ هٰذَا مُعَاوِيَةُ أَنْ يُقْصِرَ ٱلْقَوْلَةَ ٱلْمَذْمُوْمُ حَاكِيْهَا

فَقَالَ فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ وَهْوَ مُجْتَمِعٌ بِصَحْبِهِ كَانَ عَنْ صَفْوٍ يُنَادِيْهَا

لَوْ لَمْ يَجِدْنِي عَقِيْلٌ مِنْ أَخِيْهِ لَهُ خَيْرَاً لَمَا جِيْرَتِي قَدْ رَاحَ رَاضِيْهَا

أَرَادَ فِيْ ذَاكَ أَنْ يُزْرِيْ بِقَدْرِ عَلِـ ـيٍّ ثُمَّ مِيْزَتُهُ عَنْهُ يُجَلِّيْهَا

وَكَانَ ثَمَّ عَقِيْلٌ عِنْدَهُ فَأَبَى وَقِيْعَةً بِأَخِيْهِ هَمَّ يَتْقِيْهَا

وَصَاحَ: إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيْ لِيَ فِيْ دُنْيَايَ مَا دُمْتُ دُوْنَ ٱلدِّيْنِ بَاغِيْهَا

وَإِنَّهُ ٱلْخَيْرُ فِيْ دِيْنِيْ وَأَسْأَلُ رَ م بَّ ٱلْعَرْشِ خَاتِمَةً حَسْنَا أُلَاقِيْهَا

هٰذَا عَقِيْلٌ وَذِيْ تَاَللّٰهِ قِصَّتُهُ قَدْ شَوَّهَتْهَا ٱلْعِدَى بِٱلْكِذْبِ تَشْوِيْهَا

قَالُوْا: أَبُوْ حَسَنٍ أَضْحَتْ خِلَافَتُهُ مَا إِنْ لَهَا فِيْ ٱلْبَرَايَا مَنْ يُوَالِيْهَا

حَتَّى أَخُوْهُ عَقِيْلٌ قَدْ عَصَاهُ بِهَا وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَصْفِيْ مُعَاوِيْهَا

فَغَاظَهُ مِنْ أَعَادِيْهِ رِوَايَتُهَا ٱلْـ ـكِذْبَ ٱلصُّرَاحَ وَلَمْ تَرْهَبْ تَمَنِّيْهَا

وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ مِنْ أَعْلَى ٱلْمَنَابِرِ فِيْ هٰذِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ بَادِيْهَا وَخَافِيْهَا

بِخُطْبَةٍ تَخْلُبُ ٱلْأَسْمَاعَ مُعْرِبَةٍ عَنِ ٱلنَّزَاهَةِ فِيْ أَسْمَى مَعَانِيْهَا

فَقَالَ وَهْوَ أَمِيْرُ ٱلْقَوْلِ مُبْدِعُهُ وَٱلنَّاسُ تَحْدُجُ بِٱلْأَنْظَارِ رَاعِيْهَا

لَئِنْ عَلَى حَسَكِ ٱلسَّعْدَانِ شَائِكِهِ أَبِيْتُ يَا قَوْمِ لَيْلَاتِيْ فَأُحْيِيْهَا

أَوْ أَنْ أُجَرَّرَ فِيْ ٱلْأَغْلَالِ مُحْتَمِلاً أَثْقَالَهَا كَجُنَاةِ ٱلنَّاسِ أُحْكِيْهَا

أَحَبُّ لِيْ مِنْ لُقَى رَبِّيْ وَأَحْمَدَ فِي يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فِيْ حَالٍ أُحَاشِيْهَا

حَالُ ٱلظَّلُوْمِ غُصُوْبِ ٱلْمَالِ حَالُ فَتَىً كَانَ ٱلْأَمِيْنَ فَخَانَ ٱلْعَهْدَ تَجْرِيْهَا

وَكَيْفَ تَظْلُمُ نَفْسِيْ ٱلنَّاسَ وَهْيَ إِلَى ٱلْـ ـقُفُوْلِ لِلتِّرْبِ تُمْشِيْنِيْ وَأُمْشِيْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيْلاً فِيْ خَصَاصَتِهِ مِنْ بُرِّكُمْ يَرْتَجِيْ صَاعَاً يُمَلِّيْهَا

وَحَوْلَهُ صِبْيَةٌ شُعْثُ ٱلشُّعُوْرِ بِأَلْـ ـوَانٍ غَدَتْ غُبْرَاً وَٱلْجُوْعُ مُكْبِيْهَا

كَـأَنَّمَا سُـوِّدَتْ تِلْكَ ٱلْـوُجُـوْهُ بِعِـظْـــلِمٍ وَكَـانَتْ تُضِي قَبْـلاً بَـوَادِيْهَـا

وَلَـحَّ مُسْتَجْـدِيَـاً لَحَّـاً وَعَـاوَدَنِيْ فِيْ حَـاجِـهِ يَبْتَغِيْ مِنِّيْ تَقَـاضِيْهَـا

وَلَمْ يَـزَلْ بِيَ حَتَّى أَنْ صَغَيْتُ لَـهُ صَغْيَـاً بِعَـاطِفَـةِ ٱلْإِشْفَـاقِ أُبْـدِيْهَـا

فَـظَنَّ أَنِّـيَ بِـٱلْإِلْـحَـاحِ مُتَّبِـعٌ قِيَـادَهُ وَطَـرِيْقُ ٱلْإِثْمِ خَـاطِيْـهَـا

وَأَنَّ أَحْـكَـامَ دِيْنِـي بِتُّ بَـائِعَهَـا لَـهُ وَبَـاتَ كَمَـا قَـدْ شَـاءَ شَارِيْهَـا

وَلَـمْ يَكُـمْ لِيَ إِلاَّ أَنْ حَـمَيْتُ لَـهُ حَـدِيْـدَةً مِنْـهُ قَـدْ سَـارَعْتُ أُدْنِيْهَا

أَرَدْتُـهَـا عِـبْـرَةً كُـبْـرَى مُـؤَثِّـرَةً لَـهُ إِذَا مَـا ٱكْتَـوَى مِنْ مَسِّ دَافِيْهَا

وَكَـادَ مَيْسَمُهَـا ٱلنَّـارِيُّ يَحْـرُقُ يُمْـــنَـاهُ فَبَـادَرَنِيْ يَشْكُـوْ تَـلَظِّيْهَـا

وَضَــجَّ مِـنْ أَلَمٍ قَـاسٍ تَـأَلَّـمَـهُ ضَجِيْـجَ مَنْ فِيْـهِ آلاَمٌ يُعَـانِيْـهَـا

نَـادَيْتُـهُ ثَكَلَتْـكَ ٱلثَّـاكِـلاَتُ عَقِيْـــلُ مِنْ فَتَىً رَاهِبِ ٱلنِّيْـرَانِ خَاشِيْهَا

فَهَــلْ تئِنُّ أَنِيْنَــاً مِنْ حَـدِيْـدَةِ إِنْـــسَـانٍ أَرَادَ بِهَـا لَهْـواً وَتَفْكِيْهَـا

وَأَنْتَ تَسْحَبُنِيْ قَـهْـراً لِنَـارِ جَـهَنَّـــمٍ وَرَبُّـكَ لِـلظُّلاَّمِ مُـوْرِيْـهَـا

أَمِنْ أَذَىً أَنْتَ فِيْ هـذَا ٱلْأَنِيْـنِ وَلاَ أَئِنُّ مِنْ سَعْـرَةِ ٱلنِّيْـرَانِ أُصْلِيْـهَـا

فَتِلْكَ يَا نَاسُ حَالِيْ مَعْ عَقِيْـلَ أَخِيْ عَلَى ٱلْمَـلاَ جَهْـرَةً أَصْبَحْتُ رَاوِيْهَا

وَمَـا أَتَمَّ ٱلْإِمَـامُ ٱلْبَـرُّ خُـطْبَتَـهُ حَتَّى ٱهْتَـدَى وَأَوَى لِلْحَقِّ وَاعِيْهَـا

نَـادَتْ: عَـدَالَـةُ مَـوْلاَنَـا أَبِيْ حَسَنٍ مَـا ٱلظُّلْمُ يَقْرُبُ مِنْهَـا أَوْ يُنَاجِيْهَا

وَمَنْ يُسَـاوِيْ ٱلـرَّعَـايَا فِيْ إِمَـارَتِـهِ فَـزَادَهُ ٱللّٰهُ تَعْـزِيْـزاً وَتَـوْجِيْهَـا

تِلْكَ ٱشْتِـرَاكِيَةُ ٱلْإِسْـلاَمِ لَيْسَ لَهَـا إِلاَّ أَبُـوْ حَسَنِ ٱلْمِفْضَالِ يُجْـرِيْهَا

أمير المؤمنين والربيع بن زياد

كَـانَ آلرَّبِيْـعُ فَتَى آلْإِسْـلَامِ يَنْصُـرُهُ بِسَيْفِـهِ مَـا دَعَـا لِلْحَـرْبِ دَاعِيْهَـا[1]

وَكَـانَ مِنْ وُجَهَـاءِ آلْمُسْلِمِيْنَ وَمِنْ عُمَّـالِ دَوْلَتِهِمْ بِـآلْبِـرِّ يُـرْضِيْهَـا

---

(١) زعم الشريف الرضي جامع كتاب نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام عاد العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه ولم نقف على رجل بهذا الإسم بين الذين اشتهروا بصحبته عليه السلام ولكنّا نعرف رجلاً آخر يدعى الربيع بن زياد الحارثي فلعلّه هو وترجمة هذا هي أنّه الربيع بن زياد بن أنس بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن أدد وهو الذي افتتح بعض خراسان على عهد عمر وقال فيه هذا الخليفة « داوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنّه ليس بأمير وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه » وهذا خير ما يمدح به رجل وكان خيراً متواضعاً ومن نوادره مع عمر ما ننقله عن لسانه قال : كنت عاملاً لأبي موسى على البحرين فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله فلما قدمنا المدينة أتيت « يرفا » حاجب عمر فقلت يا صاح جئتك مسترشداً وابن سبيل فقل لي أي الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرى عليها عمّاله فأومأ إليَّ بالخشونة فاتخذت خفين مطرقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي ثمَّ دخلت مع بقية العمّال على عمر فصفنا بين يديه وصعَّد بصره فينا وصوّب فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني وقال من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثي قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين . قال كم ترزق ؟ قلت ألفاً . قال ذلك كثير فما تصنع به ؟ قلت اتقوّت منه شيئاً وأعود بباقيه على أقارب لي فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال لا بأس ارجع إلى موضعك فرجعت إلى موضعي من الصفّ فصعد عمر فينا بصره ثانيةً وصوَّب فلم تقع عينه إلّا عليَّ فدعاني إليه ثانيةً وقال كم سنّك ؟ قلت خمس وأربعون فقال الآن حيث استحكمت فعد إلى مكانك فعدت ثم دعا عمر بالطعام وأصحابي حديثو عهد بلين العيش فأتى بخبز يابس وأكسار بعير فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد وأنا أنظر إلى عمر فإذا هو يلحظني من بينهم ثمَّ سبقت منّي كلمة تمنيت لها أنّي سخت في الأرض فقلت يا أمير المؤمنين إنَّ الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا فزجرني ثمَّ قال كيف قلت ؟ فقلت يا أمير المؤمنين أن تنظر إلى مؤونتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إيّاه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً وباللحم غريضاً فسكن من غربه وقال يا ربيع إننا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من =

وَبَيْنَمَا كَانَ فِيْ حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ فِيْ ظِلِّ ٱلْوَصِيِّ يُلاَقِيْهَا وَيُرْدِيْهَا
مَرَّتْ بِجُبْهَتِهِ نَشَّابَةٌ جَرَحَتْهَا وَٱلْجِرَاحَةُ قَدْ أَعْيَتْ مُدَاوِيْهَا
كَانَتْ تُعَاوِدُهُ آلاَمُهَا أَبَداً آنَاً فَآنَاً وَلاَ يَنْفَكُّ يَشْكِيْهَا

= سبايك وصنّاب ولكني رأيت الله نعى على قومٍ شهواتهم فقال ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** ﴾ ثمَّ أمر أبا موسى بإقراري في عمالتي وأن يستبدل بأصحابي اهـ وظلّ الربيع عاملاً على البحرين إلى ولاية عثمان حيث استبدله مع بقية عمّال الخلافة بالأمويين وشيعتهم وفي خلافة أمير المؤمنين عليه السلام أظهر الربيع من الإخلاص له الشيء الكثير وتولّى بعض أعماله وحارب معه الخوارج فجرح في إحدى المواقع بجبهته بنشابة فظلّ جرحه نغاراً فكان يعاوده حيناً بعد حين وتوفي على عهد معاوية وهو معمر .

وعندما عاده أمير المؤمنين قال كيف نجدك أبا عبد الرحمن ؟ قال أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلاّ بذهاب بصري لتمنيت ذهابه قال وما قيمة بصرك عندك ؟ قال لو كانت لي الدنيا لفديته بها قال لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك إنّ الله يعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده تضعيف كثير فلطفت كلمات الأمير الحكيمة هذه من آلام الربيع فحمد الله على بلواه وتجلد ثمَّ أجال أمير المؤمنين بصره في دار الربيع فوجدها ذات سعة ورياش ثمين فقال ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا ، وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري بها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة فكان لهذه الكلمات موقعها الطيب من نفس الربيع فشكر وحمد ثمَّ قال يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي ؟ قال ما له ؟ قال لبس العباء وترك الملاء وغمَّ أهله وأحزن ولده فقال عليه السلام ادعوا لي عاصماً فلما أتاه عبس في وجهه وقال ويحك يا عاصم ترى الله أباح لك اللذات وهو يكره ما أخذت منها لأنت أهون على الله من ذلك أما سمعته يقول : ﴿ **وأمّا بنعمة ربّك فحدّث** ﴾ وقوله : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واعملوا صالحاً** ﴾ قال عاصم فلمَ أقصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب ؟؟ قال إنّ الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيَّغ بالفقير فقره وما انصرف علي عليه السلام حتى نزع عاصم العباء ولبس الملاء وعاش بالرغد والرفاه بعد ذلك .

فَعَادَهُ ٱلْمُـرْتَضَى يَـوْمَاً بِعَـطْفَتِـهِ مُخَفِّفَـاً عَنْهُ أَسْقَـامَـاً يُعَـانِيْهَـا

وَقَالَ : مَا بِكَ قُلْ لِيْ كَيْفَ أَنْتَ فَنَا دَاهُ آلـرَّبِيْعُ : بِحَـالٍ لَسْتُ رَاضِيْهَـا

لَوْ كُنْتُ أَعْمَى وَأَشْفَى لَارْتَضِيْتُ عَمَى عَيْنِيْ وَآلَامُ جُـرْحِيْ لَا أُقَاسِيْهَـا

فَقَـالَ: مَا قِيْمَـةَ آلْإِبْصَارِ عِنْـدَكَ حَـــتَّى أُضْتَ تَبْذِلُـهُ نَـادَى بِـهِ: إِيْهَـا

لَـوِ ٱلْعَوَالِمُ لِيْ أُفْـدِيْ بِهَـا بَصَـرِيْ إِنِّـيْ بِـهِ هٰـذِهِ ٱلآلَامُ أُفْـدِيْـهَـا

فَقَـالَ: مَثُوبَـةُ ٱلْبَـارِيْ بِقَـدْرِ مُصَـا بِ ٱلْمَرْءِ فَاصْبِرْ بِتَقْوَى كَيْ تُـلَاقِيْهَا

ثُـمَّ ٱلْأَمِيْـرُ أَجَـالَ آلـطَّرْفَ رَدَّدَهُ بِـآلدَّارِ إِذْ شَمَخَتْ شَمْخَـاً مَبَـانِيْهَـا

فَقَـالَ : مَـا تَبْتَغِيْ مِنْهَـا بِـزَائِلَةِ آلـــدُّنْيَـا عَلَى وُسْعِهَا مَـا دُمْتَ مُخْلِيْهَا

وَأَنْتَ أَحْوَجُ فِيْ ٱلْأُخْرَى لَهَـا سَكَنَاً رَحْبَاً وَفِيْ ظِلِّ رَبِّ ٱلْعَرْشِ تَأْوِيْهَا

بَلَى بِهَـا تَبْلُغُ ٱلْأُخْـرَى بِـطُرْفَتِهَـا إِنْ شِئْتَ فَاعْمَلْ عَلَى مَثْوَى مَغَانِيْهَا

أَنْ تُـطْلِعَنَّ حُقُوْقَ آلنَّـاسِ مَطْلِعَهَـا مِنْ ذِيْ آلـدِّيَارِ فَتُـرْضِيْ مُسْتَحِقِّيْهَـا

وَأَنْ تُـوَاصِـلَ فِيْهَـا بِـآلْـوَلَا رَحِمَـاً وَأَنْ تُـلَاقِيْ بِهَـا ٱلْأَضْيَـافَ تَقْـرِيْهَـا

صَـاحَ آلرَّبِيْـعُ : جَـزَاكَ ٱللَّهُ حَيْـدَرَةُ خَيْـرَاً عَنِ ٱلنَّاسِ إِذْ لِلْخَيْـرِ تَهْدِيْهَـا

قَـدْ عِدْتَنِيْ فَبِـكَ ٱلآلَامُ قَـدْ شُفِيَتْ فَمَـا أَنَا بَعْـدَ هٰـذَا ٱلْيَـوْمِ شَـاكِيْهَـا

وَأَنْتَ مَهَّـدْتَ لِلأُخْـرَى أَمَـامِيَ سُبْـــلَاً صِرْتُ بِٱلْبِرِّ وَٱلْإِحْسَانِ أَمْشِيْهَـا

وَقَالَ: فَانْصَحْ أَخِيْ إِنِّيْ إِلَيْكَ لَأَشْـــكُوْهُ وَقَـدْ قَـاطَـعَ آلـدُّنْيَـا وَأَهْلِيْهَـا

فَقَـالَ: هِيَّ آطْلِبُوْهُ مَـا مُقَـاطَعَـةُ آلـــدُّنْيَـا بِمُكْسِبَـةِ ٱلْأُخْـرَى لِبَـاغِيْهَـا

فَجَـاءَ عَـاصِمُ فِيْ وَاهِيْ عَبَـاءَتِـهِ وَكَـانَ عَنْ رَغْبَةٍ بِـآلـزُّهْـدِ كَـاسِيْهَـا

نَادَى بِهِ ٱلْمُرْتَضَى بَعْدَ ٱلسَّلَامِ : لِمَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَفْسُكَ عَنْ جَهْـلٍ تُعَادِيْهَـا

قَـدِ آسْتَهَامَ بِـكَ ٱلشَّيْطَانُ وَهْـوَ وَأَيْـــمُ ٱللَّهِ يَلْعَبُ بِـآلْأَهْفَـاءِ يُغْـوِيْهَـا

أَمَا رَحِمْتَ ٱلأُلَى حَوْلَيْكَ مِنْ وَلَدٍ فَرُحْتَ فِيْ عِيْشَةِ ٱلزُّهَّادِ تُؤْذِيْهَا
وَهَلْ حَسِبْتَ بِأَنَّ ٱللَّهَ حَلَّلَ هٰـذِيْ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيَأْبَى أَنْ نُوَافِيْهَا
لأَنْتَ أَهْوَنُ مِنْ هٰذَا عَلَيْهِ فَفُزْ بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ وَٱنْعَمْ فِيْ تَعَاطِيْهَا
فَقَالَ عَاصِمُ: لٰكِنْ يَا خَلِيْفَتَنَا أَرَاكَ لَذَّاتُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا تُحَاشِيْهَا
فَأَنْتَ تَأْكُلُ مِنْ خَشْفِ ٱلطَّعَامِ وَتَلْـبَسُ ٱلْخَشَانَ ٱلَّتِيْ يُؤْذِيْ تَكَسِّيْهَا
فَقَالَ : وَيْحَكَ إِنِّيْ لَسْتُ مِثْلَكَ أَصْـلاً فِيْ ٱلْفُرُوْضِ ٱلَّتِيْ ذُوْ ٱلدِّيْنِ يُمْضِيْهَا
عَلَى أَئِمَّتِنَا تَقْدِيْرُ أَنْفُسِهَا قَدْرَ ٱلضِّعَافِ كَذَا يَقْضِيْ مُوَلِّيْهَا
كَيْ يَأْتَسِيْ ٱلْفُقَرَاءُ ٱلْمُعْدِمُوْنَ بِهَا إِذَا ٱنْجَلَتْ وَجَلاَلُ ٱلْفَقْرِ غَاشِيْهَا
بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ حَدِّثْ صَاحِ قَوْمَكَ وَٱظْـهِرْهَا وَهَيْهَاتِ أَنْ تَبْقَى لِمُخْفِيْهَا
وَٱلطَّيِّبَاتُ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ أَنْعَمَ إِنْـعَامَاً عَلَيْهَا بِهَا فَسَلْ تَجَافِيْهَا
بِذَاكَ أُنْزِلَتِ ٱلآيَاتُ وَهِيَ هُدَىً لِلْمُسْلِمِيْنَ إِذَا بَاتُوْا مُطِيْعِيْهَا
بِذَا ٱرْعَوَى عَاصِمٌ عَنْ غَيِّهِ وَقَضَى أَيَّامَهُ بَعْدَ ذَا رَغْدَاً وَتَرْفِيْهَا
كَذَاكَ حَيْدَرَةٌ كَانَتْ مَجَالِسُهُ عِلْمَاً وَهَدْيَاً وَإِرْشَادَاً وَتَفْقِيْهَا
فَإِنْ رَأَى ٱلنَّاسَ ٱلأَسْقَامُ تُزْعِجُهَا فَفِيْ مَوَاعِظِهِ ٱلْغَرَّا يُؤَاسِيْهَا
وَإِنْ رَأَى نِعَمَ ٱلْبَارِيْ تُحِيْطُ بِهَا فَبِٱلْمَبَرَّاتِ لاَ يَنْفَكُّ يُغْوِيْهَا
وَإِنْ رَآهَا أَسَاءَتْ فَهْمَ مَا نَزَلَتْ بِهِ سَمَاحَةُ شَرْعِ ٱللَّهِ يُنْهِيْهَا
كَانَ ٱلإِمَامُ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ أَبَاً لَهَا عَلَى سِنَّةِ ٱلْهَادِيْ يُرَبِّيْهَا

أمير المؤمنين ومادحوه

فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى دَارَ ٱلْوَصِيِّ جَمَاعَةٌ تُمَلِّقُهُ وَصْفَاً وَتَشْبِيْهَا[1]

---

(١) فلتخرس شفاه المتملقين للحكام ، ولتتكسر بأيدي المنافقين المخادعين =

وَٱسْتَرْسَلَتْ بِٱلثَّنَا وَٱلْحَمْدِ ذَاكِرَةً   آثَارَهُ وَمَضَتْ بِٱلْمَدْحِ تُطْرِيْهَا

= الأقلام ، ولينطق بالحق كلُّ ذي شفة ولسان ، وليخطّ كلمات الصدق كلُّ ذي فصاحة وبيان ، ذاك ما يأمر به المرتضى صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام ، وذاك ما جاء به الإسلام .

ظنَّ أُناس « وكلُّ الظنّ إثم لا بعضه » أنَّ أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، مثل غيره من ذوي المراتب ، يرضيه المدح والثناء ، ويشجيه الحمد والإطراء ، فاسترسلوا بحضرته باللغو من القول الهراء ، بغير حياء ، فجبههم بما عرف عنه من البداهة والذكاء ، مبيناً لهم كراهته للحمد والإطراء حتى ولو كان حقيقةً بغير مراء ، وما كفاه هذا حتى شفعه بنصائح ومواعظ يدرك مغازيها الألباء ، مبيناً لهم أنّه يودّ سماع الحقائق من رعاياه ، سالمةً من الخداع والرياء . ولعمري أنَّ خطابه هذا لحريٌّ بأن يكون قبلة أنظار الحاكمين ، وشرعة الملوك والسلاطين ، وفيه الديموقراطية الحقيقية التي يتغنى بها المتغنون ، وينشدها دعاتها الراشدون ، قال عليه السلام : « إنَّ مِن حقّ من عظم جلال الله سبحانه في نفسه ، وجلّ موضعه في قلبه ، أن يصغر عنده لعظم ذلك كلُّ ما سواه ، وأنّ أحقَّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ، ولطف إحسانه إليه ، فإنّه لم تعظم نعمة الله على أحدٍ ، إلاَّ إذا ازداد حقُّ الله عليه عظماً ، وأنَّ من أسخفِ حالاتِ الولاة ، عند صالح الناس ، أن يُظنَّ بهم حبُّ الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهتُ أن يكون جال في ظنكم أنّي أُحبُّ الإطراء ، واستماع الثناء ، ولست بحمد الله كذلك ، ولو كنتُ أحبُّ أن يقال ذلك ، لتركته انحطاطاً لله سبحانه ، عن تناول ما هو أحقُّ به ، من العظمة والكبرياء ، وربما استحلى الناس الثناء ، بعد البلاء ، فلا تثنوا عليَّ بجميل ثناء ، لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم ، من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها ، وفرائض لا بدَّ من إمضائها ، فلا تكلموني بما تكلّم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي ، فإنّه من استثقل الحقَّ أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقّ ، أو مشورةٍ بعدل ، فإنّي لستُ في نفسي بفوق أن أخطىء ، ولا آمن ذلك من فعلي ، إلاَّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني ، فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيره ، يملك منّا ما لا نملك من=

ظَنَّتْ وَقَـدْ أَثِمَتْ فِيْ ٱلظَّنِّ أَنَّ عَلِيَّـــاً يَـرْتَضِي عَنْ ثَنَـا يُسْـدِيْـهِ مُثْنِيْهَـا
فَـاْغْتَاظَ مِنْهَـا وَبِـاْلتَّـوْبِيْـخِ بَـادَرهَـا بِخُـطْبَـةٍ قَـدْ تَسَـامَتْ فِيْ مَعَـانِيْهَـا
وَقَـالَ : أَحْمَـدُ رَبِّيْ وَاْلصَّـلاَةُ عَلَى طَـهَ وَيَا صَحْبَنَـا جُـوْزُوْا اْلتَّـرَارِيْهَـا
مِنْ حَقِّ مَنْ عَـظُمَ اللَّهُ اْلعَظِيْمُ بِعَيْـــنَيْـهِ وَأَكْبَـرَهُ قَـدْرَاً وَتَـوْجِيْهَـا
وَجَـلَّ مَـوْضِعُـهُ مِنْ قَلْبِـهِ وَدَرَى بِـأَنَّ قُـوَّاتِـهِ مَـا مَنْ يُقَـاوِيْـهَـا
أَنْ يَصْغَـرَنَّ سِـوَاهُ مِنْ خَـلاَئِقِـهِ لَـدَيْـهِ سِيَّـانِ أُنْسِيْهَـا وَجِنِّيْـهَـا
يُمْسِيْ كَـذٰلِـكَ مَنْ نَعْمَـاءُ خَـالِقِـهِ عَلَيْـهِ قَدْ عَـظُمَتْ حَمْدَاً لِمُسْـدِيْهَا
وَاْللَّهِ مَـا عَـظُمَتْ نُعْمَى عَلَى أَحَـدٍ إِلَّا وَأَعْـظَمُ مِنْهَـا حَقُّ مُعْـطِيْـهَـا
وَإِنَّ أَسْخَفَ حَـالاَتِ اْلْـوِلاَةِ وَقَـدْ سَـادَتْ رَعِيَّتَهَـا كَيْمَـا تُـرَاعِيْهَـا
أَنْ تَحْسِبَ اْلنَّاسُ حُبَّ اْلْفَخْرِ نَزْعَتَهَا وَاْلْكِبْـرَ شِيْمَتَهَـا وَاْلْمَـدْحَ يُـرْضِيْهَـا
كَـرِهْـتُ مِنْكُمُ أَنْ جَالَتْ ظُنُـوْنُكُمْ بِيْ جَـوْلَـةً مَـا أَنَـا تَـاْللَّهِ رَاضِيْهَا
ظَنَنْتُمُـوْنِيَ مُغْـرَى بِـاْلثَّنَـاءِ وَبِـاْلْإِ م طْـرَاءِ زَهْـوَاً وَشَـرُّ اْلنَّـاسِ زَاهِيْهَـا
كَـلَّا فَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ مَـوْضِعَ هَـا تِيْـكَ اْلظُّنُـوْنِ وَأَعْجِبْ مِنْ تَـظَنِّيْهَا
حَتَّى وَلَوْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ تُقَالَ لِيَ اْلـــمَـدَائِحُ اْلـزُّهْرُ فِيْ سَـامِيْ مَعَانِيْهَـا
لَـكُنْـتُ تَـارِكَهَـا لِـلَّهِ وَهْـوَ بِـهَـا أَوْلَى مِنَ اْلنَّـاسِ مَا تَسْمُـوْ مَعَالِيْهَـا
وَاْلْكِبْـرِيَـاءُ لَـهُ سُبْحَـانَـهُ وَلَـهُ عَلَى اْلْبَـرِيَّـةِ آيُ اْلْحَمْـدِ تُسْـدِيْهَـا
وَرُبَّمَـا اْسْتَحْلَتِ اْلنَّاسُ اْلثَّنَـاءَ عَلَى أَثْـرِ اْلْبَـلاَءِ نَعَمْ هٰـذَا يُعَـزِّيْـهَـا
لاَ تَـحْـمَـدُوْنِـي وَلاَ تُـثْـنُـوْا لِإِخْـــرَاجِيْ إِلَيْكُمْ نَفْسِيْ طَـوْعَ بَـارِيْهَـا

= أنفسنا ، وأخرجنا مما كنّا فيه ، إلى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى » اهـ .

مِنْ بَـاقِيَاتِ حُقُـوْقٍ بِتُّ أَبْـذُلُهَـا مَـعَ ٱلْفُرُوْضِ ٱلَّتِيْ مَا زِلْتُ أَقْضِيْهَا

كَـلَّا وَلَا تُسْمِعُـوْنِيْ مَـا جَبَابِـرَةُ ٱلـــدُّنْيَـا بِـهِ تَتَـرَضَّى عَنْ مُفَاهِيْهَـا

كَـلَّا وَلَا تَـتَّقُـوْنِـي كَـاتِّقَـائِكُـمُ أَهْـلَ ٱلْبَـوَادِرِ خَـوْفَـاً مِنْ تَعَـدِّيْهَا

وَلَا مُصَـانَعَـةٌ أَبْغِيْ ٱخْـتِـلَاطَكُـمُ بِـيْ لَيْسَ يُـنْصِفُنِـيْ تَـاللَّهِ آتِـيْهَـا

لَا تَحْسَبُـوْا أَنَّنِي أَبْغِيْ لِنَفْسِـيَ إِعْــظَامَاً وَمَا ٱلْكِبْـرُ أَرْضَى أَنْ يُدَانِيْهَا

وَلَا تَـظُنُّـوْا بِيَ ٱسْتِثْقَـالَ قَـوْلَـةِ حَـــقٍّ يَبْتَغِيْ ٱلنُّصْـحَ وَٱلْإِرْشَادَ مُبْـدِيْهَا

وَمَـنْ تَثَـاقَـلَ مِنْ حَقٍّ يُقَـالُ لَـهُ أَوِ ٱلْـعَـدَالَـةِ مِنْ رَاجٍ يُـرَجِّيْهَـا

لَا شَـكَّ يَسْتَثْقِلُ ٱلْأَعْمَـالَ يُنْفِـذُهَـا بِٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ كَيْ يُرْضِيْ مُرِيْدِيْهَا

فَـلَا تَكُفُّوْا صِحَـابِيْ عَنْ مَقَـالَـةِ حَـــقٍّ أَوْ مَشُـوْرَةِ عَـدْلٍ تُسْمِعُـوْنِيْهَا

فَمَـا أَنَا فَـوْقَ أَنْ أُخْطِيْ وَلَسْتُ أَمِيْـــنَاً مِنْ فِعَالِيْ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْحُكْمِ أُجْرِيْهَا

إِلَّا إِذَا عَصَمَ ٱلْخَـلَّاقُ نَفْسِيَ مِـنْ ذَلَّاتِـهَـا وَنَهَـاهَـا عَـنْ تَشَـهِّيْـهَـا

وَإِنَّـمَـا أَنْـتُـمُ مِـثْلِيْ عَـبِـيْـدُ إِلَـــهٍ وَاحِـدٍ مَـالِـكِ ٱلـدُّنْيَا بِمَـا فِيْهَا

وَإِنَّــهُ مَـالِـكٌ مَــا لَيْسَ نَمْلُكُ مِنْ نُفُـوْسِنَـا مِثْلَمَـا يَبْغِيْ يُمَشِّيْـهَـا

سُبْحَانَهُ مِنْ لَيَـالِيْ ٱلشِّرْكِ أَخْـرَجَهَا إِلَى ٱلْهُـدَى وَبِـهِ أَجْلَى دَيَـاجِيْهَا

إغارة معاوية على بلاد الخلافة

بَيْنَـا ٱلْخَلِيْفَةُ مُشْقَى بِـٱلْخَـوَارِجِ لَا تَنْفَـكُّ تُبْـدِيْ لَـهُ ظُلْمَـاً تَعَصِّيْهَـا[١]

وَٱلنَّـاسُ حَوْلَيْـهِ شَتَّى لَيْسَ يَجْمَعُهَا رَأْيٌ عَلَى نَصْـرَةٍ لِلدِّيْنِ تَـأْتِـيْهَـا

---

(١) إتمـاماً للغـرض المقصود من حـواشي هذه العلويـة المباركـة نأتي هنـا على خلاصة ما فعله معاوية بعد التحكيم للتسطي على أملاك الخلافة الإسـلامية مصـراً بعد مصر وبلداً بعد بلد فنقول :

=

= « حديـــث مصـــر »

إنَّ أول ما عمل معاوية في سبيل اغتصاب أمصار الخلافة هو الـديار المصـرية إذ قد علمنا أنَّ عمراً بن العاص ما رضي أن ينصر معاوية إلَّا بعد أن وعده بولاية مصـر وما وسعه إلَّا أن يبادر للبرّ بوعده لأنّه وجد نفسه في كل يوم محتاجاً إلى عمرو طالما سيدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام في الكوفـة قابضـاً على زمام الخـلافة راغبـاً بالقضـاء على عصيان معاوية وأصحابه .

وكانت مصر في أواخر أيام عثمان في يد عبد الله بن سعد بن أبي سـرح أحد بني عامر بن لؤي . وكان زعيم المتآمرين على عثمان في مصر هو محمد بن أبي حذيفـة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فلما خـرج المصريـون بثورتهم إلى المـدينة هجم ابن أبي حذيفة على عامل عثمان وخلعه من ولايته وطرده من مصـر فنزل على تخـومها ممـا يلي فلسطين منتظراً ما يكون من أمر عثمان فلمّا بلغه مقتله فرَّ إلى معاويـة معتصماً بـه لعلمه بنقمـة المسلمين على العمّال الأمـويين وولّى سيدنـا علي على مصـر قيس بن سعـد بن عبادة فسار إلى مصر بنفر من أهلــه ودخلها من غيـر أن يعارضـه معارض وبـايع معـظم الناس علياً بواسطته وكان ذلك في أواخر صفر سنة ٣٦ للهجـرة . واعتزل البيعـة قليلون من شيعة عثمان .

وبعد أن انتهت وقعة الجمل وتفرّغ سيدنا علي لمحـاربة معـاوية في الشـام خاف هذا أن يأتيه سيدنا علي من العراق وقيس بن سعد من مصر فأخذ يكاتب قيساً بالإنضمام إليه في المطالبة بدم عثمان ويغريـه أن يملّكه العـراقين ويملك أهل بيتـه الحجاز فـأبى قيس ممالئته على ما يحبُّ على أنّه لم يكـاشفه العـداوة جهرةً بـل ظلَّ معـه بين مباعـد ومقارب فما كان من معاوية إلَّا أن أذاع بين أهل الشام أنَّ قيساً بن سعد عامل علي على مصر قد صالح معاوية وطارت الأنباء بذلك إلى الكوفة فاتصلت بسيدنا علي فأوجس منه شـرّاً وشكّاً بـإخلاصـه ثمَّ ازداد شكاً بـه بما كـان يراه في كتب قيس من الإلحـاح بتـرك المعتـزلين في مصر وشـأنهم من غير أن يتعـرّض إلى إكراههم على بيعتـه وأشـار عليـه بعض أصحابه لدى هذه الشكوك أن يعزل قيسـاً ويولي في مـوضعه محمـداً بن أبي بكر لأنَّ هذا كان طامعاً في مصر منذ قتل عثمان ولأنّ المشيـر بتوليتـه كان عبـد الله بن جعفر وهو أخو محمد بن أبي بكر لأمّه فرضي سيدنا علي بتوليته وأرسله إلى مصر فما عـارضه =

فَلَمْ يَفُتْــهُ دَقِيْقٌ مِنْ تَـضَعْـضُعِـهَــا   وَلَـمْ يَفُـتْــهُ أَلِيْـمٌ مِـنْ دَوَاهِـيْـهَــا

= قيس لأنّه كان زوج عمّته بنت أبي قحافة المسماة « قريبة » وسلمه حكم الديار المصرية وسار إلى المدينة ناقماً على سيدنـا علي . ولكنه مـا عتم أن عذر سيـدنا علي وسـار مع سهل بن حنيف إلى الكوفة طائعين راضيين وشهدا معه موقعة صفين .

وأول عمـل أتاه محمـد بن أبي بكر في مصـر أنّـه كتب إلى المعتـزلين منهم وهم الذين ما كانوا طوع علي ولا معاوية أن بايعوا أو اخرجوا من مصر فكتبـوا له يـرجونـه أن يمهلهم ريثما تنتهي المشكلة فأصرَّ عليهم فامتنعوا فتركهم وهـو يحذّرهم وهم يحـذرونه فلما انجلت موقعة صفين عن التحكيم وقفل إلى الشام وعلي إلى الكوفـة اجتـرأوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له العداء فأرسـل عليهم قوةً من جنـوده أولاً وثانيـاً فقهروهـا واشتدَّ بذلك ساعدهم ومالت النـاس إليهم مطالبـةً بدم عثمـان وكان على رأسهم رجـل يدعى معاوية بن خديج بن الكاسك فجعل يـدعو إلى المـطالبة بـدم عثمان فـانضم إليه كثيـرون من المصريين وهكـذا فسدت مصـر على محمد بن أبي بكـر وأرسـل يستنجـد بسيدنا علي فقال عليه السلام ما لمصر إلاّ أحد اثنين صاحبنا الـذي عزلنـاه في الأمس قيس بن سعد بن عبادة أو مالك بن الحارث بن الأشتر وكان سعد وقتئذٍ قائداً لشرطـة سيدنـا علي في الكوفة والأشتر عاملاً له على الجزيرة ثمَّ رجح إرسال الأشتـر فاستـدعاه وولاّه مصـراً وأرسله إليها فأتبعه معاوية بأحد أتباعه وقتله على بحر القلزم « البحر الأحمر » كمـا تقدم القول في ترجمة الأشتر . وظلَّ محمد بن أبي بكـر عامـلاً لسيدنـا علي على مصر وهي على ما عرفنا من استفحال أمر معاوية بن حديج فيها .

على أنَّ عمـراً بن العاص عنـدما عـاد بعد التحكيم إلى الشـام جعل يلحف على معاوية بالمسير على مصر وفتحها وزاد إلحافاً بعد موت الأشتر وما بلغه من استفحال أمر معاوية بن حديج فرضي معاوية بإرسال حملةً على مصر بقيادة عمرو بن العـاص يعاونـه فيها عبد الرحمن بن خالد بن الوليـد الخزرجي الـذي عرفنـاه عامـل عثمان على حمص وصحب عمرو معه كثيـرين من أبطال الشـام والعرب إلاَّ أنَّ معـاوية قبـل إرسال الحملة كتب إلى معاوية بن حديج الكندي ومسلم بن مخلد الأنصاري وكـانا شيعـةً له يـأمرهمـا بالثبات بدعوتهما للمطالبة بدم عثمـان ويمنيهمـا بـإرسال حملةٍ على مصـر فجاوبـاه بأنَّ أمرهما قد استفحل وتعجلاه بإرسال الحملة فأرسـل حينئذٍ عمـراً بن العاص بستـة آلاف مقاتل على مصر . ولما انتهى عمرو بن العاص إلى حدود مصر طـاوياً سينـاء انضمَّ إليه =

= من كان على شيعة عثمان وتريث هناك وكتب إلى محمد بن أبي بكر كتاباً يقول فيه : « أمّا بعد ، فتنحَّ عنّي بدمك ، يا ابن أبي بكر فإنّي لا أحبُّ أن يصيبك منّي ظفر ، وأنّ الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مسلموك ، لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها ، فإنّي لك من الناصحين ، والسلام » وكان عمرو قد صحب معه كتاباً من معاوية إلى محمد بن أبي بكر فصحبه مع كتابه هذا وهاك نصّ كتاب معاوية : « أمّا بعد ، فإنَّ غبَّ الظلم والبغي عظيم الوبال ، وأنَّ سفك الدم الحرام ، لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا ، والتبعة الموبقة في الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ، ولا أسوأ عيباً ، ولا أشدَّ عليه خلافاً ، منك ، سعيت عليه مع الساعين ، وساعدت عليه مع المساعدين ، وسفكت دمه مع السفاكين ، ثمَّ تظنُّ أنّي نائم عنك ، فتأتي بلدةً فتأمن فيها ، وجلُّ أهلها أنصاري ، يرون رأيي ، ويرفضون قولك ، ويستصرخونَ عليك ، وقد بعثتُ لك قوماً حناقا عليك ، يسفكون دمك ، ويتقربون إلى الله عزَّ وجلَّ بجهادك ، وقد أعطوا الله عهداً ليقتلونك ، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا ، يقتلك الله بأيديهم ، أو بأيدي غيرهم من أوليائه ، وأنا أحذرك وأنذرك ، فإنَّ الله مقيد منك ، ومقتصٌّ لوليه وخليفته ، بظلمك له ، وبغيك عليه ، ووقيعتك فيه ، وعدوانك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه ، ومع هذا فإنّي أكره قتلك ، ولا أحبُّ أن أتولى ذلك منك ، ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً ، فتنحَّ وانجُ بنفسك والسلام » اهـ .

لا جرم أنّ معاوية وعمراً بن العاص ما كتبا هذين الكتابين إلى محمد بن أبي بكر إلّا وهما يريدان أن يرهباه ويحملاه على التنحي عن مصر بغير حرب لأنّهما كانا يحسبان حساباً كبيراً لمقاومته وإمداد سيدنا علي عليه السلام رغماً عمّا كانا يعلمانه من افتراق كلمة أصحاب الخلافة وتشتت أميالهم . أمّا محمد بن أبي بكر فقد عرف من هذين الكتابين ومما سمعه عن وصول حملة عمرو بن العاص إلى حدود مصر ومما شهده من استفحال أمر شيعة عثمان القائم بها معاوية بن حديج أنَّ موقفه قد تحرَّج وأنَّ لا قبل له على المقاومة طويلاً إلّا أنّه لم يسعه أن يتنحى عن مصر ويتركها لقمةً سائغةً لعمرو بن العاص على ما كان عليه من الإخلاص لأمير المؤمنين فبادر إلى أصحابه يستنصرهم من جهة وأوفد مع ساعٍ خصيص كتابي معاوية وعمرو بن العاص إلى سيدنا علي مع كتاب منه ينبئه به عن حقيقة موقفه وما يتهدده ومصر من الأخطار من الجهة الثانية . =

بِهَا غَدَتْ صَحْبُ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ   فَصَائِلاً وَتَمَادَتْ فِيْ تَعَادِيْهَا

= أمّا عمرو بن العاص فما أمهل أن قصد مصر فأخرج محمد بن أبي بكر إلى لقائه كنانة بن بشر في ألفي مقاتل قصدوا جيش ابن العاص في ضواحي الفسطاط وجرت هنالك مواقع عظيمة بين الجيشين كان النصر في أولها لجيش كنانة وكاد يفشل عمرو بن العاص لو لم ينجده في آخر الوقت معاوية بن حديج بمن معه من مقاتلة المصريين المنضوين إلى رايته حينئذٍ تغلبوا على جيش كنانة وقتل هذا شهيداً وتقدم عمرو بن العاص نحو الفسطاط فدخلها دخول الظافر . أمّا أصحاب محمد بن أبي بكر فلمّا بلغهم مقتل كنانة وهلاك جيشه خارت عزائمهم وارفضوا من حوله وإذ وجد هذا نفسه وحيداً هرب في الحال من وجه ابن العاص وأوى إلى خربة فاختفى فيها . وعندما تمَّ الظفر لابن العاص رأى من الحكمة أن لا يدع محمداً بن أبي بكر مختفياً متغللاً في بلاد مصر مخافة أن يهبَّ المصريون لنجدته فيضطرَّ أن يشتبك معهم بحربٍ ثانيةٍ فأرسل معاوية بن حديج بطلبه .

خرج معاوية بن حديج بطلب محمد بن أبي بكر فجعل يتنسم أخباره من الناس في ضواحي الفسطاط فأخبره أحد العلوج بأنّه رأى رجلاً في خربة بالقرب من المحل الذي كانوا فيه فقصد الخربة بمن معه من أصحابه فوجدوا محمداً بن أبي بكر فيها ويكاد العطش يهلكه فقبضوا عليه وأرسل معاوية بن حديج أحد أعوانه ينبىء عمراً بوقوع محمد بن أبي بكر في قبضته وأنّه عزم على قتله فلمّا وصل رسول معاوية بن حديج إلى عمرو بن العاص كان في حضرته عبد الرحمن بن أبي بكر إذ كان هذا في جيشه فأكبر قتل أخيه وقال لعمرو بن العاص : لا والله لا يقتل أخي صبراً فابعث إلى معاوية بن حديج فانهه فأرسل عمرو رسولاً إلى معاوية بن حديج يقول : إئتني بمحمد حيّاً . فلمّا وصل رسول ابن العاص إلى معاوية بن حديج قال هذا والغضب آخذ منه مأخذه : أقتلتم كنانة بن بشر بن عمي وأخلي عن محمد ؟ هيهات . أكفّاركم خير من أوليائكم ؟ أم لكن براءة في الزبر ؟ قال هذا وهو عازم على قتله فسأل محمد بن أبي بكر شربة ماء فقال له معاوية بن حديج لا سقاني الله إن سقيتك قطرةً أبداً إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فسقاه الله من الرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم والغسلين . فقال محمد بن أبي بكر : يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليوم إليك ، ولا إلى عثمان ، إنّما ذلك إلى الله ، يسقي أولياءَه ، ويظمىء أعداءَه ، وهم أنت وقرناؤك ، ومن تولّاك ومن توليته ، =

وَلَمْ تَعُدْ طَوْعَهُ إنْ رَامَ يَفْجَأُهُ   بِغَارَةٍ كَانَ لاَ يَنْفَكُّ يَنْوِيْهَا

=والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم منّي ما بلغتم ، فقال معاوية بن حديج وهو يتبسم تبسم الحاقد : أتدري ما سأصنع بك ؟ أدخلك جوف هذا الحمار الميّت ، ثمَّ أحرقه عليك بالنار ، قال محمد : إن فعلتم ذلك بي ، فطالما فعلتم مثله بأولياء الله ، وأيم الله إنّي لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوّفني بها ، برداً وسلاماً ، كما جعلها الله على إبراهيم خليله ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك ، كما جعلها على نمرود وأوليائه ، وإنّي لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وصاحبك عمرو بن العاص ، بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله سعيراً ، فقال معاوية بن حديج : إنّي لا أقتلك ظلماً ، إنّما أقتلك بعثمان . قال محمد : وما أنت وعثمان ، رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ فنقمنا عليه أشياء عملها ، فأردناه أن يخلع نفسه من الخلافة فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس . فغضب معاوية بن حديج وأمر بمحمد فضرب أحد أعوانه عنقه ثمَّ أمر فألقي في جوف حمار ميت كان في هاتيك الخربة وأحرق بالنار . وهكذا بلغ عمرو بن العاص أمنيته وعاد إلى حكم مصر .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فعندما انتهى إليه كتاب محمد بن أبي بكر مع كتاب معاوية وعمرو بن العاص الذين أرسلاهما إلى محمد أسرع في الحال إلى المسجد ودعا الناس وأخذ يحرضهم على الذهاب إلى مصر وردّ الأعداء عنها فما لبّوه إلّا بعد جهد جهيدٍ وتسويف طويل . لبّاه منهم نحو الألفين فسار بهم مالك بن كعب مدداً لمحمد بن أبي بكر على أنّهم ما كادوا يبعدون عن الكوفة بضع مراحل حتى ورد على سيدنا علي نعي محمد بن أبي بكر وسقوط مصر في يد عمرو بن العاص فحزن حزناً شديداً وخرج إلى المسجد والناس مجتمعون وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا وأنَّ مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً ، ألا وأنَّ محمداً بن أبي بكر قد استشهد ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ، أمّا والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبُّ سحت المؤمن ، إنّي والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز ، وإنّي بمقاساة الحرب لجدٌّ بصير ، إنّي لأقدم على الحرب ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم بالرأي المصيب ، فأستصرخكم معلناً ، وأناديكم مستغيثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة ، وأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا =

=تنقضي بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فخرجتم على جرجرة الجمل الأشر ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد ، ولا رأي له في الاكتساب للأجر ، ثمَّ أخرج إليَّ منكم جند متذائب ضعيف ، نائماً يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأفٍّ لكم » اهـ قال هذا سيدنا علي وهو غاضب حزين ونزل . ثمَّ إنَّ سيدنا علي عليه السلام اجتهد كثيراً لتأليف جيش يبعثه لفتح مصر ثانية واستدعى لهذا الغرض عبد الله بن عباس وكان عامله على البصرة في الكوفة فما توفق لأنَّ الناس كان قد أوهى عزائمهم تفرّق كلمتهم بتأثير الخوارج الذين كان سيدنا علي تعباً جداً في محاربتهم وهكذا كانت الخوارج من كل جهة تعمل على إقلاق خلافته وتشنيع بهجة حكمه .

« ترجمة محمد بن أبي بكر »

لا ضرورة لذكر نسب محمد بن أبي بكر من أبيه بعد أن سبق لنا ذكر أبيه وإنّما نذكر هنا أمّه فهي أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد ثمَّ قتل جعفر يوم مؤتة فتزوج أبو بكر زوجه أسماء بنت عميس فولدت له محمداً هذا ولما مات أبو بكر تزوج أسماء هذه سيدنا علي عليه السلام وحضن ولدها محمد وهو غلام يترعرع فشبَّ في حجر سيدنا علي وتربى على يديه وكان يجريه مجرى أولاده فيقول محمد ابني وإن يكن من صلب أبي بكر . وكان محمد بن أبي بكر يحبّ علياً حباً جمّاً ويتشيع له ولا يعرف له أباً غيره ولا يعتقد لأحد فضيلة تقارب فضيلته وكان له في الثورة التي قتل فيها عثمان يدان على ما تقدمت الإشارة في الحواشي السابقة وصحب سيدنا علي في يوم الجمل وحارب معه وهو الذي تولى أمر عائشة بعد أن تلاشت أصحاب الجمل وعاد بها إلى مكة المكرمة مكرَّمةً حسب أمر عليٍّ عليه السلام ثمَّ عاد إلى صحبة سيدنا علي وهو في الكوفة فولّاه مصر كما تقدم القول وكانت خاتمته كما رأينا القتل شهيداً بيد معاوية بن حديج والحرق بجوف حمار في تلك الخربة التي أوى إليها وكان عمره وقتئذٍ نحو أربعين عاماً .

« هجوم أصحاب معاوية على البصرة »

كان استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمد بن أبي بكر واليها في =

وَطَـالَمَا قَـامَ فِيْهَـا يَسْتَثِيْـرُ بِهَـا   مِنْ رُوْحِهِ نَخْوَةً لِلْحَـرْبِ تَصْرِيْهَا

= سنة ٣٨ للهجرة ولما تمَّ لمعاوية هذا الفوز المبين طمع بسيدنا علي وخلافته وعزم على مواصلة الحرب لفتح أمصار الخلافة وقال في نفسه أنّ عمّار بن ياسر ومالك الأشتر كانا يدا الخلافة فقطعتا وأصبحت بعدهما جزًّاء فما عدت أخافها . قال هذا وأجال بصره بأمصار الخلافة فما وجد أولى بالهجوم غير البصرة فقال إنّ البصريين ما أطاعوا علياً برضائهم بل بايعوه مقهورين وفي نفوسهم من كرهه بعد أن قتل منهم الخلق الكثير في يوم الجمل ما فيها وأنّهم يرون رأينا في عثمان وقد قتلوا حول الجمل في الطلب بدمه فهم بذلك حنقون يودون أن يأتيهم من يجمع كلمتهم وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم . ولم يفت معاوية أيضاً أنّه لو تملك البصرة أصبح على عنق الخلافة المستقرَّة في الكوفة فيسهل عليه استهواء الكوفيين بأمواله ثمَّ الحملة على سيدنا علي وقهره واستخلاص الخلافة من سلطانه . وعلى هذه الوساوس التي خطرت لمعاوية استدعى عبد الله بن الحضرمي وأمره أن يسير بسرية من الجيش إلى البصرة مبيناً له أهواء قبائلها ليوالي التي من حزب عثمان ويحذر التي من حزب سيدنا علي فسار عبد الله بن الحضرمي بهذه المهمة ضارباً في البرية حتى إذا ما دنا من البصرة نزل في بني تميم وأتاه الناس يستطلعون طلع مقدمه فأخذ يرغبهم بعصيان سيدنا علي ويحضهم على القيام مع معاوية للمطالبة بدم عثمان فاعترضه الضحاك بن قيس الهلالي وكان على شرطة البصرة وقال : قبّح الله ما جئتنا به وما تدعونا إليه أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير أتيانا وقد بايعنا علياً واستقامت أمورنا فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضاً ونحن الآن مجتمعون على بيعته وقد أقال العترة وعفا عن المسيء أفتأمرنا أن ننتضي أسيافنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً ؟ والله ليومٌ من أيام علي خيرٌ من معاوية وآل معاوية . وما كاد الضحاك يتمّ كلامه حتى انتهره عبد الله بن خازم السلمي قائلاً اسكت فلست بأهل أن تتكلم ثمَّ أقبل على ابن الحضرمي وقال نحن أنصارك ويدك والقول قولك فاقرأ كتابك فأخرج الحضرمي كتاب معاوية وأخذ يقرأه عليهم وكانت خلاصته أنّه يذكر لأهل البصرة موت عثمان وأنّه قتل مظلوماً ويستنهضهم إلى الانتصار له ويتعهد لهم أنّه إذا تمت له البيعة يعمل فيهم بالسنّة ويعطيهم عطائين في السنة (وهذا بيت القصيد والشفيع المقبول) فلمّا فرغ الحضرمي من كتاب معاوية قام الأحنف وقال : لا ناقتي في هذا ولا جملي ونفض رداءَه وانصرف . وقام عمر بن مرحوم العبدي فقال : أيّها الناس ، الزموا طاعتكم وجماعتكم ، ولا تنكثوا بيعتكم ، =

فَكَانَ تَصْوِيْتُهُ فِيْهَا كَصَرْخَةِ طَوَّ   افِ ٱلْجِبَالِ وَقَدْ ضَاعَتْ بِوَادِيْهَا

=فتقع بكم الواقعة . فاعترضه عباس بن حجار العبدي وقال لننصرنَّ معاوية بأيدينا وألسنتنا فانتهره المثنى بن مخربة العبدي وقال : والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا ولا يغرنَّك هذا الذي يتكلم وتبع ذلك سجس بين القوم ظهر معه للحضرمي أنَّ شيعة سيدنا علي هي الفائزة فخاف على نفسه وعلى السرية التي يقودها ومال إلى صبرة بن شيمان وهو من وجوه تميم وقال له إنّك ناب من أنياب العرب فانصرني فقال له لو نزلت في داري لنصرتك فسار إلى داره وأصبح نزيله .

وكان عامل سيدنا علي على البصرة وقتئذٍ عبد الله بن عباس إلاَّ أنَّه كان تركها متوجهاً إلى الكوفة بعد سقوط مصر كما تقدم القول عائداً إلى سيدنا علي في الكوفة مستخلفاً عليها زياد بن أبيه فلما وصل عبد الله الحضرمي بجنود معاوية ليفتن الناس ويسطو على البلد خاف زياد من مجيئه وانضمام الناس إليه واستدعى إليه حصين بن المنذر ومالك بن مسمع وقال لهما : أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون وأتاه من أتاه فامنعوني وبيت المال حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين فقال حصين لبيك وقال مالك ـ ولم يكن مخلصاً لعلي ـ هذا أمر لا أبتُّ فيه رأياً لأنَّ لي فيه شركاء أستشيرهم ثمَّ ننظر ولما رأى زياد تثاقل مالك عن إجارته خاف أن تختلف عليه ربيعة فأرسل إلى صبرة بن شيمان الحداني الأزدي يطلب منه أن يجيره مع بيت مال المسلمين فقال إن حملته إلى داري وجئتني أجيركما فأسرع بما لديه من أموال المسلمين إلى دار ابن شيمان ونقل إليها المنبر أيضاً وكان يصلّي الجمعة بمسجد الحدان .

وكان زياد في حال وصول ابن الحضرمي إلى البصرة بادر فأنبأ سيدنا علي بمقدمه فبادر عليه السلام فأرسل جارية بن قدامة السعدي وهو من سعد بن تميم وبعث معه خمسمائة مقاتلاً (وقول بعض الرواة أنّ سرية جارية كانت خمسين مقاتلاً خطأ ينفيه العقل لأنّ من المستحيل أن يسير جارية لقتال الحضرمي ومن معه من جيش معاوية ومن يحتمل أن ينضمَّ إليه من قبائل البصرة بأقلّ من خمسمائة مقاتل) ولما بلغ جارية وأصحابه البصرة نزل على الأزد وجمع البصريين وقرأ عليهم كتاب سيدنا علي الذي كان يحمله وفيه يحرضهم على الثبات على بيعته ويتهددهم لو نكثوا البيعة بيومٍ أفظع من يوم الجمل=

دَرَى مُـعَـاوِيَـةٌ ذَا كُـلَّهُ فَـنَـوَى تَقْوِيْضَ أُمْرَتِهِ مَا عَادَ خَاشِيْهَا

= فصاحوا جميعاً إننا موالون أمير المؤمنين صادقون في طاعته وساروا مع جارية للقاء عبد الله الحضرمي فحاربوه مع من انضمَّ إليه من قبائل البصرة وما هي غير ساعة حتى انجلت الموقعة عن قهر أصحاب الحضرمي وفرَّ هذا مع عبد الله بن خازم السلمي وكان أركان حربه وتبعهما سبعون من مقاتلتهما وهم الذين سلموا من جيش الشام وكان يربو على الخمسمائة وأووا إلى قصر سنبيل وهو من قصور فارس القديمة وكان حوله خندق فهو بمقام حصن فتحصنوا فيه فتبعهم جارية وأحرق ذلك القصر بمن فيه فهلكوا جميعاً . وهكذا انتهت حملة معاوية بالفشل وعلم منها هذا حقيقة ما أراد الشاعر بقوله :

كلُّ ما ترتجيه سهل ولكن عثرات الآمال ليست بسهلة

« استيلاء بسر بن أرطأة على الحجاز واليمن »

كلما ازداد أصحاب سيدنا علي عليه السلام ضعفاً بانقسامهم على أنفسهم كلما كان أصحاب معاوية يزدادون قوةً بانضمامهم إلى بعضهم البعض تحت راية معاوية والسبب في ذلك بسيط جداً لا يحتاج إلى بحث وتنقيب وأعمال روية . فإنَّ الناس عند سيدنا علي كانوا يعلمون يقيناً بأنّهم يجاهدون لله والإسلام وليس لهم من خيرات الخلافة إلّا ثواب الآخرة . أمّا أصحاب معاوية فهم موقنون أنَّ الخيرات التي تصيب صاحبهم هم شركاؤهم فيها كلٌّ على قدر وجاهته ونفوذه وقلَّ في الناس الذين يكفرون بأنفسهم ويتجرَّدون عن أهوائهم وينصرفون إلى آخرتهم والأكثرون يهتمون بعاجلتهم ويطمعون بملاذ دنياهم على ما نشاهد بأعيننا ونعلم باختبارنا من طبيعة هذا الإنسان ومبلغ طمعه بهذا الوجود فكأنّي بهم يحسبون أنفسهم خالدين وما الخلود إلّا لله ربِّ العالمين .

فإنَّ معاوية وأصحابه ما ضعضع عزيمتهم فشلهم في البصرة بأزاء ما تأكدوه من تخاذل أصحاب سيدنا علي عن الذهاب إلى مصر واستخلاصها من عمرو بن العاص فرأى أن يقصد الحجاز واليمن حتى إذا ما تمكن من تدويخهما وفصلهما عن الخلافة العلوية هاجم العراق بخيله ورجاله بعد أن تنكسر نفوس أهليها بامتداد سلطانه إلى سائر أمصار المسلمين وفيها المدينة المنورة مهبط الرسالة ومكة المكرمة مقرُّ الكعبة المشرفة أمّا أصحاب معاوية فكان رأيهم غير رأيه كانوا يرون أن يهاجم معاويتهم سيدنا علي في العراق حتى إذا ما ملكها ونال أربه من سيدنا علي عليه السلام دانت له الأمصار بغير قتال =

وَٱخْتَارَ فُرْصَـةَ ذَاكَ ٱلْإِنْقِسَامِ وَبِـٱلْــــغُـزَاةِ أَمْـلَاكُهَـا أَمْسَى مُفَـاجِيْهَـا

= فخالفهم وظلَّ على رأيه إذ كان يتخوَّف من نتيجة مهاجمة سيدنا علي في عقر داره ولا سيما بعد أن انخذلت حملته في البصرة .

وبعد أن أعمل معاوية رويته طويلاً أقرَّ على تنفيذ خطته واختار لهذه المهمة رجلاً من أصحابه يدعى بسر بن أرطأة العامري من بني عامر بن لؤي بن غالب وكان هذا الرجل فظاً غليظ القلب سفاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة فاستدعاه إليه وأمره أن يأخذ طريق المدينة فمكة حتى ينتهي إلى اليمن وقال له : لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلَّا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنّهم لا نجاء لهم منك وأنّك محيط بهم ثمَّ أكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي فمن أبى فاقتله واقتل شيعة علي حيث كانوا فخرج بسر بأمر معاوية ومعه ثلاثة آلاف مقاتل وسار في طريق المدينة فدخلها وكان عامل سيدنا علي عليها أبو أيوب الأنصاري صاحب منزل رسول الله ﷺ فخرج هذا عند وصول بسر برجاله هارباً لعلمه أنّه يعجز عن قتاله فاستولى بسر على المدينة وخطب في الناس فشتمهم وتهددهم وتوعدهم وقال شاهت الوجوه إنّ الله تعالى ضرب مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله . كان بلدكم مهاجر النبيّ ومنزله وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده فلم تشكروا نعمة ربّكم ولم ترعوا حقَّ نبيّكم . وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل وخاذل ومتربص وشامت إن كانت للؤمنين قلت ألم نكم معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قلتم ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ ثمَّ شتم الأنصار فقال : يا معشر اليهود أبناء العبيد بني زريق وبني النجار وبني سالم وبني عبد الأشهل أمّا والله لأوقعنَّ بكم وقعةً تشفي غليل صدور المؤمنين وبني أمية وأصحابهم المطالبين بدم عثمان . أمّا والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة وهكذا أطال في تهديدهم حتى خافوا أن يوقع بهم ففزعوا إلى حويطب بن عبد العزّى فسار إليه وناشده فقال عترتك وأنصار رسول الله وليسوا بقتلة عثمان ولم يزل به حتى تظاهر بالرضى والعفو ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوا وما اكتفى بهذا بل أراد أن يبقي بينهم آثار بطشه فأحرق دوراً كثيرةً في المدينة المنوَّرة منها دار زرارة بن حرون أحد بني عمرو بن عوف ودار فاعمة بن رافع الزرقي ودار أبي أيوب الأنصاري . وأقام بعد ذلك أياماً ثمَّ همَّ بالخروج إلى مكة وقبل سفره جمع رؤساءَهم وقال لهم : إنّي قد عفوت عنكم وإن لم تكونوا لذلك بأهل . ما قوم =

=قتـل إمامهم بين ظهـرانيهم بأهـل أن يُكفّ عنهم العذاب . ولئن نـالكم العفـو مني في الدنيا إنّي لأرجو أن لا تنالكم رحمـة الله في الآخرة . وقـد استخلفت عليكم أبا هـريرة فإيّاكم وخلافه . فأطاع القوم وأكدوا توبتهم وهكذا تركهم وسار قاصداً مكة كرّمها الله .

وعندما بلغ بسـر مكة هـرب منها عـامل سيـدنا علي عليهـا وكان قثمُ بن العبـاس فدخلها وشتم أهل مكة وأنبهم وتهددهم وتوعدهم كما فعل في المدينـة فجـاءُوه طائعين مبايعين لمعاوية فعفا عنهم واستخلف عليهم شيبـة بن عثمان . وكـان قد هـرب من مكة قبل دخول بسر أمَّ القرى سليمان وداود ابنا العباس وأمّهما حـورية ابنـة خالـد بن فارطـة الكنانية وهما غلامان فعثر بهما بسر وذبحهمـا . ثمَّ سار بسـر إلى الطائف فسلمت لـه . ثمَّ خرج منها فأتى نجران فتهـددها فسلمت لـه . ثمَّ أتى موضـع اسمه « أرحب » فقتـل فيه أبا كرب وهو سيد من كان في البادية وكـان من شيعة سيـدنا علي عليه السلام . وأتى بعـد ذلك اليمن فقابله اليمانيون مقاتلين فقاتلهم وغلبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل صنعـاء فقتل فيها مئة شيخ من أبناء فارس لأنَّ ابني عبيد الله بن العباس الذي كان عـامل سيـدنا علي على اليمن وفرَّ قبيل قدوم بسر كانا مختبئين في بيت امـرأة من أبنائهم تعـرف بابنـة بزرج واستولى على اليمن .

كل هذا فعله بسر بن أرطأة في زمن يسير وبمجرّد الوعيد والتهديد ومنه يتضح لنـا أنّ خـروج بسـر إلى الحجـاز واليمن بـأمـر معـاويـة لم يكن مفـاجـأة غيـر منتــظرة من الحجازيين واليمانيين بـل لا بدّ أن يكـون معاويـة قد سبق واستـوثق من ولاّه كثيرين من وجهاء هذينِ المصرين وأهل النفوذ فيهما كما أنّ عمّال سيدنا علي ما كانـوا يهربـون من وجه بسر كلٌ بدوره عن جبن أو خيانة ولكن لثقتهمـا بأنَّ النـاس ليسوا معهم بـل أكثرهم قـد كانـوا من شيعة معـاوية وعلى ارتبـاط معه وإذا كـان قد أغفـل المؤرخون ذكـر هذه الملاحظة فإنّ وقائع الحال تثبتها وإلاّ فما معنى أن تدين المدينة المنورة ومكـة المكرمـة والطائف وعموم الحجاز إلى بسر وهو قادم عليهم بثـلاثة آلاف مقـاتل فقط ؟ ومـا معنى هـرب عمّال سيـدنا علي عليه السلام من وجـه بسر ومـا منهم من يُشكُّ بـإخلاصـه أو من كان يطمع بخير من معاوية وقد عرفناهم فيما بعد قد ثبتوا على ولاء سيدنا عليّ إلى النهاية ؟ لا جرم أنّ معاوية اشتغل بدهائه كثيراً حتى استمال الناس إليه كما أنَّ مـا ذاع وشاع عن تخاذل أصحاب سيدنا علي قد كسر قلوب الناس وهيأها إلى الخضوع لحكم معاوية . =

وَقَـدْ تَسَـطَّى عَلَيْهَـا عِنْوَةً وَقَضَى إِذْ ذَاكَ مُحْتَـرِقَـاً بِـآلنَّـارِ وَالِيْهَـا

= وكـانت أعمـال بسـر تصـل إلى المســامـع الحيـدرية الشـريفـة في أوقـاتها فيتألم عليه السلام منها وكان يبذل كـل ما يمكن أن يبـذله راعٍ حكيم لـرعيته من الحضّ على قتـال هؤلاء الذين آلـوا على أنفسهم أن يعيثوا فسـاداً في بلاد الخـلافة فـلا يجـد ملبياً وطالما قرع الأسماع بخطبه فما أثرت على تلك الأفئدة التي تأكلها انقسامها على أنفسها وأبى سيدنا أمير المؤمنين أن يبطش بهـا بطشـة الحاكم المـطلق الذي يضـرب العاصي بالمطيع ويسُوقها بيد حـديديـة إلى نصر خـلافته . وما زال هذا حـال أمير المؤمنين مـع أصحابه في الكوفة حتى دخلها عبيد الله بن عباس عامله على اليمن وقد رأيناه قـد هرب من وجه بسر ومعـه سعيد بن نمـران صاحب الخـراج فلامهمـا عليه السلام على تركهمـا اليمن لعدوهما وسار يتثاقل متضجراً إلى المسجد الكوفيّ فدعا النـاس إلى الصلاة وصلّى بهم ثمَّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال : « ما هي إلاَّ الكوفة أقبضها وأبسطها ، إن لم تكوني إلاَّ أنت تهبُّ أعاصيرك ، فقبحك الله (وتمثل بَقول الشاعر) :

لعمـر أبيـك الخيـر يـا عمـرو أنَّني عـلى وضـرٍ من ذا الإنـاء قـليـل

ثمَّ قـال : « أنبئتُ بسـراً قـد اطلع اليمن ، وإنّي والله لأظنُّ أنَّ هؤلاء القـوم ، سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقّكم ، وبمعصيتكم إمـامكم في الحقّ ، وطاعتهم إمامهم في البـاطل ، وبـأدائهم الأمانـة إلى صاحبهم وخيـانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم وفسـادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على قُعب ، خشيتُ أن يـذهب بعـلاقته ، اللهمَّ ، إنّي قـد مللتهم وملّوني ، وسئمتهم وسئموني ، فـأبـدلني بهم خيـراً منهم ، وأبـدلهم بي شرّاً مني ، اللهم ، مث القلوب كمـا يماث الملح من في المـاء ، أمّا والله ، لوددتُ أنَّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم :

هنـالـك لـو دعـوتَ أتـاك منهم فـوارس مـثـل أرميـة الـحـميـم

ثمَّ نزل عليه السلام عن المنبر والغضب ظـاهر على وجهـه الكريم فتنحى بعض النـاس بكلماته فألف منهم حملةً بقيادة جارية بن قدامة السعـدي فسيرهـا وراءَ بسر وكـانت في ألفي مقاتل فشخصت إلى البصرة ومنها سارت إلى الحجاز فاليمن وعلم هناك « جارية » أنَّ بسـراً أصبح في بـلاد بني تميم فاستعـاد اليمن إلى حكم سيدنـا علي وهربت شيعـة عثمان إلى الجبال وأخذ جارية بعد ذلـك يتعقب بسراً حتى أخـرجه من اليمن والحجـاز فعـاد إلى صاحبـه معاويـة وهو يفتخـر بمن قتل من المسلمين بسيـوف رجالـه وبلغ عدد =

وَمِنْ تَمَلُّكِ مِصْرٍ ظَنَّ إِبْنُ أَبِيْ ... سَفْيَانَ أَنَّ ٱلْمُنَى سَهْلٌ تَوَلِّيْهَا
وَأَنَّ كُلَّ ٱلَّذِيْ يَرْجُوْهُ يَبْلُغُهُ ... مِنَ ٱلْخِلَافَةِ فِيْ أَقْصَى أَرَاضِيْهَا
وَقَالَ: مَوْتَةُ عَمَّارٍ وَأَشْتَرَ قَدْ ... جَزَّتْ يَدَيْهَا وَفَلَّتْ عَزْمَ حَامِيْهَا
وَقَهْرُ أَصْحَابِهَا فِيْ مِصْرَ خَلَّفَهَا ... رَهْنَ ٱلْقَضَا فَهْيَ تَدْنُوْ مِنْ تَدَاعِيْهَا
وَقَالَ: غَزْوَةُ مِصْرٍ طَالَمَا نَجَحَتْ ... فَفِيْ رِبَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا أُثَنِّيْهَا
فَإِنَّمَا أَهْلُهَا مَا عَنْ رِضَىً خَضَعَتْ ... لِلْمُرْتَضَى مَا لَهُ تَصْفُوْ مَطَاوِيْهَا
مِنْ بَعْدِ مَا هَلَكَتْ أَبْطَالُهَا وَعَلِيٌّ ... كَانَ فِيْ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَشْهُوْرِ مُرْدِيْهَا
وَبَادَرَ ٱلْبَصْرَةَ ٱلْغَنَّا بِحَمْلَتِهِ ... يَقُوْدُهَا ٱلْحَضْرَمِيُّ ٱلْفَدْمُ يُخْطِيْهَا

=القتلى ما يقرب من ثلاثين ألفاً وكان رجوعه في أوائل سنة ٤٠ للهجرة .

ومن تأمّل نجاح حملة « جارية » وهي لا تتجاوز الألفي مقاتل وأنّه بهذه الحملة القليلة استطاع أن يعيد الحجاز واليمن إلى حكم أمير المؤمنين ظهر له أنَّ تراخي أصحاب سيدنا علي في الكوفة وانقسامهم على أنفسهم هو الذي قوّى معاوية وهيأه للخلافة وأنّهم لو كانوا على غير ما عرفناهم متضامنين مع أمير المؤمنين على نصرة الخلافة يطيعونه في السير إلى معاوية ومحاربته منذ ظهور خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري كما كان يلحُّ س عليهم لكان بلا جدال قد انتهى ذلك الشرّ وزال وخيم الأمان على ربوع الإسلام ولكن قُدِّر فكان ولا مردّ لقضاء الله .

وكان سيدنا علي عليه السلام متألماً ممّا فعله بسر بالمسلمين فكان يقول « اللهمَّ ، انَّ بسراً باع دينه بالدنيا ، وانتهك محارمك ، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك ، اللهمَّ ، فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار ، اللهمَّ العن بسراً ، وليحلَّ عليه غضبك ، ولتنزل به نقمتك ، وليصبه بأسك وزجرك الذي لا ترده عن القوم المجرمين » ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء سيدنا علي عليه السلام فإنَّ بسراً في نحو سنة ٤٥ للهجرة ذهب عقله فجُنَّ فكان يهذي بالسيف ويقول اعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يردّد ذلك حتى اتّخذوا له سيفاً من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه فلبث كذلك إلى أن مات .

فَمَا لَهُ خضعَتْ آهَالُهَا وَأَبَتْ   حَرْبَ ٱلْخَلِيْفَةِ قَالَتْ: لاَ تُوَخِّيْهَا

وَلاَ نَرُوْمُ بَدِيْلاً عَنْ أَبِيْ حَسَنٍ   وَلاَ خِلاَفَتُهُ ٱلْغَرَّا نُعَادِيْهَا

وَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ مَكْراً تُطَاوِلُهُ   وَلَمْ يَزَلْ مَعَهَا مَكْراً يُدَارِيْهَا

حَتَّى إِلَيْهَا ٱنْتَهَتْ مِنْ عِنْدِ حَيْدَرَةٍ   جُنُوْدُهُ تَبْتَغِيْ نِيْضَالَ مُغْوِيْهَا

فَأَوْقَعَتْ بِغُزَاةِ ٱلشَّامِ مُفْنِيَةً   جُمُوْعَهَا كَانَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ مُفْنِيْهَا

وَٱلْحَضْرَمِيُّ لَقَدْ لاَقَى ٱلرَّدَى مَعَهَا   وَهٰكَذَا تَأْكُلُ ٱلنِّيْرَانُ مُلْظِيْهَا

وَخَابَ فِيْمَا ٱبْتَغَى جَهْلاً مُعَاوِيَةٌ   مِنْ فَتْحِ بَصْرَتِنَا أَوْ مِنْ تَعَصِّيْهَا

وَكَيْفَ يَبْلُغُ مِنْهَا سُؤْلَهُ وَرِجَا   لُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱسْمِهِ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا

لٰكِنْ مُعَاوِيَةٌ مَا ٱنْفَكَّ يَخْبُطُ فِيْ   غَلْوَائِهِ يَتَأَبَّى أَنْ يُخَلِّيْهَا

فَعَادَ ثَالِثَةً لِلشَّرِّ يَطْلُبُ إِقْـ   ـلاَقَ ٱلْخِلاَفَةِ يَبْغِيْ قَهْرَ حَامِيْهَا

أَوْفَى لِذَلِكَ بِسْراً غَيْرَ مُعْتَبِرٍ   إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ يَغْزُوْهَا وَيُؤْذِيْهَا

هُنَاكَ قَدْ رَذَلَ ٱلْأَنْصَارَ حَقَّرَهَا   وَلَمْ يَكُنْ ذَاكِراً زَاهِيْ مَآتِيْهَا

وَجَازَهَا قَاصِداً أُمَّ ٱلْقِرَى فَأَتَى   بِهَا ٱلْفِعَالَ ٱلَّتِيْ آذَتْ قُرَيْشِيْهَا

وَحَلَّ فِيْ ٱلطَّائِفِ ٱلْخَضْرَا وَأَخْضَعَ كِرْ   هاً لِٱبْنِ حَرْبٍ بِلاَ حَرْبٍ أَهَالِيْهَا

وَوَاصَلَ ٱلسَّيْرَ بِسْرٌ طَالِباً يَمَناً   فَكَانَ فَاتِحَ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا

كَذَاكَ شَذَّبَ أَغْصَانَ ٱلْخِلاَفَةِ بِسْـ   ـرٌ بَيْنَ مُزْهِرِهَا ٱلزَّاهِيْ وَذَاوِيْهَا

وَمَا ٱسْتَطَاعَتْ دِفَاعاً فِيْ مَوَاقِفِهَا   وُلاَةُ حَيْدَرَةٍ عَمَّا بِأَيْدِيْهَا

وَلاَ ٱسْتَطَاعَ عَلِيٌّ أَنْ يَرُدَّ عَنِ ٱلْأَ   مْلاَكِ إِذْ شَامَهَا تُغْزَى مُغِيْرِيْهَا

إِذْ لَمْ تَكُنْ صَحْبُهُ تَرْضَى لِنَصْرَةِ رَا   يَةِ ٱلْخِلاَفَةِ أَنْ تُنْضِيْ مَوَاضِيْهَا

وَمَا عَلَى دَفْعِ ذِيْ ٱلْأَرْزَاءِ قَدْ وَجَدَتْ   رَأْياً وَمَا رَأْيُهُ ٱلْعَالِيْ بِمُرْضِيْهَا

أَغْـرَاضُهَا جَـزَّأَتْ مَجْمُوْعَهَـا فِـرَقـاً   وَقَـدْ أَضَـاعَتْ قِـوَاهَـا فِيْ تَجَـزِّيْهَـا
وَأَطْمَعَتْ بِـأَمِيْـرِ ٱلْمُؤْمِـنِيـنَ وَبِـٱلْـــمُلْكِ ٱلَّـذِي كَـانَ يَحْمِيـهِ أَعَـادِيْهَـا
فَمَـا هِيَ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ حَوْلِ سُـدَّتِهِ   لَمَّـا مُعَـاوِيَـةٌ أَمْسَى مُـنَـاوِيْهَـا
وَلاَ مَمَـالِكُـهُ مِنْ نَفْسِهَـا ٱمْتَنَعَتْ   لَـمَّـا رَأَتْ إِبْنَ أَرْطَـاةٍ مُـوَافِـيْهَـا
وَطَـالَمَـا طَلَبَتْ عُمَّـالُـهُ مَـدَداً   مِنْـهُ وَمَـا ٱسْـطَاعَ يَـوْمَـاً أَنْ يُلَبِّيْهَا
وَإِذْ دَرَى كُـلَّ مَـا بِسْرٌ أَتَـاهُ مِنَ ٱلآ   م سْـوَاءِ فِـيْ يَمَـنٍ مِنْ فَـمِّ وَالِيْـهَـا
عَـلاَ عَـلَيْـهِ صَـلاَةُ ٱللَّهِ مَـنْـبَـرَهُ   مُحَـدِّقَـاً بِـرَعَـايَـاهُ يُفَـاهِيْهَـا
فَقَـالَ : مَـا هِيَ إِلاَّ كُـوْفَتِيْ وَأَنَـا   دَوْمَـاً لأَبْسُـطُهَـا بَسْـطاً وَأَطْـوِيْهَـا
إِنْ لَـمْ تَكُـنْ لِيَ إِلاَّ أَنْ تَـهُبَّ أَعَـا   صِيْرٌ بِـأَرْضِـكِ عَـالِيْهَـا وَوَاطِيْهَـا
إِلاَّكِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْكٌ فَقَبَّحَـكِ ٱلْـــخَلاَّقُ مِنْ بَلْدَةٍ أَصْبَحْتُ ثَـاوِيْهَـا
يَـا نَاسُ أُنْبِئْتُ بِسْـرَاً قَـدْ غَـزَا يَمَنَـاً   وَقَـدْ طَغَى وَبَغَى مَـا بَيْنَ أَهْلِيْهَـا
إِخَـالُ وَٱلـلَّهِ أَنَّ ٱلْـقَـوْمَ ظَـافِـرَةٌ   بِـكُمْ وَبَـالِـغَـةٌ مِنْكُمْ أَمَـانِيْهَـا
لِـسُـوْءِ فُـرْقَتِـكُمْ عَـنْ حَقِّكُمْ وَلأَ   نَّ حَـوْلَ بَاطِلِهَـا ٱلْمُخْـزِيْ تَجَمِّيْهَا
لِشَـرِّ عِصْيَـانِكُمْ حَقَّـاً لِصَاحِبِكُمْ   وَحُسْنِ طَـاعَتِهَـا بُـطْلاً لِـرَاعِيْهَـا
لأَنَّكُمْ خُنْتُمُـوْنِيْ مَـعْ أَمَـانَتِهَـا   إِلَـى مُعَـاوِيَـةٍ صِـدْقَـاً تُـؤَدِّيْهَـا
وَلِلْفَسَـادِ ٱلَّـذِي أُلْفِيْـهِ عِنْـدَكُمُ   مَـعَ ٱلصَّلاَحِ ٱلَّـذِيْ يَمْلاَ مَثَاوِيْهَا
لاَ هُمَّ قَـدْ سَئِمُـوْنِيْ إِذْ سَئِمْتُهُـمْ   مَـلاَلَـةً كُـلُّنَـا أَمْسَـى يُعَـانِيْهَـا
أَبْـدِلْهُمُ بِـيَ شَـرَّاً مِنْ خَـلِيْفَتِهِـمْ   يَسُـوْقُهُمْ بِعَصَـاهُ وَهْـوَ مُهْـوِيْهَـا
كَـذَا بِهِمْ كَـرَمَـاً أَبْـدِلْ بِـأَخْيَرَ مِنْــهُمْ نَفْسَ صَـاحِبِهِمْ يَكْفِيْ تَعَنِّيْهَـا
وَمِثْ وَقَدْ قَسِيَتْ هٰذِيْ ٱلْقُلُوْبَ كَمَا   يُمَـاثُ فِيْ ٱلْمَـاءِ مِلْحٌ كَيْ تُـطَرِّيْهَـا

هُنَاكَ لَوْ رُحْتُ أَدْعُوْهَا لَمَا مَهَلَتْ   أَنْ بَادَرَتْنِي كَسَيْلِ ٱلسُّحْبِ هَامِيْهَا

وَمَا ٱنْتَهَى ٱلْمُرْتَضَى مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ   عَلَى رَعَايَاهُ حَتَّى ٱنْصَاعَ غَاوِيْهَا

وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهُ فِيْ ٱلْحَالِ طَائِفَةٌ   مِنْهَا لِنَصْرَتِهِ تُبْدِيْ تَنَخِّيْهَا

وَكَانَ «جَارِيَةُ» ٱلسَّعْدِيُّ قَائِدَهَا   إِلَى مُنَاضَلَةِ ٱلْأَعْدَا وَمُمْضِيْهَا

وَافَى بِهَا يَمَنَاً وَٱلنَّاسُ قَدْ لَقِيَتْ   مِنْ بِسْرَ مَا قَدْ عَلَا مِنْهُ تَشَكِّيْهَا

فَكَانَ قَاهِرَهُ فِيْهَا وَنَاصِرَهَا   عَلَى ٱلظَّلُوْمِ ٱلَّذِيْ أَجْرَى ٱلدِّمَا فِيْهَا

وَرَايَةُ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ رَاحَ نَاشِرَهَا   مِنْ بَعْدِ أَنْ بَاتَ ظُلْمَاً بِسْرُ طَاوِيْهَا

وَوَطَّدَ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْغَرَّا لِحَيْدَرَةٍ   وَكَانَ بَيْعَةُ رَبِّ ٱلشَّامِ مُلْغِيْهَا

وَهٰكَذَا حَمْلَةٌ صُغْرَى لَقَدْ بَلَغَتْ   بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ مِنَ ٱلْأَعْدَا أَمَانِيْهَا

فَكَيْفَ لَوْ كَانَتِ ٱلْأَمْيَالُ صَادِقَةً   مِنْ حَوْلِ حَيْدَرَةٍ مَا ٱلْحِقْدُ فَاشِيْهَا

تَٱللَّهِ مَا كَانَ فِيْ كُلِّ ٱلْخِلَافَةِ مَنْ   يَجْرَا عَلَيْهَا وَيَنْوِيْ أَنْ يُنَاوِيْهَا

وَكَمْ رَأَيْنَا عَلِيَّاً بَيْنَ أُمَّتِهِ   يُرِيْدُ تَوْحِيْدَهَا عَطْفَاً يُدَالِيْهَا

فَكَانَ يَخْطُبُ فِيْهَا وَهْوَ نَاصِحُهَا   مُبَيِّنَاً شَرَّ مَا يَجْنِيْ تَرَاخِيْهَا

لٰكِنْ رَأَى عَزَمَاتِ ٱلْقَوْمِ خَائِرَةً   مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَنَاهَتْ فِيْ تَبَاطِيْهَا

وَإِنَّ أَقْوَالَهُ مَا أَثْمَرَتْ ثَمَرَاً   يَا لِلْأَسَى بَيْنَ قَوْمٍ خَابَ دَاعِيْهَا

فَسَاءَهُ مَا رَأَى فِيْهَا وَمَا سَمِعَتْ   أُذْنَاهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَنْ أَعَادِيْهَا

وَمَا يُسِيْءُ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسِيْ   ءٌ لِلشَّرِيْعَةِ مَا يُؤْذِيْهِ يُؤْذِيْهَا

هجوم أبو غامد على الأنبار

وَبَعْدَ أَنْ عَادَ بِسْرٌ عَنْ رِبَى يَمَنٍ   وَنَفْسُهُ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا تَمَنِّيْهَا(١)

---

(١) بعد أن عاد بسر من الحجاز واليمن مقهوراً غير منيلٍ مولاه معاوية مأربه من =

رَأَى مُعَاوِيَةُ أَنْ يُزْعِجَنَّ عَلِيَّاً فِي آلدِّيَارِ آلَّتِي قَدْ كَانَ يَثْوِيْهَا

بِحَمْلَةٍ مِنْ كُمَاةِ آلشَّامِ أَرْسَلَهَا إِلَى آلْعِرَاقِ فَجَدَّتْ فِي مَغَازِيْهَا

= تأييد بيعته على ذينك القطرين عاد معاوية إلى رأي الذين أشاروا عليه من أصحابه بأن يقصد سيدنا أمير المؤمنين في العراق لينهي معه المشكلة رأساً إمَّا عليه وإمَّا له على أنّه أراد باديء بدءٍ أن يعجم عود أمير المؤمنين فأوفد إلى العراق سريةً بقيادة أبي غامد وهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي نسبة إلى غامد وهي قبيلة من اليمن تنتمي إلى الأزد وكان زعيمها يلقب بغامد واسمه عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد وسمي غامداً لأنّه عالج شراً قد انتشر بين قومه فأصلحه وتغمدهم بذلك فسموه غامداً . وقد روى سفيان بن عوف الغامدي عن هذه الغزوة التي غزا بها الأنبار فكانت آخر قتال بين سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان قال : دعاني معاوية فقال إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمرَّ ببلدة « هيت » فتقطعها فإن وجدت بها جنداً لعلي فأغر عليهم وإلاّ فامضِ حتى تغير على الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة . واعلم يا سفيان أنَّ هذه الغارة على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كلَّ من له فينا هوىً منهم وتدعو إلينا كلَّ من خاف أن تدور الدوائر عليه . فعليك أن تقتل كل من لقيته ممن لا يكون من حزبنا . واخرب كل ما تمرُّ عليه من القرى . واحرب الأموال فإنَّ حرب الأموال شبيه بالقتل بل هي أوجع للقلب . قال سفيان : فخرجت من عنده فعسكرت وقام معاوية في أهل الشام فخطب فقال : أيّها الناس ، انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنَّه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة أوبتكم إن شاء الله اهـ . ثمَّ نزل . فأسرع إليَّ نيف وستة آلاف مقاتل فسرت بهم طالباً الفرات حتى إذا ما وصلته لزمت شاطئه واغذوت السير حتى أمرَّ ببلدة « هيت » فبلغ أهلها أنّي غشيتهم فقطعوا الفرات فمررت بها وليس فيها عريب كأنّها لم تكن قطُّ فوطئتها حتى أمرَّ ببلدة « صدوداء » وكان أهل هيت قصدوها ففرُّوا من وجهي فلم ألقَ بها أحداً فمضيت أقصد الأنبار وكان أهلها قد بلغهم نبأي فخرج صاحب المسلحة إليَّ فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية فقلت لهم أخبروني كم في الأنبار من أصحاب علي قالوا كانوا نفراً مسلحين لا يتجاوزون الخمسمائة ولكنهم قد تبدّدوا ورجع أكثرهم إلى الكوفة ولا ندري كم بقي منهم فلعلّهم لا يتجاوزون المئتين . قال سفيان : فاستبشرتُ وقسمتُ رجالي إلى كتائب وأخذت أبعثهم كتيبةً بأثر أخرى فيقاتلهم صاحب المسلحة والله ويصبر لهم =

= ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مئتين مقاتلاً وأتبعتهم الخيل فلمّا حملت على رجال عليّ الخيل وأمامها الرجال تمشي ما أمهلوا أن تفرّقوا وقتلِ صاحبهم حسان في نحو ثلاثين رجلاً وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال ثمَّ انصرفتُ . قال سفيان : فوالله ما غزوتُ غزاةً كانت أسلم ولا أقرَّ للعيون ولا أسرَّ للنفوس منها وبلغني أنّها أرعبت الناس اهـ .

ومن هذه الرواية تعلم هول هذه الموقعة التي أزعجت سيدنا علي عندما بلغه ما كان فيها من اعتداء ابن غامد على أهل الأنبار حتى على النساء الذين جردهنَّ من حليهنَّ واعتدى على عفافهنَّ وحرمتهنَّ سيان في ذلك المسلمة والمعاهدة . قالوا وقد قدم علج من أهل الأنبار على سيدنا علي عليه السلام فأخبره الخبر فنادى بالناس وسار بهم إلى النخيلة خارج الكوفة ووقف فيهم خطيباً فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، أمّا بعد ، فإنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجُنته الوثيقة ، فمن تركه رغبةَ عقه ، ألبسه الله ثوب الذلّ ، وشمله البلاء ، ودِيِّث بالصغار والقماءَة ، وضرب على قلبه بالاسهاب ، وأزيل الحق منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع القصف ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزي قوم قطُّ في عقر دارهم إلّا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان ، وهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم ، ولقد بلغني أنَّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ووعثها ، ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام ، ثمَّ انصرفوا وافرين ، ما نال رجلاً منهم كلمة ، ولا أريق له دم ، فلو أنَّ امرءاً مسلماً ، مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً ، فيا عجباً والله ، يميتُ القلب ، ويجلب الهمَّ ، اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرّقكم عن حقّكم ، فقبحاً لكم وترحاً ، حتى صرتم غرضاً يرمى ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تَغزون ، ويعصى الله وترضون ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ ، قلتم حمّاره القيظ أمهلنا يتجه عنا الحرّ ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء ، قلتم هذه صبّارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد ، كلُّ هذا فراراً =

فَٱغْتَاظَ حَيْدَرَةٌ مِنْ خَزْلِ صُحْبَتِهِ دَعْوَى ٱلْجِهَادِ ٱلَّتِيْ أَمْسَى مُوَخِّيهَا

وَسَارَ وَٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلَيْهِ مُطَّلِباً أَرْضَ ٱلنُّخَيْلَةِ غَارِيْ ٱلنَّفْسِ رَاغِيْهَا

وَقَدْ عَلَا رَبْوَةً عُلْيَا وَأَرْسَلَ مِنْ أَلْحَاظِهِ شَرَراً بَادٍ تَلَظِّيْهَا

وَصَاحَ صَوْتاً جَهِيْراً عِنْدَهُ ٱضْطَرَبَتْ تِلْكَ ٱلنُّفُوْسُ ٱلَّتِيْ ٱلتَّفْرِيْقُ مُوْهِيْهَا

وَقَالَ: حَمْداً لِرَبٍّ مَا سِوَاهُ عَلَى ٱلْـــمَكْرُوْهِ يُحْمَدُ آيُ ٱلْحَمْدِ أُسْدِيْهَا

ثُمَّ ٱلصَّلَاةُ عَلَى ٱلْهَادِيْ أُرَدِّدُهَا بِحُرْقَةِ ٱلنَّفْسِ أَبْغِيْ أَنْ تُطَفِّيْهَا

وَبَعْدُ قَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ ٱلْجِهَادَ لَكُمْ بَاباً لِجَنَّتِهِ يَأْتِيْهِ رَاجِيْهَا

وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَانَ فَاتِحَهُ لِلْأَوْلِيَاءِ ٱلَّتِيْ تَسْمُو مَآتِيْهَا

وَإِنَّهُ لَلِبَاسُ لِلتَّقِيِّ قَدِ آرْ تَدَاهُ مَنْ يُنْشِدُ ٱلْأُخْرَى وَيَبْغِيْهَا

وَإِنَّهُ دِرْعُ رَبِّيْ بَلْ وَجُنَّتُهُ لِمَنْ يُلَاقِيْ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَوَاجِيْهَا

فَمَنْ غَدَا زَاهِداً فِيْهِ وَتَارِكَهُ لِيَطْلُبَ ٱلْعَيْشَ تَنْعِيْماً وَتَرْفِيْهَا

=من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرون، فأنتم والله من السيف أفرّ، يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لوددتُ أنّي لم أركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جرّت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش أنَّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم، وهل أحد منهم أشدُّ لها مراساً، وأقدم منها مقداماً، منّي؟ لقد نهضت بها وما بلغت العشرين، وها أنا قد ذرَّفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع» اهـ.

ولما انتهى سيدنا علي عليه السلام من خطابه تحمس الناس وقد رأوا أنَّ عدوَّهم قد دنا منهم وتقدموا منه طائعين ملبين فأمرهم أن يستعدوا للمسير معه إلى الشام لنهو هذه المشكلة على شفار السيوف ولكن لسوء الحظ ونكد الطالع أبت الأقدار أن تتمَّ هذه الحملة إذ فجع العالم الإسلامي بالمصاب الأكبر بمقتله عليه السلام على ما سترى...

فَـاللَّهُ مُكْسِيْـهِ أَثْـوَابَ ٱلْمَـذَلَّـةِ وَٱلْـــ ـهَـوَانِ يُعْثِرُهُ بِـاَلسَّيْـرِ ضَـافِيْهَـا

وَهْـوَ ٱلْمُدَيَّثُ فِعْـلاً بِاَلصَّغَـارِ وَبِاَلْـــ ـقَمَـاءَةِ ٱلنَّـائِـلُ ٱلتَّعْيِيْـرِ رَاضِيْهَـا

وَقَـدْ غَـدَا وَهْـوَ مَمْنُـوٌّ بِضَـرْبَـةِ إِسْـــ ـهَابٍ وَأَمْسَى سَفِيْهَ ٱلْقَـوْمِ هَاذِيْهَـا

وَقَـدْ أُدِيلَتْ بِتَضْيِيْـعِ ٱلْجِهَـادِ حُقُـوْ قُـهُ فَمَـا هُـوَ بِـاَلتَّهْـذَارِ مُلْفِيْهَـا

وَسِيْمَ خَسْفَـاً وَمَـا أُلْفِى لَـهُ نَصَفَـاً مِنْ قَـوْمِـهِ وَٱنْثَنَى لَـوْكَـاً لِـلاَكِيْهَـا

أَلاَ وَإِنِّـي قَـدْ نَـادَيْـتُـكُـمْ لِـقِـتَـا لِ ٱلشَّـامِ مِنْ بَعْدِ أَنْ سَاءَتْ مَآتِيْهَـا

وَكُنْتُ أَدْعُـوْكُمُ لَيْـلاً لِـذَا وَنَـهَـا رَاً دَعْـوَةً بُـحَّ بَحَّـاً صَـوْتُ دَاعِيْهَـا

وَكُنْتُ أُعْلِنُهَـا طَـوْرَاً عَـلٰى مَـلإٍ مِنْكُمْ وَطَـوْرَاً عَنِ ٱلْغَـوْغَـاءِ أُخْفِيْهَـا

وَقُلْتُ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَغْـزُوْكُمُ عَتَـلاً هُبُّـوْا إِلَيْهَـا ٱطْلُبُـوْهَـا فِيْ مَثَـاوِيْهَـا

وَٱللَّهِ مَـا أُمَّـةٌ فِيْ دَارِهَـا غُـزِيَتْ إِلاَّ وَذُلَّـتْ عَلٰى أَيْـدِيْ مُـذِلِّـيْـهَـا

وَذَا أُخُـوْ غَامِـدٍ يَا نَـاسُ قَـدْ وَرَدَتْ أَنْبَـارَنَـا رَكْبُـهُ وَٱلشَّـرُّ حَـادِيْهَـا

أَزَالَتِ ٱلْخَيْـلَ ظُلْمَاً عَنْ مَسَالِحِهَـا وَأَهْلَكَتْ صَـاحِبِي حَسَّـانَ وَالِيْهَـا

وَقَدْ تَعَدَّتْ عَلٰى ٱلْأَعْـرَاضِ تَهْتِكُهَا مِنْ أَهْـلِ مُسْلِمِهَـا هَتْكَـاً وَذُمِّيْهَـا

وَمَـا نَجَتْ مَرْأَةٌ مِنْ هَتْـكِ حُـرْمَتِهَـا إِلاَّ بِـمَـا بَـذَلَـتْـهُ مِـنْ لآلِـيْـهَـا

وَلَمْ يَنَـلْ وَاحِـدَاً مِنْهَـا بِفَعْـلَتِهَـا شَـرٌّ وَقَـدْ أَمِنَتْ إِيْـذَاءَ مُـؤْذِيْهَـا

فَلَوْ قَضَى مُسْلِمٌ مِنْ بَعْـدِ ذَا أَسَفَـاً مَـا كَـانَ فِيْ قَـوْمِـهِ مِنْ مُسْتَلِيْمِيْهَـا

بَـلْ كَانَ عِنْـدِيْ جَدِيْـرَاً بِـاَلْمَنِيَّـةِ إِذْ تُخْفِيْ مَـذَلَّتَـهُ عَنْ عَيْـنِ رَائِيْـهَـا

إِنِّـيْ لَأَعْجَـبُ أَيْـمُ ٱللَّـهِ مِـنْ فِئَـةٍ عَلٰى ضَـلاَلَتِهَـا شِمْنَـا تَجَمِّيْـهَـا

ثُمَّ لأَعْجَـبُ مِنْ بَـادِيْ تَـفَـرِّقِكُـمْ عَنْ حَقِّكُمْ فِرْقَةً ذُوْ ٱلْحَـزْمِ يُزْرِيْهَـا

قُبْحَاً لَكُمْ حِيْنَ صِرْتُمْ لِلْعِدَى غَرَضَاً يُـرْمَى إِذَا مَـا رَمَى ٱلْأَنْبَـالَ رَامِيْهَـا

فَـلاَ تَغِيْـرُوْنَ لٰكِنْ تَمْكُثُـوْنَ هَـوَا نـاً صَابِـرِيْنَ عَلٰى عُـدْوَى مُغِيْـرِيْهَـا

تُغْـزَوْنَ غَـزْواً وَلاَ تَغْـزُوْنَهَـا جُبُنَـاً بِـأَنْفُسٍ قَـدْ تَـوَلَّتْ مُسْتَهِيْـنِيْـهَـا

وَٱللّٰهُ يُعْصَى وَأَنْتُمْ تُـشْهَـدُوْنَ وَتَـرْ ضَوْنَ ٱلْمُعَاصَاةَ فِيْ إِهْمَالِ عَاصِيْهَا

فَـإِنْ أَمَـرْتُكُمْ هُـبُّـوْا لِصَـائِـفَـةٍ قُلْتُمْ حَمَـارَةُ قَيْظِ ٱلصَّيْفِ نَتْقِيْـهَـا

وَإِنْ أَمَـرْتُ شِتَاءً بِـٱلْمَسِيْـرِ أَجَبْــتُمْ صَبَـارَتُـهُ نَـأْبَى تَـلَقِّيْـهَـا

فَمِنْ شِتَـاءٍ إِلَى صَيْفٍ وَعَكْسِهِمَـا تُمَـاطِلُوْنِيْ بِحَـرْبٍ رُمْتُ أُلْـظِيْهَا

فَـإِنْ فَـرَرْتُمْ مِنْ بَـرْدِ ٱلشِّتَـاءِ وَحَــرِّ ٱلصَّيْفِ كُنْتُمْ إِنْ ثَارَتْ مُفِـرِّيْهَـا

فَيَـا شِبَاهَ ٱلـرِّجَالِ ٱلْخَائِرِيْنَ قِـوَىً وَلاَ رِجَـالُ تُقَـاوِيْ مَنْ يُقَـاوِيْهَـا

لَكُمْ حُلُوْمُ بَنِيْكُمْ مَـعْ عُقُـوْلِ نِسَـا كُمْ حَبَّـذَا لَـوْ خَبِئْتُمْ فِيْ مَخَـابِيْهَا

وَدِدْتُ لَـوْ أَنَّنِيْ مَـا كُنْتُ أَعْـرُفُكُمْ وَلاَ رَأَيْـتُ بِكُـمْ بَـلْوَى أُعَـانِيْـهَـا

فَـرُبَّ مَعْـرِفَـةٍ قَـدْ أَوْرَثَتْ نَـدَمَـاً وَأَعْقَبَتْ سَـدَمَـاً مِمَّـا يُتَـالِيْـهَـا

لَقَـدْ مَـلأْتُمْ قَلْبِيْ ٱللّٰهُ قَـاتَلَكُـمْ شَحْمَـاً وَنَفْسِيَ غَيْظَاً فَهْـوَ مُـوْهِيْـهَـا

جَـرَّعْتُمُـوْنِيَ تَهْمَـامِيْ عَلٰى نُغَبٍ أُسْقِيْتُهَـا وَأَنَـا أَلْـحُـوْ مُسَـقِّيْـهَـا

وَبِـٱلْمُعَـاصَـاةِ وَٱلْخِـذْلاَنِ رَأْيِيَ قَـدْ أَفْسَـدْتُمُ زُدْتُمُ خَـزْيَـاً وَتَسْفِيْـهَـا

حَتَّى رَمَتْنِيْ قُـرَيْشٌ بِـٱلْجَهَـالَـةِ فِيْ صِنَاعَةِ ٱلْحَـرْبِ قَالَتْ لَسْتُ أَدْرِيْهَـا

وَيْـلُ آمِّهَا هَـلْ فَتَىً مِنْهَا أَشَـدُّ مَـرَا سَـاً فِيْ ٱلْحُرُوْبِ إِذَا تَلْظُوْ لَـوَاظِيْهَا

وَهَـلْ فَتَىً قَدْ قَضَى أَعْـوَامَـهُ بِـظِلاَ لِ ٱلْمَشْـرَفِيَّـةِ يَهْنَـا فِيْ تَـظَلِّيْهَـا

مِثْلِيْ أَنَا فَارِسُ ٱلْهَيْجَا إِذَا ٱشْتَبَكَتْ فِيْهَا ٱلصُّفُوْفُ وَهَـلْ غَيْرِيْ مُجَلِّيْهَـا

بِهَـا نَهَضْتُ وَمَـا ٱلْعُشْـرُوْنَ بَـالِغُهَـا مِنَ ٱلْحُؤُوْلِ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتُ طَاوِيْهَـا

وَهَـا أَنَا ٱلْيَـوْمَ فِيْ ٱلسِّتِّيْنَ أَبْسَلُ مَنْ خَـاضَ ٱلْمَعَامِـعَ أَوْ لاَقَى مَـذَاكِيْهَـا

لٰكِنَّ مَنْ لَمْ تُطِعْهُ ٱلنَّاسُ لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ بِهِ لِٱعْتِزَازِ ٱلْحَقِّ يُمْشِيْهَا
وَكَانَ يَهْدِرُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ حَيْدَرَةٌ بِمِثْلِ ذَا يَقْرَعُ ٱلْأَسْمَاعَ يُؤْذِيْهَا
بِخُطْبَةٍ مَا ٱلدَّرَارِيْ ٱلزُّهْرُ سَاطِعَةٌ تُرَصِّعُ ٱلْأُفْقَ تَدْنُوْ مِنْ دَرَارِيْهَا
يَجُوْلُ فِيْهَا لِسَانٌ قَدْ تَعَوَّدَ أَنْ يَجْتَاسَ أَنْفُسَ مُصْغِيْهَا وَوَاعِيْهَا
«فَكَهْرَبَ» ٱلنَّاسَ فِيْ سَامِيْ خِطَابَتِهِ فَأَصْبَحَتْ كِتْلَةً فِيْ «كَهْرَبَائِيْهَا»
وَصَاحَ صَائِحُهَا هَيَّ بِنَا لِنُلَا قِيْ مَعْ خَلِيْفَتِنَا ٱلْأَعْدَا وَنُرْدِيْهَا
وَهَمَّ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْطَالِ حَيْدَرَةٌ إِلَى ٱلشَّآمِ سَرِيْعاً كَيْ يُرَبِّيْهَا
فَعَاجَلَتْهُ ٱلْمَنَايَا وَٱلْقَضَاءُ قَضَى عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلدُّنْيَا لِأَهْلِيْهَا

إجمال الحال

مِنْ بَعْدِ خَيْبَةِ آمَالِ ٱلْجَمَاعَةِ بِٱلتَّحْكِيْمِ بَاتَتْ وَنَارُ ٱلشَّرِّ تَكْوِيْهَا[١]
وَمَرَّتِ ٱلْحُجَجُ ٱلسُّوْءَى ثَلَاثَتُهَا عَلَى ٱلْخِلَافَةِ فِيْ أَقْسَى دَوَاهِيْهَا

---

(١) أجملنا هنا خلاصة الحالة التي وصلت إليها الخلافة في السنوات الثلاث التي تلت التحكيم وذكرنا من أسبابها ما فيه الكفاية في الحواشي السابقة وأهمّها إباء المرتضى عليه السلام أن يرشو الناس بأموال المسلمين ويميّز بعضهم على بعض فخرجت عليه الخوارج بحجة قبوله التحكيم وقد علمنا أنّ المرتضى لم يكن له في التحكيم رضى وأنّ هؤلاء الخوارج هم الذين أصرُّوا على التحكيم وأبوا إلّا توقيف القتال مع معاوية بينما كان يرى الأشتر النصر داني القطوف لو أمهلوه ساعةً واحدةً وهاجم جيش معاوية الذي كانت قد خارت عزائمه في موقعة صفين . أمّا الذين لم يخرجوا على سيدنا عليّ وظلّوا على ولائه فكانوا متراخين عن نصرته متهاونين في تلبية أوامره يسوفونه ويماطلونه لأنّه كان يدعوهم إلى الجهاد معه بغية نصرة الحقّ وثواب الآخرة وهم من أهل الدنيا يريدون خيراتها ويطمعون بها وكانوا يسمعون عن الشام ما ينال أصحاب معاوية من خيرات دنياهم فطمعوا بمثلها وهيهات لابن أبي طالب عليه السلام أن يمالئهم على رغباتهم ويعمل على مرضاتهم فيغضب الله ويتعدّى حدود الشريعة السمحاء . وهكذا=

فَلِلْخَوَارِجِ فِيْ أَرْضِ ٱلْعِرَاقِ حُـرُوْ بٌ لاَ ٱنْقِضَـاءَ لَهَـا إِبْلِيْسُ مُلْظِيْهَــا

وَفِيْ ٱلشَّـآمِ أَعَـادٍ غَيْـرُ غَـافِلَةٍ عَنِ ٱلْخِـلاَفَـةِ بِـآلْأَرْزَاءِ تَـرْمِيْهَــا

وَلِلْمَـطَامِـعِ تَـأْثِيْـرٌ وَكَـانَ أَمِيْــــرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى ٱلْأَطْمَـاعِ آبِيْهَـا

سَوَّى ٱلْخَلِيْفَةُ بَيْنَ ٱلنَّـاسِ أَجْمَعِهَا أَعْيَــانَهَــا لَمْ يُمَـيِّـزْ عَنْ أَدَانِـيْهَــا

كَانَتْ جَمِيْعَاً لَدَى ٱلشَّرْعِ ٱلشَّرِيْفِ سَــــوَاءٌ بِـآلْحُقُوْقِ فَلَمْ تَقْبَلْ تَسَاوِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ يَأْبَى أَنْ يَجُوْزَ حُدُوْ دَ ٱلشَّـرْعِ كَيْمَـا رَعَـايَـاهُ يُـرَاضِيْهَــا

فَكَـانَ يُنْفِـذُ فِيْ هٰــذَا شَـرِيْعَــةَ طَــــهَ مِثْلَمَـا أُنْـزِلَتْ وَحْيَــاً فَحَـاوِيْهَــا

وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ إِسْبُــوْعٍ يُفَـرِّغُ بَيْـــتَ ٱلْمَالِ بِٱلْأُعْطِيَاتِ ٱلْكُثْرِ يُوْلِيْهَا

ثُمَّتْ يُقِيْــلُ بِــذَاكَ ٱلْبَيْتِ مُبْتَهِجَــاً بِخَلْوَةٍ مِنْ حِـطَامِ ٱلْأَرْضِ مُخْلِيْهَا

يَقُوْلُ فَلْتَخْدَعِ ٱلصَّفْـرَاءُ غَيْرِيَ وَٱلْــــبَيْضَـا سِوَايَ فَـإِنِّي لَسْتُ شَـاهِيْهَـا

لٰكِنَّهُ كَانَ يُعْطِيْ ٱلنَّاسَ أَجْمَعَهَـا ٱلْأَ مْــوَالَ سِيَّــانِ عُلْوِيْهَــا وَسُفْـلِيْهَــا

وَلاَ يُحَــاوِلُ إِرْشَـاءَ ٱلْـوُجُـوْهِ بِهَــا حَـاشَاهُ لَمْ يَـكُ بِٱلْأَمْـوَالِ يَـرْشِيْهَـا

= كانت سني سيدنا عليّ في العراق سني جهاد واستشهاد الله يعلم ما دخل على نفسه الشريفة فيها من الأوصاب والأوجاع ونقدر أن نلمَّ ببعض الآلام التي كان يعانيها من خطبه الكثيرة التي كان يدعو بها الناس إلى نصرته وهم متهاونون متقاعسون ورجال معاوية يعوثون في أمصار الخلافة فساداً حتى ملكوا مصر وأفحشوا في الحجاز واليمن ولم يدعوا مصراً من أمصار الخلافة لم ينالوه بأذى فاستحكمت الفوضى وعمَّ البلاء وأصبحت الناس ولا تعرف لها فرجاً من هذا المصاب العميم الشامل . وسرعان ما أعاد التاريخ نفسه فكان سيدنا علي وأصحابه وأهل الشام يحاربون خلافته كما كان المصطفى وأصحابه مع كفّار قريش يحاربون نبوَّته وكان معاوية للمرتضى كما كان أبوه أبو سفيان لمحمد . والله سبحانه نصر النبوَّة على أعدائها وسمح بالخلافة أن تتداعى وتتحول إلى ملك عضوض في أيدي معاوية وبني أميّة لأمر يريده الله وقد سبق فأنبأ عن ذلك المصطفى ﷺ . =

حَتَّى قُـرَيْشُ أَبَى إِبْـلاَغَ سَـادَتِهَـا مِنْ جَـاهِ دَوْلَتِـهِ آلْعُلْيَـا أَمَـانِيْهَـا
وَإِنَّ عُشَّـاقَ صَفْـرَاءِ آلنَّضَـارِ وَبَيْــضَـاءِ آللُّجَيْنِ أَبَتْ إِلَّا تَـصَبُّيْهَـا
كَـانَتْ تُـرِيْـدُ عَلِيّـاً لاَ لِحِكْمَتِـهِ وَعَـدْلِـهِ بَـلْ لِكَيْ بِـآلْمَـالِ يُغْنِيْهَـا
وَكَـانَ كُـلُّ زَعِيْمٍ يَـرْتَجِيْ غُنُمَـاً مِنَ آلْخِـلاَفَةِ أَوْ يُمْسِيْ مُنَـاوِيْهَـا
وَآلنَّاسُ إِنْ طَمِعَتْ بِآلْحَاكِمِيْنَ رَجَتْــهُمْ أَنْ يَكُوْنُوْا كَمَا شَاءَتْ مُمَيْـزِيْهَا
وَإِنْ أَبَتْ دَوْلَـةٌ تَمْيِيزَ مَنْ طَمِعُـوْا بِهَـا تَـوَلَّـوْا وَأَمْسَـوْا مُسْتَمِيْـزِيْهَـا
وَذَاكَ شَـأْنُ عَلِيٍّ مَـعْ خَـوَارِجِـهِ وَذَاكَ سِـرُّ آلَّـذِي قَـدْ كَـانَ يُنْمِيْهَـا
كَـانَتْ تَحُجُّ عَلِيَّاً بِـآلْحُكُـوْمَـةِ وَهْــيَ دُوْنَـهُ طَلَبَتْهَـا وَهْـوَ جَـافِيْهَـا
وَكَانَ عِصْيَانُ أَهْـلِ آلشَّامِ يُـطْمِعُهَا وَأَصْبَحَتْ وَهْـوَ بِـآلشَّنَـآنِ يُغْـرِيْهَـا
وَآلْمُـرْتَضَى كُلَّمَـا دَاوَى بِـأُمْـرَتِـهِ جِـرَاحَـةً نَغَـرَتْ أُخْرَى تُضَـاهِيْهَـا
وَكَانَ صَاحِبُنَا فِيْ آلشَّامِ يُـزْعِجُ أَمْــصَـارَ آلْخِلاَفَـةِ غَـرْبِيْهَـا وَشَـرْقِيْهَـا
فَمِصْرُ قَدْ سَـادَهَا عَمْـرٌو وَكَانَ كَمَـا بَغَى عَلَى رَغْمِ أَنْفِ آلـدَّهْرِ وَالِيْهَـا
وَبِسْـرُ لَمْ يَتَّـرِكْ مِنْ شَـرِّهِ يَـمَنَـاً وَلاَ آلْحِجَـازَ فَأَمْسَى آلْبُؤْسُ فَـاشِيْهَا
وَعَمَّتِ آلْحَرْبُ أَطْرَافَ آلْخِلاَفَةِ طُــرَّاً وَآلْمَصَـائِبُ نَالَتْ كُـلَّ مَنْ فِيْهَـا
لَـوْلاَ عِنَـايَـةُ رَبِّي بِـآلْحَنِيْفَـةِ لَمْ تَسْلَمْ خِـلاَفَتُهَـا مِنْ سَطْوِ عَـادِيْهَـا
وَقَـدْ تَحَكَّمَتِ آلْفَـوْضَى بِـأَرْبُعِهَـا وَآلـظُّلْمُ حَـلَّ بِقَـارِيْهَـا وَبَـادِيْهَـا
وَسَـاءَتِ آلْحَالُ سُـوْءاً لاَ صَلاَحَ لَـهُ وَلاَ مَسَـالِـكُ إِصْـلاَحٍ يُنَـاحِيْهَـا
وَمَلَّتِ آلنَّاسِ هَاتِيْكَ آلْحُرُوبَ وَمَـا كَـانَتْ تَجِـرُّ عَلَيْهَـا مِنْ دَوَاهِيْهَـا
وَمَا دَرَتْ مُوْجِبَاً يَدْعُـوْ لِسَفْكِ دِمَـا ءِ آلْمُسْلِمِيْنَ آلَّتِيْ فَـاضَتْ مَجَارِيْهَـا
وَمِثْلَمَـا كَـانَ طَـهَ مَـعْ أُمَيَّـةَ أَمْــسَى آلْمُـرْتَضَى مَعَهَا يَقْلُوْهُ قَـالِيْهَـا

وَمَا مُعَاوِيَةُ فِيْ حَرْبِ حَيْدَرَةٍ   وَقَدْ تَمَادَى بِهَا مَا آنْفَكَّ يُوْرِيْهَا
إِلَّا مِثَالُ أَبِيْ سَفْيَانَ وَالِدِهِ   مَعَ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ مَاضِيْ مَغَازِيْهَا
أَعْيَتْ أُمَيَّةُ عَنْ مَحْوِ ٱلْهِدَايَةِ وَٱلْـ   ـرَّحْمٰنُ مُثْبِتُهَا مُعْيٍ مُمَحِّيْهَا
لٰكِنْ خِلَافَتُهَا قَدْ حَوَّلَتْهَا إِلَى   مُلْكٍ عَضُوْضٍ وَنَالَتْهُ بِأَيْدِيْهَا
نُبُوَّةُ ٱلْمُصْطَفَى تَمَّتْ بِذَاكَ كَمَا   قَدْ كَانَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللَّهُ مُنْبِيْهَا

المؤامرة على أمراء المسلمين

عَمَّتْ نُفُوْسَ جَمِيْعِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ تَبَا   رِيْحُ ٱلْحُرُوْبِ ٱلَّتِيْ عَمَّتْ عَوَادِيْهَا
فَأَصْبَحَتْ ضَجِرَاتٍ غَيْرَ مُبْشِرَةٍ   بِمَا مِنَ ٱلْغِيَرِ ٱلشَّتَّى يُنَجِّيْهَا
وَسَاوَرَتْهَا كُرُوْبٌ غَيْرُ نَازِحَةٍ   عَنْهَا وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُعَانِيْهَا
فَجُنَّ مِنْ أُمَّةِ ٱلْهَادِيْ ثَلَاثَةُ أَشْـ   ـخَاصٍ لِنَشْلَتِهَا مِمَّا يُؤَذِّيْهَا
ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِيْ ٱلْإِسْلَامِ قَدْ هَوِسَتْ   عُقُوْلُهُمْ وَتَنَاءَتْ عَنْ تَرَوِّيْهَا
هُمُ آبْنُ مُلْجَمَ مَعْ عَمْرِو آبْنِ بَكْرَ وَعَبْـ   ـدِ ٱللَّهِ كَانُوْا لِذِيْ ٱلْبَلْوَى أَثَافِيْهَا
رَأَوْا ٱلشُّرُوْرَ ٱلَّتِيْ شَاعَتْ مَصَائِبُهَا   فِيْ ٱلنَّاسِ لَا شَيْءَ غَيْرُ ٱلْقَتْلِ يُنْهِيْهَا
وَقَدْ قَضَوْا أَنَّ عَمْراً مَعْ مُعَاوِيَةٍ   مَعَ ٱلْوَصِيِّ لَقَدْ كَانُوْا مُذِيْعِيْهَا
وَإِنَّ قَتْلَتَهُمْ تُفْضِيْ لِرَاحَةِ خَلْـ   ـقِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَرْضَى عَنْ مُؤَدِّيْهَا
تَآمَرُوْا بِحِمَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيْقِ عَلَى   جِنَايَةٍ كَانَ بَعْلُزْبُوْلُ مُوْحِيْهَا
كَانُوْا بِمَكَّةَ تَحْوِيْهُمْ مَعَاهِدُهَا ٱلْـ   ـقُدْسِيَّةُ ٱلْكَاسِبُ ٱلرُّضْوَانَ آتِيْهَا

---

(١) ثلاثة من الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي عليه السلام ظلماً وعدواناً لأنّه وافقهم على التحكيم الذي أكرهوه عليه هالهم بطش أمير المؤمنين بذويهم وأمثالهم من الخوارج في أطراف العراق ولا سيما في موقعة النهروان وهالهم ما سمعوه من هجوم =

وَكُلُّهُمْ كَـانَ مَجْـذُوْبَـاً أَخَـا هَـوَسٍ   يُـرِيْـدُ زُلْفَى مِنَ ٱلْخَـلَّاقِ يَقْنِيْهَـا

=جيوش الشام على أمصار الخلافة والعوث فيها فساداً فأقرُّوا على إتيان عمل كبير ينقذون به الممالك الإسلامية من الفوضى التي استحكمت فيها بدسائس معاوية على ما زعموا ولا يزال صنيع هؤلاء المجرمين الثلاثة سرّاً من أسرار التاريخ الإسلامي ما استطاع مؤرّخ مدقق من المؤرّخين يكشف عنه الغطاء .

إنّ أسماء هؤلاء الثلاثة الذين تآمروا على قتل سيدنا علي ومعاوية وعمرو بن العاص غيلةً في صبيحة يومٍ واحدٍ معروفة فهم عبد الرحمن بن ملجم صاحب سيدنا علي والبرك بن عبد الله التميمي صاحب معاوية وعمرو بن بكر التميمي صاحب ابن العاص . نعم عرفنا هؤلاء المجرمين الفوضويين وعرفنا أيضاً أنّهم من الخوارج وقد اجتمعوا في الكعبة في موسم الحجّ حجاجاً في حجة ٣٩ للهجرة وتعاهدوا على قتل أولئك الأمراء . ولكن هل كانت مؤامرتهم من عند أنفسهم أم كانوا مدفوعين إليها من جمعية فوضوية سرية ؟ هذا ما لم يبتّ به حكماً أحد المؤرخين . وهل كان اجتماع هؤلاء الأشقياء صدفةً في موسم الحج في مكة المكرمة فخطر لهم هناك خاطر البطش بالأمراء أم قصدوا الحجّ على هذه الفكرة السوداء ؟ هذا أيضاً لم أجد من ذكره وفي الأخير من نتيجة هذه المؤامرة بعد تنفيذها قد يتسرَّب لنفس الباحث المدقق شكٌّ بما أراد المؤرخون أن يثبتوه من قَصر الجريمة على المتآمرين أنفسهم دون سواهم إذ رأينا ابن ملجم عليه لعنة الله والناس أجمعين إلى يوم الدين قد فتك بسيدنا علي عليه السلام ولكن رأينا البرك صاحب معاوية يضربه بسيفه على أليته وهي أبعد المواضع من الخطر على الحياة في جسم الإنسان ورأينا عمراً بن العاص يمرض أو يتمارض في ذلك اليوم فيرسل من ينوب عنه في الصلاة فيقتل . أفلا يجوز بعد ظهور هذه النتيجة أن يخطر إلى أبله مثلي أنَّ عمر بن العاص داهية العرب كان صاحب تلك المؤامرة أو على الأقل كان واقفاً على سرّها ؟ وأنّه أحكم الحيلة فأرسل ثلاثة في وقت واحد للتظاهر بالفتك بثلاثتهم مخافة أن يرسل واحداً لسيدنا علي عليه السلام وحده فيقتله وتظهر يد الأمويين في مقتله ولو على سبيل الشبهة فيقوم الناس لمطالبة معاوية والأمويين بدم سيدنا علي كما قاموا لمطالبة سيدنا علي وأصحابه بدم عثمان . وأنَّ عمراً بن العاص أوصى صاحب معاوية أن لا يفتك به على أنّه لم يخبر معاوية قائلاً في نفسه إذا هلك هذا أيضاً فأنا للخلافة . وما يدعوني إلى الإشتباه بعمرو بن العاص في هذه الجريمة هو أنَّ صاحبه الذي تولى قتله لم يتوانَ عن قتل من ناب عنه بالصلاة إذ لا يعقل أنّ الرجل الذي أخذ =

= على عاتقه أن يقتل عمر أو يريح أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من شرّه على ما كان يزعم قد أقام في « الفسطاط » من محرم إلى رمضان ولم يعرف شخص الرجل الذي كان يـريد قتله حتى يقتـل شخصاً آخـر في اليوم المضـروب لمجرَّد أنّـه أقبل على المسجـد يريـد أن يصلّي بالناس عوضاً عنـه . إنَّ المؤرخين يصورون لنـا هؤلاء المجرمين ذوي هـوس في الدين وأنَّ هوسهم هو الـذي حملهم على إتيان جـريمتهم والمهووس في دينـه يأبى ولا شـكّ وهو يريد أن يرتكب جريمته لمحض إرضاء ربّه والتزلف إليه عزَّ وجلَّ أن يقدم على قتل شخص يعتقـد أنَّ في قتله مثوبـة من غير أن يتحقق من شخصيتـه . كما أننـا نعرف من التاريخ أنَّ عمراً بن العاص كان يصلّي بالناس في الفسطاط في كلّ يوم جمعة فلا يعقل أنَّ المجـرم الذي قـدم الفسطاط لا لعمـل سوى قتله أن يقيم بضـع شهـور في هـاتيـك المدينة ولم يشهـد الصلاة في « جـامع عمـرو » ويصلّي مع الجمـاعة فيتعـرَّف شخصية عدوّه المريد دمه كمـا لا يعقل أيضـاً أنّه في كـل هاتيـك المدّة لم يـرَ عُمراً بن العـاص متجولاً في شوارع الفسطاط للإشـراف على البلد . إنَّ والحق يقال لم أقف فيمـا أمامي من كتب التـاريخ على رأيٍ كهـذا ولم أجد المؤرخين يتهمـون بهذه المؤامـرة عمراً بن العاص أو عمراً ومعاوية معـاً ولكن نتيجة المؤامـرة أدَّت بي إلى هذا الخـاطر فقـد أكون فيه مخطئاً وأسأل من يقرأ علويتي المباركة وهو على علم بشيء من أسرار هذه المؤامـرة أن يوافيني بما يعلم خدمةً للتاريخ .

أمّا حادثة المؤامرة هذه فكلُّ ما اتّصل بي منها أنّها جـرت كما يـأتي : اجتمع في مكة كرمها الله ثلاثة من الخوارج في مـوسم الحج سنـة ٣٩ للهجرة فتـذاكروا في حـالة المسلمين التعسة والفوضى السائدة على ديارهم فذكروا هجوم جيش معاوية على مصـر فالبصرة فالحجاز فاليمن وأسفوا لما جرى من القتـل والنهب في هذه الأمصـار ثمَّ ذكروا علياً ومعاوية وعمراً بن العاص فعابوهم وعابوا أعمالهم ومطامعهم بغير استثناء فما ذكروا فضيلة سيدنا علي عليه السلام ولا خدماته الكبرى للإسلام ولا تفانيه في سبيل نصرة القرآن ولا أحقيته بالخلافة بل ضمّوه مع صاحبيـه وجمعوهم جميعـاً في صعيدٍ واحـدٍ وذكروا أهـل النهروان وهم الخوارج الذين بطش سيدنا علي بهم فترحموا عليهم وقـالوا بعـد ذلك : لو أنّا بذلنا أنفسنا لله عزَّ وجـلَّ فأتينـا أئمة الضـلال (كذا) وطلبنـا غرَّتهم لأرحنـا العباد والبلاد وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهـروان . وهكذا تعـاقدوا عنـد انقضاء الحـجّ سنة ٣٩ للهجـرة على تنفيـذ جـريمتهم فتعهـد عبـد الـرحمن بن ملجم لعنـه الله بقتـل سيـدنـا =

عَابُوْا آلثَّلاثَةَ مَا آسْتَثْنُوْا آلْفَضِيْلَ وَلاَ ... هُمْ مَيَّزُوْا مُحْسِنِيْهَا مِنْ مُسِيْئِيْهَا

كَلاَّ وَلاَ ذَكَرُوْا فِيْ مَكَّةٍ قِصَصاً ... مَا كَانَ مِنْ أَحَدٍ فِيْ آلنَّاسِ نَاسِيْهَا

نَسُوْا حَدِيْثَ أَبِيْ سُفْيَانَ وَهْوَ عَدُ ... وٌّ لِلنُّبُوَّةِ يَسْعَى فِيْ تَلاَشِيْهَا

يَسْتَنْفِرُ آلنَّاسَ مِنْ أَقْصَى آلْقِفَارِ لِمَلْـ ... ـقَى آلْمُسْلِمِيْنَ جُمُوْعَاً كَلَّ مُحْصِيْهَا

كَمَا نَسُوْا آلْمُرْتَضَى إِذْ كَانَ أَبْسَلَ مَنْ ... لاَقَى قُرَيْشاً حَدِيْدَ آلنَّفْسِ قَاهِيْهَا

إِنَّ آلْحَنِيْفَةَ لَوْلاَ ذُوْ آلْفِقَارِ وَعَوْ ... نُ آللَّهِ مَا قَهَرَتْ يَوْماً مُلِدِّيْهَا

وَإِنَّ أَعْمَالَ رَبِّ آلْفَضْلِ حَيْدَرَةٍ ... فِيْهَا لَكَالشَّمْسِ فِيْ زَاهِيْ تَلاَلِيْهَا

قَدْ تُنْكِرُ آلْعُمْيُ نُوْرَ آلشَّمْسِ جَاهِلَةً ... لَهَا آلضِّيَاءَ آلَّذِيْ يُلْفِيْهِ رَائِيْهَا

وَآلرُّمْدُ قَدْ تَتَأَذَّى مِنْ أَشِعَّتِهَا آلـ ... ـزَّهْرَا فَتَشْكُوْ وَلٰكِنْ مِنْ تَأَذِّيْهَا

= علي عليه السلام والبرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص وضربوا لجرائمهم موعداً واحداً هو صبيحة يوم ١٧ رمضان من السنة التالية ٤٠ للهجرة وأقسموا على الكعبة بأن ينفّذوا جرائمهم بالدقة والأحكام وأنّهم قد سموا سيوفهم حتى تكون ضرباتهم قاضيةً على أولئك الأمراء لا محالة وتفرَّقوا بعد ذلك فقصد الملعون ابن ملجم الكوفة والبرك دمشق الشام وعمرو بن بكر مصر ليعدوا عدتهم للقتل في اليوم الموعود . ومما يستلفت النظر أيضاً أنّهم أطالوا موعد تنفيذ جرائمهم وهذا أيضاً مما يدعو إلى الشك بهذه الرواية لأنَّ المجرم الناوي الإجرام إذا طال عليه موعد تنفيذ جريمته قد يعرض له ما يحوله عن عزمه إذ يطيل التفكر بعقبى عمله فيعود إلى رشده فيضنّ بحياته وهو يعلم أنّه متعرِّضٌ للموت أو أن يعرض له أمر يحوّله عن شرّه فكيف ظلَّ هؤلاء الثلاثة كل المدَّة بين محرّم ورمضان ولم يحدث ولو لأحدهم ما يحوله عن تصميمه على القتل من غير أن يكون وراءَهم دافع يدفعهم إلى الجرائم التي كانوا يبوونها هذا أيضاً مما يدعو إلى التفكر ولا يحسن معه السكوت مهما قالوا إنَّ هؤلاء الخوارج كانوا متهوسين يحسبون أنّهم يتزلفون إلى الله بقتل عمرو ومعاوية وأمير المؤمنين وأنّهم حلفوا على تنفيذ جرائمهم لخير الإسلام والمسلمين إلى آخر ما قرأنا من روايات المؤرخين .

وَٱلشُّمْسُ تَبْقَى كَمَا كَانَتْ مُلأْلِئَةً   بِهَا ٱلْبَرَايَا إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ يُحْيِيْهَا

كَذَا ٱلْإِمَامُ وَإِنْ عُمْهُ ٱلْبَصَائِرِ أَوْ   مَرْضَى ٱلْقُلُوْبِ دَعَتْهُ ٱلْيَوْمَ مُؤْذِيْهَا

فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِيْ أَوْجِ سُؤْدُدِهِ   بَعْدَ ٱلرَّسُوْلِ أَجَلَّ ٱلنَّاسِ تَوْجِيْهَا

لٰكِنَّ مِنْ أَيْنَ يَدْرِيْ ذَا عَتَاهِيَةُ ٱلْإِ م سْلَامِ فِيْمَا رَوَيْنَا عَنْ تَنَادِيْهَا

أَحْصَتْ مَعَ ٱلْمُجْرِمِيْنَ ٱلْمُرْتَضَى سَفَهَاً   ثُمَّ عَلَيْهِ قَضَتْ بِٱلْمَوْتِ تَعْمِيْهَا

صَاحَ ٱبْنُ مُلْجِمَ شَرُّ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا: إِنِّيْ لِحَيْدَرَةٍ أُرْدِيْهِ تَجْرِيْهَا

وَصَاحَ فِيْ ٱلْحَالِ عَبْدُ ٱللَّهِ صَيْحَتَهُ   فَقَالَ: أَكْفِيْ ٱلْبَرَايَا مِنْ مُعَاوِيْهَا

وَصَاحَ عَمْرُ ٱبْنُ بَكْرٍ قَائِلًا: وَأَنَا   عَلَيَّ قَتْلَةُ عَمْرٍو لَا أُؤَنِّيْهَا

وَقَدْ أَقَرَّتْ عَلَى يَوْمٍ تُنَفِّذُ فِيْـ   ـهِ تِيْ ٱلْجَرَائِمَ تَنْفِيْذَاً وَتُمْضِيْهَا

لِسَبْعِ عَشْرَةِ مِنْ شَهْرِ ٱلصِّيَامِ لِعَا   مِ ٱلْأَرْبَعِيْنَ وَقَالَتْ: فِيْهِ نَجْنِيْهَا

ثُمَّ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ ٱلْعُلْيَا لَقَدْ حَلَفَتْ   أَنْ لَا تَهَابَ ٱلْمَنَايَا فِيْ مَسَاوِيْهَا

وَفَرَّقَتْهَا ٱللَّيَالِيْ فِيْ مَنَاهِجِهَا   وَٱلْإِثْمُ سَابِقُهَا وَٱلشَّرُّ تَالِيْهَا

سَارَتْ تُيَمِّمُ مِصْرَاً وَٱلشَّآمَ مَعَ ٱلْـ   ـعِرَاقِ تَطْلُبُ عَنْ بَغْيٍ أُضَاحِيْهَا

موتورة النهروان

مَلِيْحَةٌ مِنْ بَنِيْ تِيْمِ ٱلرَّبَابِ لَهَا   مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ زَاهِيْهَا وَرَاضِيْهَا[1]

إِذَا نَضَتْ عَنْ مُحَيَّاهَا بَرَاقِعَهَا   شَعَّ ٱلسَّنَاءُ فَغَشَّى عَيْنَ رَائِيْهَا

---

(١) إنَّ مشكلة الخوارج من أعضل المشاكل التي عرضت لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته وقد تعاصى حلّها واستفحل أمرها فكانت من أظهر دواعي غلبة معاوية على الخلافة الإسلامية وتحويلها إلى ملك عضوض لبني أمية . وحكاية هؤلاء الخوارج لقد تكرر لنا الإشارة إليها غير مرة في الحواشي السابقة وخلاصتها أنَّ معاوية عندما أمر أصحابه أن يرفعوا المصاحف بوجوه أصحاب سيدنا علي وأمرهم أن =

فَوَجْهُهَا ٱلْبَـدْرُ لٰكِنْ لَيْسَ تُنْقِصُ مِنْ   لأْلاَءِ طَلْعَتِهَــا ٱلــزَّهْــرَا لَيَــالِيْهَــا

= يدعوا الناس إلى تحكيم كتاب الله بينهم حسب إشارة عمرو بن العاص قُدّر على أهل العراق أن يحسنوا الظن بأهل الشام ويحسبوا دعوتهم صادقةً وأبوا إلاّ موافقتهم على تحكيم القرآن في ذلك الشجار وأصمُّوا مسامعهم عن نصيحة سيدنا علي الذي عرف أنَّ دعوة معاوية للقرآن حيلة يريد بها أن يتّقي الإنكسار وقد لاحت له بوادره وقد رأينا هؤلاء الناس يتهددون سيدنا علي بأن يقتلوه كما قتلوا عثمان إن لم يجب أهل الشام في التحكيم ورأينا أيضاً الأشتر يقول للناس أمهلوني ساعةً لأكسب لكم الحرب فيها فأبوا إلّا التحكيم حتى إذا ما كتب صكّ التحكيم أمضاه سيدنا علي ومعاوية مضى به الأشعث يقرأه على الناس فقبله أهل الشام لأنّه في مصلحتهم وأقلُّ ما فيه من الفائدة لهم أنّه يقيهم ذلَّ الإنكسار وعار الخزلان أمّا أهل العراق فانتبهوا إلى غلطهم وأخذوا ينادون أنَّ الحكم لله ولا نقبل بالتحكيم ورجعوا إلى سيدنا علي يطلبون منه أن ينكث عهده ويرجع بوعده ويؤاتيهم على العودة للقتال فرفض عليه السلام طلبهم الثاني لأنّه مخالف للشرع ومعارض لنصّ القرآن ومتى كان سيدنا علي يرضى أن لا يفي بالعهود التي يبرمها ولو فعل هذا لانتفت ثقة الناس بالعهود وهل يتصوَّر ذو عقل أنَّ سيد قريش وصنو المصطفى يأتي بمثل هذه الذلَّة فتكون عليه سبة الأبد حاشا لله ذلك .

وجاهد سيدنا علي طويلاً ليقنع أولئك الخارجين عليه بالحجة مبيناً لهم أنّهم هم الذين أكرهوه إكراهاً على قبول التحكيم وحملوه رغم إرادته على إمضاء العهد بينه وبين معاوية وأنَّ النكث به بعد إمضائه يخالف نصّ القرآن الصحيح فما اقتنعوا وطفقوا يتهددونه بالإنقلاب عليه إن لم يرجع بالعهد وينكث به كما تهددوه من قبل إن لم يقبل التحكيم . وفي هذا منتهى الغرابة فقتل الإنسان ما أكفره .

ابتدأ أمر الخوارج في صفين على أثر إمضاء العهد بين سيدنا علي ومعاوية وعاد أهل العراق إلى ديارهم وهم مفترقون بعضهم من شيعة سيدنا علي يعتقدون أنّه أكره على قبول التحكيم وأنَّ أصحابه هم الذين أكرهوه عليه وبعضهم أعداءٌ له ينادون بحربه وعصيان خلافته لقبوله التحكيم . وانصرف سيدنا علي عليه السلام إلى ملاطفة الخوارج وإقناعهم بالحجة أنّه لم يكن مخطئاً بقبول التحكيم وأنّه مثلهم يعتقد أنَّ التحكيم غلطة بتعذّر تلافيها وأنّه غير معيد للمسلمين السلام الذي يتوخونه من ورائه ولكن لا بدَّ من الصبر إلى ظهور النتيجة من دومة الجندل فما كان في الخوارج من يصغي إلى نصيحته =

وَقَـدْ تَدَلَّتْ حَـوَالَيْـهِ ضَفَـائِـرُهَـا آلْـــسُّوْدَا وَلَوْ نُشِـرَتْ أَدْجَتْ دَيَاجِيْهَـا

=ويعود عن الحقد عليه وينزل على رأيه .

وعندما ظهرت نتيجة التحكيم على ما علمنا من فشل أبي موسى الذي جاء به هؤلاء الخوارج أنفسهم مع ما علموا من انحرافه عن ولاء الحضرة السنية الحيدرية تعاظم شرُّ هؤلاء الخوارج فطفقوا يتعرضون لشيعة سيدنا علي ويعتدون على أصحابه ويقطعون الطرق على السابلة ويعوثون في أرض العراق فساداً فاضطرَّ سيدنا علي عليه السلام اضطراراً إلى محاربة هؤلاء الخوارج وتأديبهم فكان له معهم مواقع شتّى نصره الله بها عليهم نصراً مبيناً حتى ضعف شأنهم وتلاشت سطوتهم وعاد الأمن أو كاد يعود إلى أطراف العراق إلاّ أنَّ هذه الحروب الداخلية أورثت الخلافة العلوية ضعفاً بيناً لسببين أولهما أنَّ أصحاب سيدنا علي قد سئموا الحرب إذ كانوا في كل وقت مضطرين إلى حمل السلاح لقتال الخوارج فتثاقلوا عن دعوته عليه السلام لحرب الشام وثانيهما أنَّ حرب الخوارج هذه قد قللت أنصار سيدنا علي وأصحابه لأنّ الخوارج أنفسهم كانوا من أنصاره وانفصلوا عنه وأصبحوا أعداءَه فهلك منهم خلق كثير وهلك من أصحاب سيدنا علي خلق كثير أيضاً .

وأعظم مواقع سيدنا علي عليه السلام في « النهروان » وهو نهر يقال لأعلاه « تامر » ولأسفله « النهروان » بين « الخافيق » و« طرفاء » فقد هلكت هنالك الخوارج فلم يسلم منهم أكثر من عشرة ولم يقتل من أصحابه أكثر من عشرة وكان عليه السلام قد أنبأ أصحابه بهذا قبل الموقعة فصدقت نبوّته وكان الخوارج هناك بنو « تيم الرباب » فهلكت مقاتلتهم جميعاً ومن بينهم الأخضر وابنه وهما من وجهاء هاتيك القبيلة قتلا مع مَن قتل في تلك الموقعة الشعواء .

وكان للأخضر هذا ابنة تدعى قطام فعزَّ عليها مصرع أبيها وأخيها بين أبطال قومها وآلت على نفسها أن تنتقم لهما من سيدنا علي عليه السلام وكانت هذه من الجمال على أعظم جانب حتى قالوا إنّها كانت أجمل نساء زمانها فرأت أن تستخدم جمالها في سبيل انتقامها فتركت النهروان وقدمت إلى الكوفة فأقامت في دار أحد مواطنيها من بني تيم الرباب وجعلت تخدع الرجال وتستميلهم إلى هواها بغية أن تجد مجنوناً منهم يقع بحبائل حبّها فتغريه على قتل سيدنا علي وأنت تعلم أنّ النساء إذا حقدن وطلبن الانتقام لا يقف في سبيلهنَّ عائق . وهكذا أصبحت قطام في الكوفة ولا همَّ لها إلاّ أن تبادل =

نَجْلاءُ عُشَّاقُهَا يَا طَالَمَا سُحِرَتْ بِلَحْظِهَا مَا رُقَى ٱلْكُهَّانِ تَرْقِيْهَا

لَمْيَاءُ تَبْسُمُ عَنْ خُلْوِ ٱلرِّضَابِ وَكَمْ قَدِ ٱشْتَهَتْ رَشْفَهُ ٱلْعُشَّاقُ مِنْ فِيْهَا

وَعُنْقُهَا صِيْغَ مِنْ مَحْضِ ٱللُّجَيْنِ فَمَا يَحْتَاجُ لِلْحُلْي لٰكِنْ كَانَ حَالِيْهَا

مَيَّاسَةُ ٱلْقَدِّ لاَ تَخْتَالُ مَائِسَةً إِلَّا لِتَخْتَلَ بِٱلْإِدْلاَلِ رَانِيْهَا

قَدْ أَفْتَنَتْ بِهَوَاهَا كُلَّ مَنْ عَرَفَتْ مِنْ قَوْمِهَا فَغَدَوْا صَرْعَى تَصَبِّيْهَا

تَحَكَّمَتْ بِمُحِبِّيْهَا فَتَحْسِبُهَا مَلِيْكَةً وَهُمُ طُرّاً حَوَاشِيْهَا

أَوِ ٱلْإِلٰهَةَ وَٱلْعُشَّاقُ عَابِدَةٌ جَمَالَهَا عِنْدَهُ ضَحَّتْ أَضَاحِيْهَا

وَطَالَمَا عَبِثَتْ بِٱلْعَاشِقِيْنَ فَمَا فَازُوْا بِغَيْرِ هَوَانٍ مِنْ تَجَنِّيْهَا

هٰذِيْ قَطَامِ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ سَلَّطَهَا عَلَى ٱلْأُلَى عَشِقُوْا زَاهِيْ مَعَانِيْهَا

مَا وَاصَلَتْ مِنْهُمُ صَبّاً وَلاَ رَضِيَتْ بَعْلاً وَلٰكِنْ تَجَافَتْ عَنْ مُحِبِّيْهَا

كَانَتْ تُحَاوِلُ أَخْذَ ٱلثَّأْرِ إِذْ فَقِدَتْ أَباً لَهَا وَأَخاً وَٱلْحُزْنُ مُشْجِيْهَا

رَاحَا ضَحِيَّةَ عِصْيَانِ ٱلْخَلِيْفَةِ فِيْ حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ إِذْ فَحَّتْ أَفَاعِيْهَا

كَانَتْ قَبِيْلَتُهَا بِٱلشَّرِّ خَارِجَةً عَلَى ٱلْوَصِيِّ وَجَدَّتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى بِحُسَامِ ٱللَّهِ أَدَّبَهَا إِذْ رَاحَ يَفْرِيْ بِهِ فَرْياً هَوَادِيْهَا

وَحَرْبُهَا دُعِيَتْ بِٱلنَّهْرَوَانِ وَكَمْ لاَقَى ٱلْفَنَا مِنْ عِدَاهُ نَهْرَوَانِيْهَا

فَأَقْبَلَتْ هَاتِهِ ٱلْخَوْدُ ٱلْوِقَاحُ عَلَى مَرَابِعِ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْرَاءِ تَشْوِيْهَا

وَٱسْتَخْدَمَتْ لِأَمَانِيْهَا مَحَاسِنَهَا بِهَا تُرِيْدُ ٱنْتِقَاماً مِنْ مُعَادِيْهَا

=الشبّان نظرات الغرام وتتصباهم إلى هواها توصلاً إلى مجنونٍ ذي هوسٍ منهم يعينها على بلوغ ما تصبو إليه من الانتقام وما كان يردعها عن هذا الشرّ الذي تسعى إليه دين ولا إسلام .

كَـانَتْ بِهَـا تَتَصبَّى آلنَّـاسَ طَـالِبَـةً مِنْهُمْ جَـرِيْئاً عَلى آلْعُـدْوَى يُؤاتِيْهَـا

وَلِـلْنِسَـا سُـلْطَةٌ تَـآلـلَّهِ نَـافِـذَةٌ عَلى آلـرِّجَالِ كَمَـا تَهْـوَى تُمَشِّيْهَـا

وَإِنْ حقَـدْنَ وَرُمْنَ آلْإِنْـتِقَـامَ فَـلاَ يَـهُمُّـهُـنَّ عِـبَـادُ آلـلَّهِ تُـشْـقِـيْـهَـا

وَمَا قَطَامِ سِـوَى إِحْدَى كَـرَائِمِ حَــوَّاءٍ وَهَيْهَـاتَ أَنْ تَعْـدُوْ مَبَـادِيْهَـا

وَفِيْ مَصَيْبَتِهَـا لِـلْحَقِّ مَـا نَـظَرَتْ وَلاَ لَـهُ آنْتَبَهَتْ وَآلْحُـزْنُ مُعْمِيْهَـا

كَـانَتْ عَـوَاطِفُهَـا لِلشَّـرِّ تَـدْفَعُهَـا بِقُـوَّةٍ مَـا آسْتَـطَاعَتْ أَنْ تُقَـاوِيْهَـا

رَأَتْ أَخَـاهَا مُسجَّى قُـرْبَ وَالِـدِهَـا عَلى آلثَّرَى بَيْنَ قَتْلى خَابَ مُحْصِيْهَا

فِيْ مَشْهَدٍ مُفْجِعٍ يُدْمِيْ آلْقُلُوْبَ وَيُوْ رِيْ سَعْرَةَ آلْحِقْدِ فِيْ خَافِيْ مَطَاوِيْهَا

فَـأَرْسَلَتْ دَمْعَهَا حُـزْنَاً بِعَـاطِفَـةِ آلْإِ م شْفَـاقِ وَآلْخَطْبُ مُؤْذِيْهَـا وَمُشْجِيْهَـا

وَفِيْـهِ مَـا ذَكَـرَتْ أَنَّ آلْمَصَـائِبَ قَـدْ حَلَّتْ بِـأَصْحَابِهَـا مِنْ كَسْبِ أَيْدِيْهَـا

وَأَنَّهَـا خَـرَجَتْ بَغْيَـاً بِغَيْـرِ هُـدَى عَلى آلْإِمَـامِ فَلاَقَى آلْهُلْكَ بَـاغِيْهَـا

نَعَمْ نَستْ كُـلَّ هٰـذَا وَهْيَ طَـالِبَـةٌ لِنَفْسِهَـا آلثَّـأْرَ عَنْ هَلْكَى تُـرَثِّيْهَـا

وَآلنَّارُ فِيْ صَدْرِهَا مَا كَـانَ غَيْرُ هَـلاَ كِ آلْمُـرْتَضَى عَلَنَـاً شَيْءٌ يُـطَفِّيْهَـا

مَـا هَمَّهَـا إِنْ أَتَتْ ظُلْمَـاً جَـرِيْمَتَهَـا أَنْ تَظْلُمَ آلشِّرْعَـةَ آلسَّمْحا وَأَهْلِيْهَـا

وَأَنْ تُضِيْـعَ حُقُـوْقَ آلْمُسْلِمِيْنَ وَقَـدْ صِيْنَتْ بِهِمَّتِـهِ إِذْ كَـانَ حَـامِيْهَـا

غرام ابن ملجم لعنه الله

أَتَى إِلَى آلْكُـوْفَةِ آلـزَّهْـرَاءِ يَسْكُنُهَـا ذَاكَ آلَّذِيْ كَانَ يَنْوِيْ قَتْلَ عَـالِيْهَا[١]

وَكَـانَ ذَا حَـذَرٍ يُخْفِيْ جَـرِيْمَتَـهُ بِصَـدْرِهِ لَيْسَ لِـلْأَصْحَـابِ يُفْشِيْهَـا

---

(١) أتى عبد الرحمن بن ملجم الكوفة بعد قفوله من مكة وهو عاقد العزيمة على تنفيذ الجناية التي أخذ على عـاتقه أمـر تنفيذهـا وكان وصـوله إليهـا في محرَّم سنـة ٤٠ =

وَكَـانَ فِيْ سَئَمٍ مِنْ شَـرِّ نِيَّتِـهِ   يَـعُـدُّ أَيَّـامَـهُ يَـطْوِيْ لَيَـالِيْهَـا

=للهجرة وكان مضطراً حسب العقد الذي عقده مع صاحبيه أن ينتظر يوم ١٧ رمضان للتنفيذ وسبق لنا أن أظهرنا العجب من ضرب أولئك المجرمون يوم ١٧ رمضان لجنايتهم مع أنّهم كانوا يوم تعاهدوا على هذا الشرّ في ذي الحجة والمسافة بين الموعدين طويلة كما لا يخفى يتعذّر فيها على الجاني أن يثبت على عهده ويظلّ مصمماً عليه لأنَّ علماء الاجتماع قد قرّروا أنَّ جريمة القتل يأتيها المجرم في أثناء ثورة جنون ومهما طالت هذه الثورة لا يعقل أن تظلَّ في رأس صاحبها بضع شهور على التوالي ولا يعرض له ما يرجعه إلى هداه مهما كان الباعث له على جنايته قوياً حتى ولو كان بدافع وهمي اقتنع أنّه من موجبات الدين مما يرضى عنه ربُّ العالمين .

وصل عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة حافظاً سرَّه في صدره لا يبوح به إلى أحد ويظهر لي أنّه كان في سنّ الشباب وذا سعة ويسار بدليل عشقه قطام بن الأخضر التي سبقت الإشارة إليها وبذله في سبيل خطبتها ما طلبته وهو ثلاثة آلاف درهم وغلام وجارية وهو بذل لا يأتيه ذوو الخصاصة .

تعرَّف عبد الرحمن بن ملجم بقطام لأنّه من الخوارج ولأنّها هي أيضاً من الخوارج فتعارفهما ليس فيه شيء من الغرابة لأنَّ أهل الحزب الواحد سرعان ما يتعرَّف بعضهم ببعض إذا كانوا في بلد واحد .

وأخذت قطام تتصبى عبد الرحمن وتشاغله بحسنها ودلالها ويظهر أنَّه لم يكن الوحيد في الرجال الذين أوقعتهم بشرك هواها حتى إذا ما وثقتَ من حبّه لها أخذت تتجنى عليه وتتبغدد بين الجفاء والرضاء حتى فتنته وذهبت بلبّه فجاءها خاطباً وهذا يدلنا على أنَّ قطام لم تكن فاجرةً زانيةً وإلاَّ لم يطلبها حليلةً بل طلبها خليلةً كما يدلنا أيضاً على أنّه كان شاباً في مقتبل العمر كما سبق القول ولو كان كهلاً لما تمكنت مثل قطام أن تلعب بقلبه ليس فقط حتى عشقها بل وتقدم من خطبتها يريد أن يتزوجها .

وفي رأيي أنَّ عبد الرحمن بن ملجم عندما اشتغل قلبه بهوى قطام أخذ يتناسى عهده بقتل سيدنا علي عليه السلام حتى إذا ما دلهه الحب أعرض عن إتيان تلك الجريمة الشنعاء بتاتاً بدليل تقدمه من التزوّج بقطام ولو كان مصرًّاً على نية القتل لما خطر له الزواج ببال إذ لا بدَّ أنّه ما وصل بقطام إلى تلك الدرجة من الحبّ إلاّ بعد أن أمضى بضع شهور في الكوفة ولم يبق له على موعد تنفيذ الجريمة غير وقت قصير يلقى بعده=

= حينه لأنَّه كان يدرك حقَّ الإدراك أنَّ لا سلامة له من القتل سواءٌ أفلح بالجريمة الشنعاء التي كان مقدماً عليها أو لم يفلح .

وبعد هذا نورد النصّ التاريخي الذي أورده المؤرخون عن هذه الحادثة قالوا : وزار عبد الرحمن بن ملجم عندما قدم الكوفة بعد المؤامرة رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرباب فصادف عنده قطام بنت الأخضر من بني تيم الرباب وكان علي قتل أخاها وأباها بالنهروان وكانت من أجمل نساء أهل زمانها فلمّا رآها شغف بها واشتدَّ إعجابه بحسنها فخطبها فقالت له ما تسمي من الصداق فقال احتكمي ما بدا لك فقالت أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفاً وخادماً وأن تقتل علي بن أبي طالب فقال لها لك جميع ما سألت وأمّا قتل علي فإنّى لي بذلك ؟ وكيف ترضين أن أتعرَّض لهذا الخطر بعد أن شغلت بهواكِ وغدوت أطمع بالحياة لأجلك ؟ فأخذت تلحُّ بتنفيذ مآربها وهي تتبغدد عليه وتقبله وما زالت به حتى أغرته على القتل فقال وكيف أستطيع الفوز بقتل علي ؟ قالت تلتمس غرته فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي (على أرغد ما تحبُّ) وإن قُتلتَ فما عند الله خير لك من الدنيا فقال لها أمّا والله ما أقدمني هذا المصر وقد كنت هارباً منه لأئمن أهله إلاَّ ما سألتني من قتل علي . قالت له فأنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك ثمَّ بعثت إلى وردان بن مجالد أحد بني تيم الرباب فخبرته الخبر وسألته معاونة ابن ملجم فتحمل لها ذلك (ولا نعرف ان كان هذا منه لأنّه هو أيضاً كان من عشّاقها أو لأنّه كان من الحاقدين على سيدنا علي لهلاك قبيلته في النهروان) وخرج ابن ملجم فأتى رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بحيرة وقال له : يا شبيب هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما ذاك ؟ قال تساعدنى على قتل علي وكان شبيب على رأي الخوارج فقال له هبلتك الهبول لقد طلبت شيئاً إدّا وكيف تقدر ويحك على قتل ابن أبي طالب ؟ قال ابن ملجم نكمن له في المسجد الأعظم (في الكوفة) فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به وقتلناه وشفينا أنفسنا منه وأدركنا ثأرنا فلم يزل به حتى أجابه فأقبل به حتى دخلا على قطام فأخبرها ابن ملجم بانضمام شبيب إليه أيضاً لقتل سيدنا علي، فرحبت بشبيب وشجعته على الجريمة ووعدتهما أن تكون يوم الجناية في المسجد الكوفي اهـ ومما يستفاد من رواية المؤرخين هذه أنّ إغراء قطام ابن ملجم وانضمام وردان وشبيب إلى ذلك الملعون تحت إشرافها وسيطرتها لم يكن في وقت بعيدٍ عن يوم ١٧ رمضان وهو اليوم الأسود الذي ضربه أولئك الأشقياء الملاعين للفتك بأمراء المسلمين .

وَإِذْ تعَرَّفَ بِـاْلحَسْنَـا قَـطَامٍ لَهَـا بِحُسْنِهَـا وَغَـدَا صَفْـوَاً يُـلاَهِيْهَـا

فَلَمْ تَـزَلْ تَـتَـصَبَّـاهُ وَتَـدْعَبُـهُ حَتَّى تَـدَلَّـهَ فِيْ ذَا ٱلْحُبِّ تَـدْلِيْهَا

وَقَـدْ تَنَاسَى بِمَـرْآهَـا مُهِمَّتَـهُ آلـ ـسُّوْءَى ٱلَّتِيْ كَانَ قَبْلَ ٱلْحُبِّ نَاوِيْهَا

وَجَـاءَهَا خَـاطِبَاً يَبْغِيْ تَـزَوُّجَهَا وَذَلَّـةُ ٱلْحُبِّ وَٱلتَّـوْلِيْـهِ يُبْـدِيْهَـا

فَكَشَّرَتْ عَنْ نُيُـوْبِ ٱلشَّـرِّ بَاسِمَـةً وَقَـابَلَتْ بِـالـرِّضَى وَٱلْبِشْـرِ دَاعِيْهَـا

وَبَيْنَ بَسْمَتِهَـا رَاحَتْ تَفُـحُّ سُمُـوْ مَهَـا وَتُـظْهِـرُ مَعْ هٰـذَا تَـدَلِّيْهَـا

قَـالَتْ: وَمَاذَا تُسَمِّيْ لِلصِّـدَاقِ حَبِيْـ ـبِيْ وَٱلَّذِيْ يَخْطُبُ ٱلْحَسْنَاءَ يُرْضِيْهَا

فَقَـالَ: مَـالِكَتِيْ إِنِّيْ عُبَيْـدُكِ فَـآحْـ ـكُمِـيْ عَـلَيَّ بِـأَمْـوَالٍ أُؤَدِّيْـهَـا

قَالَتْ: وَهَلْ أَنْتَ تُعْطِيْنِيْ مَآرِبَ نَفْـ ـسِيْ قَالَ: لَوْ تَطْلُبِيْنَ ٱلنَّفْسَ أُعْطِيْهَا

قَـالَـتْ: ثَـلاَثَـةُ آلاَفٍ مُـؤَلَّـفَـةٍ مِنَ آلـدَّرَاهِمِ قَـدْ لاَلاَ لُجَيْنِيْـهَـا

ثُـمَّ وَصِيْـفٌ يُـدَارِيْنِيْ وَجَـارِيَـةٌ لِخِـدْمَتِيْ أَنْتَ تَشْـرِيْـهِ وَتَشْـرِيْهَـا

وَبَـعْـدَ ذَا قَـبِّلَتْـهُ وَهْـيَ قَـائِـلَةٌ وَٱلْغُنْجُ قَـدْ زَادَ فِيْ زَاهِيْ مَعَـانِيْهَـا

وَتَقْتُـلُ ٱلْمُـرْتَضَى جَهْـرَاً وَقَتْلَتُـهُ يَـدْوِيْ لِنَبْأَتِهَـا فِيْ ٱلْأَرْضِ دَاوِيْهَـا

وَعِنْـدَمَا سَمِـعَ آبْنُ ٱلْمُلْجَمِ ٱلْمُتَهَوِّ سُ ٱلْإِتَـاوَةَ ثُمَّ ٱلْقَتْـلُ تَـالِيْـهَـا

وَكَـانَ حُبُّ قَـطَامٍ قَـدْ أَعَادَ لَـهُ حُبَّ ٱلْحَيَـاةِ فَـأَمْسَى غَيْـرَ سَـالِيْهَا

نَادَى: فَدِيْتُكِ هَلْ تَبْغِيْنَ هَلْكَـةَ نَفْـ ـسٍ كَانَ حُبُّكِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مُحْيِيْهَا

لَـوْلاَ هَـوَاكِ لَمَـا رُمْتُ ٱلْحَيَـاةَ وَلا أَمْسَيْتُ لَقْيَةُ هَوْلِ ٱلْمَـوْتِ خَاشِيْهَا

فَـإِنْ قَتَلْتُ أَمِيْـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيْنَ فَـلاَ سَـلاَمَـةٌ أَتَـرَجَّـى أَنْ أُلاَقِيْـهَـا

وَلاَ أَفُـوْزُ بِقُـرْبَى بِـتُّ أَنْشُـدُهَـا مِمَّنْ أُحِبُّ وَمَـا تَبْغِيْـنَ يُقْـصِيْـهَـا

فَـأَرْسَلَتْ شَـرَرَاً تِلْكَ ٱلْقَبِيْحَـةُ مِنْ أَلْحَـاظِهَـا وَبِـهِ لاَقَتْ مُنَـاجِيْهَـا

وَأَظْهَـرَتْ عَـزَمَـاتٍ لَا تُحَـوِّلُهَـا   عَنْهَـا ٱلْحَـوَائِـلُ تَبْغِي أَنْ تُجَـرِّبْهَـا

وَبِٱبْنِ مُلْجَمَ صَاحَتْ: إِنْ جَبُنْتَ وَمَا   شَفِيْتَ غُلَّةَ نَـفْسِـيْ مِنْ مُـظَمِّـيْهَـا

وَمَا أَخَذْتَ بِثَأْرِ ٱلْأَخْضَرِ ٱلْبَطَلِ ٱلْـــمَقْتُـوْلِ فَـٱبْنَتُـهُ لَا تَـطْمَعَنْ فِيْهَـا

وَهَـا أَخِيْ صَارِخٌ: أُخْتَـاهُ لَا تَدَعِيْ   لِقَـاتِلِيْ عِيْشَـةً بِـٱلـرِّفْـهِ يَقْضِيْهَـا

وَإِنَّـنِيْ لَـمْ أَزَلْ أَبْكِـيْ أَبِـيْ وَأَخِيْ   بِلَوْعَـةٍ مَـا كُـرُوْرُ ٱلـدَّهْـرِ يُـطْفِيْهَـا

فَـٱشْفُقْ عَلَى أَمَةٍ مَفْجُـوْعَةٍ عَـظُمَتْ   أَرْزَاؤُهَـا لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُعَـزِّيْهَـا

مَـوْتُوْرَةٍ لَا تَـرَى حِـلَّ ٱلتَّمَتُّـعِ بِـٱلـــزَّوَاجِ إِنْ هِـيَ لَمْ تَـبْلُغْ تَـشَفِّـيْهَـا

حَبِيْبَ قَلْبِـيَ إِثْـأَرْ لِيْ وَفُـزْ بِـغَـرَا   مِيْ وَٱغْنَمَنَّ حَـيَـاةً أَنْتَ بَـاغِـيْهَـا

أَحْيَـا لِأَجْلِكَ أُصْفِيْكَ ٱلْـوَلَاءَ أُقَضِّـــيْ ٱلْعُمْـرَ مَعْكَ كَمَـا تَخْتَارُ تَـرْفِيْهَا

فَقَـالَ وَٱلْيَـأْسُ قَـدْ أَوْهَى جَـلَادَتَـهُ   وَٱلْحُبُّ مِنْ قَبْـلِ وَٱلْإِذْلَالُ مُـوْهِيْهَـا

قَـطَامِ رِفْقَـاً بِصَبٍّ تَبْـتَغِـيْنَ بِـأَنْ   يَسِيْـرَ نَحْـوَ ٱلْمَنَـايَـا لَا يُمَـادِيْهَـا

قَـالَتْ: حَبِيْبِيَ إِنْ تَسْلَمْ فَـإِنَّـكَ لِيْ   أَوْ إِنْ تَمُتْ فَلَكَ ٱلْجَنَّـاتُ تَثْـوِيْهَـا

وَثِقْ بِـأَنِّيَ لَا أَنْسَى هَـوَاكَ كَـمَـا   قَـطَامِ مَا كُنْتَ يَـا ٱبْنَ ٱلْوِدِّ نَـاسِيْهَا

فَبِٱسْمِهِ سِرْ إِلَى مَلْقَى ٱلْوَصِيِّ وَجَنْـــدِلْـهُ قَتِيْـلاً وَهْـذَا ٱلْقَتْـلُ يُهْنِيْهَـا

فَعَـادَ لِلْهَـوَسِ ٱلْمَلْعُـوْنُ مُـطَّلِبَـاً   حَيَـاةَ خَيْـرِ ٱلْـوَرَى بِـرَّاً وَتَفْقِيْهَـا

وَصَـاحَ: مَـا جِئْتُ إِلَّا لِلْفُتُـوْكِ بِـهِ   تَـٱللَّهِ كُـوْفَـةَ بَـلْ مَـا كُنْتُ آوِيْهَـا

وَقَـدْ هَـرَبْتُ نُفُـوْراً مِنْ حُكُـوْمَتِـهِ   أُسَـائِلُ ٱللَّهَ بِـٱلْأَهْـوَالِ يَمْنِيْهَـا

وداع ابن ملجم لحبيبته

فِيْ لَيْلَةِ ٱلْجُمْعَةِ ٱلْمَضْرُوْبُ مَوْعِدُهَا   لِقَتْلَةِ ٱلْأُمَـرَا مِنْ مُسْتَبِيْـحِيْـهَـا[1]
وَافى آبنُ مُلْجَمَ مُشْتَـاقَـاً حَبِيْبَتَـهُ   شَـوْقَ ٱلَّذِيْ لَمْ يَعُـدْ يَرْجُـو تَلاَقِيْهَـا
فَقَـابَلَتْـهُ بِمَكْـرِ ٱلْمَـاكِـرَاتِ وَأَبْـــدَتْ غَيْرَ مَا كَانَ يَخْفَى فِيْ مَطَاوِيْهَا

---

(١) أشرنا في هذا الفصل إلى الحجج التي كان يحتجُّ بها الخـوارج على سيدنـا علي عليه السلام وكلّها تنحصر بقـولهم أنّ الحكم لله وأنّ التحكيم خروج على القـرآن ومروق من الدين وأنّ سيدنا علي قد أخطأ بقبول التحكيم وأنه كان من الـواجب عليه أن ينكث عهده مع معاوية بعد كتابتـه وإذ لم يفعل فلم تعـد له بيعـة في أعناقهم وأصبحـوا أعداءً لخلافته يحاربونها . هذه كل حججهم على سيدنا علي التي لأجلها أعلنوا عليه الحرب وطفقوا يتصدون لشيعته ويقاتلونها ويعوثون في العراق فساداً لأجلها ومـا كانـوا يصيخون السمـع لسيدنـا علي عليه السلام إذ كان يـدعو زعمـاءَهم إليه ويقنعهم بـالحجة بـأنَّ حججهم باطلة ما هي من الدين ولا في مصلحة المسلمين وكان يذكرهم بأنّهم هم الذين أكرهـوه على قبـول التحكيم وتهددوه بـالقتل إذا رفضهـا وأنّه بعـد أن نزل على حكمهم بقبـولها ورضي بها وكتبت الصحيفة فأمضاها أصبح مقيداً بها طوعاً للقرآن العظيم الآمـر بالـوفاء بـالعهود أمـراً جليـاً لا يقبـل التـأويـل . وأغـرب مـا كـان يـطلبـه الخـوارج من سيـدنـا علي عليه السلام هو أن يعلن توبته ووالله هم أنفسهم ما كانوا يدركون كنـه طلبهم هذا وكيفيـة القيام به فإذا كانت التوبة عن خطيئةٍ فإنَّ سيدنـا علي لم يخطىء بقبـول التحكيم ليتوب فهو من بدء الخديعة عرفها وأنبأ بها فجهلوها وأصرُّوا عليه بقبول الحكـومة فكـان عليهم هم أن يتوبوا ويتوبوا إليه ويجرّدوا سيوفهم لحرب معاوية بعـد أن ظهرت الخـديعة بـأتمّ معانيها في دومة الجندل حيث خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري وسخر به وقال غيـر ما كـان الاتفـاق عليـه بينهمـا على أنّهم لم يفعلوا ومـا اكتفـوا بعصيـانهم خليفتهم والابتعاد عن نصرته بل أخذوا يحاربونه بالاعتداء على أصحابه وشيعته فكان عليه شرعـاً ومصلحةً أن يجرّد سيفه لتأديبهم ففعـل فكانـوا هم الجانين على أنفسهم وعلى الخـلافة معـاً إذ هلك معظمهم وضعفت قـوة الخلافـة في حربهم وفتـور عزائم أصحـابه بسببهم على أنّهم مـا ارعووا بكـل هذا حتى أقـدم متهوس منهم على أبشـع الجـرائم وأشنعهـا وأشرها عاقبةً بقتل سيد الخلائق بعد المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام .

وَأَظْهَـرَتْ صَبْـوَةً تَـاللَّهِ مَـا شَعَـرَتْ بِهَـا لَـهُ وَهَـوَىً فِيْـهِ وَتَـدْلِيْهَـا

وَشَجَّعَتْهُ عَلى ٱلْجُرْمِ ٱلْفَظِيْعِ بِبَسْـ ـمَةِ ٱلرِّضَى وَٱلْهَوى وَٱلذِّلِّ مِنْ فِيْهَا

وَوَدَّعَـتْـهُ وَداعَـاً لَـيْسَ يَـعْـقُـبُـهُ لُقَىً بِـدَمْعٍ هَتُـوْنٍ مِنْ مَـآقِيْهَـا

رَاحَتْ تُسَعِّـرُ نِيْـرَانَ ٱلْكَـرَاهـةِ وَٱلْـ ـبَغْضَـاءِ فِيْ نَفْسِهِ ظُلْمَـاً وَتُـوْرِيْهَا

تَقُـوْلُ: حَيْدَرَةٌ خَـانَ ٱلشَّرِيْعَـةَ بِـٱلْـ ـتَّحْكِيْمِ وَٱلْحُكْمُ لِلْخَـلَّاقِ مُوْحِيْهَا

فَعَـارَضَتْـهُ أُنَـاسٌ وَهْيَ طَـالِبَـةٌ إِرْجَـاعَـهُ لِلْهُدَى طَـوْعَـاً لِبَـارِيْهَـا

فَمَا ٱرْتَضَى رَجْعَةً عَنْ عِهْـدَةٍ ذَهَبَتْ بِحُكْمِـهِ مِثْـلَمَـا كُنَّـا نُـوَخِّـيْهَـا

وَمَـا ٱكْتَفَى عِنْـدَمَا لاَحَتْ نَتِيْجَتُهَـا بِـأَنَّـهُ مُخْـطِىءٌ مُذْ رَاحَ مُمْضِيْهَـا

فَيُعْلِنُ ٱلتَّـوْبَـةَ ٱلْكُبْـرَى عَـلاَنِيَـةً حَتَّى نُصَـالِحَـهُ وَٱلنَّـارُ نُـطْفِيْهَـا

لٰكِنْ أَصَـرَّ عَـلَيْنَـا أَنْ نَـعُـودَ إِلَى مَنْشُـوْدِ طَاعَتِـهِ قَهْـرَاً فَنُسْـدِيْهَـا

وَإِذْ أَبَيْنَـا ٱنْصِيَـاعَـاً سَـاقَ حَمْلَتَـهُ عَلى قَبَـائِلِنَـا ٱلْكَثْـرَى لِتُـفْنِـيْهَـا

وَٱللَّهِ مَـا رَحِمَتْ فُتْيَـانَنَـا وَشُيُـوْ خَنَـا فَبَاتَتْ وَهَـوْلُ ٱلْمَوْتِ غَـاشِيْهَا

وَيْـلاَهُ أَشْـلاؤُهَـا كَـانَتْ مُغَـطِّيَـةً دِيَـارَنَـا وَٱلـدِّمَا تَجْـرِيْ فَتَسْقِيْهَـا

وَكَـانَ مِنْ بَيْنِ قَتْـلاَنَـا أَبِيْ وَأَخِيْ إِنِّـيْ لأَبْكِـيْهُـمَـا دَوْمَـاً وَأَبْكِـيْهَـا

وَلَمْ يَجُـرَّ ٱلـرَّزَايَـا غَيْـرُ حَيْـدَرَةٍ عَلى ٱلْعِبَـادِ فَـأَخْلِقْ أَنْ يُـلاَقِيْهَـا

فَسِـرْ حَبِيْبِي بِـلاَ خَـوْفٍ لِمَسْجِـدِهِ وَٱبْلِغْ فَتَـاتَـكَ إِذْ يُـرْدَى تَشَفِّيْهَـا

فَـإِنْ أَعِشْ بَعْـدَهُ يَـوْمَـاً فَقَـدْ بَلَغَتْ نَفْسِيْ فَبُشْـرَى لَهَـا أَقْصَـى تَمَنِّيْهَـا

وَإِنَّنِيْ مَعْـكَ يَـا خِلِّيْ لَـذَاهِبَـةٌ لِكَيْ أَرَى ٱلْقَتْلَةَ ٱلْمَغْـبُوْطُ جَانِيْهَـا

أَرَى بِـعَيْـنِـيَ ذَاكَ ٱلإِنْـتِـقَـامَ وَمَـا يَتْلُوْهُ مِنْ لَـذَّةٍ ذُوْ ٱلْحِقْـدِ يَـدْرِيْهَـا

وَقَبَّلَتْ بَعْـدَ ذَا ٱلْمَلْعُـوْنَ صَاحِبَهَـا وَأَرْسَلَتْ دَمْعَهَـا كِـذْبَـاً وَتَمْـوِيْهَـا

وَأَظْهَـرَتْ جَـزَعَـاً مِنْ شَـرِّ وَقْفَتِـهِ   عِنْـدَ ٱلصَّبَـاحِ لِأَهْـوَالٍ يُـلَاقِيْهَـا
وَٱللَّهِ مَـا جَـزِعَتْ حَقَّـاً وَلَا نَـطَقَتْ   صِـدْقَاً وَمَـا هُلْكُهُ ٱلْمَحْتُـوْمُ مُبْكِيْهَا
وَإِنَّـمَـا خَـدَعَتْـهُ فِـيْ تَـلَهُّـفِـهَـا   عَلَيْـهِ كِـذْبَـاً وَفِيْ مُشْجِيْ تَبَـاكِيْهَـا
وَمَثَّلَتْ « دَوْرَهَـا » مَعْـهُ كَعَـاشِقَـةٍ   تَـرَى فِـرَاقَ ٱلَّـذِيْ تَهْـوَاهُ يُشْقِيْهَـا
وَأَرْسَلَتْـهُ يُضَحِّيْ ٱلنَّفْسَ يُهْلِكُـهَـا   وَلِلْحَنِيْفَـةِ بِـٱلْبَلْوَى يُـفَـاجِيْـهَـا
بِقَتْـلِ مُسْلِمِهَا ٱلْأَنْقَى وَعَـاهِلِهَا ٱلْأَ م عْلَى وَعَـالِمِهَـا ٱلْأَسْمَى وَقَـاضِيْهَا
فَرَاحَ يَخْطُوْ إِلَى ٱلْإِثْمِ ٱلْفَظِيْعِ خُطَىً   آثَـارُهَـا كَـانَ بَعْلَزُبُـوْلُ قَـافِيْهَـا

المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام

مَنْ لِيْ بِعِلْمِ عَلِيٍّ مَـعْ بَـلَاغَتِـهِ   كَيْمَـا أُبَيِّنُ ٱلْآمَـاً يُـعَـانِيْـهَـا[1]
يُـرِحيدُ إِحْيَـاءَ سِنَّاتِ ٱلـرَّسُوْلِ فَيَلْـ   ـقَى حَـوْلَـهُ مُمْـرِضِيْهَا أَوْ مُمِيْتِيْهَـا
وَتَلْتَقِيْـهِ خُـرُوْقٌ فِيْ ٱلْخِـلَافَـةِ لَا   تَـرْفَـا فَـأَعْيَـا عَيَـاءً وَهْـوَ يَـرْفِيْهَـا

---

(١) يستحيل على أبلغ الكتاب وأفصح الخطباء تفصيل الحالة النفسية التي كان عليها سيدنا علي عليه السلام في سنيّ خلافته الأربعة لما عاناه من الرزايا والخطوب فيها فقد كانت كلّها حروباً وثورات داخلية ومسارح شقاق ونفاق واضطراب حتى أصبح كلما داوى جرحاً في جثمان الخلافة سالت جروح وحتى أصبح وهو لا يتمنى على الله إلّا أن يلقى وجهه الكريم عالماً أنَّ لا راحة له إلّا في جنان النعيم . وكانت عادته عليه السلام أن يحيي لياليه في تلاوة الذكر الحكيم وذكر الله عزَّ وجلَّ ولا سيما ليالي رمضان المبارك وكذلك قضى ليلة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة ساجداً مصلياً ذاكراً متعبداً حتى إذا ما انبثق الفجر باشر وضوءه وإذ كان موعد الصلاة لم يحن بعد تمدّد على وسادته الخشناء وطفق يجول بنفسه في ماضيه ذاكراً ما مرَّ عليه من المتاعب والإحن في جهاده المتواصل في سبيل الإسلام وكيف كانت النهاية السوداء بتكاثر أعدائه وتناقص أصحابه لكثرة ما في هذه الدنيا من محبيها وقلّة من يهتمون منهم بآخرتهم فيعملون لها وبينما هو لكذلك غفت عيناه فسنح له رسول الله عليهما الصلاة والسلام وكان بينهما ما رواه ابنه =

مَـا أَعْـوَزَتْـهُ أَسَـالِيْبُ آلـدَّهَـاءِ وَلَا ... سِـوَاهُ أَدْرَى بِبَـادِيْهَـا وَخَـافِيْهَـا
لٰكِنْ هُنَـالِـكَ أُخْـرَى كَـانَ يَـرْهَبُهَـا ... وَلَا يَـرَى هَـاتِـهِ آلـدُّنْيَـا تُـوَازِيْهَـا
لِـذَاكَ قَـدْ سَئِمَ آلْأَمْـرَ آلَّـذِيْ يَتَفَـا ... نَى آلنَّـاسُ مِنْ دُوْنِـهِ وَآللَّهُ مُفْنِيْهَـا
وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَـالِيْ آلصَّـوْمِ مُـظْلِمَةٍ ... كَـانَ آلْـوَصِيُّ بِـذِكْـرِ آللَّهِ يُحْيِيْهَـا
وَيَسْـأَلُ آللَّهَ فِـيْهَـا أَنْ يُـرَيِّـحَـهُ ... مِنَ آلـرَّزَايَـا آلَّتِيْ يَـدْهَـاهُ دَاهِيْهَـا
وَإِذْ بِـهِ سَحَـراً بَعْـدَ آلْـوُضُـوءِ وَمِنْ ... قَبْـلِ آلصَّلَاةِ آلَّتِيْ مَـا كَانَ يُـرْكِيْهَـا
عَلٰى وُسَـادَتِـهِ آلْخَشْنَـا تَمَـدَّدَ هَـوْ ... نَاً فَاكِـرَاً فِيْ صُرُوفِ آلـدَّهْرِ قَـارِيْهَا
وَإِذْ بِـهِ مَـلَكَتْـهُ عَـيْـنُـهُ فَـغَـفَـا ... وَخَـالَـطَتْ نَفْسَـهُ آلْعُلْيَـا هَيُـوْلِيْهَـا
فِيْ آلْحَالِ قَدْ سَنَحَ آلْهَادِيْ آلْأَمِيْنُ لَهُ ... يَحْبُـوْهُ عَـطْفَتَـهُ آلـزَّهْـرَا وَيُسْـدِيْهَـا
قَـالَ آلْعَلِيُّ: رَسُوْلَ آللَّهِ يَـا سَنَـدِيْ ... فَـدَتْكَ نَفْسِيْ وَمَـا بِـآلْغَيْـرِ أُفْـدِيْهَـا
أَشْكُـوْ إِلَيْـكَ آلَّـذِيْ أَلْقَـاهُ مِنْ أَوَدٍ ... وَمِنْ خِصَـامٍ وَمِنْ بَلْوَى أُقَـاسِيْهَـا
فَقَـالَ: مِنْ أُمَّتِي تَشْكُو أَلَا آدْعُ عَلَيْـ ... ـهَـا دَعْـوَةً فِيْ آلسَّمَـا رَبِّي يُلَبِّيْهَـا
فَقَـالَ: أَبْـدَلَنِيْ رَبِّيْ بِـأَخْيَـرَ مِنْـ ... ـهَـا وَهْيَ بِـآلشَّرِّ مِنِّيْ ذَاكَ يَكْفِيْهَـا
ثُمَّ صَحَـا آلْمُـرْتَضَى وَآلْفَجْـرُ مُنْبَثِقٌ ... فَـقَـالَ: مَـوْتَتِـيَ آلْغَـرَّا أُدَانِـيْهَـا

= سيدنا الحسن عليه السلام عنه قال : « في صبيحة اليوم الذي استشهد فيه أمير المؤمنين دعاني إليه وحدثني قائلاً : ملكتني عيني وأنا جالس ، فسنح لي رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : يا رسول الله ألا أخبرك ماذا لقيت من أمّتك من الأدد واللدد ؟ فقال : أدع عليهم ، فقلت : أبدلني الله بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شرّاً لهم مني ، فانتبهت ، وعلمت من رؤياي هذه أنّ موعد منيتي قد دنا ، وقد دعوتك لأخبرك بذلك ، فأوصيك بأمّة محمد خيراً . قال سيدنا الحسن : فامتقع لوني ، ووجف قلبي ، ووقفّ الشعرُ في رأسي وجسمي ، وأيقنت بانقضاء أجل أمير المؤمنين ، ثمَّ سار إلى المسجد فكان مقتله عليه السلام » اهـ .

فَأَحْمَدُ آللَّهَ قَدْ قَارَبْتُ مُنْصَرَفِيْ   إِلَى أَحِبَّةِ قَلْبِيْ فِيْ أَعَالِيْهَا
وَقَدْ دَعَا حَسَنَاً فِيْ آلْحَالِ أَنْبَأَهُ   رُؤْيَاهُ قَالَ: فَثِقْ مَوْتِيْ مُتَالِيْهَا
وَسَارَ يَبْغِيْ صَلاَةَ آلْفَجْرِ يَنْشِدُهَا   فِيْ آلْمَسْجِدِ آلْجَامِعِ آلْكُوْفِيِّ يَقْضِيْهَا

جرح أمير المؤمنين

فِيْ آلصَّوْمِ كَانَتْ تُقَضِّيْ فِيْ آلْمَسَاجِدِ عَنْ   تَقْوَى آلتُّقَاةُ بِإِخْبَاتٍ لَيَالِيْهَا[1]
وَآلْمَسْجِدُ آلأَعْظَمُ آلْكُوْفِيُّ كَانَ بِتِلْـ   ـكَ آللَّيْلَةِ آلنَّاسُ فِيْهِ وَهْوَ آوِيْهَا
وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا فِيْ قُرْبِ مَنْبَرِهِ   رَهْطٌ تُصَلِّيْ وَلاَ يَعْيَا مُصَلِّيْهَا

---

(١) كانت ليلة ١٧ رمضان ليلة الجمعة وكان الناس يرجون أن تكون ليلة القدر ولعلّ هذا الرجاء هو الذي حمل أولئك المتهوسين على تخصيص صباح اليوم المذكور لجريمتهم المثلثة إذا سلمنا مع المؤرخين بأنَّ الجريمة لم توجد في أدمغة أولئك الفاجرين الفسقة بدسيسة أحد بل لمجرَّد التقرّب إلى الله سبحانه بارتكاب هذا الإثم الفظيع . وكان من عادة المسلمين في رمضان أن يقضوا قسماً من لياليهم في المساجد ولا تزال هذه عادتهم حتى يوم الناس هذا يأوون إليها للصلاة والأذكار والعبادة وكان بعض الزهّاد المتعبدين يحيون ليالي رمضان بطولها في المساجد ولا سيما ليالي الجمع على اعتقاد أن تكون إحداها ليلة القدر التي العبادة فيها أفضل من عبادة ألف شهر .

وقد نقل الرواة الثقاة عن عبد الله بن محمد الأزدي وكان شاهد عيان في مصرع سيدنا علي عليه السلام قال : « إنّي لأصلي في تلك الليلة (ليلة الجمعة ١٧ رمضان) في المسجد الأعظم (في الكوفة) مع رجال من أهل المصر كانوا يصلّون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلّون قريباً من السدة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً ما يسأمون إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر فأقبل ينادي : الصلاة الصلاة . فرأيت بريق السيف وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله يا علي لا لك . ثمَّ رأيت بريق سيف آخر وسمعت صوت علي عليه السلام يقول : لا يفوتكم الرجل » وذيل أبو الفرج الرواية وهو ناقلها قائلاً أمّا بريق السيف الأول فإنّه كان سيف شبيب بن بحيرة ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق . وأمّا بريق السيف الثاني فإنّه سيف الملعون عبد الرحمن بن ملجم ضربه فأثبت الضربة في وسط رأسه وشدَّ الناس عليهما فأفلت=

تَتْلُوْ قِيَامَاً قُعُوْداً غَيْرَ وَانِيَةٍ ... آيَ ٱلْكِتَابِ فَتُشْجِيْهَا مَثَانِيْهَا

بِذَا قَضَتْ لَيْلَهَا سَهْرَى مُهَجَّدَةً ... فَمَا غَفَا أَوْ شَكَا ٱلْأَوْصَابَ جَاثِيْهَا

وَعِنْدَمَا لَاحَ نُوْرُ ٱلْفَجْرِ أَقْبَلَ مَوْ ... لَانَا ٱلْوَصِيُّ وَسِيْمَا ٱلْمَجْدِ يُبْدِيْهَا

وَصَاحَ فِيْ ٱلنَّاسِ هُبُّوْا لِلصَّلَاةِ عِبَا ... دَ ٱللَّهِ أَفْضَلُكُمْ سَعْيَاً مُؤَدِّيْهَا

وَمَا أَتَمَّ عَلِيٌّ هَيْعَلِيَّتَهُ ... إِلَّا بَرِيْقُ سُيُوْفٍ كَانَ تَالِيْهَا

وَصَائِحٌ قَائِلٌ: مَا ٱلْحُكْمُ حَيْدَرَةٌ ... إِلَّا لِرَبِّكَ رَبِّ ٱلْخَلْقِ ذَارِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى بِجُمُوْعِ ٱلنَّاسِ صَاحَ: فَلَا ... يَفُوْتُكُمْ قَاتِلِيْ وَٱلذُّعْرُ فَاشِيْهَا

= شبيب وتمكن من الهرب فأسرع إلى منزله فدخل عليه ابن عمّ له فرآه يحلُّ الحرير عن صدره فقال له ما هذا ؟ ألعلّك قتلت أمير المؤمنين وانتضى سيفه وقتله . وأمّا الملعون عبد الرحمن بن ملجم فأحدق به الناس وطفقوا ينهشون لحمه بأسنانهم كأنّهم السباع ويقولون يا عدوَّ الله ماذا صنعت ؟ أهلكت أمّة محمد وقتلت خير الناس كل هذا وهو لعنه الله صامت لا ينطق ببنت شفة وكاد الناس يقتلونه لولا أن يدوي في الجامع صوت أمير المؤمنين عليه السلام والدم يتدفق من رأسه الشريف فقال : أيّها الناس ، وصيّتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا تضيعوا سنته ، أقيموا هذين العامودين ، وأوقدوا هذين المصباحين ، وخلاكم ذم ، أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم ، ان أبق ، فأنا وليُّ دمي ، وان أفنى فالفناء ميعادي ، وان أعف فالعفو لي قربة ، وهو لكم حسنة ، فاعفوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم ؟ ، والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ، ولا طالع تكرهته ، وما كنت إلاَّ كقارب ورد ، وطالب وجد ، وما عند الله خير للأبرار » اهـ .

وعندما انتهى سيدنا علي عليه السلام من خطابه هدأ روع الناس مستمعين حكمته راضين لرضائه ونقلوه وهم جزعون إلى منزله الشريف واستاقوا الملعون ابن ملجم إلى السجن ، رهين ما تجري به الأقدار على أمير المؤمنين وإمّا أن يشفى ويحكم بأمره وقد يعفو عنه كما قال في خطابه فإمّا أن يقضي فلا يكون له غير الموت جزاء فعلته الشنعاء على ما يقضي به القرآن الشريف ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب** ﴾ .

أَمَّـا تَفَاصِيْـلُ مَـأْسَـاةِ ٱلْإِمَـامِ فَقَـدْ جَـرَتْ كَمَـا نَقَـلَ ٱلـرَّائِيْ لِـرَاوِيْـهَـا

فَقَـالَ: أَنَّ شَبِيْبَـاً كَـانَ أَوَّلَ مَـنْ أَهْـوَى بِضَـرْبَـةِ سَيْفٍ رَاحَ نَـابِيْهَـا

ثُمَّ ٱبْنُ مُلْجَمَ أَهْـوَى ضَـرْبَـةً ثَبَتَتْ فِيْ رَأْسِ حَيْـدَرَةٍ لَا كَـانَ مُهْـوِيْهَـا

وَفَـرَّ بَعْـدُ شَبِيْبٌ نَـحْـوَ مَنْـزِلِـهِ يَبْغِيْ ٱلسَّـلَامَـةَ لٰكِنْ لَيْسَ لَاقِيْهَـا

إِذْ جَـدَّ فِـيْ أَثَـرِهِ مِنْ آلِـهِ بَـطَلٌ شَهْمٌ إِسَـاءَتُـهُ مَـا كَـانَ غَـاضِيْهَـا

وَقَـالَ: وَيْلُكَ أَهْلَكْتَ ٱلْخَلِيْفَـةَ لُؤْ مَـاً مَا ٱلْخِـلَافَةُ تَبْقَى بَعْـدَ حَـامِيْهَـا

خُـذْهَـا عَـدِمْتُـكَ مِنِّي غَيْـرَ خَـائِبَـةٍ وَرُحْ بِهَـا لِجَحِيْمِ ٱلنَّـارِ تَصْلِيْهَـا

وَرَاحَ ضَـارِبَـهُ بِـٱلسَّيْفِ قَـاتِلَهُ فَخَـرَّ مُخْتَبِطَ ٱلْأَحْشَـاءِ دَامِيْـهَـا

وَٱلنَّـاسُ قَدْ لَـزِمَتْ شَرَّ ٱلْخَلِيْقَـةِ طُــرَّاً لَـزْمَـةً أَوْشَكَتْ تُـودِيْ بِـهِ فِيْهَـا

كَـانَتْ تُعَضِّضُـهُ عَضَّـاً وَتَضْـرُبُـهُ ضَـرْبـاً وَمَـا بَلَغَتْ مِنْـهُ تَشَفِّيْهَـا

كَـانَتْ تَقُوْلُ: عَـدُوَّ ٱللّٰهِ وَيْلُكَ فَجَّـعْتَ ٱلْحَنِيْفَـةَ فِيْ أَسْمَى مُـذِيعِيْهَـا

وَأُمَّـةُ ٱلْمُصْطَفَى أَهْلَكْتَهَـا بِشَبَـا ٱلسَّيْفِ ٱلَّذِيْ فِيْهِ قَدْ أَهْلَكْتَ رَاعِيْهَا

وَذٰلِكَ ٱلْمُجْرِمُ ٱبْنُ ٱلْمُلْجَمِ ٱلْمُتَهَوِّ سُ ٱللَّعِيْنُ صَمُـوْتٌ لَا يُفَـاهِيْهَـا

لَـوْلَا خِطَابُ شَهِيْـدِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ لَمَـا نَجَـا مِنَ ٱلْمَوْتِ تَمْـزِيْقَـاً بِـأَيْـدِيْهَـا

فَقَـالَ صَلَّىٰ عَلَيْـهِ ٱللّٰهُ وَٱلـدَّمُ يَكْـسُـوْهُ مِنَ ٱلْحُلَلِ ٱلْحَمْـرَاءِ قَـانِيْهَـا

وَصِيَّتِيْ لَكُمُ يَـا نَـاسُ فَـٱسْتَمِعُـوْ هَا وَٱطْلُبُو ٱلْعَفْوَ وَٱلْحُسْنَى لِمُوْصِيْهَا

أَنْ تَعْبُـدُوْا رَبَّكُمْ لَا تُشْـرِكُـوْا أَحَـدَاً مَـعْـهُ عِبَـادَةَ بِـرٍّ فَـازَ آتِـيْـهَـا

وَسُنَّةُ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْغَرَّا ٱحْفَظُوْا وَلَقَدْ خَابَتْ مَسَاعِيْ ٱلْأُلَى بَاتُوْا مُضِيْعِيْهَـا

ذَانِ ٱلْعَمُـوْدَانِ يَـا صَحْبِيَ مُقِيْمُهُمَـا تَـٱللّٰهِ يُلْفِيْ مِنَ ٱلآمَـالِ سَـامِيْهَـا

ذَانِ ٱلسِّرَاجَانِ يَـا صَحْبِيْ مُضِيْئُهُمَا لِيَـأْمَنُ ٱلْغِيَـرَ ٱلسُّـوْءَى وَيَتَّقِيْـهَـا

نَصِيْحَتِيْ فَاْسْمَعُوْا سَمْعَاً خَلاَكُمُ ذَ مٌّ حَـاذِرُوْا أَنْ تَكُـونُـوْا مُسْتَهِيْنِيْهَـا
قَدْ كُنْتُ يَا قَوْمِ فِيْ أَمْسِيْ مُصَاحِبَكُمْ صَحَـابَـةً لَمْ أَكُنْ تَـاْللَّهِ رَاضِيْهَـا
وَهَـا أَنَـا بِـدِمَـائِـيْ عِبْـرَةٌ لَـكُمُ ذَا اَلْيَـوْمَ يُنْذِرُنِيْ بِـاْلْمَوْتِ هَـامِيْهَـا
وَفِيْ غَـدٍ يَـا بَنِيْ أُمِّيْ مُفَـارِقُكُـمْ بِغُـرْبَـةٍ لَمْ أَكُنْ يَـوْمَـاً مُبَـالِيْهَـا
أَنَـا وَلِـيُّ دَمِـيْ إِنْ أَبْـقَ بَـيْـنَـكُـمُ أَعْـدَاؤُهُ مِثْلَمَـا أَهْـوَى أُقَـاضِيْهَـا
وَإِنْ فَنِيْتُ فَمِيْعَـادِيْ اَلْفَنَـاءُ وَقَـدْ بَـلَغْتُـهُ وَحَيَـاتِيْ اَللَّهُ مُفْـنِـيْـهَـا
وَإِنْ عَفَـوْتُ فَـزُلْفَى لِلْمُهَيْمِنِ عَفْـــوِيْ بَـلْ مَبَـرَّتُـهُ عَنْكُمْ أُؤَدِّيْـهَـا
فَـاْعْفُوْا فَفِيْ اَلْعَفْـوِ خَيْرٌ ثُمَّ مَثْـوَبَـةٌ إِنَّ اَلْكِـرَامَ لَتَعْفُـوْ عَنْ مُسِيْئِيْـهَـا
أَلاَ تَـوَدُّوْنَ أَنَّ اَلـلَّهَ يَـغْـفِـرُ غُـفْـــرَانَـاً خَطِيْئَـاتِكُمْ وَاْلْكُـلُّ مُخْـطِيْهَـا
وَاْللَّهِ مَا فَجْأَةُ اَلْمَوْتِ اَلزُّؤَامِ كَـرِهْـــتُهَـا وَلاَ رُمْتُ عَـنِّي أَنْ أُفَـجِّيْـهَـا
وَلاَ لَـهُ طَـالِـعُ أَنْكَـرْتُ طَلْعَتَـهُ وَإِنْ تُكَـرِّهَ أَهْـلَ اَلْأَرْضِ تَكْـرِيْهَـا
وَلَمْ أَكُنْ غَيْـرَ ظَـامٍ شَـامَ مَـوْرِدَهُ وَطَـالِبٍ بُغْيَـةً أَضْحَى مُـلاَقِيْهَـا
وَمَـا لَـدَى اَللَّهِ خَيْـرٌ لِـلْأُلَى زَهِـدُوْا فِيْ ذِيْ اَلْحَيَاةِ وَقَدْ جَـافُوْا مَـلاَهِيْهَا
نَعَمْ لَـقَـدْ أَثَّـرَتْ أَقْـوَالُ حَيْـدَرَةٍ كَمَـا أَرَادَ شَهِيْـدُ اَلـدِّيْنِ مُلْقِيْهَـا
وَسَارَتِ اَلنَّاسُ بِاْلْمَوْلَى اَلْجَرِيْحِ إِلَى دِيَـارِهِ وَاْلْبُكَـا يَـمْـلاَ مَـآقِيْـهَـا
وَسِيْرَ بِاْلْمُجْـرِمِ اَلْمَلْعُوْنِ إِذْ حَبَسُـوْ هُ حَبْسَـةً لَمْ يَكُنْ تَـاْللَّهِ نَـاجِيْهَـا

جرح معاوية وسلامته

فِيْ ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ يَوْمِ اَلشُّؤْمِ قَدْ حَدَثَتْ جَـرِيْمَةُ اَلشَّـامِ فَاْهْتَـزَّتْ نَـوَاحِيْهَـا
بَيْنَـا مُعَـاوِيَـةٌ فِيْ اَلْجَـامِـعِ اَلْأَمَـوِ يِّ لِلصَّـلاَةِ وَقَـدْ وَافَى يُـوَفِّيْهَـا

(١) خرج معاوية في فجر يـوم الجمعة ١٧ رمضـان سنة ٤٠ للهجـرة إلى الصلاة =

إِذَا بِضَــرْبَــةِ سَيْفٍ فِيْ عَجِيْــزَتِــهِ   قَدْ أَصْبَحَ ٱلْبُـرَكُ ٱلْمَفْتُوْنُ مُمْضِيْهَـا

= في الجامع الأموي وما كاد يحيعل على الصلاة حتى فاجأه البرك بن عبد الله التميمي بضربة سيف أصابت أليته فهجم الناس عليه واستاقوه مقيداً إلى السجن وحُمل معاوية إلى داره وأرسل فاستدعى إليه البرك وسأله عن سرّ جريمته فأبى أن يبوح بشيء غير قوله إنّ عندي خبراً أسرُّك به فإن أخبرتك هل تعفو عنّي قال معاوية قل لنرى قال البرك أنّ أخاً لي قد قتل علياً في صباح هذا اليوم . قال معاوية : فلعلّه لم يقدر على ذلك . قال البرك بل يقدر فإنّ علياً ليس معه أحد يحرسه ومع هذا فاتركني حياً حتى إذا ما فشل أخي بقتل عليّ ذهبت أنا وقتلته فتبسم معاوية وقال كلا لا يكون هذا أبداً وأمر به فقتل في الحال . . وبعث معاوية إلى الساعدي وكان من أشهر أطبّاء الشام وقتئذٍ فلمّا نظر إليه قال إختر اما أن أحمي حديدةً فأضعها موضع السيف وأمّا أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرك منها فإنّ ضربتك مسمومة فقال معاوية أمّا النار فلا صبر لي عليها وأمّا الولد فإنّ في يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني فسقاه شربةً فبرىء ولم يولد له ولد بعدها . وأمر معاوية بعد ذلك أن تقام له مقصورة في الجامع الأموي يصلّي فيها وأرصد حراساً لشخصه يحرسونه ليلاً ونهاراً وهو أول من عمل هذا في الإسلام .

نقول ولقد سألنا كثيرين من أصدقائنا الأطباء عمّا إذا كان يوجد دواء يطهر الإنسان من سمّ دخل في جسمه بواسطة جرح ويقطع الولد فأجابوا أنّهم لا يعرفون دواءً يفعل هذا الفعل لا في الطبّ القديم ولا في الطب الحديث .

« ترجمة معاوية »

وهنا يخلق بنا أن نأتي على ترجمة معاوية بن أبي سفيان إذ لا رجعة لنا إلى ذكره في علويتنا المباركة فنقول :

هو أبو يزيد ويدعى أبو عبد الله معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وهي أمّ أخيه عتبة بن أبي سفيان . وأمّا يزيد بن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وعيبة بن أبي سبفيان وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فهم من أمّهات شتى . وأبو سفيان هو الذي ساق قريشاً في حروبها إلى النبي ﷺ وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة في غزوة بدر الكبرى ولذلك دعي أبو سفيان صاحب العير وعتبة صاحب النفير ومنها جرى على ألسن الناس =

وَمَـا عَلَيْـهِ قَضَتْ لٰكِنَّهَـا شَفِيَـتْ   مِنْ بَعْـدِ مَا أَحْكَمَ ٱلآسِيْ تَـدَاوِيْهَـا

= المثل المأثور « لا في العير ولا في النفير » يقال ذلك للرجل الخامل ، ودعي أبو سفيان صاحب العير إشارة إلى العير التي كان قادماً بها من الشام وهي تحمل العطر والبرّ فلما سمع بخروج المسلمين للقائه أرسل إلى مكة يستنصر أهلها وضرب بوجوه عيره إلى البحر فساحل بها حتى أنقذها من الخطر الذي كان محدقاً بها وكان غزوة بدر الكبرى التي مرَّ معنا تلخيص حوادثها لا جلّها . وسمي عتبة صاحب النفير لأنّه نفر إلى نصرة أبي سفيان برجالة قريش واشتبك مع المسلمين في موقعة بدر وقتل فيها فدعي صاحب النفير وهو جدّ معاوية لأمّه . وكانت هند أم معاوية تذكر في مكة بفجور وعهر حتى كان الناس يشكون في نسب أولادها فيعزون معاوية إلى أربعة وهم مسافر بن أبي عمر وعمارة بن الوليد بن المغيرة والعباس بن عبد المطلب ومغنٍ لأبي سفيان يقال له الصباح . قالوا وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح خادماً لأبي سفيان ونديماً وهو شاب وسيم الوجه حسن الطلعة فدعته هند إلى نفسها فغشيها . وقالوا أنَّ عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً وقالوا أنّها كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك . ومن الناس من يبرئون هنداً من العهر ويدافعون عن طهارتها وحصانتها والله أعلم . وطالما كان الناس يعيبون معاوية بأمّه في الجاهلية والإسلام وهو يقول ما هند بشرّ نسائكم .

وولد معاوية في مكة المكرمة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وكان عمره يوم فتح مكة ٢٣ سنة وأسلم في ذلك اليوم مع أبيه ومن أسلم من قريش وهم الذين يطلق عليهم إسم « الطلقاء » وأصبح بعد الفتح من كتبة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ في جملة الكتاب . وفي خلافة أبي بكر تولّى قيادة جيشٍ أرسله أبو بكر مدداً للجيش الذي كان يقوده أخوه يزيد بن أبي سفيان في فتح الشام فاشترك مع يزيد في فتح صيداء وعرقة وجبيل وبيروت من سواحل سوريا . وفي عهد عمر تولّى ولاية الأردن ولما توفي يزيد أخوه في طاعون عمواس وكان والياً لدمشق ولّاه عمر بن الخطاب دمشق ثمَّ سوريا بجملتها . وكان معاوية أدهى دهاة العرب فما كان يستلم ولاية سوريا حتى طمحت نفسه إلى الاستئثار بها فطفق يجمع المال ويدخره علماً منه أنّه « قاضي الحاجات » وبالرغم عمّا اشتهر عن شدّة عمر بن الخطاب على عمّاله وعزله كل من استغنى منهم أو مال إلى الترف بالرغم من كل هذا أبقى على معاوية في ولاية سوريا وما استطاع حمله على التخلي عن الأموال التي كان يخزنها وعن الترف الذي صار إليه حتى أنّه كان =

وَأَنْبَأَ ٱلْبُـرَكُ ٱلْمَخْـذُوْلُ صَاحِبَـهُ   عَنْ فَجْعَةِ ٱلْكُوْفَـةِ ٱلسَّوْدَاءِ تَجْـرِيْهَا

= يتشبه بملوك الروم في ملبسه ومأكله وفخامة رياش بيته وعظمة مواكبه قالوا وقد لامه عمر يوماً على ترفته فقال له إنّ القوم في الشام قد اعتادوا على رؤية ملوكهم في العظمة والترف فلا يهابونه إن لم يروه مثلهم قالوا فرضي عمر بن الخطاب بهذا الجواب واقتنع به أمّا نحن فعلى قلة علمنا نقول أنّ عمر بن الخطاب لم يقتنع بجواب معاوية ولا كان راضياً عن حاله ولكنه كان رشيداً ذكياً فما جهل أنّ أمره قد استفحل وأنّه يعجز عن عزله فأبقى عليه وسكت عنه والله سبحانه أدرى بالحقيقة وأعلم .

وعندما قتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان الخلافة حسب الشورى التي أوصى بها الخليفة المقتول ذهب لنا شك في أنّ لمعاوية هذا يداً في تولية عثمان مع عدم أرجحيته على الستة ولا سيما سيدنا علي كما ذهب لنا الشك في ما هو أبعد من ذلك في أنّ عمر بن الخطاب ما ترك الأمر شورى للستة إلاّ وهو يعلم أنّه لو أوصى بها لواحد يثق به غير عثمان لما رضيه معاوية وقامت الفتنة والله سبحانه أعلم بهذا أيضاً .

وفي عهد عثمان كانت الخلافة رهن إرادة وتدبير وتحكم مروان بن الحكم في المدينة المنورة ومعاوية بن أبي سفيان في الشام وكل ما نقمه المسلمون على عثمان كان بجريرتهما والله يعلم والتاريخ يشهد أنّ عثمان لم يكن راضياً عن كلما كان ولكنه كان ضعيفاً بأزاء صاحبيه وبني أمية من ورائهما فاستسلم لإرادتهما فساقاه إلى تلك النتيجة السوداء .

وبعد مقتل عثمان اتّهم معاوية سيدنا علي بقتله وهو يعلم قبل غيره أنّ الذي قتله في الحقيقة ليس علي ولا سواه بل هو نفسه ومروان بن الحكم ومعاشر الأمويين الذين تعجلوا بالسيطرة على الخلافة وجرّ منافعها لأنفسهم وما كان يتهم معاوية سيدنا علي بقتل عثمان زوراً إلاّ لحمل الناس على كرهه وعصيان أمره حتى كان ما قد ورد لنا بيانه فيما تقدم ومع أنّ اتّهام سيدنا علي بمقتل عثمان كان في مصلحة معاوية والأمويين لرغبتهم باستخلاص الخلافة لأنفسهم فيسودون العرب في الإسلام كما كانوا يسودونهم في الجاهلية مع ذلك كان معاوية شخصياً يكره سيدنا علي ويبغضه ويحقد عليه وينقم لأنّه قتل يوم بدر أخاه حنظلة وخاله الوليد بن عتبة واشترك في قتل جدّه عتبة نفسه وقتل عليه السلام عدا هؤلاء عدداً كبيراً من بني عمّه عبد شمس وترات معاوية هذه على سيدنا علي مردى الكفار والمشركين هيهات أن ينساها له ويخضع لأمره وينزل على حكمه . =

وَقَـالَ: لاَ تَقْتُلُوْنِيْ قَبْلَ أَنْ تَقِفُـوا عَلى حَقِيْقَتِهَـا مِـنْ عِنْـدِ أَهْـلِيْهَـا
فَـإِنْ قَضَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْتُمْ وَشَـأْنُكُمُ مَعِي وَبُغْيَتُكُمْ لِيْ كُـنْتُ بَـاغِـيْهَـا
وَإِنْ نَجَا فَٱتْـرِكُـوْنِيْ كَيْ أَسِيْـرَ إِلَيْـــهِ إِنَّ قَـتْلَتَـهُ مَـا زِلْـتُ نَـاوِيْـهَـا
فَمَـا إِلَى قَـوْلِـهِ أَصْغَى مُعَـاوِيَـةُ وَلاَ إِمَـاتَتُـهُ قَـدْ كَـانَ مُـرْجِيْهَـا
قَضَى عَلَيْـهِ سَرِيْعَاً بِـٱلْإِمَـاتَـةِ تَمْـــثِيْلاً فَـرَاحَ إِلَى ٱلنِّيْـرَانِ يَـأْوِيْهَـا

= وظلّ معاوية وهو والي سوريا إلى قبل حرب صفين حيث بايعه الناس على أن يدع الأمر شورى يختارون لأنفسهم الخليفة الذي يرضونه ولكنـه بعد التحكيم ادَّعى أنّ حيلة عمرو بيعة صحيحة له فنادى بنفسه خليفـةً للمسلمين فبايعـه أهل الشّـام ثمَّ أخذ يـرسل جيوشه لغزو بلاد الخلافة وإكراه الناس على بيعته فبايعه أهل مصر بحزم ودهاء عمرو بن العاص وبايعه أهل الحجاز واليمن كرهاً على عهد بسر ثمَّ رفضوا بيعتـه بعد أن جاءَهم جـارية من قبـل سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام ولـذلك لم يعتبْـر الفقهاء والمؤرخـون بيعتـه صحيحةً معتبرةً . وقول حضرة الشيخ الخضري في محاضراته في الجامعة المصريـة أنَّ أهل الشام انتخبوا معاوية خليفةً لهم تضليـل للحقيقة والتـاريخ فـإنَّ معاويـة كان متغلبـاً على أهل الشام يكرههم على ما يريد إكراهاً فبايعوه مكـرهين غير مختـارين ولا منتخبين وان أهـل الشام لا يملكـون حق انتخاب الخـلافة ولا جـزءاً من ذلـك الحق بـل الـذين يملكونه بقايا المهاجرين والأنصار وأولاد الذين مـاتوا منهم ومعـظم هؤلاء انتخبوا سيـدنا علي للخلافة وبايعوه بها بيعة علنيةً في المسجد النبوي في المدينة المنورة . وبعـد قتل سيدنا علي عليه السلام تولّى الخلافة سيدنا الحسن عليه السلام ببيعة أهـل العراق غيـر أنّه عليه السلام رأى بعد ستة أشهر أن يتخلّى عن الخلافـة لمعاويـة ففعل لأسبـاب سنأتي عليهـا عند ذكـرنا ترجمة سيدنا الحسن في حاشية تجيء إن شاء الله .

وظلّ معاوية على عرش الخلافة إلى سنة ٦٠ للهجرة ففي جمادى الثانية من تلك السنة مرض مرض الموت ومات لهلال رجب من السنة المذكـورة « ٧ افريـل سنة ٦٨٠ مسيحية » وكانت وفاته في دمشق ودفن فيها ومما لا جدال فيه أنّ معاوية كان من الدهـاء ومضاء العزيمة على أعظم جانب وكان طماحاً إلى العـلاء يستسهل كـل شيء في سبيله على ما رأينا من أعماله فيما تقدم من حواشي هذه العلوية المباركة .

نجاة عمرو بن العاص

هَل ٱلْقَضَا أَمْ وُفُوْرُ ٱلْحَظْ أَنْقَذَ عَمْـــراً مِنْ مَنِيَّتِـهِ إِذْ رَاحَ مُـنْسِيْهَـا[1]

أَمْ يَخْبُطُ ٱلْمَوْتُ كَٱلْعَشْوَا بِغَيْرِ هُدَى ... فَمَـا يُصِيْبُ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ يُـرْدِيْهَـا

أَمْ أَنَّ عَمْـراً لَهُ فِي تِيْ ٱلْفِعَـالِ يَـدُ ... سَـوْدَاءُ أَمْ أَنَّـهُ قَـدْ كَـانَ يَـدْرِيْهَا

فِيْ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ عَمْرُوٌ عُلَّ وَٱطَّلَبَ ٱلْـــطَبِيْبَ لِـلْعِلَّةِ ٱلْـفُجْئَى يُـدَاوِيْهَـا

أَوْ قَـدْ تَمَـارَضَ كَيْ يَبْقَى بِمَنْـزِلِـهِ ... مُحَـاشِيَـاً ضَـرْبَـةً صَعْبُ تَـوَقِّيْهَا

وَنَـابَ عَنْهُ بِـأَمْرٍ مِنْـهُ خَـارِجَـةٌ ... لِكَيْ يُقِيْمَ صَـلاَةَ ٱلصُّبْحِ يَقْضِيْهَا

فَـأَمَّ جَـامِـعَ عَمْـرٍو غَيْــرَ مُكْتَـرِثٍ ... إِلَى ٱللَّيَـالِيْ وَمَـا تَفْجَـا فَـوَاجِيْهَـا

وَإِذْ بِعَمْــرٍو ٱبْنِ بَكْـرٍ رَاحَ بَـاغِتَـهُ ... بِضَــرْبَــةٍ لَمْ يَكُنْ فِـيْـهِ مُثَنِّيْهَـا

وَضَجَّتِ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْفُسْطَاطِ ضَجَّتَها ... لِفَعْـلَةٍ جَهِـلَتْ جَهْـلاً خَــوَافِـيْهَـا

وَمَـاتَ خَـارِجَـةٌ مِنْ جِـرْحِـهِ غَـدَهُ ... ضَحِيَّــةً مَـا أُرِيْــدَتْ مِنْ مُضَحِّيْهَـا

وَيْلُ آمِهِ كَيْفَ لَمْ يَعْـرِفْ حَقِيْقَةَ مَنْ ... قَـدْ رَامَ قَتْلَتَـهُ مَـا آنْفَـكَّ يَنْـوِيْهَـا

أَمَا رَأَى عَمْروَ يَوْمَاً فِيْ ٱلصَّـلاَةِ وَلاَ ... فِيْ ٱلسُّوْقِ أَوْ سُبُلِ ٱلْفُسْطَاطِ يَمْشِيْهَا

---

(١) في فجر ذلك اليوم الأسود أيضاً أي يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة مـرض عمرو بن العـاص أو تمارض « الله أعلم بـالحقيقة » قـالـوا اشتكى بـطنـه فـأمر خـارجة بن أبي حبيبـة وكان صـاحب شرطتـه وهو من بني عـامر بن لؤي فخـرج ليصلّي بالناس فشدَّ عليه عمرو بن بكر بسيفه فضربه فقتله وهجم الناس على قاتله واستاقوه إلى عمرو بن العاص فأمر بقتله في الحال فقال أمهلني وعندي خبر يسرُّك قال وما هو ؟ قـال إنّ أخـاً لي قتل السـاعة علياً بن أبي طالب في الكـوفة . قـال لعلّه عجـز عن قتله قـال أنسيء قتلي إذن فـإذا عجز عن قتله أمضي أنـا وأقتله قال بـل أقتلك الساعـة وأمـر بقتله فقتل . ثمَّ أنَّ عمراً بن العاص زار خارجة وهو يحتضر فطيب خاطره وهـو ضحيته وقـال أرادني القاتل والله لم يرد . فقال خارجة ولكني كنت بديلك والأمر لله .

أَمَـا تَـبَيَّـنَ مَـنْ يَـبْـغِـيْ إِمَـاتَـتَـهُ قَبْـلاً لِيَـأْمَنَ فِيْ إِجْـرَامِـهِ ٱلتِّيْهَـا

إِنِّيْ أُشَكِّكُ فِيْ هٰذِيْ ٱلْحَـوَادِثِ مَا أَظُنُّ عَمْـرَاً بَعِيْـدَاً عَنْ مَنَـاحِيْهَـا

لٰكِنَّ عَمْـرَاً لَقَـدْ أَرْدَى لِسَـاعَتِـهِ ٱلْـ ـمَعْتُـوْهَ أَرْسَـلَهُ لِلنَّـارِ يَـصْلِيْـهَـا

لَـوْلاَ ٱلدُّهَـا مَا نَجَـا عَمْرُوٌ بِمُهْجَتِـهِ مِنَ ٱلْمَنِيَّـةِ يَـا سُبْحَـانَ مُنْجِيْهَـا

وصية أمير المؤمنين للحسنين

سَـلاَمَةُ ٱلْمُـرْتَضَى هَمَّتْ صَحَـابَتَـهُ فِيْهَـا ٱلسَّلاَمَـةُ مِنْ دَهْـرٍ يُنَـاوِيْهَـا[1]

كَـذَاكَ هَمَّتْ جُمُوْعَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَفِيْـ ـهَـا لِلْخِـلاَفَـةِ صَـوْنٌ مِنْ أَعَـادِيْهَـا

وَعَمْـرَكَ ٱللَّهَ قَـدْ كَـانَتْ جِـرَاحَتُـهُ فِيْ قَلْبِ كُـلِّ تَقِيٍّ مِنْ أَهَـالِيْهَـا

ضَاقَتْ لَهَا ٱلْكُوْفَةُ ٱلـرَّحْبَا بِسَـاكِنِهَا وَٱلْحُـزْنُ خَيَّمَ فِيْ ضَـافِيْ مَغَـانِيْهَـا

وَبَـاتَتِ ٱلنَّاسُ فِيْ هَمٍّ وَفِيْ جَـزَعٍ عَلٰى ٱلْخَلِيْفَـةِ مَـا أَمْنٌ تَحَـزِّيْهَـا

وَأَصْبَحَتْ بِجَـوَاهَـا تَسْتَـبِيْـنُ نَبَـا عَمِيْدِهَا ٱلْمُفْتَـدَى وَٱلْخَوْفُ فَـاشِيْهَا

---

(١) عندما نقل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى داره وهو جريح دعوا لعيادته أطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هانيء الكوفي وكان متطبباً صاحب كرسي يعالج الجراحات وكان من الأربعين غلاماً الذين كان ابن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم . فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارَّة فاستخرج منها عرقاً أدخله في الجرح ثمَّ نفخه ثمَّ استخرجه وإذا عليه بياض الدماغ فقال يا أمير المؤمنين أعهد عهدك فإنَّ عدوّ الله قد وصلت ضربته إلى أمّ رأسك . فتبسم عليه السلام تبسّم من يهزأ بالموت وقال الحمد لله فإنّي ذاهب إلى أحباب قلبي وهكذا لم يخف من المنية من أخافها وتقدم منه جندب بن عبد الله فقال : إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال عليه السلام ذلك حق المسلمين فلا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر .

ثمَّ أجال سيدنا علي عليه السلام عينيه بمن حوليه وفيهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وخاصة أصحابه ونظر إليهم نظرة وداعٍ وقال مخاطباً الحسنين بكلام متقطع : « أوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء زُوِيَ =

وَتَسْأَلُ آللَّهَ أَنْ يُبْرِيْ آلْوَصِيَّ مِنَ آلْـــجِرَاحَةِ آلْمُشْتَكِيْ مِنْهَا وَيُبْرِيْهَا

وَعَادَتِ آلنُّطُسُ آلْحُذَّاقُ خَيْرَ شَهِيْـــدٍ تَرْتَجِيْ بُرْءَهُ وَآلطُّبُّ مُعْيِيْهَا

وَكَانَ يَحْذُقُ تَطْبِيْبَ آلْجُرُوْحِ أَثِيْـــرٌ فِيْ مَرَاهِمِهِ آلشَّتَّى يُدَاوِيْهَا

وَإِذْ تَكَشَّفَ جُرْحَ آلْمُرْتَضَى وَرَأَى   قَدْ سُمَّ نَادَى: فَلَا رَجْوَى لِرَاجِيْهَا

وَقَالَ: فَاعْهَدْ أَمِيْرَ آلْمُؤْمِنِيْنَ بِلَا   وَنَى آلْعُهُوْدَ آلَّتِيْ تُرْضِيْكَ تُجْرِيْهَا

فَإِنَّ سَيْفَ عَدُوِّ آللَّهِ وَاصَلَ أُ   مَّ آلرَّأْسِ قَدْ كَانَ يَا لِلَّهِ مُدْمِيْهَا

فَلَمْ يَخَفْ مَنْ أَخَافَ آلْمَوْتَ مَوْتَتَهُ   لٰكِنْ بِهَا نَفْسُهُ أَمْسَى يُمَنِّيْهَا

وَقَالَ فِيْ يَوْمِهِ مَا كَانَ قَائِلَهُ   فِيْ آلْأَمْسِ قَالَ: أُحَيْبَابِي أُوَافِيْهَا

= عنكما ، وقولا الحقَّ ، واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً ، أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ، ومن بلغه قولي هذا ، بتقوى الله ، ونظم أمركم ، وصلاح ذات بينكم ، فإنّي سمعت جدَّكما صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إصلاح ذات البين أفضل من عامَّة الصلاة والصيام ، الله الله في الأيتام ، فلا تغبوا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، الله الله في جيرانكم ، فإنَّهم وصية نبيّكم ، ما زال يوصي بهم ، حتى ظننا أنَّه سيورثهم ، الله الله في القرآن ، لا يسبقكم بالعمل به غيركم ، الله الله في الصلاة ، فإنّها عمود دينكم ، الله الله في بيت ربكم ، لا تخلوه ما بقيتم ، فإنَّه ان ترك لم تناظروا ، الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ، في سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإيّاكم والتدابر والتقاطع ، لا تتركوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فيولّى عليكم أشراركم ، ثمَّ تدعون فلا يستجاب لكم » اهـ . قال هذا سيدنا أمير المؤمنين وسكت قليلاً مغمضاً عينيه تعباً ثمَّ فتحهما وقال : « يا بني عبد المطلب ، لألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً ، تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي إلّا قاتلي ، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه ، فاضربوه ضربةً بضربةٍ ، لا تمثلوا بالرجل فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور) » اهـ ثم أغمض سيدنا علي عينيه وخارت قواه وأخذ لسانه يتلجلج بالأذكار والحمد ونفسه منشغلة بمناجاة ربّها ورسوله والملائكة حولها ترحّب بملقاها .

فَقَالَ جِنْدِبُ: آمِرْنَا نُطِعْكَ وَنَرْ جُوْ أَنْ تَعِيْشَ لِقَوْمٍ أَنْتَ هَادِيْهَا
فَهَلْ لِأَمْرِكَ إِنْ حُمَّ ٱلْقَضَا حَسَنٌ وَهَلْ لَهُ ٱلْبَيْعَةُ ٱلْكُبْرَى نُؤَدِّيْهَا
فَقَالَ: ذٰلِكَ حَقُّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فَإِنْ رَأَوْهُ أَهْلاً لَهَا رَاحُوْا مُبَيْعِيْهَا
ثُمَّ أَجَالَ بِمَنْ حَوْلَيْهِ نَظْرَةَ تَوْ دِيْعٍ بِعَيْنٍ أَلِيْمُ ٱلْجُرْحِ مُطْفِيْهَا
وَشَافَهَ ٱلْحَسَنَيْنِ ٱلطَّاهِرَيْنِ بِمَا فِيْ نَفْسِهِ مِنْ وَصَايَا رَاحَ تَالِيْهَا
فَقَالَ: أُوْصِيْكُمَا يَا صَاحِبَيَّ بِتَقْـــوَى ٱللَّهِ هِيَّ ٱسْمَعَاهَا مِنْ مُوَصِّيْهَا
وَإِنَّ دُنْيَاكُمَا لَا تَبْغِيَا وَلَئِنْ بَغَتْكُمَا فَهِيَ لَا تَصْفُوْ لِبَاغِيْهَا
وَمَا زَوَتْ عَنْكُمَا مِنْ زَهْوِ زُخْرُفِهَا عَلَيْهِ لَا تَأْسَفَا بَلْ وَٱزْهَدَا فِيْهَا
وَٱلْحَقُّ قُوْلَاهُ جَهْرَاً فَهْوَ حِلْفُكُمَا عَلَى ٱلْأَعَادِيْ ٱلَّتِيْ تَبْغِيْ ٱلتَّرَارِيْهَا
أَلَا ٱعْمَلَا لِنَوَالِ ٱلْأَجْرِ جُهْدَكُمَا أَعْمَالَ بِرٍّ إِلٰــهُ ٱلْعَرْشِ يُجْزِيْهَا
وَنَاصِرَا كُلَّ مَظْلُوْمٍ شَكَا وَعَلَى ٱلـــظُّلَّامِ كُوْنَا وَكُوْنَا عَوْنَ شَاكِيْهَا
أُوْصِيْكُمَا وَجَمِيْعَ ٱلْأَهْلِ وَٱلْوَلَدِ ٱلْأَنْجَابِ وَٱلْعِتْرَةِ ٱلْمَسْعُوْدُ نَاشِيْهَا
وَمَنْ إِلَيْهِ ٱنْتَهَى هٰذَا ٱلْمَقَالُ بِتَقْـــوَى ٱللَّهِ إِنِّيْ بِمَا أُوْصِيْ أُثَنِّيْهَا
أُمُوْرُكُمْ نَظِّمُوْهَا فَٱلنِّظَامُ عَلَى مَا تَشْتَهُوْنَ مِنَ ٱلآمَالِ يُمْشِيْهَا
وَأَصْلِحُوْا بِصَفَاءٍ ذَاتِ بَيْنِكُمُ لَا شَيْءَ لِلنَّاسِ أَجْدَى مِنْ تَصَافِيْهَا
فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُوْلَ ٱللَّهِ جَدَّكُمَا يَقُوْلُ قَوْلَةَ حَقٍّ لَسْتُ أَزْوِيْهَا
إِنَّ ٱلصَّلَاحَ لِذَاتِ ٱلْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ صَوْمٍ وَخَيْرِ صَلَاةٍ مِنْ مُصَلِّيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ ٱلْأَيْتَامِ لَا تَدْعُوْ هَا تَشْتَكِيْ وَٱرْهَبُوْا ٱلْبَارِيْ مُشَكِّيْهَا
أَفْوَاهُهَا لَا تَغُبُّوْا فِيْ ٱلطِّعَامِ وَلَا تَضِيْعُ مَعْكُمْ فَمَا أَشْقَى مُضِيْعِيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ جِيْرَانِكُمْ فَلَهَا حَقُّ ٱلْوَلَا وَٱلصَّفَا كُوْنُوْا مُوَدِّيْهَا

مَا زَالَ يُوْصِي بِهَا ٱلْهَادِيْ نَبِيُّكُمُ حَتَّى ظَنَنَّاهُ حَقَّ ٱلْإِرْثِ يُوْلِيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ ٱلْقُرْآنِ فَٱحْتَفِظُوْا بِآيِهِ وَٱفْقَهُوْا عَالِيْ فَحَاوِيْهَا
لَا تَتْرِكُوْا غَيْرَكُمْ يَا قَوْمِ يَسْبُقُكُمْ إِلَى ٱلتَّعَامُلِ فِيْ سَامِيْ مَبَادِيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ خَيْرِ ٱلصَّلَاةِ فُرُوْ ضٌ مِنْذُ أَوَّلِهَا صَلُّوْا لِخَامِيْهَا
فَهِيَ ٱلْعَمُوْدُ ٱلَّذِيْ شِيْدَتْ حَنِيْفَتِكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنْتُمْ فِيْ مَبَانِيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ بَيْتِ ٱلْإِلٰهِ فَأُمُّـ ـوْهُ حَجِيْجَاً يَنَالُ ٱلْغُفْرَ سَاعِيْهَا
وَلَا تُخَلُّوْهُ مَا عُشْتُمْ فَتَرْكَتُهُ تُشَوِّهُ ٱلسَّمْعَةَ ٱلْوَضَّاءَ تَشْوِيْهَا
ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ حُسْنِ ٱلْجِهَادِ لِسُبْـ ـلِ ٱللَّهِ حَتَّى تُتَّقَى مِنْ خَوَاشِيْهَا
فَجَاهِدُوْا فِيْ سَبِيْلِ ٱللَّهِ خَيْرَ جِهَا دٍ بِٱلنُّفُوْسِ فَمَا أَسْمَى تَفَادِيْهَا
كَذَا بِأَلْسِنِكُمْ يَسْمُوْ ٱلْجِهَادُ وَبِٱلْأَ مْوَالِ يُنْفِقُهَا فِيْ ٱلْخَيْرِ قَانِيْهَا
وَوَاصِلُوْا بَعْضَكُمْ بَعْضَاً مُوَاصَلَةً حَسْنَا ٱلْقُلُوْبُ بِهَا يَسْمُوْ تَصَافِيْهَا
وَأَكْثِرُوْا مِنْ هَدَايَاكُمْ فَإِنَّ ذَوِيْ ٱلْأَ رْحَامِ يُشْغِفُهَا وُدَّاً مُهَادِيْهَا
وَحَاذِرُوْا جُهْدَكُمْ شَرَّ ٱلتَّدَابُرِ وَٱلـ ـتَّقَاطُعِ ٱلْمُوْرِثُ ٱلْعُلْيَا تَدَاعِيْهَا
لَا تَتْرُكُوْا ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ فَهْوَ لَكُمْ شَرٌّ وَأَسْوَاؤُهُ تُخْشَى غَوَاشِيْهَا
بِذَيْنِ لَا يَتَوَلَّاكُمْ شِرَارُكُمُ وَنَكْبَةُ ٱلنَّاسِ تُدْهَى مِنْ تَوَلِّيْهَا
وَإِنْ تَهَاوَنْتُمْ عَنْهَا فَدَعْوَتُكُمْ لَا يُسْتَجَابُ وَلَا يُصْغَى لِدَاعِيْهَا
لَأُلْفِيَنَّكُمُ يَا آلَ مُطَّلَبِ بَعْدِيْ وَقَدْ بَلَغَتْ رُوْحِيْ تَرَاقِيْهَا
سَتَسْفِكُوْنَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ لِأَخْـ ـذِ ٱلثَّأْرِ لِيْ سَفْكَةً مَا كُنْتُ رَاضِيْهَا
سَتَمْلَاوْنَ ٱلْفَضَا ٱلْأَعْلَى بِصَيْحَتِكُمْ لِقَتْلَتِيْ صَيْحَةً قَدْ بُتُّ خَاشِيْهَا
فَلَيْسَ يُقْتَلُ إِلَّا قَاتِلِيْ نَصَفَاً وَٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفْسِ فِيْ أَحْكَامِ بَارِيْهَا

فَــإِنْ أَنَـا مُتُّ مِنْ تَــأْثِيْـرِ ضَـــرْبَتِـهِ   خُصُّـوْا بِهِ ضَـرْبَـةً نَجْـلا تُحَـاكِيْهَـا
وَلاَ يُمَثَّــلُ قَــطْعَــاً بِــآبْنِ مُلْجَمَ إِ   نَّ آلْمِثْلَةَ آلْمُصْطَفى قَدْ كَانَ نَاهِيْهَـا
وَكَــانَ صَلَّى عَلَيْــهِ آللَّهُ يَنْشُــرُ هَــا   تِيْـكَ آلْـوَصِيَّــةَ بِــآلآلاَمِ يُلْقِيْهَــا
وَلَمْ يَكَــدْ يَنْتَهِيْ مِنْهَــا وَزَفْــرَتُــهُ   يَــدْوِيْ بِـآذَانِ مَنْ حَـــوْلَيْـهِ دَاوِيْهَــا
حَتَّى تَـلاَشَتْ قِـوَاهُ فَـوْقَ مَفْـرَشِــهِ   فَمَــا أَمَـرَّ عَلى آلــدُّنْيَا تَـلاَشِيْهَـا
وَنَفْسُـــهُ آنْصَــرَفَتْ لِـلَّهِ خَــالِقِـهَــا   وَآلْحَمْـدُ وَآلشُّكْرُ وَآلإِذْكَـارُ فِيْ فِيْهَا
كَــانَتْ تُنَـاجِيْ رَسُــوْلَ آللَّهِ شَيِّقَـةً   إِلَيْـهِ إِذْ كَـانَ عَنْ شَـوْقٍ يُنَـاجِيْهَــا
وَحَـوْلُهَـا مَعْشَــرُ آلأَمْـلاَكِ قَـائِمَـةٌ   مُـــرَحِّبَـاتٌ بِهَــا تَهْــوَى تَــلاَقِيْهَــا

وفاة أمير المؤمنين ورثاؤه

فِيْ لَيْلَةِ آلأَحَـدِ آلْمَشْؤُوْمُ طَـالِعُهَــا   فِيْ سَـاعَةٍ لَيْتَ لَمْ تُخْلَقْ ثَـوَانِيْهَا[1]
حُمَّ آلْقَضَا وَنَعَى آلنَّاعِيْ آلْهُدَى، وَمَضَى   لِلْجَنَّـةِ آلْمُـرْتَضَى بُشْـرَى لأَهْلِيْهَــا
وَسَـاوَرَ آلنَّاسَ حُـزْنٌ مَا بِـهِ شَعَرَتْ   إِلاَّ لِفَجْعَتِهَــا فِيْ مَـوْتِ هَــادِيْهَــا

(١) جرح سيدنا علي عليه السلام في صباح يوم الجمعة وظلَّ جريحاً يعاني غصات الموت إلى ليلة الأحد حيث راحت نفسه إلى خالقها راضيةً مرضيةً فانضمت إلى محبيها في جنان النعيم حيث الأبرار والصالحون ولقيها المصطفى وفاطمة بعد طول الفراق وأصبحت حول العرش الأسنى عرش الله تسبّح ذاته القدسية مع المسبحين وكانت فرحة في السماء لا يعادلها الجزع الذي غمّ المسلمين عندما نعى النعاة لهم خير الخلائق أجمعين بعد سيد المرسلين عليهما الصلاة والسلام .

« ترجمة سيدنا علي »

لقد مرَّت معنا ترجمة سيدنا علي عليه السلام في هذه العلوية المباركة إسهاباً فنذكر هنا منها ما لم نرَ موضعاً لذكره من قبل فنقول :

إنّ نسبه الشريف هو نفس نسب المصطفى عليهما الصلاة والسلام وكلاهما فرعا=

=دوحة واحدة في أعاليها ومولده ونشأته وأعماله الباهرة ذكرناها كلّها . وأمّا أزواجه فإنّه عليه السلام لم يتزوج على سيدتنا فاطمة الزهراء في حياتها ومرَّ معنا أنّها ولدت له سيدنا الحسن وسيدنا الحسين وسيدنا محسن وهذا لم يعش وولدت له أيضاً زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى . وبعد وفاتها تزوج عليه السلام أمّ البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان وعاشوا وشبوا وقتلوا مع سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه السلام في الطفّ بكربلاء ولم ينسلوا نسلاً إلاّ العباس فقد تزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر قتلا مع سيدنا الحسين أيضاً وقيل ان عبيد الله بن العباس بن علي قتله المختار بالمذار وقيل لا بقية لهما . وتزوَّج عليه السلام أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له محمداً الأصغر ويحيى ولا عقب لهما وقيل أنَّ محمداً لأمّ ولد وقتل مع سيدنا الحسين . وتزوج عليه السلام الصهباء بنت ربيعة التغلبية وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر وولدت له عمر بن علي ورقية بنت علي وعمَّر عمر هذا حتى بلغ خمساً وثمانين سنة فحاز نصف ميراث علي ومات بينبع . وتزوج عليه السلام أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس وأمّها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فولدت له محمداً الأوسط . وتزوج عليه السلام خولة بنت جعفر بن حنيفة فولدت له محمد الأكبر وهو المعروف بابن الحنفية وكان يحبّه كثيراً ويوم مصرعه أوصى به خصيصاً الحسنين عليهما السلام وأوصاه بطاعتهما قال الراوي « فنظر عليٌّ إلى محمد بن الحنفية (بعد أن أوصى الحسنين وصيته التي سبق لنا ذكرها) وقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم قال : فإنّي أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقّهما عليك وتزيين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما . ثمَّ أرسل نظره إلى الحسنين وقال : أوصيكما به فإنّه أخوكما وابن أبيكما وقد علمتما أنَّ أباكما كان يحبّه » اهـ . وتزوّج عليه السلام أمّ سعد ابنة عروة بن مسعود الثقفية فولدت أمّ الحسن ورملة الكبرى وأمّ كلثوم . وكان له عليه السلام بنات من أمهات شتّى لم يذكرن لنا منهنَّ أمّ هانيء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأمّ كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأمّ الكرام وأمّ سلمة وأمّ جمانة ونفيسة كلهنَّ من أمهات أولاد . فجميع ولده أربعة عشر ذكراً وسبع عشر امرأةً وكان النسل منهم للحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية .

=

وَأَوْرَثَ ٱلْحُزْنَ أَبْنَاءَ ٱلزَّمَانِ مَدَى ٱلْأَجْيَـ ـالِ مَا أَنْ يُلَاشَى أَوْ يُلَاشِيْهَا

لِمِثْلِهِ خُلِقَ ٱلدَّمْعُ ٱلسَّجِيْنُ بِأَعْـ ـيُنِ ٱلْوَرَى فَهْوَ هَامٍ مِنْ مَآقِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى أُمَّةٍ قَدْ ضَاعَ مُرْشِدُهَا وَدَوْلَةٍ عَنْ حِمَاهَا غَابَ حَامِيْهَا

وَمِلَّةٍ فَقِدَتْ فَقْداً مُهَذِّبَهَا وَعِتْرَةٍ خَسِرَتْ خُسْراً مُوَاسِيْهَا

مَنْ لِلْحَنِيْفَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ يَفِيْـ ـهَا حَقَّهَا حَسْبَمَا قَدْ شَاءَ مُوْحِيْهَا

مَنْ لِلشَّرِيْعَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْفَقِيْهِ إِذَا آسْـ ـتَفْتَتْهُ أُمَّتُهَا بِٱلْهُدْيِ يُفْتِيْهَا

مَنْ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَلِيْفَةِ يَرْ عَى عَهْدَ مُسْلِمِهَا عَدْلاً وَذِمِّيْهَا

= أمّا صورته عليه‌السلام كما وصفه الذين أسعدهم الحظ فتشرفوا برؤيته ومعاشرته فهي أنّه كان ربعة القوام ، أدعج العينين ، كأنّ وجهه القمر ليلة البدر حسناً ، ضخم البطن ، عريض المسربة ، شثن الكفين ، ضخم الكسور ، كأنّ عنقه إبريق فضة ، أصلع الرأس من خلفه شعر خفيف ، لمنكبه مشاش كمشاش الأسد ، إذا مشى تكفأ وماد به جسده ، ولظهره سنام كسنام الثور لا يبين عضده من ساعده قد أدمَجتا إدماجاً ، لم يمسك بذراع رجل قط إلّا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ، ولونه أبيض يميل إلى شيء من السمرة ، وهو أقنى الأنف ، إذا مشى للحرب هرول ، وكانت عيناه السوداوان تتدفقان ذكاءً فإذا سدّدهما بالناس أدخلتا على قلوبهم الرهبة ، وكان آيةً من آيات الذكاء إذا حدّث تدفق كالبحر الذاخر ، وفصيح اللسان إذا خطب خلب الألباب ، وجاءَ بفصل الخطاب ، وكان عظيم اللحية ، كثير شعر الصدر ، وكان شعره أسود ذا لمعان ، ثمّ أزانه المشيب ، وكان مجلس عليٍّ مهيباً على بساطته ، فتراه عليه‌السلام يتربع على وسادته الخشنة ، في أطماره المرقعة ، فإذا الهيبة والجلال يغشيانه ، وزهده بزخارف الدنيا يزيده رفعةً وجلالاً . هذا ما نجمله من صورته السنية وسنأتي على صفاته وعلومه وفضائله بإسهاب فيما يجيء إن شاء الله تعالى .

أمّا مدّة خلافته عليه‌السلام فقد رأينا أنّه بويع بالخلافة يوم مقتل عثمان في المدينة المنوّرة وكان مقتله عليه‌السلام في الكوفة يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وله من العمر ٦٤ سنة .

مَنْ لِلْعَـدَالَـةِ مِنْ بَعْـدِ ٱلْأَمِيْنِ يُسَـا   وِيْ ٱلنَّاسَ فِيْ ٱلشَّرْعِ سُفْلِيْهَا وَعُلْوِيْهَا

مَنْ لِلْمَعَـامِـعِ مِنْ بَعْـدِ ٱلْكَمِيِّ إِذَا   مَـا دَوْلَـةُ ٱلـدِّيْنِ فَـاجَتْهَـا أَعَـادِيْهَـا

مَنْ لِلْحَـوَادِثِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَبِيْـرِ بِهَـا   وَإِنَّهَـا بِضَمِيْـرِ ٱلـدَّهْـرِ يَحْكِيْهَـا

مَنْ لِلْخِـطَابَةِ مِنْ بَعْـدِ ٱلْخَطِيْبِ إِذَا   رَامَ ٱلتُّقَـاةُ ٱهْتِـدَاءً مِنْ مُفَـاهِيْهَـا

مَنْ لِلْبَـلَاغَـةِ مِنْ بَعْـدِ ٱلْبَلِيْـغِ وَآ   يَـاتُ ٱلْبَـلَاغَـةِ قَـدْ وَلَّى مُـوَشِّيْهَـا

مَنْ لِلْمَـوَاهِبِ مِنْ بَعْـدِ ٱلْجَـوَادِ إِذَا   وَافَتْ عَـوَافِيْـهِ لِـلْإِحْسَـانِ يُغْنِيْهَـا

فِيْ ذِمَّةِ ٱللَّهِ صِهْرَ ٱلْمُصْـطَفَى وَأَخَا   هُ إِنَّـهُ نَـازِلُ ٱلْـجَنَّـاتِ آوِيْـهَـا

وَٱلْمُصْـطَفَى يَتَلَقَّـاهُ بِفَـرْحَـةِ مُشْـــتَـاقٍ لِـطَلْعَتِـهِ ٱلـزَّهْـرَا يُحَيِّيْهَـا

بِـهِ يَسِيْـرُ لِتَسْبِيْـحِ ٱلْمُهَيْمِنِ وَٱلْأَ   مْـلَاكُ حَـوْلَهُمَـا تَشْـدُوْ أَغَـانِيْهَا

وَفِيْ ٱلسَّمَـاءِ نُفُوْسُ ٱلصَّـالِحِيْنَ تُلَا   قِيْ ٱلْمُـرْتَضَى وَبِـهِ عَمَّتْ تَهَـانِيْهَا

بَيْنَـا ٱلْبَرِيَّـةُ تَبْكِيْـهِ وَقَـدْ فَقِـدَتْ   بَعْـدَ ٱلـرَّسُوْلِ بِـهِ أَسْمَى ذَرَارِيْهَا

إِذَا ٱلْـمَـلَائِكَـةُ ٱلْأَبْـرَارُ مُبْشِـرَةٌ   وَقَـدْ أَتَـاهَـا وَأَثْـوَى فِيْ عَـلَالِيْهَا

فِدَى ٱلْأَمِيْرِ نُفُـوْسُ ٱلنَّاسِ أَجْمَعُهَـا   وَنَفْسُـهُ مَا نُفُـوْسُ ٱلنَّـاسِ تَجْـزِيْهَا

نَفْسٌ مُـطَهَّـرَةٌ قَـدْ نُـوِّرَتْ بِسَنَـا ٱلْـــقُـرْآنِ وَٱللَّهُ بِـاْلْإِلْـهَـامِ مُسْنِيْهَـا

تَـرَفَّعَتْ عَنْ دَنَايَـا ٱلْأَرْضِ جُمْلَتِهَا   وَلِلْمَـلَائِـكِ حَـاكَتْ فِيْ تَعَـالِيْهَـا

لِـذَاكَ قَدْ أَكْثَـرَ ٱلنَّـاسُ ٱلْعَـدَاءَ لَهَـا   إِذْ لَمْ تَكُنْ بِسَجَـايَـاهَـا تُحَـاكِيْهَـا

وَأَتْعَبَتْهَـا ٱللَّيَـالِيْ وَهْـيَ ظَـالِمَـةٌ   وَلَحم تَـزَلْ بِمَسَـاوِيْهَـا تُنَـاجِيْهَـا

فَلَمْ تَجِـدْ دُوْنَهَـا إِلَّا مُقَـارِعَـهَـا   وَلَمْ يَجِـدْ عِنْـدَهَـا إِلَّا دَوَاهِيْـهَـا

وَافَجْعَةَ ٱلدِّيْنِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ وَأَهْـــلُوْهُ تُئَـوِّهُ طُـوْلَ ٱلـدَّهْـرِ تَـأْوِيْهَـا

وَإِنَّـهُـمْ مَـعَـهُ وَٱلـلَّهِ قَـدْ فَـقِـدُوْا   رُوْحَ ٱلشَّـرِيْعَةِ فَـاْعْتَاصَتْ مَعَـانِيْهَا

وَبعْـدَهُ ذَكَـرُوْا شَجْـوَاً مَقَـالَتَـهُ   وَكَـانَ بَعْضُـهُمُ يَـبْغِـيْ تَنَـاسِيْهَـا

يَقُوْلُ: هَيَّ آسْأَلُـوْنِيْ فِيْ شَرِيْعَتِكُمْ   مِنْ قَبْـلُ أَنْ تَفْقَـدُوْنِيْ يَـا أَهَـالِيْهَـا

بَلى فَقدْ مَاتَ مُفْتِيْ آلشَّرْعِ وَآنْطَفَأَ آلـ   ـنُّوْرُ آلَّذِيْ يَكْشِفُ آلإِضْلاَلَ وَآلتِّيْهَا

وَمَـاتَ مَنْ عُمَـرٌ فِيْـهِ شَهَـادَتُـهُ   قَـدْ أَصْبَحَتْ مَثَـلاً يَتْلُوْهُ رَاوِيْـهَـا

لَـوْلاَ آلْعَلِيُّ لَـلاَقَى هُلْكَـهُ عُمَـرٌ   وَبَـاتَ فِيْ آلنَّـارِ تَشْـوِيْـهِ لَـوَاظِيْهَـا

وَكَـانَ يَسْعَى إِلَى دَارِ آلْوَصِيِّ لِيَسْـ   ـتَفْتِيْ آلْفَتَـاوَى وَمَـا إِلاَّهُ فَـاتِيْهَـا

أَجَـلْ وَقَـدْ فَقِـدَ آلإِسْـلاَمُ مُنْفَجِعَـاً   إِسَّ آلْخِـلاَفَـةِ فَـآنْهَـارَتْ مَبَـانِيْهَـا

وَأَصْـبَحَـتْ بَعْـدَهُ تَـآلـلَّهِ دَوْلَـتُـهُ   مُلْكَـاً عَضُوْضَـاً يُجَافَى مِنْ مُحِبِّيْهَـ

وَمَـا حُـرُوْبُ عَلِيٍّ مَـعْ مَتَـاعِبِـهِ   إِلاَّ لِتَبْقَى عَـلَى تَنْسِيْـقِ مُنْشِيْـهَـا

إِنَّ آلْخِـلاَفَـةَ تَبْكِيْ يَـا عِبَـادُ بِـهِ   مُـصِيْـبَهَـا بِـتُقَـاهُ مِـنْ مُهـدِّيْـهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ قِـدَاسَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ تَـبْكِـيْـهِ وَتَبْكِيْـهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ نَبَـاهَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ تَـنْعِيْـهِ وَتَنْعِيْـهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ وَجَـاهَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ بَـزَّ آلنَّـاسَ تَـوْجِيْهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ فَقَـاهَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ فَـاقَ آلنَّـاسَ تَفْقِيْهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ زَكَـانَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ مَـا خَـابَتْ مَـرَامِيْهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ نَجَـادَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ تَـرْثِيْـهِ وَتَـرْثِيْـهَـا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْـوِ طَـهَ فِيْ سَخَـاوَتِـهِ   خَـلاَ آلنُّبُـوَّةِ مَـا أَهْمَى هَـوَامِيْهَـا

تَبْكِيْ وَسَـوْفَ تَـظَلُّ آلـدَّهْـرَ بَـاكِيَـةً   حَتَّى تَعُـوْدَ بِـآتِيْهَـا لِمَـاضِيْهَـا

هِيَ آلْخِلاَفَةُ حَقُّ آلْعُـرْبِ دُوْنَ سِوَا   هَـا لاَ يَقُـوْمُ بِهَـا إِلاَّ قُـرَيْشِيْهَـا

مِنْ آلِ أَحْمَـدَ مِنْ بَيْتِ آلنُّبُوَّةِ مِنْ   صُلْبِ آلْعَلِيِّ بِـهِ تُلْفِـيْ تَمَنِّيْـهَـا

وَٱلْمُرْتَضَى عَاشَ مَشْقِيَّاً لِعِزَّتِهَا   وَكَانَ يَا لِلأَسَى أَغْلَى أَضَاحِيْهَا

إِيْهِ ٱبْنَ مُلْجَمَ يَا شَرَّ ٱلْخَلِيْقَةِ قَدْ   وُجِدْتَ فِيْ هَاتِهِ ٱلدُّنْيَا لِتُؤْذِيْهَا

يَا لَيْتَ أُمَّكَ لَا كَانَتْ وَلَا وَلَدَتْ   أَفْعَى تَفُحُّ سُمُوْمَاً فِيْ تَحَوِّيْهَا

عَلَيْكَ لَعْنَةُ رَبِّيْ مَعْ مَلَائِكِهِ   مَعَ ٱلْبَرِيَّةِ فَانِيْهَا وَنَاشِيْهَا

فَجَعْتَ أُمَّةَ طَهَ بِٱلْوَصِيِّ فَلَا   تَنْفَكُّ لِلْحَشْرِ حَيْرَى فِيْ تَعَازِيْهَا

فَنَلْ جَزَاءَكَ نَارَاً لَا ٱنْطِفَاءَ لَهَا   وَسَبَّةَ ٱلْأَبَدِ ٱلْمَلْعُوْنُ قَانِيْهَا

غسل أمير المؤمنين ودفنه

مَا ٱسْتَأْثَرَتْ رَحْمَةُ ٱلْبَارِيْ بِحَيْدَرَةٍ   وَغُبْطَةُ ٱلْخُلْدِ قَدْ أَمْسَى مُوَافِيْهَا[1]

حَتَّى ٱنْبَرَى حَسَنٌ حَالاً لِغَسْلَتِهِ   بِنَفْسِهِ وَأَلِيْمُ ٱلْخَطْبِ مُشْجِيْهَا

وَكَانَ مَعْهُ حُسَيْنٌ وَٱلْمُحَمَّدُ وَٱلْـ   ـشَّهْمُ ٱبْنُ عَبَّاسَ كَانُوْا عَوْنَهُ فِيْهَا

---

(١) توفي سيدنا علي عليه السلام ليلة الأحد ١٩ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وقام بالغسل سيدنا الحسن وسيدنا الحسين ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وكفنوه في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ثمَّ خرجوا به ليلاً من منزله حتى مروا به على منزل الأشعث بن قيس ثمَّ خرجوا به إلى الظهر بجنب الغري حيث واروه الثرى وهو القبر الذي أصبح بعد البيت العتيق في مكة المكرمة والروضة النبوية في المدينة المنوَّرة مقصد الناس يزورونه ويتبركون به فينالهم ثواب الآخرة وسعادة الدنيا .

« **تاريخ الكوفة** »

الكوفة بالضم هو المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خدّ العذراء وسميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب الرميلة المستديرة كوفاناً بضم الكاف وفتحها . وقيل غير ذلك وقيل سميت الكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم قد تكوَّف الرمل إذا اجتمع بعضه لبعض . وهذا البلد يقع في طول درجة ٦٩ ونصف وعرض ٣١ وثلثين . وكان تمصر الكوفة مع البصرة سنة ١٧ للهجرة على عهد عمر وذلك أنَّ سعداً بن أبي وقاص لما فرغ من وقعة رستم بالقادسية وضمَّن أرباب القرى ما =

وَكَفَّنُوْهُ بِأَكْفَانٍ مُثَلَّثَةٍ وَبِالدُّمُوْعِ الَّتِي تَهْمِي هَوَامِيْهَا

= عليهم ونظم شؤون فتحه توجّه نحو مدائن كسرى إلى يزدجر فقدم لحربه هناك خالد بن عرفطة حليف بني زهرة من كلاب فلم يقدر عليه حتى فتح خالد بن الوليد ساباط ثمَّ توجه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلّوه على مخاضة عند قرية الصياد من أسفل المدائن فعبر منها بخيله وهرب يزدجر إلى اصطخر فأخذ خالد كربلاء عنوةً وسبى أهلها فقسمها سعد بين أصحابه ونزل كل قوم في الناحيةِ التي خرج سهمهم فيها فسكنوها . وكتب سعد بما كان إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر أن حوّل الناس فحوَّلهم إلى سوق حَكَمَة ويقال إلى كويفة ابن عمرون وما في ذاك الجوار فتقمقموا فكتب إليه أنّ العرب لا يصلحها من البلدان إلاَّ ما أصلح الشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف فلما بلغ سعد كتاب عمر سأل من حوله عن الريف فقال له ابن بقيلة اني لأدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وفيها خصب كثير هي سورستان فسار إليها سعد وحسنت في عينه فضرب فيها خيام جنده وهي الكوفة المعروفة إلى اليوم وباشر بناء دار له فيها فكانت أول دورها وعرفت بدار سعد وكتب بذلك إلى عمر فأجابه أن اختط فيها مسجداً يسع مقاتلتكم فاختط مسجدها وكان يسع أربعين ألف رجل بجوار داره التي أتينا على ذكرها . وكان في ظاهر الكوفة منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والقرّبان وما هنالك من المنتزهات والديرة الكبيرة .

وأصبحت الكوفة على عهد سيدنا علي عليه السلام حاضرة الخلافة الإسلامية استقرَّ فيها بعد تغلبه على أصحاب الجمل في البصرة فازداد بذلك عمرانها ونموها وكان في ظاهرها عينان يقال لإحداهما الربض وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة وكان هنالك مسنّاة تمنع سيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها وكانت هنالك الحدائق والبساتين وصفها إبراهيم الموصلي في قصيدة له قال :

ما أن أرى الناس في سهلٍ ولا جبلٍ أصفى هواءً ولا أغدى من النجفِ
كأنَّ تربته مسك يفوح به أو عنبر دافه العطار في صدفِ
حُفت ببرّ وبحرٍ من جوانبها فالبرُّ في طرفٍ والبحر في طرفِ
وبين ذاك بساتين يسبح بها نهر يحيش مجاري سيله القصفِ
وما يزال نسيم من أيامنه يأتيك منه بريَّى روضةٍ ألفِ
تلقاك منه قبيل الصبح رائحة تشفي السقيم إذا أشفى على التلفِ =

وَفِيْ دُجَى ٱللَّيْلِ قَدْ سَارُوْا بِجُثَّتِهِ   وَنُـوْرُ خَـالِقِهَـا ٱلْأَسْنَى مُغَشّيْهَـا

= لـو حلَّه مـدنف يـرجـو الشفـاء بـه   إذاً شفـاه من الأسقـام والـدنفِ

« الروضـة العلويـة »

لم يشـأ سيـدنـا الحسن وأخـواه سيـدنـا الحسين ومحمـد بن الحنفيـة وابن عمّـه عبد الله بن العباس أن يدفنوا سيـدنا علي عليه السلام في مقـابر الكـوفة وأقـرُّوا على أن يكون دفنه في موضع لا يهتدي إليـه إلاّ خاصـة أولاده وأحبابـه مخافـة أن ينال رفـاته الشـريفة شيء من أذى أعدائه الكثيـرين سواءً بني أميـة الذين كـان أمرهم قـد استفحل بمقتله أو الخوارج في العراق فدفنوه في ظلمة الليل في الظهر بجانب الغري وعـادوا إلى الكوفـة وقـد انبثق نور الفجـر . قالـوا وزيادة في الاحتيـاط حفروا حفـائر عـديـدة إحـداهـا في المسجد الكوفيّ وأخرى برحبة قصر الأمارة وثالثـة في حجرة من دور آل جعـدة بن هبيرة المخزومي ورابعة في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بحذاء بـاب الوراقين ممـا يلي قبلة المسجد وخامسة في الكناسة والسادسة في الثويَّة . فأصبح الناس صباح الأحد ١٩ رمضان ووجدوا هذه الحفر قد سوِّيت ثانيةً وما وقفوا على حقيقـة موضـع القبر الشـريف واختلفت رواياتهم في ذلك اختلافاً شديداً ومـا فيهم من يعرف الحقيقـة إلاّ الذين تـولوا دفنـه حتى ادَّعى قوم أنَّ جمـاعـةً من طيء وقعـوا على جمـل في تلك الليلة وقـد أضلّه أصحابه ببلادهم وعليه صندوق فظنوا فيه مالاً فلما رأوا ما فيه (كـذا ولعلهم أرادوا أنّهم رأوا في ذلك الصندوق الجسد الشريف) خافوا أن يـطلبوا بـه فدفنـوا الصندوق بمـا فيه ونحروا البعير وأكلوه وشاعت هذه الخرافة في بني أميـة وشيعتهم واعتقدوه حقّـاً وصدقـاً فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها :

فـإن يـكُ قــد ضـلَّ البعيــر بحمله   فمـا كـان مهـديـاً ولا كـان هـاديـا

ونقول نحن أنّ أبناء النـاس أعرف بقبـور موتـاهم لأنّهم هم الذين وسـدوهم فيها فبالأولى أن يكون أولاد سيـدنا علي أدرى النـاس بقبر أبيهم العـظيم وأعرف وهـذا القبر الذي بالغري هو الذي كان بنو سيدنا علي عليه السلام يزورونه قديماً وحديثاً ويقولون هذا قبـر أبينـا لا يشكُّ أحـد في ذلـك لا من الشيعـة ولا من غيـرهم . وقــد روى أبـو الفــرج عبـد الرحمن بن علي بن الجـوزي في تـاريخـه المعـروف بـالمنتـظم وفـاة أبي الغنـائم محمـد بن علي بن ميمون الـرسي المقرّي قـال : توفي أبـو الغنائم هـذا في سنة عشـر=

=وخمسماية وكان محدّثاً من أهل الكوفة ثقةً حافظاً وكان من قوَّام الليل من أهل السنة وأصحاب الحديث وغيره . وكان يقول : مات بالكوفة ثلثماية صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً إلاَّ قبر أمير المؤمنين سيدنا علي وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن جاءَ جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام فزاراه ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً وإنّما كان به معالم وآثار حتى جاءَ محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة .

وقد ذكر الخطيب أبو بكر في تاريخه أنَّ قوماً يقولون أنَّ هذا القبر الذي يزوره المسلمون إلى جانب الغري هو قبر المغيرة بن شعبة وقد غلطوا غلطاً بيناً في قولهم هذا فإنَّ قبر المغيرة وقبر زياد ابنه بالثويَّة من أرض الكوفة ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا ويثبته قول أبي تمام :

صلى الإلّه على قبرٍ وطهره عند الثويَّة يُسقى فوقه المورُ
زفت إليه قريش نعش سيدها فالحلم والجود فيه اليوم مقبورُ
أبا المغيرة والدنيا مفجعة وانَّ من غرَّت الدنيا لمغرورُ
قد كان عندك للمعروف معرفة وكان عندك للمنكور تنكيرُ
وكنتَ تغني وتعطي المال من سعةٍ فاليوم قبرك أضحى وهو مهجورُ
والناس بعدك قد خفّت حلومهم كأنما نفخت فيها الأعاصيرُ

وقال قطب الدين نقيب الطالبيين أبو عبد الله الحسين بن الأقسامي نحن نعرف مقابر ثقيف إلى الثويَّة وهي إلى اليوم معروفة وقبر المغيرة فيها إلاَّ أنّها لا تعرف قد ابتلعها السبخ وزبد الأرض وفورانها فطمست واختلط بعضها ببعض . وجاء في كتاب الأغاني في ترجمة المغيرة « أنّه مدفون في مقابر ثقيف » وأمثال هذا كثير وكلّه مثبت بأنَّ سيدنا علي عليه السلام قد دفن في الغري في الموضع الذي فيه روضته الشريفة اليوم . وقد ظلَّ هذا القبر الشريف مخفياً عن الناس لا يعرف به غير آل البيت العلوي الطاهرين كل مدَّة حكم بني أميّة وأوائل حكم العباسيين حيث كانت المنافسة بين العباسيين والطالبيين على الخلافة شديدة مخافة أن يسيءَ مسيء فاجر إلى تلك التربة المقدسة حتى سنحت الفرصة لشيعته عليه السلام فأقبلت بجملتها على تلك الروضة الشريفة فأقامت لها القبب وبنت بجوارها المسجد ثمَّ ابتنت حواليها دور الأتقياء الراغبين بجيرته وطلبة العلم الذين =

فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّجَفِ ٱلْمُبْنَى لِمَنْعِ سُيُوْ ل ِ ٱلْمَاءِ عَنْ كُوْفَةٍ مَا فَاضَ جَارِيْهَا
هُنَاكَ كَبَّرَ خَمْسَاً خَاشِعَاً حَسَنٌ عَلَى ٱلْهُدَى وَهْيَ تَدْنُوْ مِنْ تَوَارِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا وُلْدُهُ ٱلنُّجُبُ ٱلْكِرَامُ عَلَى آلـــ ـرُّفَاتِ سَوَّتْ وَمَا أَشْجَى تَسَوِّيْهَا
نَفْسِيْ فِدَى تُرْبَةٍ قَدْ غَيَّبَتْ وَطَوَتْ خَيْرَ ٱلْوَرَى وَلَهُ أَبْدَتْ تَحَنِّيْهَا
وَأَدْمُعُ ٱلْأَعْيُنِ ٱلشَّكْرَى تَفِيْضُ سِحَا بَاتٍ عَلَيْهَا فَتَسْقِيْهَا وَتَرْوِيْهَا
تُرَى فَهَلْ عَرَفَتْ تِلْكَ ٱلْحَفِيْرَةُ أَ نَّ ٱلشَّمْسَ فِيْهَا ٱسْتَقَرَّتْ وَهْيَ تُخْفِيْهَا
وَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ أَرْضَاً مُقَدَّسَةً بِٱلْمُرْتَضَى كُلُّ ذِيْ تَقْوَى لَيَأْتِيْهَا
وَإِنَّهَا سَتَظَلُّ ٱلدَّهْرَ مَظْهَرَ دِيْـــ ـنِ ٱللَّهِ إِذْ يَتَلاَلاَ مِنْ مَغَانِيْهَا
كَذَا ٱلْبِلاَدُ كَأَهْلِيْهَا فَتُسْعِدُهَا ٱلْأَقْدَارُ عَفْوَاً بِلاَ سَعْيٍ وَتُشْقِيْهَا

=يتوسمون أن يفتح الله على عقولهم بمدد روحانيته وبركات جواره وهكذا أصبحت النجف بهؤلاء بلداً كبيراً تحوَّل إليها الناس من الكوفة وغيرها من أمصار العراق وإيران وأصبحت اليوم تلك البقعة الشريفة وفيها من طلبة العلم وحدهم نيفٍ وثلاثون ألفاً عدا المجاورين الذين تركوا ديارهم وأقبلوا على العتبة الحيدرية المقدسة رغبة المجاورة عن حبّ صادق وعدا الزوّار الكثيرين الذين يأتون هذه العتبات المباركة زرافاتٍ ووحداناً من جهات العراق وإيران والهند وغيرها من أمصار المسلمين .

أمّا وصف العتبات الشريفة والمسجد الحيدري الذي بجانبها ومآذنها وقببها المكسوَّة بالذهب الوهاج حتى إذا ما أشرقت عليها الشمس انعكست أشعتها فرآها الناس من مسافة ساعتين وثلاثة وما في المسجد والروضة من التحف الثمينة والثريات الغالية الثمن والجواهر النادرة والسجاجيد الوفيرة القيمة فمما يعجز القلم عن وصفه ومما يشير إلى المكانة القدسية العلية التي له عليه السلام في قلوب المسلمين بل وكل العالمين أفاض الله علينا بركاته وكراماته مع صنوه سيد المرسلين .

الاقتصاص من الملعون ابن ملجم

وَعَـادَتِ ٱلْوُلْـدُ مِنْ دَفْنِ ٱلْإِمَامِ إِلَى رِحَابِ مَسْجِدِهَا وَٱلْحُزْنُ غَاشِيْهَا(١)
هُنَـاكَ صَلَّتْ صَلَاةَ ٱلْفَجْـرِ خَاشِعَـةً يَؤُمُّهَـا ٱلْحَسَنُ ٱلْمَبْـرُوْرُ حَـامِيْهَـا

---

(١) بعد أن عاد أولاد سيدنا علي وخاصته من دفنه عليه السلام وقد انبثق الفجر صلّى سيدنا الحسن بالناس ثم طلب الملعون ابن ملجم فجيء به وهو يرسف بقيوده وأغلاله ولعنة الله مغشية وجهه القبيح ففاجأه سيدنا الحسن عليه السلام بقوله قتلت الإمام قتلك الله فأجابه بكل قحة وفجور لقد بلغت نفسي مناها ولكن أخبرك بأحسن أنّي اتفقت وصاحبين لي على قتل معاوية وعمرو بن العاص مع أبيك بجوار الكعبة وأقسمنا على ذلك وأخاف أن يفشل صاحبيَّ بمهمتهما فأمهلني ريثما تتبين نبأهما وما كان من أمرهما فإذا فشلا أسير بنفسي فأقتل معاوية فعمرو بن العاص ثمَّ أعود إليك لتجري عليَّ القصاص فقال الحسن : لا والله لا تزينَّ الماء حتى تثوي في جهنم وبئس المصير قال هذا وشهر سيفه وضربه به ضربةً واحدةً جندله بها قتيلاً وأرسلت أم هيثم فاستوهبت جثته وأحرقتها فذرّتها الريح وهكذا انتهت حياة هذا الشقي الملعون .

أمّا قطام فلم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عمّا كان من أمرها بعد قتل الإمام عليه السلام والظاهر أنّ سيدنا الحسن لم يهتمَّ بأمرها لأنّه عليه السلام كان يعلم أنَّ أهل النهروان بعد أن نكّل بهم أمير المؤمنين كانوا كلهم موتورين فلا عجب إذا شمتوا بقتله أو عملوا له إذ كانوا ولا يزالون ظالمين .

ويخلق بنا هنا أن نذكر شيئاً عن آل البيت الطاهر عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام تتميماً لتأريخ حوادث صدر الإسلام التي كان تأثيرها على مستقبل البلاد الإسلامية عظيماً فنقول :

« كلمة في الحسنين »

هما فرعا الدوحة النبوية المثمران ونجما سماء الرسالة المحمدية المضيئان وخير من أنجبت الآباء والأمهات في بني الإنسان هما سبطا رسول الله عليه وعليهما وعلى أبويهما الصلاة والسلام .

ولد سيدنا الحسن في العام الثالث للهجرة وولد سيدنا الحسين في العام الرابع =

= للهجرة وأمّهما سيدتنا فاطمة الزهراء وأبوهما علي بن أبي طالب وجدّهما محمد الهادي الأمين رسول الله ونزلت في هذه العترة المقدسة آية ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ وعندما نزلت هذه الآية على النبي الأمّي ضمّ إليه علياً وفاطمة والحسن والحسين وطرح عليهم كساءً وقال : « اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم » وما بعد هذا القول شكٌّ بانتماء الحسنين وأنسالهما إلى رسول الله انتماءً صحيحاً صريحاً لا ينكره إلّا المنافقون .

وقد أزاد الحسنين التصاقاً برسول الله وفاة ولديه القاسم وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام حينئذٍ لم يبق لحفظ النسب الشريف إلّا هذان النيران المضيئان فهما وأنسالهما بركة للعالمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الحسنين ولديه وكانَ يحبهما كثيراً وطالما احتملهما على عاتقه الشريف وهما غلامان وما في الصحابة من لم يشهد عنايته بهما ولم يسمع تسميته لهما « زهرة شباب أهل الجنة » وكان يربأ المرتضى عليه السلام أن يزجهما في معامع الحرب حرصاً على حياتهما الثمينة التي إذا أصيبت بمكروه انقطع نسل رسول الله ومرّةً في موقعة صفين رأى سيدنا أمير المؤمنين ابنه الحسن يتسرع في القتال فصاح بمن حوليه : « أملكوا عني هذا الغلام لا يهدُّني ، فإنني أنفس بهذين (ويريد الحسن والحسين) على الموت ، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ، صلّى الله عليه وآله » اهـ .
وقيل يوماً لمحمد بن الحنفية لما يغرّر بك أبوك في الحروب ولم يغرّر بالحسنين ؟ فقال : لأنهما عيناه وأنا يمينه فهو يذبُّ عن عينيه بيمينه . وهو تشبيه لا أبدع منه ولا أعجب حسبنا صدوره عن ابن أبي الحسن عليه السلام وحاول أعداء سيدنا علي وأولاده في جملة ما حاولوه من الحطّ من أقدارهم العالية في نفوس الناس فأنكروا أنّهم عترة رسول الله وأنّ الحسنين ولداه لقوله تعالى : ﴿ **ما كان محمداً أبا أحدٍ من رجالكم** ﴾ واستشهاد هؤلاء الأعداء بهذه الآية الشريفة من قبيل المغالطة والتضليل لأنّها نزلت في زيد وكان هذا عبداً لرسول الله وجرت عادة العرب أن ينسبوا العبيد لمواليهم فيقولون فلان ابن فلان ويريدون عبده فلما حدثت حادثة امرأة زيد وتزوج رسول الله بها بعد طلاقها بأمر من السماء طفق المنافقون يلغطون بأنَّ رسول الله تزوج مطلقة ابنه فنزلت هاتيك الآية الشريفة مبينةً أنّ رسول الله بصفته النبوية الخاصة ليس أباً لأحد من =

وَكَانَ يَرْسُفُ بِٱلْأَغْلَالِ مُرْتَجِفَ ٱلْأَ م عْصَابِ مُضْطَرِبَ ٱلْأَفْكَارِ هَاذِيْهَا

= المسلمين حتى ولا عبيده بل هو رسول الله إليهم جميعاً . ولكن من أفن الرأي وفساد البصيرة أن تتخذ هذه الآية لنفي الأبوّة الطبيعية عن المصطفى فلا يقال أنّه أبو القاسم وأنّه أبو إبراهيم فإنّه ﷺ أبوهما الطبيعي وكذلك يقال أيضاً أبو الحسن وأبو الحسين .

أمّا قول هؤلاء الأعداء بأنّ أولاد البنات لا ينتسبون إلى آباء أمهاتهم فهذا صحيح في الاصطلاح وغير صحيح في الطبيعة البشرية فمن الوجهة الطبيعية نعرف أنّ الجنين يتكون من نطفة أبيه ودم أمه بالاشتراك بإذن الله تعالى وخلقه فأبواه هما اللذان أعطياه من دمهما ولحمهما وعظامهما دمه ولحمه وعظامه بقدرة الخالق العظيم وما كان لإنسان أن يوجد من امرأة وحدها أو من رجل وحده ذلك تقدير العزيز العليم . ومن جهة العطف والحنان نجد الجدّ يعطف على ابن ابنته مثل عطفه على ابن ابنه فلا يفرّق بينهما بل هما في عواطفه الأبوية بمنزلة واحدة وأمّا في الاصطلاح فقد اصطلح الناس على نسبة الابن لأبيه دون أمّه فيحمل اسم عائلة أبيه وهذا لم يكن في الحسنين لأنّهما يحملا اسم العترة النبوية الهاشمية لأنّ أباهما وجدّهما من نسب واحد . وفي الميراث لقد جعلت الشريعة السمحاء تفاوتاً في الإرث بين الذكور والإناث وأنسالهم لحكمةٍ يقتضيها الاجتماع البشري لا لإنكار النسب والرحم والقرابة وفي هذا كفاية للمنصفين .

وقد دخلت سيدتنا فاطمة الزهراء على أبيها المصطفى ذات يوم ومعها الحسنان غلامان يترعرعان عليهم الصلاة والسلام وقالت : يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً فقال أمّا الحسن فإنّ له هيبتي وسؤددي وأمّا الحسين فإنّ له جرأتي وجودي . صدق رسول الله فكان الحسن والحسين كما ذكر .

تربى الحسنان بين أيدي جدّهما المصطفى وأبيهما المرتضى وأمّهما فاطمة الزهراء بالدلال الخليق بهما وشبّا على أعلى الأخلاق الموروثة والمكتسبة ولم يأتيا أمراً يستلفت النظر في عهد أبي بكر وعمر وعثمان إلّا يوم مقتل عثمان حيث أرسلهما سيدنا علي ليمنعا عنه الناس فسارا إلى بيت عثمان وحالا دون الثائرين والدار فاحترمهما الثائرون ولم يؤذوهما وصعد نفر منهم إلى سطح بيت عثمان من بيت بجواره وقتلوه كما تقدم ومن هذا الحادث تعلم مبلغ الاحترام الذي كان لولدي رسول الله هذين حتى في نفوس الثائرين منهم وفي أشدّ أوقات ثورة خواطرهم .

وصحب الحسنان سيدنا علي إلى البصرة يوم الجمل وصحباه إلى صفين ولكنهما =

فَأَرْسَلَتْ أَعْيُنُ ٱلنَّاسِ ٱلشِّرَارَ لَهُ   وَكَادَ يَحْرُقُهُ تَٱللَّهِ حَامِيْهَا

=لم يحاربا معه لأنَّه كان يمنعهما عن خوض غمرات الحرب خوفاً عليهما كما تقدمت الإشارة .

وعندما جرح سيدنا علي عليه السلام ويأس أصحابه من حياته سئل إن كان يريد أن يوصي بالخلافة إلى سيدنا الحسن فقال : ذلك حقّ المسلمين لا أئمر به ولا أنهي عنه وسبق لنا ذكر هذه الرواية في غير هذا المكان ونحن شاكون في صحتها فإنَّ الحقّ الصريح الذي كان يطالب به سيدنا علي في الخلافة هو نفس الحقّ الذي لابنه الحسن عليه السلام لا جدال في هذا ولا نكران . وعلى فرض صحة هذه الرواية وأنها لم تدسّ من الأمويين لا تفيد إلّا معنىً واحداً وهو أنَّ سيدنا علي كان يعلم من حال المسلمين وتفرق كلمتهم واضطراب حبلهم واستفحال أمر الأمويين بينهم ما جعله أن يزهد بالخلافة والحياة أيضاً كما مرَّ معنا فلا يدع إذا كان قد أشفق على ولده وفلذة كبده أن يقاسي في الخلافة ما قاساه من الأرزاء والأهوال والمصاعب والمتاعب فما أمره بالولاية ولا نهاه عنها . أمّا حقّ المسلمين في تولية الخلافة فمما لا ينكره منكر فإنّ الشورى الإسلامية لا تترك الولاية العامة إرثاً بغير رضاء المسلمين الذين هم أهلها ولكن المختلف عليه هو في هل حقّ المسلمين في الخلافة يطلق أيديهم في بيعة مَن يشاؤون حتى لو كان تركياً أو يقيد المسلمين في دائرة محدودة لا يصحُّ لهم أن يتجاوزوها ؟ ومجال الخلاف واسع حول الخلافة فمن الناس من يرون أنّها من حقّ الطالبيين لأنّها إرث عن جدّهم المصطفى وأبيهم المرتضى ومنهم من قال بجواز استخلاف الهاشميين على التعميم ومنهم من قال إنّ الخلافة من حقّ قريش وذكروا لذلك حديثاً نسبوه إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . ولكن ليس من المسلمينَ من قال بجواز الخلافة في غير قريش على ما أعلم . حتى آخر الزمان إذ جاءَنا ابن خلدون المؤرخ المشهور فقال في مقدمته عند ذكره الخلافة وتجويز بيعة السلاطين العثمانيين بها أنّها تصحُّ لفقدان القوة والعصبية من قريش ووجودهما في العثمانيين على أنّ مقالته هذه هي قول ذي غرض أو سقطة من يتوخى رضاء العثمانيين لمصلحةٍ والحقيقة أنّ الإسلام أبطل عصبية الجاهلية والرجوع إليها ليس من الإسلام في شيء وفوق هذا لو أجمع العرب على الطالبيين لما فقدوا عصبيتهم .

ولقد بايع الناس سيدنا الحسن على أثر مقتل أمير المؤمنين عليهما الصلاة=

حَتَّى إِذَا مَا ٱسْتَوَى فِيْ شَرِّ وَقْفَتِهِ   مُسْتَقْبِلَ ٱلْمَوْتَةِ ٱلشَّنْعَا مُنَاجِيْهَا

= والسلام في المسجد الأعظم في الكوفة وكان أول من بايعه هو قيس بن سعد الأنصاري فقال له : أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه وقتال المحلين (وهم الذين أحلّوا بيعة أبيه سيدنا علي عليه السلام وهم الخوارج وأصحاب معاوية) فقال الحسن : « بل على كتاب الله وسنّة رسوله فإنّهما يأتيان على كل شرط » فبايعه وتبعه الناس فبايعوه وكان سيدنا الحسن يشترط على مبايعيه أن يكونوا معه فيسالمون من سالمه ويحاربون من حاربه .

ومرَّ معنا فيما تقدم أنَّ الناس تجهزوا قبيل مقتل سيدنا علي عليه السلام للمسير إلى حرب الشام فحال مقتله الفاجع وأسفاه دون مسير هذه الحملة قالوا وكان عدد رجالها أربعين ألفاً . وما كاد يتربع سيدنا الحسن على دست الخلافة حتى بلغه أنَّ معاوية قد سار إلى محاربته وأنّه قد بلغ « مسكنه » وهي قرية على الفرات قريبة من حلب ولا تبعد كثيراً عن موضع صفين فخفَّ سيدنا الحسن إلى لقائه بالجيش الذي كان أعدَّه أبوه وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مقدمته في إثني عشر ألف مقاتل واتّجه سيدنا الحسن إلى الشام ومعه عبد الله بن عباس مستشار له ورئيس أركان حربه ولما نزل الحسن في المدائن ظهر الخلل في جنده وأكثروا من التقمقم عليه والتراخي في صحبته وما كفاهم هذا حتى سادت عليهم الفوضى فنفروا كالأنعام الجفلى لدى صائحٍ صاح بهم أنَّ قيس بن سعد قد قتل ونهبوا في نفارهم هذا كلَّ ما كان مع الحملة من زادٍ ومتاع حتى نازعوا سيدنا الحسن بساطاً كان تحته فيئس عليه السلام من الانتصار على معاوية بعد أن خذله أصحابه ورجع إلى الكوفة منكسر القلب .

أنا أعتقد اجتهاداً ما لا أظنه تعدَّى الذي حصل فإنَّ معاوية ما كاد يبلغه نبأ قتل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام حتى أرسل جواسيسه بأحمال الأموال إلى العراق فتن بها الأصدقاء وجمع بها كلمة الخوارج الأعداء ونهض بعد ذلك بنفسه لغزوة سيدنا الحسن فأقام في « مسكنه » ينتظر نتيجة دسائسه في الأقطار العربية . ولا أحسب ما جرى في مدائن كسرى في جيش سيدنا الحسن إلّا دسيسة مدبَّرة من أولئك الجواسيس فصاح الصائح كذباً ينعي للناس قيس بن سعد الذي كان على المقدمة وظلَّ عليه السلام في معسكره وحيداً بعد أن نازعوه سجادته لا نصير له ولا معين .

هذا هو مبلغ رأيي في هذه الحادثة بنيته على ما أمامي من التواريخ الغامضة التي =

نَـادَى بِـهِ حَسَنٌ: مَـاتَ ٱلْإِمَـامُ قَتِيْـــلاً قَتلَةً أَنْتَ يَـا مَلْعُـوْنُ جَـانِيْهَـا

= تـذكر الحـوادث غثها وثمينهـا كما اتصلت بكـاتبيهـا من غيـر أن تبـدي رأيـاً فيهـا يجلو غوامضها . وقالوا إنّ سيدنا الحسن عليه السلام عندما بقي في مدائن كسرى وقد تركـه الجيش طمـع بالاستفـادة من حالتـه تلك شاب غـرّ يـدعى المختـار بن أبي عبيـد فقصـد عمّـه سعيد بن مسعود الثقفي وكان حاكم المـدائن من قبل سيـدنا علي وقـال له هـل لك في الشـرف والغنى قال سعـد وما ذاك ؟ قـال المختار نستـوثق من الحسن ونستأمن بـه إلى معـاويـة فقـال سعـد : عليـك لعنـة الله أأثب على ابن بنت رسـول الله وأوثقـه وأسلّمـه لعدوّه ؟ لبئس الرجل أنت . ومن هذه الرواية يتضح لنا أنَّ فكـرة الاثراء بخـدمة معـاوية وكسب الشرف « ويراد به نيل الوظائف » تحت رايته كانا شائعين يملآن عقول الناس فلا يبالون في سبيلهما أيَّ السبل سلكوا .

وزعموا أنّ سيدنا الحسن عليه السلام عندما رجع من المـدائن وقد خـذله أصحـابه يئس وكتب لمعـاوية يعـرض عليه التسليم لـه والنزول على حكمـه وأنَّ معاويـة كتب له قبـل وصول كتابه يعرض عليه التسليم له بالشروط التي يريدهـا وهذه الـرواية مـا رضيتها ولا اقتنعت بصحتهـا لأنَّ أنفة سيـدنا الحسن لتحمله على المـوت دون هذا التسليم المشين لـدى أول صدمـة اصطدم بهـا في حياتـه السياسيـة . وعندي أنَّ معـاويـة « وكـان معـه عمرو بن العاص » في « مسكنه » كان يدبر المكيدة بدهاء وذكاء فما بلغه فرار الناس من حول سيدنـا الحسن ورجوعـه عليه السلام إلى الكوفـة وهو منكسـر القلب حتى أسرع يعـرض عليـه الصلح فأرسـل إليه عبـد الله بن عامـر وعبد الـرحمن بن سمـرة بن حبيب بن عبـد شمس ومعهما صحيفة بيضاء ختمها فجـاءَا سيدنـا الحسن وعرضـا الصحيفة المختـومة بختم معاوية عليه ومعها كتاب منه يقول فيه « أن اشتـرط في هذه الصحيفـة التي ختمت أسفلهـا ما شئت فهـو لـك » فلمـا انتهت إليـه الصحيفـة صحت عـزيمتـه على التسليم مشترطاً أن يعطي ما في بيت مال الكوفة وكان يبلغ نحواً من خمس ملايين درهم وخراج دارا بجرد من فارس وأن يمتنع عن سبّ سيدنـا علي . قالـوا فرجـع رسولا معـاوية إليـه بهذه الشروط فرضي بها إلاّ الإمتناع عن سبّ سيدنـا علي فرجـع الرسـولان إلى سيدنـا الحسن بـذلك فـرضي عليه السلام على أن لا يُسبُّ سيدنـا علي بحضـرتـه وهـذه الـروايـة لا أصدقها أيضاً لأنَّ الذي يرسل صحيفةً بيضاء مختومةً ويقول اشترط ما تشاء لا يمتنع عن قبول شرط بسيط كـالذي اشتـرطه سيـدنا الحسن وعنـدي أنّها ملفقـة من رواة لا يزنـون القول بميزان العقل بل ينقلون كلَّ ما يعـرض عليهم على علاتـه وعدا عن بسـاطة هـذا =

قَـالَ ٱبْنُ مُلْجَمَ: حَسْبِيْ إِنَّ قَتْلَتَـهُ   قَـدْ أَبْلَغَتْ مُهْجَتِيْ أَقْصَى تَشَهِّيْهَـا

= الشرط الذي قالوا امتنع معاوية عن قبوله فإننا موقنون أنَّ سيدنا الحسن عليه السلام كان أهـون عليـه أن يلقى معـاويـة وجيشـه بصـدره وحيـداً ويمـوت تحت ظـلال الأسنـة ولا يسلم بالخلافة لمعاوية إن لم يتعهد بالامتناع عن سبّ أبيـه عليهما صلوات الله والصحيـح أنَّ معاوية تعهد بالامتناع عن السبّ فيما تعهد به للحسن ولكنه نكث عهده فيمـا بعد وهـذا شأنه .

وعنـدما جـاء رسولا معـاوية إلى سيـدنـا الحسن بـالصحيفـة البيضـاء المختـومـة رأى عليه السلام أن يستشير الأمّة في الأمر فدعا الناس إلى المسجد الأعظم في الكوفة وصلّى بهم صلاةً جامعةً ثمَّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس ، إنّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شكٌّ ولا ندم ، وإنَّا كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبـر ، فشيبت السـلامـة بـالعـداوة ، والصبـر بـالجـزع ، وكنتم في مسيـركم إلى صفين ودينكم أمـام دنيـاكم ، وأصبحتم اليوم ودنيـاكم أمام دينكم ، ألا وأصبحتم اليـوم بين قتيلين ، قتيـل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهـروان تطلبـون بثأره ، وأمّـا الباقي فخـاذل ، وأمّا البـاكي فثائر ، ألا وأنَّ معاوية دعـانا لأمرٍ ليس فيه عـزٌّ ولا نصفة ، فـإن أردتم الموت ، رددنـاه عليه ، وحاكمنـاه إلى الله عزَّ وجـلَّ بظبى السيـوف ، وإن أردتم الحياة ، قبلنـاه وأخذنـا لكم الرضى » وما انتهى سيدنا الحسن إلى هـذا القول حتى دوت في الجـامع أصـوات الناس وهم يقولـون : البقية البقيـة وامضِ الصلح . فنزل عليه السلام عن المنبـر وهو يحـوقل ويسترجع وقد زال من صدره الشريف كلُّ أملٍ بانتصـار الناس لـه وطفق يخابـر رسولي معاوية بالشروط التي يرضاها حتى إذا ما تمَّ التفـاهم بينهما بـواسطة الـرسولين وهـو في الكـوفة ومعـاوية في « مسكنـه » أحبَّ أيضاً أن لا يتحمـل مسؤوليـة هـذا الصلح وحـده فجمع الناس في المسجد ووقف فيهم خطيباً فقال : « أيّهـا الناس ، إنّمـا نحن أمراؤكم وضيفـانكم ، ونحن أهـل بيت نبيكم ، الـذين أذهب الله عنهم الـرجس ، وطهّـرهم تطهيراً » وكرَّر ذلك حتى ضجَّ الناس بـالبكاء فبكـا سيدنـا الحسن معهم وبينما شهقـات البكاء كانت تملأ جوانب المسجد وقف قيس في الناس وهو الذي عرفناه قائداً لمقـدمته فقال : « أيّها الناس : اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة ، أو القتال مـع غير إمـام » فقال بعضهم نصالح وقال البعض بل نحارب فقال سيدنا الحسن عليه السلام : « بل نصالح ، فقـد رأيتكم لا يثق بكم أحـد إلاّ غلب ، ليس أحـد منكم يـوافق الآخـر على رأي ولا هوى ، مختلفين لا نية لكم في خير ولا شرّ ، لقـد لقي أبي منكم أموراً عـظاماً ، فليت =

وَمَـا لِنَفْسِيَ بَعْـدَ ٱلْيَـوْمِ مِنْ طَلَبٍ   بِــهِ وَحَـقِّ ٱنْتِقَـامِيْ كَـيْ أُمَنِّيْهَـا

=شعري من تصلحون بعدي ؟ » ونزل فأمضى شروط الصلح وأرسلها مع الرسولين إلى معاوية فأقبل هذا بجيشه ومعه عمرو بن العاص إلى الكوفة ودخلها دخول الظافر وقصد الجامع الأعظم فخطب بالناس وطلب بيعتهم فبايعوه ثمَّ تقدم عمرو بن العاص وأسرَّ في أذن معاوية أن يأمر سيدنا الحسن بالخطابة ليقول كلمةً تزيد في نفوذ معاوية على أهل العراق وتسقط من قدر آل البيت فأمره بذلك فقال سيدنا الحسن بأنفةٍ هاشمية ونعرةٍ نبوية طالبية : أيّها الناس ، إنَّ الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءَكم بآخرنا ، وأنَّ لهذا الأمر مدةً ، والدنيا دول ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لنبيّه ﴿ **وان أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ فغضب معاوية وأمر سيدنا الحسن بالمكوث والجلوس ونظر إلى عمرو غاضباً وقال « هذا من رأيك » .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسن عليه السلام سار إلى المدينة المنوَّرة مع إخوانه وغلمانهم وحشمهم وما وفى له معاوية بالشروط التي اشترطها فلا أعطاه خراج دارا ولا امتنع عن سبّ سيدنا علي عليه السلام وما صعب على معاوية أن ينكث بعهوده وقد اعتاد هذا من قبل .

وقد لام كثيرون سيدنا الحسن عليه السلام على تسليمه لمعاوية فكانت أجوبته لهم منحصرة في معنى ما أجاب به المسيب بن نجية فقال « يا مسيب ، لو أردت بما فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب منّي ، ولكنّي أردت صلاحكم ، وكفّ بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح برٌّ ، ،ويستراح من فاجر » اهـ .

وكانت مدّة خلافة سيدنا الحسن عليه السلام ستة أشهر فقط إذ تمَّ صلحه مع معاوية في ربيع الآخر سنة ٤١ للهجرة .

أمّا قيس بن سعد وهو أكبر قوّاد سيدنا الحسن فإنّه إذ رأى نيّة سيدنا الحسن بالتسليم لمعاوية أكبره وأباه وحدث وقتئذٍ أنَّ عبيد الله بن عباس وكان أمير جنود سيدنا الحسن قد راسل معاوية بعد أن شعر برغبة الحسن بالتسليم يسأله الأمان لنفسه بما أصاب من مال وماشية فأجابه إلى ذلك فترك الجيش الذي كان يقوده وسار إلى جيش معاوية الذي كان يدنو من الكوفة بقيادة عبد الله بن عامر فما كان من قيس بن سعد إلاّ أن تقدم من جيش عبيد الله بن عباس وعرض نفسه لقيادته واستلم زمامه وتعهد أن لا يسلم لمعاوية إلاّ بعد أن يستوثق منه لشيعة سيدنا علي عليه السلام ولمن كان معه على دمائهم =

= وأموالهم فلم يقاتله معاوية بل عاهده على ذلك وهكذا دخل قيس ومن معه في طاعة معاوية ولكن في دخولهم لم يسلم معاوية في تسوّده على العراق بغير حب كما كان يريد فثار عليه الخوارج واضطرَّ إلى محاربتهم فحاربهم بشدةٍ عرفوا من ورائها فضل سيدنا علي عليه السلام الذي ما كان يرضيهم عدله وحلمه وشفقته وهكذا استقرَّ الأمر لمعاوية في العراق وبالتالي في عموم البلاد الإسلامية .

وكان سيدنا الحسن عليه السلام شفوقاً صالحاً زاهداً عابداً ومات في المدينة المنوَّرة في سنة تسع وأربعين عن سبع وأربعين سنةً وسبب وفاته أنَّ معاوية دسَّ إليه سماً على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن قيل أنَّ معاوية أرسل إليها جاسوساً فرشاها بمئة ألف درهم ووعدها أن يزوجها من ابنه يزيد لو هي قتلت سيدنا الحسن بالسمّ ففعلت فوفّى لها بالمال ولكنه لم يزوجها من ابنه قائلاً قد لا تمتنع عن خيانة ابني التي ما امتنعت عن خيانة الحسن. وقد أجمع المؤرخون على أنَّ سيدنا الحسن عليه السلام قد توفي مسموماً وأنّ زوجته جعدة هي التي دسّت له السمّ وأكثرهم اتّهموا معاوية بجريمة قتله ولكني لما أجد فيما أمامي من التواريخ من ذكر سبب إقدام معاوية على قتله مسموماً ويظهر لي أنَّ معاوية أراد بقتله تمهيد الطريق أمامه لبيعة ابنه يزيد إذ كان لا يجهل أنّ وجوده عليه السلام في الحياة يحول دون هذه الرغبة التي ما كان يهتمُّ معاوية بغيرها بعد أن دانت له الخلافة الإسلامية وقبض على عنقها بيده الحديدية .

أمّا سيدنا الحسين عليه السلام فإنَّه كان في حياة المرتضى عائشاً في ظله وكان منصرفاً إلى العلم والفقه متبحراً في الشريعة حتى أجمع الرواة على أنّه كان أحسن مثال لسيدنا أمير المؤمنين علماً وفضلاً .

وعندما عقد سيدنا الحسن الصلح مع معاوية لم يقاومه سيدنا الحسين ولم يعارضه في ذلك لأمرين أحدهما احتراماً لسنّه لأنَّه الأكبر منه وثانيهما لأنّه هو أيضاً كان يرى أنَّ البقاء على عداء معاوية وبلاد المسلمين على ما نعهد من الفوضى وأنصار العلويين على ما نعلم من الإنقسام لا نتيجة له سوى زيادة القلاقل والفتن وسفك الدماء وسافر مع سيدنا الحسن وآل البيت العلوي الطاهر إلى المدينة وأقاموا فيها كلَّ مدة حكم معاوية وكان معه على خير لا هو راضٍ عنه ولا هو غاضب عليه وكان معروف المكانة في مدينة جدّه عليه السلام يأتيه الناس للإفتاء والتبرك .

=

إِنْ لَـمْ يَفُـزْ بُـرَكُ قَـبْلِيْ بِـقَتْلَتِـهِ   وَكَـانَ قَـدْ أَمَّهَـا يَبْغِيْ مُعَـاوِيْهَـا

= « فاجعة العالمين في مقتل الحسين »

وفي سنة ٥٦ للهجرة خطر لمعاوية وقد وثق من الخلافة وأمن المعارضين والمقاومين والخوارج واستقر حكمه فيها وغدا الناس في قبضته على ما يحبّ أن يبايع ابنه يزيد فلم يكن في وجوه قريش من واجهه برفض هذه البيعة غير ثلاثة وهم سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وكان من أمرهم مع معاوية في ذلك ما ذكرناه في حاشية سابقة .

ومات معاوية سنة ٦٠ للهجرة فخلفه ابنه يزيد بعد أن أعدَّ له أبوه البيعة بدهائه كما تقدم القول ولم يكن له همٌّ بعد أن بايعه الناس إلاّ أن يأخذ بيعة النفر الذين رفضوا بيعته من قبل وأنكروها على معاوية وهم سيدنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير لأنّه كان يعلم مكانة هؤلاء الثلاثة في الإسلام وأنَّ رضاء الناس كلهم ببيعته لا يوازي رضاءَهم فكتب إلى ابن عمّه الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة المنوَّرة ينعي إليه معاوية ويطلب منه أن يأخذ أولئك الوجوه أخذاً لا رخصة فيه حتى يبايعوا فاستدعى الوليد مروان بن الحكم وأخبره بوفاة معاوية وخلافة يزيد وأمره القاطع بخصوص أولئك النفر فقال مروان وكان غير راضٍ عن معاوية لأنّه عزله عن حكم المدينة إنّ الرأي عندي أن تدعوهم في الحال إليك فأمّا أن يبايعوا يزيد أو تضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية فإنّهم إذا علموا بموته وثب كلٌّ منهم إلى ناحية في الحال ودعا الناس إلى نفسه واشتعلت نيران الفتنة في البلاد . أمّا الوليد بن عتبة فتهيب تنفيذ هذا الرأي ولم يجهل ما يتلوه من الفتن ولكنه تظاهر لمروان بقبوله وقال اجلس لأبعث بطلبهم وأرسل في الحال عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث إلى سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير يدعوهما إليه فسار إليهما فوجدهما في المسجد النبوي فأبلغهما أمر الوليد فقالا في مثل هذه الساعة لا يجلس الوليد للناس ومع ذلك فاذهب أنت ونحن نوافيه فتركهما وانصرف فقال عبد الله بن الزبير ما تظنُّ في دعوة الوليد هذه ؟ فقال الحسين أظنُّ أنّ طاغيتهم قد هلك فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو خبره في الناس فقال الزبير وأنا على هذا الظنّ فما تريد أن نصنع ؟ فقال الحسين : أجمع فتياني الساعة ثمَّ أسير إليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه فقال ابن الزبير إنّي لأخاف عليك منه فقال الحسين لا آتيه إلاّ وأنا قادر على الامتناع وبالفعل نهض سيدنا الحسين فسار =

ثُمَّ أَعُـوْدُ إِلَيْكُمْ لِلْقَصَـاصِ كَمَـا   تَقْضِيْ آلشَّـرِيْعَةُ إِنِّيْ لَسْتُ خَـاشِيْهَا

= فجمع أصحابه ومواليه وأقبل بهم على باب الوليد حتى إذا ما انتهى إليـه قال لهم البثـوا هنا فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فـادخلوا عليَّ بأجمعكم وإلاّ فـلا تبرحـوا هذا المكان حتى أخرج وتركهم ودخل على الوليد فـإذا مروان عنـده فعجب سيدنـا الحسين من اجتمـاعهما ويعـرفهما متنـافرين وقـال : الصلة خير من القـطيعة والصـلاح خير من الفساد وقد آن لكما أن تجتمعا أصلح الله ذات بينكما . وكان في كلمات سيدنا الحسين هذه إشارتان أداهما إلى ما كان بين الـوليد ومـروان من الحقد بخصـوص ولاية المـدينة كما سبقت الإشارة والثاني إلى أنّه قـد شعر بـوفاة معـاوية وأنّهـا هي التي جمعتهما ولم تخف هاتان الإشارتان على الـوليد فصـارحه القـول ونعى إليه معـاوية وطلب منـه البيعة ليزيد فاسترجع الحسين وطلب لمعاوية الرحمة وقال وأمّـا البيعة ليزيد فإنَّ مثلي لا يبايع سـراً فإذا خـرجت إلى الناس ودعـوتهم للبيعة ودعـوتنا معهم كـان الأمر واحـداً فقال لـه الوليد حسناً فانصرف الآن فقال مروان هامساً لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منـه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه فـأحبسه في الحـال فإن بـايع وإلاَّ ضـربت عنقه فوقعت هذه الكلمات في أذن سيدنا الحسين فغضب غضبةً هاشميـةً وقال لمـروان يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت ثمَّ تركهما وخرج غير خائف وعيداً ولا تهديداً حتى أتى منزله أما مروان فلام الوليد لتركه الحسين قال أمّا والله وقد عصيَتني فـوالله لا يمكنك من نفسـه ثانيـةً أبداً فقـال الوليـد والله ما أحبُّ أنَّ لي مـا طلعت عليه الشمس وغربت عنه وإنّي قتلتُ حسيناً إن قال لا أبـايع والله إنّي لأظنُّ أنَّ امرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الحساب يوم القيامة فهزَّ مروان كتفيه وقال عسى أن لا تندم . أمّا عبد الله بن الزبير فسار من المسجد إلى بيته واعتصم فيه وجمع إليه أصحابـه فاحتمى بهم وأخذ يلحُّ الوليد عليه بالحضور وهو يمتنع حتى إذا ما تكاثرت رسل الوليـد أرسل إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال له : لقـد أكثرت بـطلب عبد الله حتى أفـزعته فمـر رسلك أن ينصرفوا عنه وهو غداً يوافيك إن شاء الله فرضي بذلك وأمر رسله بـالإنصراف عن عبد الله بن الزبير وما خيم الغسق حتى فرّ عبد الله بن الـزبير وأخـوه جعفر إلى مكـة وليس معهما ثالث وفي ثاني يوم علم الوليد بهربهما فـأرسل رجـاله بـطلبهما فمـا عثروا عليهما وفي الليلة التالية هرب الحسين إلى مكة مصطحباً بنيه وإخوته وبني أخيه الحسن وجلّ أهل بيته إلاّ محمد بن الحنفية فقد قـال له يـا أخي أنت أحبُّ الناس إليَّ وأعـزُّهم عليَّ ولست أدخر النصيحة لأحـد من الخلق أحقُّ بها منـك تنحَّ ببيعتـك عن يزيـد وعن =

= الأمصار ما استطعت وابعث رسلك إلى الناس وادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك إنّي أخاف أن تأتي مصراً وجماعة من الناس فيختلفوا عليك فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة فإذا خير هذه الأمة كلّها نفساً وأباً وأمّاً وجداً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً فقال الحسين فأين أذهب يا أخي ؟ قال أنزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فبسبيل ذلك وإن تأت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي أصوب ما يكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها فأصغى الحسين إلى نصح أخيه ووعده باتباع رأيه وقصد مكة كرمها الله . أمّا عبد الله بن عمر بن الخطاب فأرسل إليه الوليد يطلب بيعته فقال أبايع إذا بايع الناس فتركه لأنّ الأمويين ما كانوا يتخوفونه .

وعندما بلغ سيدنا الحسين وأهله مكة هرع الناس للسلام عليه وأخذوا يختلفون إليه وكان عبد الله بن الزبير عندما بلغ مكة أعلن أنّه عائذ بالكعبة وصار لا يفارقها ليلاً ونهاراً إلاّ أنّه كان يختلف إلى سيدنا الحسين ويتظاهر بصحبته ولكنه كان يستثقل وجوده هناك لعلمه أنّ الناس لا يبايعونه ما دام الحسين بقربه .

أمّا أهل الكوفة فعندما اتصل بهم منعى معاوية وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة أرجفوا بيزيد واجتمعت شيعة سيدنا علي عليه السلام في منزل سليمان بن صرد الخزاعي وأقرّوا على بيعة الحسين والانتصار له وكتب زعماؤهم له الكتاب التالي « بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله ، الذي لا إله إلاّ هو ، أمّا بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبار العنيد ، الذي انتزى على هذه الأمة ، فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمّر عليها بغير رضى منها ، ثمّ قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وأنّه ليس علينا إمام ، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ ، والنعمان بن بشير في قصر الأمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » اهـ وقد أمضى هذا الكتاب سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجية ، ورفاعة بن شدّاد ، وحبيب بن مظاهر ، وغيرهم من رؤساء أهل الكوفة وأرسلوه مع عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن وال وما اكتفوا بهذا الكتاب حتى شفعوه بثانٍ =

=مثله وجهوه إليه بعد يومين وكتب الناس إليه كتباً خاصة بهذا المعنى بلغ عددها نحو مئة وخمسين كتاباً أرسلوها مع حامل الكتاب الثاني ثمَّ بعد يومين آخرين سيروا له كتاباً ثالثاً بالمعنى يشددون عليه بالقدوم إلى الكوفة ويعدونه بالنصرة ثمَّ كتب إليه شيث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي بذلك .

فلما انتهت رسل أهل الكوفة بعضها تلو البعض بهذه الكتب إلى سيدنا الحسين عليه السلام رأى أن يستوثق إلى نفسه من أمر أهل الكوفة بعد أن عرف حالهم مع أبيه عليهما صلوات الله فأرسل إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب لينظر إن كانوا كما كتبوا له عن إجماعهم على نصرته وصحبه بكتاب كتبه إليهم وهاك نصه « أمّا بعد ، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم ، وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليَّ أنّه قد اجتمع رأي ملئكم ، وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الإمام ، إلاَّ العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق ، والسلام » اهـ ولبث سيدنا الحسين عليه السلام في مكة ينتظر ما يكشف الله عليه بواسطة ابن عمّه مسلم بن عقيل .

سار مسلم بن عقيل إلى الكوفة مستخفياً ونزل في دار المختار وأقبلت عليه شيعة سيدنا علي عليه السلام وكان كلما اجتمع بطائفة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة . غير أنَّ أمر مسلم بن عقيل لم يظلَّ مكتوماً فعلم به النعمان بن بشير أمير الكوفة من قبل الأمويين وكان هذا حليماً ناسكاً يحبّ العافية فعلا المنبر والصلاة جامعة وقال « أمّا بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإنَّ فيهما تهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال ، ألا وإنّي لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب عليَّ ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرَّش بكم ، ولا آخذ بالقرف ، ولا المظنة ، ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم (ويريد يزيد بن معاوية) ، فوالله الذي لا إله غيره ، لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، وإن لم يكن لي منكم ناصر ولا معين ، أمّا وإنّي أرجو أن يكون من يعرف الحقَّ منكم ، أكثر ممن يرديه الباطل » وعندما انتهى النعمان بن بشير أمير الكوفة من خطابه قام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي وكان من شيعة بني أمية وقال=

= « لا يصلح ما ترى إلاّ الغشم ، إنّ هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين » فقال النعمان « لئن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأعزين في معصيته » ونزل عن المنبر . وإذ رأى عبد الله بن مسلم أنّ النعمان لم ينتصح بنصحه أسرع فكتب إلى يزيد بن معاوية يخبره بقدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليجمع كلمة أهلها على بيعة الحسين وختم كتابه بقوله « إذا كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوّك فإنّ النعمان رجل ضعيف أو هو يتظاهر بالضعف » ولم يكن عبد الله بن مسلم هذا هو الوحيد الذي تزلف إلى يزيد بهذه الفتنة بل تبعه في مثل ذلك كلٌّ من عمارة بن الوليد بن عقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وغيرهما ممن يطلبون المنافع لأنفسهم .

وعندما رأى مسلم بن عقيل إقبال الناس على بيعة سيدنا الحسين والتفافهم حوله وتراخي النعمان وضعفه كتب إلى سيدنا الحسين بواقعة الحال وقال له أنّ لديه ثمانية عشر ألفاً بايعوه على القتال ويستحثه على التعجيل بالمسير إلى الكوفة فلما انتهى إلى سيدنا الحسين كتاب عقيل أخذ يتحفز للمسير فجاءَه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنصحه أن لا يسير إلى العراق طالما عمّالها أمويون ومعهم مفاتيح بيت المال مذكراً له بأنَّ الناس عبيد الأموال فلا عجب إذا اشتراهم الأمويون بها فانقلبوا عليه وجاء ابن عباس فنصحه أن لا يسير إلى العراق إلاّ إذا كان العراقيون قد ثاروا على عمّالهم الأمويين وأجلوهم عن بلادهم وجاءَه بعد هذا عبد الله بن الزبير وسبق لنا القول أنّه كان يستثقل إقامته في مكة لعلمه أنَّ الحجازيين لا يبايعونه والحسين فيما بينهم فسأله أولاً عن مسيره ثمَّ قال له والله لو أنَّ لي شيعة كشيعتك في العراق لسرت إليها ثمَّ خاف أن يستغشه فقال ولو أردت أن تظهر الدعوة ههنا لبايعناك ونصحنا لك فقال الحسين « إنّ أبي عليه السلام حدثني أنَّ للكعبة كبشاً به تستحلُّ حرمتها فما أحبُّ أن أكون أنا ذلك الكبش » فقال عبد الله بن الزبير أقم هنا وولّيني أنا ويكون الأمر الأعلى لك في خلافتي فقال الحسين ولا أريد هذا أيضاً ثمَّ قال والله لئن أقتل خارجاً عن الكعبة بشبر أحبُّ إليَّ من أن أقتل فيها والله ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت فتركه الزبير وانصرف وما فات الحسين رغبة صاحبه بأن يخرج من الحجاز ليخلو بها له الجو . ثمَّ عاد إليه عبد الله بن عباس فألحَّ عليه بالإقامة بالحجاز وحاول كثيراً إقناعه بالعدول عن المسير إلى العراق فما رضي فعرض عليه أن يسير إلى اليمن فما قبل فقال له =

=عبد الله بن عباس إذن سافر بنفسك فلا تـأخذ معـك صبيتك ونسـاءَك مخافـة أن يقتلوك وهم ينظرون إليك فما سمع منـه وأصرَّ على المسيـر فقال لقـد أقررت عين ابن الزبيـر بخروجك من الحجاز وخرج من عنده غاضباً فمرَّ على عبد الله بن الزبير صدفةً فقال لـه وهو يتبسم :

يـا لـك مـن قـبّـرةٍ بـمـعـمـر   خـلا لـك الجـوُّ فبيضي واصفـري
ونقّري ما شئت أن تنقّري

فتبسم ابن الزبير وقـال لا تتمُّ الشطرة الأخيـرة فقال ابن العبـاس ومن يدري أنّهـا ستتم والشطرة الأخيرة هي :

« لا بدَّ من صيدك يوماً فاصبري »

ولندع سيدنا الحسين عليه‌السلام يتحفز للمسير إلى العراق ولنرجع إلى دمشق فقـد كان فيها يزيد كما سبق القول شديد الاضطراب والقلق من أمـر الحسين وعبد الله بن الـزبير وامتناعهما عن بيعته وهربهما إلى مكة المكرمة واعتصـامهما بـالكعبة المشـرَّفة والتفـاف الناس حولهما وبينما هو في مقعدٍ مقيم من أمـرهما وصلت إليـه كتب النفر الثـلاثة التي ذكرناها وعرف منها أنَّ الحسين يدعو إلى نفسه وأنَّ رسوله وابن عمّه مسلم بن عقيل في الكوفة يدعو الناس إلى بيعته وقد بايعوه فرأى أنّ خوفه من الفتنة في محلّه واستشار أحد موالي أبيه معاوية ويدعى سرجون وكان معاوية كثير الثقة بـرأيه فيمن يـولي على الكوفـة ويكون شديداً صلب العود فأشار عليه بعبيد الله بن زياد فرضيه مع أنّه كان حـاقداً عليـه طوعاً لرأي سرجون وولّاه الكوفة والبصرة فتـوجّه إلى البصـرة أولاً وكان سيـدنا الحسين كتب إلى أشـرافها يـدعوهم إلى كتـاب الله وسنّة رسـوله قـائلاً : إنّ السنـة قد مـاتت ، والبدعة قد أحييت . فكتم البصريـون جوابـه إلاَّ المنذر بن الجـارود فقد حسب جـواب الحسين دسيسةً من ابن زياد الذي كان قد بلغ البصرة في طـريقه إلى الكـوفة فسـار إليه بالكتاب وحامله فأمر ابن زياد بقتل حامـل كتاب الحسين وخـطب في الناس فقـال « أمّا بعد ، فوالله ما بي تقرن الصحبة ، وما يقعقع لي بالشنـآن ، وإنني لنكل لمن عـاداني ، وسلم لمن سـالمني ، وانصف الغارة من رامـاها ، يـا أهل البصـرة ، إنّ أميـر المؤمنين (ويريد يزيد بن معاوية) قد ولّاني البصرة والكوفة معاً ، وأنا غادٍ إلى الكوفـة بالغـداة ، وقـد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زيـاد ، فإيّـاكم الخلاف والإرجـاف ، فـوالله لئن بلغني عن رجل فيكم مخالف ولا مشاق ، وإنّي أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطىء =

أَوْ أَنَّــهُ مُـنْـفِــذٌ فِـيْـهَــا مُــؤَامَــرَةً   سَــوْدَاءَ يَعْلَمُ إِبْنُ ٱلْعَـاصِ مُنْشِيْهَــا

= الحصى ، فلم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم » اهـ فكان لخطابه هـذا تأثيـر على نفوس البصـريين أخافهم فلم ينـزعوا إلى نصـر سيدنـا الحسين وسار بعـد ذلـك ابن زيـاد إلى الكوفة .

ومن أغرب ما يروى أنَّ عبيد الله بن زيـاد عندمـا بلغ الكوفـة حسبه النـاس سيدنـا الحسين عليه السلام فأقبلوا عليه عنـد دخولـه وهم يقولـون مرحبـاً بك يـا ابن رسول الله ونحن أعوانك وبين يديك يا سيد شباب الجنة فساءَه ما رأى من تعلق الناس بسيدنا الحسين . وسمع النعمان بن بشير أمير الأمـويين في الكوفـة لغط الناس بـوصول الحسين واحتفـاء الناس به فأقفل باب الأمارة فرقاً واعتصم فيها فلما أقبل عبيد الله بن زياد على دار الأمارة جعل يطرق الباب فأطـلَّ عليه النعمـان وهو يحسب أنّـه الحسين وقال « أنشـدك الله ألاَّ تنحيت عنّي ، فوالله ما أنا بمسلم إليك أمانتي ، وما لي في قتـالك من حـاجة » فغضب عبيد الله بن زياد وقال له إفتح ويلك لا فتحت فما أنا بالحسين فسمع الناس قـوله وقـال بعضهم لبعض ويلكم مـا هذا بـالحسين وانصرفـوا وفتح النعمـان لعبيد الله فـدخـل دار الأمارة واختليا فيها وهناك أبلغه نبأ عزله .

وفي صباح اليوم التالي خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد الكوفي فصلّى بالناس ثمَّ علا المنبر خـطيباً فقـال « أمّا بعـد فإنَّ أميـر المؤمنين (ويريـد يزيـد) ولاّني مصركم وثغـركم وفيئكم ، وأمرني بـإنصاف مـظلومكم ، وإعطاء محـرومكم ، وبالإحسـان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبـالشدّة على مـريبكم وعاصيكم ، وأنـا متبع فيكم أمـره ، ومنفّذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد ، ولمطيعكم كالأخ الشفيق ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ،فليبق كل امرىءٍ على نفسه» ونزل وقد ترك النـاس في وجل من تهديده ووعيده .

وأخـذ عبيد الله النـاس على التهمة وجعـل يشـدّد على من يـظنُّ بهم الميـل إلى الحسين عليه السلام وينكل بهم تنكيلاً أما مسلم بن عقيل الذي كان مختفيـاً في الكوفـة فصار يرى أنّ الناس يتضايقون من إقـامته بينهم فخـرج من دار المختار التي كـان فيها وقصـد هانىء بن عروة المرادي فدخل داره فكره هذا ضيافتـه وقال لـه لقد كلفتني شـططاً ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني غير أنّه يأخذني من ذلك ذمام فأقم عندي وهكذا أقام مسلم بن عقيل في دار هانىء مختفياً والشيعة تختلف إليه سـرّاً ويتآمـرون على ابن =

لِــذَا بِــهِ حَسَنٌ نَــادَى فَــلَا تَــرِدَ   نَّ ٱلْمَـاءَ حَتَّى تُلَاقِيْ ٱلنَّـارَ تَصْلِيْهَـا

=زياد الذي كان دائم السهر على ما يجري حوله في طي الخفاء وما زال يتجسس أخبار مسلم بن عقيل حتى عرف أنّه يقيم في دار هانىء فاستدعاه إليه واتهمه بالميل إلى العلويين وشدَّد عليه بتسليم مسلم بن عقيل نزيله فأبى فضربه عبيد الله بن زياد بيده فهشم وجهه وقامت الفتنة في الكوفة وكادت شيعة سيدنا الحسين تتغلب على ابن زياد لو لم يكن هذا مستوثقاً من أشراف البلد بما أدرَّه عليهم من الأموال فخرج هؤلاء إلى الناس وفرقوهم بحيث لم يبق مع مسلم بن عقيل غير ثلاثين نفراً بعد أن كانت البلد بجملتها معه حينئذٍ هرب إلى بيت عجوز فأوى إليه ولكن ابنها في اليوم التالي أوصل خبره إلى ابن زياد فأرسل هذا سبعين رجلاً من مقاتلته إلى بيت العجوز فحاربهم مسلم بنفسه ونكل بكثيرين منهم ولكن كثرتهم تغلبت عليه فأوصلته إلى ابن زياد مهشماً فأمر بقتله فقتل . على أنَّ مسلم بن عقيل في أثناء هذه الشدَّة وبعد أن رأى أنّ الناس خذلته استطاع أن يرسل رسولاً إلى سيدنا الحسين يخبره بأن يعدل عن القدوم إلى الكوفة لتمكن ابن زياد من استمالة أشرافها إليه بالأموال وذلك أنَّ مسلم بن عقيل عندما تغلب عليه رجال ابن زياد واحتملوه على بغلةٍ دمعت عيناه فقال له محمد بن الأشعث وكان على رأس رجال ابن زياد ما الذي يبكيك والقوم (ويريد بنو أمية) بنو عمك وليس بقاتليك ؟؟ فقال ولكن تسليمي أول غدركم بي ثمَّ بكى فقال عبيد الله بن عباس السلمي وكان مع رجال ابن زياد من يطلب مثل طلبك لا يبكي إذا نزل به ما نزل بك فقال ما أبكي لنفسي ولكن أبكي لأهلي المنقلبين إليكم أبكي للحسين وآل الحسين ثمَّ مال إلى محمد بن الأشعث وكان قد أمنه حتى استسلم إليه إنّي أراك لتعجز عن أماني وحقن دمي فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عنّي ليرجع بأهل بيته ولا يغرّه أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو بالقتل ؟ فقال له ابن الأشعث والله لأفعلنَّ وقد برَّ هذا الرجل وكتب إلى الحسين بما أوصاه به مسلم وأرسل كتابه إليه مع رسول خاص رغماً عن الشدة التي كان يبديها الملعون ابن زياد ضد أنصار الحسين .

وقتل ابن زياد بعد مسلم بن عقيل هاني الذي كان مسلم نزيله وأرسل برأسيهما إلى يزيد فكتب له هذا يشكره ويوصيه بالسهر على البلاد ومحاربة الحسين إذا قصدها بكل شدّةٍ وبلا رحمةٍ .

أمّا سيدنا الحسين عليه السلام فقد خرج من مكة يوم التروية (يوم الجمعة ٨ ذو الحجة=

ثُمَّ نَضَى سَيْفَهُ حَالاً وَأَوْقَعَهُ مَا فَوْقَ هَامَتِهِ إِذْ آضَ فَارِيْهَا

=قيل له ذلك لأنّهم كانوا يرتوون فيه) سنة ٦٠ للهجرة فاعترضه جماعة عمر بن سعيد بن العاص أمير الحجاز من قبل الأمويين وكان على رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص فقاتلهم الحسين وفتح لنفسه طريقه ومضى حتى إذا ما بلغ التنعيم رأى هناك عيراً مرسلة من اليمن إلى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل فأخذها وخير أصحاب الإبل أن يسيروا معه إلى العراق بأجرتهم أو أن يعودوا أدراجهم بما يستحقون من الأجرة ففارقه بعضهم وماشاه البعض . ولما انتهى الحسين إلى الصفاح لقيه الفرزدق الشاعر فدعا له بالنصر وأخبره بأن قلوب أهل العراق معه وسيوفهم مع بني أمية . ولما بلغ الحسين الحاجر كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي يعرّفهم بقدومه ويأمرهم بالجد في أمرهم ولما بلغ رسوله القادسية قبض عليه الحصين بن نمير التميمي وكان صاحب شرطة ابن زياد في الكوفة وقد أوفاه هذا إليها لترصّد الحسين بعد أن بلغه نبأ خروجه من مكة قاصداً الكوفة فأرسله مع الكتاب إلى ابن زياد فمزّق هذا كتاب الحسين وقتل حامله .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام أقبل نحو الكوفة فانتهى إلى ماء من مياه العرب فإذا عليه عبد الله بن مطيع فرحب هذا به وقال بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك ؟ وحاول كثيراً أن يثنيه عن عزمه فما أفلح . وعندما بلغ سيدنا الحسين الثعلبية أتاه رسول محمد بن الأشعث ونقل إليه كلام مسلم بن عقيل وما جرى له فما ثنى هذا عزيمته وواصل السير فكان كلما مرّ على عين ماء اتبعه من عليها فلما وصل إلى الزيالة بلغه أنَّ ابن زياد قد تمكن من رقاب الناس ولا يرجى أن ينصروه فأعلم الناس بذلك وقال لهم قد خذلتنا شيعتنا فمن شاء فليبق معنا ومن شاء فلينصرف فانصرف عنه كل الذين مشوا معه في طريقه وهم يظنون أنّه سائر إلى بلد قد استقام له أهله ولم يبق معه غير الذين خرجوا معه من مكة فاستأنف بهم السير حتى وصل بطن العقبة فلقيه رجل من العرب فأخبره أنّه قادم على الأسنة والسيوف وطلب منه أن يعود فما سمع له وواصل السير حتى إذا ما اجتاز شراف وقد انتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مما كبرت ؟ قال رأيت النخل فقال رجلان من بني أسد ما بهذه الأرض نخلة قط فقال الحسين فما هو ؟ فقالا لا نراه إلاّ هوادي الخيل فقال وأنا أيضاً أراه كذلك أما لنا ملجأ نلجأ إليه ونجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجهٍ واحدٍ ؟ فقالا بلى هذا ذو جشم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد فمال إليه فما كان بأسرع من أن طلعت=

فَخَرَّ حَالاً صَرِيْعَاً لاَ حَيَاةَ بِهِ   مُضَرَّجَاً بِدِمَاهُ غَائِصَاً فِيْهَا

= الخيل وعدلوا إليهم فسبقهم الحسين إلى الجبل فنزل فيه وجاء القوم وهم ألف فارس بقيادة الحرّ بن يزيد التميمي فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحو الظهيرة فأمر الحسين أن تسقى الخيل فسقيت ثمَّ نظم أصحابه صفوفاً وإذا بصلاة الظهر قد حضرت فأذّن المؤذن ووقف الحسين بالناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيّها الناس ، إنّها معذرة إلى الله وإليكم ، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم : أن أقدم إلينا ، فليس لنا إمام ، لعلَّ الله أن يجعلنا بك على الهدى ، فقد جئتكم ، فإن تعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم ، أقدمِ مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم بمقدمي كارهين ، انصرفت عنكم ، إلى المكان الذي أقبلت منه » قال هذا سيدنا الحسين وهو ينظر في وجوه الناس فما كان فيهم مجيب وبعد سكوت قصير قالوا للمؤذن أقم فأقام الآذان وصلّى سيدنا الحسين بالناس فصلّى معهم الحر ورجاله وبعد الصلاة خلا بكثيرين من وجوه الناس يذاكرهم بالأمر ثمَّ أقام صلاة العصر كلّ هذا والحرّ بن زياد وجماعته مع الحسين لا يبادئونه العداء وهو عليه السلام يحسب أنّهم من أهل الكوفة وقد جاءوا لنصرته غير أنَّ الحرّ بن يزيد سأل الحسين عن الكتب التي ذكر غير مرَّةٍ أنّها وصلته من أهل الكوفة فأخرج له خرجين ممتلئين كتباً فنظر الحرّ في تلك الكتب قليلاً وقال : نحن لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك نحن رجال ابن زياد وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ومال إلى أصحابه فأمرهم أن يركبوا الخيل ليقفل بهم راجعاً إلى الحجاز فمنعهم الحرّ من الرجوع وتجادلا ملياً في الكلام ثمَّ اتفقا على أن يأخذ الحسين طريقاً لا تؤدي إلى الكوفة أو الحجاز ريثما يكتب إلى ابن زياد ويرى رأيه على أن يظلَّ بأصحابه حارثاً له . فأخذ سيدنا الحسين عليه السلام طريق العذيب والقادسية حتّى انتهى إلى عذيب الهجانات فإذا بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على هجنهم فأخبره أحدهم وهو مجمع بن عبيد العامري فقال : أمَّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم فهم ألب واحد عليك وأمّا سائر الناس بعدهم فإنَّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهرة عليك . وقال له الطرماح بن عدي وهو ثانيهم والله ما أرى معك كثير احد ولو لم يقاتلك إلاّ هؤلاء الذين يلازمونك لكفى وقد رأيت في الكوفة قبل خروجي جموعاً كثيفة تتهيأ لقتالك والرأي عندي أن تسير معنا إلى أجا فنمنعك فيه ونستدعي طي لنصرك فتلبيك وأنا ضمين أن يأتيك منهم عشرون ألف مقاتل فأبى الحسين دعوته وشكره . وانصرف النفر الأربعة عنه وهم =

فَٱسْتَقْبَلَتْ رُوْحَهُ أَهْلُ ٱلْجَحِيْمِ وَأَلْـــقَتْهَا لِنِيْرَانِـهِ ٱلْحَمْرَا لِتَشْـوِيْهَـا

= وجلون عليه .

ثمَّ سار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل فرأى هناك عبيد الله بن الحرّ الجعفي فطلب نصرته فرفض قائلاً ما تركت الكوفة إلاَّ مخافة أن تدخلها وأنا فيها ثمَّ استأنف الحسين السير وكان قد هجم الليل فما هي إلاَّ ساعة حتى غفا غفوةً وهو على ظهر جواده ثمَّ انتبه لنفسه فحمدل واسترجع فسمعه ابنه علي بن الحسين فدنا منه بجواده وقال : فدتك نفسي ما الذي جرى ؟ قال الحسين : لقد غفوت فعنَّ لي فارس على فرس فقال « القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم » فعلمت أنَّ أنفسنا قد نعيت إلينا فقال علي بن الحسين : يا أبت لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحقّ ؟ قال بلى والذي يرجع إليه العباد قال إذن لا نبالي أن نموت محقين فقال الحسين : جزاك الله من ولدٍ خيراً ما جزى ولداً عن والده .

وظلَّ سيدنا الحسين سائراً طول ليله إلى الصباح حيث نزل بمن معه فصلّى بهم الفجر ثمَّ عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم فتصدَّى له الحرّ يريد أن يمنعه عن رغبته وما زالا يتشادان والناس سائرون حتى بلغوا نينوى فنزلوا هناك وبعد قليل أقبل فارس من الكوفة وأعطى الحرَّ كتاباً من ابن زياد فإذا فيه « أمّا بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلاَّ بالعراء ، في غَير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام » اهـ . حينئذٍ انقلب الحرّ من مسلمٍ يحترم ابن رسول الله إلى وحش ضارٍ وأمر سيدنا الحسين عليه السلام أن يتبعه إلى العراء فجعل يلحّ عليه أن يبقى في نينوى أو يسير إلى الغاضرية أو شقية وإذ لم يرقّ الحرّ لملتمس الحسين أشار عليه أحد أصحابه وهو زهير بن القين بأن يقاتل الحرّ قائلاً أنَّ قتاله مع من معه أهون من قتال الذين وراءهم فأبى الحسين قائلاً لا أبدأهم بالقتال قال إذن سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنّها حصينة وهي على شاطىء الفرات فقال الحسين وما هو اسمها قال العقر قال اللهمَّ إنّي أعوذ بك من العقر وأبى المسير إليها . وكان وذلك يوم الثلاثاء السابع من محرَّم سنة ٦١ للهجرة .

أمّا ابن زياد فعندما أرسل رسوله بكتابه إلى الحرّ أسرع فأرسل عمر بن سعد بن أبي وقاص بالمسير لمقاتلة الحسين بأربعة آلاف مقاتل فلما انتهوا حيث ابن رسول الله =

بِهَـا شَيَـاطِيْنُـهُ قَـدْ رَحَّبَتْ وَغَـدَتْ   لِهَـا وَمِنْهَـا وَمَعْهَـا فِيْ مَخَـازِيْهَـا

= نازل أرسل إليه عمر رسولاً يسأله عن مقدمه فأجابه قائلاً كتب إليَّ أهل مصركم هـذا أن أقدم عليهم فإذا كانوا قد كرهوا مقدمي فانصرف عنهم فأرسل عمـر بجواب الحسين إلى ابن زياد فكتب إليه هذا يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فإذا قبـل ينظر في أمـره وأن يمنع عنه الماء فلما انتهى كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد أرسل عمراً بن الحجاج على خمسماية فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين والماء حتى إذا مـا عطش الحسين وأهله وأصحـابه أمـر الحسين أخـاه العبـاس بن علي فسـار في عشـرين راجـلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء وقاتلوا عليه وملأوا قربهم وعادوا وفي اليوم الثاني بعث الحسين ابن قرظة بن كعب الأنصاري إلى عمـر بن سعد يـطلب مقابلتـه في الليل بين المعسكرين وبالفعل تقابلا وكان ذلك في الليلة الـثانية التي منـع عن الحسين وأصحابه الماء فيها وتحادثا طويلاً ليجدا للمشكلة حلاً فإذا عمر لا يـرضى إلاّ أن يبايـع الحسين يزيد والحسين يرى الموت أهون من بيع دينه ببيعة يزيد على أنّه كان يطلب أن يدعوه فيعود إلى الحجاز ثمَّ تكـررت هذه المقـابلات وقـال الناس إنّ الحسين طلب أن يسير إلى يزيد في دمشق ويتفق معه على رأي أو أن يسير إلى أي ثغر من ثغور المسلمين ويكون واحداً من أهله إلاَّ أنَّ أهل الثقة من المؤرخين ينفون هذا . والظاهر أنّ عمـر بن سعد كان يميل إلى مساعدة الحسين والسماح له بالرجوع إلى الحجاز وكتب بذلـك غير مرة إلى ابن زياد في الأيام الثلاثة التي منع الماء فيها عن الحسين . فلما وقف ابن زياد على ما دار بين عمر والحسين نادى شمر بن ذي الجـوشن وقال لـه أخرج بهـذا الكتاب إلى عمـر فليعرض على الحسين وأصحـابه النـزول على حكمي فـإن فعلوا فليبعث إليَّ بهم سلماً وإن أبوا فليقاتلهم فإن فعل (ويريد عمر بن سعد) فاسمـع له وأطـع وإن أبى فأنت الأمير عليـه وعلى الناس واضـرب عنقه (عنق عمـر) وابعث إليَّ برأسـه وكان في كتاب ابن زياد إلى عمر ما يأتي « أمّا بعد ، فلم أبعثك إلى الحسين ، لتكفَّ عنـه ، ولا لتمنيـه ، ولا لتطاولـه ، ولا لتقعد لـه عنـدي شفيعـاً ، أنـظر فـإن نـزل وأصحـابـه على حكمي ، واستسلمـوا لي ، فـابعث بهم إليَّ سلمـاً ، وان أبـوا فـازحف إليهم ، حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنّهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين ، فاوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنّه عاقٌ شاقٌ ، قاطـع ظلوم ، فإن أنت مضيت لأمـرنا جـزيناك جـزاءَ السامـع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا ، وخلّ بين شمر وبين العسكر ، والسلام » .

سار شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد وسـار معه عبـد الله بن أبي المحل بن =

= خزام فأخذ هذا من ابن زياد أماناً للعباس وعبد الله وجعفر وعثمان أولاد سيدنا علي عليه السلام من عمته أم البنين بنت خزام بصفته خالهم . ولما انتهى شمر وعبد الله بن خزام إلى عمر بن سعد أسرع عبد الله فأرسل كتاب الأمان إلى من ذكرنا من أولاد سيدنا علي عليه السلام مع رسول فرفضوه قائلين أمان الله خير من أمان ابن سمية (أي معاوية) أمّا شمر فسلم كتاب بن زياد إلى شمر فقرأه هذا وارتجفت فرائصه وقال له : ما لك ويلك ؟ قبّح الله ما جئت به ، والله إنّي لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كنت كتبت إليه به ، فقد أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم الحسين أبداً والله إنّ نفس أبيه لبين جنبيه . فقال له شمر أحسب ما شئت وقل لي ما أنت صانع الآن ؟ فاستعاذ عمر بن سعد في سرّه من شرٍّ ما هو مقدم عليه وحبّ الدنيا غالب على نفسه وقال أتولى ذلك . وعندما سمع عبد الله بن خزام أنَّ حرب الحسين واقعة لا محالة أسرع إلى معسكر سيدنا الحسين عليه السلام ودعا العباس ابن سيدنا علي وإخوته إليه فجاءوه فقال أنتم يا بني عمتي آمنون فدعوا الحسين وسيروا معي فقالوا بصوت واحد : لعنك الله ولعن أمانك لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟؟ فرجع عبد الله مخذولاً إلى صاحبه شمر .

وفي عصر الخميس تاسع محرَّم ركب عمر بن سعد وشمر والناس معهما قاصدين معسكر سيدنا الحسين عليه السلام وقد كان الحسين وقتئذٍ جالساً أمام خيمته محتبياً بسيفه فغفت عيناه وسقط رأسه على ركبته بينما كان الأعداء يقصدونه فسمعت زينب بنت علي ضجيج الهاجمين فأسرعت لأخيها الحسين فألفته غافياً ورأسه على ركبته كما تقدم فأيقظته فقال لها : رأيت جدي رسول الله في الحلم فقال إنّك تروح إلينا . فلطمت زينب وجهها وقالت يا ويلتاه . قال ليس لك الويل يا أخية اسكتي رحمك الله . وبينما كان الحسين يخاطب أخته وإذا بأخيه العباس أقبل عليه وقال : انظر قد أتاك الناس . فنهض عليه السلام وقال يا أخي لأركب بنفسي فقال العباس بل أروح أنا . فقال الحسين إركب أنت حتى تلقاهم فاسألهم ما بدا لهم وعمّا جاءَ بهم فأتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين فسألهم عن مقدمهم فقال عمر بن سعد إنّ ابن زياد أمرنا أن ينزل الحسين ومن معه على حكمه فيسيرون إليه سلماً أو نكرهه على التسليم على شفار السيوف فقال أمهلوني ريثما أرجع إليه بالخبر وأرى رأيه فيه فقبلوا وعاد إلى الحسين مبقياً أصحابه بين أعداء الله ورسوله يذكرونهم الله وكتابه وعاقبة ما هم قادمون عليه . =

وَٱلْجُثَّةُ ٱسْتَوْهَبَتْهَا أُمُّ هَيْثَمَ ثُمَّ أَحْرَقَتْهَا وَكَانَ ٱلرِّيْحُ ذَارِيْهَا

= أمّا العباس فأسرع على جواده إلى أخيه الحسين فأطلعه خبر القوم فقال له عليه السلام : ارجع إليهم فإن استطعت تؤخرهم إلى غدوة لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم إنّي كنت أحبُّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والإستغفار فرجع العباس بأمر أخيه حتى إذا ما بلغ موقف القوم دنا من عمر بن سعد وقال له ارجع برجالك عنا العشية حتى ننظر في هذا الأمر فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله فإمّا رضينا به وإمّا رددناه . فمال عمر بن سعد إلى شمر وقال له ما ترى في هذا ؟ فقال شمر أنت الأمير والرأي لك . فأقبل عمر بن سعد على الناس وهو يتمنى أن ينتهي الخلاف بغير أن يتعرَّض لأعظم إثم في محاربة سيدنا الحسين وقتله وقال لهم : إنّ الحسين يستمهلنا إلى الصباح فما ترون ؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي : سبحان الله ، والله لو كان من الديلم ثمَّ سألكم أن تمهلوه إلى غده ، لكان ينبغي لكم أن تجيبوه . وقال قيس بن الأشعث بن قيس : أجبه إلى ما طلب ، لعمري ليصبحنك غدوةً بالقتال . فرجع عمر بالناس إلى معسكرهم ينتظر الغد .

أمّا سيدنا الحسين عليه السلام فجمع أصحابه حوليه ووقف فيهم خطيباً فقال : أثني على الله أحسن الثناء ، وأحمده على السرَّاء والضرَّاء ، اللهمَّ إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوَّة ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدةً ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، فاجعلنا لك من الشاكرين ، أمَّا بعد ، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أخير من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عنّي خيراً ، ألا وإنّي لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإنّي قد أذنت لكم جميعاً ، فانطلقوا في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، وليأخذ كلُّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً ، ثمَّ تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرّج الله ، فإنَّ القوم يطلبوني ، ولو أصابوني لهوا عن غيري »اهـ . وبعد أن انتهى من خطابه نظر إليهم ليرى رأيهم . فقال له إخوته وأبناؤه وأبناءُ إخوته وأبناء عبد الله بن جعفر : لا نفعل هذا لنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً . فقال الحسين يا بني عمّي عقيل بن أبي طالب ، حسبكم قتل مسلم بن عقيل ، اذهبوا فقد أذنتُ لكم . قالوا فما نقول للناس ؟ أنقول تركنا شيخنا ، وسيدنا ، وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرمِ معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب=

=بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ؟؟؟؟ لا والله لا نفعل ، ولكنا نفديك بأنفسنا ، وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك ، حتى نرد موردك ، فقبّح الله العيش بعدك . وتقدَّم منه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقّك ؟ أمّا والله لا أفارقك ، حتى أكسر في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي ،لقذفتهم بالحجارة دونك ، حتى أموت معك . وتكلم بقية أصحابه بنحو هذا فشكرهم الحسين وصرفهم وهو مستسلم لقضاء الله وقدره وعاد إلى خبائه يحيي ليله بالصلاة والدعاء .

لم ينم سيدنا الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء وكيف ينام وهو يعرف أنّه بعد ساعات سائر بإخوته وبنيه وأقربائه الأدنين إلى المنية لكثرة الأعداء وخيبة الأمل بالأصدقاء فصلّى إلى الله طويلاً ودعا كثيراً وطلب الرحمة والغفر والشهادة والأجر وما زال كذلك إلى منتصف الليل فاستند إلى وسادته وأنشد :

يا دهر أفٍّ لك من خليلِ ۞ كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ ۞ والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنّما الأمر إلى الجليلِ ۞ وكل حيٍّ سالك السبيلِ

ثمَّ بكى قليلاً لا عن جزع ولكن على هذا الإنسان الذي أبى إلاَّ أن يظلم أخاه الإنسان وعاد فكرر هذه الأبيات ثانياً وثالثاً وسمعت أخته السيدة زينب بكاءَه ونشيده فلم تملك نفسها فدخلت عليه وهي تقول : واثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمي ، وعلي أبي ، ومحمد جدّي ، والحسن أخي ، آه يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي ، إلى ماذا أنت صائر ؟ فنظر إليها سيدنا الحسين بقلب يقطر دماً وقال : صبراً يا أخيَّة لا يُذهبنَّ حلمك الشيطان . قالت استقتلت بأبي أنت وأمي ، نفسي لنفسك فداء ، فردّد سيدنا الحسين عليه السلام غصته وترقرقت عيناه بالدموع وقال : لو ترك القطا لنام فلطمت السيدة زينب وجهها وقالت : واويلتاه ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أفزع لقلبي ، وأشدُّ على نفسي . قالت هذا ولطمت وجهها ، وشقت جيبها ، وخرَّت على الأرض مغشياً عليها . فحوقل سيدنا الحسين واسترجع ونهض إليها وصبَّ على وجهها الماء وما زال يعالجها حتى أفاقت فقال : اتقي الله ، وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أنَّ أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأنَّ كلَّ شيءٍ =

بِـذَا حَيَـاةُ أَشَـرِّ ٱلنَّـاسِ أَجْمَعِهَـا   قَـدِ ٱنْتَهَتْ إِنَّمَـا ظَلَّتْ مَسَـاوِيْهَـا

= هـالك إلاّ وجـه الله ، جدّي خيـر مني ، وأبي خير مني ، وأمّي خيـر مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول الله أسوة . ومازال عليه السلام يلطف مصابها بمثل هـذه الأقوال العذبة حتى أنس منها التجمل فقال لهـا : يا أخيَّـة ، فإنّي أقسم عليـكِ ، أن لا تشقّي عليَّ جيبـاً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تـدعي عليَّ بالـويل والثبـور ، إن أنـا هلكت . وبعد هذا أرجعهـا إلى خباء النسـاء وهي في أشدّ الجـزع وجلس لنفسه فبكى قليـلاً على حال النسـاء اللواتي معـه ذاكـراً نصيحـة عبـد الله بن عبـاس أن لا يصحبهنَّ وقال : إنّه القضاء ولا رادٌّ لما قضى به الله . ثمَّ عاد إلى الصلاة فأحيـا بقية ليله مصليـاً ساجداً داعياً مسلماً أمره وأمر أهله إلى الله . وهكـذا أحيا بقيـة أصحاب الحسين ليلتهم بالدعاء والاستغفار والصلاة إلى الصباح وهم لا يجهلون ما خبأه لهم القضاء .

وعندما انبثق نور فجر اليوم الأسود يـوم عاشـوراء من سنة ٦١ للهجـرة وهو اليـوم الـذي لـه كـل محبّ لـرسـول الله وآل البيت الـطاهـر ينفجـع قلبـه وتنكسـر نفسـه خرج عليه السلام إلى أصحابـه فأمـرهم أن يدنـوا خيامهم بعضهـا من بعض ويحيطوا بـالخيام وهي وراءَهـم ويستقبلوا الأعداء بوجوههم فعملوا بأمره واستعدوا للقتـال فجعل زهيـر بن القين في ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهـر في ميسرتهم وأعـطى رايته إلى أخيـه العباس وكان كل من معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فقط بينما كان يربو عدد جيش ابن الزياد الذي يقوده عمـر بن سعد على الأربعـة آلاف . وأمر سيـدنا الحسين أصحـابه أن يجمعوا حطبـاً وقصباً في مكـان منخفض كان وراء مخيمهم ففعلوا فـأمر بشعله لحمـاية قفوتهم .

أمّا عمر بن سعد فإنّه عند الصباح صلّى بالنـاس ثمَّ خرج بهم للقتـال فجعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزدي . وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس . وعلى ربع مذحـج وأسد عبـد الرحمن بن أبي سبـرة الجعفي . وعلى ربع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرياحي وهـو الذي تصـدى للحسين ومنعه من الـرجوع . وكـان عمـرو بن الحجاج الـزبيدي على ميمنـة عمـر بن سعـد . وعلى ميسـرتـه شمـر بن ذي الجوشن الذي انتـدبه الملعـون ابن زياد لمـراقبة تنفيـذ هذه الجـريمة الفـظيعة . وعلى الخيـل عروة بن قيس الأحمسي . وعلى الـرجـال شيث بن ربعي اليـربـوعي التميمي . وأعطيت راية الإثم والشـرّ والكفر إلى دريـد . وكان عـدد المقاتلين الأشـرار يربـو على =

= الأربعة آلاف مقاتل . وهنا لا يسع المؤرخ المنصف إلَّا أن يبدي الدهش والاستغراب من تجمع هذه الجموع الكثيفة بهذا الاستعداد الحربي العظيم لمقاتلة فئة قليلة لا يربو عدها على الإثني والسبعين رجلاً فقط كانوا نازلين تحت الخيام في أرض جرداء فهل سمع الأولون والآخرون بجريمة كهذه وهل كان يخطر على قلب بشر أنَّ قوماً من المسلمين يهاجمون البقية الباقية من آل رسول الله ووصيه عليهما الصلاة والسلام فيوقعوا بهم بمثل هذه الوحشية . لا والله لا يستطيع العقل البشري أن يحدّ مبلغ بشاعة هذه الجريمة وفظاعتها بل ان يدي لترتجف وهي تلخص حوادثها ودموعي لتنهلُّ على القرطاس فتمحو الحروف التي أكتبها وفؤادي يتقطر حزناً وألماً وأنا أدون وقائعها الفظيعة ولا أعرف كيف أعبر عن فظاعة هذه الموقعة التي أقلُّ ما يقال فيها انها غدر وكفر . وليت شعري ما كان يضرّ هؤلاء القوم وابن زياد في الكوفة على رأسهم ويزيد في دمشق ولي أمرهم لو تركوا سيدنا الحسين يرجع بأهله وأولاده وإخوانه وأصحابه من حيث أتوا كما كان يطلب منهم عليه السلام وقد يقال أنّهم كانوا يخافون أن يثير على يزيد المتغلب على الخلافة فتنةً جديدةً في موضع آخر وهذا كل حجتهم ولكن التجربة علمتهم أنَّ السيادة لمن معه المال وأنّهم طالما هم قابضون على بيت مال المسلمين ينفقونه جزافاً على الذين يبيعون آخرتهم بدنياهم وكثيرٌ هم فلا خوف عليهم من محارب ولا هم يحزنون حتى لو كان ابن رسول الله بل لو كان رسول الله نفسه عليهما الصلاة والسلام . وبعد هذه التجربة التي جربها معاوية غير مرة ونجحت أما كان خليق بهم أن يظهروا شيئاً من التدين والورع والاحترام لشخص رسول الله بالإبقاء على ذريته الطاهرة وفتح الطريق لها لترجع أدراجها من حيث أتت ؟ انهم لو فعلوا هذا لما كان من المستحيل عليهم الاحتفاظ بدنياهم واستجلاب رضاء سيدنا الحسين وآل البيت الطاهر بالأمر الواقع ولا سيما بعد أن علم بالإختبار بأن أصحابه لا يركن إليهم طالما يسهل على يزيد وعمّاله أن يشتروا ذممهم بالأموال كما جرى في الكوفة . ومن ثمَّ ما كان يجهل يزيد بن معاوية وعمّاله قاتلهم الله أنَّ سيدنا الحسين عليه السلام ليس وحده المطالب بالخلافة بل هنالك آخرون يرونه مغتصباً للخلافة ويطمعون بها وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير ونعم إنّ هؤلاء ليس لهم من الشأن والنفوذ في الإسلام ما لآل البيت الطاهر ولكنهم على كل حال أصحاب كلمة عليا في الإسلام ما كان يجهلها الأمويون وجرت بالفعل إذ قام عبد الله بن الزبير بالدعوة للخلافة وحارب الأمويين السنوات الطويلة كما رأينا في=

فَكَــانَ أَهْـوَنَهَــا أَنَّ ٱلْخِـلَافَــةَ بَــا　　تَتْ لِٱبْنِ حَرْبٍ فَأَمْسَى وَهْـوَ رَاعِيْهَا
عَنْهَــا تَخَلَّى لَــهُ فِيْ رَغْمِــهِ حَسَنٌ　　مِنْ بَعْـدِ سِتِّ شُهُـوْرٍ مِـنْ تَـوَلِّيْهَـا

= ترجمته . ولكنَّ لله أحكاماً نجهل حكمتها فقد سمع الله سبحانه بهذه الجريمـة الفظيعـة بقضاء وقدر ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

رأى سيدنا الحسين عليه السلام أعداء الله ورسوله متحفزين لمهـاجمته فـاغتسل وتعـطر استعداداً للموت وخرج فركب جواده ودعا بالقرآن فوضعه أمامه ودعا النفر الـذي حوليـه إلى الاستشهاد فلبّوا مشهري سيوفهم فـرفع يـديه إلى السمـاء وقال : اللهمَّ ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدَّةٍ ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقةً وعدَّةً ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد ، وتقلُّ فيـه الحيلة ، ويخذل فيـه الصديق ، ويشمت بـه العدو ، أنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبةً فيك ، عمّـا سواك ، ففـرجته ، وكشفتـه ، وكفيتنيه ، فـأنت ولي كـل نعمـة ، وصـاحب كـل حسنـة ، ومنتهى كـل رغبـة ، سبحـانـك أرحم الراحمين ، ثمَّ أمر سيـدنا الحسين بـالاستعداد للقـاء الأعداء على أن لا يبـدأهم القتال بينما كان لسان النار يندلع من وراء خيامه كما سبقت الإشارة .

أمّا أصحاب عمر بن سعد فإذ رأوا النار تلتهب وراء خيام الحسين أظهروا الدهشة وهجموا على معسكره حتى إذا ما دنوا من الحسين وأصحـابه قـال شمر مخـاطباً سيـدنا الحسين « تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة » فعرفه وقـال : « أنت أولى بها صليـاً » ثمَّ تقدَّم من أعدائه بقلبٍ قُدَّ من الحديد وصـاح بهم بصوتـه الجهير بحيث يسمعـونه كلهم فقال : « أيّها الناس ، اسمعوا قولي ، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يجب لكم عليَّ ، وحتى أعتــذر إليكم من مقــدمي عليكم ، فــإن قبلتم عــذري ، وصــدقتم قــولي ، وأنصفتموني كنت بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليَّ سبيل ، وان لم تقبلوا مني العذر ، فـاجمعـوا أمـركم وشـركـاءكم ، ثمَّ لا يكن أمـري عليكم غمــة ، ثمَّ اقضـوا عليَّ ولا تنـظرون ، انَّ وليي الله ، الذي نـزَّل الكتاب ، وهـو يتولى الصـالحين » ولما انتهى إلى هذا المقام من قـوله ارتفعت أصـوات النواح والعـويل والـولاويل من خيـام الحسين من أخواته ونسائه وبناته فدوت بآذان الجميع فنادى سيـدنا الحسين أخـاه العباس وابنـه علياً وأمرهما أن يذهبا إليهنَّ ويسكتاهنَّ وقال لعمري ليكثر بكاؤهنَّ بعد اليوم فلما ذهبا قال : صدق عبد الله بن عباس فقد نصحني أن لا أذهب بهنَّ ولكن هذا أيضاً بقضـاء الله ومن كان يعلم ان الناس يطلبوني ويتعهدون بنصرتي ثمَّ ينقلبون عليَّ ؟؟ . =

= وصبر سيدنا الحسين عليه السلام قليلاً ريثما سكتت النساء في الخيام فعاد إلى مخاطبة الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد وعلى الملائكة والأنبياء وقال ما لا يحصى كثرةً فما سمع أبلغ منه ثمَّ قال : أمّا بعد ، فانسبوني ، فانظروا من أنا ؟؟ ، ثمَّ راجعوا أنفسكم فعاقبوها ، وانظروا هل يصلح لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيّكم ؟؟ وابن وصيه ؟؟ وابن عمّه ؟؟ وأولى المؤمنين بالله ؟ ، والمصدق لرسوله ؟ ، أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي ؟ ، أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمّي ؟ ، أؤلم يبلغكم قول مستفيض : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي أنتما شباب أهل الجنّة وقرّة عين أهل السنة ؟ ، فإن صدقتموني فيما قلت ، وهو الحقُّ والله ما تعمدت كذباً ، مذ علمت أنّ الله يمقت عليه ، وان كذبتموني ، فإنَّ فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبد الله ، أو أبا سعيد ، أو سهلاً بن سعد ، أو زيداً بن أرقم ، أو أنساً ، يخبروكم أنّهم سمعوه من رسول الله ، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟ » فاعترض شمر لعنه الله سيدنا الحسين قائلاً إنّي لأعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول . فقال له حبيب بن مطهر ويلك يا شمر والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وان الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول . فما عبيء سيدنا الحسين بما جال بين الإثنين واستتلى خطابه فقال : « أيّها الناس ، إن كنتم في شكّ مما أقول ، أو تشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري ، لا منكم ولا من غيركم ، أخبروني هل تطلبوني بقتيل منكم قتلته ؟ أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ » وسكت قليلاً علّه يسمع جواباً فما أجابه أحد فوجّه خطابه إلى شيث بن ربعي وحجّار بن أبجر وقيس بن الأشعث وزيد بن الحارث وسمّاهم بأسمائهم وقال لهم : « ألم تكتبوا إليَّ أن أقدم عليكم ؟ » فقال هؤلاء بكل قحة كلا لم نفعل . فقال عليه السلام بلى فعلتم وكتبكم عندي . ثمَّ قال : « أيّها الناس ، أما وقد كرهتموني ، فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض » فقال له قيس بن الأشعث حينئذٍ وكأنّه قد خجل عندما ذكره الحسين بكتابه يستدعيه إلى الكوفة ثم خرج مع الظالمين الذين خرجوا لقتاله : ألا تنزل على حكم ابن عمّك ؟ (ويريد يزيد بن معاوية على اعتبار العمومة الموجودة بين الهواشم والأمويين) فإنّك لن ترى إلّا ما تحبُّ . فقال الحسين : « أنت أخو أخيك » أتريد أن يطلبك بنو هاشم ، بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ ، لا والله ، ولا أعطيهم بيدي عطاء الذليل ، ولا أفرُّ فرار =

= العبد ، عباد الله ، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترحموني ، أعوذ بربّي وربّكم من متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » وأدار وجه فرسه . فتقدم من الناس زهير بن القين على فرسه وهو مدجّج بالسلاح وقال : « يا أهل الكوفة ، بدارِ لكم من عذاب الله بدارِ ، إنَّ حقّاً على المسلم ، نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف ، انقطعت العصمة وكنّا نحن أمّة وأنتم أمّة ، انَّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريَّة نبيّه محمد ﷺ ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنّا ندعوكم إلى نصر الله ورسوله بنصر ابن رسوله ، وخذلان الطاغية ابن الطاغية ، يزيد بن معاوية ، وعامله عبيد الله بن زياد ، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا سوءاً ، يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جزوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ، أمثال حجر بن عدي وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه ، فاغتاظ الناس مما سمعوه وسبوا زهير وأثنوا على يزيد وابن زياد وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث بهم سلماً إلى الأمير عبيد الله بن زياد . فقال زهير : يا عباد الله ، إنَّ ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سمية (ويريد يزيد بن معاوية وهو ابن سمية لأنَّ سمية أمّ معاوية وجدة يزيد) فإن كنتم لا تنصرونهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية ، فلعمري أنَّ يزيد يرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين » وما كاد ينتهي زهير عند قوله هذا حتى خاف الملعون شمر أن يؤثّر به على الناس فبادره بسهم رماه به وقال : اسكت أسكت الله نامّتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فسبّه زهير وقال : والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين وابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم . فضحك شمر وقال إنَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة . فقال زهير أفبالموت تخوفني ؟ والله للموت مع الحسين أحبُّ إليَّ من الخلد معكم . ثمَّ رفع صوته وقال : عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي ، فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماءَ ذريته ، وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذبَّ عن حريمهم . وإذ رأى سيدنا الحسين عليه السلام أنّ مثل هذا الكلام لا يؤثّر على قوم ختم الله على أبصارهم وآذانهم فأمره أن يسكت ويرجع فامتثل .

وعندما عزم عمر بن سعد على تنفيذ تلك الجريمة الشنعاء التي ترتجف لذكرها فرائص المسلمين تقدم منه الحر بن يزيد فقال له : أصلحك الله يا عمر أمقاتل أنت هذا =

= الرجل ؟ قال عمر : أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي . قال : أفما لكم في هذه الخصال التي عرضها عليكم رضى ؟ فقال عمر والله لو كان الأمر إليَّ لفعلت ولكن أميرك (ويريد عبيد الله بن زياد) قد أبى ذلك . فتركه بغير جواب ورجع وهو نادم على ما فعلَ من حجزه الحسين أولاً وقد عرض عليه العودة إلى الحجاز وأخذ يتردَّد في أمره بين الإقدام على نصرة الحسين وهو لا يرى وراءَها إلّا الموت الزؤام مع كسب الجنة وبين حرب الحسين ويرى وراءَها الحياة مع خوض نار الجحيم وبينما هو في تردده اعترضه رجل يدعى المهاجر بن أوس قائلاً : والله يا حرّ إنَّ أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قطُّ مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك . فقال الحرُّ . إنّي والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو تقطعت إرباً وحرقت جثتي . قال هذا وهمز في خاصرة جواده فطار به نحو معسكر سيدنا الحسين فقصده وقال : جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وجعجعت بك في هذا المكان ، ووالله ما ظننت أنّ القوم يردُّون عليك ما عرضت عليهم أبداً ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً ، فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون أنّي خرجت من طاعتهم ، وأمّا هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه ، ووالله لو ظننت أنّهم لا يقبلونها منك ، ما ركبتها منك ، وإنّي قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربّي ، مواسياً لك بنفسي ، حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك توبةً ؟؟ قال الحسين نعم يتوب الله عليك ويغفر لك . وحينئذٍ استبشر الحرّ بتوبته وكرَّ على أعداء الحسين وصاح بهم فقال : أيّها القوم ، ألا تقبلون من الحسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟؟ فأجابه عمر بن سعد قائلاً : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً . فقال الحرُّ : يا أهل الكوفة ، لامكم الهبل والثكل ، أدعوتم الحسين ، حتى إذا أتاكم ، استلمتموه ، وزعمتم أنّكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثمَّ عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه من التوجيه في بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهله ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها ضرّاً ، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري ، يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي . ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هو وأهله قد صرعهم العطش ؟ بئسما خلفتم محمداً في ذرّيته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ، ان لم تتوبوا وتنزعوا عمّا =

جَـرِيْمَـةٌ دُوْنَهَــا كُـلُّ آلْجَـرَائِمِ لاَ   يَنْفَكُّ ذُوْ آلدِّيْنِ يَشْكُـوْ مِنْ تَمَاسِيْهَـا

=أنتم عليه . فلما سمع الناس من الحرّ هذا التوبيخ بادروه بنبالهم فكرَّ راجعاً إلى الحسين عليه السلام . وعلى الأثر رمى عمر بن سعد معسكر الحسين بسهم وقال لأصحابه اشهدوا لي إنّي أول رامٍ فتبعه الناس برمي نبالهم غير خائفين الله ولا محترمين رسوله في ذريته عليهم لعنات الله إلى يوم الدين .

وبينما أصحاب يزيد يرمون أصحاب الحسين بنبالهم برز منهم يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله وطلبا البراز فخرج عبد الله بن عمير الكلبي وكان قد أتى مع زوجه لنصرة الحسين من الكوفة فقالا له من أنت ؟ لا نعرفك . فانتسب لهما فقالا لا نعرفك فليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مطهر أو برير بن خضير فقال الكلبي ليسار : يا ابن الزانية ترغب عن مبارزة أحد من الناس ولا يخرج إليك أحد إلاّ وهو خير منك وحمل عليه فضربه بسيفه وثنى وثلث فحمل سالم على الكلبي وضربه فاتّقى ضربته بيده اليسرى فطارت أصابعها فما كان من الكلبي إلاّ أن مال على سالم بسيفه فأهلكه ورأت امرأته وتسمى أم وهب ما كان من أمره مع خصميه فأسرعت إليه بعمود في يدها وهي تقول : فداك أبي وأمّي ، قاتل دون الطيبين ، ذرية محمد . فردَّها الكلبي نحو النساء فامتنعت وقالت : لن أدعك دون أن أموت معك فناداها الحسين عليه السلام قائلاً : جزيتم عن أهل البيت خيراً ارجعي رحمك الله ليس الجهاد إلى النساء فرجعت .

وبينما هذا البراز يجري زحف عمرو بن الحجاج وكان على ميمنة عمر بن سعد بفرسانه نحو معسكر الحسين فجثا أنصار الحسين على ركبهم واشرعوا رماحهم ليتلقوا هؤلاء الهاجمين الطغام فخافت الخيل من الدنوّ منهم ورجعت بهم فرماهم رجال الحسين بنبلهم فقتلوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين وتقدم رجل منهم يقال له ابن حوزة وقال أفيكم الحسين ؟ قالوا نعم فما حاجتك قال لعنه الله أبشر يا حسين بالنار فأجابه عليه السلام كذبت بل أقدم على ربّ رحيم وشفيع مطاع فمن أنت ؟ قال ابن حوزة . فرفع الحسين يديه فقال اللهمَّ ، حزّه إلى النار . فغضب وأقحم فرسه في نهر بينهما فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط منها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات وذهبت روحه إلى النار . وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معه رجال ابن زياد وهو يعلل نفسه أن يقتل الحسين ويصيب بذلك منزلةً عند ابن زياد فلما رأى ما حلَّ بابن حوزة بدعاء=

=الحسين ارعوى وتاب ورجع أدراجه وهو يقول . لقد رأيت من أهل البيت شيئاً مخيفاً فلا أقاتلهم أبداً .

واشتبك القتال بعد هذا وكثرت المبارزة بين رجال الحسين ورجال ابن زياد وكان الله في عون رجال الحسين القلائل فقتلوا خلقاً كثيراً من الجموع الكثيفة الهاجمة عليهم وكان قتالاً تشيب له الأطفال وبالحقيقة أنّ رجال الحسين وهم ٣٢ فارساً و٤٠ من المشاة قد أبلوا أعظم بلاء برجال يزيد وذلك بكرامة المصطفى وآل بيته عليهم الصلاة والسلام وما انتصف النهار حتى كان قد استعر القتال وكثر عدد الهلكى واستبسل الألوف الذين كللتهم لعنة الله وأنبيائه والناس أجمعين إلى يوم الدين فعقروا خيولهم وأصبحوا مشاةً وهاجموا معسكر سيدنا الحسين وخيامه وما زالوا يأتونه بفظائعهم التي ترتجف الفرائص عند ذكرها حتى انتهى شمر إلى فسطاط الحسين فنادى عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله فصاحت أخوات الحسين وبناته وخرجن وصاح به الحسين أنت نحرق بيتي على أهلي أحرقك الله بالنار واعترض حميد بن مسلم وشيث بن ربعي شمر وكفاه عن حرق بيت الحسين وإهلاك نسائه وأطفاله وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة رجال فكشفهم عن البيوت بعد أن هلك من رجال ابن زياد خلق كثير أهلكهم رجال الحسين ولكن لقلّة هؤلاء كان إذا قتل منهم واحد أو اثنان يظهر فيهم خلافاً لأولئك الذين لكثرتهم لم يؤثر عليهم هلاك من هلك منهم .

ثمَّ كانت قد حانت الظهيرة فتقدم أبو ثمامة الصائدي من سيدنا الحسين وقال له نفسي لنفسك فداء فإنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك والله لا تقتل حتى أقتل دونك وأحبُّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت الظهر معك فقال الحسين أذكرتني بالصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين نعم هذا أول وقتها ثمَّ نادى بمن حوله سلوهم أن يكفوا عنّا حتى نصلّي ففعلوا فلم يجبهم أصحاب ابن زياد بل واصلوا القتال فكثر القتل والجرح نحو الساعة فقتل الحرّ بن يزيد في جملة من قتل من أصحاب الحسين وفي هذه الأثناء صلّى الحسين بالبقية الباقية من أصحابه صلاة الخوف ثمَّ استأنفوا القتال فكان على أشدّه فقتل خلق كثير من أصحاب ابن زياد وأصحاب الحسين القلاقل وفيهم زهير بن القين وعند العصر رأى أصحاب الحسين وباتوا لا يتجاوزون عدد الأصابع أنّهم يعجزون عن حمايته فأخذوا يتنافسون على السبق للقتل بين يديه متفانين دونه حتى قتلوا=

=جميعاً فبارك الله في هذا الإخلاص الذي أبدوه وباتوا معه في الجنة شهداء .

ومما يذكر أنّ سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع جاءَا الحسين وهما يبكيان فقال عليه السلام وما يبكيكما ؟ إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين . فقالا والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك . فقال جزاكما الله جزاء المتقين . وتقدما بعد ذلك من الناس فما زالا يراميانهم بالنبال ويضاربانهم بالسيوف حتى قتلا . وجاء حنظلة بن سعد الشامي فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي : يا قوم ، إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، يا قوم ، إنّي أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فليس له من هاد. يا قوم ، لا تقتلوا الحسين ، فيستحكم الله بعذاب ، وقد خاب من افترى . فاعترضه الحسين عليه السلام قائلاً رحمك الله ، قد استوجبوا العذاب ، حين ردُّوا ما دعوتهم إليه من الحقّ ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن ، وقد قتلوا أخواتك الصالحين ؟ فما كان من حنظلة إلاّ أن سلم على الحسين وصلّى على جدّه المصطفى وأبيه المرتضى وآلهما الأخيار وقاتل حتى قتل . وهكذا كان يفعل أصحابه القلاقل الباقون فيقتلون وكان آخر شهيد منهم سويد بن أبي المطاع الخثعمي .

وكان أول من قتل من بني أبي طالب في ذلك اليوم المشؤوم الأسود هو علي الأكبر بن الحسين وأمّه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفية فإن هذا البطل لعلوي الحسيني حمل على أعداء الله ورسوله لعنهم الله وهو يقول :

أنا علي بن الحسين ابن علي نحن وربِّ البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فحمل عليه مرّة بن منقذ لعنه فطعنه فصرع فهجم عليه أولئك الوحوش وأعملوا في جسده الشريف سيوفهم فلما رأى سيدنا الحسين ما حلّ بابنه وفلذة كبده عليهما السلام قال : قتل الله قوماً قتلوك يا بنيّ ، قاتلهم الله ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسوله ، على الدنيا من بعدك العفا . وأقبل عليه ومعه فتيانه فقال لهم : احملوا أخاكم . فحملوه حتى وضعوه بجانب الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه . وقتل بعد=

لَـوْلَا جَـرِيْمَـةُ ذَيَّـاكَ ٱلْأَثِيْمِ لَمَـا   هَـذِيْ ٱلْمَصَائِبُ قَـدْ عَمَّتْ دَوَاهِيْهَا

=ذلك نفر فيهم أولاد عقيـل بن أبي طالب . وتقـدم القاسم بن علي وبيـده السيف فحمل عليه عمرو بن سعـد بن نفيل الأزدي لعنـه الله فضرب رأسـه بالسيف فسقط القـاسم إلى الأرض وهـو يصيح يـا عمّاه فـانقضّ الحسين إليـه كـالصقـر ثمَّ شـدَّ شـدَّة ليث أغضب فضـرب عمراً بـالسيف فاتّقـاه بيده فقـطع يده من المـرفق فصاح وحملت خيـل الكوفـة ليستنقـذوا عمراً فـاستقبلته بصـدورها وجـالت عليـه فـوطئتـه حتى مـات وانجلى الغبـار والحسين واقف على رأس القاسم بن الحسن وهو يفحص بـرجليه والحسين يقـول بعداً لقوم قتلوك ، وخصمهم فيك يوم القيامة جداك المصـطفى والمرتضى . ثمَّ قـال : « عزَّ والله على عمّك ، أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثمَّ لا ينفعك صوته ، والله هذا يوم كثر واتره ، وقلَّ ناصره » ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام حمل القـاسم على صدره وسـار به فألقاه بجانب ابنه علي ومن قتل معه من الطالبيين بجوار الفسطاط .

وكان الملعون عبد الله بن عقبة الغنوي قد قتل أبا بكـر بن الحسين بن علي بسهم فهجم إخـوته العبـاس وعبد الله وجعفـر وعثمان أولاد الحسين على النـاس فقتلوا خلقـاً كثيـراً منهم عن آخرهم كمـا قتل أيضـاً محمد بن علي بن أبي طـالب قتله رجل من بني أبان لعنه الله .

ومما يحسن ذكره هو أنّ سيدنـا الحسين عليه السلام كان متعـرضاً طـول مدّة القتـال إلى أعدائه الأشرار وهم يكرهون قتله فلا يقدمون عليـه ولو رامـوا أن يقتلوه من بدء المـوقعة لما تعذَّر ذلك عليهم وما زال متعرضاً لنبـالهم وسيوفهم إلى عصـر ذلك النهـار المشؤوم والقتل دائر والأرواح تباع فيه بيـع السماح وحينئـذٍ تقدم من الحسين خبيث زنـديق كافـر من كندة يقال لـه مالـك بن النسيز فضـربه لعنـه الله على رأسه الشـريف بالسيف فقـطع البرنس وأدمى رأسه وامتلأ البرنس دماً . فقال له الحسين : لا أكلت بيمناك ولا شـربت وحشرك الله مع الظالمين وألقى عليه السلام البرنس ولبس القلنسوة وأخذ الكندي البرنس .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين على ما ذكرنا من جرحه في رأسه الشريف دعا بابنه عبد الله وهو طفل صغير كان على شفير الهلاك من الظمأ يصيح الماء المـاء وأجلسه في حجـره وقال أيّها الظالمون ألا تسقوا هذا الطفل البار نهلةً من الماء ؟ فرماه زنـديق من بني أسد لعنه الله بنبلة قضت عليه فـأخذ الحسين دم طفله فصبّـه في الأرض وقال : ربِّ إن تكن حبست عنّا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين . =

= ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام اشتدَّ عليه العطش فجرَّر نفسه إلى الفرات وهو قريب من مجثمه ليشرب وكان الدم المتدفق من جرح رأسه قد صبغ شيبته الطاهرة حلةً أرجوانية فرماه الملعون حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه الطاهر عليه السلام فجعل يتلقى الدم بيمناه ويرمي به إلى السماء وهو ناظر إليها بخشوع وعيناه مغرورقتان بالدموع . ثمَّ حمد الله وأثنى عليه وقال : اللهمَّ ، إنّي أشكو إليك ، ما يصنع هؤلاء ، بابن بنت نبيّك ، اللهمَّ ، أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . قال هذا وحمل نفسه فجرَّرها يريد الرجوع إلى فسطاطه فاعترضه الملعون الأكبر شمر بن ذي الجوشن ومعه عشرة رجال فحالوا بينه وبين الفسطاط فقال لهم الحسين عليه السلام : ويلكم ، إن لم يكن لكم دين ، وإن كنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم . فقال شمر الملعون : ذلك لك يا ابن فاطمة . قال شمر هذا وهجم على الحسين بأصحابه الفجّار الملاعين وهم عبد الرحمن الجعفي ، والقشعم بن نذير الجعفي ، وصالح بن وهب البزني ، وسنان بن أنس النخعي ، وخولي بن يزيد الأصبحي ، وبحر بن كعب بن تيم الله ، وأربعة آخرين وطفق شمر الملعون يحرّضهم على الإقدام على قتل الحسين وهو يحمل عليهم فينكشفون رهبةً لمقامه النبوي العظيم . ثمَّ إنّهم لعنهم الله أحاطوا بالحسين . وفي هذه الأثناء تقدم أحد عبيد الحسين فاخترق أولئك الأشرار ووقف إلى جانب سيدنا وسيده يريد الموت دونه . فتقدم الملعون بحر بن كعب والسيف مشهر بيده يريد الفتك بسيد شباب الجنة فاعترضه العبد قائلاً : يا ابن الخبيثة أتقتل عمّي ؟؟ (وكان العبيد يسمون مواليهم أعماماً من يوم نزلت آية﴿ **ما كان محمد أبا أحد** ﴾ في قصة زيد وكانوا قبلها يسمونهم آباءً وما زال هذا حال الموالي مع أسيادهم في العراق إلى يوم الناس هذا فإنّهم يسمونهم أعماماً اهـ) فما كان من الملعون بحر إلّا أنّه ضرب الغلام فاتّقى العبد السيف بيمناه فأطنت إلى الجلدة . فنادى العبد يا أمتاه فاعتنقه الحسين وقال له : يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك فإنّ الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين (ويريد أسياده) برسول الله وعلي وحمزة وجعفر والحسن . ثمَّ رفع سيدنا الحسين عينيه إلى السماء وقال : اللهمَّ أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهمَّ ، فإن منعتهم إلى حين ، ففرقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترضي عنهم الولاة أبداً ، فإنّهم=

=دعـونا لينصـرونا ، فعـدوا علينا فقتلونـا . ثمَّ إنَّ سيدنـا الحسين عليه السلام هجم على أولئك الأشرار هجمةً علويةً طالبيةً متّخذاً من الضعف قوّةً وحالـه معهم ما عـرفنا فكشفهم عنـه ثمَّ عادوا إليه وقد أتاهم غيرهم مدداً لهم فأحاطوا به عن يمينه ويساره فحمل على الذين عن يمينه ففرقهم وكرَّ على الذين عن يساره ففرقهم ولم يـروِ التاريـخ عن شجاع مقهـور كالحسين قتل أبناؤه وإخوانه وأصحابه ولم يبق بقربـه غير النسـاء ينحن ويولـولن ويعولن وهـو رابط الجأش ثـابت الجنان أجـرأ ما يكـون في موقف الـطعان بينمـا يـرى أعـداءَه يتكاثرون عليه وليس له من معين ونصير وأولئك الأعـداء ينكشفون من حـوليه انكشـاف المعزى عن الذئب معاذ الله بل قل عن الأسد الغاصب ولعمري من كان جدّه المصطفى وأبوه المرتضى لخليق به أن يكون واحداً بمقام ألف .

وبينما كان سيدنا الحسين عليه السلام في موقفه المحزن أمام أولئك الوحوش المفترسـة خرجت أخته زينب وهي محلولة الشعر دامعة العين وكانت تقول : ليت السماء انـطبقت على الأرض . ومـا كـادت عليها السلام تـدنـو من الحسين حتى كـان عمـر بن سعـد قـد دنـا منه عليه السلام مدداً لشمر وأصحابه الذين عجزوا عن قتل سيد الشهداء فقالت له : يا عمر . أيقتل أبو عبد الله ، وأنت تنظر ؟ فبكى حتى سـالت دموعـه على خديـه ولحيته وصـرف وجهـه عنها وكـان الحسين في ذلك الـوقت يجول بين أعـداء الله ورسولـه جولـة الأسد الغـاضب ويقول : أعلى قتلي تجتمعـون ؟ أمّا والله لا تقتلون بعـدي عبداً من عبـاد الله أسخط عليكم لقتله منّي ، وأيم الله إنّي لأرجـو أن يكرمني الله بهـوانكم ، ثمَّ ينتقم لي منكم ، بسفـك دمائكم ، ثمَّ لا يـرضى بذلـك منكم حتى يضاعف لكم العـذاب الأليم يوم القيامة .

وظـلَّ الحسين مدَّة غيـر قصيرة على هـذه الحال بين أعـدائه ولو شاءُوا قتله لقتلوه فإنّهم جماعة وهو فرد مهما كانت قوته عظيمة وشجاعته نادرة ولكن كـان أولئك الأشـرار يتهيبـون قتل البضعـة النبويّـة الطاهـرة فيتقي بعضهم ببعض ويحبُّ كـلٌّ منهم أن يكـون القاتل سواه فلمّا طال المطال عليهم ناداهم اللعين شمر قائلاً : ويحكم مـاذا تنتظرون ؟ اقتلوه ثكلتكم أمّهاتكم . فحملوا عليه لعنهم الله من كل جانب حملة لئام أشرار كفرة لا يهابون الله ولا يحترمون رسوله . فضرب الملعون زرعـة بن شريـك التميمي بسيفه كف الحسين وثنى الضربة على عاتقه فجعل عليه السلام يقوم ويكبو فحمل عليه الملعون سنـان بن=

= أنس النخعي فطعنه برمحه ونادى بالملعون خولي بن يزيد الأصبحي قائلاً احتزَّ رأسه بالحال فحاول هذا الشرّير أن يفعل فضعف وأرعد فصاح به الملعون سنان قائلاً : فتَّ الله عضدك ونزل إليه عليه السلام فذبحه واحتزَّ رأسه الشريف فدفعه إلى الملعون الخولي .

فيا سماء اغضبي ويا أرض انشقّي ويا شمس أظلمي ويا قلوب تقطري لوعةً وأسى فإنَّ ابن رسول الله وسيد شباب الجنة قد ذُبح ذَبح الخروف بأيدي فسقة كفّار أشرار يدعون الإسلام كذباً ونفاقاً فيا ويلاه ويا نكبتاه ولا حول ولا قوة إلاّ بالله والأمر لله .

وبعد أن تمَّ القضاء وقتل سيدنا الحسين قتل الشهداء بفظاعةٍ وحشيةٍ ترتجف لها القلوب وتتفتت لهولها الضلوع هجم أولئك الفساق الفجرة فأخذوا أسلابه فكانت سراويله من حظّ الملعون بحر بن كعب وقطيفته من حظ الملعون قيس بن الأشعث فصار يسمّى بعدها قيس قطيفة ونعلاه من حظّ الملعون الأسود الأودي وسيفه من حظّ ملعونٍ من رجال دارم ومال أولئك الأشرار بعد ذلك على الفرش والحلل والإبل فنهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على نسائه وأخواته حتى كانت هاتيك السيدات الشريفات العلويات الهاشميات عرضةً لأولئك الفسّاق ينتزعون عنهنَّ بتوحشٍ أثوابهنَّ ويتركونهنَّ عرايا فهل سمع الأولون والآخرون بشرّ مثل هذا الشرّ وفظاعة مثل هاته الفظاعة وهل يخطر على قلب بشر أنَّ قوماً يدعون الإسلام ويأتون مثل هذا الإثم والفظائع مع أشرف أشراف المسلمين بالإجماع وينتهكون بهنَّ حرمة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام .

وما اكتفى هؤلاء الفسّاق الكفّار بهذه الشرور حتى أرادوا أن يستأصلوا النسل الطاهر فطلبوا سيدنا علي زين العابدين بن الحسين وكان صبياً محموماً بين النساء يريدون قتله أراد ذلك الملعون شمر فاعترضه حميد بن مسلم قائلاً سبحان الله أتقتل الصبيان المرضى فدعه بين النساء وبينما كان حميد يعترض شمر وصل عمر بن سعد فدخل فسطاط الحسين وأخرج أولئك الفساق منه ومنع شمر عن إتمام جرائمه الفظيعة بقتل سيدنا علي زين العابدين وأمر الناس أن يردّوا ما نهبوا من النساء فما ردَّ أحدهم شيئاً مما أخذ .

ثم خرج عمر بن سعد لعنه الله خارج الفسطاط وصاح بالناس من ينتدب إلى =

وَمَا سِوَى خَزْعَلٍ فِيْ ظِلِّ بَيْتِ رَسُوْ   لِ آللَّهِ يَجْمَعُهَـا يُحْيِي أَمَـانِيْهَـا

=الحسين فيوطئه فرسه فانتدب عشرة منهم الملعون إسحاق بن حياة الحضرمي فأتوا فداسوا الجسد الحسيني الشريف بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره ووجد بعد ذلك في جسده الطاهر ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية . ثمَّ دفن سيدنا الحسين وأولاده وإخوته وأصحابه في ذلك الموضع المسمّى كربلاء أهل الفاخرية من بني أسد في اليوم التالي لمقتلهم الفاجع .

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن أرسلا رأس سيدنا الحسين ورؤوس أصحابه إلى الملعون عبيد الله بن زياد مع خولي يزيد وحميد بن مسلم الأزدي لعنهم الله فلما قدما الكوفة قصدا الملعون بن زياد بالرؤوس الشريفة فجلس لعنه مجلساً عاماً وأذن للناس فدخلوا عليه وأمر بالرؤوس فأحضرت بين يديه فمدَّ قضيباً بيمناه وجعل ينكث به ثنيتي سيدنا الحسين عليه السلام فعل ذلك طويلاً فناداه زيد بن الأرقم قائلاً : أعلُ هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذي لا إله غيره ، لقد ربت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، على هاتين الشفتين يقبلهما . قال هذا زيد بن الأرقم وبكى فصاح به الملعون ابن زياد قائلاً : أبكى الله عينك ، فوالله لولا أنّك شيخ خرفت ، وذهب عقلك لضربت عنقك . فغضب زيد وخرج وهو يقول : أنتم معشر العرب ، لعبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم بن مرجانة (ويريد عبيد الله بن زياد) فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، بالذلّ ، فبعداً لمن يرضى بالذلّ .

أمّا عمر بن سعد فإنّه أقام يومين بعد هذه الفاجعة الفظيعة التي أورثت المسلمين الحزن والشجن إلى يوم الدين في تلك الأرض المقدسة التي استشهد بها خير الشهداء ثمَّ قدم الكوفة ومعه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان وعلي زين العابدين بن الحسين وهو محموم مريض فاجتاز بهم على مدافن الشهداء فصاحت النساء ولطمن خدودهنَّ وصاحت السيدة زينب بنت علي : يا محمداه ، صلّى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، وذرّيتك مقتلة تسفي عليها الصبا . وكان قولها هذا مبكياً أولئك الأعداء الفسّاق الأشرار .

ولما انتهى عمر بن سعد بهاتيك السبايا إلى الكوفة سار بهم إلى بيت الملعون عبيد الله بن زياد فوضعن في غرفة ثمَّ دخل عليهنَّ ابن زياد لعنه الله وقال : الحمد لله=

=الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم فقالت زينب بنت علي بشممها المحمدي : الحمد لله ، الذي أكرمنا بمحمد ، وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول يا كافر ، وإنّما يفتضح الفاسق ، ويكذّب الفاجر . فقال لعنه الله : فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟ قالت : لقد كتب عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتختصمون عنده . فغضب الملعون ابن زياد وقال : قد شفى الله غيظي من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك . فبكت السيدة زينب وقالت : لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرزت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يشفك هذا الداء ؟ فقد اشتفيت . فقال الملعون : هذه شجاعة ولعمري لقد كان أبوك شجاعاً . فقالت السيدة زينب : ما للمرأة والشجاعة ؟ فخزاه الله وسكت .

ثمَّ التفت الملعون ابن زياد إلى سيدنا علي زين العابدين فقال له ما اسمك ؟ قال علي بن الحسين . فقال لعنه الله : أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟ فسكت ذلك السيد الصبي ولم يتكلم . فقال الملعون ابن زياد . ما لك لا تتكلم ؟ فقال : كان لي أخ يقال له أيضاً علي فقتله الناس . فقال ابن زياد لعنه الله : إنَّ الله قتله فقال ذلك السيد الصبي : إنَّ الله سبحانه يتوفى الأنفس عند موتها وما كان لنفس أن تموت إلاَّ بإذن الله . فهزَّ الملعون ابن زياد رأسه وقال والله إنّ هذا الصبي لمن تلك الدوحة . ثمَّ أمال رأسه إلى أحد أتباعه وقال : أنظر هذا الصبي هل أدرك ؟ إنّي لأحسبه رجلاً فكشف عنه ذلك الرجل وكان يدّعي مري بن معاذ الأحمري وقال نعم قد أدرك فقال الملعون ابن زياد أقتله ويحك . فاعترضه سيدنا علي زين العابدين بجرأةٍ هاشميةٍ قائلاً : ويلك إن أنا قتلت فمن توكل بهذه النسوة ؟ وما كاد يتمّ عليه السلام كلماته حتى أسرعت السيدة زينب واعتنقت ابن أخيها وقالت : يا ابن زياد حسبك منّا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منّا أحداً غير هذا الغلام ؟ فأسألك بالله إن كنت مؤمناً أن تقتلني معه ما دمت مصرّاً على قتله . وما انتهت من قولها حتى قال سيدنا علي زين العابدين : إن كان بينك وبين هاته النساء قرابة فابعث معهنَّ رجلاً يصحبهنَّ بصحبة الإسلام وبعد ذلك فاقتلني . فصمت ابن زياد مدةً يفكر ثمَّ قال : دعوا الغلام ينطلق مع نسائه وخرج .

وبعد أن خرج الملعون ابن زياد من غرفة النساء قصد المسجد الأعظم ونادى=

= الصلاة الجامعة فاجتمع الناس فصلّى بهم ثمَّ علا المنبر خطيباً فقال : الحمد لله ، الذي أظهر الحقَّ وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته . قال هذا ذلك الملعون ابن الملعون ولم يخف الله ولم يحترم رسوله ولا راعى ضميره وذمته وما خلا المسلمون وقتئذٍ من ذي حمية ودين وهو عبد الله بن عتيق الأزدي وكان شيخاً ضريراً من بقايا السلف الصالح قد فقد إحدى عينيه يوم الجمل والأخرى يوم صفين في أثناء جهاده تحته راية سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فلما سمع هذا الصالح أنَّ الملعون ابن زياد يتهجم على سيدنا الحسين وأبيه بالهجر واللغو والسفاهة وثب عليه وقال : يا ابن مرجانة ، إنَّ الكذاب ابن الكذاب ، هم أنت وأبوك ، والذي ولّاك وأبوه ، يا ابن مرجانة ، أتقتلون أبناء النبيين ، وتتكلمون بكلام الصديقين ؟ فغضب الملعون ابن زياد من ذلك الصالح المجاهد في سبيل الله الملازم المسجد للصلاة من الصباح إلى المساء عبد الله بن عتيق الأزدي وأمر بأخذه فأمسك به زبانيته الملاعين ثمَّ نادى بشعار الأزد « يا مبرور » فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه من بين الناس وقتلوه شرَّ قتلةٍ . وما اكتفى الملعون ابن زياد بهذا حتى زاد عليه أن أمر بصلبه فصلب على ملأ من الناس ليكسر قلوبهم .

ثمَّ إنَّ الملعون ابن زياد أمر أن يطاف برأس الحسين في الكوفة فطاف أصحابه لعنه ولعنهم الله بالرأس الشريف وأراد بذلك أن يدخل الرهبة على أهل الكوفة الذين كان يعلم تشيعهم لسيدنا علي وأولاده عليهم وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

ثمَّ إنَّ الملعون ابن زياد كتب إلى الملعون يزيد بن معاوية ينبئه بهذه الفاجعة فقال : « أبشر يا أمير المؤمنين ، بفتح الله وبنصره ، وبعد ، فقد ورد علينا الحسين بن علي ، في ثمانية عشر من أهل بيته وأربعة وخمسين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم أمير المؤمنين (ويريد يزيد) أو القتال ، فاختاروا القتال ، فعدا عليهم جيش عمر بن سعد مع شروق الشمس ، فأحاطوا بهم من كلّ ناحية ، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذت الحمائم من صقر ، فوالله ما هو إلّا جزر جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فأصبحت أجسادهم مجرَّدة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم =

=معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسقي عليهم الريح ، زوَّارهم العقبان والرخم ، في بقاع سبسب » اهـ فلما انتهى الكتاب إلى يزيد بن معاوية فرح به واستبشر وأرسل إلى ابن زياد يحمد له صنيعه ويبشره برضائه إلّا أنّه تخوَّف من غضب الناس عليه إن هم سمعوا ما فعله عامله لعنهما الله بآل البيت الطاهر ما لا يفعله الكفّار المؤمنين فجعل يقول بين أصحابه إنَّه ما كان يريد قتل الحسين وإخوته وأبنائهم وإنّه مستاء من هذه الجريمة الشنعاء وطفق هؤلاء يشيعون ذلك عنه مع أنَّ قلبه كان يتهلل فرحاً بما كان بل أنّ ما كان لم يكن إلَّا بأمره وما كان ابن زياد ليقدم على فعلته الشنعاء لولا أن يستأنس برضائه .

على أنَّ يزيد أرسل إلى ابن زياد مع شكره له يأمره أن يرسل الرؤوس الشريفة والسبايا الكريمة إلى دمشق فأرسلها له ابن زياد مع شمر بن ذي الجوشن ومحفر بن ثعلبة فلما وصلا بركبهما إلى دمشق الشام طفقا يناديان بالأسواق قائلين جئنا برأس أحمق الناس فكان الناس يلتفون حولهما ويردّدون مقالتهما حتى إذا ما انتهيا إلى دار الأمارة دخلا على يزيد وكان مجلسه عامراً بعلية الناس فوضعا الرأس الشريف بين يديه وحدثاه بشرّ ما صنعت جنوده مما أغضب الله ورسوله وملائكته وأنبياءه والصالحين وأفرح الكفّار والمشركين والفسقة الفاجرين وكان يزيد وأصحابه يصغون إلى ذلك الحديث وهم منذهلون وكان أكثرهم انذهالاً يزيد لإكباره الجريمة وهو الآمر بها وأتمها على عنقه قبل غيره لا خوفاً من الله ورسوله بل لحذره من سوء وقعها في نفوس المسلمين وبينما هو لكذلك وإذا بهند بنت عبد الله بن عامر بن كريز وكانت زوج يزيد قد سمعت من وراء الحجاب قصة تلك الفاجعة المخيفة فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت يا أمير المؤمنين أهذا رأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ قال يزيد نعم فاعولي عليه وحدّي فأخذت تعول وتبكي . وبينما هند تبكي وتندب صريحة قريش وسيد شباب الجنة عليه السلام جعل الملعون يزيد ينكث ثغر الحسين بقضيب في يده فاعترضه أبو برزة الأسلمي قائلاً : أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟ أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً طالما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، أما أنّك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجيء هذا ومحمد شفيعه . قال هذا وولّى هارباً واكمدَّ وجه الملعون يزيد ولم يحر جواباً .

ثمَّ إنَّ يزيد صرف الناس وطلب نساء الحسين والرأس الشريف بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا إلى الرأس وجعل يزيد لعنه الله يتطاول =

=ليستره عنهما فلما رأتا الرأس صاحتا فصاحت بقية نساء الحسين وصاحت نساء يزيد من داخل الدار وولولت بنات معاوية . ثمَّ إنَّ فاطمة بنت الحسين تقدمت بجرأةٍ من يزيد وقالت له : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ فقال يزيد وهو في أشدّ الهمّ والقلق إنّي لهذا كنت أكره . قالت والله ما تُرك لنا خرص . فقال يزيد لعنه الله : ما يؤتى إليكنَّ أعظم مما أخذ منكنَّ . وكان أحد أهل الشام حاضراً بقرب يزيد فقال له هب لي هذه (ويريد فاطمة) فأخذت فاطمة بثياب أختها زينب مستجيرةً فقالت زينب كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا ليزيد . فغضب يزيد لعنه الله وقال كذبت أنتِ والله إنَّ ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته . قالت : كلاَّ والله ما جعل الله لك ذلك إلاَّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا . فازداد يزيد لعنه الله غضباً واستطار حقداً وقال إياي تستقبلين بهذا ؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك . فقهقهت زينب ساخرةً به وقالت إنّما بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدّك . قال لعنه الله كذبتِ يا عدوَّة الله . قالت أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك . فاستحى يزيد من نفسه وسكت عن سفاهته ورقاعته وأمر بالسيدات آل البيت الطاهر عليهنَّ السلام أن يدخلن داره فدخلنها واجتمعت عليهنَّ نساء يزيد وأقمن معهنَّ المآتم . فكنَّ بذلك أحسن تديناً من رجالهن .

ثمَّ إنَّ الملعون يزيد بن معاوية أمر بسيدنا علي زين العابدين عليه السلام أن يؤتى به إليه فادخلوه عليه وهو مصفد بالأغلال فلما وقعت عينا ذلك الصبي النبيل على الملعون يزيد قال : والله لو رآنا جدُّنا رسول الله مغلولين لفكَّ عنا . قال يزيد صدقت وأمر بفك أغلاله ففكت . فقال سيدنا علي زين العابدين : والله لو رآنا جدُّنا بعداء لأحبَّ أن يقرّبنا فأمر به فقرّبه منه وقال له معتذراً : إيهِ يا علي بن الحسين إن أباك هو الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت فتبسم سيدنا علي زين العابدين وقال : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاَّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبّ كلَّ مختالٍ فخور . فقال يزيد لعنه الله : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

وأقام سيدنا علي زين العابدين وسيداتنا الطالبيات عند يزيد مدّةً ثمَّ سيرهنَّ معه بالإكرام والهدايا إلى المدينة المنورة فأقاموا فيها موضع إجلال المسلمين بجوار جدهم المصطفى . =

= ولقد أكبر المسلمون فاجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين وكرهوا يزيد لأجلها وأخذوا يلعنونه سرّاً وجهراً وما زالوا يلعنونه وسيظلون يلعنونه إلى يوم الدين وما فيهم إلّا من يردّد قول الشاعر :

أيّها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيلِ
كلّ من في السماء يدعو عليكم من نبيّ وملأك وقبيلِ
قد لعنتم على لسان ابن داو دٍ وموسى وصاحب الإنجيلِ

وعند هذه الفاجعة الكبرى نقول ردّاً على الذين يحسبون أنَّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام في سبيل الخلافة هو من قبيل التزاحم على الملك ورغبةً في التسوُّد إنَّ هذا لم يخطر لهما على بال بل كانا أزهد العالمين بالدنيا وزخارفها وإنّما كانا يريان أنّ مصلحة الإسلام والمسلمين تدعو إلى جهادهما ليقيما حدود الله وينفذا أحكامه ويقسطا بين الناس ويجريا فيهم سنّة نبيّهم وأنّ هذا واجب على كلّ مسلم على التعميم فكيف لا يجب عليهما واحدهما وصيّ رسول الله والثاني حفيده ؟؟ لا جرم أنَّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام كان لمجرد إعزاز الدين وإرضاء ربّ العالمين والتفاني في سبيل مجد الإسلام وخير المسلمين شأن الصالحين المتقين . على أنَّ الأمويين والذين تشيعوا لهم في عهد بني أميّة أرادوا أن يجعلوا جهاد سيدنا علي أولاً وجهاد سيدنا الحسين ثانياً سياسياً أو شبه سياسي مسبب عن طمع دنيوي ليصيغوا عذراً أو شبه عذر لمعاوية ويزيد فيما فعلا وتابعهم كثيرون من المسلمين بعد ذلك بقوة استمرار هذه الفكرة التي بثّها دهاة الأمويين من عهد سلطانهم حتى رأينا ابن خلدون ينسى أو يتناسى الفكرة الدينية في هذه المسألة ويقول إنّ قوة عصبية الأمويين تغلبت على ضعف عصبية الهاشميين ورأينا في آخر الزمان الشيخ محمد الخضيري في محاضراته في الجامعة المصرية يدافع عن معاوية ويزيد ويبرئهما من معظم الإثم الذي اجترماه في محاربة آل البيت طمعاً بالخلافة والبحث بهذا مستفيض ربما رجعنا إليه بكتابٍ إذا فسح الله بالأجل .

« كربلاء »

ويقال للأرض التي قتل فيها سيدنا الحسين وإخوته وأبناؤه عليهم السلام « كربلاء » وكان اسمها هكذا منذ القدم قالوا إنّها سميت كذلك لرخاوتها أخذاً من قولهم « جاء زيدٌ=

=مكربلاً » أيّ مرتخي الأقدام . وموضع كربلاء هو الموضع الذي قالوا عنه العقر فتشائم سيدنا الحسين من النزول فيه . وقالوا إنّه عليه السلام في الموضع الذي عوّهه فيه الحرّ بن يزيد ما اسم هذه الأرض ؟؟ قالوا كربلاء فقال أرض كربٍ وبلاءٍ وموضع قبره الشريف عليه السلام في كربلاء لا جدال فيه ولا خلاف ومن عهد قتله عليه السلام قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوج الحسين في رثائه :

واحسيناً فلا نسيت حسيناً ... سأطيل على الحسين البكاء
غادروه بكربلاءَ صريعاً ... لا سقى الغيث بعده كربلاءَ

ويقال لأرض كربلاء أيضاً الطفُّ كما قال أبو دعبل يرثي سيدنا الحسين وأصحابه :

مررتُ على أبيات آل محمدٍ ... فلم أرها أمثالها يوم حلَّتِ
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلَّتِ
ألا أنَّ قتلى الطفَّ من آل هاشمٍ ... أذلَّت رقاب المسلمين فذلَّتِ
وكانوا غياثاً ثمَّ أضحوا رزيَّةً ... ألا عظمت تلك الرزايا وجلَّتِ

وقال أيضاً :

نبيت سكارى من أميَّة نوَّماً ... وبالطفِّ قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الإسلام إلاَّ عصابةٌ ... تأمَّر نوكاها فدام نعيمها
فصارت فناة الدين في كفِّ ظالمٍ ... إذا اعوجَّ منها جانب لا يقيمها

« ترجمة يزيد »

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمّه ميسون بنت بحدل ولد في دمشق الشام سنة ٢٦ للهجرة في أثناء وجود أبيه أميراً للشام على عهد عثمان بن عفان ولما شبَّ أخذ أبوه معاوية يرشحه للخلافة فولاه أمارة الحج مرتين بعد أن استتبَّ له أمر الخلافة وولّاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية وكان يزيد هذا مغرم بالصيد ومولع بالخمرة ميالاً للهو ومداعبة النساء منصرفاً عن العلم والشريعة فأصبح بذلك موضع نقد الناقدين إلّا أنّ هذا لم يثنِ معاوية عن استخلافه فأخذ له البيعة قهراً من رؤساء الأمصار لا كما قال الشيخ الخضري بأنَّ معاوية استشار أهل الأمصار في بيعته=

=والله يعلم والناس لا ينكرون أنَّ أهل الأمصار في ذلك الزمان لو كان لهم حرية الاختيار لما اختاروا يزيد ولياً لعهد الخلافة بل لما ارتضوا بخلافة معاوية نفسه . وبعد موت معاوية نادى يزيد بنفسه خليفةً للمسلمين فأطاعه الناس وبايعوه مكرهين إلاّ سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب فخسب لتخلفهم ألف حساب وحساب ولولا علمه بأنَّ الناس يكرهون خلافته وهم على استعداد إلى الانقلاب عليه لدى أول فرصة تسنح لهم لما كان تخوُّفه من أولئك النفر الثلاثة بمحله فعلى مَ الشيخ الخضري استخفَّ بأولئك الثلاثة في محاضراته وقد رأى هو نفسه كيف تعبت الخلافة بمجرَّد امتناعهم عن بيعته السنوات الطوال .

وامتاز عهد يزيد بفاجعة سيدنا الحسين وإخوته وأولاده عليهم وعلى جدّهم الصلاة والسلام وهي الفاجعة التي جعلت يزيد قرين اللعنة إلى يوم يحشرون . ومن أغرب ما قرأته في محاضرات الشيخ الخضري قوله أنَّ الناس الذين كتبوا لسيدنا الحسين يستدعونه إليه كانوا من محبي الشرّ ودعاة الفتنة مع أنّهم في الحقيقة كانوا لا يعرفون صاحب حقّ بالخلافة غير أبناء رسول الله ولكن للمال والسلطة الجائرة تأثيرهما على النفوس وهما اللذان جعلا أهل العراق كما قال للحسين أحد أصحابه المخلصين « إن قلوبهم معه وسيوفهم عليه » وكان بعد ذلك ما مرَّ بنا واأسفاه .

ولم يقف شرّ يزيد عند فاجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين وأخواته وأولاده على فظاعتها ووحشيتها بل جرى له ما يعادل فظاعتها وذلك بانتهاكه حرمة مدينة الرسول ﷺ وذلك أنَّ يزيد ولَّى على المدينة المنوَّرة ابن عمه عثمان بن محمد بن أبي سفيان فوجد الناس يتحفزون للإنقلاب على يزيد على أثر تمثيله بصفوة آل البيت ذلك التمثيل المفجع وما سمعوه بعد ذلك من انصرافه إلى اللهو والخمر فرأى عثمان هذا أن يوجه نفراً من وجهاء أهل المدينة إلى يزيد فيستميلهم إليه بهباته ويتلافى الفتنة بذلك وبالفعل وجّه عبد الله بن حنظلة الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الأيبر ونحوهم من كبار المهاجرين والأنصار إلى دمشق فاستقبلهم يزيد بالإكرام وأغدق عليهم الهبات غير أنّهم رأوا عياناً ما كرهوه منه على السماع من انصرافه وهو خليفة المسلمين إلى ما حرَّم الله من الموبقات والمخازي فرجعوا إلى المدينة وهم أشدُّ نقمة على يزيد فأطلقوا ألسنتهم بعيبه وسبّوه أشنع السبّ وأعلنوا أنّهم خلعوا بيعته فتابعهم الناس وكانوا كما سبق القول يكرهون خلافته وحصروا=

=مَن في المدينة من الأمويين بدار مروان بن الحكم فوجّه عليهم يزيد جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل بقيادة مسلم بن عقبة المرّي فلما وصل مسلم إلى المدينة دعا أهلها للخضوع فأبوا فحاربهم وحاربوه فكانت الغلبة لأهل الشام بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير وما اكتفى مسلم بهذا الشرّ بل أباح مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أيام فأعمل رجاله فيها أيدي النهب والسبي والقتل غير محترمين جيرة رسول الله وأنّها والله لجرأة لم يقدم عليها ذو سلطان في الإسلام وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنّهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم فمن امتنع عن ذلك قتله وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجّة سنة ٦٣ للهجرة . وقد نال الشيخ الخضري من أهل المدينة المنوَّرة وهم جيران المصطفى باللوم والتقريع وألزمهم بجزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة المنورة غير أنّه هداه الله رأى من باب « الذوق » أن يقول إنّه كان من اللازم على يزيد وأمير جيوشه مسلم أن لا يسرفا بمعاملتهم هذا الإسراف فتأمل . على أنّ الذي يسهل عليه قتل أولاد رسول الله لا يصعب عليه انتهاك حرمة مدينته والوقيعة بجيرانه .

وتلا هذان الحادثان الفظيعان حادث ثالث لا يقلُّ عنهما فظاعةً في عهد يزيد ومشيريه وهم مَن علمنا من تحليل كلّ محرَّم وذلك الحادث هو حصار مكة المكرمة وانتهاك حرمة كعبتها المشرَّفة . وذلك أنَّ عبد الله بن الزبير بعد أن بلغه مقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا أهل مكة وهو فيها إلى بيعته فتألّب عليه الناس لما علمنا من كرههم لخلافة يزيد فلما وجّه هذا مسلماً لحرب المدينة المنوَّرة أمره أن يسير بعد أن يبطش بأهلها إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فصدع مسلم بالأمر وسار من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة وهلك في الطريق في موضع يدعى المشلل فخلفه في قيادة جيش يزيد الحصين بن نمير بذلك سبق وأمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فوصلها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ للهجرة وقدم عليه ابن عامر الحنفي الخارجي نجدةً له فخرج إليهم عبد الله بن الزبير وحاربهم فتغلبوا على جيشه فارتد إلى مكة فأقاموا عليه يحاربونه بقية المحرَّم وصفر كله غير مكترثين بحرمة القتال في محرَّم وفي اليوم الثالث من ربيع الأول رموا مكة كرّمها الله بالمنجنيق وحصروها وما زالوا يحاصرونها حتى بلغهم أنَّ صاحبهم يزيد لعنه الله قد هلك فارتدوا راجعين .

ولعمر الحقّ أنَّ هذه الحوادث الفظيعة التي حدثت على عهد يزيد وبأمره لتدهش=

فَضَائِلُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلشُّهْبِ نَيِّرَةٌ   وَكُلُّ ذِيْ بَصَرٍ فِيْ ٱلنَّاسِ رَائِيْهَا[1]

=عقول الناس فتستقلُّ معها كلَّ فظاعة يأتيها ظلمة الملوك فلا عجب إذا بات يزيد موضع لعنة المسلمين إلى يوم الدين . على أنّ صاحبنا الشيخ الخضري لا يرضى أن يتحمل صاحبه يزيد كل تبعة هذه الجرائم وهو أبوها وأمّها بل يجعل نصيبه منها الجزء الصغير هذا حكم الشيخ الخضري فما رأي المسلمين ؟؟ .

وهلك يزيد لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣ مسيحية » وكانت وفاته بحوران من أرض الشام وله من العمر ٣٩ سنة وكانت مدة خلافته المتمثلة من الكوارث والفظائع ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً والحمد لله أنّها لم تطل أكثر من ذلك سبحانه لطيف بالعباد .

قلنا إنَّ يزيد كان مسرفاً بالمحرمات ومن جملتها إدمان الخمرة فحدث أنّه في حجته الأولى في عهد أبيه نزل في مدينة الرسول وعوضاً عن زيارة الروضة الشريفة جلس على الشراب وجاءَه سيدنا الحسين للزيارة فأذن بإدخاله عليه فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال مستهزءاً : لله درُّ طيبك ما أطيبه قال هو طيب يصنع في الشام ثمَّ دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر وقال للساقي اسقِ أبا عبد الله فقال له الحسين عليه السلام عليك بشرابك يا صاح لا عين عليك مني فقال يزيد وكان شاعراً حسن الشعر :

ألا يا صاح للعجبِ   دعوتك ذا ولم تجبِ
إلى الفتيات والشهوا   ت والصهباء والطربِ
وباطيةٍ مكلَّلةٍ   عليها سادة العربِ
وفيهنَّ التي تبلت   فؤادك ثمَّ لم تتبِ

فنهض سيدنا الحسين عليه السلام وقال بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت . ومن هذه القصة تعلم حال يزيد ولا تتعجب بعدها من استحلاله المحرمات وإقدامه على شرّ الفظائع والمنكرات .

(١) لا بدَّ للمؤرخ المنصف أن يرسل نظرة نقَّادٍ حازمٍ إلى الظروف التي تبعت عهد أمير المؤمنين عندما يبحث في فضائله السامية العظيمة التي جعلته على رأس=

= الخلائق بعد المصطفى لا جرم أنّه لو فعل ذلك لعرف أن ما بقي أمامنا منها هو جزء يسير مما غاب عنّا فجهلناه وهذا ما نريد أن نوضحه في هذه الحاشية .

إنّ معاوية استلم الخلافة الإسلامية اغتصاباً وهذا لا خلاف فيه لأننا رأيناه حارب الخليفة الشرعي الذي تولّى الخلافة كما تولّاها الذين سبقوه ببيعة الذين لهم حقّ بالبيعة وهم الصحابةُ المهاجرون والأنصار في المدينة المنوَّرة وهذا الخليفة الشرعي فضلاً عن صحة بيعته وشرعيتها له من نسبه وحسبه وسابق جهاده في سبيل الإسلام وقديم صحبته للمصطفى ما ليس لمعاوية شيءُ منه على الإطلاق وعدا ذلك فرغبة المصطفى فيه ظاهرة بكلّ جلاء في الأحاديث الثابتة المرويّة عنه عليهما الصلاة والسلام وهذه الأحاديث الشريفة النبويّة الثابتة لها من التأثير الديني على نفوس المسلمين ما لا تستطيع القوَّة القاهرة التغلب عليه كما لا يخفى فمن الضرورة قد أصبح معاوية ومن تبعه من خلفاء بني أمية في اضطراب دائم من تأثير هاتيك الأحاديث الشريفة على خلافتهم بحيث يجعلها دائماً أبداً قلقةً بهم وأصبح يهمهم جداً أن يضعفوا تأثيرها بأمرين أولهما أن يمنعوا تداولها بين الناس وثانياً أن يوجدوا أحاديث تشابهها والله يعلم مقدار صحتها وثبوتها يدعون أنّ المصطفى قالها لغير سيدنا علي من الصحابة ولا سيما الذين تولّوا الخلافة منهم وللوصول إلى هذا الغرض استعمل معاوية المال فكان يهب الألوف لمن حوله من الذين صحبوا المصطفى من المهاجرين والأنصار ليكفّوا ألسنتهم عن ذكر الأحاديث الشريفة التي قيلت في سيدنا أمير المؤمنين وعن ذكر بواهر أعماله في الغزوات النبويّة وليقوّلهم من الأحاديث ما لم يقله المصطفى عليه‌السلام أو ليزيدوا على ما قال ما فيه مصلحته وهذا نطق به علماء الحديث تارةً صراحةً وطوراً ضمناً بعد زوال الملك من بني أميّة ، على أنَّ معاوية لم يستعمل القوَّة ضدّ الذين كان يعرف أنّهم أنصار الحقّ لا يخفونه على ما أعلم خلافاً للذين تولّوا الخلافة بعده فإنّهم أخذوا يضطهدون كلَّ من جهر بفضائل سيدنا علي أو روى الأحاديث النبوية التي قيلت فيه سواءً بالزجّ في الحبوس أو بالقتل أحياناً . وأنت تعلم أنَّ الخلافة الإسلامية ظلّت في أيدي الأمويين نحو المئة عام « من سنة ٤١ للهجرة إلى سنة ١٢٢ للهجرة » ففي كلّ هذه المدة الطويلة كان الناس يتزلفون إلى الأمويين بذمّ سيدنا علي وسبّه ويتعرض المتشيعون له إلى أنواع المظالم والمغارم فلا عجب بعد هذا إذا قلنا أننا فقدنا كثيراً من معرفة فضائل سيدنا علي وبواهر أخباره . =

وَلَيسَ يُنْكِـرُهـا إلاَّ ٱلْمُكَـابِـرُ وَٱلْـــحَسُوْدُ وَٱلشَّانِيُّ ٱلْبَـاغِيْ تَـوَارِيْهَـا
وَهَبْهُمُ نَكَـرُوْا شَمْسَ ٱلضُّحَى أَفَيَعْـــمَى ٱلنَّاسُ تَٱللَّهِ عَنْ زَاهِيْ تَـلاَلِيْهَا
وَهَـلْ أَكُفُّهُمْ بِـٱلشَّمْسِ ظَـافِـرَةٌ وَقَـدْ أَفَـاضَتْ سَنَاهَـا كَيْ تُخَفِّيْهَـا
لَوْلاَ ٱلْمَطَامِعُ تَسْتَغْوِيْ ٱلنُّفُـوْسَ لَمَا شُمْنَا جُحُوْدَاً لَهَا فِيْ ٱلنَّاسِ شَانِيْهَا
وَلاَ سَمِعْنَـا رُوَاةَ ٱلْكِذْبِ تَـطْلُبُ دُنْـــيَاهَـا بِمَـا قَـدْ رَوَتْـهُ مِنْ تَمَنِّيْهَا
وَٱلـدَّهْـرُ نَقَّى أَبَـاطِيْـلَ ٱلـرُّوَاةِ وَلاَ شَـاهَا وَضَعْضَـعَ شَـارِيْهَـا وَمُنْشِيْهَـا
وَأَظْهَـرَ ٱلْحَقَّ وَضَّـاحَـاً لِأَعْيُنِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ كَٱلشَّمْسِ فِيْ أَسْنَى تَجَلِّيْهَا
وَلاَحَ حَيْـدَرَةٌ أَسْمَى ٱلْخَـلاَئِقِ إِفْـــضَـالاً وَأَرْفَعَهَـا قَـدْرَاً وَتَـوْجِيْهَـا

عناية الله بأمير المؤمنين

قَالَ ٱلرَّسُوْلُ ٱلْمُفَدَّى فِيْ أَبِيْ حَسَنٍ مُنَوِّهَاً بِٱسْمِهِ فِيْ ٱلنَّـاسِ تَنْوِيْهَـا[1]
فَقَالَ: رَبُّ ٱلْبَرَايَـا فِيْ ٱلْعَلِيِّ أَخِيْ قَـدْ قَالَ لِيْ قَـوْلَـةً عَصْمَـاءَ أَرْوِيْهَـا

= وإذا عرفنا أنّ الناس في ذلك الزمان ما كان لديهم من أسباب التـدوين والنشر مـا لـدينا الآن فمـا كان كتـابهم كثيرين ولا كـان عندهم مـطابع ولا مـا يشبهها وكـان جـلّ أعتمادهم على الحفظ لا تعجب بعد هذا إذا قلنا أنّ المسلمين أصبحوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة وهم لا يعلمون عن فضائل سيـدنا علي وأعمـاله البـاهرة إلاّ مـا عجز الأمويون عن إخفائه وهو بالطبع قليل من كثير على أنَّ هذا القليل يكفي لنعرف كنه ذلك الـرجل العـظيم الكامـل الذي لا يفضله إنسـان في خلائق الله عـزَّ وجلَّ إلاَّ المصـطفى عليهما الصلاة والسلام .

(١) إذا لم يكن في سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام غير هذا الحديث الشريف الذي لم يطعن بصحته طاعن ولم يشكَّ في صدقه شاكٌّ لكفى الناس اعتقاداً ببرارته وعناية الله عزَّ وجلَّ به وعالي منزلته عند ربّه سبحانـه وتعالى فقـد قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ الله قد عهـد إليَّ في علي عهـداً ، فقلت : يـا ربّي بينـه لي ، قـال : اسمـع ، إنَّ عليـاً رايـة الهدى ، وإمام أوليائي ، ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين ، من أحبّه =

فَقَـالَ سُبْحَانَـهُ: أَنَّ ٱلْعَلِيَّ غَـدَا فِيْ ٱلنَّاسِ رَايَةَ هَدْيٍ رُحْتُ مُرْبِيْهَا

وَأَوْلِيَـائِيَ مَـنْ كَـانَ ٱلْإِمَـامَ لَهَـا وَكَـانَ وَاعِـظَهَـا ٱلْهَـادِيْ وَحَـامِيْهَـا

وَإِنَّـهُ نُـوْرُ مَنْ فِيْ طَـاعَتِيْ نَشَـأَتْ تَجْلُوْ بِـهِ فِيْ مَخَـاطِيْهَـا دَيَاجِيْهَـا

وَإِنَّـهُ غَـايَـةُ ٱلْقَـوْمِ ٱلتُّقَـاةِ وَقَـدْ أَضْحَى لَهَـا قِـدْوَةً أَمْنٌ تَقَـدِّيْهَـا

أَحَبَّنِي مَنْ لَـهُ بَـاتَ ٱلْمُحِبَّ وَقَـدْ أَطَـاعَنِيْ مَنْ لَـهُ قَـدْ طَاعَ تَجْـرِيْهَـا

بَشِّـرْهُ فِيْ ذَا فَنَـادَيْتُ ٱلْإِلٰـهَ: بَلَى بَشَّـرْتُهُ وَهْيَ بُشْـرَى ٱلْحَمْدُ تَـالِيْهَـا

فَقَـالَ: إِنِّيَ عَبْـدُ ٱللَّهِ نَفْسِـيَ فِيْ يَـدِ ٱلْمُهَيْمَنِ مُفْنِيْـهَـا وَمُحْيِيْـهَـا

فَـإِنْ قَضَى بِعَـذَابِيْ لَيْسَ يَـظْلِمُنِي بَلْ فِيْ ذُنُوْبِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتُ جَانِيْهَـا

وَإِنْ يُتِمَّ ٱلَّـذِيْ قَـدْ كَـانَ وَاعِـدَنِيْ فَـرَحْمَـةٌ مِنْ رَحِيْمٍ كَـانَ مُسْـدِيْهَـا

وَقُلْتُ: رَبَّـاهُ إِنِّيْ قَـدْ دَعَـوْتُ لَـهُ وَدَعْـوَتِيْ بِـالْـرِّضَى أَنْتَ ٱلْمُلَبِّيْهَـا

لَا هُمَّ طَهِّـرْ خَفَـايَـا قَلْبِـهِ وَبِـكَ ٱلْإِ يْمَـانُ دَعْـهُ كَمَـا يُـرْضِيْـكَ يَثْـوِيْهَـا

فَقَـالَ سُبْحَـانَـهُ: أَبْشِـرْ فَعَلْتُ وَلٰـــكِنْ دُوْنَـهُ نُـوَبٌ لَا شَـكَّ لَاقِيْهَـا

خَصَصْتُهَـا بِـعَلِيٍّ لَـمْ أَخُصَّ بِهَـا مِنْ أَوْلِيَـائِيْ فَتًى فَهْـوَ ٱلْمُعَـانِيْهَـا

فَـقُلْتُ: لَاهُـمَّ رَبِّيْ رَحْـمَـةً لِعَلِــيٍّ صَاحِبِيْ وَأَخِيْ إِنِّيْ ٱلْمُرَجِّيْهَـا

= فقد أحبّني ، ومن أطاعه فقد أطاعني ، فبشّره بذلك ، قال رسول الله : قلت قد بشّرته يا ربّ ، فقال لي : أنا عبد الله وفي قبضته ، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى . قال رسول الله : وقد دعوتُ له فقلت : اللهمَّ ، أجلُ قلبه ، واجعل ربيعه الإيمان بك. قال سبحانه: قد فعلت ذلك ، غير أنّي مختصه بشيء من البلاء ، لم اختصّ به أحداً من أوليائي . قال المصطفى : فقلت ربي ، هو أخي وصاحبي قال سبحانه : إنّه سبق في علمي أنّه لمبتلى ومبتلى » اهـ لا جرم أنَّ عناية الله سبحانه بسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام لتكفي للدلالة على وجاهته العليا عنده جلَّ جلاله .

فَقَالَ: سُبْحَانَهُ: قَدْ كَانَ مُبْتَلِيَاً ... وَمُبْتَلَى تِلْكَ بَلْوَى لَسْتُ مُرْجِيْهَا

وَذَا بِسَابِقِ عِلْمِيْ كَانَ وَٱكْتُتِبَتْ ... حُرُوْفُهُ وَقَضَائِيْ كَانَ مُمْلِيْهَا

هٰذِيْ رِوَايَةُ طَهَ فِيْ أَبِيْ حَسَنٍ ... لَقَدْ جَرَتْ مِثْلَهَا قَدْ كَانَ رَاوِيْهَا

وَإِنَّهَا وَحْدَهَا تَكْفِيْ ٱلْعَلِيَّ فَخَا ... رَاً إِذْ تُوَجِّهُهُ فِيْ ٱلنَّاسِ تَوْجِيْهَا

عبادة أمير المؤمنين

عِبَادَةُ ٱللَّهِ مِنْ أَسْمَى ٱلْفُرُوْضِ عَلَى ... أَهْلِ ٱلتُّقَى فَازَ بِٱلنُّعْمَى مُؤَدِّيْهَا[1]

بِهَا ٱلتَّقِيُّ يُوَفِّيْ حَقَّ خَالِقِهِ ... حَمْدَاً عَلَى نِعَمٍ مَا ٱنْفَكَّ يُسْدِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى أَعْبَدُ ٱلْعُبَّادِ أَجْمَعِهَا ... لِرَبِّهِ بِعِبَادَاتٍ يُتَلِّيْهَا

وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ صَوْمَاً عَنْ تُقَى وَصَلا ... ةً كَانَ عَنْ وَرَعٍ دَوْمَاً يُصَلِّيْهَا

---

(١) ليس مَن يخالفنا إذا قلنا أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد كان أكثر المسلمين إخلاصاً لله سبحانه وتعالى بل وأطهرهم نيةً في عبادته ربّه وأعظمهم ورعاً في سجوده وقيامه ولا عجب في هذا بعد أن عرفنا أنّه نشأ في حجر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وتربى على يديه وحضره وجبريل يغدو إليه ويروح بالوحي الإلٓهي ومَن نشأ نشئه القدسيَّ لا جرم أن يظلَّ الدهر صائماً مصلياً متفانياً في مرضاة ربّه منصرفاً إلى الآخرة بكليته .

وأجمع المؤرخون على أنَّ الناس تعلموا منه عليه السلام صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة . وما يبلغ الظن برجل من محافظته على ورده أن يبسط له نطعٍ في صفين ليلة الهرير وهي أشدّ ليالي تلك الحرب الشعواء قتالاً فيصلي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمرُّ على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من صلاته ؟ وما الظنُّ برجلٍ كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده ؟ ومن تأمل دعوات المرتضى وما طوى طيَّ مناجاته لربّه ووقف على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته والاستخذاء له عرف ما انطوت عليه نفسه الشريفة من الإخلاص لله عزَّ وجلَّ وفهم من أي قلبٍ خرجت تلك الأدعية الصادقة الصالحة وعلى أي لسانٍ طهورٍ جرت .

مِنْهُ تَعَلَّمَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْهُجُوْدَ فَتُحْـيِيْ بِـٱلصَّلاَةِ لِبَارِيْهَا لَيَـالِيْهَـا

وَعَنْهُ قَدْ تَخِذَتْ مَبْدَا مُلاَزَمَةِ ٱلأَ وْرَادِ يَكْتَسِبُ ٱلْغُفْـرَانَ تَـالِيْهَـا

كَـذَا نَـوَافِلُهَـا عَنْـهُ قَـدِ ٱقْتَبَسَتْـهَا فِيْ ٱلْعِبَادَةِ وَٱنْصَاعَتْ تُؤَدِّيْهَا

وَمَـا يُـظَنُّ بِمَنْ يَتْلُوْ ٱلْـوُرُوْدَ بِلَيْـلَةِ ٱلْهَـرِيْـرِ ٱلَّتِيْ عَمَّتْ كَـوَادِيْهَا

جَثَا عَلَى ٱلنِّطْعِ وَٱلأَنْبَالُ مُرْسَلَةٌ حَوْلَيْهِ تَتْرَى وَلَمْ يَـرْهَبْ رَوَامِيْهَا

وَمَـا يُـظَنُّ بِمَنْ تَـٱللَّهِ جَبْهَتُـهُ قَدْ شُوِّهَتْ بِلِمَاسِ ٱلأَرْضِ تَشْوِيْهَا

مِنَ ٱلسُّجُوْدِ فَحَاكَتْ ثَفْنَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْـبَرَّاكِ أَوْ فِيْ جَفَاهَا مَا يُحَاكِيْهَا

وَمَنْ وَعَى دَعَوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى وَمُنَا جَاةٍ بِهَا ٱلْعِـزَّةُ ٱلْعُلْيَا يُنَاجِيْهَا

وَمَا حَوَتْهُ مِنَ ٱلتَّعْـظِيْمِ أَسْطُرَهَا لِلَّهِ فِيْ كُـلِّ حَرْفٍ مِنْ مَبَـانِيْهَـا

مَعَ ٱلْخُشُوْعِ وَإِظْهَارِ ٱلْخُضُوْعِ لَهُ سُبْحَانَهُ حَسْبَمَا تَرْمِيْ فَحَاوِيْهَا

دَرَى حَقِيْقَةَ مَا فِيْ نَفْسِ حَيْـدَرَةٍ وَمَا أَسَـرَّتْ مِنَ ٱلتَّقْـوَى لِبَارِيْهَـا

وَإِنَّهَا بَعْضُ مَا فِيْ نَفْسِـهِ بَدَرَتْ مِنْ فِيْهِ وَٱلْقَلْبُ بِٱلإِخْـلاَصِ مُمْلِيْهَا

وَٱلْمُـرْتَضَى كَانَ لِلْخَلاَّقِ مُنْجَذِبَاً بِـرُوْحِهِ كَـانَ بِـٱلتَّقْـوَى تَحَجِّيْهَا

وَقَـدْ تَجَلَّتْ لَهَا ذَاتُ ٱلْمُهَيْمِنِ فِيْ أَنْـوَارِهَـا فَـتَمَلَّتْ مِنْ تَـجَلِّيْـهَـا

وَطَالَمَا شَارَكَتْ جَمْعَ ٱلْمَلاَئِكِ فِيْ ٱلْـتَسْبِيْـحِ مُنْشِـدَةً فِيْـهِ أَغَـانِيْهَـا

عِبَـادَةً مَـا لَهَـا إِلاَّ أَبُـوْ حَسَنٍ وَمَـا سِـوَاهُ حُقُـوْقُ ٱللَّهِ يَقْضِيْهَـا

أمير المؤمنين وتفسير القرآن

لاَ يُدْرِكُ ٱلآيَ إِلاَّ ٱلرَّاسِخُوْنَ بِعِلْـمِ ٱلدِّيْنِ مَنْ فَقِهُوْا سَامِيْ مَعَانِيْهَا(١)

---

(١) إنَّ تفسير القرآن الشريف الذي لا يدرك آياته إلاَّ الله والراسخون في العلم=

وَهُمْ لَقَدْ فَسَّرُوْهَا بَعْدَ أَنْ دَرَسُوْا مِيْقَاتِ تَنْزِيْلِهَا مَعْ قَصْدِ مُوْحِيْهَا
عَلَى ٱلْأُلَى صَحِبُوْا طَهَ وَقَدْ شَهِدُوْ هَا نَازِلَاتٍ عَلَيْهِ فِيْ مَثَانِيْهَا

= هو من أجلّ العلوم التي تتوقف عليها الهداية إلى حقائق أوامر الله ونواهيه . وبالبداهة أنَّ أقدر الناس على تفهم الآيات وإدراك فحاويها هم الذين تلقوها من فم المصطفى ﷺ ولا يتمُّ هذا إلّا للذين تشرفوا بصحبته وشهدوا الظروف التي نزلت فيها وتلقوا من فم الحضرة النبوية تفسيرها وليس في أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من لازمه ملازمة سيدنا علي وقد عرفنا أنّه لزمه وهو فتىً وتربى على يديه وتأدب بأدبه وساعده ذكاؤه الفطري العجيب على وعي هاتيك الحقائق الإلّهية وإدراك سامي معانيها فما عجيبٌ والحالّة هذه إذا ما كان عليه السلام أفضل من تفهم المثاني وفسّرها للناس وقال غير مرةٍ « اسألوني قبل أن تفقدوني » بل وهل غيره يستطيع أن يقول هذا القول فيجمع الناس على أنّه ما ادعى دعوى لم يدعمها برهان ولا قال قولةً يكذبها الامتحان .

ومن المعلوم أنَّ علماء التفسير من صدر الإسلام حتى يومنا هذا يستندون إلى ما روته الصحابة في تفسير الآيات وميقات نزولها والضرورة التي نزلت لأجلها وتفسير المصطفى ﷺ لها وأكثر ما يستشهدون به وهو مرويات سيدنا علي أمير المؤمنين وعبد الله بن عباس وأقوالهما . أمَّا سيدنا علي فحاله من صحة الرأي وصدق التفسير ما لا مجال إلى الشكّ فيه . وأمّا عبد الله بن عباس وهو ابن عمّ رسول الله العباس فقد تربى وتثقف على يدي سيدنا أمير المؤمنين وصحبه طوال حياته منذ شبَّ إلى يوم فرّق بينهما الموت ما فارقه لحظةً فيكون كل ما نقل عن عبد الله بن عباس كأنّه منقول عن معلمه ومربيه وهكذا يرجع فن تفسير القرآن إلى سيدنا أمير المؤمنين بغير جدال .

وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام أصبح المرجع الأكبر لتفسير القرآن عبد الله بن عباس فكان موضع ثقة المسلمين وقوله حجة عندهم وما زالت منزلته العلمية تعلو في نظر المسلمين حتى حسبوه مدانياً لمرتبة علي بن أبي طالب وجاءَه منهم من سأله قائلاً : أين علمك من علم ابن عمك علي ؟ فتبسم عبد الله وقال : إنَّ نسبة علمي إلى علم أمير المؤمنين كنسبة القطرة إلى البحر المحيط . وعبد الله بن عباس كان يعرف مبلغ علم سيدنا علي أكثر من جميع الناس وشهادته فيه لها نصيبها من الاعتبار .

وَلَمْ يُلاَزِمْ كَمِثْلِ ٱلْمُرْتَضَى أَحَدٌ مُحَمَّداً صُحْبَةً ثَبْتٌ أَوَاخِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَصْحَابِ ٱلرَّسُوْلِ ذَكِـ ـيٌّ مِثْلُهُ بَيْنَ طِيْبِيْهَا وَمَكِّيْهَا
يَعِيْ وَيُدْرِكُ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ وَأَقْـ ـوَالِ ٱلرَّسُوْلِ وَيَسْتَجْلِيْ خَوَافِيْهَا
فَمَا عَجِيْبٌ إِذَا مَا كَانَ أَفْضَلَ مَنْ قَدْ فَسَّرَ ٱلآيَ وَٱسْتَقْصَى فَحَاوِيْهَا
وَقَالَ: هَيَّ ٱسْأَلُوْنِيْ فِيْ شَرِيْعَتِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَفْقِدُوْنِيْ عَنْ مَرَامِيْهَا
وَبَاتَ كُلُّ عَلِيْمٍ قَدْ تَعَرَّضَ لِلـ ـتَّفْسِيْرِ آثَارُهُ ٱلْغَرَّاءُ قَارِيْهَا
إِلَيْهِ يَرْجِعُ فِيْمَا قَدْ رَوَى وَقَضَى وَقَوْلَةُ ٱلْمُرْتَضَى كُلُّ ٱلْهُدَى فِيْهَا
أَوْ لِٱبْنِ عَبَّاسَ تِلْمِيْذِ ٱلْوَصِيِّ وَقَدْ رَوَى ٱلْأَحَادِيْثَ عَنْهُ فَهْوَ رَاوِيْهَا
وَقِيْلَ يَوْمَاً لِعَبْدِ ٱللَّهِ: أَيْنَكَ مِنْ عَلِيِّ مَنْ مِنْكُمَا قَدْ فَاقَ تَفْقِيْهَا
فَقَالَ: نِسْبَةُ عِلْمِيْ لِلْعَلِيِّ كَنِسْـ ـبَةِ ٱلْقُطَيْرَةِ لِلْأَبْحَارِ ضَافِيْهَا

أمير المؤمنين وقراءة القران

مَا كَانَ يَحْفَظُ إِلَّا ٱلْمُرْتَضَى بِحَيَا ةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلآيَ فِيْ سَامِيْ تَتَالِيْهَا[1]
وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَهُ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَوْ أَنْصَارِهِ ٱلْمَعِيُّ ٱلنَّفْسِ وَاعِيْهَا

(١) أجمع الرواة على أنّ المرتضى عليه السلام كان أكبر ثقة في حفظ القرآن على حياة المصطفى عليهما الصلاة والسلام كما أنَّ آيات الوحي كان يكتبها على ألواح الجمال ويحفظها عنده ويتقن عن رسول الله قراءتها كما كان يرويها عندما توحى إليه . وعندما توفي المصطفى انصرف أمير المؤمنين إلى جمع الآيات وتنسيقها صيانةً لها من التحريف والتصحيف وكان يُقرئها الناس أيضاً لكي لا يخطئوا في قراءتها وسبق لنا القول انّ نسبة القرآن إلى عثمان بن عفان ليس لأنّه هو الذي جمعها كما تبادر إلى أذهان بعض الناس ولكن لحادث آخر وهو أنَّ حروف الكتابة في ذلك الزمان كانت خالية من النقط والحركات كما نرى من بقايا نسخ القرآن الشريف المحفوظ بعض نسخها في المكتبة السلطانية بمصر فعندما نقل المسلمون القرآن كما جمعه سيدنا علي وتداولوه=

فَكَانَ جَامِعَهَا بَعْدَ ٱلشَّتَاتِ بِقُرْ آنٍ كَمَا نَزَلَتْ هَدْيَاً لِأَهْلِيْهَا
وَضَابِطَاً بَعْدَ تَدْقِيْقٍ قِرَاءَتَهَا كَيْ يَأْمَنَ ٱلْخَطَأَ ٱلْمَجْحُوْدَ قَارِيْهَا
أَرَادَ فِيْ ذَاكَ صَوْنَ ٱلآيِ مِنْ خَطَرِ ٱلـ تَّحْرِيْفِ إِنْ تُرِكَتْ فَوْضَى لِتَالِيْهَا
وَأَنْ يُسَهِّلَ لِلنَّاسِ ٱلْوُقُوْفَ عَلَى وَحْيٍ بِهِ ٱلْمُصْطَفَى قَدْ جَاءَ يَهْدِيْهَا
فَمِنْهُ تَعْلَمُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيْعَةِ وَٱلـ دِّيْنِ ٱلْحَنِيْفِ كَمَا قَدْ نَصَّ مُوْحِيْهَا
وَتَمَّمَ ٱلْبُغْيَةَ ٱلْعُظْمَى بِهِمَّتِهِ ٱلـ شَّمَّا ٱلَّتِيْ تَحْمَدُ ٱلدُّنْيَا مَسَاعِيْهَا
وَأَجْمَعَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلْمُتَّقُوْنَ عَلَى ٱلإِ قْرَارِ بِٱلنُّعْمَةِ ٱلْكُبْرَى لِمُسْدِيْهَا
كَذَاكَ كُتْبُ ٱلْقُرَاآتِ ٱلَّتِيْ نُشِرَتْ تَجْلُوْ حَقِيْقَةَ مَا قُلْنَا وَتُبْدِيْهَا
أَمَا أَئِمَّةُ قُرَّاءِ ٱلْكِتَابِ إِلَى ٱلـ سِّلْمِيِّ تَرْجِعُ فَٱعْلَمْ أَنَّ سُلْمِيْهَا
قَدْ كَانَ تِلْمِيْذَهُ عَنْهُ قَدِ ٱتَّخَذَ ٱلْـ قُرْآنَ مَجْمُوْعَةً صَحَّتْ أَمَالِيْهَا
كَذَا ٱنْتَهَى عَلَنَاً فَنُّ ٱلْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ مِثْلُ فُنُوْنِ ٱلدِّيْنِ بَاقِيْهَا

=فيما بينهم تطرأ إليه شيءٌ من الخطأ في القراءة وأخذوا يختلفون في أيّ النسخ هي الصحيحة وصاروا يقولون قرآن فلان يقول كذا وقرآن فلان يقول كذا وكان ذلك على عهد عثمان فجمع هذا نسخ القرآن وأقرَّ بمعاونة سيدنا علي وأكابر الصحابة التقاة على الصحيح منها وكتب منه سبع نسخ فكانت هي موضع اعتبار المسلمين وبذلك نسب القرآن إلى عثمان مع أنّ جامعه ومنسقه هو سيدنا علي اشتغل في ذلك على أثر وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام . أمّا كتب القراآت فمرجعها كلها إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وأمثالهما من الأئمة وهؤلاء كلهم تلاميذ أبي عبد الرحمن السلمي القاري فثقفوا على يديه واتخذوا قراءة القرآن عنه وأبو عبد الرحمن السلمي القاري هو تلميذ سيدنا علي ومن فمه الشريف تعلم قراءة القرآن ورواها وهكذا يكون جمع القرآن وصيانته من التحريف واتقان قراءته بفضل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

علم أمير المؤمنين

بَحْـرُ ٱلْعُلُوْمِ أَمِيْـرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِـلاَ رَيْبٍ وَفِيْ صَـدْرِهِ مَثْوَى لآلِيْهَـا[١]

هَيْهَـاتِ مَـا فِيْ عِبَـادِ ٱللَّهِ ذُوْ بَصَـرٍ إِلاَّ وَعَـنْـهُ تَـلَقَّـاهَـا وَيَـرْوِيْـهَـا

مَـا فَـاتَـهُ أَبَـدَاً إِدْرَاكُ ظَـاهِـرِهَـا أَوِ ٱلْـوُصُـوْلُ إِلَى أَخْفَى خَـوَافِيْهَا

وَٱلْمُصْـطَفَى شَـاهِـدٌ حَقٌّ شَهَـادَتُـهُ فِيْـهِ وَإِنَّ عِبَـادَ ٱللَّهِ تَـدْرِيْـهَـا

فَقَـالَ: إِنِّيَ لِلْعِلْمِ ٱلْمَـدِيْنَـةُ وَٱلْـــبَـابُ ٱلْعَلِيُّ وَمِنْـهُ فَـازَ آتِيْـهَـا

وَقَـالَ: خَـازِنَ عِلْمِيْ كَـانَ حَيْـدَرَةٌ وَكَـانَ عَيْبَـتَـهُ فَتْـوَىً وَتَـفْقِيْهَـا

أمير المؤمنين والعلم الإلهي

أَسْمَى ٱلْعُلُوْمِ وَأَعْـلاَهَا وَحَقِّكُمُ ٱلْـــعِلْمُ ٱلَّذِيْ كَانَ مُخْتَصَّاً بِبَارِيْهَـا[٢]

عِلْمٌ بِـهِ يَعْـرِفُ ٱلْمَخْلُوْقُ خَـالِقَـهُ حَتَّى يَـهِيْـمَ بِـهِ حُبَّـاً وَتَـدْلِيْـهَـا

---

(١) لا جدال ولا إشكال أنَّ سيدنا علي عليه السلام قد كان أعلم العلماء وأفقه الفقهاء وأسمى من جمع في صدره علوم الدنيا والآخرة وهذا مسلم به من كل عالم وفقيهٍ من الأولين والآخرين وقد شهد له المصطفى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد الحكمة فليأت الباب» وقال فيه أيضاً «خازن علمي» وقال فيه أيضاً «عيبة علمي» والعيبة حقيبة من آدم يجعل فيها الثياب.

(٢) لا جدال أنَّ أشرف العلوم هو العلم الإلّهي لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم وهذا العلم مصدره الوحي الإلّهي والذكر الحكيم والأحاديث النبوية وكان أول وأفضل من نظر في القرآن والسنة وأفتى بهما وأظهر جلائل مراميهما هو سيدنا علي عليه السلام بإجماع المهاجرين والأنصار وحسبنا أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان كانوا يرجعون إليه ليفتيهم بما أشكل عليهم فضلاً عمّا في خطبته الغرّاء وأقواله المأثورة من درر هذا العلم الإلّهي حتى أصبح هذا العلم بغير مراء مقتبساً من كلامه ونقل عنه ومنه ابتدأ وإليه انتهى. وهؤلاء هم المعتزلة المعروفون بالتوحيد والعدل حتى أصبحوا بهما أساتذة الناس هم تلاميذه وقد اغترفوا من بحر علمه الزاخر لأنَّ كبيرهم واصل بن عطاء هو =

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ بِـآلْإِحْكَامِ وَاضِعَـهُ   هِـدَايَـةً لِلْوَرَى مَـا ضَـلَّ هَـادِيْهَـا
وَعَنْـهُ قَدْ أَخَـذَ ٱلنَّاسُ ٱلْهِـدَايَـةَ لِلْــعِلْمِ ٱلْإِلٰهِيِّ فِيْ أَسْنَى مَجَـالِيْهَـا
وَإِنَّ مُـعْتَـزِلِـيْـهَـا هُـمْ تَـلَامِـذَةٌ   لَـهُ بِغَيْـرِ مِـرَا مَـعْ أَشْعَـرِيِّيْهَـا
كَـذَا ٱلْإِمَـامِيَّـةُ ٱلْمَحْمُـوْدُ مَنْشَؤُهَـا   مَـعَ آلـزَّيُـوْدِ فَمَـا إِلَّاهُ مُنْشِيْهَـا
طَـرَائِقٌ خَـطَّهَـا رُشْـدَاً أَبُـوْ حَسَنٍ   لِسَـالِكِيْهَـا فَمَـا ضَلُّوْا مَمَـاشِيْهَـا
فِيْهَـا ٱلْعَدَالَـةُ وَٱلتَّوْحِيْـدُ وَٱلنَّظَرُ آلـسَّعِيْـدُ لِلْحَقِّ يَهْدِيْ خَـطْوَ مَاشِيْهَـا

أمير المؤمنين وعلم الفقه

وَٱلْمُرْتَضَى جَعَلَ ٱلْفِقْهَ ٱلْمُشَرَّفْ عِلْـمَاً ذَا أُصُوْلٍ لَـهُ تُنْمَى أَمَالِيْهَـا[1]
وَعَنْـهُ قَـدْ أَخَـذَ ٱلنَّـاسُ ٱلتَّفَقُّـهَ فِيْ   شَـرِيْعَـةِ ٱللّٰهِ سِنِّيْهَـا وَشِيْـعِيْـهَـا

= تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأبو هاشم هذا أخذ علمه عن أبيه محمد بن الحنفية ومحمد هذا تثقف على يدي أبيه سيدنا علي عليه السلام . وكذلك نقول عن الأشعرية الذين هم تلاميذ المعتزلة فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهذا تلميذ علي الجبائي وعلى يديه تثقف في التوحيد والعدل وأبو علي الجبائي هو أحد مشايخ المعتزلة الذي بينا أنّهم تلاميذ المرتضى عليه السلام . وأمّا الإمامية والزيدية فانتسابهما إلى سيدنا أمير المؤمنين معروف مشهور وزعيماهما ولداه وعلمهما مقتبس من علمه وفضلهما منبثق من فضله .

(١) إنّ علم الفقه عليه مدار الأحكام الشرعية وبه يصل العالم إلى درجة الإفتاء السامية ولا خلاف أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام هو أصله وأساسه وكل فقهاء المسلمين قديمهم وحديثهم عيالٌ عليه قد اغترفوا من بحر علمه الزاخر يدلك على ذلك استناد هؤلاء على ما يروى من أقواله الذرية أو ما رواه الذين اقتبسوا الفقه منه .

وقد اشتهر عبد الله بن عباس بعلم الفقه حتى كان أفقه الصحابة بالإجماع وأقواله حجة عند الفقهاء لا يشكون بصحتها وقد سبقت لنا الإشارة بأنّ عبد الله بن عباس قد تعلم وتثقف على يدي سيدنا علي وكان من أنجب تلاميذه . =

وَإِنَّمَا فُقَهَاءُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِ عَيْلَةٌ خَاجُهَا مَا ٱنْفَكَّ كَافِيْهَا
عَلَيْهِ قَدْ قَرَأَتْ فِقْهَ ٱلشَّرِيْعَةِ أَصْحَابُ ٱلرَّسُوْلِ وَأَبْدَتْ فَضْلَ مُقْرِيْهَا

= وهذا عمر بن الخطاب فقد كان يرجع إلى أمير المؤمنين في كل ما يشكل عليه من الأحكام والروايات في ذلك كثيرة لا منكر لها ولا جاحد وكان يقول « لولا علي لهلك عمر » ويريد لولا علم عليّ . كما كان يقول : « لا بقيت لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن » وكان يقول أيضاً جهرةً « لا يفتينَّ أحد في المسجد وعليٌّ حاضر » وأقوال عمر بن الخطاب هذه لهي الشهادة العليا بأنّه كان متفقهاً على يديه مهتدياً بعلمه معترفاً له بالتفوق في التفسير والتشريع .

وأنت تعلم أنَّ المسلمين ينقسمون إلى مذاهب أخصّها السنة والشيعة ورجوع علماء الشيعة إلى علم أمير المؤمنين واستنادهم إلى فقهه لا يحتاج إلى بحث طويل فهم تلاميذه بالتسلسل ورأيه هو الأعلى عندهم فهم إذن يفتون بعلمه ويحكمون بفقهه . وأهل السنة يرجعون بفقههم إلى مجتهديهم الأربعة المشهورين وهم أبو حنيفة والشافعي ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل فأبو حنيفة كما نقرأ في ترجمته قد قرأ على جعفر بن محمد بن الحنفية وهذا أخذ العلم عن أبيه فيكون أبو حنيفة تلميذ سيدنا علي ويرجع بفقهه إليه . وأمّا الشافعي فقد قرأ على محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة فيكون مرجعه بفقهه إلى أبي حنيفة الذي رأيناه تلميذ أمير المؤمنين . وأمّا أحمد بن حنبل فقد قرأ على الشافعي فهو تلميذ الشافعي الذي هو تلميذ أبي حنيفة الذي هو تلميذ أمير المؤمنين وأمّا مالك بن أنس فقد قرأ على ربيعة الرأي وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقد علمنا مما تقدم أنَّ عبد الله بن عباس قد اقتبس علمه من أمير المؤمنين فيكون مرجع مالك إلى سيدنا أمير المؤمنين . وبالأحرى يكون فقه أهل السنة مقتبس من شمس علم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ومثل هذا يقال عن زعماء بقية المذاهب الإسلامية الأخرى فإنَّ علماءها الأولين الذين تنتمي إليهم لو دققت في تراجمهم وجدتهم ينتهون إلى بابه العالي وأنّهم تلاميذه ولولا التطويل وما هنا محله لأتينا على ذكر هذه المذاهب والمشترعين فيها وكيف كان زعماؤها تلاميذاً له وعيالاً عليه . وخير ما نقوله هنا هو شهادة سيدنا محمد لأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام فقد قال بحديث ثابت لا جدال في صحته « أقضاكم علي » وما أقضى القضاة إلاّ أفضلهم في علم الفقه .

فَذَا آبْنُ عَبَّاسَ عَبْدُ اللَّهِ صَاحِبُهُ   مِنْهُ فَقَاهَتُهُ ٱلْغَرَّاءُ جَانِيْهَا

وَهُوَّذَا عُمَرٌ أَحْكَامُ إِمْرَتِهِ   قَدْ كَانَ حَسْبَ فَتَاوِيْهِ يُجَرِّيْهَا

وَكُلُّ مُجْتَهِدٍ فِي أَهْلِ شِيْعَتِهِ   مِنْهُ ٱلْفَتَاوَى تَلَقَّاهَا وَيَرْوِيْهَا

وَمَا تَجَاوَزَ آرَاءً مُسَدَّدَةً   لَهُ بِأَحْكَامِهِ مَا هَمَّ يُمْضِيْهَا

وَمَا أَئِمَّةُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْفُقَهَا   ءِ ٱلْمُسْتَجَازَةُ فِي ٱلدُّنْيَا فَتَاوِيْهَا

إِلَّا تَلَامِيْذُهُ عَنْهُ لَقَدْ أَخَذَتْ   عُلُوْمَهَا وَعَهِدْنَاهُ مُرَبِّيْهَا

كَذَا إِلَى ٱلْمُرْتَضَى بِٱلْفِقْهِ تَرْجِعُ أَرْ   بَابُ ٱلْمَذَاهِبِ فِيْ ٱلْإِسْلَامِ بَاقِيْهَا

فَإِنْ تَدَبَّرْتَ تَدْقِيْقاً تَسَلْسُلَهَا   وَجَدْتَ فِيْ بَابِهِ ٱلْعَالِيْ أَوَالِيْهَا

وَٱلْمُصْطَفَى قَالَ: أَقْضَاكُمْ أَبُوْ حَسَنٍ   وَٱلنَّاسُ قَدْ شَهِدَتْ رُشْداً بِقَاضِيْهَا

أمير المؤمنين وعلم التصوف

إِنَّ ٱلتَّصَوُّفَ فِيْ شَتَّى طَرَائِقِهِ   لِتَابِعِيْهِ ٱلْأُلَى بِٱلزُّهْدِ تَمْشِيْهَا[1]

جَمِيْعُهَا ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ مَصْدَرَهَا   وَعَنْهُ قَدْ أَخَذَتْ سَامِيْ مَبَادِيْهَا

بِذَاكَ صَرَّحَ أَقْطَابُ ٱلطَّرَائِقِ تَصْـ   ـرِيْحاً وَنَادُوْا بِهِ فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا

وَإِنَّ خِرْقَتَهُ كَانَتْ شِعَارَهُمُ   وَلَمْ يَزَالُوْا بِتَقْوَاهُمْ مُصِيْبِيْهَا

---

(١) من بحث في الطرائق المختلفة الإسلامية وما فيها من التصوف وعلم الحقيقة رأى زعماءَها وواضعيها تنتهي علومهم إلى علم سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وأنهم تلاميذه وعيال عليه وقد صرَّح بذلك الشبلي والجنيد وسرّي وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم من ثقاة المحققين وحسبنا دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم إلى يوم الناس هذا فإنّهم يسندونها باسناد متصل إلى سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وما احتفاظهم بها إلّا اعترافاً منهم بأنَّ طرائقهم مقتبسة من نور علمه راجعة إلى فقهه واجتهاده .

بَلَى ٱلطَّرَائِقُ فِيْ ٱلْإِسْلَامِ أَجْمَعُهَا ... إِلَيْـهِ تُنْمَى بِـلَا رَيْبٍ مَسَـارِيْـهَـا

وَهْـوَ ٱلَّذِيْ كَـانَ هَادِيْهَـا وَمُرْشِـدَهَا ... إِلَى ٱلْعِبَـادَةِ بِـٱلْإِخْـلَاصِ تَقْضِيْهَـا

وَهْوَ ٱلَّذِيْ كَانَ فِيْ ٱلْإِخْلَاصِ قُدْوَتَهَا ... مَا أَخْلَصَتْ فِيْ تَرَجِّيْ عَفْـوَ بَارِيْهَـا

بَـلْ أَنَّـهُ قُـدْوَةُ ٱلصُّـلَّاحِ أَجْمَعِهَـا ... إِلَى ٱلْفَرَادِيْسِ قَدْ كَـانَ ٱلْمُخَطِّيْهَـا

أمير المؤمنين وعلم النحو

مَا كَانَتِ ٱلْعُرْبُ تَدْرِيْ لِلْكَـلَامِ قَوَا ... عِدَاً وَمَا لَاحِنٌ فِيْ ٱلْقَوْلِ لَاغِيْهَا[1]

إِنْ حَدَّثَتْ أَوْ عُقُوْدُ ٱلشِّعْرِ قَدْ نَظَمَتْ ... عَفْـوَاً فَـلَا غَلَطٌ يَغْشَى أَمَـالِيْـهَـا

---

(١) كـل ما نسميـه اليوم نحـواً وصرفـاً ومعاني وبـديعاً وعـروضاً لم يكن معـروفاً لأسلافنا أقطاب هذه اللغـة وفحولهـا قبل الإسـلام فإنّهم مـا عرفـوا هذه الأسمـاء لفنونٍ تدرس وتحفظ كقوانين تصون لغتهم من الخطأ والخلل وتحسن آدابهـا من نثر ونـظم بل كانوا على السليقة والفطرة يتكلمون ويخطبون ويقرضون الشعر فإذا كل ما قالـوه صواب لا لحن فيه من جهة الإعـراب ولا ركاكـة في ما نثـروا من كتاب وخـطاب ولا خلل فيما نظموا على البديهة من الشعر الخلّاب . وقـد اتّخذ العلمـاء بعد الإسـلام كلام العـرب المنظوم والمنثور وتمعنوا بأساليبه وتركيبه وفصلوه تفصيلاً كقواعد قيدونا بها فلا تتخطاهـا وذلك بعد أن خـالط العرب غيـرهم من الأعاجم الغـرباء عن العـرب باللسـان فأفسـدوا عليهم لغتهم الفصحى برطانتهم الأعجمية . ثمَّ إنَّ العرب أنفسهم لم يكـونوا يتكلمـون لغةً واحدةً بل كانت لهم لغى مختلفة وإنّما نزول القرآن في لغة قريش جعـل هذه اللغـة هي اللغة العربية الفصحى وأمات كلَّ ما عداها من لغات العرب أيضاً .

وأوّل من تنبه إلى وضع قانون للغة العرب القرشيـة ليصـونها عن اللحن والخـطأ هو سيدنا علي أمير المؤمنين السباق إلى كلّ مكرمة عليه السلام قالوا فبينما كان ذات يوم سائراً في شوارع الكوفة يتعهد الناس شأن الأب الرحيم والحاكم العادل سمع أحدهم يتلو من كتاب الله قولـه عزَّ وجـلَّ ﴿ **وما أرسلنـا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أمنيته فينسخُ الله ما يلقي الشيطان** ﴾ فقرأ ذاك الرجل اسم الجـلالة منصـوباً « الله » فتحوّل بذلك معنى الآية الشريفة إلى كفر صريح إذ جعل فاعل النسخ ما يلقيـه=

حَتَّى إِذَا ٱخْتَلَطَتْ مَعْ غَيْرِهَا لَحَنَتْ   فَـلاَ يُـبَلِّغُ مَـقْصُـوْدَاً مُـفَـاهِيْـهَـا
وَرَاحَ يَلْحَنُ بِـاْلآيَـاتِ مُنْشِـدُهَـا   وَصَـارَ يَغْلَطُ بِـاْلتَّجْـوِيْـدِ قَـارِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ حَـرَكَـاتٌ فِيْ كِتَـابَتِهَـا   تَصُوْنُ عَنْ لَحْنٍ قَارِيْهَا فَحَاوِيْهَا
فَهَالَ ذَا ٱلْمُرْتَضَى هَـوْلاً وَلَحْنَةُ لَحَّـانٍ عَلَى سَمْعِـهِ مَـرَّتْ مَسَـاوِيْهَا
فِيْ آيَـةٍ ضَلَّ قَـارِيْهَا ٱلْهُـدَى وَغَوَى   بِفَتْحَـةٍ كَـانَ كُفْـرُ ٱلْقَـوْلِ تَـالِيْهَا
فَقَالَ : إِنْ لَـمْ نَضَعْ شَتَّى ٱلْقَوَاعِدِ لِلْـكَـلاَمِ شَـوَّهَـهُ ٱلْعُـرْبَـانُ تَشْـوِيْهَـا
وَضَـاعَ مَعْـهُ كِتَـابُ ٱللَّهِ وَٱخْتَلَطَتْ   آيَـاتُـهُ وَٱخْتَفَتْ زَهْـرَا مَعَـانِيْهَـا
وَبَـادَرَ ٱلْعَمَـلَ ٱلْمَحْمُـوْدَ تُسْعِفُـهُ   فِيْـهِ زَكَـانَتُـهُ وَٱللَّـهُ مُـذْكِيْـهَـا
وَجَاءَ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلْمُحْكَمَاتِ مِنَ ٱلْـقَـوَاعِدِ ٱلـزُّهْرِ فَهْـوَ ٱلْحَقَّ مُنْشِيْهَا
بِذَاكَ قَدْ أَوْجَدَ ٱلنَّحْوَ ٱلَّـذِيْ لُغَةُ ٱلأَعْـرَابِ لَـوْلاَهُ مَـا صِيْنَتْ مَبَـانِيْهَـا

=الشيطان والمنسوخ هو الذات الأزلية الواجبة الوجود الدائمة وتعالى الله عن ذلـك . فلما سمع سيدنا العلي هذا الكفر الذي ادّى إليه إبدال ضمةٍ بفتحة هاله ذلك وقال في نفسـه إن لم تتدارك هذه اللغة بتدوين قـواعدٍ لهـا يرجـع إليها القـراء لتشوّهت وفسـدت وفسد معها كتاب الله ووحيه وفي الحال انصرف عليه السلام إلى وضع قواعد النحو فكان أول ما قال إنَّ الكلام كله ثلاثة أشياء إسم وفعْل وحرف وإنَّ الإسم منـه معرفـة زمنه نكـرة ثمَّ تناول التوابع فبينها وقسم الإعراب إلى رفع ونصب وجرّ وتسكين وبعد أن تمَّ له مجمـوعته في ذلك استدعى إليه أبا الأسود الدؤلي وكان من نبهاء أصحابه القـرَّاء وأذكاهم فـألقى عليه ما جمع وقـال له امـح هذا النحـو أي اقصد هـذا القصد فسمي حينئـذٍ فنّ قواعـد اللغة العربية نحواً أي قصداً وذلك لأنّ أبا الأسود الدؤلي كـان كلما أملى مـا تلقاه عن الإمـام وما اهتدى إليه من اكتشاف قواعد اللغة الأخرى على أحـد تلاميـذه يكرّر على مسـامعه قوله عليه السلام « انحُ هذا النحو » لا جرم أنّ اهتـداء سيدنـا أمير المؤمنين إلى وضـع قواعـدٍ للغة العرب يصونها من اللحن والخطأ هو من كراماته المشهورة ونـوادر أعمالـه العظيمـة وبوادر آثار ذكائه النادر وبواهر خدماته التي تعترف الأمّة ويعترف الإسلام له بها .

فَقَالَ: أَلْفَاظُهَا مَهْمَا تَنَوَّعَتِ آسْـــمٌ ثُمَّ فِعْلٌ وَحَرْفٌ فِيْ تَجَزِّيْهَا

وَهْوَ ٱلَّذِي قَالَ فِيْ ٱلْأَسْمَاءِ مَعْرِفَةٌ وَشَامِلُ نَكِرَاتِ ٱلشَّيْءِ يَعْنِيْهَا

وَهْوَ ٱلتَّوَابِعُ بِٱلتَّحْقِيْقِ فَصَّلَهَا مُبَيِّناً كَيْفَ تَجْرِيْ فِيْ مَجَارِيْهَا

وَهْوَ ٱلَّذِيْ قِسْمَةُ ٱلْإِعْرَابِ بَيَّنَهَا رَفْعاً وَنَصْباً وَخَفْضاً فِيْ تَتَالِيْهَا

وَهْوَ ٱلَّذِيْ جَاءَ فِيْ شَتَّى قَوَاعِدِهِ إِلَى أَبِيْ ٱلْأَسْوَدِ ٱلْمَعْرُوْفِ يَرْوِيْهَا

وَقَالَ: يَا صَاحِ هٰذَا ٱلنَّحْوَ أَنْحُ بِلَا بُطْءٍ وَتَمِّمْ مَهَامَاً كُنْتُ بَادِيْهَا

لِذَاكَ قَدْ دُعِيَتْ تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدُ نَحْـــوَاً حَسْبَ أَمْرِ عَلِيٍّ وَهْوَ مُوْحِيْهَا

لَوْلَا ٱلْإِمَامُ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ لَبِتْـــنَا نَشْتَكِيْ فِيْ لُغَى قُرْآنِنَا ٱلتِّيْهَا

وَفَضْلُهُ أَنَّهُ أَنْشَا قَوَاعِدَهَا ٱلْـــغَرَّاءَ وَهْوَ بِهَا لَا شَكَّ مُحْيِيْهَا

فَمَا رَطَانَةُ أَعْجَامٍ بِنَا ٱخْتَلَطَتْ تُضِيْعُهَا أَوْ كُرُوْرُ ٱلدَّهْرِ مَاحِيْهَا

شجاعة أمير المؤمنين

لَمْ يَخْلُقِ ٱللَّهُ لِلْغَارَاتِ مِنْ رَجُلٍ كَٱلْمُرْتَضَى يُكْبِتُ ٱلْأَعْدَاءَ يُنْكِيْهَا(١)

تَخْشَى ٱلْأُلُوْفُ لِقَاهُ وَهْوَ مُنْفَرِدٌ لَهَا وَمَا كَانَ إِذْ تَلْقَاهُ خَاشِيْهَا

---

(١) إنّ الكلام على شجاعة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام من قبيل القول الشمس طالعة ونورها يبهر الأبصار في رائعة النهار وتالله لو تجسمت الشجاعة وتمثلت في شخص لكان ذلك الشخص سيدنا أمير المؤمنين بل لو عرف قدماء اليونانيين ثاني سادات قريش لاتخذوه إلَهاً للشجاعة في جملة آلهتهم التي افترضوا وجودها وعبدوها . لا جرم أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد أنسى ذكر من تقدمه في الشجاعة ولم يبق ذكراً لمن يأتي بعده. ومقاماته عليه السلام في الحروب مشهورة وتضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة . وهو الشجاع الذي ما فرَّ قط ولا ارتاع من كتيبة بل ولم يعرف في حياته الشريفة بطولها معنى الفزع . وهو الذي ما بارز أحداً إلّا وقتله . ولا ضرب ضربةً وثناها بل كانت الأولى هي القاضية على عدوّه وفي الحديث الشريف « كانت ضرباته وتراً » . =

لَـهُ ٱلشَّجَاعَـةُ تُنْمَى فَهْوَ سَيِّـدُهَا ٱلْأَ م عْلى وَقَـدْ رَضِيَتْ مِنْـهُ تَـأَبِّيْهَـا

= وإننا لنرجع بالقارىء الكريم إلى ما تقدم في هذه القصيدة المباركة وحواشيها من مواقف سيدنا أمير المؤمنين في الغزوات النبوية وحروبه الكثيرة في العراق : ونذكر على الخصوص نومته على فراش المصطفى عليهما الصلاة والسلام يوم طلب كفّار قريش ومشركوهم رسول الله يريدون قتله ففرَّ من وجوههم الشريرة وهاجر إلى المدينة المنوَّرة على ما ترى تفصيل ذلك في موضعه .

وكانت شجاعة المرتضى عليه السلام تخيف أعداءه الأشرار وترهب قلوبهم وترجف فرائصهم . وقد رأينا في موقعة صفين كيف هجم أمير المؤمنين بنفسه وحيداً على جيش معاوية فبدّده ثمَّ طلب معاوية لمبارزته فاختفى هذا من وجهه هارباً إلى مؤخرة جيشه ومن المضحكات أنَّ عمراً بن العاص قال وقتئذٍ لمعاوية وهو هارب من أمام سيدنا علي هرب العصفور من الشاهين ان بارزه وانهِ هذه الحرب وكيف أجاب معاوية عمراً بقوله : ما غششتني منذ نصحتني إلاَّ اليوم أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق وأراك طمعت بأمارة الشام بعدي . ولعمر الحقّ أنَّ هذه الشهادة من معاوية وهو شرُّ أعداء أمير المؤمنين لتكفي وحدها للدلالة على إجماع الناس أنّه أشجع شجعانهم بغير نزاع .

ثمَّ إنَّ العرب لأنفتهم وعزّة نفوسهم كانوا يستحون إذا قتل واحداً منهم جبان أو من كان غير مشتهر بالشجاعة كما أنّهم يفخرون بقتلاهم إذا قتلهم الأكفاء الشجعان وقد أثبت التاريخ أنَّ أهالي القتلى الذين شرَّفهم سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام بقتلهم بيده الشريفة أو الذين فازوا بشرف الوقوف أمام ذاته المنيفة في موقف قتال وأسعدهم الحظ أن نجوا من القتل رحمةً منه أو قضاءً وقدراً يتبجحون بهذا الشرف العظيم ويذكرونه في أشعارهم ومجالسهم كما أنَّ بعضهم كانوا يدعون شرف هذه الوقفة للإفتخار كذباً وبهتاناً إثباتاً لادعائهم الشجاعة والبطولة .

من ذلك أنَّ عبد الله بن الزبير ولم يكن جباناً وإن كانت لا تذكر شجاعته بشيء بجانب شجاعة سيدنا أمير المؤمنين دخل يوماً على معاوية بعد فراره من موقعة الجمل إلى الشام فوجده نائماً فجلس عند قدميه بقرب سريره حتى إذا ما انتبه قال له عبد الله مداعباً لقد هممت أن أفتك بكَ يا أبا يزيد فتبسم معاوية وقال هادئاً : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر فاغتاظ عبد الله بن الزبير وقال : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت=

أَنْسَى بِهَا آلنَّاسَ شُجْعَاناً لَهَا سَلَفَتْ	قِـدْمَـاً وَلَمْ يُبْقِ مِنْ فَخْـرٍ لآتِيْهَـا
وَذِيْ مَـوَاقِفُـهُ فِيْ آلْحَـرْبِ ذَائِعَـةٌ	يَـرْوِيْ حَـوَادِثَهَـا بِـآلْعُجْبِ رَاوِيْهَـا
بِهَا آلْوَرَى تَضْرِبُ آلْأَمْثَالَ تَـذْكُرْهَـا	إِلَى آلْقِيَـامَـةِ عَفْـواً فِيْ نَـوَادِيْهَـا
وَمَـا نَسَتْ نَـوْمَـةً قَـدْ نَـامَهَـا بِفِـرَا	شِ آلْمُصْطَفَى وَهْوَهَادِيْ آلنَّفْسِ هَانِيْهَا
وَآلنَّـاسُ تَطْلُبُ خَيْـرَ آلْخَلْقِ رَاغِبَـةٌ	لَـهُ آلْهَـلَاكَ وَدَاعِيْ آلشَّـرِّ دَاعِيْهَـا
وَإِنَّهَـا نَـوْمَـةٌ تُـوْهِيْ آلْعَـزَائِمَ مَـا	غَيْـرُ آلْمَنِيَّـةِ إِنْ فَكَّـرْتَ تَـالِيْهَـا
وَكَمْ تَصَـدَّى وَحِيْـداً لِلْعِـدَى فَكَفَى	آلْإِسْـلَامَ وَآلـدِّيْنَ وَآلـدُّنْيَـا تَعَـدِّيْهَـا
مَا فَرَّ يَوْمَاً إِذَا نَـارُ آلْوَغَى آسْتَعَـرَتْ	بَـلْ كَانَ وَآللَّهِ قَبْـلَ آلنَّاسِ صَـالِيْهَا
وَلَمْ يَهَبْ أَنْ يُلَاقِيْ فِيْ آلْحُرُوْبِ كَتَا	ئِبَ آلْعِـدَى مَا تَمَـادَتْ فِيْ تَجَمِّيْهَـا
وَطَـالَمَـا رَهِبَتْـهُ مَـا تُجَـرِّدُ ذَا آلْـ	ـفِقَـارِ يُمْنَـاهُ إِذْ يَفْـرِيْ هَـوَادِيْهَـا
وَحَسْبُنَا آلْمُصْطَفَى قَـدْ قَالَ ضَـرْبَتُهُ	وِتْـرٌ فَلَمْ يَـكُ فِيْ آلْأَعْـدَا يُثَنِّيْهَـا

= في الصف بأزاء علي بن أبي طالب فازداد معاوية ضحكاً وقـال لا جرم أنّـه قتلك وأبـاك بيسـرى يـديـه وبقيت اليمنى فـارغـة يـطلب من يقتله بهـا . وفي الحقيقـة لـو تصـدّى عبد الله بن الزبير لسيدنا علي عليه السلام يوم الجمـل لألحقه بـأبيه بـطرف ذي الفقار المشهـر بيمينه بغير مراء .

ومن ذلـك ما قـالته أخت عبـد ودّ الذي قتله سيـدنـا علي في غـزوة الخنـدق ولم تعرف العرب أشجـع منه فـإنّها قـد قالت تـرثيه وتفتخـر بأنَّ قاتـله سيـد شجعان العـرب وبذلك قد تعزّت عن مقتله قالت :

لـو كان قـاتل عمـروٍ غيـر قـاتله	بكيتـه أبـداً مـا دمت في الأبـدِ
لكنَّ قـاتـله من لا يُـعـابُ بـه	وكـان يُـدعى أبـوه بيضـة البلدِ
من هاشمٍ في ذراها وهيَ صاعدة	إلى السماء تميت الناس بالحسدِ
قـومٌ أبى الله إلاّ أن تكـون لهم	مكـارم الدين والـدنيـا إلى أمـدِ
يـا أمَّ كلثوم فـأبكيـه ولا تـدعي	بكـاءَ معـولـةٍ ثكلى على ولـدِ

بَلْ حَسْبُنَا غَزَوَاتُ ٱلْمُصْطَفَى لِحَيَا ةِ ٱلدِّينِ وَٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَسْمَى مُجَلِّيهَا

وَكَانَ يَشْهَدُهَا لِلَّهِ مُضْطَلِبَاً رِضْوَانَهُ بِمَسَاعٍ فَازَ سَاعِيْهَا

وَذَا مُعَاوِيَةُ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ فِيْ حَرْبِ صِفِّيْنَ نَادَى: لَسْتُ رَاضِيْهَا

وَقَدْ دَعَاهُ إِلَيْهَا ٱلْقِرَمُ حَيْدَرَةٌ وَقَالَ عَمْرٌو إِذَا لَبَّيْتَ تُنْهِيْهَا

فَقَالَ: وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى ٱلْعَلِيَّ فَتًى يَهْوَى ٱلْحَيَاةَ وَيَبْغِيْ أَنْ يُبَقِّيهَا

وَهَلْ أَبُوْ حَسَنٍ مِمَّنْ يُبَارَزُ وَهْـ ـوَ ٱلْأَرْوَعُ ٱلرَّائِعُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيْهَا

وَمَا إِخَالُكَ إِلَّا قَدْ طَمِعْتَ بِأَرْ ضِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ مِنْ بَعْدِيْ تَوَلِّيْهَا

وَطَالَمَا ٱفْتَخَرَ ٱلْعُرْبُ ٱلْكِرَامُ بِمَلْـ ـقَاهُ وَإِنْ كَانَ بِٱلْأَهْوَالِ لَاقِيْهَا

لِعِلْمِهَا أَنَّهَا تَلْقَى بِهِ بَطَلاً فَذّاً لَهَا ٱلْعُذْرُ إِمَّا رَاحَ يُرْدِيْهَا

مِنْ ذَاكَ قَوْلَةُ عَبْدِ ٱللَّهِ مُفْتَخِرٌ فِيْ ٱلشَّامِ لَمَا هَزَا مِنْهُ مُعَاوِيْهَا

شَجَاعَتِيْ هَلْ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ تُنْكِرُهَا وَقَدْ لَقِيْتُ عَلِيّاً قَالَ: صَهْ إِيْهَا

إِذَنْ بِيُسْرَاهُ تَفْنَى مَعْ أَبِيْكَ وَيُمْـ ـنَاهُ يَرُوْمُ بِهَا قَوْماً لِيُفْنِيْهَا

وَكَانَ أَرْهَاطُ قَتْلَاهُ تُفَاخِرُ فِيْ أَنَّ ٱلْوَصِيَّ وَمَا إِلَّاهُ مُصْمِيْهَا

وَهُوَّذَا عَبْدُ وُدٍّ وَهْوَ قَاتِلُهُ وَكَانَ إِنْ تُذْكَرَ ٱلشُّجْعَانُ سَامِيْهَا

وَأُخْتُهُ كَفْكَفَتْ هَامِيْ مَدَامِعِهَا تَقُوْلُ: قَتْلَتُهُ مِنَ كَفِّ كَافِيْهَا

قوة أمير المؤمنين

لَمْ تَعْهَدِ ٱلنَّاسُ أَقْوَى مِنْ أَبِيْ حَسَنٍ إِنْ تَذْكُرَ ٱلْأَقْوِيَا يَوْماً وَتُحْصِيْهَا[1]

وَقَدْ تَفَرَّدَ فِيْ مَفْتُوْلِ سَاعِدِهِ بِقُوَّةٍ لَيْسَ مِنْ مَرْءٍ يُقَاوِيْهَا

---

(١) وكانت قوّة أمير المؤمنين لا تعادلها قوّة وما عجزت قطّ إلّا عن حمل النبوّة كما رأينا في فتح مكة المكرمة وما هرقل إلّه القوة عند اليونانيين القدماء الأمثال لسيدنا =

حَتَّى بِقُـوَّتِـهِ ٱلْأَمْثَـالُ تُضْـرَبُ بَيْـــنَ ٱلنَّـاسِ رَاوِيَـةً شَتَّى مَـآتِيْهَـا

فَلَمْ يُصَـارِعْ فَتىً إِلَّا وَخَـرَّ صَـرِيْـــعَاً لِلثَّرَى خَـائِرَ ٱلْأَعْصَـابِ وَاهِيْهَا

وَبَـابُ خَيْبَـرَ فِي إِبَّـانِ غَـزْوَتِهَـا قَـدْ رَاحَ رَافِعَـهُ مِنْ دُوْنِ أَهْـلِيْهَـا

بِـهِ تَتَرَّسَ لَمَّـا ٱلتِّرْسُ مِنْ يَـدِهِ قَدْ طَيَّـرَتْـهُ ٱلْأَعَـادِيْ وَهْـوَ لاَقِيْهَا

وَحَمْلُهُ أَعْجَـزَ ٱلْأَعْـوَانَ إِذْ طَلَبَـتْ تَجْـرِيْبَـهُ وَوَهَتْ عَنْ ذَاكَ أَيْـدِيْهَا

وَمَـا تَعَـاصَتْ عَلَيْـهِ فَـوْقَ كَعْبَتِنَـا تَـٱللَّهِ دُمْيَـتُـهَـا إِذْ رَاحَ رَامِـيْـهَـا

وَقَـدْ تَنَـاوَلَهَـا مِنْ فَـوْقِ كَتْفِ رَسُـوْ لِ ٱللَّهِ يَهْـزَأُ هَـزْءً مِنْ مُقِيْمِـيْهَـا

وَهْـوَ ٱلَّذِيْ ٱلصَّخْـرَةُ ٱلْكُبْرَى مُـزَحْزِحُهَـا لِيُخْـرِجَ ٱلْمَـاءَ لِـلْأَحْنَـادِ يُسْقِيْهَـا

مِنْ بَعْـدِ أَنْ عَجِزَتْ عَنْهَـا صَحَابَتُـهُ وَآعْـلَنَتْـهُ بِـأَنَّ ٱلْأَمْـرَ مُـعْيِـيْـهَـا

وَقُـوَّةُ ٱلْمُـرْتَضَى بِـٱللَّهِ قَـدْ تَـرَكَتْ أَعْـدَاءَهُ وَهْيَ تَخْشَى أَنْ تُـلاَقِيْهَـا

وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهَا يَدْعُوْ إِلَى دَهَشِ ٱلْأَ بْـطَالِ مَـا ذَكَـرَتْهَـا فِيْ نَـوَادِيْهَا

= أمير المؤمنين وأجمع رواة التاريخ على أنّه عليه السلام ما صارع إنساناً قط إلّا صرعه .

وقد رأينا في غزوة خيبر التي مرَّت معنا مثالاً لقوته إذ عندما طار الترس من يده احتمل بيساره باب القلعة وقد عجز جمهور من الناس عن حمله فتترس به وحارب أعداءَه فهو إذاً جبار من الجبابرة بل سيد الجبابرة أهلِ القوة بغير جدال وناهيك يوم فتح مكة بصنيعه بهبل وهو أعظم أصنام العرب وكان مثبتاً بالأوتاد على سطح الكعبة شرّفها الله على عظمه وكبره فتناوله بيمناه وهو على كتفي رسول الله وانتزعه انتزاعاً وألقى به إلى الأرض فحطمه تحطيماً . ومثل هذا صنيعه بالصخرة التي انتزعها وأخرج من تحتها الماء في طريقه إلى صفين وهو سائر إلى قتال معاوية كما مرَّ بنا فقد عجز رجاله عن نزعها فتقدم منها وانتزعها وهي مثبتة في الأرض وفي ذلك ما فيه من القوّة الخارقة لطبيعة البشر التي أرهبت أعداءَه فجعلوا يتقونه ويتحاشون مبارزته . وأمثال هذا كثير رواه عنه عليه السلام المؤرخون ونكتفي بالإشارة إليه لشهرته .

جهاد أمير المؤمنين

قَـدْ أَنْـزَلَ ٱللَّهُ آيَـاتِ ٱلْجِهَـادِ عَلٰى   مُحَمَّـدٍ وَأَخُـوْ ٱلْإِيْمَـانِ وَاعِيْهَـا(١)

وَنَصْـرَةُ ٱلـدِّيْنِ وَٱلـدُّنْيَـا بِـهِ وَبِـأَصْـ   ـحَابٍ لَقَدْ أَظْهَـرَتْ مَعْـهُ تَفَـانِيْهَـا

وَمَنْ يُجَـاهِـدْ لِـوَجْـهِ ٱللَّهِ كَـانَ لَـهُ   مِنْ رَبِّـهِ ٱلنِّعَمُ ٱلشَّتَّـى يُـلاَقِيْـهَـا

وَفِيْ ٱلْجِهَادِ جَلاَلٌ لِلْمُجَاهِدِ فِيْ ٱلـ   ـدُّنْيَـا وَمَثْـوَبَـةٌ تُـرْضِيْ مُـوَخِّيْهَـا

وَإِنْ يَعُـدَّ ٱلْوَرَى أَهْـلَ ٱلْجِهَادِ فَمَـوْ   لاَنَـا أَبُـوْ ٱلْحَسَنَيْنِ ٱلْبَـرُّ سَـامِيْهَـا

قَدْ كَانَ سَيْفَـاً بِكَفِّ ٱلْمُصْطَفَى وَبِـهِ   عِـدَى ٱلنُّبُـوَّةِ نَـالَتْهَـا مَخَـازِيْهَـا

وَكَـانَ سَيِّـدَ آرْبَـابِ ٱلْجِهَـادِ جَمِيْـ   ـعَـاً بَيْنَ سَـابِقِهَـا ٱلْمَـاضِيْ وَآتِيْهَـا

وَمَـا ٱلْجِهَـادُ لِغَـازٍ غَيْـرِهِ أَبَـدَاً   مِنْ أُمَّـةِ ٱلْعُـرْبِ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا

وَقَـدْ أَقَـرَّتْ أَعَـادِيْـهِ بِـذَا عَلَنَـاً   وَكَـانَ إِخْـفَـاؤُهُ وَٱلـلَّهِ مُـعْـيِـيْـهَـا

وَهْيَ ٱلْحَقِيْقَـةُ لاَ بُـطْلٌ يُقَـارِبُهَـا   كَـلاَّ وَلاَ سَفَـهُ ٱلْأَعْـدَاءِ يُخْفِيْهَـا

---

(١) الجهـاد فـرض على المسلم يقـوم بـه لنصـرة الـدين ومحـاربـة المشـركين والكافرين وقد سبق لنا أن ذكرنا فيما مضى شيئاً عنه فلا نعـود إليه . وتفـوّق سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام بجهاده في سبيل نشر الإسلام لا يختلف فيه اثنان بـل نقدر أن نقـول إنّه نشأ وشبَّ وكهل وشاخ إلى أن توفـاه الله شهيداً وهـو يجاهـد في سبيل الله بيـده ولسانـه وقلبه . وأعماله الباهرة في جهاده ساطعة كالشمس في رائعة النهار يعترف بها كل مسلم أو قارىء تاريخ صدر الإسلام وقد سبق لنـا أن فصلناهـا تفصيلاً فـلا نعود إليهـا الآن . ونستطيع أن نقول إنّه بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام كان السبب الأكبـر في نشر الإسـلام في جزيـرة العرب وإنّـه كـان السيف المشهـر بيـد رسـول الله على المشـركين والكفّار وما زال يحارب في جانب الحقّ فيزهق الباطل أمامه إلى أن راح شهيداً لصحبـة الأبرار الأخيار في جنان النعيم نقول هذا ونحن نعترف أنّ الله سبحانه هـو العامـل الأكبر لنشر دينه ولكن اعتقادنا هذا لا يحظر علينـا الاعتقاد بـأنَّ الله سبحانـه وتعالى هـو الذي سخّر سيدنا أمير المؤمنين وسيدنا محمد سيد المرسلين لنشر دينه القيم في العالمين .

وَقَـدْ رَأَيْنَا مَغَـازِيْ آلْمُصْـطَفَى وَأَمِيْــــرُ آلْمُؤْمِنِيْـنَ بِـلاَ رِيْبٍ مُـجَلِّيْـهَـا
وَقَــدْ رَأَيْنَــاهُ فِيْهَـا وَهْــوَ يَنْثِـرُ نَثْــــراً هَـامَ أَعْـدَاءِ دِيْنِ آللَّهِ يَفْــرِيْهَا
وَكَـانَ فَـرْداً يُــلاَقِيْ غَيْـرَ مُكْتَـرِثٍ بِـآلْمَوْتِ أَعْـدَاءَ هَدْيِ آللَّهِ يُـرْدِيْهَا
مُـكَبِّـراً مُـخْلِصَـاً لِـلَّهِ مُعْـتَـمِـدَاً عَلَى آلْعِنَـايَـةِ بَــرَّ آلنَّفْسِ تَـاقِيْهَـا
وَمَــا مُجَـاهَــدَةُ آلْمِغْــوَارِ حَيْــدَرَةٍ لِلدِّيْنِ خَــافِيَــةٌ وَآلــدِّيْنُ مُبْــدِيْهَـا
كَــلاَّ وَلَيْسَ لَهَـا مِنْ مُنْكِـرٍ لِنَحُجَّـــهُ بِـبَـيِّـنَــةٍ غَــرَّا نُــؤَدِّيْــهَـا
لٰكِنْ بِهَا آعْتَرَفَ آلْإِسْـلاَمُ وَآنْتَشَرَتْ رَايَــاتُـهُ فَهْــوَ بِسْمِ آللَّهِ مُــرْبِيْهَـا
تَــآللَّهِ لَــوْلاَهُ لَمْ تُعْلَنْ هِــدَايَــةُ طَـــهَ فِيْ آلْجَـزِيْـرَةِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا
وَلاَ تَـلاَشَتْ جُمُوْعُ آلْمُشْـرِكِيْنَ وَقَدْ شِمْنَـا عَلَى أَحْمَدَ آلْهَـادِيْ تَجَمِّيْهَـا
وَتِلْكَ آيُ وَآلْهُــدَى غَـرًّا مَــوَاقِعِـهِ تُحْنَى رُؤُوْسُ آلْـوَرَى شُكْـرَاً لآتِيْهَا
وَأَصْبَحَتْ مِثْلَ هٰذِيْ آلشَّمْسِ سَاطِعَةً وَكُـلُّ ذِيْ بَصَـرٍ فِيْ آلنَّـاسِ رَائِيْهَـا

حلم أمير المؤمنين وعفوه

أَلْحِلْمُ فَضْـلٌ إِذَا مَـا آلْأَقْـوِيَـاءُ بِــهِ لاَقَتْ وَقَـدْ قَدِرَتْ عَفْـوَاً أَعَادِيْهَـا[1]
وَإِنَّـهُ آلْعَجْـزُ إِنْ جَـاءَ آلضَّعِيْفُ بِـهِ يَـزِيْدُهُ عِنْـدَ أَهْـلِ آلـرَّأْيِ تَسْفِيْهَـا

---

(١) الحلم من الفضائل المحمودة والكمالات التي تشرّف صاحبها ولا سيما إذا كانت عن قدرة إذ لا يكون الحلم حلماً إلاّ إذا كان صاحبه قد قدر فعفا ماذا وإلاّ فهو العجز والضعف والصغار . ومتتبعو سيرة سيدنا علي عليه السلام يجدون الحلم في أسمى معانيه وأشرفها في هذا الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام .

كان سيدنا علي عليه السلام مؤمناً مسلماً بكلّ معنى الإيمان والإسلام ولذلك كان قلبه لا يعرف الحقد والضغينة على مسلمٍ إلاّ إذا كان قد أساءَ إلى الشريعة السمحاء وعمل على الإضرار بها حينئذٍ يغضب غضبته الهاشمية ولا يعود فيرضى أبداً أو تسلم شريعة=

=الله التي أوحيت إلى ابن عمّه المصطفى عليهما الصلاة والسلام من الأذى .

وحـوادث سيدنـا أمير المؤمنين في الحلم كثيـرة لا تتسع لهـا حاشيـة كهذه وعلى سبيل الاستشهاد نذكر بعضها . فقد رأيناه يعفو عن مروان بن الحكم بعد أن ظفر به في البصرة على أثر الفشل الذي أحاق بأصحاب الجمل ومـروان في الأصل لم يكن مسيئاً شخصيـاً إلى سيدنـا أميـر المؤمنين بقـدر إسـاءَتـه إلى الخـلافـة المحمـديـة والإسـلام والمسلمين بـاستبـداده بـأمـرة ابن عمّـه عثمـان بن عفـان وهـو في الحقيقـة مسيء إلى عثمان بن عفان أيضاً أكثر مما هو مسيء إلى سيدنا علي نفسه في حوادث الخلاف التي شجرت بينهما على عهد عثمان بن عفان في المدينة المنوَّرة ومع ذلك عندما ظفر سيدنا علي بمروان وأصبح هذا في قبضته أبى أن يفتك به بـل أطلق سبيله ليذهب حيث يشـاء وهو عليه السلام كان يعرف أنّه ذاهب إلى الشام إلى ابن عمّه معاوية للعمـل على إقلاق راحـة الخلافة وإحداث الاضطرابات فيها والقلاقل ومما يذكر أنّه عرض على سيدنـا علي وهو في البصـرة بعـد الجمـل أن يبـايعـه خـوفـاً من بـطشـه بـواسـطة محمـد بن أبي بكـر فرفض عليه السلام قبول بيعته قائلاً : لم يصدق في الأولى « لأنّـه بايعـه في المدينـة » ليصدق في الثانية وفي هذا من الحلم وسعة الصدر ما هو خليقٌ بسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

ومثل هذا حلمه عليه السلام مع الزبير الذي هرب من المدينة على أثر بيعة سيـدنا علي وبعد أن بايعه فقصد مكة وحمل عائشة على المسير إلى البصرة لـلاعتصام بـأهلها على نقض بيعته ونقدر أن نقول أنّه كـان أحد زعمـاء أعدائـه الذين جعلوا أيـام خلافتـه كلها قلاقل وفتن ومع ذلك كان عليه السلام لفرط حلمه إذا ذكر أمامه الـزبير يقـول : « ما زال الـزبير منّا نحن أهل البيت حتى كبر ابنه عبـد الله » فكأنّـه بهذا كـان يريـد أن يبرّأه من جـريمة عصيانه على خلافته . وممـا يشير إلى حلمـه العظيم عليه السلام أنّـه جبه قـاتل الـزبير عنـدما قصده يبشره بقتله وبشره بالنار وقال وقتئذٍ في الزبير كلَّ كلمة طيبة على ما مرَّ بنا .

ومثل هذا حلمـه عليه السلام على عبد الله بن الـزبير . فـإنّ سيدنـا علي كان يعتقـد أنَّ الـزبير بن العوام ما زال صـادقاً في حبّ آل البيت مخلصـاً لهم حتى كبـر ابنـه عبـد الله فحمله على عدائهم . ومن علم أنَّ هذا العداء الذي أحدثه عبد الله بن الزبيـر في صدر أبيه قد أضـرَّ الإسلام ذلـك الضرر العـظيم بفتح بـاب الشرّ على سيـدنا علي منـذ فجر خلافته تجسم في نظره إثم هذا الرجل وعـظمت لديـه إساءَتـه الكبرى لـلإسلام عمـوماً=

=ولسيدنا علي خصوصاً ومع ذلك أبى سيدنا علي عليه السلام أن ينتقم منه بعد أن فشلت مساعي أصحاب الجمل وتلاشت جموعهم وفرَّ عبد الله بن الزبير إلى البصرة واختفى في أحد دورها فعفا عنه أحلم الحلماء عليه السلام وأطلق سراحه فسار إلى معاوية .

ومثل هذا أيضاً ما بذله سيدنا علي من الإكرام لعائشة بنت أبي بكر بعد وقعة الجمل مع أنّها أساءَت إليه أكبر إساءَة بجهرها بغير سبب ولا ذنب بعدائه وقد رأيناه عليه السلام كيف اعتنى بأمرها واجتهد بتوفير أسباب الراحة لها في مدة إقامتها القصيرة في البصرة وفي تسريحها إلى مكة فالمدينة .

ومثل هذا أيضاً عفوه عليه السلام عمّن سلم من أصحاب الجمل إذ أعلن أصحابه بعد أن نصرهم الله أن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فاراً ولا يعتدوا على بيت من بيوت البصرة .

ومثل هذا أيضاً بل وأعظم منه ما رأيناه يعمله في صفين إذ رأينا أصحاب معاوية يملكون الشريعة ويمنعون الماء عن أصحاب سيدنا علي فلما امتلك هؤلاء الماء بالقوة جاؤوا إلى سيدنا علي وعرضوا عليه أن يمنعوا الماء عن أصحاب معاوية فأبى حلماً ومكرمةً وفضلاً وقال بل نسقيهم مع أنّه ما كان يجهل أنّه لو منع الماء عن أصحاب معاوية في صفين وقتئذٍ لسلموا إليه ظمئاً ولكن ما كان يرضى مثل هذا لقوم من المسلمين غرَّر بهم معاوية وساقهم إلى قتاله .

ومن حوادث حلمه ما شهدنا منه عليه السلام من سعة الصدر في ملاطفة الخوارج الذين أرغموه على قبول التحكيم ثمَّ نقموا عليه ونادوا بعدائه لأنّه لم يمالئهم على نكث العهد الذي قطعه على نفسه في ذلك التحكيم ومن يراجع تاريخ أولئك الخوارج يجد أنَّ سيدنا علي عليه السلام حلم كثيراً عليهم وجاهد طويلاً ليردهم بالحسنى إلى هداهم وحاول جهده أن يقنعهم بفساد مزاعمهم من قبل أن يبطش بهم بطشته المشهورة وما كان حلمه إلّا ليزيدهم شططاً .

ولسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وقفات في الحلم كثيرة هذا القليل منها يغني عن تفصيل كثيرها وآخرها إعلانه رغبته الشريفة بالعفو عن الملعون الأثيم ابن ملجم إن شفيت جراحه على ما رأينا في خطابه عندما جرح وذا والله فوق حوادث الحلم التي=

وَمَا عَرَفْنَا حَلِيْماً كَآلْوَصِيِّ إِذَا ... دَانَتْ عِدَاهُ لَهُ قَهْراً يُدَارِيْهَا

فَكَانَ أَحْلَمَ خَلْقِ آللَّهِ أَجْمَعِهَا ... عَلَى آقْتِدَارٍ صَفُوْحاً عَنْ مُسِيْئِيْهَا

وَحِلْمُهُ لَمْ يَكُنْ عَجْزاً وَلاَ هُوَ عَنْ ... ضُعْفٍ وَقُوَّتُهُ مَا مَنْ يُقَاوِيْهَا

وَإِنَّمَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ قِدْرَتِهِ ... عَلَى عِدَاهُ وَقَدْ خَالَتْهُ مُفْنِيْهَا

فَكَانَ أَوْسَعَ صَدْراً أَنْ يُعَامِلَهَا ... بِمَا جَنَتْهُ فَيَلْقَى آلْحَيْنَ بَاغِيْهَا

وَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَعْفُوْ عَنْ إِسَاءَةِ مِرْ ... وَانٍ وَقَدْ بَلَغَتْ أَسْوَا مَرَامِيْهَا

وَبَاتَ فِي يَدِهِ مِنْ بَعْدِ نَصْرَتِهِ ... فِيْ وَقْعَةِ آلْجَمَلِ آلْمَلْعُوْنُ مُلْظِيْهَا

وَلَوْ أَرَادَ لأَمْسَى وَهْوَ قَاتِلُهُ ... وَإِنَّ قَتْلَتَهُ مَا جَارَ آتِيْهَا

لٰكِنَّمَا آلْمُرْتَضَى مَا كَانَ مُنْتَقِماً ... مِنْهُ فَأَرْسَلَهُ فِيْ آلأَرْضِ يَطْوِيْهَا

وَقَالَ: بَيْعَتُهُ هَيْهَاتِ أَقْبَلُهَا ... مَا دَامَ يَبْذِلُهَا حِيْناً وَيُلْغِيْهَا

فَرَاحَ لِلشَّامِ يَرْوِيْ حِلْمَ حَيْدَرَةٍ ... إِلَى كَبِيْرِ أَعَادِيْهِ مُعَاوِيْهَا

وَذَا آلزُّبَيْرُ وَمَا كَانَ آلزُّبَيْرُ يُخَبِّـ ... ـيْ بُغْضَةَ آلْمُرْتَضَى مَعْ مَنْ يُخَبِّيْهَا

بَلْ كَانَ يَجْهَرُ جَهْراً بِآلْعَدَاوَةِ لِلْـ ... ـوَصِيِّ يَدْعُوْ إِلَيْهَا آلنَّاسَ تَجْرِيْهَا

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ عَاصَى آلإِمَامَةَ جَهْـ ... ـرَةً وَيَا طَالَمَا آسْتَغْوَى مُطِيْعِيْهَا

مَعْ كُلِّ ذَا كَانَ مَوْلاَنَا آلْعَلِيُّ يَغُـ ... ـضُّ آلْعَيْنَ عَنْهُ بِمَحْضِ آلْحِلْمِ يُغْضِيْهَا

يَقُوْلُ: مَا زَالَ مِنَّا نَحْنُ آلُ رَسُوْ ... لِ آللَّهِ صُحْبَتُهُ آلزَّهْرَا نُرَاعِيْهَا

=نعرفها بل هذا رحمة من رحيم عليت نفسه عن نفوس العالمين .

وقصارى القول أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام كان من الحلم على أعظم جانب بل ما كان في الناس أحلم منه وسوف لا يكون ولا عجب في ذلك فإنّه تربى على يدي سيد الحلماء سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام .

حَتَّى إِذَا شَبَّ عَبْدُ ٱللَّهِ أَبْعَدَهُ   عَنَّا بِأَطْمَاعِ نَفْسٍ كَانَ يَنْوِيْهَا
وَقَدْ رَأَيْنَا عَلِيّاً وَهْوَ يَجْبَهُ مُرْ   دِيَهِ يُبَشِّرُهُ بِٱلنَّارِ يَصْلِيْهَا
لَمَّا أَتَاهُ يُرَجِّيْ أَجْرَ قَتْلَتِهِ   مِنْهُ وَيَحْسِبُهُ قَدْ كَانَ بَاغِيْهَا
فَقَالَ: مَا كَانَ وَٱللَّهِ ٱلزُّبَيْرُ جَبَا   نَاً فِيْ مُصَاوَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ خَاشِيْهَا
لٰكِنْ مَصَارِعُ عَادِيْ ٱلدَّهْرِ قَدْ صَرَعَتْـ   ـهُ ٱلْيَوْمَ وَٱسْتَمْكَنَتْ مِنْهُ عَوَادِيْهَا
وَأَظْهَرَ ٱلْحِلْمَ فِيْ ذِكْرَى فَضَائِلِهِ   فِيْ خِدْمَةِ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ رَاحَ يُبْدِيْهَا
كَذَا لَقَدْ أَظْفَرَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيَّ بِعَبْـ   ـدِ ٱللَّهِ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّاءِ يَثْوِيْهَا
مِنْ بَعْدِ نَصْرَتِهِ فِيْ وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ   ـمَعْهُوْدِ إِذْ خَذَلَ ٱلْبَارِيْ مُثِيْرِيْهَا
هُنَاكَ قَالَ لَهُ: سِرْ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ   بِشَرِّ آثَامِهِ يَبْغِيْ تَنَاسِيْهَا
وَلَوْ أَرَادَ لَهُ هُلْكاً لَأَرْسَلَهُ   إِلَى مَنِيَّتِهِ أَلْقَاهُ فِيْ فِيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ شِنْءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ أَوْرَثَهُ ٱلْـ   ـزُّبَيْرَ فَٱنْصَاعَ يَثْنَاهَا وَعَالِيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ عَاثَ فِيْ أَرْضِ ٱلْخِلَافَةِ إِفْـ   ـسَاداً وَنَاوَا عَلِيّاً وَهْوَ وَالِيْهَا
وَطَالَمَا سَبَّهُ سَبّاً وَقَالَ: هُوَ ٱلْـ   ـوَغْبُ ٱللَّئِيْمُ فِعَالُ ٱلسُّوْءِ يَاتِيْهَا
كَذَاكَ عَائِشَةُ قَدْ رَدَّهَا كَرَماً   إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ كَيْ بِٱلرَّغْدِ تَأْوِيْهَا
أَحَاطَهَا بِنِسَا قَيْسٍ مُعَمَّمَةٍ   مِثْلَ ٱلرِّجَالِ سَرَتْ مَعْهَا تُمَاشِيْهَا
كَانَتْ لَهَا خَفَرَاً فِيْ طُوْلِ رَحْلَتِهَا   وَعَنْ مَصَائِبِهَا ٱلشَّتَّى تُسَلِّيْهَا
وَهْيَ ٱلَّتِيْ نَاوَأَتْ ظُلْماً خِلَافَتَهُ   وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ أَشْقَى مِنْ مُنَاوِيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ قَدْ عَفَا عَنْ صُحْبَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَغْرَارِ نَادَى ذَوِيْهِ أَنْ تُؤَاسِيْهَا
بِٱلْحِلْمِ أَمَّنَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ غُلِبَتْ   وَأَسْرَعَتْ هَرَباً تَأْوِيْ مَخَابِيْهَا
وَعِنْدَمَا كَانَ يَسْعَى ٱلْمُرْتَضَى بِحُمَا   ةِ ٱلدِّيْنِ لِلشَّامِ إِذْ أَبْدَتْ تَعَصِّيْهَا

أَلْفَى ٱلْعُصَاةَ عَلَى شَطِّ ٱلْفُرَاتِ أَبَتْ	لُؤْمَاً عَلَى قَوْمِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تُسْقِيْهَا
فَكَانَ بِٱلسَّيْفِ عَنْ تِلْكَ ٱلْمِيَاهِ بِحَوْ	لِ ٱللَّهِ قَاهِرَهَا قَهْرَاً وَمُجْلِيْهَا
لٰكِنْ أَبَى عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ يَمْنَعُهَا	وَكَانَ مُهْلِكَهَا لَوْ رَامَ يُظْمِيْهَا
وَكَمْ لِحَيْدَرَةٍ مِنْ وَقْفَةٍ يَتَجَلَّـ	ـى ٱلْحِلْمُ فِيْهَا لِسَانُ ٱلشُّكْرِ يَحْكِيْهَا
وَإِنَّهَا وَقَفَاتٌ لِلْمَلَا بَهَرَتْ	وَمَا سِوَى ٱلْمُرْتَضَى تَٱللَّهِ يَأْتِيْهَا
وَكَانَ آخِرَهَا إِعْلَانُ رَغْبَتِهِ	بِٱلْعَفْوِ أَعْلَنَهَا فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
عَنْ قَتْلِ قَاتِلِهِ ٱلْمَلْعُوْنِ إِنْ بُرِءَتْ	جُرُوْحُهُ وَدِمَاهُ سَالَ قَانِيْهَا
وَإِنَّ ذَا فَوْقَ مَا نَدْرِيْ وَنَعْرِفُ مِنْ	حَوَادِثِ ٱلْحِلْمِ مَا وَٱللَّهِ يَحْكِيْهَا
ذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَحِيْمٍ نَفْسُهُ عَلِيَتْ	عَنِ ٱلْخَلَائِقِ أُنْسِيْهَا وَجِنِّيْهَا

رأي أمير المؤمنين وتدبيره

كَانَ ٱلْعَلِيُّ لَدَى ٱلْأَخْطَارِ مَا دَهَمَتْ	أَدْهَى ٱلصَّحَابَةِ فِيْ تَلْطِيْفِ دَاهِيْهَا[1]
وَفِيْ ٱلْمَصَاعِبِ أَدْرَى مَنْ يُبَدِّدُهَا	بِحِكْمَةٍ مَا تَنَاهَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام أسدَّ الناس رأياً وأصحهم تدبيراً وأبعدهم نظراً في الأمور يعرف في يومه ما يجيء به الغد شأن الذكي الحازم العارف مما كان ما سيكون فما أخطأت فريسته ولا طاش في إصابة غرضه سهمه . وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب بغزو الفرس والروم في العراق والشام بعد أن كان متردّداً بين الإقدام والإحجام فقويت بسديد رأي المرتضى عزيمته فجرَّد جيوشه وفتح الأمصار تلك الفتوحات الإسلامية العظيمة وأيده فيها أحسن تأييد . ولا جدال أنَّ عثمان بن عفان لو أصغى إلى النصائح الرشيدة العلوية والآراء الصائبة الحيدرية لما قامت تلك الفتنة على عهده فكان أوَّل ضحاياها ولما مني المسلمون بعدها بما منوا به من الشدائد التي لا يزال تأثيرها على العالم الإسلامي عظيماً إلى هذا اليوم . ولقد شنع أعداؤه عليه السلام به فقالوا إنّه كان قائل الرأي لنظرهم نظراً سطحياً إلى ما قام في وجهه من المصاعب في سنوات خلافته القليلة ولكن فات هؤلاء النظر إلى الظروف التي أحاطت به في خلافته وإلى حقيقة=

يَرَى بِصَائِبِ رَأْيٍ مَا تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَ   يَّـامُ مِنْ قَبْلِمَـا تَـدْهَى دَوَاهِـيْهَـا
وَكَـانَ يَلْقَى صُرُوْفَ ٱلـدَّهْرِ يَـدْفَعُهَا   بِحُسْنِ تَـدْبِيْـرِهِ عَنْـهُ وَيَتَّـقِيْـهَـا
وَكَـانَ رَبَّ سَـدَادٍ فِيْ ٱلْأُمُـوْرِ إِذَا   مَا أَعْمَلَ ٱلـرَّأْيَ فِيْهَا لَيْسَ يَخْطِيْهَا
بِـرَأْيِـهِ عُمَـرُ أَمْضَى عَـزِيْمَتَـهُ   لِلْفَتْحِ وَٱلْغَزْوِ فَهْـوَ ٱلْحَقَّ مُمْضِيْهَا
فَدَوَّخَ ٱلشَّامَ مَعْ أَرْضِ ٱلْعِرَاقِ وَطَا   عَتْـهُ ٱلْأَهَـالِيْ عُـرَاقِيْهَـا وَشَـامِيْهَـا
وَلَـوْ أَصَاخَ إِلَى سَـامِيْ نَصِيْحَتِهِ   عُثْمَانُ إِذْ رَاحَ بِٱلْإِخْـلَاصِ يُسْدِيْهَـا
لَمَـا تَفَـاقَمَتِ ٱلْفَـوْضَى وَلَا فُتِنَتْ   فِيْهَـا ٱلْعِبَـادُ فَـأَمْسَى مِنْ أَضَـاحِيْهَـا
نَعَمْ وَلَوْلَا نُصُوْصُ ٱلشَّرْعِ يَحْفَظُهَا   وَلَا يَـهُـوْنُ عَلَيْـهِ أَنْ يُـخَـطِّيْـهَـا
لَكَـانَ أَدْهَى رِجَالَاتِ ٱلـرِّئَاسَةِ فِيْ ٱلْإِسْـلَامِ إِنْ تَنْشُـدَ ٱلـدُّنْيَـا سِيَـاسِيْهَـا
لٰكِنْ شَـرِيْعَـةُ طَـهَ حَسْبَمَـا نَـزَلَتْ   قَـدْ قَيَّـدَتْـهُ بِـأَحْكَـامٍ يُجَـرِّيْهَـا
فَعَـابَـهُ ٱلْقَـوْمُ فِيْ تِلْكَ ٱلْقُيُـوْدِ وَقَـا   لُـوْا أَخْطَأَ ٱلـرَّأْيَ وَٱلتَّدْبِيْـرَ تَمْـوِيْهَـا

= شخصه الأقدس ولو أمعنوا النظر وتنزهوا عن الغرض لوجدوا أنَّ المصاعب التي اعترضته وجعلت أيام خلافته ملأى بالقلاقل والفتن لم تكن من سوء تدبيره وقصر نظره في عواقب الأمور بل لتمسكه بأهداب الشرع وإبائه بيع آخرته بدنياه في وقت كثر فيه طلّاب الدنيا وعُدِم طلاب الآخرة وقد قال عليه السلام لأمثالهم من جاهلي مبلغ سداد رأيه ودهائه « لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب » وهو القول الحقّ الذي لا يدانيه الباطل . ولعمري أنَّ من كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويلائمه سواءً طابق الشرع الشريف أو خالفه لا بدَّ أن تكون أحواله الدنيوية أقرب إلى الانتظام ممن لا يخطو خطوةً في سياسته وأحكامه إلَّا إذا كان للشرع فيها رضى بينما نرى الناس يطلبون منافعهم ويسعون وراء مطامعهم ويعملون لدنياهم وهم غافلون عن آخرتهم . وعلى هذا فتكون المصاعب التي اعترضت سيدنا أمير المؤمنين في خلافته ناجمةً عن تدينه وورعه واستمساكه بأهداب الشريعة السمحاء لا من فساد رأيه وسوء تدبيره كما يشنع أعداؤه الأغرار الجهلاء .

أَجَابَ: لَوْلَا آلتُّقَى وَآلدِّيْنُ كُنْتُ بِلَا شَكٍّ أُفُوْقُ دُهَاةَ آلْعُرْبِ أُعْيِيْهَا
أَجَلْ جَوَابُ عَلِيٍّ قَدْ أَصَابَ بِهِ كَبْدَ آلْحَقِيْقَةِ فِيْ أَقْصَى مَخَابِيْهَا
فَإِذْ أَبَتْ أَنْ تُواآتِيْهِ صَحَابَتُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ أَمْسَى مُجَافِيْهَا
وَعَمْرَكَ آللَّهَ هَلْ يُرْضِيْ آلشَّرِيْعَةَ مَنْ يَبْغِيْ رِضَا آلنَّاسِ يَرْجُوْ أَنْ يُرَاضِيْهَا
وَهَلْ مَطَامِعُ أَهْلِ آلْأَرْضِ يُنْفِذُهَا مَنْ يَتَّقِيْ بِحُدُوْدِ آلشَّرْعِ بَارِيْهَا
وَهَلْ تَسَاوَى آلَّذِيْ يُمْضِيْ آلْأُمُوْرَ عَلَى نَصِّ آلشَّرِيْعَةِ مَعْ مَنْ لَيْسَ يُمْضِيْهَا
وَآلنَّاسُ تَطْلُبُ دَوْمَاً مَنْ يُسَايِرُهَا عَلَى هَوَاهَا جِهَاراً أَوْ يُمَارِيْهَا
كَلَّا وَحَاشَا فَلَا يَبْغِيْ أَبُوْ حَسَنٍ إِلَّا إِرَادَةَ بَارِيْهِ فَيُمْضِيْهَا
وَلَا يَبِيْعُ بِدُنْيَاهُ وَزُخْرُفِهَا مَسَارِحَ آلْخُلْدِ مَعْ هَانِيْ مَغَانِيْهَا

شدة أمير المؤمنين في سياسته

فِيْ آللَّهِ مَا كَانَ مَوْلَانَا آلْأَمِيْرُ يُرَا عِيْ ذَا طَمَاعِيَةٍ قَدْ رَاحَ بَاغِيْهَا[١]
وَكَانَ فِيْهِ شَدِيْداً مَا لِشِدَّتِهِ هَوْنٌ لِعِزَّةِ دِيْنِ آللَّهِ يُبْدِيْهَا
فَكَانَ يَشْجُبُ مَنْ جَازَ آلشَّرِيْعَةَ مِنْ عُمَّالِهِ رَاقِياً شَتَّى مَآتِيْهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام شديداً في سياسته خشناً في تنفيذ أحكام الله لم يراقب في ذلك غير الحقّ سبحانه وتعالى فإنّه لم يراقب في ذلك ابن عمّه في عمل ولّاه إيّاه ولا أخاه في مطامعه التي ردَّه بها . وتلك حروبه في الجمل وصفين والنهروان كلّها كان في طوقه تلافيها من أهون الطرق لو راشى الناس وصانعها وواتاها على مطامعها وأغضب الله في مرضاتها ولكنه كان أعظم تديناً وأسمى تقىً وتورعاً أن يعمل ما يغضب الله ليرضي عباده وأشقى الناس من أغضب المولى وأرضى العبيد . وشدَّته هذه هي التي صرفت الناس عنه وحملتهم على التألّب على عدائه فهم لم يطعنوا عليه بظلم ولا اتهموه بجريرةٍ ولكنهم طلبوا منافعهم وملذاتهم وإذ لم يجدوها عنده انصرف بعضهم إلى عدائه وتراخى البعض عن نصرته ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سِيَّانِ مَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ عِتْرَتِهِ ... أَوْ كَانَ فِي ٱلْعُرْبِ مِنْ أَسْمَى قُرَيْشِيْهَا

حَتَّى أَخُوْهُ عَقِيْلٌ كَانَ جَابِهَهُ ... لَمَّا أَتَاهُ بِأَطْمَاعٍ يُوَجِّيْهَا

وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ مَا كَانَ ٱلْإِمَامُ يُرَا ... شِيْ ٱلنَّاسَ كَيْ يَتَّقِيْ قَاسِيْ تَعَادِيْهَا

لَوْ كَانَ مَا تَرْتَجِيْهِ مِنْ مَطَامِعِهَا ... مِنَ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْإِسْلَامِ يُعْطِيْهَا

لَمَا تَكَلَّفَ فِيْ أَيَّامِ أُمْرَتِهِ ... حَرْبَ ٱلرَّعَايَا وَلَا تَأْدِيْبَ عَاصِيْهَا

وَلَا ٱلزُّبَيْرُ عَصَا يَوْمَاً خِلَافَتَهُ ... كَلَّا وَلَا طَلْحَةُ قَدْ رَاحَ آبِيْهَا

كَلَّا وَلَا أُمُّ عَبْدِ ٱللَّهِ عَائِشَةُ ... لَاقَتْ عَلَى ٱلْحَرْبِ أَعْوَانَاً تُؤَاتِيْهَا

كَلَّا وَلَا ٱلشَّامُ عَاصَتْهُ بِمَطْمَعِهَا ... وَقَدْ أَطَاعَتْ مُعَاوِيْهِ مُعَاوِيْهَا

كَلَّا وَلَا عَمْرُوُ ٱبْنُ ٱلْعَاصِ جَاهَرَ بِٱلْـ ... ـعِصْيَانِ يَرْجُوْ بِهِ مِصْرَاً وَيَبْغِيْهَا

كَلَّا وَلَا خَرَجَتْ يَوْمَاً خَوَارِجُ أَرْ ... ضِ ٱلنَّهْرَوَانِ عَلَيْهِ فِيْ تَعَصِّيْهَا

وَمَا حُرُوْبُ عَلِيٍّ فِيْ خِلَافَتِهِ ... قَدْ يَسْتَحِيْلُ وَلَا يُرْجَى تَلَافِيْهَا

لَوْ أَنْ تَسَامَحَ فِيْ أَحْكَامِ خَالِقِهِ ... مَعَ ٱلرَّعَايَا وَأَوْلَاهَا أَمَانِيْهَا

وَإِنَّ حَيْدَرَةً أَتْقَى وَأَقْدَسُ مِنْ ... أَنْ يَسْتَمِيْلَ ٱلرَّعَايَا أَوْ يُجَارِيْهَا

بِمَا يُعَارِضُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيْعَةِ جَهْـ ... ـرَاً فِيْ أَوَامِرِهَا أَوْ فِيْ نَوَاهِيْهَا

الراعي والرعية في نظر أمير المؤمنين

هٰذِيْ مَبَادِيْ عَلِيٍّ فِيْ حُكُوْمَتِهِ ... إِنْ تُغْضِبَ ٱلنَّاسَ كَانَ ٱللَّهُ رَاضِيْهَا(1)

وَسَنَّ سُنَّتَهُ فِيْهَا لِتَتْبَعَهَا ... مِنْ بَعْدِهِ ٱلنَّاسُ عُجْمِيْهَا وَعُرْبِيْهَا

---

(1) لقد أشرنا في الفصلين السابقين حيث نوهنا بدهاء سيدنا علي عليه السلام وشدته في سياسته إلى تلك الروح الطيبة الطاهرة التي ما كانت تعرف إلّا العدل بأوسع معانيه حسبما يقضي الشرع الشريف ولقد وضع عليه السلام أساساً وطيداً لحقوق الرعاة والرعية=

فَقَـالَ صَلَّى عَلَيْـهِ آللَّهُ قَـوْلَـةَ حَــــقٍّ وَآلسَّعِيْدُ آلَّذِيْ قَدْ بَاتَ صَـاغِيْهَا
لِلَّهِ سُبْحَـانَـهُ كُـلُّ آلْحُقُـوْقِ عَلٰى عِبَـادِهِ وَاجِبٌ فَـرْضٌ تَقَـاضِيْهَـا

= قال ﷺ : « ثمَّ جعل سبحانه من حقوقه ، حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها إلاَّ ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقّ الوالي على الرعية ، وحقّ الرعية على الوالي ، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلّ ، فجعلها نظاماً لألفتهم ، وعزّاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرعية ، فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه ، وأدّى الوالي إليها حقّها ، عزَّ الحقُّ بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على إذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع في بقاء الدولة ، ويئست مطامع الأعداء ، وإذا غلبت الرعية واليها ، وأجحف الوالي برعيته ، اختلفت هناك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الإدغال في الدين ، وتركت محاجُّ السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام ، وكثرت عللُ النفوس ، فلا يستوحش لعظيم حقّ عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهنالك يذلُّ الأبرار ، ويعزُّ الأشرار ، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد ، فعليكم بالتناصح في ذلك ، وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتدَّ على رضاء الله حرصه ، وطال في العمل اجتهاده ، ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له ، ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاون على إقامة الحقّ بينهم ، وليس امرءٌ وإن عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقّه ، ولا امرءٌ وإن صغرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك ، أو يعان عليه » اهـ .

أقول ولو طلب اليوم من أبلغ بلغاء أوروبا وأخطب خطبائهم أن يجعل نفوس العمران والاجتماع والشورى وارتباط الناس بعضهم ببعض وحكامهم بمحكوميهم لعجزوا عن الإتيان بمثل خطبة أمير المؤمنين هذه وبأرقى من مباديها وبأوفى من أغراضها بصرف النظر عن بلاغة التعبير التي هي من مميزاته ﷺ حتى قيل بحقّ إنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . ولعمري إنّ هذه الشورى التي تمشت عليها أوروبا في هذا الزمن فبلغت بها سؤددها المشهور ما هي إلاّ من بعض منشئات أمير المؤمنين وموضوعات القرآن المبين الذي أنزله الله سبحانه على سيد المرسلين .

وَخَصَّ بِٱلْبَعْضِ مِنْهَا بَعْضَهَا وَبِبَعْـــضٍ بَعْضَهَا حَيْثُمَا أَمْسَى مُجَزِّيْهَا

قَضَى بِأَنْ تَتَكَافَا فِيْ ٱلْوُجُوْهِ عَلَى جَمِيْعِنَا وَدَعَانَا أَنْ نُرَاعِيْهَا

وَلَيْسَ لِلْبَعْضِ مِنْهَا أَنْ يَكُوْنَ عَلَى ٱلْـــعِبَادِ مُفْتَرَضَاً مِنْ دُوْنِ بَاقِيْهَا

وَإِنَّ أَعْظَمَ هَاتِيْكَ ٱلْحُقُوْقِ بِلَا رَيْبٍ وَأَفْضَلَهَا فِيْ عَيْنِ وَاعِيْهَا

حَقُّ ٱلرَّعَايَا عَلَى ٱلْوَالِيْ يُقَدِّسُهُ بِلَا تَرَاخِيْ بِهِ كَيْمَا يُرَضِّيْهَا

وَحَقُّهُ وَهْوَ مَفْرُوْضٌ وَمُحْتَرَمٌ عَلَى رَعِيَّتِهِ مَا دَامَ رَاعِيْهَا

فَرِيْضَةٌ قَدْ تَعَالَى ٱللَّهُ فَارِضُهَا عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ قُلْ إِفْلَاحُهَا فِيْهَا

وَٱللَّهُ جَاعِلُهَا خَيْرَ ٱلنِّظَامِ لِأُلْـــفَةِ ٱلْجَمَاعَةِ مَعْ زَاهِيْ تَآخِيْهَا

وَإِنَّهَا سَبَبٌ أَسْمَى لِعِزَّةِ دِيْـــنِهَا وَعِزَّتُهُ كُلٌّ يُوَخِّيْهَا

وَفِيْ صَلَاحِ وُلَاةِ ٱلْأَمْرِ تَصْلُحُ أَشْـــتَاتُ ٱلرَّعِيَّةِ عَافِيْهَا وَمُثْرِيْهَا

وَفِيْ ٱسْتِقَامَةِ أَخْلَاقِ ٱلرَّعِيَّةِ تَصْـــلُحُ ٱلْوُلَاةُ ٱلْأُلَى لِلْعَدْلِ تَبْغِيْهَا

فَإِنْ تُؤَدِّيْ إِلَى ٱلْوَالِيْ ٱلرَّعِيَّةُ حَقَّـــهُ وَأَدَّى إِلَيْهَا ٱلْحَقَّ وَالِيْهَا

قُلْ بَيْنَهَا ٱلْحَقُّ قَدْ عَزَّتْ جَوَانِبُهُ فَمَا ٱلْأَبَاطِيْلُ تَدْهَاهَا وَتُوْهِيْهَا

وَقُلْ مَنَاهِجُ دِيْنِ ٱللَّهِ قَائِمَةٌ عَلَى ٱلْهُدَى تُؤْمِنُ ٱلتَّضْلِيْلَ وَٱلتِّيْهَا

وَقُلْ قَدِ ٱعْتَدَلَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِهَا مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ فِيْ عَالِيْ مَبَانِيْهَا

وَقُلْ جَرَتْ مِثْلَمَا يَرْجُوْ ٱلْحَكِيْمُ عَلَى إِذْلَالِهَا ٱلسُّنَنُ ٱلْمَحْمُوْدُ مُجْرِيْهَا

بِذَاكَ يَصْلُحُ تَٱللَّهِ ٱلزَّمَانُ وَتَلْـــقَى ٱلنَّاسُ فِيْهِ كَمَا تَرْجُوْ أَمَانِيْهَا

نَعَمْ وَنَطْمَعُ فِيْ طُوْلِ ٱلْبَقَاءِ لِدَوْ لَةٍ عَلَى مِثْلِ ذَا سَارَتْ أَهَالِيْهَا

وَمِنْ تَضَعْضُعِهَا أَوْ مِنْ تَبَدُّدِهَا أَوْ مِنْ تَدَهْوُرِهَا خَابَتْ أَعَادِيْهَا

أَمَّا إِذَا غَلَبَ ٱلرَّاعِيْ رَعِيَّتُهُ وَبَاتَ لُعْبَةَ هِزْءٍ بَيْنَ أَيْدِيْهَا

أَوْ جَارَ وَالٍ فَلَمْ يُنْصِفْ رَعِيَّتَهُ ... وَكَانَ مُرْهِقَهَا عِسْفاً وَمُؤْذِيْهَا

فَقُلْ هُنَالِكَ آرَاءٌ مُبَعْثَرَةٌ ... وَيَسْتَحِيْلُ عَلَى هَدْيٍ تَجَمِّيْهَا

وَٱلْجَوْرُ قَدْ ظَهَرَتْ شَتَّى مَعَالِمُهُ ... فِيْ ٱلنَّاسِ كَيْمَا تُعَانِيْهِ وَيُشْقِيْهَا

وَٱلدِّيْنُ قَدْ كَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ سَيِّئُهُ ... فِيْهِ فَأَوْلَاهُ بَعْدَ ٱلْحُسْنِ تَشْوِيْهَا

كَذَاكَ فَٱلسُّنَنُ ٱلْغَرَّا مَذَاهِبُهَا ... لَا شَكَّ مُهْمَلَةٌ مَا مَنْ يُخَطِّيْهَا

وَبِٱلْهَوَى تُعْمَلُ ٱلْأَعْمَالُ أَجْمَعُهَا ... حَتَّى تَسُوْءَ وَلَمْ تَصْلُحْ لِأَهْلِيْهَا

وَقَدْ تَعَطَّلَتِ ٱلْأَحْكَامُ وَٱنْدَرَسَتْ ... فَلَسْتَ تُلْفِيْ حَصِيْفَ ٱلرَّأْيِ يُجْرِيْهَا

وَفِيْ ٱلنُّفُوْسِ تَفَشَّتْ جَهْرَةً عُلَلٌ ... قَتَّالَةٌ ذُوْ ٱلْحِجَى يَخْشَى تَفَشِّيْهَا

فَإِنْ تَعَطَّلَ حَقٌّ أَوْ تَأَيَّدَ بُطْـ ... ـلٌ لَيْسَ يُوْحِشُهَا هٰذَا وَيُشْجِيْهَا

وَٱلذُّلُّ وَٱلْقَهْرُ لِلْأَبْرَارِ يَصْحَبُهَا ... وَٱلْعِزُّ وَٱلْمَجْدُ لِلْأَشْرَارِ يُمْهِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا تَبَعَاتُ ٱللَّهِ تَعْظُمُ عِنْـ ... ـدَ ٱلنَّاسِ وَهْيَ ٱلَّتِيْ بِٱلشَّرِّ تَجْنِيْهَا

تَنَاصَحُوْا يَا عِبَادَ ٱللَّهِ أَجْمَعُكُمْ ... فِيْ ذَاكَ دَعْوَى يُرِيْدُ ٱلْخَيْرَ دَاعِيْهَا

وَإِنَّنِيْ أَبْتَغِيْ مِنْكُمْ مُعَاوَنَةً ... حَسْنَا عَلَى ٱلْحَقِّ يَلْقَى ٱلْأَجْرَ آتِيْهَا

وَمَا ٱجْتَهَدْتُمْ بِأَعْمَالِ ٱلْبَرَارَةِ وَٱلـ ... ـتَّقْوَى بِخَيْرِ فِعَالٍ لَا خَطَا فِيْهَا

وَمَا حَرِصْتُمْ عَلَى رِضْوَانِ رَبِّكُمُ ... بِأَنْفُسٍ تَتَّقِيْ إِغْضَابَ بَارِيْهَا

فَلَيْسَ يَبْلُغُ مِنْكُمْ حَقَّ طَاعَةِ رَ ... بِّ ٱلْعَرْشِ حَتَّى بِتَقْوَاهُ يُؤَدِّيْهَا

لٰكِنْ عَلَى ٱلنَّاسِ مِنْ حَقِّ ٱلْمُهَيْمِنِ أَنْ ... تُبْدِيْ ٱلنَّصِيْحَةَ عَفْوَاً لَا تُخَبِّيْهَا

وَأَنْ تُقِيْمَ حُقُوْقَ ٱللَّهِ أَجْمَعَهَا ... عَلَى ٱلتَّعَاوُنِ فِيْ أَسْمَى مَبَادِيْهَا

وَلَا ٱمْرِءٌ مَا عَلَتْ فِيْ ٱلدِّيْنِ رِتْبَتُهُ ... وَفِيْ ٱلْفَضِيْلَةِ تُسْمِيْهِ وَيُسْمِيْهَا

بِفَوْقِ أَنْ يَتَلَقَّى مِنْ صَحَابَتِهِ ... مَعُوْنَةً وَهْيَ بِٱلْإِخْلَاصِ تُسْدِيْهَا

كَيْمَا يَقُوْمُ بِمَا آلرَّحْمٰنُ حَمَّلَهُ ... مِنْ حَقِّهِ فِيْ آلرَّعَايَا وَهْوَ حَامِيْهَا
وَلَا آمْرِءٌ مَا دَنَتْ فِيْ آلْجَاهِ رِتْبَتُهُ ... وَكَانَ فِيْ آلنَّاسِ مِنْ أَدْنَى أَدَانِيْهَا
بِدُوْنِ أَنْ يَبْذُلَ آلْعَوْنَ آلْجَمِيْلَ وَأَنْ ... يُعَانَ تِلْكَ حُقُوْقُ آللّٰهِ يَقْضِيْهَا
ذَا رَأْيُ حَيْدَرَةٍ بَلْ ذَا عَدَالَةُ شَرْ ... عِ آللّٰهِ حَيْدَرَةٌ قَدْ رَاحَ يُبْدِيْهَا
أَيَّامَ كَانَتْ مُلُوْكُ آلْأَرْضِ آلِهَةً ... وَنَاسُهَا مَا تَعَالَتْ عَنْ مَوَاشِيْهَا
وَلَمْ تَكُنْ مِنْ حُقُوْقٍ لِلرَّعِيَّةِ تَرْ ... عَاهَا آلْمُلُوْكُ وَتَرْضَاهَا وَتَدْرِيْهَا
فَكَانَ آوَّلَ مَنْ أَعْطَى آلشُّعُوْبَ حُقُوْ ... قَهَا وَقَيَّدَ تَقْيِيْداً مَوَالِيْهَا
وَمَا أُرُبَّةُ فِيْ ذَا آلْعَهْدِ نَازِلَةٌ ... إِلَّا عَلَى حُكْمِهِ وَهْوَ آلْمُقَوِّيْهَا
فَإِنْ نُؤَرِّخْ شُوْرَاهَا نَقُوْلُ عَلِيُّ ... آلْمُرْتَضَى دُوْنَ شَكٍّ كَانَ مُنْشِيْهَا

سخاء أمير المؤمنين

أَبْهَى وَأَزْهَى سَجَايَا آلْعُرْبِ أَجْمَعِهَا ... سَخَاؤُهَا وَآلسَّخَا أَسْمَى مَبَادِيْهَا[1]
فَإِنْ تَجِدْ عَرَبِيّاً لَيْسَ ذَا كَرَمٍ ... فَقُلْ دَخِيْلٌ عَلَيْهَا مِنْ مَوَالِيْهَا

(١) إنَّ السخاء سجية خلقية في العرب والكرم شيمة طبيعية في نفوسهم والسماحة من مميزاتهم التي لا يدانيهم بها غيرهم من الناس فإذا وجدت عربياً بخيلاً شحيحاً فاحكم على البداهة أنّه ليس من العرب بل دخيل عليهم . وعلى هذا فالسخاء الذي يقول الحكماء أنّه يخفي العيوب ويستعبد القلوب ليس بالأمر الغريب أن يتصف به سيدنا أمير المؤمنين وهو والمصطفى صفوة قريش وأعرق الناس شرفاً وسؤدداً بين الناطقين بالضاد عليهما الصلاة والسلام . وأجمع رواة التاريخ أنَّ المرتضى عليه السلام كان أسخى أسخياء العرب وأسمحهم نفساً وأوفرهم جوداً حتى ليجود على عفاته بنفسه لو وجد إليها سبيلاً . فلا غرو والحالة هذه إذا قالوا أنَّ نفسه الشريفة لم تغرَّ بالمال قطُّ ولا صبت إليه ولا عرفت له قيمة وأنّه لقد صدق يوم قال : « إنّ دنياكم عندي كعفطة عنز » .

وما اشتهر سيدنا أمير المؤمنين بالسخاء عندما تدفقت خيرات الله على المسلمين=

= بعد أن نصر الله سبحانه دينه وتمَّ لعباده ذلك الفتح العظيم فكان له مثل غيره من وجوه المسلمين النصيب الوافي من الفيء ولا بعد أن أصبح خليفة المسلمين وباتت مفاتيح خزائن بيت المال في قبضته الكريمة بل قبل ذلك يوم كان متربا فقيراً على خصاصة يومئذٍ كان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده المساكين فأرضى بإحسانه ربَّ العالمين فأنزل فيه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبّه ، مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنّما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منك جزاءً ولا شكوراً** ﴾ ولعمري أنَّ من شهد الله سبحانه له بالسخاء بهذه الآية الكريمة لهو السخيُّ المحسان .

وكان سيدنا علي في صدر الهجرة يشتغل بعرق جبينه لينفق على نفسه وزوجه فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام فتوفر له يوماً من ربحه الحلال أربعة دراهم فتصدَّق بأحدها نهاراً والثاني ليلاً وبالثالث سرَّاً وبالرابع جهرةً فرضي الله عن هذا الإحسان الكثير إحسان الرجل بكل ما جنى بعرق جبهته وأنزل فيه آية : ﴿ **الذين ينفقون بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً** ﴾ ولعمر الحقّ أنَّ هذا الإحسان لا يعادله إحسان .

وكان سيدنا علي عليه السلام يسقي نخيل رجل من اليهود في المدينة المنوَّرة حتى مجلت يده وكان يتصدَّق بما يكسب ويشدّ على بطنه حجراً من الجوع وهذا فوق الكرم والسخاء .

وروى الثقاة أنّ سيدنا أمير المؤمنين ذكر يوماً في مجلس الشعبي فقال هذا فيه : « كان على الخلق الذي يحبه الله السخاء والجود ما قال لسائل (لا) قط وهذا معروف مشهور يعرفه ويعترف به كلٌ من وقفوا على سيرة أبي الحسنين سواءٌ كانوا من محبيه أو مبغضيه » .

وهذا معاوية وهو عدوّ المرتضى اللدود كان معجباً بسخاء أمير المؤمنين عليه السلام فقد حدَّث المحدّثون أنَّ محفن ابن أبي محفن الضبي جاءَ يوماً متملقاً وهو أمير الشام فسأله من أين أنت قادم يا محفن ؟ قال ويريد أن يتملقه : من الكوفة من عند أبخل الناس . فجبهه معاوية قائلاً : ويحك كيف تقول عن علي أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه فخجل محفن وصمت واجماً . ولعمري أنَّ شهادة معاوية لسيدنا علي بالسخاء هي الحجة الكبرى لما تعلم ما كان يضمره في نفسه=

لَوْ أَنَّ فِي يَدِهِ ٱلسَّخْيَا حَشَاشَتُهُ لَرَاحَ لِلنَّاسِ أَيْمُ ٱللَّهِ يُعْطِيْهَا

كَمْ بَاتَ جُوْعَانَ مَطْوِيَّ ٱلْحَشَا تَعِبَاً وَقَدْ أَتَتْهُ جِيَاعُ ٱلنَّاسِ يَقْرِيْهَا

فَلِلأَيَامَى وَلِلأَيْتَامِ كَانَ غِذَاهُ وَٱلأَسَارَى بِحُبِّ ٱللَّهِ يَغْذِيْهَا

﴿ وَيُطْعِمُوْنَ ﴾ بِحَقٍّ فِيهِ قَدْ نَزَلَتْ تُثْنِيْ عَلَيْهِ فَيَا سُبْحَانَ مُوْحِيْهَا

وَكَانَ يَوْمَاً لَدَى عُلْيَاهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ بِٱلأَوْصَابِ جَانِيْهَا

بِوَاحِدٍ جَادَ لَيْلاً ثُمَّ جَادَ بِثَانٍ فِيْ ٱلنِهَارِ سَمُوْحَ ٱلنَّفْسِ سَاخِيْهَا

وَقَدْ تَصَدَّقَ عَنْ تَقْوَى بِثَالِثِهَا سِرَّاً وَرَابِعُهَا أَعْطَاهُ تَجْرِيْهَا

فِيْ ذَاكَ قَدْ نَزَلَتْ بِٱلْحَقِّ آيَةُ ﴿ يُنْفِقُوْنَ ﴾ وَهِيَ ٱلَّتِيْ جِبْرِيْلُ مُلْقِيْهَا

=له من العداء والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولقد ذكرنا فيما مرَّ معنا في هذه العلوية المباركة وحواشيها أنَّ سيدنا علي عليه السلام كان في كل يوم جمعة بعد الصلاة يوزع على المساكين ما في بيت مال المسلمين من ذهب ولجين ثم يكنس البيت ويصلّي فيه لربّه ويقول : يا صفراء ويا بيضاء غرِّي غيري .

وقد تربع سيدنا أمير المؤمنين على دست الخلافة وأصبح خراجها يأتيه من كل صوب وحدب ومع ذلك كان ينفق على نفسه وعياله الكفاف ولم يرض أن يختصَّ بشيء من المال يتركه لأولاده من بعده بل كان جميع حقّه الشرعي من الفيء ينفقه على المعوزين والمساكين لوجه الله الكريم .

على أنّه عليه السلام كان يحسن بهذا الكرم العجيب في حالتي يسره وعسره ولكن لوجه الله تعالى لا يريد من وراء إحسانه جزاءً ولا شكوراً ولا يرمي به إلى مصلحة دنيوية خلافاً لغيره من الذين كان إحسانهم تجارةً يرمون بها إلى تكثير أعوانهم وتوفير دواعي القوة بهم للتغلب على الخلافة مما رأينا نتائجه فيما تقدم من هذه العلوية المباركة وهي الإكثار من أعداء سيدنا علي من طلاب الدنيا وتراخي أصحابه عن نصرة الله ورسوله وشريعته تحت رايته العليا .

بِمُهْجَتِيْ ٱلْمُرْتَضى أُفْدِيْ وَقَدْ مَجلَتْ يَـدَاهُ مِنْ أَرضِيْنَ ٱلنَّـاسِ يَسْقِيْهَـا

وَكَـانَ يُؤْثِـرُ أَرْبَـاحَـاً يُحَصِّلُهَـا بِكَـدِّهِ وَهْـوَ جُـوْعَـانٌ بِبَـاغِيْهَـا

وَإِنَّمـا ٱلْجُوْدُ أَنْ يَشْقَى ٱلْفَتَى وَبِمَـا لَـدَيْـهِ يَلْقَى مِنَ ٱلْأَتْـرَابِ عَـافِيْهَـا

لاَ ٱلْجُوْدُ أَنْ يَبْذِلَ ٱلْإِنْسَانُ فَضْلَةَ أَمْـــوَالٍ لَـدَيْـهِ بِـلاَ نَفْـعٍ مُخَبِّيْهَـا

كَـذَاكَ كَانَ سَخَـاءُ ٱلْمُرْتَضَى وَعَـطَا يَـاهُ ٱلْقَلِيْلَةُ بِـٱلْأَوْصَـابِ يَجْنِيْهَـا

أَيَّامَ كَانَتْ جَمَاعَاتُ ٱلـرَّسُوْلِ عَلى خَصَـاصَةٍ بِرِضَى ٱلْبَـارِيْ تُعَـانِيْهَـا

وَٱلْمُـرْتَضَى لَمْ يَقُـلْ يَـوْمَـاً لِسَـائِلِهِ لاَ إِنَّ لَفْـظَةَ لاَ مَـا كَـانَ يَـدْرِيْهَـا

وَلَمْ يُخَيِّبْ رِغَـابَـاً لاَ تُخَـالِفُ شَـرْ عَ ٱللَّهِ أَوْ سِنَّـةَ ٱلْهَـادِيْ لِـرَاجِيْهَـا

وَذَا مُـعَـاوِيَـةٌ وَهْـوَ ٱلْـعَـدُوُّ أَتَـا هُ مَحْقَنٌ لَهْجَـةُ ٱلتَّمْلِيْقِ يُبْـدِيْـهَـا

فَقَالَ: يَا صَاحِبِيْ مِنْ عِنْدِ أَبْخَلِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ جِئْتُكَ بِٱلآمَالِ أُزْجِيْهَا

فَقَـالَ: مِنْ أَيْنَ قَـدْ وَافَيْت مُـرْتَبَعِي أَجَابَ: مِنْ كُوْفَـةٍ مِنْ عِنْدِ عَـالِيْهَا

فَقَالَ: وَيْحكَ تَرْمِيْ ٱلْمُرْتَضَى بِصِفَا تِ ٱلشُّحِّ حَاشَاهُ حَاشَـا أَنْ يُدَانِيْهَـا

لَـوْ كَـانَ يَمْلِكُ بَـيْتَـاً مِـلْؤُهُ ذَهَبٌ وَمَتْبَنَـاً وَٱنْجَلى فِيْ ٱلنَّاسِ يُجْـدِيْهَا

لَأنْفَـذَ ٱلتِّبْـرَ قَبْـلَ ٱلتِّبْنِ تَبْـذِلُـهُ يُمْنَـاهُ بِـرَّاً وَإِحْسَـانَـاً لِجَـادِيْهَـا

وَهْيَ ٱلشَّهَـادَةُ مِنْ مَـرْءٍ عَـدَاوَتُـهُ لِلْمُـرْتَضَى لَمْ يَكُنْ يَـوْمَـاً يُـدَارِيْهَـا

فَمَـا نَقُـوْلُ وَنَحْنُ ٱلْأَصْـدِقَـاءُ بِـهِ وَبِـٱلْأَيَادِيْ ٱلَّتِيْ قَـدْ كَـانَ يُسْـدِيْهَـا

وَهْـوَ ٱلْمُكَنِّسُ بَيْتَ ٱلْمَالِ مُفْـرِغُـهُ عَلى ٱلْعُفَـاةِ ٱلْأُلَى ٱلْأَقْـدَارُ تُشْقِيْهَـا

يَقُوْلُ: مَا غَـرَّتِ ٱلْبَيْضَاءُ مِثْلِيَ وَٱلـــصَّفْـرَاءُ كَـلاَّ وَلاَ أَرْضَى تَصَبِّيْهَـا

وَحَسْبُـهُ لَمْ يُخَلِّفْ مِنْ خِـلاَفَـتِـهِ لِأَهْـلِهِ مِـنْ مَـوَارِيْـثٍ تُـرَجِّـيْـهَـا

نَعَمْ أَبُـوْ حَسَنٍ مَـا كَـانَ يَبْـذِلُ أَمْـــوَالَ ٱلْخِـلاَفَـةِ لِـلْأَعْـوَانِ يَـرْشِيْهَـا

وَلَمْ يُنِـلْ رُؤَسَـاءَ ٱلنَّـاسِ رَغْبَتَهَـا فَيَـظْلُمُ ٱلْفُقَـرَا ظِلْمَـاً وَيُـغْنِيْهَـا

لٰكِنَّـهُ كَـانَ يَلْقَى بِـٱلْمَـوَاهِبِ أَرْ بَـابَ ٱلْخَصَاصَـةِ يَبْغِي وَجْهَ بَـارِيْهَا

وَهُـوَ ٱلَّـذِيْ مَلَكَ ٱلـدُّنْيَا بِـرَاحَتِهِ وَلَـمْ يُغَـرَّ فَـأَبْقَـاهَـا لِأَهْلِيْـهَـا

وَٱلْمَـالُ عَـارِيَـةٌ فِيْ جَيْبِ خَـازِنِـهِ لِـكَيْ يُـؤَرِّثَـهُ ٱلْأَعْقَـابَ يُـهْنِيْهَـا

فَإِنْ وَفَى مِنْهُ حَقَّ ٱللّهِ سَارَ إِلَى ٱلْـ ـخُلُوْدِ بِـٱلصَّفَحَاتِ ٱلْبِيْضِ يُسْنِيْهَا

وَإِنَّ صَفْحَـةَ مَـوْلَانَـا أَبِيْ حَسَـنٍ بَيْضَـاءُ أَزْهَى مَجَـالِيْ بِـرِّهِ فِيْهَـا

فصاحة أمير المؤمنين وبلاغته

إِنَّ ٱلْفَصَـاحَـةَ مَـا دَانَتْ لِـذِيْ لَسَنٍ مِنَ ٱلْبَـرِيَّـةِ عُـرْبِيْهَـا وَعُجْمِيْهَـا[1]

كَمَـا ٱنْثَنَتْ بِبَهَـاهَـا وَهْيَ خَـاضِعَـةٌ لِلْمُـرْتَضَى ٱللَّسِنِ ٱلْقَـوَّالِ رَاعِيْهَـا

(١) لا جدال أنَّ سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام هو إمام الفصحاء وأستاذ البلغاء وأعظم من خطب وكتب في عرف أهل هذه الصناعة الألبَّاء وهذا كلامه عليه السلام قد قيل فيه بحقّ أنّه فوق كلام الخلق وتحت كلام الخالق قال هذا كل من عرف فنون الكتابة واشتغل في صناعة التحبير والتحرير بل هو أستاذ الكتاب العرب ومعلمهم بلا مراء فما من أديب لبيب حاول اتقان صناعة التحرير إلاَّ وبين يديه القرآن ونهج البلاغة ذاك كلام الخالق وهذا كلام أشرف المخلوقين وعليهما يعوّل في التحرير والتحبير إذا أراد أن يكون في معاشر الكتبة المجيدين . ولعلَّ أفضل من خدم لغة قريش الشريف الرضي الذي جمع خطب وأقوال وحكم ورسائل سيدنا أمير المؤمنين من أفواه الناس وأماليهم وأصاب كلَّ الإصابة بإطلاقه عليه اسم « نهج البلاغة » وما هذا الكتاب إلاّ صراطها المستقيم لمن يحاول الوصول إليها من معاشر المتأدبين ولعلَّ أحسن وصف قرأته لنهج البلاغة قول الأستاذ الكبير الفيلسوف الشيخ محمد عبده المصري رحمه الله فقد وصف ما كان يشعر به وهو بين يدي تلك الدور الحسان المزربة بعقود الجمان قال : « كان يخيل لي في كل مقام ، أنَّ حروباً شبّت ، وغاراتٍ شُنَّت ، وأنَّ البلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأنَّ للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأنَّ جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، في عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم=

= الأملج ، وتثلج المهج ، برواضع الحجج ، فتقلُّ دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلاَّ والحقُّ منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشكّ في خمود ، وهرج الريب في ركود ، وأنَّ مدبّر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، بل كنت كلما انتقلت من موضعٍ إلى موضع ، أحسُّ بتغيّر الشاهد ، وتحوّل المعاهد ، فتارةً كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواحٌ عالية ، في حلل من العبارات زاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية ، توحي إليها رشادها ، وتقدّم منها مرادها ، وتنفر بها عن مداحض المزال ، إلى جواد الفضل والكمال ، وطوراً كانت تنكشف لي الجمل ، عن وجوهٍ باسرة ، وأنيابٍ كاشرة ، وأرواحٍ في أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ، ثمَّ انقضّت للاختلاب ، فخلبت القلوب على هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد ، أنَّ عقلاً نورانياً ، لا يشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلٓهي ، واتّصل بالروح الإنساني ، فخلعه على غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ، باعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمّة ، يعرّفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طرق الكياسة ، ويرتفع بهم إلى منصات الرئاسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير » اهـ هذا ما رآه الأستاذ الإمام رحمه الله وما شعر به وهو مجدٌّ في درس نهج البلاغة سائر إليها فلا عجب إذا فاز منها بالنصيب الأعلى فكان أفصح من كتب في المتأخرين وقد قال لي رحمه الله مرةً إذا رمت أن تكون كاتباً فخذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أستاذاً واتّخذ أقواله الدرية في ظلمات ليلك نبراساً وذكر مرَّةً لي المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي أكتب كتاب العرب وإمام أساتذة اللغة فيهم في العهد الأخير بالإجماع قال : « ما اتقنت الكتابة إلاّ بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفد وذخيرتها للمتأدب وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيي لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما » وهذا ما نقوله هنا لمن يريد أن يكون كاتباً بلغة الأعراب أو متفوقاً في مواقف الجدل والخطاب .

=

قَـدْ بَـذَّ كُـلَّ فَصِيْحٍ قَبْلَهُ عُـرِفَتْ   آثَـارُ آدَابِـهِ وَٱلـنَّـاسُ تَـرْوِيْـهَـا
وَلَمْ يَـدَعْ بَعْـدَهُ سُبْـلاً لِمُـطَّلِبٍ   سَبْقَـاً بِمُضْمَـارِهَـا إِنْ رَامَ يَمْشِيْهَـا
لَمْ يُبْقِ ذِكْـرَاً لِقِسٍّ وَهْوَ أَفْصَحُ مِلْـــسَانٍ وَلاَ خُـطَبٍ قَـدْ كَـانَ يُلْقِيْهَـا
نَعَمْ فَصَـاحَتُـهُ مَـا مَنْ يُقَـارِبُـهُ   فِيْهَـا وَحَسْبِيْ عَلِيٌّ كَـانَ يُنْشِـيْهَـا
وَإِنَّـهُ دُوْنَ رَيْبٍ سَيِّـدُ ٱلْـفُصَحَـا   ءِ ٱلثَّـائِـرِيْنَ مِنَ ٱلْأَقْـوَالِ دُرِّيْهَـا
وَإِنَّهَـا فَـوْقَ أَقْـوَالِ ٱلْبَـرِيَّـةِ طُـــرَّاً إِنَّمَـا دُوْنَ مَـا قَـدْ قَـالَ بَـارِيْهَـا
وَهْيَ ٱلَّتِيْ تَسْحَـرُ ٱلْأَلْبَابَ مَـا تُلِيَتْ   سُحْـرَاً حَـلاَلاً يُغَشِّيْ نَفْسَ تَـالِيْهَـا
هِيَ ٱلشَّمُـوْلُ بِأَلْبَابِ ٱلْوَرَى لَعِبَتْ   لِعْبَ ٱلشَّمُـوْلِ بِـلاَ إِثْمٍ لِسَـاقِيْهَـا
عُقُـوْدُ دُرٍّ لِجِيْدِ ٱلشَّـرْعِ قَدْ نُـظِمَتْ   فَـهَـاكَـهُ قَـدْ تَحَـلَّى مِنْ لآلِـيْهَـا
فِيْ حُسْنِهَا جُلِيَتْ مِثْلَ ٱلْعَرَائِسِ فِيْ   حِلِيِّهَـا تَبْهَـرُ ٱلـدُّنْيَـا مَجَـالِيْهَـا
آضَتْ تَـلاَوَتُهَـا وَٱللَّهِ مُـطْرِبَـةَ ٱلْأَ م سْمَـاعِ مَا نَغَمَـاتُ ٱلطَّيْـرِ تَحْكِيْهَـا

= ومع هذا فإننا نشير هنا إلى شهادة معاوية بن أبي سفيان عدو سيدنـا أمير المؤمنين وإقراره الصريح بتفوقه عليه السلام في هذه الصناعة والفضـل ما شهـدت به الأعداء فإنّـه قال لمحفن الذي وافاه متملقاً فقال جئتك من عند أعيى الناس كما سبق وقال له جئتـك من عند أبخل الناس فجبهه معاوية قائلاً ويحك كيف يكون عليٌّ أعيى النـاس فوالله مـا سنَّ الفصاحة لقريش غيره وهذا حسب .

وفي هذه المناسبة يخلق بنا أن نشير إلى ما يتـداوله النـاس من القصائـد الحكمية المنسوبة إلى سيدنا علي عليه السلام وأجمع المؤرخون على أنّها ليست للإمـام بل نسبهـا إليه ناظموها ربما عن تقى وربما عن اقتباس . ولهؤلاء حجج كثيرة منها أنَّ ما يتداوله الناس من الأشعار المنسوبة للإمام ما هي من البلاغة بمنزلة المعهود من أقوالـه الشريفـة ومنها أنَّ الشريف الرضي لم يذكر في نهج البلاغة شيئاً من شعره ولا ذكر مع حرصه على كل ما ينسب لأمير المؤمنين أنَّ له شيئاً من الشعر ونحن على هذا الرأي والله أعلم .

فَمَنْ تَلاَهَا تَلاَهَى عَنْ فَرائِضِهِ   إنْسَاً بِهَا نَاسِيَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا

ضَمَّتْ مَوَاعِظَهُ ٱلْغَرَّا وَحُكْمَتَهُ ٱلْـ   ـكُبْرَى وَأَخْلاَقَهُ ٱلزَّهْرَا فَحَاوِيْهَا

وَجَاءَ فِيْهَا بِأَحْكَامٍ تُوَضِّحُ آ   يَاتِ ٱلْكِتَابِ عَلَى مَا شَاءَ مُوْحِيْهَا

وَكَانَ يَكْسُوْ مَعَانِيْهِ ٱلسَّنِيَّةَ أَلْـ   ـفَاظَاً تَلِيْقُ بِهَا أَعْظِمْ بِكَاسِيْهَا

وَكَانَ يُرْسِلُهَا عَفْوَا بِلاَ تَعَبٍ   عَلَى ٱلْمَنَابِرِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُشْجِيْهَا

كَذَا رَسَائِلُهُ ٱلْغَرَّاءُ كَانَ بِلاَ   تَكَلُّفٍ بِدَرَارِيْهِ يُوَشِّيْهَا

ظَلَّتْ وَحَقِّكَ كَنْزَاً لاَ نَفَادَ لَهُ   مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ لِلْأَعْرَابِ يُغْنِيْهَا

مِنْهَا تَعَلَّمَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْفَصَاحَةَ لَـ   ـكِنْ أَعْجَزَتْ كُلَّ مَنْ يَبْغِيْ تَحَدِّيْهَا

بِذَلِكَ ٱعْتَرَفَتْ أَهْلُ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْإِ   جْمَاعِ مُصْدِرَةً فِيْهِ فَتَاوِيْهَا

وَعَمْرَكَ ٱللَّهَ هَلْ أَجْلَى وَأَفْصَحُ مِنْ   أَقْوَالِ حَيْدَرَةٍ أَوْ مِنْ مَعَانِيْهَا

فِيْ كُلِّ مَا نَظَمَتْ أَوْ كُلِّ مَا نَثَرَتْ   أَهْلُ ٱلزَّكَانَةِ فِيْ شَتَّى أَمَالِيْهَا

لَوْلاَ ٱلتُّقَى قُلْتُ آيَاتٌ مُنَسَّقَةٌ   فِيْهَا ٱلْهِدَايَةُ أَوْ تَجْرِيْ مَجَارِيْهَا

وَذِيْ كِتَابَتُهُ « نَهْجُ ٱلْبَلاَغَةِ » فِيْ   سُطُوْرِهَا وَبِهِ هَدْيٌ لِقَارِيْهَا

وَحَسْبُنَا مَا رَأَيْنَا لِلصَّحَابَةِ آ   ثَاراً تُحَاكِيْ ٱلَّذِيْ أَبْقَاهُ عَالِيْهَا

وَهُمْ لَقَدْ وَرَدُوْا مَعْهُ مَنَاهِلَ دِيْـ   ـنِ ٱللَّهِ وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا

فَإِنْ تَقُلْ غَيْرَ هَيَّابٍ فَصَاحَتُهُ   لِلنَّاسِ مُعْجِزَةٌ لَمْ تَلْقَ تَسْفِيْهَا

وَذَاتُ يَوْمٍ أَتَى مَثْوَى مُعَاوِيَةٍ   لِجِدْيَةٍ مَحْفَنٌ قَدْ كَانَ يَبْغِيْهَا

فَقَالَ: مِنْ عِنْدِ أَعْيَى ٱلنَّاسِ جِئْتُكَ يَا   رَبَّ ٱلْفَصَاحَةِ أَنْشِدْنِيْ مَثَانِيْهَا

فَقَالَ: وَيْحَكَ تَرْمِيْ بِٱلْفَهَاهَةِ وَٱلْإِ   عْيَاءِ حَيْدَرَةً كِذْبَاً وَتَمْوِيْهَا

وَلَمْ يَسُنَّ قَوَانِيْنَ ٱلْفَصَاحَةِ إِلاَّ   هُ لِأُمَّتِنَا حَتَّى قُرَيْشِيْهَا

وَتِلْكَ قَوْلَةُ حَقٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ عَفْواً بِمَجْلِسِهِ مَا آسْطَاعَ يَزْوِيْهَا

وَآلْفَضْلُ لِلْمَرْءِ مَا أَعْدَاؤُهُ شَهِدَتْ لَهُ بِهِ وَرَوَتْهُ فِيْ نَوَادِيْهَا

زهد أمير المؤمنين

يَا نَفْسُ آثَارَهُ فِيْ آلزُّهْدِ وَآقْرِيْهَا[1] قِفِيْ لَدَى سَيِّدِ آلزُّهَّادِ وَآعْتَبِرِيْ

فَمَنْ تَكُوْنِيْنَ فِيْ جَنْبِ آلْإِمَامِ وَقَدْ شُمْنَاهُ مُتَّرِكَ آلدُّنْيَا لِأَهْلِيْهَا

فَإِنَّهُ مَا آمْتَلَا مِنْ مَطْعَمٍ أَبَداً وَطَالَمَا بَاتَ طَاوِيْ آلنَّفْسِ خَاوِيْهَا

وَكَانَ مَأْكَلُهُ خَشْناً وَمَلْبَسُهُ مَا بَيْنَ صَحْبٍ قَضُوْا آلْأَعْمَارَ تَرْفِيْهَا

وَقَدْ تَدَثَّرَ ثَوْبَاً كُلُّهُ رِقَعٌ جُلُوْدُهَا خِيْطَتْ فِيْ جَنْبِ لِيْفِيْهَا

وَإِنْ رَأَى كُمَّهُ طَالَتْ عَلَى يَدِهِ يَقُصُّهَا كَارِهَاً مِنْهَا تَدَلِّيْهَا

وَيَغْتَذِيْ بِبُقُوْلِ آلْأَرْضِ مُتَّرِكاً مِنَ آلْمَآكِلِ لِلنُّهَّامِ شَاهِيْهَا

---

(١) إنّ من أحلى صفات أمير المؤمنين عليه السلام زهده ويعجز القلم وتضيق الصحف عن استيعاب أنباء زهده التي طالما أشرنا إليها في هذه القصيدة المباركة فلا غرو إذا قلنا أنّه سيد الزهّاد وبدل الأبدال وإليه تشدُّ الرحال وعنده تنقضّ الأحلاس فإنّه ما شبع من طعام قطّ وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً . قال عبد الله بن أبي رافع دخلت على عليّ يوم عيد فقدم له جراب مختوم فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً فأكل منه الكفاف وختمه وأعاده فقلت يا أمير المؤمنين لماذا تختمه قال أخاف من هذين الولدين أن يلتاه بسمن أو زيت اهـ أقول وقد كان ثوبه مرقوعاً بجلد تارةً وبليف أخرى وكان نعلاه من ليف وكان يلبس الكرباس الغليظ فإذا وجد كمه طويلةً قطعها بسكين ولم يخطها فكانت لا تزال متساقطةً على ذراعه حتى تبقى سدىً لا لحمة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخل أو بملح فإن زاد على ذلك فببعض نبات الأرض وإذا أسرف فبقليل من لبن الإبل وما كان يأكل اللحم إلاّ قليلاً ويقول : « لا تجعلوا قلوبكم مقابر الحيوان » وكان مع ذلك أشدَّ الناس قوةً وأعظمهم يداً فلا أنقص الجوع قوّته ولا خوَّر الإقلال عزمه وهو الذي طلق الدنيا فلم يعبأ بخيراتها مع أنَّ الأموال كانت تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلاّ من الشام التي كان مغتصبها معاوية .

وَقَلَّمَا أَكَلَ ٱللَّحْمَ ٱلشَّهِيَّ وَأَلْـ ـبَانَ ٱلنِّيَاقِ إِذَا مَا فَاضَ رَاغِيْهَا
يَقُوْلُ: لَا تَجْعَلُوْا هٰذِي ٱلْبُطُوْنَ قُبُوْ رًا لِلْمَوَاشِي تُوَارِيْهَا مَخَابِيْهَا
فَٱنْظُرْ لِمَلْكٍ بِلَادُ ٱللّٰهِ فِيْ يَدِهِ وَكَانَ يَرْضَى بِنَبْتٍ مِنْ بَرَارِيْهَا
وَإِنَّ خَيْرَاتِهَا تُجْبَى إِلَيْهِ وَلَا تَنَالُهَا غَيْرُ أَيْدِي مُسْتَحِقِّيْهَا
ٱللّٰهُ أَكْبَرُ فِيْ ٱلْمِفْضَالِ حَيْدَرَةٍ وَفِيْ فَضَائِلِهِ وَٱلزُّهْدُ يُحَلِّيْهَا
يَعْرَى وَيَطْوَى وَيُكْفِيْ فِيْ مَكَارِمِهِ أَهْلَ ٱلْخَصَاصَةِ طَاوِيْهَا وَعَارِيْهَا
وَمَنْ تَزَهَّدَ وَٱلْأَمْوَالُ فَائِضَةٌ عَلَيْهِ مِثْلَ مِيَاهِ ٱلسَّيْلِ جَارِيْهَا
أَسْمَى وَأَفْضَلُ مِنْ زُهْدِ ٱلْمُقِلِّ عَلَى خَصَاصَةٍ وَهْوَ يَعْيَا عَنْ تَحَصِّيْهَا
هٰذَا هُوَ ٱلزُّهْدُ زُهْدُ ٱلْقَانِتِ ٱلْوَرِعِ ٱلْـ ـتَّاقِيْ ٱلَّذِيْ يَقْصِدُ ٱلْجَنَّاتِ يَبْغِيْهَا
هٰذَا وَصِيُّ رَسُوْلِ ٱللّٰهِ وَارِثُ آ لَاءِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ أَسْنَى تَلَالِيْهَا
عَلَيْهِمَا صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ خَالِدَةٌ تُتْلَى مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱلرَّحْمٰنُ رَاضِيْهَا

وصف أمير المؤمنين لزهده

وَذَاتِ يَوْمٍ دَعَا فِيْ بَصْرَةٍ رَجُلٌ إِلَى وَلِيْمَتِهِ بِٱلصَّفْوِ وَالِيْهَا[1]
فَمَا تَأَخَّرَ عَنْهَا وَهْوَ مُطَّلِبٌ أَشْهَى وَأَطْيَبَ مَا يَطْهُوْهُ طَاهِيْهَا

---

(١) خليق بنا هنا أن ننظم إحدى رسائل أمير المؤمنين عليه السلام وقد وصف فيها زهده أحسن وصف وهذه الرسالة العصماء أرسلها إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة وقد بلغه أنّه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها قال :

« أمّا بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أنَّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم ، عائلهم مجفوّ ، وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ، ألا وإنَّ لكلّ مأموم=

= إماماً يقتدى به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإنَّ إمَامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وأنّكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد ، فوالله ما كثرت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منها إلاّ كقوت أتان دبرة ، ولهيَ في عيني أوهى من عفصة مرَّة » اهـ .

ويخلق بنا عند ذكر هذه الرسالة الكريمة التي سطرها أمير المؤمنين عظةً للحكام والناس أجمعين أن تنبه إلى أمور ترى في التنبيه إليها دفاعاً عن حقّ أضاعه أكثر شارحي كتاب « نهج البلاغة » إذ ذهبوا في هذه الرسالة إلى أنّه عليه السلام أراد بها ذمّ أهل البصرة بقوله : « عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » والذي أراه أنّ الأمير لم يرد بهذا الذمّ عموم أهل البصرة ولكن زمرة معينة من أهلها كان صاحب الوليمة واحداً منها وحاشى له على عدالته التي لا يختلف فيها اثنان أن يرمي البصريين كلهم بمساوىء طائفةٍ منهم لا يخلو من مثلها بلد من بلاد الدنيا كما أنَّ هذه الوليمة قد أولمت قبل حرب الجمل فما من داعٍ لذمّ البصريين أو بعضهم فيها وبهذا كفاية . وارجع إلى الرسالة التي نحن بصددها فقد كتبها أمير المؤمنين عليه السلام وهو في المدينة المنورة قبل أن يخرج منها لموقعة الجمل ودليل على هذا هو أنّ عثمان بن حنيف الأنصاري الذي كتبت له هذه الرسالة هو الذي كان عامل الإمام على البصرة ولاّه عليها عند خلافته ومنها استخلصها طلحة والزبير عندما قدما البصرة بعائشة وجملها وكان استخلاصهما المدينة من يده قوةً وقهراً وعلى هذا لم يكن لأمير المؤمنين ما يبعثه على ذمّ أهل البصرة كما تقدم .

ومما يجدر بي قوله إنَّ ما هو منشور ومشهور من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ أهل البصرة في مختلف خطبه لم يكن موجهاً لعموم أهاليها كما يستفاد من أقوال أكثر شراح نهج البلاغة وإنّي مع كل عارف بالنفس العلوية العالية من العدل والفضل أنزهه عن تعميم الذمّ في كل البصريين وإنّما كان الذمّ مقتصراً على الطائفة التي عصت خلافته وانضمت إلى أعدائها وهي خلافة شرعية لا عفو ولا غفران لمن عصى عليها وأنكرها والثابت أنّ كثيرين من البصريين كانوا موالين لخلافته وكثيرين منهم نصروها بسيوفهم فكانت موقعة بينهم وبين أصحاب الجمل عندما قدموا بلدهم على ما هو صريح في التاريخ وكثيرون منهم اعتزلوا القتال وبعضهم جاهدوا جهاداً كبيراً في تسوية =

فَبَادَرَ ٱلْعَامِلَ ٱلْمُدْعُوَّ يَرْدَعُهُ عَنْ مِثْلِهَا رَاغِبَاً أَنْ لَا يُثَنِّيْهَا
وَقَدْ أَرَادَ بِأَنْ تُمْسِيْ رِسَالَتُهُ أُمْثُوْلَةً يَسْتَفِيْدُ ٱلرُّشْدَ قَارِيْهَا
فَقَالَ: يَا ٱبْنَ حَنِيْفٍ قَدْ عَرَفْتُ وَلِيْـ ـمَةً دُعِيْتَ إِلَيْهَا أُضْتُ دَارِيْهَا
أَقَامَهَا ذُوْ ثَرَاءٍ مِنْ أَكَارِمِ بَصْـ ـرَةٍ فَكُنْتَ بِلَا بُطْءٍ مُوَافِيْهَا
إِلَيْكَ قَدْ نُقِلَتْ فِيْهَا ٱلْجِفَانُ وَإِنَّـ ـكَ ٱسْتَطَبْتُ مِنَ ٱلْأَلْوَانِ شَاهِيْهَا
إِخَالُهَا بُسِطَتْ وَٱلنَّاسُ دَائِرَةٌ حِيَالَهَا بَيْنَ جَاثِيْهَا وَمُقْعِيْهَا
خَرَّتْ لِأَذْقَانِهَا تَبْغِيْ مُسَابَقَةً فِيْ حَلْبَةٍ أَنْتَ فِيْ ظَنِّيْ مُجَلِّيْهَا

=الخلاف ومنع القتال وحمل العصاة على الطاعة فكلُّ هؤلاء لا يتناولهم الذمّ الموجه من أمير المؤمنين بحقّ إلى الذين مالئوا أعداء خلافته ونصروهم من البصريين .

وأرى في الرسالة التي نحن بصددها أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد فيها مطلق النصيحة فلم يحسب مؤاكلة عامله للناس جريمةً ولكن الذي أراده هو تنبيهه خاصةً وتنبيه كلّ عامل على التعميم بل أهل العدل أجمعين أن يلفظوا ما اشتبه عليهم علمه وأن ينالوا مما أيقنوا بطيب وجهه وأن لا يواكلوا قوماً لا يقرون الجياع ويدعون إلى موائدهم الأغنياء وفوق هذا إنّي ارجح أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أراد أيضاً أن يحظر على العمال قبول دعوات فتية الناس أي كرامهم مخافة أن تؤثر مثل هذه الولائم عليهم فلا يقيمون العدل في أحكامهم بين الناس والله أعلم .

أمّا ترجمة عثمان بن حنيف بضمّ الحاء وفتح النون فهو ابن وهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري ثمَّ الأوسي أخو سهل بن حنيف ويكنّى أبا عمرو وقيل أبا عبد الله صحب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في مغازيه وولّاه عمر بن الخطاب في خلافته مساحة الأرض وجبايتها في العراق وضرب الخراج والجزية على أهلها ثمَّ عزل في خلافة عثمان وما زال معزولاً حتى ولي أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة فولّاه على البصرة وعندما وصلها طلحة والزبير بأصحاب الجمل أخرجاه منها قهراً والظاهر أنّه مالأ أصحاب الجمل لأنّ أمير المؤمنين بعد انتصاره عليهم وفي مدى خلافته لم يولّه عملاً وبعد وفاته عليه السلام قدم عثمان بن حنيف الكوفة وسكنها إلّا أنّه لم يعش طويلاً بعد ذلك فمات في أوائل خلافة معاوية .

وَمَا عَفَفْتَ وَمَا أَهْلُ ٱلْعَفَافِ يَرُوْ   دُوْنَ ٱلْوَلَائِمِ حُبّاً فِيْ أَشَاهِيْهَا
وَلَمْ تَخَفْ تَخْمَةً تُوْدِيْ بِصَاحِبِهَا   حَذَارِ أَنْ تَكُ يَوْماً مِنْ أَضَاحِيْهَا
وَأَكْلَةٌ تُحْرِمُ ٱلْإِنْسَانَ لَذَّتَهُ   إِلَى زَمَانٍ خَلِيْقٌ أَنْ تُجَافِيْهَا
وَمَا ظَنَنْتُ تُلَبِّيْ دَعْوَةً بَدَرَتْ   مِنْ زُمْرَةٍ قَدْ تَمَادَتْ فِيْ مَلَاهِيْهَا
تَدْعُوْ إِلَى زَادِهَا أَهْلَ ٱلْيَسَارِ وَتَجْـ   ـفُوْ ٱلْمُتْرِبِيْنَ وَلَا تَفْرِيْ عَوَافِيْهَا
فَٱنْظُرْ إِلَى مِقْضَمٍ أَمْسَيْتَ قَاضِمَهُ   بِنَهْمَةٍ قَدْ يَكُوْنُ ٱلْإِثْمُ تَالِيْهَا
فَمَا ٱشْتَبَهْتَ بِهِ فَٱلْفُظْهُ صَاحِ وَنَلْ   مَا كُنْتَ تُوْقِنُ فِيْهِ ٱلْحِلَّ تَجْرِيْهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْفَتَى ٱلْمَأْمُوْمَ قِدْوَتُهُ   إِمَامُهُ فِيْ خِطَى قَدْ رَاحَ خَاطِيْهَا
وَيَسْتَضِيْءُ بِأَنْوَارٍ مُلَأْلِئَةٍ   مِنْ عِلْمِهِ عَنْ هُدَى مَا ٱنْفَكَّ يُسْنِيْهَا
وَهَا إِمَامُكُمْ قَدْ رَاحَ مُكْتَفِياً   مِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلَّتِيْ رَثَّتْ بِبَالِيْهَا
وَبَاتَ مُقْتَنِعاً بِٱلْخُبْزِ يَأْكُلُ أَقْـ   ـرَاصاً لَقَدْ يَبِسَتْ يَأْبَى يُطَرِّيْهَا
أَلَا وَإِنَّكُمُ لَا تَقْدِرُوْنَ عَلَى   هٰذَا وَفِيْهِ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ قَاسِيْهَا
لٰكِنْ أَعِيْنُوْا بِتَقْوَاكُمْ إِمَامَكُمُ   مَعُوْنَةً لَمْ أَزَلْ مِنْكُمْ أُرَجِّيْهَا
وَبِٱلْعَفَافِ وَبِٱلرَّأْيِ ٱلسَّدِيْدِ وَبِٱلْـ   ـجُهْدِ ٱلَّذِيْ يُبْلِغُ ٱلْخَيْرَاتِ بَاغِيْهَا
وَإِنَّنِيْ وَٱسْمِ رَبِّيْ مَا كَنَزْتُ مِنَ ٱلـ   ـدُّنْيَا ٱلْكُنُوْزَ وَإِنِّيْ زَاهِدٌ فِيْهَا
وَلَا ٱدَّخَرْتُ لِنَفْسِيْ مِنْ غَنَائِمِهَا   وَفْراً وَلَا حُزْتُ شِبْراً مِنْ أَرَاضِيْهَا
وَلَا طَلَبْتُ لِثَوْبِيْ فِيْ رَثَاثَتِهِ   طِمْراً وَحَسْبِيْ ثِيَابُ ٱلطُّهْرِ كَاسِيْهَا
وَمَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ أَكْثَرَ مِنْ   قُوْتِ ٱلْأَتَانِ ٱلَّتِيْ ٱلْأَسْقَامُ تُوْهِيْهَا
وَإِنَّ دُنْيَاكُمُ أَوْهَى وَأَهْوَنُ فِيْ   عَيْنَيَّ مِنْ عَفْصَةٍ مُرٌّ تَعَاطِيْهَا
هٰذِيْ نَصِيْحَةُ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ   إِلَى ٱلثُّقَاةِ جَمِيْعاً كَانَ مُوْفِيْهَا

فَـلاَ يُـقِيْـمُ أَخُـوْ جَـاهٍ وَلاَئِـمَـهُ   لِـلْأَغْنِيَـاءِ وَأَهْـلُ ٱلْفَقْرِ يُقْصِيْهَـا
وَكُـلُّ مَـنْ وَصَلَتْـهُ دَعْـوَةٌ لِـوَلِيْـمَـةٍ تَـرَوَّى بِـهَـا ثُـمَّ يُـلَبِّيْـهَـا
مَـا كُـلُّ دَعْـوَةِ دَاعٍ تُسْتَجَـابُ وَلاَ   كُـلُّ ٱلْمَآكِـلِ تُغْـذِيْ مُسْتَطِيْبِيْهَـا

محاسن أخلاق أمير المؤمنين

كَـانَ ٱلْأَمِيْـرُ عَلٰى سَـامِيْ مَكَـانَتِـهِ   مُجَمَّلاً بِٱلْخِـلاَلِ ٱلزُّهْـرِ حَالِيْهَـا[1]
فَمَا سِوَى ٱلْمُصْطَفَى تَاَللَّهِ مِنْ بَشَـرٍ   لَـهُ شَمَـائِلُهُ أَوْ مَـا يُضَـاهِيْـهَـا
كَـانَتْ بَشَـاشَتُـهُ فِيْ ٱلنَّاسِ دَائِمَـةً   بِهَـا يُقَـابِـلُ عَـافِيْهَـا وَمُثْـرِيْهَـا
وَكَانَ أَطْيَبَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَجْمَعِهَـا   سَـرِيْرَةً مَـا طَـوَتْ ضِغْنَـاً مَـطَاوِيْهَـا
وَكَـانَ فِيْ أُمَّـةِ ٱلْهَـادِيْ كَـوَاحِـدِهَـا   إِنْ أَمَّهَـا فِيْ نَـوَادِيْهَـا يُنَـادِيْـهَـا
فَمَـا تَعَـالَى وَلَيْسَ ٱلـزَّهْـوُ شِيْمَتُـهُ   عَلٰى ٱلـرَّعِيَّـةِ سُفْلِيْهَـا وَعُلْوِيْهَـا
وَلاَ تَـرَفَّـعَ عَنْ قَـوْمٍ يُجَـالِسُهَـا   وَإِنْ تَكُنْ فِيْ ٱلـرَّعَـايَـا مِنْ أَدَانِيْهَـا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام طلق المحيا رحب الصدر باشّ الثغر سمح النفس لين العريكة طاهر السريرة كثير التواضع وديعاً يجالس الناس على اختلاف مراتبهم ويعتني بصغيرهم قبل كبيرهم ويخدمهم بنفسه إذا كانوا في بيته وكان يجلس للناس في الأسواق فينصف مظلومهم من ظالمهم وبالإجمال إنّه كان المثال الأجلى للاشتراكية المحمودة التي بثها الإسلام بل خير مثال للملوك الديموقراطيين وقد رويت عن محاسن أخلاقه الروايات وضربت فيها الأمثال ما لو أردنا إحصاءه لاحتجنا إلى القول الكثير وحسبنا ما قاله فيه صعصعة بن صوحان قال : « كان عليّ فينا كأحدنا لين جانب وشدة تواضع وسهولة قياد وكنّا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه » وقال معاوية لقيس بن سعد يوماً رحم الله أبا الحسن فقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة فأجابه قيس نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ويبسم إلى أصحابه وأراك تسرُّ حسواً في ارتغاء وتريد أن تعيبه أمّا والله لقد كان مع فكاهته وطلاقته أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك طغام أهل الشام يا معاوية فاخزوى هذا وسكت .

وَكَـانَ مَعْ صَحْبِـهِ صَفْـوَاً يُمَـازِحُهَـا وَفِيْ خَـلاَئِقِـهِ ٱلسَّمْحَـا يُصَـافِيْهَـا

وَكَـانَ يَخْـدِمُهَـا فِيْ بَيْتِـهِ كَـرَمَـاً بِنَفْسِـهِ وَكُؤُوسُ ٱلصَّفْـوِ يُسْقِيْهَـا

وَكَـانَ يَلْقَى رُفُـوْدَ ٱلنَّـاسِ مُبْتَسِمَـاً لَـهَـا وَيُبْـلِغُهَـا أَسْـمَى أَمَـانِـيْهَـا

وَكَانَ يَجْلِسُ فِيْ ٱلْأَسْوَاقِ يَحْكُمُ بَيْـــنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْأَحْكَامُ يُجْرِيْهَا

وَكَـانَ بِٱلْعَـطْفِ يُجْرِيْ ٱلْإِشْتِـرَاكِيَـةَ ٱلْعُلْيَـا ٱلَّتِيْ سَنَّهَـا ٱلْإِسْـلَامُ تَجْـرِيْهَـا

فَكَـانَ فِيْهَـا مِثَـالاً صَـادِقَـاً لِمُلُوْ كِ ٱلْأَرْضِ مَا تَبِعُوْا سَـامِيْ مَبَادِيْهَـا

وَغَـايَةُ ٱلْقَـوْلِ أَخْـلَاقُ ٱلْأَمِيْـرِ تَسَـا مَى فِيْ ٱلْمَحَـاسِنِ بَادِيْهَـا وَخَـافِيْهَـا

مَـعْ ذَاكَ هَيْبَتُـهُ كَـانَتْ بِـأَنْفُسِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ أَجْمَعِهَا وَٱلْكُلُّ خَاشِيْهَا

وَإِنَّهَا هَيْبَةُ ٱلْعِلْمِ ٱلَّـذِيْ صَحِبَ ٱلْـــتَّقْوَى مَعَ ٱلْبِرِّ فِيْ أَسْمَى مَجَالِيْهَـا

وَذَاتِ يَــوْمٍ تَـلَاقَى مَـعْ مُعَـاوِيَـةٍ قَيْسٌ بِنَـدْوَةِ صَفْـوٍ كَـانَ نَـادِيْهَـا

وَٱلصَّفْـوُ جَـرَّهُمَـا لِلْمُـرْتَضَى وَحَـوَا دِثِ ٱلْخِـلَافَـةِ جَـارِيْهَـا وَمَـاضِيْهَـا

فَقَـالَ فِيْ ٱلْمُرْتَضَى هُـزْءً مُعَـاوِيَـةُ: قَـدْ كَـانَ مَجْلِسُـهُ يَمْـلَاهُ تَفْكِيْهَـا

أَرَادَ فِيْ ذَاكَ أَنْ يَـرْمِيْ ٱلْأَمِيْـرَ بِـإِتْــيَانِ ٱلدَّعَـابَـةِ فِيْ أَسْـوَا مَسَـاوِيْهَـا

فَقَـالَ قَيْسٌ كَذَا كَـانَ ٱلرَّسُـوْلُ بِمَـزْ حِ ٱلْقَـوْلِ يَلْقَى ذَوِيْهِ فِيْ مَثَـاوِيْهَـا

أَرَى تُسِـرُّ لَهُ حَسْـوَاً بِقَوْلِـكَ فِيْ آرْ تِغَـاءٍ آظْهِـرْ رِغَـابَـاً أَنْتَ تُخْفِيْهَـا

تُعِيْبُ مَـزْحَـاً لَـطِيْفَـاً فِيْ مَجَـالِسِـهِ يَلْقَى بِــهِ صَحْبَـهُ عَــطْفَـاً فَيُهْنِيْهَـا

فَمَــعْ فُكَـاهَتِـهِ مَـعْ أُنْسِ طَلْعَتِـهِ مَـا بَيْنَ أَصْحَـابِـهِ صَفْـوَاً يُفَـاهِيْهَـا

قَدْ كَانَ أَهْيَبَ مِنْ ذِيْ لُبْـدَتَيْنِ عَلَى طَـوَى وَفِيْ زُمْـرَةِ ٱلآسَـادِ ضَـارِيْهَـا

وَإِنَّهَـا هَيْبَـةُ ٱلتَّقْـوَى وَلَيْسَ كَمَـا تَهَـابُـكَ ٱلشَّـامُ قَسْـرَاً يَـا مُعَـاوِيْهَـا

منزلة أمير المؤمنين عند الناس

لِلْمُـرْتَضى رِتْبَةٌ بَعْـدَ آلرَّسُـوْلِ لَدى ... أَهْـلِ آلْيَقِيْنِ تَناهَتْ فِيْ تَعـالِيْهـا[١]

ذُوْ آلْعِلْمِ يَعْرِفُهَا ذُوْ آلْعَدْلِ يَنْصِفُهَا ... ذُوْ آلْجَهْلِ يَسْرِفُهَا ذُوْ آلْكُفْرِ يَكْمِيْهَا

وَإِنَّ فِيْ ذَاكَ إِجْمَـاعَـاً بِغَيْـرِ خِـلا ... فٍ فِيْ آلْمَذَاهِبِ مَعْ شَتَّى مَنَـاحِيْهَا

وَإِنْ أَقَـرَّ بِهَـا آلْإِسْـلَامُ لَا عَجَبَ ... فَـإِنَّـهُ مِنْـذُ بَـدْءِ آلْـوَحْيِ دَارِيْهَـا

وَإِنْ تُنَـادِيْ جُمُـوْعُ آلْمُسْلِمِيْنَ بِهَـا ... فَقَدْ وَعَتْ قَدْرَهَا مِنْ هَدْيِ هَـادِيْهَا

لٰكِنَّ مَـا قَصُـرَتْ قَصْـراً تَجَلِّيْهَـا ... عَلٰى بَنِيْ آلـدِّيْنِ مَعْ زَاهِيْ تَجَلِّيْهَـا

---

(١) إنَّ الكـلام في منزلـة أمير المؤمنين بعـد أن نوّه بهـا رسول الله عليهمـا وعلى آلهما الصلاة والسلام من باب تحصيـل الحاصـل أو اللغو فـإنّ المسلمين على اختلاف مذاهبهم مجمعون على أنّه أفضل فاضل في الإسلام بعد المصطفى لا بل هو صنوه في كـل شيء إلّا النبوّة على أنَّ منـزلـة المـرتضى العـاليـة هـذه لم تقتصـر على المسلمين فعرفوها بل تعدتهم إلى غير المسلمين فهـوذا أهل الـذمة وهم لا يقـرُّون بالنبـوَّة ولكنهم يحبونه ويحترمونه وهوذا الفلاسفة تعظمه وتبجل مقامه وتعجب بحكمته وأكثرها معطلة أو جاحدة وفـوق هذا فـإنَّ ملوك الترك والـديلم قد صـوروا على سيوفهم صـورته الشـريفة تعويذةً لهم وطلباً للنصر باسمه الشريف وبركاته فقد كانت الصورة العلوية المباركة على سيف ركن الدولة وعلى سيف ابنـه عضد الـدولة وعلى سيف ألب أرسـلان وعلى سيف ابنـه ملكشـاه وعلى سيـوف غيـرهم من الأبـطال الأتـراك الكثيـرين وقصـارى القـول أنّ المرتضى عليه السلام له من الإجـلال في النفوس ما حبب إلى كل أحـد أن يتكثر بـه ودَّ كلّ أحد أن يتجمل ويتحسن بالانتساب إليه سواءٌ كان مسلماً أو غير مسلم موحداً أو مشركـاً أو كافراً . حتى الفتوّة وأحسن ما قيل في حدها « أن لا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك » فإنّ أصحابها نسبوا أنفسهم إليه وصنفـوا في ذلك كتبـاً وجعلوا لذلـك اسناداً أنهوه إليه ونصروه عليه وعضدوا مذهبهم بالبيت المشهور الذي سمع من السماء في يوم أُحد وعليٌّ يقاتل كفّار قريش وينكل بهم « لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي » وهم يدعونه عليه السلام « سيد الفتيان » .

بَلْ جاوَزَتْهُمْ إِلَى ٱلأَغْيَارِ فَٱنصَرفَتْ نُفُوسُهُمْ نَحوَهَا بِٱلْحَمْدِ تُطْرِيْهَا
وَذِيْ فَلاَسِفَةُ ٱلْجُحَّادِ مُعْجَبَةٌ بِهَا وَقَدْ أَكْبَرتْ عُجْباً تَسَامِيْهَا
وَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَهْلِ ٱلأَرْضِ مِدْحَتَهَا فِيْهِ وَقَدْ صَدَقَتْ وَصْفاً وَتَشْبِيْهَا
كَذَا ٱلنَّصارَى بِحُبِّ ٱلْمُرْتَضَى شَغِفَتْ أَلْبَابُهَا وَشَدَتْ فِيْهِ أَغَانِيْهَا
فَلَسْتَ تَسْمَعُ مِنْهَا غَيْرَ مِدْحَتِهِ ٱلْـ ـغَرَّاءَ مَا ذَكَرَتْهُ فِيْ نَوَادِيْهَا
فَٱرْجَعْ لِقُسَّانِهَا بَيْنَ ٱلْكَنَائِسِ مَعْ رُهْبَانِهَا وَهْيَ فِيْ ٱلأَدْيَارِ تَأْوِيْهَا
تَجِدْ مَحَبَّتَهُ بِٱلإِحْتِرَامِ أَوَتْ نُفُوسَهَا وَلَهُ أَبْدَتْ تَصَبِّيْهَا
وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلدَّيْلَمِ ٱلشُّجْعَانِ خَائِضَةِ ٱلْـ ـحُرُوْبِ وَٱلتُّرْكِ فِيْ شَتَّى مَغَازِيْهَا
تُلْفِ ٱسْتِعَاذَتَهَا بِٱلْمُرْتَضَى وَلَقَدْ زَانَتْ بِصُوْرَتِهِ ٱلْحَسْنَا مَوَاضِيْهَا
وَآمَنَتْ أَنَّ تَرْصِيْعَ ٱلسُّيُوْفِ بِصُوْ رَةِ ٱلْوَصِيِّ يُنِيْلُ ٱلنَّصْرَ مُنْضِيْهَا
وَمَا أَقُوْلُ بِمَنْ تُنْمَى ٱلأَنَامُ لَهُ تَرَى بِذَلِكَ تَمْجِيْداً وَتَجْوِيْهَا
وَتَنْتَمِيْ لِعُلاَهُ تَسْتَعِزُّ بِهِ وَتَسْأَلُ ٱللَّهَ فِيْهِ أَنْ يُنَمِّيْهَا
حَتَّى ٱلْفُتُوَّةُ تُنْمَى لِلْعَلِيِّ أَمِيْـ ـرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى سَامِيْ مَرَامِيْهَا
تَقُوْلُ: إِنَّ ٱلْفَتَى مَنْ لاَ يَرَى حَسَناً مِنْ نَفْسِهِ وَهْوَ يَبْغِيْ أَنْ يُرَبِّيْهَا
مَا كَانَ مُسْتَقْبَحاً مِنْ نَفْسِ صَاحِبِهِ مِنَ ٱلْخِلاَلِ ٱلَّتِيْ سَاءَتْ مَسَاوِيْهَا
وَقَدْ رَأَتْ مِنْ دَوَاعِيْ ٱلْفَخْرِ نِسْبَتَهَا إِلَى عُلَى ٱلْمُرْتَضَى مَا بَيْنَ أَهْلِيْهَا
فَأَلَّفَتْ كُتُباً فِيْهَا مُعَزَّزَةَ ٱلإِ سْنَادِ قَدْ عَنْعَنَتْهُ فِيْ حَوَاشِيْهَا
وَٱسْتَشْهَدَتْ بِٱلَّذِيْ قَدْ قِيْلَ فِيْ أُحُدٍ مِنَ ٱلسَّمَا وَعَلِيٌّ ٱلْقِرْمُ غَازِيْهَا
لاَ سَيْفَ إِلاَّ ٱلَّذِيْ يُنْضِيْ ٱلْعَلِيُّ وَلاَ فَتَى سِوَاهُ لَدَى ٱلأَعْدَاءِ يُنْكِيْهَا
وَقَدْ دَعَتْ سَيِّدَ ٱلْفِتْيَانِ حَيْدَرَةً وَإِنَّهُ سَيِّدُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيْهَا

محبو أمير المؤمنين ومبغضوه

رَوَتْ رُوَاةُ أَحَادِيْثِ آلرَّسُوْلِ بِتَحْـقِيْقٍ حَدِيْثاً صَحِيْحاً فِيْ أَمَالِيْهَا[1]
قَالَتْ: لَقَدْ قَالَ طَهَ فِيْ آلْوَصِيِّ مَقَا لَةً صَدَاهَا دَوَى فِي أُذْنِ وَاعِيْهَا
يُحِبُّكَ آلْمُؤْمِنُ آلتَّاقِيْ وَيُبْغِضُكَ آلْـمُنَافِقُ آلْمُظْهِرُ آلْإِيْمَانَ تَمْوِيْهَا
وَقَدْ رَوَتْ بَعْدَ هٰذَا عَنْ صَحَابَتِهِ مَقَالَةً سَمِعَتْهَا مِنْ مُفَاهِيْهَا
قَالَتْ: وَكُنَّا عَلٰى عَهْدِ آلرَّسُوْلِ وَأَهْـلُ آلشِّرْكِ تَنْطِقُ بِآلْإِيْمَانِ مِنْ فِيْهَا
بِبُغْضَةِ آلْمُرْتَضَى صِهْرِ آلرِّسَالَةِ نَعْـرِفُ آلْمُنَافِقَ مَهْمَا رَاحَ يُخْفِيْهَا
وَقَالَ حَيْدَرَةٌ وَآلنَّاسُ مَا سَلِمَتْ مِنَ آلنِّفَاقِ وَلَمْ يَجْهَلْ خَوَافِيْهَا
لَوْ أَنَّ وَجْهَ أَخِيْ آلْإِيْمَانِ أَضْرِبُهُ بِآلسَّيْفِ مَا بُغْضَتِيْ قَدْ كَانَ رَاضِيْهَا
وَلَوْ صَبَبْتُ عَلٰى هَامِ آلْمُنَافِقِ دُنْـيَاهُ لِحُبِّيْ أَبَاهُ وَهُوَ بَاغِيْهَا
هٰذِيْ مَوَاثِيْقُ رَبِّيْ كَانَ آخِذَهَا مِنَ آلخَلَائِقِ لِيْ فَضْلاً وَمُعْطِيْهَا

شهادة سيد المرسلين لأمير المؤمنين

وَطَالَمَا نَوَّهَ آلْهَادِيْ آلْأَمِيْنُ بِفَضْـلِ آلْمُرْتَضَى بَيْنَ أَهْلِ آلدِّيْنِ تَنْوِيْهَا[2]
كَنَّا بِهَذَا أَحَادِيْثُ مُعَنْعَنَةٌ غَرَّاءُ ثَابِتَةٌ تَسْمُوْ مَعَانِيْهَا

---

(١) قد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين على أنَّ النبي قال لأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام: «لا يبغضك إلّا منافق ولا يحبّك إلّا مؤمن» وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة قالوا: «ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلّا ببغض علي بن أبي طالب» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أخذ ميثاق كل مؤمن على حبّي وميثاق كل منافق على بغضي فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني».

(٢) قال رسول الله مخاطباً أمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام «يا علي، إن =

مِنْهَـا حَـدِيْثٌ عَـظِيْمُ آلشَّأْنِ مُعْتَبَـرٌ رَوَتْــهُ أَصْحَـابُ طَـهَ فِيْ أَمَـالِيْهَـا

قَـالُوْا لَقَـدْ لَقِيَ آلْهَادِيْ آلْإِمَـامَ بِيَـوْ مٍ فِيْ تَبَـارِيْـحِ أَكْـدَارٍ يُعَـانِيْهَـا

فَقَـالَ: أَبْشِـرْ عَلِيٌّ أَنَّ رَبَّـكَ قَـدْ أَعْـطَاكَ أَفْضَلَ مَـا آلْعُبْدَانُ مُعْـطِيْهَا

أَزَانَ شَخْصَكَ أَسْنَى مَا أَزَانَ بِـهِ آلْـــعِبَـادَ زِيْنَـةَ بِـرٍّ بِـتَّ قَـانِيْـهَـا

فَلَسْتَ تَـرْزَا مِنَ آلدُّنْيَـا وَلَا هِيَ تَـرْ زَا مِنْـكَ سَـوَّاكَ رُشْـدَاً زَاهِـدَاً فِيْهَـا

حَبَـاكَ نِعْمَـةَ حُبِّ آلْمُعْـوِزِيْنَ فَهُمْ رَعِيَّــةٌ لَـكَ قَــدْ خَـارَتْـكَ رَاعِيْهَـا

طُـوْبَى لِمَنْ رَاحَ مَشْغُوْفَ آلْفُـوَادِ بِآ لَاءٍ حِسَـانٍ لَقَـدْ زَانَتْـكَ يَـرْوِيْهَـا

وَيْـلٌ لِمُبْغِضِكَ آلـرَّاوِيْ عَلَيْكَ أَكَـا ذِيْبَ آلْمَسَاوِيْ وَبَيْنَ آلنَّاسِ يُفْشِيْهَا

عجوز تصف أمير المؤمنين

حَـجَّ آبْنُ حَرْبٍ لِيُبْـدِيْ جَاهَ إِمْـرَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا فَازَ فِيْ تَدْوِيْخِ أَهْلِيْهَا[1]

وَبَيْنَمَـا هُـوَ فِيْ أُمِّ آلْقِـرَى ذَكَـرُوْا لَـهُ كِنَـانِيَّــةً شَـمْـطَاءَ تَشْـوِيْـهَـا

= الله قد زيّنــك بزينـةٍ لم يزين العباد بـزينة أحبّ إليـه منها ، هي زينـة الأبرار عنـد الله تعالى ، الزهد في الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الـدنيا منـك شيئاً ، ووهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ، ويرضون بك إمـاماً ، فـطوبى لمن أحبّك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب فيك » اهـ .

(١) بعد ان استتبّ أمر الخلافة لمعاوية ببضع سنين طلب الحج حتى إذا مـا بلغ مكة كرمها الله بلغه أنَّ امرأة فيها من بني كنـانة تسبّـه وقد اشتهـرت بالبغض لـه فأرسـل بطلبها وعندما مثلت بين يديه قال لها علامَ واليت علياً وعاديتني ؟ قالت لقد أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمته الأموال بالسويـة وعنايتـه بالمسـاكين وإعظامـه لأمر الـدين وعاديتك على قتالك من هو أولى بالولاية منك وطلبك ما ليس لك بحقّ وسفكك الدماء=

قَــالُــوْا لَــهُ: إِنَّهَــا تَقْلُوْكَ مُعْلِنَــةً	هُــوَى ٱلْوَصِيِّ بِـهِ تُبْـدِيْ تَحَجِّيْهَـا
فَقَــالَ: هَيَّ ٱطْلِبُــوْهَــا إِنَّنِي كَلِفٌ	بِــمُثْـلِهَــا أَتَمَـنَّـى أَنْ أُحَــاجِـيْـهَــا
وَعِنْـدَمَـا مُثُلَتْ كِــرْهَـاً بِحَضْــرَتِـهِ	مَـا هَابَتِ ٱلـنَّــظَرَاتِ ٱلشَّذْرِ يُلْقِيْهَـا
نَادَى بِصَوْتٍ حَلِيْمٍ بِٱلْعَجُوْزِ: عَــلَا	مَ تَشْهِــرِيْنَ عَلَيَّ ٱلْحَـرْبَ تَجْرِيْهَــا
عَــلَامَ بِــٱللَّهِ وَٱلَيْـتِ ٱلْعَـلِيَّ مُــوَا	لَاةً سَمِعْتُ صِحَـابِيْ عَنْكِ تَـرْوِيْهَـا
قَــالَتْ بِــلَا وَجَــلٍ : أَحْبَبْتُ حَيْـدَرَةً	لِمَــأْثُــرَاتِ حِسَــانٍ كَــانَ آتِـيْهَــا
فَكَــانَ يَعْدِلُ فِيْ ٱلْأَحْكَـامِ يُنْفِذُهَـا	عَلَى رَعَــايَــاهُ عُلْوِيْهَـــا وَسُفْـلِيْهَــا
وَكَــانَ يَقْسِمُ مَــالَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَى	جُمُــوْعِهِمْ وَبِـهِ قِسْــطَاً يُسَـاوِيْهَــا
وَكَـانَ يَعْنَى بِأَهْـلِ ٱلْفَقْـرِ يَـرْحَمُهُمْ	وَبِــٱلْأَيَـامَى وَبِــٱلْأَيْتَــامِ يَكْفِيْهَــا
وَكَــانَ يُعْـظِمُ أَمْــرَ ٱلــدِّيْنِ مُتَّقِيَــاً	وَرَايَـةُ ٱلشَّرْعِ بِــٱلْإِجْـلَالِ يُـرْبِيْهَـا

=وجـورك في الغربـاء فقال وهـل رأيت علياً وسمعت كـلامه ؟ قـالت لقد كنت رأيتـه فإذا الملك الذي فتنك لـم يفتنه والنعمة التي شغلتك لـم تشغله وكان كلامه يجلو الهموم عن القلوب فوالله ما علا المنبر إلاّ وكان ينثر على الناس درر المواعظ والآداب فقال معاويـة وهو يكظم غيـظه وهل لـك من حاجـة ؟ قالت نعم أريـد مئة نـاقة فيهـا فحلها وراعيهـا لأغذي الصغار وأستحيي الكبار بألبـانها قـال وهل أحـلُّ عندك محـل علي إن أعطيتـك ذلـك ؟ قالت مـاء ولا كصدَّاء « هـذا مثل عـربي يراد بـه إثبـات الجـودة للواحـد مـع انحطاطه عن رتبة الآخر » فتجلد معاوية مخفياً غضبه وأمر لها بما طلبت كفاً لها عن سبّه وإن أعلنت أنّها تأبى حبّه والحفاوة به وأنشد :

إذا لم أكن يــومــاً حليمــاً عليكـمُ	فمن ذا الـذي بعـدي يؤمـل للحلم
خـذيها هنيئـاً واذكري فعـل مـاجـدِ	جـزاك على حرب العـداوة بـالسلم

وأردف قائلاً أمّا والله لو كـان علي لما أعـطاك منها شيئـاً فقالت وهي ضـاحكة لا والله ولا وبرة من مال المسلمين وانصرفت وفي قلـب معاوية ما فيه .

وَقدْ قَلَوْتُك إذْ قَاتَلْتَ مَنْ هُوَ أَوْ لَى بِالْإِمَامَةِ مِنْ شَتَّى مُرِيْدِيْهَا
وَقَدْ سَفَكْتَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِلاَ حَقٍّ بِمَجْزَرَةٍ عَمَّتْ مَسَاوِيْهَا
وَجُرْتَ فِيْ ٱلْحُكْمِ لَمْ تُنْصِفْ بِهِ أَحَداً مِنَ ٱلرَّعِيَّةِ عُجْمِيْهَا وَعُرْبِيْهَا
فقَالَ: هَلْ أَنْتِ شَاهَدْتِ ٱلْعَلِيَّ عِيَا نَاً هَلْ شَهِدْتِ لَهُ ٱلْأَحْكَامَ يُجْرِيْهَا
وَهَلْ سَمِعْتِ عَلِيَّاً فِيْ مَجَالِسِهِ مَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ يَوْمَاً يُنَادِيْهَا
قَالَتْ: رَأَيْتُ عَلِيَّاً وَٱلْخِلاَفَةُ لَمْ تُفْتِنْهُ عَنْ دِيْنِهِ مُذْ بَاتَ حَامِيْهَا
كَلَّا وَلاَ أَبْطَرَتْهُ نِعْمَةٌ وُجِدَتْ لَهُ وَلَمْ تُلْهِهِ لَهْواً مَلاَهِيْهَا
كَذَا خِطَابَتُهُ كَانَتْ وَحَقِّكَ تَجْـ ـلُوْ عَنْ صُدُوْرِ ٱلْأُلَى أَصْغَوْا دَوَاعِيْهَا
فَكَانَ يَنْثُرُ مِنْ فَوْقِ ٱلْمَنَابِرِ مِنْ دُرِّ ٱلْمَوَاعِظِ وَٱلآدَابِ غَالِيْهَا
وَعَى آبْنُ حَرْبٍ بَيَانَاتِ ٱلْعَجُوْزِ وَلَمْ يَغْضَبْ وَكَانَ وَحَقِّ ٱللَّهِ يَدْرِيْهَا
وَقَالَ: هَلْ لَكِ عِنْدِيْ حَاجَةٌ فَأَنَا ذَا ٱلْيَوْمَ حِلْمَاً وَفَضْلاً صِرْتُ أَقْضِيْهَا
قَالَتْ: مُعَاوِيَ إِنِّي أَبْتَغِيْ مِئَةً مِنَ ٱلنِّيَاقِ لَهَا فَحْلٌ وَرَاعِيْهَا
أُغْذِيْ بِأَلْبَانِهَا وُلْدِيْ ٱلصِّغَارَ وَأَسْـ ـتَحْيِيْ ٱلْكِبَارَ وَأَغْنَى مِنْ ذَرَارِيْهَا
فَقَالَ: عِنْدَكِ هَلْ لِيْ أَنْ أُحَلَّ مَحَـ ـلَّ ٱلْمُرْتَضَى يَا تُرَى إِنْ رُحْتُ أُعْطِيْهَا
قَالَتْ بِجُرْئَتِهَا: مَاءٌ وَلَيْسَ كَصَدَّا اءٍ وَمَا رَهِبَتْ فِيْ ذَا مُفَاهِيْهَا
فَقَالَ فِيْ ٱلْحَالِ: أُعْطِيْكِ ٱلنِّيَاقَ وَلَمْ يُزِدْ وَغَيْظَتُهُ قَدْ آضَ يُخْفِيْهَا
وَقَالَ: هَيْهَاتِ أَنْ تَلْقَى ٱلْأَعَارِبُ حِلْـ ـمَاً مِثْلَ حِلْمِيَ مِنْ مَلْكٍ يُرَاضِيْهَا
خُذِيْ ٱلنِّيَاقَ وَلاَ تَنْسِيْ صَنِيْعَ فَتَىً بِٱلسِّلْمِ ذَاتُ ٱلْعَدَا وَٱلْبُغْضِ يُصْفِيْهَا
أَمَا وَحَقِّكِ لَوْ كَانَ ٱلْعَلِيُّ لَمَا أَلْفَيْتِهِ مَا أَطَلْتِ ٱلْقَوْلَ مُعْطِيْهَا
فَقَهْقَهَتْ وَأَجَابَتْهُ: وَلاَ وَبَرَا تُ مِنْ نِيَاقِ عِبَادِ ٱللَّهِ يُوْلِيْهَا

وَهَــرْوَلَتْ بِعَـطَاهُ وَهْيَ ضَــاحِكَــةٌ   مِنْــهُ وَفِي نَفْسِـهِ مِنْ ذَاكَ مَــا فِيْهَـا

نصائح أمير المؤمنين لابنه الحسن

نَصَـائِحِيْ لِبُنَيَّ آلنَّاشِىءِ آلْحَسَنِ آلـــزَّاكِيْ بِرَحْمَةِ رَبِّيْ رُحْتُ أُسْدِيْهَا(١)

فَمِنْ أَبٍ زَاهِدِ آلـدُّنْيَا وَزُخْـرُفِهَــا   إِلَى آلْفَتَى آلْعَاشِقِ آلدُّنْيَا مُوَافِيْهَـا

وَمِنْ مُسَــاكِنِ مَوْتَى فِيْ دِيَـارَتِهَا   حِيْنَـاً وَلَا بُــدَّ يَــوْمَــاً أَنْ يُخَلِّيْهَــا

إِلَى غَـرِيْمِ آلْمَنَايَا وَهْـوَ وَارِثُ مَـوْ   تَـاهَا حَلِيْفِ هُمُـوْمٍ غَيْـرِ نَـاجِيْهَا

وَبَعْــدُ يَــا آبْنِيَ دُنْيَـايَ لَمُـدْبِـرَةٌ   عَـنِّيْ وَإِنِّـيَ لَا أَرْجُــوْ تَبَقِّيْـهَــا(٢)

وَإِنَّ آخِــرَتِيْ حَـتْـمَــاً لَـمُـقْبِـلَةٌ   عَـلَيَّ إِنِّي بِــلَا رَيْـبٍ مُــوَافِيْـهَــا

---

(١) هذه نصائح سيدنا أمير المؤمنين كتبها لسيدنـا الحسن على ما قـال الشريف الرضي وهو في موقعة صفين وفي رأيي أنّه كتبها لـه يوم ولادتـه أو بعد ذلـك بقليل فـإنّه جعل مطلعها إلى فتى غرّ لا يزال في مقتبل العمر مع أنّ سيـدنا الحسن كـان في موقعـة صفين في الثالثة والثلاثين من عمره وهاك هي :

من الـوالد الفـاني ، المقرّ للزمـان ، المدبـر العمر ، المستسلم للدهـر ، الـذامّ للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن عنها غداً ، إلى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غرض الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورميـة المصائب ، وعبـد الـدنيا ، وتـاجر الغـرور ، وغريم المنـايا ، وأسيـر المـوت ، وحليف الهمـوم ، وقـرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

(٢) أمّا بعد ، فإنَّ فيما تبينت من إدبار الدنيا عني ، وجموح الدهر عليَّ ، وإقبال الآخـرة إليَّ ، ما يـزعني عن ذكر مَن سـوايَ ، والاهتمام بمـا ورائي ، غير أنّي ، حيث تفرَّد بي دون هموم الناس ، همُّ نفسي ، فصدَّقني رأيي ، وصرَّفني عن هواي ، وصرَّح لي محض أمري ، فأفضى بي إلى جدٍّ لا يكون فيـه لعب ، وصدقٍ لا يشـوبه كـذب ، وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي ، حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصـابني ، وكأنَّ المـوت لـو أتـاك أتـاني ، فعنـاني من أمـرك ، مـا يعنيني من أمـر نفسي ، فكتبت إليـك كتـابي مستظهراً به ، إن أنا بقيت لك أو فنيت .

وَإِنَّ لِيْ شَاغِلاً عَمَّنْ سِوَايَ بِنَفْـــسِيْ إِنَّنِيْ لِلِقَـا رَبِّيْ أُهَيِّيْهَـا

لٰكِنْ رَأَيْتُكَ بَعْضِي مَا يَضُرُّكَ يُوْ   لِيْنِيْ ٱلْمَضَرَّةَ أَبْعِدْ أَنْ أُحَاشِيْهَا

لِذَا عَنَانِي مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِكَ مَا   مِنْ أَمْرِ نَفْسِي يُعْنِيْنِي لِأُهْنِيْهَا

فَجِئْتُ أُسْدِيْكَ نُصْحاً تَسْتَضِيْءُ بِهِ   إِذَا لَيَالِيْكَ قَدْ أَدْجَتْ دَيَاجِيْهَا

سِيَّانِ إِنْ ظِلْتُ حَيّاً فِي جِوَارِكَ أَوْ   رَحَلْتُ عَنْكَ إِلَى ٱلْجَنَّاتِ أَثْوِيْهَا

أُوْصِيْكَ يَا حَسَنِي أَنْ تَتَّقِيْ أَبَداً   بَارِيْكَ تُقْيَةَ بَرِّ ٱلنَّفْسِ نَاقِيْهَا(1)

وَأَنْ تُلَازِمَ مَا تَحْيَا أَوَامِرَهُ ٱلْـــغَرَّا وَتَحْذَرَ أَفْعَالاً تُنَافِيْهَا

وَأَنْ تُعَمِّرَ تَعْمِيْراً بِذِكْرِكَهُ ٱلـــنَّفْسَ ٱلَّتِيْ هُوَ مُحْيِيْهَا وَمُفْنِيْهَا

وَأَنْ تُمَوِّتَهَا بِٱلزُّهْدِ تَأْلَفُهُ   وَبِٱلْمَوَاعِظِ وَٱلْإِرْشَادِ تُحْيِيْهَا

وَحَذِّرِ ٱلنَّفْسَ مِنْ غَدْرِ ٱلزَّمَانِ وَمِنْ   صُرُوْفِهِ عَلَّهَا بِٱلْحَزْمِ تَتْقِيْهَا

وَعُدَّهَا لِلْمَنَايَا فَهْيَ مُسْرِعَةٌ   بِأَثْرِ مَنْ سَبَقَتْهَا كَيْ تُلَاقِيْهَا

وَلَا تَبِعْ يَا فَدَتْكَ ٱلنَّفْسُ آخِرَةً   تَبْقَى بِزَائِلَةِ ٱلدُّنْيَا فَتُشْرِيْهَا

---

(١) فإنّي أوصيك بتقوى الله ، أي بنيَّ ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأيُّ سببٍ أوثق من سببٍ بينك وبين الله إن أنتَ أخذت به ؟ أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرّره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا ، وحذّره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعمَّ انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا ، فإنّك تجدهم انتقلوا عن الأحبَّة ، وحلوا دار الغربة ، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لم تكلَّف ، وأمسك عن طريقٍ إذا خفتَ ضلالته ، فإنّ الكفَّ عن حيرة الضلال ، خير من ركوب الأهوال .

دَعِ ٱلْخِطَابَةَ إِلَّا إِنْ دُعِيتَ لَهَا وَلَا تَقُلْ قَوْلَةً إِلَّا وَتَدْرِيْهَا
وَلَا تَسِرْ فِيْ طَرِيْقٍ أَنْتَ تَجْهَلُهَا لِتَأْمَنَ ٱلتِّيْهَ فِيْ خَافِيْ مَمَاشِيْهَا
وَكُنْ لِقَوْمِكَ بِٱلْمَعْرُوْفِ آمِرَهَا وَعَنْ خَطَا ٱلْمُنْكَرِ ٱلْمَكْرُوْهِ نَاهِيْهَا(١)
فِيْ ٱللَّهِ جَاهِد وَلَا تَأْخُذْكَ لَوْمَةُ لَوَّ امٍ بِقَوْلَةِ حَقٍّ أَنْتَ حَاكِيْهَا
وَآخْلِصْ لِرَبِّكَ فِيْ شَتَّى صَنَائِعِكَ ٱلْـ ـحُسْنَا وَكُنْ فِيْ سَبِيْلِ ٱلْخَيْرِ مُجْرِيْهَا
لِلْحَقِّ خُضْ غَمَرَاتِ ٱلْحَرْبِ مُعْتَمِداً عَلَىٰ رِضَى ٱللَّهِ لَا تَرْهَبْ دَوَاهِيْهَا
وَعَوِّدِ ٱلنَّفْسَ صَبْرَاً يَا بُنَيَّ عَلَىٰ ٱلْـ ـمَكْرُوْهِ مِنْ نُوَبٍ صَعْبٌ تَحَاشِيْهَا
وَآخْلِصْ لِرَبِّكَ فِيْ مَا أَنْتَ سَائِلُهُ مِنْهُ ٱلْعَطَايَا وَمَا إِلَّاهُ يُعْطِيْهَا
وَآفْهَمْ وَصَايَايَ لَا تُهْمِلْ فَوَائِدَهَا وَلَا تَجُزْ إِنْ تُرِدْ خَيْرَاً مَرَامِيْهَا
بُنَيَّ جِئْتُكَ عَنْ خُبْرٍ وَتَجْرُبَةٍ بِصَفْوَةِ ٱلنُّصْحِ أُلْقِيْهَا وَأُمْلِيْهَا(٢)

---

(١) وائمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين مَن فعله بجهدك ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان ، وتفقه في الدين ، وعوّد نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر في الحقّ ، وألجىء نفسك في أمورك كلها إلى إلّهك ، فإنّك تلجئها إلى حرزٍ حريز ، ومانعٍ عزيز ، وأخلص في المسألة لربّك ، فإنَّ بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتي ، ولا تذهبنَّ عنك صفحاً ، فإنَّ خير القول ما نفع ، واعلم أنّه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه .

(٢) أي بنيَّ ، إنّي لما رأيتني قد بلغت سناً ، ورأيتني أزداد وهناً ، بادرت بوصيتي إليك ، وأوردت خصالاً منها ، قبل أن يعجل بي أجلي ، دون أن أفضي إليك بما في نفسي ، أو أن أنقص في رأيي ، كما نقصت في جسمي ، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى ، وفتن الدنيا ، فتكون كالصعب النفور ، وإنّما قلب الحدث ، كالأرض الخالية ، ما ألقي فيها من شيء قبلته ، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ، ويشتغل لبّك ، لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ، ما قد كفاك أهل التجارب بغيته=

وَأَنْتَ بَعْدُ فَتىً لَمْ تَقْسُ نَفْسُكَ عَنْ   قُبُـولِ قَوْلَةِ ذِيْ نُصْحٍ يُؤَدِّيْهَـا
وَإِنَّمَـا أَنْفُسُ ٱلْأَطْفَالِ صَـالِحَـةٌ   لِكُـلِّ مَـا تَتَلَقَّى مِـنْ مُفَـاهِـيْهَـا
فَٱقْبَلْ عَلَى قَـوْلَتِيْ إِقْبَالَ مُعْتَبِـرٍ   بِمَـا ٱسْتَفَـدْتُ مِنَ ٱلْأَيَّـامِ قَـاسِيْهَـا
فَتَسْتَبِيْنُ أُمُـوْراً كُنْتُ أَجْـهَلُهَـا   وَمَـا أَمِنْتُ عِثَـاراً مِنْ تَـوَلِّيْهَـا
بُنَيَّ إِنْ لَمْ أُعَمِّـرْ عُمْرَ مَنْ سَلَفَتْ   مِنَ ٱلْخَـلَائِقِ لَمْ أَجْهَـلْ مَـآتِيْهَـا[1]
فَقَـدْ نَـظَرْتُ إِلَى شَتَّى فَعَـائِلِهَـا   وَإِنَّ آثَـارَهَـا قَـدْ كُنْتُ قَـارِيْهَـا
حَتَّى غَـدَوْتُ كَـأَنِّيْ بَيْنَهَـا بِمَـدَى   تِلْكَ ٱلدُّهُوْرِ ٱلَّتِيْ عَـاشَتْ أُمَاشِيْهَـا
وَقَدْ عَرَفْتُ ٱلَّـذِيْ قَدْ سَـاءَهَا وَأَسَـرَّ   هَـا وَمَـا كَـانَ يُهْنِيْهَـا وَيُشْقِيْهَـا
وَهٰذَا لَـكَ أَسْتَصْفِيْ خُـلَاصَـةَ مَـا   يُفِيْـدُ مِنْ عِبَـرٍ كَـانَتْ تُـلَاقِيْهَـا
وَكُنْتُ أَرْغَـبُ أَنْ أَتْلُوْ عَـلَيْـكَ دُرُوْ   سَاً فِيْ ٱلشَّرِيْعَةِ مَعْ تَـأْوِيْلِ خَـافِيْهَا

= وتجربته ، فتكون قد كفيت مؤونة الطلبة وعوفيتَ من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنّا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه .

(١) أي بنيَّ ، إنّي وإن لم أكن عمرتُ عمر من كـان قبلي ، فقـد نـظرت في أعمـالهم ، وفكرت في أخبـارهم ، وسرت في آثـارهم ، حتى غدوت كـأحدهم ، بـل كأنّي بما انتهى إليَّ من أمورهم ، قد عمرت من أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصتك من كلّ أمر جليله ، وتوخيت لـك جميله ، وصـرفت عنك مجهـولـه ، ورأيت حيث عنـاني من أمـرك ، مـا يعني الـوالـد الشفيق ، وأجمعت عليه من أدبك ، أن يكـون ذلك وأنت مقبـل العمر ، ومقتبـل الدهـر ، ذو نيةٍ سليمـة ، ونفس صادقـة ، وان ابتدئـك بتعليم كتاب الله عـزَّ وجـلَّ وتـأويله ، وشـرائـع الإسـلام وأحكامـه ، وحلالـه وحرامـه ، لا أجاوز ذلـك بك إلى غيـره ، ثمَّ أشفقت أن يلتبس عليك ، ما اختلف الناس فيه ، من أهوائهم وآرائهم ، مثل الذي التبس عليهم ، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك لـه ، أحبَّ إليَّ من إسلامـك إلى أمر ، لا آمن عليـك به الهلكـة ، ورجوت أن يـوفقك الله فيـه لرشـدك ، وأن يهديـك لقصدك ، فعهدت إليك وصيتي هذه .

لكِنْ خَشِيْتُ ٱلْتِبَـاسَـاً فِيْ تَفَهُّمِهَـا   يَسْطُوْ عَلَى نَفْسِكَ ٱلسَّمْحَـا فَيُؤْذِيْهَا

وَكَمْ لِـذٰلِكَ مِنْ هَلْكَى بِمَـا ٱلْتَبَسَتْ   مِنَ ٱلْمَعَـانِيْ عَلَيْهَـا فِـيْ تَلَقِّيْهَـا

لِـذَا ٱكْتَفَيْتُ بِمَا فِيْهِ ٱلنَّصِيْحَـةُ فِيْ   وَصِيَّتِيْ فَـأَصِـخْ سَمْعَـاً لِمُـوْصِيْهَـا

وَٱعْلَمْ بُنَيَّ أَحَبُّ ٱلصَّـالِحَـاتِ إِلَـــيَّ وَٱلَّتِيْ أَنْتَ مِنْ نُصْحِيْ لَجَانِيْهَا(١)

أَنْ تَتَّقِيْ ٱللّٰهَ فِيْ كُـلِّ ٱلْأُمُـوْرِ وَلَا   تَجْتَـازَ فِيْهَا فُـرُوْضَـاً كَـانَ مُمْضِيْهَـا

وَٱتْبَعْ خُطَى ٱلصُّلَحَا مِنْ آلِ بَيْتِكَ فِيْ   أَحْكَـامِ رَبِّـكَ لَا تَجْتَـزْ مَنَـاحِيْهَـا

فَـإِنَّهَـا فَقِهَتْ آيَ ٱلْـكِتَـابِ وَلَـمْ   تَفُتْ رِغَـابَاً إِلٰـهُ ٱلْعَـرْشِ مُـوْحِيْهَـا

وَٱعْلَمْ بِـأَنَّ ٱلْبَـرَايَـا ٱللّٰهُ خَـالِقُهَـا   سُبْحَـانَهُ وَهْـوَ بِـٱلتَّحْقِيْقِ مُفْنِيْهَـا(٢)

---

(١) واعلم يا بنيَّ ، أنَّ أحبَّ ما أنت آخذ به إليَّ من وصيتي ، تقوى الله ، والاقتصار على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فإنّهم لم يدعوا إن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثمَّ ردَّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلفوا ، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا ، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورُّط الشبهات ، وعُلَق الخصومات ، وابدأ قبل نظرك في ذلك ، بالاستعانة بإلَهك ، والرغبة إليه في توفيقك ، وترك كلّ شائبةٍ أولجتك في شبهة ، أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتمَّ رأيك فاجتمع ، وكان همك في ذلك همّاً واحداً ، فانظر فيما فسرتُ لك ، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحبُّ من نفسك ، وفراغ نظرك وفكرك ، فاعلم أنَّك تخبط العشواء ، وتتورَّط الظلماء ، وليس طالب الدين من خبط أو خلط ، والإمساك عن ذلك أمثل .

(٢) فتفهم يا بنيَّ وصيتي ، واعلم أنَّ مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنَّ الخالق هو المميت ، وأنَّ المفني هو المعيد ، وأنَّ المبتلي هو المعافي ، وأنَّ الدنيا لم تكن لتستقرَّ ، إلَّا على ما جعلها عليه من النعماء ، والابتلاء والجزاء في المعاد ، أو ما شاء ممَّا لا تعلم ، فإن أشكل عليك شيءٌ من ذلك ، فاحمله على جهالتك ، فإنَّك أول ما خلقتَ به جاهلاً ، ثمَّ عُلمتَ ، وما أكثر ما تجهل من الأمر ، ويتحير فيه رأيك ، ويضلُّ=

وَهُوَ ٱلَّذِيْ يَبْتَلِيْهَا بِٱلْكَوَارِثِ حَتْـ ـمَاً وَهْوَ عَنْ رَحْمَةٍ عُلْيَا يُعَافِيْهَا

وَأَنَّ دُنْيَاكَ ذِيْ لَمْ تَسْتَقِرَّ عَلَى حَالاَتِهَا مِثْلَمَا ذُوْ ٱلرَّأْيِ يُلْفِيْهَا

إِلاَّ بِقُدْرَتِهِ ٱلْعُظْمَى وَرَغْبَتِهِ ٱلْـ ـعُلْيَا ٱلَّتِيْ لَيْسَ مَنْ يَدْرِيْ خَوَافِيْهَا

فَإِنْ رَأَيْتَ بِهَا مَا أَنْتَ جَاهِلُهُ مِنَ ٱلشُّؤُوْنِ ٱلَّتِيْ ٱلإِشْكَالُ غَاشِيْهَا

فَذَا لِجَهْلِكَ فِيْهَا وَٱلْجَهَالَةُ تَصْـ ـحَبُ ٱلْفَتَى وَهْوَ مَا يَحْيَا مُدَانِيْهَا

وَكَمْ جَهِلْتَ أُمُوْرَاً لاَ عِدَادَ لَهَا ثُمَّ رَأَيْتُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوُدِّ تَدْرِيْهَا

وَكُنْ بِرَبِّكَ يَا ٱبْنِيْ خَيْرَ مُعْتَصِمٍ فَهْوَ ٱلْمُسَوِّيْكَ وَٱلدُّنْيَا ٱلْمُسَوِّيْهَا[1]

وَمَا وَحَقِّكَ عَنْهُ مِثْلُ جَدِّكَ قَدْ أَنْبَا ٱلْبَرِيَّةَ هَادٍ فَهْوَ هَادِيْهَا

فَخُذْهُ رَائِدَكَ ٱلأَسْمَى وَقَائِدَكَ ٱلأَ عْلَى إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱلْخَضْرَا لِتَأْوِيْهَا

وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ أَنَّ ٱللَّهَ مُنْفَرِدٌ فَمَا لَهُ شُرَكَاءُ كَيْ تُرَاعِيْهَا[2]

وَأَنَّهُ أَزَلِيٌّ لاَ ٱبْتِدَاءَ لَهُ وَلاَ ٱنْتِهَا وَهْوَ مُبْدِيْ ٱلْخَلْقِ مُنْهِيْهَا

= فيه بصرك ، ثمّ تبصره بعد ذلك .

(١) فاعتصم بالذي خلقك ، ورزقك وسوَّاك ، فليكن لهُ تعبدك ، وإليه رغبتك ، ومنه شفقتك ، واعلم يا بنيَّ ، أنَّ أحداً لم ينبىء عن الله سبحانه ، كما أنبأ عنه جدُّك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فارض به رائداً ، وإلى النجاة قائداً ، فإنّي لم آلك نصحاً ، وأنك لم تبلغ في النظر لنفسك وإن اجتهدت مبلغ نظري لك .

(٢) واعلم يا بنيَّ ، أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ، ولرأيتَ آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفتَ أفعاله وصفاته ، ولكنه إلَه واحد كما وصف نفسه ، لا يضادُّه في ملكه أحد ، ولا يزول أبداً ولم يزل ، أوَّل قبل الأشياء بلا أولية ، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية ، عظم أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلبٍ أو بصر ، فإذا عرفت ذلك ، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته إلى ربّه ، في طلب طاعته ، والخشية من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فإنّه لم يأمرك إلاَّ بحسن ، ولم ينهك إلاَّ عن قبيح .

وَذَاتُهُ مَا عُقُوْلُ ٱلنَّاسِ تُدْرِكُهَا   وَلَا قُلُوْبُهُمُ تَدْرِيْ مَعَانِيْهَا

وَإِنْ عَرَفْتَ كَذَاكَ ٱللَّهَ جِئْتَ إِلَى   عُلْيَاهُ بِٱلطَّاعَةِ ٱلْمَأْجُوْرُ مُسْدِيْهَا

وَأَنْتَ لَوْلَاهُ فِيْ ضَعْفٍ وَفِيْ خَوَرٍ   عَنْ كُلِّ رَغْبَةِ نَفْسٍ رُمْتَ تَقْضِيْهَا

وَهِبْتَ يَوْمَ ٱلتَّنَادِيْ مِنْ تَسَخُّطِهِ   وَمِنْ عُقُوْبَتِهِ ٱلْكُبْرَى تُلَاقِيْهَا

فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَى حَسَنٍ   يَدْعُوْ ٱلْعِبَادَ وَعَمَّا سَاءَ يُنْهِيْهَا

بُنَيَّ أَنْبَأْتُكَ ٱلدُّنْيَا وَحَالَتَهَا   وَكَمْ سَرِيْعٌ لِثَاوِيْهَا تَلَاشِيْهَا[1]

وَقَدْ تَطَرَّأْتُ لِلْأُخْرَى وَنَبْأَتِهَا   وَمَا أُعِدَّ مِنَ ٱلْبَارِيْ لِأَهْلِيْهَا

وَفِيْهِمَا جِئْتُ بِٱلْأَمْثَالِ أَطْلُبُ فِيْـ   ـهَا ٱلْعِبْرَةَ ٱلْآمِنُ ٱلْإِعْثَارَ جَانِيْهَا

وَإِنَّ مَنْ خَبَرَ ٱلدُّنْيَا لَيَعْرِفُ أَنَّـ   ـهُ إِلَى مَنْزِلٍ أَهْنَى مُخَلِّيْهَا

يَجْتَازُهَا وَهْوَ مَسْرُوْرٌ وَمُبْتَهِجٌ   إِلَى دِيَارَةِ أَفْرَاحٍ يُوَافِيْهَا

وَمَنْ بِهَا ٱغْتَرَّ يَخْشَى أَنْ يُفَارِقَهَا   إِلَى دِيَارِ ٱلشَّقَا بِٱلْكُرْهِ يَثْوِيْهَا

أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنِيْ مَا تُحِبُّ لِنَفْـ   ـسِكَ ٱلطَّمُوْعَةِ وَٱحْذَرْ مِنْ تَشَهِّيْهَا[2]

---

(١) يا بنيَّ ، قد أنبأتك عن الدنيا وحالها ، وزوالها وانتقالها ، وأنبأتك عن الآخرة وما أعدَّ لأهلها ، وضربت لك فيها الأمثال ، لتعتبر بها ، وتحذو عليها ، إنّما مثلَ من خبر الدنيا ، كمثل قوم سفرٍ ، نبا بهم منزل جديب ، فأموا منزلاً خصيباً ، وجناباً مريعاً ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ، ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيءٍ من ذلك ألماً ، ولا يرون نفقةً فيه مغرما ، ولا شيءَ أحبُّ إليهم ممَّا قرَّبهم من منزلهم ، وأدناهم إلى محلتهم ، ومثلَ من اغترَّ بها ، كمثل قومٍ كانوا بمنزلٍ خصيبٍ ، فنبا بهم إلى منزلٍ جديبٍ ، فليس شيء أكره إليهم ، ولا أفظع عندهم ، من مفارقة ما كانوا فيه ، إلى ما يهجمون عليه ، ويصيرون إليه .

(٢) يا بنيَّ ، اجعل نفسك ميزاناً ، فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحبُّ لنفسك ، واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحبُّ أن تظلم ، وأحسن كما تحبُّ=

وَلَا تقُلْ غَيْرَ مَا قَدْ كُنْتَ عَارِفَهُ كَيْ لَا يُسَفِّهَـكَ ٱلسُّمَّاعُ تَسْفِيْهَا
وَلَا تَكُنْ مُعْجِباً وَٱلْعُجْبُ مَنْقَصَةٌ بِٱلنَّفْسِ دَعْ عَنْكَ يَا ٱبْنِي ٱلْكِبْرَ وَٱلتِّيْهَا
إِخْشَعْ لِرَبِّكَ إِنْ تُهْدَى لِقَصْدِكَ وَٱعْـلَمْ أَنَّ نُعْمَاكَ كَانَ ٱللّٰهُ مُعْطِيْهَا
وَٱعْلَمْ طَرِيْقَكَ طُوْلَى وَٱلْمَشَقَّةُ فِيْـهَا لَا تَهُوْنُ عَلَى مَنْ رَامَ يَمْشِيْهَا[1]
وَٱحْسِنْ لَهَا ٱلْإِرْتِيَادَ ٱلْمُبْلِغَ ٱلْأَرَبَ ٱلْأَسْمَى وَعُدَّ مِنَ ٱلْأَزْوَادِ كَافِيْهَا
وَخَفِّفِ ٱلْحِمْلَ يَا ٱبْنِي عَنْكَ جُهْدَكَ حَتَّـى لَا تَخُوْرُ ٱلْقِوَى عَنْهُ فَيُوْهِيْهَا
وَإِنْ وَجَدْتَ أُنَاساً عَنْكَ تَحْمِلُهُ مِنَ ٱلْعُفَاةِ ٱلْأُلَى بِرٌّ تَوَلِّيْهَا
فَٱغْنَمْ مَعُوْنَتَهَا فَهْيَ ٱلْمُخَفِّفَةُ ٱلْأَ حْمَالِ فِيْ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَتْعُوْبُ بَاغِيْهَا
وَأَنْتَ مِنْ بَعْدِهَا لَا بُدَّ تَبْلُغُ جَنَّـةَ ٱلرِّضَى أَوْ إِلَى ٱلنِّيْرَانِ تَصْلِيْهَا
وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ مَنْ طَوْعاً لِرَاحَتِهِ خَزَائِنُ ٱلْأَرْضِ وَٱلْجَنَّاتِ مَالِيْهَا[2]

=أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحبُّ أن يقال لك ، واعلم أنَّ الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب ، فاسع في كدحك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، وإذا أنت هديت لقصدك ، فكن أخشع ما تكون لربّك .

(١) واعلم ، أنَّ أمامك طريقاً ذا مسافةٍ بعيدةٍ ، ومشقةٍ شديدةٍ ، وأنّه لا غِناء بك فيه عن حسن الإرتياد ، وقدر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر ، فلا تحملنَّ على ظهركَ فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك ، وإذا وجدت من أهل الفاقة ، مَن يحمل لك زادك إلى يوم القيامة ، فيوافيك به غداً ، حيث تحتاج إليه ، فاغتنمه وحمّله إيّاه ، وأكثر من تزويده ، وأنت قادر عليه ، فلعلّك تطلبه فلا تجده ، واغتنم من استقرضك في حال غناك ، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك ، واعلم أنَّ أمامك عقبة كؤوداً ، المخفُّ فيها أحسن من المثقل ، والبطيءُ عليها ، أقبح حالاً من المسرع ، وأنَّ مهبطك بها بلا محالة ، أمّا على جنة أو على نار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطىء المنزل قبل حلولك ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا إلى الدنيا منصرف .

(٢) واعلم ، أنَّ الذي بيده خزائن السموات والأرض ، قد أذن لك في الدعاء ،=

قَدْ كَانَ مُؤْذِنَكَ ٱلرَّاضِيْ بِدَعْوَتِهِ　　وَقَدْ تَكَفَّلَ عَطْفَاً أَنْ يُلَبِّيْهَا
وَهْوَ ٱلْمُؤَامِرُ بِٱلْإِخْبَاتِ تَسْأَلُهُ　　قَضَا حَوَائِجِكَ ٱلشَّتَّى لِيَقْضِيْهَا
وَأَنْ تُوَافِيْهِ تَبْغِي فَيْضَ رَحْمَتِهِ　　وَهْوَ ٱلرَّحُوْمُ بِلَا شَكٍّ لِيُسْدِيْهَا
وَلَمْ يُقِمْ حَاجِبَاً مِنْ دُوْنِ قُدْرَتِهِ　　يَزْوِيْكَ عَنْهُ وَعَنْ رَجْوَاكَ يَزْوِيْهَا
وَلَا إِلَى ٱلشُّفَعَا قَدْ كَانَ مُلْجِئَكَ ٱلـ　　ـرَّحْمٰنُ إِنْ رُحْتَ بِٱلآمَالِ تُزْجِيْهَا
وَإِنْ أَسَأْتَ فَلَمْ يَمْنَعْكَ يَا وَلَدِيْ　　مِنْ تَوْبَةٍ عَنْ خَطَايَا كُنْتَ مُخْطِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مُعْجِلاً تَوْقِيْعَ نَقْمَتِهِ　　عَلَيْكَ فَٱجْهَدْ بِلَا بُطْءٍ لِتَتْقِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مُظْهِراً يَوْمَاً فَضِيْحَتَكَ ٱلـ　　ـسُّوءَى إِذَا كُنْتَ بِٱلتَّعْجِيْلِ مُخْفِيْهَا
وَلَمْ يَدَعْكَ بِيَأْسٍ مِنْ مَرَاحِمِهِ　　إِنْ رُحْتَ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى تُرَجِّيْهَا

=وتكفل لك بالإجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه ، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يفضحك حيث تعرَّضتَ للفضيحة ، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يؤيسك من الرحمة ، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشراً ، وفتح لك باب المتاب ، وباب الاستيعاب ، فإذا ناديته سمع نداءَك ، وإذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت إليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوتَ إليه همومك ، واستكشفته كروبك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره ، من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الأرزاق ، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه ، بما أذن لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرتَ شآبيب رحمته ، فلا يقنطنك إبطاءُ إجابته ، فإنّ العطية على قدر النيّة ، وربما أخرت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل لعطاء الآمل ، وربما سألتَ الشيءَ فلا تؤتاه ، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً ، أو صرف عنك لما هو خير لك ، فلربَّ أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفي عنك وباله ، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

بَـلْ إِنَّهُ كَـرَمَاً قَـدْ كَـانَ تَـوْبَتُـكَ آلْـــكُبْرَى مِنَ آلْحَسَنَاتِ آلزُّهْرِ مُحْصِيْهَا

وَآلسَّيِّـئَاتُ فُـرَادَى كَـانَ حَـاسِبَهَـا عَلَيْـكَ إِنْ تُبْتَ عَنْهَـا فَهْـوَ مَـاحِيْهَـا

وَحَـاسِبُ آلْحَسَنَاتِ آلـزُّهْـرِ وَاحِـدَةً بِعَشْـرِ أَمْثَـالِهَـا إِنْ أَنْتَ تَـأْتِيْهَـا

إِنْ أَنْتَ نَـادَيْتَـهُ لاَ شَـكَّ يَسْمَـعُ أَوْ إِنْ كُنْتَ نَـاجَيْتَـهُ نَجْـوَاكَ يَـدْرِيْهَـا

لَـهُ هُمُـوْمُـكَ تَشْكُـوْهَـا فَيُفْـرِجُهَـا وَآلْمُـزْعِجَاتُ آلَّتِيْ تَـدْهَى فَيُجْلِيْهَـا

تَجِيْئُـهُ طَـالِبَـاً مِنْ فَـضْلِهِ نِـعَمَـاً مَـا آلْغَيْـرُ يَمْلِكُهَـا أَصْـلاً لِيُـوْلِيْهَـا

زِيَـادَةُ آلْعُمْـرِ مَـعْ رِزْقٍ وَعَـافِيَـةٍ مُنَىً جَمِيْـعُ عِبَـادِ آللَّهِ تَـبْغِيْهَـا

تَنَـالُهَـا بِـآلـدُّعَـا فِيْ بَـابِ رَحْمَتِـهِ وَبِـآلـصَّـلاَةِ آلَّتِـيْ بِـرّاً تُصَلِّيْهَـا

لاَ تَـيْـأَسَـنَّ إِذَا أَرْجَـا إِجَـابَـتَـهُ عَلَيْـكَ يَـوْمَـاً وَقُـلْ لِلْخَيْـرِ يُـرْجِيْهَـا

فَـرُبَّ مَسْـأَلَـةٍ فِيْهَـا آلْهَـلاَكُ وَلاَ تَـدْرِيْ فَتَسْـأَلُهَـا جَهْـلاً وَيُلْغِيْهَـا

سَلْهُ آلـرِّغَابَ آلَّتِيْ تَبْقَى مَحَـاسِنُهَـا لِمُبْتَغِيْهَـا وَلاَ شَـرٌّ يُـتَـالِيْـهَـا

وَلاَ تَجُـدَّ وَرَا آلأَمْـوَالِ تَجْمَعُهَـا مَـا أَنْتَ بَـاقٍ لِتَقْنِيْهَـا وَتُـفْنِـيْهَـا

وَآعْلَمْ حَيَـاتُـكَ يَـا آبْنِيْ لِلْفَنَـاءِ وَإِ نَّ آلدَّهْرَ مَهْمَا تَطُلْ لاَ شَكَّ مُبْلِيْهَا(١)

---

(١) واعلم ، أنّك إنّما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وإنّك في منزل قلعة ، ودار بلغة ، وطريق إلى الآخرة ، وأنت طريد الموت ، الذي لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، ولا بدَّ أنّه مدركه ، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حالٍ سيئةٍ ، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك وبين ذلك ، فإذاً أنت قد أهلكت نفسك ، يا بنيَّ أكثر من ذكر الموت ، وذكر ما يهجم عليه ، وتقضي بعد الموت إليه ، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أزرك ، ولا يأتيك بغتةً فيبهرك ، وإيّاك أن تغترَّ بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها ، وتكالبهم عليها ، فقد نبأك الله عنها ، ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساويها ، فإنّما أهلها كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يهرُّ بعضها على بعض ، ويأكل عزيزها=

وَأَنْتَ يَا ٱبْنِي طَرِيْدُ ٱلْمَوْتِ فِيْ وَجَلٍ   مِنْـهُ وَهَجْمَتُـهُ تَخْشَى تَسَـطِّيْـهَـا
لٰكِنَّمَـا ٱلْمَـوْتُ لاَ تَنْجُـوْ فَـرَائِسُـهُ   مِنْـهُ وَلاَ بُـدَّ يَلْقَـاهَـا وَيُـرْدِيْهَـا
فَكُنْ عَلٰى حَـذَرٍ مِنْ فَـجْءِ هَجْمَتِـهِ   وَأَنْتَ فِيْ مَعْصِيَـاتِ ٱللّٰهِ تَـأْتِيْهَـا
أَكْثِـرْ بُنَيَّ ٱذْدِكَـارَ ٱلْمَـوْتِ وَٱذْدَكِـرِ ٱلْأُخْـرَى وَلاَ تَـكُ نَـاسِيْـهِ وَنَـاسِيْهَـا
لاَ تَغْتَـرِرْ بِبَنِيْ ٱلـدُّنْيَـا وَخُـدْعَتِهِمْ   بِهَـا وَمَـا طَلَبُـوْهُ مِنْ مَـلاَهِيْـهَـا
فَـٱللّٰهُ مُنْبِيْـكَ عَنْهَـا وَهْيَ نَـاعِيَـةٌ   لِذِيْ ٱلْحِجَى نَفْسَهَا فَٱسْمَعْ مَنَاعِيْهَا
وَٱنْـظُرْ إِلَيْهَا بِعَيْنِ ٱلْقَلْبِ هَـا هِي قَـدْ   تَكَشَّفَتْ لَـكَ عَنْ مُخْـزِيْ مَسَـاوِيْهَـا
وَأَهْلُهَـا كَكِـلاَبِ ٱلْحَيِّ نَـابِحَـةٌ   أَوْ قُلْ حَكَتْ مِنْ وُحُوشِ ٱلْقَفْرِ ضَارِيْهَا
يَهِـرُّ بَعْضٌ عَلٰى بَعْضٍ وَيَـأْكُـلُ أَرْ   بَـابُ ٱلْقِـوَى ضُعَفَـاهَـا مَعْ ذَرَارِيْهَـا
كَـأَنَّهُمْ نَعَمٌ فِيْ ٱلْأَرْضِ سَـارِحَـةٌ   تَبَـدَّدَتْ فِـرَقـاً إِذْ غَـابَ رَاعِيْهَـا
بِهِمْ لَقَـدْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْغَـوَايَـةِ دُنْـيَـاهُمْ فَمَا أَمِنُـوْا فِيْ سَيْرِهَـا ٱلتِّيْهَـا
وَيْـلٌ لَهُمْ أَلْهُـوْا ٱلـدُّنْيَـا وَقَـدْ لَعِبَتْ   بِهِمْ وَهُمْ لَمْ يَـزَالُـوْا مُسْتَثِيْبِيْـهَـا
وَقَـدْ نَسُـوْا مَـا وَرَاهَـا لاَ أَبَـا لَهُمُ   كَـأَنَّهُمْ أَمِنُـوا طُـوْلَ ٱلثَّوَى فِيْهَـا
وَٱعْلَمْ فَـدَيْتُكَ يَـا ٱبْنِيْ مَنْ مَـطِيَّتُـهُ   زَمَـانُـهُ نُـهْـرُهُ تَتْلُوْ لَيَـالِيْهَـا(١)

=ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها ، نعم معلقة ، وأخرى مهملة ، قد أضلت عقولها ، وركبت مجهولها ، سروح عاهةٍ ، بوادٍ وعثٍ ، ليس لها راعٍ يقيمها ، ولا مسيمٍ يسيمها ، سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتّخذوها رباً ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها ، رويداً يسفر الظلام ، كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من أسرع أن يلحق .

(١) واعلم يا بنيَّ أنَّ من كانت مطيته الليل والنهار ، فإنّه يسار به وإن كان واقفاً ، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً ، واعلم يقيناً أنّك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وأنك في سبيل من كان قبلك ، فخفض في الطلب ، وأجمل في المكتسب ، =

بِـهِ يُسَـارُ وَلاَ يَـدْرِيْ وَيَحْسِبُ جَهْـــلاً أَنَّ رَحْلَتَـهُ مَـا آلـدَّهْـرُ مُنْهِيْهَــا

وَآعْلَمْ يَقِيْنَـاً بِأَنَّ آلنَّـاسَ قَدْ طُـوِيَتْ وَسَوْفَ يَطْوِيْكَ مَنْ قَدْ كَـانَ طَاوِيْهَـا

لَنْ تَعْـدُوَ آلْأَجَـلَ آلْمَحْـدُوْدَ ثَـانِيَـةً وَلَـنْ تَفُـوْزَ بِـآمَـالٍ تُـوَخِّـيْهَـا

فَخَفِّفِ آلـطَّلَبَ آلْمُضْنِيْ لِمُكْتَسَبٍ يَجُـرُّ جَـرَّاً مِنَ آلْأَرْزَاءِ قَـاسِيْهَـا

مَـا كُـلُّ مَنْ طَلَبَ آلْأَرْزَاقَ نَـائِلُهَـا مَا كُلُّ مَنْ أَجْمَلَ آلْمَسْعَى لَمُقْصِيْهَا

وَآرْبَـأْ بِنَفْسِـكَ أَنْ تَـرْضَى مَهَـانَتَهَا لِنَيْـلِ مَـا قَـدْ تَعَـاصَى مِنْ أَمَـانِيْهَـا

وَآللَّهُ سَـوَّاكَ حُـرَّاً لاَ تَكُـنْ أَبَـدَاً عَبْـدَاً لِغَيْـرِكَ فِيْ رُغْبَى تُـرَجِّيْهَـا

لاَ تَـتْـرُكْ نِعْمَـةً لِلْغَيْـرِ فَـاصِلَةً مَـا بَيْنَ نَفْسِـكَ وَآلـرَّحْمٰنِ بَـارِيْهَـا

وَنِعْمَـةُ آللَّهِ مَـا قَلَّتْ لَأَعْـظَمُ مِنْ نُعْمَى خَـلاَئِقِهِ آلْكَثْـرَى تُؤَدِّيْهَـا

وَإِنْ تَكُنْ نِعَمُ آلـدُّنْيَـا بِجُمْلَتِـهَـا مِنْ فَيْضِ إِحْسَانِهِ لِلنَّـاسِ مُعْطِيْهَا

وَلاَزِمِ آلصَّمْتَ لاَ تَنْـطُقْ بِغَيْـرِ تَـرَوٍّ إِنْ تُجَـالِسَ أَصْحَابَـاً تُفَـاهِيْهَـا[1]

=فـإنّـه ربَّ طلبٍ قـد جرَّ إلى حـرب ، وليس كـلُّ طـالب بمـرزوق ، ولا كـل مجمـل بمحروم ، وأكرم نفسك عن كلّ دنية ، وان ساقتك إلى الرغائب ، فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً ، وما خيرُ خيرٍ لا ينال إلّا بشرّ ، ويسرٍ لا ينال إلّا بعسر ، وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمـع ، فتوردكَ مناهلَ الهلكـة ، وان استطعت أن لا يكـون بينـك وبين الله ذو نعمـةٍ فـافعـل ، فـإنّـك مـدركُ قسمـك ، وآخذ سهمـك ، وأنَّ اليسير من الله سبحـانـه ، أعـظم وأكـرم من الكثيـر من خلقه ، وإن كان كلٌّ منه .

(١) وتـلافيك مـا فرط من صمتـك ، أيسر من إدراكـك مـا فـات من منـطقـك ، وحفظه في الوعاء يشدّ الوكاء ، وحفظ ما في يديك أحبُّ إليَّ من نظرك إلى ما في يدي غيرك ، ومرارة اليأس ، خير من الطلب إلى الناس ، والحرفة مـع العفة خيـر من الغنى مع الفجور ، والمرء أحفظ لسرّه ، وربَّ ساعٍ فيما يضرّه ، من أكثر أهجـر ، ومن تفكر تبصـر ، قـارن أهـل الخيـر تكن منهم ، وبـاين أهـل الشـر تبن عنهم ، بئس الـطعـام=

فَالصَّمْتُ سَهْلٌ تَلاَفِي ضَرِّهِ وَلَقَوْ ... لَةٌ تَضُرُّكَ مَا سَهْلٌ تَلاَفِيْهَا

وَحِفْظُ مَا أَنْتَ قَانِيْهِ لأَهْوَنُ مَنْ ... سُؤَالِكَ النَّاسَ عَمَّا فِيْ أَيَادِيْهَا

وَالْيَأْسُ مِنْ رَغَبَاتٍ أَنْتَ رَاغِبُهَا ... أَحَقُّ مِنْ أَنْ إِلَى ذِيْ الشُّحِّ تُزْجِيْهَا

وَإِنَّ مَتْرَبَةً مَعْهَا الْعَفَافُ لَخَيْـ ... ـرٌ مِنْ غِنَى فَجْرَةٍ تُخْزِيْ مُوَافِيْهَا

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ أَحْرَى أَنْ يَصُوْنَ عَنِ الْإِ م خْوَانِ أَسْرَارَهُ مَا رَامَ يُخْفِيْهَا

وَرُبَّ سَاعٍ مُجِدٍّ فِيْ مَضَرَّتِهِ ... فَيَسْتَحِيْلُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَاشِيْهَا

وَمُكْثِرُ الْقَوْلِ نَالَ الْهَجْرُ مَنْطِقَهُ ... فَاقْصُدْ إِذَا كُنْتَ فِيْ قَوْمٍ تُنَادِيْهَا

وَمَنْ يُكَثِّرْ زِيَارَاتِ الصِّحَابِ فَلاَ ... بِدْعٌ إِذَا لَقِيْتَهُ فِيْ تَجَافِيْهَا

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِيْ أَعْمَالِهِ لَرَآ ... هَا فِيْ حَقَائِقِهَا مِنْ قَبْلُ يَأْتِيْهَا

بَايِنْ ذَوِيْ الشَّرِّ حَاذِرْ أَنْ تُشَاكِلَهُمْ ... وَقَارِنِ الصُّلَحَا تُصْبِحْ مُحَاكِيْهَا

وَبِئْسَ أَطْعِمَةُ الْإِنْسَانِ مَا حَرُمَتْ ... وَالْوَيْلُ مُتَّبِعٌ مَثْوَى مُحِلِّيْهَا

وَالظُّلْمُ فُحْشٌ وَلَكِنْ كَانَ أَفْحَشَهُ ... ظُلْمُ الضِّعَافِ الْأُلَى الْقُرْآنُ يَحْمِيْهَا

مَا الرِّفْقُ يُحْمَدُ فِيْ كُلِّ الْمَوَاطِنِ بَلْ ... فِيْ الشِّدَّةِ الْحَمْدُ أَحْيَانًا لِمُجْرِيْهَا

وَرُبَّ دَاءٍ شَفَى دَاءً مُنِيْتَ بِهِ ... وَرُبَّ أَدْوِيَةٍ يُؤْذِيْ تَعَاطِيْهَا

وَرُبَّ قَوْلَةِ ذِيْ مَكْرٍ نُصِحْتَ بِهَا ... وَقَوْلَةِ النُّصْحِ كَانَ الْغِشُّ غَاشِيْهَا

=الحرام ، ظلم الضعيف أفحش الظلم ، إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً ، ربما كان الدواءُ داءً والداءُ دواءً ، ربما نصح غير الناصح وغشَّ المستنصح ، إيّاك والاتكال على المنى فإنّها بضائع النوكى ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جرَّبت ما وعظك ، بادر الفرصة قبل أن تكون غصة ، ليس كل طالبٍ يصيب ، ما كلُّ غائبٍ يثوب ، من الفساد إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد ، لكل أمر عاقبة ، سوف يأتيك ما قدر لك ، التاجر مخاطر ، وربَّ يسير أنمى من كثير .

وَٱلإِتِّكَـالُ عَلى ٱلآمَـالِ مُتَّجَـرُ ٱلْـــحُمْقَى وَتَجْـرَتُهَا ٱلْخُسْـرَانُ تَالِيْهَـا

إِنَّ ٱلتَّجَـارُبَ قَدْ تُـوْلِي ٱلْحَكِيْمَ مَوَا عِـظَاً بِهَـا يَتَّقِيْ ٱلأَخْـطَارَ يُجْلِيْهَـا

وَإِنْ تُضِـعْ فُـرْصَـةً لِلْخَيْـرِ سَـانِحَـةً تُصْبِـحْ بِغُصَّـةِ مَنْ رَاحُـوْا مُضِيْعِيْهَـا

مَـا كُـلُّ مُبْتَعِـدٍ يَـوْمَـاً يَؤُوْبُ وَلاَ كُـلُّ ٱلْمَـطَالِبِ يُلْفِيْهَـا مُـرَجِّيْهَـا

إِضَـاعَةُ ٱلـزَّادِ مَعْ شَـرِّ ٱلْمَعَـادِ فَسَـا دٌ لِلْعِبَـادِ وَخَيْـرُ ٱلنَّـاسِ تَـاقِيْهَـا

لِكُـلِّ أَمْـرٍ إِذَا فَكَّـرْتَ عَـاقِبَـةٌ فَـلاَ تُعَـالِجْ أُمُـوْرَاً كُنْتَ خَـاشِيْهَـا

لاَ تُحْمِلِ ٱلنَّفْسَ جُهْدَاً فَوْقَ طَاقَتِهَا فَكُـلُّ مَـا كَـانَ مَقْـدُوْرَاً لَيَـأْتِيْهَـا

وَلِـلتِّجَـارَةِ أَخْـطَارٌ وَرُبَّ قَـنُـوْ عٍ بِـآلْيَسِيْرِ نَمَتْ أَرْبَـاحُـهُ فِيْهَـا

لاَ خَيْـرَ فِيْ عَوْنِ مَـرْءٍ مَـعْ إِهَـانَتِـهِ فَآبْعِدْ بِسُؤْلِـكَ عَنْهُ كَيْ تُحَـاشِيْهَا[1]

---

(١) لا خير في معينٍ مهين ، ولا في صديقٍ ظنين ، ساهل الدهر ما ذلّ لك قَعوده ، ولا تخاطر بشيء رجاء الأكثر منه ، إيّاك أن تجمح بك مطية اللجاج ، احمل نفسك من أخيك عند حرصه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنوّ ، وعند شدَّته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنَّك له عبد ، وكأنّه ذو نعمة عليك ، وإيّاك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله ، لا تتخذنَّ عدوَّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنةً كانت أو قبيحة ، وتجرَّع الغيظ ، فإنّي لم أرَ جرعةً أحلى منها عاقبةً ، ولا ألذَّ مغبةً ، ولن لمن غالظك ، فإنّه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظفرين ، وإن أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها ، إن بدا له ذلك يوماً ما ، ومن ظنَّ بك خيراً فصدّق ظنه ، ولا تضيعنَّ حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه ، فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبنَّ فيمن زهد عنك ، ولا يكوننَّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا يكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا يكبرنَّ عليك ظالم من ظلمك ، فإنّه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزءا من سرَّك أن تسوءه .

أَوْ فِي صَدَاقَةِ إِخْوَانٍ يَسُوْءُ بِمَنْ صَافَتْ بِلاَ رِيْبَةٍ مِنْهُ تَظَنِّيْهَا
وَسَاهِلِ ٱلدَّهْرَ مَا ذَلَّتْ شَوَامِسُهُ فَقَدْ تَنَالُ ٱلْأَمَانِيْ مِنْ تَذَلِّيْهَا
وَلاَ تُخَاطِرْ بِأَشْيَاءٍ ظَفِرْتَ بِهَا لِنَيْلِ أُخْرَى كَثِيْرَاتٍ تُرَجِّيْهَا
وَلاَ تَلُجَّ عِنَاداً لِلَّجَاجِ مَطَا يَا جَامِحَاتٌ لَقَدْ أَعْيَتْ مُهَدِّيْهَا
وَٱحْمِلْ صِحَابَكَ إِنْ صدَّتْ عَلى صِلَةٍ وَإِنْ تَنَاءَتْ عَلى رَاضِيْ تَدَانِيْهَا
إِنْ أَخْطَأَتْ لَكَ كُنْ بِٱلْحِلْمِ عَاذِرَهَا وَكُنْ إِذَا قَسِيَتْ رِفْقاً مُلاَقِيْهَا
وَكُنْ كَأَنَّكَ عَبْدٌ فِيْ ٱلْوَلاَءِ لَهَا قَدْ كَانَ نَائِلَ نُعْمَاهَا وَجَادِيْهَا
وَٱحْذَرْ فِعَالَكَ ذِيْ يَوْماً تُضَيِّعُهَا بِوَضْعِهَا عِنْدَ قَوْمٍ لاَ تُكَافِيْهَا
لاَ تَتَّخِذْ مَنْ يُعَادِيْ أَصْدِقَاءَكَ إِخْـ ـوَاناً فَتَخْسَرُ مَنْ كُنْتَ ٱلْمُوَالِيْهَا
وَٱمْحَضْ نَصَائِحَكَ ٱلْإِخْوَانَ إِنَّ وَفِـ ـيَّ ٱلْوُدِّ يُضْحِكُهَا صِدْقاً وَيُبْكِيْهَا
تَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ وَٱعْلَمْ أَنَّ جُرْعَتَهُ وَإِنْ تَمُرَّ فَعُقْبَى ٱلْخَيْرِ تُحْلِيْهَا
وَكُنْ لِمَنْ لَكَ قَدْ لاَقَى بِغُلْظَتِهِ بِذَاكَ مِنْ غَيْرِ مَا إِثْمٍ مُلاَشِيْهَا
بَادِرْ عِدَاتَكَ بِٱلْحُسْنَى فَتَقْهَرُهَا وَبِٱلْبَشَاشَةِ وَٱلْمَعْرُوْفِ تَنْكِيْهَا
وَإِنْ قَطَعْتَ أَخاً فَلْتُبْقِ نَفْسُكَ مَوْ ضِعاً لَهُ عَلَّهُ يَوْماً يُوَافِيْهَا
وَمَنْ بِشَخْصِكَ ظَنَّ ٱلْخَيْرَ ظِنَّتَهُ حَقِّقْ وَرَغْبَتُهُ إِيَّاكَ تَزْوِيْهَا
وَلاَ تُضَيِّعْ حُقُوْقَ ٱلصَّحْبِ مُتَّكِلاً عَلى مَوَدَّتِهَا بَلْ كُنْ مُؤَدِّيْهَا
وَكُنْ لِأَهْلِكَ مُهْنِيْهَا وَمُسْعِدَهَا أَوْلاَ فَتَشْقَى بِهَا جَهْلاً وَتُشْقِيْهَا
مَنْ عَنْكَ يَزْهَدُ لاَ تَرْغَبْ بِهِ أَبَداً خِلاًّ وَصُحْبَتُهُ فَٱقْطَعْ أَوَاخِيْهَا
وَكُنْ عَلى صِلَةِ ٱلْأَصْحَابِ أَقْدَرَ مِنْـ ـهَا فِيْ ٱلْقَطِيْعَةِ إِنْ هَمَّتْ لِتَأْتِيْهَا
وَكُنْ عَلى ٱلْخَيْرِ أَقْوَى مِنْ مُبَادَءَةِ ٱلْأَصْحَابِ بِٱلشَّرِّ كُنْ خَيْراً مُبَادِيْهَا

لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ٱلظُّلْمُ فَٱلظُّلَمَا   تَسْعَى لِنَفْعِكَ وَٱلْأَضْرَارُ تَجْنِيْهَا

وَلَا تَسُؤْ أَنْفُسَاً سَرَّتْكَ يَا وَلَدِيْ   حَاشَاكَ أَنْ تَكُ بِٱلسُّوئَى مُجَازِيْهَا

وَٱلرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ أَنْتَ تَطْلُبُهُ   تُنْضِيْ خُطَاكَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُعْيِيْهَا(١)

وَآخَرٌ دُوْنَ سَعْيٍ مِنْكَ تَطْلُبُهُ   يَأْتِيْ دِيَارَكَ بِٱلتَّوْفِيْقِ يَثْوِيْهَا

أَقْبِحْ بِذِيْ حَاجَةٍ يُبْدِيْ تَلَطُّفَهُ   لَهَا وَيَخْشُنُ إِمَّا رَاحَ قَاضِيْهَا

وَغَيْرُ مَا يُصْلِحُ ٱلْمَثْوَى وَحَقِّكَ مَا   لِلْمَرْءِ مِنْ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا

وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا قَدْ تَفَلَّتَ مِنْ   يَدَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ قَدْ كُنْتَ تَقْطنيْهَا

فَٱجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا فِيْ ٱلْأَرْضِ مِنْ نِعَمٍ   إِلَيْكَ مَا وَصَلَتْ فَٱلنَّفْسُ تَبْغِيْهَا

إِنَّ ٱلْأُمُوْرَ لَأَشْبَاهٌ فَحَاضِرُهَا   قِسْهُ إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ بِمَاضِيْهَا

وَلَا تَكُنْ مِنْ أُنَاسٍ لَيْسَ يَنْفَعُهَا   وَعْظٌ إِذَا لَمْ تُقَرَّعْ مِنْ مُلِيْمِيْهَا

---

(١) واعلم يا بنيَّ أنّ الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته اتاك ، ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، إنَّ لك من دنياك ما أحكمت به مثواك ، وإن جزعت على ما تفلت من يديك ، فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك ، استدلَّ على ما لم يكن بما كان ، ولا تكوننَّ ممن لا تنفعه العظة إلَّا إذا بالغت في إيلامه ، فإنَّ العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلَّا بالضرب ، اطرع عنك واردات الهموم ، بعزائم الصبر وحسن اليقين ، من ترك القصد جار ، والصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العثاء . ربَّ قريب أبعد من بعيد . وربَّ بعيد أقرب من قريب . والغريب من لم يكن له حبيب . من تعدَّى الحق ضاق مذهبه . ومن اقتصر على قدره كان أبقى له . وأوثق سبب أخذت به ، سبب بينك وبين الله سبحانه ، ومن لم يبالك فهو عدوُّك ، قد يكون اليأس إدراكاً ، إذا كان الطمع هلاكاً ، ليس كلُّ عورةٍ تظهر ، ولا كلُّ فرصةٍ تصاب ، وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ، أخّر الشرَّ فإنّك إذا شئت تعجلته ، وقطيعة الجاهل ، تعدل صلة العاقل ، من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه ، ليس كلُّ من رمى أصاب ، إذا تغير السلطان تغير الزمان ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

فَذُوْ ٱلْمَدَارِكِ بِٱلآدَابِ مُتَّعِظُ ... أَمَّا ٱلْبَهَائِمُ فَٱلضَّرْبُ ٱلْمُرَبِّيْهَا

سَرِّحْ هُمُوْمَكَ بِٱلصَّبْرِ ٱلْجَمِيْلِ وَبِٱلْـ ... ـيَقِيْنِ بِٱللَّهِ وَٱلْأَقْدَارُ تُجْلِيْهَا

مَنْ يَتْرُكِ ٱلْقَصْدَ فِيْ أَعْمَالِهِ فَقُلِ ٱلْأَ ... قْدَارُ قَدْ تَيَّهَتْهُ فِيْ دَيَاجِيْهَا

وَصَاحِبُ ٱلْمَرْءِ أَحْرَى أَنْ يُنَاسِبَهُ ... فَٱنْظُرْ حَقِيْقَةَ أَصْحَابٍ تُؤَاخِيْهَا

مَنْ كَانَ يَصْدُقُ فِيْ ٱلْعَيْبِ ٱلصَّدِيْقَ فَذَا ٱلْـ ... ـصَّدِيْقُ صُحْبَتُهُ ذُوْ ٱلرَّأْيِ يَبْغِيْهَا

إِنَّ ٱلْهَوَى لَشَرِيْكٌ لِلْعَمَى وَأَخُوْ ... هُ مَا هِدَايَتُهُ تَٱللَّهِ رَائِيْهَا

وَرُبَّ مُبْتَعِدٍ أَدْنَى لِنَفْسِكَ مِنْ ... دَانٍ إِلَيْهَا وَلٰكِنْ لَا يُهَاوِيْهَا

وَمَا ٱلْغَرِيْبُ غَرِيْبُ ٱلدَّارِ نَازِحُهَا ... لٰكِنَّ مَنْ مَالَهُ صَحْبٌ يُوَالِيْهَا

مَنْ جَاوَزَ ٱلْحَقَّ قُلْ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ ... بِوَجْهِهِ لَيْسَ يَدْرِيْ كَيْفَ يَمْشِيْهَا

وَمَنْ عَلَى قَدْرِهِ قَدْ بَاتَ مُقْتَصِراً ... فَمَا ٱلْمَصَاعِبُ تُشْقِيْهِ فَوَاجِيْهَا

وَخَيْرُ مَنْ تُرْتَجَى يَوْماً مَعُوْنَتُهُ ... هُوَ ٱلْمُهَيْمِنُ كُنْ مِنْهُ مُوَخِّيْهَا

مَنْ لَمْ يُبَالِكَ إِنْ كُنْتَ ٱلْأَمِيْرَ فَذَا ... مِنَ ٱلْعِدَاةِ ٱلْأُلَى فَرْضٌ تَوَقِّيْهَا

وَٱلْيَأْسُ قَدْ يَكُ إِدْرَاكاً إِذَا تَبِعَ ٱلْـ ... ـهَلَاكُ أَطْمَاعَ مَطْمَاعٍ يُرَجِّيْهَا

لَيْسَتْ عُيُوْبُ ٱلْعِدَى تَبْدُوْ بِأَجْمَعِهَا ... لِعَيْنِ مَنْ رَامَ يَغْزُوْهَا وَيُرْدِيْهَا

وَلَا تُصَابُ إِذَا بَادَرْتَهَا فُرَصُ ٱلْـ ... ـخَيْرَاتِ طُرّاً فَلَا تَحْزَنْ لِخَالِيْهَا

وَرُبَّمَا بَلَغَ ٱلْأَعْمَى مَقَاصِدَهُ ... دُوْنَ ٱلْبَصِيْرِ ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ رَائِيْهَا

لَا تَعْجَلَنْ بِشُرُوْرٍ أَنْتَ رَاغِبُهَا ... فَقَدْ يَكُوْنُ صَوَاباً أَنْ تُؤَنِّيْهَا

قَطِيْعَةُ ٱلْجَاهِلِ ٱلْمَغْرُوْرِ تَعْدِلُ إِنْ ... تَرْشُدْ مُوَاصَلَةَ ٱلذَّاكِيْ وَتَحْكِيْهَا

مَنْ يَأْمَنِ ٱلدَّهْرَ فَلْيَنْظُرْ خِيَانَتَهُ ... وَمَنْ يُعَظِّمْهُ يَلْقَى ٱلْهَوْنَ تَجْرِيْهَا

مَا كُلُّ رَمْيَةِ رَامٍ قَدْ تُصِيْبُ وَكَمْ ... مِنْ رَمْيَةٍ أَخْطَأَتْ دَانِيْ مَرَامِيْهَا

إذا تـغـيَّـرَ سُـلْطَانٌ تـغـيْـرَتِ ٱلْأَ يَّـامُ فِيْ أَهْلِهَـا مَـا دَامَ حَـامِيْهَـا
سَلْ عَنْ رَفِيْقِكَ مِنْ قَبْلِ ٱلطَّرِيْقِ وَقَبْـــلَ ٱلـدَّارِ عَنْ جِيْرَةٍ تَثْوِيْ نَوَاحِيْهَـا
لَا تَـذْكُرَنَّ مِنَ ٱلْأَقْـوَالِ مُضْحِكَهَـا وَلَـوْ عَنِ ٱلْغَيْرِ قَـدْ أَمْسَيْتَ رَاوِيْهَا[1]
وَٱحْـذَرْ مُشَـاوَرَةَ ٱلنِّسْـوَانِ مُجْتَنِبَـاً آرَاءَهُـنَّ فَـإِنَّ ٱلْأَفْـنَ تَـالِـيْـهَـا
وَكُفَّ أَبْصَـارَهُنَّ بِـٱلْحِجَـابِ وَصِنْ دِيَـارَهُـنَّ عَنِ ٱلْأَغْـيَـارِ تَـأْتِيْـهَـا
إِنَّ ٱلـنِّسَـاءَ رَيَـاحِيْنٌ وَلَـيْسَ بِهِـــنَّ ٱلْقَهْـرَمَـانَـةُ فَـٱلْأَخْـطَارُ تَتْقِيْهَـا
وَٱحْـذَرْ مُغَايَـرَةً فِيْ غَيْـرِ مَـوْضِعِهَـا مَـا بَيْنَهُنَّ يَـلِيْهَـا ٱلـشَّـرُّ تُلْقِيْهَـا
وَٱجْعَلْ لِكُلٍّ مِن ٱلْخُدَّامِ عِنْدَكَ أَعْـــمَالاً مُخَصَّصَـةً لَا بُـدَّ يُجْرِيْهَـا
بِـذَاكَ تَـأْمَنُ مِنْ مُؤْذِيْ تَـوَاكُلِهَـا بِمَـا يُنَـاطُ بِهَـا أَوْ مِنْ تَـوَانِـيْهَـا
أَكْـرِمْ عَشِيْـرَتَـكَ ٱلـدُّنْيَا فَـإِنَّـكَ لَا تَـعْلُوْ وَتُـكْـرَمُ إِلَّا فِيْ تَـعَـالِـيْـهَـا
فَهْيَ ٱلْجَنَاحُ بِهِ فِيْ أُفْقِ سُؤْدُدِكَ ٱلْأَ مْ سْمَى تَـطِيْـرُ إِلَى ٱلْعُلْيَـا تُـدَانِيْهَـا
وَهْيَ ٱلْأُصُوْلُ ٱلَّتِيْ مِنْهَا نَشَـأْتَ وَمَا تَعْلُوْ تَـصِيْـرُ إِلَـيْهَـا لَا تُـنَـاوِيْهَـا

---

(١) إيّاك أن تذكر من الكلام مـا يكون مضحكـاً ، وإن حكيت ذلك عن غيـرك ، وإيّـاك ومشاورة النسـاء ، فإنّ رأيهنّ إلى أفن ، وعـزمهنّ إلى وهن ، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابك إياهنّ ، فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ ، وليس خروجهنّ بـأشدّ من إدخالك من لا يـوثق به عليهنّ ، وإن استـطعت أن لا يعرفن غيـرك فافعـل ، ولا تملك المـرأة من أمرهـا ما جـاوز نفسها ، فـإنّ المرأة ريحـانة ، وليست بقهـرمانـة ، ولا تعـدُ بكرامتها نفسها ، ولا تطمعها بأن تشفع بغيرها ، وإياك والتغاير في غير موضع غيرة فـإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم ، والبريئة إلى الريب ، واجعل لكلّ إنسان من خـدمك عمـلاً تأخـذه به ، فـإنّه أحـرى أن لا يتواكلوا في خـدمتك ، وأكـرم عشيرتـك ، فـإنّهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول ، استـودع الله دينك ودنياك ، واسأله خير القضاء لك ، في العاجلة والآجلة ، والسلام اهـ .

وَهْيَ ٱلْيَمِيْنُ ٱلَّتِيْ تَسْطُوْ بِهَا وَتَصُوْ لُ إِنْ دَهَاكَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ دَاهِيْهَا
أَسْتَوْدِعُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ دِيْنَكَ مَعْ دُنْيَاكَ ذِيْ بُغْيَتِيْ لِلَّهِ أُسْدِيْهَا

مقتبسات من حكم أمير المؤمنين(١)

وَافَىٰ إِلَي ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَا ٱلْمُعِزُّ بِيُمْنِ ٱللَّهِ فِيْ لَيْلَةٍ عَمَّتْ تَهَانِيْهَا
وَكُنْتُ مَا بَيْنَ مَنْ حَوْلَيْهِ مِنْ شُعَرَا ءِ ٱلْعُرْبِ بَصْرِيِّهَا ٱلذَّاكِيْ وَكُوْفِيْهَا
يَقُوْلُ : لَا تَكُ فِيْ بَذْلِ ٱلْعَطَاءِ حَيِيَّاً مَا يَقُلُّ فَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيْهَا

« المرء كثير بإخوانه »

إِحْفَظْ عُهُوْدَ الأُلَى أَصْفُوْكَ وِدَّهُمُ مِنَ ٱلْأَحِبَّةِ دَانِيْهَا وَنَائِيْهَا
فَٱلْمَرْءُ يَكْثُرُ بِٱلْإِخْوَانِ إِنْ كَثُرَتْ بِهَا عَوَادِيْ ٱلْقَضَا ٱلسُّوءَى يُلَاقِيْهَا(٢)
وَأَعْجَزُ ٱلنَّاسِ مَنْ أَعْيَتْهُ حِيْلَتُهُ عَنِ ٱكْتِسَابِ قُلُوْبِ ٱلنَّاسِ يَقْنِيْهَا(٣)

---

(١) إنّ الحكمة لمأثورة عن سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فهو ولا جدال سيد الحكماء وعنه تروى الحكمة في مواطن السرّاء والضرّاء وقد وردت الحكمة على لسانه الشريف في كثير من رسائله وخطبه وأقواله حتى قالوا إنّه كان ينطق بالحكمة في كلّ موطن أقام فيه ومجلس جلسه وموقف وقفه بل كانت جميع أقواله الشريفة وأعماله المنيفة حكماً مأثورة منبثقة عن توقد ذكاء وسعة تجربة واختبار ولقد جمع الشريف الرضي بعض هاتيك الحكم في آخر كتاب نهج البلاغة فكانت حلية في الآداب ملأى بما يسدّد خطى الناس إلى الرشاد والصواب وقد اقتبسنا بعضها فنظمناها حليةً لجيد علويتنا المباركة والأمل أن تعمَّ فائدتها وتحسن على القراء الأتقياء عائدتها وبالله المستعان .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قتل جعفر بمؤتة « المرء كثير بأخيه » .

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « أعجز الناس ، من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه ، من ضيع من ظفر به منهم » .

وَكَانَ أَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ أَضَاعَ صِحَا بَةً لَقَدْ صَدَقْتَهُ فِيْ تَآخِيْهَا

« حب الخلود »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَعْنَى بِٱلْحَيَاةِ وَتَرْ جُوْ أَنْ تُخَلِّدَ فِيْهَا لاَ تُخَلِّيْهَا

وَهُمْ كَرَكْبٍ نِيَامٍ وَٱلزَّمَانُ بِهِمْ يَسْعَى وَسَاعَاتُهُ تَخْدُوْ ثَوَانِيْهَا (١)

« ربَّ أخ لم تلده أمك »

إِنْ لَمْ يُعِنْكَ عَلَى ٱلْأَخْطَارِ ذُو رَحِمٍ فَقَدْ يُعِنْكَ غَرِيْبٌ فِيْ تَوَقِّيْهَا

وَقِيْلَ رُبَّ أَخٍ يَحْنُوْ عَلَيْكَ وَلَمْ تَعْرِفْهُ أُمُّكَ يَوْمَاً فِيْ ذَرَارِيْهَا (٢)

وَإِنْ أَضَاعَكَ فِيْ ٱلشِّدَّاتِ صَاحِبُكَ ٱلْأَ دْنَى أُتِيْحَ لَكَ ٱلْأَقْصَى لِتُقْصِيْهَا

« الصديق الخدَّاع »

قُلْ لِلَّئِيْمِ يُخْفِيْ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْـ ـبَغْضَاءَ وَٱلْحِقْدَ تَضْلِيْلاً وَتَمْوِيْهَا

لاَ بُدَّ مِنْ فَلْتَةٍ يَجْرِيْ ٱللِّسَانُ بِهَا عَفْوَاً فَتُظْهِرُ أَخْلاَقَاً تُخَفِّيْهَا (٣)

وَٱلْوَجْهُ تَٱللَّهِ نَمَّامٌ بِصَاحِبِهِ عَلَى سَرِيْرَتِهِ لِلنَّاسِ يُبْدِيْهَا

وَقَلَّمَا يَخْدَعُ ٱلْإِخْوَانَ يَخْتِلُهَا إِلَّا إِلَى أَجَلٍ يُقْضَى مُمَارِيْهَا

---

(١) قال سيد الحكماء سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام » .

(٢) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « ربّ أخٍ لم تلده أمك » وقال عليه السلام : « من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد » .

(٣) قال الإمام علي عليه السلام : « ما أضمر أحد شيئاً ، إلاّ ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه » .

« الحقُّ والباطـــــل »

خَيْرُ ٱلْعِبَادِ ٱلَّذِيْ قَدْ بَـاتَ يَنْصُرُ حَـــــقَّ ٱللَّهِ فِيْ حَرْبِ مَنْ يَبْغِيْ ٱلتَّرَارِيْهَا
وَشَـرُّهُمْ مَنْ أَبَاطِيْـلُ ٱلْوَرَى نَصَـرُوا   وَمَـالَئُوْا رَغْبَـةَ ٱلـدُّنْيَـا مُـوَالِيْهَـا
أَمَّـا ٱلْأُلَى خَذَلُـوْا حَقّاً وَمَـا نَصَـرُوْا   بُــطْلاً فَسَفِّهْهُمُ تَـاللَّهِ تَسْفِـيْهَـا[1]

« ان أفلت اللسان عقر »

إِنَّ ٱلـلِّسَـــانَ إِذَا أَطْلَقْتَـــهُ لَحَـكَـى   مِنَ ٱلْوُحُوْشِ ٱلَّتِيْ تُؤْذِيْ ضَوَارِيْهَا[2]
فَيَعْقُـرُ ٱلنَّـاسَ عَفْـوَاً وَهْـوَ مُنْـطَلِقٌ   فِيْ هَـذْرِهِ حَيْثُ يَبْغِيْ أَنْ يُـرَاشِيْهَـا

« اللسان يجلب الهوان »

صُنِ ٱللِّسَـــانَ وَحَـاذِرْ أَنْ تَفُـــوْهَ بِـهِ   لَغْـــوَاً وَشَـرُّ عِبَـــادِ ٱللَّهِ لاَغِيْهَـــا[3]
وَمَنْ عَلٰى نَفْسِـهِ يَسْـطُوْ بِــلاَ حَـذَرٍ   لِسَـانُـهُ فَهْــوَ فِيْ ٱلْإِهْـوَانِ مُلْقِيْهَـــا

« العفو شكر القدرة »

إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ يَصُوْنُ ٱلنَّفْسَ عَنْ نَـزَعَا   تِ ٱللُّؤْمِ إِنْ قَهَـرَتْ يَوْمَـاً مُعَادِيْهَـا
تُلْفِيْـهِ يَصْفَـحُ حِلْمَـــاً وَهْـوَ مُقْتَــدِرٌ   عَلٰى ٱلْعِدَى لَوْ يَشَا أَمْسَى مُلاَشِيْهَـا

---

(١) قال أبو الحسن عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه في صفين : « خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل » فذهبت كلمته مثلاً وحكمةً .

(٢) قال سيدنا أبو الحسنين عليه السلام : « اللسان سبع إن خُلي عنه عقر » .

(٣) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « هانت عليه نفسه مَن أمَّر عليه لسانه » .

وَيَجْعَلُ ٱلْعَفْوَ شُكْرَ ٱلْإِقْتِدَارِ عَلَيْــــهَا حَامِدَاً لِمُقَوِّيْهِ وَمُوْهِيْهَا[1]

« مخالطـــة النـــاس »

خَيْرُ ٱلْخَلَائِقِ مَنْ كَانَتْ خَلَائِقُهُ   مَحْمُوْدَةً قَدْ تَنَاهَتْ فِيْ تَسَامِيْهَا
يُخَالِطُ ٱلنَّاسَ بِٱلْحُسْنَى مُخَالَطَةً   يَسُرُّ ظَاهِرُهَا ٱلْبَادِيْ وَخَافِيْهَا[2]
فَإِنْ يَمُتْ تَبْكِهِ حِزْنَاً عَلَيْهِ وَإِنْ   يَعِشْ يَفُزْ بِجَلِيْلٍ مِنْ تَمَنِّيْهَا

« الدنيـــا وأهلـــها »

يَا أَهْلَ وُدِّيْ هِيَ ٱلدُّنْيَا ٱلْغَرُوْرُ فَمَا   مِنْهَا أَمَانٌ وَلَا صَفْوٌ لِأَهْلِيْهَا
نَعَمْ فَإِنْ أَقْبَلَتْ يَوْمَاً عَلَى فِئَةٍ   تُعِيْرُهَا مِنْ صِفَاتِ ٱلْغَيْرِ زَاهِيْهَا[3]
أَمَّا إِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهَا فَتَسْلِبُهَا   مَحَاسِنَاً عُرِفَتْ بَيْنَ ٱلْوَرَى فِيْهَا

« من رضي من نفسه كثر الساخط عليه »

بِٱلنَّفْسِ لَا تَغْتَرِرْ يَا صَاحِ فَهْيَ مَطِيَّــــةُ ٱلْغُرُوْرِ وَحَاذِرْ أَنْ تُجَارِيْهَا
وَلَا تَكُنْ رَاضِيَاً عَنْهَا فَيَسْخَطُ أَكْــــثَرُ ٱلْأُلَى نِلْتَ مِنْهُمْ فِيْ تَرَضِّيْهَا[4]

---

(١) قال المرتضى عليه السلام : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

(٢) قال أبو الحسنين عليه السلام : « خالطوا الناس مخالطةً ، إن متم معها بكوا عليكم ، وإن عشتم حنوا إليكم » .

(٣) قال سيدنا علي عليه السلام : « إذا أقبلت الدنيا على قوم ، أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم ، سلبت محاسن أنفسهم » .

(٤) قال سيف الله الغالب عليه السلام : « من رضي من نفسه كثر الساخط عليه » .

« المسالمة خبء العيوب »

مَنْ سَالَمَ آلنَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَـدَاوَتِهَا   فَـلَمْ تَنَـلْهُ بِفِيْهَـا فِـيْ نَـوَادِيْـهَـا
وَفِيْ آلْمُسَالَمَةِ آلْحَسْنَـاءِ خِبْءُ عِيُوْ   بِ آلْمَـرْءِ فَهْـوَ أَمِيْنٌ مِنْ تَفَشِّيْهَا(١)

« القناعــة مال لا ينفد »

مَـا لِلْغَنِيِّ وَأُلْفِيْـهِ عَلى طَـلَبِ آلأَ   مْـوَالِ مُنْعَكِفَـاً يَـعْنَـى لِيَـجْنِيْهَـا
أَظَـنَّ يَحْـيَـا خُلُوْدَاً أَمْ بِـهِ عَـمَـهُ   عَنِ آلـرَّزَايَـا آلَّتِيْ حَـوْلَيْـهِ يُلْفِيْهَـا
وَفِيْ آلْقَنَـاعَـةِ مَـالٌ لاَ نَفَـادَ لَـهُ   لَدَى آلْحَكِيْمِ إِذَا مَا بَاتَ رَاضِيْهَا(٢)

« المنى والمنــــون »

لاَ تَشْتَغِـلْ بِـأَمَـانٍ لاَ تُنَـالُ فَـإِ   نَّ آلنَّفْسَ لاَ تَنْقَضِيْ يَـوْمَـاً أَمَـانِيْهَا
وَمَنْ جَرَى فِيْ مَيَادِيْنِ آلْمُنَى صَدَمَتْـــهُ فَاجِعَاتُ آلْمَنَـايَا وَهْـوَ نَاسِيْهَـا(٣)

« الزهــــد ثــروة »

إِنْ لَمْ تَفُـزْ بِكُنُوْزِ آلأَرْضِ تَكْنِـزُهَـا   فَـآزْهَـدْ بِهَـا وَتَـرَفَّـعْ عَنْ مُحِبِّيْهَـا
وَآلزُّهْدُ لِلْمُـدْرِكِ آلْمَحْرُوْمِ أَكْبَـرُ ثَرْ   وَةٍ عَلى رَغْمِ أَنْفِ آلدَّهْرِ يَقْنِيْهَـا(٤)

---

(١) قال يعسوب الدين عليه السلام : « المسالمة خبء العيوب » .

(٢) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « القناعة مال لا ينفد » .

(٣) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « من جرى في عنان أمله ، عثر بأجله » .

(٤) قال وصي رسول الله عليهما الصلاة والسلام : « الزهد ثروة » .

« السلامة في التسليم »

سَلِّمْ أُمُوْرَكَ لِلْخَلَّاقِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ فَهْوَ عَلى مَا شَاءَ يُمْشِيْهَا
وَلِلْمَقَادِيْرِ أَحْكَامٌ مُنَفَّذَةٌ عَلى ٱلْخَلَائِقِ تَجْرِيْ فِيْ مَجَارِيْهَا
لَهَا تَذِلُّ أُمُوْرُ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا حَتَّى لَتَعْجَزَ عَجْزاً عَنْ تَوَقِّيْهَا(1)

«صدر العاقل صندوق سره»

صِنْ فِيْ سَرِيْرَتِكَ ٱلْأَسْرَارَ لَا تَكُ ثَرْ ثَاراً تَفُوْهُ بِهَا لِلنَّاسِ تَرْوِيْهَا
وَإِنْ أَمِنْتَ عَلَيْهَا ٱلْغَيْرَ عَنْ سَفَهٍ فَلَا تَلُمْهُ إِذَا مَارَاحَ يُفْشِيْهَا
وَصَدْرُ رَبِّ ٱلنُّهَى لِلسِّرِّ يَجْعَلُهُ خِزَانَةً وَيَعِيْهِ فِيْ مَطَاوِيْهَا(2)

« الصبر »

أَصْبُرْ فَفِيْ ٱلصَّبْرِ مُنْجَاةٌ مِنَ ٱلْغِيَرِ ٱلَّـ ـتِيْ دَهَتْ رَيْثَمَا بِٱلصَّبْرِ تُقْصِيْهَا
وَٱصْبُرْ أُخَيَّ عَلى مَا أَنْتَ تَكْرَهُهُ وَعَنْ أَمَانٍ مَضَتْ قَدْ كُنْتَ رَاجِيْهَا(3)

« عيبك مستور ما أسعدك جدُّك »

إِنْ أَسْعَدَ ٱلْجَدُّ إِنْسَاناً وَأَسْعَفَهُ أَخْفَى مَعَائِبَهُ عَنْ عَيْنِ رَائِيْهَا(4)

---

(١) قال إمام المتقين عليه صلوات الله « تذلُّ الأمور للمقادير ،حتى يكون الحتف في التدبير » .

(٢) قال إمام المتقين عليه السلام : « تذلُّ الأمور للمقادير ، حتى يكون الحتف في التدبير » .

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « صدر العاقل صندوق سرّه » .

(٤) قال المرتضى عليه السلام : « الصبر صبران ، صبر على ما تكره ، وصبر عمّا تحبُّ » .

وَبَاتَ وَٱلنَّاسُ طُــرّاً عَنْهُ رَاضِيَــةٌ تَـرْوِيْ مَحَاسِنَــهُ ٱلْغَـرَّا وَتُــطْرِيْهَـا

« قيمة كل امرءٍ ما يحسنه »

لَا تَفْتَخِـرْ بِعِـظَامٍ يَـا أَخِيْ نَخِـرَتْ إِنْ كُنْتَ تُنْمَى إِلَى مَاضِيْ تَعَالِيْهَا(١)
فَقِيْمُـةُ ٱلْمَـرْءِ مَـا قَـدْ رَاحَ يُحْسِنُــهُ فَـٱنْظُرْ لِنَفْسِـكَ وَٱفْخَـرْ فِيْ مَـآتِيْهَـا

« وأمّا بنعمة ربّك فحدّث »

يَــا صَاحِبِي لَا تُضِــعْ لِلَّهِ أَنْعُمَــهُ وَكُنْ لِقَـوْمِكَ بِـٱلشُّكْرَانِ مُبْـدِيْهَا(٢)
وَحَــدِّثَنَّ بِهَــا ٱلإِخْــوَانَ مُفْتَخِـرَاً مِنْ غَيْـرِ زَهْـوٍ وَحَـاذِرْ أَنْ تُـوَارِيْهَــا

« لم يذهب من مالك ما وعظك »

مَا ضَاعَ مَـالٌ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مُخْتَبِـرَاً بِـهِ ٱلْخَسَـائِـرَ وَٱلْأَرْبَـاحَ دَارِيْهَــا(٣)
إِنَّ ٱلْخِسَـارَةَ إِنْ تَذْهَى ٱلْفَتَى وَبِهَـا قَـدْ بَـاتَ مُتَّعِـظَاً فَـٱلـرِّبْحُ تَــالِيْهَـا

« البشاشة حبالة المودّة »

إِنَّ ٱلْمَــوَدَّةَ فَـٱعْلَمْ مَــا حِبَــالَتُهَــا إِلَّا ٱلْبَشَاشَةَ كُنْ صَـاحِ ٱلْمُهَيِّيْهَا(٤)

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « قيمة كلّ امرءٍ ما يحسنه » .

(٢) قال الله سبحانه في كتابه العزيز : ﴿ **وأمّا بنعمة ربّك فحدّث** ﴾ وقال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تضيّعنَّ نعمةً من نعم الله عندك ، وليُرَ عليك أثر ما أنعم الله به عليك » أقول ولا غروَ أن يتشابه القولان والمرتضى ربيب كتاب الله متأدّب بأدبه .

(٣) قال إمام الراشدين عليه السلام : « لم يذهب من مالك ما وعظك » .

(٤) قال أبو تراب عليه السلام : « البشاشة حبال المودة » .

وَصِـدْ بِهَـا أَنْفُسَاً تَخْشَى عَـدَاوَتَهَـا وَأَنْـفُسَـاً تَـتَمَنَّى أَنْ تُـصَـافِيْهَـا

« أيها الطبيب اشف نفسك »

إِنَّ آلَّـذِيْ يَتَصَـدَّى لِـلْإِمَـامَـةِ كَيْ يُعَلِّمَ آلنَّـاسَ أَوْ كَيْمَـا يُـرَبِّيْهَـا[1][2]
فَـنَفْسَـهُ أَوَّلاً يَبْـدَا بِـهَـا فَيُـرَبِّـيْهَا وَعَنْ كُـلِّ مَـا يُـزْرِيْ يُنَحِّيْهَـا
وَلْيَجْعَـلِ آلْمَثَلَ آلْمَحْمُـوْدَ سِيْـرَتَـهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَضْرِبَ آلْأَمْثَـالَ يَرْوِيْهَـا
إِنَّ آلَّـذِيْ نَفْسَـهُ رَبَّى لأَخْلَقُ بِـآلْإِ جْـلَالِ مِمَّنْ يُرَبِّي آلنَّـاسَ يَهْـدِيْهَـا

« خير الوصايا »

أُوْصِيْكَ يَا آبْنِيْ خِلَالاً لَوْ عَمِلْتَ بِهَا لَبِتَّ أَوْسَـعَ خَلْقِ آللَّهِ تَـرْفِيْهَـا[2]
لَا تَـرْجُوَنَّ سِـوَى بَارِيْـكَ مُضْـطَلِبَاً مِنْـهُ رَغَـائِبَـكَ آلْحَسْنَـا لِتُلْفِيْهَـا
وَلَا تَخَفْ غَيْـرَ مَا قَـدْ كُنْتَ جَـانِيَـهُ مِنَ آلـذُّنُوْبِ آلَّتِيْ مَـا فَـازَ جَـانِيْهَـا
لَا تَسْتَحِ آلْقَوْلَ لَا أَدْرِيْ إِذَا سَـأَلُوْ كَ عَنْ أُمُـوْرٍ بِحَقٍّ لَسْتَ تَـدْرِيْهَـا
وَسَـلْ بِـلَا وَجَـلٍ مَـا أَنْتَ جَـاهِلُهُ مِنَ آلْأُمُـوْرِ آلَّـذِيْ تَـدْرِيْـهِ وَاعِيْهَـا

---

(١) قـال سيد الـواعظين عليه السلام : « من نصب نفسـه للناس إمـاماً ، فعليـه أن يبدأ بتعليم نفسه ، قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته ، قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسـه ومؤدبها ، أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

(٢) قال سيف الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام : « أوصيكم بخمس ، لو ضربتم إليها آباط الإبل ، لكانت لـذلك أهـلاً ، لا يرجـونَّ أحد منكم إلاّ ربَّـه ، ولا يخافنَّ إلاّ ذنبه ، ولا يستحينَّ أحد منكم إذ سئل عمّـا لا يعلم ، أن يقول لا أعلم ، ولا يستحينَّ أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر فـإنَّ الصبر من الإيمـان ، كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه » .

وَقَـابِلَنَّ بِصَبْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ مَصَـا ئِبَ ٱلـزَّمَـانِ إِذَا يَـدْهَـاكَ دَاهِيْهَـا
هٰـذِيْ وَصَـايَـا أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى عُشَّـاقِهِ أَنْ يَعُـوْا غَـرًّا فَحَـاوِيْهَا
وَأَنْ يَؤُمُّـوْا عُـلَاهُ مُـرْتَجِيْنَ رِضَـا هُ مَـعْ شَفَـاعَتِـهِ وَهْـوَ ٱلْمُؤَدِّيْهَـا

« الهيبة والحيـاء »

مَنِ ٱسْتَحَى مِنْ تَقَاضِيْ حَقِّهُ لَشَكَى ٱلْحِرْمَانِ شَكْوَى أَخُوْ ٱلْحِرْمَانِ يَدْرِيْهَا[1]
وَمَنْ يَهَبْ دَهْـرَهُ مَـا نَـالَ حَـاجَتَـهُ وَخَابَ فِيْ كُلِّ رَجْـوَى رَاحَ رَاجِيْهَا

« الجبـــن منقصـــة »

إِنَّ ٱلشَّجَاعَةَ يَلْقَى ٱلْفَخْـرَ صَاحِبُهَـا مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يُمْسِيْ وَهْـوَ حَامِيْهَـا
وَٱلْجُبْنُ مَنْقَصَــةٌ فِيْ ٱلْمَـرْءِ تَجْعَلُهُ أَحَطَّ أَقْـرَانِـهِ أَدْنَـى أَدَانِـيْـهَـا[2]

« العقل والجهل والأدب والمشورة »

خَيْرُ ٱلْغِنَى ٱلْعَقْلُ مَا نَفْعُ ٱلْغَنِيِّ إِذَا مَـا كَانَ مُخْتَلِطَ ٱلْأَفْكَـارِ سَاهِيْهَـا[3]
وَٱلْجَهْلُ فَقْرٌ وَإِنْ كَانَ ٱلْجَهُوْلُ غَنِيّـــاً جَـامِعَـاً بُـدَرَ ٱلْأَمْـوَالِ قَـانِيْهَـا
وَإِنَّمَا ٱلْأَدَبُ ٱلْمَحْمُوْدُ أَفْضَلُ مَا ٱلْآ بَـاءُ قَـدْ وَرَّثَـتْ يَـوْمَـاً ذَرَارِيْهَـا

---

(١) قـال وصيّ المصطفى عليهمـا الصلاة والسـلام : « قرنت الهيبـة بـالخيبـة . والحياء بالحرمان » .

(٢) قال الإمام علي عليه السلام : « الجبن منقصة » .

(٣) قال سيدنا حيدرة عليه السلام : « لا غنى كالعقل ، ولا فقـر كالجهـل ، ولا ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاورة » .

وَإِنَّ مَشْوَرَةَ ٱلْإِخْوَانِ أَفْضَلُ عَوْ   نٍ لِلْعِبَادِ إِذَا نَقَّتْ مُشِيْرِيْهَا

« الإفراط والتفريط »

لَا تَسْرِفَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا رَشَدٍ   فِيْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِتَّ ٱلْمُعَانِيْهَا[1]

فَلَا تَرَى جَاهِلاً إِلَّا يُفَرِّطُ فِيْ   أَعْمَالِهِ أَوْ تَرَاهُ مُفْرِطاً فِيْهَا

« صروف الدهر »

يُجَدِّدُ ٱلدَّهْرُ فِيْ ٱلنَّاسِ ٱلرِّغَابَ وَيُخْـ   ـلِقُ ٱلْجُسُوْمَ فَتَدْنُوْ مِنْ تَلَاشِيْهَا[2]

وَهُوَ ٱلْمُقَرِّبُ لِلنَّفْسِ ٱلْمَنِيَّةَ إِذْ   يُنْئِيْ بِلَا رَحْمَةٍ عَنْهَا أَمَانِيْهَا

وَإِنَّ قَوْمَاً تَوَلَّاهَا لَقَدْ شَقِيَتْ   بِهِ وَإِنْ صَدَّ عَنْهَا فَهُوَ مُشْقِيْهَا

« المرء وعمله »

وَإِنَّمَا ٱلْحَسَبُ ٱلْمَوْرُوْثُ تَالِدُهُ   يَزْدَادُ بِٱلطَّارِفِ ٱلْمَكْسُوْبِ تَوْجِيْهَا

وَلَيْسَ يُسْرِعُ بِٱلْإِنْسَانِ سُؤْدُدُهُ   إِلَى ٱلْمَعَالِيْ ٱلَّتِيْ مَا ٱنْفَكَّ يَبْغِيْهَا[3]

إِنْ أَبْطَأَتْ وَهُوَ مِكْسَالٌ فَعَائِلُهُ   عَنْهَا بِهِ بَلْ بَعِيْدٌ أَنْ يُدَانِيْهَا

« المقلُّ غريب في بلدته »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَهْوَى ٱلْمَالَ تَعْبُدُهُ   كَأَنَّمَا هُوَ دُوْنَ ٱللَّهِ كَافِيْهَا

---

(١) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « لا ترى الجاهل إلّا مفرطاً أو مفرّطاً » .

(٢) قال حيدرة عليه السلام : « الدهر يخلق الأبدان ، ويجدّد الآمال ، ويقرّب المنية ، ويباعد الأمنية ، من ظفر به نصب ، ومن فاته تعب » .

(٣) قال سيدنا أبو الحسن عليه السلام : « من أبطأ به عمله ، لم يسرع به حسبه » .

تَجْفُـوْ ٱلْفَقِيْرَ وَتَحْفَى بِـٱلسَّـرِيِّ وَلاَ تَهُمُّهَــا غَيْـرُ أَنْ تَــدْنُـوْ لِمُثْــرِيْهَــا
فَكَمْ غَنِيٍّ يَـرَى فِيْ وَسْطِ غُـرْبَتِــهِ أَحِبَّــةً تَتَمَنَّـى لَــوْ يُـصَــافِيْهَــا
وَكَمْ مُقِــلٍّ غَــرِيْــبٍ وَسْط بَلْدَتِــهِ مَـا مِنْ صَدِيْقٍ لَـهُ مَا بَيْنَ أَهْلِيْهَـا(١)

« المبذرون إخوان الشياطين »

مَا بَيْنَ بُخْلِ ٱلْفَتَى بُخْـلاً يُشَانُ بِـهِ وَبَيْنَ تَبْـذِيْـرِهِ ٱلْأَمْـوَالَ يُفْـنِيْـهَــا
تَــٱللَّهِ مَـرْتَبَــةٌ وُسْـطَى يَنَــالُ بِهَــا مَفَـاخِراً ذُوْ ٱلْحِجَى وَٱلـدِّيْنِ يَبْغِيْهَـا
فَـلاَ تَدَعْ يَـدَاكَ ٱلْمَلْأَى بِـأَصْفَـرِهَـا لِلْعُنْقِ مَغْلُوْلَــةً شُحّـاً بِمَــا فِيْهَـا(٢)
وَلاَ تَكُنْ مُسْـرِفَـاً لِلنَّـاسِ تَبْسُطُهَـا فَــإِنَّ بَسْـطَتَهَــا مَــا ٱللَّهُ رَاضِيْهَــا
وَٱلْمُسْـرِفُـوْنَ لَإِخْــوَانٌ بِغَيْـرِ جِــدَا لٍ لِلشَّيَاطِيْنِ فَٱحْـذَرْ أَنْ تُؤَاخِيْهَا(٣)
وَكُنْ سَمُـوْحَـاً وَحَـاذِرْ أَنْ تَكُـوْنَ مُبَــــذِّراً بِجَـدْوَاكَ إِنْ وَافَـاكَ رَاجِيْهَـا(٤)
وَلاَ تُـقَتِّــرْ وَقَــدِّرْ مَــا تَـجُـوْدُ بِــهِ عَلَى ٱلْعَــوَافِيْ فَتَهْنَــا ثُمَّ تُهْـنِيْـهَــا

---

(١) قال أستاذ البلغاء وأمير النصحاء عليه السلام : « المقلُّ غريب في بلدته » .

(٢) قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيـز : ﴿ **ولا تجعل يـدك مغلولةً إلى عنقـك ، ولا تبسطها كلَّ البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ .

(٣) قال الله سبحانه في هديه : ﴿ **إنّ المبذرين ،كانوا إخوان الشيـاطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً** ﴾ .

(٤) قـال سيـدنــا أميـر المؤمنين عليه السلام : « كن سمحــاً ، ولا تكن مبـذراً ، وكن مقدراً ، ولا تكن مقتراً » .

« إذا لم يكن ما تريد فلا تبلُ كيف تكون »

إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَا آبْنِيْ مَا أَنْتَ رَاغِبُهُ فَـلاَ تُبَـالِ بِحَـالٍ كَيْفَ تُلْفِيْهَـا[1]
فَـإِنَّمَـا يَغْلِبُ آلْأَيَّـامَ يَقْـهَـرُهَـا مَنْ رَاحَ يَـرْضَى وَلاَ يَجْفُـوْ مَـآتِيْهَـا

« الشكوى لغير الله مذلة »

أَنْ نَالَكَ آلدَّهْرُ يَوْمَاً بِآلْمَصَائِبِ فَآكْـ ـتُمْهَـا وَلاَ تَكُ لِـلْإِخْوَانِ مُبْـدِيْهَا[2]
فَـإِنَّ مَـنْ نَـالَـهُ ضَـرٌّ وَأَظْـهَـرَهُ فَقُـلْ مَـذَلَّتُـهُ قَـدْ بَـاتَ رَاضِيْهَـا
وَكُـلُّ شَكْـوَى لِغَيْـرِ آللَّهِ ذَاهِبَـةٌ سُدَىً وَمَا نَالَ غَيْرَ آلذُّلِّ شَاكِيْهَـا[3]

« من حذَّرك كمن بشرك »

إِنَّ آلَّـذِيْ جَاءَ بِـآلتَّحْذِيْـرِ يَطْلُبُ أَنْ يُنْجِيْـكَ مِنْ غِيَـرِ آلْأَيَّـامِ تَتْقِيْهَـا[4]
كَمَنْ يَجِيْئُـكَ بِـآلتَّبْشِيْـرِ يَـطْلُبُ أَنْ تَهْنَـا بِنُعْمَى وَشِيْـكٌ أَنْ تُـلاَقِيْهَـا
بَـلِ آلْمُحَذِّرُ مَـا فَـوْقَ آلْمُبَشِّـرِ إِحْـ ـسَانَـاً بِقَـوْلَـةِ صِـدْقٍ رَاحَ مُلْقِيْهَـا

---

(١) قـال سيد الـوعّاظ والمـرشدين عليه السلام : « إذا لم يكن مـا تريـد فلا تبـلُ كيف تكـون » وهذا القـول العلوي الشـريف لقـد جهـل الكثيـرون مغـزاه وهم يحفـظون عن الحكمـاء قـولهم : « إذا لم يكن مـا تـريـد فـأرد مـا يكـون » على أن قـول سيـدنـا علي عليه السلام أبعد مرمى وأبلغ نصحاً ومعناه إذا لم يكن لك يا صاح ما تـريده فـلا تبلُ أي لا تكترث بالحال التي تكون فيها مهما صعبت ولا تحمل لذلك هماً .

(٢) قال سيدنا علي عليه السلام : « رضي بالذل من كشف ضرَّه » .

(٣) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « الشكوى لغير الله مذلة » .

(٤) قال سيدنا المرتضى عليه السلام : « من حذَّرك كمن بشرك » .

بِهَــا ٱلْفَتَى يَتَـلَافَى دَاهِمَــاتِ أَذَىً   لَـوْلَا مُحَــذِّرُهُ صَعْبٌ تَـلَافِيْـهَــا

« ذوو المروات »

ذَوُوْ ٱلْمَـرُوْآتِ أَهْـلٌ لِاحْتِـرَامِ عِبَـا   دِ ٱللَّهِ يُكْـرِمُهُمْ تَـاٱلـلَّهِ تَـاقِيْـهَــا
فَــإِنْ هُمُ عَثِـرُوْا لَا شَـكَّ عَثْـرَتُهُمْ   تُقَــالُ وَٱللَّهُ رَاضٍ عَنْ مُقِيْلِيْهَــا[١]
وَإِنَّ عَــاثِــرَهُمْ بَــارِيْــكَ يُنْهِضُــهُ   مِنْ هَـوْلِ عَثْـرَتِـهِ حَتَّى يُخَطِّيْهَــا

« البخـــل عـــار »

جُـدْ بِٱلنِّضَـارِ فَـإِنَّ ٱلْجُـوْدَ مَحْمَـدَةٌ   وَأَفْضَـلُ ٱلنَّاسِ عِنْـدَ ٱللَّهِ سَاخِيْهَـا
وَٱلْبُخْلُ عَارٌ وَرَبُّ ٱلْبُخْلِ عُرْضَةُ لَوْ   كِ ٱلنَّاسِ فَلْيَحْذَرِ ٱلْمِثْرِيُّ لَاكِيْهَا[٢]

« الفقير أخرس »

إِذَا أَتَــاكَ أَخُــوْ عِسْــرٍ بِحَــاجَتِـهِ   فَكُنْ وَإِنْ لَمْ يَجُـلْ فِيْهَــا مُلَبِّيْـهَــا
فَٱلْفَقْرُ يُخْرِسُ عَنْ حَاجَاتِهِ ٱلْفَطِنَ ٱلْــــمِلْسَانَ فَهْـوَ لَعِيٌّ فِيْ تَـرَجِّيْهَــا[٣]

« دوام النعـــم »

إِنْ كَــانَ رَبُّـكَ قَــدْ أَوْلَاكَ نِعْمَتَــهُ   وَلَمْ تَكُنْ طَائِعَاً يَـا صَاحِ مُـوْلِيْهَا[٤]

---

(١) قــال سيف الله الغالب علي بن أبي طــالب عليه السلام : « أقيلوا ذوي العثـرات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر ، إلّا ويده بيد الله يرفعه » .

(٢) قال أخو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « البخل عار » .

(٣) قال إمام الحكماء عليه السلام : « الفقير أخرس » .

(٤) قال سيد الناصحين عليه السلام : « يا ابن آدم ، إذا رأيت ربّـك سبحانـه وتعالى ، يتابع عليك نعمه ، وأنت تعصيه ، فاحذره » .

فَاحْذَرْهُ لاَ تَتَمَادَى فِيْ ٱلْعَصَاوَةِ فَالـــرَّحْمٰنُ يُحْرِمُكَ ٱلنُّعْمَى وَيُقْصِيْهَـا

« التكفيـر عن الذنـوب »

غِثْ يَا أَخَا ٱلْفَضْلِ مَلْهُوْفاً وَكَرْبَتَهُ نَفِّسْ وَحَقِّقْ مُنَى قَدْ جَاءَ يُسْدِيْهَا[١]
بِــذَا تُكَفِّرُ عَنْ شَتَّى ذُنُــوْبِكَ عِنْـــدَ ٱللَّهِ حَاضِرِهَا ٱلْمُخْزِيّ وَمَاضِيْهَا

« الصــبر شجــاعة »

أُصْبُرْ عَلَى مَضَضِ ٱلْأَيَّامِ صَبْرَ كَرِيْـــمٍ حَازِمٍ لَمْ يَهَبْ فَاجِيْ لَيَـالِيْهَـا
فَـإِنَّمَـا أَشْجَـعُ ٱلشُّجْعَانِ أَصْبَـرُهَـا عَلَى ٱلْمَكَارِهِ قَاسِيْهَا وَدَاهِيْهَـا[٢]

« انتهـاز الفــرص »

بَادِرْ إِلَى فُرَصِ ٱلْخَيْرَاتِ مَا سَنَحَتْ وَلاَ تَنَمْ يَـا ٱبْنَ وُدِّيْ عَنْ تَـوَلِّيْهَـا
فَـإِنَّمَـا فُـرَصُ ٱلْخَيْـرَاتِ أَسْـرَعُ مَـا تَمُـرُّ مَرَّ سِحَابِ ٱلْأُفْقِ صَيْفِيْهَـا[٣]

مســك الختــام

يَا أُمَّةَ ٱلْمُصْـطَفَى يَا مَنْ أَعِيْشُ لَهَـا وَلَسْتُ أَرْغَبُ إِلاَّ فِيْ تَـعَـالِيْـهَـا
إِلَيْـكِ مَلْحَمَتِيْ بِـٱسْمِ ٱلْمُعِـزِّ أَمِيْـــرِ ٱلْعُـرْبِ قَدْ جُلِيَتْ غَـرًّا قَـوَافِيْهَـا

---

(١) قال الإمام علي عليه السلام : « من كفّارات الذنوب العظام ، إغاثة الملهوف ، والتنفيس عن المكروب » .

(٢) قال سيدنا ومولانا سيف الله الغالب عليه السلام : « الصبر شجاعة » .

(٣) قال سيدنـا المرتضى عليه السلام : « الفـرصة تمـرُّ مرَّ السحـاب ، فانتهـزوا فرص الخير » .

جَمَعْتُ فِيْهَا حَدِيْثاً كُلُّهُ عِبَرٌ   تُفِيْدُ قَارِءَهَا رُشْداً دَرَارِيْهَا
مُبَيِّناً كَيْفَ قَدْ نَادَى ٱلرَّسُوْلُ إِلى ٱلْـ   ـهُدَى ٱلْخَلَائِقَ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا
وَكَيْفَ قَدْ نَاوَءَتْ بِٱلْجَهْلِ دَعْوَتَهُ   قُرَيْشُ وَهْوَ ٱبْنُهَا لِلْخَيْرِ دَاعِيْهَا
وَكَيْفَ قَدْ أَعْرَضَتْ عَنْ نُوْرِ شِرْعَتِهِ   لَمَّا أَضَاءَ لِتَبْقَى فِيْ دَيَاجِيْهَا
وَكَيْفَ بِٱلصَّبْرِ قَدْ دَاسَ ٱلْمَصَاعِبَ حَتَّـ   ـى ٱلْحَقُّ أَزْهَقَ فِيْ ٱلدُّنْيَا ٱلتَّرَارِيْهَا
وَكَيْفَ كَانَ جِهَادُ ٱلْمُخْلِصِيْنَ عَظِيْـ   ـماً فِيْ نَتَائِجِهِ ٱلْبَادِيْ تَجَلِّيْهَا
وَكَيْفَ كَانَ عَلِيٌّ خَيْرَ صَحْبِ رَسُوْ   لِ ٱللّٰهِ يَلْقَى أَعَادِيْهِ وَيُفْنِيْهَا
وَإِنَّ آثَارَهُ فِيْ ٱلدِّيْنِ خَالِدَةٌ   عَلى ٱلْمَدَى خَيَّبَ ٱلْبَارِيْ مُضِيْعِيْهَا
فَمَنْ تَدَبَّرَ حِرْمَانَ ٱلْوَصِيِّ حُقُوْ   قَهُ ٱلَّتِيْ ٱلشَّرْعُ رَاضِيْهَا وَمُمْضِيْهَا
وَصَبْرَهُ وَهْوَ مَظْلُوْمٌ عَلى غِيَرِ ٱلْأَ   يَّامِ حَتَّى غَدَا تَٱللّٰهِ مُعْيِيْهَا
وَظَلَّ أَصْدَقَ أَهْلِ ٱلدِّيْنِ أَجْمَعِهِمْ   سَعْيَاً لِأُمَّتِهِ يَبْغِيْ تَرَقِّيْهَا
هَانَتْ عَلَيْهِ حُقُوْقٌ مِنْهُ ضَائِعَةٌ   بِنَفْسِ حُرٍّ تَنَاهَتْ فِيْ تَفَانِيْهَا
نَعَمْ فَأُسْوَتُنَا بِٱلصَّبْرِ حَيْدَرَةٌ   وَكُلُّ نَفْسٍ بِهِ تُلْفِيْ تَأَسِّيْهَا
كَذَاكَ قَدْ كَانَ بِٱلْإِقْدَامِ قُدْوَتَنَا   عَلى ٱلصِّعَابِ فَلَمْ يَرْهَبْ تَوَلِّيْهَا
فَلْنَتَّبِعْ خَطَوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى لِنَنَا   لَ ٱلْمَجْدَ مَا نَالَهُ إِلَّا مُخَطِّيْهَا
وَيَا بَنِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَجْوَادِ زَادَكُمُ   رَبِّيْ بِنَهْضَتِكُمْ مَجْداً وَتَجْوِيْهَا
أَرَدْتُ خَيْرَكُمُ فِيْ نَظْمِ مَلْحَمَتِيْ   وَهَا إِخَالُكُمْ تَسْتَنْشِدُوْنِيْهَا

استدراك واعتذار ورجاء

لا يـدرك الشـوق إلاّ من يكـابـده ولا الـصبـابـة إلاّ مـن يعـانـيهـا

توليت الإشراف على طبع هذه القصيدة المباركة بالشكل الكامل بنفسي وفي أثناء رجوعي إليها رجوعاً أبدل شكلها تمـاماً عمّـا نشرتـه منها في العمـران وضاعف فصـولها وأبياتها ولذلك ما استطعت مـع كل مـا بذلت من الجهـد إخراجهـا سليمةً من الأغـلاط المطبعية أو الأغلاط التي ذلَّ بها القلم من غير انتباه لتراكم العمل عليَّ بين نظم وتأليف ومراجعة التواريخ العـديدة وتبييض وتصحيـح الأمثلة الأولى قبل الـطبع ومـا كان يتعـذَّر عليَّ الـرجوع إلى هـذه الأغلاط وتصحيحهـا بجـدول على مـا يفعـل غيـري لـولا أنني وجدت العمل يستغرق وقتاً آخر لا متسع أمامي له وما هذه الأغلاط بذات شأنٍ جوهـري بـل أكثرهـا بديهيـة يدركهـا القارىء اللبيب عنـد مروره عليهـا وجلّهـا أغـلاط في بعض الحركات حدث معظمها عن سقوطها أو كسرهـا وتصرّف العـامل بـوضع بـدلها من غيـر مراجعتي ومنها مـا فات عليَّ أنـا ولا نكران للحقّ وجـلَّ من لا يخطىء وأنني لأرجـو أن تكون الطبعة التالية أكثر دقةً وأوفرَ صحةً سواءً في الأغلاط المطبعيـة أو غير المـطبعية أو فيما فاتني من المواضيع التاريخية ولا سيما في التراجم .

ولا بدَّ لي من استلفات أنظار أهل الفضـل إلى حقيقة يخلق الجهـر بها وهي أنني كنت أنظم هذه القصيـدة المباركـة وأعلق حواشيهـا بروح إخـلاص وصداقـة منزَّهـة عن جميع المؤثّرات الأخرى التي يتعرَّض لها الآخرون فإذا تدبر المنصفون هذا أصاغـوا لي عـذراً إذا ما رأوا فيمـا ذهبت إليه مـا يخالف أهـواءَهم وأغراضهم والكـريم يعـذر والله سبحانه من وراء النيات ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها .

ثمَّ إنّني أرجـو كـلَّ منصفٍ غيـور من أهـل العلم والأدب وحفـظة التـاريـخ أن لا يبخلوا عليَّ بنقد هذه القصيـدة المباركـة من الوجهتين الأدبيـة والتاريخيـة لاستدراك مـا

فـاتني في طبعة أخـرى تكـون أتمَّ من هـذه وأدقَّ إن شـاء الله وإنّي لـو الله لأستحي من الحق إذا عرفته أن لا أرجـع إليه والحقَّ حبيب الله وإنّي على أتمّ استعـداد لنشر مـا يرد عليَّ من النقد على صفحات جـريدتي العمـران على شرط أن يكـون خاليـاً مما اعتـاده بعضهم من اللغـو فقد اعتـدت أن أمرَّ على اللغـو مرّ الكرام «وإنّي أُذكّر النـاقـدين بـأنّ الحقيقة بنت البحث » وعندي أنّه لا يطمس معالمها شيء مثل المخزر والهزيان .

وكـان الفـراغ من طبـع هـذه العلويـة المبـاركـة في يـوم الاثنين ١٦ رجب الفـرد سنة ١٣٣٨ للهجرة الموافق إڤريل (نيسان) سنة ١٩٢٠ مسيحية في مدينة مصر القاهـرة عاصمة السلطنة المصرية .

عبد المسيح الأنطاكي

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تعريف بالملحمة وصاحبها	٥
المقدمة	٩
رؤيا روحية وتجليات سنية	١٣
إلى العتبات الحيدرية	١٧
على أبواب العلوية المباركة	١٧
الإستعانة بأمير المؤمنين	١٨
كيف اعتاد العرب إفتتاح قصائدهم	١٩
الأمة التي نبغ منها أمير المؤمنين	٢٠
شيء عن جزيرة العرب	٢٥
الشعر العربي	٢١
أخلاق العرب	٢٩
تاريخ قريش	٣٣
أديان العرب	٤١
حسب أمير المؤمنين ونسبه	٤٢
والد أمير المؤمنين	٤٤
ترجمة أبي طالب وأولاده	٤٤
والدة أمير المؤمنين	٥٠
ترجمة والدة أمير المؤمنين	٥٢
ولادة أمير المؤمنين	٥٢
تربية أمير المؤمنين	٥٣
حضانة المصطفى لأمير المؤمنين	٥٤
حديث أمير المؤمنين عن نشأه	٥٥
خطبة أمير المؤمنين	٥٦
أمير المؤمنين ومعجزة الشجرة	٥٩
رواية أمير المؤمنين عن معجزة الشجرة	٥٩
سبق أمير المؤمنين بالإسلام	٦٢
زواج المصطفى بخديجة وترجمتها	٦٦
أمير المؤمنين وإظهار الدعوة	٧١
كيف أظهر المصطفى الدعوة لبني هاشم	٧١
أمير المؤمنين والهجرة	٧٥
اضطهاد قريش لبني هاشم	٧٦
المصطفى يعرض نفسه على القبائل	٧٨
بيعة أهالي المدينة للمصطفى	٧٩
مؤامرة قريش على المصطفى	٨٢
نوم المرتضى في فراش المصطفى	٨٣
هجرة المصطفى إلى المدينة المنورة	٨٣

الموضوع	الصفحة
أمير المؤمنين وتآخي المسلمين	٨٧
المصطفى في طريقه إلى المدينة المنورة	٨٧
كلمة عن أبي أيوب الأنصاري	٨٨
تاريخ المدينة المنورة	٨٨
كلمة عن الحرم المدني	٩٠
كلمة في الأوس والخزرج	٩٣
كلمة في الأخوَّة الإسلامية	٩٤
تكنية أمير المؤمنين بأبي تراب	٩٥
قران فاطمة الزهراء بأمير المؤمنين	٩٨
بنات المصطفى	٩٨
منزلة فاطمة الزهراء عند المصطفى	٩٩
كيفية زواج المرتضى بسيدتنا فاطمة	١٠٠
كيف عقد المرتضى على فاطمة الزهراء	١٠١
أمير المؤمنين والغزوات النبوية	١٠٥
كلمة في التوحيد الإسلامي	١٠٦
كيف شرع القتال في الإسلام	١٠٨
أمير المؤمنين في غزوة بدر الكبرى	١١١
تلخيص الغزوات النبوية التي قبل بدر	١١٢
خلاصة ما كان في غزوة بدر الكبرى	١١٣
أمير المؤمنين في غزوة أُحُد	١١٥
تلخيص الغزوات التي كانت بين بدر وأُحُد	١١٥
قتل كعب بن الأشرف	١١٦
خلاصة ما كان في غزوة أُحُد	١١٧
أمير المؤمنين وغزوة بني النضير	١٢٠
أمير المؤمنين في غزوة الخندق	١٢٣
تلخيص الغزوات بين النضير والخندق	١٢٤
خلاصة ما كان في غزوة الخندق	١٢٥

الموضوع	الصفحة
قتل المرتضى عمر بن ودّ	١٢٦
كلمة عن عمرو بن ودّ	١٢٦
أمير المؤمنين في يوم الحديبية	١٣٢
الحجُّ قبل الإسلام	١٣٢
كيف يحجُّ المسلمون	١٣٣
أمير المؤمنين في غزوة خيبر	١٤٢
ما كان من نتائج صلح الحديبية	١٤٣
خلاصة غزوة خيبر	١٤٩
أمير المؤمنين وأبو سفيان	١٥٠
مسير المصطفى للحج	١٥٠
غزوة مؤتة	١٥١
مسير أبو سفيان إلى المدينة المنورة	١٥٢
كلمة عن الأسرة العلوية الطاهرة	١٥٦
أمير المؤمنين في فتح مكة	١٥٨
تاريخ مكة المكرمة	١٥٨
المزارات في مكة اليوم	١٦٠
إلغاء صلح الحديبية	١٦٣
خروج المصطفى لفتح مكة	١٦٤
فتح مكة المكرمة	١٦٨
عفو المصطفى عن كفار قريش	١٦٩
تحطيم أصنام الكعبة	١٦٩
ترجمة أبي سفيان	١٧٣
تاريخ الكعبة المكرمة ووصفها	١٧٥
أمير المؤمنين يصلح ما أفسده خالد	١٨٤
سرية خالد بن الوليد لبني جذيمة	١٨٥
ترجمة خالد بن الوليد	١٨٥
أمير المؤمنين يهدي اليمانيين	١٨٥
أعمال المصطفى الحربية بعد فتح مكة	١٨٦

الموضوع	الصفحة
إرسال خالد بن الوليد إلى همدان	١٨٦
هداية همدان على يد أمير المؤمنين	١٩١
كلمة في بني قحطان	١٩٢
أمير المؤمنين يحطم صنم طيء	١٩٥
ترجمة حاتم الطائي	١٩٥
حملة أمير المؤمنين على طيء	٢٠١
أمير المؤمنين في غزوة تبوك	٢٠٢
إجمال ما كان في غزوة تبوك	٢٠٣
تخلف أمير المؤمنين عن غزوة تبوك	٢٠٣
أمير المؤمنين في حجة أبي بكر	٢٠٥
حجة أبي بكر على عهد المصطفى	٢٠٦
إرسال البراءة مع أمير المؤمنين	٢٠٦
حج المشركين بعد فتح مكة	٢٠٦
أمير المؤمنين يهدي مذحج	٢٠٨
نجاح أمير المؤمنين في هداية مذحج	٢٠٨
حجة الوداع	٢٠٩
وصاية المصطفى للمرتضى في غدير خم	٢١٠
أمير المؤمنين في مرض المصطفى ووفاته عليهما الصلاة والسلام	٢١٧
مرض المصطفى	٢١٨
وفاة المصطفى	٢٢١
غسل المصطفى وتكفينه	٢٢١
دفن المصطفى	٢٢١
دفن المصطفى وتربته الشريفة	٢٢١
عرض الخلافة على أمير المؤمنين	٢٢٣
نسب رسول الله	٢٢٤
أزواج المصطفى	٢٢٥

الموضوع	الصفحة
أولاد المصطفى	٢٢٦
كتاب المصطفى	٢٢٦
شعراء المصطفى	٢٢٧
أشهر الحوادث التي تمت في حياة المصطفى	٢٢٧
أمير المؤمنين في خلافة أبي بكر	٢٣٦
سرية أسامة بن زيد	٢٣٦
اجتماع قريش في سفينة سعد	٢٣٩
بيعة أبي بكر	٢٣٩
إباء أمير المؤمنين مبايعة أبي بكر	٢٣٩
ترجمة أبي بكر	٢٤٠
أمير المؤمنين في وفاة فاطمة الزهراء	٢٤٤
حزن فاطمة الزهراء ووفاتها	٢٤٥
تربة فاطمة الزهراء	٢٤٦
أمير المؤمنين وخلافة عمر	٢٤٨
عهد أبي بكر بالخلافة لعمر	٢٤٩
مدفن أبي بكر	٢٥٠
تلقيب عمر بأمير المؤمنين	٢٥٠
أمير المؤمنين في خلافة عمر	٢٥٤
رأي أمير المؤمنين في عمر	٢٥٥
النزاع على الخلافة	٢٥٦
عمر في دار أمير المؤمنين	٢٥٦
ترجمة عمر بن الخطاب	٢٥٧
لماذا ترك عمر الخلافة شورى	٢٦١
أمير المؤمنين والتاريخ الهجري	٢٦٢
كيف وضع التاريخ الهجري	٢٦٢
أمير المؤمنين في خلافة عثمان	٢٦٤
مقتل عمر بن الخطاب	٢٦٥

الموضوع	الصفحة
وصية عمر بالشورى	٢٦٨
وفاة عمر	٢٦٨
المملكة الإسلامية على عهد عمر	٢٦٨
الشورى بعد عمر	٢٦٩
بيعة عثمان	٢٧٠
ترجمة أبي عبيدة بن الجراح	٢٧١
ترجمة عبد الرحمن بن عوف	٢٧٢
ترجمة سعد بن أبي وقاص	٢٧٤
أمير المؤمنين في مقتل عثمان	٢٧٨
أسباب التقمقم على خلافة عثمان	٢٧٨
كلمة في أبي ذر ونفيه	٢٨٢
الثورة على عثمان	٢٨٤
مقتل عثمان بن عفان	٢٩٨
كلمة انتقاد إلى الشيخ محمد الخضري	٢٩٨
ترجمة عثمان بن عفان	٣٠٣
مصحف عثمان	٣٠٥
ترجمة مروان بن الحكم	٣٠٦
خلافة أمير المؤمنين	٣١٣
كلمة في سيدنا أمير المؤمنين يوم بيعته	٣١٣
الثائرون بعد مقتل عثمان	٣١٤
كبار المهاجرين بعد مقتل عثمان	٣١٥
زعماء الأمويين بعد مقتل عثمان	٣١٥
كيفية بيعة أمير المؤمنين	٣١٦
خطط أمير المؤمنين في خلافته	٣٢٣
حال الخلافة عندما تولاها أمير المؤمنين	٣٢٣
أول مشاكل خلافة أمير المؤمنين	٣٢٨
شرح أسباب الانتقاض على سيدنا علي	٣٣٢
رؤساء أعداء أمير المؤمنين	٣٣٧
ذكر هؤلاء الرؤساء وسبب عداوتهم	٣٣٧
عداء عائشة لأمير المؤمنين	٣٣٩
حيرة الناس في عداء عائشة	٣٣٩
عداء طلحة والزبير لأمير المؤمنين	٣٤٢
شيء عن طلحة والزبير	٣٤٢
عداء معاوية لأمير المؤمنين	٣٤٧
شيء عن عداء معاوية	٣٤٧
ابتداء النزاع بين معاوية وعلي	٣٥١
تراسل بنو أمية ومعاوية بعد مقتل عثمان	٣٥١
إعلان معاوية عداء أمير المؤمنين	٣٥٢
مسير أصحاب الجمل إلى البصرة	٣٥٢
مسيرة عائشة لمكة قبل مقتل عثمان	٣٦٢
مسير طلحة والزبير بعائشة إلى البصرة	٣٥٩
اجتماع طلحة والزبير وعائشة على عداء علي	٣٦٢
مسيرهم إلى البصرة	٣٦٢
عائشة وماء الحوأب	٣٦٣
أصحاب الجمل على أبواب البصرة	٣٦٤
دخول أصحاب الجمل البصرة عنوةً	٣٦٥
مسير أمير المؤمنين إلى البصرة	٣٦٨
تهيؤ أمير المؤمنين للسير إلى البصرة	٣٦٩
وفود العرب على أمير المؤمنين	٣٧٠
في طريقه إلى البصرة	٣٧٣
مدد الكوفيين لأمير المؤمنين	٣٧٣
استنفار أمير المؤمنين الكوفيين للحرب	٣٧٤
ما كان من أمر أبي موسى في الكوفة	٣٧٥
وصول مدد الكوفيين لأمير المؤمنين	٣٧٧

الموضوع	الصفحة
مقابلة أمير المؤمنين لطلحة والزبير	٣٧٨
حقيقة غرض أمير المؤمنين من اللحوق بأصحاب الجمل	٣٧٨
ماكان بين أمير المؤمنين وطلحة والزبير	٣٨٣
إعراض الزبير عن أصحاب الجمل حرج موقف الزبير	٣٨٣
إصرار أصحاب الجمل على الزبير للبقاء معهم	٣٨٥
بدء واقعة الجمل	٣٨٥
كيف ابتدأت موقعة الجمل	٣٨٦
فرار الزبير من الحرب	٣٨٦
انتصار أمير المؤمنين في موقعة الجمل	٣٨٧
إغراء طلحة أصحاب الجمل على حرب أمير المؤمنين	٣٨٨
اشتداد موقعة الجمل	٣٨٨
هلاك الجمل وانتصار أمير المؤمنين	٣٩٠
دخول أمير المؤمنين البصرة	٣٩١
مصير الزبير بن العوام	٣٩٣
فرار الزبير ومقتله وقاتله	٣٩٤
ترجمة الزبير	٣٩٩
ترجمة عبد الله بن الزبير	٤٠١
مصير طلحة بن عبد الله	٤٠٧
كلمة في طلحة وعدائه لعثمان	٤٠٧
ترجمة طلحة	٤٠٨
مصير عائشة أمّ المؤمنين	٤١٢
ماكان من أمر عائشة بعد الجمل	٤١٣
رجوع عائشة للمدينة بطريق مكة	٤١٣
ترجمة عائشة	٤١٤

الموضوع	الصفحة
مراقبة معاوية لموقعة الجمل	٤١٧
معاوية وموقعة الجمل	٤١٧
أمير المؤمنين ومعاوية	٤٢٠
دخول أمير المؤمنين الكوفة	٤٢٠
إرسال أمير المؤمنين رسوله لمعاوية	٤٢١
رسول أمير المؤمنين عند معاوية	٤٢١
كلمة في الخلافة	٤٢٢
معاوية وعمرو بن العاص	٤٢٥
إرتباك معاوية في أمره بعد الجمل	٤٢٥
دعوة معاوية لابن العاص	٤٢٦
انضمام ابن العاص لمعاوية	٤٢٧
ترجمة عمرو بن العاص	٤٢٨
معاوية يعلن العصيان	٤٣٤
كيف أعلن معاوية العصيان	٤٣٤
بيعة أهل الشام لمعاوية	٤٣٦
رد معاوية رسول أمير المؤمنين	٤٣٦
ترجمة جرير رسول أمير المؤمنين لمعاوية	٤٣٦
مسير أمير المؤمنين إلى الشام	٤٣٨
كيف دخل أمير المؤمنين الكوفة	٤٤٠
كيف سار أمير المؤمنين إلى الشام	٤٤٠
رجوع الشمس لأمير المؤمنين	٤٤١
إشارة أمير المؤمنين لفاجعة كربلاء	٤٤٢
عظة أمير المؤمنين للدهاقين	٤٤٢
إخراج أمير المؤمنين الماء من الصخرة	٤٤٤
شيء عن الرقة والبليخ	٤٤٥
شهادة الراهب لأمير المؤمنين	٤٤٦
مسير معاوية للقاء جيش العراق	٤٤٧

الموضوع	الصفحة
نصائح عمرو بن العاص لمعاوية	٤٤٧
تخوّف أهل الشام من محاربة أمير المؤمنين واضطرابهم	٤٤٨
موضع موقعة صفين وتاريخها	٤٥٠
شيء عن موضع صفين	٤٥٠
مقدمات موقعة صفين	٤٥١
ابتداء موقعة صفين	٤٥١
كيف ابتدأت موقعة صفين	٤٥٢
هدنة محرم سنة ٣٧ هجرية	٤٥٤
كيف كانت الهدنة	٤٥٤
الأشهر الحرم	٤٥٤
تحريم النسيء	٤٥٦
عودة الحرب في صفر	٤٥٧
فشل المساعي السلمية لنهو القتال	٤٥٧
اشتباك الموقعة	٤٦١
أمير المؤمنين يطلب مبارزة معاوية	٤٦٤
هجوم أمير المؤمنين على معسكر معاوية	٤٦٤
إحجام معاوية عن مبارزة أمير المؤمنين	٤٦٤
ترجمة عمار بن ياسر	٤٦٥
مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص	٤٦٩
ظهور غلبة جيش أمير المؤمنين	٤٧٠
ليلة الهرير	٤٧١
مؤامرة عمرو بن العاص	٤٧٢
رفع المصاحف وطلب التحكيم	٤٧٣
تأثير رفع المصاحف على أصحاب علي	٤٧٥
مذاكرة أمير المؤمنين أصحابه	٤٧٥
الخلاف في جيش أمير المؤمنين	٤٧٥
رأي أمير المؤمنين في التحكيم	٤٧٦
الشغب في جيش أمير المؤمنين	٤٧٧
كيف حدث ذلك الشغب	٤٧٧
إكراه أمير المؤمنين على قبول التحكيم	٤٧٨
ترجمة الأشتر	٤٧٩
العهد العلوي البديع للأشتر	٤٨٠
الرضاء بالتحكيم	٤٩٦
إعلان الهدنة والرضاء بالتحكيم	٤٩٧
تعيين الحكمين	٤٩٨
كيف كان تعيين الحكمين	٥٠٠
ترجمة الأشعث	٥٠١
صحيفة الهدنة	٥٠٥
صورة صحيفة الهدنة	٥٠٥
إنكار تلقيب سيدنا علي بأمير المؤمنين	٥٠٨
تأثير الحكومة على الناس	٥٠٩
رضاء أصحاب معاوية بالحكومة	٥١٠
إباء أصحاب علي الحكومة	٥١١
رفض أمير المؤمنين نكث العهد	٥١١
الحكمان	٥١٢
كيف ودع الأشعري أصحاب علي	٥١٣
كيف ودع ابن العاص أصحاب معاوية	٥١٤
تشيع الأشعري لعمر بن الخطاب	٥١٥
إعلان حكم الحكمين	٥١٨
ما كان أمر الحكمين في دومة الجندل	٥١٨
إعلان الحكم وشغب أصحاب علي	٥٢٠
معاوية بعد نبأ التحكيم	٥٢٤
عمرو بن العاص بعد التحكيم	٥٢٤
أمير المؤمنين بعد نبأ التحكيم	٥٢٥
خطاب أمير المؤمنين بعد التحكيم	٥٢٦

الموضوع	الصفحة
قصة قصير	٥٢٦
أمير المؤمنين ومؤلهوه	٥٢٧
أبيات دريد بن الصمة	٥٢٩
إعجاب الناس بأمير المؤمنين	٥٣١
قصة مؤلهي أمير المؤمنين	٥٣٤
أمير المؤمنين وصاحب الحلوى	٥٣٤
حكاية صاحب الحلوى	٥٣٥
أمير المؤمنين وأخوه عقيل	٥٣٦
مساواة أمير المؤمنين الناس بالعطاء	٥٣٦
حكاية عقيل مع أمير المؤمنين	٥٣٧
ارتحال عقيل للشام وحديثه مع معاوية	٥٣٨
ترجمة عقيل	٥٤٠
أمير المؤمنين والربيع بن زياد	٥٤٥
ترجمة الربيع بن زياد	٥٤٥
عيادة أمير المؤمنين لابن زياد	٥٤٦
نصيحة أمير المؤمنين لأخي ابن زياد	٥٤٦
أمير المؤمنين ومادحوه	٥٤٨
خطاب أمير المؤمنين لمادحيه	٥٤٨
إغارة معاوية على بلاد الخلافة	٥٥١
حديث مصر	٥٥٢
ولاية محمد بن أبي بكر على مصر	٥٥٣
مسير عمرو بن العاص لفتح مصر	٥٥٣
مقتل محمد بن أبي بكر	٥٥٥
ترجمة محمد بن أبي بكر	٥٥٧
هجوم أصحاب معاوية على البصرة	٥٥٧
استيلاء بسر بن أرطأة على الحجاز واليمن	٥٦٠
استخلاص جارية الحجاز واليمن من بسر	٥٦٧
هجوم أبي غامد على الأنبار	٥٦٧
ما فعله أبو غامد في الأنبار	٥٦٩
خطاب أمير المؤمنين في الجهاد	٥٦٩
سبب طاعة الناس معاوية وعصيانهم علياً	٥٧٦
المؤامرة على أمراء المسلمين	٥٧٦
كلمة في الأشقياء الثلاثة ومؤامرتهم	٥٧٦
ما عرفنا عن هذه المؤامرة	٥٧٧
موتورة النهروان ـ حكاية الخوارج	٥٨٠
من هي موتورة النهروان	٥٨٢
غرام ابن ملجم لعنه الله	٥٨٤
وصول ابن ملجم للكوفة وغرامه	٥٨٤
وداع ابن ملجم لحبيبته	٥٨٩
الحجج التي كان يحتج بها الخوارج	٥٨٩
المصطفى والمرتضى	٥٩١
كيف رأى المرتضى المصطفى	٥٩٣
جرح أمير المؤمنين	٥٩٣
كيف كانت الجريمة	٥٩٦
جرح معاوية وسلامته	٥٩٦
كيف جرح وسلم معاوية	٥٩٦
ترجمة معاوية	٥٩٧
نجاة عمرو بن العاص	٦٠١
كيف نجا ابن العاص	٦٠١
وصية أمير المؤمنين للحسنين	٦٠٢
مداواة أمير المؤمنين	٦٠٢
نص وصية أمير المؤمنين	٦٠٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
وفاة أمير المؤمنين ورثاؤه	٦٠٦
كيف كانت وفاة أمير المؤمنين	٦٠٦
ترجمة سيدنا علي	٦٠٦
غسل أمير المؤمنين ودفنه	٦١١
موضع مدفن أمير المؤمنين	٦١١
تاريخ الكوفة	٦١١
الروضة العلوية	٦١٣
الاقتصاص من الملعون ابن ملجم	٦١٦
كلمة في الحسنين	٦١٦
بيعة سيدنا الحسن	٦١٩
تنازل الحسن بالخلافة لمعاوية	٦٢١
فاجعة العالمين في مقتل الحسين	٦٢٥
كربلاء ـ ترجمة يزيد بن معاوية	٦٥٩
فضائل أمير المؤمنين	٦٦٢
كلمة في فضائل أمير المؤمنين	٦٦٣
عناية الله بأمير المؤمنين	٦٦٤
عبادة أمير المؤمنين	٦٦٦
أمير المؤمنين وتفسير القرآن	٦٦٧
أمير المؤمنين وقراءة القرآن	٦٦٩
علم أمير المؤمنين	٦٧١
أمير المؤمنين والعلم الإلهي	٦٧١
أمير المؤمنين وعلم الفقه	٦٧٢
أمير المؤمنين وعلم التصوف	٦٧٤
أمير المؤمنين وعلم النحو	٦٧٥
شجاعة أمير المؤمنين	٦٧٧
قوَّة أمير المؤمنين	٦٨٠
جهاد أمير المؤمنين	٦٨٢
حلم أمير المؤمنين وعفوه	٦٨٣
رأي أمير المؤمنين وتدبيره	٦٨٨
شدَّة أمير المؤمنين في سياسته	٦٩٠
الراعي والرعية في نظر أمير المؤمنين	٦٩١
سخاء أمير المؤمنين	٦٩٥
فصاحة أمير المؤمنين	٦٩٩
زهد أمير المؤمنين	٧٠٣
وصف أمير المؤمنين لزهده	٧٠٤
نصيحة أمير المؤمنين لعامله على البصرة	٧٠٥
لوم أمير المؤمنين أهالي البصرة	٧٠٥
محاسن أخلاق أمير المؤمنين	٧٠٧
تفصيل محاسن أخلاق أمير المؤمنين	٧٠٧
منزلة أمير المؤمنين عند أهل الذمة	٧٠٨
منزلة أمير المؤمنين عند الترك والديلم	٧١٠
محبو أمير المؤمنين ومبغضوه	٧١٢
حديث المصطفى ورواية الصحابة	٧١٢
شهادة سيد المرسلين لأمير المؤمنين	٧١٢
نص الشهادة	٧١٢
عجوز تصف أمير المؤمنين	٧١٣
قصة العجوز عند معاوية	٧١٣
نصائح أمير المؤمنين لابنه الحسن	٧١٦
نصّ النصائح العلوية البديعة	٧١٦
مقتبسات من حكم أمير المؤمنين	٧٣٤
المرء كثير بإخوانه	٧٣٤
حبُّ الخلود ـ ربَّ أخ لم تلده أمك ـ الصديق الخداع	٧٣٥
الحقُّ والباطل إن أفلت اللسان عقر ـ اللسان يجلب الهوان ـ العفو شكر القدرة	٧٣٦

الموضوع	الصفحة
مخالطة الناس ـ الدنيا وأهلها ـ من رضي من نفسه كثر الساخط عليه	٧٣٧
المسالمة خبء العيوب ـ القناعة مال لا ينفد	٧٣٨
المنى والمنون ـ الزهد ثروة	٧٣٨
السلامة في التسليم ـ صدر العاقل سره ـ الصبر ـ عيبك مستور	٧٣٩
ما أسعدك جدُّك	٧٣٩
نصيحة أمير المؤمنين لكميل	٧٤٠
إن الله يحبُّ المحسنين	٧٤٠
قيمة كل امر ما يحسنه	٧٤٠
وأمَّا بنعمة ربك فحدث	٧٤٠
لم يذهب من مالك ما وعظك	٧٤٠
البشاشة حبالة المودَّة	٧٤٠
أيها الطبيب اشف نفسك ـ خير الوصايا	٧٤١
الهيبة والحياء ـ الجبن منقصة ـ العقل	٧٤١
الجهل والأدب والمشورة	٧٤٢
الإفراط والتفريط ـ صروف الدهر	٧٤٢
المرء وعمله ـ المقلُّ غريب في بلدته	٧٤٢
المبذرون إخوان الشياطين	٧٤٤
إذا لم يكن ما تريد فلا تبل كيف تكون	٧٤٤
الشكوى لغير الله مذلة ـ من حذَّرك كمن بشرك	٧٤٥
ذوو المروآت ـ البخل عار ـ الفقير أخرس	٧٤٦
التكفير عن الذنوب	٧٤٧
الصبر شجاعة ـ انتهاز الفرص	٧٤٧
مسك الختام	٧٤٧
استدراك واعتذار ورجاء	٧٤٩